﴿ تصويب أهم ما وقع من الخطأ وتحريف الطبع وخفائه ﴾

(في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام)

بذكر الصواب دون الخطأ وقدمنا رقم السطر المعبر عنه بحرف س على رقم الصفحة المعبر عنها بحرف ص

(جعلناه منفصلا ليصحح بالقلم قبل القراءة، وتركنا بعض البديهي والحكمي)

في س ٣ صفحة (ج) من التصدير : القرن الخامس - س ١٧ صفحة (م) الذين آمنوا - س ١٢ ص ٦ هو مطية - س ١١ ص ١٨ الناس نسبا — س ٢٣ ص ٥٥ ودفع س ١٧ ص ٥٩ دناءة س ١٦ ص ٩٣ وهو يحتضر س ٥ ص ١١٠ طائحة س ٢١ ص ١١١ من أغري س ١٥ ص ١١٥ ويحلوا - س ٢٢ ص ١١٧ في اصطلاحهم س ١٧ ص ١١٨ غيبة س ٢٠ ص ١٣٢ الواضع س ٢ ص ١٤٢ ماسبيرو - س ١٨ ص ١٤٣ قراراته س ١١ ص ١٤٤ تألفت لجنة س ٩ ص ١٤٥ يتاحز — س ٦ ص ١٤٧ الانفجاني س ١٧ ص ١٥١ جيلتنا — و س ١٨ أنحاها بجملتها س ٢٢ ص ١٥٨ أجل وأوفى س ١٩ ص ١٧١ تدريج

س ١٥ ص ٢٢٤ M. Brodley — س ١٦ defended Orabi

س ٢١ ص ٢٥٦ (يرمج (يشطب) السطر كله لان كلمة منوفي الاصل صواب) س ١٢ ص ٢٦٦ كاحوكموا س ٢ ص ٢٨٧ بعد - س ١٠ ص ٢٨٩ لا يظنن أحد س ٢٣ ص ٢٩١ تجهله هذه الامم س ٩ ص ٢٩٢ بل ما يجري س ٢٣ ص ٢٩٤ المراسلات - المدوان الاجنبي س ٣ ص ٢٩٥ ولئن قالت فكم س ٣ ص ٣٠٨ المقالة س ١٧ ص ٣١٢ وكوى س ١٤ ص ٣٢٢ البشرية س ٢٣ ص ٣٢٣ فيما س ٥ ص ٣٤٢ ستار أكثف س ٢٣ ص ٣٤٨ عدة مقالات س ٢٤ لتمثيل ما كان س ١٣ ص ٣٦٩ يراق س ١٩ ص ٣٨٠ من ستة - س ١٢ ص ٣٨٣ الحجر - س ١٧ ص ٣٨٨ اجتثاث س ١٩ ص ٣٩٣ نفقتهم س ٢٤ ص ٣٩٥ يخوض - س ١ ص ٣٩٦ اختتمه س ١٦ ص ٤١٤ طريقها س ١٩ ص ٤١٨ يلبث س ٢٥ إياها على تكوين قوة بها في أمته لا رجاء في رفع السلطة الاجنبية عنه وعنها بدونها (*) س ١٦ ص ٤٢٦ حتى أهله س ٩ ص ٤٣٩ وضع س ٤ ص ٤٦٥ والمقارنة

(*) في هذا السطر تقديم وتأخير سببه سقوطه عند البدء في الطبع واعادته على غير اصله. ويحسن في تصحيحه أن يوضع على كل كلمة رقم على الترتيب الاصلي الذي هنا

س ٢٢ ص ٤٧٤ الشيخين س ٢٤ ص ٤٩٠ كان عونا س ١٧ ص ٤٩٨ متاقين س ٢٤ ص ٥٠٢ مذاهب س ١٧ ص ٥٠٤ الاصلاح الديني س ١٦ ص ٥١١ نفي الشيخ العظيم اشتغالهم — س ١٧ ص ٥١٢ ان الاستاذ وفي س ١٨ الاستدراك — س ٩ ص ٥١٩ الحنبلي — س ١٨ ص ٥٣١ كيلا يحرموا — س ٢٣ ص ٥٣٣ لوجدتها — س ٢ ص ٥٤١ وأوهام س ١٧ ص ٥٤٤ تقرر س ٦ ص ٥٦٨ علمه س ٨ ص ٥٧٣ لحث لي أم س ١٨ نص القانون س ١٣ ص ٥٧٨ الوجدان يقبل س ١٨ ص ٥٨٢ اركسترة س ٢٥ ص ٦٥١ شرا س ١٨ ص ٦٥٥ المشروع س ٧ ص ٦٦٣ في الدين س ٢١ فان طالب الخير س ١٥ ص ٦٨٠ أمر الدم س ٢٢ ص ٦٩٣ الرئيسين العظيمين س ٢١ ص ٧١١ قصد س ٨ ص ٧١٢ والنصارى س ٢٠ ص ٧٢٠ فيما هو عون س ١٦ ص ٧٢٥ يبوئه دار الكرامة س ١٤ ص ٧٥٣ إحياء س ٢٠ ص ٧٥٧ الذين س ٣ ص ٧٥٨ الشيخ حسين س ١٣ ص ٧٤٩ كلام غير المعصوم س ٢٠ ص ٧٧٨ سنة ١٣٠٦ — س ١١ ص ٧٩٢ أجد — س ٢٠ ص ٧٩٦ وليراجع القارىء قصة س ٢١ ص ٨٠٢ مقالة س ٦ ص ٨٠٦ كتبت اليوم س ٨ ص ٨١٤ ثم ذكر — س ٢٤ ص ٨١٥ وسط — س ١٤ ص ٨١٩ عالما إنسانيا — س ٦ ص ٨٢٥ يؤولوا س ٢٥ ص ٨٢٥ يستأذنه س ١٧ ص ٨٢٦ ان يهديهم س ٥ ص ٨٥٦ ويعلمهم العلم اللازم س ٢ ص ٨٥٧ ويا ليت س ٤ ص ٨٦٥ تعلمه للغة س ٢٥ ص ٨٨٢ بذكراته س ٢١ ص ٩٠٨ إلى جحرها س ٢٣ ص ٩١٥ الصفتان اللتان س ١٢ ص ٩١٧ اللذان كان س ٢٣ ص ٩٢٧ تذاكرنا فيه س ٢٣ ص ٩٣٦ فختمتها س ٧ ص ٩٣٨ بان اسمه س ٤ ص ٩٤٥ بجملة س ٩ ص ٩٤٦ والمرشدين س ٢٠ ص ٩٧٦ مذكراته فيها س ١٦ ص ٩٨٤ أوعاداته س ١ ص ٩٨٧ عبده س ١٦ ص ١٠٠٣ أخالفكم فيه س ٢ ص ١٠١٣ ويعلمهم وس ٥ تفسير القرآن س ١٨ ص ١٠٢٠ ما كان من س ٧ ص ١٠٢١ رشيداً س ٢٠ ص ١٠٢٥ كتابة س ٢ ص ١٠٢٩ لا يعلوه س ١٥ ص ١٠٣٢ تربيته س ١٣ ص ١٠٥٤ لم يتعودوا س ١٤ ص ١٠٦٢ عوض افندي واصف س ٢٥ ص ١٠٦٤ أدونها س ١٠ ص ١٠٩٠ دلسبس القرلسي س ١٩ ص ١١٠٣ سعيد الشرتوني

تاريخ

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الجزء الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الاسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

تصدير الكتاب

ببيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام

(وشيخنا الاستاذ الامام، ووجه الحاجة اليه، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ (٢٨: ٥) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (٧: ١٧٠) وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ (٣: ١٤٠)

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتيهم قوى المشاعر الحسية والمدارك العقلية بالتدريج حتى يبلغ احدهم أشده، ويستكمل رشده، ويستقل بنفسه بالعلم والعمل والتجارب، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعد له وصالح لحاله وزمانه، على مثال سنة التدريج في الافراد، إلى أن استعد النوع البشري في جملته ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها، في كل زمان ومكان بحسبهما، فوهبه هداية القرآن، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام

ولما كان من طباع البشر أن يضعف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم، ويتأولوا كتبه باهوائهم، أنعم عليهم بما يحيي هداية النبوة فيهم، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين، وأئمة مصلحين، يرثون الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض، ويكونون حجج الله على الخلق، وقد بشرنا نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيما جدده من دين الله تعالى للامم كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الامد، فقست قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو امية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما اخلق بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الامة ، باتباع ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على مايتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية ـ وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلل الكتاب والسنة السنية ، في جميع العلوم والاعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء الامثال في التجديد الديني العام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً انحصر في قطر اوشعب ، او موضع كبير او صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبدالوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهنالك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، او تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون، كبعض خلفاء العباسيين والامويين، ومنهم

من جمع بين انواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة العبيديين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها مجد الاسلام

ضعف الاسلام السياسي وملكه

ثم اتسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاوطان، ووحدة ملته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفروع، فتعادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فسلط الله عليهم أعداءهم فثلوا أكثر عروشهم، وانتزعوا منهم اكثر بلادهم (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (٨:٥٣) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون في العلم كما تقدم وفي الادارة والعمران كمحمد علي باشا بمصر ـ وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية ـ وفي السياسة كمصطفى رشيد باشا وعالى باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس ـ وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي

حال البشر الاخير وما يقتضيه من التجديد

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام ـ دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران ، قوامه العلوم الكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتادها، ما يمكن الجند القليل من إبادة جند يفوقه أضعافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

ن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والحمر الموكفة والخيل المسومة ، فيذلون بالجماعات المذللة منه الجماعات المتمردة ، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي نزحوا منها فاتحين مستعمرين ، ويتصرفون في قواه المعنوية ، وروابطه القومية والدينية ، كما يتصرفون في حرثه ونسله ، ولحمه ودمه ، وأرضه وماله ، وهكذا يتصرف العلم بالجهل ، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من مراكب النقل والتسيار ، وآلات رفع الاثقال ، وأجهزة تبليغ الاخبار ، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا اليه من الاعمال الحربية ، والتصرفات السياسية ، والوسائل الاقتصادية ،وصارت المسافة بين القارة والقارة،اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ماعبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما ، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة ، لا ينهض بمثله أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها ، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات،ويتكل على الكرامات ويغتر بالمنامات ، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية،ومفترق الافكار بنظريات الفلسفة ، ولا يطلع ثناياه ، ويجتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع ،واستنباط أحكام الوقائع ،ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعلما آليا ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دواوين حكومتها .

إن هذا لبدع من الخطوب الكبرى غير عادي ، لاينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي : أمم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد ، والسلاح الجديد ، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال ، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أمم جاهلة ، متفرقة متخاذلة ، مختلة النظام، مستعبدة للمستبدين ، منقادة للخرافيين ، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصعتها»[1] فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل: يارسول الله وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »[2] فمن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى ويحشرهم من قبورهم

ألا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدركات من الوهن، وبعثها إلى مجاهدة أمم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة ، يجب أن يكون ذا روح علوية، أوتيت حظا عظيما من وراثة النبوة ، في كمال الايمان، وصحة الالهام، وعلو الهمة ، وقوة الارادة ، وصدق العزيمة ، واخلاص النية ، وقوة الفراسة، والزهد في الشهوات البدنية، واحتقار الزينة الخادعة، والزهد في الجاه الباطل، وعدم الخوف من الموت، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي ، وسنن الله في الاجتماع ، وفصل الخطاب في الاقناع ، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير ، وقوة التأثير ، ثم يكون ما يحذقه من سائر العلوم مدداً له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي ، الذي تمثل للافغان في ناسوت بشري ، جلس في دروس العلم فحذق العلوم والفنون القديمة نقليها وعقليها في بضع سنين، وألم بالهند لتلقي مبادي العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في زهاء سنتين ، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في سفره زهاء سنة يتقلب في البلاد الاسلامية، لاكتناه أخلاقها وعقائدها الدينية، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية

ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية، وموبوءة بالدسائس البريطانية، فكاد بتدبيره يخلص الامر فيها الأمير ها محمد أعظم خان الذي بوأه مكان الوزير الاول عنده ، لو لا ما عارض ذلك من الدسائس الانكليزية ، التي تمدها القناطير المقنطرة من الجنيهات الاسترلينية ، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تتداعى أي يدعو بعضها بعضا. والاكلة بفتحتين جمع آكل (٢) رواه ابوداود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطر بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته ، إلى حيث يمكنه الاصلاح من أوطان امته ، فمر بالهند فبالغت حكومتها الانكليزية في الحفاوة بضيافته ، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه ، ومنع علمائها من الاتصال به ، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبرائها روح الاستقلال ، والجرأة على كسر مقاطر الاستعباد ، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتلقين الافكار ، لمن يلاقي من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد ، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في المنار ، وناهيك بالعروة الوثقى التي كادت تضرم نيران الثورة فيها ، وكان موقنا باستقلالها من بعده ، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري : يا ولد أنك ستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية ، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند ، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك انه حمله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها الى الغراندوق فلان ، واعلم انك إما ان تقتل ، وإما ان تفوز وتغنم ، فأوصلها فقام الغراندوق لها وقعد ، ثم اعاده بها إلى بلاد اليونان ليطبعها فيها باللغة الروسية ويرسلها اليه ، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري ، ولقي اهوالا كادت تذهب بحياته

جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية ، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية ، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة ، كما ارشد المسلمين منهم الى الاصلاح الديني ، والجمع بينه وبين العلم العصري ، وكان من أثر هذا ما شرحه هذا الكتاب

ذهب الى ايران ، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران ، فما زال يفعل فعله فيها بين قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر الدين خان ، وما زالت تتنقل في أطوار التجديد والاصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية فأنشأ يرشد السلطان الى وسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية ، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة ، حتى انه أقنع كثيراً من علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجعلها مناط الوحدة الجامعة

للمسلمين ، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة فأعرض عنها، و كان السيد مع ذلك يبث هنالك أفكار الاصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى ان قضى نحبه ، ولقي ربه ، رحمه الله وقدس سره

الاستاذ الامام

أرأيتك هذا المصلح العظيم، والمجدد الحكيم، انه لم يظفر في شعب من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له، ومتمما لاصلاحه بما يرجى به دوامه، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلقت بطلبه القلوب ، على كثرة من المصطبغين بصبغته ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب إمامة الاصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعليم وحدها ، بل لابد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ،وصادف تربية صوفية نقية ، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي ، وأعدته لوراثة هداية النبوة ، فكان زيته في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي، وكيف كان اول حديثه معهما السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لهما قصور كل ماقالوه، وجاء من عنده بخير منه ، وكيف اعجبا كلاهما بما قال، ولكن الشيخ حسنا ظل على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استعداده ، وكان أرقى علماء الازهر عقلا وعلماً وزهداً

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشعر بأن كل ما اصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير [1] دون ما تسمو اليه نفسه ،

(١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان اصلب الازهريين جموداً كما كان الشيخ الطويل اشدهم استقلالا

ويتطلع اليه عقله ، وتضطلع به همتــه ، و كان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده ، ذلك ان روحه كانت مستشرفة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في إصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم ﷺ فاتصل بالسيد جمال الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية تربية الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، إذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة صالحة مكان غيرها (راجع ص ٩٧٤)

تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ: «والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس(١) السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً وابراهيم وموسى وعيسى (ص) والاولياء والقديسين . ما رثيته بالشعر لانني لست بشاعر ، مارثيته بالنثر لانني لست الآن بناثر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر » اه بنصه تقريبا(٢)

هذه الوراثة هي التي أخرج الله تعالى بها محمداً عبده من خمول تصوفه وجمود أزهريته الى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والاصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتقاذفه أمواج الاسفار ، وتكافحه فتن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العمائم الجامدين — من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة قابعا في كسر بيته ، راضيا بخموله وراحة نفسه . وإن في الصلاة لراحة ، وان في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابهما قاصر على صاحبهما ، وثواب الجهاد متعد لكل من ينتفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح العلوي كان يقول له أستاذه السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعبوط: قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد انني لاجل أمرك قد عفوت عن شاه ايران ، ويقول له السلطان: بحق يخاف منك الشاه خوفا عظيما (٣)

(١) هما أخواه اللذان يشتغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وفقدت المكتوب وبقي المحفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والسلطان على الحكومة المصرية من أعلاها الى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشدا عمالها، يخطئ لغتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم، ويفند أعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم. بل ازعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظار رياض باشا فما أشكاه، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الاصلاح، وأقنعه بانشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الاعمال، فأنشأه برأيه، وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الاكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه، وأعلن فيه عفوه عمن وشوا به وأساءوا اليه على ما كان من احسانه اليهم، وجزم بما اعدت له العناية من المجد، واعداً بان سيفعل المعروف، ويغيث الملهوف . . . وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدبر في كل مجلس رسمي عين عضواً مرءوسا فيه كمجلس إدارة الازهر ومجلس الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين. تجد إثبات ذلك في بيان اعماله فيها من هذا الكتاب، سافرة الوجه ليس دونها نقاب

بل بهذا الروح العلوي كان اميره يكبره ويهابه ويقول انه يدخل علي كأنه فرعون. وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون، متوكئا على عصا الحق، داعيا الى الاصلاح والخير، ناهيا عن الاستبداد والبغي – كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالعلماء : ان مجلس إدارة الازهر لا يعرف لسموكم أمرا عليه، الا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم

* * *

تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد، فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الاعلى الذي اذكى سراجه الوهاج، واتحدا في عمل من الاعمال؟ ذلك ما كان من اصدارهما جريدة العروة الوثقى التي لا نعرف في تاريخنا كلاما بشريا ابلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس ،

ومواضع الاقناع من العقل ، وتجرئة الضعفاء على الثورة على الاقوياء ، والجهاد لتحرير أمتهم ، واستقلال بلادهم

فان سألت عن تأثيرها في رعب العظمة البريطانية ، وإثارة العالم الاسلامي والشعوب الشرقية ، فانك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع نهمتك السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الادبية من إطناب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)

وانه ليبسط لك بالروايات الصحيحة، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا اليه في هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الاصلاح المنقذ للامم والشعوب من رق الفاتحين المستعمرين ، وظلم المستبدين القاهرين، وجمود الفقهاء المقلدين ، ودجل المتصوفة الخرافيين، فاطلبه من هذا التاريخ فانه يقصه عليك مفصلا تفصيلا

فاقرأه أيها الغيور على قومه ووطنه فصلا فصلا، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً مقصداً ، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الامام الاجتماعية والادبية، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم، ورسائله الدينية والادبية للعلماء والادباء . ثم ارجع البصر إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني، وتأمل إجماع كتاب الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تزكيته وتقديسه، او تدبر مقدمتنا لكل منهما - تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء الملة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحته على مصر في خاتمة هذا الكتاب لعلك تكون من حزب الدعاة المصلحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال الله تعالى فيهم (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق العادات ، كابراء الاكمه والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون للوثنية والدجل

الا وإنه قد نجم في هذين القرنين قرنان او قرون من أدعياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وانهم إلا مسحاء دجالون، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الاصلاح الديني، وتمثلوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي، وانتحلوا لدعايتهم آيات، واخترقوا لانفسهم معجزات، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الالوهية، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الانسان، الكافرين بنعمتي العقل والقرآن، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين بالعلم والعقل، وان الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجسا على رجسهم، وعبودية للاجانب على عبوديتهم، فكانوا دعاة وأنصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم، المستعبدين لاقوامهم، فوالله لو عمت فتنتهم لاستولى الانكليز على بلاد فارس كلها، ولما وجد في الهند من يطالب الانكليز باستقلال، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال

أليس من مثار العجب الذي جاء بها ابو العجب[1] ان يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لأنفسهم نظاما، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالا، وينفروا للدعوة اليها خفافا وثقالا؟ فيكون لهم في كل واد أثر، وفي كل قطر ذكر، وينضوي اليهم بعض الملاحدة طمعاً في أموالهم، لا إيمانا بمسيحهم او الههم؟

أو ليس باوغل من هذا في أعماق العجب واولغ في احشائه أن يتخاذل العارفون بقدر حكيمي الشرق، واماميْ الاسلام بالحق، عن تأليف حزب لتعميم اصلاحهما، واستمرار تجديدهما، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم، ومدارس تربي النابتة على منهاجهم، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بعلاجهم؟ على استقلال الفكر، وحرية العلم والرأي، وهداية الدين، وتوطين النفس على الجهاد لاعلاء كلمة الحق. واقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لا تدين لاجنبي معتد، ولا لوطني مستبد؟

(١) ابو العجب الشعوذي وكل من يأتي بالاعاجيب

نعم إن ذلك لعجيب ! وان هذا لاعجب منه. ويشبههما في العجب أن المنتمين إلى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاونا وتناصراً وعصبية ودعاية : أفلا أنبئك بالسبب، الذي ينتاشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين توحيد العبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع للعقيدة ،والنظام الاجتماعي الذي تقرره الشريعة ، فلا تذل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته ، ولا لسلطان ورائي أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه .

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا الى بعضها فأساسها العبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر، يقدس منتحلها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر . فتكافل هؤلاء يكون تاما شاملا لانه تعبدي، وعصبيتهم تكون أقوى لأنها وجدانية لا عقل للافراد ولا رأي للجمهور فيها .

ويرد علينا ههنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة، خير للجماعات وللشعوب التي تأخذ بها من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية، من حيث جمع الكلمة ووحدة الامة . ونرد هذا الايراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان . وما تنازع هؤلاء مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل مايقرره شيوخه بعنوان مذهبه وإن لم يكن منه، سواء أعقله أم لم يعقله،فإن نازعه فيه حكم بكفره، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها، إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لعصبيات لها رؤساء يطاعون باسمها،وأكثرهم يجهلون اصولها وقواعدها . ومن تلقى منهم شيئا منها فانما هو لفظ ينقله ولا يعقله،

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الارادة في عمله. ومن نتائج هذا الخضوع ان صاروا خانعين للمستبدين ، وظهراء للظالمين، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الاصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام دينا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه. وهو الذي دعا اليه الحكيمان المجددان الافغاني والمصري، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الاقلين وخصومهما منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد ـ ويقابله أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدروهما قدرهما، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العاليـة التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشرهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلة من المدنيين وقليل من المعممين

ولو كان مادعا اليه الحكيمان هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لألف له هؤلاء الانصار حزبا كبيراً منظما كما فعل سعد باشا من تلاميذهما بعدهما

ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يتبعها الالوف وألوف الالوف في زمن قريب، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لهم تعبده الخفي، ومعرفته بأسرار التصوف، وغير ذلك من خصائصه الروحانية، التي كان يعتقد وجوب كتمانها لانها غير طبيعية فاظهارها للمقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يعد من الكرامات عندهم، وقد نقلت هـذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة. والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما، فقد كان في الازهر لا يعلو قوله قول ولا يغلب رأيه رأي . وكذلك كان بين الراقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والمنشئين، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدين الديني والمدني

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

وخلاصة ما أريد عرضه على قراء هذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والدنيوي. هذا ماصرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في المنار. بل هذا مايعتقده أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولا وكتابة، كما يراه القاري، فيما كتبه بعضهم في تأبينهم الاستاذ الامام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات المعدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء

فالجهاد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والاصلاح المدني لايتم لهم النصر فيه، ولايتسق أمره وتثبت بوانيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الاصلاح الديني، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر لهؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الخاطبة، واقلامهم الكاتبة، مالم يكونوا يحتسبون،

واختصر في هذا الموضوع هنا لانني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ

فراجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وانما الاعمال بالخواتيم

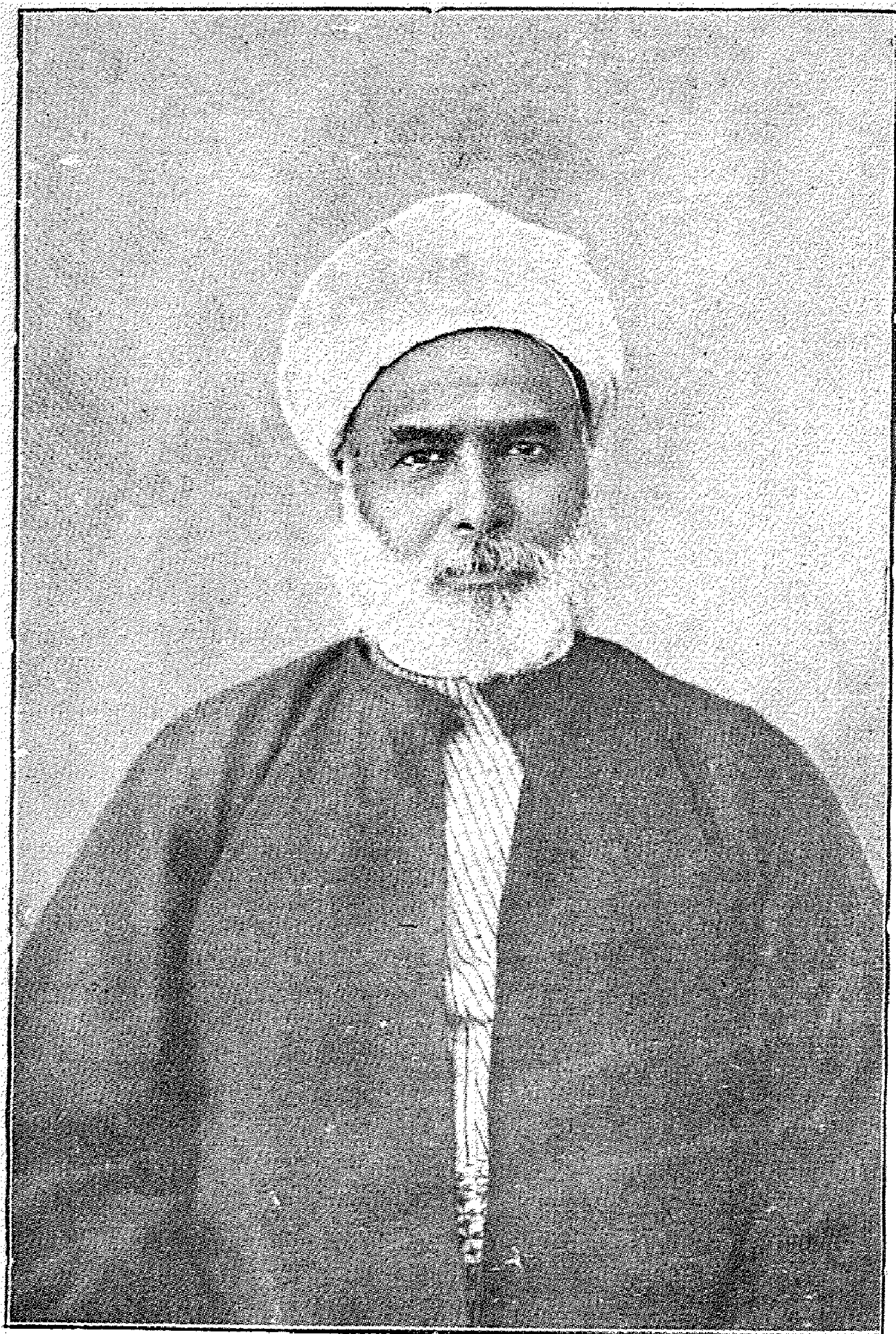
(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

﴿ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ﴾

﴿ المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ ﴾

(١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .
(٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجعلها أصلا لخلاصة لتاريخه طلبت منه
(٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العرابية ومذكراته الوجيزة فيها
(٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها . وبعض المكاتبات بينه وبين أعضائها
(٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يعطيني إياها لتبييضها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ماهو خاص بالازهر
(٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر
(٧) جملة من المكتوبات والرسائل والقصائد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده
(٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منثورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالات له
(٩) مقالاته الاصلاحية في جريدة الوقائع المصرية
(١٠) مجموعة العروة الوثقى برمتها بخطي وخط بعض اخواني
(١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه
(١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر
(١٣) تقرير محمد بك ابو شادي في مسألة فتوى طعام اهل الكتاب
(١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أقوال الائمة في الفتوى الترانسفالية لجماعة من أكابر علماء الازهر
(١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه
(١٦) عدة أجزاء من مجلة ضياء الخافقين فيها مقالات للسيد جمال الدين
(١٧) مجموعات المجلات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته
(١٨) كتاب الدفاع عن العرابيين لمحاميهم مستر برودلي
(١٩) ما كتبه لي أصدقاؤنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سورية بعد النفي ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه
(٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدته من معاشرته ٨ سنين


السيد جمال الدين الأفغاني



المرحوم

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

ولد سنة ١٢٦٦ وتوفي سنة ١٣٢٣

هجرية



السيد محمد رشيد رضا

مؤلف الكتاب سنة ١٣٤٥

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٢٦ : ٨٣) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٢ : ١٠١)

فلك الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للآخرين ، ومننت على عبادك بمن بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ، ورحمتك العامة للعالمين ، فصل وسلم اللهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجددين لهديه واصلاحه من بعده ، حتى ترث الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

أما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين المجددين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده المصري ، فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي، لا يفتؤن يشيدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي اعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون يجعلونهما مضرب الامثال ، ويتناقلون مايؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلائل الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق، غير مجهول في عالم الغرب، وان لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما، ومغنيان عن تسميتهما

وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة العصرية في مصر والافغان وإيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع تاريخ لهما يدون سيرتهما ، ويفصل أعمالهما الاصلاحية ، ويرون ان ما كتب في الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر يسير من أعمالهما وآرائهما النافعة . وعجب بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج يكتب في تاريخهما مالم يكتب مثله أولادهما وأحفادهما من دعاة الاصلاح والتجديد

وينحون باشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ كان أخص مريدي الاستاذ الامام وناشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفراً جمع فيه أكثر منشآته القلمية، وجزءاً جمع فيه أهم ما قيل وما كتب في تأبينه ورثائه، وسماهما الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لمصر على هذا القصير حق. واني بما يخصني من التثريب علي لاجله وهو أكبره أحق. ورب لائم مليم. ورب ملوم معذور . وها أنذا ألخص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الاصلاح ماصلي نارها معه غيري . وحمات ما تصديت له من الضرر . غير متململ ولا ضجر. وأما ما لذع قلبي من نار فقده فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم كنت مهدداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هددت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحول عن خطتي قيد شعرة

أعلنت عزمي على كتابة تاريخ للاستاذ الامام فلم ألبث أن بلغت عن الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقاءه قد قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت للمبلغ ان تأليف تاريخين لهذا الامام الكبير ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا ماعندهم وأنا أكتب ماعندي

ثم أرسل إلي عميد حزبه المدني وأقوى أركانه سعد باشا زغلول وكان عادمع شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فجئته فبلغني أنه هو واخوانه من مريدي الامام وأصدقائه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال ، بشرط أن أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . ويعدون من بعده مسؤلين عنه

فاجبته انني لست الا واحدا منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغني عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصلحتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبدالكريم سلمان وحسن باشا عاصم ومحمد بك راسم وقاسم بك أمين والشيخ عبدالرحيم الدمرداش (باشا) وقرروا ندب أحدهم احمد فتحي باشا زغلول ليكون نائبا عنهم في التعاون والتشاور معي في العمل وبلغوا حموده بك عبده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ ، وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثرهم مودة وزيارة لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي، وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الخديو ومحيطا بسياسته وسياسة الانكليز في الامور علما . وهما الجانبان اللذان يحسب لرضاهما وسخطهما كل حساب

وكان كل ما قدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية إذ كان يقتني مجموعتها . وكان أول ماشاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فاما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسألة مصر والسودان وتهييج العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شيء منه في منشآته لان الحرية في مصر لاتتسع لنشرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها . وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني حموده بك بعض المواد ومن أهمها ما كتبه الاستاذ من تاريخ الثورة العرابية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكيمان فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدنيتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد اتفقنا على نشر أكثرها . وترك ما تعدها انكلترة تحريضا عليها منها . ولكنه أشار أيضا بحذف جمل من بعض المقالات ماوافقته عليها إلا كارها. وأيقنت انني لايمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبته والتقيد بمشاورته بالحرية التي أريدها وقد ساعدتني اللجنة بمبلغ من المال أعطيتها في مقابله مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالمجان، وبيع بعضها بثمن بخس

فهذا ما حملني على التعجيل بجزء التأبين والرثاء والتعازي ثم بجزء المنشآت والتسويف بجزء الترجمة ثم التطويل في فصول تربية الاستاذ الامام وتعليمه منه بذكر ذلك الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه

واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو ورتبه وأشار بالحبر الاحمر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السر ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تتم على وفاة الامام سنتان، فكبر نفوذ سموه في الحكومة وضاقت بكبره سعة الحرية علينا، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقتنع أحمد فتحي باشا نفسه بان كتابة تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذراً ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبدالكريم سلمان إذ رأيته شاكا في بدئي بطبع الكتاب فاعترف بانه لايمكن نشره

وجملة القول ان طبع هذا الجزء كان يسوء الخديو عباسا وإن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والاوقاف حتى المساجد فان نشر هذا فيه كما يراه القارىء هنا فانه كان يبذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحمد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشا أيضاً، ومكانهما في حكومة جنابه مكانهما
وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مصر في اثنائها خاضعة لاحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بامرها على المطبوعات، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى مابعد الحرب بزمن طويل

وانما سنحت الفرصة الاولى لاصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ هـ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد مايخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادرته، على ان ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حريتهم. بيد أنه قد عاقني عن افتراص هذه السانحة بالسرعة عدة عوائق منها انني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم نقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به. وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى. وقد وجدنا بعض المطبوع تالفا وبعضه قد فقد، فاضطررنا الى اعادة طبع أكثرها

وشرعت في اتمام الكتاب في أواخر سنة ١٣٤٨ وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة سنة وعدت اليه في اواخر سنة ١٣٤٩ وكنت أقدره بثمانين كراسة (ملزمة) أو مائة، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواده ومسائله ما كنت ذاهلا عنه حتى بلغ ما يراه القارىء، وقد صبرت نفسي وحبستها على كتابة ثلثه الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملا آخر حتى تم طبعه في هذه الايام، وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت باثباتها في جزء الذيل الذي اضعه له ان شاء الله

كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال، والاناة والاستعجال، ولم تكن مواده مجموعة مرتبة وانما جريت في ترتيب أكثرها على ما كتبته في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته، ومنها ماليس له ذكر في تلك الترجمة، ومن ثم يجد القارىء فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي، وأرجو أن لايكون فيها شيء من التناقض فانني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للمعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتي صار يثقل حمله، وعطلت أهم أعمالي لاجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الازهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، واعد ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا ، ثم أبين ما كان من تغيير الاصلاح لبعض ما ذكر وأعد فوائده واحدة بعد واحدة ، ومثله أن ألخص آراءه في التربية والتعليم فاعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ما ذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، ولكنت أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، واذا لكانت الفائدة اتم والنفع أعم، واذ تعذر على كتابة هذا فانى أوجه همة الراغبين في مثله أن يتولوه لانفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته . وعسى أن أوفق لهذا في الذيل الذي أرجو أن يكون هو المكمل له

وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته وشمائله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق ، الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس ، وأنا أعلم ان منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وان كان صوابا عندي ، ومنها ما ينتقد علي نشره لان مثله غير معتاد، أو لانه من مبالغاته التي ربما كان يقصد بها التاثير الخاص، ككلمته في تحريف الفقهاء، وهذا نادر

ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القاريء به خبرا، ويحكم عليه حكما صحيحا ، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم ، واخفاء هناتهم ومثالبهم . انما هم شعراء مداحون ، لا مؤرخون حقيقيون .

فاذا رأى القاريء انني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام ، الذي قبله وأجازه الرأي العام . أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الازهر — وانني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقا بزعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة ، صرحت بانه كان كأستاذه لايخلو من الحدة. ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع ، المغريتين لصاحبهما بايثارها على المصلحة العامة — وأنني على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبده ومحافظته على تهجده . صرحت بانه كان يجمع بين الصلاتين في الحضر أحيانا ترخصا اجتهاديا خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثا صحيحا أخذ به غيرهم من الائمة

اذا رأى القارىء هذا وذاك أيقن انني لم أكن محابيا له في هذا التاريخ، ولا سالكا فيه مسلك الشعراء ، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة ، الذين يصورون آئمتهم وزعماءهم صورا مكبرة مزينة مجملة بما يظهر محاسنهم ويخفي مساويهم ، أو يبدل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقربين » وانني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة ولا الورع والشرف. ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد . فهو أكمل من عرفت من البشر . ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى ، او الحكمة والفلسفة ، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر . فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة ؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته ، وانما كانت دعاية صدق ودين ،وجهاد وجلاد ، لزعامة تجديد واصلاح . لازعامة رياسة وجاه ، ومناصب ومال ، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح ، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيتعجل لنفسه الاجرام نقدا ، لاجل ما يرجو لغيره من الاصلاح نسيئا ؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمر اصلاحك في حياتك ؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه ، وحسبي أن يتم فيجنيه من بعدي

وجملة القول ان هذا الرجل اكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلما وعملا وصدقا واخلاصا .وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضريب، وانه لهو السري الاحوذي العبقري الحقيق بلقب «المثل الاعلى» من ورثة الانبياء في هذا العصر وان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه،وقد ابتذله الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه .

***

صنوف قراء هذا التاريخ

.ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجديد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها ، وهؤلاء يشكرون لي عملي ويرون أني أحسنت فيه وأصبت . و يعفون عما عساني أخطأت فيه أو قصرت، ويساعدونني على نشر الكتاب، لانه خير عون على اثارة الهمم، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا، من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

ويليهم المستعدون للاصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . ولكنهم غافلون عنه لفقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية، وأوضح هداية، فلا يلبث قارئه أن يكون منا وينصرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة

ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان امامنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فان الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا التقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليها ، مالم يكونوا دعاة للالحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما، وان لم يكونوا من مريديهما والمقتبسين منهما مباشرة. بل كان المخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لاكمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تابين احرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصرون على التقاليد والخرافات، المطبوع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات، فقد يوجد فيهم من يلتمس لنا العثرات ، ويبدل حسناتنا سيئات ، ويكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدمغ الباطل والنور يطرد الظلمات، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين الخرافيين. يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الاواتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء تحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للاصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوهم مررنا كراما. ونسأله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

سيرة الاستاذ الامام

بدء الشعور بالحاجة اليها ومطالبته بالشروع في تدوينها

ما كان الاستاذ الامام يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدون، لانه كان يستصغر عظائم اعماله لتوجه همته الى ماهو أعظم منها . ولا أعظم منها الا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشمائله فكانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله مافي اظهارها للناس من المثل الكامل والاسوة الحسنة . فبينا هو غافل عن هذه ومستصغر لتلك اذا به يطالب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضل عليه بترجمته . ثم اذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . واذا بالمقترح جاد يلحف في السؤال ويكرر الاقتراح ،فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه ومريديه وهم أولى الناس بعرفان فضائله ؟ أم من صنائع أياديه فكان من حق الشكر عليها تعريف الناس بفواضله؟ أم كانا من أولي النزعة الوطنية والعصبية القومية، فاحبا أن يباهيا به الاوطان، ويفاخرا به الاقوام؟ لاهذا ولاذاك

جاء في الامثال « مغنية الحي لاتطرب » والعجيب اذا ألف لايعود يعجب ، ولذلك يكون اجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من اجلال أهله وقومه ، وقد كان للاستاذ الامام نصيب عظيم من اكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه ، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجاهه ومنصبه ، لالعلمه وحكمته ، واكثر اغتباط اصحابه الكثيرين به لعلو مروءته ونجدته ، لا لاجل اصلاحه وجهاده ، فكان لا كثر الفريقين حظ شخصي من تعظيمه

وأما اعجاب الغرباء به فالباعث عليه فضائله الذاتية . لا فواضله العرضية . وقد كان الذي طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجل من فضلاء الاجانب لا من متبعي ملته ولا من اهل وطنه . والذي طالبه بتفضله عليه بخلاصة من سيرته ليزداد علما بمناقبه . وتأسيا به في عمله ، رجل كريم يشاركه في الدين دون الوطن . فكان هذان الاقتراحان سببا لعلمنا بما لم نكن لنعلمه لولاهما

أما هذا المقترح للخلاصة فكان سببا لحمل الاستاذ نفسه على كتابة مذكرة في خلاصة سيرته أعطانيها لازيد فيها ماعلمته منه بالمشافهة والمشاهدة . وأبيضها ليرسلها اليه ، ففعلت، وبقي عندي الاصل وقد ازددت به علما . وكان مادة لي في هذا التاريخ فيما سبق صحبتي لصاحبه من الزمن،وأما المقترح لتدوين كتاب حافل في سيرته التفصيلية فقد كان بالحاحه وماشعر به الامام من اخلاصه،سببا لشروعه فيه، ولكن كثرة أعماله وضيق أوقاته عن الاتساع لها كلها قضت بان يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر ، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الاول الذي موضوعه أهله وبيته . وانني أبدأ به وهذا نصه تجاهك:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي الضعفاء اذ رجعوا اليه ، ونصيرهم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه، وأخلصوا له العمل ،ومحصوه من شوائب الحيل ، ولم ييأسوا من رحمته،ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله،الهادي الى الحق وسبله، الداعي اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه .

و بعد فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للاجيال طريقته : فإني لم آت لامتي عملا يذكر ،ولم يكن لي فيها الى اليوم أثر يؤثر ،حتى أكون لأحد منها قدوة، أو يكون لاحد فيّ أسوة ،وهذا الذي أجد من استصغار أمري، وخفاء أثري، وظهور عجزي عن بلوغ مايرمي اليه فكري و يطمح اليه نظري كان يمنعني من أن أكتب شيئاً يتعلق بحياتي ،تعرض فيه بداياتي، وشيء من أعمالي بعدها وصفاتي،حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتي . وكنت أقول :وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه في قصة أستعيدها، وما الذي عساه يبقى مني، وأنا في قومي لم أترك مايؤثر عني .

ولكن عرض لي أن زرت يوما بعض معارفي من الغربيين ممن نظروا في الآفاق،و بحثوا في العادات والأخلاق ،وجابوا لذلك الاقطار، وركبوا الاخطار ، وتجشموا مشاق الأسفار ،وحققوا في ذلك ونقبوا ،وكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوا، فدار الحديث بيننا على شؤون بعض الأمم الحاضرة ،ومايجري فيها مما أدت اليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ماعندي في ذلك وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات، في أيامي الخاليات،فرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر،ولا ينبغي أن يهمل ويهدر، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يتمنون أن يروه منقولاً الى لغتهم، مقروءًا في قومهم بلسانهم، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا في سيرتي،معروضا في تضاعيف وصفي لمعيشتي، وما تنقلت فيه من أدوار،وما اندرجت اليه من آراء وأفكار ،مع اسناد

كل شيء الى سببه، ورد كل أمر الى أصله، وسألوني مع ذلك ان اكتب ما أعرف من نسبي وما كان عليه بيتي ومنزلة أهلي من قومي فقلت سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » اولئك قوم يعرفون الاقدار، ويقدرن الآثار، لا يبخسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له في نظرنا، وفيما نعده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذي الفتهم الى دعوتي لتحرير سيرتي — نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاه بكبريائه وعنجهيته، ومغرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنه وشيخوخته، وما استحثني على اثبات شيء مما غشيني الا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه يفارقني في الاصل والمنشأ(١) وكان من كلامه في استنهاضي لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا انتفع به من يأتي بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه فكنت ادافعه بما قدمت من الأعاليل، ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في الالحاح علي حتى قال لي أحدهم ثاني يوم(٢) « لعل الفصل الاول قد تم » يريد بذلك لعلي بدأت في العمل عقب مفارقته وأتممت الفصل الاول من الكتاب مع اني لم أكن شرعت فيه وفي يوم سفره قال « أرجو أن أقرأ الكتاب بلغتنا في مثل هذه الايام من العام القابل »

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق في الخمول وتقصير في احترام رأي لم يشبه رياء ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب .

ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في تربيتي، وما نزعت اليه اثناء الطريق في سيري، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمري، وقست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي، فوجدت اختلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل .

---

(١) يعني بهذا الرجل مؤلف هذا الكتاب الذي هو إتمام ما شرع به فاني كنت ألح عليه في ذلك (٢) هو المستر ويلفرد بلانت الانكليزي المشهور

وجدت انني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت الى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت اليه، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين — الاول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس واصلاح العمل، كل هذا أعده أمراً واحداً وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الامة — طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب: الاول ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته ولا يزال شيء من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير انه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان باردا، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم ثقيلا على السمع، غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها، ولا يزال هذا النوع موجودا في عبارات المشايخ خاصة . ثم

وردعلينافي أخريات الايام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه وهوماجاءنا من الأقطار السورية فى جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني وهذا الضرب كان يعد من غرائب الاساليب وبه أنشئت جريدة الاهرام فى مصر وقد محي أثره والحمد لله .

وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا في عمى عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الامة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً . دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرده عن خطأه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول وبالفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه . ويد الظالم من حديد . والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

نعم انني في كل ذلك لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح أدعو الى عقيدتي في الدين وأطالب باتمام الاصلاح في اللغة وقد قارب . اما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لانني قد عرفت انه ثمرة تجنيها الامم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان .

أصبت نجاحا فى كثير مما عنيت به ، أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي، وشيء منها مما احتف حولي، وطائفة

منها من اصالتي في الرأي أوخطلي ،ومن الذي يستطيع ان يفصل ذلك غيري ، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي ،

لهذا رأيت أن أكتب مالاقيت ، وأثبت ماصادفت من لدن عقلت ، منبها على مافيّ من معايب ،وعلى احسان الله اليّ في بعض المزايا ، وعلى علل الحوادث التي مررت بها أومرت بي في أطوار حياتي . غير اني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بماقبل بيتي وهو مالا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لايخفى

الفصل الاول — أهلي

أول ما عقلت من أنا ومن والدي ومن والدتي ومن هم أقاربي وجيران بيتي عرفت اني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة ووقر في نفسي احترام والدي ونظرت اليه أجل الناس في عيني وسكن من هيبته في قلبي مالا أجده لاحد من الناس اليوم عندي أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأذكر منها قلة الكلام امامي ووقار كان في الحركات والاعمال والهيأة ، والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس ، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم اياه ، وانفراده بالطعام دون والدتي وأخواتي فان ذلك كان آية العظم عندنا فانه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الاوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلي من أهل القرية .

ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفتخر باكرام النزيل وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علوا وأنا لاأفهم من هذا الا أنه شيء يفتخر به بدون أن أعقل له علة وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل في القرية وكل من فيها دونه وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا فان الدنيا عندي لم تكن أوسع من قرية محلة نصر وكان يمدني في اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولاينزلون في بيت العمدة مع انه كان أوسع رزقا من والدي وأكثر دورا وأرضين وفشا فيّ بذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال .

هذا وكنت أعقل من صغري ما كان عليه والدي من ثباته في عزيمته وشدته في المعاملة وقسوته على من يعاديه وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصي ثناء عليه

اما والدتي فكانت منزلتها بين نساء القرية لاتنزل عن مكانة والدي وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء وتعد ذلك مجدا، وطاعة لله وحمدا . ولم أزل أجد أثر ماوعيت من ذلك في نفسي الى اليوم .

عرفت لي عما يسمى بهنسى ولا أعرف من أحواله شيئا لانه مات قبل أن أحفظ عنه وكان لوالدي ابن عم يسمى ابراهيم ولم يكن له بين الناس مايذكر به وكان يساكننا في بيت واحد ولا يزال ولده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء و بيوتهم من خير البيوت في القرية .

هذا ماعرفته من حاضر بيتي في أول أمري وما طرأ عليه سيأتي ذكره في سيرتي اما ماضيه فانما أذكره حديثا عن أبي ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم . جدي لابي كان يسمى حسن خير الله توفي عن أبي وعمي بالهواء الاصفر الذي فتك بسكان القطر المصري في اواسط القرن الماضي ويقال انه كان له قبل موته من بني عمه وذوي عصبته نحو اثني عشر رجلا وشي بهم واش من بيت آخر جاء البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها فسعى باهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة انهم ممن يحمل السلاح و يقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعا وزجوا في السجون واحدا بعد واحد ومن دخل منهم السجن لايخرج الا ميتا وكان جدي حسن شيخا بالبلدة وهو الذى بقي من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذى سبق ذكره

بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه فانه لم يكن بقي الا والدي في سن الرابعة عشرة وعمي في سن السادسة عشرة وابراهيم فى سن الثامنة عشرة والنساء فأخذ جميع ما كان في البيت حتى الابواب و بعض أخشاب السقوف فهاجر والدي وعمي ومن معهما من البلدة ولجأوا الى خال والدي الحاج محمد خضر وكان عمدة في قرية صغيرة

تعرف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت ولكنه لم يستطع ايواءهم عنده خوف الاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة فأخذهم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند احد أقاربه في قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ثم انتقلوا الى قرية بجانبها تسمى شبراء وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها اما بانفسهم أو بشركاء يعملون بايديهم و يقتسمون الريع معهم واشتهر والدي بالفتوة والبراعة في الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومحمد أخوه وكانا موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاول في وظيفة مفتش زراعة والثاني بوظيفة ناظر وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من أهلهما ودام ذلك مدة سنين

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضاقت بهم السبل كما كان يسومهم ذلك الواشي من الخسف والذل أخذوا يتسللون بيتا بعد بيت يهجرون القرية و يذهبون ليقيموا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي باشراف القرية على الخراب وفي ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير في مصالحه فجدد الوشاية بوالدي ومن معه ورفع شكوى الى مدير البحيرة وكان في شبراخيت يذكر فيها ان والدي مأوى لمن فروا باسلحتهم من القرية وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول بتجريد الاهالي من السلاح وحظر حمله عليهم فكتب مدير البحيرة بذلك الى مدير الغربية واتهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بايوائه بعض الفارين من العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم في بيوتهم وسيقوا الى مديرية الغربية أما مصطفى المنشاوي فارسل الى ليمان الاسكندرية وأما والدي ومن معه فارسلوا الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الامر في شأنهم ولم يزالوا في السجن الى أن توفي عباس باشا فافرج عنهم وعن غيرهم و بعد ذلك عاد والدي الى مسقط رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا ولم يجد شيئاً مما كان يملكه اسلافه الا جدران البيت مهدمة .

تقدم انه طالت اقامته في مديرية الغربية ويقال ان مدتها بلغت نحو خمس

عشرة سنة وفي أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشنرا وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى حصة شبشير يعرف ببيت عثمان كان كبيره اذ ذاك جدي ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتي وأخذها الى شنرا وفيها ولدت في أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والالف من الهجرة (* ولم يولد له منها غيري الا بنتان احداهما تسمى زمزم وهي بكرة وتوفيت قبل ولادتي والاخرى تسمى مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر سني طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان فسألت والدي عن ذلك فاخبرني أن نسبنا ينتهي الى جد تركماني جاء من بلاد التركمان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ثم اتفق ان اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه قرية محلة نصر فلما توفي رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الفرنواني ان يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداؤه ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم اما تسميتها بمحلة نصر فذلك لان مزارع البلدة كانت أعطيت أقطاعا لشخص يسمى نصرا فسميت باسمه وذلك في زمن لا نعرفه أيضا .

وقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير تعرف بالرحلة الكبرى ورأى فيها اسم محلتي نصر ومسروق وانه نزل ضيفا في بيت خيرالله التركماني وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ وبيت خيرالله وبيت الفرنواني .

اما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وانه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب في الاسلام وكيف وصل الامر بالمسلمين الى ان لا يعرف الواحد منهم من آبائه أكثر من ثلاثة ومنهم من

*) كذا بخطه وفي رواية عنه أنه ولد سنة ١٢٥٦ وهي المشهورة

لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على انسابهم وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لاسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الاحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئاً يساوي شرف النسب. وهيهات أن يرتفع ذو أدب بادبه، الى رتبة شريف بنسبه، وان كان خاملا في نفسه غير شيء في عمله. ولا يخفى ما كان في ذلك من بخس الحق والاستهانة بالكرم الذاتي والشرف العصامي والاتكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لا على ما يكسبه المرء بجده واجتهاده. نعم كان في الافتخار بالآباء والاجداد ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال وما كانوا عليه من كريم الخصال تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوه من علو ورفعة، لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الاتكال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط والغلو في اعتبار الانساب كما أنكر ذلك في كل شيء حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم «ائتوني باعمالكم ولا تأتوني بانسابكم» ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المعول عليه، وما يصح ان يرجع الكرم اليه، انما هو ما يكون عليه المرء نفسه فان وافق ذلك نسباً عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن يبخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الآلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم، فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة، ووفقهم للاعمال الصالحة، فمنهم يبتدئ الحسب، واليهم في القرون المستقبلة يرجع النسب.

هذا ما اراده الاسلام وما دعا اليه ولكنه مع ذلك امر برعاية النسبة الى الآباء ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والالتحام بالادعياء وفرض على المؤمنين ان يدعوهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن ابي طالب أن يعهد بجلائل الاعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة

وجاءت سنة السلف شاهدة بان للانساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر اليها . فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الادب المكتسب ، بل طلب العدل في الامرين ، وجمع لاهله بين النظرين الصادقين .

ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقد مهروا في تحريفه وقلب مقاصده العالية الى اضدادها كأنما هم مغرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالي والملصقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغبطهم عليه أهل الاحساب وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم وفضيلة وبلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف أباؤهم فضلا عن أجدادهم في الدولة العباسية ان استبدوا على الخلفاء من نسل العباس ابن عبد المطلب واغتصبوا الملك منهم وسادوا على كل ذي حسب ونسب في أيامهم بل قد فعل كثير منهم الافاعيل بأشرف الناس نسباً من آل بيت النبوة فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الاخلاق والغرائز وان ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيء الابناء لكسب مثلها وما جاء مخالفا لذلك فهو من مبتدعات القدرة الآلهية وأما التربية فان كانت حسنة مهدت السبيل واسرعت بتكوين الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الاخلاق وليس له سلف فيها وان كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده . وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه فان كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وان كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشيء حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم برميه القدوم من أول نشأته من قسي الحاجة فيأخذ يكلف نفسه ماليس في استعدادها ويحملها على معاطاة مالا يليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلا وهو ليس من أهلها .

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمير وما شبهتهم من البقر والغنم والابل ونحوها فيطلبون

نتاج الجياد من الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين بل ولعوا بالجواري والإماء ممن لا تعرف أصولهن ، ولم تعرض على الاختبار خلالهن ، في بيوت آبائهن ، وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس فكان خيرا للابن أن ينسى خؤولته بعد ان كان يفتخر بها . وولع الملوك بالمماليك وظنهم فيهم الاخلاص في الولاء وثقتهم بامانتهم ذهب بهم الى رفعهم على رؤس من سواهم فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام وما كان لاحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له آباء أو يتذكر لنفسه نسبا ، فصار الجهل بالانساب عادة وبئست العادة وأصبح البيت القديم المؤسس على مئين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحدا أو اثنين ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره ومحى جهل خلفه أثره .

ولذلك أقول ان ما أسمعه عن بيت والدي ووالدتي انما هو روايات في أفواه الاهل والاقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيدي الفضل غير أن ذلك يأتي في الانتساب الى قريش وعمر ابن الخطاب أما في الانتساب الى أصل تركماني فلا أظن ذلك يأتي ولهذا يترجح عندي جانب صحة الخبر ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركهم فيها من يجاورهم في مساكنهم .

(يقول مؤلف الكتاب) هذا ما كتبه رحمه الله في ترجمة نفسه ومن الاخلاق المعروفة لبيته ان والده كان الى آخر عمره شهما شجاعاً وقورا مهيباً سخي النفس كريم النحيزة محترماً من كل من يجالسه وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقاً . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثة ومكتسبة بالمعاشرة والقدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم نر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه البخاري ومسلم ولذلك كان السيد جمال الدين يقول له : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت : يشير الى أن ما كان عليه من الاخلاق العالية وشرف النفس كان وراثياً

الفصل الثاني

نشأته وتربيته وطلبه العلم

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد كتب هو عن مبدإ تعلمه وتأدبه من مذكرات أعطانيها لأستخرج منها ترجمة مختصرة له — وكان قد طلبها بعض الغرباء الفضلاء — ما نصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاؤا من مكتب آخر ليقرؤا القرآن عند هذا الحافظ ظنا منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم و بدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصفا لاأفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لانفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر عليّ أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكراهي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لانجاح لي في طلب العلم ولم يبق عليّ الا أن أعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغلبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة

من لا يلتزمون هـذه السبيل في التعليم — سبيل إلقاء المعلم مايعرفه أومالا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجـة استعداده للفهم غير ان الاغلب من الطلبة الذين لايفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

« بعد أن تزوجت بار بعين يوما جاءني والدي ضحوة نهار وألزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضر فركبته وأصحبني والدي بأحـد أقاربي وكان قوي البنية شـديد البأس ليشيعني الى محطة (إيتاي البارود) التى أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة سافياء ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع الاستمرار فى السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعريج على قرية أنتظر فيها أن يخف الحر ، فأبى عليّ ذلك فتركته وأجريت الفرس هاربا من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة اورين) — بلدة غالب سكانها من خؤولة أبي — وقد فرح بي شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى العصر وأرادني على السـفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي انني سافرت الى طنطا . فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتي ،

ذلك ان أحد أخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصـل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السـيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد

حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الارض وكسب الرزق بالزراعة

« وان هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بتها فى الكنيسة و بيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى في ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ماقرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضي فتغلبه وتسبق الى نفسي . و بعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه فقرأت وفسر ثم تركته الى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها فقال لي إنه في حاجة الى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

« لم يأت علي اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء إلي ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب ويزهدونني

في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب. في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم فقال طريقتنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب و بغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم — متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأنا مسلمون ناجون ، وان كنا في غمرة ساهين ، سألته ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لا ورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة ارباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا قال أقرأ معك ويكفيك ان تفهم الجملة و ببركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذكر الله — على طريقة بينها — وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام الا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى إطلاق التوحيد ، — هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي ردلي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ،

« وفي اليوم الخامس عشر مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني ان والدي ذهبت الى طنطا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي اني لاأزال في الكنيسة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على انني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع

« ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس وجلست في الدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله.

وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه. وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسي اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحان الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

« وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة. وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين — من منتصف شعبان الى منتصف شوال — وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفري. وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له مادرست فيقول : مادرست المنطق مادرست الحساب مادرست شيئاً من مبادى، الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطىء في الطلب وأخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦

« وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ

مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الاقاويل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي: ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وان اعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس: »

هذا ما كتبه الفقيد عن مبدإ تربيته وتعليمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني بشيء من ذلك قبل ومنه أنه لم يكن يواظب على حضور دروس من لا يفهم أولا يستفيد منهم وانه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البسيوني وانه بعد الحضور في الازهر ثلاث سنين مل الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى اعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازا في الأزهر بعلم المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تتشوف دائماً الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الازهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصا. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو شبه الحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتها،

وأخبرني الشيخ رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدوم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو يقيم في خان الخليلي فسر بذلك وأخبر الشيخ حسنا ودعاه الى زيارته معه فألفياه يتعشى فدعاهما الى

الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجبا وشغفه حبا لان التصوف والتفسير هما قرة عينه أوكما قال مفتاح سعادته . وأخبرني رحمه الله تعالى انه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجغميني وتذكرة الطوس في الهيئة القديمة وكتابا آخر في الهيئة الجديدة نسيت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها و بلاغتها لم تصف من كدورة العجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلازمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقيه اليك سواء كنت تشعر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعدا لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقى اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقدارا معينا من الاطعمة التي قد تعاف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاثة فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي اما أن يضر واما أن لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهيه وتتناول منه ما يكفيك فيكون كله غذاء نافعا . وقد قال بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمنا طويلا . ولقد كانت مجالس استاذنا الفقيد كمجالس استاذه (رحمهما الله) تفيض علما وحكمة وأدبا ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان يخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي

رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبيه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا وهكذا الكتابة: واننا في هذا المقام نورد ترجمة السيد جمال الدين التي نشرها في أول ترجمة رسالة الرد على الدهريين ونزيد عليها قليلا قال

السيد جمال الدين الافغاني

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس فى أمره، وتباعد ما بينهم فى معرفة حاله، وتباين صوره فى مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، والرجل فى صفاء جوهره، وزكاء مخبره، لم يصبه وهم الواهمين، ولم يمسسه حزر الخراصين، وانا نذكر مجملا من خبره، نرويه عن كمال الخبرة، وطول العشرة:

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينمي نسبه الى السيد على الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم فى خطة ﴿ كنر ﴾ من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ولهذه العشيرة منزلة علية فى قلوب الافغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها دوست محمد خان جد الامير الحالي (١) وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين و بعض أعمامه الى مدينة كابل

ولد السيد جمال الدين فى قرية (اسعدآباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل وفى السنة الثامنة من عمره اجلس للتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية بقوة فى فطرته، واشراق في قريحته، وذكاء فى مدركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها . تلقى علوما جمة برع فى جميعها

---

(١) يعني به المرحوم الامير عبد الرحمن لان الترجمة كتبت وهو حي

فنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان و بيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلهية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى مافى الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة و بضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التى مر بها فى سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل فى سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها و يملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلد الامارة ولي عهدها شير على خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته خصوصا من هو أكبر سنا منه و يعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة

وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية و بعد مجالدات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان

وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها (على خلاف ماتعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكما في قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مئتي جندي واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ماالتفت يعقوب خان قائد شيرعلي فوجد ذلك الغر المتهور منقطعا عن جيشه فكرّ عليه وأخذه أسيرا فتشتت جند قندهار وقوي الامل عند شيرعلي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحروب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي و بذلوا لها قناطير من الذهب ففرّقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات و بعد حروب هائلة تغلب شيرعلي وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن فذهب عبدالرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور و بقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الامير بسوء احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد إيران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه الاعلى عين من رجالها فلم يقم أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في أحد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر وأقام بها نحو

أربعين يوما تردد فيها على الجامع الازهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحوّل عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة

وصل الاستانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الاعظم عالي باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجراء وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب عن ازيائهم ولغتهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمي عضوا في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه . ومن تلك الطرق ماأحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات حسن فهمي أفندي لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دارالفنون تحسين أفندي ان يلقي فيها خطابا للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه تحسين أفندي فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا . وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولتلو منيف باشا ناظر المعارف وكان عضوا في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاسماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ماكان أعده وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به وما كان يجدها لوطالب حقا ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة مايؤديه العضو في البدن فشبه الملك مثلا بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة . والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات والاعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف ثم قال هذا مايتألف منه جسم السعادة الانسانية

ولاحياة لجسم الا بروح وروح هـذا الجسم أما النبوة واما الحكمة ولكن يفرق بينهما بان النبوة منحة الهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالاته. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات و بأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه. وان أحكام النبوات آتية على مافي علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فالاخذ بها من فروض الايمان اما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ماهو الاولى والا فضل على شريطة أن لا تخالف الشرع الالهي.

هذا ماذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي أفندي أقام من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبيت الاشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أوعز الى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك) واشتد في طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها وأكثرت الجرائد من القول في المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الاسلام فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون و يغضي على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل وألحّ في طلب المخاصمة فعظم الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجلاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء ففارق الاستانة مظلوما في حقه، مغلوبا لحدته، وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هذا مجمل أمره في الاستانة وما ذكره سليم العنحوري في شرح شعره المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلط من الباطل لا شائبة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كل شهر نزلا

أكرمته بلا في مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فاورى، واستفاضوا بحره ففاض دراً، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم ولم يذهب الى الازهر مدرسا ولا يوما واحدا نعم كان يذهب اليه زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة .

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره و برعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون في المراسلات الخاصة وإما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وماشا كلها

ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصرى لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به ومنكر ذلك مكابر وللحق مدابر . هذا ماحسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ أما الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم ولنا في أئمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم ايدهم اخلاط من الناس

من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون مالا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديوها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده، إلا ان بعض المفسدين ومنهم (مستر فيفيان) قنصل انكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوي ونقل المفسد عنه، ما الله يعلم انه بريء منه، حتى غير قلب الخديوي عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه ابو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين .

ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكته وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أبيح له الذهاب إلى اي بلد فاختار الذهاب الى أوربا واول مدينة أصعد اليها مدينة لوندرة اقام بها اياما قلائل ثم انتقل عنها الى باريز واقام بها مايزيد على ثلاث سنوات وافيناه في أثنائها . ولما كلفته جمعية العروة الوثقى(١) ان ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان أقوم على تحريرها فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً مالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه، وذلك لخلوص النية في تحريرها، وصحة القصد في تحبيرها، ثم قامت الموانع دون الاستمرار في اصدارها حيث اقفلت ابواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانكليزية في اعنات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقيما باوربا أشهراً في باريز وأخرى في لندرة إلى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع إلى البلاد الايرانية

أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام اقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلا مايحل في مذهب امامه، فهو أشد من رأيت في

(١) هي جمعية سياسية كان لها فروع في الاقطار الاسلامية

المحافظة على أصول مذهبه وفروعه

اما حميته الدينية فهي مما لايساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله

اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته، وكل مااصابه من البلاء اصابه في سبيله، فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، والدين الحنيفي مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار المشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الاشارة اليها ، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة في حل مايعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى اليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، واذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع ، وله لسن في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك انه ماخاصم أحداً إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الاوربيون بذلك بعد ماأقر له الشرقيون. وبالجملة فاني لو قلت ان ماآتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ماقدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم يسع ماشاء الله ان يسع ، إلا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل مابيده ، قوي الاعتماد على الله لا يبالي ماتأتي به صروف الدهر ، عظيم الامانة ، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدمناه ، اذا لاحت له بارقة منه ،

تعجل السير للوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الامور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لايهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا انه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، الا انه صار اليوم في رسوخ الاطواد ، وثبات الافناد ، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

اما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة الحجاز حماه الله . ربعة في طوله ، وسط في بنيته . قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه

بقي علينا ان نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة والاماكن المعدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو ، منزهاً عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يحب ان تؤتى عزائمه ، وأي غضاضة على المرء المؤمن في ان يفرج بعض همه بما اباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لادى بنا الى التطويل . اه

***

(يقول المؤلف) وكتب الاستاذ الامام في كتاب أسباب الحوادث العرابية نبذة أثبت فيها أن هذا السيد كان مبدأ النهضة الاجتماعية السياسية بمصر ، وذلك قوله بعد بيان ما كانت عليه مصر في زمن الخديو اسماعيل باشا ما يأتي بنصه :

« هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها

العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره ، وانتشر نوره، لاهتدى به الضال ، وحسن به الحال

«ذلك ان أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الاعلى ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، او خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له ان يبديه في ادارة بلاده ،او إرادة يتقدم بها إلى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحا لامته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ماعليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ الذي ذكرناه وذهاب العدد الكثير منهم إلى ماجاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وابراهيم باشا لم يشعر الاهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبت بها، ومع ان اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى، في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه ان يعلم الاهالي ان لهم شأناً في مصالح بلادهم وان لهم رأيا يرجع اليه فيها، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بان له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيأة الشوروية لان مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل . أما في النظام فلانه قد نص فيه على ان نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه ، واما في العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون مايريد بعد مداولة صورية، فكانوا يشعرون بان الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم.

هل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف مايامر به؟ هل كان يمكن لشخص ان يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، او الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه الفكر السليم بان هناك وجهة خيراً من تلك هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ؟ كلا فانه كان يجانب كل لفظ نفي عن الوطن او إزهاق للروح أو تجريد من المال،

وبينما الناس على هذا لا كاتب ينبههم ، ولا خاطب يعظهم، اذ عرض امر قلما يلتفت اليه ،أو تحوم الافكار حواليه ، وان كان مما يعرض في كل مكان، وجرت به السنة الآلهية في كل زمان

﴿ مبدأ النهضة المعنوية بمصر ﴾

«جرت سنة الله في خلقه بأن عظائم الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الاشجار تبسق من بزورها ،جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ رجل غريب ، بصير في الدين ، عارف بأحوال الامم، واسع الاطلاع، جم المعارف، جريء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني، وركن الى الاقامة في مصر فتعرف اليه في بادىء الامر بعض طلبة العلم، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد، فكان ذلك داعياً لطالب الاجتماع به لتعرف ما عنده . ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم، وهو في جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل، أو يطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس الى معالي الامور، أو يستلفت الفكر الى النظر في الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم ايام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد خصوصا في القاهرة — كل ذلك والحاكم القوي في علو مكانه ، ارفع من ان يناله هذا الشعاع في ضعف شأنه، ولازال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء، وينتشر في الانحاء على غير نظام الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة ١٢٩٣

« وجد الناس من نفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسية فتطلعوا الى ما يرد من اخبار الحرب . وكثرة الاجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الاوربية الى طلابها من الاوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق الى العلم بما فيها، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد

العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على مالايهم ،فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية ، فوجد في الناس النافر على تلك الجرائد والناصر لها،وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل،ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الاخبار،ومناوأتها في المشرب،واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة

« لم يكن ماينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الامم في سيرتهم السياسية والمعاشية،وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق ، فتسابقت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال ، أو أرض غير ارض الخيال،ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والاهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا » اه ما اردنا نقله من كتاب اسباب الحوادث العرابية وهو على ايجازه صريح في ان السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية في مصر. وكان بعد ذلك يغذيها بارشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسي عظيم من ذلك الحزب الادبي الذي لم يكن يخطر على البال

***

وانا ندعم ما كتبه الاستاذ الامام على قوته ورسوخه بما كتبه أديب بك اسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد جمال الدين وافراد حزبه في زمنه قال أديب :



جمال الدين

«هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة، النبيه المتوقد الذكاء، الجريء الذي لا يعرف الخوف، النسيب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني، ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الآن نحو ٤٥ عاما وطلب العلم بالفارسية والعربية على ماجرت به عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمعقول، وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فداخله في ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والمريدين، كل ذلك وهو دون العشرين سناً. ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية، ومات عامئذ أمير الافغان عن ولدين وهما شيرعلي خان ومحمد أعظم خان فاقتتلا على الولاية فانتصر جمال الدين للثاني

فقربه وجعله من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافاً بالموت، وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان، فانصرف الاولياء عنه إلا جمال الدين ونفر غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا أن أوجست حكومة الانجليز خيفة من صاحب الترجمة فعاد إلى أفغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمه ثم الهواء، فقصد الاستانة وأقام بها مجهول المكان، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء فعرف قدره وفضله، فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي، ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فأجاب وكانت خطبته في الصناعات فأنكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه، فالتمس من الدولة إبعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضطراً، وكان قد عرف رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه باسباب مودة فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافياً على ان يكون من المدرسين، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، أفضت الى المنافرة، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين ثم صارت ملتقى للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء، فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي مجهول الشان عند العامة، حتى ظهرت آثاره وآثار مريديه في جريدة مصر، فاظهرت شانه، وصارت تنشر له بعض المقالات، تارة باسمه ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته، وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوي الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت أمورها المالية، علم أنه لابد من تغير أحوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية فدخل الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم أنشا محفلا وطنياً تابعاً للشرق الفرنسوي ودعا مريديه من العلماء والوجهاء اليه

فصار أعضاؤه نحوا من ثلاثمائة عدا وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في جريدة مصر فصولا ناطقة به خصوصاً بعد اعتداء الانكليز على ابناء أبيه فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لونده واهتموا بها كثيرا حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدال في موضوعها فلما عظم شأن محفله داخل الخوف منه قنصل انكلتره فوشى به الى الحكومة وبث الرقباء في المحفل فسعوا فيه فسادا

وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد جمال الدين ان الخديوي اسماعيل مخلوع لامحالة فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية وأخذ يسعى في انفاذ أغراضه فلقي المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فهال أمره بعض أمراء المصر بين فقويت بذلك حجته وشأنه ونفذت سعاية أعدائه فأمر الخديوي الجديد بنفيه أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر ستمبر سنة ١٨٧٩ فأخذ غلساً وقبض على من كان في حلقته وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين الى السويس ومنها الى أبو شهر (فرضة في العجم) وهو الآن بحيدرآباد مرفوع المكان عالي المقام وبقيت كتبه وأوراقه في مصر وقيل ان روجرس بك أخذها ثم أعيدت لصاحبها

(قال أديب)عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختيار على انني ملتزم فيه جانب الصدق بريء من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين والله على ما أقول وكيل. والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربعة ممتلىء قوي البنية جذاب النظر نافذ اللحظ خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة وانه عزب عفيف النفس قانت كثير القيام لاينام الا الفلس الى الضحى ولا يأكل غير مرة

واحدة في اليوم على أنه يكثر من شرب الشاي والتدخين قوي العارضة ميال الى المعارضة طويل الحجة واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك استار السرائر، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج

ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسوية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيرا في أقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الا من علمه حروف هجائها يومين

ومن غرائب فضله انه كان يتتبع حركة المعارف الاوربية والمستكشفات العصرية ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدا حتى كأنه قرأ العلم في بعض مدارس أوربا العالية

ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه انه قبض عليه لما لا نعلم من الشر، فكان سائرا الى الخطر، سير الشجاع الى الظفر، وانه أنزل الى البحر في السويس منفيا خالي الجيب فأتاه فيما يقال السيد النقادي قنصل ايران بذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم وقدموا له مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن فرده وقال لهم «احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب » اه من كتاب الدرر



ترجمة سليم بك العنحوري للسيد جمال الدين

قال في شرح ديوان (سحر هاروت) في تفسير قوله :

ترنو اليّ بعقله غضبي اذا بصرت بطودسال كالوديان
فكأنني بيكونسفيلدُ زمانه وكأنها من بغضها الافغاني

ما يأتي بعد ترجمة وجيزة للورد بيكونسفليد الوزير الانكليزي الشهير :

« وأما الافغاني فهو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير . نبغ في بلاد الافغان فتعلم فيها اللغة الفارسية والعلوم الدينية والمنطق وشيئاً من علم الاخلاق وكان ممن انتظموا في سلك الجندية فلما قام الخلاف عام ١٨٦٣ على امارة الافغان

بين شير علي خان واخوته وأولاد اخوته انحاز جمال الدين الى أفضل خان (أو الى محمد أكبر خان) (*) وعدّ من مشاهير أنصاره بيدان الانكليز أخذوا أخيراً بناصر شير علي واعترفوا له بمعاهدة عقدت في أوائل سنة ١٨٧١ بانه وليّ البلاد الشرعي فاخفق سعي جمال الدين وفرّ ثمت الى الهند وهنالك أخذ عن علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ وتبحر في لغة (السانسكريت) أمّ لغات الشرق وبرّز في علم الأديان حتى أفضي به ذلك الى الالحاد والقول بقدمية العالم زاعماً ان الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوّنة بترقّ وتحوير طبيعيين مانراه من الاجرام التي تشغل الفلك وبتجاذبها الجو وان القول بوجود محرّك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات بمعنى انه عند ما كان همجياً صرفاً وساذجاً بحتاً كان يعبد خسائس الموجودات من مثل الخشب والحجر ولما ترقى في معراجي المدنية والعلم رقى بالنسبة عينها معبوداته فصار يحترم النار فالسحاب فالافلاك فاجرامها وما برح يتدرّج بمراقي الخبرة و يستضيء بمشكاة العلم وهو آخذ في سير طبيعي برفع مكانة معبوده وبرقيه في مراتب السمو حتى قال هو منزه عن الكيف والكم معصوم من البداية والنهاية . بعيد عن الحصر والاحاطة . مالئ الكل وفي الكل يرى الكل ولا يراه أحد . غير ان مدارك الانسان ترقت بعد ذلك الى حد أوصلها الى العلم بأن كلّ هذا ضروب أوهام ، وأضغاث أحلام ، نشأت في الاصل عن خوف الانسان من الموت وميله الى الخلود، ذلك ماجعله يبني في الهواء صروحاً من الاماني وابراجاً من التعلاّت مما رسخ في مخيلته الى حد كاد يكون اعتقادا فطفق يقول انه سيتحول بعد هذا الموت الى حياة خالدة ونعيم مقيم وان الخشب أو الحجر هو الذي ينتهي به الى هـذا المقام الاسمى اذا أداه احتراماً ، وأوسعه اكراماً، فانبعث في عبادته تخلصاً من مرارة التفكر بممات لاتعقبه حياة . ثم عن له ان النار أكثر اقتدارا ، وأجل نفعاً واضرارا، فمال عنه اليها، ثم رأى ان السحاب خير من النار وأقدر فانضوى اليه، وعول عليه، وما برحت تزداد حلقات تلك السلسلة المصوغة باداني

(*) الصواب انه تحيز لمحمد أعظم خان كما تقدم

وهم وميل مرافقين لغريزة الانسان وفطرته حتى انتهى الى تلك الرتبة المتناهية علوًّا فصار من موجبات نواميس الاشياء رد الفعل المؤدي الى الجزم بان كل ذلك خزعبلات منشؤها الأماني لاحقيقة لها ولا رسم

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما ان حاكي الكفر ليس بكافر

(عودٌ على بدء) و بعد ان أقام في الهند ردحاً جاء فروق عاصمة الدولة العلية فاتصل بصدرها (أمين عالي باشا) وحظي لديه وما لبث هنالك ان أتقن اللغة التركية ولما رغب اليه الصدر ان يخطب في دار الشورى ارتجل خطابة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادمج النبوّة في عداد الصنائع المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه النكير مما الجأ الصدر الى ابعاده فقصد مكة وجاور هناك عاماً و بعض عام أخذ في خلالهما مبادئ اللسان العربي (كذا) ثم جاء مصر وكان قد سبق فعرف في الاستانة رياضها المشهور (وزير المعارف أو انئذ) فاكرم مثواه اجلالاً لعلمه وانزله حجرة في الجامع الازهر (كذا) وعين له راتباً راتباً مع وظيفة التدريس بعد ان محضهُ النصح بان يلزم خطة الشرع الأنور والدين الحنيف فلبث في الجامع حيناً من الدهر يفي فروض الصلاة ويواصل الانفال والاوراد ويواظب على قشف الصوم مستمسكا بشعائر أهل السنة وكان قد آنس من بعض الطلبة فكرا نيرا وذهناً وقادا فجعل معوّلهم عليه، ومصدرهم عنه ومورِدهم اليه ، ثم لاح له ان يغادر الازهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتاً مالبث ان صار منتدى العلماء والادباء، ومحط رحال الطلبة الاذكياء ، وكان من ديدنه ان يقطع بياض نهاره في داره حتى اذا جنّ الظلام خرج متوكئاً على عصاه الى ملهى قرب الازبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس في صدر فئة تتألف حولهُ على هيئة نصف دائرة ينتظم في سمطها اللغويّ والشاعر والمنطيقيّ والطبيب والكيماويّ والتاريخيّ والجغرافيّ والمهندس والطبيعي فيتسابقون الى إلقاء ادقّ المسائل عليه ، و بسط اعوَص الاحاجي لديه ، فيحل عقد اشكالها فرداً فردا ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحدا واحدا بلسان عربي مبين لا يتلعثم ولا يتردّد بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين ،

ويفحم السائلين ، ويبكم المعترضين ، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً وترعى غزالة الصبح نرجس الظلم فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب الملهي كلما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الانيق .

وبعد ان ذهب المنشئ الكاتب أديب اسحق الى الاسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور له سليم نقاش سنحت عوارض قضت بالغاء التمثيل فأصبح أديب خالي الوفاض ، بادي الانفاض ، فبعث به المرحوم حنين الخوري الى القاهرة مصحوباً بكتاب وصاة الى جمال الدين فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه ثمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العاني الكلف ، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكاناً بباب الشعرية هيأ له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ما قوي معه على اصدار تلك الصحيفة فكانت ترد مودعة فصولا وأمالي منسوجة بيراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهر ابن وضاح أصارت لتلك الصحيفة شأناً مذكوراً ثم رأى ان ثغر الاسكندرية أقرب لاصطياد الاخبار فوفق بين أديب وسليم وأوعز اليهما بنقل الادارة اليها بعد ان مكنهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أومأ الى كاتبيه الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني ان يخدما تينك الصحيفتين قلماً وسعياً ما استطاعا الى ذلك سبيلا وجعل يواصلهما بشذرات من قلمه البديع ، وخطرات من فكره المزري باللآلئ الرفيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له في النعوت والالقاب من مثل (مهبط اسرار الحكمة وأسطرلاب فلك العلوم واسطقس هيولى الفلسفة) الى غير ذلك مما اعتادا ان يصفاه به سبب نماء شهرته وانتشار صيته وله في صحيفة مصر مقالتان احداهما في الحكومات الشرقية وأنواعها والثانية سماها (روح البيان في الانكليز والافغان) ترنحت لهما اعطاف أولي العلم طرباً ، ومالت اليهما اعناق الحكام السياسيين عجباً ، حتى ان (غلادستون) زعيم الحرية في انكلترا اثبت في بعض الصحف رسالة تشهد له انه من اعلام الشرق واعيان العلماء ، حالة كون الانكليز من أعدائه الالداء ، ولما شخص المؤلف الى القاهرة

عام ١٨٧٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر في أوقات اجتماعه وخلوته وكان ممن ساعدوه على الوصول الى الخديو (اسمعيل) والتمكن منه وشوقوه الى الاندماج في سلك الاخباريين فنال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) وكان قد أمر زعيم تلامذته الشيخ محمدعبده ان يقرّظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية الذيل نسج أكثرها بقلم جمال الدين ونشرت في العدد ١٢٦ من صحيفة الاهرام فانه كان من خلقه الاخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذي ميل للادب ومع انه كان كثير الانفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لاولياء العلم وانصاره مهما كانوا خاملين قاصرين يبذل لهم الانس والدعة ويخفض جانب الرقة والدماثة ويؤاسي مجتاحهم ومحتاجهم بكلما يقدر عليه، وتصل يده اليه،

وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطرا في البلاد وسما مقامه لانه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي (الذي نفي أخيراً مع عرابي الى جزيرة سيلان) وعبد السلام بك المويلحي النائب المصري في دار الندوة وأخيه ابراهيم كاتب الضابطة وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره، ويعلون بين الناس مناره، من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني وعلي بك مظهر والشاعر الزرقاني وأبي الوفاء القوني في مصر، وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم في الاسكندرية . فتغيرت ثم لهجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم اثناء مكالماته مامعناه : انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وربيتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم في غفلة معرضون، فلو كان في عروقكم

دم فيه كريات حيوة وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والاكراد والماليك ثم الفرنسيس والماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، ويهيض عظامكم باداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت انظروا اهرام مصر وهيا كل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم

ونشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالرشيد فلاحُ

هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقي الأمم احرارا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء، : الى غير ذلك مما من شأنه ان يحرك الماء فيجعله ناراً، ويثير نسيم الصبا فيغادرها اعصارا، فبدأت تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين، ويتطاولون باعناقهم الى ما يقول مشرأ بين، ومذ ذلك الحين طارت الشررة الأولى من شررات الثورة العرابية وكان المؤلف قد لمح الى هذا في بعض أعداد صحيفته (مرآة الشرق) بقوله في جملته الافتتاحية

أرى خلل الرماد وميض نار   وأخشى أن يكون له ضرامُ

فثار بعض قادة الجند (على) بولسن ودبلنير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوهما ضرباً وإهانةً واجتمع فى بيت الشيخ البكري ثم في بيت راغب باشا لفيف من اعيان البلاد وعمد الارياف وأجمعوا على تغيير الوزارة النوبارية ثم التوفيقية. ثم زاد انتشار الخواطر الثوروية وكسبت صحف الاخبار اهميةً ما كان لها ان تكسبها في اسمى البلاد مدنيةً وحينئذ رأى المؤلف ان المسلك وعر، والموقف خطر، فمال الى الغاء التحرير بالتي هي أحسن، والجنوح في هذا الامر العسير للتي هي أقوَم، فاعتزل الجريدة بعد ان أحال امتيازها الى رجل أصارها طوع اشارة الافغاني، فوكل بها كاتبه ابرهيم اللقاني، فبدأ من العدد السادس عشر بايعابها مبادئ الثورة وأمالي الشكوى والتعريض وبعد حين ناب الافغاني

عن الأمة بسفارة الى الخديو فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطنة عادت عليه بالو بال * وعليها بالتعطيل والنكال (السبب الظاهري لتعطيلها غير هذا واما المطلعون على الحقائق فيعلمون ان الباعث عليه انما هو انتماؤها الى الافغاني) وكان قبل ذلك قطع في الاسكندرية بضعة أيام خطب في أثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة في النساء جمعت ألوفاً من الفرنكات فوزّعت بايعاء منه على الفقراء ولم يمض زمن حتى انقلب دست (اسمعيل) وعلا أريكة الخديوية صاحب السموّ الاميري (توفيق) وكان من الواجدين على جمال الدين فأخذ يجوس موامي أفعاله ، ويرود مرامي أقواله، حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المقيدة بجمهورية شوروية تحدّثهُ نفسه بتولي زعامتها فاغتاله بعض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر من مقامه الليليّ المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوهُ الى دار الضابطة وذهبوا به ثمت الى محطة السكة حيثما أرسل من طريق الاسمعيلية الى (بورت سعيد) ولما رأى قنصل العجم في ذلك الثغر (وكان ماسونياً) انهم مزمعون على بعثه بطريق جدّة الى بلاد فارس عرض عليه مئة دينار برسم النفقة فأبى مع كونه لم يملك ساعتئذ درهماً وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها وأما خادمهُ (أبو تراب) الذي صار بمعاشرته اياه وملازمته له فيلسوفاً صغيراً حالة كونه أمياً كبيراً فسجن زمناً ثم أطلق سراحه وأتى بيروت منذ عامين ولا علم لنا الآن اين مرساهُ وكيف مسراهُ . وكان روح الثورة قد امتدّ في القطر بحيث لم يكن اجلاء الافغاني الا ليزيده سرياناً وانتشاراً (من هنا فما بعد يعلم كلّ بما جريات الديار المصرية مما يخرج عن وظيفة كتابنا هذا الافاضة بتفصيلاته) ومذ ذلك العهد احتجبت عن المؤلف اخباره حتى ظهرت في باريز صحيفة العروة الوثقى موسومة باسمه وموشاة بقلم دهقان رجالهِ الشيخ محمد عبده فعلم من منزعها انه عاود الاستمساك بالدين الحنيف وجنح الى نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الاسلامي ورضاءهُ عنه

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاتهِ ولو لم يكن طموحاً الى المعالي بافراط واعجال وعاجزاً عن كتمان مبداءِه

وغايته لرحب به التاريخ وافرز له من اسفاره صفحات تترى * زينها برقم اعمال مجيدة تكون قدوة للآتين وذكرى * وهو الآن دون الخمسين من عمره أسمر اللون الى صفرة * مفلفل الشعر أسوده * نحيف البنية * اهيف القامة * جذّاب الملامح * خفيف العارضين * حادّ البصر يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه . يلبس السواد ويتزيى بزيّ العلماء * طليّ الكلام ذرب اللسان * فصيح اللهجة * بليغ العبارة * مليح النكتة * سمح الكف * طلق المحيا * وقور السمت * يجتنب النساء ويفطم نفسه عن الشهوات * يكره الحلو ويحب المرّ وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والراوند يتنقل بهما تفكهاً * يأكل الوجبة (مرّة كلّ يوم) ولا يأكل الا منفرداً * يكثر من شرب الشاي والتبغ واذا تعاطى مسكراً فقليلاً من (الكونياك) وليس له من التآليف المطبوعة سوى تاريخ الافغان * يكره الكتابة ويتثاقل منها فاذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم اللقاني القاء قلما يراجعه ويصلحه فيجيء من أوّل وهلة مسبوكاً مفرغ المعاني بقوالب لفظ لاتنقص عنها ولا تزيد * فسبحان من خلقهُ بهذه الاطوار * وجملهُ بهذه الآثار * انهُ فعالٌ لما يريد» اه ما كتبه سليم بك العنحوري في شرح سحر هاروت

وقد اطلع الاستاذ الامام على هذا الشرح أيام كان مقيما في بيروت واجتمع بالكاتب فأقنعه بأنه مخطىء فيما وصف به السيد من الإلحاد فبادر الى تخطئة نفسه في الجرائد فكان بذلك مصيباً الفضيلة ، وظهيرا الحقيقة ، وقد نشر الاستاذ الإمام ما كتبه العنحوري في آخر ترجمته للسيد التي نشرها في صدر ترجمة رسالة الرد على الدهريين قال :

« هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لأدى بنا الى التطويل ، وانا نتبع هذا بما كتبه سليم افندي العنحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه ، يعلم خطأه في جل ما رواه ،

«هذا ما نشر سليم افندي العنحوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفه:

«لا يخفى اننا كنا أتينا في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة الحكيم الشرقي الغزير المادة السيد جمال الدين الافغاني الطائر الصيت وأبنّا في عرض قصصنا لمحةً مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته ووهن دينه مما كان مدعاة أسفنا وباعث استغرابنا ثم أسعدنا البخت بان التقينا هاته الأيام بصديقنا المجلي بحلية الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل والنقل، الشيخ محمد عبده نزيل بيروت وأعزّ أخلاء الحكيم المشار اليه فجال بيننا حديث أفضى الى البحث بما يرويه عنه بعض الناس ورويناه نحن عنهم فأوضح لنا بدلائل ناهضة، وبراهين داحضة، أن ما تتناقله الألسن من هذا القبيل ما كان الا من آثار ما رماه به بعض من غمرتهم أياديه فجازوه بالكنود يعني بهم قوماً كفرةً تزلفوا اليه فاغترّ ببراقيش ألسنتهم ووطأ لهم جانب الأنس سالكاً في سبيل اسعادهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر وتحولت الأحوال أخذوا يتبجحون بالتلمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه، وبين لنا بأجلى أسلوب ان المباحث التي كان يدور بها لسانهُ اثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد المعطلين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها، والجنوح اليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها، واقامة الحجج على بطلانها، ثم تأييدا لمقاله هذا وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار اليه سوّأ بها أصحاب المبادئ المعطلة من أي فريق كانوا وبين قبح طريقتهم بعبارة حنيفٍ عريق بالاسلام نثبت منها هنا مبحثه في ضرورة اعتقاد الألوهية لسعادة الانسان

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لاصلاح النوع البشري ورد ما زعموا { فأذن لم يبقَ للشهوات قامع، ولا للاهواء رادع، الاّ الايمان بأن للعالم صانعاً عالما بمضمرات القلوب، ومطويات الانفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع الاعتقاد بانه قد قدّر للخير والشر جزاءً يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحيوة سرمدية } ثم قال { فلم تبقَ ريبة في ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيءٌ من أباطيل من

يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة التامة والتعليم الكامل ويذهب بمعتقديه في جوادّ الكمال الصوري، والمعنوي ويصعد بذويه الى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقليّ والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين »

ثم أتى بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصوصاً بما يطول بيانه ويعلمه من اطلع على تلك الرسالة هذا كله بعد ما قال في وصف الماديين « أنهم كيفما ظهروا، وفي أي صورة تمثلوا، وبين أي قوم نجموا، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم، وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم، يميتون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السم في الارواح بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رزئت بهم أمة، ولا مني بشرهم جيل الا انتكث فتله، وتبددت آحاده، وفقد قوام وجوده » ثم أطال في بيان ذلك الى حدٍّ لم يبقَ معه محل للريبة في كمال اعتقاده وجلاء يقينه

« فأخذتنا لذلك خفة الطرب وسارعنا لا ذاعته بلسان الصحف شأن المؤرّخ العادل وقياماً بحق الأدب وضناً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تناله ألسنة من لا يعرفه خطأً وافتراءً والله يتولى الصادقين » اهـ كلام المنحوري

(يقول محمد رشيد) ان الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن يتهموا بالكفر والالحاد كل نابغ في العلوم العقلية بل كل مستقل في العلم لا يتبع الناس في جميع مادرجوا عليه من التقاليد الدينية ولذلك نبزوا بلقب الكفر أو الابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة وأبي الحسن الشاذلي ومحيي الدين بن العربي من الصوفية ومثل الغزالي ممن جمعوا بين الفلسفة والتصوف: وكذلك فعل النصارى قبل المسلمين فاتبع هؤلاء سننهم وسيأتي بيان ذلك في هذا الكتاب مفصلا .

من الناس من يتهم أمثال هؤلاء العقلاء متعمدا للكذب والبهتان ومنهم من يتهمهم لسوء ظنه وقصور عقله وقد أشار الاستاذ الامام في ترجمة أستاذه السيد الحكيم الى ذلك وبه أقنع سليم بك المنحوري كما قرأت آنفا . وقد ذكرني هذا درسا خاصاً ألقاه الاستاذ على بعض النابغين من أساتذة المدارس الأميرية وغيرهم في الدين هل هو فطري في البشر أم هو حاجة من حاجات الاجتماع تعرض لهم

فيعطيهم إياها الجواد الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)

ذكر الاستاذ الامام في بيان كون الدين بطبيعته أمراً فطرياً أن الشعور بوجود إله يتصرف في الاكوان تصرفا غيبياً فوق تصرف المخلوقات، بما يكون من إفضاء الاسباب الى المسببات، قد عرف في جميع البشر من أدنى القبائل الهمجية، الى أرقى شعوب المدنية، فهو شعور يستوي فيه الحفاة العراة في صحاري أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن وقد عرف في الفريقين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود كما هو معروف في هذا العصر. ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشمالي والجنوبي في جميع الازمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم لا يعقل الا أنه فطري في البشر

فان قيل ان في الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب كالماديين من الفلاسفة ومقلديهم ولو كان ذلك الشعور فطريا لكان عاما ولم يعر منه هؤلاء: فاننا نقول إن من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جدا والقاعدة لا تنتقض بالنادر بل تبقى صحتها الثابتة بالدليل ويبحث عن سبب شذوذ النادر كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذى يعبرون عنه بفلتات الطبيعة ولا يعدون هذه الفلتات دليلا على بطلان السنن والنواميس العامة فى الكون. (قال) فالحقيقة ان الالحاد مرض من الامراض الاجتماعية

ثم تكلم في مسألة ترقي الشعور الديني في البشر بحسب ارتقائهم الاجتماعي وهي المسألة التي يعدها الملحدون من علماء الاجتماع أقوى الشبهات على الدين وهي هي التي ذكر المنحوري ان السيد جمال الدين كان يحتج بها على كون الدين أمرا وضعياً وهمياً رقاه الانسان بحسب معارفه حتى بين له الاستاذ خطأه كما تقدم. وما قاله الاستاذ في الدرس يوشك ان يكون قد سمع هو وغيره مثله من السيد فنهم هو مالم يفهه أولئك الذين حرفوا الكلم عن مواضعه جهلا وغباوة أو كذبا وبهتانا

بين الاستاذ رحمه الله تعالى ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في

ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب الوهم فكلما أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليقة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها فعظموه لهذا التوهم فكان ذلك عبادة له لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب لامعنى لها الاهذا

رأى بعضهم الثعبان الصغير يميت الانسان أو نحو الثور والجمل من غير أن يذبحه أو يدق عنقه أو يهشم رأسه وذلك ما لم يكونوا يعهدونه ولا يفهمون سببه فعبدوه وعلى هذا النحو عبدوا كثيرا من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب فالكواكب فهكذا كانوا يحصرون شعورهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما تصل اليه عقولهم حتى استعدوا بالارتقاء الى فهم الحقيقة وهي أن كل ما في الكون ماعرف سببه ومالم يعرف مخلوق خاضع للسنن العامة في الاسباب والمسببات وأن الخالق الواضع لهذه السنن لا يحل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به . حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين ،

(يقول محمد رشيد) هذا ملخص ما علق بذهني من ذلك الدرس ومن أراد كمال البيان فيه فليرجع الى ما كتبه رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية عند بيانه فيه لقول أبي مسلم الأصفهاني والقاضي أبي بكر (ص ٦٠ م ٨ من المنار. وص ٢٩٤ وما بعدها من الجزء الثاني من التفسير) فهذا ما نراه في منشأ وهم الواهم في عقيدة السيد جمال الدين من غير الكذبة المفترين

وأما ماذكره المنحوري من عادته في أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب فقد كان يأكل الوجبة ، ولكنه لم يكن يأكل وحده، وقد كان يكثر من شرب الشاي، ولم نسمع حتى من أعدائه انه كان يشرب المسكرات، فان لم يكن ما قيل من شربه القليل من الكونياك فرية، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كأن يكون رآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداويا فظنه الناظر عادة . وهذه الشبهات كثيرة وقع لي منها ماظن به من لا يعرفني الا بالسماع انني أفطر في رمضان متعمدا

ذلك أن ابراهيم بك الهلباوي كتب في المؤيد مقالة ضرب فيها المثل برجل كان في ادارة المؤيد يكلم صاحب المنار و يمدح الدين و يذكر فوائده وهو يدخن بسيكارته في نهار رمضان . فظن كثير ممن قرأ تلك المقالة ان الذي كان يدخن وقت الحديث هو صاحب المنار وتعجبوا من ذلك وتكلموا فيه فكان من يسمعه من العارفين بهذا الفقير يقول لهم ان صاحب المنار لم يتعود التدخين و يكرهه وربما يحرمه لاعتقاده بضرره :

على ان القصة ليست كما رواها الكاتب فان ذاك الذي كان يمدح الدين —إنما كان يمدحه في معرض مدح المنار وفوائده— لم يكن يدخن في أثناء الحديث ولكنني تركته وخرجت لحاجة ثم عدت فاذا به يدخن و يشرب القهوة !!



تتمة الترجمة

علم أن السيد جمال الدين ذهب بعد إنشاء العروة الوثقى في باريس والسعي في المسألة المصرية ذهب الى روسيا . ونقول إنه أقام في بطرسبرج عاصمتها أربع سنين كان فيها موضعاً لاكرام القيصر وكان مما خدم به المسلمين هناك إقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين والاذن لهم بطبع المصحف الشريف و بعض الكتب الدينية فأذن بذلك وقد نشرت جريدة الفلاح التي كانت تصدر في القاهرة مقالة في هذا الموضوع

و بينا هو في بطرسبرج زارها شاه ايران ناصر الدين وأظهر هناك رغبته في لقاء السيد فبلغ السيد ذلك فلم يحفل به ولم يزر الشاه . ثم سافر السيد الى مونيخ من بلاد ألمانيا فوافاها الشاه وهو فيها وهناك التقيا

ذكر السيد ذلك في بعض مجالسه في الاستانة وقال « إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جمعوني به فرغب اليّ أن أذهب معه الى بلاده ليجعلني رئيس

وزرائه فأبيت وقلت اني عزمت على الذهاب الى معرض باريس ولا أحب أن أنقض عزمي فألحّ عليّ أشد الإلحاح حتى ألزمني بالذهاب معه . وكان يقول عني : هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب : فقال له بعض الحاضرين — وهو الشيخ عبدالقادر المغربي الذى كتب حديثه وأرسله اليّ من الاستانة يومئذ — كيف يدعوك الى ذلك وأنت مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون وهوس منه : و بعد أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى الأوربا (كذا كان يعرف الكلمة وأمثالها في كلامه) فمنعني وسمعت عنه كلاماً خشناً في حقي وآراء رديئة مآلها الحجر عليّ في البلاد الايرانية . فأعملت الحيلة وذهبت الى مقام عبد العظيم وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمنا فمكثت هناك سبعة اشهر كتبت في أثنائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات (كذا) في مثالب الشاه المذكور وحث الشعب على خلعه ثم خرجت من هناك :

ثم ذكر مجيئه الى لوندره وطعنه هنالك في الشاه الى أن طلبه السلطان عبدالحميد الى الاستانة وكلمه في الكف عن الطعن في الشاه . قال : أخبرني أفندينا أن سفير العجم قصده ثلاث مرات قال فحجبته في المرتين الأوليين ثم أذنت له فطلب مني أن آمرك بالكف عن التعرض للشاه بسوء فأنا الآن أطلب منك الإعراض عن شاه العجم : فقلت حينئذ : امتثالا لأمر خليفة العصر قد عفوت شاه العجم قد عفوت شاه العجم (كذا قالها بتعدية عفوت بنفسه) فقال مولانا أمير المؤمنين حينئذ : يحق أن يخاف منك شاه العجم خوفا عظيما :

قال الكاتب : وذكر أنه حمل بعض علماء العجم على الافتاء بحرمة الدخان (التنباك) فحرمه ومنع العامة عن شربه فأطاعوه وشغبوا على الشاه وقصدوا داره لإهلاكه أو يبطل المقاولة الجديدة التي عقدها مع الافرنج لاجل حصر الدخان فاضطر الشاه الى ذلك و رفع غرامة لأصحاب المقاولة قدرها نصف مليون ليرا انكليزية:

(يقول المؤلف محمد رشيد) قد اطلعت على صورة مطبوعة على حدتها من الكتاب الذى أرسله الى رئيس المجتهدين في ذلك الوقت وهذا نصه :

مكتوب من البصرة الى السامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : انهذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أينماوجدت، وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زاكية تحققت بهاوقامت بواجب شؤونها كيفما نشأت، وفي أي قطر نبغت، الا وهم العلماء فاحببت عرضه على الكل وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمـة ، وبارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة الاسلام ، ورد كيد الزنادقة اللئام ،

لقد خصك الله بالنيابة العظمى ، عن الحجة الكبرى ، واختارك من العصابة الحقة ، وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشريعة الغراء ، وحراسة حقوقها بهـا ، وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها ، وأحال اليك من بين الأنام (وانت وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا ، وتحظى بالعقبى ، ووضع لك أريكة الرئاسة العامة على الافئـدة والنهى ،اقامة لدعامة العدل وانارة لمحجة الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها والشهادة دونها على سنن من مضى ،

وان الأمـة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، ووضيعها وعاليهـا ، قد أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية ، جاثية على الركب،خارَّة على الاذقان ، تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تعروها ، تطلّ بصائرها عليك في كل مصـيبة تمسها ، وهي ترى ان خـيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان أمنها وأمانيها فيك ،

فاذا لمح منك غض طرف ، أو نيت (١) بجانبك لحظة، وأمهلتها وشأنها لمحة ، ارتجفت أفئدتها، واختلت مشاعرها، وانتكثت عقائدها، وانهدمت دعائم ايمانها ، نعم لا برهان للعامة فيما دانوا ، الا استقامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء في فريضة، أو قعد بهم الضعف عن اماطة منكر ، لا عتور أولئك الظنون والاوهام، ونكص كل على عقبيه مارقا من الدين القويم ، حائدا عن الصراط المستقيم . .

وبعد هذا وذاك أقول ان الأمة الايرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق (اياك أعني) عن القيام بناصرها وهو حامل الامانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعا ، وطاشت عقولها ، وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان وجحود وايقان) لا تهتدي سبيلا ، وهامت في بيداء الهواجس في عتمة الوساوس، ضالة عن رشدها لا تجد اليه دليلا ، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها ، وسد دونها أبواب رجائها ، وكادت ان تختار إباءاً منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة الحق وتتبع الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتساءلون شاخصة أبصارهم عن أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه ان يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينه ، واضطره الى ترك الشريعة وأهلها ، الى أيدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ، ويحكمون فيها بما يشاؤن ، حتى ان جماعة من الضعفاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء ، وحسبوا الامر أحبولة الحاذق، وأسطورة المذق ، وذلك لانها ترى (وهو الواقع) ان لك الكلمة الجامعة ، والحجة الساطعة ، وان أمرك في الكل نافذ ، وليس لحكمك في الامة منابذ ، وانك لو أردت تجمع آحاد الامة بكلمة منك (وهي كلمة تنبثق من كيان الحق الى صدور أهله) فترهب بها عدو الله وعدوهم ، وتكف عنهم شر الزنادقة ، وتزيح ماحاق بهم من العنت والشقاء ، وتنتشلهم من ضنك

(١) كذا في الاصل والنيت هو التمايل من ضعف وفعله ككال يكيل

العيش الى ما هو أرغد وأهنى ، فيصير الدين بأهله منيعا حريزا ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا ،

هذا هو الحق . انك رأس العصابة الحقة (١) ، وانك الروح الساري في آحاد الأمة ، فلا يقوم لهم قائم الا بك ، ولا تجتمع كلمتهم الا عليك ، لوقمت بالحق نهضوا جميعاً ولهم الكلمة العليا ، ولو قعدت تثبطوا ، وصارت كلمتهم هي السفلى ، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غض حبر الأمة طرفه عن شؤونهم ، وتركهم هملا بلا راع ، وهمجا بلا رادع ولا داع ، يقيم لهم عذرا فيما ارتابوا . خصوصاً لما رأوا أن حجة الاسلام قد تونى فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه ، وأجمعت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية لغوبه ، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذي به بعد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة . ومن يكون أليق بهذه وأحرى بها ممن اصطفاه الله في القرن الرابع عشر ، وجعله برهانا للدين ، وحجة على البشر ،

أيها الحبر الأعظم ، ان الملك قد وهنت مريرته ، فساءت سيرته ، وضعفت مشاعره فقبحت سريرته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وادارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كليها وجزئيها بيد زنديق أثيم ، غشوم ثم بعد ذلك زنيم . . يسب الانبياء في المحاضر جهرا ، ولا يذعن لشريعة الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ، ويقذف الاتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويعامل الوعاظ معاملة اللئام ، وانه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية قد خلع العذار ، وتجاهر بشرب العقار ، وموالاة الكفار ، ومعاداة الأبرار ، هذه هي أفعاله الخاصة في نفسه . . ،

ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين ـ المعادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول . . نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج . . والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول . . والتنباك وما يتبعه من

(١) الحقة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقية

المراكز ومحلات الحرث و بيوت المستحفظين والحاملين والبائعين اني وجد وحيث نبت ، وحكر العنب للخمور وماتستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ' والبنك وما أدراك ماالبنك هو اعطاء زمام الأهالي كاية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملا كه اياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فحبق قائلا ان هذه معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة !! يالله من هذا البرهان الذى سوله خرق الخائنين ،وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقا لسكوتها (لو سكتت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والجادة من أنزلى الى الخراسان ومايتعلق بها من الدوروالفنادق والحقول . . . ولكن الدولة الروسية شمخت بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهـدية ، وهي عازمة على استملاك الخراسان والاستيلاء على الاذربيجان والمازندران انلم تنحل هذه المعاهدات ولم تنفسخ هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو الالد ، هذه هي النتيجة الاولى لسياسة هذا الاخرق ،

و بالجملة انهذا المجرم قدعرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول بيوم المزاد، وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للاجانب ولكنه لخسة طبعه ودنائة فطرته لايبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم معدودة (نعم هكذا يكون اذا امتزجت اللئامة والشره بالخيانة والسفه)

وانك أيها الحجة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (يحكمون فيها بمايشاؤن و يفعلون مايريدون) ، واذا فاتتك هذه الفرصة أيها الحبر ووقع الامروأنت حي لما أبقيت ذكرا جميلا بعدك في صحيفة العالم وأوراق التواريخ... وأنت تعلم أن علماء الايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منـك (وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم) كلمة واحدة و يرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها . . . ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها و يترك كما سدى ،

ثم أقول الحجة قول خبير بصير ان الدولة العثمانية تبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه لأنها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لامحالة ، وان وزراء الايران وأمراءها كلهم يبتهجون بكلمة تنبص بها في هذا الشأن لانهم بأجمعهم يمافون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويجدون بنهضتك مجالا لابطالها ، وفرصة لكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كلٌّ صدع بالحق وجبه هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين ماقرت كسلسلة المعدات قرارا ، ولاجمعتها وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لتماثلهم فى مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساويهم في الرتب غالبًا عند العامة لاينجذب بعضهم الى بعض ولايصير أحد منهم اصفًا للآخر ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة . كل يدور على محوره، وكل يردع الزور وهو في مركزه، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي). وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمنزلة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم، وقوة جامعة لقلوبهم، وبك تنضم القوى المتفرقة الشاردة، وتلتئم القدر المتشتتة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية تامة يحق لها أن تدفع الشر المحدق بالبلاد، وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام . . . . فالكل منك وبك واليك . . وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذاك العتلّ شدائد ماسبق متذقرون لها مثيل ، وتحملوا الصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة .

ولا شك أن حبر الامة قد سمع مافعله أذلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدربندي وستسمع قريبًا ماصنعه الجفاة الطغاة بالعالم المجتهد التقي البار الحاج السيد على أكبر الشيرازي وستحيط

علما بما فعله بحماة الملة والامة من قتل وضرب وكيّ وحبس. ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرماني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضل الاديب الميرزا فروغي والاريب النجيب الميرزا محمد على خان والفاضل المتفنن اعتماد السلطنة وغيرهم .

وأما قصتي، وما فعله ذلك الكنود الظلوم معي، فمما يفتت أكباد أهل الايمان، ويقطع قلوب ذوي الايقان، ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان، ان ذلك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغاره) « انا لله وانا اليه راجعون »

ثم حملني زبانيته الاوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتني جحفلة من الفرسان الى خانقين وصحبني جمع من الشرط . . . ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني الى البصرة علما منه أنه لو تركني ونفسي لاتيتك أيها الحبر وبثثت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أيها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ، . . وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وهلاك العباد، واعلاء كلمة الكفر . . . . . وبما زاده لؤما على لؤمه ودناءة على دناءته أنه دفعا لثورة العامة وتسكينا لهياج الناس نسب تلك العصابة التي ساقتها غيرة الدين وحمية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية . . كما أشاع بين الناس أولا (قطع الله لسانه) أني كنت غير مختون (وا إسلاماه) ما هذا الضعف؟ ما هذا الوهن؟ كيف أمكن أن صعلوكا دنيء النسب، ووغدا خسيس الحسب، قدر ان يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ويزدري بالعلماء ويهين السلالة المصطفوية ويبهت السادة المرتضوية البهتان العظيم ، ولا يد قادرة تستأصل هذا الجذر الخبيث شفاء لغيظ المؤمنين، وانتقاما لآل سيد المرسلين، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة العالية أمسكت عن بث الشكوى ..... ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر الى البصرة طلب مني ان اكتب الى الحبر الاعظم كتاباً أبث فيه هذه الغوائل والحوادث والكوارث فبادرت اليه امتثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد الحسيني

....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والغيرة في ذلك العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأفتى بحرمة استعمال التنباك وزراعته واذاع العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران النارجيله (الشيشة) فقيل له انه ليس في القصر تنباك لاننا اتلفناه فسأل عن السبب مبهوتا فقيل له: فتوى حجة الاسلام : فقال لم لم تستأذنوني؟ قيل انها مسألة دينية لاحاجة فيها الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت شرحها في كتابه فهكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء

هكذا هكذا او الا فلا لا ليس كل الرجال تدعي رجالا

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس أتم الظهور بما كان قلب نظام الحكومة وتحويلها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي المنبه الاول للعلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين على هذا هو العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان عمل جمعيته كان اول سعي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق السيد وخاصته بأنه اذا آل الامر اليه ليؤسسن مجلس نواب وليعملن وليعملن . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بعد ذلك

ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وارشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد

فارس هو المنبه وحده لكون سلطة العلماء والامة فوق سلطة الملوك بل كان تمام التنبيه قتل الشاه بعد ذلك وما قيل من ان قاتله من اتباع السيد جمال الدين

لم يكتف السيد بتحريض كبير المجتهدين وسائر العلماء على الشاه ووزيره ولا بنجاحه في تدبيرهم له بل ذهب من البصره الى أوربا وطفق يطعن فيهما بالقول والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية باسم (ضياء الخافقين) أو سعى في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في مصر من أهم مباحثها

وقد فضح في مقالاته عن بلاد فارس حكومتها وشاهها شر فضيحة حتى جاءه سفير العجم في لندره يستميله ويسترضيه ليكف عن الكلام والكتابة في ذلك وعرض عليه مالاً كثيراً فقال له السيد « لا أرضى الا أن يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من أتباع السيد . واننا نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخافقين عن بلاد فارس تخليداً له في التاريخ . وهاك ما كتبه في العدد الثاني تحريضاً للعلماء على خلع الشاه والقيام بشؤون الامة . وهذا العدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

بلاد فارس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حملة القرآن ، وحفظة الايمان ، ظهراء الدين المتين ، ونصراء الشرع المبين ، جنود الله الغالبة في العالم ، وحججه الدامغة لضلال الأمم ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي . وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج الميرزا أبي القاسم الكربلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الأقا التبريزي ، وجناب الحاج السيد علي اكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ، وجناب الميرزا حسن الأشتياني . وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء ، وجناب الحاج آقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني ،

وجناب الحاج الملاّ محمد تقي البجنوردي . وسائر هداة الأمة . ونوابّ الأئمة. من الاحبار العظام ، والعلماء الكرام ، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين ، وأرغم أنوف الزنادقة المتجبرين ، آمين

طالما تاقت الامم الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الايرانية حرصا منها وشرها . ولكم سولت لها امانيها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها وتمهد فيها سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المقارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات . ولكنها علمت ان بلوغ الارب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من المحال لان القلوب تهوي اليهم طرا ، والناس جميعا طوع يدهم يأتمرون كيفما أمروا ، ويقومون حيثما قاموا ، لامرد لقضائهم ، ولا دافع لحكمهم ، وانهم لايزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام لاتأخذهم فيه غفلة ، ولا تعروهم غرة ، ولا تميد بهم شهوة ، فخنست وهي تتربص بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث ، ايم الله أنها قد اصابت فيما رأت ، لان العامة لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لالتجأت بطيب النفس الى الكفر واستظلت بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدمت القوة ، وفقدت النصفة ، وانفت المجاملة ، فلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها لنفسها حقا ، ولا انشرح منها صدورها فرحا .

ولذا كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة من الافرنج ومحت اسمها ، وطمست رسمها ،

إن سلاطين الهند وأمراء ماوراء النهر جدت في إذلال علماء الدين فعاد الوبال عليهم سنة الله فى خلقه . . . وان الافغانيين ماصانوا بلادهم عن أطماع الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد كانت فى نصابها *

ولما تولى هذا الشاه (الحارية (١) الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء تدريجا ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حبا بالاستبداد باطل أوامره ونواهيه،

(١) هي الحية كبرت فصغرت حتى بقي رأسها فيه سمها ونفسها وهي أخبث الافاعي

وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جمعاً من البلاد بهوان ، ونهنه فرقة عن إقامة الشرع بصغار ، وجلب طائفة من أوطانها الى دار الجور والخرق (طهران) وقهرها على الإقامة فيها بذل خلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف فى أهوائه الدنية وملاذه البهيمية مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ونزح من دموع الأرامل والأيتام قهرا (ياللاسلام)

فاذا اشتد جنونه بجميع فنونه فاستوزر وغداً خسيساً ليس له دين يردعه ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ماقعد على دسته الا وقام بابادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة الى بيع البلاد الاسلامية بقيم زهيده *

فحسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الايرانية بلا كفاح ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت شوكتهم ونفد نفوذهم فهرع كل فاغراً فاه يبغي أن يسرط قطعة من ملك المملكة *

ففار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسعاه وذل كل جبار عنيد .

أقول الحق إنكم يا أيها القادة قد عظمتم الاسلام بعزيمتكم وأعليتم كلمته وملأتم القلوب من الرهبة والهيبة . وعلمت الأجانب طرا ان لكم سلطانا لا يقاوم وقوة لا تدفع وكلمة لا ترد وانكم سياج البلاد وبيدكم أزمة العباد ولكن قد عظم الخطب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبرا للكسر وحرصاً على لوصول الى الغاية وأزمعت على اغراء ذاك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة من البلاد . وأبانت له ان انفاذ الأوامر انما هو بانقياد قواد الجيوش وان القواد لا يعصون العلماء أمرا ولا يرضون بهم شرا فيجب لاستتباب الحكومة استبدالهم بقواد الأفرنج . وأرت لذاك البليد الخائن رآسة الشرطة وقيادة فوج (١) القزاق

(١) يطلق الفرس هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك لفظ طابور (وصوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أورطه وهي أعجمية

نموذجاً (كنت واضرابه) . وان ذاك الزنديق و زملاءه في الالحاد يجدون الآن في جلب قواد من الأجانب. والشاه بجنونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طرباً *

لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقه وتعاهد العته والشره على محق الدين واضمحلال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة *

ياهداة الأمة انكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأمهلتموه على سرير جنونه وما أسرعتم بخلعه عن كرسي غيه لقضي الأمر فعسر العلاج وتعذر التدارك *

أنتم نصراء الله في الارض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية تبعث على الشقاق وتدعو الى النفاق وينس الشيطان بقذفات الحق عن تفريق كلمتكم . فأنتم جميعاً يدٌ واحدة يذود بها الله عن صياصي دينه الحصينة و يذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الا من قضي الله عليه بالخيبة والخسران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحاربة) لأطاعكم الأمير والحقير وأذعن لحكمكم الغني والفقير (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عياناً فلا أقيم برهاناً) خصوصاً وان الصدور قد حرجت وان القلوب قد تفطرت من هذه السلطنة القاسية الحمقى التي ماسدت ثغورا ولا جندت جنودا ولا عمرت بلادا ولا نشرت علوما ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوماً ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأفقرت وأذلت ثم بعد ضلت وارتدت وانها سحقت عظام المسلمين وعجنتها بدمائهم فعملت منها اللبنات (١) بنت بها قصورا لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين العديدة تعساً لها وتبت يداها *

واذا وقع الخلع (وتكفيه كلمة واحدة ينبض بها لسان الحق غيرة على دينه) فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الحيدان عن أوامركم الالهية ولا يسعه الا الخضوع بعتبتكم عتبة الشريعة المحمدية كيف لا وهو يرى عياناً مالكم من القوة الربانية التي تقلبون بها الطغاة عن كرسي غيها . وان العامة متى سمعت

(١) جمع لبنة من اللبن الذي يبنى به

بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولعا وحامت حولكم هياما وصارت جميعًا جندا لله وحزبا لاوليائه العلماء *

ولقد وهم من ظن ان خلع هذا (الخارية) لايمكن الا بوجيات العساكر وطلقات المدافع والقنابر . ليس الامر كذلك . لان عقيدة ايمانية قد رسخت في العقول ، وتمكنت من النفوس ، وهي ان الراد على العلماء راد على الله (هذا هو الحق وعليه المذهب) فاذا أعلنتم (ياحملة القرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر وأبنتم أمره تعالى فى حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع بلا جدال ولا قتال *

ولقد أراكم الله في هذه الأيام إتماما لحجته ماأولاكم من القوة التامة ، والقدرة الكاملة ، وكان الذين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل . اجتمعت النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيل (مسألة التنباك) فعجبت الامم من قوة هذه الكلمة وسرعة نفوذها وبهت الذي كفر . قوة أنعمها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام . فهل يجوز منكم اهمالها وهل يسوغ التفريط فيها ؟ حاشا ثم حاشا *

قد آن الوقت لاحياء مراسم الدين ، واعزاز المسلمين ، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفتك بكم ، وينتهك اعراضكم ، ويثلم سياج دينكم ، ليس عليكم الا أن تعلنوا على رؤوس الاشهاد حرمة إطاعته فاذًا يرى نفسه ذليلا فريدا ينفر منه بطانته وينفر منه حاشيته ويذمه العساكر ويرجمه الأصاغر *

انكم يا أيها العلماء والذين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم . قد كسرتم قرن فرعون بعصا الحق وجدعتم أنف الخارية بسيف الشرع فهو يتربص فرصا تساعده على الانتقام شفاء لغيظه ومرضاة لطبيعته التي فطرت على الحقد واللجاج فلا تمهلوه أياما ولا تمكنوه أن يقبض زماما اعلنوا خلعه قبل اندمال جرحه *

وحاشا كم أيها الراسخون فى العلم أن ترتابوا في خلع رجل سلطانه غصب وأفعاله فسق وأوامره جور وانه بعد ان مص دماء المسلمين ونهش عظام

المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه ان يملك الأجانب بلاداً كانت للاسلام عزاً والدين المتين حرزاً وساقته سورة السفه الى اعلاء كلمة الكفر والاستظلال بلواء الشرك *

ثم أقول ان الوزراء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا (الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفد جلدهم) كلمة واحدة حتى يخلعوا هذا الفرعون الذليل ويريحوا العباد من ضره ويصونوا حوزة الدين من شره قبل أن يحل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *

﴿ السيد الحسيني ﴾

(يقول محمد رشيد) ان للعلماء من الاحترام والنفوذ الروحي في بلاد الأعاجم ماليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه فى سائر بلاد العجم فان الحكام ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ما لغيرهم من حكام المسلمين . وما أزال الملوك والأمراء احترام العلماء ومحو نفوذهم ــ حاشا ما كان منه مؤيداً لهم ومعيناً لاستبدادهم ــ الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم . فصار رزق العالم وجاهه الدنيوي بيد الأمير أو السلطان وهما الرسنان اللذان يقودون بهما طالب المال والجاه من العلماء الى حيث شاؤا . فاذا أمكن لطلاب الإصلاح الاسلامي أن يبطلوا هذه الرتب العلمية ومالها من الشارات ويخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكام فانهم يحررون العلماء من رق يكون مقدمة لاصلاح الامة كلها

الاسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكام المستبدون في أهله بانتحال الرياسة فيه على كونهم قد أبطلوا اشتراط العلم الديني وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالقضاء فيما يسمونه الامور الشخصية وغير شرعية وهي سائر الاحكام القضائية والادارية والسياسية ولا يشترطون في عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الاعلى من أمير أو سلطان ان يكون

قد تلقى علم التوحيد والفقه فضلاً عن التفسير والحديث . ومع هذا كله يجعل هذا الحاكم رئيساً دينياً ويجعل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم بالرتب العلمية التي يعدّ بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه » فلهذا صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترم عند حكامه الا بقدر تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاحتفال بالمواسم الدينية والمبتدعة ينهدم ركن من اركان الاسلام كالزكاة فلا يبالي به الحكام الذين جعلوا انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لأنهم على قسمين قسم مرتبط بالسلاطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لاشأن له فهو يستصغر نفسه ان تقوم بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفقت العامة تحترمه نفحه الامراء بشيء من الدنانير التي قاموا على خزائنها ــ وهي للامة لا لهم ــ وألقوا في عنقه ورأسه طوقا من الفضة او الذهب (علامة الشرف) فكان لهم من المنقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في التعلم والتعليم والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلاطين كما تقدم

وكتب السيد في العدد الاول من ضياء الخافقين الذي صدر في فبراير (شباط) سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

أحوال فارس الحاضرة

ان اصراخ الفارس دويا في آفاق الارض . قد أقفرت البلاد وبارت الاراضي وغارت الأنهر وتبدد الناس في شاسعات الاقطار شذر مذر . ان سواد العراق ومدن القفقاز وامصار ماوراء النهر وقرى الخوارزم وقصبات بين النهرين غصت بوجوه غبره . ذرارى الاماثل وسلالة الافاضل يكدون آناء الليل وأطراف النهار في أعمال خسيسة وحرف دنيئة تأنف منها النفوس وتعافها الطباع . ان

الايران بسعتها قد ضاقت على أبنائها ، ونبت بأهلها، وليس في تلك البسيطة الرحبة الا أخصاص حقيرة وأكنان صغيرة ودور حرجة يسكنها شعث غبر رث الثياب كأنهم ينازعون الموت ويراقبون الأجل . الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطاناً قاهراً لا يحد طوره ، ولا يسبر غوره . والقسوة برزت بصور بشعة وهيئات شنيعة تقشعر منها الجلود . جدع الانوف وقطع الآذان وشق البطون وجز الرؤوس أعمال عادية وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ولا يتبشمها الرائي . ودونها فظائع تأبى النفوس البشرية عن استماعها وتجم دون ذكرها وتضطرب حياء وخشية كلما خطرت في لوح خيالها .

الحكومة قهرت الشرع فأبادته ، وكرهت النظام المدني فمجته ، وازدرت بناموس العقل والفطرة فطمسته ، فلا يسود فيها الا الهوس ، ولا يأمر الا الشره ، ولا يقوم بالامر الا القهر والزور ، ولا يحكم الا السيف والكي والسوط ، يلذها سفك الدماء ، وتباهي بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأرامل والأيتام ، فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنيها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم الا الفرار ،

قد هرب خمس الايرانيين الى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وتراهم يجولون في الأزقة والأسواق بين حمال وكناس وزبال وسقا . وهم برثاثة ثيابهم وكلاحة وجوههم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...

لا حد في الأقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان الجرائم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزاء لا يحده حصر . كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر . لا دستور للحكومة ولا نظام ولا قانون . كل يفعل مايقدر عليه وتدعو شهوته اليه ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه . يأخذ الجار بالجار ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له) كلٌّ مسؤول لديه عن الكل . . .

الحاكم يقدم للشاه على حسب عظم الحكومة وصغرها تقدمة (بيش كش) ويلتزمها على نفسه كل سنة شكرا لتوليته (ولا شهرية له) ثم انه يأخذ من كل من

يستصحبه لخدمة الحكومة أوخاصة شخصه من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفراش وحارس وبقال مبلغاً جزاء لاستخدامه (ولا شهرية لهؤلاء أبدا) . وهذه القطيعة الضارية والضباع الجائعة تثب فجأة على البلاد فتفترس وتنهش وتبلع وتدمر ولا شفقة تكف ولاعقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه . .

وان الحاكم واتباعه للاستحصال على مانقدوه أولا وما التزموا على ذمتهم لايدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة عملا شنيعاً وفعلا فظيعاً وأمرا بشعاً الا ويرتكبونها . . يعلقون النساء بشعورهن ويضعون الرجال مع الكلاب العاقرة في الجوالق ويسمرون الآذان على ألواح من الخشب ويدخلون زماماً في العرنين ويديرون ذاك المظلوم بتلك الهيئة المحزنة في الأزقة والأسواق وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط ٭

وان الحكومة الايرانية لاتمون العساكر وليست لهم لاشهرية ولاجراية فانما تكلهم الى قدرتهم في الغصب وحذقهم في السرقة - تدبر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحمقى . أليست هذه هي الامة الايرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الامة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي وأقامت الديانة على دعامة الحق بقوة براهينها وقومت اللغة العربية بعالي تصانيفها ؟ أسفا على هذه الامة كيف أبادها الجور وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة وكاد أن يندرس رسمها وينطمس اسمها . أين العلماء وأين حملة القرآن وأين حفاظ الشرع والقائمين بأمر الامة وأين نصراء الحق والعدل ٭ ﴿ السيد ﴾

(يقول محمد رشيد) الم يكن الشاه جديراً بالخوف من اظهار هذه المخازي وعاقبة ذلك التحريض ؟ ام هل يستغرب القارئ — وقد قرأ هذا — قول السلطان عبد الحميد للسيد : يحق يخاف منك شاه العجم خوفا عظيما : وبلغني أن له كتابة أخرى يحرض فيها على خلع السلطانين ، ويقول فيها ان خلعهما أهون من خلع النعلين ،

وانا لم أطلع على ذلك . ولكن غلبه أحد السلطانين بالدهاء وحجر عليه في الاستانة حيث لا مجال للتحريض بالقول ولا بالكتابة

قال السيد في بعض محافله بالاستانه ان الشاه ناصر الدين طغى وتجبر و بالغ في الكبر والعلو وكان كل استناده على دولة الانكليز . وذكر انه انما اختار عاصمة الانكليز للطعن فيه لاجل ان يحقر أمره في عين الشعب الانكليزي ويحفظ قلبه عليه

ونقل الينا أن السلطان كان يريد ان يرسله الى أوروبا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . وذكر هو أن السلطان أثنى عليه بخدمة الاسلام وقال له انني أحب ان اجعل وطنك الاستانة اذ لا وطن لك وعرض عليه ان يزوجه فأبى وقال في بعض مجالسه اني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر من ذهاب الشيخ عليش بتلاميذه الى أحد ملاهي الازبكية وتعاطيهم كؤوس (البيرة) جهرا : وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي انه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه الى ماعلق آماله به من عظائم الامور

وحدثني الشيخ حسين الجسر وغيره عنه انه بعد مجيئه الى الاستانة استأذن له على السلطان فقيل له انه مشغول وضرب له موعد جاء فيه فقيل له انه مشغول وضرب له موعد آخر فقال لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابلته فتمنع وقال «هذه بتلك» فاقنعوه بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضي . وان السلطان كان اذا أغضبه بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة . ومن ذلك انه لما سعي به اليه بانه أفشى سره (اي سر السلطان) الى مكاتب التيمس وكان قد زاره وان عنده ديناميت وانه يحقر السلطان في مجالسه امر السلطان بتفتيش بيته الذي انزله فيه فغضب وذهب الى سفارة الانكليز وأراد ان يسافر من الاستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبله وقال لا يفرق بيني و بينك الا القضاء المحتوم ثم انزله في زورقه الذي يتنزه به في بحيرة « يلدز » وما زال به حتى استجابت حيته لرقيته ، واندمل جرحه بمسبره ،

وكان السلطان يتساهل معه ما لا يتساهل مع أحد اذ يبلغه عنه من الأقوال الجارحة ما يبلغه فلا يظهر له ولا لأحد ذلك ـ وقد حدثني بعض من حضر مجلسه في الاستانة انه سمعه يقول « ان هذا السلطان سلّ في رئة الدولة » وكان هذا بعد إعجاب بالسلطان استمر مدة طويلة كاتب في غضونها علماء الفرس المجتهدين واقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين فأجابوا وكتبوا اليه في ذلك . يقال إن هذا كان ابتداء في دعوة المسلمين كافة الى الاعتصام بعروة الخلافة والقيام بتدبير سياسي عظيم عرقله الشيخ ابو الهدى عليه واقنع السلطان بوجوب الانصراف عنه ـ

مذهب السيد جمال الدين السياسي

لعل ما قلناه آنفاً هو السبب فيما اشتهر عن السيد من السعي الى جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد فانني رأيت الناس يتناقلون هذا الرأي وقد كتبه غير واحد في الصحف المنشّرة والتواريخ المصنفة ـ قال جرجي افندي زيدان في آخر ترجمة السيد من كتاب تراجم مشاهير الشرق (ص ٦٥ ج ٢) ما نصه :

﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله ، والمحور الذي تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى ـ وقد بذل في هذا السعي جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا » اه المراد

والصواب أنه كان له من حياته مقصدان (احدهما) علمي وهو تنبيه المسلمين الى الاصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ما بينه الاستاذ الامام في ترجمته (ص٣٤) وهو ترقية دولة إسلامية أية دولة كانت وحسبك انه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي الى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الاوربية ـ ثم تعلق أمله بالسودان ، ثم بلاد إيران ، ثم بالدولة العثمانية ،

أما شأنه في مصر فظاهره معروف في الجملة وقل من يعرف أسراره الخفية ، ومقاصده السياسية ، وقد علم بعضه مما تقدم ونزيده بيانا فنقول

نقلنا فيما مرّ من هذه الترجمة (ص٣٥ ـ ٣٨) نبذة من كتاب اسباب الحوادث العرابية للاستاذ الامام بين فيها ان السيد جمال الدين هو موجد النهضة الاجتماعية بمصر (من الجهتين العلمية والسياسية) وقد بين بعدما تقدم نقله ما كان من الارتباك الشديد في المالية المصرية بإسراف إسماعيل باشا وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعيين وزيرين اوربيين احدهما انكليزي للمالية والآخر فرنسي للاشغال العمومية فكان ذلك مع حكم المحاكم المختلطة على الخديوي في مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان على تنبيه أفكار المصريين وبين لهم ان حاكمهم قد يقع تحت الحكم وان سلطته ليست إلهية تعلو قوى البشر . ثم أفاض في بيان سوء الحال وذكر حادثة الضباط التي توسل بها إسماعيل الى قلب وزارة نوبار باشا مع بقاء الوزيرين الاوربيين ثم توسله باعيان الأمة الى عزلهما وخبر اللائحة الوطنية التي عملت لاجل ذلك وما كان من تنبيه الناس الى ان حاكمهم قد يحتاج اليهم في الدفاع عن سلطته (وهذا مما كان يغتنمه السيد جمال الدين)

بعد هذا ذكر ما كان من سعي نوبار باشا في اوربا لعزل إسماعيل واشار الى ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا) من المواطأة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه . قال بعد ذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأمورا فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على عزل إسماعيل ما نصه :

« ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (أي اسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله. وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات في هذا الأمر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تنالا ما تطلبان

عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع» وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح (١) ويسعى اليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه

ثم ذكر ولاية توفيق باشا وماتشبث به من الاصلاح في اوائلها ومنه شروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب ومعارضة الاوربيين لاسيما وكيلي فرنسا وانكلترا لذلك وذكر انشاء جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصري حقيقي وانما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود . ثم انشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة في الانتقاد والوعظ والارشاد ثم قال مانصه :

« لكن ماحظ الاجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين وتخويلهم الاصلاح المرغوب؟ لو صح شأن المصريين واستنارت عقولهم وكان لهم رأي في ادارة بلادهم هل تزيد الضرائب و يضيق على الفلاح في ادائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة اشهر وهو انما ياخذها من الاجنبي ؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للاهالي سعادتهم هل يمكن للاجانب ان يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية وان يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم ؟ ماذا اصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يحبون حتى يطلبوا الخلاص منه ؟ نعم قد يصح هذا اذا امكن ان يكونوا ملائكة قدسيين يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ويزهدون فى المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم وان يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما اتوه من قبل

« وسواء صحت هذه الأقول أو لم تصح فالمحقق الذي لا ريب به ان وكيل دولة فرنسا عند ما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام أخذ

(١) راجع كلام اديب اسحق في ص ٤١

يسعى في إقامة الموانع دون ذلك ودعا وكيل دولة انكلترا للاتفاق معه في اقناع الخديو بمضرة هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر وقت الارتباك في المسائل المالية وان دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات لو تم ذلك و بقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام · وساعدهم على ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجناب الخديوي ولقرب حادثة الخديوي الاسبق من الأذهان وظهور السبب فيها تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا وعندما عرض عليه رئيس النظار ماوضعوه في مشروعهم عرضاً غير رسمي ظهرت عليه علامات النفور منه غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى ان جاء الفرمان وتلي في احتفال عظيم وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد غاية شعبان سنة ١٢٩٦ فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه و بعد قليل قدموا استعفاءهم فقبل وانصرفوا والسبب الصحيح لاستعفائهم ان شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الإصلاح ورأى حضرة الخديو السابق ان الاصلاح على هذه الصورة سابق وقته فلم يقبل ماعرض عليه فاستعفت النظارة وشكل الخديوي نظارة جديدة تحت رئاسته

«بذلت مساع كثيرة في اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لاتشعر به الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجديد لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي وكثر القيل والقال في ذلك وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ في مصر يظنون ان محرك هذه الافكار و باعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام انماهو الشيخ جمال الدين فتقدموا الى الجناب الخديوي باقامة الادلة على خطر الرجل واخافوه منه (١) كما اخافوه من النظام نفسه وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة · اما التخلص من الشيخ جمال الدين فكان بنفيه سادس رمضان اخذ في الطريق آخر الليل وهو

(١) راجع ص٣٣

ذاهب الى بيته هو وخادمه وحجز في الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه. و بعد ان انتشر ضياء النهار حمل في عربة مقفلة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها انزل في البحر ليسافر الى بمباي فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تقرح جسده ولم يكن معه من النقود اكثر من ثلاث جنيهات عثمانية و بعض قروش من الفضة وهذا المبلغ اخذ منه في السويس فنزل البحر ولم يكن معه شيء . ولما شعر بذلك احمد بك النقاوي وكان قنصل دولة ايران في السويس ذهب لتشييعه وعرض عليه مبلغا وافرا من النقد فأبى ان يأخذ منه شيأ(٢) هذا ما رواه احمد بك النقاوي و وافقه عليه الشيخ جمال الدين عند ما سئل عن ذلك بعد عودته من الهند الى اوربا. وثاني يوم سفر الشيخ جمال الدين ذهب بعض تلامذته الى بيته فوجدوا بعض اعوان الضبطية يعبئون كتبه فدهشوا و رجعوا وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى فاختار منها اعوان الاصلاح وحفظة الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا بالباقي بطون الصناديق وارسلوه الى بندر أبو شهر من بلاد ايران ظنا منهم بأن صاحب الكتب ذهب الى ذلك الثغر و بقيت الكتب في مخزن الجمرك هناك الى ان اكلها العث هنيئا مريئاً

«اذكر هذه الحادثة لما كان لها من الاثر السيء في افكار العامة فقد ذكرتهم بالايام السالفة واحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المفتش وغيره وفجعت آمالهم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين

«انك أنت موضع أملي في مصر ايها السيد»

« فاين موضع هذا العمل من الاصلاح الذي كان ينادي به الجناب الخديوي في اوامره العالية وينعش بذكره ارواح الخاصة من الماثلين في حضرته ويجتهد في ابلاغ البشرى به الى الكافة؟ اليس من اول مبادي الاصلاح تقرير الأمن على الانفس وكفالة الحقوق بالعدالة ومتى يكون الامن اذا لم تحقق التهم ، ولم يسأل المتهم، ولم تتضح الجناية بادلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها

(٢) راجع قول اديب اسحق في ذلك (ص ٤٢)

« لاريب ان الانزعاج بنفي الشيخ جمال الدين كان عاماً والكدر كان تاماً ولكن الجناب الخديو أظهر سروره مما فعل وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار فى رمضان فاظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر الشيخ جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي وفيه من التقريع الشديد مالم يكن يستحقه الرجل كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه فنشره البعض وابت احدى الجرائد نشره لان محررها كان من تلامذته فعطلت . على ان هذه الشدة، لم تزد الافكار الا حدة، ولا الالسن الا جرأة، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الا نموا وظهورا » اه المراد هنا من كلام الاستاذ الامام في كتاب اسباب الثورة العرابية وهو مؤيد بما تقدم في ترجمة اديب بك اسحق وسليم بك العنحوري للسيد

هذا شيء من التفصيل لعمله السياسي في مصر فهو الذي نفخ فيها روح الحياة المعنوية ونقلها من طور الى طور ولكنه تركها في سن الطفولية وخلف عليها وصيه ووارث علمه وحكمته الاستاذ الامام كما صرح بذلك عند سفره فاستقل بتربيتها من بعده كما يعلم ذلك بالتفصيل من هذا الكتاب

وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندره أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال . فقد عظم أمر محمد أحمد القائم بدعوى المهدية بالسودان في نفوس الانكليز وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى انكلترا من الاخبار حتى اقنعا الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها الا مجيء البرق بنبإ وفاة محمد أحمد

وقد كان لهما رحمهما الله من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل الى العمل فيه بعد ترك الانكليز له ما لا فائدة في بيانه . ويجد قارئ كتب الاستاذ الإمام الى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى إشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الإصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني)

وأما إيران فقد علم القراء بعض نبإه فيها من الفصل الذي قبل هذا فهو نافخ روح الحركة التي تقيم البلاد وتقعدها الآن

وجملة القول انه كان العامل الاول في هذا الانقلاب الاجتماعي الذي حصل في مصر من نحو ثلاثين سنة والمنبه الأول الى الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس وسمعت الاستاذ الامام يقول « ان السيد لم يعمل عملاً حقيقياً الا في مصر » ولا غرو فهو المزلزل الأول لجمود الازهر والمصلح الاول للتعليم الاسلامي فيه بتربيته الاستاذ الامام وواضع المعول الاول في أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر ومؤسس الحزب الوطني لايجاد حكومة أهلية صالحة. وقد كانت البلاد تشتغل بالعلوم الاوربية من قبله عشرات من السنين في غير ان يفكر احد فيها بشيء من هذا وقد كان من اسباب فشله والعوائق دون إتمام عمله بناء سياسته على عداوة انكلترا ومقاومة نفوذها في الشرق وله في ذلك مقالات كثيرة سنورد طائفة منها في جزء آخر نجعله ملحقاً لهذا الكتاب مع طائفة أخرى من مقالاته في الفلسفة ومقاومة الاستبداد

فلسفة السيد جمال الدين

لا تزال فلسفة اليونان والعرب تدرس في بلاد الأعاجم ولكن قل من يقرأها في البلاد العربية كمصر والشام . وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة في بلاده ثم تلقى شيئا من الفلسفة الأوربية والرياضيات على الطريقة الحديثة في الهند وكان قد تصوف قبل ذلك علما وعملاً فكانت فلسفته مزيجا من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة أي كان له رأي خاص في العلوم العقلية وعلم النفس والاخلاق وعلم الوجود والتكوين يستدل عليه ، يفند رأي من يخالفه ولا معنى للفيلسوف الا هذا

مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جدا من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يميل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الإمام في ترجمته. ولا بد من التنبيه هنا الى ان مذهب السادة الصوفية قد اشتبه على كثير من المتأخرين بمذهب الباطنية الزاعمين ان الله تعالى يحل في بعض البشر سبحانه

وتعالى عما يصفون . والفرق بين المذهبين دقيق ، لا يمحصه الا أهل التحقيق ، فالصوفية كلام في أنفسهم وفي شيوخهم ، يشبه كلام الباطنية في أئمتهم ، ومن ذلك قول الاستاذ الامام في خطاب السيد (رحمهما الله تعالى) « أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول » الخ (راجع ص ٥٢٦ من الجزء الثاني) فان كنت لا تعرف مذهب الباطنية حق العلم ومذهب الصوفية حق العلم ولا تدري ما يريدون بالظهور والبطون والتجليات والتنزلات والمنازلات فار بأ بنفسك ان تكون من أهل الدث والرجم ، وان تقفو ما ليس لك به علم (١٧ : ٣٦ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤلاً)

كذلك يشتبه على الجاهل الفرق بين رأي السيد في النشوء ورأي داروين فقد حكى الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات مانصه :

« بين حفظه وأثبت ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية (لا كما يزعم ارباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم ابناء السماء فليتذكر من له فطنة) وانه قد أتى حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفيأ ظلال الاشجار ، ويستكن فى الجحر والاوكار ، ليس له شعار ولا دثار ، ولكن خفيف اشعار ، يقتات بنبات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لا تمسها يد صناعية ، ولا تربية اجنبية ، ليس له من المكر والتخيل الا مالا يداني فيه الثعلب ، ولا من العلم والتدبير الا مايبعثه على الغدوّ لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار ، والرواح للاستكنان من كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفرّ الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب ، ولم يكن له من رفعة القدر مايجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، ويقيمه متحكما في كل موجود ، ويدعوه للحكم بانه خلاصة العالم ، ومنتهى سير الحقائق وعمار عالم الكون ، وان جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله ، والكواكب والسيارات انما تتحرك لخدمته ، » الخ ما اثبتناه في مقالة فلسفة الصناعة من جزء المنشآت ، (راجع ص ٣٠ ج ٢)

فاذا قابلنا هذا القول برده على مذهب دارون وعلى الماديين الذين يقولون

انه لا فرق بين الانسان و بقية الحيوانات يتجلى لنا ان مذهبه وسط بين المذاهب في ذلك وهو ان الانسان حيوان مترق من جهة وملك أرضي من جهة أخرى اي انه جامع لخواص الجنسين. وقد قال في رسالته في الرد على الدهريين مبينا خواص اعتقاد اهل الدين بأن الانسان ملك أرضي وانه اشرف المخلوقات في الأرض (اي لا في العالم كله) ما نصه :

« فمما يلزم الاعتقاد بان الانسان اشرف المخلوقات تَرَفُّعُ المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ، ولا ريب انه كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بافر الحظوظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من اهل المدينة الفاضلة يحيا مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية مايسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

« فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهاملة ، والهوام الراشحة ، لا تستطيع دفع مضرة ، ولا التقية من عادية ، ولا تهتدي طريقا لحفظ حياتها ، وتقضي آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد

« هذه العقيدة أشد زاجر لابناء الانسان من التقاطع المؤدي لافتراس بعضهم بعضا كما يقع بين الاسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها من مشاكلة الحيوانات ، في خسائس الصفات ، وهذه العقيدة احجى حاد للفكر في حركاته ، وأنجح داع للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

« إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أي حد تصل بهم الشرور ، و بأي منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية »

رأي السيد في اصلاح حال المسلمين

كان يرى ان المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية ودول عزيزة الا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به وما ضعفوا واستكانوا بعد ذلك الا بسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه وأنهم لا يرتقون ولا يعتزون إلا بحسن فهمهم له ونهوضهم به واستقامتهم عليه وهذا الرأي معروف عنه . وقد كتب اليّ الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة سنة ١٣١٠ انه زاره مرتين أو ثلاثا وانه كان مما دار بينه و بينه ما يأتي بالنص الذي كتبه المغربي يومئذ :

« قال (السيد) ان بطرس برج وفينا كباريس في حسن الانتظام والزخرف وان فينا أكبر من الاستانة . فقلت الاستانة منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخرة من عدة وجوه فهي لا تزال تتدرج فى مدارج المدنية لاسيما باهتمام أفندينا وليّ النعم وهذا يدل على ان المسلمين عن قريب يبلغون من التمدن والترقي ما بلغت اليه أهالي البلاد الغربية . فقال اذا لم يبن تقدمنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر . فقلت إذا نظرنا الى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن نرى بوناً عظيما . فقال : ما تراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهرا هو عين التقهقر والانحطاط لاننا فى تمدننا هذا مقلدين للامم الاوربية و بسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن غير طويل ان نخنع للذل والسلطة الاجنبية أو تتبدل صبغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة .

« فقلت ما الطريقة القويمة التي ينبغي ان نسلكها لنتوصل للتمدن الحقيقي ولمساواة شعوب اوروبا؟ فقال لا بد من حركة دينية لاننا اذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم اوروبا من الخشونة الى المدنية نراه الحركة الدينية وذلك منذ عصر لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانية فانه لما رأى اهل اوروبا تعتقد في البابا اعتقاداً يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لاوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة

قام بتلك الحركة الدينية التي نشأ عنها الانقسامات بين الشعوب وجعل كل شعب يغار من الآخر ويجار به في سلوك سبل النجاح . وخلاصة الامر ان تمدن أوروبا ينسب الى تلك الحركة ومبدأه من ذلك العهد

قلت ان دينهم فاسد فأصلحوه وديننا بحمده تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغيير فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى اي شيء مبناها ؟ فقال حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح ومثل . . ومثل . . . فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى. ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على تقدمنا لا أن نجعلها علماً مقصودا لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الانسان جلّ في حياته الاشتغال فيهما ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم في نفسه من الافكار والامور التي يرجع اليها إصلاح في الوطن وتعزيز للدين وتقوية للامة

« وهنا شرع في بيان سوء اشتغالنا في العلوم على غير طائل حتى ان الغير اهتدى الى لب تلك العلوم واستعان بها على تقويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخبط في مهامه الحيرة والغفلة ونتيه في فيافي الجهالة غير مبالين بما ينجم عن ذلك من الدمار والانمحاء من صفحات الوجود « فلا بد إذن من الحركة الدينية » » اه ما كتبه المغربي من محاورته مع السيد

وهكذا كان السيد يدعو كل من لقيه من المسلمين الى الاصلاح الديني ويخاطبه في ذلك على قدر فهمه ولا شيء من آثاره ينجلي فيها ذلك الا العروة الوثقى التي عرفنا منها مذهبه هذا على ما فيها من الاجمال ولكن الاستاذ الامام هو الذي كان يسلك مسلك التجلي والتفصيل، وهو المثال الكامل الذي عرف به فضل جمال الدين

﴿ عشق المؤلف للسيد وكتابه اليه ﴾

نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية فحبب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التمييز وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين والذكر والصلاة وهديت الى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم فأكببت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به ثم اشتغلت بطلب العلوم ولم اترك التصوف بل سلكت معه طريقة النقشبندية فنفعني التصوف في طلب العلم من جهة واضر بي من جهة اخرى فانني رغبت عند دخول (المدرسة الوطنية) عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستهما فائدة دينية ولا هما مما يطلب لوجه الله عز وجل

وقد غلب عليّ الزهد و بغض الحكام والمسرفين من اهل الدنيا حتى كنت انكر على من أراه منهم كل منكر يأتيه . فانكرت على والي بيروت مرة إساءة صلاته وهو في مسجد « السراي » بطرابلس حتى لامني على ذلك بعض العلماء الرسميين وانكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم سيرتهم وحملهم للساعات والسلاسل الذهبية وغير ذلك

ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عددين من جريدة العروة الوثقى فقرأتهما بشوق ولذة ففعلا في نفسي فعل السحر فطفقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي وهو انه ليس روحانيا أخرويا فقط بل هو دين روحاني جسماني اخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل ،

وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأيا فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجدا في ذلك حيث

كنت حتى اذا ما اردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة (من لبنان) أخذت معي مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكأ عليه في المواعظ التي كنت أبثها في كل مجلس فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفقت أستعد لذلك استعداداً

وكنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده وعما قيل فيهما وما كتب عنهما . وكنت اناضل دونهما وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ احد على الطعن فيهما أمامي . ولما اشتدت المنافسة بين السيد و بين الشيخ ابي الهدى افندي في الاستانة وصار بدري باشا احد انسباء ابي الهدى متصرفا في بلدنا (طرابلس) وكان ما كان لصنائعه بني الأنجا من النفوذ والبغي كنت في دفاعي عن السيد عرضة للايذاء ولكن ذلك لم يحولني عن مذهبي حتى إني جاهرت بذلك في دار بدري باشا على مسمع من مصطفى باشا الأنجا . واني اذكر هنا صورة الكتاب الذي أرسلته من طرابلس الى الاستانة وهو يمثل حالي في ذلك الوقت تمثيلا بينا وهو بحروفه :

كتاب المؤلف الى السيد جمال الدين

﴿ في سنة ١٣١٠ ﴾

الحمد لله على افضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي بل السيد المطلق، ذي القدح المعلى والجواد المصلي الاسبق، سدرة منتهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن والاحسان، الذي له في كل جوٍّ متنفَّس، ومن كل نار مقتبس، الامام المفرد ، والعقل المجرد، حجة الاسلام، وعلم الأعلام، أخطب الخطباء وأبلغ الكتاب، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، بدل الأبدال، سيد الآل، الانسان الكامل، الوارث الكامل ، المرشد الكامل

مهبط الفيض مصعد الكلم الطيب مجلى سر الجمال الأكمل

جمال الدنيا والدين، و بقية رجاء المسلمين، أيده الله تعالى، وزاده رفعة وكمالا

ان فرط الشغف بالجمال، ومساهمته بالانتساب للآل، قد حملاني على غارب الجرءة

والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب، ومحب لحبيب، ومغادرة الاحرى بل الواجب الذي لا تخير فيه من مخاطبته مخاطبة مملوك لمليك كريم، وخادم لسيد عظيم، وعليه قلت :

اني منذ لاحت على مخايل التمييز مانمي الى خبر ألذ وأشهى، ولا انبل واسمى، من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف وسقاها بماء الحياة فنبتت نباتا حسنا، وامتدت أغصانها، وتشعبت افنانها، حتي لم تذر في أرض الجسم ذرة من دقائقه الا وجذورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، جنيت منها ثمرة حب الحكمة واقتطف الناس منها ثمار الثناء، على حكيم الحكماء، أعزه الله تعالى . ولم تزل تنمو بنموي حتى كأنها من عناصر جسدي، وتقوى بقواي العاقلة حتى كأنها من مقومات ماهيتي، وهي الآن أرسخ الملكات في نفسي : لا أتبوأ مجلسا ولا أفيض في كلام الا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه، او متخللا أجزاءه واقسامه، ان لم يكن هو موضوع الكلام، حتى عرفت بين المعاشرين، بعاشق جمال الدين، وربما دعاني بعض الاصدقاء بالداعي له (واحد الدعاة) لا سيما وأنا أعد له ما يعد عليه (كدخول الماسونية والجلوس في الاماكن العامة وطول الاقامة في أوربا وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية)

إني حتى الآن لم اقف على شيء من سيرة سيدي الا ما كتبه سليم أفندي العنحوري في كتاب له خلط فيه الخطأ بالصواب : وما نقل في منتخبات اديب بك اسحق وما كتبه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده (حياه الله تعالى) على رسالة سيدي في النسبة بين الدين والكفر في العمران (١) ولم أحظ بشيء من آثاره النفيسة إلا الرسالة المشار اليها آنفا وتاريخ الافغان والاعداد الـ ١٨ التي صدرت من العروة الوثقى

هذا كل ما ارويه وأوثره عن سيدي وهو ان كان قليلا بالنسبة لمن أضرَّ به الظمأ فلا يكتفي بقليل من الورود لكنه لا يقال له قليل بالاضافة لما فيه من عظيم الفائدة التي لا يغني عنها لقاء المئين والالوف من المشيخة ولا مطالعة أسفار المتقدمين والمتأخرين في الفنون العديدة

---

(١) انني منذ اطلعت على هذه الرسالة وسمتها بهذا الوصف الذى ذكرته لمؤلفها

فلله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ماهبت نفحة من معارفها في جوّ قوم الا ونفخت في رممهم روح الفضل ، ولا تدفقت امواه فضائلها في ارض امة الا وجرفت منها ادران الجهل ، بل اقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالانوار ، ذرّات الفكر في فضاء قطر من الاقطار ، الا تكوّن منها في سماء العقل من كواكب العرفان ، ماهو افيد من النظام الشمسي في عالم الحسّ والعيان ، وعلى هذا فما اجدركم بقول القائل

أبـداً تحنّ اليكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح

وما أعذرني وأنا أعد قربكم أفضل القربات ، ولقاكم غاية الغايات ، واني اسيّر كتابي هذا ليكون مستمنحا عواطفكم ، ومستجديا مكارمكم ، قبولي لديكم بصفة مريد يتلقف الحكمة ، وتلميذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقاكم الله) ويسايركم في الزعزع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني ارد عن أبواب فضلكم فما جزاء من احب الا ان يحب وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعيها ويصلها »

ثم ذكرت له في آخر هذا الكتاب ملخص ترجمتي ولا حاجة الى اثباتها هنا على انني لم أجدها كلها فقد كنت كتبت لهذا الكتاب مسودة بقلم الرصاص على ورقتين فقدت مني الصغرى منهما وفيها تمة الترجمة وعبارة اخرى اتذكرها بنصها تقريبا وهي قولي في الاعتذار عن عدم المبادرة الى الرحلة اليه في الاستانة « لانني اعتقد ان القسطنطينية على سعتها بل المملكة العثمانية بما رحبت لاينفسح فيها لسيدي مقام لأن ممالك الشرق امست كالمريض الاحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث إنه دواء »

وقد كتب الي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أنه اجتمع بالسيد وانه ذكر كتابي اليه فاثنى عليه مبالغا في الثناء وأمره ان يبلغني ذلك معتذرا عن عدم الكتابة الي بانه ليس عنده قلم ولا دواة ولا ورق (اي كان ممنوعا عن مكاتبة الناس او ممتنعا عنها حتى لايسوء ظن السلطان به) وذكر لي احمد بك رشوان وغيره ممن كان يتردد عليه من المصريين أنه كان يثني على هذا الكتاب وعلى صاحبه ويقرأه لزائريه المرة بعد المرة . ولا سبب لذلك الا اخلاص الكاتب شعور المكتوب اليه بذلك

﴿ نهاية امره في الاستانة ﴾

ذكرنا خبر مجيء السيد الى الاستانة وحفاوة السلطان به · وقد كان لما طلبه السلطان من لندرة تمنع وكان ممن كتب اليه واجتهد في اقناعه الشيخ ابو الهدى افندي الشهير وكانت الموادة بينهما في أول مقدمه شديدة وانخدع السيد بحفاوة ابي الهدى واجلاله له فأحسن به الظن كعادته فكان يثني عليه ثم لم يلبث ان قلب له ظهر المجن ومحل به عند السلطان وعرقل عليه عمله في شد اواخي الاخاء بين العثمانيين والفرس أو بين اهل السنة والشيعة ووسوس للسلطان في شأنه ماشاء ان يوسوس حتى قويت ريبته فيه وجعله موضع الظنة واكثر من العيون والجواسيس حوله حتى ضاق صدره وناهيك بحياة من كان اشد الناس حرية وعزة في ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبة مراقبة من يخشي منه على المملكة او الخلافة !!!

حدثني الثقة قال حدثنا السيد جمال الدين بالاستانة فقال ما مثاله : ان الخديو كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع عني من اولادي واحفادي بمصر فارسل الي في ذلك فقلت لابد في ذلك من اذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين فكانوا يرجئون ويسوفون ويجمجمون في الجواب ولا يفصحون وبينا انا جالس في الكاغدخانه (متنزه مشهور في الاستانة كالجزيرة بمصر) أصيل يوم من الايام كعادتي واذا أنا بفارس قد اقبل عليَّ وترجل مسلما فقلت من انت ؟ قال عباس حلمي · فمكثنا ساعة زمانية نتحدث · وطار الجواسيس الى السلطان بالخبر فأرسل الي فلما لقيته قال : أتريد ان تجعلها عباسية ؟ فقلت ان بني العباس قد انقرضوا وبنو عليّ أولى » ثم قال ان مولانا يريد عباس حلمي وهل هي خاتم بيدي فأضعها في اي إصبع شئت

وذكر غير هذا الراوي ان السيد لم يفهم ان السلطان يريد بقوله « أتريد ان تجعلها عباسية » جعل عباس حلمي باشا خليفة فأجاب بما أجاب · وكنت عند سماع الرواية الأولى فهمت انه قال ذلك أولاً على سبيل المغالطة · فبمثل هذه الأوهام

كأن شياطين الانس يوسوسون للسلطان ويخوفونه من السيد حتى حرم الاستفادة منه

وحدثنا الثقة أيضاً ان السيد جمال الدين كان يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب الى الكاغدخانه ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشيا فقال لجماعة السلطان في نفس المابين انكم قد أعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوسا بغير مركبة فاذا أنا أسرعت بعربتي طفق يعدو ورائي وهو يلهث كالكلب ولا يدركني فهلا رحمتموه فأعطيتموه عربة ليدركني أنى سرت ؟ ؟



﴿ هذه آخر صورة للسيد قبل مرض وفاته ﴾

(١٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وقد بالغ الشيخ أبو الهدى في عداوته والكيد له حتى كان يسعى في ايذاء من يذكره بخير أينما كان من بلاد الدولة . وكان يطعن في نسبه ودينه كما هي عادته فيمن يستاء منهم فانه يجردهم من اللباس الذي فصله وخاطه لنفسه ولمن يرضى عنهم من انصاره . وقد كتب إليَّ في ٢٩ رجب سنة ١٣١٦ كتابا قال فيه « اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا وقد ثبت في دوائر الدولة رسما انه مازندراني من اجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » وكذلك قال الشيخ أبو الهدى في امام الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلي الذي هو من أشهر الشرفاء ، في كتب لفقها باسماء الاموات والاحياء ، ولا ندري في أيّ دوائر الدولة يسجل شتم الناس فنصدق خبر أبي الهدى

كذلك كان شأنه في الاستانة في آخر أيامه بمساعي أبي الهدى الى ان توفاه الله اليه



﴿ وهذه صورة السيد بعد العملية الجراحية ﴾

﴿ خبر مرضه ووفاته ﴾

المشهور انه أصابه وجع في احدى اسنانه أوأضراسه فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب في موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر في فكه السرطان فعملت له عمليات جراحية فلم تفد ولم يلبث أن توفي على أثرها فشاع في كثير من البلاد انه مات مسموما كما شاع مثل ذلك في موت الاستاذ الامام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي

ولما توفاه الله تعالى صدرت الارادة السلطانية الى الجرائد العثمانية بأن لاتكتب في شأنه شيئا بل ضبطت الحكومة في سوريا جميع الجرائد والمجلات المصرية التي أبنته واعني غير الممنوع منها كالهلال والبيان . و إننا نختم الترجمة ببعض ما كتبته الصحف المصرية من خبر مرضه وموته

جاء في المؤيد الذي صدر في ٥ شوال سنة ١٣١٤ و ٩ مارث سنة ١٨٩٧ مانصه

« علمنا من اخبار الاستانة العلية ان صحة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني في غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد انقطع حضرته عن الكلام بالمرة إثر العملية الجراحية الثالثة التي عملت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه واستئصل الفك الاسفل . وجلالة مولانا السلطان قد كلف جملة من أطبائه الخصوصيين بعيادته على التناوب ويرسل للاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا مايتوجه عطوفتلو عزت بك (العابد) من قبل الحضرة السلطانية لعيادته فيجد فضيلة السيد من هذه العناية مايخفف آلامه لطف الله به

وفي العدد الذي صدر في ١٠ شوال و ١٥ مارث مانصه

انا لله وانا اليه راجعون

« نعت الينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الاستاذ الفاضل والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الافغاني .

« توفي رحمه الله في الساعة ٧ و ١٣ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضي خامس

شوال (٩ مارث) الماضي (كذا) حيث كان يعوده كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الاعظم في منزله بشكطاش

ولما حضرته الوفاة كان في خدمته كذلك حضرة جورج افندي كوتشي أحد موظفي محافظة مصر سابقا حيث يقيم معه من مـــدة وهو الذي نعاه الى المابين الهمايوني فصدرت الارادة الشاهانية الى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش ان يعد جنازته و يشيعها بالاحتفال اللائق . و بلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء الاعلام فبادروا الى منزل الفقيد كما بادر اليه كثيرون من رجال الدولة و بينهم سعادة سهل باشا نجل دولتلو فضل باشا العلوي وحضرة علي بك راغب المصري من ضباط البحرية العثمانية وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جثتــه في قرافة « شيخلرمزارلغي » أي مقبرة المشايخ

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الاسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المابين الهمايوني الذين كانوا يعرفون فضله و يقدرونه حق قدره

« وجاء خبر وفاة الاستاذ الفقيد رحمه الله أمس تلغرافيا على حضرة الفاضل ابراهيم افندي اللقاني فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ما طبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصي من الاستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم ولا شك ان وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفردا به من قوة الحجة والعارضة في الكتابة والخطابة مع التضلع الرائد من العلوم العقلية والنقلية وسعة الاطلاع في المعارف الحديثة . فنحن نعزي أنفسنا وكل أصدقائه وتلامذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان »

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٥ مارث ما نصه

« بلغنا نعيّ العلامة الشهير ، الغني عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الافغاني بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه في الجانب الآخر . وما ذاع هذا النبأ في أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الاسى على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشارق والمغـارب ، وكان مناراً للحرية

والعرفان في كل مكان احتله،وتعلقت به افئدة النجباء والاذكياء في كل بلادا قام بها،ووقعت تعاليمه وآراؤه في نفوس الادباء وقعاً عجيباً،حتى انك لتراهم في كل جهة من جهات المشرق يتحدثون في مجالسهم بمواهبه ويتناقلون اقواله، فقد فقد الشرق به عالما يهتدى بعلمه،وركنا يعتمدعليه، وداعيا الى الحرية يقتدي به في الدعوة اليها، ومقداما لا يهاب كبيراً في المجاهرة بضميره، ولا يراعي اميرا في ما ليس من رأيه، ولسنا ندعي في هـذه العجالة إيفاءه حقا من حقوقه المتعددة في عالم الأدب والعلم والحرية، على انا سننشر ترجمته مفصلة في المقتطف. وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء في التاسع من هذا الشهر بداء السرطان فراح مأسوفا عليه مبكيًّا من جميع تلامذته ومريديه واحتفل بمأتمه في الاستانة احتفالا يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فنعزي جميع انصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقده، ونسأل له الرحمة والرضوان ولهم طول البقاء من بعده»

ثم جاء في العدد الذي صدر منه (اي المقطم) في ١٨ مارث مانصه

«كتب الينا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وهو يخالف ما نشر من هذا القبيل قال : رأى الطبيب هرون صباح الثلاثاء في ٩ الجاري ان ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جرجي افندي كوتجي صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلا ادرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحاضر فأسرع جرجي افندي الى منزله فوجده في حالة النزع وليس عنده غير خادمه فلما رآه امسك بيده وكلما اشتدت عليه الحشرجة حول عينيه اليه، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه، ثم اسلم الروح في الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم . فأبلغ جرجي افندي المابين خبر وفاته في الحال فجاء بعض الاطباء وشاهـدوه ثم أثبتوا للمابين وفاته فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر تركته فحضر حسن باشا ومعــه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا في البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقيا عنده . وفي الساعة العاشرة امروا بدفن الجنازة في مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلرمزارلغي » فأرسل جرجي افندي الى اصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملاباري

وعلي قبودان راغب المصري ثم حمله اربعة من حمالي الاستانة على اكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم يخفرونهم ودفن كما يدفن أقل أنسان في بلاد آل عثمان وبقي السيد رحمه الله خمسة أشهر يقاسي ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة في مرضه ورجال المابين يشيعون ان السلطان يفيض عليه النعم ويغمره بالاحسان انتهى بمعناه. هذا وا أسفاه ما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نحبهم في دار السعادة »

وكان المقطم ذكر في العدد الذي صدر في ١٣ مارث و٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « ويقال ان السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليره في الشهر آملا ان يشفى من مرض قلت فيه حيل الاطباء » وهذا يدل على ان المقطم كان يكتب مايبلغه بدون تحامل . ولكن اصحابه لم يذكروا ترجمته في المقتطف كما وعدوا

وقد كتب الينا بعض المطلعين على الجرائد المصرية والمتلقفين لأخبار السيد من العارفين مايؤيد رواية المقطم الاخيرة في الجملة وزاد ان جرجي افندي انفق على السيد مئتي ليرة وان المابين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد ان يعطي المبلغ لجرجي فلم يقبله . ومما رواه الكاتب من خبره عند مادعي الى السيد وهو محتضر انه قال «دخلت عليه وهو وحده يعاني سكرات الموت فاحترت ماذا اصنع والمحتضر يصلي او يذكر الله الله الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به »

تابين مجلة البيان

﴿ وترجمتها للسيد جمال الدين ﴾

كتب الشيخ ابراهيم اليازجي الكاتب اللغوي الشهير في الجزء الثاني من مجلة البيان الذي صدر في اول ابريل سنة ١٨٩٧

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ﴾

هذا جمال الدين امسى نازلا جـدثا تضمن منه أي دفين
قدرٌ به عمَّ البكاء على امرئ فقدت به الدنيا جمال الدين

« نعت الينا انباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، ومجمع اشعة الحكمة بل قطب دائرة العلوم على الاجمال ، رُحلة البلغاء وقـدوة العارفين ، وقاضي علوم الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني المشهور ، فرع الارومة الزكية ، وسليل الحسب القائم من منصب السؤدد في الذروة العلية ، فكان لمنعاه يوم اشتد وقعه على القلوب والمحاجر ، وطال في وصفه أنين الاقلام فأمدتها بالدمع عيون المحابر ، وكيف لا وهو خطيب الشرق الذي رنّ في الخافقين صدى خطابه ، وامامه الذي انبثقت انوار اليقين من سماء محرابه ، واستاذ علومه الذي ما فتئت الحكمة تتدفق بين فؤاده ولسانه ، وتطلع شموس البلاغة من بين خاطره و بيانه ، وتجري مناهل العرفان بين اقلامه و بنانه ،

« قضى رحمه الله في التاسع من الشهر الغابر بعلة السرطان وقد تشبث منه بين الفك والنحر ، ودب في مجرى الفصاحة منه ولا عجب ان يدب السرطان في البحر ، فقبض ذلك اللسان عن تدفق عبابه ، وحبس تلك الدرر فما يبرز مكنونها من حجابه ، الى ان نقله الله الى جواره فذهب حميد الاثر ، ودفن في قرافة المشايخ مذكورا بالرحمة ما غاب قمر ، وناح طائر على شجر ،

« وهذه ترجمته نلخصها عن فصل لحضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده الشهير صدر به تعريب رسالته التي كتبها في ابطال مذهب الدهريين على ما سيجيء ذكره في الترجمة قال حفظه الله :

(وهنا ذكر ملخص الترجمة التي تقدمت في ص ٢٧ — ٣٥ ثم قال)

« ووقفنا له على ترجمة اخرى باللغة الفرنسوية فيها انه بعد ما فارق اوربا سار يريد نجداً فوافته رسالة برقية من الشاه ناصر الدين سلطان العجم يدعوه اليه فتحول قاصداً بلاده ولمـا بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالا بالغاً وادناه منه ورفع منزله وسماه وزير حربه وكان ينوي ان يرقيه الى مقام الصدارة

« وبعد أن اقام مدة ببلاد فارس شاع ذكره وتناقلت الالسنة فضائله وغزارة علمه وادبه فتواردت عليه الخاصة من وجوه البلاد وامرائها وعلمائها ورأوا من كمال فضله وسعة معرفته باحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديمها وحديثها وتبحره في معرفة

الاديان مع ما رزقه من توقد الذهن و بلة المنطق وقوة الخطاب ما بهرهم وعظم به وقعه في نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه وملكته القلوب اعنة اهوائها ورأى الشاه أن تسلطه على النفوس يزداد كل يوم وحرمته تعلو عند الامة فاستشعر خشية من امره واضمر الحذر من ناحيته وتبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه واستأذنه في الانصراف وخرج من البلاد الايرانية فصار الى موسكو ثم تحول الى باريز لشهود معرضها الذي كان سنه ١٨٨٩ وفيما هو مار في مونيخ من بلاد الالمان وافق الشاه بها فاجمل ملتقاه ودعاه للمصير الى بلاده وألح عليه في ذلك فسار في صحبته وما كادت تستقر قدمه في بلاد ايران حتى تألب القوم حوله بما اربى على ما كان منهم في المرة الاولى. ثم رغب اليه المتفقهون منهم ان يرسم لهم قوانين دستورية تجري بها الاحكام في نصابها من النصفة والعدل وتلزم الحكام العمل بمقتضاها فأسر جمال الدين ذلك في نفسه ثم تلطف في عرضه على الشاه فاستصوبه ومال الى موافقته عليه لكنه لم يلبث ان نكل عن قبوله بمشورة الصدر الأعظم فانه حذره عواقبه بحجة ان الأمة غير متأهبة له فضلا عن انه يؤدي الى تقييد سلطة الشاه وربما كان سببا في تقويض عرشه

«فلما رأى جمال الدين ذلك خرج الى المشهد المعروف بشاه عبد العظيم وهو مقام مبني على نحو اثني عشر ميلا من طهران يفضى اليه بسكة حديد فاستمر القوم يختلفون اليه في مقامه ذاك يفاوضونه فيما اشربته قلوبهم من أمر القوانين والاحكام الى ان اتى على ذلك نحو من ثمانية أشهر وأمره لا يزداد الا انتشارا حتى ثارت الخواطر في جميع اطراف البلاد

« وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه فوجه الى الشاه عبد العظيم خمس مئة فارس مدججين بالسلاح فقبضوا عليه وهو مريض في فراشه وقاده خمسون منهم الى الحدود العثمانية فكان عن ذلك هرج شديد في البلاد الايرانية وانتشرت المشاغب وكثرت الرسائل والمنشورات وتواردت على الشاه كتب التهديد بان يجري على مقترحهم أو يخلع نفسه من الملك حتى بلغ منهم ان حاصروه يوماً في قصره. وسار جمال الدين بعد ذلك الى البصرة لتفاقم العلة عليه بسبب اشتداد البرد في تلك الديار فلبث بها سبعة أشهر الى ان تماثل من مرضه ثم نهض متوجها

الى لندره فأنشأ بها جريدة سماها (ضياء الخافقين) أ كثر فيها من الطعن في سياسة الشاه وتهييج خواطر الامة من رعيته عليه وكان يكثر التردد الى المحافل السياسية يخطب فيها في امر الشاه وحض رجال الدولة الانكليزية على خلعه واقام على ذلك مدة ثمانية أشهر وفي اعقاب ذلك بعث السلطان عبد الحميد يستدعيه اليه على يد رستم باشا سفيره في لندره فأجاب بعد ما امتنع على ان يؤذن له في العودة الى أوربا متى شاء وقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فتلقاه السلطان بتعطفاته واحسانه واجرى عليه زرقا واسعا وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به في اغراض سياسية ليس من شأن هذه المجلة التعرض لها ولا لغيرها مما اتفق له من الحوادث مدة اقامته بالاستانة حتى ظهر فيه الداء فألزمه الفراش أشهرا قاسى في اثنائها عذابا واصبا الى ان اختار له الله ما عنده فذهب مأسوفا عليه تغمده الله برضوانه وافرغ عليه سحائب رحمته وغفرانه

* * *

هذا ما وقع الينا من ترجمة هذا الرجل الشهير وهي كما تراها أدنى ان تكون ترجمة رجل سياسي قد جعل نُصب ناظره غرضا بعيدا لا تبلغ اليه ذراعه، ولا تصبر عن همته وأطماعه، فهو أبدا تمثال يقظته وطيف منامه، وحديث خواطره في رحلته ومقامه

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر

فأقبل يضرب اليه آباط المسالك، ويكثر في التماسه من الحركة في البلاد والتنقل في الممالك، لا تستقر له قدم ولا يقف على ساق، ولا ينزل رحله في أفق من الآفاق، ولسان حاله ينشد قول المتنبي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل ان يُسمى

وإنما تدرك الآمال، بمضافرة الرجال، وتبلغ الأوطار، بموازرة الأقدار، ولا نصير اذا لم ينصر القدر، ولا رفيق اذا توعرت شقة السفر، وكانت محفوفة

بالخطر ، فلا عجب اذا قصر مشايعوه عن مجاراته ، وتخاذل مريدوه عن موالاته، فكان كما قال المتنبي أيضا

وحيد من الخلان في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد

وانما هي نفسه الكبيرة اقدمت على ركوب العظائم ، ومنته ان يبلغ منفردا مالا يبلغ الا بالجيوش الخضارم، فلا مأربا نال ، ولا نفسه أقال،ولكنه اضاع أيامه في الطلب ، ولم يجن من أمانيه سوى النصب ، وما أحسن ما قال المتنبي أيضا

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

وانما انتزع المتنبي هذه المعاني من صحيفة ايامه ، وما قرأ فيها من تخلف جده وتقدم إقدامه ، كما قال :

أبداً أقطع البلاد ونجمي في هبوط وهمتي في صعود

فقد طبع الرجلان على غرار واحد وان تفاوت المحتدان ، ونشآ في منشأ واحد وان تباين البلدان ، فدرج كل منهما بين صليل السيوف وصهيل الجياد، وترعرع بين مزاحف الصفوف ومواقع الجلاد ، في بلاد لا حكم فيها الا للغالب ، ولا شرع الا ما حكمت به شفار القواضب

وحقيق بمن ربي على مثل تلك الحال، ان يخرج صلب النفس رغيب الآمال، ولاسيما اذا كان له قديم يرجع اليه ببصره ، او فائت يستحثه للكر على أثره

وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ،وضمه بين حاشيتي علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة يجمع الدنيا به بنظرة ويستقصي اطرافها بلمحة ، وقد تجردت له عن زينتها وزخارفها ، وأماطت له اللثام عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان شيء منها يقال له الرئاسة ، وتنزع همته الى حال من احوالها تسمى بالسياسة ، بل ما كان اجدره وقد رزق من توقد الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتي من قوة الحكم وسرعة الخاطر ما انفرد فيه عن النظراء والاشباه ، ووعى في صدره من انواع العلوم العقلية والنقلية ما كان فيه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك وتواريخ الامم ماعز على غيره من بعده ،ان ينزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ، ولا يتعدى ماقسم له القدر

ووجد من نفسه عليه القدرة ، فيجعل ايامه وقفا على الاشتغال والنفع ، واستزادة ماشاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع ، وتسطير مايفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه، أوفاتهم الوصول اليه من علوم هذا العصر وفنونه، ولو فعل لكان إمام الدنيا بلا مدافع، وكانت حياته طافحة بالفوائد والمنافع ، ولتجاوبت الآفاق من صدى ذكره بما لا يأتي عليه كرور الليال، ولا ينقرض الا بانقراض القرون والاجيال ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو الكبير المتعال ،

اه ما كتبه اليازجي ونجيب عما تعجب منه بكلمة واحدة وهي ان السيد رحمه الله كان يشتغل بالسياسة لانه يرى أنها اذا لم تصلح لاتدع احداً يعمل إصلاحا، ولا يطلب فلاحا، ولا ينشر علما يرقي به الأمة ، ولا يطوي وهما يكشف به الغمة ، وان هي سمحت لمثله بالاصلاح ببث العلوم ، وتربية الارواح والعقول ، فان طريق ذلك يطول عليه ، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه ، فهو مااختار الاصلاح من طريق السياسة الا لاعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيرا من العلم والكتابة لا لأجل الرياسة كما علم من مجموع ترجمته

***

وكتب صاحب مجلة الهلال ما ملخصه :

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ﴾

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) وتوفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م)

قد تمرّ القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقتهم اليه الحاجة في شوون معاشهم لا يفقهون غثها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افرادا يميطون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين. أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة

المستترة وراء تلك النواميس و بينوا ماأودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لاتجود بواحد من أولئك الافراد إلاَّ كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم جادت عليهم بآخر ينفث فيهم روحا حية فيتنبهون من رقادهم و يعودون إلى رشدهم ريثما يأتيهم ثالث

هكذا كان شأن العالم في بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم بيئات لا تصلح لنماء ما يغرسون فيذهب سعيهم هباء منثورا

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطبا من اقطاب الفلسفة وعاش ركنا من اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا الف كتابا . على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفا عن سلف . فعسى ان لا نحرم من مريدي الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك »

ثم ذكر الهلال ملخص ترجمة الاستاذ الامام له مع زيادات منها ما كان من شأنه في بلاد فارس على نحو ما ذكر في مجلة البيان . ومنها قوله قبل ذلك «وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في جرائدها مقالات تبحث في سياسة روسيا وانكلترا او الدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنساوي رينان في «العلم والاسلام» فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحجة ثم شخص إلى لوندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسألاه عن رأيه

في المهدي وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عليا » اه ومما قاله في شمائله :

﴿ مجلسه وخطابه ﴾ كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلفا . وكان ذا عارضة و بلاغة لا يتكلم إلا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية واذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فاذا كان السامع عاميا تنازل الى مخاطبته بلغة العامة. وكان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه » اه

يقول مؤلف الكتاب . حدثنا الدكتور شبلي شميل انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس . أو ما هذا معناه

هذا و إن كثيرا من الفرس يقولون إن السيد جمال الدين فارسي لا أفغاني فكلمة أبي الهدى لها أصل عن غيره زاد عليها من عنده كما هي عادته فقد ذكر في كتبه التي عزاها الى الرفاعية طعنا مثل هذا في نسب السيد عبدالقادر الجيلي سواء بسواء

وقد قال لنا بعض علماء الفرس إن اسرة السيد هي من بيوت العلم والشرف في بلاد فارس وقد هاجرت إلى الافغان وان السيد جمال الدين ولد في بلاد الافغان فهو أفغاني منشأ فارسي في الاصل . ومن الناس من يظن ان ادعاء بعض الفرس ان السيد منهم هو من قبيل ما جرت به العادة في الرجال العظام من تنازع الشعوب لهم

* * *

وجملة القول ان هذا الرجل كان آية من آيات الله وان عمله في البلاد الاسلامية لم يكن قليلا فهو الذي نقل مصر من طور إلى طور وأحياها حياة جديدة لم يسبق لها نظير في تاريخها فانها كانت في كل أدوارها مستعبدة للحكام لم يخطر في بال شعبها ان يكون له شأن في حكومتها حتى في حركتها الأوربية الأخيرة في عهد بيت محمد علي فاننا لم نقرأ لمن ترجموا الكتب الأفرنجية ولا لمن ألفوا الكتب

العصرية ولم نرو عنهم كلمة تشير إلى وجوب جعل الحكم في البلاد مقيدا برأي أهلها حتى جاء السيد جمال الدين فأسس الحزب الوطني المصري لأول مرة على هذا الأساس كما يعلم من مقالاته وخطبه التي كان يلقيها على تلاميذه (١)

ثم انه هو الذي كسر مقاطر التقليد الفكري والديني واللغوي فكان إمام النهضة العلمية والقلمية والدينية في مصر وغيرها كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية

وهو أيضا إمام النهضة الاجتماعية السياسية في بلاد الفرس الذي بذر في نفوس الفارسيين بذرة الحكم الشوري كما تقدم . ولو انه انقطع إلى التصنيف لما كان لوجوده مثل هذا التأثير الكبير

ونقول في خاتمة ترجمته انه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى كما قال كثير من العلماء في شيخ الاسلام أحمد بن تيمية انه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى . ولنعد إلى ترجمة الاستاذ الإمام فقد جمح القلم في ترجمة السيد حتى جاء فيها بأكثر مما وعدنا به رحمه الله رحمة واسعة

* * *

﴿ دخول الاستاذ الامام الامتحان ﴾
(في الازهر)

بعد ان تلقى رحمه الله تعالى ما تلقاه على شيوخ الأزهر وعلى السيد جمال الدين كما سبق البيان عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المعهود وقد كتب عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الاكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان

(١) راجع مقالاته في الحكومة الاستبدادية في (ص ٥٧٧ و ٦٠١) من مجلد المنار الثالث وربما ننشرها مع مقالات اخرى له في ملحق لهذا الكتاب

يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الازهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية» الخ

وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان يمينا مؤكدة لا يأخذنّ فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون ، طفقوا يناقشون ويراجعون ، وينتقلون به ويستطردون ، حتى صار الامتحان مناظرة ، تتولاها المشاغبة والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم يرا احداً امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ وأظنه الشيخ الرافعي ان يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يعرضها على اخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه ليوقعوا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب ان يراجعهم بعد أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى وما كانوا ضائرين.

﴿ طلبه العلم بعد التدريس ﴾

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يعدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه همتهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يؤثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد: فكان يقول الى آخر حياته انني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الازهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير ـ سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى لهذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى، على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتاشه من الإخلاد الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سماء عرفان الحقيقة ، والافصاح عنها بالعبارة البليغة،

بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعويده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الاسلامية ،التي كتبت باللغة العربية،مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ،وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لايكاد يتركها يوما من الايام .وكانت عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الاسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الارادة خاصة ،وفي سفره الاخير إلى سويسرة تعلم هنالك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الاوربية كتبا فيه وإن الانكليز نقلوا من حضرموت بعض ماهنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل كبير في تاريخ العرب والاسلام .وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الاسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لايعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته لنفسه عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنساوية عند ما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتدأ في أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريبا وعند ماسافرت الى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتعلم شيئا من الفرنساوية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين ورفاق من العرب واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علي ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة. أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية وجلوسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء و بعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل

فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به فدعوته فجاءني حاملا كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ماهذا فقال كتاب نحو فقلت له «لاوقت عندي لأن أبتدي وانما عندي زمن لأن انتهي» ثم ناولته قصة من تأليف ألكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو عليَّ والنحو يأتي في أثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتعلمت مبادىء اللغة الفرنساوية وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام

« سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أني وجدت انه لا يمكن لأحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم » اه

هذا ما يقال في طلبه للعلم وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسير العظماء ، وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيوخ بما يقولون من غير أن يفهمه وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه ، الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم اكتفائه بما ألقى عليه شيوخه في اكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس اساتذة آخرين ، وخاتمتها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثالث

﴿ في تربيته الروحية وتصوفه ﴾

قد علم مما مر شيء من تربيته الأولى منها أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الا نور العلم وقد كان له وانه لم يعن في صباه إلا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الألعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والأمراء في أوربا

بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذه الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا لضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق. وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين. ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الاحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحداً . وقال ما معناه مازجّ أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قليل

وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه ، ورقى به الى ما هو خير منه ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جاراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المعاهد ، وأسبق الى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز

عن حلها ، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها ، ولو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عليش شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لهاجوا على الشيخ عليش وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين ولما خاضوا في فقيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر وكانت الشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل فقيدنا من حال الى حال في التربية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأمرين . وقبل ان ننتقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للارشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فمهد السبيل التي سلكها به السيد جمال الدين ـ سبيل الإصلاح العلمي والاجتماعي . ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكمل سلوكه فصار بمأمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لإرشادهم وقد كتب لي رحمه الله في ذلك ما نصه :

« قلت انني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك ـ والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة و بلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى . قال لي عندما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متي هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذا لم يكن لك نورا تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فعليك ان تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا لقيتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حثثتك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح

الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه اليّ الخطاب لأتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الامر ومازال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني و بكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى » اهـ أقول يظهر أنه أحس بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الالهام والشعور ، ماهو معروف مشهور ،

ومن تدبر كيفية تربية الشيخ درويش للرجل وكان عارفا بطرق الصوفية يعلم انه يصدق على طريق الشيخ درويش ما قاله أبو السعود بن الشبل عن نفسه وعن شيخه عبد القادر الجيلي قال « طريق عبد القادر في طريق الاولياء غريب وطريقنا في طريق عبد القادر غريب » وأبو السعود هذا هو الذي كان يقول محيي الدين ابن العربي فيه وفي شيخه ان الشيخ عبد القادر أعطي حال الصدق فكان صاحب ظهور والشيخ أبا السعود أعطي مقام الصدق فكان نكرة لا تتعرف .

وهكذا كان شيخنا محمد عبده في الصوفية نكرة لا تتعرف أي انه صاحب مقام لا تغلبه الاحوال ، ولا يسهل عليه التأثير في نفوس الاغيار ، ولا يحتاج الى كلفة في إخفاء ما هو فيه ، وكتمان ما وهبه وأعطيه ، فكان مقامه مقام الصدق كالشيخ أبي السعود ابن الشبل ، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصيته انه كان من أبناء الدنيا ، ومن رآه منهم غير مبال بالمال ، ولا ميال إلى زينة الأثاث والرياش ، ظن ان حب الجاه هو الذي غلب عليه . ولكن من وقف على تاريخه يعلم ان هذا الظن من الباطل فانه كان يخفي ما استطاع كل مامن شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال ، ولما عاد من منفاه في سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيا في المحاكم الأهلية قال انني خلقت لأكون معلما لا لأكون قاضيا وانني أعلم انني إذا دخلت القضاء أرتقي الى أعلى درجاته ومع هذا أختار أن أكون معلما في مدرسة دار العلوم على علمي بأنه لا ارتقاء في صنعة التعليم ، كما سيأتي

ولما بلغ انه صار مفتيا انكمش وأخبرني بذلك وهو ممتعض حتى انني لم أنطق بكلمة تشعر بالسرور أو التهنئة ولكني قلت له ومالي أراك منقبضا ؟ قال لأن هذه

وظيفة لا عمل فيها . وسيأتي لذلك مزيد بيان في الكلام على أخلاقه وانما غرضنا الآن ان نبين شيئا من تربيته الصوفية لا آثار هذه التربية في الاخلاق والعمل وان ما نريد من ذلك يتوقف على بيان شيء من حقيقة التصوف ومن أحوال طرق الناس فيه قديما وحديثا فنذكر من ذلك مالا بد منه لمن يريد ان يعرف الحقيقة التي نرمي اليها فنقول

ماهو التصوف

يقال تصوف الرجل إذا صار صوفيا لا معنى للكلمة غير هذا ولهذا البناء اصل معروف لانزاع فيه فهو كتهود اذا صار يهوديا ومنه الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولكن وقع الخلاف في الصوفي الى أي شيء ينسب فأشهر الأقوال وأقربها من اللفظ ان يكون نسبة الى الصوف لأن القوم كانوا يكثرون من لبسه وعارض فيه بعضهم بأنه لم يكن خاصا بهم ولا كان كلهم يلبسه أو لم يكن شعارا لهم . وزعم بعضهم ان اسم الصوفي مأخوذ من الصفاء وانشدوا:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقا من الصوف (*

ولست امنح هذا الاسم غير فتى ... صافى وصوفيَ حتى سمي الصوفي

وزعم آخرون انه من الصفة نسبته الى أهل الصفة من الصحابة أي الذين كانوا يلازمون صفة المسجد لفقرهم وانقطاعهم للعبادة وحفظ القرآن واللغة تنفي هذا النسب وتتبرأ منه . ويقول بعض الناس ان الصوفي منسوب الى كلمة «سوفا» أو «سوفى» بعد التصرف فيها بالتعريب والكلمة يونانية معناها الحكمة والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة وهم من صنف الفلاسفة الاشراقيين عند اليونان . وذلك انه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الاسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم فعني بعض الناس بالعلوم النظرية وبعضهم بالعلوم العملية مع العمل وذلك قسمان قسم يتعلق بالظاهر كالطب وقسم يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الاخلاق وهذا هو موضوع التصوف ويعرف أهل التاريخ ان هذا التصوف قديم العهد في البشر فهو معروف عند

*) ويروى المصراع الثاني هكذا * وكلهم قال قولا غير معروف *

براهمة الهند الى اليوم وعند أهل الصين أيضا ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليهما كلمات دينية كالذي تراه كل يوم عند اهل الطرق

وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتاب « تلبيس ابليس » الى ان الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة قال

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومومن ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها ورأوا ان أول من انفرد بخدمة الله سبحانه عند بيته رجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مرّ فانتسبوا اليه بمشابهتهم اياه في الانقطاع الى الله سبحانه وتعالى فتسموا بالصوفية . وعن ابن سعيد الحافظ قال سألت وليد بن القاسم إلى أي شيء نسب الصوفي فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا الى الله عز وجل وواطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية . قال عبد الغني فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر اخي تميم بن مرة . وعن الزبير بكار وقال كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة (*) ثم كانت في ولده وكان يقال لهم صوفة وكان اذا حانت الاجازة قالت العرب « أجيزي صوفة » قال الزبير قال ابو عبيدة صوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله اذا قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان . وعن ابن السائب الكلبي قال انما سمي الغوث ابن مر صوفة لانه كان لا يعيش لامه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت فقيل صوفة ولولده من بعده . وعن عقال بن شيبة قال قالت أم تميم بن مر ولدت نسوة فقالت لله عليّ ان ولدت غلاما لأعبدنه للبيت

*) طابخة هذا هو ابن الياس بن مضر وهو بالباء والخاء كاسم الفاعل المؤنث من الطبخ كما في المعاجم وضبط في نسخة التلبيس بالهمزة والحاء المهملة . والاجازة هي الافاضة من عرفات كانت العرب لا تفيض من موقفها بعرفات حتى يفيض بها صوفة وكذا من منى . ونسبة الصوفية الى صوفة ذكرها الزمخشري في الاساس احتمالا

فولدت الغوث بن مر فلما و بطنه عند البيت اصابه الحر فمرت بهوقدسقط واسترخى فقالت ماضار الا صوفه فسمي صوفة وكان الحج و إجازة الناس من عرفة الى منى ومن منى الى مكة لصوفة فلم تزل الاجازة الى عقب صوفة حتى اخذتها عدوان فلم تزل في عدوان حتى اخذتها قريش اه

أقول ولا مانع في القياس من صحة هذه النسبة عربية ولكن يبعد ان ينتسب القوم باختيارهم الى أهل الجاهلية ولو الى النساك وملازمي خدمة البيت منهم فاذا صح ان هذا هو أصل النسبة فالمعقول ان يكون قد أطلق عليهم ذلك بعض العرب اذ رأوهم يكثرون التحنث وينقطعون للعبادة في المسجد الحرام وغيره لأن صوفة ممن يضرب بهم المثل في مثل ذلك

وأما تاريخ التصوف ومبدأه فقد قال ابن الجوزي فيه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها ان التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الاخرى . وسئل الجنيد بن محمد عن التصوف فقال الخروج عن كل خلق دري، والدخول في كل خلق سني، وعن محمد بن حنيف قال لرويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا انفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق ،

ثم ذكر ان هذا ما كان عليهم أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تلبيسه ان صدهم عن العلم وأراهم ان المقصود العمل فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ومنهم أغري بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر الاختياري . ومنهم من هام بالسماع والوجد والرقص، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات ، حتى قالوا بالحلول والاتحاد، وكانوا يعنون بالنظافة والتنطع في الطهارة وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعة

وذكر المؤلفين منهم . وان بعضهم قد هذبوا التصوف . فأول من ألف لهم في الزهد

والغلو في ترك الدنيا الحارث المحاسبي · وصنف لهم عبدالرحمن السلمي كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم مافيه العجب من تفسير لا يستند الى أصل من أصول العلم ·وذكر ابن الجوزي ان السلمي هذا غير ثقة وانه كان يضع لهم الاحاديث وحدث عن الاصم بشواذ كثيرة وهو لم يسمع منه الا قليلا ، وصنف لهم ابو نصر السراج كتاب لمع الصوفية وفيه كثير من الاعتقاد القبيح وصنف ابو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الاحاديث الباطلة والموضوعات · وصنف لهم ابو نعيم كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف اشياء منكرة قبيحة (وقال) لم يستح ان ذكر في الصوفية الخلفاء الراشدين وسادات الصحابة والتابعين وسفيان الثوري واحمد بن حنبل · وصنف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق الخ ثم ذكر تصنيف الغزالي للاحياء وما فيه من الاحاديث الباطلة وانه لم يكن يعلم بطلانها

ثم ان أبا الفرج بين ضروب التلبيس على الصوفية وما خالفوا فيه الشرع عن جهل أو تأوّل فأصاب في أكثر ما كتب وأخطأ في اقله وقد كان حسن النية كما كان أولئك الذين انتقد عليهم مخلصين فيما قالوا وفعلوا وهو لا ينكر ذلك عليهم ولكنه كان أعلم منهم بالسنة السنية وبما كان عليه السلف الصالح من هدي الدين لأنه من الحفاظ ولم يكن في أولئك الصوفية حافظ ولا محدث الا من انتصر لهم في بعض المسائل كابن طاهر الذي انتصر لهم في القول بإباحة السماع وان إحياء علوم الدين هو أحسن كتبهم ومولفه الامام ابو حامد الغزالي كان أوسعهم علما بالكلام والفقه والأصول وأدقهم فهما في اسرار الشريعة وحكمها ومع ذلك كله نرى في الاحياء كثيرا من الاحاديث والآثار الموضوعة والواهية وجلها أو كلها منقولة من كتاب قوت القلوب وهي هي وما أخذ منها و بني عليها هو جل ماينتقد على هذا الكتاب الجليل ولكن لا نعرف كتابا في العالم من علماء الاسلام أشد جذبا الى الدين وتأثيرا في قلوب القارئين من هذا الكتاب ·

واذا كان كثير من الصوفية قد أخطأوا بقبول بعض الموضوعات والواهيات والاحتجاج بها والاستنباط منها فهذا خطأ لم يسلم منه كثير من الفقهاء الذين تحاملوا

عليهم وضللوا بعضهم وكفروا آخرين في القرون الأولى عند ما كان الصوفية صوفية كاملين في طريقهم ثم خضعوا لهم وذلوا وأولوا كلامهم المخالف لظواهر الشريعة وكذا المخالف لنصوصها وذلك بعد أن طرأ عليهم ما طرأ من الشذوذ والبدع الكثيرة

وقف الصوفية على الطرف المقابل للطرف الذي وقف عليه الفقهاء من الاسلام: عني الصوفية بباطن الاسلام ولبابه وسره وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل الى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والاخلاق والعلم بصفات الله وسننه في خلقه . وعني الفقهاء بظاهر الاسلام من علم طهارة الابدان والثياب وأعمال العبادات والاحكام القضائية مدنية وجنائية وسياسية . وكان كل من الفريقين يخطئ و يصيب على نسبة استقلاله في فهم القرآن والعلم بالسنة و بعده وقربه من ذلك و « كل حزب بما لديهم فرحون »

قد علم كل أناس مشربهم ، واقتدى قوم آخرون بهم ، ثم جاء المقلدون لكل منهم ، فذهب بهم الجهل الى الغلو فيهم ، حتى فضلهم بعضهم على الصحابة والتابعين، وظنوا أنهم أوسع علما وأحسن عملا بهذا الدين ، هيهات هيهات لما تزعمون ، وشتان بين السلف والخلف فيما تصفون ، فلو صدق ما ظننتم ، وكانت حقيقة الامر ما زعمتم ، لكان لقائل أن يقول ان هذا الدين من وضع البشر ، ولذلك ارتقى بتطاول الزمن ، كلا ان السلف هم الذين أقاموا وزنه بالقسطاس المستقيم ، وجروا فيه على سنة الحنيفية السمحة وهداية الكتاب الحكيم ، فكل ما خالف جماعتهم من فنون زهد الصوفية البصريين ، أواقيسة الفقهاء الكوفيين ، فهو في هذا الدين مردود ، وصاحبه إما مجتهد معذور وإما مقلد معذول ، ولا يتبع أحد منهما فيما يعمل من ذلك ولا فيما يقول ، اذ المسألة من مسائل النزاع فترد الى كتاب الله وسنة الرسول ، (٤ : ٥٨ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فلا أحد من الصوفية معصوم في أعماله وأحواله ، ولا أحد من الفقهاء معصوم في آرائه وأقواله ، ولكن العصمة لكتاب الله عز وجل ، ولما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله

وسلم ، فحكمها هو الحكم العدل ، وقولها هو القول الفصل ، وسبيلها هي سبيل جماعة المؤمنين الاولين ، وهم سلف الأمة الصالحين ، من جمهور الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم قبل حدوث الفرق ، وتحزب الاحزاب والشيع ، واجماع أولي الامر ، من أهل الحل والعقد ، يطاع في المصالح العامة ، دون العبادات والامور الخاصة ،

ولقد غلا من كل حزب وفرقة أناس بعدوا بالدين عن كتابه وسنته ، وسيرة سلفه وأئمته : كان من غلو بعض الصوفية أن أفرطوا في الكلام على حكمة الدين وأسراره حتى بعدوا بها عن النصوص والسنن ثم زعموا ان للقرآن ظاهرا و باطنا ، وان مدلول النصوص هو الظاهر ، وأما الباطن فلا يعرف الا بالكشف والالهام ، ومن هذه الثغرة دخلت على هؤلاء الغلاة دسائس الباطنية الذين أوجسوا خلال الامة يبغونها الفتنة بتحريف النصوص وتأويلها ، وفيها سماعون لهم ، مخدوعون بزخرفهم ،

ثم انهم اشتغلوا بالفلسفة وعلوم الكون من الرياضيات والطبيعيات كالمتكلمين ومزجوا ما أخذوه منها بكتبهم التي بحثوا فيها عن الوجود وعوارضه ، ولكن طريقتهم فيها كانت مخالفة لطريقة المتكلمين ، فكانت عناية المتكلمين منصرفة الى عرض مسائل تلك العلوم على الكتاب والسنة واقرار ما وافقها و إبطال ما خالف النصوص بالادلة والبراهين على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، وما خالف الظواهر ان ساعدهم الدليل على إبطاله أبطلوه ، والا أولوا العبارة على طريق فنون اللغة من جعلها مجازا أو كناية ، واما غلاة الصوفية فقد تصرفوا في المعاني والألفاظ ، وسلكوا سبيل التعمية والالغاز ، فهم كغلاة الفلاسفة الاسلاميين وا كثر منهم مخالفة للفلسفة ، ومخالفة للشريعة ، حتى إنهم قالوا شريعة وطريقة وحقيقة ، والتقسيم والعطف يفيدان المغايرة ، وكان المتكلمون والفقهاء يكفرون الغلاة من الفريقين بل كانوا على الصوفية أشد تحاملا لأنهم يخدعون العامة باظهارهم التنسك فتعظم الفتنة بهم ، والفريقان سواء في شر ما كفرهما به المتكلمون والفقهاء وهو أمران أحدهما علمي كالقول بقدم العالم وكون النبوة كسبية ، وثانيهما عملي وهو إباحة المحرمات للخواص الكاملين في العلوم وجعل الشريعة وسيلة لتربية النابتة وضبط العامة ، ومن دون ذلك مخالفة

النصوص واتباع الفلاسفة في مسائل العالم العلوي وعالم الغيب كالسموات والعرش والكرسي والملائكة والجن والجنة والنار ،

والذي استنبطته من طول البحث والمقارنة ان أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسي لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة وأقلهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفة الباطلة التي كانت رائجة في تلك القرون ، ثم قلدهم في هذه الاباطيل كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها ولا الغاية التي وضعت لتؤدي اليها

مثل الصوفية في ذلك كمثل الشيعة فقد كان هؤلاء حزبا سياسيا من المسلمين يرى ان الحكومة الاسلامية يجب ان تكون حكومة أشراف وان احق الناس بها بعد النبي (ص) أقرب زعماء الصحابة المرشحين لذلك إليه وهو علي ربيبه وصهره وابن عمه ثم أولاد علي من بنته (ص) فجعل الباطنية من أصول تعاليمهم الوضعية الغلو في علي وولده والقول بعصمتهم ، وانه لا يعرف باطن الدين ولا حقيقته الا منهم ، وبثوا ذلك في غلاة الشيعة وجهلتهم ، توسلا بذلك الى الطعن في ابي بكر وعمر وجمهور علماء الصحابة وادعاء كتمانهم لبعض القرآن وتحريفهم لبعض آخر وابطال ثقتهم بما كانوا عليه من الدين وصرف وجوههم الى زعماء منهم يدعون انهم اخذوا حقيقة الدين من أئمة آل البيت المعصومين فيطمسوا الاسلام الحقيقي ويحلوا رابطة أهله ويستبدلوا به دينا جديدا ان لم يتيسر لهم إرجاع الناس الى المجوسية التي هي دين واضعي تعاليم الباطنية للانتقام من المسلمين الذين أزالوا ملكهم واستولوا على بلادهم

هكذا بثت الباطنية تعاليمها الالحادية الفاسدة في غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة وانخدع بها الفريقان لاظهار دعاتها الاسلام والتنسك والتقوى حتى صار الناس يقولون ان الشيعة قسمان ظاهرية وباطنية ، ولم يكن أحد يقدر ان يميز بينهما لان الباطنية كانوا يخفون عقائدهم أو تعاليمهم المخالفة للاسلام نفسه المصرحة بعداوته الا لمن يثقون به بعد وصوله الى الدرجة الاخيرة من درجات دعوتهم ، ولذلك رأينا مثل الشريف الرضي من أئمة العلم والفضل في الشيعة يمدح بعض الخلفاء العبيديين ، ظنا منه انهم من الشيعة المسلمين ، وانهم حقيقة من العلويين ، فقال وقد كان مستاء من الخليفة العباسي

ألبس الذل في ديار الاعادي وبمصر الخليفة العلويّ
من أبوه ابي ومولاه مولا ي اذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيدا النا س جميعا محمـد وعلي

ولو علم ان الخليفة العبيدي عدو جده والساعي في إبطال دين جده لما قال ذلك فيه

ولما ظهرت تعاليم الباطنية في بعض فرقهم امتاز مسلمو الشيعة وثبتوا على الايمان بوحدانية الله ورسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين وإقامة أركان الاسلام الخمسة بالعمل لا يخالفون غيرهم من المسلمين فيها الا ببعض الفروع الاجتهادية ، والباطنية هدموا كل هذه الأركان والعقائد الاساسية، ولكن بقي في كتب الشيعة وتقاليدهم شيء من تعاليم الباطنية كما بقي في كتب أهل السنة شيء من أحاديثهم الموضوعة . وأما كتب غلاة الصوفية فلا تزال حاوية لجميع ضلالاتهم أو أكثرها لا يستطيع التمييز بينها و بين التصوف الصحيح الا افراد من المحققين . وكان الاستاذ الامام صاحب الترجمة يقول ان التفسير المطبوع في جلدين المنسوب الى الشيخ محيي الدين بن عربي هو للكاشاني الباطني . ويقول بعض العلماء ان الفتوحات المكية والفصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية فان لم يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الاطلاق

قال ابن خلدون في مقدمته في سياق الكلام عن التصوف :

« ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتابه المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطون للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الائمة مذهبا لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفـة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان

« وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال : جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، وأن يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد : وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من أنواع الخطابة أوهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به

« ثم قالوا بترتيب الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم لما اسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفعوه الى علي رضي الله عنه وهو في هذا المعنى أيضا والا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي عنهما ازهد الناس من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأ كثرهم عبادة ولم يختص أحدًا منهم بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة في كلام بنفي أو إثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق

« ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقامات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ماوقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع (احدها) الكلام في المجاهدات وما يحصل في الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التي تصير مقاما و يترقى الى غيره كما قلناه (وثانيها) الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الا كوان بأنواع الكرامات (وثالثها) التصرف في العوالم والا كوان بأنواع الكرامات (ورابعها) ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول

«وأما الكلام في المجاهدات والمقامات ومايحصل في الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة

والتحقق بها هو عين السعادة

« وأما في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحاق الاسفرايني من أئمة الاشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت من الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من هذا وهو معلوم مشهور

« وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة

« وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم ان الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي بزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه واما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا ولهذا افتى الفقهاء واكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم

« وسلف المتصوفة من أهل الرسالة (١ اعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم

(١) يعني رسالة القشيري

يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب» اه

أقول وذكر قبل مانقلناه أن بناء هذه الطريقة على مجاهدة النفس وغايتها الوصول الى مقام التوحيد والمعرفة : قال ان الادراك الذي يتميز به الانسان عن سائر الحيوان نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للاحوال القائمة بالنفس من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف بالبدن تنشأ من إدراكات وارادات وأحوال وهي التي يتميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة ، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به ، والنشاط عن الجمام والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد ، وإما أن لاتكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للكمال :

ثم ذكر عناية القوم بمحاسبة النفس على الاعمال والخواطر وعدم الاكتفاء بالاتيان بالعبادة موافقة لشروط بالفقه بل يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ، فأصل طريقتهم المجاهدة والمحاسبة وأثرها في النفس ، وذكر انهم اصطلحوا على ألفاظ تدل على ماانفردوا به من هذه الاذواق ومباديها وغاياتها كما وضع أهل الكلام والفقه والاصول اصطلاحات لعلومهم فصار علم الشريعة صنفين علم الفقهاء وعلم الصوفية

ثم تكلم على ما تثمره الخلوة والمجاهدة من كشف حجاب الحس وإدراك بعض العوالم الخفية وأطال في الكلام على هذا الكشف وعلته من سنة الله تعالى في النفس البشرية وما فيها من الاستعداد للادراك بغير واسطة الحس ، وما حدث للصوفية بعد عنايتهم بهذا الكشف من الكلام في حقائق الموجودات العلوية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي ، وإنكار بعض الفقهاء وأهل الفتوى عليهم وتسليم بعضهم لهم واطال في ذلك

وأقول ان ابن خلدون أصاب في أكثر ماقاله وأخطأ في بعضه وانه ما سلم الصوفيـة من سلم من الفقهاء الا لظهور بعض خوارق العـادات من بعضهم كالكشف وغير الكشف والانسان مهما كان معتزا قويا بعلمه وثقته بمعرفته فانه يضعف وينقاد لأضعف الاشياء اذا ظهر له من قبلها ما يعـده مددا من السلطة العلياوالقدرة الإلهية اذ أودعالله في فطرته العبودية والخضوع لسلطانه الأعلى الذي سخر به الاسباب ولا تسخره الاسباب في شيء ، ومن الناس من لم يبال بخوارقهم لأنه علم بأن مثلها قد كان من الهنود والصينيين وغيرهم فقالوا ان لهذه الخوارق أسبابا جارية على سنة الله تعالى في النفس البشرية وآثارها فنحن لا نسلم بشيء في الشرع لم يقم عليه الدليل الشرعي لان القائل به جاء بشيء غريب لانعرف سببه وهو نفسه لا يصلح أن يكون حجة على ما قاله ولا على عصمته فيما يكون عليه . وقد قال بعض كبراء العلم والتصوف . اذا رأيتم الرجل يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تروا حاله عند الأمر والنهي ، أي فان كان منتهيا عما نهى الله عنه مؤتمرا بما أمر به فهو المؤمن الصالح الولي لله والا كان فاسقا شقيا ، أو كافرا غويا ،

وقد غلا في علم التصوف فريقان فريق عده كله بدعا محدثة يجب ردها وعدم قبول شيء منها الا اذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف العملي أو القولي ولا يعتد بما يسمونه الاشارة ولا الكشف لانهما ليسا من طرق الدلالة في الشرع ولا في اللغة العربية . ومنهم من جعل ماثبت عنهم دينا يتقرب الى الله تعالى به وينكر على مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة أو نصوص أئمة الفقه عند مقلديهم ، ويؤمن بمتشابهه كمتشابه الكتاب والسنة مع ان الصوفية

أنفسهم أنكروا ذلك . وذكر الشعراني ان شيخه عليا الخواص قال له في جواب سؤال : أن متشابه كلام الصوفية لا يقبل ولا يؤوّل كمتشابه الكتاب والسنة ، لعصمة الكتاب والسنة دون كلام الصوفية ، فانهم غير معصومين من الخطإ فيه . وهذه الكلمة أحسن مانقله عنه

والصواب ان كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والاصول والفقه — وأهل العلوم الكونية والعقلية كالفلسفة والطبيعيات. وكتبهم ككتب هؤلاء العلماء فيها الخطأ والصواب . وقد كنت كتبت لهذا البحث أوراقا ثم ضاعت ، واتفق ان اطلعت قبل كتابة غيرها على فتوى لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية في الصوفية والفقراء ذكر فيها تاريخ ظهورهم وحقيقة حالهم وغلوّ بعض الناس في مدحهم. و بعضهم في ذمهم وانتقاصهم ، وحقق ان مبدأ ظهورهم كان في البصرة وانهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، وان أهل البصرة قد اشتهروا بالعبادة والزهد أكثر من أهل سائر الامصار ، كما اشتهر أهل الكوفة بالفقه، فكان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية

وان الصوفية والفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وان السابقين بالخيرات منهم كالسابقين بها من الفقهاء ، ويسمون أهل الحقائق، وقد يصل بعض هؤلاء وأولئك الى درجة الصديقين. ثم قال:

« وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاّج مثلا فان أكثر مشائخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ أبو الطيب في تاريخ بغداد

« فهذا أصل التصوف ، ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق، وصوفية الارزاق، وصوفية الرسم ؛ فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم، وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فان هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق

لا يتصدون بلوازم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض و يجتنبون المحارم ، والثاني التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها . والثالث أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالاخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعيــة أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك . وأما صوفية الرسم فهم المقصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ؛ فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع مّا من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم »

ولما كان الصوفية يسمون أنفسهم (الفقراء) تكلم شيخ الاسـلام في مسألة الفقر ولقب الفقير في عرف الشرع وعرفهم ، و بين ان الفقراء كغيرهم لايخرجون عن المراتب الثلاث التي أشرنا اليها في تلخيص كلامه عن الصوفية

وجملة القول ان مرادنا من التصوف والصوفية هنا ينحصر في المسائل الآتية نلخص بها ما تقدم ونزيد عليه . وهي

(١) التصوف الاسلامي هو التخلق بأخلاق الصوفية والانتظام في سلكهم

(٢) الصوفية في الاسلام طائفة انقطعوا الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى، ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشاء وتلبيساء ولبس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا

(٣) ان رياضة النفس والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتكميلها يثمر علما وعرفانا بسنن الله تعالى في الارواح وأسرار قواها ، وأحوالا وأذواقا غريبة ، من أعمها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من غير طرق الحس والفكر،

(ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض الاشياء، وأكثر مايكون ذلك بنحو شفاء مريض أو استهواء نفس تكون أطوع للمستهوي من طرفه ، وأتبع له من ظله . وذلك فوق مايعهد الناس في هذا العصر من الاستهواء الذي يسمونه [التنويم المغناطيسي]

وقد ظهر في هذا الجيل رجل في سورية عرضت له حال اعتقد بها انه يجب عليه الخروج لإِزالة الفساد ، واصلاح أمر العبادة ، فكان يسير ويدعو الناس الى اتباعه فيتركون حرثهم وزرعهم وتجارتهم وصناعتهم ويتبعونه فرادى ومثنى وجماعات ، من غير بينة ولا برهان، ولولا أخذ الحكومة له لكان له شأن وأي شأن !

(ومنها) أحوال تعرض ، وبروق تومض ، يلطف بها الكثيف ، ويرق بها الغليظ ، ويضعف سلطان المشاعر ، وينعكس نور الابصار الى البصائر ، فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال ، حتى انه ليزج به في عالم من الخيال، يناجي فيه الارواح ، تتجلى في صور الاشباح، بأغربَ وأعجب مما يدعيه مستحضرو الارواح الآن

(ومنها) الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها، وصفات النفوس البشرية وقواها وعللها ، وغير ذلك من العلوم العقلية ، والمعارف الكونية والإلهية

(٤) إن هذا التصوف برياضة النفس وما تثمره من الاحوال ليس من مستحدثات المسلمين بل سبقهم اليه قدماء الهنديين والصينيين واليونان وغيرهم — كما تقدم في أوائل الفصل — وقد سرى الى بعض صوفية المسلمين كثير من بدعهم وضلالاتهم ، وشعائرهم وشاراتهم ، حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود ، فصارت هي غاية الطريقة عندهم ، كما كان تجريد التوحيد الشرعي غاية الطريق الاسلامي عند غيرهم . ولا ندري كيف دخلت هذه الدخائل على الصوفية ولا عن أي كتب الهند وغيرها أخذوا ، ولا تاريخ ذلك — لم نقف على ذلك كما وقفنا على ما يقابله من دخول فلسفة اليونان على علماء الكلام ، ولكننا رأينا في بعض كتب الصوفية ذكراً لصوفية البراهمة وتفرقة بين كشفهم وكشف المؤمنين . ويسمون الكشف الاول الكشف الصوري والظلماني ، والثاني الكشف المعنوي والروحاني ، وأما المتكلمون منا فقد قالوا بجواز وقوع الكشف وغيره مما يسمونه خوارق العادات من غير المؤمن التقي ، ويجعلون لكل نوع منها اسما ، فما كان على يد المؤمن التقي يسمونه كرامة ، وما كان على يد الكافر أو المبتدع أو الفاسق يسمونه استدراجا

(٥) اننا على جهلنا تاريخ دخول تلك الدخائل على صوفية المسلمين نعلم ان الباطنية

الذين كانوا يؤلفون الجماعات والاحزاب للكيد للاسلام ودولة العرب، والسعي لإفساد الدين وإسقاط الملك ، قد دخلوا على المسلمين من بابي التشيع والتصوف معا كما تقدم، ولذلك ترى أ كثر طرق الصوفية تتصل بأئمة آل البيت عليهم السلام وتنتهي الى أصلهم علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه . وما عدا ذلك فهو مستحدث كطريقة النقشبندية التي تنتهي الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . والباطنية هم الذين اخترعوا مسألة كون الشريعة لها ظاهر و باطن ، وكون أئمة الباطن هم العارفين بتأويل القرآن وحقيقة الدين دون غيرهم ، وكونهم يتصرفون بأمور الكون ، وهم الذين أدخلوا على التصوف بدعة وحدة الوجود البرهمية ونزغات فلسفة اليونان النفسية . وكان غرضهم من ذلك إفساد عقائد الاسلام وازالة سلطانه وحكمه، وكانوا يعنون بالأئمة والاقطاب وأهل الديوان المستورين أئمة نحلتهم الذين يريدون رفعهم الى عروش الممالك ليتمموا لهم مايريدون بقوة السلطة ، بعد التمهيد العظيم له بالدعوة . وقد تم لهم أمر الملك في مصر بدولة العبيديين، ولكنهم عجزوا عن ابطال الاسلام وافساد أمره

(٦) قد امتزجت دسائس الباطنية بتعاليم الصوفية فراج بعضها على الاكثرين و بعضها على الاقلين ، وعز التمييز بينها حتى على كثير من العلماء الراسخين ، كما راج على الاكثرين ما دخل عليهم من البدع الاخرى لجهلهم بالسنة الصحيحة وسيرة السلف المقتدى بهم من الصحابة وأئمة التابعين

فالضلالات والبدع المتغلغلة في كتب الصوفيـة قسمان (أحدهما) ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل من كتاب ولا سنة (ثانيهما) ما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر المخالفة للسنة في ذاتها أو في كيفيتها . ولا يخفى انه ليس لاحد بعد زمن الوحي ان يجعل بعض العبادات التي لا أصل لها في الدين شعائر تؤدى بطريقة مخصوصة في أزمنة مخصوصة بكيفية مخصوصة، اذا لم يرد هذا التخصيص في السنة المتبعة . مثال ذلك صلاة رجب (الرغائب) وشعبان اللتين نص الفقهاء على كونهما من البدع المذمومة ، وقس عليهما ماهو دون الصلاة من شعائرهم كالاجتماع لقراءة الاوراد والدلائل وللاذكار بالكيفيات المخصوصة في الايام المعلومة والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها، وما فيها من

البدع والمنكرات الكثيرة

(٧) إنما الحكم العدل في التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة أهل الصدر الاول في اقامتهما والعمل بهما، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول، وما خالفه فهو القبيح المردود، وما كان غير موافق ولا مخالف فهو محل الاجتهاد اذا لم يعدّ دينا، وتحسين الظن أولى بالعاجز عن الاجتهاد، ولو فيما كان مخالفا للمعهود بين الناس

ولا يعرف هذا الحكم الا العالم الراسخ في التفسير والحديث وتاريخ الاسلام، لان شيوخ التصوف يلتمسون لما لديهم أدلة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولكنهم قد يستدلون على الشيء بما لا يدل عليه من التأويلات البعيدة للآيات والاحاديث، والاخذ بالاخبار الموضوعة بَلْهَ الضعيفة. وترى عالما كبيرا كالامام الغزالي يقع في ذلك

(٨) طالما تمنيت ان يوجد كتاب لاحد أئمة العلم الجامعين بين علوم النقل والعقل والتصوف يحصي على المنتسبين الى التصوف ما ألموا به من البدع، ويبين ما خالط كتبهم من دسائس الباطنية والفلاسفة، ويزن ذلك بالقسطاس المستقيم المبين في المسألة — السابقة — حتى عثرت على كتاب [مدارج السالكين بين منازل: إياك نعبد واياك نستعين] للامام الشهير ابن القيم — وهو ابن بجدة هذا الامر وأبو عذرته — فاذا هو قد شرح فيه كتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل عبدالله بن محمد الانصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١ فكان هو الأمنية

أما أبو اسماعيل فهو — على كونه من أكابر أئمة الصوفيه أرباب الحقائق — مفسر محدث فقيه حنبلي سلفي. وأما كتابه [منازل السائرين] فهو نسيج وحده في متون التصوف، جعله عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب، في كل باب كلام وجيز على منزلة من منازل السائرين الى الحق تعالى، وكل منزلة لها ثلاث درجات. وقد يعبر بغير الدرجات قليلا. وقد غلب تصوف مؤلفه على علمه بالسنة في بعض المواضع فشذ كغيره. ولذلك تمنى الحافظ الذهبي لو لم يكن ألف هذا الكتاب

وأما الامام ابن القيم فلا يعرف مكانته وعلو قدمه في التصوف الا من اطلع

على كتابه مدارج السالكين . وأما علمه بالسنة وسائر العلوم الاسلامية فهو فيه أشهر من علم ، وكتابه هذا هو الذي حرر علم التصوف ونقاه من دسائس ملاحدة الباطنية وغيرهم ، وحكم فيه كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح . فهو غاية الغايات في هذا الباب ، لا نعرف كتابا غيره ندل عليه من يريد هذا العلم علما إسلاميا ليس فيه بدع ولا عقائد زائغة ، الا ان تذكر لتدحض شبهتها ، وتدمغ جبهتها

مكان صاحب الترجمة من التصوف

بينا في أول الفصل ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ربي تربية صوفية، وانه كان صوفيا حفيا خفيا ، وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف، وأن يكون مع الناس فيما يشاركهم فيه من الصفات والاحوال . وكذلك كان : كان مع الحكماء حكيما ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الادباء أديبا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الادارة والقضاء اداريا كاملا ، وقاضيا عادلا — وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده ، مع التزام الصدق واستقلال الرأي

ولما كان وجود الصوفية في هذا العصر أندر من الكبريت الاحمر كانت مكانة الشيخ في التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه ، ولا أعرف أحدا من أهل هذه البلاد كان يزوره ليذاكره في علم التصوف وأحواله الا أحد شيوخ الطريق المعتقدين في الصعيد وهو الشيخ أبو شروقاوي رحمه الله تعالى . كان لهذا الشيخ تلاميذ يعتقدون أنه من أولياء الله تعالى، ومنهم من هو سيء الاعتقاد أو الظن بالشيخ الذي كان شيخهم يسأله عن دقائق التصوف ويستفيد منه

ولولا أن سبق لمؤلف هذا الكتاب اشتغال بسلوك طريق التصوف وعناية بمطالعة كتبه لما أمكن أن أعرف من صاحب الترجمة ما عرفت من أمره فيه شيئا لانه كان نكرة لا تتعرف كما قلت في أول الفصل. وقد أخبرني أن كتاب الفتوحات المكية عنده كتاريخ ابن الاثير لا يقف فهمه في شيء منه

وقد بدا لي الآن ان أبدي شيئا مما كنت عازما على إخفائه من معنى قوله : مازجّ أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر

ويخرجه منه وذلك قليل . فأقول :

ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك ان يرى في اليقظة (الطبعية لا ما تسميه الصوفية اليقظة) ما لا وجود له في الخارج ويسمع من نفسه تارة ومن الارواح التي تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما انه لا يمكن للرجال ان يعبروا للاطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، ويتبع هذه الاحوال تخيلات وأوهام كثيرة ، يجد لها صاحبها لذة عظيمة، يحتقر في جنبها ما سواها ، فلا يسمع فيها عذل عاذل ، ولا رأي عاقل ، ولا فتوى فقيه ، ولا برهان متكلم أو حكيم . ولكنه قد يقبل كلام من يرى انه فوقه في أحواله وأعماله ، وأنّى لغريق خياله بانقاذ غريق خياله ؟ بل ما كل من غرق ثم نجا يقدر على إنقاذ الغرقى .وانما تكون النجاة من هذا الغرق بقوة واستعداد من الغريق ، وقوة واستعداد آخرين من المنقذ ، وقلما يتفق اجتماع الامرين ، كما اتفق ذلك للشيخين — الاستاذ الامام والسيد الحكيم — قدس الله أرواحهما

ومن لم يتح له هذا التوفيق يفتتن بهذه الحال أو بذلك الخيال ، ويغتر به ويرى انه مستغن به عن جميع العلوم الدينية والدنيوية التي فرضها الله على العباد ، اذ جعلها مدار صلاح أمور المعاش والمعاد ، فاذا اقترن بذلك ما يقع كثيرا من المكاشفات ، أو التأثير بقوة الارادة في شفاء بعض الامراض ، أو حمل بعض الناس على أعمال ما كان ينتظر ان يعملوها لولا ذلك التأثير ، وغير ذلك من الامور الغريبة التي يسمونها كرامات ، فحينئذ يكون من يقع له ذلك فتنة لنفسه ولغيره ، فيغلو فيه من يرى ذلك منه ، أو يروى له عنه ، حتى ان من الغالين من يعدلون هؤلاء الناس بربهم ، ويجعلونهم شركاء له في التصرف بهم وبغيرهم ، بل يدعونهم حتى عند الشدائد من دونه، ويقدمون كلامهم على كلامه وكلام رسوله ، فاذا كان لاحدهم أو لاحد رجال طريقته حزب أو ورد اتخذوا قراءته شعارا من شعائر الاسلام ، وهجروا لقراءته تلاوة القرآن ، ومنهم من يواظب على الورد ويترك الصلاة ، وإذا نسبت الى أحد

منهم بدعة ، قدموها على ما اتفق عليه المحدثون من السنة ، فيصدق عليهم بذلك ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأنهم اتبعوهم في مسائل الحلال والحرام ، وكذا فيما زادوا في الدين من العبادات

ومن رضي أن يرى نفسه إماما متبوعا ، وشارعا مطاعا ، جدير بأن تعظم فتنته ويرسخ غروره ، وقد يتوهم انه على هدى من ربه ، وان من ينكر بدعه من علماء الشرع محجوب بقشور الدين عن لبه ، فيكون من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا . ولكن منهم من يتخذ إلها معبودا ، وربا مقصودا ، وشارعا مطاعا ، وهو لا يدري ، واذ درى لا يرضى

ومن دون هؤلاء من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى ، ولم يذق للتصوف طعما ، ولم يعقل له حدا ولا رسما ، انما قصارى أمره فيه أن برأس زعنفة من الغوغاء ، على اللغط والصياح بما يسمونه الاذكار والاوراد ، ثم انه يُدَّعى له مقامات العارفين ، وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويخترع لهم من الرؤى المنامية ، ما هو عندهم أهدى من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية ، فاذا مثل له الهوس في أحلامه ، بعض ما يشغله في عامة لياليه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس

فهؤلاء يعيشون في عالم خيالي ، وأولئك يعيشون في عالم خيالي ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والحدادين — كما يقول في أمثاله الغزالي — بل هؤلاء من الشياطين ، وأولئك من الصالحين غير الكاملين ، فهم بغرورهم بما هم فيه والاستغناء به عن علوم السنة والفقه الصحيح والعلوم والفنون التي تعتز بها الملة وذم ذلك واحتقار أهله كبعض غلاة علم الكلام وعلم الاحكام الذين يفضلون جدلهم وحيلهم التي يسمونها شرعية على كل شيء ويحتقرون في سبيلها كل شيء

ان المنتسبين الى طرق الصوفية في هذا العصر ألوف الالوف ، ولكنهم هبطوا الى اسفل سافلين ، فقلما يصلح احد منهم أن يعدّ ممن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم

دع صوفية الارزاق الذين فوقهم ، دع صوفية الحقائق الذين كلامنا فيهم

طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين في إصلاح شأن المتمين الى طرق الصوفية ، و إنقاذهم من خيالاتهم الفاسدة وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون — فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا ، ولما هاجرت الى مصرسنة ١٣١٥ كان أول إصلاح سعيت اليه ان حاولت إقناع شيخ مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الاصلاح، كلمته بذلك قبل إصداري (المنار) ثم مازلت الح عليه في ذلك وهو يسوف مع الاستحسان حتى عمد الى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتابا في الاخلاق والآداب، على انه سألني عن رأيي في ذلك فقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والاخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم علمت بعد طول السعي ان ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحي يكاد يكون من محالات العادات[١]

وقد جرت المذاكرة في ذلك مرة بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي — وكان يرى أن إصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال — فقلت أرأيت إذا اقنعنا بعض إخواننا الصادقين في حب الاصلاح ، العالمين بطرق الارشاد ، بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون ان يقفوا بعامة أهل طريقتهم عند حدود السنة ، ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة؟ فقال إننا جربنا ذلك فأقنعنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو مما ذكرت ، فكان عاقبة أمره معهم ، ان أفسدوه ولم يصلحهم ، فأنس بهذه الرياسة وآثرها ، فخسرناه بها

(١) مما يعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمي يورث كالمال ، فامير البلاد يقلد بعض الوجهاء منصب (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) وهو منصب محصور منذ عهد بعيد في بيت البكري من بيوتات مصر ، وشيخ المشايخ يقلد مشيخة أكثر الطرق المشهورة في هذا القطر من يرثها عن أبيه أو غيره، ولهم عادات وتقاليد في ذلك لا غرض لنا في شرحها

فعلم بهذا كله ان للحياة الخيالية التي يعيش بها هؤلاء الناس لذة عظيمة سواء كان الخيال فيها عاليا أم سافلا ، ولذلك كان اصلاح شأنهم عسرا جدا ، ولن يقوم به الا من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والاخلاص وقوة التأثير بالكلام و بالارادة، وهيهات ان يتفق وجود افراد من هؤلاء اتفاقا ، وانما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد ؛ وكثيرا ما يكون لهذا الواحد من الصوارف ما يحول دون التصدي لهذا الاصلاح، فيجب على المسلمين السعي لتربية طائفة منهم، وقد كان الاستاذ الامام من اولئك الافراد القادرين على هذا الارشاد لو تصدوا له ، ولكن صرف عنه حتى كان أكثر الناس يظنون انه ليس منه في ورد ولاصدر ، وطالما كانت نفسه تتوق اليه ؛ قال لي مرة : اذا يئست من اصلاح الازهر فانني انتقي عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندي في عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم وأستعين بك على ذلك ، وكان اقترح مثل هذا الاقتراح على السيد جمال الدين ايام كانا ينشئان العروة الوثقى في باريس ، وسيأتي بيان ذلك

ولو تم للاستاذ هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة ، وما كان يحول دون تمامه الا تعسر الاهتداء الى عشرة من المريدين المستعدين لهذه التربية ، فان أوبئة فساد الفطر والاخلاق وضعف الارادات والعزائم لم يكد يسلم منها الا الافراد الذين يعز الاهتداء اليهم بالسعي ، وإنما يعرف منهم من يعرف بالاتفاق والمصادفة غالبا. على ان تلك الروح الملية ، والارادة القوية، جديرتان بتحويل الطباع ، وتبديل الاوضاع

الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية

وهو ماقبل النفي

يتألف هذا الفصل من تمهيد في نتيجة تربية صاحب الترجمة وتعلمه ، خمسة مقاصد —١— تدريسه في الازهر —٢— تدريسه في مدارس الحكومة —٣— عمله في ادارة الحكومة —٤— عمله في نظارة المعارف —٥— سيرته في الثورة العرابية

تمهيد في حظه مما يكون به الرجل عظيما لو سأل سائل: أي الرجال أعظم في الامة وأفضل؟ — لاختلف الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم، فهذا يقول أعظمهم العالم وذاك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح، فينبري رابع قائلا بل القائد الفاتح ، ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي الحاذق ، ويقول آخرون أقوالا أخرى . واذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيتهم يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع الامة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا ، وهؤلاء قلما تجود الاجيال بواحد منهم على كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

انما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج ، وحسن الوراثة للوالدين والاجداد . وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الامام لكل أمر عظيما حتى كان استعداده هو الاصل في تربيته وتعليمه . فقد علمت مما مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا يفهمها ولم يعرف هذا

عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكيائهم الذين استفادوا بعد العناء، فصاروا من كبار العلماء ، فقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا ، واذا حفظ أحدهم شيئا بالتكرار ظن انه فهم وعلم، ولاسيما اذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته . ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ، ويوقن أو يرجح أن الحكم فيها كذا ، ولذلك أسرع اليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات . وكان يقول ان حضور كتب العلوم العربية على طريقتهم قد أضر بذهنه وعقله، وانه ظل يكنس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة . وقد أعجبته طريقة السيد جمال الدين فانه كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للافهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها عليها فان انطبقت والا أبان مافيها من التقصير، أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقرّه أو يفنده ويجزم بغيره . وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بمجرد فهم المراد مع التسليم لمؤلف الكتاب ، فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهريين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه ، وفي نهايته لم يرض بما يفهمه الا بعد أن يستشير فيه الدليل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده بطلب العلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيده كمالا في نفسه ، ويعينه على رفع شأن ملته وأمته ، ولو انه تعلم في حداثته على طريقة قويمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربة وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضيع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية — لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأينا ، على ان مارأيناه يكاد يكون من الخوارق، فانه لم يكن يتكلم في علم الاوتيَ صاحب القدح المعلى فيه حتى كأنه هو الواضع له ، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثلى من الازهريين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين

وأما تربيته النفسية فقد علم مما تقدم آنفا انه تربى على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات وسلم من أوهامها الخالية حتى ملك نفسه وكملت أخلاقه وصار الدين وجدانا له، فكمل دينه بالجمع بين صحة الوجدان وقوة البرهان . وأهم ماتفق له تربية الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام، فقد كان فيها نسيج وحده في أمته،

وسيأتي بيان ذلك في الكلام على أخلاقه .

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا فبدأ باحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك، فاشتغل بها معه مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في إحياء لغة الامة واصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع. وسيعلم القارئ من هذا الكتاب كيف تنقل في ذلك من حال الى حال حتى كان بدء عمله التعليم في الازهر وخاتمته التعليم في الازهر

المقصد الاول

تدريسه و بدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ لطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر، فكثر سواد المجتمعين عليه، وكان يدعوهم الى مطالعة مالم يتعودوا من الفنون والكتب، ويفتح لهم أبواب المذاكرة والمناقشة ليلا، فكانوا يغتالون الليل ولا يشعرون بطوله، وفتن الاذكياء بحسن بيانه ودقة فهمه. وحسده أناس منهم فأحفظوا عليه قلب الشيخ عليش فكان ما كان من أمره معه ، اذ ذهب ابن للشيخ عليش مع طلاب آخر فقالوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية ، وقد رجح في درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ، وكان الشيخ عليش رحمه الله أذنا يصدق كل ما سمع، وكان شديد الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب، فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل الى الفقيد فجاءه وهو يقرأ الدرس في المسجد الحسيني . فقال الشيخ عليش : بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفيــة درسا، قال: نعم، قال الشيخ عليش وبلغني أنك

رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ! قال : اذا كنت أترك تقليد الاشعري فلماذا اقلد المعتزلي ؟ إذاً أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل، قال الشيخ عليش: أخبرني الثقة بذلك، قال: هلم الثقة الذي يشهد بذلك فليميز امامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت، قال الشيخ عليش: أومثلك يفهم شرح العقائد؟ قال: الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلني ان شئت . فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عليش المهيب، وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته، وأخذ عمامته عن رأسه، ولغط الحاضرون، فتركهم الفقيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه . فقال أناس ان الشيخ عليشا ضربه، وقال آخرون انه منعه من الدرس. وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين . والحق أن ما ذكرناه هو كل ماحصل ، وأن الفقيد لم يمتنع من قراءة الدرس ، وقد اشيع ان الشيخ عليشا لا بد أن يمنعه من الدرس بالقوة ، واشتهر انه ترك قراءة الدرس في مسجد محمد بك أبي الذهب وأتمه في بيته . وقد حدثني انه لم يترك الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما يعهد عارفوه، كما سنبين ذلك في الكلام على أخلاقه .

أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها ، بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحمهما الله تعالى حتى عدوا حبس الاستاذ في امر الثورة العرابية كرامة للشيخ عليش ولم يعدوا حبس عليش كرامة له . وسنعقد فصلا خاصا في هذا الجزء نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن، وأنه من مناقب حكيمينا قدس الله روحهما ، وان الذين يتشغون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقلدهم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه وسعوا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والتقول مما تزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا تنكر أن تأثيره السيء وقع على الامة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين اللذين لم يحترم الناس من عقلاء الامة الاسلامية ولا من الاجانب أحداً في هذ

العصر من أهل المشرق كاحترامهم اياهما — ذلك انه كان عقبة في سبيل اصلاحهما واستفادة الامة منهما ، وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما ، وبذلهما جهد المستطاع في خدمة أمتهما وملتهما . وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الازهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه

ثم ان دروسه في الازهر كانت بناء جديدا للعقائد على أساس البراهين القطعية ، وتجديدا لما يلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الازهر واسعة جدا تحيط بأعمدة كثيرة ، وكان يقرأ في بيته درسا في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين : قرأ في ذلك كتاب (تهذيب الاخلاق) لابن مسكويه الرازي فكان ذلك سبب طبعه المرة الاولى . وقرأ كتاب (كيزو) في السياسة ولا أدري أتمه أم لا

شعر الازهر بشيء جديد يتجلى في تلك الدروس ، فهابها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد الفقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثني صديقنا حفني بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه في الازهر الا على سبيل الاكتشاف ، مع مراعاة الحذر والاحتراس ، وانما اكتشف بتلك التجربة كنزا من التبر ، وغاص في بحر جنى منه أنفس الدر ، فترك له ما كان يلهو به من الخزف ، أو يخطف بصره من بريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه .

هذا ماكان من أمر الفقيد فى الطور الاول من حياته العملية ، وهو وضع جرثومة الاصلاح فى الازهر ، وقد بقي هذا همه الا كبر طول حياته فكان المبدأ والختام ، وسيأتي تفصيل ما عمله في الازهر في أواخر أيامه

المقصد الثاني

تدريسه في مدارس الحكومة

عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم، وللعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

في الجامع الازهر، فبدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وانما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يطبق مافيهامن الكلام على نهوض الدول وسقوطهاوشؤون العمران وأصوله على أمته، ويبين أسباب ضعفها، والوسائل التي تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته، لان هذه الافكار لم تكن معهودة في هذه البلاد، فلا تذكر في المدارس ولا في المجالس، والمقرر في أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لاحقوق لهم عليهم وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه مع ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في العصور الغابرة

وكان في مدرسة الألسن آية البيان في احياء اللغة العربية وا شراع الطريق اللاحب في التعليم، والخروج بالطلاب من مآزق العهد القديم

وما نبغ من نبغ من تلاميذ السيد وتلاميذ الشيخ الا لانه كان يقصد بتربيتهم وتعليمهم ايجاد نابتة من المصريين تحيي اللغة العربية، والعلوم الاسلامية، وتقيم عوج الحكومة، اذ كانت قد رثت ووهت، ووقعت في النزع أو أوشكت . عظم فيها سلطان الاجانب، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب، فمنيت الامة بالمتربة والمسغبة، وضربت عليها الذلة والمسكنة، ذلك بما أسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس، وتعذيب الاجساد واذلال النفوس، وقد حدثني بعضهم أنهم عندما كانوا يحضرون دروس الشيخ ومجالس السيد يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم، وأنهم اذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت، وقد كان السيد مهد السبيل لهذا الإصلاح باتصاله بتوفيق باشا ولي عهد الخديوية المصرية، وإقناعه إياه بما يجب أن تكون عليه الحكومة اذا آل أمرها اليه، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة السيد رحمه الله

ظهرت آثار روح الشيخين في أعمال تلاميذهما فكان منهم أرقى القضاة

الاهلين والمحامين وأساتذة المدارس العالية ، ومن أشهرهم سعد زغلول ، وابراهيم اللقاني ، وحفني ناصف ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد

المقصد الثالث

عمله في ادارة المطبوعات والجريدة الرسمية

في أواسط سنة ١٢٩٧ توجهت عناية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس، فاستشار الشيخ حسينا المرصفي ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته، فأشارا برأي واحد كأنهما تواصيا به، وهو جعل الشيخ محمد عبده محررا فيها او لها ؛ ففعل بعد ان استرضى توفيق باشا ، فصدر الامر العالي بتعيينه محررا ثالثا ؛ وانتظر رياض باشامدة من الزمن فلم ير تغييرا يذكر فطلب الفقيد وسأله عن ذلك فقال ان أمر الجريدة ليس الي وانما أنا أحد المحررين ان طلب مني شيء كتبته والا فلا .

ثم ان رياض باشا كتب من الاسكندرية يأمر قلم المطبوعات في مصر بأن تكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وأن تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد، فخاض كتاب الجريدة وحاروا فلم يدروا ما يكتبون ، ثم اهتدوا السبيل فأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الازهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها رياض باشا أعجب بها أشد الاعجاب، وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان ، فزاد عجبه أن وجد في الازهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه. ويقول بعض مريدي الاستاذ ان رياض باشا طلبه وكلفه كتابة تلك المقالة في بيان الغرض من قانون التصفية وفائدته للبلاد، وأما الرواية الاولى فقد سمعتها من الفقيد ولعلهما واقعتان لمقالتين .

وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة اذ علم انه أبو عذرتها ، والمنفذ لما يرجو من ترقيتها ، فبين له رأيه في تقرير ضاف ، فأمر بأن

تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، وأن توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك، وعين الفقيد رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمي « المحرر الاول » لها، فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ ابراهيم الهلباوي (هو ابراهيم بك المحامي الشهير الآن) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا قد برعوا في الكتابة معه على يد السيد .

ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان ما لم يخطر على قلب بشر، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمنا على الحكومة والامة، ينتقد الاعمال والاقوال، وينتقل بالناس من حال الى حال

وضع لائحة لقلم المطبوعات أو للجريدة الرسمية أجازها وأنفذها رياض باشا، فكان من أحكامها ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالسها في العاصمة وغيرها مكلفة أن تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت فأتمت وما شرعت فيه فلم تتمه، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج أحكامها، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ماتراه منتقدا من الاعمال ومن المكتوبات الرسمية، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في القطر المصري، وأن تبحث عن حقيقة ماتقوله في رجال الحكومة وأعمالها وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ماترتاب ادارة المطبوعات فيه فان لها أن تسأل المصلحة أو الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية ان لم يكن مانشر مسنداً الى النظارة والا سألتها هي مباشرة، فان كان حقا مانشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية، وان كذبا طولب مدير الجريدة باثباته والا أنذر، وكان من أحكام قانون المطبوعات انه اذا تكرر انذار جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها البتة أو الى الاجل الذي تراه الادارة .

وكان من حق هذه الادارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لا تجوز المناقشة فيه، وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية

أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) ومن أحب أن يعرف قيمة هذه المقالات في ارشاد الامة والحكومة فليرجع الى ما نشرناه من مقالاتها في منشئات الاستاذ في الجزء الثاني من هذا التاريخ

ان في هذا لعبرة لاولي الالباب — صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطلقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدين، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لعمالها مايكتبون، ويرشدهم الى اصلاح العمل فيما يعملون، ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الامة فيقوّم من أخلاقها، ويصلح ما فسد من عاداتها، بالوعظ الصحيح، والارشاد القويم، ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير، ويربيها على الصدق في القول، ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا، وتأثيرا مأثورا! يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرابيش، وهابتها التيجان وعظمتها البرانيط، ونذكر هنا على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك العهد أن يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش، فأبى عليهم ذلك فأرادوا الاستعانة عليه برياض باشا فأوهموه انه يميل الى لبس الطربوش ولكنه لا يلبسه الا بأمره، فسأله فظهر له انه لا يرغب في ترك زيه، وأنه اذا ألزمه ذلك الزاما فانه يمتثل مادام في عمل الحكومة فاذا خرج من عمله عاد الى عمامته. فقال رياض باشا كلا انني لا أرضى لك الطربوش لانني أحب أن يعلم الناس انه يوجد تحت العمائم من العقول والافهام مثل مايوجد تحت الطرابيش وغيرها. فلله در رياض باشا وجزاه الله الخير فانه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر، وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في أول نشأته، حتى انه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد أن اجتهد أصحابها في انتقاء المحررين، وقد أنذر الفقيد عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته

اذا لم يختر لها محررا صحيح العبارة في مدة عينها فبادر ذلك المدير الى الامتثال ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة في الجريدة الرسمية أن نبه شأن المجيدين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم المقصرين ، وتبرع تغمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر ، فالفضل فيها للسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى

وأما انتقاده أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريها الحق والعدل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة ، وكل مديرية ومحافظة ، وقد ثقل على بعض المديرين انتقاد الجريدة اياه وأراد منعها من مديريته وراجع نظارة الداخلية في أمرها زاعما ان انتقاد أعماله يضع من قدر الحكومة في أعين الرعية ، فعادت عليه شكواه بضد ما أراد ، وعلم ان سلطة الجريدة الرسمية ، فوق سلطة المديرية

وقد عني الفقيد يومئذ بنفسه بانتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل ، فضاق ناظر المعارف لذلك العهد ذرعا ، فلاذ برياض باشا شاكيا من الجريدة الرسمية ، فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقا فلا وجه للشكوى منه وان كان باطلا فعليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها ، فانه لا يقصد بما يكتب فيها الا المصلحة فسكت الناظر واجما ، وكان ذلك سببا لما نرى في المقصد الرابع ، من الشروع في إصلاح نظارة المعارف

المقصد الرابع

﴿ عمله في مجلس المعارف الاعلى ﴾

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فأشار أولا بأن يستبدل بناظر المعارف ناظر آخر أقدر منه على الاصلاح المطلوب . فقال له الوزير إن الوزارة متكافلة لا تستطيع ان تفتح للخديو باب التغيير والتبديل فيها ، فعرض عليه حينئذ ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذا لما يقرره ، فأنفذ ذلك رياض باشا باستصدار الامر العالي الآتي

وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقتراحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما .

صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وهذا نص الامر العالي به ، وما كتبه ناظر المعارف الى صاحب الترجمة في ذيله، نقل من الاصل الرسمي المختوم بختم الناظر . وهو :

ترجمة

أمر عالي (١)

نحن خديوي مصر

بناء على ما رفعه لنا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس نظارنا نأمر بما هو آت :

بند — ١

قد تشكل تحت رئاسة ناظر المعارف مجلس أعلى للمعارف العمومية مركب على الوجه الآتي :

علي مبارك باشا	ناظر الاشغال العمومية
حسين فخر(ي) باشا	ناظر الحقانية
موسيو موني	مدير وكوميساري صندوق الدين العمومي
موسيو ابرونه ديرول	باشكاتب عموم التفتيش العام
استونه باشا	رئيس عموم أركان حرب
عبدالله باشا فكري	وكيل نظارة المعارف العمومية
لارمي باشا	ناظر المدارس الحربية
الدكتور سالم باشا سالم	رئيس مجلس الصحة العمومية
جالياردو بك	ناظر مدرسة الطب

موسيو جاستون ماسبرو	ناظر دار الآثار القديمة (الانتقخانة) ومدير عمليات الحفر والبحث في جوف الارض
موسيو موجيل	ناظر مدرسة المعلمين
اسماعيل بك الفلكي	ناظر مدرسة المهندسخانة
روجرس بك	ناظر قلم الاملاك الميرية المعروضة للبيع
فيدال بك	ناظر مدرسة الادارة
جيجون بك	ناظر مدرسة العمليات
اسبيتا بك	ناظر الكتبخانة الاهلية
موسيو مونتان	ناظر دروس المدرسة العالية
صادق بك شنن	ناظر مدرسة التجهيزية
الدكتور عثمان بك غالب	وكيل مدرسة الطب
الشيخ حسين المرصفي	خوجه بمدرسة المعلمين
الشيخ محمد عبده	محرر أول الصحيفة العربية الرسمية
الشيخ زين المرصفي	عالم
الشيخ حسونه	خوجه بمدرسة الادارة
موسيو بارنار	خوجه بمدرسة الالسن

بند — ٢

يعطي المجلس المذكور رأيه في المواد الآتية :

أولا في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وخصوصا في جداول مواد التعليم بالمدارس الميرية

ثانيا فيما يتعلق بانشاء مدارس جديدة

ثالثا فيما يختص بتوزيع ما يعطى من النقود على سبيل الاعانة والتشويق للمدارس الغير الميرية

رابعا فيما يتعلق بكتب التعليم التي تستعمل في المدارس الميرية

خامسا في جميع المسائل المختصة بضبط وربط المدارس الميرية وحساباتها وادارتها

سادسا في المسائل المتعلقة بحقوق وترقي المعلمين

سابعا في غير ما ذكر من جميع المسائل التي يقدمها له ناظر المعارف العمومية

بند — ٣

على ناظر المعارف ان يقدم في كل سنة للمجلس الاعلى صورة ميزانية المعارف العمومية عن السنة التالية وعند تقديم هذه الميزانية لمجلس النظار ينبغي ان تكون مصحوبة بما يبديه المجلس الاعلى من الملحوظات فيها بعد نظره اياها

بند — ٤

يجوز للمجلس الاعلى ان ينتدب واحدا أو أكثر من أعضائه اما لتحقيق المواد التي تعرض عليه أو للتفتيش على المدارس الميرية أو المدارس الغير ميرية المربوط لها مرتبات على سبيل الاعانة من طرف الحكومة

بند — ٥

على المجلس الاعلى ان يحرر وينشر في آخر كل سنة تقريرا عن حالة التعليم في المدارس الميرية

بند — ٦

ينعقد المجلس المذكور بناء على طلب ناظر المعارف العمومية ويكون انعقاده مرة واحدة بالاقل في كل شهر ماعدا في مدة البطالة (؟)

بند — ٧

لا تكون مداولات المجلس المذكور صحيحة ومعتبرة الا اذا كان حاضرا به تسعة من أعضائه لا أقل وتكون قراراته بأغلبية الآراء

بند — ٨

على ناظر المعارف تنفيذ أمرنا هذا

صدر بسراي عابدين في ٢٨ مارث سنة ٨١ ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨

بامر الحضرة الفخيمة الخديوية الامضاء (محمد توفيق)

رئيس مجلس النظار

الامضاء (رياض) ناظر المعارف

الامضاء (علي ابراهيم)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده

المسطر بهذا ترجمة الامر الكريم(١) الصادر بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وحيث ان حضرتكم من ضمن أعضاء المجلس المذكور فلزم تحريره للمعلومية بما اشتمل عليه الامر والحضور لديوان المعارف الساعة ٩ افرنكي صباحا في يوم الخميس الموافق ١٥ جا سنة ٩٨ حيث سيكون انعقاد أول جلسة في اليوم المذكور م ١١ جا سنة ١٢٩٨

نمرة ٣٦٠/٣٥ ناظر معارف

الختم

هذا نص ما بلغه صاحب الترجمة بحروفه، وخاتم ناظر المعارف منقوش فيه قوله تعالى (والله غالب على أمره) لا اسمه — ويرى القارئ أن الاعضاء الاوربيين أكثر من الوطنيين في هذا المجلس

في هذا المجلس تألفت لجنة للنظر في اصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس جعل الفقيد الكاتب العربي لجلساتها وكان له فيها الآراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحه شيئا سمعته منه ولا ادعي انني أحطت بتفصيله كل الاحاطة وهو انه اقترح مرة على المجلس ان يطالب من الحكومة مبلغا عظيما من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد ، فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق عليه الآخرون الذين عرفوا ما يرمي اليه المقترح فتقرر بأكثر الآراء ، ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشو النظارة في نظام التعليم وسيره فيها، فهش الاعضاء الوطنيون لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب، فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها اعانة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة أن تعلم أنها لا تضيع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض

(١) قرارات مجلس النظار المصري تصدر باللغة الفرنسية الى الآن وتدون بها وتترجم بالعربية

الآن في هذا الاقتراح لاننا نعلم أن المعارف في مصر منحطة وانما اجتمعنا لترقيتها، وأرباب المدارس الأجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح الادنى للاشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيد رحمه الله تعالى للمعترض : كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقك الاوربيون المرتقون من أعضاء مجلس المعارف المصري ، على انه اذا كان الطلب في نفســه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية، فان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لاينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربة العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية: فنهضت حجته وتقرر اقتراحه. وانها لأمنية كان يتلجلج على ذكرها السلطان والامير، ويسيل لتوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن تقف دونها الآمال حسرى، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غاياتها جياد السياسة ، ويصغر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتستنزلها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك العضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان، من النفوذ والسلطان، فكيف لو كان ذا منصب أعلى، ونفوذ أقوى؟

المقصد الخامس

﴿ عمله ورأيه في الثورة العرابية ﴾

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة اسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض — ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الاخلاق، والآداب ، وظلمة تحكم الاجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المالية لمالهم من الديون على اسماعيل باشا، وظلمة سلطتهم على الرعية التي أغرقتها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجرى ، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر ففتح

الشيخ عليش نفخة أخمدتها ولكنها ما أطفأتها، ثم كان هـذا النور يظهر في معاهد خاصة فتعشو اليـه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلألأ في ادارة المطبوعات. وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ماكان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأميرهم الجديد (توفيق باشا) لعفته عن أموالهم، ورغبته في اصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشر قد وقع، اذ ذهب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي ما يسمونه بالثورة العرابية

كان استاذنا في أول أمر هذه الثورة كارهالها منددا بزعمائها وهو بينهم، لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل اصلاح تعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للاجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، بل كان هو واستاذه يتوقعان ذلك من سيرة اسماعيل باشا، وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد، وحاول ان يحول دون ما يخشى ويتوقع بالسعي في الاصلاح، فليس قولنا عن استاذنا أنه كان لا يجهل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان.

كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في أنديتهم وسمّارهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية، حتى أرسل اليـه عرابي مرة من يتهدده ويقول انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه. أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما اذا هما لم يخرجا، حتى صار عرابي وأعوانه ينفضون من المجلس الذي يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستبداد والحرية، والحكومة المطلقة والحكومة النيابية الدستورية، واتفقوا على أن الامن على الارواح والاموال، وصعود الامة في مراقي الكمال، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، وأدركها إبانه، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال

يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح، ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها إياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات . وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد . فطفق عرابي يجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية، وكان مما احتج به الفقيد عليهما أن الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصويرا لاستعداد الامة ومطلبها، ويخشى ان يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة .

عند ذلك أبدى المجادل نواجذه لغير تبسم ، وقال أرجو أن لا أستحق هذه اللعنة، وليس الجند هو الذي يطالب بمجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهائها ؛ ثم أسر الى الاستاذ أن سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب .

وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد سنة ١٣١٩) ردا على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العرابية نذكره هنا وهو

« عرّض هذا الافغاني المتذقح بذكر الفتنة العرابية ويا ليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف فاذا أحب فليسأل العارفين ، وليراجع كتابة الكاتبين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين . يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي وتهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عرابي ، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره. ثم تظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العرابية عند ما ألزموه حضور مجتمعهم وان يقوم فيهم خطيبا .

« ماذا كان موضوع خطبته ؟

«كان موضوعها بيانا تاريخيا اجتماعيا ملخصه أن المعهود في سير الامم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام، وانه لم يعهد في أمة من أمم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع؟ (قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون، وتعملون ما لا تعلمون؟: وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينغضون رؤسهم وعلا على أفهام الآخرين

« هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمع لرؤساء العرابيين ولو كانوا يعقلون لرجعوا به الى رشدهم، ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما تستعد الى الآن، ولهذا الاستاذ ان يتمثل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى

« ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمت فأعمت» اهـ

هذا ما كتبناه في سنة ١٣١٩ ونزيد عليه الآن أن عرابي ورجاله حنقوا على الاستاذ وكاشفوا المرحوم السيد أحمد علي محمود والمرحوم ابراهيم افندي الوكيل وكانا من أعضاء مجلس النواب ومن أخص أصدقاء الاستاذ بما أضمروه له من السوء، فأعدا احتفالا في منزلها بقصر الشوك دعيا اليه كل ذي جاه ومقام ليصلحا ذات البين بين الفريقين، وتوالى الخطباء هنالك حتى جاء دور الاستاذ وقام ليعتذر عما مضى ففسر مقصده من الخطبة السابقة تفسيرا كان أسوأ تأثيرا في نفوس العرابيين مما كانوا نقموه منه وحنقوا عليه لاجله.

ولا يلتبس على القارئ معارضة الاستاذ الامام للعرابيين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد استاذه وأول من

تلقى ذلك عنه، فانه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضا الامير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل التمرين والتعويد، مقرونا بالتربية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها، وتصل من طريق الحكمة الى رشدها، وقد رأيت كيف كان التوسل اليه منه، فيما رويناه لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالاصلاح عند مهب الفتنة، و يلجأ الى قصر الامارة أو يتفيأ ظلال العزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصلحتين، وقد قال لعرابي مرارا كثيرة: عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطالب في بضع سنين، ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكليز

انتهت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقتيلا، وجعل الفقيد منهم لأمرما، وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي، وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم، وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم، كل يكتب عن نفسه، ولا يطعن في غيره؛ فلم ير في كتابة أحدما تقوم به الحجة، وتقعد به التهمة، و يدل على الغوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الاسباب والنتائج. الا ما كتبه وما قاله الاستاذ الامام، وقد زاد المحامي على بيان ذلك أن أشعره بالخفايا، وأطلعه على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت. وأعطاه من المستندات ما يقلب وجه المسألة، ولا ترضى اظهاره السياسة، فكان ذلك سببا لتخفيف الحكم، ونسخ إعدام الزعماء بالنفي، فحكم على عرابي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين. وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل من المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه، ومزيدا في كمال علمه وتربيته، وسببا لنشر علمه في بلاد كثيرة، ذلك أنه كان من أهل الاخلاص والتقوى، فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا، بل بدله بالنقمة نعمة، والسيئة حسنة، فكان مبدأ حياة جديدة له نبينها في الفصل الذي يلي هذا

هذا ما كنا كتبناه في المنار ونزيد عليه هنا ما يلي :

﴿ قصيدة الفقيد في الثورة العرابية ﴾

أصح الدلائل على رأي الانسان في أمر من الأمور أو حدث من الاحداث وعلى موضع ذلك الشيء من شعوره ووجدانه ما يكتبه بشأنه في أثناء وقوعه ، وقد نظم صاحب الترجمة قصيدة في شأن هذه الثورة وهو في السجن صور فيها كل ماكان في دماغه وقلبه في ذلك الوقت، اذكانت نفثة مصدور، وشكوى مظلوم، وأماني مصلح لم يدر كنهه أهل زمنه ، فاتهموه بضد ماكان عليه في نفسه ؛ ولو كان فقيدنا من الشعراء ، أو استمال بقصيدته أمير البلاد أو أصحاب السلطة العسكرية فيها، أو اعتذر عن عمل عمله، لامكن لمن لم يعرف أخلاقه أن يقول إنه قال غير ما يعتقده ويشعر به لاستمالة أصحاب السلطة اليه، توسلا به للافراج عنه . ولكن القصيدة كما ترى ، وهو لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها، الا تلك الابيات التي قالها في مرض موته وقد سارت بها الركبان، وحفظها الالوف من الناس. وقد قال لي إذ أنشدني إياها انني قلت شعرا في هذه الايام كأنني لا أقول الشعر الا في المرض أو السجن (يشير الى هذه القصيدة)

وقعت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف ، فما عرفنا أصله باليقين صححناه ، وما لم نعرف أصله تركناه ، وهي :

مالي يعنّف قلبي من تفاضيهِ	دَهرٌ يبالغ في عُجب وفي تيهِ
أبيتُ ليلي كملسوع تُساوره	زُرْقُ الافاعي وقد شُدّت أياديه[1]
الجسم في ألم والروح في قلق	والقلب في فزع من خوف آتيهِ
وما ذنوبي لدى دهري سوى شمم	يأبى الدنايا وأفكارٍ تضاهيهِ
سريت للمجد هَوْناً غير ذي عجل	على أساس من التقوى أراعيهِ
مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه	وشيمة الحر تأبى خفض أهليهِ

(١) الايادي جمع الايدي وهي جمع يد ، وأكثر ما تستعمل الايادي في النعم وصنائع المعروف ولعله يشير الى عجزه عنها في تلك الحال

وإذ أحسّ عداةُ الفضل مشيتنا … قاموا على قدم: هيّا نناويه (١)
فأوقفوني شهورا في مقاومة … نجوتُ منها بعزم هيب ماضيه
وازددت بسطة جاه لم يَهُنّ بها (٢) … سوى مضيم ومظلوم أنجّيه
أنزلت نفسي مقاما لا يحفُّ به … الا الفضائلُ تعليه وتغليه
وقمت للحق أجلو من مطالعه … نوراً وكان غمام الظلم يخفيه
وأبرزَ الفكرُ كنزا من جواهره … وزين النطق باهيها بحاليه
وصحتُ بالظلم لا تطرق مغانينا … [رياض] راع وعتلي من حواريه (٣)
فخرّ كلُّ غشوم واجفاً صعقا … وارتجّ كل ظلوم خيفة «الهيه» (٤)
وكنت أسهرُ ليلي في مطالعة … ونشر در لتبيان أوفّيه
أنعم به من سهاد كنت آلفه … وأبغض الشمس تُثني عن وصاليه
وكان لي أمل في وضع قاعدة … لكل نوع من الاعمال تحويه
ويؤخذ القوم طرا في مناهجهم … أن لا يجوروا عن المشروع أوفيه (٥)
حتى يكون نظاما كل سيرهم … بمقتضى الإلف مع فهم يزكيه
ويأخذَ العلم والتهذيب مأخذه … من النفوس فتزهو من دراريه
ويصبحَ العدل طبعا في جبلتنا … ويشهد الكون أنّا من مواليه
وتستقلّ بلادي في حكومتها … ونمنع الترك مفروضا نؤديه (٦)
ويشمل الخصب انحاها بجملتها … ويثريَ القطر قاصيه ودانيه

(١) أصله تناوئه بالهمز أي تعاديه (٢) أصل يهنأ (٣) حواريه بتشديد الياء أنصاره وخفف لضرورة الشعر (٤) هيه اسم صوت كان يردده رياض باشا دائما بغير قصد، وأدخل عليه حرف التعريف لقصد لفظه، والمعنى خوفا من ذلك الوزير
(٥) جار عنه عدل وانحرف وجار في الحكم وفي الامر ظلم أي بأن لاينحرفوا عنه ولا يظلموا فيه (٦) قد كان موافقا لرجال الثورة في هذه المسألة

نقضي ديونًا وننشى من ينازعنا ... بصوت فضل يرج الكل داويه (١)
هذا سبيلي خبت السير فيه على ... رغم الانوف من البُله المعاتيه
ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها ... جزءا من الألف من سعي لانهيه (٢)
وكنت أنجح قومي في مكالمة ... مع الرئيس لإخلاص بتنويهي
وتنهض العزم أقوالي ولا عجب ... شراب حق وروح الفضل ساقيه
أقاوم الصعب في سيري فأخضعه ... ولا حسام ولا رمح أرويه
وانما الفكر يغني نفس صاحبه ... عن الجيوش اذا صحت مباديه

*

وبينما أنا لاه في محادثتي ... مع المعالي أقول «الامر ما فيه» (٣)
قامت عصابات جند في مدينتنا ... لعزل خير رئيس كنت راجيه
ذاك الذي أنعش الآمال غيرته ... وخلّص القطر فارتاحت أهاليه
قاموا عليه لأمر كان سيدهم ... يخفيه في نفسه والله مبديه
كان الرئيس حليف العدل منقبة (٤) ... وسيد القوم يهوى الجور يأتيه
جرّوا مدافعهم صفوا عساكرهم ... نادوا بأجمعهم سل ما ترجيه
فنال ما نال وانفضت جموعهم (٥) ... اما النظام فقد دكت مبانيه
ثعالب الشر هبت من مراقدها ... وأفسدت من قوام العدل باقيه
تفلّت الحكم من أيدٍ مدبّرة ... وصار فوضى شتيت الناس يجريه

(١) لعل البيت محرف (٢) الضمير راجع الى السبيل وهو يذكر ويؤنث (٣) هذه جملة محكية تستعمل في مصر عند إتمام الكلام وارادة الشروع في غيره (٤) الرئيس رياض باشا أي كان العدل منقبة راسخة فيه لا متكلفا (٥) أي نال سيد الجند عرابي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا

مانوا أماني تبكيني وتضحكني ... حرية ونظـام الشورى عاليـه(١)
حديثهم صخب أسرارهم لجب ... لا عقل لافهم أين النجح نبغيه ؟
أما سبيلي فقـد سدت منازعه ... طبعـا وعز صعودي في مراقيـه
رجعت أجري على خوف لمبدئه ... أناد قومي تعـالوا لا نعـاديه
فعنفوني وراموا خفض منزلتي ... فقلت لاتعجلوا هذا مرائيه (؟)
وعجت أسـأل ماذا في حقائبكم؟ ... هل ثم فكر وفكري لا يوافيه؟ (٢)
هزوا الرءوس جوابا أي نعم معنا ... سياسة السيف فيها الفصل نقضيه
فولوات مهجتي حزنا على وطني ... وقلت (خطب) لعلي أن أجليه (٣)
وصغت من كلمي شمسا تكاشفهم ... هذا المصاب الذي حلت مرازيه
فأنكر الجهل ضوء الشمس ضاحية ... وظلمـة الغي وارت ما تواريه
لووا رءوسهم عجبـا بقوتهم ... واستكبروا النصح أن يصغوا الصافيه
مزجت بالهزل جدي عل يعجبهم ... كوالد الطفل يلهيـه بمرضيـه
وأعجم القول طورا في مناصحتي ... كسـاحر أم مصروعا ليرقيه
وعند ماحقت البلوى أشرت لهم ... : هذا الخراب فمدوا قد باغيه
فلم يصيخوا وعجوا في محاضرهم ... قولا هراء بلا فعل يعاليـه
ولم يزالوا حيـاري في ترددهم ... حتى دهاهم أبو الهيجا بداهيـه
وشب حربا صلاها من بني وطني ... من لا يهاب المنايا أن تغشيه
وسح أكل غني ماء ثروته ... كما همى دمع عيني من أماقيـه

(١) مانوا كذبوا والاماني جمع أمنية وهي مايتمناه الانسان ويطلق على الكذب أي اختلقوا لانفسهم أماني زعموا انها مطالبهم وهي الحرية ونظام الشورى العالي في الاحكام. ولفظ الشورى يختلس فلا يعد لمراعاة الوزن (٢) أي لا يلاقيه ويحتمل أن يكون لا يواتيه (٣) كان موضع كلمة خطب بياضا ثم كتب فيـه بقلم الرصاص كلمة (سال)

وعج كل فقيه في تضرعه | كما تفطر قلبي من عواديه
والمسلمون وكل القبط في نهج | مع اليهود كأن لا دين يأويه
نادوا بأجمعهم هذي مواطننا | وطارق السوء فيها لا نخليه
وبينما الظفر معقود بوحدتهم | مال الأمير لأمر كان ينويه
واستدبر الجيش واستدعى لحضرته | زعيم عسكره يبلو مغازيه
وقال أقدم فلا حرب ولا حرب | فليصرف الجيش فورا لا تبقيه
فرابه الريب وانهارت عزائمه | إذ كان جيش العدا بالثغر ماليه
وخالف الأمر واستعصى بقوته | ونصب الشر مولى القطر واليه
وصار جيش العدا جيشا لحاكمنا | وقوة الملك تحمي وجه عاديه
فانحل عقد نظام كان ملتئما | وبدد الرأي وهم كان يوهيه
هذا وهذا الى ما كان من دخل | في أنفس من كبار الجند تطويه
وزاد في الضعف ضعفا أن قوتنا | ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
وقائد الجند شهم في مكالمة | أشل قلبا إذ الهيجا تناديه (١)
يستطلع الرأي والتدبير في حلم | من المنامات جل الله هاديه
ما كان أحسنه شيخا بزاوية | يغشى النساء بوعظ كان يمليه
أما البلاد فواغمي لحالتها | لم يبق فيها سوى أمر وتنبيه (٢)
واستنزفت طلبات الجند ثروتها | واستأسد الذئب واشتدت عواديه

---

(١) يعني ان عرابي باشا كان شهماً أي ذكي الفؤاد عند الحديث ومكالمة الناس ولكنه جبان اذا نادته الهيجاء أي الحرب الى القتال يصاب قلبه بالشلل ، وفيما كتبه الناظم في أسباب الثورة ومذكراتها بيان لذلك مؤيد بالحوادث (٢) أي لم يبق فيها سوى أوامر الجند تنفذ بالقوة ونذرهم التي يسمونها تنبيهات

حكام أريافها هاضوا بأجمعها ... واستفرغوا من فقار الظهر شوكيه(١)

مهاجرو الثغر زادوا في مصائبها ... قوم جياع وباع العقل شاريه (٢)

ماذا أحمّلُ نفسي في مداركتي ... هـذا البلاء بتخفيف يسرّيه (٣)

أظلُّ يومي وأمسي في مناضلة ... مع الاهالي لدى من هم مراميه

وسقت من منطقي جيشا أروع به ... قلب السكميّ فألهيه وأدهيه (٤)

حوائج الناس هالات على قمري ... وليس في الناس إلا قائل هيه (٥)

وينجح الجد مني في وقايتهم ... ويقشع الظلم مذعوراً طواغيه

ولا جزاء أرجّيه سوى ألم ... يلمّ بالقلب والانجاز يشفيه

والناس قسمان قسم همه نشب ... وآخر همه العلياء تطربه

وبينما الناس أحزاب وأغلبهم ... من المنيفين (؟) يشدو باسم مسميه

ساق النظام على الأشتات عسكره ... فصبّح التل طود من سواريه(٦)

منا قتيل ومنا هائم جزعا ... قلبي الجريح فهـلا من يداويه؟

في موقع الشرق كانت شر هزمتهم ... والشرق ضأن وذئب الغرب راعيه

---

(١) هاض العظم كسره بعد الجبر والظاهر ان المراد هاضوها أي الارياف بمعنى أهلها. وكان يمكن أن يقال * حكام أريافها هاضوا العظام بها *

ومعنى البيت انهم كسروا عظام الاهالي وانتقوها أي أكلوا مافيها من النخاع حتى النخاع الشوكي الذي لا حياة بدونه — أي لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمق . و وله شوكيه مخفف شوكيه أي نخاعه الشوكي (٢) مهاجرو الثغر هم الذين هاجروا من الاسكندرية الى الارياف (٣) جواب الاستفهام معروف من السياق: أي أحملها حملا ثقيلا (٤) أدهيه أنسبه الى الدهاء أو أرميه بداهية . يقال دهاه يدهاه بهذا المعنى (٥) هيه كلمة تقال للاستزادة (٦) أي ساق الانكليز أولو النظام عسكرهم على الاعرابيين الاشتات المتفرقين فصبح المكان المعروف بالتل الكبير جبل من سواريه أي جيش كبير من فرسانه كالجبل في عظمته

وقائد الجنـد وافانا بلحيته — يسيل رعبا وثوب العار كاسيه
وسلم السيف واستجدى بغفلتـه — عفوا من الحَنِق المغزو خديويه
تخوّف الذل فاستدعى مطيته — ركضا اليه فوافاه موافيـه

....(*)

تنكرتني وجوه كنت أعرفها — تعد لثم نعالي غاية التيـــه (١)
تيقن العزم اني لو برزت له — أخرجت من ضغنه أخرى مخازيه
فهاص في قوم من ضل سحنته — يبغي مغالبتي كلا سأقميه (٢)
حجبت عنهم وعضبي غير محتجب — صلٌّ يصاصل والاقدارُ تمليـه
بنى الزمان لهـم بيتا وشـيده — وليس يُبقي على مالست أبقيـه
نعـم له معنـا فيهم مداركـة — فيهم أجرهم من صنع أيديه
هـذا الزمان زجرناه فذل لنـا — لكن به صرف عيب كنت أدريه
وأحفظَ الدهرَ أني لا أشاكلهُ — فيما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدي ليس ينفعني — إلا الثبات وحسبي من أصافيـه
تعلم الدهر مني كيف يطعنني — فخاب ظنـا وخانته مزاكيه
وليس يعجزني عن كسر فيلقـه — إلا المنـايا تفاجيني فتحميـه
ان المنـايا سهام الله سـدّدها — وليس يخطىء سهم الله مرميـه

*) حذفت من هذا الموضع بضعة أبيات محرفة الاصل معظمها في طعن سلطان باشا

(١) رويت هذا البيت بهذا اللفظ عن محمود افندي الكحيل أحد تلاميذ الاستاذ الامام في المدرسة السلطانية ببيروت وقد رواه كما سمعه منه أو من أخيه حموده بك الذي كان تلميذاً معه في المدرسة. وتمنيت لو قال بناني بدل نعالي وقد يكون تقبيل النعال حقيقة لا مجازا (٢) هاص الطائر سلح وهاص بالشيء عنف به وأقمى الفارس فرسه — رده القهقري . ولعل المصراع الاول محرف

كتاب الثورة العرابية

اذا كانت قصيدة السجن ناطقة برأي صاحب الترجمة وشعوره في الثورة العرابية وهو في شرخ الشباب، وأوان التأثر والانفعال، ذي السلطان الأعلى على الخيال. وكان خيال الشعر في مثل هذه الحال والسن يصور الاشياء أحيانا بغير صورتها. وكثيرا مايسمها بغير ميسمها. فاعلم أيها القارئ اسيرته أنه قد كان شرع في أواخر سني حياته، أو قبل بضع سنين من سنة وفاته، بكتابة تاريخ للثورة العرابية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها، وعلل الوقائع ومعلولها، ويستنبط النتائج من مقدماتها. توجه الى كتابة هذا الكتاب بعد أن بلغ أشده واستوى، وبلغ من كمال الحكمة الغريزية والكسبية المنتهى. بطلب من أمير البلاد. خلف العامل الاكبر في تلك الاحداث. وانك لتجد ما كتبه في هذه الحال. القاضية بأتم الروية والاعتدال. مما يعد في معنى الشرح. لما جاء في قصيدة السجن، الا مافيها من الفخر. الذي لايحسن الا في الشعر

ومن سوء حظ مصر والمصريين، بل الشرق الادنى والشرقيين. ومحبي حقائق التاريخ أجمعين، أن الاستاذ الامام. لم يتم تأليف هذا الكتاب، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمير البلاد عباس حلمي باشا بأمره. وكان اذ رغب اليه بكتابته — وذلك في السنين الاولى من امارته — موادا للاستاذ شديد الرغبة في استفادة الامة من معارفه، ولكن لم يكد يتم القسم الاول من الكتاب، وهو ماتقدم الثورة من المقدمات والاسباب. ففتح لها الطاق والباب. حتى نجمت نواجم التناكر بين الامير والاستاذ. وانتهت الى المغاضبة الشديدة المعروفة. وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير أن الاستاذ عدوله ولبيت محمد علي، ولا يزال يسعى الى سلب الامارة منهم. وبهذا صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا، لانه قد يعد مؤيدا لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعة الثورة على الخديو توفيق باشا مباشرة. وجعل ماكان من اسراف الخديو اسماعيل باشا وسوء ادارته للبلاد أسبابا ممهدة لها — ثم ان أعمال الاستاذ الامام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا في مجلس

الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية وعضوا في مجلس ادارة الازهر . بل كاد يكون هو المجلس وحده — وسيأتي بيان كل ذلك في موضعه — فلا جل هذا كله ترك إتمام كتاب الثورة ، منتظرا به سنوح الفرصة

قد اطلعت على مسودة ماكتبه بعد أن كنت كتبت كل ماتقدم القصيدة من هذا القصد في ترجمته التي نشرتها في المنار فنقلت جملا منه في ترجمة السيد جمال الدين . ثم رأيت من تمام الفائدة تلخيصه أو الاتيان بخلاصة وجيزة منه هنا يعرف بها قراء تاريخه مالا سبيل لهم الى معرفته من غيره . اذ كل ما كتب غيره في هذه المسألة لايتجاوز بيان الظواهر الخادعة والاخبار الرسمية . وأبدأ بنشر خطاب المؤلف للامير في ذلك وهذا نصه :

خطاب الاستاذ الامام لسمو الخديو في أول الكتاب

الى مليك مصر المعظم عباس حلمي باشا الافخم

مولاى

هذا مقام الذاكر لنعمتك . العارف بقدر منتك . العاجز عن الايفاء بحق شكرك . التالي في سره وجهره لآيات حمدك . طوقتني احسانا لم أكن أتأمله . اذ أمرتني أمرا ماكنت آتخيله . أمرت أن أكتب ماشهدت وما سمعت . وماعلمت وما . اعتقدت في الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها . مع بيان أسبابها . وإسناد الاعمال إلى أربابها . سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء . حاسرة نقاب الرياء . أيُّ منة أعظم من الاذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها العناكب . وتدافعت عنها المناكب . وسترها عن الابصار عثير الاهواء . وحجبها عن البصائر ضلة الاعلياء . وذلة الضعفاء . حتى أنكرها من شهدها . وخبط فيها من سمع خبرها . ممن تولى كبرها . أو ممن لم يقف على سرها . ولم يميز خلها من خمرها . أي إحسان أجل وأوفى من رغبة مليك في كشف الغطاء عن حادثة الت بعرش الدولة .

واضطربت لها أركان الحكومة وتغير لها وجه السلطان وظهرت بعدها البلاد في شأن جديد؟

علم «بعوامل هذه الفتنة يقرر تبعة الخطيئة على من اقترفها، ويبرىء منها من رمي بها ،وقد كان الساعي في تسكينها وحاثي التراب في وجهها ؛وقوف على دخائل هذه النازلة يبعد بالعقل الرشيد في مثلها عن الاغترار بظواهر، ليست لها سرائر، وصور انما تنكشف عن غير ،وعبر ويجنب الفكر السليم في ما يشبهها عن الزلل، في مزالق الخطل، ويضيء لأهل العزم مسالك الحزم، فلمولاي المنة على الحقيقة ومظهرها ، حتى قدرها حق قدرها ، واستضاء بسناها واهتدى بنورها

مولاي :أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسي غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقني به غيري . اللهم إلا إلى بعض الاوامر الرسمية أو شيء من المخابرات السياسية التي يضطر في بيان الوقائع إلى الاشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها

أرفع إلى كرم مولاي المعظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم، امتثالا لامره الكريم، معترفا بقصوري عن إبلاغه منزلة كتاب يستحق النظر، أو عمل من الاعمال يليق به أن يذكر ،إلا إذا شملته عناية الجناب العالي بحسن القبول، فعند ذلك تعلو قيمته، وتستكمل له زينته ، ويرتد عنه كيد الكائد ،وتنقطع دونه نفثات الحاسد ، أيد الله بالحق مليكنا ومولانا ، وأبلغه من العزة والمجد متمنانا ، آمين

﴿ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة العرابية ﴾

بدأ الاستاذ كتابه هذا بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوءى عند ما تنازل اسماعيل باشا عن إمارة مصر ووليها توفيق باشا ،فبين أولا بالايجاز ما كان من تدخل دولتي فرنسة وانكلترة في شؤون البلاد المالية وغيرها ومن تأثير المحاكم المختلطة في إضعاف سلطة الحكومة والتصرف في ثروتها وثروة الامة — ومن سوء احوال رجال الحكومة وأحوال الجند — ومن تصرف الربويين في استنزاف ثروة

الامة بالربا الفاحش ومساعدة الحكومة لهم — ومن الاضطراب العام في البلاد وإشرافها على المجاعة — وبين أيضاً ما كان عليه أهل مصر إلى ماقبل سنة ١٢٩٣ من توكلهم على حكومتهم في كل شيء، وتسليمها إليهم أمر شؤونهم العامة وكذا الخاصة أيضاً، إذ كانوا يرون كل شيء ملكا لها، وبين ان أكثر من تعلم في اوربة من المصريين من عهد محمد علي الكبير الى ذلك التاريخ لم يغير شيئاً من هذه الحالة ولا أثر فيها مجلس الشورى الذي ابدعه اسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ لانه قيده في النظام والعمل فكان يقرر مايوعز إليه بتقريره، فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأي لهم معه ولا أمر

ثم انتقل من هذا إلى بيان مبدإ النهضة المعنوية في مصر بارشاد السيد جمال الدين الافغاني وسعيه فبين بالايجاز ماتقدم شرحه في ترجمة السيد من تربية نابتة جديدة وترقية أفكارها وأقلامها، وما كان من تأثير ذلك في ارتقاء الجرائد العربية وما أشرق عليها من نور الحرية. ومزج هذا بذكر بعض الحوادث الكبرى وتأثيرها في قلوب الناس وأفهامهم كالارتباك الشديد في المالية المصرية الذي أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انكليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية وكأحكام المحكمة المختلطة على الخديو وحكومته — وما تلا ذلك من انطلاق الألسنة والاقلام بالافكار الجديدة (الجمالية) كبيان أنواع الحكومات الاستبدادية والدستورية وتأثير ذلك في طبقات الامة. ولكن الشعور بحقوق الامة في أمر حكم نفسها ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبي في حكومتهم. فتعلقت آمال البصراء من الناس باصلاح عظيم ولكن لم يهتدوا سبيلا يسلكونه إليه لسوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها وسوء الظن بالسلطة الاجنبية والخوف من مآلها

ثم بين أن الخديو اسماعيل ضاق ذرعاً بالوزيرين الاوربيين وأخذ يسعى إلى الخلاص منهما، فكثرت الاشاعات عن سوء مقاصدهما بايعاز منه كما كان يقال. وفي أثناء ذلك دعي مجلس شورى النواب إلى الاجتماع فوفد أعضاؤه إلى القاهرة وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بشر الاحوال ويلوح في أفكارهم الميل إلى الخلاص

منه « فالتأم المجلس في أوائل سنة ١٢٩٦ في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التي تطلب نظره فيها الاما لا قيمة له » فكثر الانتقاد على الحكومة ، ولما أمرت باقفال أبواب المجلس سلك بعض النواب مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الامر وحاولوا التوقف عن الانصراف حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما ينبئون به منتخبيهم ، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة، ولكن الخديو كان يشد عضد أعضاء المجلس في المعارضة هذه المرة

ثم ذكر قلق ضباط العسكرية من تأخير رواتبهم واحساسهم بانحراف الخديو عن نظار حكومته ومهاجمتهم لنظارة المالية وضربهم لناظرها الانكليزي واهانتهم لرئيس النظار نوبار باشا وقبض أحدهم عليه من شاربيه وتصديهم لاهانة سائر النظار لولا أن جاء الخديو بنفسه وصرفهم ، وانما كانت حركتهم بتحريك منه توسلَ به الى إسقاط وزارة نوبار باشا فتم له ذلك ، ولكن لم يمكن اسقاط الناظرين الاوربيين فأدخلا في الوزارة الجديدة التي تألفت بوياسة توفيق باشا ولي العهد وزاد تضييقهما على الخديو في التصرف فتوسل الى عزلهما بوسيلة أخرى وهي طلب أعيان البلاد لذلك اذ اجتمعوا في دار السيد البكري ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة العظيمة وأنهم ضامنون لها

وقد بين الاستاذ ما في هذا العمل من الخطل وقصر النظر ، وأنه « أحدث في الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل فقد أيقنوا أن الحاكم القوي السلطان قد صار في حاجة اليهم ، ولا قوام لامره الا بالاعتماد عليهم ، فزادهم ذلك ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم في أعمال الحكومة دفعا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي ، وانفراده بالسلطة »

ثم بين سيرة اسماعيل باشا بعد ذلك في العود الى التصرف بأموال الحكومة وتبذيره وسوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا الى أوربة بقصد الاقامة فيها وسعي الثاني الى اقناع فرنسة وانكلترة بالسعي الى خلع الخديو اسماعيل. ثم ارسال فرنسة موسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحدمع وكيل انكلترة في مصر في

مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولي عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الامر واشارة أجهلهم بالسياسية عليه أن لا يتنازل والجيش حاضر يؤيده - واشارة من كان يقال انه أعلمهم بأن يتنازل ، وبين بعد هذا ان جمهور العقلاء يرون ان رأي ذلك الجاهل كان عين الصواب وان الخديو لو ظهر لمندوبي الدولتين بجلد الاسد الذي كان يلبسه للمصريين وعلموا ان دون التنازل حمل السلاح لأمكنه ان يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

ثم بين ان السيد جمال الدين كان قد أسس حزبا في مصر باسم (الحزب الوطني الحرّ) وانه كان بينه وبين ولي العهد توفيق باشا مكالمات في هذا الامر ، وانه سعى مع الكثير من الاعيان الى شريف باشا الكبير بأن يقنع الخديو بالتنازل ، وان أحسن ما يجيب به مندوب الدولتين تفويض الامر الى السلطان — وان السيد جمال الدين ذهب بوفد من المصريين الى وكيل دولة فرنسة وكاشفوه بأمر الحزب الوطني الحر الذي يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا ، وأن ذلك تأييدا لرأي شريف باشا في اقناع الخديو بما ذكر آنفا فأقنعه بحول الامر الى السلطان فقبل السلطان تنازله ونصب توفيق باشا خديويا بدله — وقد تقدم نقل كلامه في ذلك في ترجمة السيد — . فهذه هي الاسباب التمهيدية الاول للحوادث العرابية

﴿ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا ﴾

حالة البلاد وتظاهره بالاصلاح

بين رحمه الله تعالى أن البلاد دخلت في عهد توفيق باشا في طور جديد من الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين وتعاليمه وسعي الحزب الوطني الذي ألفه فيها ما فتح أقفال القلوب والعقول لتدرك كنه أعمال حكومتها وما يجب أن تكون عليه ، وسيرة الاجانب فيها وما يخشى أن تنتهي اليه ، فقد تولى هذا الامير ولاية امة غير الامة التي كان يتصرف فيها والده تصرف الراعي المالك بالمواشي ، ولكن هذا الامير لم يكن شرها ولامسرفا بل كان عفيفا رحيما فكان

لطلاب الاصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته

وقد كان أول عمله أن كتب الى شريف باشا في اليوم الثاني من ولايته أمرا بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفائها صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الامة فيه واخراجها من الحال السيئة التي هي فيه بالاقتصاد القانوني في نفقات الحكومة والاستقامة في الوظائف العامة واصلاح القضاء والادارة — ثم كتب في اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها مسؤلين وتوسيع نظام شورى القوانين واصلاح المحاكم والمجالس والسعي لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ، وصدر ذلك الامر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦

و بين الاستاذ أن كل ما ورد في هذا انما انعكس على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

يلي ذلك بيان مشروع شريف باشا في وضع قانون أساسي لمجلس النواب يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الامة النظر والكلام فيه على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوربة، فأعجب بذلك أرباب الأفكار المتطرفة وقالوا ان التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

قال: وتظاهر الاجانب بالرضاء عن الاصلاح المشروع فيه، وأنشئت جمعية في الاسكندرية باسم [مصر الفتاة] لم يكن فيها مصري حقيقي بل كان أكثر أعضائها من شبان الاسرائيليين المنتمين الى الاجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة [مصر الفتاة] فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الاجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المئة بمئتين في بضعة أشهر ، وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم

سواء صح ذلك التظاهر أم لم يصح، وأما الذي لا شك في صحته فهو أن وكيل دولة فرنسة أخذ يسعى في إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر في تصحيح

الموازين وتقرير الامور المالية ودعا وكيل انكلترة الى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الاوضاع الجديدة في ذلك الوقت بحجة أنه مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، وساعد على اقناع الخديو بعض الوطنيين من حاشيته ، فتأثر الخديو بذلك ومال الى غير ما أظهره للجمهور من قصد الاصلاح المطلوب، ثم رفض لائحة شريف باشا عند عرضها عليه فاستقال شريف باشا لإصراره على هذا الاصلاح فشكل الخديو نظارة جديدة تحت رياسته

يتلو ذلك بيان أن وكلاء الدول أصحاب النفوذ في مصر كانوا يظنون أن محرك هذه الافكار الاصلاحية ، وباعث الانفس على طلب الحرية ، انما هو السيد جمال الدين ، فأقامو الادلة للخديو على خطر الرجل وأخافوه منه كما أخافوه من النظام نفسه . فأما التخلص من النظام فكان باستعفاء الوزارة ، وأما التخلص من السيد جمال الدين فكان بنفيه من مصر الى الهند

أقول وقد فصل هنا مسألة نفي السيد وسوء تأثيرها في مصر وتحول القلوب بسببها عن الخديو الذي تناقل الناس قوله له «أنت موضع أملي في مصر أيها السيد» وقد تقدم ماكتبه في ذلك بنصه في ترجمة السيد (ص ٧٤ — ٧٨)

مبدأ الفوضى في الجند المصري

ثم بين انه في حوالي هذه المدة وقبل استعفاء وزارة شريف باشا صرف مبلغ عظيم من الجند الى بلادهم وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفا فقط . وأن جماعة من الضباط قدموا بعد ذلك عريضة الى الجناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية وبنوا ذلك على أسباب منها رداءة المآكل وضررها بصحة العساكر، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر في اصلاح معاشهم. فوعدوا باصلاح الحالة، وبعد أيام استعفت الوزارة ولم ينظر في حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة الفوضوية بالبحث في أسبابها ، واستئصال عواملها من الجيش قبل ان تأخذ قوتها ويظهر أثرها بمثل ماظهر به من بعد. (قال) وانما قلت انها فوضوية لأن الضباط حتى الشكوى مما يصل اليهم من الاذى أو ما يجدونه من

الضرر ولكن لا حق لهم في طلب العزل والنصب فما فعلوا كان خارجا عن حد النظام لهذا كان جديرا بالالتفات

نفوذ الاجانب واسبابه وغايته

قضى باستعفاء الوزارة ونفي السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب و بعض الوطنيين في منع الاصلاح وأرهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا. و بعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديو بأن هذه الوزارة الجديدة تحت رئاسته لاقدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة ومن الضروري ان يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا الى عودة واسن ودبلنيار، فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم للمصلحة وأنه لا يرضى البتة بأن يكون في النظارة أعضاء أور بيون لانه يشوش أفكار المصريين و يؤدي الى الخبط في الاعمال، قال ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين فاني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به واحسبهما صديقين ولكني أتبرأ من تبعة ذلك، وقال: اني لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ولكني أريد رجالا مثل بارنج [1] يشتغلون باصلاح المالية ولا يخلطون الادارة بالسياسة و يكونون في وظائف سامية غير انهم لايكونون وزراء، فأشاروا الى نوبار باشا فأظهر غاية التمنع من قبوله بل أبى ان يسمح بعودته من أوربة إبعادا لدسائسه كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة وتناقلته الجرائد في حينه، فأشير الى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه وقال انه الصديق الحميم والصادق الامين، وانتهى الامر باستدعائه فحضر في النصف الاخير من رمضان ثم عهد اليه برئاسة النظار في ٥ شوال سنة ١٢٩٦

« كان الخطاب الصادر من الجناب الخديوي الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار يشف عن كمال المودة وتأكد الثقة وخلوص السريرة في الاعتماد على امانته ، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترأسه على مجلس النظار مدة الشهر الذي مضى ان يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الاحوال (رفض لائحة النواب ونفي الشيخ جمال الدين اذ لم يظهر حال يقتضي التفرد بالسلطة سوى هذين الامرين)

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر

« ومن المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة التي لاجلها اجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب، ولاجلها ولي خديو جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان ، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما وجده من العقد ووضع حد لتلك المصاعب التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والانقلاب الذي لم يكن في حسبان، وتلك هي المسألة المالية التي كان يريد الجناب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل ، وبفض مشكلها قبل جميع المشاكل ، على انه لم يكن مشكل سواها لولا ما أعقبها مما تولد منها

«لم تكن عقدة الاشكال فيما يمس حالة المصريين وعلاقتهم مع الحكومة في الامور المالية، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة، فقد كان يكفي ان تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيرا ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد ، وما كان أسهل هذا الامر في ذاته ، على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الارض والسماء ، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءا من المئة بل من الالف مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت . وَلَمّا كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولي الامر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال ربما لم يكونوا يقصدونها، على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

« كان معظم الاهتمام منصرفاً الى ارضاء الاجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ . ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦ ولكون الخديو الاسبق كان يريد أن يكون ذلك العجز معروفاً عند الدول ذات النفوذ ويجب أن يتداخلن أيضا في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية

المصرية عن اداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له. أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لايؤدي خراجا الى سلطان آخر وكان يسره ان يكون ملكا ولو على بلادخربة ورعية ضئيلة و بين خليط من الاجانب يصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون . ثم لم يكف الخديو الاسبق عن تصرفه الخفي في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها وكلما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيهافيدعو وكلاء الدول السياسيين للتداخل في اصلاحها ثم هم يجيبونه الى مايدعوهم اليه تمكيناً لحق التداخل في الشؤن المصرية الى أن جر الامر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ولم يكن فيها الامصري واحد وسائر أعضائها من الاجانب، وأخذت تتناول البحث في الشؤون المالية وتصل بها ماشاءت من الامور الادارية، وكانت أحكام المحاكم المختلطة لارباب الديون الثائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطاتها فعقدت سلفة روشيلد تحت شروط شديدة ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الاملاك المرهونة عن وفائه، فكانت هذه السلفة ضغثا على إبالة ومشكلا فوق المشاكل، فقدأبى بيت روشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعدمادفع شيئا منها وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة، وبذلك وقع الخديوي الاسبق في شباك من حبائل السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار وصدق فيه قول القائل « انه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأفحش الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب وقضى مع ذلك مدة سبع عشر سنة في سلطة تامة وكلمة نافذة — كل ذلك لان يعد بلاده ويهيأها لنفوذ أجنبي يسوسها، ولان يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منهما»، بل كان يهيء نفسه بالمال والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لايرحم، ورقيب يعجز عقله الذكي عن اخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوي عن مناوأته وهكذا كان يبذل جهد المستطيع في اضاعة نفسه وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به، ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون ليبحثوا في شؤون المالية وأظهر لهم

قبول ماطلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية، ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه كما هي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية الى سياسية، وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامي الذي كان يخيله، وهي فرصة لا يضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر

« ومن المقرر عند الاوربيين ان العادة قانون وأن العادة تتأصل بمرة فما بالك بالمرات الكثيرة، فلهذا انقلبت المسألة المالية آخر الامر الى سياسية محضة، وما أخذه الاوربيون من حق التداخل في شؤونها أصبح أمراً مقرراً وقانونا واجب الرعاية ولم يعد لاحد من حكامنا ان يفكر في إلغائه أو تعديله خصوصا وقد وجد الاجانب من الادلة ما يحجون به المنازع اذ كانوا يقولون " لا ثقة بوعد ولا اعتماد على عهد فقد وعد الحاكم السابق وأخلف وعقد ونقض ولم نره يوما أتى بعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ولم نر له أثرا في البلاد تساوي قيمته ماصرف فيه ، والحاكم الجديد حديث العهد لا نعلم ما يكون منه ولا نريد ان نقع في التجربة مرة أخرى، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الامر، ولما كان توفير المال الذي يقوم بوفاء الدين وضبط حسابه موقوفا على ضبط جميع الادارات والمصالح فلا بد ان يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى نكون على ثقة من ان حالتها لا تنقص الايراد ولا تزيد في النفقة، ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الاموال الى الخزينة ومنها الى الدائنين فشأنه مرتبط بشؤون الدائنين ولا يثمر عمل الفلاح الا إذا كان آمنا على نفسه وماله فلنا حق المراقبة على كل مايتعلق بالفلاح من هذه الجهة — والنتيجة التي لا شبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات ان لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها لكن تحت اسم المراقبة المالية»، وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلع اسماعيل باشا فهنا كان موضع الاشكال ومن هذا كان ينبوع المخافة والاضطراب على المسند الجديد

« قبلت الدولتان ماطلبه جناب الخديوي السابق في عدم تعيين وزيرين أوربيين ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ونفوذهما يشمل جميع الادارات المصرية ، ورواتبهما الذي ينالانه من الحكومة أوفر بكثير من راتب

وزيرين ، وصدر الامر بتعيينهما قبل توسيد رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام . ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار وجد موسيو بارنج (اللورد كرومر) محاسباً عموميا لقلم الايرادات ، وموسيو دوبلنيار محاسبا عموميا لقلم المحاسبة وادارة الدين العمومي، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما، كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا في فهم معناها، وبعد قليل قدم قنصلا دولتي فرنسا وانكلترا لائحة تحدد وظائف المراقبين وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم قبلت اللائحة كما قدمت تقريبا، وصدر الامر بتحديد وظائفهما على وجه ان لهما في الامور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية، وعلى الوزراء والمأمورين من أي رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الافادات ، وعلى ناظر المالية ان يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلا عن دخل نظارته ونفقتها، وعلى كل ادارة ان تقدم كشفا مفصلا كذلك في كل شهر، ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنهما مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الامر الخديوي، وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شوري، وتقرر ان لا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما، ولهما ان يعزلا وان ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش وان يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان، وعلى الحكومة ان تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلامعارضة. ومن هذا ترى ان تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهمه عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة عن كل قيد»

وقد ذكر في ذلك الامر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانكلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتداخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية فالمراقبان يقتصران الآن ان يقدما الينا (الخديو) والى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بالوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخابرات . واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الامر الخديوي عن ألفاظ « الوقت الحاضر » و« الآن » المسطورة في الامر الخديوي وتأويلهما على وجه لم يزد القصد الا ظهورا يشير الى ان الامر سطر برأي القنصلين وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الامر كما

تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائها الا بعد امضائه ؛ وكانت الترضية عبارة عن إبقاء الالفاظ وتأويلها بما لا يفهم منهـا ليجري حكمها كما وضعت

« لم يمر ذلك على الانفس والعقول بلا أثر خادش وهزة أسف عامة لكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ويدور في خلده خيال الميل الى استقلال البلاد ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة واحاطته بما يتقي أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرعية ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية، بعد ما عرفت آثارها، وتمكنت من النفوس النفرة منها . وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين، وا كثروا الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا وقبل ان تبين حدود المراقبة على هذا الوجه ، وبعد ان نشر هذا الامر وعرفه العام والخاص لم يدع انساناً حتى أنطقه ، ولا قلما حتى أطلقه ،وجرائد ذلك التاريخ شاهدة به

«وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الاسباب التي جرّت الى الثورة حتى افرغ من ذكر ماتم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا وما تحولت اليه أحوال المصريين، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدماً وتأخراً . آتي على ذلك باجمال يغني عن تفصيل ان شاء الله،ثم نرى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقاً بدون حاجة للتنبيه الى العود اليه »

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

بين الاستاذ ان رياض باشا حفظ لنفسه وزارة الداخلية اصالة لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية نيابة موقتة لحل مشاكلها مع الاجانب ، وانه سار في الاصلاح سيرة حميـدة لا عيب فيها الا محاولة تعميم العدل والمساواة فيها بسرعة ، ونلخص ذلك بما يأتي :

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين عاما وخاصا . أما العام فهو إكراه الحكومة الاهالي على العمل بغير

أجر في المصالح العامة كإقامة الجسور (الحواجز) على الانهار العظيمة وحفر الجداول الكبيرة وتشييد كل بناء يقام باسم الحكومة ، وأما الخاص فهو إلزام الاعلياء من دونهم العمل في منافعهم الخاصة بغير أجرة كالعمل في المباني والاراضي بجميع أنواعه — فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الاهالي بهذه السخرة، ويقرنونها بالضرب والاهانة ، حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة ، (قال) : كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة على شرط ان يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قريبة ، فان كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ولكنه لا يسمح لهم بأماكن تقي من المطر والبرد في أيام الشتاء ولا بمستظل يقيهم الحر في أيام الصيف ، فكان القر يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفا — و بين الاستاذ ضرر ذلك في الانفس وقتله الشعور والاستقلال والارادة

شدد الوزير في إلغاء السخرة بنوعيها و بالغ في ذلك « حتى إنه آخذ مدير القليوبية مرة في ارسال بعض أشخاص من أهاليها لحفر الترعة التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لانها خاصة بالخديو ، ووبخ المدير توبيخا شديدا وعرض الامر على الخديو فاستحسنه ، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه، فان مبالغته في العدالة الى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال — فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين بل والحاليين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج »

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الاعمال العمومية يكون بدلا من السخرة كما أشارت لجنة التفتيش العليا من الاجانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع بدل نقدي ، فخف الويل عن كثير من الفلاحين وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة . وكان من عدل رياض باشا في ذلك ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مثتي رجل لاصلاح ماجرفه السيل من سكة حديد السويس اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك

حسب العادة ، هـذا وان فريد باشا كان من رجال رياض الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكتف بذلك حتى كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك. وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا وكلما عرضوا عليه صورة مزقها لانها لم تف بغرضه من التنويه بشأن الاهالي . (قال الاستاذ) وآخر الامر دعاني لتحرير ذلك المنشور فكتبته وذكرت فيه الحادثة وأتذكر منه هذه الفقرة « وليعلم المديرون والاهالي (لعلها والمأمورون) جميعا ان الاهالي ليسوا عبيدا لاحد ولا لأحد عليهم سلطان الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي باعتاق الاهالي من عبودية التسخير بل من العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق ، وهذا مما لم يعهد له مثيل من قبل

العدل في توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الاغنياء . وشدد رياض باشا على نظارة الاشغال العمومية في تنفيذ ذلك على الكبير والصغير ، وذكر الاستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل يحول دون ما كان يستفيده بولينو باشا من آلة بخارية له يبيع الماء الذي ترفعه للفلاحين حتى في أيام الفيضان التي يجدون فيها الماء بغير ثمن، وأن بولينو باشا جاء برجاله مسلحين ليمنعوا فتح الترعة التي يسقي منها الاهالي فأمر رياض باشا بفتح الترعة ولو بقوة السلاح ففتحت تحت حماية العساكر المصرية

إلغاء الضرائب وترك بقاياها

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغي ثلاثون ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة كانت أضرت بالمصنوعات والاعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين . وزيد مئة وخمسون الف جنيـه على ضريبة الاطيان العشورية تعويضا لما فات بإلغاء تلك الضرائب، فخف بذلك عن الفقراء ماثقل على الاغنياء ، وهو مما لا يمحى أثره من أنفس الفريقين . وذهب الافواج من التجار والصناع ليعلنوا شكرهم للجناب الخـديو على إلغاء تلك الرسوم ؛ ولكن الكبراء لم يحفلوا بذلك ولا شاركوا الشاكرين (طبعا) ثم عفت الحكومة عما عجزت عن

تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

« ثم نظم برنامج الايراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانيـة) وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهـم ووضع نظام للتحصيـل في الاوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة وعرف الفلاح ماله وما عليه» وضع هذا طبقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الاغنياء والفقراء والوطنيين والاجانب في التحصيل ، وكان الاغنياء والاجانب يماطلون عدة سنين ، وكثيرا ما يعفى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ان بعض أغنياء الاجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين فحصلت منه بقوة الحكومة . وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل

ابطال الـكرباج

صدر الامر بابطال الضرب بالكرباج في تحصيل الاموال الامـيرية فعجب كثير من الناس لذلك وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب؟ وأنكره كثير من المديرين وظنوا انه قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة

ابطال الحبس في تحصيل الحقوق

صدرت الاوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء كانت أميرية أو شخصية، واقي تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن الميل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام، ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان قد محي الا ما ندر . قال : ومن غرائب آثار تعوّد الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيـل اقتضاء الحقوق — سواء كانت للحكومة أو للافراد — كانوا يعدون تلك الاوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد الا الكرباج ، كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزءون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى ابصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق التكرمة التي خصه الله بها

قانون التصفية

(قال) « بعد مخابرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة قبلت الدول تشكيل لجنة لتصفية الديون المصرية التي استدانها شخص اسماعيل باشا ولا يعرف فى البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل، قبلت الدول العادلة أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ولم يكن في اللجنة من المصريين الا عضو واحد . قضت عدالة الدول المتمدنة أن تصادف المخابرات في ذلك صعوبات حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الامر بتشكيلها تحت رياسة السر ريفرس ولسون في ٢١ مارث سنة ١٨٨٠ و بعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره ولا يزال من أصول الحكومة المصرية الى الآن »

ثم ذكر الاستاذ أهم مسائل هذا القانون ، وكيفية توزيع دخل الحكومة ودخل بعض الاملاك على الديون ، ومنها أنه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و٨٩٧ر٨٩٠ الف جنيه وفيها ويركو الاستانة وفوائد قنال السويس وتكميل النقص الذي يحصل في الايرادات المخصصة وسنوية المقابلة ، وما بقي من مالية القطر المصري فهو للدين وفوائده

و بعد أن أطال في مسائل هذا القانون ذكر أن تأثيره كان حسنا على ما فيه من غبن الدائنين الحكومةَ وجعلها تحت مراقبة الاجانب وتصرفهم فقال :

« كان يوم أمضي هذا القانون من الايام المعروفة في تاريخ مصر وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري ، وعد الناس ذلك اليوم من الاعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه ، وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه و بين مستقبل واضح معروف — كما تمنى الجناب الخديو وصرح مرارا من أنه يريد فصلا بين الماضي والمستقبل — وأهم ما غنمته الحكومة منه رضاء أوربا عن الحالة التي قررها، واطمئنان الاهالي والجناب العالي على مسند الخديوية، وانقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالية تثيرها في الاوهام عند ما

يخطر بالبال حادثة فصل اسماعيل باشا، و بتلك الطمأنينة كان الفرح لها كالاحتفال »

*

عمل المؤلف في المطبوعات (١)

قال « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب، ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه و يجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها الممولون على الدفع، فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها، تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الاوامر واللوائح فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك، وكان قد أحس بتوجه الأفكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد. أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في الجريدة الرسمية لان المأمورين يعرفونها من طريق أخرى، والاهالي لم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب و ينشر بوجه رسمي، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ما تحده في أوامرها، لهذا لم يكن لهم اهتمام في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه. ولم يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح للجناب الخديو و بعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة، وهذا ما كان ينفر من رؤيتها، فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير وتحريرها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها، ورغب مع ذلك أن تكون يومية، فهداه بحثه الى تعيين [الكاتب] في تحرير تلك الجريدة، وكان الجناب الخديو في انحراف عنه لأسباب غير معروفة، وانما قيل عنه انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين، فاجتهد رياض باشا في استرضائه فرضي بتعيينه فعين محررا ثالثا، و بعد أشهر ذاكره في الطريقة التي يمكن بها اصلاح الجريدة

(١) كان ينبغي أن ينشر ما كتبه الاستاذ الامام عن نفسه في هذه المسألة في المقصد الثالث الذي قبل هذا و يشار اليه هنا بالاختصار مع الاحالة على ما سبق من التفصيل، ولكننا كتبنا ما تقدم قبل الاطلاع على ما هنا كما وعيناه مما سمعناه منه رحمه الله تعالى

فعرض له ما رآه في تقرير وافٍ فأمر بأن ينظر في التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير ، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن وأمضاها رياض باشا، وعين صاحب التقرير رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات الى النظر فيما يقولون ، فتحول حال الجريدة الرسمية الى ماحمده العامة والخاصة

« وقد يقول غير العارف بسير الحوادث " وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر — سعادتها أو شقائها، طمأنينتها أو قلقها، تقدمها أو تأخرها؟ »، فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث شعب له حياة سياسية وأدبية وعقلية فلتغيير سير الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها مكان رفيع من تلك الحوادث ، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتغتذي وتموت، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي ولا علاقة لنا به الآن وربما تبسم استخفافا بالامر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقي الامم ، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصادعة ، والقواصف القارعة، وهم من موضوع التاريخ الطبيعي كما قلنا

« واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية لم يكن من أرباب المنازل السامية في مصر، ولكنه نبت في تربتها واتصلت حياته بحياتها ، وأشربت مداركه الاحساس بحاجاتها ، فكلما تناول عملا مما له علاقة بشؤونها العامة فتح له هذا الاحساس بابا من المعرفة بطريق ايصال منفعة من المنافع اليها، فلما دعي لوضع اللائحة أودعها أحكاما غريبة في بابها يعجب لها الناظر فيها، خصوصا اذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المقلدين للمتمدنين ، ولكن لكل بلاد طبيعة خاصة بها، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

« تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم (المجالس الملغاة) ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع مالديها من الاعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وان لادارة

الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الاعمال عند ما ترى له وجهاً حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الادارة جزءاً منها، واذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر عربية أو أجنبية ذكراً لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقاً مانشرته الجريدة أوخذ المخطىء بواسطة رؤسائه، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ونشر في الجريدة الرسمية ، وإن كان باطلا كلف صاحب الجريدة إثبات ماذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائما على حسب الاحوال، وان من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي مايعن له أو ما يرد اليه من الفصول الادبية مما له مساس بالاحوال العامة ، وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة إما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللائحة ، وإما علما منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجاتها الحاضرة

« وأول مابدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة واقتضائها لطول المخابرات في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم ترسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الالمام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الادارات واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديريات كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير في مصالح الحكومة ولا زال يتقدم الى اليوم ، وهكذا كان شأن الجرائد ، كانت تتسابق الى اظهار مزاياها في التحرير حتى تعجب ادارة المطبوعات أو العامل فيها، وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات، وتسابقت الاقلام في تنقيح الالفاظ وضبط المطالب، فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين قبل هذا ، وكان الضعف يقعدها ،والخوف يرعدها، فقضي لها أن تظفر على يد من كان له دخل في نشأتها

« سهلت بذلك المواصلات بين الانفس في الافكار، وخف عليها التعبير عما في الضمائر، كثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسر التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من الالفة ، أحدثه الشعور بجامعة اللغة، وبعد أن كان نظر الواحد منهم لايجاوز شخصه ، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل اللذائذ والآلام مالا يخفى على عاقل ، وله من الاثر في إنهاض النفوس الى طلب مايصلحها مالا يذهب إلا على غبي جاهل

« كانت تبحث ادارة المطبوعات، أو دائرة التحرير فيها في جميع منشورات الحكومة ولوائحها. وأعمال المديريات وأحكام المحاكم وتبدي رأيها في جميع ذلك وتنشره في الجريدة الرسمية ، وكان ماينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة ، ويوضع موضع البحث، ويبنى عليه التعديل أو التغيير ، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية

« كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة ، وما كان فيها متعلقاً بانتقاد بعض عمال المصالح كتب عنه من إدارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضوع القول، وسئل العامل عما نسب اليه ، فإما أوخذ إن صحت النسبة أو أنذر صاحب الجريدة إن لم تصحح عملا بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية كما سبق، فارتفع شأن الجرائد في أعين المأمورين والناس عموماً من جهة ، واشتد حرصها على تحري الصدق من جهة أخرى، أما القدح الشخصي فكان ممنوعا على وجه الاطلاق سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك، لاخلاله بالآداب العامة ، فكان ذلك من أسباب تأديب المامورين وحثهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الاعمال، ومن وسائل تهذيب الجرائد وإلزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب ، مع اطلاق الحرية لها في تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف ولا تمتعة ، لم يبق عامل ولا رئيس مصلحة، بل ولا ناظر إلا كان يجب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ويخشى أن تكون له سوأة فتبدو بنفثة من نفثاتها

« ومن فكاهات ذلك التاريخ ان مدير بني سويف (إ بك) بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض خطته أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته ، وكتب بذلك محرراً غير رسمي الى صديقه مدير المطبوعات، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لانه كان العامل وحده في الادارة، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام لجميع المديرين، وأدرج المنشور في الجريدة الرسمية. فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة، وأفهمهم انها قد اقامت من نفسها مراقباً عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد إلى طرق التدارك لما يقع من الخلل، وهو مما يرفع الهمم الى إعمال الفكر في معرفة الحق ويسوق العزائم الى طلبه

« لم يضيع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم وإظهار معايب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصلاح ، فغضب لذلك ناظرها (ع. إ. باشا) وكان بطيء الحركة خامد الفكر بعيداً عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اقتفاء الجريدة الرسمية له وتنقيبها على مواضع الخلل من اعمال نظارته ، فلم يسمع منه بل اجيب الى ان الحق أولى بالتاييد ، فان كان ماذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره ، فسكت لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده وبعد ان تكرر النقد ووجد رياض باشا ان السكوت عن الخلل ضرب من الاهمال الذي لا يغفر ، ذاكر يوما رئيس التحرير في ذلك، وفي الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن[1] لان له مكانة في نفس الجناب الخديوي من جهة، ومن جهة اخرى فنحن كحزمة ضُمت اعوادها برباط واحد فلا يحسن البدء من الآن بحل ماعقد بيننا، فلابد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في ادارة المعارف العمومية وما على الناظر

(١) انما قال هذا جوابا لا ابتداء فقد تقدم أن الاستاذ عرض عليه اولا ان يستبدل بناظر المعارف غيره ، ويوشك أن يكون قد سقط من الاصل هنا ما هو بمعنى ما تقدم لاننا تلقيناه عن الاستاذ نفسه

إلا التنفيذ ، فلم يمض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الامر بتشكيل مجلس المعارف الأعلى، وعد في أعضائه كثير من اكابر الاجانب والوطنيين وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه ، ولم يخل تشكيل هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك ان تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ في مصر فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً إذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات. وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا ينكر أثرها في حالة المعارف العمومية ولم تضر به كثرة الاجانب فيه فان حمية بعض الوطنيين من اعضائه كانت تحبس بعض الاغراض السياسية في نفوس أربابها، فان بدت وجدت من المقاومة ما يبددها ، وكانت القرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد وما يجب ان يتبع في سير التعليم فيها

« فلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الاعمال العمومية، أو طلب إصلاح عادة من العادات الرديئة، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي بني عليها العمران ، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة ، لهذا كان لكلامها من الاثر في الانفس ما لم يكن لكلام غيرها من الجرائد . ومن يطلع على أعداد تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الاثر حتى اليوم ، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة بل كان يكتب ما يكتب انتظاراً لاثره في الانفس لا غير، وما كان الاثر يتخلف عنه

« بهذا وبما سبقه تنبهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة فرقها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل » اهـ ثم قال

دار الكتب العربية ودار العلوم

« اتجه عزم نظارة الاوقاف[1] إلى الاخذ بوسيلة من أجل وسائل الاصلاح وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الازهر وتوسيع نطاق المدرسة الى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ ، وأن يرتب التدريس فيها على طريقة

تؤدي الى تكثير الاساتذة المهذبين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الامة ، ولكل طبقة من طبقات المدارس ، بل الى إعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الاعمال الادارية والقضائية في البلاد ، وقد قدرت فوائد هذا المشروع في عشر سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون في هذه الاوقات ، وبهذا كان يتسنى لنظارة الاوقاف أن تقدم للامة المصرية خدمة لاحقة بذمتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين ، وبناء معابد قلما يوجد فيها أحد من المصلين ، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين ، وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين ، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها ، وإقامة ماتدعو اليه الحاجة منها ، وكان توجه نظارة الاوقاف الى هذا المشروع بناء على ماعرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً » ثم قال

اصلاح نظام العسكرية

« وجهت الحكومة عزيمتها لاصلاح في نظام العسكرية فبعد أن قررت مدة الاقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية ، رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من العساكر المقترع عليهم لان المدة المقررة للخدمة لاتكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف الجندية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا . فلابد أن يحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير . وهو رأي معقول في نفسه لا يخطىء مصلحة البلاد في شيء »

اصلاح المحاكم

وذكر الاستاذ هنا اهتمام الحكومة باصلاح المحاكم القضائية وإعداد الوسائل لذلك ، ودعوة القناصل الى المداولة في أمر المحاكم المختلطة لتنال شيئاً من حق المساواة بين الوطنيين والاجانب

سيرة الحكومة بالاجمال

﴿والخديو توفيق باشا والوزير رياض باشا بشيء من التفصيل﴾

بعد هذا بين الاستاذ سيرة الحكومة بالاجمال، وانها كانت موجهة الى مافيه الخير لمصر وأهلها ، ولم يكن بناؤها على أساس الاثرة وقاعدة الاستبداد بالسلطة لقضاء شهوة الحاكين وأعوانهم ،وذكر من مناقب الخديو توفيق باشا: العفة واللين والتحبب الى الرعية،وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن الشهيرة ،وبعده عن السرف، واكتفاءه من النساء بأميرة واحدة ، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره . . . من الامور الفاضحة . وذكر نتيجة ذلك بقوله : فاجتمع له في أنفس الرعية : المحبة والمهابة ،وهما أقوى سند للحاكم وأشد ركن يعتمد عليه، وهما البقية التي تحفز اليها الهمم ، وتحث نحوها العزائم ، وتطير دونها الرقاب ، والسعيد كل السعادة من الحاكين من هيأ له القدر أن ينالها

وذكر من سيرته في حكومته اتفاقه مع نظارها وسائر كبارها،على مايخفف عن الرعية أثقالها ،ويرقي عقولها وآدابها،ويفتح أبواب السعادة في المستقبل لها، مع شدة تمسكه بحفظ مسنده ، وتقوية سلطته ،وان هذا رفع قدره في نظر الاجانب أيضاً ، وان الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه في اول حكومته من النفي بغير محاكمة والمسارعة الى تعيين المراقبين من الاجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة ، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعة الخطأ فيها على غيره

ثم ذكر من سيرة النظار العمل فيما يعود على البلاد بالمنفعة أيضاً (قال) « ولم يكن لأحد منهم شهوة الاستبداد بالامر في عمله،لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره ، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وإرادته ، وجمع ماتيسر له أن يجمع مدة استغلائه على كرسي الوظيفة » وقد استثنى منهم واحداً قيل انه كان يمد يده الى بعض الحطام في بعض الاعمال الجزئية التي لايظهر لها أثر في كلياتها،وآخر كان يطيع العصبية الجنسية، وسيأتي ذكره

ثم بين الاستاذ حسن تأثير هذه السيرة في الناس في نشاط العقول وتحفز الهمم والاحساس بالجاذب الى مطلب البلاد « وهو أن يكون فيها من قوة الارادة ونفاذ البصيرة مايمكنهم من حفظ مابقي لهم، واسترداد ماذهب منهم على مدى الزمان. وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى البلوغ بها أقصى أمانيها، مع نفوذ البصيرة في شؤونها - رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها ، وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العلل اختياراً لأخف الضررين، وخضوعا لحكم الضرورة مع قوة الامل في الشفاء»

وذكر ان ضياء الآمال كان يسطع على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة إذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة وان مطالبهم على مافيها من الطيش سهلة المتناول .

(قال) «وكان أهل الاصابة في الرأي يتمنون لو استمر سير الحكومة في سبيلها ذلك عشر سنين على الاقل، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه، ويستوي سلطان الارادة السليمة على عرشه ، وترسخ الملكات الحسنة في نفوس المستبدين بمقتضى (ميل) الفطرة لاقتنائها — وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعدهم له الكرم الالهي — وتعود الى النفوس سكينتها بعد ذلك الاضطراب الشديد ، وعند ذلك كان يتهيأ لاهالي البلاد أن ينزعوا الى نظام أكمل مما أعطي لهم ، وأن يطلبوا سبيلا الى تخفيف شيء مما كان لا يزال يثقل عليهم

« ولكن وا أسفاه! حال دون بلوغ تلك الاماني أمور (منها) ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار (ومنها) ماله علاقة بالجناب الخديو (ومنها) ماسببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة (ومنها) نهوض الساخطين لاستعمال ماوجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا

شمائل رياض ومعارفه وأخلاقه وأعماله

عقد الاستاذ في رياض باشا فصلا وفاه فيه ماله وما عليه، وقال انه استعمل غاية الرأفة في الحكم عليه ، وأن الذي قد حمله عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة ، وقد بدأ هذا الفصل بقوله : « رياض باشا خير من طبقته من المصريين

بلا نزاع ، والمنازع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو المنصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ماقد يؤاخذ عليه » ثم بين ذلك بما نختصره على ايجازه واختصاره ، قال :

رياض باشا ذكي بالفطرة وقد اكتسب بالتجربة في الاعمال الادارية مالم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلي يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليها الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئي على مثله وربما لايكون جامع الشبه بينهما تاما فيقع في الخطأ

فيه همة وقوة عزم لاتنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب مايكره منها

صادق النية مخلص السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لايبالي في تأدية مايراه واجباً عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن ان من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وإن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه . . . .

له نشاط في العمل ، لايصحبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكليات

فيه مزية التفويض للعامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، ولكن ليس عنده قاعدة يبني عليها ثقته. فتارة يثق بالاذكياء العارفين وبالصادقين وتارة باضدادهم

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص وما يتعلق بالعمل العام ، فيسقط من نظره وإن كان فيه من الفضيلة مايعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويذم المتعصبين للاوهام ويجل الكثير من أفرادهم

يحب المصريين جملة وليس في طبقته من يحبهم مثله ، ولكنه يحب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المنتظر فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة ، لانهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الايام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد

من ذلك والخروج منه — وشبهه بالاب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدى المسالك وأقربها

نظيف القلب بعيد عن الحيلة ، اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحركات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه تحاول اظهاره فتكون الغالبة

يهاب ذوي النفوذ من الاجانب ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من آخر سندا ، وهو أمثل طبقته في ذلك

جريء مقدام في الاعمال كأن لا شيء يخيفه فاذا عرض له مالم يستطع تذليله رجع الى أقصى مايمكن أن يبلغه الاحتراس فينقطع العمل . . .

لم يكن يخالج فكره ريبة في سكون المصريين الى الطاعة في كل مايؤمرون به حملا لهم على سالف عهدهم فكان في غاية الطمأنينة من ناحيتهم فلم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة و من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب

ثم خص الاستاذ عثمان رفقي باشا الذي كان ناظراً للحربية من دون سائر نظار الوزارة الرياضية بذكر كلمة موجزة من صفاته لان سيرته من أعظم مقدمات الفتنة العرابية فقال

عثمان رفقي باشا

« كان رجلا ساذجا محدود الادراك بعيداً عن التبصر في العواقب لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضي ميله ويروي ظمأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسة وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار . كان يطيع في ذلك تلك العصبية الممقوتة التي يبطنها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقبت أدبارهم ، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منعوهم حقاً كانوا أهلا لان ينالوه »

تأثير سيرة رياض باشا وشمائله في مقدمات الثورة

قال: «بعد ماتبين من موجز سيرة رياض باشا وهذا البعض من نظاره يمكنك

أن تسمع بعض ماأثمرته تلك السيرة » ثم قال ماملخصه

١ — ان إبطال رياض باشا للسخرة كان عدالة لاتنكر ولكنه أحنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ماصحبه من استعلائه عليهم وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا انه ينبغي لهم التخلص مما يمس كرامتهم، فشكلوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان كان فيها م.ش باشا وش باشا وع . ل باشا وغيرهم فلما خاب سعيهم تربصوا به الدوائر. وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاها باسباب لم تكن بالقوية فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته فذهب [أديب إسحاق] أحد محرري تلك الجرائد الملغاة الى أوربة وأنشأ جريدة سماها القاهرة لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى الاجانب حتى كانت تسميه [رياضستون] وكان ينفق على تلك الجريدة الخديو الاسبق (اسماعيل باشا) و ر . باشا و م .ش باشا وع . ل باشا وغيرهم ، وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية علته ووسائل شفائه

٢ — زاد حنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مئة وخمسين ألف جنيه في أموال الاطيان العشورية وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عذره فانتهز الفرصة نوبار باشا وألب كثيراً من الاعيان للمظاهرة بالشكوى من الظلم والخسار الذي يحل بهم — وكثر الاجتماع لذلك ونفى من كان واسطة في إثارة المتظلمين وهو حسن موسى العقاد ، وبرح نوبار باشا مصر بتنبيه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ ألمه بذلك

٣ — وثق بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين فأساؤا الى وجهاء البلاد ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد . وهذا صحيح في الاغلب ولكن ليس من الحزم جعله عاما . ولهذا وقر في نفوس الاعيان ان رياض باشا عدوهم يريد اسقاطهم وإقامة من دونهم مقامهم

٤ — اهتم بتقرير الامن كعادته في كل وزاراته كأن البلاد في حرب دائم، وأعطى المديرين في ذلك سلطة أساؤا في استعمالها فأخذوا بالظن ونالوا من كثير

بالشبهة فأزعج ذلك نفوس الباقين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل

« اذا صوبنا النظر الى مادون المرتبة العليا من مراتب الانسانية وهي المرتبة التي يصل فيها الى منازل الملائكة في كمال الصفات، وأخذنا الانسان من وجهته البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها وعم أثرها لا تصرف الشخص عن نفسه، ولا تنسيه منافعه ومضاره الخاصة به، فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدركون كيف يستعملونه؟ فمن مسه ظلم المأمورين ولم تسمع شكواه — ومن يترقب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة عادلة — ومن نكبته شبهة مخيلة لا حقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لا تعجبه فيناله ما نال صاحبه — كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الاصلاح كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزه الناس غرضا كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل. أما الضجرون ومن لا تبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلا عن أقصاها فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا

« تلك الرغبة التي كانت تلعب بالنفوس وتجيش في القلوب آخر عهد اسماعيل باشا والايام الاولى من حكومة جناب الخديو السابق رحمه الله — تلك النزعة الى تأسيس الحكومه على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الاهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة — ذلك الظمأ وجد مسكنا من مباديء الاصلاح فاطمأنت النفوس الى عدل الحكومة في القضايا العامة وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضاً عن اشتراك الرعية في الحكم. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولاسباب سنذكرها فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون لا صلاح في الاستبداد بالرأي وإن خلصت النيات. فرأي واحد عرضة للخطأ. وإن تحققت نزاهته من الغرض »

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الامر طلباً صحيحاً لانه لم يختبر الناس ولم يصغ حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقاً عن الاصلاح المطلوب لان أعضاءه تعوزهم الخبرة بالاحوال السياسية والادارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور تجب فيها السرعة . وكان يوافقه في هذا الرأي كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبتّ أهم المسائل السياسية ، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشؤون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التي منحها الامر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضاً باتا فكان ذلك مما زاد الرغبة « ولو أنه أجاب بالرفق ووضع المسألة موضع البحث وطاول في بتها سنين — لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ، ويثير الاحقاد حواليه »

سيرة الخديو توفيق باشا

(المفضية الى الثورة)

قال « بعد امضاء قانون التصفية واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم وجد الجناب العالي فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان ينبغي أن تكون له من جهة ماهو خديو وحاكم أعلى في مصر «لين عريكة الجناب الخديو أو رعايته لجانب والده أو حسن ظنه فيمن سبقت لهم أعمال في خدمة العائلة الخديوية — شيء من ذلك حسن لديه إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمة حضرة الخديو الاسبق في معيته السنية وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ، ولم تألف قلوبهم وجدان الرحمة والشفقة على الاهالي ، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ماذاقوا من لذائذها الماضية ماذاقوا . هؤلاء يغث عليهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت . وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات ، ولم يبق لهم التصرف المطلق في الاعمال والمصالح

كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الاحكام العمومية مايجري عليهم كما يجري على أفراد الاهالي، وهذه غضاضة في نفوسهم لايسهل عليهم الصبر عليها، فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظناً منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

« ميل الجناب الخديوي الى أن يكون محبوباً من رعيته كان يبعثه على إفاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم اهلا لولا نه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وعهد جنابه بالسلطة الخديوية أن لاتعارض في مجراها خصوصاً إذا كانت متجهة الى مالاضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الاجانب. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لا يستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لايراه حسنا فكان يظهر في أقواله ما ربما يخدش نفس الجناب الخديو. وقد كان يأتي في بعض مقاله ما يشير الى التهديد بالاجانب ووكلائهم كما أخبرني به الصادق في روايته. ورأى الرابضون حول الاريكة الخديوية لوائح الانفعال تظهر مرة بعد اخرى على وجه جنابه ففتح لهم بذلك باب يلجونه لشفاء مافي نفوسهم، فأخذوا يستنزلون الجناب الخديوي الى بث مافي نفسه فيفيض بما كان يجده، وهم يفيضون في شرح الاقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها مالاتحتمله، كأنهم مشايخ محققون، يلقون دروسا على طلبة في الازهر مدققين، والجناب الخديو يسمع منهم ويستريح الى مايقولون. وقد انتهى به الامر رحمه الله الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحركاته أثناء خطابه وهيأة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم، وما شابه ذلك. وكان رحمه الله يجد في ذلك نزهة لخاطره، ونوعا من التسلية تسر بها نفسه، وتمضي بها وقته. وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت منه معارضة في أمر صغير او كبير بما كان يصوره أولئك المتملقون. وكلما رأى رياض باشا علائم الانفعال اشتد ضجره وكلما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله التهب غضب الجناب الخديوي عليه وان لم يكن يظهره له، فوصل الامر في اقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية إلى ان الجناب الخديو لم تكن له أمنية إلا عزل رياض باشا، لكنه كان يظن ان قناصل الدول خصوصاً

قنصلي فرنسا وانكلترا يعارضان في عزله لو أراده. فأخذ يلتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضاء به بدون معارضة، فاستلفت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريبة العهد التي كانت سبباً في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو الاسبق فرآها أنجح الوسائل»

إثارة الخديو الضباط على رياض

« أخذ الجناب الخديوي من ذلك العهد يستدني منه أمير الألاي الاول الذي كان يحرس السراي وهو علي بيك فهمي ويستدعيه الى مجالسه الخاصة ويمازحه ويزج به في الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه في الاحسان عليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قال له مرة: اني أردت الانعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة اني أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا. وأمثال ذلك حتى اعتقد علي بيك فهمي ان الجناب الخديوى ساخط على رئيس نظاره وان رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة إخوانه، وعلى المألوف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم

« كل هذا والمرحوم عثمان رفقي باشا يشتد في معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم في مصر ويهيء المشروعات لاراحة القوة العسكرية منهم، فماذا كان يدور من الحديث بين علي فهمي وبين اخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديو؟ وماذا يتخيلونه في ميل جنابه الى فصله؟ وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفقي فانما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا يهجسون به من وسائل التخلص من رياض باشا ورفقي باشا معاً على ظن انهم لو فعلوا شيئاً من ذلك فانما يفعلون مايرضي خديويهم ، ثم تأمل في الاعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على ان ما يعملونه في هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

سيرة الاجانب من أسباب الثورة

عقد الاستاذ ههنا فصلا في بيان كون نفوذ الاجانب كان من أسباب الثورة

بدأه ببيان أن الضباط وغيرهم لما استراحوا من بعض المظالم انفسحت آمالهم في استكمال الشفاء مما بقي من عللهم والتنبه لما وزيادة التألم منها كالمريض يشعر بالالم بقدر الامل في الشفاء . وبهذا التنبه ظهر لهم أن قانون التصفية وضعه الاجانب لمصلحة الاجانب وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الاجانب يتقاضون رواتب فاحشة من الخزينة في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح التي وظفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد . وانهم هم اصحاب الكلمة النافذة في الادارة والمالية وانما يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد، فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لا تهتم بسعادتها ولا شقائها إلا من وجه ماتبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها، فقسوة الاجانب الربويين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر المدين بذلك «ان حقيقة الظلم واحدة وانما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاما وأظهر استعداداً للخلود فلا محيص عنه . فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آل الامر إلى وقوع البلاد في شدة منظمة وضيق محكم الحلقات »

وذكر في هذا الفصل أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وماينشرونه في الجرائد التي تطبع في أوربا وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن الحزب الوطني يرى ماقررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لاينطبق على رغبته وأمانيه للبلاد — كل ذلك كان يهيئ الفرص للناقمين على رياض . وذكر أيضاً أن الاجانب لم يكونوا راضين عنه لان ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته. وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه والبارون يأبى ذلك فأخذ يسعى في ايجاد الطرق لفصل رياض باشا

﴿ أسباب تألب الضباط الذي أفضى الى الثورة ﴾

تقدم أن بعض الضباط رفعوا عريضة الى وزارة شريف باشا التي سبقت وزارة رياض باشا يلتمسون بها عزل ناظر الجهادية تعللا برداءة الطعام وعدم النظر في

أحوال المستودعين وأرباب المعاشات . فناظر الجهادية لم يهتم بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ولم يسع لتفريق من جمعتهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاها بأن يحمل العسكر على الأخذ بالاعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط إحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم اليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصري والجركسي ـ وترك كبار الضباط هملا بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ ميلادية وحصر ترقي الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية اضطربت أنفس الضباط المصريين واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام انما أحدث لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم

عبد العال بك وعلي فهمي بك

وبينما هم كذلك أحال عثمان رفقي باشا عبد العال على الاستيداع وأقام أحمد عرابي مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن علي فهمي أمير الألاي الاول وأبدى رغبته في نزع سلطته عن بلك الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة ـ وهو يعلم من سخطه على رياض باشا مايعلم ويعتقد أن سلطته لاتنهض بالتخلص منه ـ فخاف أن يحل به ماحل بعبدالعال وأن يبدل بجركسي فانضم الى من مسهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

أحمد عرابي بك

قال «أحمد عرابي بك كان ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو إلى عدوه» وكان يحتقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئا في الكثير منهم ، وكان أجرأ اخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة ، فلما شرعت نظارة الجهادية في عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد العال غلب على ظنه أن مايصل الى عبد العال اليوم يصل اليه غدا فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به ، ووجد هو وإخوانه فيما كشفه علي فهمي من النفرة بين الخديو ورياض باشا سبيلا للجرأة

على مقاومة تلك المشروعات ففزع الى رئيس النظار وشكا اليه مامس عبدالعال فقبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقي كل في وظيفته »

أحمد بك عبد الغفار

كان [قائمقام سواري] وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لامور أهمها تقاربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة فكان كل يطلب الخلاص من الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما وشكا اليه عثمان رفقي تصرف أحمد عبد الغفار معه فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعي احمد عبدالغفار في طريق منتزه الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهراً ميله اليه ويسمع شكواه من عثمان رفقي ويعده باشكائه ورفع ظلامته. وهذا مما كان يشجعه على مناوأة رئيسه ويزيد في حقـد رئيسه عليه (وذكر الاستاذ حادثة ضاعفت العداوة)

وبعد أيام كان عرابي وبعض شركائه في الخوف من نظارة الجهادية في وليمة ببيت نجم الدين باشا دعاهم اليها إثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة قال اسماعيل كامل باشا : ان ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لايحمد عليه . عزل أحمد عبدالغفار من قائمقامية السواري وعين بدله محمد شاكر بك . فلم يتم أحمد عرابي عشاءه بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته وكان فيهم علي فهمي وعبدالعال ودعوا احمد عبدالغفار وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل احمد عبدالغفار بلا محاكمة على خلاف القانون . وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل بهم شيوخ قانون أو جهلة دونهم في المعـارف العسكرية ، وعددوا من سيق من الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك. وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري ينظر في جميع أطرافهـا ، فان كان لهم حق منحوه ،وإن استحقوا عقوبة قبلوها . وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال اعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص

رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو وأخرى الى رياض باشا بامضاء أحمد عرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين فبقي التقرير ١٧ يوما تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره وكان من رأي رياض باشا أن يجاب طلبهم في تشكيل المجلس العسكري ولكن الخديو لم يقبل ذلك

مظاهرة الملأ المصري للضباط

« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر ، علم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالي واتحدت وجهتهم في الغاية وإن اختلفت الدواعي والبواعث، فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشكيله، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وأمناً على أنفسهم، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون في ارضاء شرههم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتي خلف له يمكنه مجاراته في مطالبه ، والجناب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار بل تلك أمنية من أمانيه

« فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتيه ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيهم الاخبار بأن الجناب الخديوي لا يأبى إجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذي لا يريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الاخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ماطلبوا في تقريرهم كما قدمنا

« زاد هذا كله في جراءة الضباط وكلما طالت مدة التردد في حسم المسألة كثرت الاشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضعف الحكومة وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم قال دولته في إحداها لعرابي ومن كان معه إن ماأودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجا عما حدده لكم

القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يعد الاجانب ذلك سبيلا لزيادة تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأتهم عليها

« وأحس بذلك البارون درنج فأرسل الى أحمد عرابي واخوانه يقول لهم انه يسره مايراه من صلابتهم في عزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولايضعهم مايهددون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس في الامكان ان حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولابناء بلادهم

بدء الثورة بحادثة قصر النيل الشهيرة

جعل الاستاذ لهذه الحادثة تمهيداً بين فيه ان الضباط كانوا يتوهمون ان رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر — وان الخديو نفسه كان يظن ذلك — ونتيجة ذلك ان مقاومة وزارته مقاومة للدول فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين ، فلما قال قنصل فرنسا الجنرال لعرابي ما قال « انكشف ذلك الوهم، وتحول السير من سؤال الخاضع، الى إلحاح الضارع» فاخذ أحمد عرابي وعبد العال وعلي فهمي يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ماتسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم وطلب عزل ناظرها مثار تلك المخاوف

علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب فانعقد مجلس النظار برياسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية «فكان من رأي رياض باشا أن يحال تحقيق مافي التقرير على مجلس عسكري . وكان من رأي ناظر الجهادية القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالعقوبة التي استحقوها بجرأتهم هذه . ووافقه بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناب الخديوي من هذا الرأي . واستمر الجدال ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء فقاموا الى المائدة ، وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة جاء أحد رجال المعية (طلعت) باشا الى رياض باشا وأسرَّ اليه ان بعض الناس يتهم دولته بمجاراة الضباط والاخذ بناصرهم طمعاً في ان يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في

الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا ساكتاً وصارت الاغلبية على رأي الجناب العالي وانما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: هل تتحمل تبعة هذا الامر ؟ فقال نعم . وصدر الامر بالقبض عليهم وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظار في ذلك الوقت ولا أظنه إلا صادقا»

« لم ينفذ الامر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر »

ثم بين الاستاذ ذلك بما حاصله ان ناظر الجهادية كتب الى الضباط الثلاثة يدعوهم الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الاميرة جميلة شقيقة الجناب الخديوي أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — وهو اليوم التالي ليوم صدور الامر العالي بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لان موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ولا مثله بمعتاد ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ فدعوا من يثقون به من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة فقنع الجميع بان خطراً سيحل بالثلاثة ثم بكل من يشايعهم — أو بكل ضابط مصري على ما كان يخيل اليهم — « فحملهم الحرص على وظائفهم وأقدمهم العلم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم لمكان الاختلاف الواقع في أمهات عناصرها، وما هاجهم من وساوس ذوي الكلمة في مصر وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون — على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك غير مبالين بعاقبة وكان في الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد بكباشي في الالاي الاول ـ ألاي الحرس ـ وخضر خضر بكباشي في ألاي السودان فأخذا على عهدتهما إنقاذ الضباط الثلاثة إذا سقطوا »

بعد هذا التمهيد ذكر الاستاذ حادثة قصر النيل المشهورة وملخصها ان الضباط الثلاثة جاءوا قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الالاي الاول فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية فلما وصلوا الى حيث الناظر تلي عليهم الامر الصادر بسجنهم وجردوا من سيوفهم وألقوا في السجن « وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبلغها في التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتفون لاثرهم وبلغوا ضباط الالاي

الاول ما رأوا فنهض محمد عبيد بالعسكر الذي تحت قيادته لانقاذهم فاعترضه القائمقام [خورشيد بك بسمي] فلم يسمع له قولا وشاهد الخديو حركتهم فأمر [بروجي الحرس] بأن يدعو ضباط الحرس الى السراي فدعاهم فلم يستجب له أحد . وانطلق بهم محمد عبيد الى قصر النيل فهجموا على الديوان فيه فأطار الرعب قلوب الامراء فيه ومنهم الناظر والوكيل ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه فمنهم من كسر ومن جرح وفتح الجند مستودع الضباط الثلاثة عنوة فخرجوا ظافرين. وأرسلوا الى ضباط ألاي السودان وكان في طره فحضر حالا وإلى ضباط ألاي العباسية وهو ألاي عرابي وكانوا قد قبلوا أميرهم الجديد الذي خلفه بعد حبسه والتمسوا العفو عنهم ثم بلغهم ماحصل فوقعوا في حيص بيص . وقد خطب عرابي في العسكر والضباط المجتمعين وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لمخابرة سراي عابدين

(قال الاستاذ) « كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية فجاء الى سراي عابدين — وعرابي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل ان الضباط لم يأتوا عملا إلا ما يقي أرواحهم ويضمن لهم اقامة العدل فيهم، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف وبسط له الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم . وشرح له ماحصل لهم من سلب السيوف والحبس على انهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية وهو طلب عادل لسوء تصرفه . فورد له الجواب من [البارون درنج] بالثناء على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة وبشره بأنه لا خوف عليه مادام الحق في جانبه . فسر عرابي بذلك . أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء »

ثم ذكر ان الخديو أرسل الى عرابي يسأله عن سبب هذه الفتنة فاجابه بانه لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون أحدهم خلفا للناظر فلم يقبل أحداً الى أن عرض عليه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف فقبله فعين في الحال ناظراً للجهادية . فارسل عرابي يشكر الخديو على ذلك وطلب العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا فعفا عنهم . وصدر اليه الامر بان يصرف

العساكر في الحال فلم يمتثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد
وانتهت بذلك الحادثة التي تعرف بحادثة قصر النيل

(نتيجة ماتقدم وتباين أفكار عرابي ومشايعيه ورياض باشا والخديو فيه)

« كان يمكن لعرابي أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال الضعف في ذلك الوقت وانحصار القوة فيما بيده ولكن الامر كان غير مدبر فان طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه حتى كانوا يفضون اليه بما يريدون بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه بالقوة يكفي في أن يقدم رياض باشا استعفاءه ولا حاجة الى التصريح به لعرابي ومن معه خوف الاخفاق فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم فكانت الوساوس منحصرة في تزيين ماهمَّ به الضباط من طلب حقوقهم

« أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به في منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذي أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا ، فلم يكن له هم سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لانه هو وإخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم

« وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ولم يستلفتوه الى أمر آخر فظن أن مقال الاعيان والذوات الفخام وما يأتيه من الجانب الاعلى وما يسمعه من العامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه انما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة ، فخيل له أنه بعمله هذا يرضي الجناب الخديو والكافة وقنصل فرنسا أيضاً بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه في عزل عثمان باشا ، وما بقي من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فانقضى أرب عرابي ولم يستعف رياض باشا

«أجال رياض باشا فكره في أسباب هذه الجرأة التي أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومه مع انهم ليسو إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتنزيه الحاكم عن أن تتطاول اليه الاوهام بالمقاومة فضلا عن الالسن والايدي، فانحصرت كل الاسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال وأن صفته هذه وجهره بتعضيده هو الذي نفخ فيهم هذا الروح ولولاه لم ينبض فيهم عرق ، ولم ينطق لهم لسان ، لهذا سعى لدى الجناب الخديوي في لن يطلب من رئيس الجمهورية استدعاءه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفاً له موسيو ستكوفيش

« لم يدر في خلد رياض باشا ان البارون درنج كان العلة المتممة وان هناك أسبابا أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب، وان الفتنة لا تسكن مادام في الوزارة غير مرضي لجناب الخديوي ، مضايقا لمن يحفون به ، آبياً البحث في تشكيل مجلس النواب، واثقا ببعض ضعفاء العقول من الحكام، مناصباً للذوات الفخام بلا مجاملة ، غير ناظر إلا إلى مايراه حسناً ، وما يعده خيراً للبلاد بدون التفات الى ما يخفف مرارة الحق ان كان محضا ، ويجلو جمال النية ان كانت صالحة ، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق المخيم في المراكز العسكرية والاخذ بزمام هؤلاء الضباط وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم الى الطاعة ، وأما مابقي من الاسباب الحقيقية للفتنة وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير شيء من السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجناب الخديوي من النفرة منه فلم يلتفت اليه لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا

« لم يكن يخطر ببال الجناب الخديوي في ذلك الوقت أن الامر يصل الى هذا الحد، وانما كان يظهر لبعض الضباط انحرافه عن رياض باشا ويلهج إلى ان رئيس النظار هو عدوهم وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية وفي إيجاد النظامات التي تحرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك ، ثم يميل في مجلس النظار الى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم ، كل ذلك

حتى يحدث شيء من الالزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفي . كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفي رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الامر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، كان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمهروا حول رئاسة النظار يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصروا على ذلك فيستعفي رياض باشا كما استعفى نوبار باشا في حادثة الخديو الاسبق ثم تنتهي بذلك الحادثة ويعود النظام الى مقره

« وغاب عن الافكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشاهد في الجندية تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الاحوال كما يعرف من العريضة التي قدمت في وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض ، ثم لو كان الجناب العالي اظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الامر معهم وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه فلابد من ايجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره لكان ما أتاه الضباط صادراً عن أمره ولبقيت هيبة المسند الرفيع في نفوسهم مع اطمئنانهم على أرواحهم ومراكزهم من ناحية جنابه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول دائماً بين النظام والفوضى . نقول ان ذلك كان اقل خطراً فقط ، أما سوء عاقبة مثل هذه الافاعيل فمما لا محيد عنه غالباً

« ثاني يوم الحركة استشعر الجناب العالي أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد — هم رياض باشا وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياط لأهمها خطراً وأشدهما وهو الثاني ، فاستدعى علي فهمي أمير الالاي الاول وذكره بما كان له من الزلفى عنده ، وأظهر له غاية الرضى عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الالاي الى سراي عابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ، ويقسم لهم جنابه يمين التأمين من كل عقوبة على مامضى

« اراد بذلك الجناب الخديوي أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف

بها مابقي منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلا ، لم يستطع ألا يه أن يفعل مثل مافعل الألاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه ، وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم إذا استراح من كليهما رجع على علي فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق ، لكن عرابي أحسن بالامر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه علي فهمي من يمين الامان، فدخل برضاء الجناب الخديو - أو على غير رضاه - في رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان

« الى ماقبل الحادثة بيوم كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ويخشى شماتة أعدائه من الجراكسة مضطهديه فكان كل همه كما قدمنا ، أن يأمن على وظيفته ويتقي من عدوه ، ومع هذا فقد رفعه طلاب تغيير الحال إلى إعداد الضباط لفعل مافعلوا يوم قصر النيل . أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة، وحولها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلا، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرما في نظر كل واحد حتى إن سريرته مهما عميت لايمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجناب الخديوي تخصيصا لعلي فهمي بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكرة ، وآبت اليه الفكرة ، ومثل له جرمه ، وشعر بان حاكمه لايسمح له بقوة تعلو قوته ، والنظام يقضي باهلاك هادمه ، وخيل له أن الخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولا ريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الخديو لايكفي في وقايته ، لانه لم يكن يجهل قيمة الايمان ، ولو كان اليمين(؟) عنده يلزم الحالف بما حلف عليه لما جاء هو بما نقض الايمان العسكرية التي حلفها عند استلام علم الامرة على فرقته ، فاخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه في الجرم ، ويلتمس العضد من كل طرف ، ويفر من الموت في كل سبيل

« ركب به الجبن طريقا عمياء ، يخبط فيها خبط العشواء ، يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمده ، والرغائب الخرقاء تساعده الى أن أودت به وبالبلاد خطيئته

« أول ماأخذ به من الاحتياط أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة في أرض مصر ، علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي

حاقد يوجه اليه من سلطان الحكومة فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم، وكيف يتداخلون فيما ليس من شأنهم ان يتداخلوا فيه كما سنراه فيما بعد »

ثم بين الاستاذ ما طلبه عرابي باشا لاستمالة الضباط والعسكر اليه ومنه زيادة رواتبهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتشكيل لجنة مؤلفة من عشرين اميراً من كبار الضباط هو احدهم للبحث في انظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية احوال المستودعين، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة بل كانت العرائض تكتب في بيته او بيت احد شركائه « ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صغاراً وكباراً وبعض الصف ضباط ثم تقدم من قبل ضابط ألاي إلى نظارة الجهادية أو الى رياسة مجلس النظار — فلينظر بم كان يشتغل الضباط والعساكر وفيم يصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الاعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التطاول الى ماهو خارج عن الحق المخول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام »

ثم ذكر أن محمود سامي باشا أراد أن يتخذ سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ماوقر في انفسهم من معاداة الحكومة لهم، وما يحوك في صدر الحكومة من الريب في مسلكهم ،فاحتفل لتلك المنحة احتفالا باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ونسب ذلك إلى همة الخديو وإخلاصه، وصدق عزيمة رياض باشا وجده، وسائر النظار ورجال الحكومة، وبين ان هذه النعمة لاتحفظ إلا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للاوامر. ثم خطب رياض باشا فبين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها وخاطب الضباط فذكر لهم مانالوه وذكرهم بوظيفتهم من حيث هم قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره ،وقام بعدهما عرابي فصدق ماقالا وقال بلسان الجند والضباط انهم مقيمون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم وانهم آلته

المنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء[1] — ثم قال الاستاذ

« كل مطلع على ماقيل في ذلك الاحتفال يجد منه ان الحكومة كانت تريد أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة ، وان عرابي كان يعدها بذلك بنفسه وبالنيابة عنهم. وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمراً الى ذلك الوقت ، أي مابعد حادثة قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عند ما كان يجيب رياض باشا ومحمود سامي باشا انه كان ينطق بخلاف مايضمر ، وان حجاب الطمأنينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب

مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط

« قلنا إن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه ، فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل لكن لا مع وزرائه والمسؤولين عن الأمن في حكومته ، بل مع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمه — ذلك مهب البلاء على كل حاكم ، ومنبع الشقاء لكل أمير : أن يتخذ لنفسه عمالا في الخفية غير الذين أقامهم على الاعمال في الجهر . نعم للحاكم بل عليه أن يستشير كل من يراه أهلا لان يشير متى وثق من عقله ، واتضح له حسن السابقة في أعماله ، ولكن من المفروض عليه أن يكاشف بذلك رجال حكومته الذين ألقى عليهم مقاليد أموره وفوض اليهم تدبير شؤونه في رعاياه ، فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ورأوه حسنا مضوا فيه بالاتفاق وإلا نبذوه أو ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد ، بعد التروي في جميع ذلك والثقة بسلامة العاقبة فان اختلس لنفسه شيئاً من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم زمام الامر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الاعمال ، وسقطت البلاد في الفوضى وهجرتها الطمأنينة ، وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد سلطانه — عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى وتخالفت النيات ، واستبد كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على ماتزينه له نفسه ،

(١) تراجع هذه الخطب في كتاب مصر للمصريين

« لم يأخذ المرحوم الخديو السابق بذلك الاصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ماهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبدالعال ظنا منه انه كان أجرأهم وأشدهم نفوذاً في عساكره، وأفضى بسره في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال وكان ناظر دائرته الخاصة ، فأخذ يوسف باشا على عهدته موافاة إرادة مولاه

« استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألاي السودان باشجاويشاً شركسيا ودعاه الى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ وأكرمه وكلفه أن يلوي العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمرونهم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل ، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً ، فاذا صدر الأمر بنقل أمير ألايهم أو غيره من كبار الضباط الى ألاي آخر فعليهم أن لا يعارضوا في ذلك وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم . فذهب الاحمق وكتب عريضة ضمنها ان العساكر والصف ضباط لايحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم ، واذا نقل أي واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الاوامر التي تصدر بذلك ، وطلب من افراد الجند ان يختموا عليها قائلا انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم فختم الكثير منهم عليها لانه لا علم لهم بالقراءة والكتابة ، وقد ألفوا تلك العادة التي عودهم عليها رؤساؤهم من ان المطالب التي يطلبها الجند من الحكومة تكتب بها عرائض ويطلب من الضباط أو العساكر إيقاع الاختام عليها ، غير أن أمين أحد البلوكات اطلع على العريضة فأخبر بها اليوزباشى سليم افندي الزيدي ، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعال ، فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية ، فأوصلها الناظر الى الجناب الخديوي فامر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره فصدر أمر الجناب العالي بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظناً منه ان ذلك ينفي الشبهة في ان لجنابه يداً في الحادثة ، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من ان ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملا إلا بارادة مولاه ».

ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبد العال ومساعدة عرابي له

« قال بعض كتاب الحوادث في تلك الاوقات ان العريضة كانت تحتوي على

التماس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناب العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وان ما فعلوا من ذلك انما كان باغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لا ينطبق على الحقيقة، على انه ظاهر السخافة، فان الجناب الخديو قد أصدر أمر عفوه عما وقع في تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الامر فيها، ولم يكن يخطر بالبال ان أحداً سيؤاخذ على ما فعل ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى يلتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضافرة عن ان الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه تام عام

« وفي أوائل شهر ابريل سنة ٨١ حدثت حادثة أخرى، وذلك أن رجلا يسمى فرج بيك الزيني من أمراء الألايات المستودعين كان يسكن في طره بجوار مركز ألاي السودان، وكان من خدم جناب الخديو السابق رجل يسمى ابراهيم أغا التوتنجي فكان من رأي ابراهيم أغا أن يلقي الخلاف بين العساكر وبين أمير الألاي عبد العال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الامر، وكان لفرج بك صهر يساكنه في بيت واحد فاتخذه آلة لتنفيذ ما يريد، فتعرف الى شاويش يسمى عبد الخير فدعاه الى فرج بك فأكرمه وطلب منه أن يكثر من التردد عليه هو واخوانه فذهب عبد الخير وأخبر البكباشي خضر خضر بما وقع له فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صغار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر ابريل سنة ٨١ فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو وان جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانياً منهم (وهو فرج بك) وانه متى صار الامير منهم رقى الباشجاويش الى بكباشي، والجاويش الى قول أغاسي، والاونباشي إلى ملازم، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا على ما أشير عليكم به وموعدنا للكلام في ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطىء البحر، فتلقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبد الخير وأفضى بالامر إلى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعليهم أن يحضروه اليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قمح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم الى الحضرة الخديوية ليبنى عليها ذلك التغيير، فعند ما سمعوا ذلك قام

واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيراً وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنة في الحال، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبي فاحتمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر، فكتب الواقعة بالتفصيل الى أمير الألاي فخضر وطلب محاكمة فرج الزيني فحوكم وظهرت معه رسائل من ابراهيم أغا تدل على انه مصدر هذا الشغب، وحكم على فرج بيك بانزاله عن رتبة القائمقام الى رتبة البكباشي و بنفيه الى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله الى السودان موظفا في وظيفة تليق به

تاثير دسائس الحاشية الخديوية في عرابي

« قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابي بعد حادثة قصر النيل، ودخوله في يمين الأمان مع علي فهمي لم يخفف شيئا من قلقه، وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث والوقوف على مصادرها وان خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها وهم لا يصدرون إلا عن رأيه السامي، فأيقن ان العفو الصادر واليمين السابقة لم يكونا إلا ألفاظا قصد بها إلهاؤه وإلهاء اخوانه عما يراد بهم، وأن الانتقام على ما صدر منهم ضربة لازب، وأن جميع ما اتخذه من وسائل جاب الجند اليه ، وجمع كلمتهم عليه، لا يحميه من الغيلة ، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة

« لهذا أخذ ينقي الجيش من كبار الضباط الذين لا يثق بهم ويخشى أن يكونوا عونا على تدبير كيد يكاد به، فأوحى الى ضباط آلاي العباسية (آلاي عرابي) أن يخالفوا أوامر البكباشي (ألفي افندي يوسف) وأن يهينوه اذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوما بتقديم استعفائه فأبى، ودافع عنه يوزباشي يسمى خليل افندي علي، وانتهى الامر إلى عرابي فألزم البكباشي بان يستعفي وحوكم اليوزباشي فحكم عليه بالسجن مكبلا بالحديد، ثم استودع مع القضاء عليه بأن لا يعود الى الخدمة العسكرية أبدا ، وكذلك أشار إلى ضباط آلاي القلعة فطلبوا الى النظارة عزل أميرهم حمد بك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بك حيدر، وكذلك فعل ضباط آلاي الطوبجية فعزل حاكم الالاي حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري ، وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة في الاطالة بذكره،

« أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الخديوي أعلى من قوة عرابي ، وليس في الامكان لضابط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مهما قل عدده ، خصوصاً بعد أن ألف أفراده وضباطه مناوأة أرباب الامرة فيهم ، وعرفوا في انفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق ، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسعون اليه من ذلك، فمن الممكن القريب أن الحضرة الخديوية أو الحكومة نفسها توحي إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم ، فان لم يكن ذلك بازهاق الارواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون ، ولو اتفق الجناب العالي مع حكومته على ذلك لتم لهما ما أراداه ولكن كان القضاء وسوء التدبير يسوقان البلاد إلى ماصارت اليه

طلب عرابي مجلس نواب وسببه

« تلك المخاوف استلفتت عرابي الى أن يخرج من حوله وقوته الشخصيتين وأن يلتمس قوة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معاً ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على مايصدر منها خارجا عن الدستور أو مخالفا للعدل مما تخشى عواقبه وتتقي مصايره ، وكان يطالع في الجرائد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك اوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ اصول النظام ، وهي القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده ، وبها محي الاستبداد في الارواح والاموال ، وحفظت الحرية الشخصية في الاعمال ، ولعب بعقله هذا الخيال ، وظن انه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية ، ولو أن حكومتها كانت حكومة شوروية، لكانت الشورى أو مجالس النيابات عاصما لحياته، حافظا لحقوقه في وظائفه ، ومأمناً يلجأ اليه ، إذا حوم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون ولا يستبد فيها الرأي لأخذ عرابي ومن معه أشد المؤاخذة ، ولقضي عليهم بجزاء ماهتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا في الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا،

وانما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الافاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأي الاعلى في الحكومة الى تلافي الامر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام ، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بآراء نواب امته لامتنع عليه ان يذهب الى ماذهب اليه ، ولقامت الامة بلسان نوابها تطالبه أن يحل اشد العقوبة على من اعتدى على حدود ما شرعته لجندها ، ولكانت قوة الامة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالفتها ، لكن تلك معارف تعلو أن يتطاول اليها فكر كفكر عرابي ومن كان معه ، وغاية ماتوهم ان مجالس النواب هو من ابناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم او يعزل من وظيفته وإن تعدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلباً يظنه هو عادلا . لهذا اراد أن يستعمل مابيده من السلطة على الجيش في المطالبة بانشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات في اوربا ، ثم تخيل انه اذا أنشىء هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنيبوهم فضل من كان السبب في تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل وثق بانه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم إلى الغاية التي يريدها منهم . ولم يخطر بباله انه إذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التي يلجأ اليها إلى هاوية العدم ، فانه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بامرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، وإذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا في نظر الامة أن يكرهها على عكسه فتنقلب عليه بعد ان كانت له ، واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة من إنشائه مع وجود الجند ، فليستغن عنه بالقوة العسكرية ولتكن هي الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون واقياً مما لم يقو الجند على الوقاية منه؟

«هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تمثلت له جنايته في صور أغوال فاغرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفا مسلولة ، أو حبالا منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص الهرب الهرب . ولم يتمثل في مخيلته مهرب اوفى له من

طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه

« وشد أمله في نيل أمنيته ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس ككثير من أهل الطبقة الوسطى يهمسون بما يدل على التملق ويشعر بالملال من ادارة رياض باشا لأعمال البلاد وسياسته فيها المآرب التي بيناها ، فأخذ يتحسس ما في النفوس ويتسمع ما تنطق به الالسن، فوجد ان أمنية تغيير الحال لم تزل تجول في صدر كل واحد ممن كان ينتابه ، ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه إلا باستدعاء جناب الخديوي الأسبق اسماعيل باشا أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب ذلك بعد ما ذاقوا على عهدهما ما ذاقوا ، فقد نسي الماضي واحتدمت الشهوة في التملص من الحاضر ، وكلمة [مجلس النواب] كانت لم تزل دائرة على الالسنة ، وفي وهم الكثير ممن نظروا في سير الامم الاوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق معنى هذه الكلمة [تشكيل مجلس نيابي وحكومة شورية] فلما نطق عرابي وهو صاحب النفوذ في الجند بانه يريد إنشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان من كل جانب ، وصفقت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفق له الايدي، فاشتد بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الامة ستكون سنده

« ولعلمه أن علاقة مصر بالدولة العثمانية قد لا تسمح له أن يجاهر بايجاد شكل في الحكومة المصرية ليس معروفا عند السلطان العثماني بدأ بتحرير عريضة أمضاها هو وعدد كبير من الضباط ختمها بالشكوى من استبداد الحكام في الاقطار المصرية وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الامل في الامن على الانفس والارواح كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت تصرفهم وكاد اسم [الدولة العثمانية] ينسى ، وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار والانمحاء . فورد له الجواب من بعض رجال [المابين] يحمل اليه تحية الخليفة العثماني ويحكي له أقاصيص رضاه السامي عن كل ما يجري في مصر لمقاومة نفوذ الاجانب في ادارتها ومصالحها

« أخذ عرابي بعد ذلك يجهر بطلبه هذا وخاطب رياض باشا في شانه فاباه عليه ، فاخذ يخالط بعض العلماء ويكاشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الاجنبي ورد ما

سلبته أيدي الاجانب إلى أربابه ، وفي أثناء ذلك كان يصور لهم السلطة الاجنبية الحاضرة إذ ذاك كأنها نسر حوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها، وانه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضي على الدين وسننه، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ماتميل اليه نفسه ويمنيه بنيله اذا تغيرت هيأة الحكومة الحاضرة، فوجد من [حضرات المشايخ] وهم على ماعهد من السذاجة والبعد عن معترك السياسات اصغاء لقوله وتاييداً لرأيه ، وكذلك كان يخالط بعض الاعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لاسبيل لمبتغاه الا بتاييده في طلب مجاس النواب فيجد أذهاناً مقتنعة ، وارادات مستسلمة ، وذلك لان القوة في يده ولان نفوسهم تظن منتهى راحتها في التغيير على أي صورة جاء

« استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضي به الى ضباط الجيش وأن يثير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الاماني من العزة والسلطان ، والصعود إلى أعلى مراقي الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لاينال الا بمجاس النواب ، ولم يكفه أن يكون ذلك مطلباً لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة انشاء المجلس وانما يقام الدليل على تلك الضرورة بالطعن في هيأة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الامن على الانفس والاموال والاعراض ، وبينما هو في ذلك إذ أحس الجناب الخديوي بمسعاه وعرفه بعض حاشية جنابه الكريم، وبعد قليل ظهرت مسالة تسمى [مسالة التسعة عشر ضابطا]

مسألة الـ١٩ ضابطا

« كتب البكباشي عبد الله افندي الكردي تقريراً أمضاه هو وضابط [قول أغاسي] وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه الى ناظر الجهادية ومحصل مافيه الشكوى من تصرف عرابي ومحالفيه وتعديهم حدود القانون واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحملهم على تقديم عرائض للجناب العالي يطلبون فيها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس للامة وزيادة عدد الجيش والتصديق

على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه «ان القوة في يدنا، والعلماء والاعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا. فان لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة» فلما وقف الناظر على ما في التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط فقالوا إنهم لم يكتبوا إلا ما سمعوا وزادوا على ذلك ان في الجيش كثيراً من المظالم والخيانات وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الالايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المخاصمة مع عرابي وجماعته، وانتهت المحكمة باثبات انهم كانوا مدفوعين من إبراهيم أغا التتنجي على كتابة ذلك التقرير فحكم عليهم بعقوبات شديدة قابلها الجناب الخديو بعفوه الكريم غير أنهم فصلوا من الجند

« وفي أثناء هذا الاضطراب كان محمود سامي ورياض باشا يخطبان فيما يجب على الجند ان يؤدوه للحكومة وعرابي يجيبهما بتصديق ما قالا وينادي بان الجيش آلة الحكومة المنفذة: كلا الطرفين خادع مخدوع:

« في حوالى تلك الايام كان قيام ضباط الالاي الرابع (ألاي عرابي) لطلب انفصال (ألفي بك) البكباشي لانه المانع للالاي من الالايين الآخريين يوم حادثة قصر النيل فحملوه على الاستعفاء فاستعفى وأحيل على الاستيداع وكذلك فعل ضباط ألاي القلعة في طلب عزل أميرهم محمد بيك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بيك حيدر، وتبعهم ضباط ألاي (الطبجية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ففصل وعين بدله اسماعيل بيك صبري — كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه وليأمن على ان القوة الجندية باسرها معه

« على ان ذلك لم يغير عزيمة المخلصين من حاشية الجناب العالي فقد قيل ان بقية مما ترك جناب الخديو الاسبق اسماعيل باشا من الجواري السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فاخذوا يزوجوهن ببعض العساكر والضباط من ألاي السودان، وكان أغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك العساكر ويمنحون الواحد منهم نقوداً لا تعطى عادة لامثالهم بحجة ان ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ولكن العساكر كانوا يقولون لضباطهم ان الاغوات يغرونهم

بقتل رؤسائهم فيهيج غضب الضباط وتضعف ثقتهم في الامن على أنفسهم ويشتد الرعب في قلب عرابي ومن معه وسواء صح قول العساكر أو لم يصح فاثره في ازدياد القلق والاضطراب لا ريبة فيه والاشاعات التي تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابتة وإنما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل .

« في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن عجلة (عربة) لاحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربي كانت تمر في الشارع المؤدي الى سراي رأس التين فصدمت جنديا من عساكر الطبجية فقتلته فاجتمع رفقه على ان يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا منه الاهتمام بمعاقبة الجاني فحملوه مخالفين في ذلك رؤساءهم وساروا به في ضجة وولولة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الامر على الخديو ورآه تطاولا مخالفا لآداب الجندية — وله الحق فيما رآه — فامر العساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين ان شكواهم قد قبلت، وبعد ايام صدر الامر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمتهم وحوكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفقائه الى الاشتراك في حمل الميت إلى السراي بالاشغال الشاقة مدة الحياة وحكم على رفقائه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبان يقضوا مدة العقوبة في السودان ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجند في الاقطار السودانية. ثم قدم الحكم إلى ناظر الجهادية فرفعه إلى الجناب الخديو فامر بانفاذه وسيق المذنبون إلى السويس ومنها إلى سواكن ثم إلى داخل البلاد السودانية

« بعد هذا كتب عبد العال حلمي أمير الفرقة السودانية تقريراً طويلا يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من قسوة الحكم ويبين قلقه من الحوادث التي تجري في ألآيه والفتن التي لا تنقطع ولا تجف ينابيعها واظهر استغرابه لشدة الحكم في حادثة مثل هذه مع مقابلة الجانين بالعفو فيما هو أعظم منها واهم (كحادثة فرج الزيني وغيرها)

« قدم التقرير إلى ناظر الجهادية، رفعه الناظر إلى الحضرة الخديوية، اشتد كدر الخديو لذلك وعده جرما لا يقل عما اجترمه حاملوا القتيل وملتمسو عقوبة القاتل، فاستدعى النظار من القاهرة بالتلغراف فاجتمعوا في حضرته وتداولوا في الامر

وقرر (أي جنابه) ووافقه الاغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشأ هذه الفوضوية، وان لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا الى الحد الذي رسمته لهم وظائفهم الا عزل محمود سامي ، فقدم استعفاءه فقبل في الحال ، وعين [داود باشا يكن] ناظرا للجاهدية وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل [أحمد باشا الدره ملي] من ضبطية المحروسة وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها

«هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو ان من أسباب ميل الجناب الخديوي الى استعفاء وزارة رياض باشا انه كان ينتهز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وانه لما لم يتمكن من ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له ان ينفذ ما عزم عليه من هذه الحادثة التي لا تمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع في الاسكندرية بل وفي القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحققه من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراي رأس التين بضجر الخديوي من بقائه على ما أخبره به بعض الاوربيين ، فرجع اليه وساله في ذلك فأكد له ان لا صحة لما سمعه ، وأنه في المحل الاعلى من رضاه ، فأظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الادلة على ما يخالفه

« من العبث ان يقال ان رياض لم يكن يحس بوجد الخديوي عليه ورغبته في اعتزاله للسلطة ولكن لذة المنصب والشغف بالرئاسة وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شؤونها ، كل ذلك كان يغالط احساسه ويدافع وجدانه ، ويلتمس له العذر في البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه على قوتها، ويقبل به على موهمات الركون اليه على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختارا قبل أن ينصرف عنها مكرها، فقد كان من المحتمل ان لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت اليه، أو لم يضطر الضباط الى حشد الجنود في ساحة عابدين لاكراهه على التنازل عن رئاسة النظار

« أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام او يرمم ما تقوض منه فأخذ يصدر الاوامر الشديدة إلى الالايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل، ويطالبهم بايفاء الاعمال العسكرية حقها من الدقة، وأمر بانشاء مكاتب في مراكز الالايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته، وتأخذهم الرهبة من مخالفته، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلا ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الاوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابي واحمد عبد الغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ولم يخف شيء من ذلك على عرابي ورفقائه

القوة التي اعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية

«ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار اوامره ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟ هي القوة التي يشير اليها اسم الوظيفة (ناظر جهادية . مامور ضبطية) وهي من القوى المعنوية التي لا يظهر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الامور عليها ، كسائر الوظائف في الحكومة لا تخضع الأنفس للقائمين عليها، إلا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها ، وما تلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند ؟ فان كان الجند وهو حفاظ الوظائف في كل حكومة خصماً لها أصيبت بالشلل كما يصاب به المخ تمزقت عنه عظام الجمجمة . غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية عن هذا الاصل المعروف عند الامم كافة، وظنا ان اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الاوامر ما يغلب قوة الجيش ويخمد نيران مدافعه وبنادقه ، وربما صار هذا السهو منهما مثالا حذا حذوه كثير من السذج في مصر فيما تأخر من الزمان . نعم قد لا يبالي بقوة الجيش متى استعصى على النظام إذا قامت الامة بأسرها للمحاماة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائه، واستعاض الحاكم بقوة الرعية عن قوة بعض أفرادها (وهم الجند) وأخذ لذلك من

الوسائل ماهو أشد أثراً من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ، ووسوسة الجواسيس، وحشد الاخبار يتراكم كاذبها على صادقها، ويغلب باطلها على صحيحها، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح

« لكن الأمة كانت لاتزال في النقاهة من مرض التفرق وشلل الارادة (وأرجو أن تكون اليوم قاربت الشفاء) فهي ان حكمت على متمرد فانما تحكم أفذاذاً، كل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو أن لا يسمعه ثالث، وقد يبالغ الاغلب فلا يقضي قضاءه إلا في نفسه، وإن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان، قد لا ينطق به لسان ، وإن نطق كان على طريقة القائل : فربما اجتمعت أصوات، وعلت ضوضاء ، ولكن كل في مكانه لا تتحرك قدماه ، ولا تمتد يداه، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الالسن وتخفت جميع الاصوات ،ويتبدل الزئير بالانين.

ذلك شأن كل أمة لم تقوم نفوسها بالتربية السليمة. ولم تثقف عقولها بالمعارف الصحيحة، ولم يبلغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح في سبيل صيانتها. كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها. ويلهيها العاجل عن الآجل. ويذهب بها الحاضر عن المستقبل. فلا سبيل للاعتماد عليها في دفع غائل، ولا في مقاومة صائل، وعلى ولي أمرها أن يبتدىء فيها قبل كل عمل بتهذيبها واصلاح طباعها، حتى تنشأ فيها الثقة بنفسها، وتعلو منزلتها في نظرها ، ويغلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها ، عند ذلك تكون ينبوع سعادته في السلم ، وسياجه المنيع لصد عدوه في الحرب

« كان الجند طوع عرابي ورفقائه لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور، وكانت الامة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا. فالجند والامة كلاهما كانا في جانب عرابي. أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد جزعهم ، فاستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالي ليالي رمضان تكثر فيها الزيارات ، وتتيسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات ، فازداد عرابي ومشايعوه من الحراس تحفظاً مما عساه يقع من الغيلة، وواصل اجتماعه مع اخوانه ومع كثير من أعيان القاهرة، وتابع

رسائله الى بعض من يظنهم على ولائه في الاطراف، وهو في كل ذلك يدعو إلى تشكيل مجلس النواب، لتوهمه انه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ويستمد منه المعونة بالقول والفعل

« سلطان باشا لم يكن من أغبياء الاغنياء في هذه البلاد ، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الغنى وتعلي قيمته مظاهر الثروة ، كان يفهم ما يقال ، ويرضي السامع اذا قال . ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصاير الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر — أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت — حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله، فكان ينتاب منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يجد في نفسه لهذا علواً على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استثقال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً ابطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الاقوياء، أن تطاول الى استخدام الضعفاء رغم إرادتهم ، ووضع حدود يلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علائقهم مع غيرهم فكان ممن يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه. توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا ، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عند ما لاحت له بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة — عندما أحس ان عرابي يتلمس المعين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه — ظن وصدق ظنه ان عرابي لابد أن يصل الى ما يريد يوما ما فمن الحزم أن يتفق معه في البداية ، ليكون له النصيب الاشرف من الفائدة في النهاية ، فكان أول من مدّ يده اليه وواثقه على التعاون في طلب مجلس الشورى، وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري في رأيه ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويلح عليه في الطلب أن يستصدر من الجناب الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب وتخويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في

حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات في أوربا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضي عليه حكومتها، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة، فانقلب إلى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

« كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكري وتسوئة رأي الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا فأري من لدن الباب عرابي وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ ، فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا. مررت ببيت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عرابي وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ل بيك س) وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وان لا سبيل للامن على الارواح والاموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفا من البحث ، فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابي والاستاذ من طرف ، والكاتب من طرف، هما يقولان: ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شوروية، والكاتب يقول: علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين، وان نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وان نبدأ بترغيبها في استشارة الاهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة، وليس من اللائق أن نفاجيء البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشيء قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ويفضي إلى الهلكة، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لان تشارك الحكومة في إدارة شؤونها

(٢٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

فطلبُ ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع ، فلو تم للجند مايسعى اليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي فلا يلبث أن يتهدم ويزول ، وأرى أن هذا الشغب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه الى يوم القيامة ، فتبسم (عرابي) ابتسام الساخط وقال : أبذل جهدي في ان لا أكون مورد هذه اللعنة ، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الاعيان ووجوه البلاد . فسألته : وعلى من تعتمد؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلي بصوت لا يسمعه إلا ثالثنا : ان سلطان باشا قد عاهدني على ان يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا ، ثم انصرفنا

« بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا وأيقن بما وعده ان أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه ، وبذلك يتحول عمله من عصيان غير مشروع الى طاعة للامة غير ممنوعة . فقد تخيل أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الامة ، كأن الامة هي التي استعملتهم ، فالثورة ثورة الامة لا ثورة الجند ، وكل ماتأتي به الامة في سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكراً ولا يستوجب عقابا . هذا هو الحجاب الممزق الذي كان يسدله على أعين الناظرين اليه ، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه ، وبعد أن استحكم هذا الخيال من نفسه أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه ، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه ، وكلما عقدوا عزما على شيء عرض لهم ماينقضه

« كل ذلك والجناب الخديوي بالاسكندرية وهم ينتظرون عودته ، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من ان الجناب الخديوي استمال ألاي الحرس وأميره علي فهمي وعاهده على ان يكون قوة تقضي على من يخالف الاوامر من بقية الالايات ، وقد كانت الاشاعات في ذلك لاتخلو من صحة ، فقد اخبرني المرحوم علي باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في معية الجناب العالي ان افتراق ألاي الحرس عن بقية الالايات واستعداده لتنفيذ مايصدر اليه من الاوامر مما لا ريبة فيه ، وانه عما قليل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة وتباد بهجراثيمها

« عاد الجناب الخديوي من الاسكندرية فى أوائل شهر شوال وبعد عودته بأيام تجلى ذلك الامر الفاصل الذي سمعت خبره من علي باشا مبارك ، فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد ان استمالت علي فهمي ورجاله وأعدتهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم ، استمالت أيضا أمير الالاي الخامس الذي كان مقيما في الاسكندرية بجهة [باب شرقي] فأرادت أن ينقل الالاي الثالث الذي كان مقيما بقلعة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية ، وان يؤتى بالالاي الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر ألايان تحت طاعتها ، والله أعلم ما ذا أرادت الحضرة الفخيمة بعد ذلك ان تفعل بهذين الالايين بعد استقرارهما في مصر

« هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الامر بالحرب والقتال بين الطائعين والعاصين ؟ ما أظن أن ذلك خطر بالبال ، ولو مر ذلك بذهن جنابه لسهل عليه حسم الفتنة ثاني يوم واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت تجول في الاذهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها ؟

« ولما استحكم اليأس من نفس عرابي وظن ان الخطر حائق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثه عابدين بثلاثة أيام

حادثة عابدين

« أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد أحدهما الى ابراهيم بيك حيدر أمير الالاي الثالث الذي كان يقيم في القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بيك مظهر أمير الالاي الخامس ان يبارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الالاي الثالث ، ثم أصدر أمراً الى أمير الالاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم المخافر من ضباط ألاي القلعة عند سفرهم ، فعند ماوصل الامر الى ابراهيم بيك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابي وأخبروه به ،

ففزع لذلك هو ومن معه وهالهم الامر وتمثل لهم سوء العقبى، وأيقنوا ان في ذلك القضاء عليهم. فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط ألاي القلعة بعدم التسليم وبالاقامة في مواقعهم وان يمسكوا من يأتي اليهم من الالاي الثاني للاستلام ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك. وعند ما حضر ضباط الالاي الثاني كتب محمد أفندي الرملاوي ومحمد افندي السيد الى عرابي بما محصله ان اربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الالاي. وأمتعة ابنائكم قد ربطت فاحضروا بنصف الايكم والافنحن قائمون. أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندي الزمر الى العصر ثم يحضر

عند ذلك كتب عرابي «إلى نظارة الجهادية ينبئها بان جميع الآلايات ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان كتب الى جميع الالايات ان توافيه في الموعد وكتب إلى الجناب الخديوي يحيطه بذلك علما. والى قناصل الدول يؤكد لهم ان الغاية من جمهرة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم

« أرسل الجناب الخديوي رضا باشا ليسأل عرابي عن السبب في اجتماع العساكر بساحة عابدين فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد انفاذها. فجاء رضا باشا وعرض الامر على الخديوي فارسل طه باشا ليطلب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة. فكان الوقت قد حضر فقام الالاي بحضرة طه باشا وقام معه ألاى الطبجية. أما الجناب الخديوي فقد توجه بنفسه إلى ألاي الحرس (الالاي الاول) واخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناؤه وحرسه الخاص وينذرهم بعواقب مثل هذه العصبية عصبية الجاهلية فصاحوا جميعاً : نحن جميعا فداء لولي نعمتنا. فعند ذلك امر جنابه أمير الالاي أن يوزع العساكر داخل السراي وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها. ثم استصحب رياض باشا وذهب الى القلعة. وعند وصوله طلب الضباط وسالهم عن الحامل لهم على مخالفة الامر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة فالتفت إلى امير الالاي ابراهيم بيك

حيدر يستفهم منه فأجابه أن [فوده بيك حسن] هو الذي أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم وكان فوده بيك على القرب من رياض باشا فجذبه من طوقه وقال له : مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ وبينما هم في الكلام اذ ضرب أحد البروجية نوبة [سنكي ديك] فأسرعت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق وأحاطوا بالخديو ورئيس النظار وصاحوا « أطلق البكباشي » فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : ألست خديويكم ؟ ألست ولي أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه في ملبس أو نحوه ؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالفتم اوامري ؟

« فأجابوه بقولهم نحن جميعاً مطيعون لاوامر ولي نعمتنا ولكن قيل لنا ان الغاية من الامر بسفرنا هو اغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات فأسف الخديو لذلك وانصرف على ان يذهب الى العباسية لمنع عرابي من المجيء الى ميدان عابدين فبلغه وهو في الطريق ان الالاي قد سبق إلى ساحة السراي فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي

« واول من حضر من الالايات الاي السواري تحت قيادة احمد عبد الغفار ثم ألاي عرابي وألاي الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبري ثم الالاي الثاني تحت قيادة البكباشية لان أميره محمد بيك شوقي أبى أن يحضر معه ، ثم ألاي عبد العال ، وهو ألاي السودان تحت قيادة امير الالاي ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بيك فوزي واجتمعوا جميعاً في مبتدأ الساعة التاسعة حسبما كتب عرابي

« وصل عرابي يقود ألايه ومعه ألاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهر سيفه ويحيط به عشرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له . أنبأه بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك فاستدعى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة

منه للخديو وتدبيراً لحيلة سياسية، ثم أمر بالنداء في الالاي بالنزول فنزلت العساكر جميعاً واصطفت في الساحة مع بقية الجنود

« كانت قناصل الدول ومستشاروا الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراي عابدين وعند ما رأى عرابي أن الجيش قد اجتمع بأكمله ماعدا ألاي القلعة فانه بقي في مقره بأمره — أمر باقامة الخفر على أبواب السراي لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

« أشرف الجناب الخديوي على العساكر وأمر باحضار عرابي فحضر راكباً جواده سالاسيفه محفوظا بضباط السواري يحرسونه فأمره باغماد سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ثم أخذ يخاطبه ,, ألم أك سيدك ومولاك ؟ ألست الذي رقيتك الى رتبة أمير ألاي ؟،، فيجيبه عرابي ,, نعم،، ثم سأله ,, لم حضرت بالجند إلى هنا ؟ فقال لطلبات عادلة ، وهي عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام (الشيخ العباسي) فقال الخديو كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابي ولم يجب بشيء

« ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع إلى داخل السراي خوفا مما عساه يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد، ثم تولى [المستر كوكفن] المستشار الانكليزي في المراقبة الثنائية وقنصلا انكلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابي في مطالبه ومطالب الجند فقال المستر مالت قنصل انكلترا لعرابي ان عزل الوزارة من خصائص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الامة لا الجند، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فان البلاد آمنـة مطمئنة وليس في الامم من يريدها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه ،،

« أجاب عرابي ياحضرة القنصل ان مايتعلق بالاهالي من هذه المطالب لم أنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائباً عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه

العساكر الذين هم أبناؤهم واخوتهم، واعلم اننا لانفارق هذا المكان مالم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها

« قال القنصل تصرح بانك تريد الوصول الى ماتطلب بالقوة وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر إلى بلادك وربما تفضي إلى ضياعها . فقال عرابي وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شؤون داخليتنا ؟ ولئن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل مالدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فنائنا عن آخرنا . فقال مالت وأين تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟ فقال أستطيع أن احشد في زمن قصير مليونا من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فان كانت دولة انكلترا هي التي تستعد لخصامنا فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضي على حياتها فيه، فقال القنصل وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك ؟ فقال كلمة واحدة أقولها ، فأجاب مالت: ماهي؟ فقال عرابي أقولها عند اليأس والقنوط

« ثم انقطعت المخابرات بين الجناب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم وظنوا ان من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحربا تنتشب ، ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضى باجابة عرابي إلى مايطلب لكن على شريطة التدريج في التنفيذ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ماعرض عليه واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر فجاءه الخبر في الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للنظار ومحمود سامي باشا ناظرا للجهادية فقبل شرطه وانصرف العساكر

« استدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار فتردد في ذلك أياما لاحساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة اذا استمر الجند على مناوأته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب و استعداده عند الابطاء في موافاة مطلبه الى إحاطة كرسي الحاكم بالسلاح ،وتهديده بالوثبة عليه،اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه،وظنه ان دولتي

فرنسا وانكلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا ويهمها أن يبقى في مسند الوزارة، فاذاتولاهاغيره خشي أن تنصباله المكايد وتقيما له العثرات في سيره، ولسابق علمه بالمخابرات التي كانت بين الضباط وبين الآستانة وبما في بعضها من الثناء عليه وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض فرياض باشا هو ممثل النفوذ الاجنبي في مصر وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ويخشى أن تظهر الحوادث عجزه عما يؤمل فيه

« كان شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة ، كان من القائلين بأن النفوذ الاجنبي قد بلغ حداً لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للاجانب في كل مايطلبون . كان شريف باشا يقنع جلساءه بانه اذا ملك فيها أو قف الاجانب عندحدودهم وسار بالوطن شوطا عظيما في مجده ، كان هو ورؤساء الفتنة يتراسلون ويتواعدون، ولهذا طلبوه رئيسا للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه ، كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ،وجمالها يخدعه وهو منها على موعد حتى اذا دنا منها ألفاها شكسة شرسة

إنتهى مالخصناه مما كتبه الاستاذ الامام من كتاب (الثورة العرابية) الذي لم يتمه وهانحن نثبت ما كتبه المحامي الانكليزي الشهير (المستر برودلي yəldaorB . M) في كتابه (كيف كان دفاعنا عن عرابي How we defeuded Oradi) في ترجمة الاستاذ وهو نفسه الذي تولى الدفاع عن الاستاذ الامام ، وفيما كتبه ترجمة اللائحة التي كتبها الاستاذ الامام دفاعاً عن نفسه (أنظر ص ١٤٩) قال — :

الشيخ محمد عبده

الامام الصحفي — المحرر — (*

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين وقد أثر في الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً لانه كان كاتباً لطيفاً، وعالما بالعربية ضليعاً، وخطيباً فصيحا يعمل في القلوب . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الرأي العام عاملا حقيقياً في الترقي المصري . ولم يكن متعصباً ذا خطر أو متهوساً في الدين، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد . وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر، وكان رئيساً نشيطا من رؤساء الرازة ووطنيته التي لا شائبة للانانية فيها هي التي منعت بعض رفقائه المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة استياءاً علنيا، حتى ان عرابي باشا صديقه قال مرة « ان رأس الشيخ عبده أصلح لقبعة منه للعمامة»

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلا للقوة العقلية العظيمة التي تلبدت عليها سحب من ضعف البنية والاخلاق مدة من الزمن. والظاهر أن عقله وجسمانه معاً سحقا سحقاً لا أدل بشفائه بعد انفعاله الشديد الناشيء عن الآمال الضائعة وغصص القنوط (١) . وقد سجن وأهين في السجن مثل رفقائه لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمة اذا قيست بأخبارهم . والظاهر أنه

*) هذا الفصل ترجمة ما كتبه مستر برودلي تحت هذا العنوان

١) أخطأ هذا المحامي الانكليزي في قوله : ان الشيخ قد سحق جسمه وعقله من غصص القنوط . فقد دلت قصيدته التي نظمها في السجن (ص ١٥٠ من هذا الجزء) وكتابه المطول الذي نشرناه في جزء المنشآت من هذا التاريخ (ص ٥٢١ ج ٢) على ضد مازعمه هذا المحامي وهو أن المصائب لم تذهب بأمله ولم تزد أخلاقه إلا كمالا ثم ثبت هذا بسيرته بعد السجن في منفاه وبعد عودته الى وطنه أي في سائر عمره . ولكن أكثر الافرنج لايستطيعون أن يقدروا الشرقي الكامل حق قدره

لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا في أواخر أيامه في السجن — حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التي سعينا لاستحقاقها . . وكاد يتعذر علينا في بعض الاحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الايضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التي كان قد أرسلها إليّ المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط . وكذلك يتعذر على البريطانيين وهم في بلادهم أن يفقهوا الانحطاط الاخلاقي التام الذي يفعله الفشل مع التهديد والتعذيب في نفوس المصريين حتى في أقواهم عقلا وأجرئهم أدبا [١] . ولا شك في أن مرتب الزيارات الليلية المنزلية للمعتقلين السياسيين بعد نقلهم للسجن المصري كان شاعراً بمقامها وشأنها في نظر الشرقيين وعارفا قدرها من حيث النجاح في المرافعة القادمة . إلا أن هذه الزيارات أدت الى نتيجة مضادة كل المضادة للغاية التي وضعت لها

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة في الدفاع عن نفسه بلغة عربية فصحى كانت باعتبارها عملا أدبيا إيضاحا عظيما نور أفكار ترجماننا (المستر سنتلانا) لكني أراها ويا للأسف قريبة جداً من نوع الاعتذار [٢] والنقطة التي يستند عليها استناد النبهاء الحكماء هي من حيث الشريعة والصناعة تكاد تكل دونها الابصار. وكان سلوكه في رواية الثورة المصرية من أولها الى آخرها سلوك التابع الطائع المخلص [٢] وأصبح قبل أن رفع الستار محرراً للجريدة الرسمية وأظهر في هذه الوظيفة من أولها الى آخرها الطاعة لأوامر من تقدموا عليه بالحق الواحد تلو الآخر [٢] ولا تصير اخباره لذيذة إلا حينما تتصل بآرائه وتجاربه الخاصة . أما مايختص بقيامه بواجباته العامة فان المسوغ الذي استند عليه هو طاعته التامة للعمدة من ذوي الاقتدار، ويتحول

---

(١) يقول مؤلف هذا التاريخ : ان هذا المحامي قد تعذر عليه وهو في مصر مازعم انه تعذر على قومه في بلادهم. بل كان أجهل منهم فيما ادعاه من فقه ما أثر التهديد والتعذيب في نفس صاحب الترجمة . فكان جهله مركبا لانه يحسبه علماً وفقها . وكذلك شأنه في كثير من القضايا التي استنبطها من تقريره كما يعلم من مقابلتها بما في هذا الجزء من تاريخه (٢) قضايا باطلة ، وقد علم مما تقدم انه كان مسيطرا على الحكومة كلها حتى رؤسائه فيها

محور دفاعه عن سلوكه الوطني الى قضية منطقية مبتكرة مقنعة كما يأتي :—

« ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، وقد أصبح سلطان باشا ذا لقب «سير» وحصل أيضاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة وأهلا لثناء عليها. إذن يكون سلوكنا كلينا أهلا للثناء عليه . فلماذا ياترى أزجّ في السجن منتظراً محاكمتي على وطنيتي بينا يصبح سلطان باشا حائزاً رتبة الشرف الانكليزية وحاصلا على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ؟ » [١]

« ان ماذكره الشيخ من شدة الارتباط بين سلطان باشا وعرابي باشا فصل مهم في تاريخ الحركة الوطنية. وقد كانت آراؤه الى يوم عصيان عابدين مخالفة كل المخالفة لآراء عرابي المعتبرة عنده مثلا لآراء عسكرية صرفة ، ويقول ان الاجتماعات العامة المتنوعة التي عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برآسة سلطان باشا حوّلت في الحال مقام عرابي من قائد جيش الى قائد مصر . وإليك ماقاله الشيخ :—

«وحينئذ أصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابي» إلى آخره » وهاك ماكتبه الشيخ عبده في حوادث الحرب :—

«هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفا بعد أن آزره رجال من جميع الاجناس والاديان فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون انجدته بحماس غريب و بكل ماأوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز ؟

«اني لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره — وقد رسخ هذا الاعتقاد عنـد ماعلم الناس أنه أقال عرابي من منصبه لانه لم يمتثل امره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاءاً لنزول غزاة من البحر

« وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرءون البخاري في الازهر ومسجد سيدنا الحسين

---

١) في مذكرات الاستاذ الخاصة بحوادث الثورة بيان لسبب مانا له سلطان باشا من اللقب والمكافأة وهو خيانته لوطنه وخدمته السرية للانكليز كما سيأتي : ولا ندري أكان في مذكرته التي قدمها للمحامي شيء من ذلك كتمه المحامي أم لا ؟

ويدعون بالنصر لعساكر عرابي والهزيمة للانكليز — وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الابياري في طليعة الملتهبين غيرة ووطنية، فنشر قصيدة ابراهيم دريد في غارة التتار على بغداد في أيام الخليفة العباسي المعتصم، وهي عبارة عن دعاء وابتهال، وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخاري. وقد طلب إليّ أن أنشرها في الجريدة (الوقائع) حتى يطلع عليها الجيش أيضاً — وقد كان عمله هذا مشروعا إذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب إسلامية ضد الكفار — وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته—

« وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية — حتى النساء — بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش — وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية في جمع الميرة المطلوبة وحشر المتطوعة للجيش ولسائر الا عمال العسكرية —

«وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير اسيوط في ذلك الزمن ورئيس شرطة (بوليس) العاصمة الآن بضعة ألوف من ارادب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية — وهاهوذا كما قلنا آنفا (رئيس بوليس العاصمة) بأمر الخديو

« وهذا شأن خليل بك عفت الذي تعين مديراً بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل في الجريدة الرسمية — وهاهوذا نراه الآن مدير المنيا بامر الخديو

«وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلي اموالهم بسخاء في سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم :

البرنسس جميلة	اخت الخديوي وحرم المرحوم سعيد باشا
خيري باشا	الامين الاول
علي باشا مبارك	وزير الاشغال العمومية الآن
يوسف باشا جدي	احد اعضاء لجنة التموين

محمود بك — كاتب (أو أمين) أسرار الخديو
علي حيدر باشا — وزير المالية (الفعلي)

« وأسماء هؤلاء وردت في أعداد الجريدة الرسمية . واذا كانت سجلات المديريات لاتزال موجودة فيمكن استقراء ماتبرع به كل واحد منهم بالتحديد

« وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانكليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون في المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابي وفي أي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا »

. . . .

[قال المحامي]

وكتب الشيخ محمد عبده بعد حين مذكرة في حوادث الاسكندرية التي حدثت في الحادي عشر من يونيو كانت هي وعبارتان أو ثلاث على نمطها سبباً لامتعاض شديد ، ربما لايرجح تحقيق الحق وابرازه، لكن ثمة مسألة في البحث ناصعة لاريب فيها ، وهي أن مثل هذه المصيبة التي نزلت كانت مخالفة كل المخالفة لمصالح عرابي المهمة ، وتكاد تكون بالنسبة اليه فشلا سياسياً وخذلانا قومياً تاما، واذا كانت قدتمت باشارته فانها تعد حينئذ انتحاراً أدبياً حدث عمداً ، على أن نتائج هذه الحادثة من الجهة الأخرى تكون ربحا عظيما لاعدائه ، ويتخذ هذا الموضوع شكلا مختلفا جدا باختلاف النظر اليه من الوجهتين السياسيتين المتباينتين ــ السياسة الغربية والسياسة الشرقية ــ فالاولى تعتبر العمل السائق الى المذابح بل المحرك على تجمهر الغوغاء جناية لاتغتفر، على حين تعتبره الثانية جائزا ، أو ربما حسبته «نقلة» في الشطرنج السياسي حاذقة ، وبعد ما أصبح عرابي الحارس المسؤول عن الأمن العام لا باختيار مصر وحدها بل برضا أوربا كلها رأى الشيخ عبده بصورة واضحة ان سياسة الخديو ورجال قصره في سلب الثقة به هي سياسة موت أو حياة لهم، واعتقد انهم لم يحجموا عن التوسل بهذه الوسيلة المشتبه فيها كثيرا للقضاء على خصمهم المفرط في النجاح

والقوة . ويوجد رجال آخرون ذهبوا هـذا المذهب أيضاً وصرحوا به . وإلى القراء ماقاله الشيخ محمد عبده

« لما وقع الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامي باشا شاع في القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً في نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت في ذلك طول مدة قيامها باعبـاء الامر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه ـ ففعل ـ وبالغ الخديو في حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوي وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم ولكنه تعذر على المشايخ حشد العـدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر ـ ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافا رمزيا (شفره) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه:

« قد ضمن عرابي أمر الامن العام ونشر ذلك في الصحف وجعل نفسه مسؤولا لدى القناصل واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا ـ أما الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا »

« وفي يوم هذه الحادثة توجهت الى السراي فرأيت موظفيها في جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون في رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الامن العام ـ ومن المعلوم ان موظفي السراي لايقولون إلا مايسر الخديو ، فاذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم ـ

« وبعد ١٢ يوما من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ (عمر لطفي) سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت ـ ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع أنهم كانوا على مقربة منه ـ وأجمع الناس على ان عمله هذا موعز به من الخديو ـ وعلمنا أيضاً انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر واذا بأوربي في شباك وفي يده

مسدس فقال أحد البدو : أأرمي هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له « ارمه » فأطلق البدوي عليه الرصاص فقتله — وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه في ذلك اليوم الاسود —

وقد سمعت أيضاً انه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى البوليس [المستحفظين] أن لا يتداخلوا قائلا « دعوا أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت للنظر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقا ، بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستعفي بدعوى المرض

« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة وقد أهمل امر القيام بحفظ الامن العام على انه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم نقل انه هو المحرض عليها ـ فاذا كان فعل ما فعل إطاعة لامر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته تابعة رأساً إلى الخديو ـ لان الخديو أصدر أمراً مخصوصا صرح فيه انه بعد استعفاء وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها الى السراي ـ فكيف نعلل تعيينه (أي عمر لطفي باشا) وزيراً للحربية جزاء لطاعته لعرابي وعصيانه لسيده الخديو ؟ واذا كان الامر اهمالا منه فكيف يصح مع إهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيراً للحربية ؟ ولماذا لم يسئل سؤالا واحداً عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسئل ؟

« لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أتم الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة — أي مذبحة الاسكندرية اه

هذا وان الحذر والاحجام البادبين على الشيخ دائما يزيدان في قيمة تصريحه وهي قيمة لا أكاد أضعها على تصريح يقوله اي رجل من درجته . وما لم يحدث انقلاب جوهري في الحالة الاجتماعية المصرية فان حل لغز الحادي عشر من يونيو يبقى مستحيلا ، وكل التصورات التي تحوم حواليه تبقى أبداً من باب التخمين والترجيح على انه يصعب علينا ان نقول ان رجلا كالشيخ عبده وضع لكتابته التي شكا فيها من البصق عليه في الحبس مقدمة معتبرة أهداها لسمو الخديو يذهب هذا المذهب النظري ما لم يكن مطلعا أشد الاطلاع على المعميات في دسيسة « السراي المصرية »

وانني أشهد شهادة عرفتها بنفسي ان جماعة آخرين: أثبتوا هذه الرواية ولم يكن لهم اتصال ممكن بالشيخ

وفي مساء اليوم الاول من يونيو سنة ١٨٨١ ودعت في الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منفياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . وعلمت منذ ذلك الحين نه يعيش عيش الفقر والشقاء في بيروت [هذا غير صحيح كما يعلم مما يأتي في هذا التاريخ]

وإذا جاز لمصر ان تسير منفردة أو يكون لها بداءة خير يوما من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر

[المؤلف] هذا ما كتبه محامي العرابيين الانكليزي في كتابه وكنا نود أن نقف على تقرير الاستاذ الامام الذي ذكره المحامي بنصه العربي الاصلي، ولكننا نفهم من هذه الترجمة عين ما فهمه المحامي الانكليزي لدقة ترجمته ، ويمكننا أن نجزم بأنه أخطأ فيما فهمه من التقرير من انه أريد به الاعتذار لما اعترى كاتبه من ضعف النفس وشدة اليأس ، ليس الكلام اعتذاراً عن نفسه ولا تنصلا من عمل عمله وندم عليه ، وإنما هو إقامة حجج وبراهين على ان مؤاخذته وحبسه مع زعماء الثورة ومحاولة الانتقام منه انما هي إغراء من الخديو توفيق باشا به لانه يكرهه كراهة شخصية من حيث هو خليفة السيد جمال الدين في نشر الافكار الحرة ودعوة ترقي الامة في مصر . وكان الخديو يعلم انه كان خصما لعرابي وحزبه العسكري إلى ان أصبح عرابي صاحب الامر والنهي وقائد الجيش الوطني المدافع للاجانب عن البلاد . وفي هذه الحال لم يكن له أن يقاوم عرابي إن استطاع وأنى يستطيع؟

اذا كان هذا الرجل قد لز مع زعماء الثورة لانه منهم فلماذا ترك سلطان باشا؟ بل لماذا كان أقرب المقربين الى الخديو والانكليز جميعاً وهو الزعيم الاكبر للثورة بعد عرابي أو معه أو قبله؟ هذه حجة بالغة أراد الاستاذ أن يلقنها للمحامي البارع فلبسها

مقلوبة كما يلبس الفرو ، وكأنه توهم عن فهم أو عن غير فهم ان الشيخ اعتذر بها عن نفسه،وأحب أن يكون من الخديو والانكليز في مكان سلطان باشا ، ولو انه كاشف المحامي بكل ما يعلمه من خيانة سلطان باشا لما كان لذلك التوهم الى عقله من سبيل

خيانة سلطان باشا لمصر

كان الاستاذ الامام يعتقد ان أكبر المصريين خيانة لوطنهم سلطان باشا ويليه في الخيانة عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية في ذلك العهد ، سلطان باشا كان موقد نار الفتنة ومحضاء نارها، حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب بين أهل وطنه بتحريضه وبين الانكليز نكص على عقبيه،وكان أكبر مساعد للانكليز على قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الاغنياء ، وأما عمر باشا فهو الذي مهد السبيل لمذبحة الاسكندرية ونهبها ليقيم الاجانب الحجة على عجز عرابي عن حفظ الأمن كما جاء في آخر ما نقله المحامي الانكليزي عن الاستاذ آنفا وأقره عليه وعلى سببه،وهو انه تنفيذ لارادة السراي وسيأتي بيان ذلك نقلا عن مذكرات الاستاذ اليومية المحفوظة عندنا بخطه وفيه النصوص الصريحة بتعمده لذلك ، وبأنه كان يمكنه أن يمنع الشر ، ويحفظ الأمن ، وبأنه طولب بذلك فامتنع بل كان هو الذي طلب من قائد الاسطول الانكليزي التدخل بقوته العسكرية . وهو انما كان عبداً مأموراً ، لذلك كان سلطان باشا شراً منه لانه كان منافقا مذبذبا

والذي زاد في استياء الاستاذ من أعمال سلطان باشا غير الخيانة انها كانت على عكس أعماله هو ،فالاستاذ كان ينهى عن الثورة ويسعى لمنعها الى أن نزل الجيش الاجنبي في البلاد محارباً لأهلها حينئذ صار عوناً لهم على قتال عدوهم ، وسلطان كان داعية الثورة وزعيمها، وعدو أمير البلاد المحرض على قتله واتهامه ببيع البلاد للاجانب — الى أن جاء الاحتلال الاجنبي فصار نصيراً له وعدواً لوطنه وخائناً له يشتري به ثمنا قليلا .

(٣٠ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

﴿ مذكرات المترجم في الثورة العرابية ﴾

كان لدى الاستاذ صاحب الترجمة معلومات واسعة لم يتيسر لغيره الاطلاع عليها ، اذ كان على امتيازه بالذكاء والفطنة مديراً للمطبوعات ، ومفوضا من الحكومة بالاطلاع على كل شيء ، وكان لديه مذكرات عن الاحداث والوقائع ، يمدها اذا شاء أن يكتب بما يحفظه حفظا كما يرى القاريء مما كتبه في أسباب الثورة العرابية • وقد اطلعت على دفتر جيب له بخط من هذه المذكرات كان يكون من مادته لو أتم كتابه هذا ، فرأيت أن أثبته في هذا التاريخ ، والظاهر انه كان تابعا لدفتر قبله ، وفي أوله تقديم وتأخير في التاريخ ، ووجدت ورقة مفردة من هذه المذكرات سابقة التاريخ على ما في دفتر الجيب المذكور مبدوءة بما يدل على انها تابعة لشيء قبلها . وهذا نصها بخطه منقولا بعكس الاشعة

وهذا بيانها

سلطان باشا

فهذا الهمام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهبها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها عند ماخاف أن يلذعه لسان لهبها = جاء في آخر الامر نائباً عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الابرياء وغيرهم . نال المكافأة [١] من الجناب العالي بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها، ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولا وآخرا

إلا أن العدل الالهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ماصدر منه أول الامر وآخره (يوم يعض الظالم [٢] على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) وكما ان العدل (الالهي) سيأخذه بما قدم من عمله، أظن ان محاكم العدل والانسانية تبين له خطأه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الامر

في رمضان سنة ١٢٩٨ دعا شريعي (باشا) للتوجه معه الى الخديو لطلب مجلس النواب، فامتنع ونصحه بأن لا يسعى في ذلك (حاكي الحكاية سليمان أباظه وكان فيمن دعاهم لذلك)

قال سلطان فى بيت علي باشا مبارك بحضوري : ان مصر يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري فتحارب أي دولة كانت . وأجابه علي (باشا) بعدم كفاية المالية ، وانتهى الامر بقوله « نسمع المغني أحسن »

علي باشا رأى الضباط يهربون من أودة (أي حجرة) إلى أودة في بيت سلطان ، وحكى لي الحكاية ثلاث مرات

---

١) أنعم الخديو توفيق باشا على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المالية جزاء إخلاصه كما في كتاب (مصر للمصريين) وهل هذه هي المكافأة التي عناها الاستاذ أم غيرها؟ فهنالك مكافآت (٢) الاستاذ لم يكتب تتمة الآيات هنا الخ

جاء شواربي (باشا) عند محمود سامي (باشا) وهو ناظر الداخلية وقال ان جميع النواب متكدرون من تعيين فريد باشا مأموراً للدائرة البلدية

تكدرت النواب جداً لاني أشرت بانتخاب سليمان باشا أباظه وكيلا للداخلية وذكر لي ذلك أحمد محمود فتبت على يديه الخ

تعدى مجلس النواب ماضرب له من الحد، وتذاكر في إبطال مصاريف الابراهيمية، معانها داخلة في إيراد مديرية اسيوط المرهونة للدين الموحد، وردت المالية القرار، ثم حكم المجلس بتوقيف الاطباء الذين كانوا في الكورنتينة بناء على عرضحالات قدمت اليه، وظن سلطان أنني الذي أبين هذا الخطأ للنظار مع انه كان بحيث يفهمه الصبيان، فاشتكى سلطان باشا الى ناظر الداخلية مني، وقال له قل للشيخ محمد عبده لايبدي ملحوظات على محاضر النواب [1]

كتب سلطان وهو رئيس النواب كتابة رسمية يطلب فيها من إدارة المطبوعات أن تعترف أن جريدة الطائف هي لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الادارة بذلك تنفيذاً لامره، ونشر ذلك رسمياً بامر ناظر الداخلية (وزارة سامي)

ثم إنني عطلت الطائف [2] شهراً لتهييجه، ومع ذلك لم يكتب الباشا ماينقض ما كتبه أولا، وهو الذي حمل النواب على الاشتراك في ذلك الجرنال، واكتتبوا له بمبلغ كبير

إشارتي بعدم الاهتمام بمسألة الجراكسة — تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك في الحوادث ماعدا الجانين في مذبحة الاسكندرية — وقبول الخديو وصدور العفو —

---

(١) يعني في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية)

(٢) جريدة الطائف كان يصدرها السيد عبد الله نديم المهيج الشهير بمقالاته وخطبه، حدثنا أحمد فتحي باشا زغلول قال كنت في عهد الثورة تلميذا في مدرسة رأس التين الاسكندرية فبلغنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور في مكان كذا، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ماخلاصته: إن طوابي الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الاستانة اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر - فكيفما جالت الاساطيل الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا - فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له ! ! !

يوم الحرب ذهبت للتكلم مع ناظر الداخلية في طريقة نشر جريدة المونتيور الفرنساوية الرسمية لسفر محررها . اه

﴿هذا كل ما في الورقة المفردة وهو عناوين كان الغرض منها تفصيل الكلام فيها في فصول تفيد العبرة بها واليها مذكرات الدفتر أسردها بنصها الا انني أضع لها أرقاماً تضبطها بالعدد﴾

(١) الدائنون يريدون أن تدفع لهم الفوائد على فداحتها فعدل سير الادارة على أن يؤدي الى هذا الغرض . ورسم على المصري أن يخضع لاستبداد إداري مختلط ، بل هو في الحقيقه أوربي لا شائبة للعدل فيه ، وهو الاستبداد الذي اقتحمه الخديو المعزول

(٢) كل الامم من كل الاديان تغتني من عمله (أي الفلاح المصري المشار اليه في الجملة الاولى) وعلى نفقاته وهو في ذلة الفقر والفاقة

(٣) ما يقصر من أداء الديون من الدومين والدائرة السنية يوفى من الخزينة (تدبير ولسون)

سنة ١٨٨١

(٤) في أواخر سنة ١٨٨١ قصد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام في مصر مع انه لم يكن حصل فيها شيء وكان ذلك في وقت المخابرة بين فرنسا وانجلترا في عقد معاهدة تجارية

(٥) البارون درنج رأى الفرصة مناسبة لتقرير نفوذ فرنسا في وادي النيل لكنه لم ينجح في إعداد المراقبة الثنائية لقبول خلع الخديو وإيجاد نظام جديد وكان قد عرض على حكومته خطر استقلال المراقبة الثنائية وخطر مركز الخديوية (لعل غمبتا قنع بما قاله درنج أخيرا)

(٦) في ٤ فبراير سنة ١٨٧٩ نشر منشور ضد رياض باشا طبع منه عشرون ألف نسخة وفيه مطالب وطنية ، ولم يعثر على ناشره وكاتبه . ونسب الى الجمعية التي تألفت لمعارضة رياض باشا (جمعية حلوان) شريف . شاهين . عمر لطفي .

راغب . ويقال ان سلطان باشا كان فيها

(٧) يقول شريف باشا بعد حادثة عابدين انه لايقبل الوزارة حتى تكون لديه ضمانة تكفل انه لايعتدي الضباط أو الجند على النظام مرة أخرى — كأنه لم يعلم بسير الفتنة مع انه كان من مدبريها

(٨) حصل سلطان باشا على عرائض ممضاة من الاعيان والعلماء قبل حادثة عابدين وأطلع عليها عرابي وأبى عرابي إلا أن تكون تحت يده ، فهرب سلطان الى المنيا ، وبعد الحادثة ظهرت العرائض والمحاضر

(٩) لم يبق داع لبقاء أديب (إسحق) في أوربا ، فألغيت (جريدة) القاهرة وأعيدت على هيأة جديدة وفي موضوع جديد ، وكوفىء محررها بتعيينه رئيس قلم ترجمة أولا ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد ذلك

وصاح الخديو عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح : « الحمد لله الذي خلصني من رق شخص كنت أبغضه »

خلاصة خطاب سياسي لعرابي

(١٠) لم يذهب عرابي الى رأس الوادي إلا بعد أن صدر الامر بتشكيل مجلس النواب على طريقة جديدة . وقد كان الخديو حاول أن يستدعي أعضاءه على مقتضى النظام القديم فأبى إلا نظاما جديدا ، وعند سفره ألقى على مودعيه خطابا طويلا شكا فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ويؤمنه من الاستبداد . وصرح فيه بأن الخديو والنظار ومن على شاكلتهم كلهم لايميلون إلى مساعدة الأمة على ماتطلب، وبأن أعداء الامة هم الدائنون ومعاونوهم من الاجانب ، يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال والاستئثار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين . وانما الحق ان هناك شعباً يطالب بأن يكون على اثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والاموال

تواطؤ فرنسة وانكلترة على المصريين

(١١) قال غمبتا في محادثته مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب « قلبي ممتلىء رعبا ، ليس من الممكن الحزر والتخمين على ماعساه يقرره مايسمى بالحزب الوطني ، من الجائز أن يعمد الى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الاوربيين ، لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين ان انكلترة وفرنسا لايمكنهما أن تحتملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات » [١]

اتفاق غمبتا واللورد ليون من التعصب إذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا واليونان مع كثرة ديونهما وانهما أحط شر ، (؟) في الوفاء من مصر

سنه ١٨٨٢

(١٢) في ١٢ يناير سنة ١٩٨٢ سأل اللورد غرانفيل مالت: اخبرني بالتلغراف ماهي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ماقررته الجمعية العمومية والشروط التي تطلبها ؟

فاجابه في ١٣ منه

مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لانها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي ، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من موظفي الاوربيين في الادارة المصرية

(١٣) قال مالت (في دسمبر سنة ٨١) اذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة سطوتها في الامور المالية

(١٤) في ١١ يناير سنة ١٨٨٢ قال مالت. انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شوراهم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أن يكون تداخل وهو آخر ماينتهي اليه العمل

(١) ليعتبر المصريون والشرقيون عامة بهذه الاثارة التاريخية

مقاومة فرنسة وانكلترة لمجلس النواب في تقرير الميزانية

(١٥) سلطان اكد لقنصل انكلترة أن النواب لم يوافوا الا آمال الشعب وليس من ضغط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافي رغبة الاهالي فاجابه : لاانتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما في ذلك من الخطر وما تمولونه ومايطلبه النواب لاطريق لنيله الاالقوة واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انكلترة وفرنسا فيما يتعلق بذلك

(١٦) في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣٦٢٣٠ تلغراف من مالت في ٢٠ يناير سنة ٨٢ اذا تمسكنا بابائنا على مجلس النواب ان ينظر في الميزانية كانت المداخلة العسكرية امرا اضطراريا فان اصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد للثورة

(١٧) في ١٧ سنة ٨٢ يناير قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين : إن الاوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي فرنسا وانكلترة فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه في الميزانية وعدمه وهما لاتسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تنقيص عدد الموظفين الاوربيين وفي ١٧ منه امضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين [١]

(١٨) في ٢ فبراير سنة ٨٢ استعفى شريف وعين محمود سامي

(١٩) مجلس النواب قرر تعيين لجنتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الاوربيين، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس،وقد رفض موسيو كاليار مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله

(٢٠) وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى

---

(١) ليعتبر بهذا كله من يمكنون أي أوربي من الدول الاستعمارية من أي منصب أو عمل في بلادهم وخلاصته أن هؤلاء الموظفين يعملون لسلب استقلال البلاد بطريقة ادارية سلمية حتى اذا ماعاقهم عائق برزت القوة العسكرية من ورائهم تؤيدهم

(روفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالا في أن يصلوا بالطفرة الى مايقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لايحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن ان كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الاهالي بالاحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلاصهم

(٢١) غوردون باشا يكتب الى التيمس في يناير سنة ١٨٨٢ :

يقال ان مصر تسرع في الغنى والسعادة وانه (كذا) فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانة الدين فانها اليوم أوثق اما المحبوس (السجون) فغاصة بأولئك المساكين من الفلاحين

مسألة الشراكسه وغش القنصلين للخديو

(٢٢) في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة فأرسل الخديو (الحكم) إلى الآستانة فطلب السلطان الاوراق. وكان مافعل الخديو بناء على نصيحة القنصلين. ساء الوزارة ذلك وبدأ الخلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة فأشار عليه القنصلان بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة

(٢٣) في ٢٠ مايو — أرسل موسيو سنكوينس (؟) احد موظفي القونسلاتو موسيو مونج عند عرابي ليذاكره في المسائل الحاضرة فكان من قول عرابي ان المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له ، ونقل هذا مسيو مونج الى رئيسه . وعند ذلك ابتدأ القنصلان في المخابرة مع سلطان باشا

وفي ٢٥ مايو قدموا المذكرة التي ذكر فيها ان المجلس بلسان رئيسه نصح عرابي بالابتعاد عن الاقطار المصرية حينا من الزمن

سألت النظارة سلطانا فأنكر

ولكن الخديو قبل المذكرة فاستعفت الوزارة بعد إقامة الحجة على كل ماجاء فيها . لم يقبل أحد النظارة فرجع عرابي ناظراً للجهادية وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها

﴿ ما يتعلق بالمذكرة التي استعفت الوزارة عقبها ﴾

(٢٤) جاء في الكتاب الازرق الانكليزي ان مستر ماليت كتب أولا أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه فان كراهتهم لكل تداخل أجنبي تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول في رسالة أخرى ان المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ماأراده أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بارادته على لسان رئيسه سلطان باشا

(٢٥) يقال ان قنصل الروسيا موسيو ليكس نصح مراراً ان أحسن طريقة لمعاقبة الشره الاوربي كان امتناع الاهالي كافة عن إعطاء الضريبة الخ

لكن كان عرابي ورفاقه يثقون بالدول غروراً ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب موسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ قبل وصول المراكب يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

(٢٦) حصلت مذاكرة في المذكرة التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال: هل يمكن لنا ان نجمع المجلس؟ فأجاب سلطان أظن أن ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فنسأله في ذلك ولا ريب انه يوافق عليه . فقال له أحد النظار : الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام؟ (قبل هذا[1] جاء كلام في الخديو في جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابي وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للاجانب)

هذا هو سلطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا

---

(١) هذه الجملة كتبها الفقيد في حاشية المذكرة لانه تذكرها بعد كتابتها فوضعناها بين هلالين لذلك

مجاملة الخديو — ذلك الخديو الذي لا يبغي إلا بيع البلاد للاجانب(١)
اجتماع مجالس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولابد لنا أن نطلب النواب إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافي ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة الاجنبية فليفعل، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى اليه الخلاف

سلطان رجع عن رأيه الى رأي الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو والقنصلين وفيما اضطر اليه من موافقة الثائرين

(٢٧) يؤكدون أن ضرب الاسكندرية لم يكن خطر ببال الوزارة الانكليزية ولا وضع في مداولاتها إلى الرابع من شهر يوليو سنة ٨٢ وانما وضع بعد ذلك انتقاما من مؤتمر الاستانة وليس من البعيد أن يكون السبب صلات عرابي مع الاستانة

﴿ المشير درويش باشا مندوب السلطان ﴾

(٢٨) مقاصد الاستانة من إرسال درويش باشا (١) إطالة زمن المخابرات (٢) أن يطمئن قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو (٣) أن يستمال قلب عرابي واخوانه بطريقة أبوية الى زيارة الاستانة قصد التنزه على شواطىء البوسفور (٤) تقرير سلطة الباب العالي بمصر . وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت من هو أقوم من درويش الخ

(٢٩) درويش يذكر بسلطة السلطان ويثني على الخديو وينصح بالخضوع للنظام . واذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول ويقتصر على قوله ان السلطان مولانا وأبونا وهو الذي سينظر في ذلك

(٣٠) أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابي من قبله يعقوب سامي ، وقد حصل خلاف بين الرسالتين في المركب (الباخرة) عند المقابلة لتكدر ذو الفقار . لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

---

(١) أي بحسب رأيه . فيقابل هذا وأمثاله بما ذكره مستر برودلي المحامي عن الفقيد في سلطان باشا ليعلم انه رحمه الله تعالى لم يكن حاسداً لسلطان باشا بل كان محتجاً عليهم باتباع الهوى السياسي في ترك محاكمته وهو أساس الفتن كلها

جاء الاسكندرية في ٦ يونيو وسافر إلى القاهرة في ٨ منه

(٣١) أقوال بعض العلماء في إظهار مطاليب في رأيهم وتصريحهم لدرويش بما يجب أن يفعل أغضبه ، ومن ذلك الوقت مال الى توفيق فلما أحس بذلك (أي الخديو) أرسل اليه ما يزيده إقبالا (*)

(المحاورة المهمة بين درويش باشا التركي وعرابي باشا ومحمود سامي باشا)

(٣٢) في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درويش باشا عرابي ومحمود سامي لأول مرة فجرى الحديث بينهما على ما سنذكره

(قال درويش) نحن جميعاً رجال جند يحترم بعضنا بعضا وأنتم اولادي لمكاني من السن . وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته المصرية العزيزة ، وستسهلون عليّ هذا العمل ، انا اعلم شكواكم ستشكون [1] صبراً قليلا ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدونانمتين [2] اللتين تضايقاننا جداً، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما، هذا ماأتكفل به لو عضدتموني فيه، انا ارى جيداً من جهة وقع الخطأ ليس الخطأ من قبلكم، يجب التوسل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة

ثم التفت الى عرابي وقال له : أنت أنت وحدك الآمر الناهي في مصر . أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ماأغضب الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهلة معهن . وما بقي بعد هذا عملنا فيه بيننا وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث إني مشير مرسل من قبل السلطان، وكن نائبا عني مأمورا تحت قيادتي، لكي تسهل عليّ المخابرة مع الاجانب عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم

(*) أي أرسل اليه رشوة قدرها خمسون ألف جنيه وحليا قدر ثمنه بخمسة وعشرين ألف جنيه

(١) تشكون بضم التاء وفتح الكاف أي ستقبل شكواكم و يزال ماتشكون منه

(٢) العمارتين من الاساطيل الانكليزية والفرنسية اللتين في الاسكندرية

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعرابي يسمعه ، ثم قال

(عرابي) مشروعكم هذا في غاية الحسن ، وانا نختاره مع الشكر ،لست حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها الي . هي سلطة غير مغتصبة ، الامة هي التي أفضت الي بها ، فالواجب ان ينظر الى الامة ويفكر في شكواها

أعترف بأن يديك ابرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا الآن . سيفي ووظيفتي تحت تصرفك . انا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك انما اشترط شرطا واحدا : أعطني باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ماجرى الى الآن، كائناً ماكان،سواء كان ذلك مني أومن إخواني ، وحيث إني تعهدت للقناصل بحفظ الامن في الديار المصرية وتحملت ثقل ذلك على كاهلي فأرجو ان تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة

أطلب ذلك لان الاحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنافيها صنيع وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين

مالت وكولفني وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك في بلادنا وهم الاجانب الذين لايحترمون لناشيئا ونحن نحترم لهم كل شيء

فوعده درويش بانالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رياسة الخديو . وانما طلب أن يعلن هذا القول الذي جرى بينهما من قبلهما جميعاً وطلب من عرابي أن يكتب إلى الاسكندرية ذلك بالتلغراف فأبى عرابي أن يعلن شيئا إلا بعد أن ينال ذلك الامر المخلص له من كل تبعة

(استعداد الاوربيين وتسلحهم استعداداً للمذابح)

(٣٣) مسألة تسلح الاوربيين وإيهام موسيو كوكسن ان حوادث ستحدث (*

(٣٤) مالت أخبر حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربي (كودار بك) ان محمود سامي وعرابي دخلا ثاني يوم استعفاء وزارة سامي والسيف في يد كل يهدد الخديو بفقد حياته

(*) كوكسون هو قنصل الانكليز في الاسكندرية

(٣٥) سمع مكاتب التيمس من عرابي قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القتال مالم يخرق العدو حرمة البلاد وإلا هدمه ،ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب

(٣٦) أكثرت الجرائد والتلغرافات من الاشاعات التي أفزعت الاوربيين وأخافتهم من المصريين وطلبوا من مديريهم في الاعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح فنهم من أبى ومنهم من أذن

(٣٧) خدمة (لاسترن تلغراف) طلبوا التسلح فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس (الكمبانية) في لندرا فاذن بذلك وسمح بثمانية وثلاثين (لوفلفير) وعائلات الموظفين أرسلت إلى قبرص على نفقة الكمبانية

(٣٨) الاوربيون أصبحوا متأكدين من عداوة الشعب لهم لاحساسهم من ضمائرهم بسوء أعمالهم اليه

بدء المذبحة في الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

(٣٩) ١١ يونيو سنة ٨٢ كان يوم الاحد والقهاوي كانت غاصة بطالبي الراحة من الاشغال الطالبين للهو باللعب والسكر . فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة القزاز في آخر شارع البنات نحو الساعة واحدة بعد الظهر حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي والطرابيزات وأشخاص منهم القائم والقاعد :مالطي يقال انه خادم مستر كوكسن أخذ (ركب) عربة وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل الى خمارة أحد مواطنيه وهو سكران فطلب منه العربجي الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحداً ودخل القهوة (الخمارة) فتبعه العربجي وتبادلت الكلمات بينهما فتناول المالطي سكينا كانت معلقة في مائدة الدكان معدة لقطع الجبن وطعن بها العربجي فسقط لاحراك به ،فاجتمع بعض الوطنيين وحمار من أقارب العربجي وأرادوا القبض على القاتل فجاء يوناني خباز مجاور للخمارة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين من قراقول اللبان

أول من جاء منهم مع المعاون قتـل ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية

ولكن لم يتداخل العساكر في القبض على الجناة فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية)
وكان يكفي لحسم المعركة تداخل المحافظ لو اهتم بذلك لغيبة الضابط لمرضه

وبعد نصف ساعة حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين فتفاقم الخطب لان كلا منهما كان يريد ان يفترس الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في أذهان المتنازعين وانما بقي النزاع

(٤٠) والمسلمون والمسيحيون دخلوا في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصي والبعض بأرجل الطرابيزات أوهشيم الكراسي وبعضهم بالنبابيت اشتروها من المخازن القريبة خصوصا من السوق الجديد

في هذه الحالة رؤي موسيو كوكسون نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عند ماأراد أن يركب

العربة ففر ونجا منهم — وصحبه «عمر لطفي» في أثناء الطريق

(٤١) لم يكن المسيحيون مدافعين بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الغوغاء ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الاوامر المعطاة لهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز

ولم يأت أحد من العساكر ولا من البوليس «ولا المحافظ» لاطفاء النار

(٤٢) على القرب من تمثال محمد علي حيث لم توجد مقتلة وجد نحو اثني عشر قتيلا ليس فيهم أوربي إلا واحد

---

(٤٣) وعلى القرب من زيزينيا رؤي «عمر لطفي» فسأله سائل كيف

تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعنيني . فسأله

لم لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهراً سيفك في خمسين من عساكر

المحافظين وبذلك كان الامر ينتهي ؟ فاجابه انصرف ليس هذا من شانك ، وهل أنت محافظ البلد ؟

وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فسئل ماذا يفعل الضابط ؟ فقال انه مريض وقد طلب من المحافظ مراراً ان يرسل العساكر فلم يفعل (١

(٤٤) سليمان سامي كان مستعداً لارسال العساكر إذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لان الامر بيد المحافظ وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولاجواب على مايظهر

(٤٥) ذهب نينه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابي وكانت الساعة ٤ بعد الظهر

(٤٦) نحو الساعة ٥ بعد الظهر قابله من اخبره ان عرابي ارسل الاوامر لاعادة النظام ، كانت الشوارع غاصة بالرعاع والاوباش يحملون الاسلاب ويصيحون ويسبون وبعد نصف ساعة عاد النظام الى ما كان

(٤٧) لم تقتصر المذبحة على شارع البنات بل وقع ذلك جهة الجمرك وشارع رأس التين وأبو العباس (أيضاً) . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة خلصوا نساء أوربيات وأوصلوهن إلى بيوتهن

(٤٨) يقال ان أخوين انكليزيين كانا مسلحين بلوفرفير (مسدس) ولم يكونا يحسنان استعماله فقتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده

(٤٩) ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين كان ١٦٣ غير من أخفاهم المتشاجرون اذ حملوهم سراً من وسط المعركة

ومجموع ماوجد من جثث المسيحيين أوربيين وغيرهم ٧٥ كثير منهم مصاب برصاص في قمة رأسه (* فمجموع القتلى ٢٣٨

*) لهذا كان عمر لطفي باشا وسلطان باشا أبغض البشر الي صاحب الترجمة رحمه الله

*) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقيه الاروام والمالطيون من أعلى بيوتهم بغير حساب

(٥٠) لم يصل الخبر عرابي الا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفي التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات « المحافظ » حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغرافات « المحافظ »

(٥١) عمر باشا لطفي طلب إنزال عسكر انكليزي لعجز عرابي عن الامن

(١٢ يونيو سنة ٨١)

(٥٢) موسيو كليكن كويسكي القائم بأعمال قونسلاتو فرنسا رجع الى عقله وأخذ في طلب تحقيق عن أسباب الحادثة فصدر الامر في الحال بذلك

وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل . وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانكليز وأبى مندوب فرنسا الحضور (١) وطلب بعض وكلاء الدول شنق عشرين شخصاً من المذنبين وبهذا تنتهي المسألة في رأيه

(١١ يونيو)

(٥٣) جيش صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) لم يمكنه أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن « عمر لطفي » كان يعمل بعكس تلك التعليمات وبعد ذلك عين وكيل حكمدارية السودان بناء على توصية « عمر لطفي » فهل لابعاده حتى لا يشهد أو مكافأة له على المشاركة في الجناية ؟

(٥٤) بعد الحادثة نبه القناصل على الرعايا بالهجرة مع الطلب من كل ان يكتب ماعنده فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ماشاؤا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب وأرادوا أن يربح رعاياهم مايشاءون (١)

(١) ليعتبر الشرقيون بهذه الذمم وبهذه التصرفات ولاسيما الذين يعرفون ما يمدح به هؤلاء الافرنج انفسهم وما يذمون به المصريين وسائر الشرقيين وما يصفونهم به من التعدي والتعصب

(٥٥) في الاسبوع التالي للحادثة اشيع خبر ان سيمور لا يعتقد ان للحزب الوطني دخلا في الواقعة فاهتم الخديو وأمر عمر لطفي ان يخبر سيمور ان تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتد به ويخشى من مذبحة أخرى ـ ففعل ولكن لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب ننيه عرابي بذلك وطلب منه عزل «عمر لطفي» ولم يتيسر)

(٥٦) ثم عينت وزارة راغب واصدرت عفوا عن الجرائم السياسية غير ان القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلي فرنسا وانكلترا

(٥٧) بعد ضباط سيمور خبر الطوابي [1] وانها ليست بشيء (هذا الباعث له على الضرب)

(٥٨) عساكر الطبجية كانوا في بلادهم بتعلة الاقتصاد ، كان في الطوابي مائة مدفع وواحد ، منها ٦٩ كانت في مواضعها الحربية والباقي كان مرمياً بعضه بجانب بعض وذلك من نحو اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة

وأما البمب (أي القذائف أو القنابل) فلم يفارق مخازن الترسانة، قبل الضرب بيوم واحد لم يكن جهز مدفع من المدافع بما يلزمه من بارود وبمب

غيرة الاهالي يوم الضرب

(٥٩) تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالي الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله

(٦٠) لورد نورثبروك أرسل البروفسور بلمير (بالمر) ليغوي قبائل عربان غزة من شهر يونيو وقابله ننيه وكان لا يذكر اسمه لتنكره . وقال له يوما قبل الضرب بمدة : ليهاجر فان المدينة ستضرب

(١) المؤلف: هذه الجملة ليست واضحة في مسودة المذكرات وتدل القرينة على سقوط شيء منها ، والمراد منها أن سيمور قائد الاسطول الانكليزي عرف حقيقة حال طوابي الاسكندرية بالاختبار وأنها غير مستعدة لضرب بوارج الاسطول ولكن لا يعلم من أخبره بذلك . وكلمة بعد في أول الجملة لا يعلم متعلقها ، ويحتمل أن يكون أراد بها « بعض » أي أن بعضهم اختبر الطوابي . ولكن كيف كان ذلك

(٦١) قبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التلغرافات الانكليزية بتعديل في بعض الخطوط وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء ، وأذن له عرابي ولكن لم يتم

مدير الشركة في لوندرا طلب من وكيله بمصر في شهر مايو أن يتغيب بالاجازة إلى أن تنتهي الحوادث فان ميله إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالبين إذا حدث حرب

(٦٢) قنصل الروسية أكد لنينه ان الاسكندرية ستضرب وسأله أن يسعى على الاقل في عزل عمر لطفي . عزل عمر لطفي وعين ذو الفقار وهو لا يريد إلا ما أراد الخديو

﴿ شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾

تحرش الاسطول لضرب الاسكندرية

(٦٣) في ٩ يوليه : كتب سيمور لطلبه (باشا) في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب

(٦٤) في ١٠ منه : كرر ذلك الاشتكاء وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجريدها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فارسل اليه قرار من مجلس النظار تحت رياسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان محصله ان مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهراً ، وان شيئا مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل (فهو) من الترميمات السنوية . وان المدافع لم تزل على حالها من سنين

وصل الجواب اليه ضابط قال له ان شاء فليزر بنفسه الطوابي وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بانه مصر على وعيده ، وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ

﴿ رأي الخديو توفيق باشا في ضرب الاسكندرية واحراقها ﴾

(٦٥) ١١ يوليه : أحد الميرالايات الذين في معية الخديو قال له : مامصير الاسكندرية لو ضربها الانكليز؟

فأجاب (أي الخديو) ستين سنة !! وهز كتفه

فقال الضابط . لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الاميرال

والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية

فأجاب (اي الخديو) فلتحرق المدينة جميعها ولا يبق فيها طوبه على طوبه

حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رءوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون اللاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب

(٦٦) الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا

﴿ حرق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها ﴾

(٦٧) بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد علي ممن كانوا على صلة بالخديو – ومنهم من أهالي الاسكندرية – ومنهم أوربيون بقصد المبالغة في التعويضات . وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم

(٦٨) في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة من المراكب

(٦٩) قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على ايديهن ومات الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة .

(٧٠) هدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمداً وجهت اليه النار على قصد

المهاجرون من الاسكندرية

(٧١) نحو مائة وخمسين الفاً من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لمأوى . الموت والفزع ملء نفوسهم . على شطوط المحمودية . إلى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ،

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء لا وقاية ولا عيش ، على طرفي نضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة

عود الضرب ثاني يوم

(٧٢) في ثاني يوم الساعة ٨ صباحا عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشرة وأصاب الاسبتالية وهجرها كثير من المرضى والجرحى وكان عليها العلم الابيض بالهلال الاحمر.

(٧٣) طلبة (باشا) بعد ان رفع العلم الابيض على نظارة البحرية ذهب الى الاميرال يسأله عن سبب عودة الضرب فاجابه أحد الضباط عن لسان الاميرال أنه يطلب تسليم الطوابي والقشلاقات أيضاً . طلبة اراد المخابرة مع مجلس النظار ، انتشر الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في اخلائها ، هلع الناس وأخذوا ثانية في الهرب

(٧٤) دخل اولاد علي للنهب . سليمان سامي سلم محافظة محلة الاوربيين إلى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان فانضموا اليهم في النهب آخر النهار .

﴿ عود الى وصف المهاجرين من الاسكندرية ﴾

(٧٥) اما الهاربون فكانوا كالاعاصير أو كماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكبين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين امامهم أو حاملين على ظهورهم ماخف حمله من امتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لاقيمة لها .

في هذه الحالة ــ حالة شعب طرد من بيته ــ كان الحر شديدا وغيم من الغبار سد الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن ، في أخلاط لا يمكن التعبير عنه — عربات بلا عجل استعملت مساكن ــ عربات من كل نوع بعضها ساقط في المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل — روائح شي اللحم ــ صياح على المارة: الخبز الخبز

(٧٦) ابتدأ الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب

(٧٧) في ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل الى رأس التين ، وعسكر عرابي في كفر الدوار

(٧٨) في ١٤ يوليو عندما وصل عرابي لكفر الدوار اجتمع عليه النساء والرجال يلعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجانا الى داخل البلاد وقد أرسلوا مع تواصي للمديرين ليقيتوهم ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة

﴿ كتاب تاريخي من الخديو إلى عرابي ورد عرابي عليه ﴾

(٧٩) في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو) ورد لعرابي كتاب من الخديو محصله بعد العنوان .

سعادتلو عرابي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار —

«إنك تعلم ان الاميرال الانكليزي لم يرد حرب مصر وانما اطلق المدافع على الطوابي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذر به ، وقد اعلننا أنه يجب اعادة العلائق معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان لم يكن فالى جيش عثماني ، وقد قرر مؤتمر الاستانة ان للسلطان وحده حق المداخلة بقوة السلاح في المسألة المصرية . فعليك ان تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة في ذلك ، وآمرك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن»

فاجاب عرابي بعد التعظيمات

« ان الاميرال انما اطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بانه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) ان انذاره بالضرب اهانة لمصر واعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطوابي كما قال بل قذف قنابل مفرقعة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيراً ، وان عسكركم المنظم مستعد لان يأتي المدينة عند الاقتضاء ، وانا لا ارفض أي مخابرة في الصلح ، لكن يلزم ان يتذكر ان التعدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة انما جاء من المراكب الانكليزية ، وان الطوابي لم تجاوب إلا بعد خامس ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا

« ومن المعلوم ان انكلترة أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة وإشغالها بعساكر انكليزية لا يمكن ان يقال ان البلد في غير حرب

« سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن ان تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية بل يجب ان تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . اما التجهيزات فيجب ان تستمر الى ان تبعد

المراكب عن الاسكندرية. تلك التجهيزات التي يشير اليها سموكم وهي جمع ٢٥ الف مقاتل هي التي لعرتم بها وما انا الا منفذ لامركم ؟

﴿عزل الخديو لعرابي باشا﴾

(واتفاق الناس على مخالفته واستمرار الاستعداد للحرب)

(٨٠) بعد أيام صدر الامر بعزله ووزعت بذلك منشورات لهذا السبب وصرح فيها بانه كان ناظر الحربية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين.

(٨١) طبعت نسخ من تلك المخاطبات ووزعت في البلاد فجاء الناس لعرابي طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة اللاحات ، وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئا

﴿الجيش المصري والمتطوعون فيه والجيش الانكليزي﴾

(٨٢) كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب. وكان يوجد في أبي قير ثلاثة الاف وخمسمائة ، والفان وخمسمائة في رشيد ، وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر الفاً[1] اما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلا

(٨٣) كان من عمل المراكب ان تهدد في حركاتها النقط المذكورة لتمنع عرابي ان يرسل جيشا إلى الوادي

(٨٤) أدخل العربان في الجيش على علم من عرابي بحضرة دخولهم. شرع في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء . شرع في جمع غيرهم. ودخل كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفي لجعلهم جيشا صالحا للدفاع وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، واما في الفلا فلا أقل من سنة لعسكري ألماني ومن سنتين لعسكري انكليزي

---

١ أى مجموع العساكر التى في الثغور المذكورة فتكون مع الجيش المنظم الذى يقوده عرابى ١٩ ألفا

(٨٥) قالت التيمس : أرسلت الحكومة الانكليزية ٣٥ الفاً وستبلغها ثلاثين الفاً لمقاتلة الجيش المصري

﴿ طلاب التطوع في الجيش المصري من الاوربيين ﴾

(٨٦) كثير من ضباط التليان والالمان والسويس عرضوا انفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين والبعض كان يطلب وسيلة للنقل والبعض لم يكن يطلب (كالالمان) إلا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع في الجيش . أما الفرنساويون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت اليه

غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الانكليزية، والمواصلات كانت منقطعة تقريبا بين مصر وأوربا

﴿ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنساويين ﴾

(٨٧) لم يكن يهم عرابي عند ما رأى في بعض الجرائد الفرنساوية والانكليزية تلقيبه بعاص — إلا مخافة أن يصدر بذلك أمر، وكانت له ثقة بالسلطان إلا إذا أكره. وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفا في خارجيتها. ثم بعد ذلك أخذ يذكر مصائب الاحتلال الفرنساوي في مصر أيام نابليون وما احتال به هذا ومنو (*) على المصريين من الاكاذيب، وما حصل من الفرنساويين في تونس، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنساوي في شيء (١)

(٨٨) عند ما ضبط الاسير الانكليزي واستنطقه عرابي وسأله (٢) عما كان مكتوبا على بعض الـكلل (٣) من اسم «اسكندريا» فأجابه حصل تحريف والحقيقة «اسكندرا» اسم المركب، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانكليزية . ثم قال له

*) هذه كلمة مبهمة لم نستطع قراءتها قد تدل القرينة عليها

(١) المؤلف : ولكن عرابي الفر اعتمد بعد هذا على دلسبس الفرنسي في حماية القنال من الانكليز كما تراه في عدد ٨٩ (٢) وقوله واستنطقه عرابي وسأله الخ لا بد أن يكون أحد الفعلين بغير واو العطف (٣) الـكلل تنطق بالكاف المفخمة واصلها قاف ولعلهم كتبوها بالكاف حتى لا تشتبه بقلة الماء واصلهما واحد

لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ فأجابه نعم ولكني عسكري ما علي إلا أن أطيع

﴿ انخداع عرابي بغش دلسبس في تركه القنال ﴾

(٨٩) عرابي اعتمد على دلسبس في حماية القنال وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعند ما أحس دلسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القنال كتب تلغرافا لعرابي يقول له من المستحيل ان عساكر الانكليز تمر من القنال

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقبها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال فورد تلغراف من دلسبس يقول : لا تشرع في شيء يمس القنال ! لا يمر عسكري انكليزي الا ومعه جندي فرنساوي ! أنا مسئول عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر ارسال جيش ثم أرسل الجواب ببطء وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القنال كان الجيش الانكليزي قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابرة دلسبس ، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا في المخابرة

(٩٠) قال ولسلي لو قطع عرابي القنال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

﴿ أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه ﴾

(٩١) في ٢٣ و ٢٤ أغسطس كانت واقعة نفيشة وأسر محمود فهمي (باشا) فجاء سامي (باشا) بنفسه وطلب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادي

(٩٢) جيش الجهة الشرقية كان أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التي لا تساوي شيئا . خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض وليس من السهل تعويضه . عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعروا بالضعف والوهن عند ذلك

(٩٣) قررت مشورة حربية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق .

ذلك أخاف عرابي وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط ورشيد وارسال مثل عبد العال إلى جهة الوادي ، فنفذ شيء وأوقف شيء ولم يحضر عبد العال وكان حضوره مفيدا

(٩٤) ذهب عرابي الى الوادي في حزن وانكسار قلب . وقد اعترف أنه في مدة الستة أسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر الى الوادي وجاء الى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمؤفون (١)

(٩٥) مع حركات الجيش المتوالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع

﴿ عود الى خيانة سلطان باشا ﴾

(٩٦) في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد علي من عائلة شهيرة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم إلى ترك عرابي والالتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لاخضاع العصاة استنطقوا فاعترفوا بكل شيء : وذكروا أن جنديا بحريا انكليزيا يسمى (جيل) حمل ثلاثين الف جنيه من سيمور ليلحق بالاستاذ (بالمر) يستميل معه عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان في الشرقية ـ وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانكليزي إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لمقابلة (بالمر) وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة . وكان

(١) أي الذين ادركهم الهرم والمصابون بآفات العاهات فلا يستطيعون عملا . فمؤفون جمع مؤف وأصله مأووف اسم مفعول من ايف الشيء أو الشخص أي أصابته آفة أو عاهة

كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية في القنال أخذ المبلغ من (جيل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى (بالمر) وحجز الباقي على حسابه وأرسل معه جيل وضابطا آخر فقتلوا جميعاً بين العربان

(٩٧) مركز الدسائس والمخابرات كان في اسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من الانكليز من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا

(٩٨) عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانكليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان، واختار لبث الافكار الحاوي الطحاوي أحد ثقاة عرابي، فكان الحاوي يعظ اخوانه العربان بعصيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك، وكانت القيم التي تدفع إلى الافراد تتفاوت من جنيهين إلى ثلاثة. ولم يكن عرابي يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوي مع ذلك يخبر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان يفضي اليه بجميع ما عنده

(٩٩) في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانكليزي، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانكليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق في الساعة واحدة. وجرح علي فهمي وراشد باشا وانهزم الجيش، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان. وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا ومراسلة العربان

(١٠٠) في ١١ سبتمبر جاء عرابي مراسله ينبئه بخيانة العربان. فأبى قبولها قائلا انهم مسلمون (!!!)

(١٠١) في ١٢ سبتمبر أنبىء عرابي من النبع نفسه (بعض رؤساء العربان

أيضاً) بأن الانكليز سيضربون التل الكبير ويرمون إلى بلبيس (جهة حصنها الفرنساويون من قبل) ليأخذوا هذا الوضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع عرابي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبة يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهرسبتمبر . جاءت الفرقة ماشية، وصلت الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

(١٠٢) يقول أحد الضباط إنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا إلا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ، ووقع الاضطراب العام ، والجيوش الجديدة انهزمت فكان الانكليز يقتلونهم كأنهم في الصيد ، وقاوم ثلاثة آلاف فني نحو نصفهم . وبعض الضباط كان في عجز عن المشي عن الفرار (لعلها عند الفرار) لثقل النقود التي كان يحملها فنهب من بعض السودانيين

(١٠٣) يقال ان عرابي كان يحب اطالة زمن الحرب (أي رجاء أن تتدخل الدول في المسألة كما قاله الاستاذ في موضع آخر — المؤلف)

[يقول المؤلف محمد رشيد رضا] هذا ما عندنا من المذكرات الخاصة بالفتنة العرابية أثبتها بحروفها كما كتبها رحمه الله في تلك الايام الحالكة الظلام، المشتبهة الاعلام ، المثيرة للاوهام ، حتى إنني لم أصحح ما أقطع بانه من عثرات القلم وان كتب في بعض المواضع على الاصل الصحيح ، وفي بعضها على المشهور الدائر على السنة الناس كلفظ الاسكندرية واسكندرية وسكندرية . وانما وضعت قليلا من العناوين لبعض المسائل المهمة في سطر مستقل للتنبيه والتروي فيها وبعض الخطوط على بعض الاعلام أو الجمل من فوقها وقليلا من الكلمات المفسرة والموضحة بين علامتي الادراج هكذا ( ) وأما الجمل التي وضعت بين هاتين العلامتين فهي له رحمه الله تعالى الا الاخيرة منها التي ختمنا بها كلمة المؤلف وفي هذه المذكرات عظات وعبر لواتبح لاستاذنا رحمه الله تعالى اتمام تاريخ الفتنة العرابية وشرحها لاستفاد قراؤه منها مالا يوجد له نظير الا في كلام حكماء المؤرخين الاعلام الذين يقل عددهم حتى في الامم الحية العزيزة ، وكان لدى الاستاذ ملخصات مترجمة من

الجرائد الاجنبية فيا كانت تكتبه من الاخبار الآراء في المسألة المصرية في أثناء تلك الفتنة، كانت تترجم بأمره لادارة المطبوعات التي هو رئيسها ولدينا بعضها ولكن لاحاجة لنا بنشره لاننا نكتب تاريخ الرجل لا تاريخ الثورة العرابية، وقد جئنا بما علم به رأيه في اسبابها ونتائجها وسيرته في اولها وآخرها .

ولما كان غرضنا من كتابة تاريخه استفادة الامة مما فيه من العبرة حسن منا أن نذكر القارىء ببعض الفوائد التي تؤخذ مما كتبه في هذه المسألة كتابة المؤرخ الصادق الحكيم والوطني الصميم .

﴿ بعض فوائد ما كتبه في المسألة العرابية ﴾

(الفائدة الاولى) ان الاوربيين كانوا يتصرفون في الدولة المصرية و البلاد المصرية أسوأ التصرف وأشده إفسادا للنظام ، وكلبا في جمع الحطام ، ويسوقون الحكام والرعية كما تساق الانعام ،

(الفائدة الثانية) ان أمراء البلاد لم يكن عندهم من العلم بطبائع الامم وحقوق الدول و أخلاق البشر وتاريخهم وسنن الاجتماع مايهديهم الى السياسة المعقولة والادارة القويمة في حفظ ملكهم الاستبدادي، لذلك كان اسماعيل باشا هو المجتاح لثروة الامة و الدولة، الممكن لنفوذ الاجانب فيها ، والممهد للثورة التي هي موضوع بحثنا ، وهو يظن أنه سيجعل مملكته كممالك أوربة. و كان توفيق باشا هو الموقد لنارها ، والداعي للانكليز إلى احتلالها ، من حيث يظن أنه يحفظ سلطته من عبث الرعية بها.

(الفائدة الثالثة) إنه لم يكن في رجال هذه الدولة وأصحاب النفوذ فيها أو في الشعب رجل كبير العقل بعيد الرأي قوي الاخلاص والعزم يتلافى الثورة على علم وبصيرة ، بان يحقق ما حققه الشيخ محمد عبده من أسبابها ، ويقنع الخديو توفيقا بما يجب فعله في امرها ، وقد كان هذا ممكنا مع توفيق لما كان عليه من الدماثة وضعف الارادة ، مع حب الخير والتدين ، ولو كان لهذا الشاب الازهري محمد عبده مدير المطبوعات ورئيس تحرير الجريدة الرسمية ما كان لرياض باشا وشريف باشا من المكانة في الدولة أو ما كان لسلطان باشا من الجاه والثروة في الامة، لقام بهذا

الواجب. كان سلطان باشا يعلم ان عرابي وأخوانه الضباط المصريي العرق مافكروا قبل تفاقم خطب هذه الحوادث بالخروج على الخديو ولا في تقييد سلطته الاستبدادية بمجلس نواب ولا بغيره ، وكان يعلم ان غرضهم الاول من طلب المجلس الامن على أنفسهم ثم على وظائفهم العسكرية ، وان غرضه هو من المجلس الذي اتخذهم وسيلة له ان يكون وزيراً أو رئيساً له ، فكان يمكنه بعد استفحال الخطب وقرب وقوع الخطر على البلاد بالاحتلال الاجنبي — وقد رست بوارج الاسطول أمام مدينة الاسكندرية — ان يقنع الخديو توفيقا بحقيقة أمر العرابيين وان اخضاعهم ممكن، وأنه خير له وللبلاد من الاستعانة عليهم بالانكليز . فان هؤلاء اذا احتلوا البلاد احتلالا عسكريا بظهورهم على قوتها العسكرية فان سلطانه الحقيقي يزول ، وانما يبقيه الانكليز كالشبح الماثل ليستعينوا باسمه على حكم البلاد كما يريدون، كما فعلوا في بعض الممالك الهندية أو دون ذلك ، ولكن سلطان باشا كان أصغر نفسا وأقل علما واضعف وطنية من ذلك . بل كان خائنا خان اميره أولا بشبهة خدمة الامة وجعل حكومتها مقيدة بالشورى النيابية ، ثم خان أمته بشبهة خدمة أميرها والمحافظة على امارته ، وانما خدم الانكليز وحدهم

فاين هو من الشيخ محمد عبده الذي كان ساخطا على عرابي وجماعته منكراً عليهم افتياتهم على حكومتهم وأميرهم، محذراً اياه من سوء العاقبة بانتهاء فتنته باحتلال عسكري يوجب لمسببه لعنة التاريخ الى يوم القيامة ، ومنكراً عليه وعليهم التعجيل بطلب الحكومة النيابية قبل إعداد الامة لها ، على أنه كان هو واستاذه السيد جمال الدين أول من نبه الافكار ووجه القلوب اليها ، ثم لما آل الامر الى تدخل الاجانب في أمر البلاد بطلب الخديو اضطر إلى ان يكون مع الامة عليه، ويساعد الامة ما استطاع من رأي، وقد تقدم مايثبت ذلك بالتفصيل

(الفائدة الرابعة) ان من أهم أسباب هذه الفتنة ،وما آلت اليه من المحنة، احتقار الخديو ورجال بلاطه وكذا وزراؤه وكبار ضباط جيشه من الترك والجركس للمصريين الخلص ، والتعبير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعيير . وعدهم غير أهل لمناصب الدولة، ولذلك عظم على توفيق باشا ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون حقوقا، وقد

خلقوا على رأيه ورأي البيئة التي تربى فيها ليكونوا عبيدا ،حتى آل به الامر الى الاحتفال بانتصار الانكليز على جيشه وقبوله التهاني من الوجهاء على احتلالهم لبلاده وسلبهم لملكه ؛ كما يراه المطلع على كتاب (مصر للمصريين) وعلى جرائد تلك الايام

والواقع أن البلاء وقع على رأسه هو لانه سلب منه ملكه الاستبدادي ، وان الفلاحين كانوا في عهد الاحتلال آمن على أموالهم من السلب ، وعلى أنفسهم من الاهانة والضرب ، مما كانوا عليه من قبل ،وهذا من أكبر ما أصاب الشعوب الاسلامية بعد زوال ملك العرب العادل ، الذين كانوا يعدون جميع المسلمين أخوة لهم في الاسلام ، وكانوا يساوون في العدل بين جميع رعاياهم على اختلاف مللهم ونحلهم واجناسهم ، وملاحدة الترك يعدون هذا من عيوبهم، جاهلين انهم لولاه لما تم لهم إخضاع تلك الشعوب الكثيرة لسلطانهم، وإدخال تلك الملايين في الاسلام باختيارهم.

(الفائدة الخامسة) ان الشعب المصري في جملته قد قام بكل ما يجب عليه من الحقوق الملية والوطنية، فقد بذل كل ما استطاع من المال والرجال في سبيل الدفاع عن بلاده ، وانما خانه بعض كبار رجاله كسلطان باشا وبعض الضباط وهمج البدو ، لا رجال الحكومة والقصر (السراي) من الاعاجم الاصل وحدهم .

وقد استفاد الشعب المصري من هذه الفتنة أن شعوره بوجوده وبحقوقه قد انتشر في المدائن والقرى ، وضعف به ما كان مستحوذا على القلوب من هيبة الأمراء والحكام ، بعدما كان من جراءة العرابيين عليهم فان الاسباب الخفية الخاصة التي جرأت ضباطه على المطالبة بحقوقهم التي هي حقوق لشعبهم لم تكن معروفة للجمهور ، على انها كانت أسبابا شخصية، دخلت في طور الحقوق العامة ، فكانت كما قال بعض أئمة العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله . واستفاد عقلاء الشعب من الحكام وغيرهم أنه لا قوة في هذا العصر للدولة الا بالامة ، وان الحكومة الشخصية الاستبدادية اذا لم تسقط بقوة الامة فانها لا بد ان تسقط بقوة الاجانب، وتكون آلة لهم يذلونها ويذلون الامة بها، وأنه لا يرجى استقلال لهذه البلاد الا بعد تمكن هذه العقيدة فيها ، وعملها بمقتضاها .

(الفائدة السادسة) ان الدولة العثمانية العريقة في الحكم وممارسة السياسة

الدولية لم تحسن التصرف في المسألة المصرية ، وكان يسهل على مندوبها المشير درويش باشا درء الخطر ، وحل الاشكال ، ولكنه كان خائنا أيضا فاخذ الرشوة من توفيق باشا ووافقه على هواه ، فاين هو من فؤاد باشا في حل مشكلة سورية ولبنان سنة ١٨٦٠ واخراجه للجيش الفرنسي منها بدهائه وحكمته

(الفائدة السابعة) أن الاستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدة خمس عشرة سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء في الجزء الثاني من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على إنشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها . وإن كان اول من نبه الامة لها هو وأستاذه السيد جمال الدين ودعواها اليها كما تقدم.

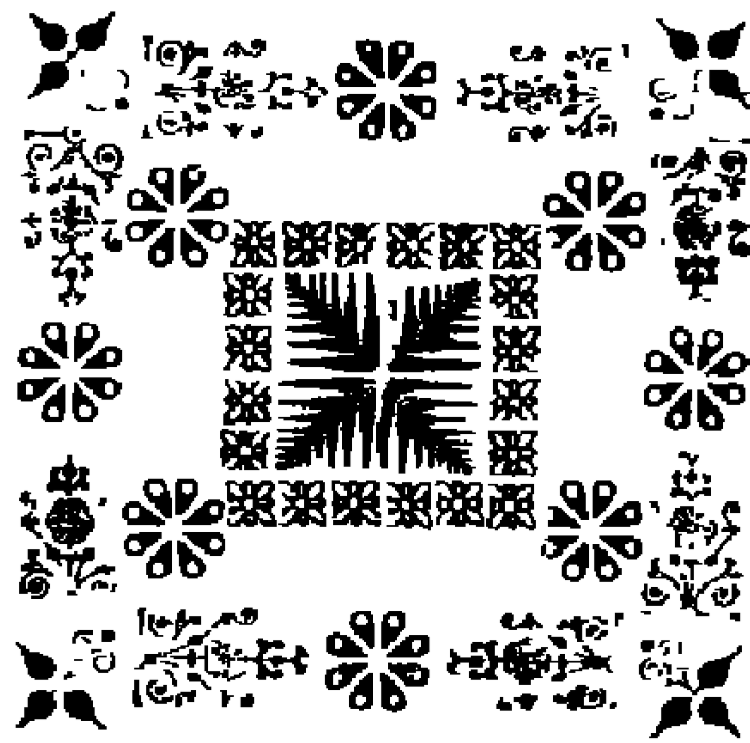
ولكنه كان يرى ان رياضا قد افرط في العدل والاصلاح بعدم مراعاة استعداد الخديو ورجاله وأركان حكومته الذين استمرؤا مرعى الاستبداد وطبعوا على الاسراف في استعباد الرعية الضعيفة الجاهلة ، وأنه كان ينبغي له مداراتهم والرفق بهم ، وأنه لما علم بسخط اميره عليه وكراهته له كان ينبغي له ان يستقيل من منصبه أو يرضيه ان أمكن ، لأن طاعة الأمير واجبة عقلا وشرعا مادام أميرا ، فان ظلم وفسد وتعذر اصلاحه جاز السعي لاسقاط إمارته بالوسائل التي سنها الخالق الحكيم للاجتماع البشري ، ولكن لا يجوز الاستبداد عليه والعصيان له مادام أميرا ،

(الفائدة الثامنة) أنه كان يعتقد أن عمل عرابي خطأ وخطر على البلاد ، لان تصدي رجال الجيش لادارة الحكام وإرغام ممثل السلطة العليا ومن دونه على ما يريدون ، قلب للنظام ، وافساد للحكم ، وافضاء بالدولة الى الفوضى ، ولان الثورة العسكرية في مصر قد تفضي الى احتلال أجنبي يذهب باستقلالها ، وكان يعلم مما تلقاه عن السيد جمال الدين ما كان من سيرة الانكليز في الاستيلاء على الممالك الهندية ، ويعلم أنه ليس في البلاد من القوة العسكرية المنظمة ومن الثروة ما يمكنها من الظفر بدولة قوية غنية كالدولة الانكليزية — وقد تقدم عنه التصريح بهذا

وكان مع هذا كله يعتقد أن عرابي باشا غرّ ساذج ينخدع للاجانب بما لا يصح أن يخفى على رجل متعلم في الدرجة الوسطى ، وذكر عنه أنه انخدع

بقنصل فرنسة الجنرال أولا وبموسيو دلسبس آخراً ، وإنمافهم بعدخراب البصرة أنه لا ينبغي لاحد ان يثق بفرنسة ولا باحد من رجالها — وأنه انخدع لأعراب أولاد علي وكان يطلع الحاوي جاسوس الانكليز على أسراره العسكرية ولا يتصور وقوع الخيانة منه ولا من احد منهم «لانهم مسلمون» فيالله العجب من فهمه لاسلامهم ومن ارتقائه بانفسهم فيه الى مقام الصحابة من المهاجرين والانصار ، والى درجة الاولياء والابرار ، بل عرج بهم الى أفق الانبياء المعصومين عليهم السلام. وأكثرهم لم يعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، كما يقول خطباء الجمعة في مسلمي هذا الزمان من أهل الحضارة ، بله همج البداوة . فهل يرجي الجيش ان ينتصر على مثله أو ما دونه في العدد والعدد اذا كان قائده يبني أحكامه وأعماله الحربية على هذه الاوهام ؟ كلا ، فكيف يرجي ان ينتصر على جيش يفوقه في كل شيء من الاسباب كالعدد والعدد والسلاح والنظام ؟

وانما كان الاستاذ مع هذا كله يشد أزرهم بما استطاع بعد وقوع العداء بينهم وبين الانكليز لان هذا واجب شرعا ووطنية ، ولو استطاع درء هذه الفتنة بمنع الثورة قبل استفحالها ، أو بصلح شريف بعد وصولها الى آخر حدها ، لفعل . ولله في خلقه سنن مطردة ، والموفق من الافراد والشعوب من اعتبر بها وراعاها في عمله ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا)



خاتمة هذا المقصد

(في اتهامه وسجنه ، وماكان من تأثير السجن والوشاية في نفسه ، والحكم عليه بالنفي من بلاده)

لا تكمل تربية الرجال ، إلا بمكافحة الاهوال ، فمعادن الانفس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، ولا تتمكن من مقعد الصدق ، إلا بعد ان تعرض على نيران المحن ، وتذاب في بواتق الفتن (فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) ولذلك يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن المفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فالفتن والكوارث تمحص أنفس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيها وتعليها ، وتمحق الكافرين بنعمه ، والمتنكبين لسننه ، فتدسيها أو تفنيها .

وقد اتهم الاستاذ الامام في الثورة بما هو بريء منه ، وتفنن المنافقون يومئذ باخبار السوء عنه ، وتقديم تقارير السعاية فيه ، فسجن وأهين كزعماء الثورة الذين كان يعارضهم ، ويحذرهم وينذرهم عاقبة جهلهم ، وحوكم كما حكموا بجريمة العصيان ، ولكن ظهر بعض حقه في المحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وأيام ، بالنفي من القطر المصري مدة ثلاثة اعوام ، وقد زعم مستر برودلي محامي العرابيين الانكليزي ما تقدم عنه من سوء تأثير السجن في نفسه ، وحكمنا عليه بالخطأ في زعمه ، وقد نشرنا قصيدته التي نظمها في السجن ، و بين فيها رأيه في الثورة ورجالها ، واننا ننشر هنا ما كتبه رحمه الله لبعض أصدقائه وهو في السجن لا يدري ما الله صانع به ؟ ففيها الحجة البالغة على خطأ برودلي بما كشف من الحجاب عن كبر نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، وحسن نيته ، وبعد آماله ، وثقته بمواهبه ونعم ربه . لانه كتب ونظم تحت سلطان تأثير السجن واحتمال القتل .

﴿ الكتاب الذي أرسله من السجن الى احد اصدقائه اومريديه ﴾

وفيه من وصف حاله فيه وما بلغه من الوشايات فيه ممن كان يعدهم من أصدقائه أو مريديه ويحسن اليهم، وتأثير ذلك في نفسه ـ ومن وصف شعوره وآماله ونيته ـ ماهو أصدق تعبير عنها . قال :

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠

عزيزي

تقلدني الليالي وهي مدبرة   كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الارض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين، فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس، اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية ، فاصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموس والاقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس، ذاهبة بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر، فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين * (١)

---

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر ـ يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما ويخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين، كما يقال اغتالتهم الغيلان ـ فيمن هلكوا باسباب مادية تجوزاً مبنيا على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » ـ كما في البيضاوي وغيره. وتوهم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشريعة ان ذكر الآلهة ولو باسلوب الحكاية اثبات لها، كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية عن العرب واستقلالا، ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لايأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ،غطي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ، لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوهم مجيباً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلاريب من الهالكين *

تقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الارض لعنه الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لايهدي كيد الخائنين *

ذهب ارباب السلطة في بحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة ، ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها في معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين *

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدي الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالما بان كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجه ظلم لاشبهة للحق فيه ، لان الله يعلم — كما

أنت تعلم — أنني بريء من كل ما رموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين *

نعم خنقني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن قلبي ، وسكن جاشي عند مارأيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان (١) تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم يتركا شيئا من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من المجانين *

ولم أتعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب ، غاية العجب ، بالغ ماشئت في عجبي ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (٢) الذي أرسلت اليه السلام ، وابلغته سروري عند ماسمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير .... ولكن سيصل إلي ، انما فيما بلغني أنه شهادة باقبح شيء ، لا يشهد به الاعدو مبين *

هذا اللئيم الذي كنت أظن أنه يألم لألمي ، ويأخذه الاسف لحالي ، ويبذل وسعه إن أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين *

كم سمعني أقاوم هيجان (٣) الجرائد ، واوسع محرريها لوما وتقريعاً ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان عليّ في بعض أفكاري هذه من اللائمين *

كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم

١) هما : رضوان : و : ه (٢) سعيد البستاني (٣) وفي نسخة هجاء

لم أنقض له عهداً ، ولم أبخس له وداً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده ، وظفاء، فما باله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملي هذه الاحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الاولياء ، ما أثبته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، ولو للاعداء ، ما أشده رعاية للود، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ماتوبخ عليه الذمم الطاهرة، ما أقواه إقداما على العمل الحق، والقول الحق، لا يطلب عليه جزاء، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين *

هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم، هو الذي سر قلوبهم بالترقية، وملأها فرحا بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطيف المجاملة، ودافع عنهم أزمانا ـ خصوصا هذا اللئيم ـ أفنشرح الصدور وهم يحرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحها وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الاسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم، والله يتولى حسابهم، وهو أسرع الحاسبين *

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة ، وان جاروا في تصرفهم، ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز ، إذا اتصل بذي الود، وان كان خشنا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب في علاقته مع الاوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما

كماوي يدقق، لا يجد للتحليل بينهما سبيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلني تقرير اللئيم ، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني ، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة ، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

*
* *

رددت على التقرير ، وكان كل مافيه الغش والتغرير ، وذكر فيه فلانا... باشنع ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ، ولكن دفعت ماقاله في جانبه أيضاً . وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فما عليكم ان سئلتم الا أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من افكاري وأقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ، ومن كانوا لها من الطالبين * إلى هذا الحد قفوا ، فان سئلتم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشراً ببقائكم في مركزكم ، فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت : الحمد لله رب العالمين * وأخذني الاسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين *

ياعزيزي أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم ، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم ، فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم ، فقاموا ينطقون بما لايعون ، ويتكلمون ولايفهمون ، مابالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم . وامر من الصفراء ، وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث مايحملون *

مابال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت ، تقذف بسائلات

بشعة الطعم، خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، تضطر معانيها الفرار منها؟ لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون *

هل بطل يا عزيزي ماجاء على لسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافا ماقرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟ *

هل أتأسف أن كنتُ سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنتُ مقداماً في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أبياً أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتي؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟ *

كلا والله لن يكون ذلك، ولم أزدد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزدد في المحافظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لأصنعن المعروف، ولأغيثن الملهوف، ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأتجاوزن عن السيئات، ولأتناسين جميع المضرات، ولابينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *

ولأظهرن الصديق في أجمل صوره، ولأجلونه للناس في أبهج حلله، ولاثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا غسق دجى الهموم، تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كرض يصيب الجميل الفاتن. فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض. ويسئمهم ان طال زمن

معاناة العلاج، فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل، وقد كان ربالهم وهم له ساجدون *

يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجهه الضياء ، وتتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجه طباع ذوي الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ، ههنا منال الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وإن هذا الشرف سوف يرد ، ولئن أبت طبيعة هذه الارض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها، ولاجذبن الى المجد أحبتي ، ومن إلى المجد ينجذبون *

كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئاً فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، و بعضهم له منكرون *

أطلت عليك الكلام فلا تسأم، وأظنه آخر كتاب مني اليك في السجن إلا ان يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى. فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى، والا كانت المراسلة أجل وأعلى . ولا تجزع ، فليس في الامر ما يفزع ، وهو أهون مما يتوهمون * وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من نكاية الخائنين ، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين * اه

[يقول محمد رشيد] لولم يكن لنا من فائدة سجن الامام الذي كان نعمة في صورة نقمة ، ومنحة في جلباب محنة ، إلا كتابة هذا الكتاب البليغ الذي وصف به نفسه الزكية ، وسريرته الصديقية ، أصدق الوصف وأبلغه وأجمله — لكفى بها فائدة . وما كان لولا تلك الشدة العاتية ليكتب هذا أو يقوله وقد عهدناه يسأى عن الفخر بجانبه. ولعمر الحق لقد صدق فيما قال عن نفسه وصدقه فيه الزمان، وكل من عرفه من الناس، حتى أسوأ الناس ظناً بالناس وأشدهم انتقاداً لهم . ومن كلام ابراهيم بك المويلحي الكاتب النقاد الشهير فيه : « باطنه خير من ظاهره »

الفصل الخامس

في الطور الثاني من حياته العملية

وهو ما عمله في اثناء النفي

وفيه مقدمة في بيان تلقي سورية له بالتكريم ، وأثر ذلك في مريديه وأصدقائه بمصر ـ ومقصدان (أحدهما) في عمله السياسي في اوربة مع السيد جمال الدين و (ثانيهما) في عمله العلمي الادبي في سورية

المقـدمة :

حكم على الاستاذ الامام بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وكان ذلك في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وحكم كذلك على كثيرين من الذين اتهموا في تلك الحوادث المعبر عنها بجريمة العصيان بالنفي إلى خارج القطر إلى مدد مختلفة من سنة الى ٢٠ سنة وكان ممن حكم عليهم مثل الحكم على الاستاذ ابراهيم بك اللقاني وكان من أصدقائه وأخوانه الجماليين بل كان يعد المريد الثاني للسيد جمال الدين ، ومنهم الشيخ امين أبو يوسف من أصدقائه أيضا. وقد سافر هؤلاء مع كثير من رفاقهم من ازهريين وغيرهم إلى سورية فطاب لهم المقام فيها لما قابلهم به كرام أهلها من العلماء والادباء والوجهاء من الحفاوة والاكرام ، فكأنهم استبدلوا اهلا باهل وجيرانا بجيران ، وخلانا بخلان ، وأقام الشيخ محمد عبده واللقاني وكثيرون من أصدقائهم في بيروت ، ثم سافر الشيخ إلى أوربة وكان سبقه اليها السيد جمال الدين ، وكان من عملهما فيها مانبينه في المقصد الاول من هذا الفصل ، ثم عاد الى سورية وأقام في بيروت وكان من عمله فيها مانبينه في المقصد الثاني منه .

مقدمة الفصل

قلنا ان أهل سورية الاكارم قد تلقوا الاستاذ الامام ، بما يليق بمقامه العلمي والادبي والعقلي من الاجلال والاكرام ، حتى كان فيهم وهو منفي من بلاده ، بعيد عن صنائعه ومريديه وتلاميذه ، اعز مما كان في وطنه ، على ما كان

له في عهد الوزارة الرياضية من النفوذ الذي شرحناه في المقصد الثالث من الفصل السابق، كما كتب بذلك لتلميذه النجيب، ومريده الصادق، وصديقه الوفي (سعد زغلول)وتأثير ذلك في أنفس خلانه بمصر كما يعلم مما كتبه اليه هذا جوابا عن ذلك وهاك الجواب الاول من اجوبته، ومنه يعلم بالاجمال ما كتبه الامام له :

﴿ بعض مكتوبات سعد زغلول الندب الهمام إلى الاستاذ الامام ﴾

(الكتاب الاول وهو مرجوع اول كتاب كتبه اليه من بيروت عقب وصوله اليها)

من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ إلى بيروت

مولاي الافضل، ووالدي الاكمل، أحسن الله معاده

بعد تقبيل الايدي الكريمة : قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه، فتلوناه ووعيناه في الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرفتم تلك الديار سالمين، مبالغاً في اكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبهائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء

ولهم منا معشر أتباعك ومريديك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الاجلال، ألسنة مرطبة بالثناء عليهم، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نعرفها أوهاما يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يرده اليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسياً كان أو معنويا . وسأتحرى هذا الكتاب في كتب سامي عند بيعها فاذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر

الحال العمومية على ماتركتها ، غير أن الناس أخذوا في نسيان مافات من الحوادث وأهوالها ، وقلت قالتهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ، وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم ، وبالعكس. والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً والله أعلم بما يكون

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحاً وتلويحا فتقبلوها بمزيد المسرة والانشراح . يسلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فراراً من شروره ، آسفاً على ماوقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه . الشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل والشيخ حماده الخولي والسيد عثمان شعيب والشيخ حسن الطويل ووالدي عبدالله وأخواي شناوي وفتح الله (هو أحمد فتحي) وكثير غيرهم يقبلون يديكم ، ويسلمون عليكم ، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الاماجد الذين أحسنوا وفادتكم وأكرموا مثواكم ، زادهم الله كرما وكمالا

مولاي : ذكرت لحضرتك أن الضعف ألمّ بفكري فبالله إلا ماقويته بتواصل المراسلة ، غير تارك فيها ماعودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها إلى سواء السبيل ، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقائقه ، وعرفت خلائقه ، وما يناسبها من ضروب المعاملة . وفقنا الله لمتابعتك ، ولا أطال على بلادك مدة غيبتك ، انك إمامها وإن اقتدت بغيرك ، ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك ، والسلام

ولدكم

سعد زغلول

﴿ كتاب آخر جوابي منه اليه في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الافضل ، ووالدي الاكمل ، أحسن الله مآبه

أكتب إلى السيد الاستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه التي لم يمنع من تواترها على صنائعه تباعد الديار ، ولا تنائي البلدان ، معترفا بالعجز عن وفاء واجب الحمد ، مع الاعتقاد بأن هذا لايثنيه عن المكرمات يوليها ، والمبرات

يسديها ، فما يفعل الخير التماس الثناء ، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء ، إنما يحسن محبة في الاحسان ، ويبر شفقة بالانسان

تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، الناشيء في نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالته ، الشافي لما في الصدور ، الكاشف لحقائق الامور ، الهادي إلى سبيل الرشد وإلى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، سرور العليل بالشفاء وافاه ، وتلاه متدبراً دقيق معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيمانا بفضل مولاه ، ويقيناً بحكمة من أوحاه ، وشكر الله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال .

وتكرم أبقى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام الذين دارسوه فصولا من المروءة، وأبوابا من النجدة ، وما لهم من كمال الفضل ، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور ، وتشوقنا لان تتشرف أبصارنا برؤياهم ، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم ، وما يحتاج في اقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الاذهان ، إلى قوة البيان ، فمعرفتهم بمقام فضله ، ومقدار حكمته ونبله ، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وغزارة فضلهم ، وسمو عقولهم ، ورجاحة هممهم ، وسجاحة شيمهم ، وفي توجيه ماثبت من الفساد في أخلاق غيرهم ، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الاستاذ الجليل في كتاب مخصوص اذا وجد من الوقت مساعداً ، انما نحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضوع لنتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الافاضل ، وتداول النجدة بين الكرام الاماثل فما رايتنا[1] من قبل لدينا إلا فاضلا كريما يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً ، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً

ولقد زادني ميلا في السفر ، وبغضاً في الحضر ، ماجاء في وصف أولئك الاماجد ذوي النفوس الزكية، والمحامد العلية ، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي

(١) الكلمة في الاصل هكذا «رايتنا» ولعل المراد فما رأيناك الخ والخطاب للاستاذ الذي بث الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهده وخانوا وده، ووشوا به عند الشدة

الامم، ساقطي الهمم ، سافلي القيم ، جاهلي مقادير النعم ، غير أني عدلت عن داعية هذا الميل امتثالا للأمر، وفي النفس حسرات لايقاومها صبر ، وبها الى السفر أشواق لايتناولها حصر

وأحسن خلد الله احسانه على صنيع آدابه ، اليتيم في اترابه ، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل ، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر ، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان ، راجياً من الله التوفيق الى الاخذ بمعانيها ، والهداية إلى اتباع مافيها ، آملا من مكارم موليها، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل (١) ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين ، ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الاسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه مايقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف إلا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف ، فلعل مابلغ المسامع الشريفة من هذا القبيل ، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف من فؤادهم مبلغه، انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقي، وطبقوا المقام على مافهموه، ولهم العذر ، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم ولو مراداً به غير حقيقة معناه ، ولم يألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده ، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للافهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهرياً متعوداً من الشيخ سماع أفظع منها مفهوما وأشنع تركيباً

---

(١) ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي أنه كان بلغه في أثر الفتنة العرابية أنه طعن فيه يتبرأ من كونه من حزبه فكتب في ذلك كلمة في كتاب لآخر – قال فيه : أكننته كني وأدنيته مني ، وجعلته في مكان النحو من ابن جني، ثم هو يصرح بسبي ولا يكني اه فظاهر أنه كتب بهذا الى سعد وان سعداً دافع عنه بهذا الكتاب

وكيف يتأتي له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟

أنسى ما أوليته من كرائم النعم ، وجلائل الامم (؟) التي لا يزال متمتعاً بها متفيئاً ظلالها ، وانك المؤرق أسفاً المحترق حزناء المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوبا في تقارير اللئام حتى شغلك همه عن همك ، وسعيت وأنت مسجون في تنجيته من التهمة بواسطة المحامين

مانسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولاءك ، ويبتكر هجاءك ، ويمس مقامك . في بيت أوٍه . ومنزل طالما رتع في بحبوحة نعماه

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء إعلان الاسف والاشفاق ، أما كونه لم يرسل خطابا فمولاي يرى انه من الادلة الصادقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقا في ولائه ، حريصاً على دوام تذكر أوليائه ، إذ لم يدعه الي ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها ، وأنميتم فروعها ، ليكون على الدوام متذكراً لحقيقة مبدئها ، متصوراً صورة منشئها

أما كتاب الشيخ محمد خليل ، فقد علمت مافي إرسال صورته من حسن التعليل وكمال التلطف في التأديب ، على ماجرت به عادتكم الشريفة . وقد طالعت هذه الصورة فرأيت انها من أقوى الادلة على شدة ميل صاحب الاصل الى الصدق ، ورغبته عن التمويه ، حيث أوضح حاله صادراً في الايضاح عن الحق برهانا على شدة إخلاصه باثبات العبارة التي نفيتها بين يدي حضرتكم في الدائرة

فان إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه ، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته ، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه إلى نسجه على ذلك الاسلوب الا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجنابكم الكريم . وعلى كل حال فنحن لا نستغني عن كريم عفوك ، وجميل صفحك ، فان لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين

ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق

لحضرتكم السرور بما نال ولدكم (١) فهو المتربي في نعمتكم ، المغترف من بحار حكمتكم ، المحفوف بعنايتكم ، المشمول بعين رعايتكم . البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم ، وكريم تعطفاتكم ، أدامكم الله لكل خير مبدأ

رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتم أسماءهم وأشرتم اليهم فتقبلوها بالاحترام وهم جميعاً يقبلون يديكم . ويسلمون عليكم ، وأخص بالذكر منهم منبع الصفا ، ومصدر الوفا ، الذاكر لفضائلكم في كل حين ، والدي حسين افندي . وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر اساعيل الذي امتن غاية الامتنان مما اختصصتموه به في كتابكم الشريف ، وحضرة الشيخ سليمان العبد ، والسيد أمين أفندي . ونحن جميعاً نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا بمعرفة أسمائهم من الذين دارسوكم فصول الكرامات ونقدم لهم واجبات الاحترام أدامهم الله مثالا للفضل وعنوانا للكمال . ونسلم على حضرات أخينا الفاضل ابراهيم افندي اللقاني وابراهيم افندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله

أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها . نرجو تفصيل أحوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كتب سامي لم تشهر إلى الآن في المزاد ولا زلت مراقباً لاشهاره

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم الى البلد ولم يحضر الى الآن . وعند العلم بحضوره أتوجه اليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت معاليكم . أفندم ٨ ج سنة ١٣٠٠ صنيعكم — سعد زغلول

أرجو عدم انقطاع المراسلات وأتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً للخاطر وترويحاً للفؤاد . ولمولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي (سعد)

---

(١) يعني سعد نفسه ، والخبر المشار اليه هو اشتغاله بالمحاماة

المقصد الاول من الفصل الخامس (*)

عمله في أوربة مع السيد جمال الدين

تقدم في ترجمة الحكيم الاكبر ، والموقظ الاعظم للعالم الاسلامي ولسائر شعوب الشرق الادنى والاوسط ، (السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني) أن حكومة الهند البريطانية حجرت عليه في كلكته (عاصمة الهند) مدة الفتنة العرابية ، وأنها أطلقت له الحرية بعد انتهاء الفتنة واحتلال الجيش الانكليزي لمصر وأنه ذهب بعد ذلك إلى أوربة ، وأن الاستاذ الامام سافر اليه ، وانهما أنشئا هنالك جريدة العروة الوثقى وقاما بعمل عظيم

وهذا العمل هو الذي نبسطه في هذا المقصد ونبدأ القول بسفر السيد من الهند واستئناف اتصاله بالشيخ فنقول :

كان سفره من الهند بحراً من طريق البحر الاحمر ، ولما وصل إلى بورسعيد كتب إلى الاستاذ الامام كتابا أخبره فيه بسفره وأين يقصد وفتح باب المراسلة معه ، وترتب على ذلك سفر الاستاذ إلى أوربة بدعوته ، وإنا ننشر هنا نص كتاب السيد لانه أثر تاريخي من موضوع هذا الكتاب ، وهذه صورته بخطه منقولا بعكس الشعاع الشمسي مع بيانها بحروف الطبع

(*) قد كتبت الفصول الاربعة السابقة عقب وفاة الاستاذ رحمه الله تعالى وطبعت كلها ماعدا مذكرات الثورة العرابية ، ولما كان يتعذر نشر الكتاب في تلك السنين أمسكت عن اتمام تأليفه وطبعه ولم يتح لي ذلك إلا في أواخر سنة ١٣٤٨

كتاب السيد جمال الدين الى الشيخ محمد عبده

٢٣ سبتمبر   برط سعيد

إلى الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد عبده أطال الله بقاءه

الابتهاج بجميل الصنع جزاء تفيض به جامعة الكون على النفوس، كما أقامت بوظائف الوجود، والحمد شهادة تبعث ملكوت وحدانية الهيئة على بثها متشخصات الطبيعة في مشهد العالم، تخليداً للجزاء وتعظيما للأجر، فلك بجميل صنعك مع (العارف) (١) الجزاء الاوفى. وأنا أحمدك على البر والمعروف أداء للشهادة، وأشكر صنوك الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم، وأثني على الشابين الأديبين السيد ابراهيم اللقاني والشيخ سعد الزغلول (٢) والافندي الكريم الذي أنساني اسمه الزمان، وأذكر كلا بالخير في مشهد العالم قياما بفريضة الشكر على الصنع الجميل والعمل الصالح

وأنا الآن في (برط السعيد) أذهب إلى لندره ــ ترسل جواب هذا الكتاب إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر بلنت)

ان أخبار العالم وحوادثه كانت انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لا أدري مستقر (العارف) الآن. أخبره بسفري. والتفصيل في مكتوب آخر يصلك من لندرة إن شاء الله

سلم على كل من عرفنا وعرفناه، واعترف بنا وسلمنا له، والسلام

(حاشيتان)   جمال الدين الحسيني الافغاني

تسلم على صاحب النفس الزكية، والهمة العلية، دولتلو رياض باشا أيده الله تعالى

أرسلت مضمونا (٣) الى صديقنا الحاج المرزا علي أكبر والغرض درجه في الجرائد المصرية بعبارة فصيحة. وأرجو الاهتمام في هذا الامر لانه ضروري جداً

البدار البدار

---

(١) هو عارف أبو تراب خادم السيد الذي جاء معه من بلاد الافغان وكان بقي في مصر بعد نفيه منها وكان السيد يحبه حبا جما ولقبه بالفيلسوف الامي

(٢) كان السيد كثيراً ما يحلي الاعلام بالالف واللام كما كثر عليه الاعاجم

(٣) أي كتابا أو مقالا مضمونا يعني مسجلا

الشيخ الفاضل الهمام الشيخ محمد عبده دام بقاه

جاءتني تحيتك يا شيخ جزء تفيض بجامعة الكون على النفوس كلما
قامت بحماسة الوجد والمحبة شهادة بعثت ملكوت وهداية إلهية
على شهامة شهادات الصيت في مشهد العالم تكشف الطوار وتنفي الأدهر
فلك تحيتي تنعكس مع المعروف أخرا للمروءة وقد أحمدك على كثير
والمعروف أداء للشهادة وشكر صنوك الفاضل الشيخ عبد الكريم
واثني على الشاب الأديب الفاضل السيد ابراهيم اللقاني والشيخ سعد زغلول
والافندي الكريم ... في رسته الزمان واذكركما بالخير في مشهد العالم
قياما بفريضة الشكر على الصنع الجميل والعمل الصالح — وانا الآن في (بورت
سعيد) اذهب الى لندره — ترسل جواب هذا الكتاب الى ادارة جريدة
(المشرق والمغرب) او الى (مستر بلنت) — ان اخبار العالم وحوادثه
كانت انقطعت عني منذ سبعة اشهر وقد لا ادري ما استقر الخلاف الآن
اخبره بسرعة — والتفصيل في مكتوب آخر يصلك من لندره ان شاء الله
سلم على كل من عرفنا وعرفناه واعترف بنا وسلمنا له والسلام

جمال الدين الحسيني الافغاني

ارسلت صورة الى صديقنا الحاج محمد علي البر
والعرض دعمه في الجرائد المصرية بعبارة تصحح
وارجو الاهتمام في هذا الامر
... فبراير ...
العبد ...

ثم ... في ... الكتاب ...
... ابو ...

جمعية العروة الوثقى السياسية

السرية

كان الاستاذ في تلك الاثناء في سورية ولا أدري مادار بينهما من المكاتبة بعد وصول السيد إلى لندن ولا تاريخ سفره اليه بالضبط، وأما (جمعية العروة الوثقى) فهي جمعية سياسية سرية قد بينا مقصدها في مقدمة العدد الاول من الجريدة ، ولكن لم يطلع أحد على قانون الجمعية الاساسي ولا على اليمين الذي كان يقسمه الأعضاء إلا خواص رجال الجمعية وكلهم من خواص المسلمين

أعلم أن الجريدة كانت ترسل الى كبار العلماء والامراء والزعماء في جميع الاقطار الاسلامية وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من انجاله ورجاله ، وقد وجدت بعض أعدادها في محفوظات والدي ووجدتها كلها عند استاذنا الشيخ حسين الجسر في طرابلس

وانني أذكر هنا مالم ينشر من تعاليمها ويمينها ، ولم يذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى شيئا عن القانون الاساسي لها، وقد فاتني أن أسأله عنه ، وأظن أنه لم يكن مكتوبا لئلا يقع في يد غير أهله

وانما كان الغرض البعيد منها إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول ، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم. وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال

وكانت الجمعية مؤلفة من عقود وهذا ما كتبه نائب الرئيس وهو الاستاذ الامام نفسه من الاصول العملية الداخلية للعقد الرابع ونص اليمين الذي كان يحلفه كل من انتظم في عقد من عقودها

﴿ بعض الاصول العملية ، لاعضاء جمعية العروة الوثقى ﴾

العقد الرابع للعروة الوثقى

(١) ينعقد بثلاثه يقسمون اليمين المعهود

(٢) مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون في أمور : التذكير بآيات الله ـ النظر في حالة الاسلام عند بدئه وما كان عليه النبي وخلفاؤه فقط ـ البحث في السبب الذي امتدت به سطوة الاسلام حتى صال على جميع الاديان وكاد يبتلعها في زمن قصير ـ كيف انقلب الحال وآل إلى مانراه ؟

(٣) يلاحظ كل باحث أن ذاته في موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطلبها في غيره، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة و الانصاف

(٤) مدارسة أحكام الجهاد وحقوق المسلم وما هو مكلف به في معاملة غيره وما يفرض عليه إذا زحف الاعداء لخضد شوكة الاسلام

(٥) النظر في حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم للوقوف على احساسهم الديني ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به .

(٦) كتب كل فكر وتدوينه مفصلا ثم مجملا مع ماتستقر عليه الآراء

(٧) العمل في الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال في مساعدة من يقوم بنصر الدين و حمل السلاح المقاتلة بين يديه عند المكنة

(٨) كل واحد من أهل العقد مكلف بالعمل واعداد أسبابه وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل مايفيد أن هناك عقداً . والثقة بمريد الانضمام انما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها

(٩) يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين للأمر من ذوي المكانة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمراء ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة

كل منهم أن يعمل للاسلام فيما خوله الله

(١٠) في كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد ان مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا . العمل بذل المال والروح ، والاول أقرب الدليلين .

(١١) على أهل العقد أن يرسلوا رسلا إلى نواحي الوطن الخالين به وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك

(١٢) لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقد ملكة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة في تصريف القول ، وتوفيق النصح مع طباع المنصوحين وحالة السلطة العارضة عليهم ، فيكون حكيما في عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم يلاحظ عمله

(١٣) يسمح للعقد أن يبعث رسلا من الخارجين عنه على انهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون مناطيق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .

(١٤) على الرسول إن كان من أهل العقد أن يكاشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .

(١٥) من استحق باستعداده الدخول في العقد فعليه أن يقدم رسما ماليا أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع اداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه في تبيين الحق وبثه ، والمعتقد جهده في حمل معتقديه على العمل في مقاصد العقد ، فان استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها

(١٦) يجتمع أهل العقد في كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه في الفصل الاول وما بعده .

(١٧) يجب على كل واحد أن يؤدى في آخر كل جلسة مقداراً من النقد على حسب استطاعته قليلا أو كثيراً يدور على الحاضرين من أصغرهم سناً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ماتيسر خفية حتى لايعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع

(١٨) يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أميناً

(١٩) يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هـذا مال حق التصرف فيه لعقد الاخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس)

(٢٠) يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفي سبيل نشر المشرب وارسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفي إغاثة المقصرين مما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) اما مباشرة أو على يد أحد نوابها

(٢١) يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لحصر أسماء رجاله (ثانيها)لاسماء رسله (ثالثها) لحصر النقد المجتمع (رابعها) لاحصاء النفقات

(٢٢) اذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعي مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يدبروا أمر نموه

(٢٣) على القائم بضبط الحساب في الايراد والصرف أن ينهج الطريقة المعهودة في مركز العقد أن يضعوا لها نظاما حسب المعروف في بلادهم

(٢٤) لايصرف شيء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم

(٢٥) اذا قضت الحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت واحتيج إلى نفقة تقتضي زيادة عن الموجود وجب على أهل العقد أن يبذلوا مافي وسعهم لاتمام العمل .

(٢٦) لايباح لاحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء ، بل لايباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد

(٢٧) على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضا ويعين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة

(٢٨) الاستطاعة لا تفسر بالاهواء حتى يعد كل وهم عجزاً وانما هي المعروفة عند المخلصين التي لا يعدمها الانسان مادام حياً قادراً على الحركة

(٢٩) اذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصلتهم فيما يريدون

(٣٠) القانون الداخلي للاجتماع يضعه أهل العقد

اليمين الذي يحلفه المرتبطون بالعقد

أقسم بالله العالم بالكلي والجزئي ، والجلي والخفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت، لأحكمن كتاب الله تعالى في أعمالي وأخلاقي بلا تأويل ولا تضليل

ولأجيبن داعيه فيما دعا اليه ولا أتقاعد عن تلبيته في أمر ولا في نهي ، ولأدعون لنصرته ، ولأقومن بها مادمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

أقسم بالله مالك روحي ، ومالي ، القابض على ناصيتي ، المصرف لاحساسي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن ما في وسعي لاحياء الأخوة الاسلامية ، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولأراعينها في غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد مايضر بشوكة الاسلام ، فاني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسي في أثره مثل ما آخذ عليها في المدافعة عن شخصي

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ماقدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كليا ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء يتفق رأي أكثرهم عليه ، وعليّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه

من العارفين، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر مايسعه امكاني الوجودي . وأسأل الله نجاح العمل، وتقريب الامل ، وتأييد القائم بأمره، والناشر لواء دينه ، آمين.

النائب

محمد عبده

[المؤلف] من تأمل هذه الاصول وهذه اليمين حق التأمل تجلى له ان كاتبها الداعي اليها المجاهد في سبيل غايتها من أقوى المؤمنين بالله وبما جاء به محمد رسول الله وخاتم النبيين ايمانا، وأشدهم في ايمانهم ايقانا ، وأرسخهم وجدانا، وأعلمهم بمقاصد هذا الدين وتاريخه واصلاحه لامور البشر ،وأعظمهم غيرة عليه وجهاداً في سبيل الله لاعادة مجده ، وتجديد ملكه ، وإحياء شرعه، وانقاذ أهله من الذل . . .

ومن قرأ مكتوباته قدس الله روحه لبعض العلماء والكبراء من المنتظمين في سلك العقد في الفصل الاول من الباب الخامس من منشآته المصدر أكثرها بكلمة شعاره « لا إله إلا وحده لا شريك له وبه الحول والقوة » رأى فيها شرحا جليا لهذه الاصول الجليلة ـ وعلم من هذا وذاك إن خدمة الجم الغفير من كبار علماء الازهر وغيرهم من المصنفين في العلوم الاسلامية المختلفة منذ عدة قرون للاسلام لتصغر وتتضاءل في جانب خدمة هذا الرجل وأستاذه فان علومهم ومصنفاتهم كانت في العهد الذي تهدم فيه ملك الاسلام وضعفت هدايته ولم يكن لها أقل تأثير في العلم والعمل، لأنها كلها مباحث لفظية، ومناقشات في عبارات بعض كتب المقلدين، وليس لأحد منهم فيها كلمة تدل على الشعور بذلك، فضلا عن الدعوة إلى تداركه، والجهاد في سبيله.

ولو شئنا شرح هذه الاصول وما أدمج فيها من الحكم والعبر لزدنا القاريء إعجابا بأمر هذين الحكيمين وجهادهما ، ولا تظن أن بين مافي الاصل الثاني من التذكير بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه فقط، وما في الاصل الثالث من الاعتبار بسيرة السلف، وما في الاصل الرابع من الاشارة إلى أحكام الفقه ـ لا تظن أن بين ماذكر شيئاً من التعارض فان لكل نوع منها غرضاً خاصاً فالاول الاعتبار بنشأة الاسلام وتأسيسه ، وما بعده ظاهر لايحتاج إلى بيان

ولقد كان هو ومرشده الحكيم على هذه الخدمة الاسلامية الخالصة يعطيان

الجامعة الشرقية حقها، والرابطة الوطنية حقها، حتى ان الاستاذ دافع عن بطرس باشا غالي حين طعنت فيه بعض الجرائد المصرية ونسبته الى التعصب للقبط في بعض أعماله وكان الاستاذ يومئذ منفياً في سورية (راجع الجزء الثاني ص ٣٦١ من الطبعة الثانية)

وقد كان: السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الاسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك وكذلك الشيخ محمد عبده معه ومن بعده

وقد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الاسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالا هذه الشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن الذي صدر في باريس في ١٨ رجب سنة ١٣٠١، (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) وهذا نصها:

(العروة الوثقى) لايظهره أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما تميل اليه، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا . ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب ان شاء الله تعالى اهـ

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى)،

وأنبأني الامير شكيب أرسلان أنه سمع الاستاذ يقول ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحدة، والعبارة كلها لي ليس للسيد منها كلمة واحدة.

وإنني أنشر هنا فاتحتها وما يليها من بيان منهاجها، ثم أذكر بعده ما كان من تأثيرها ومقاومة الانكليز لهـا، ثم أبين تلخيص ذلك المنهاج وحصر مقاصده. وتطبيق القول والعمـل عليه للاسلام والشرق عامة، ولمصر والسودان خاصة

فاتحة العدد الاول من جريدة العروة الوثقى

ويليه بيان منهج الجريدة وخطتها

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقاً باحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، في نجاح العمل

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لاتنكرها الأنفس ثم التوت ، أو نزل الاقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لاتحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى مايسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بانه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها ، فلم يجز في زمن من الازمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبه متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى مايمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم ، أن الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لاتحمد ، أو ركون إلى راحة لاتدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها

قوة أجنبية ، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود، ورد المفقود، ولم تجد بداً من طلب النجاة من اي سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقيـة وهي ماتكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى أن لاحاجة لها إلى ماوراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها[1]

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة مابلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لاتحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان، فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ، ولن تعدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة، لكن مايصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك مافرط والاحتراس من الوقوع في مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة.

وإن الحركة التي تبعث لدفع مالا يطـاق اذا قام بتدبيرها قيم عليهـا ومدبر لسيرها ، لايكفي في توقيف سريانهـا أو محو آثارها قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصـدر عنها، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بازالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به ، لاريب أنها تستنكره ، وإن كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ،وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الامم مابينها من الاختلاف في

---

(١) أن هذا العلاج لاكبر الاوهام التي أذلت الامم الكبيرة للعدد القليل من أصحاب القوة الآلية قد كانت تجهله هذه تلك الامم وقد بدأت تعتمد عليه في هذه الايام ، وان مابعده من القواعد الاجتماعية بيان لوسائله وشدة الحاجة اليـه ، ولإزالة الموانع من طريقه

الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر، ألزم من التحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب مايصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل (١)

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عمي عنه الطامع، وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان، ولكن مايأتي به الزمان من عاداته في أبنائه ل مايجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

*

بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً، وذوو حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلما، وأعزاء باتوا أذلاء، واجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أضحوا سقاما، واسود تحولت انعاما، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطماعهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بايدي ذوي المطامع فيها

حملوا إلى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، والزموها ماليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة لينهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع، فكانت الحركة العرابية المشوءاء، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن اخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا

---

(١) هذا تنبيه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يكن يفكر فيه أحد قبله

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلفتها حركة اخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقام قائم بدعوة لها المكانه الاولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدري ان مسببيها في حيرة من تلافيها ، نعم انهم غرسوا غرساً إلا انهم سيجنون او هم الآن يجنون منه حنظلا ، ويطعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العواقب التي لامحيص عنها لمن يغالي فى طمعه ، ويغلغل في حرصه ، ولو انهم تركوا الامر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته ، او اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ماوجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء وهو أنفذ عوامليهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الامة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية المصابين ، وحجاب غفلة للسالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب إخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون إلى مافيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

*

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لايحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية

ان الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغارا ، وما هذا بغريب على المسلمين ،

فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فمن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيراً عاما ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطامع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته إلا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ماتمتد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الالوان ، متقاربة الاشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقي مصالح المغلوبين ، فكان أول مايجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هـذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت ، وليس له أن يغتر بعـدم مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لاتعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شـديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير[١] الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

(١) الكرير صوت في الصدر كصوت المختنق أو المجهود وقد استعارها هنا المراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلة أليق بهذا المقام وأحسن موقعا وأشد تأثيراً فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالمركبات لكن عند وقوعها في التركيب

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ماهم فيه، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض مافقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان في الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونهما تفوتهم ، ولئن فاتت على فكم في الغيب من مثالها ، والى الله عاقبة الامور

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لاينون في السعي، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى مايشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم، رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين، ومناط اليقين، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواقفها الطاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل

*

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم، واختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم،

الى الاقطار القاصية ، تنبيهاً للغافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسيني الافغاني أن ينشيء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقا واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ماحمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الاحوال .

الجريدة ومنهجها

ستأتي في خدمة الشرقيين على مافي الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك مافات ، والاحتراس من غوائل ماهو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الاسباب ومناشيء العلل التي قصرت بهم الى جانب التفريط، والبواعث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخرّيت(١) وضل المرشد ، حتى لايدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين ، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها

وتحاول إشراب الافهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، يكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة

وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض

---

(١) الخريت بكسر الخاء المعجمة وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض وهو معرفة طرقها ومضايقها

الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ماتمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها (١) ولا ضرورة في ايجاد المنعة الى اجماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجيء للشرقي في بدايته، أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف. وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة، المدبج بأشكال المجاملة، شفافا ينم عما وراءه، وتنقب عن المسالك الدقيقة، التي يسري بها الطامعون في دياجير الغفلات

وتهتم بدفع مارمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لايتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون

ولا تهن في تبليغ الشرقيين مايمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لاتظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا أغوروا . وتذهب مذاهب الرشد، وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الامير والحقير، والغني والفقير. ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق اه

(١) يريد الدولة الروسية التي جعلت كل شعوبها وعنيت بجعلهم أمة حربية مسلحة بأحدث آلات القتال وآخذة بأحدث نظمه كما هو مبين في مقالة أخرى

رعب الانكليز من العروة الوثقى
ومقاومتهم لها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين في مصر سنة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١ م) وأنشأ يربي التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسي الذي هو غرضه من الحياة كان من أول ما نشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنوانها «البيان في الانكليز والافغان» وصف فيها قومه الافغانيين بقوله:

«هذه الامة المعروفة بعزة النفس، وشدة البأس، التي لم ترض الدخول تحت حماية الخضجر (١) المبتلى بجوع البقر والاستسقاء، الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من النفوس(٢) ولم ترووه مياه الكنج والتيمس، بل فغر فاه ليلتهم بقية العالم. ويجرع مياه النيل ونهر جيحون اه

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانكليزية وأظهرت الاعجاب به وبها وردت عليها كما تقدم تفصيله في ترجمته من هذا الكتاب فكان أول كاتب شرقي اهتمت الجرائد الانكليزية بكلامه

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى في باريس كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانكليز بما كان له من الاثر الفعال في السياسة المصرية في آخر مدة اسماعيل باشا حتى كان قنصلهم الجنرال هو الذي أغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مريديه ـ وحتى ان حكومة الهند حجرت عليه في كلكته مدة الثورة العرابية وحجبت عنه اخبارها كما تقدم ايضا

لهذا كله حسب الانكليز لجريدته كل حساب وجهر بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها قبل صدور شيء منها كما بينته في العدد الخامس الذي صدر في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ (١٠ ابريل سنة ١٧٨٤) وهذا نصه:

---

(١) الخضجر بكسر ففتح الواسع البطن وهو من اسماء الضبع

(٢) يعني اهل الهند وكان هذا إحصاءهم في ذلك الوقت واما الآن فهم ٣٢٠ مليونا او يزيدون

الجرائد الانكليزية والعروة الوثقى

لو نادينا الغافلين أن انتبهوا . والنائمين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم او أمانيهم او أوهامهم ان التفتوا ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم ، لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم ـ لقال الناس إننا نبالغ في الانذار ونغرق في التحذير . ولو بينا لهم أن الانكليز يؤآخذون الابناء . بذنوب الآباء، والاحفاد بجرائم الاجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن اسلافهم ـ وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف ـ لعدوا هذا البيان مناشططا في المقال ، وميلا عن الاعتدال

ولو روينا لهم أن في قلوب الانكليز حقداً وضغينة على كل ايراني سواء كان من الافراد او الوجوه ، ويسيئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند ، ويمقتونهم مقتا شديداً لان نادر شاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحا على عهد السلطنة التيمورية ، واستولى على خزائن الاموال في دهلي ، وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الانكليز على تلك المملكة بما ينيف عن قرن . ويعضون الانامل من الغيظ ويحرقون الأرم من الاسف على ما أخذه نادر من أموال دهلي ، وحرمانهم من تلك الاموال ، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل إيراني ـ لحسبوا ذلك منا تغاليا .

ولو قصصنا عليهم مايعامل به الانكليز رعاياهم في الهند عموما والمسلمين خصوصا ، وأنه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين إلى جزائر (اندومان) أن يعترف بانه معتقد ببعض آيات من القرآن ـ لانكروا علينا مانقول ، لبعدهم عن تلك الاقطار وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد اقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ولا نريد إقامة الدليل على مانعرفه من أحكام سلطتهم ، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص . ولكن نعرض عليهم نموذجا من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكي مايغيب عنهم من لوازم السلطة الانكليزية

عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنساوية. فكتبوا عنها قبل صدورها، غير مبينين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وانذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد المشرقية. ولجوا في إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية. بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هـذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي. مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لاثارة الخواطر، ولا لايقاد الفتن، وانما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما، والمسلمين خصوصا. وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم. ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل، كما يظهر لكل من اطلع عليها.

فليعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف. والاعتداء والقصاص قبل الجناية، ومن كان سمندلي الطبع فليهنأ له العيش (في ظل ذي ثلاث شعب * لاظليل ولا يغني من اللهب* ولكن فلتعلم الحكومة الانكليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد المشرقية سواء كان بهذه الجريدة او بوسيلة أخرى إذا دعا الحال. فان أنصار الحق كثيرون. اه

[المؤلف] قوله سمندلي الطبع فى الاصل سمندري بالراء وهو محرف، والسمندلي نسبة الى السمندل (كسفرجل) وهو كما قال فى القاموس: طائر فى الهند لا يحترق بالنار. وهذه استعارة والمراد ان من كان لا يشعر بألم نار الذل والامتهان بان كانت طبيعته النفسية كطبيعة السمندل الجسدية الذي لا يألم من مس النار فليهنأ له العيش فى ظل الاجنبي الذي يشبه ظل يحموم جهنم الذي وصفه الله تعالى بقوله للمجرمين (انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب) الخ

فاذا كان هذا شأن خوف الانكليز منها قبل صدورها فهل يستغرب من الحكومة البريطانية بعده أن تمنع دخولها في مصر والهند؟ وهذ ماورد في منع الحكومة المصرية لها في العدد التاسع الذي صدر في ٢٥ رجب ١٣٠٢ (٢٢ مايو)

العروة الوثقى

انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بان تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الاقطار المصرية ، وتراقب جولانها في تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الانكليز في مصر)

أما نحن فلا نظن أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار ، بل لا نتوهم في المستوي على كرسي الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ، ولا يختلج في صدورنا أن مصريا من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل

هذه جريدة قامت بالدفع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها سعي بكل الا مي لخيبة آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمرو ، فان المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وانما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتلاقي قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الامم الشرقية أن يلقوا اسلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الامن من طروق الناهب

هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها الى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الايام قهرية لا يخالطها شيء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانكليز

ولا نريد أن نقول للانكليز إنهم ظلموا في هذا الحكم فان الجريدة لم يوجد فيها الى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مساتيرهم ، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم . لانهم الانكليز الذين إذا

أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو اليه، ويسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ؟ فاذا قال نعم . قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا . فاذا أجابه بأنني درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لانه كتاب ديني، ضرب له الضابط أجل أربعة ايام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث ، فان مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر بعثت به الحكومة الى جزيرة (أندومان) نفياً مؤبداً . ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين

فدولة الانكليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم ، وما عكن أن يهجس في حديث نفوسهم، لا ريب انها تعد وجود لفظ الاسلام في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسعى في تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان ، فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة، ذلك بعزائم أولي العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى

بلغنا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولي الحميم ، ويقابل ثناءه بالذم، ومدحه بالقدح، واحسانه بالاساءة، ويواجه نصيحته بالظنة . ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا اغراء عدو، وانما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة فاذا كشفت له الايام عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصري وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شيء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين، وانما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها . إهـ

تأثير العروة الوثقى فى العالم الاسلامى

انني لاأزال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور ، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول ، وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب ، وإنما كان يقف عند بعض الجمل ، ليعبر عما يخالجه من شعور العجب ، ولم يتركها حتى أتى على آخرها ، ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء مثل هذا بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم .

ثم انني رأيت في محفوظات والدي بعض نسخ الجريدة فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال ، والحرارة والاشتعال ، ماقذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال ، وقد سبق لي وصف تأثير الجريدة في نفسي بوجه الاجمال (١) وإنما كان الاثر الاعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية ، ويليه تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية ، والذي علمته من نفسي بالخبر ومن غيري بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب ، والاقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة إلا هذا

وكأن هذا التأثير هو الذي أوحى إلى صديقنا الامير شكيب أرسلان قوله في مدح السيد جمال الدين الذي أفاض الله تعالى حكمها على جنانه

ومعان لو أوحيت لجماد   هزه الشوق نحوها والغرام
حيرت كل ذي حصاة إلى أن   قيل لاشك انها إلهام

وقوله في كلام الشيخ محمد عبده الذي أبرزها باجمل الحلي والحلل من بيانه

« ١ » هو ماذكرته في ترجمة السيد من هذا الكتاب ص ٨٤

كلام إذا ألقيتـه في جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب يذ-ق
عليـه من النور الالهي مسحة تكاد على أرجائه تتألق

كذلك كان تأثيرها في نفس كل من كان يطلع عليها ، وناهيك بالمطلعين عليها في زمن صدورها،

ذلك بانها قد تجلت فيها تلك الأفكار الجمالية السامية، بتلك العبارات العبدية العالية، وجمعت بين الحكمة وفصل الخطاب ، والاخلاص في تحري الحق ، ومخاطبة القلب للقلب ،فلا غرو أن يكون لها ماعلمنا من عجيب التأثير ، الذي لم يعهد له بعد ما كان من تأثير القرآن في العصر الاول نظير ، وانما كان تأثيرها مستمداً من تأثير القرآن، فهي قد أحيت تدبره والجهاد به ، والدعوة اليه والدعوة به ، والمعاني الاجتماعية والسياسية من تفسيره، فكان قارئها يشعر بالروح العلوي الذى كان يفيض من نوره على ذينك القمرين النيرين، وينعكس من فلكهما على العالم الاسلامي فيحدث فيه من قوة التأثير ما كان يجزم أهل الرأي في الاقطار المختلفة بانه سيحدث ثورة اسلامية قريبة في العالم يعقبها انقلاب عظيم في الشرق

سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر عالم سورية الوحيد في الجمع بين العلوم الاسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول: ما كان أحد يشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان

وسمعت محمد بك علي المؤيد يقول كنت في بغداد في عهد صدور العروة الوثقى و كانت ترسل إلى الزعيم العربي الاكبر في العراق السيد سلمان الكيلاني نقيب السادة الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هـذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا . وكان السيد سلمان من زعماء المسلمين أصحاب النفوذ الكبير في قبائل العراق المسلحة التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية — وأما نفوذه الروحي في الملايين من مسلمي الهند فهو يشبه العبادة أو هو ضرب منها .

وانما أعد القلوب لذلك التأثير سوء وقع احتلال الانكليز لمصر والامل بانقاذها منه بسعي هذين الزعيمين الحكيمين ، فلا غرو أن يكون لذلك الزمان، ولاختيار ذلك المكان ،ولتلك الآمال والآلام ، من السلطان الروحاني على ذينك

العقلين الملكيين، والقلبين المخلصين، ما تجلى نوره في مرآة العروة الوثقى وانعكس عنها على الشرق، فأضاء مافيه من ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمة الجهل بالقرآن، والجهل بتاريخ الاسلام، وظلمة استبداد الحكام، وظلمة فساد الاخلاق العام، ولقد عاد المسلمون بعدها يتسكعون في تلك الظلمات الحالكة، وتلك المصابيح بين أيديهم ينظرون اليها ولا يبصرونها، فأنى لهم الاستضاءة بنورها ؟[١]

وقد رأينا الكل من هذين الحكيمين مقالات كتباها بعد ذلك فلم نر لها من الروعة والدهشة والسلطان على الارواح مالمقالات العروة الوثقى، بل قال لي الاستاذ الامام نفسه: إني لا أستطيع الآن أن أكتب مثلها، وعلل ذلك بما أشرت اليه من تأثير الزمان والمكان والحال والانفعال والأمل ولو عادت تلك المؤثرات لكتب ماهو أبلغ منها، لانه قد ازداد علماً وإيماناً وبياناً، ألم تر كيف كان ما كتبه من الفصول في آخر رسالة التوحيد من ذلك الطراز العبقري، والالهام الالهي، ولكن موضوعه اعتقادي لا عملي، وسبب ذلك أنه كتبها في حالة وجدانية استولت على النفس، فجذبتها من عالم الحس الى عالم القدس.

زرته رحمه الله تعالى في ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥ بداره التي كانت بحي الناصرية فقيل لي انه موعوك لم ينزل من سريره . قلت أخبروه بمجيئي فأخبروه فأذن لي فسألته عن شكاته فقال اني أطلت الفكر ليلا في حال المسلمين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فساورتني آلام عصبية يعتادني مثلها كلما أطلت الفكر في هذا الامر، حتى خطر في بالي أن أنزل من الدار وأذهب إلى مجامع لهوهم وفسقهم العامة في حي الازبكية وأصيح بهم: أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم .. حتى تركتموه ؟ ثم انني لم أجد لنفسي إسعافا يسكن الالم إلا الكتابة. فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد، « انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ » وما يليه من الايراد والجواب عنه

١) اني لاعجب لغفلة معلمي الانشاء في مدرسة دار العلوم وغيرها من المدارس العالية: كيف لا يلقنون الطلاب هذه المقالات، ولا يرشدونهم إلى مطالعة غيرها مما اودعناه جزء المنشآت، ثم يزول عجبي بتذكر إحاطة هذه الظلمات. وكان بعض من أنار الله بصيرتهم من أساتذة مدرسة المعلمين العليا قد طلبوا من وزارة المعارف تقرير هذا الجزء لمطالعة الطلبة فيها فقررته، ثم طلب غيرهم أن تستبدل به كتاب مقامات الحريري فاستبدلته !!! وانهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

مقاصد العروة الوثقى

الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الاسلامية ، الرابطة الشرقية ، المسألة المصرية ، المسألة السودنية ، والرابطة الشرقية مرتبطة بالجامعة الاسلامية في مذهبها ، فليس فيها فصول خاصة بها وقلما تخلو مقالة في الجامعة الاسلامية من ذكرها ، ووجوب الجمع بينهما . وكذلك المسألة السودانية مع المسألة المصرية إذ السودان جزء من المملكة المصرية . ولكن كان للحكيمين سياسة خاصة بالسودان سيأتي بيانها واني ألخص مذهبها في هذه المسائل الثلاث.

الجامعة الاسلامية

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الاسلام الاولى إلى وحدته، وسيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين في اقامته وتأسيس حكومته ، وسيرة السلف الصالحين في هدايته ، وسيرة القواد الفاتحين في تشييد صروح سيادته ، ومذاهب الأئمة المجتهدين أي طرقهم العلمية الاستقلالية في تدوين شريعته ، ومناهج الحكماء والفنانين في تكوين حضارته، وتوجيه جميع شعوبهم الى استقلال بلادهم واتحادها وتعاونها على إحياء مجده، بترك عصبيات المذاهب والجنسيات المفرقة لكلمة أهله.

واما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل قال في المقالة التي وضعنا لها عنوان (الوحدة الاسلامية) التي نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخصا واحداً فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، ألا إن هذا بعد كونه

أساسا لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات » اه (راجع المقالة في ص ٢٧٦ من الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية)

وضرب لهم في المقالة التي أنشأها لدعوة الايرانيين والافغان للاتفاق والاتحاد مثلا الشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين في النصرانية على نحو من اختلافهما وقال : فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الامة الالمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوربة . وعند مارجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية ، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، رجع اليهم من القوة والشوكة ماصاروا به حكام اوربا وبيدهم ميزان سياستها اه (راجع ص ٣١٦ ج ٢ طبعة ثانية)

والظاهر أنه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الاصلاح الاسلامي المدني والحربي في كل شعب له دولة او تصير له دولة ، وعقد المحالفات بين هذه الدول (كالترك والفرس والافغان في ذلك الوقت) ثم الاعتراف لاقواهن برياسة الحلف بتمثيله للخلافة الاسلامية ، كجعل الدول الالمانية ملك بروسية امبراطورا للمملكة وعاصمته مركز الوحدة العامة ، مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها

أنشأ لهذا الغرض بضع عشرة مقالة صدر أكثرها بآيات من القرآن وأقلها بحديث أو عنوان يناسب موضوعها، ولم يضع لاكثرها عناوين غير هذه الآيات وقد نشرناها ومقالات أخرى أدبية واجتماعية في الفصل الثالث من الجزء الثاني (منشآت الاستاذ الامام) وجعلنا لها عناوين تليق بها

وأرى أنه لايتم لقاريء هذا التاريخ ما كان الحكيمان يريدان من فكرة الجامعة الاسلامية والاصلاح الديني إلا بقراءة تلك المقالات، التي نشرناها في الفصل الثالث من جزء المنشآت ، وحسبي هنا أن أصف بعضها ، وأذكر بعض الشواهد منها .

مقالة (١)

الجنسية والديانة الاسلامية

بدئت هذه المقالة ببيان ضاف في عصبية الجنس ونعرته ومكانتها في الامم ، والحاجة اليها في الاجتماع ، وتجاوز الناس حد الحاجة فيها إلى الانفة من سلطان المخالف في الجنس وان كان عادلا مصلحا ، لان في قبول حكمه مهانة وذلا ، واستثنى من هذه الضرورة للعصبية الجنسية ماتزول به فائدتها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع وأعم وأشمل منها ، وهي العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها في الوجدان والحس ، وضرب لها عصبية الدين الاسلامي مثلا وبين حال المسلمين فيها ، وعللها بما ينقض دعوى بعض ملاحدة هذا الوقت أن الاسلام رابطة روحية ، ليس له تشريع ولا سياسة مدنية اجتماعية ، وفيه بيان قاعدته في السلطة العليا وهي الخلافة فقال :

« لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الادنى إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس او قبيلة أو قوة بدنية ، او ثروة مالية ، وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الامة ، فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم الالهية المقدسة التي لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الامة ، وليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها »

ثم استدل على ماذكر بشيء من الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين على ذلك في القرون الخالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ماذكر واختلالها باختلاله ، ومنه قوله :

---

١) نشرت في العدد الثاني الذي صدر في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٢

« وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، رجعت الاجناس إلى تعصبها ، ووقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع »

(ثم انتقل من هذه المقدمات إلى القصد الاسمى ، وهو تأسيس حكومة إسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة فقال) :

« ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الاديان بالتأثر والاسف عند مايسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها ، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك أتعابا ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ، ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية . ومن سيره هذا تنبعث القوة ، وتتجدد لوازم المنعة » ثم ختم المقالة ببيان مايخالف هذا المقصد فقال

« ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجؤن للدخول تحت سلطة أجنبية ، على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند اول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالالم رجع واسترجع . وان بعض مايطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن مناهج اسلافهم الاقدمين ، فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد مايكون ضررهما بالسلطة العليا

« فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض إلا قليل من الزمان الا وقد أتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين، وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد » اهـ

مقالة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (١)

مقالة طويلة تزيد سطورها على ٢٣٠ سطراً ، تزين ٩ ص ونيفا ، افتتحها بآية (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ثم قال

«أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم، فاذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد في ساحتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل ، نمت فيها افنان العزة بعد ماثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ماكان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بان لاسعادة لها إلا بانتهاج منهجها، وورود شريعتها ، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر، وهو لها بدن عامل

« وبعد هذا كله وهى بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصا ، وتبدد ماكان مجتمعاً ، وانحل ماكان منعقداً ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد، و نصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية »

«١» نشرت في العدد الثالث المؤرخ في ٢٩ جمادى الاولى

وأخذ بعد هذا في وصف حال هؤلاء الافراد الذين فقدوا السلك الذي به كانوا أمة في حياتهم الفردية وما فعلت بهم قناعة البهم ، وما حشا أدمغتهم من جهالة الوهم، حتى حاق بهم القنوط واليأس ، فـلك أعناقهم في سلاسل الجبن وحبس أرجلهم في مقاطر العجز، وغل أيديهم عن العمل، وأقدامهم عن السعي، ثم قال

« نعم رأيت كثيراً من الامم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وا أسفاه ! ما أصعب الداء ! وما أعز الدواء ! وما أقل العارفين بطرق العلاج ! » ثم طفق يتساءل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لان كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه....

« كيف تبعث الهمم بعد موتها ـ وما ماتت إلا بعد ماسكنت زمانا غير قصير إلى ماليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم ـ وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدبر المقصد ، وفي كل خطوة ، يظن أنه على مقربة من الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المبتهج باحلامه ، وفي أذنيه وقر ، وفي ملامسه خدر ؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها ، وتتناءى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها ؟

« هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ماتراكم جهل وران غين وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر ؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير

(وههنا أخذ يبحث في حقيقة الدواء ومرض الامة والفرق بينه وبين معالجة مرض الافراد الجسدي ويستعرض الآراء في ذلك، ومنها ذهاب بعض الناس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحو ما في أوربة ويبحث في كل منها من حيث الامكان والاتقان ومسالمة الزمان ووضع تلك العلوم الغريبة في مواضعها على الوجه الموصل إلى مقاصدها مع مراعاة استعداد الامة وطبائعها .

وضرب المثل لقلة غنائها في ذلك بما في مصر والدولة العثمانية منها وما كان من سوء تأثيرها في توسيع مسافة التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام وجعل النوافذ والخصاص في بنيان الامة أبوابا « لتدخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير »

(وانتقل من ذلك إلى وصف المتخرجين في هذه المدارس المصرية والعثمانية الذين أضعفوا الامة بدلا من أن تنال بهم من المنعة والقوة مايرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، وتهكم بما يتشدقون به من ألفاظ الحرية والوطنية ، وسخر بما يفخرون به من الاسراف في الانفاق والزينة محاكاة للاجانب في بداية تقليدهم لهم بما هو ثمرة ونهاية لعلومهم وفنونهم لاوسيلة لها ، وأشار إلى مانسفوا بذلك من ثروة بلادهم إلى غيرها وما أماتوا من الصناعات الوطنية وأبادوا من أهلها ونعت هذا التقليد السيء التأثير بأنه « جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هكذا إلا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها » ومما قاله في هؤلاء المتفرنجين المقلدين :

وصفه المتفرنجين المقلدين

« علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث ، بان المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من ليس على مثالهم ، شؤما على أبناء أمتهم ، يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم ، وإن جلت — إلى أن قال — ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بانهم لايعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم »

(وههنا ذكر أنه لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ماتغلب الانكليز على بعض أراضيها (حتى عاصمتها) لما بارحوها إلى أبد

إلا بدين ، لأن الاجانب ماطرقوا أرضاً لأية أمة إلا أقبل هؤلاء المتعلمون عليهم يعرضون أنفسهم لخدمتهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم ويعدون الغلبة الاجنبية مباركة عليهم وعلى أعقابهم)

(ثم أجمل ما فصله من تفنيد ماقيل من علاج هذه الامة وانتقل منه إلى العلاج الصحيح الذي قال فيه إنه سبب يجمع كل الاسباب ووسيلة تحيط بجميع الوسائل وحصر ذلك فيما أشار اليه في أول المقالة من حياة هذه الامة وقوتها وعزتها في نشأتها الاولى فكان ذلك شرحاً لقول الامام مالك : لايصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها .

مقالة

النصرانية والاسلام والمقابلة بينهما في طلب السيادة والسلطان والقوة العسكرية والنظام (١)

عنوان هذه المقالة (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ويليها مقدمة فلسفية في « خلق الله الانسان عالماً صناعياً » في أطواره المعاشية والعلمية والادبية والاجتماعية، ليس فيه من تأثير الطبيعة في شخصه ولا فيما يحيط به إلا مايكون في الاستعداد والقابلية فكل ماينالهُ من علم وعمل « فهو ثمرة ماغرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعاً . فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي » ثم انتقل إلى مكان الدين من نوع الانسان وما له من الكسب فيه فقال

« هذا مالا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحيه ؟ وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لاتحتاج فيه إلى تذكير لانه مما لايعزب عن

(١) نشرت في العدد الرابع بتاريخ ٧ جمادي الآخرة

الاذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن أن منكراً يجحدها :

« إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر تتلقاه العقول عن البشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الامم أول مايمتزج بالقلوب ويرسخ في الافئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الابدان على ماينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ماتدبر به بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول مايخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات حتى تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال»

بعد هذا شرع في الموضوع « وهو الملة النصرانية والملة الاسلامية » فاثبت ان الاولى بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت باطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية وكذا الدينية » الخ وأشار إلى بعض الشواهد على ذلك من الانجيل وانتقل منه إلى التعجب أو التعجيب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي في المفاخرة بزينة هذه الحياة واستيفاء لذاتها والمسارعة إلى افتتاح الممالك والمسابقة إلى اختراع آلات الحرب والتوسع في فنونها والمبالغة في تنظيم الجيوش وسوقها الى ميادين القتال « حتى صار الفن العسكري من اوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى غيرها »

(وقفى على ذلك بالكلام في طبيعة الديانة الاسلامية فقال)

« الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب

الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لاريبة فيه بان المعتقدين بها لابد أن يكونوا اول امة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها

« ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن ان من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى مايسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه»

(ثم انتقل من بيان هذه الاصول الى بيان حال المنتمين إلى هـذه الديانة في هذا العصر من تهاونهم بالقوة وعدم عنايتهم بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع آلاته، ودهشته من اضطرارهم إلى تقليد اولى الديانة السلمية فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وبنى على ذلك أسئلة كثيرة نذكر بعضها)

« لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، او ألقي شيء منها في أمالي معلميهم وناشري شريعتهم، عند مايتربعون في محافل دروسهم ؟

« هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هـل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ او وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال؟ أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ؟ او تعاصت النفوس على الانتقاش بنقشته وهو اول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ »

(وهنا فند نسبة هذا التباين الى اختلاف الاجناس او طبائع البلدان ، واحتج

عليه بما حفظه التاريخ للعرب والفرس والترك عند ما كانوا في شبيبة دينهم من الاعمال العسكرية التي ادهشت الالباب) ثم قال

«كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها ، وذكر ملكام سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس ان محمودا الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها

« فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن من قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام الحيرة وموضع العجب، ويظن أنه لابد لهذا التخالف من سبب، نعم وتفصيله يطول ولكننا نجمل على ما شرطنا »

أجاب عن الاول بما نلخصه في القضايا الأربع الآتية

(١) ان الدين المسيحي انما نشره في أوربا أبناء الرومانيين الذين ورثوا ملكات الحرب والقتال عن آبائهم فجاء مسالماً لعاداتهم ومذاهب عقولهم، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقه الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم شيئا مما ورثوه عن أسلافهم

(٢) ان صحف الانجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن مما يتناوله الناس كافة ، بل كانت مذخورة عن الرؤساء الروحانيين

(٣) ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا لقومهم حرب الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول

(٤) ان هذه الحرب أعقبتهم زعزعة في العقائد المسيحية [فافترقوا شيعا ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما] الخ

وأجاب عن الثاني بأربع قضايا يجمعها أمر عام هو الاحداث في الدين (الاولى) عقيدة الجبر التي اخترقت الاذهان وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن

الاعمال (الثانية) ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع — وشرهم فرقة الباطنية — من البدع في الاسلام (الثالثة) شبهات السفسطائية (الرابعة) الاحاديث الموضوعة [وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم، وفتوراً في العزائم]

وعزز هذه الأربع بخامسة لولاها لم يكن لهن ذلك التأثير في تشويه الاسلام وإضعاف المسلمين وهي [النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة. لعل هذا هو العلة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه]

وهذا نص صريح من نصوص كثيرة في إثبات أن الاصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكيمان كلاهما هو الرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه (رض) قبل حدوث البدع والمذاهب

ثم ختم المقالة بموضوع الدعاية فقال « الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وان كان حجابها كثيفا — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم، وتغالب لاينقطع، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج، وحيث ان الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولايزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلابد يوما أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الاغيان

« وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجها ولا يخصص لها طريقا، فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ماساء منهم، فيتقدمون على سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة، حفظاً لحقوقهم وضناً بانفسهم عن الذل. وملتهم عن الضياع، والى الله تصير الامور » اه

مقالة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

جعل عنوانها آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهي تفصيل او كالتفصيل للخاتمة المقالة التي قبلها. وبدأ القول فيها ببيان ما امتاز به المسلمون من الشدة في دينهم والقوة في ايمانهم وارتباط بعضهم ببعض بمقتضى عقيدتهم وغيرة القريب منهم على البعيد بحيث لو سمع أي مسلم في أي بقعة من الارض أن مسلما ارتد عن دينه لعد ذلك من أعظم المصائب وان طال عليه العهد وانطوت عليه القرون، — وذكر ما يوجبه الدين عليهم من حفظ ملكهم وبذل المال والروح في سبيله ومن الهجرة من دار الحرب التي يكون فيها السلطان لغيرهم

وانتقل من هذا إلى بيان حال مسلمي هذا العصر في التقصير بهذه الواجبات وضرب المثل له بما كان من اعتداء الانكليز على أفغانستان ورؤية جيرانهم من أهل بلوجستان ذلك — ومن اعتدائهم على بلاد فارس ورؤية جيرانهم الافغانيين لذلك — وعدم تحرك النعرة الدينيـة من هؤلاء ولا أولئك . ثم ضرب مثلا آخر ما جرى في مصر في ذلك العهد فقال

« ان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهابا وإيابا تقتل وتفتك ولا نرى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وشمائلهم »

وقفى على هذه المقدمة بالتعجيب من الجمع بين هذه الحال وما ينافيها ولا يتفق معها من عقائد المسلمين . وأشار الى القاعدة التي بينها في المقالة التي قبل هذه من سلطان العقائد الدينية على النفس الباعثة لها على أعمالها ، وقيدها بقوله

*) نشرت في العدد الخامس بتاريخ ١٤ جمادي الآخرة

في شرط تاثيرها «لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها »

وشرح هذا الموضوع شرحاً علمياً فلسفياً بين فيه أن شأن جميع الروابط الطبيعية والجنسية كشأن الرابطة الدينية والافكار العقلية في تأثير كل منها في النفس بما شأنه أن يبعث على العمل، وأن ذلك لا يتم إلا بالتربية والعمل بمقتضى تلك الشؤون النفسية، فاذا لم تدع الضرورة الاجتماعية إلى العمل بها ضعف أثر الرابطة « ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات » ثم قال

« بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك سبب سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطئهم عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين إلا في العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الاعمال، وانقطع التعارف بينهم، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل .

« فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا . بل العلماء في قطر واحد لا ارتباط بينهم . . . . (الى أن قال)

« كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وتضمحل هيئة الجسم

« بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما اقتنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم

« كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان . ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام : خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس. تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها، وانحطت رتبة

الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة

ثم ذكر ما كان من ظهور جنكيز خان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا ، وما كان من انفصال عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ، وافتراق المسلمين فرقا كل فرقة تدعو الى ملك أو مذهب ، «فضعفت آثار العقائد التي تدعو الى الوحدة ، وصارت صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في النفس من خزائن المعلومات ، ولم يبق من آثارها الا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل بعض المصائب بالمسلمين بعد أن ينفذ القضاء ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت لا يدعو الى تدارك النازلة.

ثم عطف على العلماء فذكرهم بما يجب من العمل لتأسيس الوحدة الذي هو موضوع جمعية العروة الوثقى وسيلة ومقصدا فقال :

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين . ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر . «ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم . ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر — ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى الى نشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع ... فلو أبدع مبدع امكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة الخ

مقالة التعصب (*)

جعل عنوانها آية (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) وكانت الحاجة اليها شديدة لان الجريدة قامت بدعوة قوية إلى عصبية اسلامية عامة لم يعهد لها في الاسلام نظير بعد العصر الاول ، وكانت سبقتها في التاريخ دعاية صليبية في أوربة استنفرت جميع شعوبها لقتال المسلمين وابادتهم من البلاد المقدسة بل من الشرق كله، فنفروا خفافا وثقالا ، واستعرت نيران تلك الحروب قروناً وأحرقت أجيالا ، كما أن التعصب المذهبي في النصرانية نفسها أثار حروبا أخرى لم يخمد سعيرها إلا بتوازن القوى بين الدول التي تدين بالكاثوليكية والدول التي تدين بالبروتستانتية، وما تلا ذلك وأعقبه من الحرية والالحاد في الدين ومناهضة عصبيته واللهج بذمها والتحذير من ضررها

ثم ظهر السيد جمال الدين بسياسة جديدة في الشرق كان الغرض منها احياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم، واستقلال بلادهم بنفسها، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الاسلام هو الغالب في ممالك الشرق الادنى كبلاد الترك والفرس والافغان والعرب وشطر أفريقية الشمالي كله وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادي باختلاف المذاهب والاجناس المحظور في دين الاسلام ، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بحقيقة الاسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعي لتلافي ذلك فرضا دينيا — لما كان ما ذكر كما ذكر — كان من مقاصد السيد جمال الدين الاساسية ، بل أهمها تجديد الاسلام واصلاح ما أفسدت فيه البدع والعصبيات المذهبية والجنسية باحياء الرابطة الاسلامية الاولى التي عنوانها قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) كما تقدم بيانه في أصول جمعية العروة الوثقى وفيما لخصناه من المقالات الخمس من جريدتها

وكان من حكمته البالغة التي جرى عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الاسلامية والرابطة الوطنية في البلاد التي تتعدد فيها الملل بحيث لا تجد

*) نشرت هذه المقالة في العدد السادس الذي صدر في ٢٨ جمادي الآخرة

الاقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الاصلاح الاسلامي الذي جرى عليه كما كان شأنه وعمله في مصر بل أجمع أرباب الاقلام على تلقيبه بفيلسوف الشرق ،

ولما كانت صيحة الدعاية الاسلامية في هذه الجريدة شديدة كالصاعقة وكانت تشتبه بما عرف عنه وتعارض ماذكره في بيان منهاجها من الجامعة الشرقية العامة، والرابطة الوطنية الخاصة، أجاب المشتبهين بما تقدم بيانه بعد بيان أصول جمعية العروة الوثقى وبقي عليه أن يبين بطلان مااشتهر بين الناس من معنى التعصب ومن تخصيص الديني منه بالذم والمقت ويجلي حقيقته ويشرح فائدته وهو ماعقد له هذه المقالة في العدد السادس من الجريدة فكانت هي الحكمة وفصل الخطاب ، وقوبلت بالحظوة والقبول من أولي الالباب . ولم يعترض عليها أحد من أهل الاهواء ، وتلخص في بضع مسائل :

(١) تجهيل الذين يتفيهقون بذم التعصب والتهكم بهم

(٢) بيان معنى التعصب في اللغة وفي الاجتماع البشري

(٣) بيان كونه من الصفات والروابط البشرية النافعة التي لها وسط هو الكمال الذي لايقوم أمر اجتماعي عام في تكوين الامة وحياتها بدونه — ولها طرفا أفراط وتفريط كلاهما نقص ضار ، فالافراط فيه مايحمل أصحابه على الدفاع عن الملتحمين معهم بلحمة العصبية بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم . والتفريط هو اهمال ماتدعو اليه من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذي يفضي إلى اضمحلال الامة لعدوان غيرها عليها .

(٤) الرد على الذين يخصون التعصب الديني بالمقت والذم من الافرنج ومقلدتهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس في حقيقته وفائدته في حالة الاعتدال ، وفي ضرره في حالتي الافراط والتفريط

(٥) في سيرة المسلمين وتاريخهم في هذا التعصب واثبات كونهم أدنى الامم الى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك

(٦) عناية الافرنج الطامعين في بلاد المسلمين ببث الدعاية لتنفيرهم من العصبية الدينية لعلمهم أنها لاتكون إلا بالعقيدة فهم يزينون لهم « هجر هذه

الصلة المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً » —إلى أن قال « وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً ، فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد مافقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها حمقاً منهم وسفاهة . فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فاضطر إلى الاقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته »

(٧) نصب الدول الاوربية الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها لاصطياد من يساعدها على سياستها هذه (قال) « ولم تعدم صيداً من الامراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم

«وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ، ولكنا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويهجرون (١) في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين » الخ

(٨) بيان عصبية الافرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، «واذا عدت عادية مما لايخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحا وعويلا ، وهيعات ونبآت ، تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية ، وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ،وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الامر ، وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها ، حتى لاتنخدش الجامعة الدينية (وذكر أن دولهم تتفق على هذا مع اختلافهم فما عداه وتحاقدهم ثم قال)

« أما لو فاض طوفان الفتن وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في

(١) يهجرون من هجر القول بالضم وهو فحشه وقبحه

الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني الخ (أي لان الدين رابطة اجتماعية وسياسية فهؤلاء يتعصبون له من هذه الجهة) وضرب للمتدينين منهم مثلا الوزير غلادستون رئيس أحرار الانكليز الذي لاتخلو خطبة من خطبه من نفثة من نفثات بطرس الناسك مضرم نيران الحروب الصليبية

وختم المقالة بوصية المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التي يجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي فتحفظ بها حياة الجميع الملية مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله « في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام في المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الاديان المختلفة الذين لاتقوم مصالحهم إلا بمصالحهم الخ « وبمباراة الامم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية »

مقالة القضاء والقدر [1]

كانت الحاجة داعية الى هذه المقالة كما كانت داعية الى مقالة التعصب أو أشد . ذلك بأن الافرنج والمتفرنجين يزعمون ان عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التي كانت أهم الاسباب لضعف المسلمين وتخلفهم عنهم في الكسب والعلوم والفنون والملك والغلب ، لانها تعطل المدارك والقوى بجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيقعده ذلك عن علو الهمة في العمل . والامر بضد ذلك فان هذه العقيدة تعلي الهمة ، وتنفخ في الانفس روح الشجاعة ، وتصغر عندها العظائم ، وتهون عليها مصارعة الشدائد ، وانما

---

(١) نشرت في العدد السابع بتاريخ ٤ رجب ١٣٠١ «اول مايو سنة ١٨٨٤»

العقيدة التي لها ذلك الأثر الرديء عقيدة الجبر وهي بدعة حدثت في الاسلام كما بين هذا في مقالة المقابلة والموازنة بين الديانتين الاسلامية والمسيحية في طلب السيادة والاخذ باسباب المنعة والقوة الحربية .

فالغرض من هذه المقالة بيان حقيقة عقيدة القضاء والقدر والاستدلال على حقيتها بالبرهان ، والفرق بينها وبين عقيدة الجبر، ودحض شبهة من سوى بينهما ، وبيان ما كان للايمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين وعلو مكانتهم ، والدعوة الى سلوك سبيل الله فيها ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة الحجة على المسلمين الحاضرين المستضعفين، بما كان من عظمة سلفهم الأعزة الغالبين ليحيوا سنتهم ، ويبنوا بناءهم ، وقد وفت هذه المقالة هذه المباحث حقها من البيان والتحقيق بما عجز عن مثله جميع العلماء المتقدمين والمتأخرين ومما قاله في هذا :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور ، هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال، ويحليها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل مايعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

« الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أوملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية »

(وذكر ههنا بعض آيات القرآن في بعض الغزوات النبوية وقرن بها وصف الفتوحات الاسلامية بعبارات خطابية شعرية ولكنها حقيقية ، ثم قال)

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لايخشون فقراً ولا يخافون فاقة

«هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تاخذ النساء رهبة، ولا تغشى الاولاد مهابة

«هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الاكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم»

وختم المقالة بما ظهر من بوادر الرجاء في عودة المسلمين إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الاسلامية سليمة من مخالطة البدع لها، وطروء الوهن والزلزال عليها: واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوما بعد يوم (وقال بعد الدعاء لها) ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً » اه

مقالة الفضائل والرذائل

وأثرهما في الافراد والأمة (*

عنوان هـذه المقالة آية (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) والكلام فيها منتظم في سلك الدعاية بالحكمة ، لا سلك القضايا العلمية الفلسفية المحضة ، فهو يصور للقاريء تأثير الاخلاق في الافراد ويجعلها مع المشاعر مثالا لتأثيرها في الأمم، وينتقل من الكلي الى الجزئي فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الاسلامية في المسلمين ، وما نالوا بها من الملك والعظمة العلمية والعملية ، وما آل اليه أمرهم بما

*) نشرت في العدد الثامن بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٣٠١

طرأ على أخلاقهم ويصف العلاج له ، ومما ابتكره في تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الانسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل في الأمة بقوى الحياة في الفرد المخصصة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها قوله

« وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها ـ كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله »

(ومما قاله في سوء تأثير الرذائل في إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها في إفساد الافراد قوله) :

« هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في الاعمال بالقسر ، فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الاوصاف (أي الرذائل التي ذكرها ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاء الفاشية الآن) ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للاجنبي عنهم ، يمهدون السبيل للغالبين إلى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من احشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً » الخ

وختم المقالة بالرجاء في همم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ماعرض المسلمين من الضعف في أخلاق دينهم واهمال فضائله ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ... ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

مقالة الوحدة الاسلامية (*

عنوان هذه المقالة في العروة قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ويليه وصف لما بلغته دولة الاسلام وفتوحه في نشأته الاولى وبيان حدودها في خريتة الارض ، وما كان فيها من العمران والعلوم والعلماء ، وما كان لها من الجيوش والاساطيل ، ويليه وصف لحالهم في هذا العصر على كثرة عددهم وبيان سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ووصف علاجه وقد نوهنا بها في أول هذا البحث عند الكلام على بيان المراد من الجامعة الاسلامية ونقلنا شاهداً منها

ومما قاله في هذا

«نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لانا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلاطين في جنس واحد، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات فضلا عن التقصير في طلب مالم ينالوا منها، والاغسار (١) دون الترقي في عواليها ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فاهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم

«هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الوغى لايجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب

(١) الاغسار جمع غسر ككتف وهي الامور الملتبسة المشكلة

الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة، وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل

«هذا الذي أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا اطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية، ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الاعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها

«ألا قاتل الله الحرص على الدنايا والتهالك على الخسائس، ما أشد ضررهما، وما أسوأ أثرهما، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم. وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الاباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف؟ افادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

«أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير او ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي، هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله، فخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب.» الخ

مقالة الوحدة والسيادة ، أو الوفاق والقلب

عنوان هـذه المقالة حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » تكلم فيها عن الوحدة والسيادة والطريق الموصل اليهما ، وما يرجى من علماء المسلمين من السير بهم في هذا الطريق ، أثبت فيها أن هذين الامرين هما السببان لنشأة الدول ، وبقاء الامم ، وانهما يحصلان باحدى ثلاث علل : الضرورة أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أنهما ركنان من أركان السياسة والاجتماع للملة الاسلامية فرضهما الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضـة خزي الدنيا وعذاب الآخرة . وأورد بعض النصوص على ذلك مع شرح كل ذلك بما لا يستغني مسلم عن تدبره

مقالة استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها

وهي أخصر المقالات لما تقدم من بيان هذه الرزية في المقالات السابقة ، وينبغي لقارىء هذا الجزء اذا بلغ هذا الموضع أن يرجع إلى الجزء الثاني فيقرأها فيه . وهي المقالة الحادية عشرة من مقالات العروة الوثقى (ص ٢٨٨ ج٢ طبعة ثانية) وحسبنا مالخصناه وما أشرنا إلى موضوعه من تلك المقالات، وانني أنصح لشبان المسلمين أن يطالعوها كلها ، ويكرروا ذلك حتى يتمكن من قلوبهم كل مافيها، فيزدادوا إيماناً وحكمة، وعلما وبلاغة، وعلوا في الهمة ، وغيرة على الامة ، واعتصاما بحبل الملة .

وليعلموا أن كل ربح يربحه الانسان في الدنيا فهو دون ربح نفسه ، وكل خسار يرهقه فهو دون خسران نفسه ، وانه انما يربح نفسه بتزكيتها وجعلها أهلا لجلائل الاعمال ، التي تنال بها الامم معالي الآمال، ويبلغ بها الافراد مقام الكمال



المسألة المصرية

بنيت سياسة جريدة العروة الوثقى في المسألة المصرية على ثلاثة أمور (أحدها) ان الدولة صاحبة الحق الرسمي في مصر هي الدولة العثمانية صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول على هذا القطر (ثانيها) ان هذه المسألة من الامور الدولية التي تهم جميع دول أوربة لما لها من المصالح المالية فيها ولان مصر الطريق البحري الاعظم الاقرب بين الشرق والغرب (ثالثها) ان في الدول العظمى دولتين ثنتين ترجى مساعدتها لمصر وللدولة العثمانية على حمل الانكليز على الجلاء عن القطر المصري (أولاهما) فرنسة ذات المصالح المالية الكبرى فيه وذات النفوذ الادبي والسياسي الذي يعز عليها زواله (والثانية) الروسية التي تعد الدولة البريطانية أقوى خصم لها في سياستها الشرقية ومقاصدها البحرية ،

فكانت مقالات العروة الوثقى في الدفاع عن مصر والسعي لانقاذها من الاحتلال الانكليزي تنحصر في خمس وسائل (١) تهييج مصر والهند والرأي الاسلامي العام عليها ـ (٢) حث الدولة العثمانية على السعي لاخراجها من طريقي السياسة والقوة معا ـ (٣) محاولة إقناع فرنسة بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والادبي ـ (٤) إغراء روسية بالزحف على الهند والاعتماد في ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الديني هنالك باستمالتها اليها ، وعلى مساعدة دولتي الافغان وإيران على ذلك باتفاق يعقد بينها وبينهما إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل . وهنالك أمر آخر عظيم الشأن ، وهو (٥) تعظيم خطر ادعاء محمد احمد السوداني للمهدوية ، وما يتوقع من تأثيره في العالم الاسلامي كله

وكان الغرض الاول من هذه الوسائل كلها إقناع الدولة الانكليزية نفسها بالجلاء عن مصر وتسليم حكومتها الى « اولي العزم من المصريين » والاعتماد على صداقتهم في حفظ طريق الهند (قنال السويس) وقد جاء في بعض مقالات العروة وصف الانكليز بانهم على طمعهم الشديد وصلابتهم يراعون طبيعة العمران وتطور

الزمان . وأما إيقاد نيران الثورة عليهم في مصر وبلاد العرب والهند فهو الذي يلجأ اليه اذا تعذر الغرض الاول

وانني أذكر هنا بعض الشواهد في المسائل الاربع على إدماج بعضها في بعض ثم أذكر لدعوى المهدوية شواهد أخرى عند الكلام على مسألة السودان التي هي فرع المسألة المصرية ، إذ كان للحكيمين سياسة خاصة كما كان للانكليز سياسة خاصة فيها ، وأبدأ القول في المسألة الاولى بتلخيص مقالة في وصف حال مصر نشرت في العدد الاول من العروة في (سياسة انكلترة في الشرق) لما فيها من بيان مكانة مصر وما يرجى لها من الاستقبال المجيد وسبب طمع الدولة الانكليزية فيها ،

الوسيلة الاولى اثارة العالم الاسلامى

﴿ مقدمة في ملخص وصف حالة مصر وسبب طمع الانكليز فيها ﴾

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الاول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الاشراف ويحسبها المؤرخون في تلك الاوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها ، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفا في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعد ما فوضت أمورها لمحمد علي باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقيـة بلا استثناء ، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الامور

هل كان في حسبان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعته

الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه ؟

بلى ، كان هذا في الغيب وابرزه القدر الالهي ، ونالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار الناظرين : طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدما غريباً، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادىء المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحاؤها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشيء فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، وائتلف الجنوبي بالشمالي ، والشرقي بالغربي ، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ماجالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى اقاصي البلاد الغربية، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساع ، فأثرى في مغانيها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد اليها يجد اهلا خيراً من اهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة ، حتى كان الداخل اليها يخيل له انه تحت برج بابل يوم تبلبلت الالسن .

وساد بها الامن وعمت الراحة ، وضارعت في كل أحوالها نوع ماعليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان المتأمل في سيرها هذا يحكم حكماربما لم يكن بعيداً من الواقع ، ان عاصمتها لابد أن تصير في وقت قريب او بعيد كرسي مدنية لاعظم الممالك المشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفس جيرانها من سكان

البلدان المتاخمة لها[1] وهو أمامهم الفرد ، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير ان الايام كأنها حسدتها على مامنحته، فعثر العاقل ، وفرط المالك ، واغتر المعجب، وتهور الغبي ، وخار الافين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر مالم يكن له أثر إلا في حواشي طوامير الاوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألمت بإدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس ابواب، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات، فتفرق اتصال، وتقطعت أوصال ،فضعفت السلطة الوازعة، ونبذت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن

قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الاول إلى رأي قويم وعزم ثابت، ووازع قوي تدين لسطوته النفوس. وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الاوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يمهد اليه، لكن تحكم طمع واخطأ ظن ،فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة

أشفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال اوظنت ان آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت ان اعادة الامن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شا كل ذلك ما لاحاجة لبيانه ، وعم بعض انواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرمه ، ماخلا أشخاصا قلائل، وهذه المرهبات على مابها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

اليست المالية هي مرمى أنظار دول اوربا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء مايتعلق بها من

(١) يعني البلاد العربية ولم يصرح بذلك لانه يسوء الدولة العثمانية ، ومن الثابت انه لولا الاحتلال الانكليزي لانتهت النهضة المصرية بتأسيس دولة عربية كبيرة تعيد الحضارة العربية سيرتها الاولى وما عرض لها من العناد باسراف اسماعيل وافن توفيق كان من المرجو تلافيه

الحقوق الاوربية؟ اليوم رزئت بالنقص في الايراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول وحرب السودان ومصاريف اخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة؟

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصري، وقصر الجهد عن مجاراة محمد علي باشا، وابراهيم باشا، اللذين دوخا كثيراً من الاقطار بجنود مصرية

(وبعد أن أطال في وصف حالة الحكومة وموظفيها وماليتها والاهالي وفقرهم ومخاوفهم وارهاقهم بالضرائب وطرق تحصيلها بالقوة قال)

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والاخذ بالشبه وإن ضعفت، واتباع بواطل التهم وإن بعدت، او استحالت، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن، او يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟

هذا ماتنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض مايضيق به الصدر، وتنقبض له الانفس، مما رزئوا به بعد ماتكفل أحباؤهم الاولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله، أصبح الاهالي حيارى في أمورهم، تائهين عن رشادهم، لايعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الاوربية تسميه ضيقا وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه، ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها. الخ الخ

الشاهد الاول

في تحريض المصريين على الانكليز

(بعد اثبات مايريدون من الاستيلاء على مصر)

ذهب الاستاذ محرر العروة الوثقى الى لندرة ولقي فيها كثيراً من رجال السياسة الرسميين كالوزراء وغير الرسميين كمحرري الصحف بمساعدة صديق مصر وصديقهم (مستر بلنت) وقد نشرت الجرائد الاوربية من انكليزية وغيرها بعض مادار بينه وبين أولئك السياسيين من المناظرات

ونشر في العدد الرابع عشر من العروة مقالة في ذلك ذكر فيها مادار بينه وبين وزير الحربيـة البريطانية وما في ذلك من العـبرة ولكن بلسان السـيد مدير العروة وهذا نصها

هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسنا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداءة الهواء في البلاد الفرنساوية في هذه الايام والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قمنا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجو من ديان السموات والارض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) إلى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية — وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه — وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لايدرك منتهاها — تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة ، وطوقت كرة الارض بالفتح والاستملاك ،

لم تزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في قرم شديد لابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطراً طلبوا اليه آخر - وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضون الاقوال - وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين ويتبين كيف يتمكنون من ابراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين ، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كي لا يغتر الجاهل ولا يزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ، ومن محادثاته الابتدائية مانشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال غازيت» وجريدة « التروث » التي يحررها النائب الشهير (مستر لابوشير) وجريدة «التيمس» وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً . وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامي أفكارهم .

أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه، ويصيب كل شرقي سهمه، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار رجال الحكومة الانكليزية

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا[1] ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الامم أن يتصور هذا الميل في المصريين .

١) المراد بهذين اسماعيل باشا وتوفيق باشا

فقال الوزير: هل تنكر ان الجهالة عامة في أقطار مصر وان الكافة لاتفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ماذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة ؟

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لايتهاون في أداء مافرض الدين وأوجبته حقوق الملة وقال (أولا) ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبذ الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج الى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا (كازولوس) الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم .

(وثانيا) ان المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لايصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ومن لايقرءون ولا يكتبون لايفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لايدينوا لمخالفيهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم مايقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع مايتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية مالا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ماأودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم

(وثالثا) ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ماهو موجود في بلاد أوربا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والاخبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الاخبار من القارئين ، فبهذا أضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلان الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الامم

أين العلماء الاذكياء ، أين الجهلة الاغبياء ، أين الأباة الاعلياء ، أين السفلة الادنياء ، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية؟

كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ماوراء هذه الاسئلة وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموما والمصريين خصوصاً الى حد سلب عنهم كل احساس انساني ، وانهم في حضيض من الجهل لايميزون فيه بين الغريب والقريب ،ولا بين العدو والحبيب

هذا دليل على ان الانكليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراعية ، لاتتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شؤونها إلا مابه تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليها ومستخدمها في اي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاما وشرابا ، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها :

★ ألا فاعجبوا ★

ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأي معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونهم معاملة العجماوات والحيوانات الرتع؟ بلى ، وهكذا يعاملون وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على مايعملون ، فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما : إما ان يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، واداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لاينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمير ، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الامرين

وإما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا ناف العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الامرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، ولئن اختاره (معاذ الله) فسيذهب الله بهم ويورث الارض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله وانا اليه راجعون اهـ

الشاهد الثانى

(في تحريض العثمانيين والمصريين والهنود)

الوهم (*)

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا نضل ونشقى ﴾

ألا قاتل اللهم الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلا للمسرات ، حاكيا للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ؛ والموئل مهلكة الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لايدري ماذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل لايهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق

*) مقالة نشرت في العدد ١٧ المؤرخ في ٦ ذي الحجه سنة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤)

كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الاهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة، فانتهز الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، ومادهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الاوربية التي أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانكليز من حبائل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ؟ فسلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم اراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ،

فاستغنت الامة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفهت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزراً من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لاتستطيع ذوداً ولا دفاعا ، وان أخف حركة في تلك الانحاء توجب زعزعة في تلك القوة أوهدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الامر على أنفس الامة الانكليزية ، فهي دائما في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لاية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الانحاء الضعيفة في جميع الارجاء .

ومع هذا كله نرى الامر لم يزل خفيا على الشرقيين ، محجوبا عنهم بحجاب الوهم ، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ماكانوا عليه في ماضي زمانهم فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفا، أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته ، وربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفة في غيه ،

بل لانخطيء ان قلنا ان هـذا الوهم كان متسلطا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين ، فالاوربيون كانوا ينظرون إلى انكلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون اليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية ، متربعة على عرش هذه العظمه الخيالية .

يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما في ستره ولاستار أكثف من الوهم ، ولهذا تراهم في كل حادثة يجلبون ويصخبون ويزأرون ليثيرو بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول أنظار الناظرين ،وتعشي بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز

ذهب الانكليز الى الهنـد في قوى مجتمعـة وتسابقوا مع الفرنساويين وهولاندة والبرتغال في ميدان الاراضي الهندية الواسعة، فحازوا في هذه المباراة قصب السبق،بما امتازوا به من الدهاء والمـكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد او طيب قلوبهم ، فمالت النفوس إلى الانـكليز اغتراراً ، وتغلبوا على تلك البلادواستقلوا بأمرها شيئا فشيئا ،وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضايق من الارض لاتذكر ، وأول مااستمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننـا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندة وبورتغال) فانها تريد التسلط على ممالـكـكم ، أما نحن (الانـكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالـكم.

ثم إنا نرى للانـكليز الآن في الهند الاصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانـكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنمـا يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لاتوجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانـكليز ، ولا تصل إلى ماوصل اليه الانـكليز في الكبرياء والجبروت .

ولـكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندي انـكليزي ، مع انه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها مالو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي ، هذا فضلا عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ، مابقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضة قوم ضعاف ، يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحه اعتبار ، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الانكليز في الحالة الحاضرة ، لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استنقاذهم لأنفسهم وبلادهم لايحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .

يوجد في الدول الاوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها ، ولم يلتفت إلى ان جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بسيط الارض حتى لم تبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لامزيد عليه ، يترقبون في كل آن زحفا من خارج يعينهم على مايقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين . لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الامر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها الى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور إلى حد لايحتاج إلى دقة الفكر ، لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة ان دولة انكلترا تحكم على مائتين وخمسين مليونا من النفوس فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ماوراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى

ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لااعتداء بهـا في قوة دولة انكلترا ، فانما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليهـا ، وهي في ارتكاب الفرص لخلع طاعتها ، فمتى ارتبكت دولة انكلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليونا تقاتل عساكر الانكليز ، خصوصاً خمسين مليونا من المسلمين في حكومة انكلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجؤن اليه ، وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها . أما والله لو علم العثمانيون مالهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطه استعمال العقلاء لما جرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانكليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان في مثـل المسألة المصرية ، التي هي في الحقيقة أهم مسئلة عثمانية أو اسلامية .

ان سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين : قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند مابرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل باحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب . والقسم الاول مخلد إلى الفشل ، فدخل الانـكليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوبا مستعدة فأخذ منها مقاما فانحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميـل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانـكليز يبتغون من البلاد شيئا سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون في الامر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ماجاءتهم به من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانـكليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالي المصريين من يميل اليهم ، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملا لهلاكهم ، ولـكن الوهم يجسم المخافة ويكبح العزيمة

ان أهالي مصر ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز مادخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب

ان الذين كانوا من مدة سنتين سببا في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل ولولاهم ما استقر لها قدم فيه - يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموما وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرها، ويجارونهم في أهوائهم نفاقا ، هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين الف جندي ، ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانكليزي بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجؤا الى ترك البلاد لاهلها ، ألا قاتل الله الوهم

ان للانكليز قوة حربية بحرية لا تنكر ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن ، لا يمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانكليز أطلقوا قنابرهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابر إلى أبد الآبدين إذا كان الاهالي في داخل البلاد يناوؤنهم، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة ؟ ليس في الامر شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا ماهو الانكليز ؟ ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء ، صوت عال، وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانكليز صاروا للامم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بامورهم، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبيا بسيد آخر ، اللهم ارفع عنا حجب الاوهام، وهيء لنا الرشد في أمورنا، واحفظنا من الغواية، واهدنا إلى خير نهاية اه

الشاهد الثالث

(في تحريض مشترك بين الروس والعثمانيين)

المسألة المصرية دولية (*)

انا أنذرنا الانكليز خطراً قريبا على الهند، ونبهنا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركمان في مرو لظلال الحكومة الروسية باختيارهم وبما يحمل تركمان سرخس على الاقتداء بهم، وأشرنا الى مايتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانكليز، واليوم وقع ماتوقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بحدودها حكومة الافغان، وارتعدت فرائص الانكليز وغشيهم الفزع والقلق، واعولت جرائدهم نحيبا، ورددت نشيجا، وأحست بقرب الاجل، ولم يسكن روعهم ماذكرته جريدة بطرسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم مشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وانما دخل في حوزة الروس أولاهما، فان الانكليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لايفصلهما إلا ترعة صغيرة «نهر تجند» عرضها عشرة أذوع بالتقريب، على أن سرخس - التي حكم مهندسو حرب الانكليز انها باب الهند من طرف الشمال، وأنها ممر فاتحيه من زمان قديم، ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الايراني، وان وصول الروسية اليها مما يخرق سياج الهند - انما هي سرخس القديمة. ومما زاد الانكليز فزعا واضطرابا أن التركمان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعا واختياراً، وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندوكوف حاكم ماوراء بحر الخزر من الولايات الروسية، ووصل الوفد الى عشق آباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس اليها

وقع الانكليز الآن بين شرين عظيمين، خطر عاجل، وحتف آجل، أماالثاني فهو أن الروسية اما أن تتحد مع الافغانيين وتحالفهم على مطاردة الانكليز وهو

*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤)

الاقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانكليزية، وليس بخاف مايضمره كل أفغاني لكل انكليزي من الحقد والضغينة، والافغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم، فكيف ان وجدوا مساعداً قويا . وإما أن تميل حكومة الافغان إلى الانكليز -وهو من فرض المحال- فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الافغان مثل جمشيدي وفيروز كوهي وبين قبائل التركمان المتاخمين لهم ويعقبها حرب بين الروسية والانكليز، لان كلا من الدولتين مضطر المدافعة عن حليفه، بل للروسية حق المناضلة عن رعاياها التركمان ، فاذا زحف الروس إلى الاراضي الافغانية تقطعت حبال حيل الانكليز، وامتنعت عليهم وسائل الدفاع ، وهذا آخر حياتهم في الهند

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروسية على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة يلتمسون في أضوائها طريقا للخلاص من الضيق والضنك الذي شملهم، وسبيلا للنجاة من الويل الذي جابته عليهم مظالم لانكليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عند ماوصل الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الايراني على هراة، بل انتقاض الهند على الانكليز في هذه الايام اقرب، فان خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد احمد السوداني ، بل بما مكن في اهوائهم من الميل الى تصديقه، وان لهذه الدعوة حملة على الهند لايقاومها تدبير دولة بريطانيا

تريد دولة انكلترا ان تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لاتصل أخبار محمد احمد وتورط الانكليز في مقاومته الى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل هذه الاخبار الى تلك الاقطار حجاج الافغانيين والبلوجيين الذين يسلكون الى الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها الى اخوانهم، على وجه أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم .

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعليها ان تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في القلوب، وعلى السلطان العثماني ان يتذكر انه خلف لاولئك الاسلاف العظام الذين ماأضاعوا حقا ولا أهملوا فرضا ، ويقتضي من الانكليز

حقه ويسترد مصر من ايديهم ويطهرها من جراثيم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق، ولا يدع لهم فيها شأنا إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانكليز كافات الايرانيين الانتفاع بثورة الهند في الايام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم، والا لكانوا أوقعوا بالانكليز ونالوا الغاية من ضرهم.

على العثمانيين ان يتلافوا الامر قبل ان يشب الانكليز حربا صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية. ليس للدولة العثمانية ان تتهاون في مطالبها او تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة، ولا ان تخشى في ذلك تهويل الانكليز وجلبتهم، فان كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالب الانكليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم انه لا توجد دولة من الدول ترضى بان يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانكليز على مصر او وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس الخ

الشاهد الرابع

في دولية المسألة المصرية

وعقد المؤتمر الاوربي للبحث فيها

(أرادت انكلترة إلهاء أوربة عن مسألة احتلالها لمصر من الوجهين السياسية والعسكرية فرغبت الى الدول الكبرى أن تعقد المؤتمر للنظر في المسألة المصرية وأمرت رجلها المالي الكبير (المستر بارنج) الذي صار لقبه بعد ذلك (لورد كرومر) أن يعد لها تقريرا عن مالية مصر تجعله شغل المؤتمر الشاغل عن غيره لما للدول من الهم الاكبر في مصالحهم المالية بمصر، ففعل — ولكن المؤتمر لم يشغله ذلك بل أراد طرق المسألة من سائر أبوابها ففشل

(وقد خاضت العروة الوثقى عباب هذه المسألة وكافحت جميع أمواجه، وسبحت في مختلف خلجانه، وأنشأت فيه عدت مقالات رئيسية نأتي على نبذ من بعضها، لتمثيل من كان من سياستها، وتصوير بلاغة محررها فيها

(جاء في فاتحة المقالة الرئيسية للعدد العاشر نبذة في تهويل أمر المؤتمر وسياسة الانكليز وبسمارك ومطامح الدول الكبرى ومكايد رجالها فيه هذا نصها:

هذا ما ساقت اليه الحوادث المصرية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول في يقظة لاسنة معها ، وحركة لافتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة، يدأب فيها السياسيون من كل أمة، بعضها بالمراسلة وشيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع نظار الخارجية من سواها ، يتهامسون ويتغامزون ، ويسرون خلاف مايعلنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلمح من غضون وجهه ما ينبيء عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء مما ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت اليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخييل المطامع ، في صور أبعدها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويحقرون العظيم ، ويجسمون الوهوم ، ويضلون عن المعلوم، ويقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الاماني باهرة الانوار بزهور الآمال، وماتبت بهارها إلا على حبائل من المكر، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لايشعر .

هذا يسهل صعباً ، والآخر يوعر سهلا، وكل يتبع لحاظ رصيفه ، إذا أحس منه لحا لمقصده أبرز له الواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه ، واذا شعر منه بفكر يوصله الى ما يمسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ، ويقطع سبيل فكره ، منهم من يكسب الاصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرفقاء بكف شره

ومن الناس أقوام آخرون ، على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريبة وتتلقفهم أخرى وهم عنها غافلون ، زلزلت بهم الارض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بارزانها ، وتوالت عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكتة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء وأولئك انما هو أحزمهم رأيا وأثبتهم عزيمة ، وأشدهم بشؤونه بصيرة .

يقول الانكليز انا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب. وأين ديارنا في بريطانيا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا؟ المسافات طويلة، والشقة بعيدة، فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطىء لاقدامنا، لنحتفظ باملاكنا، ولنا حق في اغتصاب جل العالم لاجل الهند، خصوصاً القطر المصري، فان به السبيل التي لا يماثلها سبيل، وليس لنا عنها غنى، وكنا في تطلع اليها من زمن قديم، وكثيراً ما تمسكنا بحبال من الوسائل اليها فرثت في ايدينا بقوة حكام تلك البلاد، حتى هيأت لنا حوادث السنين الاخيرة ما أحللنا دارهم، وأقرنا في قرارهم

انا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيته على كرسي الخديوية المصرية إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح فلنا حق التملك في تلك الاقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وازالة الاختلال، وكنا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه، لكن الغرض الحقيقي انما هو تأمين طريق الهند، فتسنى لنا ماقصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا ان نتركه بعد الوصول.

وحيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن اخلائها لزمنا ضمان الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا، فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة، وتكون لنا عونا على تنقيص الفوائد، ولا نحب ان تكون مذكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانه لا نرجو من مفاوضاتها فائدة إلا فيها، وأما سائر الشؤون فعلينا تدبيرها، والينا مصيرها. ـ هذه أقوال تصدر عن آمال يعدون أسبابها الى برلين ويرجون أن تكون مواصلها ومعاقدها في تلك المدينة عاصمة الالمان.

وأما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوربا وبيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينكي عدواً، وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر، ولا منافسة له مع الانكليز تبعثه على معاكستهم، بل له اليهم حاجة في ضمهم اليه وإبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها، وقد تكون له من صلة الانكليز مآرب أخرى سوى قطع فرنسا عن الحلفاء ينالها يوم الحاجة اليها وما هو عنه ببعيد، فماذا يضره إذا ادخر عوناً وأساء عدواً، والنفقة على

خزينة غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وايطاليا لما لهم من المصالح في البحر الابيض، ويصعب عليه أن يصيب بسياسته الجمع بين مراضاة انكلترا لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هذا المضيق بالاشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرنؤط (١) والايماء إلى الاراضي البلقانية وسلانيك (٢) ويجلوها لانظار معاهديه، فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين، ويقلم أظفار الروسية من أوربا الشرقية، ويضيع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموما ومصر خصوصا، وفي كل ذلك الربح له والخسارة على غيره، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها، فهي شرعته التي يرد اليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الانكليز ومكايد بسمارك . لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمداخلة الانكليز، وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشآتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومداغسكر . لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الانكليزية عن مصر وتخفيض سلطة الانكليز فيها، ويوجد لها عون من دولة الروسية، ولها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوي العزيمة من رجالهم وميل افئدتهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من ايدي الانكليز سعياً في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها

وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الانكليز ومطاردتهم من بلادها ، فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستنقذ ممالكها من طمع الطامعين، وتعيد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين ، وان جميع المسلمين ينتظرون منها الحذق في هذه المسئلة ولهم فيها الامل القوي والثقة الكاملة ، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون ان ينالوا بها حظهم من الغنيمة ، وليس على الدولة من بأس اذا طالبت الانكليز برد حقوقها كافة ، فانهم بالنسبة اليها أضعف من ان يجاهروها بالعدوان

(١) كان هذان القطران مطمح مطامع ايطاليا (٢) كانت هذه امنية النمسة

وانا نكرر ما قلناه سابقا من ان الانكليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حربا خصوصا في هذه الاوقات التي أصبحت فيها دولة الروسية متاخمة لمملكة الافغان، فان أول إشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، وهذا جلي عند كل انكليزي

ان التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسئلة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين في طورهم هذا ان يركنوا إلى من ليس من ابناء جلدتهم، فان النعرة التي تحمل على الحمية تكاد ان تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم، فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعينين بأفكار الدول التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الاول وتحقيق ما يقال من أن (مصر للمصريين)

وبالجملة فالاطماع فغرت أفواهها، والافكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فمن قائل ان المؤتمر لاينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وانكلترا على القواعد الاساسية المداولة فيه، ومن قائل انه ينعقد على ان يضع مصر تحت حماية عموم الدول، ويقرر انشاء مراقبة عمومية مع بقاء العساكر الانكليزية مدة سنتين، وعلى اي حال فالرزية انما تصيب الغافل، والسوء انما يحيق بالمتساهل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والاقدام، ويرفعوا علم الهمة ابقاء لحياتهم، وصونا لشرفهم، والامر لله يفعل ما يشاء اهـ

الحقيقة الناصعة في حلل الخيال الرائعة

(نبذة أخرى في تعمية أمر المؤتمر وحل معماه بخديعة انكلترة لفرنسة)

جاء في المقالة الرئيسية للعدد الثاني عشر ما نصه :

أصغت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية ،لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الاوربية ،من يوم دعت انكلترا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية ، إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان،وانما كانت تصل اليها دندنة أو جلبة، أو غمغمة أو جمجمة،وكل حس يصلها يثير رواكد الاوهام،فتهيج فيها غرائب الصور والاشكال،والمذاعون(١) من أرباب الجرائد في أوربا وهم أشبه بالداعين إلى الالاعيب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة، ويتنافسون في التمثيل والتصوير ،للتغرير والتهويل،حتى أبرزوا الارض في صورة السماء،والسماء في صورة الارض، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانكلترا،فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمراكب والمدرعات يصادم بعضها بعضاً، وان فضاء البر أعضل بالجيوش المتلاحمة لايجد السالك من بينها سبيلا، وتجسم الخيال لارباب الاذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع المساكر وطرق المصاولة،وجموع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالا،ويموج بعضها في بعض،وكأنما كانت مخيلاتهم معرضا لجيوش العالمين،وكأن في كل فوج داعياً، وفي كل قبيل منادياً،يقول حق هذا حق،فهيعات تتعالى،وزفرات تتصاعد،وإرغاء وإزباد، وتقطب في الوجوه وشزر في المناظر ،وفي كل ذلك هول يأخذ بالالباب.

والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر،

(١) جمع مذاع بالتشديد وهو صيغة مبالغة من مذع (من باب نفع) اذا اخبر ببعض الامر ثم كتمه وقيل قطعه. ورجل مذاع متملق كذاب لا وفاء له والذي لا يكتم سرا

فقد هوى بهامته إلى ركبته،يتوارى من الناس خجلا بما ظهر من ضعفه وعجزه، وان حكومة انكلترا ستعود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الارعاد) وتقوت هذه الاوهام بما يطنطن أرباب الجرائد ،وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة،وانبعثت رسل الافكار تجوس خلال الشؤون والاطوار، لتصل إلى شيء من هذه الاسرار ، واجتمعت الارواح في الآذان،لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداولات ، وكمنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبيء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم .والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق،وبعد طول الانتظار، كشف الستار.

فاذا عائدة الانكليز جالسة في هيكل آمون وبيدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها، والملوك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها، كأنما كانت هذه المفاوضات والمخابرات اعداداً وتجهيزاً لاجلاسها على كرسي ميناس الاول ورمسيس الأكبر« لاحول ولاقوة إلا بالله »

قام رئيس النظار الفرنساوي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع وزارة انكلترا ليرى النواب فيه رايهم،وقبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لاقناعهم بقبول ما اجراه، تلطف في الكلام وابدع ، وصوب وصعد ،واتى على ترغيب يشوبه ترهيب،ويأس يحوطه امل، وادرج في طي خطابه ان فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء،وبه نالت اشياء ، واومأ إلى ان وزارته لو طلبت ازيد مما حصلت لادى الامر الى ممانعة الوزارة الانكليزية، وافضى الخلاف إلى انقلابها، وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر

وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالاسماع حيث قال : ينبغي للسياسي قبل ابرام حكم ان يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه . فهذه الكلمة الرفيعة جددت في السامعين آمالا ، وظنوا ان المراقبة الثنائية قد اعيدت ، أو تقرر اشتراك فرنسا مع انكلترا في الحلول العسكري، أو ابرم الحكم بخروج الانكليز من مصر ـ وبالجملة انهم فازوا فوزاً عظيما ،وبعد مقدمات طويلات بين الاتفاق فاذا

هو بعد امعان النظر على هذا النحو ! ان الانكليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون ، وليس لنا ان نعارضهم، فلا المراقبة الثنائية عادت، ولا الاشتراك في التدخل العسكري أو النظر الاداري حصل ، ولا قررت حرية القنال على أصل ثابت، ولا تحقق جلاء الانكليز على صورة قطعية ، ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين، بل كما كان يلجأ اليه الانكليز عند نهاية العجز على ما أشار اليه كثير من سياسيهم . فانقبضت صدور النواب، فلما رأى شدة تأثرهم دفعة واحدة ، واحس منهم القنوط ، حاول احياء آمالهم بقوله انا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ، ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف ، حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم . الخ

[يقول مؤلف هذا التاريخ]

(هذا ما بينه الكاتب من عاقبة المؤتمروخية فرنسة فيه، ومحاولة رئيس وزارتها اقناع مجلس نوابها بتصويب ما فعلته وزارته ، وقد قفى على هذا بتخطئته وذكر دولته بما سبق من خداع الانكليز اياها في مسألة احتلال الهند واخراجها منها بخفي حنين ، أي كما خدعوها في أصل مسألة احتلال مصر، ثم قال « والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء » فذكرنا بهذا كلمة قالها أستاذ التاريخ العام في المدرسة الخديوية في أواخر القرن الماضي وقد ذكر مثل هذا الخداع الذي عبثت به انكلترة بفرنسة مرة بعد أخرى سنة بعد سنة، فقال له أحد التلاميذ انك كنت قلت لنا في العام الماضي مثل ما تقول اليوم فكيف تنخدع فرنسة هكذا لها وتلدغ من الجحر الواحد مرتين؟ قال الاستاذ الفرنسي: وهل انتهى هذا الخداع والانخداع بمرتين ؟ كلا انها ستخدعنا في المستقبل أيضاً فننخدع ! !

فلله در الحكيم الافغاني ، والامام المصري ، ما أبعد نظرهما، وأدق علمهما بامور الامم، وسنن الاجتماع في البشر ، وحقائق السياسة في الدول ! !

وقد قفى على هذه المقالة بمقالة أخرى في بيان (الاتفاق) الذي عقد بين وزارتي فرنسة وانكلترة وتواطأتا على أن يكون موضوع البحث في المؤتمر وأشار إليه رئيس الوزارة الفرنسة وهذه خلاصته:

(المادة الاولى) أن يستمر الجيش الانكليزي في الاراضي المصرية الى أول يناير سنة ١٨٨٨ (أي ثلاث سنين ونصف) ثم لا ينجلي عنها الا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الاخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول . فان خالفت في ذلك دولة واحدة كان لانكلترة الخيار بين الجلاء والبقاء !

(المادة الثانية) إلغاء المراقبة الثنائية على أن يعوض عنها بتوسيع السلطة لصندوق الدين العمومي فيمنح مجلسه حق الاطلاع على نفقات الحكومة المصرية ويكون له حق الاعتراض على ما يزيد منه على المقرر في الميزانية من أول سنة ١٨٨٥ الخ

(المادة الثالثة) حياد مصر وحرية القنال

وقد بين في المقالة دخائل كل مادة من هذه المواد وعواقبها ، وسوء سياسة الوزارة الفرنسية فيها ، وكون هذا الأود والاعوجاج فيها لا يقيمه الا حمية الدولة العثمانية ، وحرص مجلس النواب الفرنسي على المصالح الفرنسية .

وقد صدق بذلك رأي العروة في الانكليز من أنهم يبلغون مآربهم دائماً بالخداع والكيد ، لا بالقوة والايد . فهي قد خدعت فرنسة وغيرها بالاجل القريب الذي ضربته لانتهاء الاحتلال – وهو ثلاث سنين – من حيث وضعت للجلاء بعده شرطا لا يمكن وقوعه الى يوم الدين ، وهو اتفاق الدول واجماعهن على أن الجلاء عن مصر لا يضر بالنظام الداخلي لها ، ولا بمصالح الدول المشتركة فيها ، ومتى اتفقت هذه الدول على رأي من الآراء وعمل من الاعمال ، في أمثال هذه المسألة التي تختلف فيها المصالح والاهواء ؟

ثم متى تكون هذه الدولة الداهية عاجزة عن استمالة دولة أو أكثر الى الخلاف في هذا ؟

-+*+-

الشاهد الخامس

في تحريض الدولة العثمانية (*

الباب العالى والانكليز

يهم المسلمين في كل أرض أمر ما يجري في مصر بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جنديا أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلا أو حاميا ، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فانها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه، والمسلمون في قلقهم هذا ينظرون الى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الاراضي المصرية من تبوىء الاعداء ، وتحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الامم، وتصان بها ولاية الاسلام من السقوط في حبائل هذه الدولة الداهية « دولة الانكليز » التي أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله * هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ملكتها على مصر ، فان قضي فيها الامر لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر * فهذه دولة الانكليز كرض الآكلة يظهر أثره ضعيفا لا يحس به عند بدئه، ثم يذهب في البدن فيفسده ويبليه بدون أن يشعر المصاب بالالم، هكذا شأن الانكليز في لينهم وتلطفهم، وحلاوة وعودهم، وتملقهم وخضوعهم، يسلبون الممالك ملكه بل الحي حياته، وهو مأخوذ بما يشعوذون له. ولا ريب في أن الاهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب، فان كل مسلم وله الحق يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الاقطار.

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ، ويحسبون أنفسهم في عداد الامم التي لم تذهب سلطتها، ويعتقدون أن لهم سلطانا قويا في الدولة العثمانية، بل يرون أن خلاصهم

*) مقالة نشرت في العدد الثاني عشر بتاريخ ١٠ رمضان ٣ يوليه

من قيد الرق الانكليزي لا بد أن يكون يوما ما بسعيها ، وقد أظهرت أيام الحرب الاخيرة آثار لحمتهم معها بااللحمة الملية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها .

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هـذه الازمان الاخيرة عند ما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة، وتصارعوا في المفاوضات والمجادلات محاماة عما لهم في المصالح في مصر، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة ارضاء لخواطر المسلمين عموما، واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها، وحماية عن ممالكها وأهم مملكة منها، إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرانسا وانكلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الحلول الانكليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الانكليز عن حرصهم، وغاية ما فيه أنه يستتبع مداعاة الدول والدولة العثمانية مع الانكليز، وبرهن على أن بقاء العساكر الانكليزية في مصر ليس بضروري في حل المسئلة فان كانت الدول لا ترى في العساكر الاهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل فالباب العالي مستعد لارسال العساكر اليها على ما تقتضيه حقوقه فيها، كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فان لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فانه يعرض عليها أن يحل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنساويين وانكليز وايطليان واسبانيين وإلى الدول تعيين الاجل في الوجهين وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشا لخواطر الانكليز حيث قال ان الانكليز قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وتثبيت سلطة الخديو الا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقويم نظامها الا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة

وانا نقول كما يهتف به كل مسلم إن من فروض الدولة العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانكليز عنها، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الآستانة، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لا تعقب مطراً * ومن الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هـذ

البيت البلوري « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحد، فاذا اشتدت الأزمة تيسر لهم السعي في الوئام بين الايرانيين والافغانيين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانكليز مقام أنفسهم في الاقطار الهندية ، والممالك المشرقية .

هل تسلط الانكليز في الاراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات الذهبية التي كانت بين الافغانيين والايرانيين ؟ ولو نظرنا اليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ، ولا ريبة عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الامم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانكليز في جزائر بريطانيا والهند يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لانقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد المسالك بين الممالك العثمانية والانكليزية، فان الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الافغان والايرانيين ، واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين

هذه طريق محمرة وبندر عباس إلى بلوجستان مفتوحة للسالك، مطروقة للسابل ، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . ان هذه الجولة لو كانت لاثارت في وجوه الانكليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم . ومعلوم أن الحي لايسلم نفسه للموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفي لقيام مليون من المقاتلة الافغانيين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثماني الى أحيائهم .

لست أبالي أن أقول الحق : اذا حصل التساهل في أمر مصر انفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلافي، فلتأت الدولة العثمانية على مافي الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم اهـ

الشاهد السادس

خاص بتنبيه الخديوى توفيق باشا ورجال دولته

(ان العروة الوثقى لم تكن ترجو من الخديوي توفيق باشا أدنى عمل ولا أدنى مساعدة لمن يعمل ويسعى لجلاء الانكليز عن مصر وانما كانت تطالب بتسليم أمر البلاد الى أولي العزم فيها، ولكن وصلت اليها اخبار من مصر بأن الانكليز استولوا على قلبه ، فصار يعتقد أن بيدهم أمر بقائه في منصبه، ومما أخافوه به إمكان ارجاع والده، وانهم إستمالوا بعض المصريين من المسيحيين وغيرهم الى مساعدتهم على تثبيت اقدامهم في مصر فكان هذا سببا لكتابة عدة تنبيهات منها مقالة عنوانها

﴿ عمى بعض الناس في مصر او تعاميهم عن مقاصد الانكليز فيها ﴾(١)

قال في آخرها بعد شرح طويل في تصرف الانكليز في مصر وما يعللونه به :

هذه كلها تعلات يزعمها الانكليز حجابا لما يسعون اليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر وحط الرحال في حزونها وسهولها .

فلم يبق بعد هذا سوى ان ينتبه الغافل ويلتفت صاحب الامر الى مايحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم . ولا يعين الانكليز على مقاصدهم جهلامنه او اغتراراً بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه او بلاده . سبحان الله هل كان مثل هذا الامر يحتاج الى تنبيه ؟ هـذا محل العجب من غفـلة أمراء الشرق ، لاتفيدهم التجارب ، ولا تربيهم المحن ولا تعلمهم الحوادث، ولا تدربهم النوازل، وتناوب الرزايا والمصائب . من له ادنى خـبرة بسير الانكليز في ماضيهـم او حاضرهم يعلم انهم يملكون البلاد بأيدي سكانها، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم

---

(١) نشرت في العدد الثامن عشر وهو الاخير

يرى الامير الشرقي هذا في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثلهم مثل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمنا مطمئنا حتى يفنى (١)

لاعار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة اذا تغلبت عليها امة اشد منها قوة واكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح . وانما العار الذي لا يمحوه كر الدهور ولا ينسيه تطاول الازمان، هو ان تسعى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين ايدي العدو من نواصيهم، اما غفلة عن شؤنهم، او رغبة في نفع وقتي وجزاء نقدي على خيانتهم، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية، ونوقد نيران الغيرة الجنسية، لنخيب آمال الانكليز ونرد كيدهم في نحورهم، ونقذف باولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج تخوم هذه الحياة (٢) ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون، هذا اذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق في محبة الاوطان ورعاية مصالحها، فان تابوا وأصلحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم، وكان الله وليهم ونصيرهم، وهو نعم المولى ونعم النصير

---

(١) نظم هذا المعنى ابن دريد فقال في مقصورته الشهيرة :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلي فارتعي

اذا احس نبأة ريع وان تطامنت عنه تمادى ولها

وهكذا شان البشر في حال الادبار والانحطاط الاجتماعي . روى المؤرخون ان رجلا من التتار الخربين صادف مائة رجل في احد أزقة بغداد فذبحهم واحدا بعد آخر وهم ينظرون ! فمم كانوا يخافون ؟ وهل بعد وراء هذا الذبح شيء يخاف منه؟ أنا مثال هؤلاء احقر واضل من الغنم لان الغنم لاتدري مايدرون

(٢) هذا رأي السيد جمال الدين في الخائنين لاوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها لاعلاج له عندهم إلا القتل

الشاهد السابع

في سياسة دول أوربة في المسألة المصرية ومكان العثمانية والحكومة المصرية منها

سقوط المؤتمر وسياسة بسمارك فيه (*)

حركات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة بقدرها ، وأولاها بالاعتبار مايصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . على وعاة الامم في كل مملكة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية ، ويمرقب للنظر في غاياتها والتنقير عما بعث عليها . رب نهضة من سياسي عظيم تميد لها الراسيات في كل دولة ، وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لحنك في السياسة أن يقصر نظره على ماعنده ، ويرد كل حادث سياسي إلى مارسم في مخيلته ، واعتقده موافقا لمصلحته ، فيضل عن الرشد بالقصور ، ويغيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الامكان ، ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جلبها أو يدعو إلى دفعها طبائع الامم ، ولوازم مليتهم ، ومواقع بلدانهم ، وعلائقهم مع من سواهم ، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظا لمداره ، واقيا لنظام سيره . يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الاخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرانسا أشد الدول في دفع انكلترا عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيافيس) . ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخابرة ومعهم وزراؤهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية . هل كان هذا التلاقي لاطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ لا . هل كان كما

(١) نشرت في فاتحة العدد ١٧ بتاريخ ٦ ذي الحجة (٢٥) سبتمبر بغير عنوان

قاله بعض الجرائد للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين ؟ كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كلصوص تقمعهم السطوة الداخلية، ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخابرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية . ماتقوله الجرائد من هذا القبيل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر في الحقيقة

أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع ؟ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محا فضيلة الايثار .قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك والبارون دو كورسيل سفير فرنسا في برلين. هل يريد البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري أن يجعل لفرنسا ركنا شديداً في معارضة انكلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضي إلى حرب توهي القوة الفرنساوية ويصيب منها ما يحب ؟ هذه فائدة خاصة بدولة الالمان لو قدرت على نيلها فماذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها؟ و يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين المانيا وتنسى الاحقاد بينهما ؟ غاية لاتطابب والشأن فيها كسابقتها . هل يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الاهانة التي لحقته في المؤتمر . ان كان هذا فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لايمس المصلحة المشتركة . هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى مايقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي ؟أيصح أن يكون ذلك الامر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير ؟ على أن انكلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية .

هل أراد البرنس أن يختل الروسية ويلهي فرانسا بالمسألة المصرية لتنام الاعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك وبوسنه الى ماشاء الله ووسعت القوة ؟ شفقة في غير موضع، وصنيعة في محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يمتع نظره بشهود الفتوحات فبعد مافتح للنمسا بابا في للشرق من جهة هرسك رسم للروسية طريق هراة وقندهار، ومد لفرنسا خطا في حدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وان لم تعد من ذلك

فائدة على الامة الالمانية ؟ شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر .

هذا ولا يصح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كف يد الانجليز عن مصر وابقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك على ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مكاتب التان البرليني، قال ان في عزم البرنس بسمارك أن يؤيد الحجة الفرنساوية بثبات شديد وارادة صحيحة، وسيكون مع فرانسا يداً واحدة في ابقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المكاتب أن هذا كان باعثا لسياسي انكلترا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين المانيا والنمسا وبين فرانسا . فان المسئلة المصرية بمجردها ليست مما يدعو الى حملة عمومية

اني أرى تحت هذا النقع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء ، أرى تنقلا قريبا في حدود الجغرافية السياسية ، وتغيراً عظيما في الخطط الدولية ، وانقلابا في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المبادىء الاولية لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرانسا فانه لم يجد خيراً في مناوأتها زمنا طويلا ، وكلما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعا، فيريد أن يجرب صداقتها، كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسية الى آسيا فهو أسلم للدولتين الالمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولي وجهها وفيما تخلفه وراءها فائدة البرنس النقدية

(ثم قال بعد تقليب الآراء ما يأتي وهو ما أردناه من المقالة)

قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعليها التيقظ التام والاحتراس الشديد كيلا يكون خسارها في استفادة غيرهما : اذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها . الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة، والاخرق الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكاية الانكليز من كل وجه فما الذي يمنع الدولة العثمانية من مجاراة الدول العظام وهي أقدرهن على الاضرار بهم، فانهم في بلادها يعيشون فيها مفسدين، وسكان البلاد لا ينتظرون الا خطوة من دولتهم اليهم، فيقيمون القيامة عليهم؟

الشاهد الثامن

(في تحريض المسلمين عامة والسلطان والمصريين خاصة على الانكليز)

زلزال الانكليز في السودان (*)

نقلت الجرائد الانكليزية تلغرافا ورد إلى جريدة الستندارد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياما متواليات ومحصله : ان الالسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانكليزية بقدوم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لابد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لاقبل لهم باحتمالها ، وقد استولى بذلك الاضطراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصا عساكر مدير دونقلا لا خوفا وفزعا فقط ، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا اليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد احمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين في تلك الاطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الانكليز في منزلة العدو الالد ويقاوموهم مقاومة الآيسين اه

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الانكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياما بما يوجبه الدين والوطن، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني ، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه، بل توجبه في مدافعة الباغين عليه، وتدعو كل ذي عقل لاخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقي من الارواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها مايخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصوري بنور الابصار، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ، ومهب رياح الفتن والاختلال .

*) مقالة نشرت في العدد ١٨ بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤

تلك أرواح الاجانب ونفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد، ويخفضون شئون العباد، ويغمطون الحقوق، ويفسدون الاخلاق ويذلون النفوس

المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاشي يكانف في دعوة الطبيعة اليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مرايا التواريخ عند ما يمر الناظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة ، وصيغت لهم هيا كل من اللعن الابدي، مسربلة بالخزي والعار السرمدي ، هكذا يعرف الشيء بضده

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر، وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يبديه ، او تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن. من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان. من سوف عمل اليوم إلى غد ، وتوانى في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الانبياء والمرسلين، وممقوت في نظر العالم أجمعين

ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الاوطان » يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه، إلا وصمة الخيانة، فلا تطويها الادهار ، ولا يخفيها تطاول الاعصار، محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ، ودرن في صفحة الامكان، مكنفة باللعنة محفوفة بالمقت إلى أبد الآبدين ،لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت في الادراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا

كنا على يقين ولا نزال عليه ان الذات الشاهانية وهي الأب الا كبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية ،وهي لا تألو جهداً في تعويق سيرهم واحباط

أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الامم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية ، وانه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الانكليزية، وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية والمصرية ، بلغت غشمرة الانكليز إلى حد لا يحتمل فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور ، وتفيض بالغيظ منها القلوب، وتبلى منها دروع الصبر، وتذوب سابغات الجلد

فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا: زحف العدو اليكم تحت راية المحبة ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة من عسكرية ومالية وادارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم وأنتم أحق بها ، وطالما دافعتم عنها في الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ، ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف به اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين؟

ماذا ترجون من مطاولته ، وماذا تؤملون في ارخاء العنان له ، وماذا تهابون في معارضته والاخذ على يده ؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل، فقد رأيتم انه أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأفقر آلافا مؤلفة من العائلات ، ووهب من بلادكم لاعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم (كالاوقاف) وعمد الى خرق سياجكم وازالة قوتكم بطرد جنودكم ، وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فماذا تخشون منه؟

هل تخشون ان تنقص أموالكم وثمرات كسبكم اذا أديتم حقوق وطنكم ، ودافعتم عدوكم؟ ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم، وهو من عجيب الخواطر، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت العبرات، وزادت الحسرات، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً ،وأوسعكم خرابا ودماراً ، ان رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني الا افتقر ،ولا عظيم الا احتقر، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، واقرأوا حالكم في تواريخ من سبقكم.

هل تخشون اذا قمتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة. الدول متألبة عليه يترقب منها في كل آن مطالبته بنتائج أعماله، ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول او أشد خشية. انه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً، ومقراً أمينا، ولا يخفاكم ان المسرع في جريه يكبه على وجهه عثرة في مدرة، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، او مؤاخذة طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم وجهرتم بذلك، لرأيتم ان ماءه سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره، واستعليتم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبحه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة، أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالي البلاد المصرية «لا أناله الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته

إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكونكم من اظهار قدرته، وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم، وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره

في امكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في امكانه أن يضر بكم، فاذا مضى زمن انعكست القضية، وأصبحتم في عجز عن مقاواته، وأصبح وفي يده عصى الجبروت لاذلالكم، ان كنتم تخافون من الموت او التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟ أليس يؤخذ منكم الابرياء بالشبه الباطلة ويهانون ويذلاون، وكثير منهم يقتلون؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم، وحركات دمائكم في أبدانكم، كما فعل ويفعل باخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقي على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم، وهذا قصده اليكم، وفي امكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل،

بدون ضرر عاجل ، فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فأنتم ساقطون فيما منه تخافون .

ياقوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه ؟ تعلمون انه ماعز قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالاباء ، لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عمن سواكم ؟ ألستم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم ؟ ألستم تمتازون عنهم بالأيمان الصادق ؟ والعقائد الصحيحة ؟ ألستم تنتسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ ألستم تدعون انكم أشرف عنصراً ؟ وأكرم جوهراً ؟ فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه ، (انهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله مالا يرجون)

لأي شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ماليس له ؟ ولأي سبب لاتقدمون بشيء من شهامتكم في حفظ ماهو لكم ؟ ان هذا لشيء عجاب . هل نذكركم بقول شاعركم :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى معالي الامور . انما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ، فان لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم ، فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر ، الذي رأيتم بوادره ، ونعوذ بالله ان تدرككم أواخره .

أستغفر الله لاتزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة . لايزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه . ان صاحب الدين ﷺ ينتظر فيما يعرض عليه ، من أعمالكم نهضة لاعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه ، وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ماأنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ، ويعلم الصابرين (ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله * ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين * ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) اه

[المؤلف] هذه آخر ما نشر في العروة الوثقى ونشر قبلها مقالة كأنها نار جهنم سعيرا ، وتغيظا وزفيرا ، وحسبنا هذا النموذج التمثيلي ، لذلك العمل التاريخي .

مسألة السودان

وسياسة الحكيمين فيها

تقدم في ترجمة السيدجمال (ص٢٨) إشارة إلى ما كان يقصده من العمل في السودان هذا نصها

« وأما ماقصداليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال، فقد عظما أمر محمد احمد القائم بدعوى المهدية بالسودان في نفوس الانكليز ، وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان إلى انكلترة من الاخبار، حتى أقنعا الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ماحال دون امضائها إلا مجيء البرق بنبأ وفاة محمد احمد

« وقد كان لهما من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل إلى العمل فيه بعد ترك الدولة الانكليزية له مالا فائدة في بيانه . ويجد قاريء كتب الاستاذ الامام إلى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى اشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الاصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني(*) اهـ

هذا ما كتبته في هذه المسألة عند البدء بتدوين هذا التاريخ عقب وفاة الامام وكنت عازما على الاقتصار عليه لعدم الحرية التي كانت تسمح بالتوسع فيه، ثم بدا لي أن أزيده الآن فأقول : يرى القاريء في فاتحة العروة الوثقى ان مسألة دعوى المهدية في السودان كانت ركنا من الاركان التي يعتمد عليها الحكيمان في حمل الانكليز على ترك السودان والخروج منه بما عظما من أمر هذه الدعوة وما كانا يتوقعان من استغلالها إذا استفحل أمرها ، وقد تكرر في العروة الوثقى ذكر هذا الموضوع ، وانني أذكر هنا بعض الشواهد منها في ذلك لما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وآيات البلاغة ، ثم أوضح ما كنت أشرت اليه من ذلك السعي

*) هذا الرقم للطبعة الاولى وقد نفدت نسخها وطبع طبعة ثانية يقع الرقيم المذكور في ص ٥٥٥ منها

الشاهد الاول

في مقالة نشرت في العـدد الاول الذي صدر في ١٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ (١٣ مارس سنة ١٨٨٤)

سياسة انكلترة في الشرق

هلع على ما في البيت فهرع لاغلاق الباب فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه

هذا شأن دولة بريطانية في الهند وقنال السويس . قصارى بغيتها أن تكون في أمن على هذا الباب ، و كان سهلا عليها أن تخلص النية في مسالمة أرباب الولاية عليه فيقونه بارواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الابد

الا أن جيشان الاوهام ، وموحشات الاحلام ، دفعتها المباشرة حمايته بنفسها ، فاذا الامر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم

أرادت انكلترة بعد تبوئها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانكليزية ، (١) وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بانه صار من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، واقرار الراحة بينهم ـ وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة ان تمت لولا ما للدولة انكلترة من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أ كبر الاسباب وأصغرها لاستيلائها على الاقطار الهندية

وانا لنأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الاحسان الانكليزي يسهل تتميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنيله ، وخطر الامرين غير يسير

(١) الفصيح في مثل هذا التركيب المشهور ان يقال : وأن تبدل العساكر الانكليزية بوطنية ، لأن الباء تدخل على المبدل منه لا على البدل كقوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) ولكن جرى الاستاذ على التعبير المشتهر بين الناس وفي الجرائد

ظهرت دعوى المهدوية في السودان ، واشتد أزر القائم بها بمسارعة الانكليز الى التدخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد ما أراق دماء غزيرة ، ودبت روح دعوته الى سواحل البحر الاحمر وحدود مصر الطبيعية ، وأمالت القلوب اليه نفرتها من السلطة الانكليزية

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس أو قاربت وان هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء . وعند ذلك يمسي باب الهند بين ألسنة النيران من ثلاث جهات . أيبعد عند العقل وبريطانية لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت ؟ الخ

[المؤلف] ذكر بعد هذا في المقالة شيء من عمل غوردون في السودان وبقيتها إنذار بزحف الجيوش الروسية على الهند ، ورسم طريق الزحف من الشمال وذكر القبائل التي في هذا الطريق ومذاهبها وأساليب استمالتها وقد تقدم بيان هذا في محله

الشاهد الثاني

انتصار السودانيين على الجيوش الانكليزية (*

وتأثيره في ضعف هيبتهم الوهمية

أشدما كانت هيبة لانكليز وملكتها على قلوب الشرقيين قبل تكتيب الكتائب وعقد الالوية وسوق العساكر لمقاتلة عثمان دجمه على أميال من سواحل البحر الاحمر

كان يخيل للسودانيين بل يلابس اعتقادهم أن القوة الانكليزية مما فوق الطبيعة ، وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار أخر ان غرائب القدرة البريطانية بلغت مبالغ السحر ، تدهش الالباب وتحير العقول ، واذا خلج في صدر أمة صغيرة او كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق ، او تناوئها في مرغوب ، انشقت الارض وانفطرت السماء

*) ملخص المقالة الافتتاحية للعدد الرابع والعنوان لنا

عن كماة من الانكليز يصبون عليها أسواط العذاب ، ويذيقونها أليم الوبال ، ويخلعون الارواح من الابدان ، خصوصاً اذا كان مغالبوهم لايحملون من السلاح إلا نوعا من الصنع القديم مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض

إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للايقاع ببعض العرب في نواحي سواكن فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله ، وبنى القواد في الزحف قلاعا (مربعات) من العساكر الباسلة مدرعة بلؤام[1] من حراب البنادق (السنج) مسيجة بالآلات الجديدة من صنع رمنتون وهنري مارتين على اجود طراز يكون منه ، وحصنوها بابراج من المدافع لاتدانيها من سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو اليها منهم قدرة

لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصفوف الانكليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم ، فهدموا قلاعها ، ونقضوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتصادم ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين كر الانكليز إلى سواكن (ساحل البحر) وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال ، وعج الانكليز « غلبنا وانتقمنا » !

ماذا أثرت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين؟ ثبتت أقدامهم ، وقوت جأشهم ، وجمعت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقاة خصومهم ، لان شدة الحر كانت من أعدائهم — إلى أن قال —

وما حل بغوردون قد أسقط من شأن الانكليز وقوتها في أقطار السودان عموما وجعل كلمتها هي السفلى وبعث على الاعتقاد بانه إحدى كرامات محمد احمد ولا حول ولا قوة إلا بالله

خطب يعقب خطبا ، وكرب يحدث كربا ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكثر

(١) اللؤام كغراب هي التي يلائم بعضها بعضا من قولهم سهم لأم : له ريش لؤام أي متلائمة بوضع بطن كل قذة منها إلى ظهر الاخرى . استعمله في الحراب بدل السهام

النوابون والرجوات [1] عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلا م تطول ، ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلمح الفرص من خلال هذه الحوادث

انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الانكليزية من مصيبة (هكس) إلى مابعدها في جميع ارجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ، ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل ، وهم على ربوة من الامل ، يستطلعون سوانح الفرص ، خصوصاً المسلمين منهم ـ كما أنبأتنا به الرسائل الواردة الينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن ان الدولة الانكليزية وعماد قوتها الايهام والتغرير يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الاولى في نفوس الشرقيين

(وههنا حرض الدولة العثمانية على الاخذ بالحزم وقوة العزم في مسألة مصر والسودان وبين لها ان هؤلاء الانكليز الذين لايعاملونها إلا بالتهديد والارهاب لنيل أغراضهم لايمكن أن يشهروا عليها حرباً لما يعلمون من محبة مسلمي الهند لصاحب السلطة الاسلامية ويوقنون بان ذلك مقوض لسلطتهم في الهند لأول وهلة ثم قال)

الاعتقاد بمحمد احمد أخذ سبيلا الى قلوب الهنديين حتى كتب الينا أحد أصدقائنا في لاهور : ان محمد احمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة ان نعتقده مهدياً ، وأن لانفرط في شيء مما يؤيده (ثم ختم المقالة بالنصيحة المرادة منها فقال)

فما آخر الحيل ؟ أيكتفى بحفظ القنال مع ترك الفتنة يسري لهيبها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ؟ اني أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه الدعوى وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انكلترة وبكل من له حق في مصر ، فعلى الانكليز كما نصحنا مراراً أن يصونوا بلادهم ويحفظوا طريق الهند بتفويض الامر إلى العثمانيين وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت — وإلى الله ترجع الامور اه

(١) النوابون الامراء المسلمون والرجوات الامراء الوثنيون

الشاهد الثالث

أماني انكلترة في حركات محمد احمد (*

صرح اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات بان المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الاحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد احمد في البلاد السودانية يريد من هذا انه لم يحملهم على الثبات والترامى على الموت عدوانهم للانكليز ولا طمعهم في توسيع الفتح وانما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد احمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهدوية بل لوازمها التي لا تنفك عنها، فان القائم بهذه الدعوى لا يقف في سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك ، وانما يريد بسط دعوته في أقطار العالم، واحياء الاوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النيابة عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقا في دعواه أو كاذبا . فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الارض سودانا كان او مصراً أو غيرهما من البلدان إلا بتقدمه الى ماوراءها ، حتى يعلي كلمة دينه، ويرد الى الحق من انحرف عنه، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الامم، وسواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن . ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ما بينا يسقط من النظر قول اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد احمد لقبول إمارة كوردفان والاكتفاء بها ولا يعلم هل قبول محمد احمد لتلك الولاية يكون حجابا بينه وبين التقدم الى سواها، فقد علمت أن محمد احمد لم يقم بدعوى الملك ، ولا طلب حقا له في الامارة كان

*) مقالة وجيزة نشرت في العدد الرابع أيضاً

يرثه عن آبائه وانما قام بدعوى لانهاية لاطرافها إلا عند حدود السطوة الاسلامية فليس يكافىء قوة دعوة اسلاميـة إلا عزم اسلامي . ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون . يدافعون الدعوى بما يقوى على اضعافها أو محوها . فان لم يرد لحكومة اللورد خبر الى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه نسأل الله حسن العاقبة

بعد تحرير هذه الاحرف جاءت الاخبار مصدقة لما قلنا ففي تلغراف من مكاتب التيمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاؤا مرسلين من قبل محمد احمد الى الجنرال كوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان بعث بها الى مرسلهم . وبلغوه أن محمد احمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له

الشاهد الرابع

(في مقالة عنوانها (السودان) نشرت في آخر العدد السابع الذي صدر في ٤ رجب (أول مايو)

(بنيت هذه المقالة على أخبار تواترت ونشرتها الجرائد الانكليزية والفرنسية بقرب سقوط مدينة بربر في يد محمد احمد وشروع حاكمها المصري في اخلائها، وانضمام بعض العساكر المصرية المنظمة الى محمد احمد ــ وسريان الثورة في جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر ، وعدم امكان الانكليز من ارسال جيش انكليزي الي السودان إلا بعد أربعة أشهر مع عدم رضاهم بارسال جيش مصري ... ووصول مكتوبات إلى ضباط الحامية المصرية في أسوان من زعماء الثورة ينذرونهم بها اخلاء المدينة . . ــ وقول جريدة الطان : اذا اجتمعت قوة محمد احمد عند الشلالة الاولى فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة ثم ختم هذه المقالة بما أودع مثله في غضونها فقال)

هذا الذي كنا نتوقعه ونخشاه من قبـل وأشرنا اليه مراراً جلته الحوادث

ونطقت به الجرائد الفرنساوية والانكليزية ، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد الي دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالا ، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر ، وترشدها الى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج ، انما هو تسليم الامر لذوي الحق فيه والعارفين بطريقه من المسلمين ، وستراها بعد أيام تتبع السبيل المستقيم اه

الشاهد الخامس

(في مقالة نشرت في العدد العاشر الذي صدر في ١٠ شعبان (٥ يونيه) بعد استيلاء السودانيين على بربر نختصرها بما يلي) :

السودان ومصر

نشرت جريدة (البوسفور اجبسيان) التي تطبع في القاهرة خبراً ذكره توفيق باشا نفسه وهو ان الجنرال (غوردون) توعد حكومته الانكليزية بانها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فانه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام ، وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجيب)

وغرابة الخبر إن كانت من جهة انه تهديد بما لا يهم الحكومة فنحن نعلم أن الانكليز يفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم ، وإن كانوا يرشدون الناس الى ترك الدين ويعيبون على المستمسكين به ، ولكنهم أشد الناس تعصبا فيه فلا محل للغرابة — وإن كانت من جهة ان غوردون وهو من أشد قومه تمسكا بدينه كيف يجنح للاسلام ؟ فهو انكليزي الطبيعة كما هو انكليزي الجنس ، يتلون ظاهره بأي لون ويبرز في أي ثوب لاصابة غرضه مع المحافظة على ماطبع الله على قلبه فلا عجب ان قال وفعل (١)

(١) ليعتبر القارىء بانقلاب الحال فان الانكليز يدعون في هذه السنين الى تنصير السودانيين احياء لذكرى غردون ويتخذون جميع الوسائل له

(ثم قال) جاء الخبر ان أهالي جرجا في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد الى تلك المدينة رجل من أشياع محمد احمد قادما من القاهرة ودعا الاهالي للأخذ بطريقته فاذا بينهم جم غفير يجيب داعيه، ويذهب مذهبه،وهو مما يدل على ان القائم السوداني مهتم بنشر دعوته، محتاط لنفسه حاذق في عمله، وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فان ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب، ولربما صار له بقوة ميل الاهالي اليه منعة يصعب على حكومة غير اسلامية أن تقارعها

أما ماذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها وبين المسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع، لان الايام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين ذمام الآخر في جميع الاحوال التي عرضت على بلاد مصر. المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها. والمقاتل التي وقعت أيام الحرب المنقضية انما كان منشؤها افساد المفسدين، على انه لم يمس فيها قبطي بسوء. والاخبار الصحيحة تؤيد مانقول

الشاهد السادس

﴿ من مقالة افتتاحية نشرت في العدد الثالث عشر ﴾

(موضوع هذه المقالة الطويلة اثبات عزم الانكليز على امتلاك مصر وتحريض الدولة العثمانية على القيام بما يجب عليها من العمل لاخراجهم منها. ومما جاء فيها بشأن مهدي السودان مانصه)

وليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من أعظم الاسباب لقوة محمد احمد، ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر لما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة، ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين، بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته، أو يدخل تحت رايته

هذه تواريخ الامم وهذا سير طبيعة الكائنات ترشد المستبصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها ، وزحف الغرباء اليها

أي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه ؟ وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول ان الانكليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الاسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم . وانقاذ البلاد من رجسهم ؟ وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء

هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الانكليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد احمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين ؟ هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق[1] شعلته إلى أقطار اسلامية يخشى الانكليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند ؟

قد نرى الحالة أقرب الى المخافة منها الى الامن ، وسيعلم الانكليز انهم أحوج الناس الى السلم ، وأفقرهم الى القناعة

أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار ، بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان ، أو يذعن لها جنان ؟

ليس لقوة أن تأتي بهذا الاثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين ، وأولي العزم من المصريين اه المراد منه

﴿ إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان ﴾

بينا أنه كان للحكيمين غرضان من سياستهما في المسألة المصرية والمسألة السودانية كما انه كان للانكليز غرضان فيهما . أما غرض الانكليز الاكبر فهو امتلاك مصر والسودان معا والتوسل بذلك إلى امتلاك شطر افريقية الشرقي من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، فان تعذر ذلك واضطروا إلى ترك مصر اكتفوا باخذ

(١) اللياق بالكسر ما تشعل به النار

السودان وحده وهو الغرض الآخر ، وانتظروا الفرص لجعله وسيلة لاخذ مصر

وأما غرض الحكيمين الاول فهو اخراجهم من مصر والسودان معا بما شرحناه من الوسائل لذلك ، والسعي أخيرا الى اقناعهم بترك السودان بتكبير شأن دعوى محمد احمد للمهدوية ، حتى اذا تعذر ذلك وتم لهما هذا ذهبا إلى السودان خفية ونظما فيه قوة محمد احمد توسلا إلى انقاذ مصر بها ، وتأسيس دولة قوية يعتز بها الاسلام والشرق ، وتتحرر شعوبهما من الرق

وقد قلنا انهما كانا قد وفقا لاقتناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من السودان وتركه لاهله ، وانه ماحال دون تنفيذ ذلك الاموت محمد احمد ، وأشرنا الى ترك الاستاذ لأوربة بعد الاضطرار الى ترك إصدار العروة الوثقى بالتشديد في منعها من مصر والهند ، وانه دخل مصر مستخفيا بعد أن ألمَّ بسورية وتونس ، وكان غرضه الاول التمهيد فيها للذهاب الى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين اليه اذا نجح في سعيه له

كان آخر عدد صدر من العروة الوثقى وهو الثامن عشر مؤرخا في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (الموافق ١٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤) وبعد تركها انفرد السيد جمال الدين بالسعي المراد من مسألة السودان واننا نوضح هنا ماأشرنا اليه قبل من دخول الشيخ محمد عبده في مصر وهو مافي بعض مكتوباته السرية إلى بعض أعضاء جمعيتهما (العروة الوثقى)

قال في المكتوب الاول من الباب الخامس من منشآته[1] بتاريخ ٧ جمادى الاولى من هذه سنة ١٣٠٢ مانصه بعد كلام :

« فتلقيت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادخر لها من العمل ، وتلحظ أبصار مادنا من الامل ، وتنبعث عزائم لتناول ماحضر لديها ، وابراز ما كمن فيها ، فعناية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لايصاخونها ، وغطيط من الغفلة لايسمعونها -

(١) صفحة ٥٥٣ من الطبعة الثانية

هذا ما اندفع بي الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله ، وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

غير انه لا يراني فيها إلا المخلصون، ولا يعرفني فيها إلا العارفون، وإن لك بينهم ذكرا يليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، وقد أبلغت (السيد) من خبر صنيعك ما وفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه . الخ

(وكتب الى آخر من الاعضاء في هذا التاريخ نفسه من مصر وهو المكتوب السادس من هذا الفصل ما نصه :)

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك، وحاشا ان يكون تساهلا في الحق ، أو تثاقلا عن فريضة الود ، وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك الى الآن .

« ذهبت الى باريس فما عدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن أنحو جهة المشرق، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (تونس) عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

بلد خلعت به عذار شبيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني

وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل، وإقبال الامل.

— الى أن قال —

« واذا رأيت .... فنبئه ان قوة الاتحاد في الجنوب ، أفزعت قوة النيران في الشمال ، وان نيران القلوب ، أذابت مدافع الكروب (وما النصر إلا من عند الله) يؤتيه الصادقين ، ويوليه المخلصين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة الخ

(يقول المؤلف) وحسبي بهذين التصريحين شاهدين على ماقلت

***

هذا وان محمد أحمد توفي في رمضان من تلك السنة (١٢٨٢) وكان الجيش المصري والانكليزي المساعدله في أسوإ الاحوال، وقد عقد الجنرال غرانفيل بعد موته هدنة مع السودانيين مدة ثلاثة أشهر في كسلا وفي ٢٠ ذي الحجه منها أعلن تسليم حامية كسلا بعد حصار أكلوا فيه لحم الحمير، ولسنا في حاجة الى بسط حال السودان في ذلك الوقت لاننا لانكتب تاريخ السودان وانما نشير اليها من بعد لئلا يستغرب بعض قراء تاريخنا تمكن السيد جمال الدين من اقناع الحكومة البريطانية في عاصمتها بترك السودان بعد ماأذاعه في الهند وسائر المشرق من تعليق الآمال بدعوة محمد احمد والتمهيد به لثورة اسلامية عامة

العبرة فى هذه السياسة

العبرة التي يجب أن تمثل لقراء هذا التاريخ ان السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قد جاهدا في سبيل انقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني جهاداً لم تسم الى مثله همة أحد من أمراء هذه البلاد وعلمائها وكبرائها ولا همة غيرهم من العثمانيين وسائر المسلمين والشرقيين، ولم يكن في قدرة غيرهما أن يعمل مثل عملهما . ولكن كان في قدرة كثيرين ممن ذكرنا أن يساعدوهما بالمال وغير المال في هذه السبيل . ويعلم الواقفون على تاريخ مصر في هذا الطور الاخير أن كل ما كتب في جرائد مصر وغيرها في المسألة المصرية الى هذا اليوم لايعد شيئا مذكوراً في جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى بارشاد أستاذه السيد جمال الدين الافغاني، وان كل سعي عملي لذلك كان وما زال دون سعيهما. فليحفظ القاريء ما أوردنا من الشواهد في هذا المقصد الى أن يجيء الكلام في خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في مصر وعلاقته بأميرها واصحاب جرائده

خاتمة هذا المقصد

آفة الشرق أمراؤه المستبدون

وزعماؤه المرفهون

ومرشدوه الجاهلون

نختم الكلام في خدمة الامامين الحكيمين للاسلام والشرق فيما فاضت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعنا لها هذا العنوان ، فلقد كان الناس غافلين عنها فبيناها لهم أبلغ البيان ، وشر مفاسد هؤلاء الامراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالاجانب الطامعين في بلادهم ، ولو عقلوها لتمكنت حقيقتها من عقولهم ، ولو فقهوها لرسخت عبرتها في قلوبهم ، ولما تكررت في مشرق العالم الاسلامي ومغربه تلك الرزايا التي انتزعت مما لكهم من أيديهم ، ومن العجائب انها لاتزال تتجدد ، ولايزال مدعو الايمان يلدغون من الجحر الواحد مراراً كثيرة ، وقد قال رسولهم فيما صح عنه « لايلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب اذا فيما يصدر عن ملاحدة المسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الاسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ، ورضاهم بأن يكونوا أعوانا للاجانب على استعمار البلاد ، وهذا مالانزال نشاهده في كل عام (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون) ؟

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدع في زواياه خبيئة الا واستخرجتها

انشأت له مقالات خاصة ، وجعلته مضرب الامثال في المقالات العامة . وقد ورد فيما أثبتنا من الشواهد بعض هذه الامثال والاشارة الى بعض تلك المقالات ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد وأمثال أخرى وهي

المثال الأول

﴿ إستيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جنس صغير تولوا قيادته)

دمر الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانبثوا بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال ، والانفصال عن السلطة التيمورية،فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه. فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال،واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه، او يتغلب بها على عدوه،فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين،وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب، وقبضوا بالاخرى على سيف الغلب . بدؤا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الاهلية،ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها،وماهم عليه من القوة والبسالة والنظام،حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الانكليزية، فأقبل الانكليز على اولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه،وفوزه بالتغلب على غيره ، بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز،ويكون بعض الجنود من الهنديين،وبعضها من البريطانيين:وما على الحاكم الا أن يؤدي نفقتها

ثم خلبوا عقول أولئك الامراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض،وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين،وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها(جعفرية)وغيرها سموها(تشتية)ارضاء لاهل السنة والشيعة والوثنيين

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض، وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة، وبعضهم بدون فائدة، وينتظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء. وبعد مضي زمان كانوا يومئون الى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فاذا عجز الامير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستغلها ونستوفي منها ديوننا، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم، ثم الارض أرضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وانما نحن خادمون لكم، فيضعون أيديهم على غضروات الاراضي وفيحائها، وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعا حصينة، وحصونا منيعة، كما يفعلون ذلك في ثكن [أماكن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية.(١)

وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبوابا من الاسراف والتبذير، ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الاولى، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الامين، لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شؤون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الاهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضهم بيوت بعض، حتى إذا بلغ السير نهايته، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم، وغلت الايدي فلا يستطيع أحد حراكا، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية لهواقية لبلاده، وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون

(١) وكذلك يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هنداً ثانية

الممالك ويولون الطالب، على شريطة ان يقطعهم ارضا أو يمنحهم امتيازاً ، فيحولون الملك من الاب للابن ومن الاخ لاخيه، ومن العم لابن أخيه، وفي الكل هم الرابحون.

هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوربا . ما فاجؤا أحداً بحرب، وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهليها ، ولا بما تطرف به أجفانهم

أولئك الانكليز باقعة العالم ، وأحبال الحيل، يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة، فلا تستغنى عن حامية، فان تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزيا يكون خادما له وحافظا لملكه، فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد، يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد، فيقيمونه حاكما خلفا لمن لم تسمح ذمته بالقبول، وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوربا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الثناء على حسن استعداده ، وسعيهم إلى طرده بالادلة الواهية ، والعلل الواهنة

المثال الثاني

(استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها)

(مقالة نشرت في العدد العاشر وهي التي أشرنا اليها في ص ٣٣٠ ثم حدث من الحوادث العامة ما اقتضى نشرها في هذه الخاتمة)

ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبدها وتذللها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلا عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون، تحمله على

المدافعة عن أمته، كما يدافع عن بيته وحريمه، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذل الامة إلا بافنائها عن آخرها ، أو افناء الأغلب حتى لا يبقى إلا العجزة والزمنى ، هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الامة .

نعم يسهل للقوة الاجنبية ان تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الامة حاكم او رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها ، لمنزلة له في افئدة ابنائها ، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم . فلا تحتاج القوة الغالبة الا الى إيقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به . او نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به . فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الامة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الامة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف ، او يملكونها بالخدعة وتزيين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون اراضي الامم

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز اول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الامم الهندية في احقاب طويلة.

هذه قبائل الافغان عند ما انحلت ثقتها بأميرها وصار الامر الى الامة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما تمكنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون الفا من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها

لا ريب أنه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً او اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ، ويتيسر له ان يقف على طباعهم ، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ، ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عليه، ونفوسها في وحشة منه، اللهم إلا بالابادة والتدمير

من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أقتالهم[1] بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون[2] بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الامة عنهم ، وما هذا الا لان قوة الغالبين داخلة تحت الضبط ، وأما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتها ، إذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الامة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها واضمحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم ، فانا لله وإنا اليه راجعون اه

المثال الثالث

رأي العروة الوثقى في معاقبة الامم للامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للاجنبي عليها

(قال في آخر مقالة وجيزة موضوعها الامة وسلطة الحاكم المستبد ووصف فيها حال الامة مع الحاكم المستبد المصلح الحكيم وحالها مع المستبد الجاهل الاحمق المتبع للهوى — مانصه)

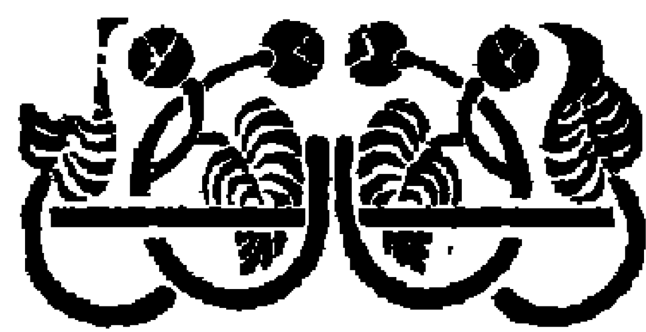
عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنتشر الرياح بزورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها ، وينقطع الامل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة

(١) أى أمثالهم (٢) يفرقون يخافون فهو كيرهبون وزنا ومعنى

وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرها بعضض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الامم . جزاء على مافرطوا في أمورهم . (وما ربك بظلام للعبيد) اه

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ، وكان حكامها خدما لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كافأته ، ومن خانها أو أساء اليها عاقبته، ويجب عليها ألا تولي شيئا من أعمالها لأحد من المفتونين بحب الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لا يولى . وقال الخليفة الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجهولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها بأفصح العبارات وأقواها تأثيرا ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ثم في المغرب الاقصى، ثم في البلاد العربية الاسيوية ، فآفة الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها ورؤساؤها وزعماؤها، ويليهم من دونهم من المتفرنجين الذين يتخذ منهم الاجنبي السالب لاستقلالها صغار العمال لكل مايحتاج اليه من عمل في إدارة حكومتها، مما لا يليق بالاجنبي أو لا يوجد في أفراده من يكفي للقيام به ، ومن قواعد سياسة الاجانب انهم لا يستخدمون في حكومة البلاد التي ترزأ بسيطرتهم عليها إلا من يعلمون بالاختبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة الوثقى ان الانكليز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا عاصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لغتهم، وقد فتنوا ببهرج مدنيتهم ، لما خرجوا أو يخرجوا من الهند ، ولكنهم وجدوا هم وغيرهم في بلاد أخرى من أبناء البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ، وأين من يعقل ويفهم؟؟



المقصد الثاني من الفصل الخامس

عمله في سورية

لما عاد الاستاذ الامام الى بيروت وألقى فيها عصا التسيار ، وتصدى للتعليم والارشاد ، كنت طالب علم بطرابلس الشام ، وكنت قد عرفت شيئا من قيمته بل كنت داعية له وللسيد الافغاني ، ولكن لم أتمكن من الرحلة اليه والتلقي عنه في المدرسة السلطانية ، وقد زار طرابلس في تلك الايام واتفق لي فيها معه مجلس واحد في المدرسة الخاتونية اذ جاءها لرد السلام على الاستاذ الشيخ عبدالله البركة أحد العلماء المتخرجين في الازهر وكان عرفه من قبل ولم يكن الاستاذ موجودا بل كنت فيها مع أحد الطلبة نذاكر دروسنا ، فتلقينا الامام بالحفاوة والاجلال ، وقدمنا له شرابا مثلوجا فشرب ، وطفق يسألنا عن طلاب العلم وأساليب التدريس للعلوم التي تدرس عندنا ، وتوليت إجابته دون رفيقي . ومما سألنا عنه تفسير القرآن هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وانما يقرؤه رجل واحد للعوام ويعنى فيه بالقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية إذ يقرأ تفسير روح البيان لاسماعيل حقي الصوفي

وسألته أي التفاسير أنفع لطلبة العلم؟ قال الكشاف. قلت ولكن فيه كثيرا من نزغات الاعتزال. قال تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها وانما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة

ثم قلت له أما علم الاخلاق فقد اندرس فليس له طالب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين ، فاكبرت هذا الجواب وكبر شأن الرجل في نفسي لانني كنت شديد العناية بكتب الاخلاق ولا سيما احياء العلوم

وانني أذكر هنا ما وصل اليه علمي ولخصته في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار إثر وفاته (١) وأقفي عليها بفصل كتبه لي تلميذه النجيب السيد عبدالباسط

(١) قد استفدت بعض ذلك أولا من تلميذه محمود افندي الكحيل الطرابلسي ثم من غيره ولا سيما من كلفتهما ان يكتبا لي ما يعلمان فيما يلي

فتح الله رحمه الله وفصل آخر كتبه تلميذه الامير شكيب حفظه الله

نص ما كتبته في المنار (ص ٤٦٢) من المجلد ثامن معطوفا على الكلام في عمله في أوربة

وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري ، دون ذلك الهدي النبوي ، ألقى عصا السير في بيروت أعظم ثغور سورية وأقربها من العمران ، فأقبل عليه أهل العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبل ، يستفيضون منه غيث سماء الحكمة ، ويتلقون هدي الحكماء والأئمة، فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الاذكياء وعشاق المعارف، من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية ، و كان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة لايلتزم فيه كتابا، وانما يقرأ في المصحف، ويلقي مايفيض الله على قلبه وكان الناس يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لاحد من قبله، حتى حسد النصارى عليه المسلمين، فكانوا ينسلون اليه زرافات ووحدانا، ويقفون بباب المسجد يمدون أعناقهم، ويشخصون بأبصارهم، ويصيخون بآذانهم، لعلهم يلتقطون شيئا من تلك الدرر . ثم إنهم استأذنوه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقة الدرس فأذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لاحياء اللغة و لدين فيها فلبى ولم يكن في المدرسة من العلوم العربية الامبادىء النحو والصرف وما تسميه الترك « علم حال » وهو مايلقن للولدان من أحكام العبادات . فلما دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله : يدخل في العمل مرءوسا فيكون في الواقع رئيسا . ذلك انه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها، ووضع قانونا جديداً (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والمعاني والانشاء ، زادها لنفسه فكان هو الذي يدرسها حتى كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ على نحو ماذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ... في أسلوب لايصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله » الا معاملات الفقه فكان يقرأ فيه مجلة الاحكام العدلية ، التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء

حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحماسة والالفاظ الكتابية ويشرحه لهم. وكان له هم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة (١) حتى انه كان يزورها ليلا لأجل ذلك وقد تخرج على يديه نابتة هي الآن تخدم البلاد بغيرتها واستقامتها، وعرفانها ونباهتها،

ثم انه في سيرته كان مربيا للجماهير الذين يترددون عليه ، فقد كان يجلس اليه السني والشيعي والدرزى والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع: ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به، لايؤذي جليساء، ولا يغمط فضل مذاكر ولا مناظر، على أنه لم يكن يقول غير مايعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والامور الاجتماعية، فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجال سلفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لاسيا في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعهدونها

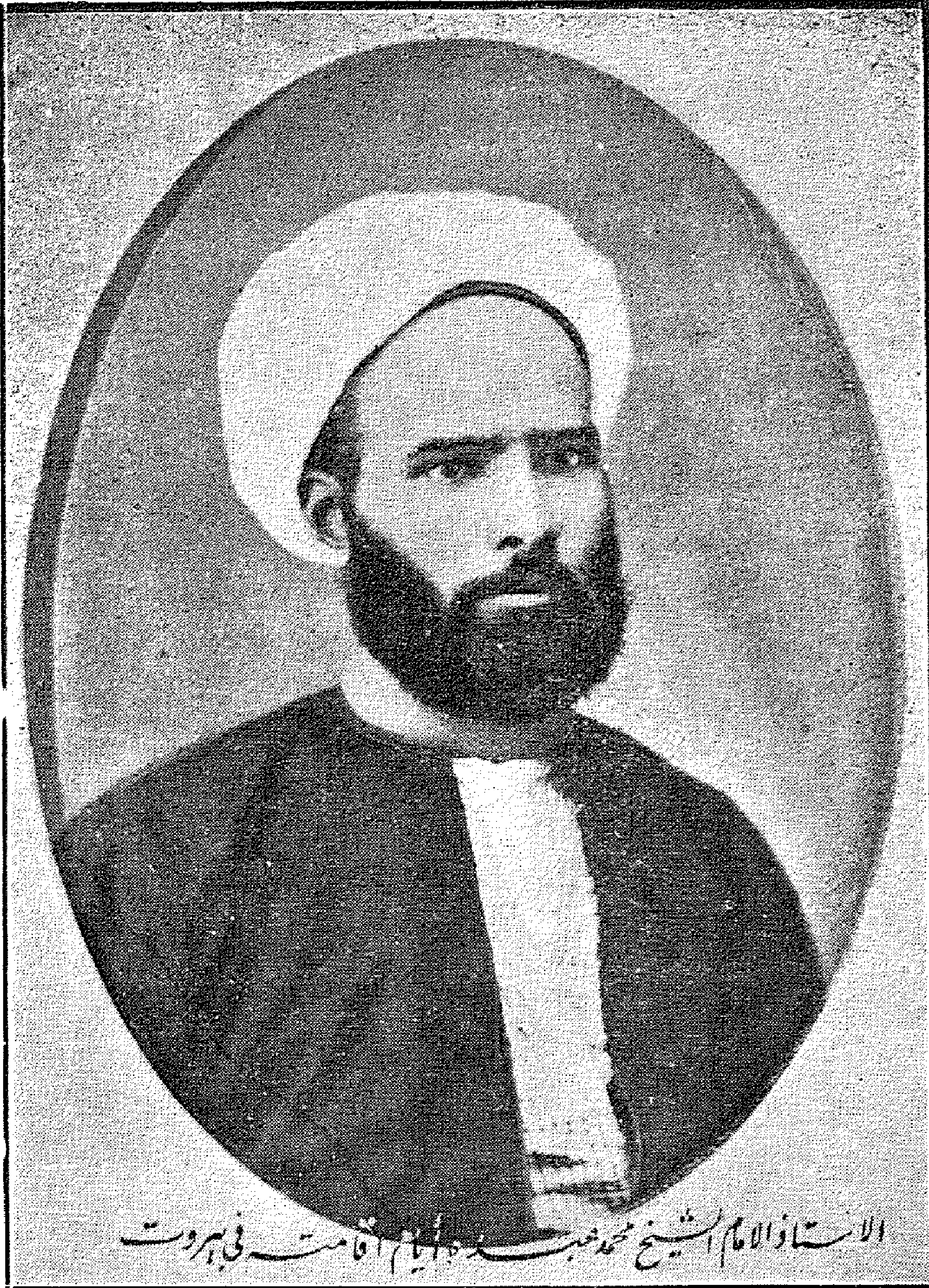
وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية . وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذاني . وقدأقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مراراً . وكان يكتب المقالات النافعة في الجرائد وسننشر ماعثرنا عليه منها في تاريخه (٢ ولم يكتف بهذا الاصلاح المعنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في إصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي وسننشرها في تاريخه أيضا (٣ وكتب لائحة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجهاء وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان (٤ وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها أتم الاختبار اه ما نشرناه في المنار

---

(١) اخبرني محمود افندي الكحيل انه لما طبع ديوان الميقاتي الطرابلسي في تلك الاثناء أرسلت اليه نسخة منه فرآه الاستاذ بيده فاخذه منه فوقع نظره على بيت يصف فيه الردف بقوله * لا يرتقي الا لتنصب سلما * فامتعر وجهه وألقاه بعيدا قائلا : أمثلك ينظر في هذا ؟

(٢) راجع الفصل الرابع ص٣٤٢ من الطبعة الثانية للجزء الثاني (المنشآت)

(٣) راجع ص٥٢٦ منه (٤) ص٥٠٥ منه وهذه هى الاولى



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ايام اقامته في بيروت

سيرة الاستاذ الامام في بيروت

بقلم تلميذه وخريجه النابغة المصلح السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى

لما غلقت أبواب الهند دون « العروة الوثقى » وفات بذلك جل الغرض من تحريرها ونشرها عاد الاستاذ الامام الى بيروت التي كان اختارها داراً لاقامته مدة بعده عن الوطن، واتخذ له بيتاً في ضاحيتها طلباً لنقي الهواء ، واجتنابا للمجامع التي قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى . إلا ان بعد المقر لم يمنع نور العلم من الانتشار ، كما ان العزلة لم تحبس نشر الفضل عن التفوّح في ارجاء الاقطار ، بل كان منزله في بعده عن مدار الحركة ، وارتفاعه عن مجالات القوم، أشبه بالمنائر تنصب في أعالي الاطراف ، فيهتدي بشعاعها الساري ويطمئن اليها الوافد الحيران .

أتى رحمه الله بيروت وهي تتمخض بجهيض النهضة العلمية الاسلامية التي كان ألقاها اليها مدحت باشا إذ أسس فيها جمعية المقاصد الخيرية بيدي مريده النبيه رائف باشا (متصرف بيروت لذلك العهد) فأنشأت الجمعية مدارس للذكور والاناث في كل حي من أحياء المدينة ، ثم سمت بها الهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية ، فافتتحت « المدرسة السلطانية » ، و كان ذلك بعد نكبة مدحت باشا وأيام ولاية حمدي باشا — وحمدي باشا هو الذي مد يده لمساعدة الحامل على الوضع فعجل لها الاجهاض .

ودرى بمقدم الاستاذ الامام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فأقبلوا عليه ففغمهم عبق فضله ، وبهرهم نور علمه وعقله . واذ كانوا في حاجة الى أستاذ يدرس في المدرسة «السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلائم روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة ، ذكروا له حاجتهم ورغبوا اليه أن يتسلى عن غربته بخدمة ملية هو أعرف الناس بجليل فائدتها . فلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ . ولم يكن يدرس

فيها من تلك العلوم الا مبادىء النحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة،فوضع جدولا جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والعاملات من الفقه الحنفي،وذلك للصف الاول والثاني حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الايام ساعات النهار بتمامه . ومن الغريب ان نشاطه في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الاول،بل كان يرى في تزايد ماتناقص النهار ، وكانت دروسه كلها على نحو ماذكره في مقدمة رسالة التوحيد وأماليه يلقيها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله» ماعدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب (مجلة الاحكام العدلية)

ولما تفتقت أذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسما من اشارات ابن سينا وفي المنطق «كتاب التهذيب» واستمر على الاملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الانشاء على شرح مايستظهره التلامذة من كتاب الالفاظ الكتابية « ونهج البلاغة » و « ديوان الحماسة »

لم تمض على هذا المنوال الشهور الاولى من السنة حتى دخلت المدرسة في طور جديد لم تك تعرفه من قبل،وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان : كان يجد التلامذة المدرسة حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق،وكانت لاتمضي الايام الاولى من السنة المدرسية التي تستغرق عادة في تنظيم الصفوف وترتيب المضاجع واعداد اللوازم وتاتي أيام العمل، إلا رافقتها السآمة تبدو على النواصي والملل يتولى النفوس . وما كان يخطر لأحد أن ينظر في أسباب ذلك أو يبحث له عن دواء ، بل كان يظن أن هذه الحال هي من لوازم المدارس الداخلية ومن مقتضى طبيعتها .

دخل الاستاذ الامام رحمه الله المدرسة معلما ولكن نفعه لم ينحصر في التعليم كالشمس تطلع مضيئة ولكن نفعها الخفي في العوالم الحية وتأثيرها في انتظام الكون باسره لو دريت أجل وأعظم — جال جولة في مناحي الادارة المدرسية وطرق التعليم،فوقف على نواقصها وصعابها فاشتملها بنظر حكمته فاكمل الاولى وذلل

الثانية،وصارت المدرسة وكأنها غير المدرسة،وأصبح علمها وكأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يألف التصور حصول مثل ذلك في مثلها .

خالط مدير المدرسة ومعلميها وكانت هممهم تقف عند القيام بالوظيفة قياما آليا ، وأنظارهم تنقطع لدى الغاية القريبة من ضبط هيأة التلامذة وتحفيظهم أشياء من قواعد العلم الحافة . فسما بهممهم الى أفق أعلى من التربية الاخلاقية ، ورمى بانظارهم الى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية ، فأعظموا إذ ذاك شرف مهنتهم،وجدوا في إدراك ماالذهم من كمالاتها،وما لبثوا أن حمدوا سراهم،وقد تبدلت سآمة تلامذتهم ببهجة بدت علي وجوههم ،وقام فيهم النشاط والرغبة في العمل،مقام الملل منه والكسل،وغدا الاستاذ وهو لايخرج من درس، إلا ليدخل في مذاكرة أو بحث . والمعلمون والتلامذة حافون من حوله يلتقطون منثور درره،ويجنون طيب ثمره . وهو يتلقاهم بمحيا طلق،وصدر رحب،متنزلا في محادثتهم الى متناول عقولهم،متلطفا في ارشادهم وتفهيمهم،حتى تغلغل حبه في خلايا قلوبهم،وصاروا يتلذذون برؤيته في غدوه ورواحه وخطراته فيما بينهم . اللهم إلا كسلان او شرس . فان برق لحظاته كان يخطف ابصارهم ، ورعد زواجره يرعد فرائصهم ويخلع افئدتهم،وبدا لتلك الغراس الغضة ازاهر دونها نور الربيع،وتفتحت اكامها عن نثر يزري ببنات الحار،وشعر دون منظومه قلائد العقيان،مع صحة في المبادي، ونبالة في المقاصد،وتهيؤ لخدمة الملة ، ورغبة في عمل الخير، مما اعظم العقلاء الفضل فيه لصاحبه،وان تميز اكفاف البصائر من الغيظ .

ولما انقضت السنة المدرسية وجرى الاحتفال بختامها قام احد الادباء وسأله على مسمع من المحتفلين وكانوا زهاء الالف أن يخطبهم في موضوع يختاره، فدهش الناس لهذه الجرأة ولم يسبق لهم عهد بسماع الارتجال،في مقام لا يقف فيه واقف إلا بعد المبالغة في الاستحضار والاستعداد،ولكن وقفة الاستاذ الامام على ماحفه الله به من السكينة وجلالة الهيئة، أزالت وحدها تلك الدهشة،واندفع يخوض في موضوع جليل يمكن أن يعبر عنه بمثل هذه الكلمات « علة تأخر الشرق مع وجود بعض الاسباب لتقدمه في الظاهر »

فاستغرق كلامه من الوقت ساعة ونيفا حتى اختتمه مخافة الاملال بالاطالة وسامعوه يودون لولم يسكت ذلك النهار .

ومما يذكره بعض تلامذته من صفات نفسه العظيمة انه لما توفيت زوجه الاولى وتركت له بنت نفاس وليس في بيته أنثى تقوم باعبائه، وهو في دار غربة، رمي بمحنة، وضحي نكبة، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما، وأكبر الاصحاب مصابه واضطربت له المدرسة ، فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه، وبأي لسان يعزونه ويخاطبونه، فما هو إلا وقد دخل عليهم فسلم وجلس والكل مطرقون منصتون، لايدرون ماذا يقولون ولا مايصنعون؟ فبادرهم بقوله أظن ان النوبة نوبة الانشاء ، فتلجلجت الالسنة ولم تبن، فحل عقدتها بقوله اكتبوا وأملى عليهم :

تعز فان الصبر بالحر أجمل وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ثم أنشأ يشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس، فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد، درساً أبعد مرمى وأسمى غاية في الحكمة العملية والاخلاق .

هذا وكانت له غيرة على المدرسة لايعرف قدرها إلا المخلصون، فكان اذا اتفق له أن مر بها ليلا لايغادرها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها ، حتى لم يطق البعد عنها، فترك منزله في « برج أبي حيدر » ونزل منزلا يقرب منها في « زقاق البلاط » يسهل عليه اتيانها المرة بعد المرة وفي الاوقات المختلفة ، حسبما تقتضيه ساعات الدروس

غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تشأ أن ينعقد لعمله الثمرة المرجوة ، إذ ان إزهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال «العسكرية» على مديرها [1] الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تدبيره من النبالة ولسان الصدق في الناس ، مالم يرضه له أولئك الاوغاد ، فسعوا به فبدلوه بآخر تبديل اللطافة بالخشونة، والحصافة بالرعونة، وجاء خلفه فغير وبدل واضطرب نظام المدرسة فضلت نهجها القويم وغايتها المثلى، وغلت يد الجمعية عن العمل، وفارق

١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ أحمد عباس رحمهما الله ، والظاهر أن أولئك الرجال من مبغضي العرب من الترك . . .

المدرسة معناها المرسوم فيما تقدم ، فاستقال الاستاذ وقد اصبح العمل ضربا من العبث،وفي غضون ذلك جاءه نبأ تبدل الوزارة النوبارية بالرياضية،وتلاه بعد قليل صدور الاذن الخديوي له بالعود الى دياره المصرية .

هذا مايتعلق من سيرته في بيروت بالمدرسة السلطانية ، وأما بقية اوقاته فلم تكن تذهب سدى :

لما ظهر من فضله ماظهر،واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر، تسابق الناس الى معرفته،وتنافس العقلاء من اهل العلم والوجاهة والادب والنباهة في خطبة مودته، وسأله الكيسون ان يجعل لهم حظا من الفائدة فاجاب سؤلهم ، وخصص ثلاث ليال من الاسبوع يفسر لهم فيها آيا من القرآن الكريم في جامع الباشورة على مثل منهاجه (الاخير)في الازهر،هذا عدا عصريات رمضان من كل سنة، فنسل الناس الى استماع درسه من كل حدب،ولم يرض النبهاء من المسيحيين أن يفوتهم ذلك الحظ العظيم،فكان يقف فريق منهم في باب الجامع العمري على مقربة من حلقة الاستاذ ، ولكن ازدحام الخلق في الداخل وضوضاء السوق في الخارج كانت تحول دون مشتهاهم من الاستماع،فشكوا اليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذنوا أن يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم. وكذلك تقطروا أفواجا لاستماع درس المجلة (١) وفيهم الشاب عن طوق التلمذة،وصاحب الاشغال التي لاتسمح له بالانتظام في سلك المدرسة،ولاتسمح قوانينها بقبوله،ولكنهم ألحوا حتى رخص لهم في حضور الدرس في الايام المعينة فقط،ومنهم من حضر درس التوحيد أيضاً .

وأما بيته فكان كمدرسة مطلقة تأوي اليه الفئة المتنورة من كل ملة ، فكثيرا ما كنت ترى طلاب الفوائد وفيهم من نعت بالعلامة يقيدون في دفاترهم شوارد الحقائق، ويدونون في صحفهم أوابد الدقائق،التي كانت تأتي على لسان الاستاذ في غضون الحديث ، وفي ليالي رمضان كان يستقرىء خصيصاً له من تلاميذه (٢) السيرة النبوية على مسمع من الزائرين مدة ساعة من بعد العشاء ،ابتعاداً عن اللغو الذي يقضي فيه المتسحرون ساعات الليل حتى السحور ، وقرأ في بعض الايام لطائفة

(١) أي مجلة الاحكام العدلية (٢) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل

من طلبة العلم درساً في المنطق. وقرأ أيضاً لتلميذ له (١) بعضا من « قسم الكلام » من كتاب التهذيب

وما خلا من أوقاته عن شغل في تدريس، أو حديث في مؤانسة جليس، كان يملؤه إما بكتابة الفصول المتنوعة التي كانت تدعو اليها المناسبات الزمنية ، أو ملاحظاته الحكمية ، ومن تلك الفصول ماتربو قيمته في النفع على كثير من المجلدات، وفي ثمرات الفنون غير واحد منها (٢) وإما بتأليف تمس اليه حاجة طلاب العلم وروام الادب، أو يرى فيه فائدة للدين

فترجم أثناء اقامته في بيروت « رسالة الرد على مذهب الدهريين » لوليه الحميم الحكيم السيد جمال الدين الافغاني وصدرها بمجمل من سيرته ، وشرح « نهج البلاغة » لامير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وكتب رسالة مسهبة في اصلاح التعليم الديني وجه بها الى المشيخة الاسلامية عند ما بلغه عزم الدولة على شيء من ذلك (٣) هذا عدا عن الاجوبة والرسائل الخصوصية التي ما كانت تخلو من فائدة عمومية أو شخصية

وقد رحل خلال تلك المدة الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعلبك وطرابلس وتجول في انحاء لبنان وهو كيفما رحل وأينما حل ينتهز الفرصة لنفع الخلق عامة، مولياً وجهه شطر غرضه السامي النبيل من نشر العلم الصحيح ونصرة الدين المبين، ورفعة المسلمين .

وهو وان لم ينج في بيروت من أذى المشاغبين إلا انه كان يحبها، ويتوسم الخير في ناس من أهلها . وان أثر فضله فيها لاينمحي ماتواصلت عقول تدرك الحق، وتعاطفت قلوب تحس بحسن الصنيع .

جزاه الله أحسن ماعمل بمنه وكرمه اهـ

---

(١) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل نفسه أيضاً رحمه الله

(٢) بينا في حاشية سابقة مكان هذه المقالات في الجزء الثاني من هذا التاريخ

(٣) بينا في حاشية سابقة مكانها في فصل اللوائح من منشئاته في الجزء الثاني أيضا

نبذة ثانية من سيرته في بيروت

بقلم تلميذه ومريده أمير البيان الامير شكيب ارسلان

منذ حداثة سني كنت أقرأ الجرائد . ولما حدثت الحادثة العرابية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتتبع وقائعها، وأتحرق عند ضرب الانكليز للاسكندرية ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري ، وأحسب حساب بقائهم فيه . وعند ما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكموهم ونفوهم الى خارج القطر ، قرأت في أخبار المحاكمات نص يمين قيل انها من انشاء الشيخ محمد عبده . وكانت هذه أول مرة سمعت فيها هذا الاسم ، أما نص اليمين فرأيت فيه أسلوبا عاليا غير الذي كنت أعهده، ولم أكن يومئذ بالذي يقدر أن يعرف مزايا الانشاء ولكني كنت أميز منها العالي من النازل بمحض الشعور ، فوقع في نفسي شيء من هذه اليمين، ورأيت ان منشئها الشيخ محمد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم . ثم نفي العرابيون الى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمد عبده وابراهيم افندي اللقاني وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسمائهم مصطفى بك عبد الرحيم وأحمد بك عبد الغفار وحسن بك جاد ومحمد بك الزمر وخضر بك وغابت عني أسماء الباقين وكلهم بين أميرالاي وقائمقام وقائد ألف . وكنت في ذلك الوقت أحصل العلم في مدرسة الحكمة . ولما دخلت سنة ١٨٨٥ قرأت في مجلة الطبيب التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشاره زلزل وخليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها « العروة الوثقى » من قلم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . وكنت بدأت أسمع باسم الافغاني وكانوا يقولون ان أديب اسحاق هو ممن أخذوا عنه ، وفي هاتيك السنة توفى أديب اسحاق واهتزعالم الادب لموته، وكنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء والادباء لا يهمنا شيء أكثر من هذا، فكنا نرى الدنيا كلها نظما ونثراً ، وكان كل ما خرج عن الانشاء

والشعر والادب لانكاد نقيم له وزنا . فلما سمعنا ان أديب اسحاق كان يغترف من بحر الافغاني صرنا في شوق زائد الى معرفة الافغاني نفسه والى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده .

ولم تمض أشهر حتى سمعنا ان الشيخ محمد عبده عاد من باريز الى بيروت . وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره ، وكثر تردد الناس عليه ولهجهم بذكره ، ومرة زارنا في المدرسة الاستاذ الشيخ سعيد الشرتوني صاحب أقرب الموارد فسألته عنه فقال لي : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد تشوقنا الى معرفته . وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الاستاذ الشيخ محمد عبده من جملة المدعوين اليها . فهذه أول مرة شاهدته فيها ، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلية الامريكانية، وكان معه الشيخ عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون» وأحد أعيان بيروت المشار اليهم بالبنان ، وكان صديقا للاستاذ الامام، وكنت أعرفه فقدمني الى الاستاذ وسلمت عليه فظهر لي انه كان يعرف اسمي لاني أنا لذلك العهد كنت أنظم وأنثر، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد، فأتذكر انه قال لي: «أنت ستكون من أحسن الشعراء» فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ الى منزله . وكان يسكن في حي زقاق البلاط قريباً من منازل آل حماده وآل القباني، ويسمر كل ليلة في دار الحاج محيي الدين حماده رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته، فكنا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الاستاذ . وقد انطوى أكثر من كانوا ينتابون ذلك المجلس من الاعيان والفضلاء ، ولم يبق منهم الى اليوم فيما أعلم سوى الوجيه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر افندي القباني والفاضل الاديب الشيخ محمد اللبابيدي . وزارنا المرحوم الاستاذ في منزلنا بالجبل وتعرف الى والدي رحمه الله وسر والدي كثيراً بمعرفته، وقدره قدره، وصار لا ينزل مرة الى بيروت إلا يزوره. وكان الشيخ أيضا يجل والدي كثيرا وقال للاستاذ الشرتوني عنه : انه أعقل من رأيت من أمراء الجبل .ولما توفي والدي الى رحمة ربه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشد الناس عليه حزنا ولنا مؤاساة ومؤازرة

وكان الشيخ رحمه الله يقرأ التوحيد والفقه في المدرسة السلطانية في بيروت، فحضرت عليه أنا والمرحوم أخي نسيب درس مجلة الاحكام العدلية، وأما تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبيهاً وكان الشيخ يتوسم فيه الخير والسيد عبد الباسط فتح الله الذي هو من انبغ خريجي الاستاذ الامام، وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر وكل منهما قد لقي ربه .

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سورية فانه مامضت مدة إلا وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرين الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضرته، والالتقاط من درره، وصار للناس ولوع به ،فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه،ويتابعونه في رأيه،وان كثيراً من الافكار والمبادىء والالفاظ والجمل السائدة الآن في بر الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده ، لاشك في ذلك وان كان الآن قد خفي أصلها ، وانطوت نسبتها (١)

وأجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعا لم يقع مثله لأحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء تزدحم حول ذلك المنهل العذب،وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم ، ونظراً لكثرة ترددي عليه أقول اني أعلم من

(١) مما يدل على قول الامير شكيب هذا ما حدثني به الاستاذ الامام قال : ألقيت مرة خطابا في حفلة عامة جعلت موضوعه (العلم للاسعاد كلمة الله للايجاد) فجاءني بعد زمن قسيس سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة لخص فيها ذلك الخطاب وقال ارجو ان تصحح لي هذه المقالة فانني اريد نشرها فصححتها له وحذفت منها عنوانها الذي هو (العلم للاسعاد كلمة الله للايجاد) وقلت له اختر لنفسك عنوانا غير هذا ، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره، قلت اذاً لا آذن لك بنشر المقالة فانها كلها من كلامي و قد صححت لك ما أخطأت فيه من نقله،واستبقيت لنفسي هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فان لم ترض بذلك فانا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة قال رضيت

هذا الامر ما لا يعلمه غيري،فطالما لقيت بمجلس الاستاذ أصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها ، وتجلت لي هذه المسئلة(عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف انها تسهل فهم كل شيء،ومزية الادمغة التي حشوها الحكمة وطرازها التصوف،وظهرت لي محاسن الانظار الشاملة التي أفقها اوسع وأعلى من سائر الآفاق . فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنة ومجهدو الشيعة وعقال الدروز ، والى جانبهم اساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق منهم ،وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ،ويجدون فيه مرجعاً عاما

ثم انه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية ، ومن الخوض في أمور كل هؤلاء الناس مختلفون فيها ، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته ، وينتهي الامر بأن الجميع يكونون على وفاق، وان كل فئة منهم ترى أن الشيخ قد فهم ما أرادت وانها هي قد فهمت ما أراد

وأغرب من هذا ان ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمعطلة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الاستاذ ليسمعوا اقواله في الالهيات والاديان ، ويروا ما عنده في الخالق والمخلوق وأشباه هذه المباحث،فكان الاستاذ يناظرهم بكل تؤدة، ويحل لهم المشكلات التي كانوا اذا سألوا عنها غيره من العلماء اعجزهم الجواب عنها ، فكنت تراهم منصتين اليه حيارى أمامه،لا يدرون ماذا يقولون،مع انهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا انهم يعجزونه كما اعجزوا غيره . وبالاختصار لم اعلم احداً تمكن من ان يبدي امامه في باب الجحود أكثر من اعتراض او اعتراضين،ثم لم يلبث ان وقف حماره في العقبة ، وخرج من حضرة الشيخ إما راجعاً الى الايمان بالغيب،او باقياً على جحوده مع الاعتراف بالعجز عن الاخذ والرد مع هذا الرباني المنقطع النظير

ومن اسرار عبقرية الشيخ في العلم والادب انه كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب او عقيدة من العقائد التي اصحابها من عمار مجلسه وان كانوا مخالفين له في العقيدة ، وكان من الكياسة وحسن المخالقة بحيث لا يسمع منه احد من هؤلاء كلمة واحدة تسوءه او تشير الى تخطئة مذهبه، او اظهار ما في

الاسلام أو مافي مذهب اهل السنة والجماعة من الفضل عليه . ولكنه من المحقق ان جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه الا وفي انفسهم إما ميل اكيد للاسلام ، وإما تقدير عظيم لمزايا الدين الاسلامي — برغم الاعتقاد بغيره

وقد طال عجبي من هذا الامر حتى لم املك نفسي ان كاشفت الاستاذ مرة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك رحمه الله كثيراً الى ان بدت نواجذه، وعلم اني ادركت هذا السر وقال لي : نعم وأنا ايضا اشعر بما تشعر به ، فقد قلت له «مالي ارى كثيرين من المسيحيين الذين اعرفهم معجبين اشد العجب بملتهم، محتقرين للاسلام في انفسهم، قد عادوا بعد ان عاشروك يذكرون الاسلام باجلال لم يكونوا يذكرونه به من قبل ، ومنهم من إخاله قد تحول مسلماً في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟(١)

فالشيخ قدس الله روحه لم يكن يتعمد لا تصريحا ولا تلويحاً ان يظهر لغير المسلمين من زواره وسماره شيئاً من فضائل الاسلام او من خصائص القرآن(٢) بل كان يتنكب طريق الجدل معهم ، والتعرض لأي شيء يؤخذ منه الرد عليهم ، وانما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يسئل عنها ، ويفيض في شرح الغوامض وحل المشكلات بالطريقة التي لم يعهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الاسلامية ، فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلي مقام الاسلام في نظرهم، ويريهم انهم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام شيئا تقريباً ، والحقيقة انهم كانوا يتصورون الاسلام بالصورة التي تركتها في اذهانهم كتب الافرنج من تأليف الفئة المتعصبة وهي الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع ، وكانوا اذا اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم الا عامياً جاهلا، او شيخاً جامداً لا يعرف من الاسلام الا قشوره ، فكانوا يظنون ان الاسلام هو هذا ، ويقيسونه على الذين تمثل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكوا بغيرهم :

وربما وجد في البلاد فقهاء وعلماء اجلة من المسلمين ولكنه كان يغلب عليهم الجمود احيانا، وكان منهم من يخشى العامة فلا يتجرأ على تخطئة خرافات

---

(١) اظن انا ان من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأنشر من مكتوباته ما يشعر بذلك ولا سيما تقريظه لرسالة التوحيد (٢) بل كان يتعمد ألا يظهره وهو يقصده

الحشوية عانا ، وأكثرهم لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على احوالهم ، واذا راجعه احد من هؤلاء في شيء لم يكن إلا لاستفتائه في مسألة من مسائل الحقوق أو المعاملات الدنيوية . فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جداً، ودائرة الاختلاط كانت ضيقة ، والجمود كان غالباً على علماء الاسلام هؤلاء ، والمبادىء الحشوية كانت مستفيضة فيهم

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمد عبده الى بيروت وظهر فضله وسطعت شمسه، فاختلط به ادباء المسيحيين وعلماؤهم ورؤساؤهم فرأوا منه غير من عرفوا الى ذلك العهد، وبعد أن كانوا يرون في الاسلام شيخاً معمما قصير أمد الفكر، او بالكثير فقيها جامداً متورعاً ،صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الاستاذ الامام اياه فقيهاً نيراً وفيلسوفا كبيراً واجتماعياً محنكا ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان عليه مثل الغزالي او كما كان عليه ابن رشد وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا

وكما أن المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ عالما مسلماً لم يعهدوا نظيره، كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقرين بفضله، موفرين لقدره، وكان ناشئتهم معترفين بان هذا الاسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل . وقد كان الاستاذ يجل من علماء سورية بنوع خاص الاستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي رحمه الله لانه كان عالما مفكراً واسع النظر مهتما بالجمع بين الشريعة والاوضاع العصرية. وطالما سمعت من فمه الثناء على الاستاذ الجسر كما ان الاستاذ الجسر كان معجبا جداً بالشيخ محمد عبده معترفا بعبقريته. وقد ذكر لي ذلك إحدى المرار، ولم يأخذ عليه إلا شيئاً من حدة المزاج . فقد كان الشيخ يومئذ لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من العمر ، وكان من أصله عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف الاحساس، فربما جرى لسانه بسائق التأثر بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثراً

وفي سنة ١٨٨٩ ذهبت إلى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر فحضرت مجلس مفتي الشام العلامة الشيخ محمد المنيني ففي أثناء الكلام جرى ذكر الشيخ محمد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيراً وقل مامعناه انه مع

العلم الوافر متصف بالكياسة والرقة، جامع بين أدب النفس وأدب الدرس ، يشبه في هذا أكابر علماء الشام واستانبول

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيراً من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبعلبك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حل معززاً مبجلا محفوداً محفوفا بالمستفيدين . وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه، فكان مثالا للعلم مع العمل، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مطعناً أو مغمزاً ، أو يلحظ منه مايخل بالوقار أو الكرامة او الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة مالم يكن إلا لكبار الشيوخ من المعمرين مع انه كان شابا . ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سعة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء المزدان بالعفة ، ومن الفصاحة المتحلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاما، وكان عظيما من كل جهة . ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عدداً لايكاد لايحصى من كل الطوائف، ولم أعلم أحداً من جميعهم قدر أن يقول فيه كلمة سوء، او أن ينتقدمنه قولا او عملا يخل بالكمال، وهو لايكاد يوجد وحده إلا في وقت النوم . فأما في سائر أوقاته فقد كان محاطا بالزائرين . فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة بدون عمد او عن نبأ لم يتبينوه فسامحهم الله ، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شنآن حملهم على القول بغير علم أو بما لايعتقدون فحسبهم الله .

وقد سمعت في تلك الايام بعض أناس يجهرون بعداوتهم للشيخ لكنهم لم يكونوا يطعنون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه ، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب وجل من لاعيب فيه هو الحدة فقط ، وهو عيب أستاذه السيد جمال الدين فقط . وقد كان تأهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حماده أخي الحاج محيي الدين حماده فكانت صلته بهذا البيت تحمله في المنافسات والمخاصمات السياسية المحلية على الذب عنهم بفصاحته وقوة حجته ، مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده ، فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شطراً من إصر العداوة وتوابعها . وكان بعض الساخطين من أجل ذلك يقولون ماللشيخ وللتدخل في هذه الامور التي لاتعنينا الا نحن أهل

بيروت فكان الاولى به أن يبقى فوق هذه الاحزاب ؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة انه حاد المزاج ، وكان والدي يقول لي انه لم يجد فيه إلا عيباً واحداً وهو ان لسانه حريف اذا غلب عليه الانفعال

ومن غرائب مزاياه أنه كان مع تلك المهابة التي فيه، وذلك الشمم الذي يتجلى من جميع نواحيه، من أرق خلق الله طبعاً ، وأعظمهم وداعة وتواضعاً ، وأحلاهم عشرة ، وأحبهم للفكاهة ، وأطربهم للنكتة ، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر . وكان للطرائف واللطائف من محاضرته حظ سافر، ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كلمة بذيئة ولا لفظة ينبو عنها المجلس ، ولا قصة يشمئز ذو تربية حسنة من سماعها . فقد كان جلال الاستاذ لايفارق مجلسه أبداً ،وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائماً، فهو نادٍ زاهر إن عرف النكتة او النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو . وكان أحد أصدقائه الاجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الالسنة. فكان في هذا الامر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فانديك الامريكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جداً هذه المزية فيهم، ويعجب بآدابهم في مجالسهم حتى آداب العوام منهم (١)

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا انه كان سخي النفس كثير البر ، ينفق مابيده ولا يعرف للمال قيمة . وكان يمد سماط الاكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر اليه، وكان يحب السخاء الدائم والسماحة الفطرية بدون تأنق ولا تصنع . وكان والده يرسل اليه مايلزم لمعيشته فلم يحتج

---

١) ذكرت في حاشية قريبة انه غالظ في الانكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الردف وألقاه بعيدا كالقذر

في أثناء وجوده في بيروت إلى شيء ولا ضاقت ذات يده ولا مرة ، وكان يوازن موازنة تامة بين الراتب الذي يأتيه من أبيه وبين نفقاته فلا تجد بودجة أحسن انتظاما من بودجته، ولذلك لم تكن تجده عائلا أبداً (١) وكان يتصدق على الفقراء ولا يرد سائلا ، ومن مزاياه انه كان لا يقبل من أحد شيئاً من شدة انفته، إلا الهدايا التافهة من خلصاء أصحابه لا غير

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجد زائره ولا عشيره إلا راضياً، ولم تكن تحمله شدة الالفة على اطراح التكلف فقد كان يقوم حتى لتلاميذه ومريديه ، ودخلت عليه مرة وكان عنده المرحوم منح بك الصلح فتمثل واقفا لي فقال منح بك : ماظننت الشيخ يقف لك . فقال له : أنا لست ممن يقول اذا وقعت الالفة، ارتفعت الكلفة

ولم يكن يطرأ على بيروت احد من معارفه او من الاعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه . وقد يجله ويحتفي به ولو كان مخالفا له في العقيدة ، ولم اجده احتفل بأحد اكثر من احتفاله بعباس افندي البهاء رئيس البابية مع ان الطريقة البابية هي غير مايعتقد الشيخ وهي الطريقة التي رد عليها استاذه السيد جمال الدين رداً شديداً ، ولكنه كان يكرم في عباس افندي العلم والفضل والنبل والاخلاق العالية (٢) وكان عباس افندي يقابله بالمثل ، وكان ينصف الناس كثيراً ولا يبخس احداً شيئا من اشيائه، حتى انه ذكر لي مرة مايجده في نفسه من انصاف غيره حتى من اعدائه وقال لي : اني لأحسد نفسي على هذا الانصاف

---

١) ذكر لي رحمه الله ان أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه يقول انه ليس معه مايجهزه به بما يليق بكرامته وكان مع الاستاذ راتبه الشهري كله فبذله له كله . ولكنه ماعتم أن جاءته حوالة برقية بمبلغ من المال أكثر منه كان دينا له على بعض أصحابه قبل النفي وكان يمطل به ويسوف

٢) قد علمت من الاستاذ الامام انه يعتقد ان عباس افندي مسلم محب للاصلاح كما كان يظهر له عملا بقاعدة التقية ولا سيما عند أمثاله الباطنية . وكان عباس افندي يصلي مع الاستاذ الجمعة والجماعة وسأفصل هذا في موضعه من هذا التاريخ

ومن بعد ان صرت من مريديه لم اسمع منه كلمة تقريظ لشيء من اعمالي او اقوالي، بل كان اذا استحسن يسكت، واذا استهجن ينبه ويوقظ. وكان الواحد منا يتجنب اقل التسامح مع نفسه خوفا من توبيخه لشدة ما كنا نوقره ونهابه،

وكان من اصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طبيبا شهيرا فحسب بل كان فاضلا صدوقا حسن العشرة، فكان الاستاذ يزوره في الاحايين وكنت اصحبه في هذه الزيارات، ففي إحدى المرار سأله صافي عن ادباء العصر ومن الجملة عن أديب اسحاق. فقال له عن اديب: هو كاتب لا بأس به، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو اكتب من اديب بكثير بل هو اكتب المعاصرين فيما ارى، ثم التفت صافي نحوي مبتسما وقال للشيخ: والامير شكيب؟ فقال له: سيصير في المستقبل، فقال له صافي: اتراه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي؟ قال له الشيخ: لا، قال له صافي: ألا يقدر ان يكون مثل ابراهيم اليازجي؟ فتبسم الشيخ وقال: مرادي انه سيصير احسن احسن. وهذه هي المرة الوحيدة التي صرح امامي بتفاؤله بحقي

وقد نقلت هذه الجملة لانها من كلماته لا ادعاء بأني جئت مصداقها، وكان في غالب الاحيان يبصرني عيوبي وينبهني الى تلافي قصوري شأن الاب مع ابنائه

ولم يكن يرغبني في الشعر، وقد مدحته بقصائد هي في ديواني الاول المسمى «بالباكورة» وقدمت الباكورة نفسها له وصدرتها بقصيدة تقدمة له (١) ولم يظهر لي الاهتمام بشيء من ذلك، ولم يستمطر عارضي في الشعر إلا مرة واحدة وهي انه كان صديقا للمرحوم عبد الله باشا فكري وكان عبد الله شاعراً ناثراً فأشار إليَّ بأن اهديه الباكورة واصحبها بأبيات بمديح عبد الله باشا، فنظمت ابياتا رائية بعثت بها اليه مع الديوان، فاجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنانة مثبتة في ديوانه

وكان يقول: لا اقول الشعر، وانما كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قالها وهو في السجن على اثر الحادثة العرابية وأنا احفظ منها:

(١) سأنشر بعض هذه القصائد او كلها في الجزء الرابع المتمم لهذا التاريخ ان شاء الله

مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه   وشيمة الحر تأبى خفض اهليه

ومنها :

احاول الصعب في رأيي فأدركه   ولا حسام ولا رمح أروّيه

وانما الفكر يغني نفس صاحبه   عن الجيوش اذا صحت مباديه

ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتي تمنعه من الاهتزاز لجيد الشعر والافتتان بغرر القريض . فقد كان يكاد يسكر من قراءة هذه الطبقة العالية من الشعر لا سيما الشعر الجاهلي ، وقرأ ديوان الحماسة في اثناء مقامه ببيروت فحفظ منه الكثير، وكان يبلغ من شفوف حسه ورقة شعوره انه يعيد البيت الواحد مراراً متعددة وهو يترنم به ولا يرتوي منه ، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان ماتفعله الالحان في السامع ، او بنت الحان في الكارع(١)ولشدما كان يعجبه :

اذا هزه في عظم قرن تهللت   نواجذ أفواه المنايا الضواحك

وقوله :

يخالط ملس الصخر لم يكدح الصفا   به كدحة والموت خزيان ينظر

وكان يعجبه في التشبيب قوله

---

١) أما دقة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقة فهمه للعربية واتقانه لآدابها . وأما تأثيره في نفسه فهو من رقة شعورها وصحة وجدانها . وكنت في بعض المناسبات أذكر له بعض الشعر المؤثر في النفس فلم أره اهتز لشيء هزته لقول بثينة اذ نعي اليها جميل . ذلك ان جميلا لما حضره الموت أعطى رجلا حلة له وأمره بأن يسافر الى ربع بثينة ويقف عند بيتها وينشد :

صرح النعي وما كنى بجميل   وثوى بمصر ثواء غير قفول

فلما سمعته بثينة لم تملك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : ياهذا إن كنت كاذبا فقد فضحتني، وإن كنت صادقا فقد قتلتني. فأخرج لها الحلة فانصرفت وهي تقول:

وان سلوي عن جميل لساعة   من الدهر لا حانت ولا حان حينها

سواء علينا ياجميل بن معمر   اذا مت بأساء الحياة ولينها

فاهتز الاستاذ لسماع هذا النثر والنظم وتغير وجهه ثم صار يردد البيت الثاني مراراً وفاقا لما روى الامير عنه

وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن أصبعا

وقوله :

أحقا عباد الله أن لست ذاهبا ولا جائيا إلا على رقيب

وكان يفضل محمود سامي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه الى كبار المتقدمين . وهو الذي دلنا على شعره وعرفنا بمقامه واطلعنا على « الوسيلة الادبية » للمرصفي فحفظنا مافيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي . وأما مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيام كان منفياً بسيلان ثم بعد العفو عنه وإيابه الى مصر فقد كانت بعد أن برح الاستاذ بيروت وعاد الى مصر .
وكان محمود سامي من أحب الناس الى قلب الشيخ فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامي رحمهما الله وكان يتأوه على غربته ونكبته مالا يتأوه على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة وذلك سنة ١٨٩٠ عند مازرته إلى مصر فمررنا امام دار فيحاء فوقف ونظر اليها وقال لي : هذا بيت صاحبنا، وتنهد عند هذه الكلمة تنهداً عميقا فسألته : دار من هي ؟ فقال : محمود سامي . وكأنه تنهد لاعلى غربة محمود سامي فقط بل على غربة مصر كلها واحتلال الاجنبي لها

وكان أيضا شديد الحب لعبدالله باشا فكري لايفتأ يذكر محامده ومتانة دينه ورقة أخلاقه ويحفظ من شعره ويعجبه منه قوله خطابا للخديو توفيق

ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسراً
ولكنها نفس فدتك أبية تعاف الدنايا ان تمر بها مرا

وكان يروي ان محمود سامي وعبد الله فكري كانا يتساجلان في إحدى السهرات فكان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول الثاني فقال أحدهما

وترى المجرة في السماء كأنها

فقال الآخر رز تبعثر في طريق المحجر

وطريق المحجر طريق واسعة معروفة بمصر . وكان يروي لنا نوادر كثيرة عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالاتها حتى صرنا كأننا في مصر ونحن بعد لم

تعرف مصر. وممن كان الشيخ يجلهم كثيراً الاستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي شيخ الازهر فقد كان ينوه باستقامته وعدم محاباته في الدين. وكان يجل الشيخ حسونة النواوي والشيخ حسن الطويل ولكنه بالاجمال كان يكره طريقة التعليم بالازهر ويذكر مساويها ويتأوه من إشتغال الطلبة هناك بما يسمّونه « بعلم الكراس » وما أكثره في وجوه الاحتمالات، وفي تأويل العبارات، مما أضاع أوقات الدارسين فيما لا فائدة فيه. وبقي ينوح على حالة التعليم في الازهر ويندب جمود العلماء الذين فيه وعقم طريقتهم الى أن صار هو صاحب نفوذ في مشيخة الجامع فأصلح من ذلك بقدر استطاعته

ولما زرته في مصر سنة ١٨٩٠ قال لرفيقه وخليله الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان بان يذهب معي الى كبار مشايخ الازهر كالشيخ العباسي والشيخ الانبابي والشيخ عبدالقادر الرافعي حتى أتعرف اليهم فلما زرنا الشيخ الانبابي وجدنا عنده عالما اسمه الشيخ الظواهري. فلماذكر الشيخ عبدالكريم اسمي وقال اني من جبل لبنان قال هذا الشيخ المسمى بالظواهري: وأين جبل لبنان هذا ؟أفي الغرب؟ فأجابه الشيخ عبدالكريم : بل في سورية . فأما أنا فكدت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان . ولما رجعنا الى البيت أخبرنا الاستاذ بما وقع فقال لنا : نعم وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان هو من علماء الطبقة الاولى

وهذا وأشباهه كان من أسباب نعي الشيخ على جمود العلماء الازهريين ونفورهم من العلوم العصرية وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء سواها حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر بل ليسوا من أهل هذه الدنيا ، ومما جعله يتأوه على فراش موته رحمه الله ويقول

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وكان جاء الى بيروت الشيخ ابراهيم التادلي من أكابر علماء المغرب أدى فريضة الحج أولا ومن الحجاز جاء إلى القدس ثم الى بيروت حينما كان الاستاذ الامام فيها ، فذهب الاستاذ للسلام عليه وذهبنا معه أنا والاستاذ الشرتوني . ولم تكن

إلى ألفة يومئذ بلهجة إخواننا المغاربة فقلما فهمت شيئا مما كان الشيخ التادلي يقوله. وانما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه، فقال لنا انه عالم على الطريقة المعهودة بالازهر والتي ابتلي بها العالم الاسلامي كله فالازهر والاموي والزيتونة وجامع القرويين كلها واحد، ولم يفهم منه شيئا جديداً الا انه أعجبه من كلامه شيء واحد وهو ان الشيخ سأله: هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم المختلفة؟ فأجابه التادلي: نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلا أن العلم لا ينتشر بقوة التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكرة الشفوية. فاستاذنا وجد هذا المعنى صحيحا وقال لنا: هذا أحسن ماسمعته من كلامه. وثاني يوم قيل لنا ان الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درسا في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير وذهبنا نحن مع الاستاذ ونحن نرجو أن نسمع شيئاً جديداً أو بحثاً عائداً الى أمراض العالم الاسلامي الحاضر وطرق علاجها مما هو مقدم على كل شيء فاذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وماتضمنته من العلوم والمعارف والفنون مما هو مستفيض في كتب علمائنا رحمهم الله ومما لاشك في ان الاستاذ التادلي أتقنه اتقانا تاما ولكنه دل بهذا على انه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الاحوال

وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لا علما ويقول ان العلم الذي لا يمتزج بالنفس ولا يصير جزءاً من أجزائها لاينبغي أن يسمى علماً

وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» مجلساً جرى بينه وبين جمال الدين أفندي شيخ الاسلام في الآستانة من جملة ماذكر الشيخ فيه ان أمثال هؤلاء لايقال لهم علماء وانما يقال لهم حفاظ لانهم يحفظون عن ظهر القلب أصولا وقواعد لايطبقون منها شيئاً على فروعها وقال أيضاً: انه جاء في تعريف بعض السادة المالكية للعالم انه الخبير بامور قومه المطلع على أحوال زمنه. اه

[المؤلف] أرسل إلي الامير بعد هذا فصلا آخر في شؤون الاستاذ الامام وآرائه وأصدقائه وتلاميذه ولاسيا سعد زغلول باشا قد استفاد أكثره من زيارته لمصر التي أشار اليها آنفا وسنذكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ. وموضوعنا في هذا المقصد بيان سيرة الامام وعمله في سورية.

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه لاقناع الدولة العثمانية بالاصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية)

ذكرنا في أول هـذا المقصد ما كنا نشرناه في المنار ـ ثم ماأشار اليه أخونا المرحوم السيد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده ـ من ان الاستاذ الامام كتب الى شيخ الاسلام في الاستانة لائحة في الاصلاح والتعليم الديني ، وأشرنا في الحاشية الى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ هذه اللائحة علم منها أن الاستاذ الامام قد تجدد له أمل كبير في اصلاح الدولة العثمانية من طريق التربية والتعليم الذي لايمكن الاصلاح إلا بسلوكه ، ورأى انه وصف لها ماهي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة ، ووحدة الأمة ، وقوة الدولة ، بفشو الجهل في المسلمين وفساد الاخلاق،وسريان شبهات الالحاد ، ثم بنفوذ الاجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البلاد ، حتى انه خص المدارس العسكرية بالذكر فقال (ص ٥٠٨ طبعة ثانية) ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالا بعقائده ، منكبين على الشهوات، وسفاسف الملذات ، لايخشون الله في سر ولا في جهر ، ولا يراعون له حكما في خير ولا في شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب في الكسب . الخ

ان الاستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك بل لائحتين ، كان سبب الاولى منهما صدور ارادة سلطانية لشيخ الاسلام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لاصلاح جداول الدروس في المدارس الاسلامية وتقويمها حتى تكون كافلة لجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب ، فافترص أحسن الله جزاءه هذه السانحة لتعليم الدولة ماهي في أشد الحاجة اليه من هـذا الاصلاح ، التي لايرجى لها بدونه بقاء ، فبين لشيخ الاسلام ولجنته سوء حال المسلمين في هذا العصر، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل، ووصف سوء حال المكاتب والمدارس الاسلامية في بلاد الدولة ، وسوء حال رجال العلم والدين فيها ،

وطبقات الناس الثلاثة ، وما ينبغي من اصلاح التعليم الديني لكل طبقة منها — وهو التعليم الابتدائي لطبقة العامة ، والتعليم الوسط للطبقة المرشحة للوظائف ، والتعليم العالي لطبقة المعلمين والمرشدين . وبين العلوم الدينية التي تدرس لهذه الطبقة ووسائلها وتاريخ الاسلام والتاريخ العام وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى ـ وهو علم واحد . ومنها فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل ـ وأولها تفسير القرآن وقال فيه مانصه :

« وهو أهم مايحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا ارجاعهم اليه . ومالم تقرع صيحته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ماترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم . والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي. فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه. فان احتاج الى وسيلة أخرى فأولاها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمى النيسابوري ومن أخذ طريقهما[(١)]

وبعد الكلام في التعليم والعلوم وأسلوب التدريس وغرضه عقد فصلا للاصلاح الديني والدعاة والمرشدين الذين يناط بهم وما يشترط فيهم . وخص بالذكر خطب المساجد. ثم بحث في الكتب التي يجب أن توضع للطبقتين الاولى والثانية. وفي الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية فبين كل ذلك بعبارة مقنعة

وأما اللائحة الثانية فقد قدمها الى والي بيروت بعد تقديم الاولى الى شيخ الاسلام وموضوعها (اصلاح القطر السوري) وقد بين فيها وجه الحاجة اليه بالاجمال ثم بالتفصيل . فبدأ ببيان حالة أهالي جبل لبنان وطوائفه من الموارنة وهم الاكثرون ثم الدروز ثم المسلمون السنيون والشيعة . وقفى على ذلك بفصل

(١) راجع ماقاله لنا في تفسير الكشاف وما أجاب به عن اعتراضنا عليه في ص ٣٩٠

آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية . فتكلم عن الطوائف النصرانية وميولهم الى الدول الاوربية ، وعن طائفة النصيرية فالشيعة الامامية فدروز حوران فالمسلمين من أهل السنة ، فأهل البادية من الاعراب المتنقلة . وبين علاقة كل منهم بالدولة وما يجب من الاصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتقي غوائل التعليم الاجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي

ولو ان الدولة العثمانية عقلت تلك النصائح واتبعتها لصلحت البلاد، وارتقى العباد ، وثبت سلطانها فيها ، وانتقل نفوذها الديني والسياسي الى غيرها . ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لاصلاح مدني يستمد من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري

وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحربتهم وظواهر نظمهم ، وانما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الاصاغر ، لمن فوقهم من الاكابر ، كالازياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجموا أكثر القوانين ولم يقيموا شيئاً منها ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئاً . وقد آل الامر بجهل الفريقين الى زوال هذه الدولة من الوجود ، وانحصار دولة الترك المغرورين في امارة صغيرة فقيرة ضعيفة

وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يخاف على الدولة هذه العاقبة السوءى ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الاسلامية ، وقد صرح في بعض مقالات العروة الوثقى بأن خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي الى ذهاب غيره ، وأشار في هذه اللائحة الى الخطر عليها من جهة فساد التربية وإهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محله والنفوذ الاجنبي ، وقد سألته سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال انها سياج للمسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لانفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف وإلا صاروا أسوأ حالا من اليهود ، فان اليهود قد تعوضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة الخ وسأعود الى بيان هذا في الموضع اللائق به من هذا التاريخ

الفصل السادس

فى الطور الثالث من حياته العملية

(وهو ماعمله بعد عودته من منفاه الى وطنه)

(وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة ، أما المقدمة ففي عودته الى وطنه وسعيه للعمل الاصلاحي فيه : وأما المقاصد فهي (١) عمله في القضاء الاهلي (٢) عمله في اصلاح الازهر (٣) عمله في افتاء الديار المصرية (٤) عمله في اصلاح المحاكم الشرعية (٥) عمله في الاوقاف (٦) عمله في مجلس شورى القوانين (٧) عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (٨) عمله في جمعية احياء العلوم العربية — وأما الخاتمة ففي دفاعه عن الاسلام وتدريسه في الازهر ولا سيما تفسيره للقرآن ،)

المقدمة :

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس انه حكم عليه بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ٢٤ دسمبر سنة ١٢٨٢) ومقتضى هذا ان مدة نفيه قد انتهت في أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — آخر سنة ١٨٨٥ م وكان في أثناء ذلك في بيروت مجداً في عمله ،طائراً في جو أمله ،وكان أول أمله تربية نشء جديد في المدرسة السلطانية ، يوجه المستعدين منه الى ما كان ينويه من اصلاح الامة الاسلامية ، وقد كان في آخر عهده مع السيد جمال الدين في أوربة قد ضعف أمله في نجاح سياسة السيد ولا سيما بعد الاضطرار الى تعطيل جريدة العروة الوثقى وتخاذل المسلمين دون مساعدتهما الواجبة ،فقال للسيد أرى أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الارض،لا يعرفنا فيه أحد ،نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكياء السليمي الفطرة فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح ، ـ فقال له السيد إنما أنت مثبط ، نحن قد شرعنا في العمل

ولا بد من المضي فيه مادمنا نرى له منفذا . أو ماهذه خلاصته من قولها .

ثم انه كان يرجو من وجوده في بلاد الدولة العثمانيـة أن يتمكن من اقناع أولي الامر فيها بما يجب عليهـا من اصلاح التربية والتعليم في المدارس بحسب رأيه ، وأن يكون له عمـل في ذلك اذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم من وسائله، وهو ماأشرنا آنفا في خاتمة المقصد الثاني من الفصل السابق (الخامس) ولما طال الأمد ، ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة في بحار جهلها، عاد الى وطنه وهو يعلم ان الخديو توفيق باشا غضبان عليه كاره له ، وان الانكليز أصحاب النفوذ الأعلى في البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبيته الملية والوطنية مالم يعهدوا له نظيرا في الطعن فيهم ، واثارة العالم الاسلامي والشرقي عليهم . ولكنه هو الشجاع الذي لايعرف الخوف إلا من الله عز وجل .

عاد الى مصر في سنة ١٣٠٦ ولا أذكر الشهر الذي عاد فيه، فتلقاه أصدقاؤه ومريدوه بالاجلال والسرور والاستبشار ، إلا الجبناء منهم فانهم تجاهلوا وجوده ، وأذكر مما سمعته منه مثلا للصديق الشجاع ، ومثلا للصاحب الجبان ، أما الاول فقد أخبرني رحمه الله تعالى انه كان في محطة مصر مع المحتفلين بلقاء الخديو في عودته من الاسكندرية ، و كان معه صديقه التليد سليمان باشا أباظه ، فرأيا ان بعض الوجوه تتنكره ، والشخوص تستدبره ، فجعـل سليمان باشا يمشي بجانبه متأخراً عنه قليلا ليكون منه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد أولئك الجبناء وأسر اليه : من هـذا الذي تمشي معه متأدبا ؟ ألست تعـلم ان أفندينا غضبان عليه ؟ فأجابه رافعا صوته : ان هذا صديقنا واننا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن صداقتنا له لاجل أفندينا فنتركها لغضبه عليه .

وأما المثل الثاني فقد أخبرني أنه دخل على مختار باشا الغازي يوم العيد لتهنئته فوجد عنده رجلين من الوجهاء الذين كانوا يعدون أنفسهم من الاصدقاء له، فلما رأياه داخلا تغيرت وجوههما ، وامتقعت الوانهما ، واتخذا قيام الغازي له سببا لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يريا الاستاذ

وقد اتخذ داراً له في شارع الشيخ ريحان بالقرب من سراي عابدين فزاره

فيها صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي وسأله عن سبب اختيار هذا المكان ؟ فقال : نناطح عابدين مناطحة !

هذا وانه لم يلبث أن تسابق العظماء إلى توفيق باشا يسألونه العفو عنه ،وكان في مقدمتهم بعض أفراد الاسرة الخديوية كما قلت في ترجمته من المنار ،وأخص بالذكر هنا الاميرة نازلي هانم البرزة السياسية المشهورة، وصاحب الدولة احمد مختار باشا الغازي مندوب الدولة العثمانية السامي في مصر ، وكذا اللورد كرومر ، ولم يكن أحد من هؤلاء يعرفه قبل ذلك معرفة شخصية ، ولكنهم سمعوا بفضله ، فشكر لكل منهم جميله ، وكان لتلميذه ومريده الوطني سعد زغلول سعي حميد في ذلك

عفا الخديو عنه بشفاعة هؤلاء التي لا ترد ،وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية،وانما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية ، وان الحكم العسكري عليه بالنفي لم يكن عادلا . ولذلك قال : ماعفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو الا هذا . ذكرت في المنار أن الثقة أخبر الاستاذ الامام بهذا ، وأقول الآن ان هذا الثقة هو الشيخ البسيوني مفتي المعية الخديوية في ذلك العهد - رحمه الله تعالى

نعم ان توفيق باشا كان يعرف رأي الشيخ في التربية الملية والوطنية،وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة ، لان السيد جمال الدين هو الواضع له لذلك،وكان الخديو توفيق قد انتظم في سلك حزبه الوطني الذي أسسه لقلب نظام الحكومة في مصر،وعاهده على تنفيذ النظام الجديد الذي أرشد اليه متى صار الامر بيده ،ولكنه لم يلث بعد توليته ان نفاه من القطر المصري ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة الى قريته لعلمه بانه هو الذي يتم ما بدأ به أستاذه كما تقدم في ترجمة السيد من هذا الجزء

ليس من الغريب غير المألوف أن يكره الامير المستبد تقييد سلطانه، بل هو المعهود من المستبدين في جميع الامم ، وانما الغريب أن يسلب الاجانب سلطة أمير من الامراء ويجعلون امارته صورية يسخرونها في سياستهم ومقاصدهم حتى الضارة بها كما يشاؤن،ثم يكون مع هذا راضيا بهذه الامارة الصورية تحت ظلهم مفضلا إياها على تكوين بها قوة في أمته لا رجاء في رفع السلطة عنها وعنه الاجنبية بدونها

الشيخ محمد عبده كان يريد تربية الامة المصرية وتكوينها حتى تكون مصدر الادارة والسياسة في بلادها ، ويكون أميرها ورئيسها ممثلا لها أشرف تمثيل ، والخديو توفيق باشا كان يكره هذا ويحول دون تمكين الشيخ منه

كان الاستاذ الامام يحب أن يكون أستاذاً لمدرسة دار العلوم - ان لم يمكن أن يكون ناظراً لها - فلما رأى ان الوصول إلى ذلك من طريق الخديو متعذراً أراد أن يحتال لنيل ذلك من طريق العميد الانكليزي ، فكتب اللائحة الثالثة من اللوائح التي نشرناها في ضمن منشآته من الجزء الثاني(١) وقدمها إلى العميد الانكليزي (السر افلن بارنج) الذي أعطى بعد ذلك لقب « لورد كرومر » وفيها من الخلابة والكياسة ما كان يمكن عقلا أن يقتنع به العميد لولم يكن كاتبه والمتصدى لتنفيذه هو الشيخ محمد محرر جريدة العروة الوثقى ،وخبر هذه اللائحة سر لم يكن يعرفه أحد، ولم أصرح به في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار ، ولكن التاريخ الصحيح يجب أن ينطق بجميع الحقائق التي لاضرر فيها على أحد، وما أخرت نشر هذا الجزء منه إلا لأتمكن من هذه الحرية

ولم يكن الاستاذ الامام مع هذا السعي الخفي لتنفيذ مقاصده الاصلاحية من طريق رسمي مضيعا لاوقاته في السعي له بل كان أول ماوجه اليه همه هو السعي لاصلاح الازهر من طريق مشيخته كما سيأتي. ثم إنه كان يقرأ درسا في تفسير القرآن ،أخبرني بهذا الدرس في حديث دار بيني وبينه (في يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ١٣١٥) بداره إذا قترحت عليه أن يكتب في التفسير فاعتذر بعدم عناية المسلمين بالعلم وبتأويلهم للكتب كما أولوا نصوص الشرع، وأطال في ذلك بما دونته في فاتحة الجزء الاول من تفسير القرآن ومنه قوله

كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم،مع انها كان حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا ! ! ! والآن أبين أعماله في مصر مبتدئا بعمله في القضاء الاهلي

(١) راجعها في ص ٥٣٣

المقصد الاول

عمله في القضاء الاهلي

قلنا ان الخديو توفيق باشا كان يخاف من الشيخ محمد عبده أن ينشر أفكاره الاستقلالية في الامة بالتعليم وبالمعاشرة ، فأراد أن يشغله عن ذلك فأمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية ، وان يكون في خارج القاهرة ، فلما بلغ الخبر الاستاذ امتعض وقال انني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وانما خلقت لأكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت. ثم رغب الى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء ، وقال له انني أعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني أرتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه ولكنني لا أحبه ، فلم يقبل الامير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال انني لا أحب أن يربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية ، فرضي بالقضاء ، وما زال يرتقي فيه الى أن بلغ أعلى درجة منه كما قال ، وهي درجة المستشار في محكمة الاستئناف

عين قاضيا في محكمة بنها ثم في محكمة الزقازيق ثم في محكمة عابدين بالقاهرة ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الوقائع عليها بادي الرأي ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فان انطبقت على القانون وإلا عمد إلى وسيلة أخرى ولاسيما الصلح. ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تعذر عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا ، وكأين من قضية خالف فيها القانون عمداً ، حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك وذكر شيئاً من مخالفاته هذه في تقرير طويل قدمه إلى وزارة الحقانية . فسأله المستشار القضائي السابق (مسترسكوت) عن حقيقة ذلك سؤالا عاديا غير رسمي

بعد أن أطلعه على التقرير، فقال الاستاذ: هل العدل وضع لاجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل؟ قال المستشار بل القانون وضع لاجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ حينئذ يشرح له تلك القضايا ويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل، فاقتنع المستر سكوت وسر منه سروراً عظيما لانه كان منصفا عارفا بقيمة الرجال، على ان هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الاوربية عن الرسوم في القضاء وأقربهم إلى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي فيه

وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبسه فحبس، فاضطرب قنصله الجنرال واحتج وكلم وزير الخارجية ولما وصلت الشكوى إلى نظارة الحقانية كلم المستشار القاضي الاستاذ في ذلك قائلا إن هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغلهم في مصر فهم يفترصون شيئاً مثل هذا يماحكون به الحكومة، ونحن نحب أن لانجعل لهم سبيلا إلى القيل والقال، فذكر له الامام ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الادب المعروف، وقال انني مادمت جالساً على هذا الكرسي لتقرير العدل فانا لا أقصر في احترامه — أو قال — لا أقبل أن يهينه أحد إذ لا يمكن احترام القضاء إلا بذلك الخ ماقال وكان مستحسنا عند المستشار

وقد كان لا يعتد بمعارضة الاجانب عند تنفيذ مايصدر من الاحكام. من ذلك أن كثيراً من الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ إلى رجل أجنبي أو رجل يتمتع بحماية أجنبية فيعطيه الارض بعقد كاذب نكاية في خصمه فيمنع الاجنبي الحكومة من تنفيذ الحكم، أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها. وكان من المحكوم لهم من يترك الارض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه في المحاكم المختلطة، ومنهم من كان يلقي بنفسه في مهاوي الدعاوي ويخسر فيها ماشاء الجهل أن يخسر، فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متحملا تبعة التنفيذ، لعلمه بان ذلك الاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة في دعوى هو فيها مبطل يعجز عن اثبات دعواه

من ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من واضع يد وطني وردها الى صاحبه

الحق الذي ثبت له في المحكمة ـ فقيل له ان فيها رجلا انكليزي التابعية رفع عليها علم دولته وهو يعارض في تسليمها . . فأعطى محضر المحكمة أمراً بأن ينزع العلم ويخرج الرجل المدعي لملكيتها بالقوة ، فلما رأى ذلك الرجل المستأجر لمنع تنفيذ الحكم ان الامر جد، وأنه اذا لم يخرج ممتثلا أخرج مهانا لم ير له مندوحة من الخروج .

وكان في الشرقية رجل سوري محصن بحماية الدولة الفرنسية قد جعل نفسه ملتحداً للمحكوم عليهم بأمثال هذه الاحكام في مقابلة جعل يكبر بقدر كبر القضية، وكان يدخل في المحاكات مع خصوم الملتجيء اليه حتى صار ذا ثروة عظيمة، فلما رأى أحكام هذا القاضي الذي شرف القضاء بعمامته، التي كانت عنوان علمه وعدله وقوة إرادته، ترك هذه الوسيلة الدنيئة لكسب السحت إذ صارت مدعاة خيبة وخسارة واهانة

ذلك شأنه في القضاء وقد كان فيه نسيج وحده ، ولم يكن مشغولا فيه عما خلق لاجله من تربية الامة، فقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور حتى طهر كثيراً من البلاد من شرهم بعد أن استفحل وطغى سيله ، كان يتسقط شاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من الجلسة الى الحبس. ثم ان الحكومة أقرت عمله هذا وأدخلته في القانون بالتعديل له بعده . وكان يجتهد في الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ، ويبالغ في حفظ حقوق اليتامى فكم من أسرة كبيرة قطعت العداوة أرحامها ، واغتالت الخصومات ثروتها ، أصلح بحكمته وأحكامه ذات بينها ، وكان مما ثبت عنده باحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الاقربين ، وقد قال في خطبة له في الجمعية الخيرية وكان مستشاراً : إن العداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ! أي على خلاف ماتقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين

وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت الزقازيق تطهر من رجس البغايا أيام كان قاضياً فيها كما طهرت من التزوير ، ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك انه قال مرة لبغي يعرفها كيف الحال ؟ قالت زي الزفت ، واذا بقي القاضي ابو عمة

(أي ذو العمامة) هنا فانه يقطع رزقنا من هذه البلد ، عايز يرجع الدنيا لزمان سيدنا النبي ، وقالت أخرى ما معناه ان النبي ظهر ثانية

أخبرني أنه كان اذا رأى أو علم بأن واحدة منهن خرجت الى الشارع متهتكة أو جلست أمام ماخورها متبرجة تغازل المارين أو تغني — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذنب إغراء الناس بالفسق المحظور في القانون وحكم عليها بالغرامة أو بالحبس في الحال ، فكن يقلن ياويلتنا بل « يادهوتنا » كيف يعرف الناس بنا اذا التزمنا ما يريده هذا القاضي منا من ستر وصيانة وأدب ؟

وقال لي كانت الفاجرة منهن تأتي المحكمة أولا قبل أن يعلمن ما يراد بهن متبرجة بهيئتها المنكرة فاذا سألتها ما صنعتك ؟ — على سنة التحقيق — صرحت بفجورها بملء فيها ، فلما عرفنني صرن يجمجمن بالجواب مرتعدات الفرائص ، فان أفصحت احداهن لم تزد على قولها : أنت عارف .

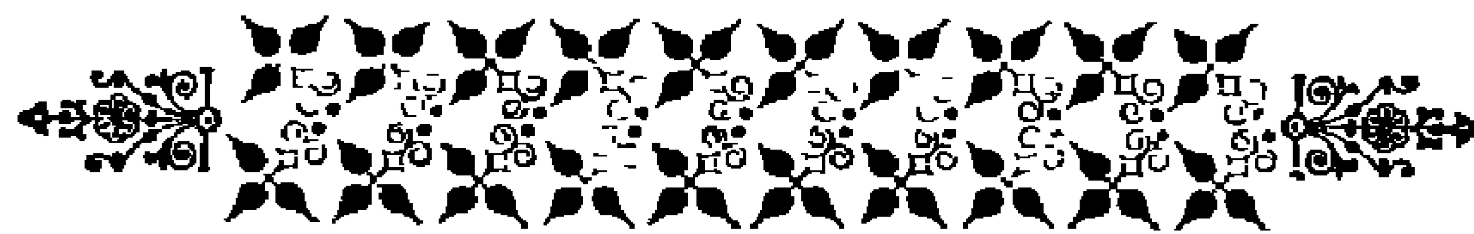
وأخبرني انه لما عين لمحكمة الزقازيق الكلية كانت قضايا العدوان والتزوير كثيرة ألجأته الى أن يعقد الجلسات في المساء حتى انه كان في بعض أيام رمضان يستحضر طعام الفطور الى المحكمة فيأكل ويصلي فيها ثم يشتغل بعد العشاء بكتابة بعض الاحكام . ولما اشتهرت سيرته وأحكامه في المديرية كلها قلت القضايا واستراح من العمل ، على ان صحته حسنت في المدة التي كان يكثر فيها العمل .

وقد عرف الذين يختلفون الى جلساته من الخصوم والمحامين وغيرهم عادة من عاداته لم يكن هو يشعر بها وهي انه اذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالعقاب كالقتل وما دونه أمال عمامته على جبهته ، فاتفق انه فعل ذلك مرة فصاح المجرم الذي علم أن سينطق بالحكم عليه « بعرضك اعدل العمة حتى أقول لك الصحيح » فضحك جميع الحاضرين ضحكة الدهشة ، واشتهرت هذه الحكاية في القطر المصري كله .

وأما براعته في تحقيق القضايا وفراسته في تمييز البريء من ذي الريبة فحدث عنها ولا حرج ، وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والالهام الصادق ، فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لا يخطيء في وجدانه أو إلهامه ،

وسمعته يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيراً ماأنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلا حتى اذا ماتمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيته في ذهني من وجوه ترجيح الادانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتما فأحكم بالبراءة ،

وهذا يشبه قول بعض العارفين : عرفت الله بنقض العزائم، والمراد منه ان الانسان غير مستقل الارادة التي هي مناط الاختيار ، فهو مجلى لتجليات من الابداع الرباني غير منتظم في سلسلة الاسباب . وههنا بحث دقيق في إثبات القدر الموافق لمذهب التطور التدريجي في الجملة ، وهو مذهب أهل السنة. وما يعارضه من القول بالأمر الأنف (بضمتين) المراد به ان كل مخلوق مبدع مستأنف وهو مذهب القدرية ، والحق أن القـدر هو المطرد في البشر ،وان الأمر الأنف كالاستثناء في القانون، وهو واقع في نفس الانسان ، وفي آيات الله للانبياء، وحجة على ان سنن النشوء والارتقاء انما تطرد في سلاسل الانواع بعد وجودها، لا في أصل ايجادها كلها ، وقد تتعارض مع سنن غيرها مما وراء المادة الجارية فيها ، وواضع السنن ومقدرها باقدارها ، قادر على التصرف فيها، وترجيح غيرها من السنن عليها. ولا يخلو شيء من ذلك من حكمة بالغة ، وهذا استطراد لا محل هنا لتفصيل القول فيه .



المقصد الثاني

عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الازهر . زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام، وما يتصل بذلك من كلام، كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للاصلاح والاضطلاع به، وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الازهر. فأفاض في كلام لخصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل . قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للاسلام فان اصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم ، و (٢) ان أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم ، و (٣) ان هذا الاصلاح لايتم إلا في زمن طويل ، وانه إذا رأى حال الازهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قرير العين ، ويرى نفسه سعيداً بل يرى نفسه ملكاً . و(٤) انه لايرى لدخوله في الحكومة فائدة الا الاستعانة على إصلاح الازهر ، فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي ، و (٥) انه لم يحصل شيء من الاصلاح يذكر حتى الآن ، و (٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الاصلاح اغتناما للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج (!!) وانه لابد له من المسايرة وإن كان يخشى أن تضيع الفرصة بما يسمونه التدريج ... هذه ست مسائل في موضوع الازهر أطال القول فيها وانتقل منها الى المسائل الاخرى وأهمها تخطئة أذكياء المسلمين الذين يريدون خدمة الاسلام من طريق السياسة ، أي دون التربية التي توحد قوى الأمة، والى يأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطئتهم في ذلك .

وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت إلى إصلاح الازهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، وقد شرعت في ذلك فحيل

بيني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتي إذا ماصدفت الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النفي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبابي (شيخ الازهر) بشيء فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الازهر ؟ ووصفت له من فوائدها ماشاء الله أن أصف ، فقال ان العادة لم تجر بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشموني والصبان ؟ قال منذ كذا ، قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل في الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . وانني أبذل جهد المستطيع في عمرانه فان دفعتني الصوادف الى اليأس من اصلاحه فانني لا أيأس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افرادا من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفا لي في خدمة الاسلام ثم أؤلف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة إفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله

ثم انه لما اضطر الى الاستقالة من ادارة الازهر على الوجه الذي سنبينه عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعي لاختيار نفر من الاذكياء السليمي الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة مؤلف هذا الكتاب وهو ما كان اقترحه على السيد جمال الدين كما تقدم

وأما بدء عمله في الازهر فقد أتيح له بعد وفاة توفيق باشا فانه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال ، كان الغرض منها إزالة الاحتلال ، ولو كان هذا الغرض مما ترجى إصابته يومئذ بسهام المصريين ، لكان الفقيد يكون في طليعة العاملين ، لانه كما نعلم أنفذهم رأيا ، وأقواهم عزما ، وأخلصهم قلبا ، ولكنه كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي

شرحناه في الفصل السابق أن المسألة لا يمكن أن تحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول العظام وأن الرجاء في اتفاقهم بعيد كاتبين. فأراد أن يكون حظه من حب الامير الجديد للعمل السعي في إصلاح الازهر بنفسه واقناع الامير بالسعي في إصلاح المحاكم الشرعية والاوقاف لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل اصلاح التربية والتعليم واصلاح المساجد والارشاد ، واصلاح البيوت (العائلات) فاتصل بالامير وحظي عنده وكاشفه برأيه فيها بأن قال له وقد رآه متبرما ضجراً من استيلاء الانكليز على جميع أعمال الحكومة : ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة فيمكنه أن يصلح الأمة كلها باصلاحها ، وقد تركها الانكليز له لانها دينية فهم لا ينازعونه فيها الآن ، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها اذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لاصلاحها ، وذكر له كليات هذا الاصلاح . وكاشف الحكومة بأمله في اصلاح الازهر بأسلوب آخر ، وجاء بما جاء به من آيات الاقناع حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للاصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الازهر ينتخبون انتخابا وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على انهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا للمجلس في انتخابهما ، ولا في استبدال غيرهما بهما . وكان الشيخ محمد الانبابي الذي هو شيخ الازهر لذلك العهد مريضا وقد كثرت شكوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيلا له بعد أن أخذ عليه العهد باقامة النظام والاتفاق مع الاستاذ الامام على الاصلاح وقد أجملت القول في الاصلاح الرسمي في ترجمته من المنار فقلت

عين الشيخ حسونة وكيلا لمشيخة الازهر مأذونا بادارة شؤونه لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ وصدر الامر العالي بتشكيل مجلس ادارة الازهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم حصل السعي في اقناع الشيخ الانبابي بالاستقالة فاستقال وصدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام روح الله روحه في دار السلام ، يحب أن يجري الاصلاح في الازهر باقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستمالتهم بتكثير رواتبهم

فسعى لدى المستشار المالي الاسبق لتعيين مبلغ من خزينة المالية لمساعدة الأزهر الذي يخرج للحكومة كذا رجالا من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذونين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفي جنيه للازهر على أن تصرف بنظام معلوم لا برأي شيخ الازهر وميله على ما كان يعهد في الازهر، مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى اذا جاء بفائدة ، فكان هذا حجة للفقيد على وجوب وضع قانون للمرتبات في الازهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناوله في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع او غيره . وتلا هذا القانون قانون كساوي التشريف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف، فسر الشيوخ بذلك سروراً عظيما

بعد هذا وجه الفقيد عنايته في المجلس الى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل الى الغاية منها. وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه الى المال فلجأ الفقيد الى أريحية الامير فصدر الامر لديوان الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيها للازهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيها لانشاء دار الكتب الازهرية ، ثم وضع نظام آخر لتوزيع الجرايات بالعدل

وأما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى أن يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة ، ولا يثقل عليهم إلزامهم به من جانب القوة ، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الامور المهمة ،والتعاون على ماينفع الامة،فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح أن تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها وإقرار مايرونه نافعاً ، فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالماً وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجلس الادارة رئيساً لها . ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وإبداء رأيها فيه للجنة الكبرى، وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفر ، هم أكابر شيوخ الازهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة ، وبعد أن اتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحرير

قليل لا يذكر وكانت مشيخة الازهر قد اسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضاً مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشيء بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لاينفذه ولم يكن القصد من ذلك إلا إحباط سعي الاستاذ الامام وإبقاء القديم على حاله ، ولقد كان قادراً على الالزام بالتنفيذ بطلبه رسمياً من الحكومة ولكنه لم يكن يحب أن يكون للحكومة تصرف في الازهر بل أن يبقى مستقلا يصلح أهله برضى واقتناع وهل يبقى كذلك بعده ؟ الله أعلم والايام تظهر ما يعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب الازهر وصيدلية (أجزخانة) خاصة به في نفس الجامع وإنارة المسجد بالغاز البخاري ، وإنشاء الميضأة على الاصول الصحية وتجديد مبان صحية في الاروقة وغير ذلك مما نفصله في التاريخ ، ومن شاء أن يطلع على ذلك بالتفصيل التام ، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) (١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلل عام ، إلى شيء من النظام ، ومن حالك الديجور ، إلى بصيص من النور ، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يحب رحمه الله تعالى . ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحا محيياً ونوراً مبصراً فهو ما كان يلقيه من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حولت نفوساً كثيرة عن السبل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان اه

هذا ما أجملناه في ترجمة الامام عقب وفاته وقد وعدنا بتفصيله في هذا الكتاب ، واننا ننجز وعدنا بتلخيص المهم من كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر - من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ الى غاية سنة ١٣٢٢) وهي مدة اشتغال الاستاذ الامام المصلح في المجلس فهو قد استقال في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ وتوفي في شهر جمادى الاولى منها ، وان كان في هذا التفصيل تكرار لما في ذلك الاجمال

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعنى وصفحاته ١٢٤ وثمن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين

طبعت هذا الكتاب ونشرته في سنة ١٣٢٣ ولم أكتب عليه اسم مؤلفه. وأقول الآن ان الذي كتبه هو الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان صديق الاستاذ الامام وزميله في هذا العمل ، كتبه في أثناء مرض الامام بامره ، وقد قرأته كله عليه قبل طبعه فأقره ، وأكثر مايسنده فيه الى « أحد أعضاء مجلس الادارة او بعض الاعضاء» يراد بالعضو فيه الاستاذ الامام ومنه وهو أقله ماتريد به نفسه وانني أسكت عن الاكثر وابين الاقل في الحاشية ، ولم يكن أحد منهما يريد إظهار اسمه لان عملهما كان خالصا لوجه الله عز وجل جزاهما الله أفضل الجزاء.
قال الكاتب رحمه الله

﴿ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه ﴾

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)

في اوائل المحرم من سنة ١٣١٢ هجرية تمت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبابي شيخ الجامع الازهر اذ ذاك فرفعوا العرائض الى الجناب العالي مفعمة بان شيخهم عاجز عن ادارة شؤونهم وانه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الازهر وانه قصر عليهم كساوي التشريف على غير إنصاف بين أهل مذهبه وبين بقية اهل المذاهب،وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناب العالي صدور الاوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ وخصهم بتلك الكساوي التشريفية وبقيت الكساوي موقوفة الى أن تغيرت الحال

وفي الثامن من شهر جماى الآخرة سنة ١٣١٢ صدر الامر العالي بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلا لمشيخة الأزهر مأذونا بأن يدير شؤونه حتى يتقرر أمر جديد . ثم لم يمض الا أقل من شهر حتى صدر أمر عال بتشكيل مجلس ادارة الازهر وذلك في ٧ رجب سنة ١٣١٢ وابلغ الى رئاسة مجلس النظار، وسميت أعضاء المجلس في ذاك الامر الكريم، فكان منهم اثنان من

موظفي الحكومة وهما الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وثلاثة من اكابر العلماء الازهريين غير الموظفين أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن المرصفي والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذذاك . ومجلس النظار أبلغ هذا الامر الى وكيل المشيخة وهو أعلنه للأعضاء ودعاهم الى الاجتماع أول مرة في الازهر للنظر فيما لديه فيه من الشؤون وكان أول اجتماع لهم في السادس عشر من شهر رجب المذكور

وبعد هذا رؤي ان وجود شيخ للازهر منعزل عنه لايعلم شيئا من شؤونه ووجود وكيل هو رئيس مجلس الادارة واليه ينتهي كل شيء مما يدعو إلى توقيف سير الاعمال ، ويوجب بقاء القيل والقال ، فأوعز الى مأمور رسمي عظيم بان يحسن للشيخ الانبابي الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التي اعتبرها أمراً ، وقدم استقالته الى المقام الرفيع ـ وكان حينئذ في الاسكندرية المصيف ـ وصادف ان رأس السنة الهجرية كان قد قرب فتوجه الكثير من العلماء لتأدية التهنئة بذلك الموسم وبالطبع كان فيهم الشيخ حسونة النواوي وكيل المشيخة ، فدار الكلام بصفة غير رسمية في قبول الاستقالة الانبابية وفيمن يعين شيخا للازهر بدله وبات في حكم المقرر أن يكون الشيخ الاصيل هو ذلك الوكيل

وبينما الحال كذلك في سراي رأس التين واذا بعريضة وقع عليها فوق الثلاثين وتلغراف وقع عليه عشرة ونيف كلهم من اكابر العلماء شافعيين وغير شافعيين طلبوا فيهما من الجناب العالي أن لايقبل استقالة الشيخ الانبابي وان يبقيه شيخا لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت من العلم والقدرة على ادارة الشؤون، وان لايعين الشيخ حسونة شيخا للازهر لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت ... وقد كاد هذا الامر يفضي الى بقاء القديم على قدمه والى توقيف تعيين الشيخ حسونة لولا ان بعض العارفين بحال الازهر واهليه كان موجوداً في الاسكندرية وأشار بمراجعة هذه التواقيع التي على العريضة والتلغراف ومقابلتها بالتواقيع التي على عرائض الشكوى من الشيخ الانبابي فروجعت فاذا بعضها

موقع به على النوعين ، وهنالك تحقق الجناب العالي انه لاقيمة لمثل هذه التواقيع التي توقع على الامرين المتضادين،وان المصلحة هي المقدمة بقطع النظر عمن يضادها وان كثروا وكبروا ، فصدر الامر الكريم بقبول استقالة الشيخ الانبابي رحمه الله ولم يعبأ بطلب ابقائه من أولئك الطالبين وفي اليوم الثاني من شهر المحرم سنة ١٣١٣ صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا أصيلا على الازهر ورئيسا لمجلس ادارته، ثم ذهب الى السراي العامرة واستلم الامر وشكر ولي النعمة على ماتفضل به عليه ، ثم استفاض الامر بين علماء الازهر الموجودين في الاسكندرية فارسل بعض أصدقائه تلغرافا الى مصر أخبر فيه بأنه قدعين شيخا للازهر وانه عائد الى مصر في الغد، فلا وربك لم يبق ولا واحد تقريبا ممن طعنوا على تعيينه في تلك العريضة وذلك التلغراف الا وقد استقبله على محطة مصر او انتظره في بيته بقنطرة عمر شاه قبل أن يصل اليه ليهنئوه بالمنصب الجديد الذي هو أحق به ممن سواه وصدقوا فيهم حدس من قال في ذلك اليوم (يوم ورود العريضة والتلغراف) ان اولئك الطاعنين سيكونون السابقين الى تهنئة الشيخ الجديد في المحطة ليعرفهم بانهم كانوا أول المهنئين [1]

قانون المرتبات

قلنا فيما مضى ان أول اجتماع لمجلس الادارة الذي شكل على الوجه السابق كان في السادس عشر من شهر رجب سنة ١٣١٢ ونقول انه في هذا الاجتماع الاول قرر أعضاؤه خطة سيرهم وما يلزم البدء به من الاعمال ومايقدم من القوانين المحتاج اليها في الوضع، فظهر لهم ان أول مايهم أهل العلم هو ضبط المرتبات وتوزيعها عليهم، وقد صادف ان نظارة المالية كانت قد وضعت في ميزانية سنة ١٨٩٥ مبلغ ألفي جنيه مصري في السنة معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل وذلك بسعي بعض أهل الخير [2] الذين يحبون أن يتسع رزق أهل الازهر وأهله يعرفونهم بهذه

(١) ان الشيخ عبد الكريم هو الذي قال هذا للخديو بايعاز الاستاذ الامام

(٢) هو الاستاذ الامام الذي أقنع المستشار المالي بذلك كما اخبرني وقال انه تعب تعبا عظيما في اخذ وفد منهم لمقابلة المستشار ليتكلم بلسانهم وأنما يتشه لانه لم يعبر عنه بعضو مجلس الادارة

الصفات وإن أنكروها عليهم أحيانا ، واشترطت المالية أن لا تصرف هذه المعونة إلا بعد أن يوضع لصرفها نظام فان وضع فيها ، وإلا أبقت معونتها عندها ، وحرم منها أهل هذا المكان الضعفاء — كل هذا جعل البدء بوضع قانون المرتبات أمراً لازما لا يسوغ معه تقديم غيره عليه ، فكلف المجلس بعض أعضائه بوضع مشروع لهذا القانون فوضعه ، ثم توالت الجلسات لتلاوته والتعديل والتنقيح فيه ، حتى كمل وضعه وجاء وافياً بالحاجة من معظم وجوهه ، وقدم الى هيئة الحكومة ودارت المخابرات بين الهيئة الحاكمة وبين بعض أعضاء المجلس في تفهم مواد هذا النظام الذي لم يعهد له عند الحكومة مثيل حتى اقتنعت نظارة المالية بما فيه وتبين لها انما كان منه مخالفا للمألوف في قوانينها المالية انما جاء طبقاً للمألوف في الازهر ومراعى فيه احكام الضرورات وهي تبيح المحظورات ، فقبلته المالية وقرره مجلس النظار وصدر الامر العالي به في اليوم السادس من المحرم سنة ١٣١٣ و٢٩ يونية سنة ١٨٩٥

ولقد ترتب على ايجاد هذا النظام ان طلبت نظارة المالية من الازهر أن يقرر درجات العلماء ويحدد المرتب لكل درجة منها ويبعث اليها بجداول هذا الترتيب ، فاشتغل المجلس بذلك وأتمه على الوجه الاكمل فيما رآه وأرسل الجداول الى نظارة المالية فلم يسعها بعد إلا أن اقرت الامر وأمرت بصرف الالفي جنيه ، وبقي هذا المبلغ في ميزانية المالية يصرف معونة للازهر مشاهرة الى الآن

ولا تظهر فائدة هذا العمل (وضع قانون المرتبات) إلا بذكر طرف مما كانت عليه الحال فيما قبل وجود هذا القانون وطرف آخر مما صارت اليه حالها بعد وضعه فانذكر منهما شيئا وان كان إجمالياً وقليلا لتتجلى الفائدة واضحة التبيان

﴿حال الازهر ومرتبات الشيوخ قبل النظام الجديد﴾

تنقسم مرتبات الازهر الى قسمين : سنوية وهو ما يسمونه بدل الكساوي وشهرية ، ومصرفهما معاً العلماء المدرسون وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الامر فيها بنوعيها موكولا الى شيخ الجامع الازهر يعطي من يشاء ويمنع من

يشاء . وكانت المرتبات السنوية تجزأ اجزاء صغيرة بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطي منها نحو مائة قرش في العام او اقل،وكانت المرتبات الشهرية تمنح لأناس دون آخرين،فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا في الشهر ولكثير منهم الحرمان بالمرة،وللقليل منهم ما فوق ستمائة قرش شهرياً . واذا انحل بموت احد العلماء شيء من هذين القسمين رأيت بيت شيخ الجامع غاصاً بالمتزلفين ، مزدحماً بالراجين، مملوءاً بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الازهر [1] وهو كاتب بسيط تتماوج بين يديه الفرجيات ، ذاهبات آئبات ، كل يرجوه، وهو يعد او يصد، او يؤمل او يقنط ، وربما انتهى الامر بعد الجري والعدو بين البغالة والفجالة [2] لتجزئة ذلك المنحل وضم اجزائه الى مرتبات بعض الاكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرة.فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير

واني لأعلم ان مجالس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب اصلا وهم كثيرون،وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لاغير،وفيهم من يمني نفسه،وفيهم من يئس ورضي بالخبز القليل ، أعرف منهم واحداً مات رحمه الله وقد عرضت عليه لفقره وعلمي بحاله بعض الشيء من مالي كل شهر فأبى علي ذلك،وطلب مني ان ارجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئا ولو من مرتبات صدقات الاوقاف ففعلت ورضي بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل

هذا طرف من تلك الحال القديمة وقد تغيرت والحمدلله بالمرة بعد وضع

(١) المباشر في اصطلاحات بعض الفقهاء هو الكاتب إذ كان يوقع بالتنفيذ ويباشره وهو هنا كاتب الازهر ولما صار للأزهر عدة كتاب صار رئيسهم فهو فيه بمعنى (باشكاتب) في الدواوين اه من حاشية الاصل

(٢) البغالة موضع في مصر يقيم فيه بعض العلماء منهم الشيخ سليم البشري شيخ الازهر الاسبق والفجالة محلة كان يقيم فيها المرحوم الشيخ الانبابي اه من الاصل

ذلك القانون اذ تقرر فيه ان المرتبات السنوية (بدل الكساوي) [1] لايمكن ان ينقص عن اثني عشر جنيها في العام ولا ان يزيد عن ثلاثين جنيها وثلثي جنيه ، وبينهما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيهات(٢)وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه بانحلاله عمن يموت من العلماء ضوابط مقررة لايتعداها أحد ، وان المرتبات الشهرية لايمكن ان تنقص عن خمسة وسبعين قرشاً ولا ان تزيد عن ثلاثمائة قرش الا اذا تجدد شيء في المقرر، وبينهما درجات. وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه ضوابط كذلك. وبذلك اخذ كل واحد ممن لم يكن يأخذ مرتب درجته التي وضعه فيها مجلس الادارة أو كمل لمن كان بيده اقل من المقرر لدرجته.

واما من كان منهم فوق هذه الدرجات فقد أبقي على ما كان بحكم الضرورة لانهم ليسوا بالكثير، ولانه كانت لبعضهم مكانة بالسن والشهرة بالعلم، ولانه شيء اكتسب بالفعل فلا وجه لأخذه ، فاضطر القانون لاستبقائهم على ما كانوا عليه وقرر أن توزع مرتباتهم بعد موتهم طبق القانون، فاستقر كل واحد في مكانه وانتفع بالمرتب على مقدار ماقسم بدون ان يجهد نفسه في الرجاء او الاستجداء

واني لأعرف واحداً منهم هوحي يرزق الى الآن قال لما علم بأن ما كان بيده من المرتب قد زاد (اني غير مصدق بانني اخذت شيئا وكيف اصدق وانا لم

(١) كان الممتازون من العلماء يزورون والي مصر في أول ليلة من رمضان فيخلع عليهم الخلع وهي الكساوي . وقد انقطعت هذه العادة مدة من الزمان ثم رأى الولاة بعد ذلك ان يستبدلوا بها نقوداً وصارت من مرتبات الازهر التي تصرف لاربابها من خزينة المالية في أول رمضان والفضل في استرجاعها المرحوم الشيخ العباسي ولكنها صارت في ايدي مشايخ الازهر يعطون منها من شاؤا اي مقدار شاؤا فردها النظام الي أصلها اه من حاشية الاصل

(٢) درجات بدل الكساوي سبع (الاولى) ٣٠ جنيها و ٨٦٧ مليما وهي لاثنين من العلماء أحدهما شيخ الجامع (الثانية) ٢٧ جنيها وهي لثلاثة (الثالثة) ٢٤ جنيها وهي لثمانية (الرابعة) ٢١ جنيها وهي لستة (الخامسة) ١٨ جنيها وهي لاربعة (السادسة) ١٥ جنيها وهي لخمسة (السابعة) ١٢ جنيها وهي لعشرة اه من حاشية الاصل

اكلم احداً ولم ارج كبيراً ان هذا لمن المحال) ولم يصدق الا بعد ان قبض الزيادة بيده في آخر الشهر وتكرر صرفها بتكرار الشهور وهنالك عرف ان الحق يصل الى صاحبه بدون ذلك الطريق المعروف

وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم القانون حداً لاستيلائهم على تلك المرتبات المنحلة عن آبائهم وقيد ترتيبها لهم بقيود مراعياً معونتهم على طلب العلم واستدامة اشتغالهم ليخلفوا آباءهم الاولين وقدر لهم سنين يأخذون فيها ذلك المرتب مع مراقبتهم في عملهم من مجالس الادارة

هذه حال المرتبات بعد القانون وهي وان كرهها الاقلون قد أفرحت الاكثرين، وجعلتهم في مأمن من استقلال الشيخ بالامر وصرف ما يشاء لمن يشاء، واني لأعرف واحداً من اكابر المالكية قال لبعض اعضاء مجلس الادارة والمجلس يشتغل بترتيب الدرجات « كيف يأخذ هؤلاء العلماء الصغار من المرتبات ونحن العلماء الكبار على قيد الحياة؟ » فأجابه العضو «يامولانا ان الصغير يشتغل بالتعليم كما تشتغل وان اختلفتما في النفع فيحسن أن يكون له في مقابلة عمله راتب قليل، ومثلك يامولانا يأخذ على مقدار عمله الراتب العظيم » فلم يقتنع الشيخ ورأى ان هذا من الاجحاف بمكان، فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بعد أن وضع هذا القانون وجداول الدرجات قاسى مجلس الادارة الاهوال في تطبيق كل حادثة وقعت على نصوصه لان اهل هذا المكان لم يتعودوا على شيء من النظام، ولاحظ المجلس انه ربما كان للمالية بعض المراقبة على تطبيق نصوصه فجاء هذا الحساب مضبوطا وأرسلت المالية آخر السنة مندوبا من أمهر عمالها لمراجعة أعمال المجلس ففتش كل صغيرة وكل كبيرة فلم يجد مايلاحظ عليه ورجع مسروراً ، ثم عاد آخر السنة الثانية وفعل كما فعل في الاولى فكان الامر فيها أيضاً على ما رآه

﴿ إلحاق التعليم في الجامع الاحمدي بالازهر(١) ﴾

في ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ أي بين زمن توكيل الشيخ حسونة وبين زمن مشيخته صدرت ارادة سنية بالحاق الجامع الاحمدي بالجامع الازهر في التدريس والامتحان وادارة الشؤون العلمية،فأجهد المجلس نفسه (في الفترة التي كان فيها قانون المرتبات بين يدي الحكومة) في وضع القوانين والنظامات لهذا المسجد وقاسى كذلك في تنفيذ تلك القوانين خصوصاً مايتعلق منها بالامتحان مشاق لاتحتمل عادة،وآخر الامر انصاع أهله للحق وقر قرار شيخه الجديد الذي عينه مجلس الادارة وقبل الامتحان من اهله اكثر من عشرين وهم الذين كان دسهم شيخه السابق قبل فصله بأيام في العلماء بلا امتحان،وسار التدريس فيه سيراً حسنا بقدر الامكان،وتخرج فيه كل سنة كثير من العلماء بالامتحان

(إلحاق التعليم في المسجد الدسوقي ودمياط بالازهر).

وفي يوم صدور قانون المرتبات السابق ذكره (٦ المحرم سنة ١٣١٣) أي عقب تعيين الشيخ حسونة شيخاً بأربعة ايام صدرت ارادة سنية اخرى بالحاق التدريس والامتحان في المسجد الدسوقي وفي دمياط بالجامع الازهر فوجه مجلس الادارة عنايته اليهما،ووضع لكل منهما نظاما خاصا به وكلف نفسه أوصابا كبيرة في تنفيذهما،ولم يعبأ بما لاقاه من أهل العلم في دمياط فقد كثر شغبهم ولغطهم في أمر تقرير درجاتهم وعلت شكواهم فوجه اليهم المجلس من أعضائه من عمل بالحق،حتى انحسم الامر فيها بالعدل،وتقررت لهم الدرجات وفرضت عليهم الاعمال، وتكفل نظامهم بما يعوزهم من العمل فسكتوا راضين

وأما الجامع الدسوقي فقد عمر بالعلم ونيط التدريس فيه ببعض علماء من الازهر

---

(١) غرض الاستاذ الامام من هذا الالحاق ظاهر وهو توحيد التعليم وفائدته في أزالة الفساد وتعميم الاصلاح لاتخفى ومن العجيب ألا يشير الكاتب الى سعي الاستاذ الامام او احد اعضاء مجلس الادارة الى ذلك

ارسلوا اليه،وتوارد اليه الطلاب من أقاصي البلدان بعد أن كان لايتلاقى فيه غير لفيف من اهل البلد لايهمهم الا الاخذ من صندوق النذور (١) ودروسه الآن حافلة والراغبون فيها كثيرون،وقد جاء منهم الى الازهر طلاب واختبروا فوجدوا أهلا لأن يتلقوا الكتب العالية فيه،وحسبت لهم مدة الطلب في دسوق

كساوي التشريف

لما كان من عادة اهل الازهر الاهتمام بالماديات قبل كل شيء وقد فرغ المجلس من أمر قانون المرتبات توجهت الفكرة الى كساوي التشريف التي كانت اوقفت في زمن الشكوى من المرحوم الشيخ الانبابي وكانت نحو اثنتي عشرة كسوة فوزعها المجلس على بعض المشايخ توزيعا روعي فيه جانب الاستحقاق والعدل من جهة وجانب ما كانت قد جرت العادة بملاحظته من قبل . وصدر الامر العالي بالاحسان بها طبق ماقرره مجلس الادارة،فكان هذا مع ماسبقه من اعطاء المرتبات موجبا للفرح والسرور،ثم التفت المجلس بعد ذلك الى انه يجب أن يكون لصرف هذه الكساوي قانون يراعى فيه تقرير صفات الاستحقاق لكل درجة من درجاتها حتى تندفع الاثرة ويكون الحكم هوالقانون، وتكون الاهلية بالصفات وبالاعمال،لابالمحاباة والالحاح . فوضع المجلس هذا القانون ثم عرضه على الحكومة وهي بعد أخذ ورد وطول مناقشة وكثرة اجتماع ببعض الاعضاء أقرته وصدر الامر العالي بالعمل به في ١٧ شعبان من سنة ١٣١٣

والذي قيل في بيان الفائدة من وضع قانون المرتبات يقال أيضا في وضع قانون كساوي التشريف فقد كان الامر فيها فوضى تابعا للهوى وكان لايمنح الكسوة من علم وعلم أو عمل بما تعلم ولكن ينالها من كثر سعيه او ظهرت ثروته او التجأ الى ذي جاه ، حتى تعدت الى غير العلماء فأخذها بعض من لايقدر أن

(١) يعني صندوق النذور التي تنذر للشيخ ابراهيم الدسوقي لاجل قضاء الحاجات وشفاء المرضى . وهي من محدثات الوثنية

يقرأ فضلا عن أن يفهم، وتحلى بها بعض التابعين للمشايخ من القضاة وقد كانوا في صف كتاب المحاكم ، ووصل اليها من مشايخ الطرق والسجاجيد أناس لا يعرف كيف وصلت اليهم، وترقى في درجاتها من لا مكانة له في الوجود الا بتلك المظاهر . أعرف منهم كثيرين ويعرفهم غيري بما أعرفهم به من الصفات وقد وصل الامر في هذه الكساوي الى ان مجلس الادارة كان يصل اليه الخبر بموت أحد أصحابها اتفاقا فيحتاج في الوقوف على حاله وموته أو حياته الى استعلامات رسمية من بعض جهات الحكومة في الارياف وبعد اللتيا والتي يعرف اسم الشخص وتاريخ موته فيصرف الكسوة التي كانت معه الى مستحق جديد

اما وقد ضع النظام فقد تقررت الصفات وحددت الدرجات وخص المدرسون من العلماء بانواعها الثلاثة، وجعل لغيرهم ممن ليسوا منهم نوع مخصوص سمي بكسوة المظهرية، وبين المظهرية والعلمية مميزات . وقد تساهل القانون في العلماء الموظفين نوعا من التساهل فقرر لهم الكسوة العلمية بقطع النظر عن الدرجات . وأما من وصلتهم هذه الكساوي العلمية قبل صدور القانون وهم ليسوا من أهلها فقد ابقيت الحال فيهم على ما كانت الى أن يموتوا لانهم صائرون الى النقص بالضرورة ، وقد كادوا يفرغون فلم يبق منهم الا عدد قليل

ثم ان المجلس أراد أن يوفق بين القانون وبين ما كان جاريا من قبل نوعا من التوفيق فراعى في بعض الاحيان الاقدمية في العالمية بعد مراعاة صفة الانفع في التعليم ، وبذلك انتقل الحال في أمر الكساوي كما انتقل في أمر المرتبات وسارا في طريق يحمده العاقل ويرضاه كل محب للنظام (١)

«١» نعم ولكن محبي النظام كانوا هم الاقلين ، وأعداءه كانوا هم الاكثرين وقد كان الشيوخ المعممون في سورية يتألمون لدخول النظام في الازهر حتى قال بعضهم أمامي في طرابلس الشام عقب حادثة الازهر التي أثارها بعض مجاوري السوريين فأوجبت تدخل البوليس والجند لازالتها ـ قال ـ ان الازهر أدخل فيه النظام ، فحكم فيه النظام، وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام . أي ماهذا حاصله

نظام التدريس والامتحان

بعد صدور قانون الكساوي توجهت فكرة المجلس الى مافوق الماديات وهو التدريس والتعليم والامتحان فوضع لذلك مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الاعمال وشروط الانتظام في مسلك طلبة الازهر ومدة طلب العلم والمسامحات والعلوم التي تدرس في الازهر وبيان المقاصد منها والوسائل وما يجب لعلوم المقاصد من العناية بتوسيع زمن الدرس فيها ، ثم الامتحان بقسميه وهما الامتحان لنيل شهادة الاهلية والامتحان لنيل الشهادة العالمية ، ثم أحكام الضبط والربط والعقوبات . وفي كل باب من هذه أحكام فسيحة تتوجه كلها الى مقصد واحد هو تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول ، والتحلي بثمرة تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال .

وقد قسمت فيه العلوم الى مقاصد ووسائل كما قلنا وبينت المقاصد بانها علوم التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بانها المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة ومصطلح الحديث وضم اليها الحساب والجبر ، وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها ، ثم ان هناك علوما أخر تستوجب لمحصلها التفضيل على من في درجته في التوظف والمرتبات ، وهي تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، وتقويم البلدان ومبادىء الهندسة . وهذه لا يلزم الطالب بالامتحان فيها الا اذا رغبه وأراده

ثم ان القانون قضى على معلمي البلاغة ونحوها مما يقصد من تعلمه العمل به أن يمرنوا الطلبة على تطبيق العلم فيها على العمل (راجع المادة ١٩) وان يخصص لعلوم المقاصد وهي العلوم الدينية المحضة أوسع أزمان التدريس بحيث يكون مايصرف من الزمن في تعليم الوسائل اقل من الزمن الذي يصرف في تعليم المقاصد (راجع المادة ٢٠) وان يقتصر في السنين الاربع الاول من سني طلب

العلم على المتون والشروح الواضحة العبارة فتمنع فيها قراءة الحواشي والتقارير (راجع المادة ٢٢) وانه يجب على الطالب أن يحصل من علوم الوسائل اولا مايكفيه ويؤهله الى طلب المقاصد (راجع المادة ٢٣) وقد جئنا بهذه النموذجات من هذا القانون ليظهر مقصده وتعرف مقاصد المجلس(١) التي رامها العلماء والطلاب في هذا المكان الديني المحض وانه لم يطلب سواها فيه .

وقد كابد المجلس عظيم المشاق واستغرق بحثه النافع طويل الاوقات حتى أكمل المشروع على مارآه مفيداً في هذا المقصد الديني المحض، وأرسله إلى الحكومة فشكلت للنظر فيه لجنة من خيار رجالها ، ومن أشهر الصالحين وكبار العارفين فيها بحاجات هذا الزمان ، وانضم اليهم بعض أعضاء المجلس ، فوالوا الجلسات حتى فرغوا من تنقيحه وزادوا فيه مازادوا وحذفوا منه ماعلموا صعوبة تنفيذه ، ثم رفعوه إلى الجناب العالي الخديوي فأصدر أمره بالعمل به في ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤ وبه صارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ، ولم يبق عليها إلا الجد في العمل بهذه القوانين والمحافظة على ان تكون كل أعمالها مطابقة لها ، ومراقبة تنفيذها على الوجه الاكمل وتمتع العلماء والطلاب بثمراتها ، وان ذلك لم يكن بالامر السهل القريب المنال ، ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتمل في العادة ، ولكنها المقاصد القويمة تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء ، وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال

ولا داعية لتبيان الحال في التعليم والامتحان قبل صدور هذا القانون وما تغيرت اليه فيهما بعده ، فان ذلك يضطرنا إلى تطويل القول مع كونه معروفا بالبديهة فلا ينكر ان الازهر سار من فوضى في التدريس الى نوع من النظام ، وان كان لم يصل الى الحد المطلوب فيه. وأما في الامتحان فالامر أجلى من أن يبرهن عليه لانه مامن شيخ من الذين تولوا مشيخة الازهر زاد في عدد من يمتحنون في كل عام على ستة نفر ،وفي بعض السنين كانوا لايتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم

(١) ما المجلس الا الاستاذ الامام رحمه الله فهو الذي وضع القانون وبين هذه المقاصد له وهو الذي كان سبب مساعدة الامير لها أولا ثم كانت سخطه عليه

الحظ ويؤخذون للامتحان كانوا لايصلون الا بعناية الراجين ، وإلحاح الملحين، ولم يكن للدور ولا للاقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لايشفعون إلا للغني وان كان غبياً ، ويضيعون حق الفقير وان كان ذكياً، وبذلك تراكم في قلم كتاب الازهر عرائض طلب الامتحان حتى صارت لا يدرى أولها من آخرها ، ولا عاجلها من آجلها ، ويئس مقدموها من إجابتهم ، ففترت عزائمهم عن التحصيل، وانقطع معظمهم عن المجيء الى الازهر الا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدى هذا اليأس إلى من يليهم في الزمن ، فجفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل اليهم فانما يصل بعد الهرم، وكان ذلك ظاهراً للعيان

وقد تدارك مجلس الادارة هذا الامر وأحب أن يعيد الى الناس آمالهم ، فقرر تصفية هذه التلال المتراكمة من العرائض ليتحقق وجود أصحابها ، فأعلن الجميع بأن الامتحان سيكون على غير تلك القاعدة السداسية أو الرباعية، ولكن جاء الامر في سنة ١٣١٤ على غير ما في الحسبان إذ طرأت فيها حادثة رواق الشوام المشهورة المشؤومة ، ثم اضطر الازهر بحكم قرارات الصحة العمومية إلى المسامحة معظم السنة أو كلها تقريباً فلم يمتحن في سنة ١٣١٤ غير شخص واحد ونجح

وهاك بيان عدد من امتحنوا في السنين التي بعدها — سنة ١٣١٥ امتحن فيها ٢٩ نجح منهم ١٨ وسقط ١١ وسنة ١٣١٦ امتحن فيها ٢٨ نجح منهم ١٣ وسقط ١٥ وسنة ١٣١٧ امتحن فيها ٢٠ نجح منهم ١١ وسقط ٩ وسنة ١٣١٨ امتحن فيها ٢٥ نجح ١٦ وسقط ٩ وسنة ١٣١٩ امتحن فيها ٣٧ نجح منهم ٢٣ وسقط ١٤ وسنة ١٣٢٠ امتحن فيها ٣٩ نجح منهم ١٧ وسقط ٢٢ وسنة ١٣٢١ امتحن فيها ٩٥ نجح منهم ٣٤ وسقط ٦١ وفي سنة ١٣٢٢ امتحن فيها ٦٨ نجح ٣٤ وسقط ٣٤ ومن هذا البيان يتضح الفرق بين مابعد القانون وما قبله وأما كثرة السقوط في بعض السنين فسببها انقطاع اولئك الذين كانوا قدموا عن التحصيل. فتجددت الآمال، واجتهد العمال، وانتظم تقديم طلب الامتحان ، وهذه بعض المزايا للقانون في هذا الباب، وهي فاتحة الخير عند اولئك الطلاب

﴿ المساحة أو عطلة الدراسة ﴾

ترتب على صدور ذلك القانون تقليل عدد المساحات وتقصير أزمان العطلة الدراسية ، فقد كانت الحال فيها قبله لا يكاد يعرف لها ضابط ، وكان الطالب يمكنه أن يتغيب قبل المساحة الرسمية بأسابيع ولا يحضر إلا بعد انقضائها بأسابيع ، وكان المشايخ المدرسون يذهبون الى بلادهم قبل الطلبة ولا يحضرون منها إلا بعدهم ، وكانت السنة الدراسية تبتدىء من أواخر شوال وتنتهي في أوائل جمادى الآخرة وبين البدء والنهاية مساحة العيد الاكبر ، وكانت تقرب من عشرين يوما ، ثم مساحة مولد السيد ، ثم مولد الدسوقي ، وربما تداخلتا فلا تنقص مدتهما عن خمسة وأربعين يوما ، ثم مساحات صغيرة كعاشوراء والمولد النبوي والمولد الحسيني ومولد الشافعي ومولد العفيفي ومولد الشرقاوي ، وكل واحدة من هذه لا تنقص عن ثلاثة أيام فمدة الدراسة بعد كل هذه المساحات لا تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف متقطعة في السنة ، يخرج منها أيضا يوما الخميس والجمعة من كل أسبوع ويضاف الى ذلك ما يتساهل فيه المشايخ والطلبة وهو كثير

ولما صدر القانون حددت فيه أيام العطلة تحديداً تاما واشتغل المجلس بشدة المراقبة على الطلاب وعلى بعض المشايخ وتقدمت الحال نحو الصلاح عاما فعاما ، ومع ذلك لم تخل هذه المراقبة من تقصير في بعض الاحايين ، والشدة كل الشدة كانت في تعويد الطلاب على العمل ، وانتهاز فرصة الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد ، وأشد من ذلك ما يلاقيه المراقبون في تعويد الدارسين أنفسهم على احترام النظام والاستمرار في العمل الى آخر أيامه ، وإلى الآن لم تصل الحال الى الدرجة المطلوبة ، لأن الكثير من الطلاب تعودوا البطالة بلا سبب ، فصاروا يخلقون المعاذير ويقدمونها الى المشيخة والى المتولين أمر الجرايات ، كموت الآباء وهم أحياء ، أو مرضهم وهم أصحاء ، وككونهم مطلوبين للقرعة وقد أخذوا شهادة المعافاة ، أو أن عليهم أو لهم قضايا في المحاكم الاهلية والاعلان بيدهم ، وربما ادعوا لانفسهم

المرض والواحد منهم يأكل خمسة الارغفة في اليوم ، وهذه الاشياء وإن كانت تقل يوما عن يوم إلا أن الباقي منها كثير وهو ما كانت الهمة موجهة الى قطعه بالمرة وجعل الطالب طالبا حقيقيا يرغب بذاته في التعليم

وجملة القول ان المسامحات قد ضبطت ضبطا تاما، وصارت السنة الدراسية سنة كاملة ، تبتدئ من العاشر من شوال وتنتهي بالخامس والعشرين من شعبان ، ويتخللها اثنان وستون يوما للمسامحة الصيفية « منها شهر يوليه وبعض شهر أغسطس » وهي الايام التي اذا اشتغل فيها المشايخ والطلاب كان شغلهم كلا شغل لشدة الحر ووقوف الاذهان ، ومنها أيام في عيد الاضحى وغيره ولا يمكن أن يضيع غير ذلك ولا يوم واحد بمثل تلك المعاذير ، ومن أضاعها من الطلاب عوقب عليها بما هو مبين في القانون ، وهذا فيما أرى من أجل المزايا لهذا القانون . وغيرها كثير نضرب عن ذكره صفحا مخافة التطويل

﴿ مساعدة الجناب العالي على تنفيذ القانون بالمال من الاوقاف ﴾

وقد توجهت فكرة المجلس بعد صدور هذا القانون الى أمر تنفيذه فرأى انه لابد في ذلك من معونة الجناب العالي للازهر بالمال ، فاستقر الرأي على قرع باب المكارم الخديوية توصلا الى هذا الغرض ، لانه بدون المال لاتنجح كبار الاعمال، فكان كذلك واجتمع المجلس مرات لتحديد أقل مايمكن به السير من النقود وترتيب البدء في العمل بعد أن يسمح بها جنابه الكريم . ثم انحط الامر بعد اقدام وإحجام على أن ترفع مذكرة الى ولي النعم ببيان المبالغ المحتاج اليها، فرفعت مبينا فيها مايلزم من المبالغ وطريق صرفها والمنفعة منها، فتقبلها جنابه الكريم بالمسرة والارتياح ، وصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بتقريرها في ميزانية سنة ١٨٩٧ وسبق ذلك عدة مذاكرات في كثير من الاجتماعات مع بعض العارفين ممن وثق بهم الجناب الخديوي، تقررت فيها خطة السير في علوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ والخط ، وعرضت كلها على الجناب العالي فاستحسنها غاية الاستحسان، ووافق عليها، وأظهر غاية المسرة من تقريرها وادخالها في الازهر

المنيف ، ولم يخطر على باله حفظه الله في ذلك الوقت ولا على بال أحد من رؤساء العلماء وكبرائهم مالكيين وغير مالكيين ان ذلك مما يعطل دروس العلوم المتداولة في الازهر ، أو انه مما ينهى عنه الدين ، أو انه مما يعود على العقيدة الاسلامية بالضعف أو غير ذلك مما لاكته الالسن في هذه الايام (١)

وانتهى الأمر بأن قررت المبالغ في تلك السنة وورد الاعلام بها من ديوان الاوقاف الى الازهر في أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٦ وصادف ان السنة الدراسية كانت قد انتهت أو كادت تنتهي فلم تستعمل هذه المبالغ إلا في شوال سنة ١٣١٤ الموافق لشهر مارس سنة ١٨٩٧ وهذا فيما عدا المبالغ التي قررت لدار الكتب الازهرية فانها استعملت من أول يناير سنة ١٨٩٧ ، لان دار الكتب (الكتبخانة) يمكن العمل فيها في أي وقت بخلاف الازهر فان سنته الدراسية تبتدىء في شهر شوال من كل عام

وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها

جنيه مصري	
٦٠٠	لاربعة وعشرين عالما
٦٠٠	مكافأة للطلبة
٦٠٠	« لمشايخ الأروقة والحارات وللملاحظين
٦٠٠	لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي
٣٦٠	للخط
١٥٠	مصاريف الادارة العمومية للازهر
٤٦٤	لدار الكتب الازهرية
٣٣٧٤	

استعمل المجلس هذه المبالغ على الكيفية الآتية فأما المبلغ الذي قرر لاربعة وعشرين عالما فقد انتخب المجلس هذا العدد من بين كبار العلماء على اختلاف

(١) سبب هذا ان الخديو غضب على الشيخ محمد عبده الواضع منهاج الازهر لهذه العلوم بعد ان كان راضيا عنه فلما غضب صارت تلك العلوم والنظام في التدريس خطراً على العقيدة الاسلامية عند أولئك المنافقين

مذاهبهم ووزع عليهم ستمائة جنيه لكل منهم مبلغ يختلف بين الجنيين والثلاثة ونصف زيادة على مرتباتهم الشهرية الازهرية وكلفوا في مقابله بأن يكون تدريسهم للعلوم الدينية المحضة على الطريقة التي قضى بها القانون من ترك الحواشي والتقارير والاقتصار على الشروح والمتون الواسعة العبارة وتوسيع زمن الدرس في علوم المقاصد وتمرين الطلاب على تطبيق العلم على العمل في العلوم التي غايتها العمل بها وغير ذلك مما يفيد في جودة التحصيل ، وقد وضع المجلس لهذا النوع قرارا مخصوصا بين فيه مايجب على كل أستاذ في إلقاء هذه الدروس وخصص لكل واحد من الاربعة والعشرين عالما علوما معينة من العلوم الدينية المحضة وكتبا معينة من الكتب المعروفة ، لانه لاحظ ان ليس في امكان كل شيخ أن يحسن تدريس كل علم او كل كتاب ، وقرر أيضا ان هذا المبلغ يصح انتقاله عمن أخذه اذا لم يؤد العمل على مافرض عليه . وقد جرى المجلس على أن يجمع هؤلاء العلماء في أول كل سنة دراسية ويبين لكل منهم ما اختاره له من العلوم والكتب والطريقة التي يتبعها في التدريس والتمرين ، ثم يوجه نظرهم الى قراءة السيرة النبوية من كتب السنة الصحيحة لانها كانت معدومة تقريبا من الازهر مع أنها من أهم العلوم الاسلامية المحضة، وكذلك وجه نظرهم الى علم مصطلح الحديث وقد كاد هذا العلم ينقرض من الازهر الا ما كان منه في مقدمات كتب الحديث ، وكانت النتيجة مفيدة اذ تدرج الطلاب في الارتقاء من عام إلى عام ، ولولا هذا المبلغ لما أمكن تكليف أحد من اولئك العلماء بعمل مالم يتعوده من قديم

مكافأة امتحان الطلبة

وأما المبلغ الذي قرر لمكافآت الطلبة فقد كان الغرض منه بثروح الغيرة فيهم وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الازهر ، وان يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ماحصلوه منها راسخا في الذهن لا أن يكون قاصراً على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ، ولهذا وضع المجلس قراراً لصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في أي

علم من العلوم التي تقرأ في الازهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفيته وان يكون تحريريا وان توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ما حصلوه ونجحوا فيه ، وان توزيع المكافآت يكون في اول العام الدراسي بمحضر من شيخ الجامع وأعضاء مجلس الادارة وكل أفاضل العلماء الازهريين

ولقد جاء هذا الامر بالفائدة المقصودة منه فلم يحن موعد تقديم الطلبات في اول سنة لتقرير هذا المبلغ حتى اجتمع منها الدى قلم الكتاب شيء كثير، ثم امتحن الراغبون فيما تقدموا الى الامتحان فيه من العلوم على يد لجان شكلت له من خيار العلماء مع مراقبة أعضاء المجلس ونخبة من العارفين باساليب الامتحانات وتقرر ان تعتبر نمرة النجاح في العلوم الدينية المتداولة في الازهر هي نمرة ١٥ فما فوق، وان تكون نمرة النجاح في العلوم الحديثة هي نمرة ١٨ فما فوق ، تسهيلا للنجاح في الاولى وتشديداً في الثانية ، مراعاة لموضوعات العلوم وملاحظة لمنع الظنون. وهذا بيان من تقدموا للامتحان في كل سنة من السنين وبيان الناجحين فيه

ناجحون عـــدد	ساقطون عـــدد	مقدمون للامتحان عـــدد	سنة	
			١٣١٤	(لم تتحقق منها بالضبط (ولذلك لم نذكرها
٢٩٠٩	٢٧٢٠	٥٦٢٩	١٣١٥	
١٨٥٦	١٥١٩	٣٣٧٥	١٣١٦	
١٩٤١	١٢٩٩	٣٢٤٠	١٣١٧	
٢١٨٤	١٧٢٤	٤٩٠٨	١٣١٨	

وليلاحظ ان عدد المقدمين والناجحين والساقطين المبين هنا كان منظوراً فيه الى العلوم التي يقدم فيها الطالب لا الى كل طالب بخصوصه . مثلا اذا قدم الطالب الواحد في خمسة علوم ونجح منها في اثنين او ثلاثة عد المقدمون خمسة والناجحون اثنان أو ثلاثة، وليلاحظ أيضا ان سبب الكثرة في عدد المقدمين في سنة ١٣١٥ كان لان المجلس أطلق لكل واحد أن يقدم في كل علم شاء التقديم فيه حتى لو قدم في عشرة علوم قبل طلبه ، ثم رأى ان هذا الاطلاق مضر بالطلبة فحدد لهم ان لا يقدم الطالب في أكثر من أربعة علوم من العلوم الدينية مجتمعة واذا

أرادأن يضم اليها شيئا من العلوم الجديدة فليضم علما واحداً وبهذا قل عدد المقدمين

وما كان أبهج الاجتماع الذي توزع فيه تلك المكافآت على اولئك الناجحين فقد كان يجتمع اليه كل المشايخ تقريباً وكان شيخ الازهر يعطي بيده لكل طالب من العشرة الاوائل مكافأتهم، والمشايخ يشاهدون فرح الطلبة فيخرجون وكلهم ألسنة تشكر مجلس الادارة على هذا العمل الخيري ويبالغون في نتيجته وما يأتي به من الفائدة للطلاب في المستقبل ، وكان يختم كل مجلس بالدعاء للجناب الخديوي الذي كان مصدر تلك النعمة . وقد وجدت في الطلاب روح التسابق وذاقوا طعم العلم وأقبلوا عليه

مشايخ الاروقة والحارات والملاحظون

وأما المبلغ الذي قرر لمشايخ الاروقة والملاحظين ومشايخ الحارات فقد كان الغرض منه أن ينساقوا الى نظام الضبط والربط في الجامع الازهر ويتعودوا عليه ، فانهم كانوا من قبل في غاية الاهمال . ولما جاءت النقود وعرف مشايخ الاروقة انهم ينتفعون منها وتحقق المجلس انهم يقبلون كل شيء ويعملون ما لم يتعودوه متى كان من ورائه المال، وضع المجلس نظاما لادارة شؤون الضبط والربط وكلف به مشايخ الاروقة (وسيأتي الكلام عليه) وقرر لهم مرتبات شهرية تختلف بين مائتي قرش وخمسة وستين قرشا بحسب درجة الاهمية وكثرة العدد في كل رواق . ثم زاد عدد الملاحظين فبعد أن كانوا اربعة في كل الجامع صاروا ستة عشر وترقت مرتباتهم حتى صار يمكن تكليفهم المبيت في الازهر بالدور

وأما ذلك النظام الذي وضع للاروقة فانه صدر في ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧ وقضى بأن يكون شيخ الرواق من العلماء المستحقين فيه فان لم يكن من علماء الرواق فمن علماء اقرب الاروقة اليه ، وبأن يراقب الشيخ من في رواقه في سفرهم وحضورهم ويقيد أسماءهم في دفاتر مخصوصة، وأن يكون مسؤولا عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق، وفيصلا فيما يقع بينهم من المنازعات الخفيفة، ويلاحظهم في أداء الوظائف التي شرطها الواقفون ، ويحصل ايرادات الوقف ويوزعها على المستحقين بعد أن يقدم عنها حسابا لمشيخة الازهر، وأن يبيت بنفسه أو يستنيب من يبيت

في الرواق لملاحظة الضبط والصيانة في الليل . وبذلك خفت وطأة المشاجرات الليلية والنهارية ، وما اجل ماتفعله النقود

العلوم الحديثة

وأما المبلغ الذي قرر للحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي فقد استجلب به المجلس في أول الامر اساتذة من معلمي هذه الفنون في المدارس الاميرية وانتخبهم ممن سبق لهم تلقي العلوم الدينية في الازهر حتى لا يكونوا بعيدين عن أهله،وليلاحظوا في تعليمهم عوائد المكان وأهله . وقد وضعت قبل تعيينهم القواعد التي يسير عليها التدريس في هذه العلوم وحددت السنين لكل علم منها ، وأرسل هذا إلى المعية السنية فوافق عليه الجناب العالي مع إظهار غاية الاستحسان،وأبلغت المعية ذلك الى الازهر ، وهوشرع في العمل من أول السنة الدراسية الداخلةفي سنة ١٣١٥ وسار هذا التعليم فيطريق قويم

(معلموالخط) وأما مبلغ الثلاثمائة والستين جنيها المقرر لتعليم الخط فقد انتخب المجلس عشرة من المعلمين للخط على اختلاف أصنافه وناط بهم تعليمه وجعل لهم أوقاتا معينة في أماكن مخصوصة فأقبل عليهم الطلاب في الاوقات الخالية من الدروس

فائدة الامتحان والعلوم الحديثة

وأما الفائدةالتي نجمت عن استعمال هذه المبالغ الثلاثة (مبلغ مكافآت الطلبة، ومبلغ العلوم الحديثة، ومبلغ الخط) فتعرف مما يأتي

قد كان طلبة الجامع الازهر لا نصيب لهم فيصناعة الكتابة والانشاء وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصرت صحيفته عن بيان المطلوبله ولم ينفعهماحصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطهفي مكتوبه نقشاً مكسر الخطوط ناقص الحروف ، وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبر عن ذلك باللفظ لابالرقم لعدم معرفته به

هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من الاكابر الى اليوم ، واني لأعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ الانبابي الى الافطار عنده في رمضان فاعتذر اليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره على حال لم ير مثلها الراؤون ، إذ كتبه اليه في ورق من اوراق العطار والكتابة فيها غير منتظمة الشكل، والخط لا يقرأ الا لمن تعود قراءة هذه الخطوط ، والاربعة الأسطار التي كتبها اعتذاراً للشيخ كان فيها أكثر من عشر لحنات نحوية لا يمكن تطبيقها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه ، وهذه الرقعة من عالم كبير الى عالم أكبر ، فلا يقال ان الاستاذ كتب ما يفهمه المكتوب اليه . وأعرف غيره وغيره وغيره من أمثاله، وهؤلاء الاغيار كثيرون وتطويل القول فيهم مما لا حاجة اليه

وقد أصبح الفرق بين تلك الحال وما نحن عليه الآن في الازهر واسع المدى وان لم يبلغ الغاية المطلوبة ، ذلك أن امتحان المكافأة قد عود الطلاب على التعبير عما في الضمير ، وعلمهم استبقاء المعلومات في ذاكرتهم حتى يكتبوها في الامتحان ، وعلمهم ملاحظة القواعد في الكتابة وانتقاد أنفسهم في ذلك لتوقع الانتقاد عليهم — وان تعلم الخط والاملاء جعل خطوطهم مما يقرأ عادة، وصير الاملاء صحيحاً مضبوطاً، وهم الآن في الحساب وتقويم البلدان والتاريخ على حالة لم تكن ا تنتظر منهم ، فقد أصبح الازهر وفيه خمسة عشر عالماً يدرسون الحساب على أحسن ما يكون من تدريسه في المدارس، وعالمان يدرسان علم تقويم البلدان كذلك ومن الطلبة من لا يكادون يحصون عداً من العارفين بالعاملين ، والكثير منهم قد أدى الامتحان في الحساب والجبر العالي وأخذ الشهادة باكمال دروسها، ومن بينهم عدد كثير قد دخلوا في امتحانات الاساتذة في المدارس الأميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الاهلية وحازوا قصب السبق فيه على المتخرجين في المدارس وأحرزوا وظائف الاستاذية في تلك المدارس باستحقاق ، وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لا يحلم بها ولا تخطر على البال

ثم ان المجلس تعود ارسال تقرير عمومي يشتمل على نتيجة هذه الامتحانات في كل سنة الى المعية السنية ليعرض على الجناب العالي ومعه الرسوم الجغرافية

والخطوط وبعض الرسائل التي يؤلفها الطلبة، وفي كل سنة كانت تجيء الى الازهر مكاتبة الديوان العالي الخديوي معلنة عرض تلك النتيجة على جنابه العالي وانها حازت الرضا والقبول، وان جنابه الفخيم مسرور منها مستحسن لها، ومشجعة على استمرار العمل مع الجد والاجتهاد، وفيها الثناء الجميل على المجلس لقيامه بهذه المهمة خير قيام، وفي بعض السنين لاحظ المجلس أن يعرف تأثير هذه الطريقة الجديدة ويستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة وحال المقتصرين على القديم، فقرر انه لايقبل طلب امتحان المكافآت في علم من العلوم الحديثة وحده بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الاقل من العلوم المتداولة، وان من يطلبه في العلوم القديمة وحدها فله ذلك بدون حجر عليه، فكان كذلك في سنة ١٣١٨ وبعد قراءة اوراق الامتحانات تبين منها جليا ان الناجحين في العلوم القديمة وهم مشتغلون بالعلوم الحديثة أكثر من الناجحين فيها وهم غير مشتغلين بتلك العلوم الحديثة، وهنالك ظهر للمجلس ظهوراً لاريبة فيه ان هذه العلوم مما يساعد على فهم العلوم الدينية، وكتب المجلس هذا في تقريره السنوي وأوضحه بأدلته المبينة بالارقام

فهذا هو الفرق بين حالتي الازهر قبل استعمال هذه المبالغ وبعده وهو فرق ظاهر عرفه الخاصة والعامة واعترفت به الحكومة أيضا، لانه كان يرفع اليها تقرير كل سنة بنتائج الامتحان بعد أن يرفع الى الجناب العالي ويتقبله الجناب الخديو بالمسرة والانشراح كما هو مثبت في دفاتر الازهر من مكاتبات رؤساء الديوان الخديوي، وتلقاه الطلبة أنفسهم مع مافيه من المشقة عليهم بالاقبال عليه، ولم ينازع فيه أحد من مشهوري العلماء ولا من أكبر صالحيهم الى آخر سنة ١٣١٨ هجرية لامنازعة ظاهرة ولا خفية، بدليل حضورهم جميعا في حفلة توزيع المكافأة واعطائها من يد شيخ الجامع نفسه للعشرة الاوائل من الطلبة تنشيطا لهم وحثا لغيرهم على مساواتهم، وما منهم الا من أظهر الاستحسان وبشر بحسن الاستقبال ودعا لمن كان السبب في هذا الخير العميم(١)

(١) راجع حاشيتي ص ٤٤١ و ٤٤٥ وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على معارضة الاصلاح

دار الكتب في الازهر

المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيها قد خصص لمرتبات الامين والمغير والكاتب والخادم (الفراش) ولأربعة من العمال المؤقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعا في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنه مبلغ ١٥٠ جنيها لشراء كتب جديدة ولتكميل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد مايوجد منها بلا جلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانونا عاملا سار العمل فيها عليه الى الآن سيراً حسنا

ولاجل أن يعرف ماهي هذه المكتبة وأين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفا من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليه الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضعت في بعض الاروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني، ونيط حفظها جميعها باشخاص يقال لهم المغيرون، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صح معه اطلاق اسم المغيرين عليهم، لانهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا مالا عناية لهم به منها في التراب، يأكله العث ويبليه التراب. وهذا غير ماتصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء وبالجملة فلم (؟) يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ماأفسدته منها هذه الأيدي، وتسهيل الانتفاع بها، اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فأرسل من أخذ المقايسة لاصلاحه وانشاء مايلزم له من الخزائن التي توضع فيها الكتب. ثم

عرض الأمر على الجناب العالي فأقره مستحسنا له وخرج هذا العمل من القوة الى الفعل، وتهيأ المكان لما وجد لأجله من وضع الكتب وحفظها فيه من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات، وشرع عمالها في انفاذ ماعهد اليهم من أول سنة ١٨٩٧ أفرنكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهنالك ظهر العجب العجاب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها الى ذلك المكان الجديد فكان يأتي بها أولئك المنيرون محشوة في الزكائب والقاطف، ثم يفرغونها تلالا وأكواما عليها خيوط العناكب، وبينها الاتربة، ويتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا مالا يكاد يذكر، وجلس بجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها، وأعضاء المجلس والامين يراقبون عملهم ويرشدونهم الى الطريق الاقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدشوت والاوراق المتفرقة كتبا معتبرة في كل الفنون وكان معهم مندوب من ديوان الاوقاف وموظف آخر نيط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثمن اللائق به، وقيدت في دفاتر بأعداد متسلسلة، واستلمها الأمين بأثمانها المقدرة لها

ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعا مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا أزمانا طوالا كانت كلها أتعابا ومشاق، واني لأعرف كتبا كثيرة مما تجده الآن كاملا كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقيه في خزانة فلان ولم تجتمع أجزاؤه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك ان بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يعبأ به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد أن كان صدر أمر أحد مشايخ الجامع باحراقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الاتربة مع انها من أجود المصاحف خطا وورقا، وفيهما من الفوائد وعلوم التجويد مالا يوجد في سواها وغير ذلك كثير، فنكتفي بما ذكرناه فما الغرض إلا بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر مايكفي لذلك

بعد أن عرف ان في الازهر دار كتب أقبل عليها أهل البر فأعانوها بهدايا من الكتب النفيسة، وأهم هدية قدمت اليها هى هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباظه فان ورثته حياهم الله لثقتهم ببعض أعضاء المجلس(١) سمعوا قوله وقبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين أن تجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لأن الباشا رحمه الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبه شيء كثير ، فكان ورثته قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كله تكونت مكتبة جميلة منتظمة لاينقصها الآن سوى الفهرس العام والعمل فيه سائر سيراً حسنا وإن كان بطيئا ولعله يتم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولم يكتف المجلس بهذا القدر بل رجع الى الاروقة الشهيرة في الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصعايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية ، وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ أخرى لترتيب كتبها وتنسيقها ، فأجيب الطلب وتعينت العمال، ورتبوا الكتب في تلك الأروقة على الطريقة التي رتبت عليها المكتبة، ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته بالاروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الأمين، ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها

ولقد تفضل الجناب العالي بزيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة إلا وأظهر سروره مما رآه فيها من حسن الوضع والنظام، وهي الآن مطرح أنظار السائحين، ومحط رحال المطالعين ، ومكان النفع العام للعلماء والطالبين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنيها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنيه في كل عام فأصلح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلود، واشتريت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سعته،

---

(١) تقدم في أول هذا الفصل أن سليمان باشا أباظة كان من اوفي اصدقاء الاستاذ الامام وكان أنجاله يعدونه كوالدهم في العطف عليهم فلذلك قبلوا رأيه

فاضطر المجلس الى أخذ مكان آخر من الازهر أصلحه ديوان الاوقاف وعمل فيه ماعمل في الأول، وامتلأت خزائنه أيضا بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شراؤه كل عام .

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بمأمن من الضياع والتلف إلا بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار العتيقة، ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس، واني أعرف كثيراً من أهل الفضل والدين أرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من أولئك الباعة الادنياء الى مكتبة الازهر لعلمهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المتعلمين، وأما بعض أهل الشهرة من كبار العلماء وصالحيهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنابيل والغرائر ،لايعرف لكتاب منها أول ولا آخر

اصلاح التعليم

وفي أول السنة الدراسية من سنة ٣١٤ الداخلة في سنة ٣١٥ شرع المجلس في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها أساس ترقي التعليم ، وهي القاضية على الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى من سني التعليم،فحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليه موضوعات العلوم ،فأصدر قراراً في٦شوال سنة ٣١٤ بأن الكتب التي تقرأ في السنين الأربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل ، وفي فقه الحنفية من مراقي الفلاح الى العيني ، وفي فقه المالكية من ابن تركي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجميع ، وحتم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانه أضر الشروح بالطلبة المبتدئين ، ثم ألزم الاساتذة أن يبدأوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الأربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وأن يختموها

دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة أن تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في أيام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس أثناء تلك السنة الدراسية أن بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد تعودوا أن يطيلوا مدة البطالة الرسمية فأصدر قراراً في آخرها ليكون عليه العمل من أول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنه ١٣١٦) أبان فيه مدد المسامحات القانونيـة وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتج طالب ولا يتأول عالم . وحتم على كل استاذ وكل طالب أن لايخلي من أيام العمل القانوني يوما واحداً من إلقاء الدروس أو تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيه شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتبت بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيه

وكذلك لاحظ المجلس في أثناء إلقاء الدروس في تلك السنة الدراسية ان في الازهر عادة مستحكمة وهي إهمال الاستاذ للطالب في آدابه وفي مواظبته على الحضور في الدروس، وإهمال الطالب لانه لم يتعود من مشايخه المراقبة عليـه فأهمل في احترامه لهم،وتباطأ في أعماله، ولم يبال بحقوق اخوانه الطلبة ، ففسدت أخلاق الطلاب،وضاعت آدابهم الدينية،وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم، فأصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ٣١٤ ليكون دواءاً لتلك الادواء . بين فيه ما على الطالب من الحقوق ، وما على الاستاذ من الواجبات ، فحتم على الطالب أن لا يتلقى أقل من ثلاثة دروس في اليوم،وأن لايشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يتكلم فيه غير أستاذه،وأن لا يسأل الطالب أستاذه في الدرس أكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد،فان بقيت لديه شبهة كلمه فيها بعد الفراغ من الدرس،وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحترم أستاذه في الدرس فلا يرفع صوته عليه،ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافي الآداب، وأن يعامل جليسه في الدرس بالحسنى ، فلايؤذيه بالقول ولا بالفعل ، وأن يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتدأ فيه على الاستاذ الذي شرع في تلقيه عنه حتى يتمه ،

فاذا بدا له الانتقال الى شيخ غيره وجب عليه أن يخبر شيخ جهته المنتسب هو اليها ، وإذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليه اكماله فلاينتقل الى كتاب أرقى منه قبل ان يتمه ، وكل هذه الآداب التي قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها ، وضررها بالتعلم والاخلاق لامرية فيه

وأما الاستاذ فقد حتم عليه في ذلك القرار أن يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية ، وأن يتعهد الطلبة الذين يحضرون درسه بنفسه ان كان مبصراً او بمن يستنيبه ان كان ضريراً ، ليعرف من يتغيب منهم عن الدرس فيخبر عنه شيخ جهته المنتسب هو اليها ، ليخبر شيخ الجامع بانقطاعه عن الدروس ، وأن يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لايأتي احدهم بما نهي عنه ، فاذا خالف نبهه الشيخ اول مرة ، فاذا عاد زجره ، فاذا عاد أبعده عن الدرس، وأخبر شيخ جهته ليخبر شيخ الجامع ليعاقبه بما يراه ، وأن يجتنب الاستاذ حتما تلك العادة القبيحة : عادة سب الطلبة وشتمهم الشتم القبيح بسب الآباء والامهات، وضربهم بالعصي والنعال . وأن يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من أقرب الوجوه ، متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاسيف ، وأن يحضر الاستاذ درسه قبل إلقائه فيراجع ما يحتاج لمراجعته من الكتب لتصحيح ألفاظ الشعر التي تذكر في الشواهد، حتى لايضيع وقته في التفاهم مع الطلاب، وان كان ذلك لايمنعه من قبول رأي التلميذ ان كان صوابا ، وان لايأتي الاستاذ للطالبين في أثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم ، فلايغرب بالاكثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضيعة للاوقات ، وأن لايخلط مسائل علم بمسائل علم آخر الامسألة جاءت عرضاو توقف عليها فهم المقام ، فيتكلم عنها الاستاذ بعبارة قصيرة على قدرماتدعو اليه الضرورة في الافهام ، وجعلت مدة الدرس بحيث لاتنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين

وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها، وكان هم معظم المشايخ الكبار هو التشدق بالاحتمالات البعيدة وتضييع الاذهان

تفتيقا لها كما يزعمون ، ولا يبالون أفهم الطالب أم أشكل عليه الامر ؟ أصحت القاعدة ام ضاعت هباء ؟

أعرف شيخا من كبار المالكية (١) قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درسا في علم المنطق أيام المسامحات من كتاب الخبيصي ويحضر درسه هذا كل الباقين من المجاورين في الازهر تقريبا ، وعرض في درسه ان حاشيته اعترضت على الشرح فأخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتمحلات والاحتمالات النحوية ، حتى استقر رأيه على تصحيح كلام الشرح ، فقال له بعض الطلبة وأنا أعرفه أيضا (٢) « يامولانا انه يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد أن تكون السالبة الكلية تنعكس جزئية مثلا يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون » فأجابه الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب اندفع الاعتراض ، فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب . وأعرف شيخا آخر من كبار الشافعية قرأ في درسه لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور * كادت نفوس القوم عند الغلصمة * بالفاء بدل الغين ، فقال له أحد الطلاب وأنا أعرفه أيضا انها الغلصمة بالغين لا بالفاء ، فسبه وشتمه وأهانه كثيراً وأصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظه المجلس ووضع له ذلك القرار ، تخفيفا لتلك الاضرار ، ومراعاة لمصلحة المعلمين والمتعلمين بما يقضي به الشرع الشريف ، ويطالبنا به الدين القويم

نظام الجرايات

وفي ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٤ دار في خلد المجلس ان يضع نظاما للجرايات بما تخوله له المادة التاسعة من القانون لتنقطع الفوضى في هذا النوع من الماديات ، كما قطعت في مادة المرتبات ، وأمر الجرايات في الازهر لا يخطر مافيه من الهمجية

(١) هو الشيخ احمد الرفاعي المشهور (٢) هو سعد زغلول الشهير وقد سمعت هذا منه وذكرته في المنار عنه

على بال ، ولا يمكن أن يتصور كيف وجدت على ماهي عليه ولا كيف سارت ولا كيف رضي بسيرها القوم ، وهي التي كانت منبع الثروة للنقباء ومشايخ الاروقة والحارات ، وسبب التخاصم بين المجاورين بل بين العلماء الكبار ، اذ كانت تعطى في الغالب لغير المستحق وهو يعرف أنه غير مستحق ،فيبيعها للنقيب طول السنة الدراسية او مدة المسامحات . ولم يكن الاخذ للجرايات او الحرمان منها مبنيا على طول زمن المجاورة أو على اختيار تبين به حال الطالبين فيقدم المجتهد ويحرم من سواه ، وانما كان مبنيا على حسن الحظ والاهواء ، فكتبت مشيخة الازهر الى مشايخ الاروقة تمهيداً لوضع هذا النظام منشوراً مضمونه ان مجلس ادارة الازهر سيشرع في سن النظام لكل الاروقة والحارات وذلك يستدعي أن يكون لديه كل المعلومات المناسبة لذلك وطلبت منهم أن يرسلوا الى المشيخة في ظرف ثلاثة أسابيع بيان ماعندهم من الجرايات والمرتبات ومن هو مصرفها من العلماء والطلاب ، وما هو الأصل في ترتيبها على الوجه الذي هي عليه سواء كان قاعدة عمل قديم أو شرط واقف ، مع ارسال صور من كتب الوقف أو من قواعد العمل القديم ، وصور مافي كل رواق من قانون قديم وضع لضبط المجاورين أو لتوزيع الجرايات والمرتبات ، أو لتعيين المستحقين بالعدد أو بالصفات ، وما يكون موجوداً عندهم من شروط الانتظام في سلك الطلبة والمنتظرين ، أو طرد من يخرج عنها من المجاورين ، وما يوجد من الوقفيات القديمة الدالة على ان للرواق ريعا سواء كان متحصلا أو غير ممكن التحصيل بسبب من الاسباب

وبناء على ذلك وعلى كثرة الالحاح من المشيخة تكاملت المعلومات وقدمت الى مجلس الادارة ،فقرر تشكيل لجنة للنظر في تلك المعلومات، واستخلاص مشروع نظام واحد يعم جميع الاروقة والحارات ، على اختلاف مقادير الجرايات في كل منها وجهات ورودها ، مراعى في كل واحد منها شروط الواقفين عليه ان كان له أوقاف معلومة بشروط معينة ، وأما إن كان أصلها الارصادات أو شروطها غير معلومة فيراعى فيها قواعد الشرع المنيف ، فشكلت اللجنة تحت رئاسة الشيخ عبد القادر الرافعي وانضم اليها أحد أعضاء مجلس الادارة ليضع المشروع في القالب المعتاد للنظامات

وقد اشتغلت اللجنة بجد واجتهاد ، وبحثت طويلا في تلك المعلومات التي وردت من الاروقة والحارات في سجلات الازهر وفي الوقفيات المقيدة بها ، ورجعت في معظم أعمالها الى الكتب الفقهية والنصوص الشرعية في الاحوال التي كانت تستدعي ذلك حتى أكملت المشروع وقدمته الى المشيخة في أواخر سنة ١٣١٦

تضمن هذا المشروع فصل معظم الاروقة بعضها عن بعض في الحكم لان شروط بعض الواقفين مخالف لشروط البعض الآخر ، وضم بعض الاروقة والحارات الى مماثله في الحكم ، وجعلت فيه الجراية العمومية التي تصرف الآن من الاوقاف لغالب الاروقة تحت حكم واحد لانها من قبيل الارصادات أو من قبيل ماهو مجهول الشروط ، وجعل للغرباء أحكام خاصة بهم من جهة تقدير الكفاية لكل شخص من الجراية في كل يوم لانهم منقطعون وليس لهم أهل في البلد ينفقون عليهم ، ثم بين فيه مدد المسامحات والمدد التي يسمح للطالب بالتغيب عن الازهر فيها أيام العمل والتحصيل محافظة على شروط الواقفين ، وحددت فيه العقوبات بقطع الجرايات بما ينطبق على شرط الواقف وغير ذلك من الاحكام

وبعد الفراغ من وضع هذا المشروع قدمته اللجنة الى مشيخة الازهر ليعرض على مجلس الادارة ويقرره بعد تعديل مايحتاج منه الى التعديل وقد طرأ على المجلس أمور كثيرة عاقته عن النظر فيه وأقلها انه يحتاج الى مراجعة الاصول التي أخذت عنها اللجنة التي وضعته وأكبرها مايؤخذ من الكلام فيما يأتي عن مدة مشيخة الشيخ سليم البشري والعوائق التي كانت تعترض سير المجلس في مدة هذا الاستاذ

امتحان التدريس وشهادة العالميه

وفي ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ قرر مجلس الادارة النظر في شؤون امتحان طالبي التدريس ، فأول اصلاح بدأ فيه أن أعلنت مشيخة الازهر طلاب هذا الامتحان بأن (المادة الثانية والعشرين) من القانون تقضي بأن الطالب والاستاذ مخيران بعد الأربع السنين الأولى في النظر في الحواشي وعدمه ، ومع هذا التخيير لايصح أن يلزم الطالب بأن يؤدي الامتحان في الحواشي المعتاد

تأديته فيها ، وما عليه إلا أن يكون على علم تام من الفن الذي يمتحن فيه ، وان (المادة الثالثة والعشرين) من القانون تقضي بأن كل طالب علم في فقه مذهبه يتلقى أصول مذهبه ولا يصح من هذا إلزام طالبي الامتحان بأن يؤدوا امتحان الاصول في كتاب جمع الجوامع اذا كان الطالب مالكيا أو حنفيا، فان ذلك الالزام يفضي الى ترك العمل بمادة (٢٣) السابق ذكرها ، فما على طالب الامتحان إلا أن يمتحن في علم الاصول غير مقيد بكتاب جمع الجوامع المذكور

وبعد هذا تحقق المجلس من أن كيفية امتحان التدريس جارية على غير قاعدة معينة وان كل عضو من أعضائه يسأل الطالب كما يشاء في أي وقت أراد على غير نظام ، وهذا يؤدي الى تشويش ذهن الطالب ، فأصدر قراراً في ٢٨ شوال سنة ١٣١٦ كان هو النظام الداخلي لامتحان طالبي التدريس، ومقتضاه ان السنة الدراسية كلها ظرف للامتحان ، وأن يعقد مجلسه في كل أسبوع مرة على الأقل، ولا يمتحن في المجلس الواحد أقل من اثنين، وأن لا يسأل الطالب في أول قراءته بل يمهل حتى يسكن روعه وينطلق لسانه ، وأن لا توجه اليه الاسئلة إلا بعد أن يقرر المسألة على حسب فهمه ، ولا يكون السؤال في العبارات ، إلا بعد الاسئلة في الموضوعات ، وأن لا يتعدد السائل في سؤال واحد ، وأن لا يتداخل سائل آخر في سؤال السائل الاول حتى يتمه ، وأن لا يناقش أعضاء المجلس بعضهم بعضا بل تكون المناقشة قاصرة على العضو السائل والطالب المسئول، فاذا وقعت المناقشة بين الاعضاء بحضرة الطالب فلا يعد عجزه عن الجواب فيها طعنا على اقتداره ، وان لرئيس اللجنة أن يخصص كل واحد من أعضائها للسؤال في علم من العلوم ، وان الاستطراد ممنوع لما يترتب عليه من الخلط في موضوعات العلوم، فلا يسأل الطالب وهو يقرأ الفقه مثلا في علم النحو والبيان، وغير ذلك من اختصاص رئيس اللجنة ببعض الاحكام ووجوب العمل بهذا القرار في العام الدراسي الذي صدر فيه (وهو عام سنة ١٣١٦ الداخل في سنة ١٣١٧)

وكل ماأوجبه هذا النظام كان لمعنى مخصوص مشاهد في الامتحان، سبب الشكوى منه في كل زمان ، ومع شدة مراقبة رؤساء اللجان والمحافظة على تنفيذ

ماقضى به هـذا القرار فقد كان يغلب على بعض الاعضاء ماتعوده قديما فيحتاج الى التنبيه في كل مرة ، وما رسخ من أزمان ماضية لا يزول إلا بالتكرار

العلوم والكتب ونظام التدريس

وفي ٩ رجب سنة ١٣١٦ صدر قرار من مجلس الادارة تنفيذاً للمواد ١١ و١٢ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ من القانون وهي متعلقات بتوزيع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة المدرسين فيه ؛ وبتعيين الكتب لجميع العلوم التي تدرس في الازهر خصوصا غير المتداولة فيه، وبتحديد نوعي العلوم من المقاصد والوسائل وبتمرين الطلاب في العلوم الآلية على تطبيق العلم على العمل، وبتخصيص الزمن لكل نوع من النوعين وبمنع قراءة الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى. وبالزام الطالب بأن يبدأ اشتغاله بعلوم الوسائل حتى اذا جاء الى المقاصد كان لديه مايجعله أهلا لتلقيها

ولقد كان في وسع المجلس أن يصدر قراره بذلك كله ويصير بمجرد صدوره واجب التنفيذ كما قضى به القانون ، لكنه أراد أن يشرك معه كبار العلماء ليشاورهم في الامر ويقف على آرائهم في كل باب من هذه الابواب (١) فلذلك قرر تشكيل لجنة من اكثر من ثلاثين من أفاضل العلماء من كل مذهب تحت رياسة الشيخ سليم البشري ، وكان إذ ذاك من أعضاء المجلس ، وضم إلى أعضائها بعض أعضائه الآخرين ، وكتب شيخ الازهر إلى رئيس هذه اللجنة كتابا بذلك ودعا العلماء إلى الاجتماع في إدارة الازهر فاجتمعوا جميعاً ، وافتتح شيخ الجامع الجلسة بعد الحمد لله والثناء عليه بأننا قد دعوناكم لابلاغكم ان لجنة تشكلت منكم للنظر في أمر الكتب وطريقة التعليم ، ولا يخفى عليكم أن لكل علم غاية، ولكل غاية وسيلة ، ومن وسائل العلوم الكتب والتعليم ، ومن الكتب

١) كان غرض الاستاذ الامام من هذه المشاورة ان يكون كبار علماء الازهر مقتنعين بهذا الاصلاح ليرجى دوامه وعدم رجوعهم عنه اذا زالت السلطة القانونية التى كان هو القائم بها ولم يكن واثقا بدوامها

ماهو سهل الايصال إلى الغاية أو واف بما يؤدي اليها ، ومنها ما ليس كذلك ، ومن طرائق التعليم ما يوصل إلى فهم مايلقى على الطلبة ومنها ما ليس كذلك ، ولا يخفى عليكم أيضاً ان من الاساتذة من يتصدى إلى تدريس علم والافضل له أن يقتصر على غيره ، ولقد رأينا في امتحانات طالبي التدريس أن بعض طلبة العلم بعد إقامتهم الزمن الطويل في الازهر يوجد فيه قصور ظاهر ، وأغلبهم لا يكون عنده من المعلومات أكثر مما يعرفه بعض طلبة العلم المتوسطين ، ولأجل هذا شكلنا هذه اللجنة وكتبنا لحضرة رئيسها هذا الكتاب وتلاه بنصه وهذا ملخصه :

من المعلوم أن الكتب المتداول قراءتها في كل العلوم التي تدرس في الازهر محتاجة للنظر فيها من حيث هي موصلة للمطلوب منها من تعليم الطالب ما فيها من العلوم لان نظام التعلم والتعليم مفتقر الى معرفة الوسائل من المقاصد والغاية المطلوبة من كل علم ، وبمراعاة ذلك يصلح ما هو معلوم لنا ولكم من نقص محصول الطلبة في كثير من العلوم ، وفضلا عن ذلك فان ما نشاهده وتشاهدونه من عدم وقوف كل استاذ عند حده في قراءة الكتب والفنون محتاج كذلك الى الاصلاح ، وفي علمكم ان القانون يقضي باصلاح ذلك كله وجعله على نظام مقرر مضبوط ، ولهذا شكلت لجنة من اكابر العلماء تحت رياسة فضيلتكم للنظر في امر العلوم التي تدرس في الازهر ، وتحديد الغاية المطلوبة من كل علم ، وفي امر الكتب المتداولة قراءتها وتقدير ما يلزم إدخاله عليها سواء كان بتغيير بعضها أو الزيادة على الموجود أو تنقيصه ، والنظر في قراءة حواشي الكتب التي يستقر الرأي عليها والزمن الذي يخصص لقراءة كتب المقاصد والذي يخصص لكتب الوسائل ، والنظر في توزيع العلوم على حضرات الأساتذة المدرسين ، حتى يحصل بذلك طلاب العلم بالازهر على المقصود منه ، وتستقيم طريق التعلم والتعليم ، مع تطبيق عملكم في سائر الامور كلها على قانون الجامع الازهر ، وتقييد جميع الآراء التي تبدى في جلساتكم وتحريرها واضحة في محضر يعد لذلك

وبعد الفراغ من تلاوته اجتمعت كلمة كل الاعضاء على استحسان هذا المشروع ، وعلى وجوب النظر في الموضوع ، ورأوا ان الاسهل لاكمال الامر أنه

تنتخب لجنة فرعيــة من هذه اللجنة العمومية للنظر في كل جزء مما حواه هذا المشروع وتقرير ماتراه فيه ، فكان كذلك،وصادفت أغلبية الاصوات لأعضاء اللجنة الفرعية كلا من الشيخ عبد القادر الرافعي والشيخ عبد الرحمن البحراوي من الحنفية والشيخ احمد الرفاعي والشيخ محمد أبي الفضل من المالكية والشيخ محمد البحيري والشيخ محمد النجدي من الشافعية،وضم اليهم الشيخ محمد عبده على أن يكون عضو مجلس الادارة ، والشيخ يوسف الحنبلي عند الكلام على كتب فقه الحنابلة ، وتقرر أن تعرض هذه اللجنة الفرعية أعمالها على اللجنة العمومية لتقرر فيها ما تراه

ولقد إبتدأت اللجنة الفرعيــة جلساتها يوم الاحد ١٣ رجب سنة ١٣١٦ واستمرت على الاجتماع والبحث والعمل الى يوم الاحد ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ وكان أعظم همها وما دار عليه بحثها هو تعيين كتب الدراسة وبدأت عملها بتلاوة الفصل الاول من الباب الثالث من القانون وهوما يحتوي على ماشكلت لأجله اللجنة ، وما زالت تنظر في كل جزء جزء حتى أكملت مأموريتها وقدمت تقريرها الى اللجنة العموميــة في ذلك اليوم ، واللجنة العمومية لم تعدل في تقرير اللجنة الفرعية إلا بعض الشيء ، وذكرت في بعضه انه مستحسن وان كان غير لازم، إلا انه في مواد تافهة لا تذكر ، ثم رفعته الى مشيخة الازهر — وقد كانت أسندت الى الشيخ سليم البشري — فرقد هذا التقرير المسكين مع مارقد من الاعمال الجسام ولم تسمح المشيخة بتقديمه الى مجلس الادارة ولا أظن الا ان نومه سيطول إن شاء الله (١)

وأما تقرير اللجنة الفرعية الذي أقرته اللجنة العمومية فأني ذاكر ملخصه تتميماً للفائدة وتبيانا لتلك المقاصد التي كان يقصدها مجلس الادارة وليعرف الناس انه كان لا يقصد بالعلم وأهليه غير الخير

[المؤلف] وههنا تفصيل لما اتفقوا عليه في تدريس كل علم لا نطيل بنشره ،ومن شاء الاطلاع عليه فليرجع الى ذلك الكتاب ، ولكنني أذكر انه بين في التقرير أن

---

(١) كان سبب توقيف الشيخ سليم لاعمال المجلس العلم بانحراف الخديو عن الشيخ محمد عبده وارتياحه أو ايعازه بمقاومة عمله كما سنفصله في الكلام على مقاومة الاصلاح

يكون الغرض من درس كل علم ما وضع العلم لأجله والتأهيل للعمل به ومن ذلك وهو أهمه، أن يكون درس التفسير «لبيان ما أودع في القرآن من الاسرار والحكم والمقاصد التي يرمي اليها في القصص والأوامر والنواهي ووجوه العظة بأخبار الماضين وأحوال الحاضرين، والمقاربة بين ماجاء فيه وما عليه الناس الآن. وبيان مافيه من أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز» وكان مما قررته اللجنة درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز من كتب البلاغة، وكذا درس رسالة التوحيد للاستاذ الامام في العقائد، ولكن لم يقرأ هذه الكتب فيها غيره. وفي هذه السنين يقرأ رسالة التوحيد بعض اخواننا الذين نشأوا على مشربه رحمه الله.

(ثم قال الكاتب)

ثم اتفقت الآراء على عدة من العلوم التي لم تكن تدرس في الجامع الازهر ومنها (التاريخ الاسلامي) واختاروا له كتاب الخميس والمواهب اللدنية في تاريخ السيرة النبوية. وكان من رأي الجميع وجوب قراءة التاريخ وأن يكون المقصود منه بيان الحوادث وتعليلها لا مجرد ذكر القصص والحكايات وكذلك اتفقت الآراء على تقرير علم (تقويم البلدان) وأن تكون كتبه مايختار مدرسوه ثم اتفقوا أيضا أن يقرأ في الازهر (علم المحاضرات) وأن يكون الكتاب الذي يقرأ فيه هو العقد الفريد لابن عبد ربه ثم تقرر أيضا بالاتفاق أن تدرس فنون (روايات القرآن) ولكن لايكون ذلك إلزامياً بل لمن يختار

مسألة زاوية العميان

فصل الشيخ عبد الكريم رحمه الله هذه المسألة في خمس صفحات وقال انها أهم عمل إداري لمجلس الادارة. وملخصها أن زاوية العميان هي أحد أروقة الازهر خاصة بالعميان، كان للمجاورين فيها استحقاق في وقف (المرحوم عبد الرحمن بك كتخداي) الذي يديره ديوان الاوقاف وقد مضت عدة سنين والديوان لايعطيهم استحقاقهم في الوقف فوكل شيخ الزاوية أحد كبار

المحامين بارشاده في رفع قضية على الديوان في المحكمة فحكمت المحكمة على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه وأيدت الحكم محكمة الاستئناف فتوقف الديوان في الدفع فاضطر المحامي الى حمل المحكمة على التنفيذ القهري ففتح محضرها خزينة الاوقاف بالقوة القاهرة (في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٧ الموافق ربيع الاول سنة ١٣١٥) وأعطى المبلغ للمحامي فأخذه ووضعه في صندوقه ولم يعطه لشيخ الرواق الذي هو وكيله ، فكان هم مجلس الادارة حفظ المبلغ من الضياع وإيصاله الى مستحقيه بالعدل والانصاف . فكلف شيخ الزاوية أن ينذر المحامي بدفع المبلغ من قبل المحكمة ـ فلما بلغه الانذار اتفق مع بعض الاجانب على بيع حصص العميان اليه لاجل منع التنفيذ في مقابلة مبلغ معين يدفعه له ، فأنذر الاجنبي شيخ الزاوية وشيخ الازهر والمحامي طالبا دفع المبلغ له بما اشتراه به من المحامي الوكيل الشرعي عن المستحقين . وبلغ المحامي أصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الحكومة من الانكليز ان مجلس ادارة الازهر يريد أخذ مال العميان الفقراء المساكين ليرده الى ديوان الاوقاف ارضاء للخديو فعزموا على عدم تمكين الازهر من أخذ المبلغ

وأما سمو الخديو فكان قد اعتقد أن الازهر استعمل سلطته القانونية بما يعد إهانة واساءة الى ديوان الاوقاف التابع لسموه وهو صاحب الفضل والنعمة على الازهر فيما دخل فيه من النظام وبما أفاض عليه من الاموال ، فوقع مجلس الادارة في مشكلة ذات ثلاث شعب: الخديو يسيء الظن فيه بانه خارج عليه مهين لديوانه ـ والانكليز يسيئون الظن فيه بانه آلة للخديو يريد ارضاءه باموال العميان المساكين ، وهو بريء من هذا وذاك وانما هو القيام بالواجب عليه من حفظ حق العميان ان يضيع وايصاله اليهم بالعدل والانصاف

فذهب أحد أعضاء مجلس الادارة الى الاسكندرية لشرح المسألة لسمو الخديو ـ وهذا العضو هو الكاتب الشيخ عبد الكريم رحمه الله إذ كان الاستاذ الامام مسافراً بالاجازة ولو كان موجوداً بمصر لما وصلت المسألة إلى هذا الحد المشكل . فقابل الخديو وشرح له الحقيقة وان القضية رفعت على الديوان قبل تشكيل مجلس الادارة وان المجلس وجد نفسه أمام حكم نهائي لا مرد له فكان الواجب

عليه حفظ هذا الحق لاهله وهو عرضة للضياع ، ثم قابل رئيس مجلس النظار وكان عنده ناظر الخارجية فشرح لهما المسألة ، فاقتنع كل من الجانبين بعض الاقتناع،وظلت المسألة معلقة حتى عاد الاستاذ الامام من إجازته وعاد في تلك الاثناء المستشار القضائي الانكليزي وكان يجل الاستاذ الامام كل الاجلال كما تقدم في الكلام على عمله في القضاء ، فبين له حقيقة المسألة ثم بينها للعميد المسيطر على الجميع (لورد كرومر) ففوض هذا البت فيها الى المستشار،فجمعه الاستاذ الامام بشيخ الجامع الازهر وكان المحامي قد تردد عليه ليستمين به على ما يريد فقضى بأن يوزع المبلغ كله على مستحقيه في الحال وأن يضرب بإنذارات ذلك الاجنبي الذي ادعى شراءه عرض الحائط ، وألزم المحامي رده كله ، وان يكون توزيعه بمقتضى كشوف يحررها مجلس ادارة الازهر باسماء المستحقين ومقدار حصصهم ، وأن يتولى التوزيع عثمان بك مرتضي مدير الاقلام العربية في نظارة الحقانية. وكذلك كان،

ولما وصلت الدنانير الى أولئك العميان الذين كادوا يرضون بعشرها انطلقت ألسنتهم بالدعاء لمن كان سبب ذلك . . .

الحاق الاسكندرية في التعليم والنظام بالأزهر

في ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ و٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ صدرت الارادة السنية بالحاق التدريس والامتحان في ثغر الاسكندرية بالجامع الازهر،ومضمونها (ان الجناب العالي وافقت ارادته العلية أن تكون الاسكندرية ملحقة بالازهر في التدريس والعلوم والامتحان وان مجلس ادارته يضع لها القوانين والنظامات ويرتب درجات العلماء الموجودين فيها وقت صدور هذه الارادة ويحصر الاماكن التي تدرس فيها العلوم هناك وان يكون ترتيب درجات علمائها بحضور ثلاثة من مشهوريهم الأقدمين) فبلغت نظارة الداخلية الازهر هذه الارادة ، ولم يكن إلا ان سافر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى الاسكندرية وشكلا لجنة تحت رئاسة شيخ الازهر من أكابر علماء الاسكندرية ودعوا اليها الشيخ احمد باشا المبيلي هل يقبل ان يكون الجامع الانور الموقوف للتدريس من قبل جدهم الاعلى

خاضعا لهذه النظامات الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتردد في الامر اولا ثم عاد اليهما وأمضى على المحضر بانه قابل هذه التنظيمات ، وان مسجد جده تسري عليه الاحكام التي توضع لها ، ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين وجعلت عمدتها في عملها قائمة وقف الغزي الذي اشترط واقفه ان يصرف جزء من ريعه الى العلماء ، ودفتر الجامع الانور التابع لوقف أولاد الشيخ ، لانه لم يكن ليدرج في قائمة وقف الغزي مستحق على أنه من العلماء الا بعد امتحان واذن بالتدريس ممن له الولاية في ذلك، ولان دفتر الجامع الانور يقيد فيه من يؤذن له بالتدريس على ماوضعه واقفه من القواعد ، سواء كان بالامتحان أو الاختيار المصحح لصدور إذن شيخه للطالب بالتدريس فيه، فكل من اندرج في أحد هذين النوعين فقد حاز صفة العالمية في ذلك الثغر ، فله حق اطلاق هذا الاسم عليه فيه ، أما ترتيب درجاتهم (أولى وثانية وثالثة) فكانت عمدة اللجنة قد طلبت التثبت من حالة العالم في العلم والاشتغال به ومقدار عمله بالسؤال من أعضاء اللجنة الاسكندريين لانهم أعرف بأنفسهم، ودرجة الاشتغال لاتعرف إلا منهم، فلا يعول في تقدير الدرجة للعالم إلا على أقوالهم، خصوصا وانهم من المشهورين ولهم على معظم علماء الثغر المشيخة في العلوم

أمضى الشيخان في الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم عادا ومعهما محضر عملهما فاشتغل مجلس الادارة بتقرير العلماء في الاسكندرية وحصرهم في عدد مخصوص وترتيب درجاتهم العلمية ، فصدر قراره بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢١ (أواخر يونيه سنة ١٩٠٣) قاضيا بحصر عدد العلماء الاسكندريين في سبعة وأربعين عالما وان منهم أحد عشر في الدرجة الاولى وتسعة عشر في الدرجة الثانية وسبعة عشر في الدرجة الثالثة ، وتضمن هذا القرار أيضا أن لايدرج في سلك علماء الاسكندرية بعد اولئك المحصورين إلا من ينجح في امتحان التدريس على القاعدة الجديدة التي يوضع لها النظام الجديد ، وان هؤلاء العلماء المحصورين يدرسون في الاسكندرية وغيرها من أماكن التدريس في القطر المصري (عدا الجامع الازهر) وإن من أراد منهم أن يدرس في الازهر فعليه الدخول في امتحان التدريس

فيه،وان من يتقدم لهذا الامتحان من علماء الاسكندرية يقدم على غيره من كل طالبيه ، وحدد في هذا القرار مايدرسه أهل كل درجة في الاسكندرية من العلوم المتداول تدريسها فيها

ولما كان تنفيذ هذه الاحكام يتوقف على وجود شيخ للعلماء هناك وكان لاولاد الشيخ ابراهيم باشا المنزلة الرفيعة بين أولئك العلماء لما لهم من الاوقاف ولمكانتهم من الثروة وقدم بيتهم في العلم رأى مجلس الادارة أن يعهد بتنفيذ هذه الاحكام إلى أكبر أولاد الشيخ الثلاثة ، فقرر تعيين الشيخ محمود باشا شيخا لعلماء الاسكندرية وتعيين الشيخ احمد باشا وكيلا له لانه كان في حالة شيخوخة لا يتمكن معها من ضبط الاعمال ، وأرسلت مشيخة الازهر هذه القرارات إلى الشيخ ووكيله وعهدت اليهما بتنفيذها وانتظرت الجواب بأنهما سيعملان بما تضمنته هذه القرارات من الاحكام

ثم اشتغل مجلس الادارة بوضع قانون لسير التدريس والامتحان في الاسكندرية كما وضع لغيرها من الاماكن الملحقة به ، وبعد الفراغ من وضعه رأى شيخ الجامع تعيين أحد اعضاء الادارة الازهرية [1] ليذهب الى الاسكندرية ومعه هذا النظام الجديد فيتذاكر فيه مع شيخ العلماء ووكيله هناك حتى اذا كان لهما عليه ملاحظات اصلح الحال فيها قبل التصديق الانتهائي عليه ، فكان كذلك وذهب هذا العضو في شهر اغسطس او سبتمبر من سنة ١٩٠٣ واشترك مع الشيخ احمد باشا في تلاوة ذلك النظام فلم يجد من ملاحظته عليه الا ما يضمن المحافظة على كيان اوقاف اولاد الشيخ والتوقي من أن تمس بمحاسبة أو مراقبة من قبل المشيخة الازهرية ، ثم لاحظوا على قرار حصر العلماء انه ترك فيه ستة ممن يصح ادراجهم في اولئك العلماء وان ترتيب درجات العلماء يحتاج الى التعديل لان بعضهم أعطي الثالثة وهو يستحق الثانية مثلا

هذه كل ملحوظات اولاد الشيخ على النظام والقرارات وكلها امور نفسية في اشياء شخصية كما هي القاعدة عند اهل العلم الشريف الآن . فبحث معهم

(١) يغلب على ظني ان هذا العضو هو الشيخ عبد الكريم رحمه الله

مندوب المشيخة فيما طلبوه فتبين له بمراجعة دفاتر مسجدهم والتحقق من حالتهم ان اولئك الستة الذين تركوا في حصر العلماء لهم الحق حقيقة في أن يدرجوا في سلكهم فوعدهم بادراجهم بمجرد رجوعه الى مصر . وأما تغيير الدرجات لبعض اولئك المحصورين سابقاً فلم يوافقهم عليه لان التغيير في البعض بلا سبب يستلزم إجابة من يطلب تغيير درجته في المستقبل والا كان ترجيحاً بلا مرجح ، ثم عاد مندوب المشيخة الى مصر وعرض الامر على الشيخ فقدمه الى مجلس الادارة وهو اصدر قراره بجعل هؤلاء الستة من العلماء وأن يكون واحد منهم في الدرجة الثانية والخمسة في الدرجة الثالثة كما اتفق عليه المندوب مع أولاد الشيخ ابراهيم باشا فصار عدد علماء الاسكندرية الذين يسري عليهم حكم القرار السابق ثلاثة وخمسين أحد عشر درجتهم اولى وعشرون درجتهم ثانيـة واثنان وعشرون درجتهم ثالثة ، وتاريخ هذا القرار ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٢١ و٨ مارس سنة ١٩٠٤

(وههنا ذكر الكاتب ان اولاد الشيخ ابراهيم الباشا بدا لهم رفض ماقرره مجلس ادارة الازهر من جعلهم تابعين له في ادارته ونظامه وترك استقلالهم وانفرادهم بالرياسة العلمية في الاسكندرية وان المجلس جاملهم بكساوي التشريف وغيرها الى أن يئس منهم فقرر تعيين شيخ لمعهد الاسكندرية غير الشيخ محمود الباشا (ثم قال)

الشيخ محمد شاكر

ان الله تعالى قد لطف بعباده العلماء وأراد أن لا يبقي حالة الاسكندرية على ماهي عليه من الخلف وتعطيل الاعمال ، فساق الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الى مصر بالاجازة فجاء اليها وليس في نفسه إلا الاستراحة من حر السودان ومن العمل فيه أيام شدة القيظ، ولم يكن يخطر على فكر أحد من شيخ الازهر ولا أعضاء مجلس ادارته انه بمقدمه ينحل هـذا المشكل لانه في وظيفة عالية بالسودان مرتبط فيها برأي غير رأي مصر والمصريين، ولكن الحاجة تفتق الحيلة كما يقال، ولأجلها فكر فيه بعض أعضاء المجلس وجس نبضه فوجـد منه

ارتياحا للقبول فأشار عليه أن يعمل ليصل الى هذه الغاية (١) فقام بالأمر خير قيام ومهد لذلك باسترضاء الجهتين: جهة السودان لتوافق على نقله منها، وجهة مصر لترضى بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية ، وكلل سعيه فيهما بالنجاح ، فقرر مجلس الادارة في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ انتخابه لهذه الوظيفة الجليلة وأن يكتب الى نظارة الداخلية لتستصدر الامر العالي بذلك فكان ماطلبه المجلس وصدر الأمر العالي بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية في يوم ١٠ صفر سنة ١٣٢٢ و ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ وانحل ذلك المشكل العظيم

عض أولاد الشيخ باشا بعد ذلك بنان الندم فانه لم يكن ليمر على خاطرهم ماساقه الله من حل هذه العقدة وعادوا على الشيطان بالسخط وعلى أنفسهم باللائمة لقبولها وساوسه ، ولكن هذا لم يكن بالنافع فقد فات وقته وما مضى لا يعود

قام شيخ علماء الاسكندرية الجديد بعمله أحسن قيام ، لما فيه من الفطنة وشدة الذكاء ، ولعلمه بما يجب لهذا الزمان الحاضر وعضده مجلس الادارة الازهرية وشيخ الازهر أكبر التعضيد، وسهل له الطريق في استعمال فكرته ، ولم يقيده بنظام سوى نظام الازهر نفسه ونسخ له صور القوانين والقرارات التي يجري عليها العمل المستمر، وقرر له كل ماطلبه في سير الاعمال وضبط نظامها وتكليف العمال بما يطلبه منهم . فأمضى بقية سنته في ترتيب وتنظيم وفي تعويد العلماء على العمل وضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس. واستصدر أخيراً من مجلس الادارة قراراً بحصر المساجد التي يكون فيها التدريس في ثمانية مساجد ليس مسجد أولاد الشيخ ابراهيم باشا منها . والحكمة في ذلك ظاهرة جداً لانه يجب أن لا يوجد

(١) ان العضو الذي أشار عليه بذلك هو الاستاذ الامام ، ومما أشار عليه به ان يظهر السخط عليه لاستمالة سمو الخديو حتى انه رضي ان يطعن عليه بهذا القصد ، اذ كان من المعروف لدى سموه ان الشيخ محمد شاكر من حزب الشيخ محمد عبده ومن رجاله وانه هو الذي اختاره للسودان وسعى لجعله قاضي القضاة فيه . وهذا حق وان لدي أكثر مكتوباته وتقاريره المهمة التي كان يرسلها اليه الاستاذ الامام ليستنير فيها برأيه

معه من يشغله عن الجد في العمل، وأن تزول عوائق المعارضات من بين يديه، فأصدر المجلس هذا القرار المطلوب وبه استراح خاطر شيخ العلماء الجديد

والمقصد الاكبر والساعد القوي للازهر والاسكندرية هو صاحب الفضل والنعم المتوالية على الجهتين الجناب العالي الخديو، فانه قد أظهر ارتياحه واستحسانه لما بذله شيخ علماء الاسكندرية من الجهد في تغيير وجهة التعليم فيها من القديم الى الحديث وأظهر رضاءه العالي عن الازهر لتعضيد هذا الشيخ في مقاصده ونقل التعليم من حالة الهمجية الى حالة النظام، والدخول بالعلم والعلماء والطلاب في باب العلوم التي يقتضيها هذا الزمان (١)

وفي آخر السنة الدراسية الموافق تقريبا لأخريات سنة ١٩٠٤ قدم شيخ علماء الاسكندرية تقريراً الى مشيخة الجامع الازهر (نشرته جريدة المؤيد في حينه) فصل فيه اعماله في تلك المدة القصيرة وهي نحو ستة أشهر تفصيلا تضمن بيان أحوال العلماء والطلبة وما كانوا عليه وما صاروا اليه وما قرىء في تلك المدة من العلوم وكيفيات التدريس ومواعيده وأمكنته وأنواع العلوم التي قرئت هناك ومن اختارهم من العلماء لتدريس كل علم منها، وختمه بأن لابد من ايجاد نقود كافية لكي يكمل الغرض المطلوب ويتمكن من إلزام العلماء والمتعلمين بالنظام، لانه يستحيل تقدم الاعمال بغير نقود. فوقع تقريره هذا عند مجلس الادارة أحسن الوقع وتحقق ان العمل في الاسكندرية سيوصل الى ما يرجوه من نفع المتعلمين، وكلف شيخ العلماء بأن يبين حاجته من النقود ويضع لصرفها ميزانية مضبوطة فيعاونه في تحقيق أمله بطلبها من لدن الجناب الكريم، ففعل ما كلف به في أقرب زمن، وقدم منه نسخة الى الجناب العالي ثم قدم نسخة أخرى الى مشيخة الازهر، فلم يكن غير قليل من الزمن حتى وردت النسخة المرفوعة من الجناب

(١) لا شك في ان سموه كان يحب هذا النظام الذي وضعه الشيخ محمد عبده للازهر ونفذه بمساعدة سموه ولكنه سخط أخيراً على النظام تبعا للسخط على الشيخ. ولما ظن ان النظام في الاسكندرية لا فضل فيه للشيخ وان الشيخ محمد شاكر ليس من رجاله وجد المقتضي لسروره وتعضيده غير معارض بالمانع منها

المالي على الازهر مع كتاب من رئيس الديوان الخديوي مطلوب فيه نظرها بمجلس الادارة وتصديقه عليها بعد البحث وتحققه من الحاجة الى مافيها، فبحث فيها المجلس ورآها كلها موافقة للصواب فأقرها على ماوضعت وصدر قراره الرسمي بذلك في يوم ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٢ و ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وأبلغ هذا القرار في يوم صدوره الى ديوان الاوقاف ليقرر المبالغ المطلوبة في ميزانية سنة ١٩٠٥ المقبلة ، أما مقدار المبلغ الذي طلبه الشيخ محمد شاكر وأقره مجلس الادارة فهو ٤٣٧٤ جنيهاً مصريا في العام وقد أقر عليه المجلس الأعلى بديوان الاوقاف المنعقد تحت رئاسة الجناب العالي حسب العادة، وأدرج في ميزانية سنة ١٩٠٥ ، وجاء بذلك كتاب الى الازهر وهو أبلغ الخبر الى شيخ العلماء في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكلفه أن يضع لصرف هذا المبلغ قاعدة منتظمة حسبما يراه مفيداً للعلم والتعليم

وضع شيخ علماء الاسكندرية ميزانيته وجعل فيها موضعاً لاربعة من علماء الازهر ليكونوا عونا له على ادخال العلوم الحديثة التي تعلموها في الازهر بالاسكندرية ، فضلا عن تعليم العلوم الدينية المتداولة في الازهر على الطريقة التي تضمنها قانون الجامع الازهر وقرارات مجلس ادارته فيكون تعليمها مفيدا للطلاب ، وخصص قسما من المبلغ المقرر له ليصرف في جرايات للعلماء والطلاب ، وقسما منه لاسكان المجاورين ، وقسما بعنوان مرتب شهري للعلماء على اختلافهم في الدرجات ، وقسما بعنوان معونة لبعض العلماء الفقراء غير المشتغلين حق الاشتغال ، فجعل مرتب العالم الازهري من الاربعة الذين طلبهم منه ثمانية جنيهات في الشهر ، ومرتب العالم من الدرجة الاولى الاسكندرانية خمسة جنيهات ، ومرتب العالم من الدرجة الثانية منهم أربعة جنيهات ، ومرتب العالم من الدرجة الثالثة منهم ثلاثة جنيهات ، ومرتب العالم من ذوي المعونة منهم جنيهاً واحداً — وهذا عدا الجرايات — وأرسل ترتيبه هذا مع جدول ببيان الدروس التي تلقى في العام الدراسي المقبل (الذي نحن فيه الآن) وأمكنتها ومدرسيها وأوقات تدريسها هناك الى الازهر ، فبحث فيه مجلس الادارة بجلسة [illegible] فلم يصدر قراره مصدقاً عليه بتمامه في ٨ ذي القعدة سنة

[illegible] ١٩٠٥ [illegible] تاريخ الاستاذ الامام ج ١

[illegible]

١٣٢٢ و١٤ يناير ١٩٠٥ ثم انتخب له العلماء الازهريين من أفضل علمائه الذين تخرجوا منه حديثا بعد دخول العلوم الحديثة فيه، وقرر أن تبقى مرتباتهم الازهرية معهم مضمومة الى المرتب الاسكندري ، وسافروا الى الثغر الاسكندري قبيل ساحة عيد الاضحى ، وهاهم اولاء مع شيخ العلماء هناك يداً واحدة يشتغلون ليل نهار فيما يعود على العلم بالترقي والتقدم ، وفيما يعود على المتعلمين بالنجاح إن شاء الله تعالى

﴿ مرتبات أولاد العلماء وما تنفقه الحكومة على الازهر ﴾

بعد نحو شهر من تقليد السيد الببلاوي مشيخة الازهر اتفق هو وأعضاء المجلس على تنفيذ قانون المرتبات فيما يتعلق بأولاد العلماء ، ولتوضيح المقام نقدم مقدمة مختصرة نبين فيها ماهو المرتب للازهر في المالية شهريا وما يصرف منه للعلماء وما يصرف لاولاد المتوفين منهم وما يقضي به قانون المرتبات في شأن أولاد العلماء فنقول

كان المرتب الشهري للازهريين سواء كانوا علماء أو اولاد علماء قبل صدور قانون المرتبات نحو ٣١٠ جنيهات ثم انضم اليه مبلغ الألفي جنيه في السنة الذي أعطته الحكومة إلى الازهر ووزعه مجلس إدارته بعد صدور القانون فخص الشهر ١٦٦ جنيهاً وكسوراً وبضمه إلى مبلغ ٣١٠ السابق ذكره يكون مجموع مايخص الشهر ٤٧٦ جنيهاً وكسوراً (وهذا عدا نحو ٦٢٧ جنيهاً سنوية تصرف في بدل كساوي التشريف لكبار العلماء وهو لا دخل له في المرتبات الشهرية) والذي يصرف من مبلغ الـ٤٧٦ جنيها الشهري للعلماء نحو ١٤٩ جنيها في الشهر. و كان عدد أولاد العلماء الذين يأخذون هذا المبلغ ١٧٣ شخصا. فهذه جملة ماتصرفه الحكومة المصرية السنية لهذا الجامع الذي هو أكبر مدرسة دينية في البلاد الاسلامية وخلاصة ذلك ان أولاد العلماء كانوا ١٧٣ نفساً ومرتبهم الشهري ١٤٧ جنيها(١)

(١) ليت الشيخان محمد عبده وعبد الكريم يعلمان في برزخهما ان ميزانية الازهر زادت في عهد جلالة الملك فؤاد على ٣٠٠ ألف جنيه في السنة وان الاصلاح الذي كانا ينشدانه لم يتقدم ٣٠٠ خطوة ولا ٣٠ ولا ثلاثا إلا مايبذ بعض المدرسين القليلين المهديين

أما الاحكام المتعلقة بأولاد العلماء في قانون المرتبات فهي كما يأتي :

(مادة ٢٠) إذا توفي أحد العلماء عن شيء من هذه المرتبات الشهرية وكان له ابن او أكثر صرف لهم مايكفيهم من مرتب أبيهم فإن لم يكف البعض صرف لهم الكل ، والمرجع في تقدير الكفاية إلى مجلس الادارة

(مادة ٢١) إذا كان أولاد العالم المتوفى قصراً عند وفاته اشترط فيهم أن يشتغلوا بحفظ القرآن إلى أن يبلغوا خمس عشرة سنة ، فاذا بلغوها اشترط أن يشتغلوا بطلب العلم وأن يواظبوا عليه ، وان كانوا عند وفاة والدهم قد بلغوا السن المذكورة اشترط في صرف المرتب اليهم أن يكونوا مشتغلين بطلب العلم مواظبين عليه

(مادة ٢٣) إذا امتحن ابن العالم ولم ينجح على ماقرر في أصول الامتحان أو احترف بحرفة غير طلب العلم في الازهر قطع مرتبه وصرف إلى مستحقيه

(مادة ٣١) مجلس الادارة ينظر في شؤون من يأخذون الآن مرتبات عن آبائهم ، فمن ثبت له منهم أنه مشتغل بطلب العلم حق الاشتغال أبقاه على مرتبه إلى أن يؤدي الامتحان بنجاح وعند ذلك ينقل إلى درجة العلماء ويجري على حكم المادة (٢١) ومن ثبت له منهم أنه غير مشتغل او مشتغل غير مواظب أمره رئيس المجلس بالاشتغال او المواظبة فان استمر على ترك الاشتغال او ترك المواظبة أربعة أشهر في السنة متوالية او متفرقة لغير عذر كان لمجلس الادارة أن يقطع مرتبه ويصرفه لغيره من المستحقين ، فان عاد إلى الاشتغال بعد ذلك لم يكن له حق في أخذ المرتب إلا اذا امتحن وصار من العلماء وعند ذلك يأخذ مرتب عالم وتجري عليه أحكام الدرجات

(٣٢) تضمنت المواعيد التي يقضيها ابن العالم في الاشتغال بطلب العلم

وهذه الاحكام كلها كما تراها روحها اشغال ابن العالم ومعونته على طلب العلم وإلزامه بمداومته ولكن هؤلاء الابناء قد عكسوا قصد القانون وصارت النقود معونة لهم على البطالة ، وعلى إتيان مايخل بشرف العلم وأهله كما ثبت بالتجربة ، فان من لا مرتب له منهم او من له مرتب قليل يشتغل لينال مركزاً في الوجود وليكون خلفا لابيه في الازهر ، ومن له منهم مرتب يغنيه نوعا ما اكتفى به عن العمل او استعمله في غير ماوضع لاجله أو استعان به على مالا يرضي الله وكان ماسا بالعلم والعلماء والمتعلمين .

لأجل هذا كله ولتحري النفع لاولاد العلماء نظر مجلس الادارة في شأنهم فقرر في جلسته المنعقدة في ٢ المحرم سنة ١٣٢١ و ٣١ مارس سنة ١٩٠٣ ان يدعى جميع اولاد العلماء الذين يأخذون هذه المرتبات لاختبار بسيط يتبين به حال المشتغلين منهم وغير المشتغلين والمواظبين والمهملين مع مراعاة التساهل الى الحد الممكن بحيث لا يراعون النسبة بين الزمن الذي أمضوه في الطلب وبين ما حصلوه من العلوم، لان الغرض انما هو الاشتغال. وان يكون اختبارهم أمام لجنة تحت رئاسة أحد أعضاء مجلس الادارة، وان تقدم اللجنة جدولا باسماء من يختبرون منهم وملاحظاتها على كل واحد مبينا فيه حاله بغاية الضبط ، وان يعلمهم قلم الكتاب إعلانا صحيحا يصل الى كل واحد منهم بنفسه ويجيب عنه كتابة إما بالحضور أو ابداء المعذرة أو عدم الانقياد . كل هذا بعد ان ثبت ان رئيس مجلس الادارة السابق كان أعلمهم بنص المادتين (٣١ و ٣٢ من القانون) ونبه عليهم بدوام الاشتغال والمواظبة

اشتغل قلم الكتاب باعلان هذا العدد (١٧٣) وبعضهم مقيم بمصر والبعض مقيم بالبنادر أو الارياف، وقد كانت العادة من قبل ان تصرف للمعينين خارج مدينة القاهرة رواتبهم اذا أديت فيهم شهادة من القاضي أو نحوه بانه مواظب على الاشتغال، وكثيرا ما جاءت هذه الشهادات عن اناس تركوا القرآن أو العلم واشتغلوا بالمدارس أو بحرفة اخرى أو لم يشتغلوا بالمرة واستمروا يأخذون مرتب الازهر وهم على تلك الحال

وصلت الاعلانات اليهم وحدد فيها لكل فريق منهم يوم مخصوص يحضر فيه أمام اللجنة بادارة الازهر، وعلى اثر ذلك وصل الى الازهر بلاغات من ثلاثة عشر منهم يقول البعض انه تنازل عن مرتبه في الازهر والبعض أنهم اشتغلوا بحرفة غير طلب العلم، والباقون أنهم لا يقبلون الاختبار مهما كان سهلا، والادارة وشأنها في المرتب، فان شاءت ابقته وان شاءت قطعته ولا معارضة لنا فيما تجريه. فقرر المجلس بالطبع قطع المرتبات عن هؤلاء الذين أظهروا الاستغناء عنها ومالوا الى عصيان أوامر المشيخة (مقدارها ١٣٢ جنيها وكسورا). ووزعها على من لا مرتب له من العلماء الذين كانوا يشتغلون بلا مرتب وهم أولى وأحق من أولئك الذين كانوا يأخذونها وهم لاهون ناعمون بها ومتمتعون آمنون . ثم تتابع حضور معظم

الباقين الى الاجنة فكانت تختبر من يقول انه يتلقى السعدوهي تعلم انه كاذب في اعراب مثال خفيف بحله من يتلقى كتاب (الازهرية) فاقرت قوما وهم على هذا النحو من التحصيل لعلمهم يخجلون فيعملون: ووجدت بين الباقين من هو مشتغل حق الاشتغال فأثنت عليه بما يزيد في نشاطه، ووجدت من هو مشتغل بحفظ القرآن لان سنه لم يبلغ الخامسة عشرة. ومن هو متقدم لامتحان التدريس فلم تختبره ووجدت من بينهم من لا يكاد يقرأ ولا يكتب بعد أن مضى عليه زمان طويل يختلف بين ست عشرة سنة وخمس وثلاثين سنة وهو يأخذ هذا المرتب على انه من المشتغلين

أذكر من هؤلاء واحداً قدم من (جرجا) بعد كثرة الاعتذار وطول التغيب وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة يأخذ المرتب بما يتوالى على الازهر من تلك الشهادات القاطعة بانه مشتغل بطلب العلم في جرجا حق الاشتغال، وقد اتفق كل القضاة والمفتين الذين عينوا في جرجا في ذلك الزمن على الشهادة له بانه طالب علم مشتغل بطلبه مواظب عليه. ولم يخطر ببال أحدهم أن يستدعيه مرة ليعلم من حاله مايصحح الشهادة له بالاشتغال، وكأنهم فهموا ان أخذه لهذا المرتب خير ولا يجوز لهم أن يمنعوا الخير. واني لاعتقد انه لو التفت أحدهم إلى ذلك واستدعاه مرة وسأله عن أسهل شيء لانتبه هذا الطالب من غفلته وعمل بعض العمل ليحلل أخذ هذا المرتب، ولكنه جزم بأن لا رقيب عليه فاهمل نفسه غاية الاهمال، واشتغل بدل العلم بسفاسف الاعمال . ولو فعل حضرات القضاة والمفتين ذلك لخرجوا من عهدة الشهادة بما لا يعلمون(١)

(١) يقول محمد رشيد : الم يقرأ او لم يسمع هؤلاء القضاة والمفتون قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيراً فالله اولى بهما) الآية؟ بلى كلهم قرأها وسمعها مراراً لاتحصى وحفظوا لفظها ايضا ولكن لم يخطر ببال احد منهم انه مخاطب من ربه بالمبالغة في القيام بالقسط والشهادة بالحق مهما تكن حال المشهود عليه، لانهم لم يتعلموا في الازهر ولا في غيره وجوب تدبر القرآن والاهتداء به ، ولما قام الشيخ محمد عبده يطالبهم بهذا ويحاول اصلاح فسادهم وابطال تزويرهم حتى في طلب العلم عادوه وطعنوا في دينه كما سيأتي

وبالاختصار قد حضر هذا الشخص إلى ادارة الأزهر وجلس لامتحانه بعض من يشفقون عليه من أهل جلدته بل سكان بلدته بل ذوي قرابته وهم أخوف الناس عليه فلم يسعهم إلا الاقرار بانه لم يشتغل زمنا ما بأي علم من العلوم

ولما انتهى المجلس وعلم هو منهم او أعلموه بما سيؤول اليه حاله طلب من شيخ الجامع أن يعاد امتحانه لانه تهيب ذلك المجلس، وهو عذر لم يكن مقبولا لان الامتحان أمام شيخ الجامع أهيب منه امام عضو من الادارة، خصوصا وقد كان في الاولى قوي الظهر بمن حضروه، ولكن الشيخ قبل طلبه قطعا للمعاذير فلم يلبث أن خرج من المجلس الثاني وهو جازم بأنه غير مغبون وبانه هو المقصر في نفسه وعاد على من كانوا يشهدون له باللوم والتعنيف ورجع إلى بلده يائسا من بقاء المرتب بيده

استخلصت اللجنة أولئك المختبرين فظهر أنهم منقسمون أربعة أقسام: الاول يبقى مرتبه، والثاني يكلف تقديم طلب الامتحان لنيل شهادة العالمية ويبقى مرتبه إلى أن يخرج من الامتحان فان نجح نقل إلى مرتب العلماء وان سقط قطع مرتبه بمقتضى القانون، والثالث أمر بمداومة الاشتغال والمواظبة، وأعلن بانه مراقب في عمله، فاما أن يجد ويجتهد وإما أن يقطع مرتبه، والرابع وهو أمثال ذلك الجرجاوي يقطع مرتبه من الآن

وقد استغرق هذا العمل من اول ابريل سنة ١٩٠٣ إلى ١٦ يوليه سنة ١٩٠٤ أي خمسة عشر شهراً ونصف شهر، وفي ١٦ يوليه سنة ١٩٠٤ صدر قرار المجلس بقطع مرتب القسم الرابع وعددهم ثلاثون وهم الذين تبين للمجلس انهم لايصلحون لشيء مطلقا، وانه يحرم أخذهم المرتب المشروط بالاشتغال والمواظبة. وتقرر أن يكون القطع من اول أغسطس سنة ١٩٠٤، أما مقدار ماقطع من الثلاثين فهو ٢١ جنيها وكسوراً في الشهر. ثم اتبع المجلس هذا القرار بقرار آخر في ٨ ديسمبر سنة ٩٠٤ بقطع مرتب ثمانية من أضراب اولئك الثلاثين كان ينبههم إلى الاشتغال وتحقق انهم لم يشتغلوا ولن يشتغلوا، ومقدار مرتبهم تسعة جنيهات وكسور، فيكون جملة من قطعوا ٥١ نفسا ١٣ تنازلوا و٣٨ لم يفلحوا وجملة مرتباتهم ٤٤ جنيها وكسوراً فالباقي من أولاد العلماء الذين يأخذون المرتب من أول يناير

سنة ١٩٠٥ – ١٢٢ ومرتبهم الباقي لهم مائة جنيه وجنيهان ويضم المقطوع من أولاد العلماء إلى مرتب العلماء يصير ما يأخذونه ٣٧٣ جنيها في الشهر وكسور الجنيه ، وعلى هذا تم الامر في مرتب أولاد العلماء . وهو عمل قد طابق القانون والحق من كل الوجوه

سعي الاستاذ الامام لاعانة أولاد العلماء بعد قطع رواتبهم

في زمن الشيخ حسونه قطع مجلس الادارة مرتب بعض أولاد العلماء وهم نحو ثلاثة عشر على ما أظن لم يتحقق فيهم الاشتغال المشروط في القانون، ولكن كان معظمهم من الاغنياء الذين لا يؤثر فيهم قطع هذه المرتبات، وأما هؤلاء فكثير منهم ممن كانوا قد استغنوا بهذا المرتب القليل وقعدوا عن العمل بأقل من الكفاف فصاروا كلا على الازهر والازهريين . ولما رأى بعض أعضاء المجلس – وهو من يعرفه الناس بالسعي الى الخير والعمل للمصلحة العامة – ان في الواحد والخمسين المقطوعين بمقتضى القانون من قعد به الدهر عن السعي، وتعود أن يأكل بلا كد ولا تعب ولا عمل، حتى شاخ وهرم، وصار لا يقدر على التحصيل من جديد وله زوجة وأولاد وقد أخذه القانون بالعدل المر فأخرجه من عداد المستحقين – لما رأى ذلك العضو هذا استعطف بعض أهل الخير والمروءة والثروة فأخذ منهم جانبا من النقود وأودعها في خزينة الازهر لتنفق على أولئك المعوزين باعتبار ما كان مرتبا لهم من قبل، فمن جهة قد روعي القانون وتنفيذه ، ومن جهة لم يفت أولئك المحتاجين شيء من حاجاتهم التي كانوا يقضونها بمثل هذا المرتب الزهيد، وسعى لبعضهم سعيه المحمود فقيد في بعض الاوقاف الخيرية ورتب له مبلغ مستديم، ولا يزال يجمع لهم النقود ويرسلها الي الازهر ليصرف عليهم منها الى الآن ، ولقد فعل هذا حتى بعد استقالته من عضوية مجلس الادارة بل بعد مفارقته الازهر فبعث الى خزينة الازهر بمبلغ كبير يكفي أولئك المستحقين سنتين ان شاء الله. وقد سعى لترتيب مبلغ غير قليل في وقف خيري واسع لا علاقة له بالاوقاف العمومية لبعض هؤلاء المساكين، الذين أفسدهم إهمال المشايخ السابقين، ولو كان ممن يعملون كما يعمل الناس لغرض مخصوص لما اهتم بعد بهذا الجمع، ولكنه رجل المصلحة، ورجل الخدمة العامة، ورجل الشفقة على البائسين في أي مكان وجد وفي أي زمان. فجزاه الله أحسن الجزاء

حالة الأزهر الصحية وتعيين طبيب له

وبقى لنا ان نذكر شيئين مهمين : تعيين طبيب للازهر واستدرار المكارم الخديوية لعلماء دمياط والجامعين الاحمدي والدسوقي. فأما تعيين الطبيب فقد كان في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ أي قبل فصل الشيخ حسونة بنحو سبعة أشهر وعشرين يوما ، والحامل على طلب تعيينه والفائدة منه يتبينان بذكر ما كان عليه الجامع والطلبة في الامور الصحية قبل مجيء الحكيم وما صار اليه بعده ، ولا نذكر منهما غير القليل ، فهو يكفي عن التطويل

كانت أمكنة الجامع الازهر من صحنه الى مقاصيره الى أروقته الى مغاطسه وميضآته وكنفه مجتمع أوساخ، ومهب روائح عفنة، ومنبع وخامة، وبؤرة أمراض معدية ، فاذا دخل الداخل الى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكنس من مواضع النوم أكواما والى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج وما تحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفض ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة

ثم اذا ذهب الى جهة الميضأة وجد حوالها أمثال ذلك ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات(١) واذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الادران، وشم منها مالا تحمل الانوف والابدان ،

---

(١) بل كان بعضهم يستنجي بمائها من جوانبها وقد اخبرني الاستاذ الامام انه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الازهر بل كان يأخذ الماء من مصبه فيها المسمى بالسلسول على قلته ويتوضأ منه . وكانت ميضأة الجامع الاحمدى اقذر من ميضأة الازهر ولا سيما ايام الموالد الثلاثة فقد كان النساء يغسلن اولادهن من المذرة فيها حتى ترى سابحة وراسبة فيها ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون ابطال الميضأة المكشوفة واستبدال الانابيب بها (الحنفيات) من سيئات الاصلاح الذى ذهب ببركات الازهر

واذا وصل الى غرف السكنى في الاروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه فيمنعه الكسل أن يمضي بها الى البالوعات، وذاك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط وداخل المسكن، وذاك يغسل آنيته ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت، وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الاسبوع والاسبوعين بلا كنس فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات — هذا الى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة، ونومهم مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه، ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وفراشهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود.

واذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحول الاساطين وفي الاماكن التي يسمونها بالحارات وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب قائم بعضها فوق بعض صفوفا بلا نظام، تجري بينها لقذارتها الفيران، حتى يخالها الرائي لقدم عهدها من آثار الاقدمين، واذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المش وعفن الخبز فلا يملك رائيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا الى حيث ينتهي به الفرار

هذا حال المكان، وأما حال السكان فقد كانوا لا يخلصون من الامراض المعدية وأهمها الجرب والرمد الصديدي. وفيهم المسلول والمجذوم والمصاب بالزهري وإن كان هؤلاء قليلين، وأهم ما كانوا يستعملونه للجرب هو كبريت العامود، ولا تسل عن الدرس اذا كان بين طلبته جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران، فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون، ويالله والله أكبر اذا كان الفصل فصل القيظ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة وتسري العدوى الى معظم المجاورين، ورحم الله من لا أنف له أو من كان فاقد حاسة الشم فإنه هو السعيد فيهم

وقد ذاق كل منا ذلك الألم ونحن في الطلب، ولكن كان يخففه عنا ما يلقى علينا من المتقدمين منا والسابقين في طلب العلم من أن الجرب علامة الفتوح وان الذي لا يلحقه الجرب من المجاورين يعد بينهم مترفها ولا يؤمل فيه النجاح.

ولقد فشت الامراض الوبائية في الازهر كثيراً ولم يشعر بها أحد وبقيت في المجاورين تحصدهم، ولا يوجد من يخبر عنهم لجهل الحكام بحالهم، ولجهل أهل المحل بما يلزم للصحة من الاحتياط

وإن من يكون مسكنه ومبيته ومقيله ومحل عمله ودرسه ومعيشته على ما قدمناه فلا بد أن تلزمه المعديات من الامراض ، اللهم إلا من كان منهم قوي البنية بأصل الخلقة وكان بدنه غير قابل للتأثر بالعدوى ، وهؤلاء في وسط مثل هذا الجو قليلون .

هذا قليل من كثير من حالهم الماضية ، أما وقد جاءهم الطبيب فقد خفت جداً وطأة هذه الامراض لانقطاع معظم أسبابها وزوال بعضها بالمرة ، فالميضأة استبدلت بحنفيات(١) والكنس مستديم ليل نهار، والمغاطس أبدلت بحمامات تقريبا، والغرف قد اتسعت على السكان بحيث لا يسكن في الغرفة الواحدة إلا عدد يراه الطبيب غير مزدحم فيها ، ووجدت المراقبة على الغسيل ، وأعدت مطابخ في الاروقة بعيدة عن غرف السكن ، وأقيمت تلك الصهاريج وأدخلت المياه النظيفة من مياه الشركة ، واستعملت المرشحات ، وتعود الطلبة على التداوي من الامراض ، فقد أعدت للطبيب بينهم غرفة في رواق العباسي يجلس فيها وقتا معينا من النهار فيفد عليه فيها مرضى الطلبة فيبحث في أمراضهم ويعطيهم الدواء من صيدلية (أجزخانة) الازهر التي ينفق عليها ديوان الاوقاف ، ويصف لهم كيفية استعماله ، ولا يتكلفون في العلاج نقودا . وإذا كان بعضهم في حال لا تمكنه من المجيء الى موضع الطبيب ذهب هو اليه بنفسه في محل سكنه داخل الازهر أو خارجه

وقد أعقب هذا ان النظافة في الجسم والمكان والثوب والاكل والشرب قد وجدت على الجملة في غالب المجاورين بنصائح الطبيب وهي مناط الصحة كما هو معروف ،

ثم ان النور الذي كان يمرض العيون قد ذهب بالمرة واستعيض بأنوار الغاز ، وهي تستعمل الآن في المطالعة والتدريس الليلي ولونها أبيض وضوءها عظيم ، وأما النور الذي كان يستعمل قبل ذلك في المطالعة فكان على سرج الزيت توقد بجانب العمد ولونها أحمر كدر ودخانها يعمي السليم ، وإذا رأى الطبيب بعض المصابين بالزهري أو السل أو الجذام كتب إلى المشيخة باعطائه رخصة طويلة جداً بحيث ينقضي الاجل قبل انقضائها ، ولا ترى المشيخة إلا فاعلة ما يشير به ، وفي هذا من شدة الاحتياط ما لا يخفى وهي الدواء الحقيقي لمثل هذه الامراض

(١) الصواب أن يقال استبدلت بها الانابيب المعروفة بالحنفيات

هذه جزئيات من حال الازهر بعد وجود الطبيب يستدل منها على الكليات والفضل في ابتكار هذه الفكرة ـ فكرة إيجاد الطبيب ـ لمجلس الادارة، والفضل كل الفضل لمن ساعد على تحقيقها واستحسنها وأمدها بالمال وهو الجناب العالي حفظه الله، فانه لما عرضت عليه هذه الفكرة فرح بها وأيدها ، وأمر بأن ينتخب للازهر طبيب مسلم عارف بأحوال هذه البلاد وأمراضها ، فانتخبه المجلس وكتبت عنه المشيخة إلى الاوقاف وهو عرض الامر على وليه ، فصدر الامر على الفور بتعيين الطبيب وما يلزم من الادوية ، وورد مكتوب الديوان بذلك إلى الازهر بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٨ نمرة ٧٤ ولم يكن إلا يوم حتى جاء الطبيب وأخذ في عمله بغاية الجهد والاجتهاد ، وهو إلى الآن يعمل بكل نشاط

ولقد زاد المجلس في هذا النوع ترقياً فطلب في سنة ٤ ١٩ بناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء يقيمون فيه مدة العلاج ، فارتاح الجناب العالي إلى هذا الطلب وأمر بانتخاب قطعة من أرض الاوقاف قريبة من الازهر يبنى عليها هذا المستشفى ، فكان كذلك فشرع الديوان في بنائه على الارض التي في آخر السكة الجديدة مما يلي شارع الدراسة وهي أحسن موقع صحي يبنى عليه مثل هذا المستشفى

(وهنا عقد الكاتب فصلا لبيان كل ما كان من إعانة ديوان الاوقاف للأزهر وهي حقيرة جداً بالنسبة الى ميزانيته في هذا العهد . ثم قال)

هذه الاعمال الماضية كلها التي شرحناها من أول هذه الرسالة إلى هذه النقطه هي الاعمال المستديمة التي قام بها مجلس الادارة من عهد تشكيله ، وقاسى في وضعها وفي تنفيذ معظمها أكبر الاهوال على ما تبين مما ذكرناه ، وتضاف اليها الاعمال الجزئية اليومية من ترتيب المرتبات وتوزيع كساوي التشريف والترقي فيهما وما كان يتحراه في ذلك من وجوه المصلحة البعيدة عن الغرض ، فاننا لم نعهد عليه انه أعطى أو منع الا لما يراه نافعاً في التعليم . . .

(ثم عقد الفصل الآتي في محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه)

محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه

(كان) من الاعمال اليومية المحافظة على كيان الازهر وشرف الازهريين ، ومكافحة كل جهة من جهات الحكومة وديوان الاوقاف إذا جاء منها ما يمس حقا من حقوق الازهر وأهليه ، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى

(فمنها) المحافظة على حقوق الازهر وطلبته في أمور القرعة العسكرية إذ كثيراً ما كانت (نظارة) الحربية تعامل الطالب خطأ بما تراه مجالس القرعة في العاصمة وبلاد الارياف ولا يساعد عليه القانون ، فتتكرر المكاتبات بين الازهر والحربية متضمنة للحجج والبراهين ويذهب ذلك لعضو المعروف إلى النظارة وينتهي الامر برد المظلمة وتقرير قاعدة لمعاملة الطلبة في المستقبل ، فينتفع بها العموم

(ومنها) انه إذا وقع عالم أو طالب فيما يوجب المحاكمة ناضل الازهر عنه بوجه الحق كما حصل في حادثة من شهدوا من العلماء لطالب في بلبيس وذلك ان هذا الطالب انتحل لنفسه صفه العالمية وعقد عقد زواج بلا حضور المأذون خلافا للائحة ، ولما وقع بين يدي النيابة استشهد كثيراً من علماء الازهر على ورقة ليقدمها إلى النيابة بأنه عالم شهير حتى يخرج من التبعة بمقتضى اللائحة ، فقدمها إلى النيابة فاشتبهت فيها وأرسلتها إلى الازهر وطلبت منه أن يرسل اليها كل من وقعوا عليها لسؤالهم عما شهدوا به ، والتدقيق في البحث معهم فيه . فرأى الازهر أن لا يرسلهم دفعاً للاهانة عنهم ، واستحضر أولئك الشاهدين من العلماء فقرروا جميعا انهم لم يعلموا بما شهدوا عليه ، وانهم إنما ختموا على تلك الورقة لان كاتبها أفهمهم بانه يريد التوظف في مسجد ببلده وانه يليق لتلك الوظيفة . ثم أرسلت المشيخة نتيجة التحقيق إلى النيابة في الزقازيق وبها دين المتهم . ثم نشرت المشيخة إلى عموم العلماء منشوراً تحذرهم فيه ان يشهدوا بما لا يعلمون . ونظائر هذه كثيرة الوقوع

(ومنها) مقاومة ديوان الاوقاف في استئثاره على الازهر ومن فيه خصوصا في مسائل التوظيف والامامة ومستخدمي الجامع وما ألحق به . والمشاكل بين

الازهر والديوان في هذا الباب عديدة وأقربها مسألة الاسكندريه الاخيرة ومسألة المنصورة ولا نطيل فيهما الكلام .

ومما كان بين الازهر والاوقاف مسائل من يموت من العلماء وله مرتب في الديوان رتب له لانه من العلماء فان المادة (٢٥) من قانون المرتبات تقضى بانه اذا انحل عن أحد العلماء شيء من هذا القبيل لايعود الى الديوان ولكن يوزعه مجلس الادارة على علماء الازهر في منفعة التعليم وقد مات في زمن الشيخ حسونه بعض العلماء ممن لهم هذا المرتب وكذلك في زمن الشيخ سليم وفي زمن السيد الببلاوي وكلما قرر الازهر توزيع مرتب واحد منهم على العلماء وأرسل قراره الى الديوان ليأمر بالصرف بموجبه قامت قيامة أهله كأنهم يصرفونه من خزائنهم ويضطر الازهر الى كثرة الاخذ والرد ، والى تردد بعض أعضائه على الديوان حتى ينتهى الامر باجابة الازهر الى ما أراده من المحافظة على القانون (١)

وقد كان من الواجب على الديوان ان لا ينازع ان كان لا بد من المنازعة الا في المرة الأولى ثم يجعل ما انتهى عليه الحال فيها قاعدة للعمل في المستقبل ، ولكن هكذا كان يقع النزع في كل مرة بخصوصها .

إني لأتذكر ان مشيخة الازهر كانت كتبت الى الديوان في اواخر عهد السيد الببلاوي بما مضمونه (انناعلمنا بان مولانا الجناب العالي قد تفضل على بعض علماء الازهر في هذا الزمن الاخير فاحسن عليهم برواتب مختلفة من جنيهين الى عشرة جنيهات في الشهر وصدرت اوامره العلية بذلك ، والازهر يهمه ان يعرف اسماء من رتبت لهم هذه المرتبات ومقدار ما رتب لكل منهم ليقيدها في دفتره وليقبضها مباشر الازهر مع المرتبات الاخرى ويسلمها الى أربابها كما هو متبع في سواها) فحفظ الديوان هذه الكتابة عنده زمنا الى ان جاء هذا التغيير الحديث في مشيخة الازهر وفي مجلس ادارته فكتب الى الازهر جوابا عن تلك الكتابة مضمونه « قد علمت كتابة الازهر المتضمنة طلب اعلامه بمن رتبت لهم مرتبات

(١) ولولا هذا النص وهو الاشتراط الابتدائي كما هو معلوم لم يتجرأ الازهر على معارضة ديوان الاوقاف ولا مطالبته ، ولما كان يستفيد من ذلك كله ما يريد

حديثة من علماء الازهر ومقدار ما رتب لكل منهم ، وقد تحقق الديوان انه الازهر يريد ادخال هذه المرتبات الجديدة تحت حكم المادة (٢٥) من القانون ولذلك استعلم من المعية السنية عنها فأجابت بان هذه المرتبات لهؤلاء العلماء هي شخصية وعلى ذلك فهي لا تدخل تحت قانون المرتبات الازهري » وهو جواب من الاوقاف غير مقنع كما تراه لا يقتنع به الا من يريد السكوت

(ومنها) تعويد الطلاب والعلماء المواظبة في العمل ، والمحافظة على مواعيد الدراسة الرسمية ، وتعليم الطلاب انه لا يتقدم أحدهم في الجرايات الا بالجد . فشرعت لهم نظامات الانتساب والانتظار ، وحددت لهم فيها المواعيد ، وسنت لهم الامتحانات ليتقدم أهل الاعمال على أهل البطالات فسادت هذه الروح بين الطلبة خصوصا طلبة الحنفية المقيدة أسماؤهم في الرواق وفي الدفتر ، ومستحقي وقف المرحوم سليم باشا اتوزبير الشهير من الشافعية والمالكية والحنفية ، وكل هؤلاء تحت نظر مفتي الديار المصرية (١) بمقتضي شروط الواقفين أو قرارات المشايخ السابقين ، فتفهموا ان الاستحقاق لا يكون الا بالاشتغال ، وان الاشتغال لا يتبين الا بالاختبار ، فصاروا يتقدمون اليه ، ويتهافتون عليه

(ومنها) فصل ما يقع من المشاكل كل يوم بين الطلبة وبين مشايخ الاورقة والحارات بتحقيق ما يشكو منه الطالب أو الشيخ وتقرير ما يقطع الشكوى وما يحسم النزاع واكثر ما يكون وقوع هذا في رواق الصعايدة والشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة ، واما غيرها فوقوع النزاع فيها قليل

(ومنها) المراقبة الشديدة على سفر الطلاب والعلماء في غير المواعيد المقررة حتى صار من البديهي عندهم ان السفر لا يكون الا بعد الاستئذان من الجهة المختصة باصدار الاذن به وصدور أمرها كتابة الى مريدي الاسفار وشدة الملاحظة والمراقبة على أمر النظافة في الجامع وأروقته وفرشه وخزائنه وكل هذا وغيره مشاهد معلوم

---

(١) أي وهو الاستاذ الامام المنفذ للنظام فيهم ومن أجدر بتنفيذ النظام من واضعه لقوة شعوره بالحاجة اليه

تمهيد لبيان الشغب قبل الانقلاب

لا يشك عاقل متدين في ان هذه الاعمال كلها كليها وجزئيها مما يرضاه الدين الحنيف، ويأمر به الشرع القويم، ويقبله العقل السليم، وليس فيها مايقلق طالبا أو عالما، ولا مايوجب شغبا أو لغبا، ولا ما يولد شقاقا أو خلافا، ولا مايقتضي زعزعة في العقيدة أو فسادا في الاخلاق، ولا مايوجب نزوعا الى الثورة، أوشغلا عن العمل النافع، ولا مايستدعي ترك علوم الدين واهمال تعليمها، ولا ما يخرج بهذا المكان عن كونه مدرسة دينية محضة، تدرس فيه العلوم الدينية المحضة، ولا ما يجلب على هذه المدرسة عارا في بلد من البلدان، ولا مايدعو الى الاضطراب والهياج، ولا ما يخالف نظام الهدوء والسكينة والاطمئنان، ومن ادعى شيئا من هذا فعليه ان يميز بين الدين وعدم الدين، فان لم يستطعه وأراد محو ماوضع وان كان هو النافع للدين، واحداث مايغايره وان كان هو الضار بالدين، فما عليه الا أن يعمل ليستصدر امرا عاليا بالغاء كل ما كان بناء على أنه مخالف للدين، وارجاع الازهر الى ما كان عليه من قبل، وهذا أمر غير ميسور لان الجناب العالي أيده الله قد تحقق من نفع هذه الاعمال وموافقتها للدين، وأنها مفيدة للعلم والمتعلمين، موطدة لاركان علوم الدين، لانه كما سبق قد استحسنها جميعها، باستحسان كل واحدة منها عند صدورها، بل ان جنابه العالي هو المبتكر للكثير منها، وأهمه تشكيل مجلس الادارة. وصدور الاوامر بما وضعه (المجلس) من القوانين، وهو المؤيد لباقيها المساعد على ايجادها بما أمدها به من المعونة بأموال الاوقاف الخيرية، وهو أفضل ماتنفق فيه. ولا يرضى جنابه العالي وهو الامام، بان تحل الهمجية محل النظام، ولا تسمح نفسه العلية أن يحكم بأن ما أمر به لاصلاح الدين مخالف للدين. وصاحب الغرض وان كان يقتدر على تصوير الخير بصورة الشر، وعلى تمثيل الحق بالباطل، والنافع بالعاطل، وتشويه المليح، وتزيين القبيح. الا انه لا يلبث أن يظهر مقصده فيقع في شر اعماله وان لابيت ربا يحميه (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون).

ندع هذا كله ليحكم فيه من يطلع عليه ونرجع بالسيد البيلاوي الى ما بعد

تسعة أشهر من تعيينه سار فيها مع أعضاء مجلس الادارة بغاية الوئام والوفاق كما قد مناه واتخذ العمل الصالح إمامه وجعل مقصده خدمة العلم والعلماء والطلاب

[ثم ختم الكاتب كتابه بعد هذه المقدمة بذكر الشغب الذي كان السبب المباشر لاستقالة السيد الببلاوي من مشيخة الازهر ، والمفتي الشيخ محمد عبده والشيخ عبدالكريم سلمان من مجلس إدارته فننشره ونقفي عليه ببسط الحقائق التي لم يكن يستطيع هو التصريح بها – قال]

الشغب الذى انتهى باستقالة الببلاوى

(والعضوين العاملين بالمجلس)

بعد مضي تسعة أشهر من تعيين السيد علي الببلاوي – والناس في هدو وسكون ، وجميع المدرسين بلا استثناء في وفاق على طاعة رئيسهم ، والطلاب قد وضعوا بين أيديهم أملا يقصدونه بعملهم – سمع الناس فجأة بضجة بين بعض المدرسين وهياج الى الشكوى من أمور كلها من مقتضى الامر العالي الصادر بنظام الازهر وما عدا ذلك مما سمع ليس له حقيقة بالمرة ، ووجد بعض الزعانف من بينهم يدعون الناس الى الختم على عرائض الشكوى ، وموضع تلك العرائض التي يوفد الناس للختم عليها منزل شيخ كان معروفا من قبل بالبعد عن الناس والابتعاد عن أبواب الامراء ، وكان يظهر من التعفف والتقشف ما يمثل به سيرة الصالحين ولم يكن يطلب من حظوظ الدنيا الا أن يكون شيخ القاري بمصر (١) يأخذ جراياتها ويتسلط على قرائها الا انه من عدة سنوات نصح بعض المتزلفين للجناب العالي الخديوي أن ينشيء في معيته درسا للتفسير في شهر رمضان على نحو ما يحصل من سلاطين آل عثمان فأمر الجناب العالي شيخ الازهر الشيخ سليم البشري بانتخاب اثنين من العلماء لذلك فانتخب ذلك الشيخ والاستاذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الحالي

(١) في مصر طائفة تعيش بقراءة القرآن للموتى في القبور وفي غير القبور ولها رئيس يسمي شيخ القاري .

على ان من نحن بصدده يقرأ كل يوم من رمضان في سراي القبة ، وأما الآخر وهو شيخ الازهر الحالي فانه يقرأ كل يوم جمعة منه فقط في سراي عابدين

من ذلك العهد خلع الشيخ القصير ثوب التقشف الطويل ، وارتقى على سنه وشيبته إلى درجة من حب الزلفى أقسم فيها بالله: إن أفندينا العباس ولي من أولياء الله. وذلك في حضرة أحد مشايخ الازهر السابقين، ثم ساق له بعض الكرامات، وحكى عنه ماشاهد من خوارق العادات (١) . ثم ان الشيخ سليما استعمله في السعي لابطال مكافأة طلاب الازهر التي سبق الكلام عنها، ونحو ذلك من مقاصده التي مر عليك خبرها . أصبح هذا الشيخ وسيلة من الوسائل يتوسل بها من شاء إلى ماشاء. وهو الذي أرسل بعض من يجتمع عليه يدعو بعض المشايخ لختم العرائض بالشكوى من السيد علي البيلاوي ومجلس إدارة الازهر، فأخذوا يوفدون الناس إلى منزله وهو ومن معه يقولون لمن يحضر : إن هذه عرائض بطلب زيادة مرتبات وعد أفندينا بمنحها للمدرسين ، ومن طلب قراءتها ليعرف ما فيها اضطروا أن يقولوا له ان هـذه الشكوى على رغبة أفندينا ومن ختم نال المكافأة ومن لم يختم صار مغضوبا عليه، وهو يصدق لان الشيخ من الحاشية

بحث الباحثون عن السبب في هذه الضوضاء وقيام الشيخ ومن يسمع قوله للشكوى وقد كان من الهدوء والسكينة بحيث يضرب به المثل ، والذين هاجوا معه كانوا من المنتسبين لشيخ الجامع ولاعضاء مجلس الادارة وممن سبق احسان هؤلاء اليهم ، فوجدوا أن ذلك كله كان عقب قرار صدر من مجلس الاوقاف

(١) وهو ان سموه كان بالاسكندرية فكلم الحاشية في سراي القبة : ان الشيخ يحضر لقراءة الدرس فلاتدعوه يذهب حتى يفطر، فعلم سموه ان الشيخ سيحضر وهو غائب وهذا من المكاشفة وعلم الغيب الظاهر، وما كان يقول هذا الذين يجهلون أن مجيئه الى السراي كان معروفا للخديو لاجل الدرس بل يقوله لمن يعلم ذلك ؟ وما كان الخديو مكاشفاً وانما كان كاشفاً لدجل الشيخ وتلبيسه اذ ادعى انه يجمع له الجن ويريه بعض أعمالهم فأدرك الخديو حيلته في ذلك وأظهرها له

الاعلى في مسألة استبدال أرض للاوقاف في الجيزة وقد اشتهر أمرها ولا يزاله مشتهراً إلى اليوم . وقال قائلون ان الغرض من هذا كله الانتقام من المفتي لان هذا القرار صدر بموافقته. وسواء كان السبب معقولا أو غير معقول فهـذا هو الذي كان يقال ولا يزال يقال

مع السعي والتحريض والترغيب والترهيب لم يوافق الشيخ على الختم أكثر من خمسين مدرسا (من عدد أربعمائة ونيف) قام هؤلاء النفر وحملوا عرائضهم وقدموها إلى الجناب العالي فدرجت في الادراج، وظهر بعد ذلك ظهور الشمس في ضحاها ان مبعث الحركة كان السراي العامرة، لازالت ببركة الميل الى الوفاق عامرة

وحدث في أثناء ذلك مسألة الزوجية المشؤومة على البلاد والعباد، فظن قوم برجال الازهر التقصير في معونتهم أو انهم يعاونون خصومهم، ولا والله ما أصابوا. فما رجال الازهر من أولئكم الطرفين . فمن ثم كان لهذه الحادثة ما كان لها من التعكير على ادارة الازهر ، ولا يدري عاقل ما العـلاقة بينها وبين هذا الاثر وقد قيل ماقيل (*)

وقعت هذه الاحن كلها موقع التصديق، فأحب الجناب العالي على زعم البعض أن يستقيل أعضاء مجلس الادارة أو بعضهم حتى ينتهي المشكل ، ولكن جنابه العالي لم يصرح بذلك لاحد من الاعضاء بطريق رسمي أو شبه رسمي.وإنما كان يذيعه بعض أولئك العلماء ومن أعانوهم حتى يصلوا إلى غرض مخصوص ، وأما الحكومة فقد صمت أذنها في ذلك الوقت عن سماع مثل هذه الاصوات ، وتركت

(*) عقد الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد نكاحه على صفية بنت السيد عبد الخالق السادات بدون إذن ابيها ، واخرجها الى بيته فرفع والدها عليه قضية طلب فيها فسخ العقد لانه غير كفؤ لها ، فحكم القاضي الشرعي أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر في القضية ، وآخراً ببطلان العقد لعدم الكفاءة . وعدت الامة المصرية عمل الشيخ علي إفسادا لآداب الامة وهاجت عليه الجرائد ، وكانت القضية شغلها الشاغل، وأمين صاحب المؤيد إهانة قبيحة عامة ، وكان الخديو نصيرا له بالطبع ، واتهم هو الاستاذ الامام بأنه عونا لسيد عبد الخالق السادات عليه ، فهذا ماأبهمه المؤلف كما أبهم كثيرا من المسائل أو أظهر الريب فيها تقية واحتراسا

الشاكين والمشكويين يقولون ويعملون مايشاءون . فطال الزمن على هذه الضوضاء ولم يشأ رجال الازهر قمع أولئك المحركين باجراء العقوبات المنصوص عليها في قانون الجامع الازهر لانهم جزموا بان أولئك النفر آلات في أيدي أولئك المعينين لهم اللاعبين بهم ، الذين يذيعون ان جميع أقوالهم وأعمالهم انما تصدر عن رضى واستحسان من ولي الامر ، وما هم في ذلك إلا موهمين

كبرت كل هذه الاحوال عند السيد علي الببلاوي ورأى انه معطل عن العمل ولا فائدة من وجوده ان لم تترتب عليه الآثار ، فحاك في خاطره أمر الاستقالة وأفضى به إلى بعض أعضاء المجلس فلم يوافقوه عليه ، فكمن في نفسه يترقب الوقت ويتحين الفرص ، حتى رأى ان قد رتب للبعض من أولئك الساعين بالازهر (ومنهم الشيخ المنصوري الذي كانت معونة الشيخ سليم له سببا في عزله من المشيخة) مرتبات من الاوقاف على غير علم منه ولا مذاكرة معه ، ولا أخذ رأي له فيمن يرتب له ومقدار مايكفيه ، وتجسم خاطر الاستقالة في نفسه وجعله نصب عينيه ، لانه جزم بأن ترتيب هذه المرتبات هو تشجيع لاولئك الناس واستحسان لما يعملون . وانه يحط منزلته بين العلماء ، ويكون عقبة في طريق أعماله التي لا يقصد منها غير فائدة الازهر والازهريين

حدثت بعد ذلك حادثة رواق المغاربة وهي ان فريقا منهم قد احتلوا بعض غرف خالية من السكان في الاروقة العباسية الجديدة ، فأراد مجلس ادارة الازهر إخراجهم منها واجراء التحقيق فيما صنعوه ، فلم يمتثلوا وأبوا الانقياد وتداعوا بالقنسلاتو الفرنساوية ، فدارت المخابرة بين بعض أعضاء المجلس وبين ناظر الخارجية وبينهما وبين القنسلاتو ، حتى استقر الرأي على أن يعمل الازهر بمقتضى قانونه ان لم يمتثلوا لأوامره . فكان كذلك وصدر قرار مجلس الادارة بقطع عدة أشخاص منهم بمقتضى قانون رواقهم ، وطلبت الخارجية امهال تنفيذه حتى تعلم حال القنسلاتو في شأنهم ، فلم يكن منها أدنى ممانعة للحق والقانون . ولما دعي شيخ رواق المغاربة للمفاوضة معه في شأنهم لم يعثر عليه إلا بعد يومين كان فيهما حيث لا يعلم مكانه أحد من الازهر ، ثم عاد فأخبر أن القنسلاتو غير معارضة للازهر في شيء

وانها تحب أن يعمل الازهر. معهم باللين أولا فان لم يفعل فليجر أحكام القانون

خرج المغاربة من الاماكن التي احتلوها وانتهت حادثتهم، ولكن شيخهم هرب ولم يخبر المشيخة بما وقع ، فبحثت عنه فقيل انه في حلوان مرة ؛ وقيل انه في غيرها أخرى ، ولم يزل غائبا حتى حضر الجناب العالي من الاسكندرية وظهر أن غيبته كانت في سراي القبة. ولم يزل فيها حتى انتهى الامر في المشيخة وجاء بخبر بان الجناب العالي رأى حلا آخر غير ما اقتضاه القانون وجرى عليه مجلس الادارة، ولا ضير فان أمره أعلى من القانون

في أثناء هذه الحركات الاخيرة تردد بعض الحواشي على بيت السيد البيلاوي فكاشفهم بما يريده من أمر الاستقالة، فما أظنهم إلا قد حسنوها له خصوصا وانه قد ضجر من تكرار هذه الملمات، وجزم بانه معطل عن العمل لا محالة، وانه لا يرجى من بقائه أن يعود إلى عمله المفيد. فكتب في يوم ١٥ مارس سنة ٩٠٥ استقالته وسلمها إلى رئيس الديوان الخديوي العربي والافرنجي ، وهو أبقاها عنده إلى أن شرف الجناب العالي من بعض تنقلاته ، وجنابه العالي تقبلها وأمر بان يكتب اليه كتاب القبول، وفيه غاية التلطف والعطف والاحسان ، ثم استقر الرأي على تعيين الاستاذ الحالي الرجل الزاهد المعتقد الجليل، فصدر الامر العالي بتعيينه بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ٩٠٥) وعقب تعيينه استدعي إلى السراي العامرة في محفل حافل من العلماء، لالباسه الخلعة المعتادة لمن يعين شيخا للجامع الازهر

وفي هذه الحفلة قال الجناب العالي قولته المعروفة في الازهر وما يقصده فيه وما يحبه له ، وعلى أثر ذلك جزم العضوان الموظفان بانهما ربما لا يلائمهما العمل في هذه الهيئة الجديدة، فاستقالا بعد تعيين الشيخ الجديد بنحو ستة أيام، وقبلت استقالتهما وصدرت الاوامر العالية بتعيين بدلهما. وعلى ذلك استقرت الحال

وبالجملة فقد كان زمن الشيخ حسونة كله على الازهر خيراً وبركة ، وكان زمن الشيخ سليم البشري كله زمن وقوف حركة ، وكان زمن السيد البيلاوي كله زمن وثام ووفاق ، وعمل بقدر ما يطاق ، ونسأل الله أن يكون هذا الزمن الجديد زمن نجاح وفلاح آمين (كتب في أوائل سنة ١٣٢٣)

(هذا آخر مادونه الشيخ عبدالكريم رحمه الله من هذا التاريخ)

خلاصة الكلام
في مسألة اصلاح الازهر

قد لخصنا ما كتبه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان من تاريخ الاصلاح للازهر الذي سعى الاستاذ الامام اليه ، وكان هو أكبر أعوانه عليه ،

وملخص ما كتبه - وهو وقائع رسمية مقرونة باسبابها ونتائجها - ان الخديو عباس حلمي باشا كان مقتنعاً بما بسطه له الشيخ محمد عبده من الحاجة إلى اصلاح الازهر من كل وجه ، ومخلصاً في مساعدته عليه ، وان الشيخ حسونة النواوي أمثل من غيره من الشيوخ استعداداً لقبول الاصلاح وتنفيذ مايقترحه الشيخ محمد عبده على مجلس الادارة ويقنعه به فيحمله على تقريره ، وانما كان البطء في المضي في الاصلاح من ضعف استعداد أعضاء مجلس الادارة لتغيير تقاليدهم ، وكان الاستاذ الامام يريد أن يكون الاصلاح برأيهم واقتناعهم واقتناع جمهور العلماء وألفتهم النظام فيه ليكون ثابتا . وكان الشيخ حسونه لايعارض الاستاذ الامام رأياً ، ولا يخالف له قولا ، ولكنه يطالبه بأن يسير بالتدرج إلى الاصلاح الهوينا ، ولولاه لسار فيه شوطا بعيداً ، فتخرج فيه بافاء الكتاب ، ومصاقع الخطباء ، وفحول العلماء ، وكبار رجال القضاء ، والدعاة إلى الاسلام ، والوعاظ المرشدون للعوام ، بما تقتضيه حال هذا العصر في كل العلوم والاعمال ، وانتشر ذلك في العالم الاسلامي وغيره .

كان الاستاذ الامام صاحب عارضة لا تعارض ، وحجة لا تناهض ، وعزيمة لا يفل لها حد ، وهمة لا يعرض لها فتور ولا يأس ، وكان أعضاء الادارة يعلمون أن أمير البلاد يؤيده ، والحكومة تنصره ، وقوة الاحتلال لاتقاومه ، فلا يجدون لهم تفصيا مما يطالبهم به بعد سقوط شبهاتهم دونه ، الا استعانة صديقه الشيخ حسونه عليه بمطالبته بالرفق واتباع سنة التدريج حتى إنهم ألقوا هذا الرأي إلى الامير

ومن أمثلة كبحه لجدلهم بالشدة ان الشيخ محمد البحيري - وكان من أذكاهم - قال له في مجلس الادارة في الدفاع عن المنهاج الازهري في التعليم : اننا نعلمهم

كما تعلمنا . قال الاستاذ الامام وهذا الذي أخاف منه. قال البحيري ألم تتعلم أنت في الازهر وقد بلغت مابلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟ قال الامام إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر، فانني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ماعلق فيه من وساخة الازهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ...

وقد اعتبر الشيخ حسونه بما كان من الضوضاء في مسألة قاضي مصر الشرعي المشهورة، فخرج عن رأي الشيخ محمد عبده في سيرته فيها، فكان ذلك سبب عزله من مشيخة الازهر وافتاء الديار المصرية معاً ، وسيأتي شرح هذه المسألة في مكانها اللائق بها من هذا التاريخ ، وولي المشيخة بعده الشيخ عبدالرحمن القطب والافتاء الشيخ محمد عبده نفسه كما سيأتي ، ولم يلبث الشيخ القطب ان توفي، فبادر الخديو إلى تعيين الشيخ سليم البشري شيخا للازهر

وفي أثناء عهد الشيخ سليم تغيرت نية الخديو وأفكاره بسبب مانذكره وراجت لديه دسائس العلماء وغيرهم ، فكان ذلك مجرئا للشيخ سليم على وقف سير الاصلاح في الازهر، حتى انه كان يمتنع من تنفيذ قرارات مجلس ادارته ، التي تقرر بالا تفاق معه في الجلسات التي تعقد برياسته ، وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ذلك وهو قادر على إكراهه أو عقابه إذا أصر على عدم تنفيذها

قال لي مرة عند الحديث في هذه المسألة : ان الشيخ سليما مسكين لا يعلم ان مادة كذا من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ مايتقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، واني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الادارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا بمقتضى قانون الازهر وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات فانه لايسعه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات، ولكنني انما أريد أن يكون اصلاح الازهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الازهر وسائر قوانين الحكومة ، إذ هو صادر بمقتضى ديكرتو خديوي كغيره

[أقول ولدى مذكرة بخطه في مواد قانون الازهر التي امتنع الشيخ من تنفيذها سأنشرها بعد]

(قال) وانا مادمت في هذا المكان لا أدع للحكومة مجالا للتدخل في شؤونه لانها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية

وقد أراد الانكليز التدخل في شؤون الازهر في تلك الفرصة ليرفعوا عنه سلطة الخديو ويجعلوه تابعا لمجلس النظار، فكان الاستاذ الامام حائلا دون ذلك

أخبرني مرة أن لورد كرمر أرسل اليه أنه يريد أن يزوره — وقد علم رحمه الله أن الغرض من هذه الزيارة الكلام معه في حالة الازهر إذ كان قد بلغه ما يفعله الخديو من الدسائس فيه، واستخدام الشيخ سليم فيها، ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم كما فعلت في عزل الشيخ حسونه — قلت له وماذا تنوي أن تقول له ؟ قال أقول أحسن ما أعلم، وأسكت عن شر ما أعلم، ولا أقول إلا حقا، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجنبي أن يتسرب إلى هذا المعهد الديني قلت: حياك الله، ما أشد جهل قومك بمقامك، وعلو درجة إيمانك ووطنيتك !

ولكن الازهر صار بعد وفاة الاستاذ الامام خاضعا للحكومة في جميع شؤونه وكذلك مصلحة الاوقاف صارت وزارة مرتبطة بالحكومة بسعي الانكليز، وهو ما كان أنذر به الخديو كما تقدم في أول هذا المقصد فصح فيه المثل:

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ولقد كان على شدة عنايته بالازهر وأهله والدفاع عنهم ومبالغته في تكريمهم شديد الاحتقار لهم في نفسه — إلا أفراداً منهم — وكان للأزهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص عند شدة تألمه من فساد حالهم وهي : الاصطبل. المارستان. المخروب (بهذا اللفظ العامي)

ولو أنه هو الذي كتب الكتاب الذي كتبه الشيخ عبد الكريم ولخصناه فيما تقدم كما كان ينوي لفضح هذا المكان المشهور بفضله وعظمته وخدمته للعلم والدين فضيحة لا أستطيع وصفها ولا تقدير سوء تأثيرها في الشرق والغرب، ولعجز أن يزيل ذلك التأثير المخزي كل أحد، وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم

آنفا من شهادة الزور حتى من قضاة الشرع والمفتين . الذين لقب المحقق ابن القيم أمثالهم « بالموقعين عن رب العالمين » وكان قد اطلع على مالم يطلع عليه أحد من مخازيهم بعمله في ادارة الازهر وتفتيشه للمحاكم الشرعية كأكل السحت من الرشوة على الاحكام والفتاوى ، وعلى ما هو أشد ضرراً منها وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، ثم ناهيك بما هو المعد لهذه المخازي كلها وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم الذي مكن الخديو مما ذكر من العبث بهم ، والعزة والكبرياء على المجاورين المساكين والاهانة لهم ، وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتائمهم البذيئة المزرية التي لا تبقي في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ، ولا عزة الايمان المكتسبة ، وقد كان لكثير من أبناء أولئك الفقراء المساكين من الفلاحين نصيب وافر منهما . دع تأثير القذارة والامراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم

ولقد قلت للاستاذ الامام : كيف استطعت أن تعيش نظيف الجسم والثوب والعقل والقلب عزيز النفس في هذه البيئة التي نشأت فيها ؟ فذكر لي ان السيد جمال الدين استغرب هذا منه قبلي ، وذهب الى ان له وراثة ممدة لفطرته فيه فكان يقول له : بالله قل لي أي أبناء الملوك أنت ؟ وسأبسط هذا في الكلام على أخلاقه ،

وقلت له مرة : انني جاهدت نفسي في التصرف على تعمد ترك لذائذ الطعام ، والنوم على الارض ، وبذل ما في اليد ، حتى لم يعد يشق علي من ذلك شيء ، ولكنني حاولت أن أعود نفسي احتمال الوساخة بترك تغيير الثياب من العرق ، وترك الاستحمام غير الواجب مدة من الزمن ، فعز علي ذلك. إذ كان يضيق صدري منه حتى انه ليفسد علي عبادتي ، فلا أراني فيها منشرح الصدر ، ولا حاضر القلب ، . . فقال وأنا كذلك من كل وجه

وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والاوهام من أكثر القوم ، حتى ان الشيخ حسونة الذي كان يعده الاستاذ الامام أمثلهم كان يقبل يد أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيؤمنونه على نسائهم حتى انهن كن يدخلن معه الحمام!!

وناهيك بما يفعلونه في احتفالات الموالد المبتدعة ، ومشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما ينذر لها من المال والفول النابت وغير ذلك

إنني أذكر هذه الاشياء وأنا متألم من ذكرها لأبين للقارىء أهم الابواب التي كان يريد الاستاذ الامام أن يصورها بقلمه البليغ ، ويذكر أسبابها ونتائجها وسوء تأثيرها في إضاعة الاسلام ، وهداية القرآن ،وسنة محمد عليه الصلاة السلام، وما تبع ذلك من اضاعة ملك المسلمين وعزهم ومجدهم .

على أنه قد كان لذلك الاصلاح على ضعف وسائله،وقوة غوائله، تأثير عظيم في اصلاح اخلاق الازهريين وصحتهم ونظافتهم ، وكثر فيهم المقاومون للخرافات والأوهام، والاستعانة على مصالحهم ومنافعهم بالاموات: وأعود الى ايضاح ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم من سبب غضب الخديو على الاستاذ الامام وانتقامه منه بما عمله في الازهر

الغضب على الاستاذ الامام ورئيس الديوان

وما اقتضاه من الانتقام

كان أنكى ما أحفظ سموه على الشيخ محمد عبده المفتي وعلى صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم (في ص ٤٨٩) وأبهمه كأمثاله وهو مسألة أوقاف الجيزة . وبيانه بالايجاز أنه عرض على مجلس الاوقاف الاعلى طلب استبدال بعض أراضي الاوقاف المعدة للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، وبني الطلب فيها على تقدير ريع المزرعة وكونه أكثر من ريع تلك الارض ، بما يقتضي أن يزاد عليها ثلاثون ألف جنيه ومع هذا تكون أنفع للوقف، فقال الشيخ المفتي: الانفع للوقف في مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا بالغلة السنوية ،فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة (باشمهندس) الاوقاف تقدر ثمنها وثمن تلك المزرعة . وكان أول من وافقه على هذا حسن باشا عاصم الذي هو نائب سمو الخديو في المجلس

ومن ذا الذي يعارضهما فيه ؟ تقرر تأليف اللجنة فقامت بعملها فكانت النتيجة أن الفرق الذي تتحقق به الانفعية للوقف إعطاؤه عشرين الف جنيه مصري فوق المزرعة فكانت جملة الخسائر خمسين ألفاً

بهذا اشتدت حفيظة سموه على مفتي الديار وعلى رئيس ديوانه ، وآلى حلفة لاتحلل ليخرجنهما من منصبيهما أو يخرج هو من منصب الخديوية

. فاما منصب رياسة ديوانه فأمره اليه وحده ليس للحكومة ولا للاحتلال المسيطر عليها رأي فيه ، ولكن قوانين الحكومة لاتبيح العزل بغير ذنب يحكم فيه مجلس تأديب . وكان سموه يكره احالته على المعاش لانه يحب أن يخرج من عمله عاريا عادما ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستقالة ، فكان سموه يعمل كل ما من شأنه أن يسوءه ليستقيل ، يعمل ذلك بنفسه وبالايعاز إلى موظفي الديوان ، وكان حسن باشا على عزة نفسه وإبائه يتجاهل كل هذا ويصبر عليه حتى لا ينال الخديو أربه منه ، فلما أعياه أمره ، وعيل صبر سموه وما عيل صبره ، أحاله على المعاش

وأما منصب الافتاء فله علاقة بالحكومة والمفتي عندها من موظفي وزارة الحقانية لامن موظفي المعية ، فرأى سموه انه لابد من التوسل إلى النيل منه بارضاء العميد البريطاني ودولته .

وقد دونت خبر إحالة حسن باشا عاصم على المعاش وخبر استرضاء سمو الخديو للانكليز متعاقبتين في مكان واحد من جزء المنار الذي صدر في غرة شوال سنة ١٣٢٢ (٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤) من المجلد السابع

وذكرت في الخبر الاول اجماع الجرائد على الثناء على حسن باشا عاصم واستغراب إحالته على المعاش من غير سبب ، إلا الاواء فانه رجح أن سبب الاحالة غضب الامير على رئيس ديوانه « منذ حدثت مسألة استبدال مزرعة الامير المعروفة (بمشتهر) بارض لديوان الاوقاف في الجيزة. والمسألة مشهورة وملخصها أن طالب الاستبدال كان طلب من ديوان الاوقاف ثلاثين الف جنيه زيادة ، فما رضي الديوان حتى أخذ منه عشرين الف جنيه . وكان ذلك بموافقة حسن باشا الخ.

وأما مسألة استمالة سموه للانكليز فقد كتبت فيها مانصه (ص ٧٥٩ م ٧) :

﴿ استعراض الامير لجيش الاحتلال احتفالا بجلوس ملك الانكليز ﴾

جرت عادة المحتلين بأن يستعرض عميدهم جيش الاحتلال في ميدان قصر عابدين لما لا يخفى، وقد سبق من توفيق باشا الخديو السابق التراثي للجيش من شرفة القصر، ولكن عباس باشا الخديو الحالي أعرض عن ذلك حتى كان في احتفال هذا العام، وكان في أول أيام الصيام، أن خرج بملابسه العسكرية وحضر الاستعراض مع اللورد كرومر تحت العلم الانكليزي، فكان لذلك تأثير عظيم في النفوس وامحى بهذا مع ماسبقه من قبيله ما كان يتوهمه الدهماء من أن الامير هو المعارض للمحتلين وأن النظار هم المشايعون لهم؛ وعلموا أنه أشد من نظاره وفاقاً معهم، لان أولئك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون، وهو يمنحهم أكثر مما يطمعون، ولا نقول الا ان ماظهر وتبين نافع، وان خفاء الحقيقة قبله كان ضاراً لما فيه من غش الامة والقذف بها في مهامي الغرور والوهم، فللامير -وفقه الله تعالى لكل مايرضيه- الشكر أن كذب بعمله أولئك المغررين المخادعين الذين شغلوا قلوب الناس بمسألة وهمية وهي مقاومة المحتلين، ونسأل الله تعالى ان يوفق أهل هذه البلاد إلى الاستفادة من هذه الحالة بالمحافظة على أرضهم وتثميرها وعمارتها، وبالعناية بتربية أولادهم وتعليمهم العلم النافع ليحيوا حياة اجتماعية شريفة يرتقون بها إلى أن يكونوا أمة عزيزة، فان الحرية الهادئة لا يرتقي فيها إلا المهذب المقتصد، ومن اتبع فيها هواه، خسر دينه ودنياه اهـ

وقد كان المؤيد وغيره من الجرائد لبسوا على الناس هذا النبأ الغريب وجعلوه من فلتات المصادفات، ونوادر الاتفاقات، فكان ماكتبته آنفا فضيحة لتلبيسهم، ولما اطلع عليه الامير استشاط غضبا، وحرق الأرم حنقاً، لأن صيته بمقاومة الاحتلال هو رأس ماله في التحبب إلى الشعب وتبغيض النظار اليه، واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه المنار وأمره أن يذهب به إلى لورد كرومر ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب المنار بهذه الكتابة هو الشيخ محمد عبده لانه يكره الاتفاق معهم

هذا ما كان من التمهيد السياسي لاخراج المفتي من منصب الافتاء ومن ادارة الازهر، وأما التمهيد الديني فنشير اليه بما يأتي:

« التمهيد الديني ، بعد التمهيد السياسي ، للانتقام من المفتي »

غيرة شيوخ الازهر على الدين

في هذه الاثناء كثر خوض العلماء في مسألة الازهر والتبرم مما يسمى الاصلاح فيه ، واضافة مايسمى بالعلوم الجديدة إلى دروسه ، وتبارت أقلام الكاتبين منهم في الجرائد في الشكوى من هذه العلوم ، والخوف منها على الدين القويم والشرع الشريف ، ومن امتحان الطلبة فيه ، ومن مكافأة الناجحين منهم بالدراهم ومن مفاسد ذلك عندهم ان هؤلاء الناجحين المكافئين يؤلفون حزبا جديداً لبعض العلماء (يعني الاستاذ الامام) وقد كتبت في تلك الايام مقالات كثيرة في الجرائد رددت فيها على ماكان ينشر من ذلك وكنت أضعها امضاء (أزهري) أو غيره

وكان من تلك المقالات مانشره الاستاذ الشيخ محمد الاحمدي الظواهري في المؤيد في ٥ المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) من الانتقاد على طريقة الازهر القديمة في التعليم لبنائها على « التقليد وضيق الفكر » والتسليم لما يقرره المشايخ في تفسير الكتب ، وينتقد طريقة الاصلاح الجديدة في مدارس المعاهد الدينية ويقول فيه « وارجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس بعنايتكم وان تقطعوا منها جراثيم الفساد والانحطاط » . وأذكر ان المؤيد تعقب هذه المقالة بانها مخالفة لما كتبه الشيخ الظواهري في كتابه (العلم والعلماء) من مدح طريقة الاصلاح الجديدة والترغيب في العلوم الجديدة الخ وانه عاد فكتب مقالة أخرى يؤيد بها رأيه الجديد بنصوص من ذلك الكتاب ، ولا غرض لنا في بيان الرأيين هنا وقد نشرنا في ذلك الوقت أهم ما جاء في كتاب العلم والعلماء من فساد التعليم في الازهر وفساد علمائه وما يجب أن يكونوا عليه ، وضربه المثل العالي لهم بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وما قيل من سبب مخالفته لذلك ومجاراته للشيوخ المعارضين للاصلاح ، فليراجعه من شاء في صفحة ٧٢ و ٩١٠ من مجلد المنار الثامن

وانما نقول هنا ان التمهيد السياسي المشار اليه لم يثمر لسموه إلا عدم معارضة الانكليز والحكومة المصرية له في التبديل الذي يريده في الجامع الازهر باستقالة شيخه السيد على الببلاوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان (رحمهم الله تعالى) وأما إفتاء الديار المصرية فقد صرح لورد كرومر بان الشيخ محمد عبده يظل مفتيا في مصر ماظلت بريطانية العظمى محتلة لها ، وانحصر انتصار الخديو في هذه المعركة بما ذكر من استقالة الشيوخ الثلاث بتأثير التمهيد الديني الذي علمه القراء ، ولكن هذا النصر كان صوريا لاحقيقيا ، بل هو شر انكسار للامير نفسه، لأنه أضاع به ما كان يستقل به من الامور الدينية العامة حتى الازهر - وشر خيبته للشيوخ الذين يسخرهم الامير لمقاصده كيف يشاء وللأزهر نفسه، لأنه بني على حرمان الازهر من اصلاح وعلوم لا ارتقاء فيه بدونهما ، وحرمانه بذلك من تخريج القضاة الشرعيين حتى لا يكون للمتخرجين فيه نصيب من تنفيذ ما بقي للامة من أحكام الشريعة الاسلامية ؟ إذ لم ترض الحكومة به إلا بعد أن رضي الامير معها بانشاء مدرسة خاصة لتخريج القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، ولكن أكثر أولئك الشيوخ لم يكونوا يعقلون هذه الخيبة والكسرة ، وما عقلوها إلا بعد سنين كثيرة ، أجمعوا فيها على ان إنشاء مدرسة القضاء الشرعي انما كان قضاء على الأزهر نفسه وبذلوا جهدهم لالغائها ، واعادة النظام الذي حاربوه وسعوا لابطاله مسخرين مذللين

تمام التمهيد بشخص الشيخ الشربيني

كان الشيخ عبد الرحمن الشربيني رحمه الله من أشهر شيوخ الازهر في علومه ومن أشهرهم بالصلاح والزهد في الدنيا ومناصبها ، وأبعدهم عن التفكر فيما يرتقي به اهلها ، وقد عرضت عليه مشيخة الازهر مراراً فأعرض عنها وما قبلها ، ولكنهم في هذه المرة أقنعوه بأنه قد انحصر في شخصه إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح، وتوجيه تعليم الازهر الى ما يليق بعلماء الدين من التقوى والصلاح ، وكان أول من اظهر للمسلمين قبوله لذلك الشاعر الكاتب خليل مطران (السوري المسيحي) فتلقى من فمه حديثا نشره في جريدته (الجوائب المصرية) رددت صداه الجرائد ،

وفي مقدمتها جريدة المؤيد التي كانت مذبذبة في هذه الحادثة ، لان الشيخ علي يوسف كان يعتقد وجوب إصلاح الازهر وأن الشيخ محمد عبده هو القادر على هذا الاصلاح دون غيره من العلماء وغيرهم، ولكن سياسته كانت تقديم إرضاء الخديو على كل ما سواه إذا تعارض معه ، وكان قد أساء الظن بالاستاذ الامام في قضيته الزوجية كما تقدم فآثر الانتقام منه لنفسه أيضاً

وهذا نص الحديث

حديث الشيخ عبد الرحمن الشربيني

هذا نص مانشره خليل مطران في جريدته (الجوائب المصرية) في ٧ المحرم ونقله المؤيد عنها في صدر العدد الذي صدر منه في ٩ المحرم وعنوانه (حديث مع عظيم من علماء المسلمين) قال بعد وصفه بحجة وقته وإمام عصره ... الخ

«ماذا يرى مولانا فيما قام يلتمسه اليوم الشيخ الظواهري من الجناب الخديو؟[1]

الاستاذ : الظواهري انما نطق بلسان كل محب لخير الازهر عالم بالغرض الذي أسس له والخدمة التي أداها للدين ولايزال يرجى منه أداؤها مادام فيه جدار قائم

قلنا :وما ذلك الغرض وماتلك الخدمة يامولاي ؟

الاستاذ : غرض السلف من تأسيس الازهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الائمة الاربعة رضوان الله عليهم[2] وأما الخدمة التي قام بها الازهر للدين ولايزال يؤديها له فهي حفظ الدين لاغير .وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له.وقد خرج منه

---

(١) يعني مانشره المؤيد للشيخ محمد الاحمدي الظواهري في خامس المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم)وتقدمت الاشارة اليه

(٢) المعروف في التاريخ أن الجامع الازهر قد بناه جوهر قائد المعز العبيدي إمام الباطنية ومؤسس دولتهم في مصر ، وهؤلاء الباطنيون كما قال الغزالي:ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض . فالجامع الازهر وجامع الحاكم قد أسسا لنشر مذهبهم الظاهر وكفرهم الباطن لالفقه مذهب أهل السنة الاربعة كما قال الشيخ ، وان وافقه الاستاذ الامام في رده الآتي عليه جدلا أو بناء على الظاهر

بحمد الله في كل زمان ومكان من أدى هذه الخدمة الشريفة حق أدائها فعلماؤه في مشارق الارض ومغاربها هم هداة الخواص ومرجع العوام في الكثير من أمور دينهم.

قلنا : وهل حدث يا مولاي مايقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟

فتبسم الاستاذ ثم قال : بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه، ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث اليه بالطلبة المستفيدين ، ويبعث اليها بالعلماء المرشدين، ولقد جاوزت خمسين حجة أطلب العلم وأخدمه بالازهر فلم أعلم ولا سمعت ان مقام الائمة الاربعة وضع في موضع الشكوك والريب الا في هذا الزمن الاخير حيث كثر بين أفراد الطلبة ممن نجح فيهم سعي المفسدين المتهجمين على مقام الائمة ، الطاعنين بكفاءتهم ، المنكرين عليهم عليا مراتب الاجتهاد

« إني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الازهر ، أو اصلاح الازهر ، ولكنني لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه ، وذهاب ما كان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين مشايخهم الاجلاء ، حتى أصبح الائمة الذين كان يغضي في الازهر من مهابتهم لمكانتهم في العلم ، وجليل خدمتهم له، وما يحملون من شريف شرع الله عرضة للسخرية من بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسبنسر وفلسفته فهرفوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الازهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لاغير

« عرضت عليّ مشيخة الازهر مراراً فاعتذرت وتنصلت لعلمي أن العلماء في هذا المسجد أخوة في خدمة الله وشرعه ، فلا يليق بأحدهم وهو خادم الله والعلم أن تأخذه العزة بالرياسة والزعامة (١)

وقد رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة . كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لايميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر

---

(١) الرياسة ضرورية للدين والدنيا وهي لا تستلزم أخذ العزة بالاثم . ثم لماذا قبلها الشيخ آخراً بعد أن رفضها مراراً؟

قلنا مقاطعين : واليوم يامولاى

قال الاستاذ : اليوم نسمع بوجود أحزاب في الازهر ونرى الطلبة منقسمين مشتغلين عن طلب العلم الشريف باحاديث أهل النفوذ والجاه والتأثير فيما يزعمون، مشغوفين بالفلسفة ، حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف الى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها(١) ومثل هذا في تاريخ الازهر من قبل ماسمعت ولا رأيت

قلنا أيأذن لنا الاستاذ في نشر هذا الحديث لعل في ذلك زاجراً لفريق من الطلبة ومنبهاً لحكومة الجناب العالي الى تلافي الخطب قبل تفاقمه ؟

قال الاستاذ : انشر ماشئت وقل ماشئت ، وألفت نظر الجناب العالي والحكومة والناس الى أمر واحد جدير بالتأمل والاعتبار ، وهو ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا ، فليتركوه كما هو حصنا للدين ، وذخرا للمسلمين في اطراف البلاد . وإن أرادوا به اصلاحا فليكن الاصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وما سوى ذلك من مبادىء الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه اه بحروفه

وقد أثنى المؤيد على هذا الحديث وصرح بموافقة الاستاذ على كل ماقاله فيه من هدم مايسمى بالاصلاح للدين — إلا ادخال العلوم الحديثة فانه لايرى ضرراً منها

ولما نشر المؤيد هذا الحديث كتب الاستاذ الامام مقالا فند فيه كلامه كله بما يعد تفنيداً لكل ما كتب الشيوخ المسخرون لتلك الفتنة وأقام عليه وعليهم الحجة التي لا تدفع ، فبيضت المقال ونشرته في المقطم في ١٣ المحرم (١٨ مارس) وأبقيت الاصل عندي وهذا نصه:

---

١) يظهر أن الشيخ رحمه الله لم يقرأ كتاب العلم والعلماء للشيخ الظواهري الذي أيد رأيه في كتابه المفتوح للخديو ذكر في كتاب العلم والعلماء أن الاطلاع على الجرائد والمجلات من الضروريات للعلماء وذكر من اسماء هذه المجلات المقتطف الفلسفي والهلال التاريخي والمنار الديني

الازهر الشريف

والغرض من اصلاح طرق التعليم فيه

(لاحد علماء الازهر الاعلام)

ما كنت لأخط سطراً واحداً في موضوع مايكتبه بعض الناس في هـذا الوقت متعلقا بالازهر الشريف لولا مانسب ناسب كلاما لاحد شيوخه بعد ماوصفه بأوصاف تعين شخصه ، ولولا ماجاء في ذلك الكلام مما يمس الازهر ويمس كثيراً من شيوخه .

لا أتكلم فيما بعث الناسب على ملاقاة الشيخ ، ولا مادفع الناقل الى النقل عنه ، فذلك مما عرفه كل قارىء لأول الاطلاع عليه ، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب الى الشيخ دفعاً للبس من الباطل قد يستر عين الحق عمن يهمهم أن يعرفوه

لا ننكر على الاستاذ ماقاله في الغرض من انشاء الازهر فذلك غرض كل من يبني مسجداً لله في أي مكان وأي زمان ، لا يبنى مسجد إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه ، ولا ننكر عليه ان الخدمة التي يلزم أن يؤديها الازهر هي تعليم الدين ولكن لم نفهم قوله « وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للازهر به » فان كان يريد ان التعليم في الازهر يجب أن يكون قاصراً على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه ، وعلم تقرير العقائد ، كما ورد به الكتاب والسنة ، وعلم آداب الدين والاخلاق المؤسسة على ماورد منه — وأما ماعدا ذلك وان كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الازهر — إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الازهر قاصراً على ذلك في القرون الماضية ، ولو كان حضرة الاستاذ نفسه لم يتعلم ولم يعلم في الازهر غير هـذه العلوم . لكننا عرفنا الاستاذ يقرىء فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام على مافي علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها ، وعلى مافي مقدمات

الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو عارض الممكنات أو عين الممكنات؟ والتعرض لاحكام الجواهر والاعراض مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون ، وقد ذكر لي بعض عشاق الاستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد بما لم يساوه فيها غيره . وقال لي: انه يعرف من كتاب المواقف وشراحه ويقف على اسراره ما لم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه . ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الخمسين التي ذكرها ولم نجد للاهتمام في الازهر وجهة الا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وإن كان من مقدماتها ، واني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق، فاذا قرأ شرح التلخيص في المعاني والبيان للسعد التفتازاني أفنى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته ، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يئنون من طول الاقامة في الازهر الشريف دون أن يحلى الطالب منها بطائل، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق ، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني مالا يعرفه إلا مثل الاستاذ من علية المحققين

أما كتاب الله فلا نعهد للشيخ فيه درساً يستوفي من التحقيق مايستوفيه أحد شروح السعد على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الازهر الذي وجدناه عليه ولا يزال الى الآن .

كنت أوافق الشيخ على ما رآه إن صح أن يكون ذلك مراده لو سعى ـ حفظه الله ـ هو واخوانه من خدمة العلم في انشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يرتقى بها الى فهم علوم الدين وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي الى الازهر ويتعلم الدين خاصة

كل ذلك لم يكن فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين مايجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام ، فاذا أراد الشيخ ذلك ـ ولا محيص له عن أن يريده ـ فماذا يقول في امام الحرمين والامام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفيما

جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الاكوان ليبنوا عليها الادلة التي رأوا اقامتها لاثبات مكونها ؟ وفي العلماء الاجلاء الذين كانوا يقرؤنها في الجامع الازهر في كل زمان وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم ؟ إن سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم فانا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصلحة في ذلك . فاذا صح معنا ان أئمتنا سبقونا الى اضافة هذه العلوم ـ علوم البحث في حقائق الاكوان ـ الى علوم الدين لانهم عرفوا ان لا سبيل الى اقامة الأدلة الصحيحة على العقائد ـ التي شرط في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث وقد شاركهم الاستاذ في العمل على تلك الطريقة ـ فما الذي ينكره الاستاذ من علوم سماها « علوم الأعصر » أو أمور سماها « أمور الدنيا » ؟

هل يعد الحساب من ذلك؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض ؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث ؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية والاخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحقيقي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه ؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الازهر لكن لا على سبيل الالزام فألزم بها الطلبة وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لاينال درجة العالمية إلا بتحصيلها ، وما عدا ذلك فهو لايزال على ما كان ، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الاستاذ مبادىء الفلسفة؟

ان من الغريب عندي أن يكون الاستاذ الذين يشيرون اليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه ،

الأمر العالي الصادر بتنظيم الازهر موجود والاطلاع عليه سهل فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ماهو الاصلاح الجديد؟

جاء في ذلك الامر العالي مايوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم وانه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل مايساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه ، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ ؟ ان الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة

الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسراره والتخلق بأخلاقه . والامر العالي الصادر في سنة ١٣١٤ وهو مايسمونه الاصلاح كان كافلا لذلك لو كان حضرة الاستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا الكلام الذي نشر في هذه الايام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول الى مايقصده حضرة الاستاذ من جعل التعليم دينيا ، ومن اشراب كل عمل من أعمال الطلبة والاساتذة روح الدين ، فليهنأ الاستاذ ببقاء الازهر على ماهو عليه قبل الاصلاح وبعده إن كان لم يبلغه ذلك أو بلغه مايخالفه ممن لم يصدقه الحديث

أما قول الاستاذ : ان في الطلبة من يحط من مقام الائمة وينكر عليهم مراتب الاجتهاد فذلك مما لم أسمعه ولا اظن أحداً يعرفه إلا من بلّغه ، غير أنا نعرف أن كثيراً من الطلبة يختلف الى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين ويخوضون معهم فيما لايليق ، لا متعلقا بالائمة فقط ولكن قد يصعدون الى من هو أعلى وأقدس ، وهو شيء يشتكي منه طلاب الاصلاح ويحاولون دفع ضرره بتعليم الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والائمة رضوان الله عليهم أجمعين ، فان الذي يخدع الطالب ذلاقة لسان المنافق ، وجهل الطالب ونقص علمه ، فتروج عنده الاباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبعه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم تاريخ السلف في الازهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الائمة مايدفعون به المطاعن فيهم ؟ وهل علمّ الاستاذ أحداً من هو الامام الشافعي ؟ وكيف حصل العلم ؟ وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الاحكام بما يتفق مع مصالحهم في شؤون دينهم ودنياهم ؟ فليطلعني حفظه الله على واحد أخذ عنه هذه السيرة الجليلة سيرة الامام الشافعي محررة بما صح من الاخبار ، لا محشوة بما لايعقل من الاوهام ؟

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الازهر كما يقول فاننا لم نفهم لها معنى ، لعله

يعني ماحصل من المغاربة وعصيانهم أوامر المشيخة في هذه الايام ،لو أرادالشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تأريث بعض اخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لاناشئة عنه

يقول الشيخ: انه لايعرف الا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم، متى كان هذا ؟ اما انتقاد الطلبة على أساتذتهم فقد كان معروفا مدة الاربعين سنة التي أقمتها في الازهر والعشرة التي سبقني بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لاينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم (واقوالهم)

وأما وصول الانتقاد إلى حد الاهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا ان يعني الشيخ ماوقع من أحد حذاق المحامين من الشدة في نقده لبعض كلامه(١) ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وان كان قد سبق له طلب مدة الخمسين سنة الماضية أظن ان مجلس الشيخ مطروق باولئك الذين ينقلون له مالا تعرف له حقيقة

من أين جاء للشيخ لفظ سبنسر وأي طالب نقل اليه هذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادىء سبنسر دخل في الازهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذاكر له ؟ سبحان الله ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن اللمز والهمز

ان الذي يلمزه الشيخ بهذا الكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضر بالعقائد وباللغة ادخال الفلسفة في الاولى والحذو حذو أهلها في الثانية فهو وأن تعلم شيئا مما تعلمه لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم تمكن وسائل الخير

لم لم يقبل الشيخ مشيخة الازهر بعد حضرة الشيخ حسونه النواوي وقد ظهر له ان ماادخله الشيخ حسونه كان شراً على الازهر ، وكانت مشيخة الاستاذ كافلة بازالة ذلك الشر ؟ زهد في المشيخة حتى لايعلو على بعض اخوانه كما يقول، سبحان الله! أفما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على اخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أزهد منهما في الرياسة او أعلم منهما بما فيها؟

---

(١) هذا المحامي هو السيد احمد الحسيني-رحمه الله- كان يحضر درس الشربيني في فقه الشافعية واعترض عليه وناقشه في بعض المسائل بما يعد تجهيلا له

يمدح المشايخ الذين رآهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونه يشتغل بها او الشيخ سليم من بعده أو حضرة الشيخ البيلاوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ ان كان ما يريد منها سياسة الأزهر وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها فالبادىء بوضع هذا الأساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من اخوان الاستاذ لانه وضع قاعدة الامتحان على انه كان يغضي من مهابته كما يعرف الشيخ وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطلبة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية وهم يندبون حظهم إلى اليوم. وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ولولا حادثة حدثت مادخلت في الامتحان ولذهبت متاعبي سدى

وإن كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو ومن هم المشتغلون به ؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لايشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبيح منه لنفسه مالا يستبيحه لغيره

نعم عهد لعلماء الأزهر ولطلبته تبعاً لهم شغل بالسياسة قبل أن يدخل فيه مايسمونه بالاصلاح . ذلك في أيام الفتنة العرابية ، فقد انقسم المشايخ الى قسمين أكثرهم مع عرابي ، وأقلهم مع الخديو السابق ، وكانوا يسمحون لعبدالله افندى نديم أن يدخل الازهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة ، وكانوا يحيطون به وينادون: اللائحة مرفوضة (يعني اللائحة التي قدمها قناصل الدول بطلب نفي كبراء الضباط) كان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لانه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أولئك المشايخ سلفا رضي الله عنهم

ألم يكن الاجمل بحضرة الاستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولا في لقاء الذين يعنيهم بكلامه ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون ، فان رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فان لم ينجح النصح كان له الحق فيما ينشره في جرائد سيارة يحب كثير من الناظرين فيها أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا

اللهم ألهم الاستاذ واخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول الله فيها ، فاذا جاءهم فاسق بنبأ تبينوا ولم يصيبوا قوما بجهالة حتى لا يصبحوا نادمين

أما مانشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لا أشك في منازعة ضمائر أربابها لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الالحاد ، او وجوه الاصلاح ، فهو مما لا يصح النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراما . سامح الله هؤلاء المخاطرين بشرف الازهر وأهله الطالبين لالحاق أشد المضرات به ، ونظر الله جل شأنه بعنايته إلى هذا المسجد الشريف وقيض له من يتغلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح مؤديا للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل

واذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ احراراً فلينقلوا هذا كما نقل ذاك بعضهم عن بعض تأدية للافكار الى قرائهم؟ اه

استدراك على مقالة الرد على الشيخ الشربيني

في اشتغال علماء الازهر بالسياسة

ثم نشر المقطم في ١٥ المحرم (٢١ مارس) مقالة عنوانها (علماء الازهر والسياسة ، او السياسة والازهر) بامضاء (مؤرخ) استدرك فيها على المقالة السابقة بان علماء الازهر قد ثبت عنهم الاشتغال بالسياسة الداخلية للحكومة في مدة السنين الخمسين التي نفى الشيخ العظيم نفي اشتغالهم بالسياسة فيها ، وذلك « عندما أرادهم رب السياسة (الخديو) عليها ، ولم ينج من شرها إلا الشيخ العباسي مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر يومئذ »

وذكر الكاتب حادثة محاولة اسماعيل باشا اسقاط وزارة نوبار باشا ونجاحه في ذلك وان تلك الوزارة كانت تسعى لتخفيض ربا ديون الحكومة المصرية من سبعة في المائة إلى اربعة فرأى الخديو ان هذا التخفيض لا يليق بالحكومة ولا بالامة المصرية الشريفة فأمر بوضع لائحة سميت (اللائحة الوطنية) كان من أحكامها أن تضمن الامة المصرية سداد الديون وربا ها الفاحش. واستعان على ذلك بعلماء الازهر فوقع اللائحة أكثر من يعرف له اسم من العلماء. ومشايخ الطريق ووجوه الامة وأعضاء مجلس نوابها

وبعد أن وضعوا أختامهم بعث بهـا إلى المرحوم الشيخ العباسي لامضائها وختمها فتعلل بالمرض وكان في حلوان فلم يأذن للرسول بمقابلته... وما زال الخديو يلح عليه في وضع اسمه على اللائحة حتى كتب عليها هذه العبارة « اوافق على المشروع من هذه اللائحة » يريد بالمشروع ما وافق الشرع دون ماخالفه من دفع الربا على النحو الذي طلبه الخديو . فاكتفى الخديو بذلك لان الذي كان يهمه ان يوجد اسم المفتي وشيخ الازهر على اللائحة

ثم قال الكاتب:

« ولعل الشيخ لايسمي ما كان من أولئك العلماء دخولا في السياسة لانه يشترط في الدخول المذموم أن لايكون وسيلة للحاكم في الوصول الى رغبته: ولذلك برأ الازهر وعلماءه من الدخول في السياسة في تلك المدة

« وإذا صح هـذا يكون قضاء على العلمـاء بان يكونوا آلات في إيصال السياسيين إلى حظوظهم ورغائبهم بلا حرج عليهم ولا لأئمة تتوجه اليهم ،سواء وافقت السياسة الشرع أم خالفته ، وحصر السياسة في نقطة واحدة وهي أن يفقه العالم معنى السياسة ويكون بصيراً بتصرفها ، ولو ليتقي شرها ، ويأمن مكرها ، ولكن السادة المالكية جعلوا هـذا المعنى تعريفا للفقيه إذ قال فيـه أحد أئمتهم « الفقيه هو المقبل على شانه ، البصير بأهل زمانه » اه ملخصاً

وأقول الآن ان سر الاستاذ الامام رحمه الله هو الذي اشار بكتابة هذا الاستطراد على المقال الاول

وجملة القول ان هذه التمهيدات السياسية والدينية قد انتهت بما تقدم من استقالة السيد الببلاوي وتولية الشيخ الشربيني مشيخة الازهر كما تقدم . فكان هذا الشيخ الزاهد كغيره آلة لسياسة الخديو الضارة بالازهر وبالدين، ثم لم يكن موفقا في مشيخته لشيء من خدمة الدين، ولا راضيا ولا مرضيا من العلماء ولا السياسيين. ونذكر الآن ملخص خطبة سمو الخديو في حفلة إلباس الخلعة للشيخ الشربيني وبعض ما كان لها ولترك الاستاذ الامام لادارة الازهر من سوء التأثير في العالم الاسلامي

ملخص خطبة الخديو بقصر عابدين

﴿ في حفلة الانعام بالخلعة على الشيخ عبد الرحمن الشربيني ﴾

شيخ الازهر في ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣

قال سموه بعد مقدمة :

« ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيفي في مصر وجميع الاقطار الاسلامية . يأتيه المسلمون من كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم

« ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائماً ، ولكن من الاسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل .

(وههنا ذكر حادثة رواق المغاربة التي تقدم ذكرها في ص ٤٩١ وأشار إلى ما سبقها من حادثة رواق الشوام وهما من حوادث الشغب الذي أحدثه وشكا منه ثم قال) :

« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف ، والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء

« إن كل ما يهم الحكومة من الازهر شيئان . الاول استتباب الامن فيه وهو ما أوصي به دائماً . والثاني تخريج القضاة الشرعيين ، وهو ما سينشأ له مدرسة مستقلة يقصدها كل من يتحصل على شهادة العالمية في الازهر ، ويريد التوظف في القضاء . وستشتغل الحكومة بابراز هذا المشروع من القوة للفعل قريباً

« واني أول من يقدر السيد علي الببلاوي شيخ الجامع الازهر السابق حق قدره ، ويعرف فضله وتقواه ، ويحترمه مزيد الاحترام ، ولكنه رعاية لصحته رأى أن يستقيل من وظيفته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على هذه

القاعدة ، وهي أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواه فانا مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التي اتبعتها في ذلك . والآن قد اسندت وظيفة مشيخة الازهر للاستاذ الشيخ الشربيني المعترف لهمن جميع الطبقات – ازهريين وغيرهم – بالعلم والتقوى والصلاح. وأنا مستعد أن أساعده بكل مافي وسعي لتأييد كلمة العلم والدين في الازهر. وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطلبة على ذلك . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والاوهام أو الايهام بالاقوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى أن يرجع إلى بلده ويبث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهريين » اه بنصه الرسمي المنيف الذي نشره المؤيد

يرى قارىء خطبة الامير انه يتكلم بلسان الفاتح الظافر ، والملك المستبد القاهر ، كأنه لايدري ولا يشعر بأنه هو المغلوب المقهور الخاسر ، وان الازهر نفسه هو الذي خسره نهائيا في هذه المعركة ، فان أمر الازهر كان من خصائصه التي لاتتعرض له فيها الحكومة ولا سلطة الاحتلال، فأصبح لا يملك الاستقلال فيه بشيء ، وقصارى سلطته أن يقبل استقالة من يستقيل منه ، وأي شيء هذا؟

وأما قوله (ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده) الخ فهو يعني به هذا العاجز صاحب المنار – كما صرحت بذلك جريدة اللواء – لانه كان أخلص نصير للاستاذ الامام في كل ما كاد به الامير له ولا سيما مسألة الازهر ووسائلها، وقد أشار بهذه العبارة إلى ما كان ينويه من اخراجي من مصر منفيا بعد أخذ كتابة من شيخ الازهر بان ما أكتبه في المنار مخالف للعلم والدين ، او اعتداء على علمائه العاملين. وقد بلغ هذا الكيد يومئذ كبار الحكومة وتحدث به مصطفى باشا فهمي رئيس النظار مع الاستاذ الامام فقال انه يريد نفي السيد رشيد رضا من مصر ولكن من ينفذ له . وسأذكر في مقام آخر بعض ما كان من سموه في شأني وأوله التفريق بيني وبين الاستاذ الامام، ومنه السعي لاخراجي من هذه البلاد

وأكتفي هنا بذكر بعض ما كتبته في المنار عقب هذا العبث والتغيير في الازهر من بيان ما بني عليه ، ثم أنشر بعده فصلا فيما كان من تأثير استقالة الاستاذ الامام من ادارة الازهر . وهذا نص مانشرته في ص ٧٧ من المجلد الثامن

﴿ غرض الحكومة الخديوية من الازهر ﴾

قد شاع وذاع أن سمو الامير اتفق مع حكومته على ان كل مايهم الحكومة من الازهر شيئان (الاول) أن يكون أهله في أمان (والثاني) تخريج القضاة الشرعيين . ولما كان التعليم في الازهر غير كاف لتخريج القضاة الذين تصلح بهم حال المحاكم ، وينفذ حكم الشريعة عزمت الحكومة الخديوية على انشاء مدرسة خاصة لتخريج القضاة يكون تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، ولم يكن أحد يصدق هذه الاشاعة لولا أن المؤيد ذكر أن الامير قال ذلك في كلامه الذي خاطب به مشايخ الازهر في حفلة إلباس الخلعة للشيخ الشربيني ووافقه المقطم في معناه(١) وأسنده إلى أولياء الامور

وقد كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر على عنايته العظيمة بخدمة الازهر وحرصه على تخريج رجال فيه يقدرون على خدمة الشرع وتأييد الدين . وكان ينبغي أن يكون أول سبب يخطر في البال ، بعد الاطلاع على تلك الاقوال ، هو بلوغ الشغب في هذه المدرسة غايته ومثله من رجال الجد لم يخلق للعب بالشغب ، بدون فائدة تكافيء إنفاق الوقت في التعب . ثم اكتفاؤه بعناية أولياء الامور بتربية جماعة من طلبة الازهر في مدرسة خاصة ليتخرج منهم أساتذة وقضاة وهو شيء مما كان يميل اليه ، وقد تيسر الوصول اليه ، ويقول المقطم ان الحكومة ستنوط بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أمر هذه المدرسة فان صح ذلك فحسبه تربية البعض من الكل ، على أن تركه لادارة الازهر ليس تركا للازهر كله ، فانه شيخ رواق الحنفية وهو أكثر الاروقة طلابا فهو يبث فيهم النظام ويرشدهم الى روح العلم والدين وهذا بعض آخر من كل و « كل ميسر لما خلق له »

(١) عنيت بقولي في معناه أن المقطم لم يوافق المؤيد على أن تلك الخطبة هي نص ما نطق به الخديو بل نازعه في ذلك مؤيدا نزاعه بشهادة من كان حاضراً للحفلة وسمع الخطبة بأذنه .

تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في المسلمين

نشرنا في (ص٢٣٧) من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :

لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ووجمت نفوسهم لهذا النبأ في كل قطر، فقد جاءتنا الكتب والرسائل في ذلك من السودان وسورية ومن بلاد المغرب والمشرق مابين شاكية وباكية، منها ما يعرف مرسلوها عذر الامام ، ويرون أن لاعتب عليه ولا ملام ، لوقوفهم على حقيقة أحوال هذه البلاد ، فرأيهم في ذلك كرأي اكثر العقلاء في مصر الذين استشار الامام بعضهم فأشاروا بوجوب تركه(١) ومنها ما يتضمن اللوم لاعتقاد أصحابها أن الاستاذ الامام قد يئس من إصلاح المسلمين، فترك خدمة الملة مللا من مقاومة الجامدين، أو علماً بأنهم غير مستعدين، وقد آلمهم ذلك لانهم يعتقدون أنه اكبر زعيم للاسلام في هذا العصر وأقوى نصير له في علمائه ،ويشعرون بأنهم يستمدون منه الهمة والغيرة والرأي الصحيح على بعد الديار ، وتنائي الاقطار ، ولا أنكر انني أعرف من أذكياء المسلمين الاقربين داراً بل من المصريين انفسهم من سرى اليه شيء من هذا الوهم

وقد آلمني وسيؤلم كل ذي غيرة وشعور قول (النواب محسن الملك) ان اليأس والقنوط قد تمثل لأهل النهضة الاسلامية في الهند ، وشعروا بأن قد طفيء نور الاصلاح المنبعث من هذا الامام .فوقعوا في حنادس الظلام ـ يحزننا ويمضنا هذا القول من قوم نعتقد أن نهضتهم أعلى من نهضتنا ، وهمتهم أعلى من همتنا، والامل فيهم أقوى من الامل فينا ، ولا نفضلهم الا بهذا الرجل وباتقان اللغة العربية ، لاننا نراهم يرجوننا اكثر مما يرجون أنفسهم ،كما انه يسرنا شعورهم بارتباطهم بنا، ولا يأس منا ولا منهم إن شاء الله

ان من أغرب ما كتب الينا في هذه الحادثة نبذة لأحد الفضلاء في فاس وهي:

---

(١) من هؤلاء جل تلاميذه ومريديه من كبار رجال الحكومة كسعد زغلول وفتحي زغلول وقاسم امين ومحمد راسم الخ

«قد ساءنا وايم الله ما بلغنا من استقالة حضرة جناب الاستاذ الامام، وعالم علماء الاسلام ، فريد هذا العصر ، وغرة جبين الدهر، ذروة جهابذة الآفاق ، ونخبة كبراء المصلحين بالاتفاق، مولانا وسيدنا الشيخ محمد عبده أدام الله بقاءه مرشداً للعالمين ـ من عضوية إدارة مجلس الازهر الشريف الذي كان متعنا الله بوجوده مجتهداً في إصلاحه ، كما ساءتنا تلك الخطبة ... ولكن (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقد كدر ورود هذا الخبر جميع محبيكم ومحبي الاستاذ الامام لعلمنا بأنكم من المجددين في إصلاح الأمة الاسلامية . الخ

وإنما كان هذا غريباً لان تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكر في الاصلاح أو الشعور بالحاجة اليه ، ولكن هذه الافكار قد سرت في كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين ، ومن قراءة بعض الصحف كالمنار . وقد ختم هذا الكاتب كلامه بقوله: وأدام الله بقاءكم رغماً عن أنف الجاهلين والمستبدين، والمفسدين والمقلدين اهـ

تأثير الاستقالة في الهند

ذكرت نبذة من كتاب عالم فاضل في المغرب الاسلامي الاقصى في سوء تأثير هذه الحادثة حذفت كلمات الطعن منها ؛ وأكثر ما كتب إلي في ذلك يتضمن طعناً شديداً في الخديو لم يكن نشره ممكناً ـ وأقوى عليه بما كان من تأثيره في أرقى الشرق الاسلامي

كتب إلي زعيم مسلمي الهند وعميد نهضتهم الاسلامية الاكبر ، العلامة الكاتب الاشهر ، النواب محسن الملك عميد المدرسة الكلية الاسلامية في عليكره ورئيس الشرف لادارتها كتاباً طويلا أثنى فيها علي وعلى جهاد المنار في سبيل الاصلاح الاسلامي ، ثم قال في هذه المسألة ما نصه نقلا عن ص ٢٣٣ م٨

«وقد أدهشنا خبر هائل وصل الينا من الجامع الازهر وأوحشنا وأقلق جل

أصحابنا والامة، وأراق الدماء من الجفون والمقل ، وكادت القلوب لها ان تنهبل(١) وقد انصدعت له الصدور، وتصدعت لها المهج في شلو كل مصدور ، وذلك ماشاع عن هذا الفيلسوف السرسور والحلاحل الوقور(٢) ، والنبراس في ظلمات الديجور، من رفض ما كان اليه من نظارة الجامع المذكور ، أسفا على ما تجرب من جفاء اهل عصره، ولا سيما علماء مصره، ومساعدة الحضرة الخديوية للعلماء، وقضائها بخلاف ما كان يرجى من تلك الحضرة الغراء، لما كان أيده الله تعالى يريد من إشاعة العلوم الحديثة ، وإذاعة المعارف والحكم الجديدة، زيادة على ما كان يجري فيه من دروس العلوم الشرعية والمسائل الفرعية . ولما لم يصغ احد الى رأيه ومقالته ، ولم يكترث رجل الى ما كان فيه من محض نصاحته، تمثل لنا عند ذلك اليأس، وتجسد لنا شبح القنوط والابلاس(٣) لخمود هذا النبراس، فقد كنا نظن قبل ذلك أن سوف يرحل به عنا ليل الحزن، ويقلع عنا دامس الفتن، وتقوض عنا خيام البلاء، وتعطف عنا سهام الضراء ، ويتنفس علينا صبح الاقبال، ويطلع على وجهنا فجر الآمال من اجل ذلك البارع الحكيم المفضال، وكنا نظن انه قد توقد في الاسلام مصباح يستوقد منه آلاف الوف من المصابيح، ومفتاح ينفتح به مغالق أبواب الفرج والتراويح ، ولكن قد تبين الآن أنا لم نبرح عرضة للبلاء ، ودرية لرماح الضراء ، وجزراً لسيوف البأساء، ما زالت هذه الخضراء تدور على الغبراء . وما أشبه حال هذا الحكيم الرزين، في المصريين، بحال السيد احمد الذي أعثرناك على حاله في الهنديين، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة، فإنا لله وإنا اليه راجعون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

ولما وصلت جريدة المؤيد إلى الهند ورأوا فيها خبر الانقلاب وخطبة الخديو كتبوا في ذلك مقالات شديدة في الانكار على سموه، لم نعن بترجمة شيء منها في ذلك الوقت لتعذر نشره ونكتفي منه بما نشر في جريدة (الرياض) التي كانت

---

(١) يقال تهبل لعياله واهتبل اذا اكتسب . ولعل الكلمة في الاصل تهتبل من هبل ولده واهتبله اذا ثكله (٢) السرسور بالضم الفطن العالم الدخال فى الامور . والحلاحل السيد في عشيرته الشجاع الركين فى مجلسه (٣) الابلاس هو الغم من اليأس والحيرة

تنشر باللغتين العربية والاوردية في عليكره وكنا حفظناها لاعتدالها ،وهذا نصه من العدد الذي صدر في ١٠ صفر سنة ١٣٢٣

﴿ خطبة الجناب العالي الخديوي واصلاح الازهر ﴾

ألقى الجناب العالي الخديو خطبة أنيقة على جمع حافل من العلماء والفضلاء والمشايخ عند استقبال حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الازهر الجديد صرح فيها بآرائه وأفكاره السامية في مسألة الاصلاح الازهرية فقال حفظه الله :

« إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنفي في جميع الاقطار الاسلامية يأتيه المسلمون من كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم »

ولكن الافادة والارشاد يتوقفان على أن تكون علومهم ومعارفهم أعلى وأرقى من معارف قومهم سواء كان معارف الاديان ، أو معارف الاكوان .

«وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »

(وقال حفظه الله في ختام الخطبة)

«وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب وتحثوا إخوانكم على تأييد كلمة العلم والدين ومن كان يحاول الشغب بالوساوس والاوهام أو الايهام بالاقوال او بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عنه ، ومن كان أجنبيا من هؤلاء فأولى له أن يرجع الى بلده ويبث فيها ما يريده من الاقوال والآراء المغايرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهريين»

بعد إيراد تلك الكلمات من الخطبة الملوكية لا يسعنا إلا ان نقول بأسف زائد :ان حركة الاصلاح قد قضي عليها ، وأن هذه المدرسة العظيمة تبقى على

تقاليد قديمة، وأوضاع عتيقة، وطرق غير نافعة، وجمود وخمود وهبوط، يبقى مستقبل التعليم الديني مظلماً الى ماشاء الله تعالى . فليسكت المنار وليرجع الشيخ الظواهري عن الآراء والاقتراحات التي نشرها في كتاب العلم والعلماء والكتاب المفتوح فقط اهـ

ثم نشر في العدد الرابع الذي صدر من هذه الجريدة في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٣ المقال الآتي :—

عجب واسف على قضية الخديو في الجامع الازهر

لحضرة الفاضل العلامة النواب محسن النظام الاعزازي لعليكره كالج

قد استحرنا وتضجرنا وتحسرنا وتحيرنا من النطق الفاصل والحكم الفيصل، الذي قضى به سمو الخديو المصري على جامع الازهر، من جهة ماهو عليه من مكانته في العلم بالمعارف الجديدة والخبرة الواسعة المتسعة بالعلوم الحديثة ، وما كان بمرأى منه من الترقيات الحالية في أرض اروبا ، وعلى معرفة تامة بما يستتبع التعليم النافع من الآثار الجيدة ، والنتائج الحسنة ، والفوائد المستحسنة ، فليت شعري كيف بدا له أن يقضي بمثل هذه القضية ؟ أم كيف عن له أن يحكم بمثل هذا الحكم الذي تنسد به ذرائع الارتقاء والصعود على وجوه المسلمين ، وانه بنفسه لينظر إلى باقي الجامع الازهر من ضياع النفقات الكثيرة وضيعة الاموال المنفسة الثمينة التي تنفق فيها ، وهو بعد على خبرة تامة بحال الطلبة الخارجين عن هذا الجامع ، والذين يتحلاون من نصاب دروسهم منه لايكونون إلا صعاليك وسائلين وفي الرقاب ، وهم مع ذلك من أرباب الجهل البحت ، وأصحاب التعصب الذميم المحض ، وليس للجامع الازهر حظ من التعاليم الدينية الاصلية الحقيقية النافعة، ولا يوجد فيه ضرب من الدروس التي تنفع الناس، نظراً إلى ارتقائهم في معارج الفضائل الخلقية ، والمدارج الدنيوية، ومع كل ذلك فان السعادة الخديوية قضت على الجامع الازهر أن تدوم له تلك الحال التي كان عليها إلى الآن في النهج القديم الذي لايسمن ولا يغني من جوع ، ولا يقصد فيه إصلاح حال ، ولا يرام منه رعاية لجانب العواقب والمآل .

وأعظم من ذلك أن الحضرة الخديوية لم تقنع بمجرد هذا الامر، ولا بمحض هذا الحكم، بل أخذت تنبز بالالقاب من أراد منهم الاصلاح في أحوال الجامع، وزاد الخديو على ذلك بان وعدهم بالاجلاء عن حوزة ملكه، وهددهم بالنفي عن حومة دولته، وأجبر أمثال المفتي محمد عبده الذي من حق العالم الاسلامي أن يفتخر بوجوده، ويختال مرحا بكونه وشخصه، لعلو كعبه في العلوم، وسعة معرفته وخدمته للمعارف، ودراسته وصفاء سريرته، وتوقد قريحته، وجلاء قلبه وحدة ذهنه، ألجأه سمو الخديوي إلى الاستقالة وترك العضوية والنظارة، والذي ظهر لنا ان الخديو لا يريد بذلك إلا تطييب نفوس العوام، وإرضاء شيوخ الازهر الاعلام، وتنشيط قلوب هؤلاء الكرام، الذين لا يعرفون من العلم إلا الدارس، ومن الدرس إلا الخلق البالي، كما يحسبهم الجاهلون أنهم هم المسلمون حقاً، وأهل الديانة صدقاً، ويكون محلهم في أعين الخلق محل حماة الاسلام، وموقعهم موقع الذابين عن حمى شريعة خير الانام.

(وههنا استغرب عدم تدخل لورد كرومر في هذه المسألة، وعلله بتاعن له. ثم قال)

فأما اذا كان الامر كما وصفناه فهل يرتجى من أهل مصر أن يعرجوا بشيء في معارج الارتقاء، بعد ذلك القضاء المقلق، والحكم الموبق، الذي تصدعت له قلوب الحازمين من أهل الاسلام كافتهم؟ وهل يرتجى لهم بعد تلك الحادثة الهائلة أن يتمكنوا من الصلوحية للارتقاء في العلم والحكمة، بعد ولوعهم في مثل تلك الدروس الخاوية، وعكوفهم على تلك التعاليم الخلقة البالية، في الجامع الازهر؟ وهل في الوجود أحد أعرف بذلك من سمو الخديوي؟ الخديوي يعرف ان المسلمين الذين يتعلمون في الجامع الازهر في تلك الهيئة الرثة الخلقة، لا يزالون ينحدرون بها في غيابة الجهل والظلمة، ومنتهى غاية الذل والمسكنة، ولا يقدرون على شيء غير التقمص بقمص التعصب والجهالة، والارتزاق والاستيكال في وجوه الذلة والمهانة، ومن الآن لا يولد في أرض مصر رجل يكون له هوى في الوطن، ووله في ارتقاء القوم، وحرية في العزم والرأي، وان يخلق في هذه الأرض نسمة يكون من شأنها ادعاء الصلوحية، ودعوى القابلية للامور الحكمية،

والملكية لنفسها ، وقد تبين ذلك عند أهل مصر وهم قد افتهموا من هذا الحكم الهائل ان سمو الخديو قد آثر رضاء الشيوخ ومشايخ الازهر على فلاح القوم وصلاحهم،وقرب على ذلك بمثل هذا القربان والله المستعان على ذلك وفي كل نازلة

ولو ان أهل مصر كانوا يتوقعون من المستر دنلب بعد قنوطهم وإياسهم من جامع الازهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر ، ويكون فيها نشر التعاليم العالية واشاعة النصاب الاعلى في العلوم والحكم ، لكان في ذلك بعض تعزية عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الازهر ، ولكن الذي ظهر لنا انهم لايتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا كما قد يئسوا من ذلك الجانب، وعسى أن ينكشف لديهم ان أعضاء الدولة والذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لايرضون بان يتاح لهم من التعاليم ماتستنير به قلوبهم ، وتستضيء به أدمغتهم ، ويطلعون به على حقوقهم المليـة والسياسية ، ويعزمون به على طلبها، والاجتهاد والجد في تحصيلها ، واحراز الفائت منها .

فأما الدولة الانكليزية فقد أخذت أزمة الحكومة المصرية وأعنتها في يدها لمحض النصح التام لكافة أهلها ،وأن لا تألوا جهداً في تحسين صورتها وتجويد حالها ومنظرها، ولكننا نسلم ذلك الى الوقت الذي ليس لاهل مصر اطلاع على أحوال السياسة ، وإلمام وممارسة بفنون التمدن، وما فيه قوام الدولة وقيامها، أو هم ذاهلون عن اكتساب العلوم النافعة التي امتلكت بها أرض أوربا سائر البلاد، وذللت لنفسها كل صعاب الامصار والاقطار . ومعلوم ان هذه الذلة والهوان ، وان ذاك النعاس والنسيان، وهذا الحرمان والخذلان، وغيرها من المعايرالتي توجد في أهل مصر من أجل تلك التعاليم الدارسة البالية في الجامع، أصلها من هؤلاء الابرار من أهل العلم والمشيخة المقدسين، وهم السبب الاصيل والعلة التامة لهذه الحال الممتهنة ، وانما يكفي من تعليم الدين محض اسمه لاجل ارضاء المسلمين ، وتفريح خواطر العامة الجاهلين .

فأما نحن فقد أحطنا خبراً من الجرائد المصرية ان اهل مصر وان كانوا قد أحسوا بما فيه ملكهم ودولتهم من الارتقاء والاصطماد من أجل النظام الحاضر

البريطاني واخضرار عود المملكة به واستقامة عمودها لاجله ، وهم عارفون فضل الحرية التي اكتسبوها ولم يرزقوها من قبل — فهم بعد غير راضين بنهج التعليم الذي وضعه لهم المستر دنلوب رئيس ادارة التعليم وأسسه لهم وأنفذه بينهم في أرض مصر ، ويحسبون ان هذه الطريق لا تأذن لهم بشيء من الارتقاء والصعود. وهم لا يكتمون ذلك ولا يسرون رأيهم هذا ، بل يجاهرون به ويتصارخون في الجرائد المصرية ، ولكن لو أمكن في الوجود سبيل الى اصلاح الجامع الازهر وتسبل اليه اشاعة العلوم النافعة ، أو وقع رأي مثل المفتي محمد عبده وغيره ممن يبتغي الاصلاح في موقع القبول ، لكفت هذه الكلية وحدها لاصلاح المصريين ، وتخرج من هذه الكلية الباهرة متعلمون كانت أرض مصر تصير كمثل أوربا باجتهادهم في نشر التعاليم العالية وإحسان التربية لبني أوطانهم ممن يتعلم فيها .

أو ليس انه لو أصلح حال كلية مثل الجامع الازهر الذي يتعلم فيه عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف نفس ، ونشرت فيه العلوم الحديثة على منهاج كليات أوربا ، وأتيحت لهم الدروس الدينية مع العلوم العقلية ، وكان هناك نظم جيدة لتربية الرجال المتعلمين فيه — أفلا يتخرج منه في كل سنة مائة نفس يحامون عن الاسلام والمدنية ، وتستنير قلوبهم وأدمغتهم بأنوار العلوم الحقيقية ، ويمحون بذلك عن المسلمين نسبة الجهالة ، ورسام فقد القابلية للارتقاء والنهضة ؟

الحق ان الحكم الذي قضى به سمو الخديو انما هو غضب من الله وعذابه حل على أهل مصر ، وقد تمثل وتصور في هيئة هذا الحكم الهائل الخديوى ، وللمصريين أن يقنطوا من الآن وييئسوا منذ الساعة من ارتقائهم في معارج الصعود ، ويقيموا المآتم بالبكاء والعويل على ما فاتهم من تعليم العلوم النافعة والفنون المفيدة لهم . ولشيوخ الازهر وأساتذتها أن يتعيدوا بمثل هذا العيد العظيم ، وأن يبارك كل واحد منهم الآخر ويهنئه على انه من الآن لن يتطرق الخلل الى ملاذ هؤلاء المعممين ومنافعهم المزخرفة ومعايشهم الدينية والدنيوية ، وان كان يستتبع ذلك هلاك قومهم ، وطلف اخوانهم وتلف أبناء أوطانهم

ثم إن علماء الازهر قد وصفوا هذه العلوم الجديدة بأنها مطفئة لنور الاسلام

وإن الخديوي بنفسه وصف العلوم التي تتلقى الان في الجامع الازهر فقال انها تبعد الرجل عن عقائده الدينية ، وتحول بينه وبين تركها ، والانصراف عنها، وقد عبر عن اشاعة العلوم الجديدة الشائعة في تلك السنين والاعوام ، وادخالها في نصاب التعليم بالوساوس والاوهام، ووصف الذين يبتغون الاصلاح، ويسعون من أجل تلك الامصار والبلاد ، بأهل الشر والفساد ، وهذه الاقوال والكلمات وان هي احلولت في مذاق القوم ومطعمهم ، وراقهم زخرفها وزبرجها لما يحسبون فيها من احياء رميم الدين ، واعلاء كلمة الشرع المتين ، فانه بعد قد تبين للعاقل ان من الحق غير ما ارتآه هؤلاء ، وخلاف مازعمه وذهب اليه أولئك الناس، وان قولهم ضد ما يقوله الاسلام بنفسه ، أو رآه سلفنا الصالحون به من قبل ، فهؤلاء كأنهم قد صرحوا بخطاباتهم وكلماتهم تلك ان الاسلام أشد مبغض وأمرّ قال للمدنية ، والارتقاء للعلوم الطبيعية، مباغض لها ولمدلولها أي مباغض، ومعاد لها ولمنطوقها أي عداء ،وكان المسلمون في رأي هؤلاء بمعزل عن الاستعداد والقابلية في الارتقاء والاصطعاد ،فقد طعن هؤلاء في الاسلام طعنة ماطعنه بها أشد المبغضين له ،ولا رماه بها أعظم المعادين معه ، وقد عادى هؤلاء إخوانهم معاداة لا يستطيع أن يزيد عليها أكبر أعاديهم، ولا يستزيدها أعظم مبغضيهم

وإنما يزيدك عجباً إلى عجب أن سمو الخديوى لعلى علم باستقراره على عرش الملوك الذين سبقوه وتسلطنوا في أرض مصر، وكانوا ممن أشاعوا العلم والحكمة لا في ملكهم خاصة بل في سائر البلاد والاقوام، أولست بخبير بما صنعه الكلدانيون(١) وتلاهم في ذلك البطالسة الاقدمون ، وجاء على أثرهم الفاطميون، وهذا مضافا إلى ماسبقهم في ذلك من جماعة آل عباس الذين امتلكوا هذه البلاد وأشاعوا فيها العلم والحكمة

أو مادار في خلده انه خليفة هؤلاء الملوك الماضين، ومن خلف هؤلاء السلف الفاضلين ؟ وان أرض مصر أرض تخرج منها أناس كانوا أول من تكلم على صناعة حبوطربا(٢) وحسبوا حركات النجوم وتقويمها وسيرها ورجوعها واستقامتها

(١) لعله اراد ان يقول الفرعونيون فوقع فى ذهنه اقرانهم الكلدانيون اهل مدنية العراق فرسم قلمه هذه موضع تلك ،أو أراد الجمع بينهما

(٢) كذا فى الاصل غير منقوط والمراد تحنيط الموتى

وتداويرها وجور جرائها وحواملها ومتماتها . واليونانيون بأسرهم على جلالهم في هذا الشأن عيال على هؤلاء المصريين فان تاليسهم(١) أول من أخذ هذه العلوم منهم، وأخذت الهند علومهم من الفينيقيين الذي كانوا في نوبتهم تعلموا هذه العلوم من المصريين فيما هو مبين من المقالة الرابعة البديعة الحكمية الشهيرة (بالاوائل العلوية ، في الحكمة العربية) التي نشرت في الثمرة السابعة من الجزء الاول من البيان الاغر فليرجع اليه

وارض مصر بنفسها الى الآن مكتنزة لعجائب علوم المصريين وعماراتهم البديعة التي أعجزت الفلاسفة الافرنجيين عن اكتناه سرها، واعيتهم عن الوصول الى تخوم حقيقتها، وفيها الى الآن من تلك الآثار المغربة والعلوم المبهرة مالا يعلم حدها إلا الله عز وجل

هذا وان سمو الخديوي لا يرى حقاً في ردم باب الحكمة على وجه رعيته، ولا يحسب ذلك ضيماً في شان صعاليك قومه وملته،ولا يستحي من النظر الى مكانته واستقراره في عرش مملكته ، في أي أرض يملك ؟ أم على عرش من هو جالس ؟ أم خليفة من هو من الملوك الماضيين الفاضلين ، أم رئيس من هو ممن تخرج من الحكماء الكاملين، من تلك الآفاق والارضين

ونحن منمقون شيئا في هذا الباب في الزمن القابل ونبين للناس غلط الخديو وشيوخ الازهر من الكتاب والسنة ، وأقاويل حكماء الاسلام في العهد القادم .

وعما قريب سنوضح للناس أن سعادة الخديوي وعلماء الازهر قد أضروا بالقوم والملة ضرراً لا يستطيع أحد أن يكافئه بشيء أو يكفي شره بنوع (٢) وهؤلاء الشيوخ والخديو وإن فرحوا الآن بما قد صنعوه في الحال فما قريب يذوقون من مرارة سمومه في مواخره وصعاب عواقبه ومعاثره (لملها مصايره) ، مالا غاية له إلا موت القوم والملة ،ولا نهاية له إلا فوت العلم والحكمة (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

---

(١) هو طالس أقدم فلاسفتهم السبعة (٢) قد أرسل الينا هذا المقال وقتئذ وننشره فيما يلي بعد مقدمته له فيما كان سببه

﴿ تعليق جريدة الرياض على مقالة النواب ﴾

[الرياض] الازهر أكبر كلية اسلامية في العالم فكان أجدر به ان يخرج منه رجال يفتخر العالم الاسلامي بهم وبعلومهم ، ويستفيد المسلمون من أدوار معارفهم ، ويرتفع بهم الدرجة العلمية الاسلامية التي ألحظت منذ عدة قرون

أفليس هذا محل الاسف ؟ ان هذه الكلية الاسلامية مع كثرة المعلمين والمتعلمين فيها لاتفيد المسلمين إلا تعصباً وجهالة، ولا يزيدهم إلا اخساراً في العلم والتمدن وانحطاطاً في العلوم الحديثة والقديمة ، وخسراناً في المعارف الكونية والدينية

فأي شخص أعلم من حضرة الخديوي بسوء تربيته ، ونقص تعليمه، وفساد نصابه ، فان سموه قضى معظم عمره الشريف في سياحة البلاد الاوربية ، واختبر بنفسه نتائج الكليات الغربية ،فهو عالم بالعلوم الحديثة والقديمة عارف باسباب تقدم الاقوام وتأخرهم،وترقيهم وتدليهم وحياتهم وموتهم

بناء على هذه الوجوه عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى به في جمع حافل من العلماء ، وشدد النكير على حزب المصلحين وجماعة المخلصين ، وعنفهم وأنذرهم بسوء عاقبة هذه الوساوس والاوهام ، فان اقتضت المصالح المصرية بالغاء العلوم الجديدة من الازهر فكان الانسب عندنا أن يرتفع النصاب الديني إلى الدرج الاعلى في جميع العلوم المتعلقة بالديانة الاسلامية كالفقه وأصول الفقه، والتفسير وأصولها ، وعلم الحديث بأسانيده وأصوله ، وعلم الكلام الذي هو الفلسفة الالهية الاسلامية إلى النهاية التي بلغت إلى الآن ، والعلوم التي هي مثل المبادىء لهذه العلوم كالادب والبديع والبيان والانشاء والبلاغة بحيث من يتم دروسه يكون على بصيرة تامة في جميع الاصول الاسلامية وفروعها ويقدر على اثبات العقائد الاسلامية بالبراهين القاطعة ، ويكون له نفوذ عظيم في العالم الاسلامي ، فان ارتفع تعليم الازهر على هذه الدرجة يستحق أن يقال له انه نافع للمسلمين في دينهم ، ويبقى الضرورة الدنيوية على حالها ، وإلا فالآن يصدق على من يخرج من الازهر: ليس له في الدنيا نصيب، وما له في العلوم الاسلامية من خلاق اهـ

دفاع المنار عن علماء الازهر

فيما نبزهم به النواب محسن الملك

نشرنا فيما تقدم ماجاءنا في كتاب طويل من النواب رحمه الله تعالى خاصا بترك الاستاذ الامام للازهر بعد اطراء طويل للمنار ولنا ، وقفينا عليه بمقالته الحافلة في هذا الموضوع التي نشرها في جريدة الرياض الهندية ووعد في آخرها بالرد علينا فيما دافعنا به عن علماء الازهر

وانَّنا ننشر هنا ذلك الدفاع عنهم بنصه ونقفي عليه برد النواب فنقول :

كنا بدأنا جواب المنار على كتاب النواب الجليل بما يتعلق باقتراحه علينا الاستمرار على كتابة المقالات الحازة للقلوب ، الحفازة للهمم ، المؤكفة للديم ، ثم عطفنا عليها الجواب عن أقواله الجائزة الجائرة لعلماء الازهر التي أملاها عليه تألمه وتبرمه بما كان من خطبة الخديو وحديث شيخ الازهر السابقين ، وهذا نص عبارتنا (في ص ٢٣٥ من مجلد المنار الثامن)

وأما ترك الاستاذ الامام للازهر فهو لم يكن من يأس ألمَّ بنفسه الكبيرة ، ولا عن ضعف في همته العلية ، ولا لمقاومة علماء الازهر لما يريده من اصلاح التعليم، أو اضافة علوم جديدة على مايقرأ في الازهر من العلوم، وانما هو ماتسمتموه من الجرائد المصرية ، ونزيدكم فيه بيانا بمكاتبة شخصية، وقد ظلم العقلاء عندنا وعندكم علماء الازهر فأنزلوهم من درجتهم في العلم والفهم، كما أعطوهم اكثر من سهمهم من الشعور والاخلاق

أما ظلمهم اياهم فهو اعتقادهم وقولهم فيهم انهم يعتقدون أن العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين،وتفسد العقائد في قلوب المسلمين ، وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم . وكل هذه الظنون فيهم باطلة فان من أصحاب الدرجة العلميــة الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها، فكيف لايخافون الكفر والضلال على أفلاذ أكبادهم مع عدم تمكنهم من العلوم الدينية، ويخافون ذلك على طلاب الازهر المتوغلين في علوم الدين؟

أن هذا شيء لا يعقل . ثم كيف يطعنون باكابر علماء الاسلام الاعلام الذين تمكنوا من علوم الدنيا وصاروا يعدون من الفلاسفة كالامام الغزالي والامام الرازي وفلان وفلان؟ ثم كيف لا يطعنون بدين أكابر أمرائهم وحكامهم في هذا العصر وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا وقلما يوجد فيهم من تلقى عقيدة الاسلام ببراهينها ، أو عرف مهمات أحكامها، ولو غفلا من دلائلها وحكمها ، وان منهم من يصف بعض هؤلاء الامراء بالتقوى والصلاح . فظلم وألف ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقا عن علومه ،وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين،وأنه دين عام وأن لا دين بعده أوفق لمصلحة جميع البشر منه، مع استلزام هذا لكون الاسلام يتفق مع علوم البشر ومدنيتهم في كل زمان وإلا كان متضمنا لتكليفهم ما لا يطيقون نعم انه يوجد فيهم بعض الاغبياء الذين يعبث بهم هذا الوهم ،ولكن الحكم على جميعهم أو اكثرهم بذلك ظلم وجور . وانني اقول ان الاستاذ الامام لم يقرر في إصلاح الازهر شيئا إلا برأي جماعة من كبرائهم واستحسانهم، وقد نفذ بعض ماطلبه وحاوله برضاهم وموافقتهم ،وأوقف بعض الاصلاح للاسباب التي لا اصرح بشرحها بعد رضاهم به واعترافهم بفائدته (١)

وأما وصفهم بأكثر مما يستحقون من الشعور بالمصلحة وإرادة الخير فهو تابع لذلك الظلم،وهو اعتقاد كثير من العقلاء في مصر وفي أقطار أخرى ان هؤلاء الناس أعداء الاصلاح الذي عرف سراة الامة وعقلاؤها شدة الحاجة اليه لما في قلوبهم من الشعور بضرره ،ولما عندهم من الارادة القوية والعزيمة الصادقة والغيرة الملتهبة على الاسلام والمسلمين وانهم لا يخافون في ذلك لومة لائم ،ولا سطوة حاكم ، ولا حرمانا من منفعة مالية،أو كسوة تشريف قصبية، والحق أن هذا الصنف الشريف الذى كان له من قوة العزيمة بالاتحاد والاتفاق مايقيم به محمد علي باشا حاكما على البلاد المصرية قد استضعف فضعف حتى صار لا يجهر برأيه الا اذا أيقن ان قويا يمده،أو حاكما يسنده، وكثيراً ما يستحسن أمراً ثم يستهجنه ، او يستقبح شيئا ثم يستحسنه، ولقد كان

(١) أعني إغراء الخديو لهم ، وهذا شر ما شكوته من ضعف أخلاقهم

أكابر علماء الازهر موافقين للشيخ محمد عبده في كل شيء يقترحه لاصلاح الازهر أيام كان مؤيداً بنفوذ الامير، وانما كانوا يرغبون اليه في أن يكون ذلك بالتدريج البطيء، لانهم لم يتعودوه ويثقل على المرء لاسيما الكبير المضي فيما لم يتعود ولما بدا للأمير في تأييده ومساعدته وقف كل اقتراح، وعورض كل اصلاح حتى لم يبق للحكومة الخديوية ثقة بتخريج القضاة في ذلك المكان فهي ستبني مدرسة جديدة لتخريجهم فيها، ولم يبق لها من العناية بالازهر الاحفظ الامن فيه كما هو حق كل أحد وكل شيء على الحكومة

لاجل هذا ترك الازهر ولكن آثاره الصالحة لن تتركه، فهو قد وضع أساس النظام الذي قد يضعف تارة ويقوى تارة وقد يزاد فيه وينقص منه ولكنه لا يزول. وهو قد نفخ في نفوس كثير من الاذكياء فيه روح الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم وإصلاح الاخلاق وخدمة الاسلام والمسلمين والسعي في ازالة ما غشيهم من البدع والفتن فاضعفهم وأذلهم فلن يموت هذا الشعور . ثم أنه لم يزدد الا رجاء بالله وهمة في خدمة ملته بالعمل والتدريس والتأليف لا يثنيه عن ذلك ثان الا ما يلم به من المرض أحياناً شفاه الله ونفع به آمين

هذا وان العبرة الكبرى فيما كتب هذا السري الكبير هو احساس المسلمين المخلصين الذين يعرفون الاسلام ويغارون عليه بأن الاصلاح اذا ظهر في أي قطر ففائدته لا بد أن تكون عامة لكل البلاد الاسلامية، وان النور اذا ظهر في هذه الامة من أي مطلع فانه ينبسط على جميع البقاع لان هذه الامة أمة واحدة، ربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، والهداية في دينه على ملة واحدة وهي ماجاء به نبيه (ص) عنه، ومصلحتها لذلك واحدة، فما يضرها يضر جميع المنتمين لها وما ينفعها ينفعهم أجمعين.

لاجل هذا أحس الاحياء من مسلمي الهند بان ما دهي به الاصلاح في الازهر هو مصيبة على الاسلام والمسلمين في جميع الارض لانه كان يرجى أن يكون خيره متى ثبت ونجح عاماً لجميع مسلمي الارض ولو بعد حين . فماذا يقول أولئك الذين يريدون أن يقطعوا أوصال المسلمين بنزعات «الوطنية» الفاسدة في هذا الاحساس الشريف من إخواننا في الهند وكذا في غيرها ؟ اه

(ويليه رد النواب على هذا الدفاع نقلا عن المنار: ص ٦٨١ م٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نعبد وإياه نستعين

سعادة الفاضل الحكيم العلامة ، دمتم بالعز والكرامة

سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، وأصلي على نبيه النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه السادة الاهاميم (وبعد) فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن صنيعكم الينا من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي . وقد سرني أيضا ما قد استتبعتم ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر واستفراغكم الوسع بذلك في دفع ماوقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتآها الناس فيهم ، ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم ، هو أن تعفو عني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد ، فانه يا أخي ليس فيما أحسب مما يطمئن به بال أحد، أو أن يفند به ماقد رآه أكثر اهل النظر في هؤلاء العلماء من انهم لا يحبون إشاعة العلوم الحديثة ، ولا يجوزون لها السبيل والتطريق في المدارس والكليات ،ولا واحد عندي يقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما أحسب، فقد علمت ياسيدي أن تعسف علماء الازهر وتعصبهم للعلوم الخلقة البالية، وخلافهم للاصلاح في شؤون التعليم والاخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه أحد ،فقد شحنت بذلك الجرائد المصرية كلها لاسيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم لا يجوزون العدول بيسير عن المنوال المتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس في الجامع الازهر ، ويتحرجون من تشكيل صناعة التاريخ والجغرافية في نصاب الدرس الحاضر ، فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج الجديد في أرض أوربا ؟

أفحسبت ياسيدى ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية، ولا يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهاراً ،أفتراهم يقلعون عن رأيهم في شأن

هؤلاء العلماء؟ أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفدتم بنفسكم بأنهم يعتقدون ان العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان إصلاح طريقة التعليم خروج عن الصراط المستقيم ـ أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل؟ أم تراهم يوافقونك في قولك: وكل هذه الظنون فيهم باطلة؟ كلا ولا كرامة، وحاشاهم عن ذلك

فأما انتم فلعمري لم تألو جهداً في المحاماة عن هؤلاء العلماء، وأتيتم في بيان ذلك بحجتين، وكلتاهما ننتقد عليها، وننظر في وزنهما ورجحهما، على منهاج أصحاب النظر، أما الحجة الاولى فقولكم: ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم: ولا يطعنون بدين أكابر امرائهم وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا الخ. ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعا، ولا يحامي أو يذب عنهم بشيء، فقد عرفتم ماهو من ديدن علماء هذا العصر انهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازى وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم ـ قال:

ترك دنيا بمردم آموزند　　خويشتن سيم وغله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم(*) ومن ديدنهم أيضا ان لا يطعنوا بشيء على الامراء والولاة كيلا لا يحرموا من صلاتهم، ولا ييأسوا من استجلاب خيرهم ومبراتهم، بل وإنا نراهم يوافقون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على أفاعيلهم، ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين، فتراهم لا ينكرون عليها بل يعاضدونهم بموافقتهم ومشاركتهم فيها. وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فمشايخ الازهر يقرءون في كتب الحديث نهي الشارع عن بناء

(*) قال الشاعر العربي:

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها　　أفاويق حتى مايدر لها ثعل

القبور واتخاذ المساجد عليها ، واتخاذها أعياداً وتعظيمها . ثم انهم يشاركونه العامة في هذه الاعياد التي يسمونها موالد على مافيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه . ثم انهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف ويفرقه ، وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين ، وقد أمرني بذلك بعضهم وكان شيخا للازهر قائلا : انك من أهل العلم لايليق بك أن ترسل شعرك فاحلقه ، فحججته بالسنة ، فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه الثمرة الحاضرة « وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفا للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج ، فأما إذا أخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجها في هذا العصر إلى علماء الدين فانهم يحلقون ، بل ينكرون على من لم يحلق وهم مخطئون »

هذا — أم كيف يوافقكم أحد في قولكم «ظلم وأي ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم إنهم يعدون علوم الدنيا خطرا على الدين أو عائقا عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين» الخ ـ وقد سلف منا مراراً انا قد رأينا في (الجوائب المصرية) انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين يجله كبيرهم وصغيرهم لعلمه وفضله ، ويعدونه حجة وقته وإمام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ، ومن رأيه مايقول لمدير الجوائب ماتلك ألفاظه « غرض السلف من تأسيس الازهر : إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له »

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلا « هل حدث يامولاي مايقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟» فتبسم الاستاذ ثم قال « بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ، ويحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية » الخ ويجاهر في آخر كلامه متظاهراً قائلا « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا »

وليتركوه كما هو حصن للدين ، وان أرادوا به إصلاحا فليكن الاصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وماسوى ذلك من مبادىء الفلسفة ، والعلوم الحديثة العالية ، فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه »

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وانا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأثاروا في إصلاح الازهر بما اضطر الخديوي إلى إخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الازهر قائلا « إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الاسلامية.

« ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائما » ولما كان يخال ان هؤلاء الرهط الذين يرومون الاصلاح كلهم مفسدون قال فيهم « أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء ، ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والاوهام او الايهام بالاقوال ، او بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده ويبث فيها مايريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الازهر والازهريين » (١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء أكثرهم لايجوزون الاصلاح في النهج القديم للتعليم ويحسبون أن العلوم الحديثة بأسرها مطفئة لنور الاسلام ، ولعمري ان هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الازهر الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزاً للنكبة، وموطنا للمذلة ، ومعقلا للمتربة ، وموضعاً للمسغبة ، ولو نظرت إلى العلوم التي تدرس فيها لوجدته بأسرها علوما بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوما دينية، ولا تجد فيها إلا تلقين نبذ من المسائل التي تشمئز منها العقول،

(١) المنار : قالت جريدة اللواء يومئذ ان المراد بالاجنبي هنا صاحب المنار

وتمج قبولها أحلام الفحول ، وذلك من أجل مخالفتها لقواعد الحكمة وأصول الفطرة ، ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من المطالب التي لا تستنير بها أدمغة الرجال ، ولا يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم ، بل يتركز بها التقليد في تخوم قلوبهم ، وقد امتلأ القرآن العزيز بذمه ، وشحن الكتاب المجيد برده ، وجل همتهم في أن يحمل الناس على منهاج يعتقدون به ان الاسلام بدع هذه البدع ، ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من أحاديث خرافة ، بل عين الشرك الجلي ، فضلا عن الشرك الخفي ، وانما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء إما في الدنيا او في الدين ، هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم . فأما سبل التعليم ومنهاج تدريسهم ونظام الامور فيه فأمره أشهر من أن يذكر ، وأبين من أن يوضح ، ولقد تفجع له بعض فضلاء الهند الذي كان حل بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا إلى حيدراباد عاصمة دكن ولقد نشرتموه في الجزء العاشر من المجلد الخامس من مجلتكم المنار

وبعد ذلك فهل تحسبون انا نحسن الظن بهؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا إلى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم ، فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية ، وكانوا يحضون المسلمين ويحثونهم ويحرضونهم على تحصيلها في تآليفهم وكتبهم وأسفارهم وزبرهم التي كانوا يعملونها لنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلان اني آنست ناراً في وادي هذه الفنون ، لعلي آتيكم منها بخبر أو قبس لعلكم تصطلون »

أوليس هؤلاء العلماء قد عثروا على قضية عمر بن حسام فيما أخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الابهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرءونه ؟ فقال افسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأنا أفسر كيفية بنائها . ولقد صدق الابهري فيما قال : فان من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته . انتهى كلام الرازى بعيون ألفاظه

اولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن

رشد (الذى) نص فيه على وجوب معرفة الوجودات والعلم بحقائقها من جهة الشرع، وان القرآن العزيز قد أمرنا بذلك أمراً أكيداً في كثير من الآيات وكتب في آخر ذلك ماتلك عيون ألفاظه « وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى...... » ولم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئة فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في (التصريح شرح التشريح) للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عنين في معرفة الله (١)

وأعظم من ذلك كله الاثر المأثور المشهور عن سيدنا علي فيما أشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزانة الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخالف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لاسراره الغامضة الدقيقة. وهو قول معروف عنه وقد أخرج الخبر بمفصلا الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن يعيش القرشي التيمي في بعض مقاطيع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغثاثة فليرجع اليه

هذا وانه لن يذهب عنا الاسف والكمد الذى نجده في أنفسنا من جهة قضية الخديو وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا العصر في حاجة إلي مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وأمثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده وأضرابه الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام، ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزيغ عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة، وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسلمين تعليمها والاخذ بها وتعلمها، فيخرجوا بذلك عن قعر الذل وغيابة الهوان والصغار التي ألقوا

(١) يعني ان علمه يكون عقيما غير منتج

فيها وهم صاغرون ، وقد لزم الاسلام بهم عار قبح به منظره، وساءت بذلك هيئته، وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء ، في معارج العز والاعتلاء ، فأما نحن فلسنا في حاجة إلى أمثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مطفئة لنور الاسلام ومخمدة لناره ، ومطمسة لآثاره ، ومجلية له عن عقر داره، ومحله وقراره

أو ليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضاحك بها الاعداء ، ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكاب الدماء ؟ أو ليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، أي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتتفطر بها الاكباد، وتجود لها المحاجر والآماق بأنهار الدماء السائلات ، وتنسكب لها قاني الامطار من المقل الغائرات ، خرجت الممالك من أيمانهم، واضمحلت الدول التي بقيت في أيديهم ، كأنهم لا حراك بهم ، وصاروا في العالم كأنهم اللعبة تتداولها أيدي الاجانب ، وتتلاعب بها أكف الاباعد ، بما خرجوا عن امتلاك الاقارب، لايحس فيهم شيء من آثار الثروة ، ولا عندهم ميل الى التجارة والصنعة بل هم زاهدون فيها، وراغبون عنها، يستقبحون شكلها ومنظرها، ويستفظعون محلها ومصدرها، ورضوا بالافتقار، في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ماعون يسير، من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرج للمساجد والصوامع من أرض الفرنج ولا يتخذون من ذلك شيئا بانفسهم وأيديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، ومابقي عندهم امرة ولا دولة ، وأما عددهم فهم وإن كانوا يبلغون إلى ألف مليون نفس في العالم فهم بعد ليسوا في قطر من أقطار الدنيا ممن يفتخر هنالك بوجودهم، ولا ممن يتفاخر بهم على لسان وليهم وودودهم ، أو يفرح الرجل بالنظر إلى عيونهم وأشخاصهم ، او يسير اخوهم اذا كان يرمق إلى عدهم وافرادهم — فماذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ، وبيد من رهنت ذمة هذه الامور

والذى أحسب ان جل السبب في ذلك ليس إلا نفارهم عن العلوم الحديثة وتعاميهم عنها ، واثم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يزرون تلك الاوزار ،

ويجوزون للمسلمين أن يخرجوا عن غمار الذل والصغار . ومن ثم تراهم يرعوون عن التعاليم النافعة ، ويردعون الناس عنها بفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم الحديثة، ويحولون بينهم وبينها، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ، ولا يشعرون أن ارتقاء الاوربيين الذى يضرب به المثل اليوم ليس إلا من جهة توغلهم في العلوم الجديدة، ونبوغهم في الحكم الحديثة ، وكل دولهم وقوتهم منسوبة في الاصل الى تجارتهم وحرفهم، وهي في نوبتها منسوبة إلى تناغيهم في هذه العلوم الجديدة النافعة

دع عنك أروبا وانظر إلى هذه الامة الحقيرة التي يقال لها أمة جابان ؟ أفلا يرونها كيف ارتقت في مدة لاتنيف على عدة سنين ، لا تعد إلا على أنامل الآدميين، ارتقاء مبهراً بهرت الانظار، وخطفت لها النواظر والابصار، أفليس انها لم تستكمل لنفسها مدة خمسين سنة، وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة، وتستحقرها الامم المتمدنة ، وهى اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود والارتقاء، وقد أدهشت الدنيا باسرها باعمالها البديعة التي صدرت منها في هذه الازمان وكل واحد يحترمها كل الاحترام ، وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان، فماذا الذى قلبها عن حالها القديم ، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد الرميم؟ ماذلك إلا من أجل تناغيها في العلوم والحكم ، والازهريون على خبرة من حالها ، ومنهاج ارتقائها ومنوالها، وانما الاسف عليهم من أجل انهم لا يقيسون أنفسهم بهؤلاء ولا ينظرون في علل تلك الاشياء ، ولا يفكرون في أسبابها التي أورثتهم الارتفاع ، وأورثتنا الانحطاط والانخفاض. ولو كان عندهم صواب في الرأي وحزم في الروية ومعرفة صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ، ولكان كل واحد منهم مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذى أضل الناس كثيراً ، ولكان يسلك في منهاج التحقيق الذى هو الصراط المستقيم، ويضيء فضاء الارض برحبها، وينور العالم الاسلامي بسعته كلها، بشعلة الاسلام، ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعرى ماذا الذى علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات البدنية؟ أم نبذ من تلك المراسم الظاهرية؟ أو مطالب عديدة من مسائل النفاس

والحيض (التي) يمنون بها التعليم الديني لا غير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامة ، وحاشاها عن ذلك ، بل قد دلانا على مافيه جل الخير وتمام النفع في الدين والدنيا وكال الربح في الاخلاق والمدنية ، وعلمانا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية، وأوجبا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية بأسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لمثلكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضاآتكم (١) البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا أن الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية ، والعوائد الملية والقومية ، وهو الذي تخذ العلم والعقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ، ولو لم يكن الازهريون يظنون ظناً باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لايعتد ولا يعبأ بها ، واكثر هذه المطالب ليست بجديرة للعمل في هذه الاعصر والدهور (٢) ولو عرفوا مافي تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ماهو معلوم عند كل ذي حجي وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين لما رؤي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ، ونهايتهم من الصغار والخذلان ، ولو كانوا يعلمون أن العلوم العقلية والكونية عين العلوم الدينية ، لكانت كلية كيمبردج واكسفورد تحسد كلية الازهر وتغبطها غبطة ما كان يجحدها أحد ولتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يصعدون بالبلاد الاسلامية ويحلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء ، التي وصلت اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان ،

هذا رأيي ورأى سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على أخبارها وإلمام بتواريخها ، واني لقاطع بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصيلة لكل هذا الصغار والهوان ، وتمام تلك النكبة والخذلان ، وهم موقوفون غداً بين يدي الرحمن ، ومسئولون من لدنه فليستعدوا للجواب ، فهم الاصل الاصيل لجل هذه المفاسد وكل تلك الشنائع

وأنت يا أخي لا تستطيع وإن جهدت كل جهدك للمحاماة عن علماء الازهر

(١) يعني بهذه الامضاءات مقالات المنار الاصلاحية (٢) يعني مثل أبواب الرقيق

أن تغسل هذا العار عنهم ، وتدفع هذه التبعة والنقيصة منهم ، فانك لا تستطيع أن تكذب الحس والعيان ، ولا ان تدفع الوقائع التي حدثت في الادهر والازمان . أفهذه الكلية التي مضت لبنائها الف سنة ونخرج منها مليون بل أضعاف مليون طلبة ، ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة، أفيحق أن يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غداءهم بالذلة ، وعشاءهم بالمسكنة ، ويبيتون وهم مخذولون بالمسغبة ، او يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج منها أناس يرتفع بهم منار الدين، ويتقد به نور الاسلام ويعلو قدر المسلمين، ويهتدي بها المسلمون إلى واجب الصعود والارتقاء، ويزيدهم عزة وبهاء ، ويهيء لهم ذرائع الاصطعاد والاعتلاء .

وانما يحزننا أولا انا نجد المسلمين في أي مصر وأية نقطة من نقاط الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة ، غافلين عنها غير مكترثين بها، وثانيا انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة، ولواحب الاكتساب متسعة، ومناهج التدريس مطروقة متفتحة، وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم، يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار، الذي تضيع فيه الاعمار ، ويضاع فيها الفضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاطل العتيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة، وينسلب من أجلها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ، ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة، يصطلحون على أن يسموه تعليما دينيا — وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرجعة والنفاس والحيض رجلا عالما ولا غير

هذا واني لست بمسهب مقالتي في هذا الشان، ولا بمطنب في شكايتي من علماء الزمان، نظراً إلى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤونهم واخبارهم ، فنحن في غنى عن إطالة الكلام عليها، وبمعزل عن إسهاب المقال فيها، وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وفقدان نفعها للمسلمين وضوح الشمس في كبد السماء ، وانما بقي

وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدراس الواحد في الدنيا من قديم الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع المفاسد الملية والدنية في الاسلام ولا غير، ولو تقبل الناس آراء المفتي محمد بن عبده و بادروها بالقبول لكنا نأمل منه خروج المسلمين عن غياية الذل والنكبة ، ونترقب صعودهم إلى أعلى قنن الفوز والسعادة ، ولكن عليكم بعد أن لاتيأسوا من روح الله ، وتجدوا كل الجد في اصلاح المسلمين ، وأحسنوا ان الله لايضيع أجر المحسنين . وكتب يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٣٢٣)

وأنا مخلصكم الصفي الوفي

(محسن الملك)

[المؤلف] انني نشرت لصديقي أمير العلماء والمصلحين في الهند مقالته هذه في السنة التالية ولم أناقشه في شيء منها، وهو يحتج علي بالمنار في كثير مما انتقده علي . ولكنه لم يفهم مرادي من الدفاع عن علماء الازهر في تلك الحادثة بعد حملاتي الكثيرة عليهم من قبل لأنني لم اقدر أن أبينه البيان التام كما بينته هنا ، وهو أن الذين هبوا لمقاومة الاصلاح في الازهر لم يكن الباعث على ثورتهم جهلهم بالحاجة الى الاصلاح ولا الغيرة على الدين وانما كان الخديو هو الذي سخرهم واستخدمهم لذلك وروجت له جرائده هذا الايهام وهي المؤيد واللواء والجوائب المصرية والظاهر ، وكان هو يظن أنهم هم الذين بعثوا الخديو بل الجأوه الى ما فعل . وقد كتبت في تلك الاثناء مقالة في حقيقه حال الازهر واصلاحه لم أتمكن من نشرها ولو رآها النواب رحمه الله تعالى لما اشتبه في شيء من كلامنا الاول ، فننشر هنا مقدمتها وهي

حقيقة الازهر (*)

﴿ واهاوم الناس في علمه وتعليمه ، وما عرض حديثا في محاولة إصلاحه ﴾

للناس في وظيفة الازهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الازهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشتغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الارض أيام لا علم إلا علمهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدنية إلا مدنيتهم . ولما فتكت الادواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والاندلس وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الازهر في القلب او الوسط عضوا اثريا ليس له وظيفة حية لها أثر في العمران الاسلامي ، ونعني بكونها عضواً أثريا أنها حفظت بعض التصانيف التي ألفت في آخر عهد حياة العلم ، وكتبا أخرى كتبت في عهد موته ، نسخ بها كاتبوها المقلدون ، ما أنشأه وسواه المتقدمون

يظن بعض الناظرين إلى الظواهر أنه لو لم يحفظ الازهر هذه الكتب بمدارستها لدرست رسوم الاسلام ، ونسيت لغته ، وجهلت علومه ، إلا بقايا لا يعتد بها في جامع تونس وجامع فاس ، وبعض البلاد التي غلبت عليها العجمة كبلاد الهند والروم ، فللازهر – على رأي هؤلاء – الفضل الاكبر على الاسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم . ولو دققوا النظر لرأوا أن فائدة الازهر في هذه القرون الاخيرة فائدة تاريخية لا حيوية ، كما هو شأن الاعضاء الاثرية ، فبها يعرف المؤرخ البصير كيف انحط العلم في المسلمين وإلى أي هوة هبط ؟ وما كل ما يفيد المؤرخ لامة يكون مفيداً لها ، إذ المؤرخ يبحث عن الضار والنافع ، وعن أسباب الترقي وأسباب التدلي والانحطاط

ان الطريقة التي جرى عليها الازهر في مدارسة بعض كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية غير موصلة إلى الغاية التي وضعت لها تلك الفنون والعلوم ، ثم

(١) مقالة كتبناها فى وقت الانقلاب لبيان اسبابه تنشر هنا مقدمتها فقط

هي عقبة في كل طريقة يمكن أن يشرعها محبو الاصلاح الذين ينكشف لهم قبحها وانحرافها عن جهة الغاية . ذلك ان اهل الازهر جمدوا على التقليد لما يفهمون من عبارات تلك الكتب فلم يعودوا ينظرون في المقاصد والغايات من العلوم، ولا في كون الغايات موافقة لمصلحة الامة العامة التي هي روح الشريعة ، وقد اتخذهم الناس رؤساء في الدين وظنوا كما ظن بعض الامم قبلهم انه لا يحل للامة إلا مايحلون، وانه يحرم عليها كل مايحرمون ، فحرم المسلمون بهذا الاستفادة من روح الحياة المنبثة في القرآن لان علماءهم حجاب بينهم وبينه، كما ان تقليد الكتب حجاب بين هؤلاء وبين القرآن . وحرموا أيضا الاستفادة مما وصلت اليه حالة العصر من الارتقاء الصوري والمعنوي ، لان من لاحياة له لايستفيد من غيره شيئاً . ولذلك ترى المسلمين لم يستفيدوا من الارتقاء الاوربي الذي يحيط بهم فائدة جوهرية تعطيهم حياة حقيقية ، ومثل ماأصابهم منها كمثل الزينة التي تعلق على الجدران ونحوها من الاجسام غير الآلية لاتخالط جوهرها ولا تدخل في كنه حقيقتها

ليس ضرر الطريقة الازهرية في التعلم قاصراً على المسلمين بل هو يعم معهم جميع سكان البلاد التي تسير على هذه الطريقة ، لان البلاد التي يتألف أهلها من عناصر كثيرة تكون صفات العنصر الاكبر فيها هي الغالبة ، ويعسر على الاقل فيها أن ينهض بالاكثر ، وعلى الضعيف أن يؤثر في القوي . بل كان الجمود على تلك الطريقة هو الحائل دون اقتباس ماقضت الضرورة على الشرق أن يقتبسه من الغرب ، والسبب في طول العهد على التباعد والتباغض بين شعوب في الاوطان البعيدة والقريبة بل في الوطن الواحد ، فهي طريقة ضارة بأهلها وضارة بجيرانهم وأهل أوطانهم ، ، وضارة بسائر الناس ، لانها عائق عن ارتقاء طائفة من أبناء الانسان وجعلهم فتنة لاخوتهم ، وعقبة في طريقهم

وجد في مصر وفي غيرها أفراد من اهل العلم والفهم نشأوا على الطريقة الازهرية ، ويظن من لم يعرف تاريخهم أن هذه الطريقة على وعورتها قد توصل إلى غاية صحيحة ، ولكن من يعرف تاريخهم يعرف ان ذكاءهم الفطري قد هداهم إلى طريقة أخرى في التحصيل بواسطة أخرى أصابوها بسعي او بغير سعي ، على

انه لم ينهض من هؤلاء أحد إلى مرتبة المصلحين إلا عالمنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد ، فقد كان هذا الرجل ممن نشأ في الازهر غريباً عن اهله ، وكان له واسطة غريبة لمعرفة الطريقة المثلى للعلم ،فنبغ في بلاده، وكمل بالسياحة في افريقية وآسية واوربة ، وعرف أحوال الامم الحاضرة، وتاريخ الامم الغابرة ، ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الازهر،معتقداً ان اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولاصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ،وخير صلة بين المدنية القديمة ، والمدنية الجديدة ، لانه علم ان السبب في التقاطع بين اوربة والمسلمين هو جهل الاوربيين بحقيقة الاسلام ، وعجز المسلمين عن افهامهم تلك الحقيقة ، لأنهم غير متحققين بها لاعلما ولا عملا ولا تخلقا ، ثم جهل المسلمين بحقيقة مدنية أوربا وبكنه ارتقائهم العلمي والاجتماعي . ولو صلح حال التعليم في الازهر لهب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، والمدنية العزيزة ، كما هبوا لذلك في اول نشأتهم، فأحيوا ما اماته الزمان من علوم الهنود واليونان ، فلا يجدون امامهم إلا اوربة وعلومها الحية،ويفهمونها انهم خير عون لهم على تكميل مدنيتهم،فيتعارفون ولا يتناكرون .وإذا عارضت السياسة تعارفهم،فانه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التعارف والعلم ، مالا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل

كان هذا الرجل سعى في بث شيء من الاصلاح في الازهر على عهد الخديو السابق (توفيق باشا) ،رأى من جمود اهل المكان مالا يمكن معه العمل إلا بمساعدة منه ، ولم يجد عنده اريحية لذلك وانما وجد اشد المعارضة . ولما ولي الخديو الحالي وهو قد تربى في اوربا وعرف من الحاجة إلى الاصلاح مالم يعرفه سلفه ، عرض عليه الشيخ محمد عبده رأيه في اصلاح الازهر والخروج به عن كونه تكية للفقراء،وملجأ للكسالى وجعله مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما يجب ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ،ومعلمين ماهرين ، ووعاظا هادين ،يعالجون بروح الدين هذه الامراض النفسية التي أفسدت الاخلاق والعقول ، حتى عمت الخرافات ، وفشت الفواحش والمنكرات فصادف من الامير الجديد أذنا واعية،وهمة سامية،وعهد اليه الامير أن يضع

المشروع للاصلاح ، فوضع للازهر قانونا وجعل له مجلس ادارة يدبر فيه نظام التربية والتعليم ، فانفذ الخديو ذلك وخصص للازهر مبلغا صالحا من مال الاوقاف إعانة على الاصلاح ، ووراق ذلك لحكومته فخصصت له مبلغا آخر من خزينة المالية، وكان صاحب مشروع الاصلاح الشيخ محمد عبده عضواً في مجلس إدارة الازهر من قبل الحكومة وكذا زميله الشيخ عبدالكريم سلمان وباقي الاعضاء ينتخبون من علماء الأزهر ، والغرض من هذا أن يكون هذان العضوان دائمين لا يعرض لهما التبديل ، لأن مدار الاصلاح عليهما . فسار العمل بالتدريج الطبيعي اللائق بحال قوم طال الزمان على جمودهم . ولم يكن في الازهر أحد يعارض الاصلاح عناداً ، وانما كانوا يطلبون إرجاء بعض المشروعات بحجة وجوب التدرج في العمل

بدأ الاصلاح (أولا) بتحديد مدة الدراسة وكان الرجل يقضي عمره في الازهر فلا يسئل ماذا قرأ ولا ماذا حصل (وثانيا) بالامتحان السنوي لمن يختاره مع مكافأة الناجح بالمال وكانوا لا يمتحنون طالبا لاجل نقله من كتاب إلى كتاب ولا لغير ذلك ، وقد ظهرت فائدة هذا الامتحان وكان يكثر عدد الراغبين فيه عاما فعاما (وثالثا) بالغاء بعض الكتب الضارة وتقرير بعض الكتب النافعة وقد عقد لذلك عدة لجان برياسة الشيخ محمد عبده وتقاريره بما تم فيها مطبوعة محفوظة (ورابعا) بجعل مدة دراسة المقاصد كالفقه والتفسير أطول من مدة دراسة الوسائل كالنحو والصرف ، وقد تقرر هذا قولا ولم ينفذ فعلا (وخامسا) بزيادة علم الاخلاق وعلم التاريخ وعلم تقويم البلدان وعلم الحساب والجبر والمقابلة في العلوم التي تدرس في الازهر ، وكل هذا قليل من كثير ، مما يحتاج اليه الازهر لنهضة المسلمين

سار الازهر بالتدريج على هذه الطريقة بغاية الهدوء والسكينة وبدأت تظهر ثمارها ، وتوجهت نفوس بعض الطلاب إلى التماس علوم أخرى ، ولكن سمو الخديو تغير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يدير بيده المكان بالاتفاق مع شيخ الازهر الذي عين باقتراحه الخ

ولا حاجة الى نشر بقية هذه المقالة فقد نشرنا معناه آنفاً قبل أن نعثر بين محفوظاتنا على هذه المقالة ولكننا نقفي على هذا بنشر مذكرة بخط الاستاذ الامام

في بيان مالم ينفذ من مواد قانون الازهر بما نفخ فيه روح المقاومة والشقاق ،
وكان يمكن للأستاذ الامام محاكمة شيخ الازهر في محكمة الجنايات بامتناعه من
تنفيذها وانما لم يفعل لما ذكرناه قريباً من مذهبه ومشربه في الاصلاح

﴿ مذكرة الاستاذ الامام ﴾

في مواد قانون الازهر التي لم تنفذ

(المادة الثانية من قانون الازهر)

(شيخ الجامع ينفـذ اللوائح وقرارات مجلس الادارة ، ويتخذ الوسائل لتحسين حالة الازهر وترقيـة التعليم ، ويدير الاعمال بمـا لايخالف القوانين وقرارات مجلس الادارة)

صدرت قرارات من مجلس الادارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الاروقة وقرارات متعلقة بالتعليم وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون ، ورتبت لهم مرتبات مقدارها ستمائة جنيـه في السنة من الاوقاف الخيرية ، وشرط في ذلك القرار ان من لم يقم منهم بما عهد اليه ينزع منه المرتب ويعطى لغيره والمعول على الاختبار ، ولكنهم من يوم عينوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم ، وهم في التدريس كغيرهم لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات ، والقرارات المتعلقة بمشايخ الاروقة لم ينفذ منها قرار واحد

(المادة السادسة)

(مجلس الادارة ينعقد كل ١٥ يوم مرة على الاقل)

لاينعقد المجلس إلا عنـد موت شخص لتوزيع مرتبـه أو اعطاء كسوته التشريفية لغيره ، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك ، اما للنظر في حالة التعليم أو في وضع شيء مفيد له فلا ينعقد ، غاية الامر انه ينعقد في شهر شوال من كل سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لاغير

(المـادة الثامنة)

(مجلس الادارة يقترح طريقـة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الازهر سواء كان ورودها بصفة دائمية أو موقتة)

ظنت المشيخة ان المراد من ذلك النقود التي تأتي للتوزيع على انها نقود ، أما مايرد في شرط الواقفين من النقود التي يشتري بها جرايات فيوزعها الشيخ بدون مدخل للمجلس وهكذا جرى العمل مع ان المراد عموم مايخصص للازهر من النقود سواء اشترى به خبز أو وزع نقوداً

(المادة الحادية عشرة)

(مجلس الادارة يوزع العـلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة وعلى السنين ولا يجوز لاستاذ أن يتعدى مايقرره المجلس)

لم يشتغل مجلس الادارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المعهود تدريسها في الازهر ، وانما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت أي الحساب والجغرافيا والجبر لاغير . وبقية العلوم تهمل لايعرف مايدرس أولا ولا آخراً إلا ماجرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة انما وضعت لاصلاح القديم لانه ضار ضرراً ظاهراً

(المادة السابعة عشرة)

تتضمن تقسيم العلوم إلى مسائل ومقاصد، وأضيف فيها علوم الاخلاق الدينية والحساب والجبر، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الالزامية التي يمتحن فيها الطالب حتما عند طلبه الامتحان لنيل شهادة العالمية وجاء في المادة ٦٠ ان من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الازهر بعد ذلك يكون امتحانه على حسب هذا القانون

ومع ذلك لم يلتفت إلى الزام الداخلين بعد صدور القانون بتعلم هذه الفنون ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات بل

لم يتنبه إلى ذلك الا في هذه الايام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات للامتحان فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر ولكن ذلك بعد فوات الوقت

(المادة التاسعة عشرة)

العلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل

هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط

(المادة ٢٠)

يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة مايساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد

لا يزال معظم الزمن يصرف في النحو وهو من الوسائل ، وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل

(المادة ٢٢)

تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعا باتا في جميع العلوم في الاربع سنوات الاولى ويكتفي بالمتون والشروح الواضحة ، وبعد الاربع السنوات يخير الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ، وأما التقارير فتمنع قطعا إلا بقرار من مجلس الادارة

حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجمع المشايخ الذين يدرسون في السنين الاربع الاولى وإلقاء التنبيهات عليهم لمراعاة هذه المادة ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبيهات أم لا ؟ ثم بعد ذلك أهمل الامر بالكلية والمشايخ يقرءون الآن ما يريدون كما كانوا قبل صدور القانون

(المادة ٢٣)

(لا يباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه)

هذه المادة لايمكن تنفيذها إلا بتتبع حال كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل مايؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق مايكفي وهـذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الادارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الاخذ بما يقرره

(المـادة ٢٤)

أكثر مدة الطلب ١٥ سنة

مقتضى ذلك ان الطالب لايقيم على انه طالب في الازهر أكثر من ١٥سنة ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك، ولم يلتفت مجلس الادارة إلى النظر في تصفيـة الجامع من هؤلاء البـلداء بل منهم من يطلب الامتحان والمشيخة لاتجيبه إلى طلبه

(المـادة ٣٧)

تقضي بان طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الشهور الاربعة الاولى من كل سنة ، وانه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين

ومقتضى ذلك أن يتحتم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع ولا معنى لتحديد مـدة الطلب بالشهور الاربعة ، والآن يوجد مايزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ولا يمتحن من الطالبين أكثر من ثمانين شخصا في السنة وفي ذلك قتل للطالبين وهدم لقواهم بتطاول السنين عليهم بلافائدة

أما المواد ٤٣ و٤٥ و٤٦ و٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحان فلم يعمل بهـا ولا مرة واحدة

وقد كان الشيخ محمد عبـده شرع في تطبيقها عنـد ماعين عضواً في لجنة الامتحان من نحو ست سنوات فلم يقبل المشايخ الجري عليها واستمر العمل على اهمالها إلى اليوم

والحاصل ان هذا القانون قد عدته مشيخة الازهر ومشايخه وطلبته من قبيل الوصايا التي يجوز للشخص أن يعمل بها ويجوز له أن لا يعمل وهم يحبون أن لا يعملوا بالضرورة لعدم تعوّدهم العمل اه نص المذكرة

من هذه المذكرة يعلم أن مشيخة الازهر كانت معادية للنظام حتى مادة جعل جل العناية في الازهر تحصيل علوم الدين المقصودة بالذات وفي مقدمتها التفسير والحديث ، ويعلم منها إن الذين اتهموا الاستاذ الامام بأنه أضعف علوم الدين في الازهر من المنافقين الذين يفترون الكذب وهم يعلمون

ونعود الى ما كان من تأثير استقالته في العالم مما نشرناه يومئذ في المنار

صدى الحادثة في أوربا

﴿ أو مقاومة النفوذين الفرنسي والانكليزي للاستاذ الامام في الاصلاح ﴾

(نشرت تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار بعد بيان تاثير ترك الاستاذ الامام للازهر في العالم الاسلامي . وقفيت عليه بانتقاده وهو)

نشرت جريدة اللواء في عدد يوم الخميس (١٣ ربيع الاول) خبرا قالت انه مترجم عن جريدة (الغلوب) الانكليزية بغير تصرف وهذا نصه بغير تصرف:

« اختلف العلماء من عهد قريب بشأن التعليم في الازهر، وسبب ذلك ان رئيسهم الشيخ محمد عبده حاول ادخال نظام للتعليم أوسع من النظام الحاضر - الذي وضع من قرون مضت والذي لا يتضمن غير محض تعليم مواد الاجرومية وقليل من بعض العلوم الاخرى - بقصد تكوين قوة جديدة في الاسلام، ويريد الشيخ محمد عبده السالف الذكر ادخال العلوم الحديثة في بروغرامه الجديد ليستعين بها العلماء على اكتساب أرزاقهم من طرق العمل والجد لا الكسل والتواكل

« وقد قاومه العلماء في مشروعه هذا مقاومة شديدة واتصل بنا انه قال في حديث له : أن السبب في عدم نجاحه وفشله النهائي راجع إلى محاربة النفوذين الفرنساوي والانكليزي السياسيين له، واستشهد بعبارة نشرت في بعض الكتب

السياسية الفرنساوية مؤداها ان سواس فرنسا من الحزب الاستماري لايقبلون بوجه من الوجوه تنور المغاربة بنور العلم » اه

(اقول) ثم علمت بعدنقل هذاعن جريدة اللواء أنها تركت من الاصل كلمة أخرى ذكرتها جريدة (المؤيد) وهي انالشيخ محمدعبده قل لمحدثه « فهل يسر الانكليز بتخريجي لهم رجالا مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدةمن العلم والمعرفة ؟» وانما تركت اللواء هذه الجملة لانه يسر المسلمين من الشيخ محمد عبده أن يقول هذا في مقاومة الانكليز وسوء الظن فيهم . وما كان صاحب جريدة اللواء يحب أن يسر المسلمون من الاستاذ الامام بشيء

ملاحظة المنار او انتقاده على ذلك

(أي على ما نشرته جريدة اللواء)

يعجب المصريون أن يروا في الجرائد الانكليزية من يخبط في المسائل المصرية على غير هدى، مع وقوف الانكليز هنا على حقائق الامور ،وقد ذكرنا وذكر غيرنا ممن قرأ تلك النبذة في جريدة اللواء ماكان أشيع هنا بعدترك الشيخ محمد عبده لمجلس ادارة الازهر من ان بعض المصريين الذين لهم حظ فيما حدث في الازهر كلفوا أحد مكاتبي الجرائد الانكليزية أن يكتب لجريدته التي يكاتبها شيئاً يفيد معنى ماكتب في بعض الجرائد المصرية التي لها هوى في الحادثة من أن جميع علماء الازهر مضادون للشيخ محمد عبده فيما يريد من اصلاح التعليم وزيادة العلوم في الأزهر ، ويتضمن شيئاً آخر يفيد سخط الانكليز على الشيخ وأتذكر ان بعض الجرائد الاسبوعية في مصر كتبت شيئاً عن هذه الاشاعة وقالت ان ذلك سيكتب ثم ينقل في بعض الجرائد المصرية اليومية

مالنا ولما أشيع في سبب الكتابة ولما قيل في مصدرها ؟ انما نحن أمام قول يتضمن خبرين (أحدهما) ان علماء الازهر كارهون ومقاومون لما يريد الشيخ محمد عبده من النظام وتوسيع دائرة العلم في الازهر ، وقد بينا في كلامنا على رسالة « محسن الملك » ان هذا غير صحيح ، وان علماء الازهر برآء مما يرمون به من

الغلو في بعض العلم والنظام ، والجهل بما يعلي شأن الاسلام ، و(ثانيهما) ان الشيخ يقول انه لم يخفق فيما حاول من اصلاح الازهر إلا بمقاومة النفوذين الفرنسي والانكليزي له،لان ترقية المسلمين تناقض مصلحتهما في استعمار بلادهم . ونقول ان هذا النقل عن الشيخ غير صحيح ،وإن كان أكثر المسلمين يعتقد صحة علته المذكورة. ولا يعقل أن يقول الشيخ ذلك لان فرنسا لانفوذ لها في الازهر ولا في مصر فتقاوم ولان الانكليز لم يقاوموه لما هم عليه من الحرية وعدم التعرض للمصالح الدينية . على ان المصريين الذين لم يقدروا حرية الانكليز حق قدرها ولم يعلموا انها تمثلت مع الفضيلة في اللورد كرومر في أبهج صورها ، يتعجبون من عدم مقاومة الانكليز لاصلاح الازهر في السنين الماضية ، ويظنون ان لهم يداً في المقاومة الآن.

وأما الشيخ محمد عبده فقد سمعناه غير مرة يقول: انه ما تصدى إلى خدمة المسلمين في شيء وأتي مقاومة فيه من غيرهم لا من انكليزي ولا من افرنسي ولا من قبطي ولا من شامي . ولا غرو فان جهل المسلمين وتخاذلهم في هذا العصر كافيان لاحباط كل سعي لترقية شأنهم ، لايحتاجون إلى مساعد في ذلك ، ومن يسعى بعقل لا يقاومه العقلاء

هذه فرنسا التي كان منهجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أمراً معروفا قد أنشأت ترجع الى منهج الانكليز في التساهل وقد تكلم الشيخ محمد عبده مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التعليم فوجد منهم ارتياحا الى ذلك وقد نشرت جريدة الطان من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعية الخلدونية ذكرت فيها ان مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده. وبعض المجلات العلمية المصرية التي تحث المسلمين على الجمع بين علوم الدنيا والدين وترد فيها رأي الذين يظنون أن تعليم المسلمين يضر بفرنسا لان هؤلاء المتعلمين يكونون دعاة لاستقلال البلاد وقيامهم على المستعمرين لها ، وترجمت الاهرام مقالة الطان فسر بها المسلمون هنا . اه

والمراد ببعض المجلات العلمية المنار،وقد نشرنا فيه مقالا طويلا مترجماً عن جريدة الطان لامحل لبسطه هنا، ولكننا نقول مع الاسف إن ما أظهره بعض رجال فرنسة للاستاذ الامام في الجزائر من ميلهم الى اعطاء المسلمين ما يجب من حرية العلم والدين لم يصح فكان إما خداعاً وإما رأياً شخصياً ممن أبداه له هنالك

استطراد

في بيان حال الازهر في عهد الشيخ عبد الرحمن الشربيني

قد ظهر للناس عجز الاستاذ الاكبر، الشيخ عبد الرحمن الشربيني عن إدارة الازهر ، فلم يستطع أن يعمل فيه عملا ، ولا أن يحقق لسمو الخديو وقدماء الشيوخ الجامدين أملا ، ولا أن يسير كما أراد الشيخ الظواهري سيراً يكون فيه [بين بين] أو مذبذبا

وقد لخصت حالته في هذا الطور الاخير في ورقة واحدة جعلتها مقدمة لمقالة النواب محسن الملك قلت فيها بعد خبر تعيين الشيخ الشربيني وما بني عليه مما ذكره الخديو في خطبته مانصه (ج٩م٩ في رمضان سنه ١٣٢٤)

« كان مدار ذلك الكلام على ان كل ما يهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدوء وبعد عن الشغب والقلاقل ، وأن يظل مدرسة دينية كما كان ، وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضاء كبار شيوخه عن الامير وإخلاصهم له هو مما ينتجه جعل الشربيني شيخاً للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهريين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه ، ويتوقف هذا على ترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه ، ولكن جاء الامر على نقيض ما كان يظن أولئك الظانون . فاستاء محبو الاصلاح من اهل الازهر لترك الاستاذ الامام لادارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان

« وأما المحافظون على الحالة العتيقة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشربيني أشد استياء من إدارة الازهر منهم على عهد من سبقه ـ كما أشرنا إلى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والطعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في جهل علماء الازهر وفقد الثقة بهم مامعناه : ان الناس لايقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه إلا بعض حملة الطرابيش ، وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العمائم كأساتذة المدارس الاميرية وغيرهم » اه

وكتبنا قبله في آخر الجزء الثامن من المجلد ٩ (شهر شعبان سنة ١٣٢٤) مانصه :

« كثر الخوض منذ سنة في الازهر ومشيخته ومجلس إدارته ، وكتب في الجرائد بعض مايتحدث الناس به من الخلل في الادارة ، والمحاباة في الامتحان وشهادة العالمية ، وبيع الشهادات بالدراهم ، وما بين شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية من المغاضبة والمناصبة . ومما أشيع ان المفتي شكا شيخ الجامع إلى رئيس النظار وإلى السيد البدوي(!!) وقد بلغنا أن شيخ الجامع ضاق صدره فاستقال ، وانه سيقال بعد أن يعين الشيخ محمد شاكر وكيلا للازهر تمهيداً لجعله أصيلا بعد استشارة الامير لحكومتـه في ذلك ، وسنعود إلى ما نراه نافعاً من الكلام عن الازهر في الجزء الآتي اه

ثم كتبنا في آخر الجزء التاسع منه ما نصه :

« ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا من استقالة شيخ الازهر وعزم الامير على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيلا للازهر تمهيداً لجعله أصيلا ، وقد تحقق ذلك ولكن استقالة شيخ الازهر حفظت وحمل على طلب اجازة ثلاثة أشهر ، وعين الشيخ محمد شاكر وكيلا لمشيخة الازهر ، فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا مرءوسين له على حداثته في السن والعلم . وانتهى الامر إلى الحكومة أو إلى أولي الامر ، فخاطبوا الامير في ذلك ، وتقرر أن الشيخ شاكر لايكون شيخا للازهر ولا وكيلا ، وقد سمي الآن نائبا ، وقد زاد الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابتـه ، على امداد الامير إياه بنفوذه ، ويتوقع أن ينتهي هذا التلاعب في الازهر بجعله تحت مراقبة نظارة المعارف إذ لاقرار إلا مع السلطة الثابتة المنتظمة ، ولعلنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر اه

وأقول الآن : ان هذه الكلمة الاخيرة كانت انذاراً للخديو ، سببه أن بعض الناس كانوا يسعون إلى هذا كما سعوا من قبل ، ولكن الانكليز لم يرضوا بذلك ، وقد بلغنا أن بعض المصريين المتملقين لهم قال لمستر دنلوب مستشار المعارف : لماذا لا تصلحون لنا الازهر كما أصلحتم وزارة المعارف ؟ فقال له المستشار : إن

الازهر بناء متداع للسقوط من طبعه ولا بد من سقوطه ، فاذا وضعنا يدنا فيه قال الناس اننا نحن الذين أسقطناه

ثم كتبنا في آخر الجزء العاشر منه – شوال سنة ١٣٢٤ ما نصه :

ألفت ادارة الازهر ثلاث لجان أو أربعا لامتحان الذين أتموا مدة الدراسة وهم كثيرون جداً . فامتنع كثيرون من كبراء الشيوخ أن يكونوا من أعضائها لان الشيخ شاكرا نائب شيخ الازهر هو المؤلف لها والرقيب عليها ، فكان أكثر أعضائها من غير المشهورين ، وفيهم من صاروا مدرسين من عهد قريب، ولكن هذه اللجان قامت بالامتحان بنظام واهتمام . وقد رأينا الازهريين المنصفين يفضلون نظام هذا الامتحان على ما كان قبله ، ولم نسمع الآن ماكنا نسمع في السنة الماضية (الدراسية) من أخبار المحاباة والرشوة . والفضل في ذلك لمراقبة الشيخ شاكر ويقظته ، فله الشكر والثناء الحسن . ولعل ماسمعناه من أخبار التساهل واعطاء الدرجات لافراد لايستحقونها مبالغ فيه ، ولعل الشيخ شاكراً يعنى بتحقيق الحق في ذلك » اه

بعد هذا قبل الامير استقالة الشيخ عبد الرحمن الشربيني وولى مكانه الشيخ حسونة للمرة الثانية برضاء حكومته . وعلى يده نفذ مشروع مدرسة القضاء الشرعي . وقد كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار العاشر الذي صدر في المحرم سنة ١٣٢٧ المقالة التالية :

نصر من الله وفتح قريب

﴿ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ﴾

قال الاستاذ الامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الازهر على حاله فاما أن يصلح واما أن يسقط » وكان أكرم الله مثواه باذلا جل عنايته في اصلاحه حذراً من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى باصلاحه ، وكان أقدر من عرفنا من الناس على هذا الاصلاح : وسائله ومقاصده ، وأحكمهم في تنفيذه ، الا انه أخطأ

في امر واحد لولاه لم تم له ماأراد من الاصلاح وهو فوق ماطلب منه . ذلك الامر هو محاولة اصلاحه برضى كبراء شيوخه واستمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا مابدأ به من وضع قانون لادارته ، والسعي في اصدار إرادة من الامير به ، بناء على قرار من مجلس النظار لعلمه أن العمل بدون ذلك متعذر ، ولا محل لشرح ذلك هنا، بل موضعه الجزء الاول من تاريخه الذي نعتني بطبعه الآن وانما نريد أن نبين انه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد اقناع شيخ الازهر وأعضاء الادارة

كان الشيخ حسونه النواوي اول من ولي المشيخة واختير للعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة ، وكان المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الامير بتعيينه وكيلا للشيخ الانبابي المرحوم ثم أصيلا. وقد استعان على هذا ببعض أصدقائه كالمرحوم امين باشا فكري . ذلك انه كان يعتقد ان الشيخ حسونة أميل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه اول مقدمي لمصر سنة ١٣١٥ اذ قلت له : سمعت من بعض مجاوري الازهر الطرابلسيين ان شيوخ الازهر قد امتعضوا من جعل الشيخ حسونة شيخا للازهر لانهم لايعدونه من كبار العلماء ، فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لايقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع ، فهذا صحيح ، ولكن هذه الاحتمالات التي يوردونها ليست من العلم في شيء ، والشيخ حسونة أمثلهم . وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا ننسى فضل المرحوم السيد علي البيلاوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ماجرى على يد الشيخ حسونة أولا وآخراً لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونة يرجيء بعض مايقترح المرحوم ، عملا بالتدريج عن رأي واعتقاد ، ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاءوا بعده ماعدا البيلاوى ، وقد تقلب على الازهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الازهر أبعدهم عن الاصلاح . فالشيخ سليم البشرى من أشهرهم - لم يجر على يده شيء من الاصلاح بل كان معارضاً لكل شيء ، فأرضى أمثاله من المحافظين

على القديم وأغضب طلاب الجديد ، والشيخ عبد الرحمن الشربيني أشهرهم على الاطلاق وهو لم يفعل شيئا ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس ادارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويعاقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الازهر من تنفيذها بصفة رسمية، فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار(١) فقال : ان هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة واني أرجو أن لا أدع الحكومة تتداخل في الازهر مادمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعوها الى ذلك؛ فنحن ندعو الشيوخ بالاقناع معتصمين بالصبر

وكان يكره أن يكون «للمعية» أصبع في الازهر كما يكره أن يكون للحكومة يد فيه، لاعتقاده ان خير الاصلاح في العلم والدين ما كان بعيداً عن السياسة ناشئا عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه، ولكن « المعية » ولعت بالازهر ولوعا كاد يكون عشقا وغراما ، ولما رأت أن تمتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب، طفقت تناهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة الازهر، وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان، حتى أدى ذلك إلى اقامة نائب عن شيخه الشربيني يدير الامر من دونه عدة أشهر، ثم إلى استقالته واعادة الشيخ حسونه إلى المشيخة ، وعلى يد الشيخ حسونة تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصدر به الامر العالي فصدق قول المرحوم فيه «انه أمثلهم» في حياته وبعد مماته

مما كان ينويه المرحوم الامام من اصلاح الازهر انشاء قسم قضائي فيه يرشح فيه الطلاب لمنصب القضاء، زاده حرصا عليه اقتراح المستر سكوت المستشار القضائي الاول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . ولم أر الاستاذ مهتما في مقاومة شيء كاهتمامه في حمل الحكومة على الاغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سعى في ذلك وحاول اقناع كبراء الشيوخ بأن يسعوا معه فلم ير منهم مبالاة فكان يتململ ويقول إذا نفذ

---

(١) هذا السؤال وجوابه هو عين ما كان قاله لي في شأن الشيخ سليم كما تقدم حاولت بعد مدة أن أقنعه بهذه الشدة فرأيت رأيه لم يتغير

هذا المشروع قضي على الازهر . وقد نجح سعيه فلم ينفذ

وعند ماحاولت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية للمحكمة الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لانشاء القسم القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك، إذ أنشأنا مقالة في المنار الذي صدر في ذي الحجة سنة ١٣١٦ نقترح فيه انشاء هذا القسم القضائي ، ولكن حال دون إنشائه عزل الشيخ حسونة من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب في ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧، ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته ، وولي الشيخ سليم البشري الذي وقف في عهده سير الاصلاح ، وكان من أمر « المعية » من اول عهده إلى الآن ما أشرنا اليه آنفاً، إلى أن انتهى باستقالة المصلح العظيم من إدارة الازهر، وبهذا انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الامة طالبة بلسان الجمعية العمومية ، ولسان مجلس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية ، فعهدت اليه بوضع مشروع إنشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها ، وكان هذا المشروع آخر عمل إصلاحي عمله، إذ تم في أوائل مرض الموت، وما كان يؤمله من هذا المشروع إلا انفصاله عن الأزهر ، وقصارى ما أمكنه من وصله به جعله تحت نظر مفتي الديار المصرية دائماً ، وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة

تبارك ناصر المخلصين، أحياء وميتين، فقد قضت حكمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ المشروع ويجعله أشد صلة بالازهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ، ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الاستاذ الامام ، وان يكون ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونه ، وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظره، وقد علم القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونة وما كان من نيته في أيام مشيخته الأولى . اه

ما أخطأ به الاستاذ الامام في ادارة الازهر

قلت في أول هذه المقالة انه أخطأ في اعتماده على اقناع علماء الأزهر بالاصلاح وذكرت في أثنائها انه كان يجب عليه التنفيذ بقوة القانون ولو أفضى إلى تدخل الحكومة . وسأذكر في الفصل التالي رأي خليل باشا حماده وانه لو قبله لتم له ما أراده ولكن صده عن هذا دينه وعما قبله وطنيته

الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي

قد توسل سمو الخديو بكل مايقدر من الوسائل للانتقام من الاستاذ الامام وعزله من منصب الافتاء ومن إدارة الازهر ، وكل منهما يتوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة ، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه ، وكان من أسخف التدبير لاقناع لورد كرومر بذلك انهم لفقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها في جريدة الحمارة الهزلية مع طعن في المفتي بأنه يجالس نساء الافرنج وذلك يعد إزراء بمنصبه الديني . وقد أرسلوا هذه الصورة الى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا يعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وينبغي خروجه منه مراعاة لشعورهم .... فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة وقال : ان هذه الصورة لا يثبت لها عندي أصل ولكن الاستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه لادي كرومر وغيرها من عقائلنا ، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبني عليه عملا مهماً كهذا ؟

والذي اشتهر أن تلك الصورة ملفقة أخذت عن صورة منفردة للمفتي وضعت بجانبها تلك الصور فكان المأخوذ عنها كأنه ماخوذ عن أصل واحد . وقد نظم الاستاذ ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير والاديب الكبير أبياتا في ذلك قال فيها :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة
ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة
ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحمارة

يعني بقبة الاستشارة سراي القبة محل إقامة الخديو . وبتلطيخ وجه الحمارة بالطين وهو مثل ما أعقب نشر جريدة الحمارة للصورة وطعنها من محاكمة النيابة لصاحبها والحكم عليه بالسجن

ومن هذه الوسائل مسألة منع الحج اتقاء للوباء فقد ابتكر هذه الوسيلة سموه وعرضها على لورد كرومر مباشرة ، بأن قال له إنه يمكن ذلك باجازة العلماء

وإفتائهم، وهو يعلم أن الحكومة لاتعمل إلا بفتوى المفتي الرسمي فان هوأفتى أقام عليه قيامة العلماء والجرائد، وأسقط قيمته عندالامة كلها، وإن لم يفت اسخط الانكليز

ذكر اللورد ذلك لرئيس النظار، وهذا أخبر به المفتي وسأله عن رأيه فيه ففطن لمراد الخديو فرد مكيدته عليه ووضعها في عنقه بأن قال لرئيس النظار: إنه ليس لذلك إلا طريقة واحدة وهي أن يقول أمير البلاد وولي أمرها الشرعي إنه قد ثبت عنده أن السفر الى الحجاز في هذه السنة موقع للحجاج في خطر وتهلكة فحينئذ يفتيه العلماء بأن له منعهم من القاء أنفسهم في التهلكة مادامت معلومة ثابتة عنده . قال له الرئيس وهل يكفي ثبوت هذا عند الحكومة ؟ قال المفتي . لابد أن يثبت هذا عند ولي الامر النائب عن السلطان وتكون مسؤليته عليه وحده .. والاستاذ يعلم أن الخديو لايقبل حمل هذه المسؤلية ففشلت الدسيسة

ويشبه هذه المسألة ما جرى بيني وبين سموه في أثناء انكسار الجيوش البريطانية في حرب الترانسفال، قابلت سموه في قصر القبة وقلت له: إنه خطر في بالي أنه يمكن لافندينا في هذه الايام أن يسعى لجلاء جيش الاحتلال عن مصر باسلوب ودي يمكن أن يرضي الانكليز، وهو أن يقول أفندينا للعميد الانكليزي: إذا كنتم في حاجة الى ارسال من لديكم من جيش الاحتلال عندنا الى الترانسفال فيمكنكم ذلك بمقتضى اتفاق معنا ترضونه لتأمين مصالحكم في مصر بدون وجود هذا الجيش، بل اذا شئتم أخذ جيش متطوع من المصريين لمساعدتكم فاننا نقبل ذلك... أو ما يستحسنه أفندينا من الاساليب بعد استشارة من يثق بهم من رجاله لاغتنام هذه الفرصة للاتفاق مع الانكليز الخ

فتهلل وجه سموه، وقال هيه ! وما هو رأي الشيخ محمد في هذا ؟ قلت له انني لم أذكر هذا له وانما هو رأي خطر في بالي فرأيت انه يجب علي عرضه على صاحب البلاد

قال طيب . إذهب من هنا إلى عين شمس واذكره للشيخ ثم ارجع إلي فاخبرني برأيه فيه

فذهبت إلى دار الاستاذ الامام وقصصت عليه القصة فقال أتدري لماذا -

أرسلك إلي ؟ إنما أرسلك لاجل أن يقول للورد كرومر إذا وافقت على هذا الرأي ان الشيخ محمد عبده يغريني بان أغتنم هذه الفرصة لطرد الجيش الانكليزي من البلاد ... قلت انه ينتظرني لا حمل له جوابك فماذا اقول له ؟ قال قل له إن هذه مسألة مهمة يجب على أفندينا أن يتفكر فيها كثيراً قبل أن يبرم فيها رأيا

ومن تلك الوسائل مسألة صندوق التوفير الذي أرادت الحكومة إنشاءه في مصلحة البريد فسألت المفتي عن وجه شرعي له فقال يمكن اتخاذ طريقة شرعية لانتفاع الفقراء بما تريد الحكومة ان تعطيهم إياه في مقابلة توفير نقودهم في صندوق البريد . ولما ذكر ذلك لسموه قال بل انا الذي أتولى هذا الامر وبيان الطريقة الشرعية مع العلماء ، وطلب جماعة من علماء المذاهب إلى قصر القبة وذكر لهم المسألة وكان يظن انهم يتفقون على ان ما اشار به المفتي مخالف للشرع ومبيح للربا ، فخاب الظن وكان رأيهم عين رأي المفتي ، فلما بلغ ذلك الحكومة فطنت لمراد سموه

واما الوسيلة الكبرى فقد كانت الفتوى الترانسفالية المشهورة فهذه هي التي أقاموا لها القيامة ، وقالوا إن المفتي احل ماحرم الله من اكل الموقوذة . وأرادوا استفتاء شيخ الاسلام في الآستانة او استفتوه بالفعل ليحتجوا بفتواه على بطلان فتوى مفتي الديار المصرية فلم يفتهم . وسنبسط الكلام على هذه المسألة في المقصد الآتي وهو عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء وفي أثناء ذلك رفعت تقارير إلى السلطان عبد الحميد بالطعن في مفتي مصر ورميه بعداوة الخليفة والسعي لخلعه ، وقابل ذلك آخرون بتقارير في الطعن في سمو الخديو وإثبات انه هو القائم بما يتهم به المفتي بل هو يطمع في منصب الخلافة والمفتي هو الذي يعارضه وحده . ومن أدلة ذلك انهم لقبوه في مجلس شورى القوانين بصاحب الجلالة فاعترض المفتي الشيخ محمد عبده على ذلك وأمر كاتب المجلس بشطب لقب صاحب الجلالة ووضع لقب الجناب العالي في موضعه ، وقد اشتهر ذلك ونشر في الجرائد . وكذلك فعل أحد الخطباء في خطبة الجمعة على مسمع من سموه ولم يعترض على ذلك إلا المفتي

وقد اطلعنا على تقرير رفعه الى المابين سعادة يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي نذكر هنا اهم مواده الخاصة بهذه الدسائس وما في معناها وهي :

مواد التقرير الذي رفعه الى المابين الهمايوني

صاحب السعادة يوسف طلعت باشا صاحب جريدة الراوي اليومية

(البند الاول) ان الخديو يحاول أن يجعل الازهر آلة سياسية دينية يهدد بها مولانا السلطان وغيره لقضاء مآربه وهو متمكن من التأثير على مشايخه البسطاء. ولكن وجود المفتي في الازهر يحول دون غرضه فانه رجل قوي العزيمة ويعتقد أن استعمال رجال الدين في السياسة يضر بالاسلام والمسلمين، ويعتقد أن المحتلين يتداخلون في كل شيء يتداخل الخديو فيه، فيخاف أن تمتد أيديهم إلى الازهر فهو يقاوم ذلك وله حزب في الازهر يؤيده حتى ان شيخ الازهر الحالي على رأيه.

(البند الثاني) ان الخديو يستعين على استمالة المشايخ والتأثير عليهم بمال الاوقاف العمومية والخصوصية. والمفتي يعاكسه في ذلك بما له من النفوذ في مجلس الاوقاف الاعلى. وطريق الاستمالة هو أن ماهيات المدرسين والخطباء كلها من الاوقاف، هذا فضلا عن العطايا الخصوصية السرية، ويدل على هذا البند وما قبله البنود الآتية

(البند الثالث) وضع المفتي مشروعاً في الاوقاف يسمى مشروع المساجد اقترح فيه أن يكون جميع الخطباء من المدرسين في الازهر، وأن تكون ماهياتهم معينة مقررة، وكذلك رواتب المدرسين والوعاظ لكي يقوموا باداء وظائفهم على الوجه النافع، ولا يكون لاحد سلطة عليهم ولا تأثير لئلا يغريهم بشيء سياسي كما أغرى بعضهم بترك اسم السلطان في الخطبة غير مرة. وقد رضي الخديو من مشروع المفتي أن يكون الخطباء من المدرسين، ولكنه عارض أشد المعارضة في أن تكون ماهيات الخطباء والمدرسين مقررة لتكون في يده دائما

(البند الرابع) لما كانت الخاصة الخديوية عقدت اتفاقا مع الخواجه بيساكي الرومي وشركاه لاستخراج معادن طشيوز ومنعت الدولة العلية الشركة من ذلك عاد بيساكي إلى مصر وأراد رفع قضية على الخاصة الخديوية يطالبها فيه بالتعويض المالي فأمر الخديو فيضي باشا مدير الاوقاف العمومية يومئذ بصرف سبعة عشر الفه

جنيه إلى يساكي حتى لا يرفع القضية فدفعها المدير بدون استشارة المجلس الاعلى فعارض المفتي في ذلك واحتج عليه ، وأخيراً قرر عدم المسئولية على فيضي باشا لانه مأمور من الناظر الحقيقي على الاوقاف وهو الخديو ، وعلى ان هذا هو المسئول وحده .

(البند الخامس) لما أرسل الخديو المهندسين الى طشيوز لفتح الطرق للجبال والغابات أمر لهم بستمائة جنية من الاوقاف فصرفت بدون اذن المجلس الاعلى فاحتج المفتي على ذلك كالذي قبله . وكان هذا وذاك سببا في فصل الاوقاف الخصوصية عن الاوقاف العمومية . وإيراد هذه الاوقاف يزيد على خمسة وثلاثين ألف جنيه في السنة يصرف عليها منها نحو سبعة آلاف جنيه ويستعين بالباقي على مقاصده وهذا ماعدا وقف خليل أغا المظيم الايراد الذي ضمه أخيراً

(البند السادس) انه أراد من مدة قريبة أن يربح من الاوقاف العمومية مبلغا عظيما فاتفق مع الخواجه زرفوداكي الرومي على أن يكون هذا واسطة استبدال أبعدية للخديو اسمها مشتهر تبلغ نحو ١٢٤٧ فدانا بارض للاوقاف في الجيزة تبلغ ١١٢ فدانا ونصف قرر المجلس الاعلى بان تباع للمباني وذلك بان يعرض زرفوداكي أرض مشتهر على ديوان الاوقاف بسعر ١٣٠ جنيها في الفدان وأن يحسب سعر الفدان من أرض الاوقاف بمبلغ ١٢٥٠ جنيها ثمن الفدان ليكون ربح الخديو من ذلك ثلاثين ألف جنيه ، وكلم في ذلك أعضاء المجلس الاعلى واستمال كثيراً منهم . ولما عرضت المسألة على المجلس عارض فيها المفتي ووافقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي فاضطر الباقون لموافقتهما لان الحق معهما ، وكانت النتيجة أن ديوان الاوقاف لم يكتف بالتخلص من دفع الثلاثين ألف جنيه إلى زرفوداكي بل أخذ منه عشرين ألف جنيه وبذلك يرى الخديو أنه خسر في هذه الصفقة خمسين ألف جنيه

(البند السابع) لما رأى الخديو أن المفتي هو العقبة في طريق اتخاذ الازهر والخطباء آلة سياسية أراد أن يزيله من الازهر ، فرأى النظار والمحتلين لا يرضون بذلك ، فأراد أن يستعين عليه بشيخ الازهر وبعض أعضاء إدارة الازهر فرأى

أن نفوذ المفتي هو الغالب وان شيخ الازهر وأعضاء الادارة لا يمكنهم مقاومة المفتي . ومن ذلك انه أرسل الشيخ توفيق البكري إلى شيخ الازهر يبلغه أمره بأن يوجه كسوة تشريفة من الدرجة الاولى كانت منحلة الى الشيخ محمد راشد امام المعية وكان مجلس إدارة الازهر قرر توجيه الكسوة الى شيخ آخر قيل للخديو انه من حزب المفتي ولذلك أراد منعها عنه ولكن المفتي لم يقبل الا بتنفيذ قرار المجلس ووافقه الشيخ والاعضاء ولم يعمل بامر الخديو

(البند الثامن) رأى الخديو أن يعزل ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة الازهر ويضع بدلهم ثلاثة له امل في موافقتهم له على كل ما يريد منهم امام معيته ، فاوعز الى شيخ الازهر بأن يعزلهم فلم يقبل فارسل اليهم الشيخ توفيق البكري يرغبهم في الاستعفاء ، فقال لهم المفتي: ان البكري لا ثقة به ولا يعمل بتبليغه والالزام ممنوع فاذا قال لكم الخديو بصفة رسمية استعفوا فلا باس ، وعند ذلك يكون لكم عذر عند الحكومة إذا سألتكم عن سبب الاستعفاء ، فلم يقبل احد منهم أن يستعفي . وقد بلغ عضو آخر بان الخديو يريد مقابلته « لاجل إقناعه بالاستعفاء » فقال لا أذهب إلا بطلب رسمي . ومعلوم ان الخديو لا يمكنه أن يعمل عملا رسمياً هناك وانما يريد ان يكون ذلك خفية ويرى أن المانع الوحيد هو المفتي

(البند التاسع) ان الخديو تمكن من إقناع احد الاعضاء بالاستعفاء وذلك بان وعده بزيادة ماهية له في جامع غير الازهر جنيهين ونصفا في الشهر فاستعفى . ولكن الخديو لم يقدر أن يعين بدله أحد الذين يثق بهم ويظن أن المختلين هم الذين حالوا دون ذلك لانهم يعرفون جميع مساعيه وما يكبونه فيها وهو الذي يساعدهم على نفسه فانه لا يكتم شيئا فاذا عزم على شيء يبوح به لجميع من يجتمع به او لكثيرين منهم وان كان يعتقد بعدم إخلاصهم وإذا قال له اللورد كرومر: لا تفعل فانه لا يفعل

(البند العاشر) ان الخديو بعد أن رأى نفسه عاجزاً عن عزل المفتي الذي يعارض مساعيه في الازهر والاوقاف شرع في معاكسته بأمرين : أحدهما الاستعانة بمولانا الخليفة الاعظم على عزله بحجة انه أفتى بما يخالف الشرع . وثانيهما : إنشاء جريدة اسمها (الظاهر) لاجل إسقاط نفوذه الديني وإضعاف حزبه المؤلف

من طائفة من العلماء ومن أكثر رجال الحكومة والمدارس

(البند الحادي عشر) ان الخديو يظن انه إذا أمكن غش شيخ الاسلام في دار الخلافة العلية وأخذت منه فتوى ضد المفتي فانها لا تلقى معارضة ، ولكن الارجح عندنا انها تلقى أشد المعارضة من المحتلين نظراً لسياستهم المعلومة ومن الحكومة لانها تؤيد المفتي .ومن اكثر العلماء وأهل الفهم في مصر لانهم مقتنعون بصحة الفتوى ، وقد زادتهم الجرائد تحزبا للمفتي . وقد تحقق ان اللورد كرومر قال للخديو :إن كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لاجل فصله من الافتاء فاسمح لي بان أقول انه مادام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فان الشيخ محمداً عبده يكون هو المفتي حتى يموت . واننا نعلم الآن انه لا يوجد في مصر حزب ضد مقام الخلافة ونخشى أن يوجد ذلك إذا فرضنا مداخلة سماحة شيخ الاسلام في هذا الامر لاسيما إذا لم يعمل بقوله كما هو الراجح عندنا

(البند الثاني عشر) ان جريدة الظاهر التي سلطتها المعية على تخطئة فتوى المفتي جريدة غير منتشرة ، وقد قامت ضدها أكثر الجرائد اليومية والاسبوعية ولم تنتصر لها جريدة الا اللواء كتب فيها جملة مختصرة وجريدة أسبوعية أخرى من الجرائد التي تسمى الساقطة تطبع في مطبعتها ، وان أكثر الجرائد التي ردت على جريدة الظاهر لم تذكر اسمها لئلا تشتهر . وان صاحب هذه الجريدة جاهل بالشرع ، ومن الذين يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر جهرا ولعب القمار فليس لكلامه في الدين أدنى تأثير . وان الحكومة قد سلبت هذه الجريدة الامتياز فاعتبرتها من الجرائد الساقطة وكان يكتب على كل عدد منها « قررت عموم المحاكم الاهلية جريدة الظاهر رسميا لنشر الاعلانات » فصدر الامر بعدم كتابة هذه العبارة فسقطت بذلك قيمتها بالمرة وقد ردها كثير من الذين كانوا قبلوها

(البند الثالث عشر) أن الخديو كان قد اتخذ عدة وسائل قبل الطعن بالفتاوى التي اعترضت عليها جريدة الظاهر لايجاد نفوذ ديني في مصر ولاسقاط المفتي ولم ينجح في شيء منها لوقوف الحكومة على انها مدبرة من قبله . أهمها

مسألة الحج فان الحكومة في العام الماضي لم تكن تفتكر في منع الحج حتى قابل سموه اللورد كرومر وقال له انه يمكنه أن يتخذ طريقة لمنع المصريين من الحج بعد مشاورة العلماء .... فبلغ اللورد النظار ذلك فسأل هؤلاء المفتي فقال لا طريق لذلك إلا أن يستفتي الخديو بصفته أميراً للبلاد ، ويقول انه قد تحقق عنده بأن الحجاج المصريين اذا ذهبوا إلى الحجاز يكونون على خطر وانه يريد تأخير الحج إلى أن يزول هذا الخطر المحقق عنده هو . فاذا استفتي على هذه الصورة فان المفتي والعلماء يفتونه بالجواز والمسئولية عليه . فقال النظار واذا طلبت الحكومة هذه الفتوى بهذه الصورة فماذا تجاب ؟ قال المفتي إن العلماء لا يعرفون في مثل هذا الامر إلا الامير نائب السلطان على البلاد . وبعد ذلك علم الخديو بجواب المفتي للحكومة فغضب غضبا شديداً ثم انتهى الامر باجتماع مجلس النظار تحت رياسته وأقر على الضريبة التي ضربت على الحجاج في العام الماضي ، وخففت في هذا العام ، وكان الخديو أراد أن يكتب في المؤيد ان الحكومة كانت تريد منع الحج وأن الخديو حامي حمى الدين هو الذي عارضها في ذلك ولكن الذي منع من ذلك هو العلم بان الحكومة كانت عازمة على تكذيبهم في الجريدة الرسمية وبيان الحقيقة

(البند الرابع عشر) أن من جملة وسائله للظهور عند العامة بمظهر المحامي عن الدين مسألة صندوق التوفير في البوستة ، فهذا الصندوق جعلته الحكومة لحفظ مايوفره الفقراء مما يزيد من إيرادهم على مصاريفهم ومصلحة البوستة تستغل هذه الدراهم التي تحفظ فيها . وقد تبين لها أن نحو ثلاثة آلاف فقير لم يقبلوا أن يأخذوا ماتقرر في الديكرتو الخديوي من الربح ، فسألت الحكومة المفتي هل توجد طريقة شرعية ؟ فأجاب شفاهيا بامكان ذلك بتطبيق استغلال النقود المودعة في الصندوق على أحكام شركة المضاربة . ثم ذاكر رئيس النظار الخديو بتحرير الدكريتو الخديوي وتطبيق المشروع على الشرع فأظهر سموه الارتياح ولما قال له رئيس النظار : إننا استشرنا المفتي غضب غضبا شديدا وقال كيف يبيح المفتي الربا ؟ لا بد أن أستشير غيره من العلماء ، ثم جمع جمعية من مشايخ الازهر في سراي القبة وكلفهم بان يضعوا له طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة

بانه هو الحامي عن الدين والمطبق له على الشريعة ، وأن الحكومة كانت عازمة على إلزام المسلمين بأكل الربا والمفتي مساعد لها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فان المشروع الذي وضعه العلماء قدمته المعية لنظارة المالية فعرضته نظارة المالية على المفتي لتأخذ رأيه وتعمل به فوجده المفتي هو عين الرأي الذي كان قاله شفاها

(البند الخامس عشر) جاء رجل من الترنسفال وسأل المفتي عن ثلاث مسائل : عن جماعة يلبسون البرنيطة لقضاء مصالحهم عند النصارى ، وعن أكل الذبائح التي يذبحها النصارى هناك مع العلم بأنهم يضربون البقر قبل ذبحه بالبلطة ثم يذبحونه بغير تسمية كما يظن فيهم وفي أمثالهم ، وعن صلاة الشافعية خلف الحنفية فأفتاه المفتي بان لبس البرنيطة لايكون كفراً إلا اذا قصد لابسها بلبسها الخروج من الاسلام والدخول في غيره ، ولا يكون مكروها إلا بقصد التشبه بالكافر ، وبجواز أكل ذبيحة أهل الكتاب ، وصلاة الشافعي خلف الحنفي لان الجميع مسلمون . فعلم الخديو بذلك وظن ان الفتوى مخالفة للشرع أو المذهب فأوعز إلى جريدة الظاهر واستكتب بعض المشايخ عريضة فيما قل ذكروا فيها الاسئلة والاجوبة على غير وجهها فيما يقال أيضا ، وكان يظن أن مجرد ظهور الفتوى كاف في اسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك

(البند السادس عشر) ان النتيجة من كل ماتقدم أن سمو الخديو يريد أن يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان أوربا تهاب البابا والسلطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا ، وانه مادام الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية وعضواً في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي شورى القوانين ، فان يتم له في ذلك عمل إلا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل أحد . وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الرأي لانفوذ له في هذه البلاد . . . . . . [1] ، وقد ساءت الناس قصيدته التي كان زين للخديو فيها دعوى الخلافة ورضي عليه هو وحده بسببها واتخذه الآن ساعيا فيما بينه وبين مشايخ الازهر ولكن بدون ذكر لفظ « الخلافة » . . . . . . [1] فالمفتي هو العقبة في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جداً اه المراد من هذا التقرير

(١) قد حذفنا من هذين الموضعين كلاما لصاحب التقرير يطعن فيه على البكري

خلاصة الخلاصة

في اصلاح الازهر

ان الاصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الامام في الازهر قسمان : صوري ومعنوى ، فاما الصوري فهو(١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية، و(٢)توسيع دائرة العلوم والمعارف ، و(٣)ترقية اللغة العربية . وأما المعنوى فهو (١) اصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و(٢)صحة القصد فيه بما يفضي إلى ارتقاء الامة في دينها ودنياها ، و(٣) اصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخا والوفاء الخ

فاما الاول فقـد شرحنا ماقاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظمه مع اعداء النظام ، ولـكن النظام وجد ولا يزال يصارع ماتربى عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الامر بانتصاره ولو بعد حين

وأما الثاني فعمدته فيه ما كان يبثه هو في دروسه التي تفيض روحا محييا ، وتتألق نوراً ساطعاً ، وقدقال فيه مامعناه: انني بذرت في الازهر بذراً إما أن ينبت ويثمر ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحيا به الازهر حياة جديدة ،وإما أن يقضي الله على هذا المكان قضاءه الاخير ؛ وقدنبت ذلك البزر فصار زرعاأخرج شطأه ولكن قل من يتعاهده بالسقي ومنع الحشرات الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله

وقد أشرت إلى هذا فيما زدته بعد موته في (المقصورة الرشيدية) فقلت بعد وصفه ، وما قام به من الاصلاح مع السيد جمال الدين ومن بعده، مغلبا فيها الرجاء في الازهر على اليأس :

ماتم للامام ماأراد من خطتي الاصلاح هدما وبنا
ولم يفته كل ماشاء فقد خرّج من يتم كل مابنى
إذا استجاب الله مابه دعا وزال ماحاذره بما رجا(١)

(١) اشارة الى الابيات التي قالها قبيل وفاته

وعلم الازهر كيف يفقه الا دين ويطلب العلوم واللغى
من غير بحث في مقال من خلوا . يكثر فيه الاحتمال والمرا
علمه التوحيد كي يفقهـه بعقله لا بعقول من مضى
علمه التفسير كيما يهتـدي به على علم صحيح يقتفى
وعلمّ (أسرار البـلاغة) التي (دلائل الاعجاز) منها تبتغى
علم (بصائر المنطق) كي يقيم ميزان العلوم للحجى
وهل وراء الدين واللسان والـ عقل إذا أصلحتهن منتهى
فان يك الازهر لم يصلح بها فقد نأى عن سبل من كان مأى(١)
ونبتت من غرسه نابتة ستلأم الصدع وترأب الثأى(٢)
وترفع الحجر عن المهد او يعود جحر الضب رحبا كالفضا(٣)
حتى ينال وهو قد أشفى الشفا من مرض بات به على شفا
ثم يولي المسلمون شطره ينحونه من كل فج ورجا
ماوردوا حياضه وصدروا إلا يفيضون علوما وهدى
فأحيوا الاسلام في أنفس من واصابهم بهجره صرف الردى
فعاد آهلا إلى موطنـه من غربة طال بها عهـد النوى
واستتبعت غربته المجد كما كان فعاد الامر مثلما بدا (٤)

(١) مأى بالغ وتعمق، والمعنى انه قد نأى وبعد عن طرق أولئك الشيوخ المتنطعين في التعمق بالمناقشات اللفظية في عبارات الكتب (٢) لأم الشيء اصلحه والصدع جمعه وشده فالتأم وزال ، وفي معناه رأبه واصلحه، والثأى الفساد (٣) اشارة إلى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال « فمن؟ » والمعنى أن تلاميذه ومريديه سيرفعون الحجر عن العقول فيفهموا العلم والدين إلى أن يخرجوا اهله والمسلمين من الضيق الذي يشبه جحر الضب (٤) إشارة الى حديث « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وفي رواية بمعناه مع زيادة « فطوبى للغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي » وباحيائها تمر هذه الغربة المجد، كالغربة الاولى

علاقة الامام بالامير

رأينا من المناسب في هذا المقام أن نعقد فصلا خاصاً نبين فيه ما كان من علاقة الاستاذ الامام (رح) بسمو أمير البلاد يكون فاصلا بين عمله في الازهر وعمله في منصب الافتاء ، فنقول :

توفي المرحوم محمد توفيق خديو مصر في ٦ صفر سنة ١٣٠٩ (الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٨٩١ م) وكان ولي عهده عباس حلمي في النمسة يتعلم في المدرسة التي يتعلم فيها أولاد الملوك والامراء في النمسة، فصدر الفرمان السلطاني بتقليده منصب الخديوية لانه اكبر أنجاله، فعاد الى مصر وتولى أريكتها وهو ابن ثماني عشرة سنة قمرية و ١٧ شمسية فنفخ في البلاد روحا جديداً من الوطنية والشجاعة المعنوية ، جرأت الامة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال ، فجذب اليه الرجال المخلصين الجامعين بين العلم بحال العصر وسياسته ونظمه ، وبين الاخلاق العالية ، كقوة الارادة والثبات والايثار والتفاني في سبيل المصلحة العامة، و كان في مقدمتهم الشيخ محمد عبده من علماء الدين والدنيا، وحسن عاصم وحزبهما من رجال القضاء والادارة

في هذا العهد نال الاستاذ الامام الحظوة عند الامير الشاب المتحمس وأقنعه بما تقدم بيانه في أول هذا المقصد من فوائد اصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والاوقاف (ص ٤٢٧) فعهد اليه بالنهوض بالاول، وأمده بالنفوذ وبالمال من خزانة الاوقاف العامة كما شرحناه فيه

ولكن لم يلبث الامير الشاب أن حوم حوله أولو التملق والنفاق من رواد المنافع الشخصية الذين يتزلفون الى الملوك والامراء ، بما يلذ لهم من الاطراء ، والتذلل والاستخذاء، فصادفوا منه اذناً صاغية، ونفساً واعية ، فكانوا كلما قربوا منه ، يجتهدون في إبعاد أولئك المخلصين عنه ، وفقا لسنة الله في تنافي الاضداد ، وهو عين ما وقع لوالده من قبله، اذ ولي الاريكة وهو متشبع بآراء السيد جمال الدين الاصلاحية ، وعازم على النهوض بالبلاد إلى ذروة الحكومة النيابية ، وبهذه النية

عاد رياض باشا من اوربة الى مصر وألقى اليه بمقاليد الوزارة ، وأسلس له قياد التصرف في الاصلاح ، فمضى فيه بعزيمة ثابتة ،حتى أيقن الاوربيون أن مصر ستدرك مقام الدول الراقية ، ولكن لم يلبث أن ألقى سمعه الى المتزلفين من عباد المنافع الشخصية فغيروا قلبه عليه ، وورطوه فيما أفضى به الى إضاعة استقلال البلاد، كما شرح ذلك الاستاذ الامام في أسباب الفتنة العرابية[1]

كان من أولئك المتزلفين بعض شيوخ الازهر الذين اتصلوا بالخديو الشاب فاغتر بشهرتهم وسمتهم وشكلهم ، وخضوعهم وخشوعهم وخنوعهم ، فشككوه أولا فيما كان أقنعه به الشيخ محمد عبده من فساد التعليم في الازهر وفساد الاخلاق في رجال العلم والدين ، والحاجة الى تجديد التربية والتعليم فيه، شككوه حتى شك أو كاد ، ثم اقتنع بأن الشيخ مبالغ في وصف سوء حالهم ، ولكنه لم يشك في حسن شيء مما قام به ودعا اليه من النظام الاداري والصحي والبيداجوجي لانه يفهم هذا أكثر من جميع علماء الازهر

واني أنقل عن سموه كلمتين سمعتهما منه بأذني ولا بد أن يكونا على ذكر منه ، فانه قوي الذاكرة قلما ينسى شيئا مر به ، قال لي في سنة ١٣١٩ وأنا ماثل بحضرته في قصر القبة ما معناه : ان الشيخ محمد عبده يقول لي ان علماء الازهر ليس لهم عناية بأمور المسلمين العامة، وما يصلحها من نظام التعليم والتربية ، وانما جل عنايتهم محصور في أمر معيشتهم ومصالحهم الشخصية ، اي الجراية والراتب وكسوة التشريفة، وهل يعقل ياشيخ رشيد أن يكون هؤلاء الائمة المحترمون كما يقول؟

وقد أخبرني الامام في ذلك العهد إنه انما قال له هذا لاعلامه بان شكواهم من الادارة والنظام في الازهر ليس لاجل المصلحة وان سموه إذا صرح لهم بأنه راض عن ذلك ويحب مساعدتهم عليه فان الشكوى تنقطع في الحال ، ويجري الاصلاح بسهولة جريان الماء الزلال . قال ولكنه هو يلتذذ بالشكوى له فهو يغريهم بها من جهة ، ويساعدنا على الاصلاح من الجهة الاخرى

ثم قال لي سموه في أول مقابلة مثلت بها بين يديه في قصر القبة سنة ١٣٢٩ بعد غضبه

(١) راجع ص ١٤٩

عليّ مدة تسع سنين بالتبع لمنصبه على الشيخ رحمه الله : تعال ياشيخ رشيد تعال . الله يرحم الذي كنت تعمل معه أينما ذهب. انه قد ثبت عندي أنك تعمل لخدمة الاسلام لا لنفسك وانه ليس لك مصلحة شخصية، انك لم تطلب مني شيئاً لنفسك قط . واني قد جربت هؤلاء العلماء ١٨ سنة(١) وكنت أحسن الظن بهم، ولكنني لم أر أحداً منهم يهتم إلا بالجراية والجنيه أو كسوة التشريف. فعندما قال كلمته الاخيرة خطرت ببالي كلمة سموه الاولى التي أنكر بها على الاستاذ الامام ماهو نص كلمته الثانية التي ثبتت له من التجارب الطويلة بضع عشرة سنة ، ولكنني لم أذكرها لئلا أغضبه، وهو انما طلبني لاجل أن يقنعني بعدم العودة إلى الآستانة لانشاء (مدرسة الدعوة والارشاد) وبان انشاءها في مصر خير وأنفع ،وانه مستعد لمساعدتي عليها ـ وقد فعل ، ولم يكن يكره أن يكون هذا العمل العظيم في الآستانه بل قال لي ان وجود هذه المدرسة وجمعيتها في مصر سيقنع الدولة بانشاء مثلها في الآستانة ويمكن حينئذ توحيد المشروع هنا وهناك ...

هذا واني لامندوحة لي عن إعطاء هذا التاريخ حقه من بيان الحقائق في هذا الموضوع العظيم الشأن، وهو التصريح بان سمو الخديو عباس قد عرض له بعد الطور الاول من إمارته الذي نفخ روح الحياة الاستقلالية في بلاده أمر آخر ظن أنه يكون أعظم عون له على سياسته التي تغلغل فيها فكان أعظم أسباب فشله وهو الاستكثار من المال ، فعني بهذا الامر حتى كان شغله الشاغل الذي صغر أمامه كل شيء. وكان ديوان الاوقاف العامة رهن تصرفه فأراد اللورد كرومر أن يحول بينه وبين ماشاء من تلك الاموال الكثيرة ، فسعى لانشاء المجلس الاعلى للديوان الذي لايجوز التصرف بشيء ذي بال من أمواله إلا بقرار منه ولما ولي الاستاذ الامام منصب افتاء الديار المصرية صار بمقتضاه عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى . وكان بتأثير تدينه وورعه معارضا لما يراه غير حق مما يريده الخديو من الاوقاف . فكان هذا أعظم أسباب سخطه عليه ومعارضته فيما يريده

---

(١) او قال كلمة يعني انه لعب بهم هذه المدة

من إصلاح الازهر، بل هو السبب الاصلي الذي وطأ السبيل لغيره من أسباب الاستياء التي كان يستغلها الدساسون .

ومن الادلة على ذلك أن أعلم الناس بحال الخديو كانوا يقولون للشيخ رحمه الله : أترك له الاوقاف ولا تعارضه فيها ونحن نضمن لك أن يطلق يدك في اصلاح الازهر ويساعدك عليه بكل ما يستطيع .ومن هؤلاء الناصحين العارفين أو أمثالهم خليل باشا حماده الشهير الذى تولى إدارة الاوقاف العامة في مصر . ثم وزارة الاوقاف في الآستانة

خرجت معه ليلة من الازهر بعد العشاء كعادتنا في ليالي دروسه، فقال لي ان حماده باشا عندنا فاذهب بنا إلى عين شمس نتعشى معه ونتحدث ، فذهبنا ، فكان جل حديث الباشا معه فيما جاء من الاسكندرية لاجله وهو اقناعه بترك الخديو يتصرف في الاوقاف كما يشاء لاجل أن يتركه يتصرف في أصلاح الازهر كما يشاء، وكان يقول له على المائدة مراراً « ياسيدي الاستاذ أبوس إيدك ، والله ان اطلاق الحرية لك في اصلاح الازهر خير لك وللاسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الاوقاف لديوانها ..» قال الاستاذ الامام عفا الله عنه : أنا أعلم هذا ولكن وجداني ومراقبتي لله تعالى لاتمكنني من إقرار مالا يبيحه الشرع . والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق

(أقول) وهذا ما كان يعد ضعفا في سياسة الامام رحمه الله تعالى ، فالمصالح العامة تبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وتقديم أرجح المصلحتين ، ويتفق هذا مع مذهب الامام مالك رحمه الله الذي نشأ الاستاذ عليه.

هذا هو السبب الأول وعلة العلل لتحول قلب الخديو عن هذا الرجل المصلح الذي كان يجب أن يجعله عمدته فيما يصلح شعبه وبلاده ولما تنكر قلبه تجددت عنده أسباب أخرى للكراهة تنحصر في ثلاثة

(الاول) ما كان يراه من عزة نفسه ، على ضد مايراه من كبار علماء البلاد من الذلة له ، بل لم يكن يرى من أحد من الامراء ولا من الوزراء ، ما يراه منه من الشمم والاباء ، وقد كانت آداب الشيخ معه تحجب عنه كبر نفسه في طور

رضائه عنه ، فلما سخط عليه صار يراها بمنظار ذي عدسية زرقاء مكبرة ، حتى صار يقول : انه يدخل علي كأنه فرعون . ولما بلغ الشيخ هذا القول من صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي قال : الله يجزيه ، أهو فرعون أم أنا؟ انني لست إلا رجلا من رعيته

وكذلك أثر سخط الامير عليه في قلبه ، ومقاومته إياه في عمله ، بما نقص من آدابه معه في مجلسه ، بالتبع لنقص قيمته في نفسه ، وكثرة انكاره عليه في سيرته، حتى كان يتمثل بقول المتنبي في كافور :

أميْنا وإخلافا وغدراً وخسة وجبنا.أشخصا لحُت لي لا أم مخازيا؟

وربما استبدل كلمة لؤما بكلمة جبنا وأذكر هنا حادثة واحدة مما صدمه به في مجلسه :

انحلت كسوة من الدرجة الاولى من كسى التشريف بموت أحد كبار العلماء فأرسل الخديو إلى شيخ الازهر من يبلغه أمر سموه الشفوي بتوجيه هذه الكسوة إلى الشيخ محمد راشد الامام الخاص لسموه كما تقدم (وسيعاد) فلم ينفذ أمره ، فاستاء أشد الاستياء . فلما اجتمع عنده علماء الازهر في مقابلة التشريفات الشهرية قال سموه لشيخ الازهر بصوت الاستياء واستفهام الانكار : ألم آمرك بتوجيه كسوة فلان الى فلان ؟ فتلعثم الشيخ في الاعتذار ، فقال الشيخ محمد عبده بصوت جهوري جريء : إن الذي قرره مجلس إدارة الازهر هو التنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه مقتضى نصّ عليه القانون المتوج باسم سموه . وأما الاوامر الشفوية فلا نعرفها ، فاذا شاء أفندينا أن تكون (كساوي التشريف العلمية) بمقتضى ارادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا آخر ينسخ هذا القانون أو مادة قانونية نصها : كساوي التشريف للعلماء توجه بأمر منا

فلما سمع سموه هذا الجواب بمحضر العلماء احمر وجهه حتى كاد يتفصد دما ووقف — إيذانا للحاضرين بالانصراف فانصرفوا

أظن أن كل قارىء لهذه الحادثة يقول انه لا يعقل أن يحتمل أمير يجري في عروقه دم الحكم الاستبدادي الموروث مثل هذا الجواب الثقيل في السمع ، المستفز

للطبع ، فكيف اذا كان الامير صاحب مصر ؟ وكان الذي جبهه بهذا الجواب في مثل ذلك الجمع ، أحد علمائها المشهورين بالخضوع والخشوع والخنوع ؟

(السبب الثاني) اتهام بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص لسموه ولا راض بامارته ، وانه «يعاكسه» أو يشاكسه» بل اتهامه بما هو أكبر من ذلك ، بانه يكره آل محمد علي ويؤلف عصبية في مصر لنزع الامارة منهم وجعلها جمهورية. أنا أعرف بعض الذين كانوا يقولون هذا القول للخديو ، وفاتني أن أسأل الشيخ علي يوسف عن مبلغ تأثيره في نفسه ولو سألته لأخبرني ، ولكن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان أكبر عقلا وأصدق وطنية من أن يفكر في مثل هذا في وطنه الساقط تحت ضغط دولة أجنبية قوية مسيطرة عليه

وكان له من أمراء هذا البيت العلوي أصدقاء يحبهم ويحبونه ، ويجلهم ويجلونه ، أكبرهم قدراً وأعلاهم نسبا الامير حسين كامل عم الخديو الاكبر ، وكان الخديو يعد من ذنوبه معه صداقته لعمه لما كان بينهما من الاحنة والنزاع ، ثم كان يعد من أكبر ذنوب عمه اهتمامه بمرض الشيخ محمد عبده وكثرة عيادته له فيه ، والحزن على موته الخ . وعاتبه على ذلك أحمز العتاب وألذعه ، فذكر ذلك لرياض باشا فقال لو عاتبني أنا كما عاتبك لما سكت له ..

وكان من أصدقائه الامير محمد ابراهيم ، وهو الذي حبب اليه الاشتغال باللغة العربية واقتناء كتبها ، وأقنعه بان الشرف لبيتهم أن يكونوا أمراء لشعب عربي يغارون على لغته وجنسه ، فيحبهم حبه لنفسه .

حدثني الاستاذ الامام قال : ذكر لي الامير محمد ابراهيم ان الامير محمد علي شقيق الخديو دخل عليه مرة في مكتبه فألفاه مكباً على المطالعة والكتابة ، فسأله عما يشتغل به؟ قال فأجبته: اشتغل بالادبيات العربية وأحب ان أتأدب بها وأتقنها. قال وهل أنت عربي ؟ فقلت له اخبرني ايها البرنس هل الترك يعدوننا منهم ؟ قال لا . قلت هل الافرنج يعدوننا منهم ؟ قال لا . قلت فهل الشرف لنا ان نكون أمراء لا شعب لنا ولا أمة ؟ قال : لا . قلت إذاً يجب ان نكون من جنس شعبنا . نحن أمراء في مصر ، والمصريون عرب فيجب ان نكون عرباً مصريين . اهـ

أقول ثم اشتهر بعد ذلك عن الامير محمد علي حب العرب والعربية فلعل هذا الحديث هو الذي أيقظ في نفسه هذه الفكرة

وأعود الى أصل الكلام فأقول : ان الاستاذ الامام كان مخلصا للخديو عباس غيوراً عليه ، يسره ان يكون على خير حال في نفسه وفي منصبه ، ويسوءه كل خذلان يحط من قدره ، على ما عرض له من كراهة شخصه ، وقد قال لي مرة في محطة كوبري الليمون بمناسبة حادثة من الحوادث الخاذلة : انه يظن انني اسر لخذلانه و كيف ذلك وهو رأس لنا ؟ ولا يمكن أن يهبط الرأس ويكون مادونه من الاعضاء عاليا رفيعا ، فانا أشعر بأنه كلما سقط يسقطنا معه اوقال تحته ، ولا سيما سقوطه تحت الانكليز (فليتأمل العاقل) ؟ ولكن المشاكسات ، تولد كثيراً من الحوادث والشبهات . وقد استغل بعض المشتغلين بالسياسة بين الاستانة ومصر هذا الجفاء وكتبوا في ذلك من التقارير ما سنلم ببعضه

(السبب الثالث) ما كان من حسن العلاقة بين الشيخ ولورد كرومر فقد كان اللورد يجله ويقدره قدره ، ويستشيره في بعض المسائل الحكومية المهمة ويتحامى أن يهيج وجدانه ووجدان حزبه الراقي على الانكليز وكان الاستاذ يداريهم لعلمه إنه لا يستطيع البقاء في مصر بدون ذلك (وسنذكر هذا في محله من هذا التاريخ) وكان المفسدون المحالون (النمامون) يصورون هذه العلاقة للخديو بأنها تأييد للاحتلال البريطاني على البلاد أو على شخص سموه على الاقل وأظن ان الخديو لم يكن يشك في وطنية الشيخ واخلاصه لبلاده ، ولا يرتاب في ترفعه عن التقرب الى اللورد بمساءته ، فان لم يكن هذا الترفع للاخلاص لاميره ، فهو لكرامة نفسه واباتها

شواهد على تأييد الامام الامير ضد الانكليز

والدليل على هذا ان سموه كان يلجأ في المهمات الى استشارته حتى في المسائل التي تقع المحادة والمشادة فيها بينه وبين سلطة الاحتلال ، وانما تكون المصارعة فيها بينه وبين عميد الاحتلال لورد كرومر ، وأهم هذه المهمات التي

لم يجد عند غيره المخرج من مأزقها مسألتان هما شاهدا عدل في القضية (الاولى) ما كان قرره الانكليز من اكراه الخديو على تعيين قاض مصري لرياسة المحكمة الشرعية العليا واخراج القاضي التركي من البلاد ، والثانية مسألة اتهامهم لسموه بحبس ليون فهمي الارمني في قصر المنتزه وتعذيبه فيه ، وايذانه بانه لابد من تفتيش القصر ،

مسألة قاضي مصر

عزم لورد كرومر على قطع أقوى صلة دينية للسلطان عبدالحميد بمصر وهي اختصاصه بتعيين قاضي المحروسة عاصمة الديار المصرية من علماء الترك وهو يعتبر رئيس الامور الشرعية الذي يولي سائر القضاة الشرعيين في البلاد وكان يلقب بقاضي القضاة ثم سمته الحكومة رئيس المحكمة الشرعية العليا ووضعت نظاما لاختيار القضاة الشرعيين يناط تنفيذه بلجنة يعينها وزير الحقانية ولكن القاضي التركي كان عضواً فيها وتعتبر موافقته على من يختار للقضاء اذنا له فيه من قبل الخليفة

عزم اللورد على قطع هذه الصلة باكراه الخديو على تعيين قاضي مصر الاكبر من علماء الازهر وكان ذلك على اثر رفض القاضي لما قررته وزارة الحقانية من تعيين قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الاهلية عضوين في المحكمة الشرعية العليا بحجة اصلاح المحاكم الشرعية التي كثرت الشكوى من اختلالها كما سنبينه في الكلام على عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء

عظم هذا الامر على سمو الخديو لما فيه من قطع أقوى الصلات بينه وبين الدولة العثمانية وشخص السلطان ، وهي مستنده وملتحده الوحيد في مناهضة الاحتلال ، وبقطعها يكون للعميد البريطاني السيطرة على المحاكم الشرعية من طريق الحكومة وهو مما كان أنذره إياه الاستاذ الامام ، وما ذا يعمل سموه ؟

لجأ إلى الجرائد التي تؤيده والى علماء الازهر فأنشأوا ينشرون المقالات المؤثرة المستفزة للرأي الاسلامي العام ، بأن هذا اعتداء على دين الاسلام وشرعه القويم الذي يستمد سلطته التنفيذية من خليفة المسلمين ، وأيد احتجاجهم الشيخ

حسونه النواوي شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية في مجلس شورى القوانين، ولم تبال الحكومة بذلك كله لان اللورد كرومر كان اذا جزم بشيء لايعارضه احد . وقد كان بعض كبار فقهاء الحنفية في الازهر افتى الحكومة فتوى شفوية بان هذا العمل جائز شرعا ، وليس فيه عدوان على الدين الاسلامي مطلقا

ولما رأى قاضي مصر الشيخ جمال الدين افندي ان الامر جد ، ولا يستطيع تلافيه أحد ، باع داره وعزم على مغادرة هذه البلاد بعد صدور أمر الخديو بتعيين قاض من علماء الازهر لرياسة محكمتها الشرعية العليا ، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ١٣١٧ (يونيو سنة ١٨٩٩)

وفي أواخره قررت الحكومة عقد مجلس النظار برياسة سمو الخديو في قصر التين بالاسكندرية لتنفيذ هذا الامر بعد أن بلغ سموه رئيس النظار انه ورد على جناب اللورد كرومر برقية من وزير الخارجية بلندن ناطقة بوجوب تعيين قاض مصري في منصب القاضي التركي وقطعت جهيزة قول كل خطيب

عندئذ أظلمت الدنيا في عيني سموه وضاقت عليه الارض بما رحبت، فاستشار رجاله وكل من له ثقة به في المخرج من هذا الضيق فأعوزهم الرأي ،وأخيراً اتفق رأيه مع بعضهم على ان هذه المشكلة لا يرجى وجود حل لها إلا عند الشيخ محمد عبده وإلا فهي (قضية ولا أبا حسن لها) فأمر حسن باشا عاصم أن يرسل برقية إلى الاستاذ يقول فيها ان أفندينا ينتظرك في قصر رأس التين صباح غد

وصلت البرقية مساء يوم الاربعاء وهو موعد درس التفسير فقرأ رحمه الله الدرس وذهب بعده إلى داره في عين شمس فتعشى وجاء قبل نصف الليل إلى محطة مصر فسافر الى الاسكندرية في القطار الذي يسمى قطار الصعيد فصبحها بكرة فذهب من محطتها الى قصر التين تواً فألفى سمو الامير منتظراً له فتلقاه بلهفة قائلا :انني وقعت في مشكلة او أزمة ليس لها غيرك يا أستاذ ، وذكر له ان لورد كرومر سيحضر في هذه الساعة ليبلغه برقية وزير خارجيتهم بوجوب انهاء مسألة قاضي مصر وتعيين عالم مصري بدل القاضي التركي . وان مجلس النظار ينعقد

بعد خروجه لتقرير ذلك (قال) وأنا ليس من مصلحتي ولا من مصلحة مصر قطع هذه الصلة الدينية بالسلطان والعداوة النهائية للدولة العثمانية

قال الاستاذ الامام الامر سهل يا افندينا . قال سهل،سهل ،هيه، هيه

قال الاستاذ ان الانكليز أشد شعوب الارض احتراما لحرية الضمير والوجدان الديني ، ولا سيما الطبقات الراقية منهم ، وقد بلغ من احترامهم له انهم لما سنوا قانون التلقيح بمادة الجدرى للوقاية منه وضعوا فيه مادة خلاصتها انه يجب على كل انكليزي أن يقبل عملية التلقيح إلا من يقول ان وجدانه الديني لا يسمح له بذلك. فهذا استثناء لم يعهد له نظير في شيء من قوانين الدول ، وسببه ان بعض رجال الدين كان يرى ان هذا التلقيح حرام

فاذا جاء لورد كرومر الآن وبلغ افندينا ما ذكر و كان هذا اعتقاده فقال له ان وجداني الديني لا يسمح لي بان أعين القاضي ورئيس الامور الشرعية لانني أعتقد أن هذا حق السلطان بما له من صفة الخلافة ـ فانني لا أشك في أن اللورد بما نعرفه من تربيته السكسونية الاستقلالية ومن اصولها احترام الوجدان فانه يقبل من أفندينا هذا الجواب ، ويبلغه لرئيسه وزير الخارجية فيقبله الآخر ويكون هذا فصل الخطاب

قال سموه : كده ،كده . قال الاستاذ هكذا أعتقد

وحينئذ جاء الحاجب يستأذن الامير للورد ، فقام الاستاذ ودخل في حجرة أخرى ،ودخل اللورد على الامير وبعد تبادل التحية ، بلغ سموه البرقية ، فأجاب سموه بما لقنه اياه الاستاذ الامام ، فقال اللورد إذا كانت المسألة مسألة ضمير ووجدان فلا كلام لنا فيها . ثم انصرف

و كان النظار ينتظرون خروجه لعقد الجلسة وقد بلغهم ما جرى بينه وبين الامير ،فقرروا في جلستهم إبقاء قاضي مصر التركي في منصبه ،وغض النظر عن مشروع انتداب القاضيين من مستشاري الاستئناف الاهلي عضوين في المحكمة الشرعية العليا ، وعاد كل شيء إلى أصله ، وعلى اثر ذلك عزلت الحكومة الشيخ حسونة من مشيخة الازهر وإفتاء الديار المصرية

مسألة ليون فهمي

ليون فهمي رجل من دهاة الارمن استخدمه سمو الخديو في بعض أموره السياسية السرية وكان يعطيه مكافآت كبيرة وقد حفظ على سموه أوراقا وأسرارا صار يهدده بها لسلب المال الكثير ، وفي أثناء ذلك اختفى عن الانظار، فبلغ العميد الانكليزى ان الخديو معتقل له في سراي المنتزه ، او في يخته (المحروسة) وانه يريد أخذه معه الى الآستانة – فأراد ان تفتش باخرة المحروسة وسراي المنتزه بناء على هذه التهمة ، وانها لأكبر اهانة لسموه ، ولما علم انهم فاعلون ولم يجد عند أحد من رجاله رأيا فيما يعمل لدرء هذه الاهانة ومنعها . أمر بارسال برقية الى الشيخ محمد عبده بمصر لمقابلته – كما فعل في مسألة قاضي مصر من قبل – فحضر الاستاذ فذكر له سموه المشكلة ، فقال له ان عندي رأيا يشترط في نجاحه أن يخرج ليون فهمي من السراي أو من المحروسة إن كان في احداهما . وبعد إخراجه يكتب أفندينا بلاغا إلى معتمدي جميع الدول المعترفين باستقلال مصر تحت سيادة الباب العالي وبخديويته عليها بان السلطة الاحتلالية تريد الاعتداء على استقلاله واهانته بتهمة اجرام باطلة ويحتج عليها ويحملهم تبعة تفتيش قصره ويخته بهذه التهمة وان يبلغ لورد كرومر انه سيفعل ذلك اذا تجرأ أحد على محاولة تفتيش السراي

ولما بلغ العميد الانكليزى هذا علم ان الخديو لايقدم عليه إلا اذا كان عالما بان المفتشين عن الرجل لايجدونه ، فتركوا تفتيش السراى بعد تفتيش المحروسة

وقد علمنا يومئذ ان سموه لم يستطع تنفيذ رأي الاستاذ باخراج ليون فهمي من السراى إلا ببذل مبلغ كبير من الجنيهات وقد أرسله يومئذ مع احمد افندى لوبك العريس إلى بور سعيد ومنها إلى بلاد اليونان ليقيم فيها برضاه واختياره

هكذا كان شأن الشيخ محمد عبده في بذل النصيحة وصدق الخدمة للخديو عباس فيما كان يتنازع فيه نفوذه مع نفوذ عميد الاحتلال وفي غير ذلك إلى أن تغيرت سيرته العامة في الجد ، وسيرته الخاصة مع الشيخ ، حينئذ صار يحترس فيما يقوله له من غير خروج عن النصيحة الواجبة وسأذكر بعض الشواهد على هذا في الفصل الآتي

علاقة المؤلف بسمو الخديو

قد علم من الفصل السابق انه كان لمؤلف هذا التاريخ صلة بسمو العباس كانت حسنة ثم ساءت بالتبع للغضب على الاستاذ الامام ، ثم حسنت في آخر الايام ، فاقتضت المناسبة إعطاءها نصيباً من البيان ،الذي لايتعدى العبرة في هذا المقام

كان الشيخ علي يوسف رحمه الله تعالى هو الذي قدمني وقربني إلى سمو الامير عباس وعرفه بي تعريفا حسناً ، وكان الاستاذ الامام قدس الله روحه يذكرني له إذا عرضت مناسبة للذكر الحسن ، ولعل أول مرة منها كانت يوم ترجم للمنار من مذكرات البرنس بسمارك كلمته في الدين والحرب والسياسة التي نشرت في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ (ص ٨٤٦ من مجلد المنار الاول)

أخبرني انه ذكرها لسموه وذكر لهانه نشرها في جريدة المنار بعبارة تشعر بأن المنار موضع الثقة عنده حتى قال له سموه :أنت لك جريدة في هذه الايام ؟ فأخبره بما أنشيء له المنار من الاصلاح . والظاهر انه صار يثق بي من تعريف الشيخين اللذين كان يثق بهما منتهى الثقة ، وصرت أحضر جميع مقابلات «التشريفات » في الاعياد ، وكذا المقابلات الشهرية في الغالب فان تخلفت مرة عاتبني ، وكان يستوقفني كثيراً مع الشيخ علي يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ،ويتحدث معنا في بعض الشؤون الحاضرة ،وقد يستوقفني وحدي احيانا وكان المرحوم حسن باشا عاصم يستاء من هذه الوقفات في أثناء المقابلات لإخلالها بنظام الترتيب الذي حدده لها واقتضائها إنتظار من يدخلون بعدنا اكثر مما ينبغي أن ينتظروا كما أخبرني بذلك وكان يومئذ رئيس التشريفات ـ وكذلك صار يقابلني في كل من قصر عابدين وقصر القبة ، وقال لي أنت مأذون بالمجيء اليهما في أي وقت شئت ،وآذن رئيس التشريفات بذلك،ثم زاده رغبة في ذلك علمه بمناصبة الشيخ محمد أبي الهدى افندي الصيادي لي وسعيه لاصدار إرادة من السلطان عبد الحميد بمنع المنار من جميع البلاد العثمانية ، وعلمه ايضا بأن ابا الهدى يكاتبني

ويحاول إقناعي بترك مصر والذهاب الى الاستانة ويعدني بالرتب العلمية والوظائف الرسمية ، وكانت هذه المسألة من اهم المهمات عند سموه

أطلعت الشيخ علي يوسف مرة على بعض مكتوبات ابي الهدى في ذلك فذكرها لسموه فأراد أن يتوسل بها الى تغيير قلب السلطان على الشيخ ابي الهدى افندي لعلمه بانه لم يمكنه استصدار الارادة السنية بمنع المنار الا بطعنه فيه وفي مذشئه لدى جلالته بانه عدو لشخصه ولمنصب الخلافة ، وجاء في تلك الاثناء من سفير الدولة البريطانية في الآستانة إلى لورد كرومر نبأ بان رئيس كتاب السلطان (الباشكاتب) زاره وأخبره بان في مصر جريدتين عدوتين لجلالة السلطان يساعدهما الخديو ومختار باشا الغازي، أحدهما المنار العربية والثانية الميزان التركية . (جريدة الجون ترك) وان السلطان يود من الانكليز إبطال هاتين الجريدتين

فلما علم الخديو بهذا الكتاب وهو لم يكن يساعد الجريدتين اعتقد أن الذي وشى للسلطان بهذا هو الشيخ أبو الهدى ورأى أنه إذا أخبر السلطان بانه مع هذا يتودد إلى صاحب المنار يثبت عنده عدم إخلاصه لجلالته. وقد ذكر لي الشيخ علي يوسف رأي سموه هذا وانه لا يتم الا باعطائهم أهم مكتوبات ابي الهدى فقلت له ان المكتوبات الشخصية أمانة لايجوز أن تتخذ وسيلة لايذاء صاحبها . قال أوليس صاحب هذه الامانة قد آذاك فكيف لا يجوز أن تنتقم منه وهو البادىء بالشر ؟ قلت نعم هو قد آذاني وآذى اهلي وأصدقائي في بلادى ايضا ، ولكن الانتقام منه بهذه الوسيلة المنافية لأمانتي الشخصية يعز علي. فسكت غير مقتنع

ثم كان اول مرة قابلت فيها سمو الامير بعد ذلك حفلة التشريف الكبرى لعيد الاضحى سنة ١٣١٦ فلما وقف إيذانا بانصراف من كنت معهم وصاروا يخرجون مسلمين بالاشارة المعتادة التي يقابلها سموه بالنظر لكل واحد وتحريك يده ـ صرف نظره عني لأبقى ثم أقبل علي فدنوت منه فكلمني في المسألة وقال : هذه فرصة للانتقام من عدوي وعدوك فاذهب انت من هنا الى شفيق واتفق معه على ما يجب وأنا قد كلمته ـ فخرجت قاصداً حجرة احمد شفيق بك (باشا) وكان يومئذ رئيس القلم التركي عنده ـ فذكر لي ما كان سبقه اليه الشيخ علي

يوسف وقال لي ان أفندينا يمكنه أن يوصل هذا الكتاب الى شخص جلالة السلطان بما له من الواسطة في سراى يلدز ، وأفندينا يعد هذا اكبر خدمة لك عنده . فأجبته بمثل ما قلته للشيخ علي يوسف من مسالة الامانة والخيانة . فقال بعد عدة مراجعات : ان هذا إحساس شريف جداً ولكنه لا يخطر في بال احد ولا يقول بمثله احد . قلت له ولكنني إنا اقوله عن شعور واعتقاد وأعده من أخلاقي التي لا يمكنني الجناية عليها لاجل أفندينا الذى أجله ولا لاجل نفسي . فأكبر احمد شفيق الفاضل هذا فوق ما اكبره الشيخ علي يوسف الذي قد غلب على نفسه شعور السياسة فكان يقدم ما تقتضيه على كل شيء

والحق ان المنار لم يكن من خطته الطعن في السلطان عبد الحميد لا في شخصه ولا في خلافته وسلطنته ، وانما أنشأته لاجل الاصلاح الديني والمدني ،وانما ساء الشيخ أبا الهدى منه إنكاره خرافات أهل الطرق المنتحلين للتصوف وهو من كبارهم الذين رقوا في معارج الجاه بانتحال الطريقة الرفاعية وهو قد صرح بهذا في كتبه الي ـ فليراجع ذلك من شاء في أول المجلد الثاني عشر من المنار

هذا ـ وان سمو الامير لم يظهر لي أدنى امتعاض ولا انحراف بما كان من عدم امتثال أمره وموافاة رغبته في هذه المسألة بل لم يقل عطفه علي ومقابلته لي وكان من ذلك العطف بعد ذلك بسنين أن دعاني مرة إلى قصر القبة وبعد مقابلة طويلة أخذني بسيارته إلى بعض مزارعه وبعد الطواف فيها على العاملين في الزراعة وعلى ما يربى فيها من دود الحرير دخلنا في دار له هنالك فيها كسترة موسيقية جامعة لجميع الآلات المعروفة في هذا العصر فعزف عليها بيده أنواعاً من العزف ثم عاد بي إلى قصر القبة

وكان اول إعراضه عني ما ظهرت لي أمارته في استقباله بمحطة مصر مع المستقبلين وكان عائداً من سفر فلم يقبل علي كعادته وصرح لي في إثر ذلك صديقي حسن باشا عاصم بانه تحول عني فيجب ان أقطع زيارته ، فانقطعت عنه وأنا لا أعلم سبب إعراضه . ثم ظهر لي انه كان تابعاً لغضبه على الأستاذ الامام رحمه الله تعالى، وفي هذه الاثناء كنت أكتب في المنار وفي غير المنار ما يسوءه جدا حتى قال لي

حسن باشا عاصم : ان بضعة أسطر مما تكتب في المنار مرة في السنة هي اشد عليه مما يكتب في المقطم ضده مدة سنة، كأن مايكتب في المقطم حصى تلقى مرة بعد مرة على القصر ، وكأن سطورك القليلة كرة من الديناميت . ونموذج ذلك ما كتبته في حضوره حفلة عيد الجلوس لملكة الانكليز ونشرته آنفا في الكلام على التمهيد لانتقامه من المفتي ومن رئيس ديوانه

وأزيد عليه لايفاء الموضوع حقه انه لما تم في سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢ م مائة عام لتاسيس محمد علي باشا ملك مصر وهو مفخره ومفخر أسرته بلا نزاع ـ احتفل ديوان الاوقاف لذكراه بتزيين المساجد ومآذنها بالانوار ولا سيا جامع القلعة حيث اقيم احتفال ديوان الاوقاف، وجامع الازهر حيث اقيم احتفال العلماء فانتقدت ذلك بأن المساجد بيوت العبادة لله وحده لا يصح أن تزين للاحتفال بذكرى الملوك والامراء المستبدين ، ولا يجوز شرعاً أن ينفق في ذلك شيء من مال الاوقاف ، وذكرت ان لمحمد علي ثلاثة أعمال كبيرة كان كل منها موضع خلاف هل كان نافعاً أو ضاراً بالمسلمين في سياستهم العامة ودينهم (١) تأسيس حكومة مدنية بمصر كانت مقدمة لاحتلال الاجانب لها (٢) قتاله للدولة العثمانية بما اظهر به للعالم كله وللدول اوربة خاصة ضعفها وعجزها وجرأهن على التدخل في أمور سياستها وهي السياج الأمنع الاقوى لاستقلال ملك الاسلام في وجوههن ، وما زالت بعد ذلك تتدحرج في مهاوى الضعف والانحطاط (٣) قتال الوهابية والقضاء على مانهضوا به من الاصلاح الديني في جزيرة العرب مهد الاسلام ومعقله وكانت الكتابة شديدة ترتب عليها خوض في الجرائد

ولما رأى الاستاذ الامام هذا في الجزء الرابع من المجلد الخامس من المنار كتب مقالة طويلة في مساوي حكم محمد علي في مصر ومقاصده منه نشرتها في الجزء الذي يليه بامضاء مؤرخ ، واتفق أن اطلع الخديو على الاول في يوم صدور الآخر فأرسل احمد بك العريس الى دار الاستاذ الامام في عين شمس يبلغه شدة استيائه مما كتبه صاحب المنار ويقول انه أشد عليه من كل مايكتب من الطعن في سموه لانه ليس لهم مفخرة غير محمد علي ، وقال له ان أفندينا يقول انه لايستطيع أحد إسكاته

صاحب المنار غيرك ، وهذه خدمة لسموه ينتظرها من فضيلتكم

أجابه الاستاذ ان المنار جاءني اليوم فرأيت فيه مقالة في الطعن على محمد علي باشا أشد من الاولى يظهر ان أفندينا لما يطلع عليها ، وأنا سأكلم صاحبه «وأرجوه» بان لا يعود إلى مثل هذا مما يسوء أفندينا

ثم إن كثيراً من الوجهاء اقترحوا أن يقيم الشعب المصري ذكرى نافعة دائمة لمحمد علي باشا بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس ملكه ، ورجحوا بعد المذاكرات أن تكون هذه الذكرى مدرسة للصناعة تضاف إلى اسمه ، وألفوا لجنة لجمع المال بالاكتتاب العام واختاروا لرياستها وزير مصر الاكبر ورجلها المجمع على الثقة به مصطفى رياض باشا ، فنهض بالعمل ، وطلب من سمو الخديو أن يتوج الاكتتاب باسمه الكريم فلم تجد نفسه بأكثر من مائة جنيه فكان ذلك محبطا للعمل وسبباً لاستياء القائمين به ، وكل من يرى انه عمل خيري نافع ، حتى إن بعض أمراء البيت العلوي قد امتنعوا من الاكتتاب وفي مقدمتهم الامير أحمد كمال باشا من اكبر أغنيائهم فانه لما عرضت عليه جريدة الاكتتاب قال اكتبوا بجانب اسمي ثلاثة قروش ! قيل له أتمزح يا دولة البرنس ؟ قال لا والله لا أزيد على هذا وهذا كثير في مقابلة اكتتاب الجالس على عرش محمد علي بمائة جنيه

وكان رياض باشا كلم لورد كرومر في المشروع ورغب اليه أن يأذن مستشار المالية . وافقة مجلس النظار على إعطاء أرض كافية لبناء المدرسة فيها من أراضي الحكومة الثمينة بالاسكندرية فأجابه إلى ذلك وتبرع للعمل بمائة جنيه من جيبه ووعد بمساعدات أخرى ليس هذا محل بسطها ، فاثنى عليه رياض باشا في خطبته التي ألقاها في الموضوع بمدينة الاسكندرية وعبر عنه بصاحب المقام الارفع .

وكان سمو الخديو يكره رياض باشا ويستاء من تعظيم الشعب له وثقته به ، فسلط جرائده على الطعن فيه بهذه المناسبة وهي اللواء والمؤيد الذي يعرف الناس فضل الوزير عليه وعلى صاحبه ، فبالغوا في الطعن فيه حتى قالوا انه انتحر ومرق من الوطنية . . . فلما رأيت ذلك كتبت في آخر جزء المنار الذي صدر في غرة ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (ص ٢٨٠ م ٧) مانصه :

﴿ قول رياض باشا ـ أو عبيد الكلام ﴾

رفع العلم الانكليزي باذن الخديو على السودان وخطب الامير تحته مذعناً له فلم يؤثر في المصريين ، وعقد الوفاق الانكليزي الفرنسي بناء على دكريتو خديوي ، ومن لوازمه تأييد الاحتلال في مصر فلم يؤثر فيهم ، ولونت خريطة مصر في مدارس حكومتها بلون المستعمرات الانكليزية فلم يؤثر فيهم ـ واستشار الامير اللورد في تعيين شيخ الازهر فلم يؤثر فيهم ، ووكل إلى اللورد النظر في لائحة المساجد وأئمة الصلاة فلم يؤثر فيهم ـ ويقول اللورد جهراً انه هو المسئول عن ادارة هذه البلاد فلا يؤثر فيهم . وقال رياض باشا في خطبته في احتفال تأسيس مدرسة محمد علي الصناعية ان اللورد هو صاحب النفوذ الشامل ، والمقام الارفع ، ورغب اليه في تعاهد المدرسة حتى تبلغ أشدها ـ فقام احداث الوطنية يلغطون في ذلك ويعدونه حادثاً جللا ـ فانظر علام يسكتون ، وبماذا يلغطون . اهـ

ثم شرحت هذه المسألة في الجزء التالي لهذا شرحاً زاد الامير استياء لان قنبلته أكبر من هذه القنبلة فانها بلغت صفحتين كاملتين أو أكثر

محاولة الخديو الانتقام من صاحب المنار
والتفريق بينه وبين الاستاذ الامام

اخبرني أحد المستخدمين في الخاصة الخديوية انسمو الخديو جمع مرة جميع مستخدميها عنده وكلهم في بعض الامور الخاصة بوظائفهم ثم قال لهم : يجب عليكم أن تعاكسوا مجلة المنار وصاحبها «من تحت لتحت» اي خفية بحيث لا يظهر عملكم . وبلغني من بعض المطلعين على دخائل السراى السرية ان بث بعض الجواسيس حولي ، عسى أن يطلعوا على هفوة مني تنافي صفتي الدينية الارشادية فيشهروني بها فلم يعثروا ولله الحمد والفضل على شيء ؛ الا انني أضع عمامتي عن رأسي في أكثر مجالسي وأركب في الدرجة الثانية من الترام كثيراً

ثم توجهت عنايته إلى أمرين كبيرين لا أدرى بايهما بدأ ، وانما أعلم انه

كان يجمع بينهما (إحداهما) التفريق بيني وبين الاستاذ الامام . (وثانيهما) اخراجي من مصر ولكن هذه امتدت الى ما بعد وفاة الاستاذ

أما التفريق فقد بذلت له مساع متعددة ربما أشرحها في بيان علاقتنا من آخر هذا الكتاب . وأهم الواضح الصريح منها ان سموه أمر كلا من الاستاذ الشيخ محمد شاكر وبطرس باشا غالي بالسعي لذلك لدى الاستاذ الامام ، وأذن له بالتصريح له بان سموه يرضى عنه كل الرضا ويساعده كل المساعدة على اصلاح الازهر بشرط أن يبعد عنه صاحب المنار ويقطع صلته به ، وقد جاءه كل منهما في وقت غير الوقت الذى جاءه فيه الآخر إلى داره في عين شمس وكلمه في ذلك

أخبرني الاستاذ رحمه الله تعالى انه قال لبطرس باشا يومئذ : اذا كنت أنا انسانا ذا قيمة في الوجود فانما ذلك باخلاقي لا بوظيفة الافتاء ولا بغيرها ، وأي خلق يكون لي اذا كنت أترك صحبة السيد رشيد رضا لأجل الخديو ، وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضاً لاجل الخديو اذا أراد ؟ أحب ان تعلم ويعلم الخديو انني أفضل أن أعيش أنا والسيد رشيد رضا ههنا في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس ادارة الازهر لان هذا الرجل متحد معي في العقيدة ، والفكر ، والرأي ، والخلق ، والعمل... وأما فضيلة الشيخ شاكر فقد أخبرني انه لما بلغ الاستاذ شرط سموه في الرضا عنه قال له : كيف أرضى بابعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان افكاري ؟

ولما لم ينفع السعي لدى الاستاذ في ذلك وجاء وقت الحملة الكبرى عليه في موضوع الفتوى الترانسفالية الشهيرة جاء دور السعي لدي بهذا التفريق، وقد عهد به سموه إلى سماحة الشيخ محمد توفيق البكرى فارسل هذا إلي عبد الله افندى المغيرة ليمهد السبيل له ثم جاء هو بنفسه وأخبرني بان سمو الخديو يحبني ويحترمني ويود مساعدتي على خدمة المنار للاسلام بالمال والنفوذ ، واني أنا الذى قطعت الطريق على نفسي بتشيعي للشيخ محمد عبده ...وقال انه قد أعد الآن حملة قوية من أشهر كتاب مصر وعلمائها للطعن في الفتوى الترانسفالية (وان صاحب جريدة حديثة العهد غير مسلم قد أخذ منه ٧٠٠ جنيه دفعة واحدة) قال وهو لا يكلفك أن تطعن على الشيخ مع الطاعنين لانه يعلم كما نعلم ان هذا مما لا سبيل اليه معك ، وانما يكلفك السكوت عن الدفاع عنه فقط ، فاذا كنت ترضى بهذا فافندينا مستعد لمقابلتك ...

قلت له إن هـذه مسألة دينيـة وهي من أخص مباحث المنار فلا يمكنني السكوت لمن يخوضون فيها بغير علم اذا رأيتهم مخطئين فانا أدافع عن الحق لا عن المفتي شخصه ، واذاً لاحاجة الى مقابلتي لافندينا

قال ما معناه وماذا تفعل أنت وحدك مع هذا الجيش من الكتاب ؟

قلت مثل من ؟ قال في مقدمتهم ابراهيم بك المويلحي . قلت ابراهيم بك المويلحي كاتب نكت وهزل ، ونقد في المدح والذم ، ولا أقيم له ولا لاحد ممن تشير اليهم وزنا في تحقيق مسائل الشرع الخ ، بل قلت له ما هو اكبر من هذا ، والسيد البكري أديب كبير لوذعي يجل الامام ، وقد تلقى عنه ويقول عن نفسه انه منه كالذين آمنوا قبل الفتح ، ويجل المنار ويسميه صحيفة الخواص

وقد ذكرت حديثه للشيخ علي يوسف فاستحسن امتناعي عن مقابلة الخديو لعلمه بانه يستحيل علي أن أرضيه في هذه المقابلة وهو من أعلم الناس بحاله وحالي لم أذكر هذه المسألة للاستاذ الامام الا بعـد انتهاء الفتنة فقال لي لو استشرتني لأشرت عليك بمقابلته وأخذ ما تستطيع لعملك النافع من مال هـذا البخيل ، الذي لايبذل إلا في مثل هذه السبيل ، وتتفق على ترك التلاقي مدة من الزمن ثم نعود ، قلت : وهل كان يمكنني أن أرضى بهذا الرأي ؟؟

وقد كان الشيخ علي يوسف قال لي في غير هذه الحادثة كلاما في هذا المعنى قد يحمله سيء الظن فيه على صدي عن الاستاذ الامام بما دون التفريق (قال) انك رجل غير عادي ، وان جميع المسلمين في حاجة إلى الاستنارة بمنارك في هذا العصر ، وان المانع من انتشاره كما يجب انك بتشيعك للشيخ محمد عبده أوجدت لنفسك أعداء أقوياء يصدون عن المنار أقواهم الخديو ورجاله ، ومنهم العلماء الذين يحسدون الشيخ ويألمون من تفضيله عليهم ، وهو نفسه أهل لما تقوله فيه ولكنه في غنى عنه ، فحسبك أن تذكره بأعلى الالقاب العلمية المألوفة كما يفعل المؤيد عند ذكره وذكر شيخ الازهر الخ وبهذا تتقي ضرر أعدائه وهو لايخسر شيئا فمقامه معروف عند العارفين ...

قلت أنا أعلم ان كلامك هذا صحيح وان كان كثيرون يظنون خلافه وأن لي من هذه الجهة نفعاً ماديا ـ ولكن لي غرضا من تعظيم قدر الشيخ وتفضيله هو فوق فائدة انتشار المنار بكثير ، وهو ان الاصلاح الاسلامي الذي أدعو اليه لاينهض

إلا بزعيم تثق به الامة . ولا أعرف أحداً اجدر منه أو يساويه في استحقاق هذه الزعامة ، فأنا أدعو إلى تعميم الثقة بزعامته . قال هذا غرض صحيح لا أعارض فيه

وأما مسألة سعي سموه لنفيي من مصر فلعل أول من أخبر الاستاذ الامام بها مصطفى كامل باشا ، وقد ذكرت في فاتحة المجلد الثاني عشر من المنار أنه قال له ان افندينا يريد نفي صاحب المنار من مصر ويطلب منك أن تسكت على ذلك ولا تحمل لورد كرومر على المعارضة فيه ... وهو الذي صرح في كلامه على خطبة الخديو يوم إلباس الكسوة للشيخ الشربيني ان سموه يعني بقوله « ومن كان أجنبيا من هؤلاء الخ » صاحب المنار كما تقدم قريباً (ص٥١٤)

وأخبرني الشيخ علي يوسف انه كان عند سموه في سراي القبة وجرى ذكري فهاج وغضب وصخب وقال فيما قال : لا بد من اخراجه من هذه البلاد ... قال الشيخ علي فقلت له أظن ان افندينا لم يعلم بان السيد رشيدا أستاذ لجناب متشل انس وكيل المالية يتلقى هذا عنه العربية ؟ (قال) فلما نطقت بهذه الكلمة سكنت حدته فجأة كما يلقي قليل ماء على القهوة عند ارتفاع غليانها فيهبط في الحال ، سكن غضبه ، وسكت لسانه . إلا انه قال هذا من فعل الشيخ محمد عبده . . .(١)

وبعد وفاة الاستاذ الامام تجدد هذا السعي لدى سموه وقوي الامل فيه بعد استبدال الدولة البريطانية صديقه السر غورست بلورد كرومر ، وقد ذكرت هذا الخبر في فاتحة المجلد الثاني عشر أيضاً . ولما بلغ هذا الخبر رياض باشا في وقته ذكره لي ليلة كنت اسمر فيها معه في داره ، وقال لي ماذا تفعل انت ؟ هل تغير شيئاً من خطة المنار ؟ قلت حاش لله ما كنت لأغير عملي التابع لعقيدتي وخلقي ، وكل فضيلة لمصر عندي أنني أستطيع فيها خدمة ملتي وأمتي بما اعتقد انه الحق النافع ، فاذا زالت هذه الحرية منها لا يبقى لها مزية عندي ولا يحزنني الخروج منها وانا لا املك فيها شيئاً . قال : هكذا او (كده) اريدك . عند الافرنج مثل يقول : الشجاع ان خسر يخسر عشرة في المائة والجبان ان ربح يربح عشرة في المائة

(١) طلب وكيل المالية من الامام أستاذاً موثوقا بعلمه وأخلاقه يقرأ عليه العربية فأقنعني الامام بأن أقبل ذلك لانه يريد أن يرى هذا الانكليزي الحر المستقل الفكر عالماً مسلما يملأ قلبه .... فقبلت وقد حقق الله أمل أستاذنا بي حتى اني بينت لهذا الرجل من فضائل الاسلام ما حمله على التصريح لي ثلاث مرات بأن اعتقاده عين اعتقادي وقد بسطت ذلك في المنار . ووالله انني كنت أدافع عن الخديو أمامه

وكان بلغني أن سموه يريد التوسل إلى طلب نفي بفتوى من شيخ الإزهر أو مفتي الديار المصرية يقول فيها أحدهما أو كلاهما انني أنشر في المنار ما هو مخالف لعقائد الاسلام وأصوله . اخبرني بهذا الدكتور مهدي خان الايراني الشهير وانه سمعه من الشيخ علي يوسف او في مجلسه. فقلت له غاضبا صاخبا ان صح هذا فانني اطبع مائة الف نشرة واوزعها على اعضاء شورى القوانين وقضاة المحاكم ووزراء الحكومة وكبار رجالها ثم في المحافل العامة، أقول فيها انني كنت ادعو الى اصلاح ما فسد من عقائد المسلمين واخلاقهم بالدلائل في المنار واتحدى العلماء بالرد على ما كتب فلم يرد علي أحد، واذ وقع كذا وكذا فانا ادعو شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية الى المناظرة في معنى شهادتي الاسلام وأطلب ان تكون هذه المناظرة في مجلس يحضره بعض كبار القضاة ومستشاري الاستئناف واعضاء شورى القوانين. وان يكتب كل ما يقال فيها بحضرتهم واوقع عليه أنا ومناظراي وننشره على العالم الاسلامي ليحكم فيه ، ثم أسافر إلى الهند فقد دعيت الى التدريس في مدرستها الكلية في عليكرة براتب شهري قدره ثلاثون جنيها وأن يطبع لي المنار بالعربية والاوردية بغير أجرة وتكون حريتي هناك اوسع

لكن كانت تلك كلها أقوالا ، وكان من المستحيل أن يفتي شيخ الازهر أو مفتي الديار المصرية بما كان يريده الخديو منهما ، إذ لا يجدان له في المنار مستنداً لهما، وقد انتقدت في المنار الشيخ الشربيني وانتقدت قبله الشيخ البشري وغيرهما من كبرائهم، على كثرة ما كتبت في انتقاد التعليم الازهري وضرره فلم يجدوا في ذلك ما يردونه علي. وهذه فضيلة لعلماء مصر ، ومن فضل الاستاذ البشري ان الخديو ارسلني اليه مع احمد شفيق باشا ليبلغه رغبة سموه في الموافقة على ما يطلب من المال لمدرسة الدعوة والارشاد عند ما تعرض الميزانية على مجلس الاوقاف الاعلى فكان مما قاله لاحمد شفيق باشا في الثناء علي ان السيد محمد رشيد هو الآن لسان الاسلام . وهذه كلمة لم يقلها لاجل الخديو بل هي من فضله وانصافه رحمه الله وعفا عنا وعنه

بل أقول ان من فضل أدباء مصر وشعرائها وكتابها مع علمائها انه لم يوجد أحد منهم سفه نفسه لاجل الخديو بالطعن في الاستاذ الامام كما فعل دجال بيروت المتجر بدينه

الشيخ يوسف النبهاني الخرافي الشاعر فانه تقرب إلى سموه بهجو الاستاذ الامام الذي كان يجله (ولدي كتاب بخطه يثبت ذلك) وأستاذه السيد جمال الدين وتلميذه محمد رشيد رضا في قصيدة طويلة غلا في البهتان والافتراء عليهم فيها والاحتجاج على ذلك بأحلامه المنامية فمنحه سموه راتبا شهريا من الاوقاف، ولم يكن لهجوه وافترائه ادنى رواج في مصر لان أقل المتعلمين فيها فهما وعلما ارقى من الدجال النبهاني عقلا وأدبا، ويعدون الشيخ محمد عبده أعظم رجل انجبته بلادهم في هذا العصر إن لم أقل في كل عصر. وقد ثبت ذلك باجلالهم له في حياته ومماته بما لم يتفق لغيره وقد تولى بعض تلاميذه مشيخة الازهر وإفتاء الديار المصرية

ومما ذمه هذا الدجال ونهى المسلمين عنه تفسير المنار الذي كنا نقتبس فيه أنوار حكمته وما امتاز بفهمه وبيانه يعلم مكانة هذا التفسير عند ارقى علماء الازهر وسورية وغيرهم (كفضيلة مفتي بلده بيروت) وماقرظوه به مفضلين له على تفاسير الاولين والآخرين

وأما ماوقع بالفعل من وسائل اخراجي من مصر فهو ان المعية الخديوية السنية بلغت وزير الداخلية أنه جاءها كتاب من المابين الهمايوني بطلب ارسال محمد رشيد رضا العثماني المقيم بمصر إلى الاستانة لأنه مطلوب من جانب العسكرية لاداء الخدمة العسكرية

بلغتني هذا الخبر وزارة الداخلية وسألتني عن جوابي عنه فأجبت بانني كنت مستثنى من الخدمة العسكرية في مدتها القانونية بكوني من طلاب العلوم الدينية وقد أديت الامتحانات العلمية الرسمية المثبتة لذلك في تلك السنين ومعي شهادات رسمية بها . وبعد انتهاء هذه المدة صرت من العلماء المدرسين ومعي شهادات من علماء بلدنا بذلك، ولاجله لم أطلب لاداء خدمة الرديف في العسكرية وقد انتهت هذه المدة ولم يعد للعسكرية وجه لطلبي للخدمة كما يعلم من المستندات الرسمية التي معي. وقد طلبت وزارة الداخلية مني هذه الشهادات والمستندات لتقدمها إلى المعية السنية وقال مصطفى باشا فهمي وزير الداخلية ورئيس النظار يومئذ نحن نعلم من أين جاء هذا الطلب ونعلم سببه ولكن لابد لنا من جواب رسمي وهذه المستندات ابلغ جواب. فاعطيتها إياها واخذت وصولا رسمياً بوصولها وتعهد وزارة الداخلية باعادتها إلي. فارسلتها الى المعية وهي ارسلتها الى الاستانة ثم أعيدت إلي ومن الاحياء الذين يعلمون هذا عبدالله باشا صفير فهو الذي تولى العمل به من قبل وزير الداخلية

استطراد

(في العبرة بسيرة الخديو بعد الاستاذ الامام وماله وعليه ، ومبدأ أمره ومنتهاه)

(ونصر الله للامام وحزبه حياً وميتا)

من الغريب ان سمو الامير العباس ظل حاقداً على الاستاذ الامام بعد موته وقد امتعض واستاء أشد الاستياء من اهتمام القطر المصري بمرضه وموته ، وظل حاقداً علي لوفائي له بعد موته بأتم مما كنت وفيا له في حياته ، وقد قوي حزب الامام الحكومي بعد وفاته بدخول سعد باشا زغلول أقدم تلاميذه في الوزارة وجعل مدرسة القضاء الشرعي تابعة لوزارته وطوع تصرفه، وتولي شقيقه احمد فتحي باشا زغلول وكالة وزارة الحقانية و نوط الحكومة به وضع قانون لاصلاح الازهر بالاشتراك مع لجنة خاصة وبذلك صار رجال المعارف ورجال القضاء الشرعي والاهلي كلهم وشيوخ الازهر تحت نفوذ حزب الامام رحمه الله تعالى

ثم تألف حزب الامة بعده من أركان أصدقائه من كبار رجال الحكومة ووجهاء القطر وأنشأوا صحيفة (الجريدة) لحزبهم فكانت مناصبة لسموه مقاومة لاهوائه بنفوذ حزبها و كتابها. وظل صاحب المنار ينشر افهام الامام العالية في تفسيره، ويشيد باسمه واصلاحه في جميع الاقطار ، فبهذا كله كان الاستاذ الامام هو المنصور على الخديو حياً وميتاً . ولكن الذى لم يكن يمكننا هو نشر هذا التاريخ الحر في عهد سموه

بعد هذا كله بلغت عبر الزمان من عقل سموه مبلغها فعلم انه كان مخطئاً في نزوله الى ميدان الكفاح والنزال مع أفراد من أمته ، جعلهم قرناء وخصماء له وهم من رعيته ، يتمنى أيهم أعلى مقاما أن يقوم بخدمته ، فصار يستميل من تسنح الفرص لاستمالته ، ومنهم صاحب المنار وأحمد لطفي بك السيد مدير (الجريدة)

وطنية الخديو وسيرته الاولى فيها

ومن انصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الامير الكبير، وقد ذكرت مساوئه حتى لا تكون المساوى هي التي تستقر وحدها في نفس قارىء هذا الكتاب وهو ظلم فأقول

أول ماعرف الناس من محاسنه مايسمى في عرف هذا العصر « بالوطنية » وقد أشرت إلى أطوار وطنيته في تأبين المرحوم مصطفى كامل باشا بقولي في الجزء الاول من مجلد المنار الحادي عشر (الذي صدر في آخر المحرم سنة ١٣٢٦) وكان ذلك في عهد غضب سموه علي — ما نصه :.

« بعد أن قضى الامير توفيق وولي الامير عباس دخلت البلاد في عهد جديد من الحركة الوطنية ، تجلت فيه كتجلي الحقيقة الكلية ، فكان مجليها الاول هو التجلي العام ، الذى ظهر في الخواص والعوام ، و كان لسانه الناطق جريدتا المؤيد والاهرام ، ثم فتر التجلي في جميع الطبقات ، ثم ظهر في طبقة الضباط وقتاً من الاوقات ، ثم فتر طائفة من الزمان ، ثم ظهر في مظهره الذى هو عليه الآن ، بان نفخت روحه في الناشئين ، ففعلت فعلها في غير أصحاب العمائم من المتعلمين ، لان هؤلاء لايعرفون لهم جنسية إلا في الدين ، وقد كان مصطفى كامل هو المجلي ، في ميدان هذا الطور من أطوار التجلي ، ثم صار داعية النابتة الى هذه الوطنية وهاديها ، اوسائقها وحاديها ، وهي هي فوق المدعو والهادى ، وامام المسوق والحادي » اه

واعني بهذه الاشارة ان البلاد المصرية كانت في عهد توفيق في فتور و استسلام يشبه الموت بالتبع لاستسلامه وخضوعه للاحتلال البريطاني فلما جاء عباس بعده كان كسيال من الكهرباء طبق جوها ، وكهرب جميع أهلها ، فشعرت بانها أمة يجب أن تكون مستقلة بامرها ، وكانت زيارته للسلطان في الآستانة أكبر ظاهرة لتلك الكهربة او مضت بروقها ، وقصفت رعودها ، وقد ذكرت سبب فتور هذا التجلي في أول هذا المقصد ، وانه ذهب بثقة عقلاء البلاد بسموه . وأما التجلي الثاني في ضباط الجيش الوطني فقد كان من تدبير جمعية مصرية سرية من قبل سموه لم يلبث حاكم السودان ان كشف سرها ، وحمل الخديو على معاقبة الضباط الذين عرف انتظامهم فيها ، ففعل ، وزالت ثقة الضباط به . وأما التجلي الثالث فظهر في طلبة المدارس الاهلية دون الازهر والمعاهد التابعة له ، وكان مصطفى كامل وجماعته هم الذين يتولون ادارة هذه الحركة وفي آخر سنة من سني حياته أسسوا الحزب الوطني

الخديو ومصطفى كامل وحزبه

الخديو عباس هو الذي أوجد مصطفى كامل واستعمله في الحركة الوطنية وهو تلميذ فقير مع مسيو دلونكل مندوب حزب الاستعمار الفرنسي الذي كان مناوئا للاحتلال البريطاني في مصر إلى عهد مسألة فشودة الشهورة وما أعقبها من اتفاق الدولتين سنة ١٩٠٤ وقد جعل سموه لمصطفى افندي كامل راتبا شهريا قدره خمسة وعشرون جنيها ثم مازال يزيده حتى بلغ مائة جنيه في الشهر، عدا ما كان يأمر به المقربين من مساعدته، وفي مقدمتهم الامير محمد ابراهيم والاميرة شويكار هانم، وما كان من ذلك الاكتتاب الكبير لانشاء مطبعة تصدر مع اللواء العربي جريدتين باللغتين الفرنسية والانكليزية. ومع هذا كله لم يكن مصطفى مخلصاً له اخلاص الشيخ علي يوسف بل انقلب عليه هو والحزب الوطني باطناً، وكان يظهر لهذا الباطن امارات، وتكتب فيه نبذ ومقالات، حتى قطع سموه عن الحزب الوطني مساعداته المالية بعد اتفاقه مع السرغورست الذي خلف لورد كرومر فصاروا يصرحون بكراهته ويعدونه خائناً لوطنه مارقا من الوطنية

وكان مصطفى كامل يود الاتفاق مع الاستاذ الامام والعمل معه او برأيه لمصر والاسلام، ولكن الاستاذ ورجاله لم يكونوا يقيمون له وزنا لأثرته واعجابه وكونه مسخراً للخديو بالمال، وكان سعد باشا زغلول يقول إنه مجنون، واما الاستاذ الامام فقال في وصف مقالاته انها مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف. ثم اتفق ان التقيا في باخرة حملتهما من اوربة إلى مصر فصارا يتكالمان واهدى مصطفى إلى الاستاذ كتباً فرنسية كانت معه فيها كلام عن الاسلام قبلها شاكرا، وقال له إذا قبلتني في مريديك فان خدمتك للاسلام ومصر تكون مضاعفة، وصار بعد ذلك يزوره بمصر ويكلمه بالتلفون كثيرا، ولكن لم يدم اتصالهما، لعدم المشاكلة بينهما، ولا حاجة إلى بيان ذلك هنا

وقد أخبرني رفيق بك العظم وكان من أصدقاء مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد الركن الاعظم له وللحزب الوطني بعد تأسيسه انهما يتخذان الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الامة المصرية على مقاومة الاحتلال فان ظفرت البلاد بجلاء الجيش

الانكليزي عنها فان الحزب الوطني يؤسس لها حكومة لايكون للخديو ولا لامثاله أدنى حظ منها ...

ويؤيد هذا ما أخبرني به صديق وزميل لمحمد بك فريد هو (ا . ل . س) انه قال له بعد وفاة مصطفى كامل بزمن : انا وانت نعلم ان سبب تعلق المرحوم مصطفى بالخديو المال ، فالمال كان عنده كل شيء (بل قال كلة لايمكنني كتابتها بنصها) واما انت فالمال عندك لا قيمة له وقد أضعت ثروتك الشخصية في الخدمة الوطنية ، فما الذي يبعثك على موالاة الخديو والتنويه به ، او قال غش الامة به ؟ فأجابه محمد فريد : ان الامة متعلقة به فنحن نستميلها من طريقه الى أن نستغني عن ذلك ، او ماهذا حاصله

الشيخ علي يوسف بين الخديو والاستاذ الامام

وأما الشيخ علي يوسف فقد كان أخلص للخديو من مصطفى كامل ولكنه كان مواليا وفياً للشيخ محمد عبده ورجال حزبه ولاسيما حسن عاصم وسعد زغلول منهم ، وكان يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما ينكره من أعماله وآرائه ويستشيرهم فيها ذلك ليقينه انه لا يصل الى سموه شيء من مكاشفته ، وكان يحاول التوفيق والتقريب ما استطاع ، ولا يطعن في أحد من أركان هؤلاء الرجال كما يفعل مصطفى كامل بدون تفرقة بين الحق والباطل ، حتى انه نصر اليهود على الاستاذ الامام فيما قرره في دروس الازهر من بيان مساوىء اليهود في تفسير الآيات التي انزلها الله فيهم فان بعض الجرائد نقلت عن المنار شيئا من ذلك فانتدب بعض اليهود للانكار على المفتي باسم الماسونية وتهوروا فيما كتبوا ولم يجدوا لهم نصيراً من الجرائد المشهورة الا جريدة اللواء ، ولم يلبثوا ان ظهر لهم خطؤهم فيما كتبوا وجاء رئيس محفلهم الماسوني من الاسكندرية إلى القاهرة وقابل الاستاذ الامام واعتذر له عما كتب باسم محفله. وزاره الرئيس الاعظم للماسونية واعتذر له أيضا بعد أن خطأ المحفل الذي احتج على فضيلته بأنه خرج عن حده وماتبيحه له الجمعية . ولكن مصطفى كامل باشا هو الذي أصر على خطيئته دون اليهود والماسون وقد فصلنا ذلك في (ص ١٩٦ ـ ٢٠٠) من مجلد المنار السادس

ولم يندفع الشيخ علي مع الخديو في مضارة الاستاذ الامام في مسألة الازهر

الاخيرة بكل شر اشره على ما كان له من هوى . وقد رأيت جماعة الامام مستغربين لهذا منه ولاسيما الشيخ عبد الكريم سلمان فقال لهم حسن عاصم باشا: سبحان الله! أتريدون من صعيدي فقير صار جليس خديو مصر ومستشاره وامين سره ان تسمو نفسه إلى تركه لاجلكم لان لكم فضلا عليه في مؤيده ومطبعته وكتابته ؟؟

ولما قلت للاستاذ الامام ان أكبر أسباب استياء الشيخ علي منه اعتقاده انه هو الذي حمل صديقه الشيخ أحمد أبا خطوة القاضي الشرعي على الحكم بعدم كفاءته لبنت السيد عبد الخالق السادات ، قال انت تعلم انني موافق لك فيما كتبت في المنار ونقله عنك المؤيد في مسألة الكفاءة . وأما رأيي في الشيخ علي والسادات في شخصهما فهو انهما كفؤان لكن في الخسة لا في الشرف !! قال هذا من باب النكتة المصرية

ولعلي أذكر ما كان من مودة الشيخ علي للاستاذ الامام في موضع آخر من هذا التاريخ وأكتفي هنا بأن أقول ان الشيخ علياً اخبرني في أثناء الفتنة الاخيرة التي اقتضت الجفوة والقطيعة ان الاستاذ الامام أرسل اليه انه يرغب منه أن يساعد الشيخ محمد شاكر عند الخديو ، ويتوسل الى ذلك باخباره بأنه غير موال للشيخ محمد عبده ولا من حزبه. قال لي فلم أخيب ظنه في وساعدت الشيخ شاكراً جهد طاقتي . وكذلك أذن الاستاذ الامام للشيخ محمد شاكر أن يتوسل إلى الخديو باظهار الانكار عليه والبعد عنه ، واحل له أن يقول فيه كل ما يرى فيه المصلحة حتى الطعن لتمكينه من خدمة العلم في معهد الاسكندرية ، فقال : إنا لا اقبل ان اتعرض لك بطعن . وقد كان يتوسل الى قضاء غرضه بأن يخبر سموه أن هذا ليس على ما يحب الشيخ محمد عبده فيقضيه سموه له بهذا الاعتبار

الخديو وبطانة قصره

ومن الغريب انه لم يبق للخديو أحد من أصحاب الرأي أو العمل في البلاد يثق به حتى عبد الحليم باشا عاصم من خلص رجاله العسكريين وقد كافأه على خدمته بجعله مديراً للاوقاف العامة وهي اكبر المناصب التي كانت لا تزال خاصة به دون الحكومة قبل جعل مصلحة الاوقاف وزارة لحرمانه منها . اقترحت على عبد الحليم باشا هذا وهو مدير للاوقاف العامة أن ينصح لسموه في مسألة لها علاقة بالانكليز ،

فأجابني ان هذا اقتراح حسن ولكنني أخشي ان أقوله له فينقرب بي إلى الانكليز!!

وأما احمد شفيق باشا فقد قضى عمره في خدمته بعد خدمة والده بالاخلاص التام، وكان أدخل رجاله في سياسته الرسمية وأعرفهم به وبكل أعماله وسياسته غير الرسمية ولكن استعداده الطبيعي أميل إلى التاريخ والادارة منه إلى السياسة، وكان لدينه وإنصافه يحب الشيخ محمد عبده ويجله ويعده من أخلص أصدقائه، ولما زار الشيخ الاستانة اضطرب السلطان لزيارته ورعب من تقارير الجواسيس فيها ولاسيما بعد اجتماعه بشيخ الاسلام هنالك وتحاورهما في حالة الاسلام والمسلمين، وأراد الانتقام منه، وحينئذ سعى أحمد شفيق أخاص السعي لدى رئيس كتاب السلطان (باشكاتب المابين) ولدى سفارة الانكليز لاجل أن يخرج الاستاذ من الاستانة من غير أن يمس شرفه، وكان ذلك بدون اذن الخديو وهو بمعيته في الاستانة، فلما علم بذلك عاتبه أشد العتاب. وعندي كتاب من أحمد شفيق الى الاستاذ الامام بذلك لعلي أنشره في موضعه اللائق به وقد انتهت خدمته الطويلة لسموه بالسخط...

وغرضي مما ذكرته من أمر هؤلاء انه لم يكن للخديو أحد له قيمة إلا وكان يجل الاستاذ الامام في نفسه، ويكره ماوقع بين الخديو وبين الاستاذ الامام من العداوة والبغضاء، ويعتقد انها من سوء حظ مصر والاسلام. ولكن الخديو لم يكن يعلم هذا على شدة عنايته بتسقط الاخبار، وأنى لمثله أن يعلم الحقائق وعمدته في نقل الاخبار المزدلفون المتملقون او الجواسيس وكل منهما لا يقول لمثله إلا ما يوافق هواه

ولقد قال الاستاذ الامام في الدرس العام الحافل في الازهر بمناسبة عرضت: ان نصيحة الملوك والامراء المستبدين تكاد تكون متعذرة لانهم يتوهمون انهم بمقتضى منصبهم أعلى من جميع رعاياهم رأيا وأوسع علماً، فالذي يريد أن يأتي اليهم رأيا أو يفيدهم علماً بشيء لا يمكنه ذلك الا بحيلة في الاسلوب لا يشعر من تلقى اليه بأنه في موقف المستفيد كأن يقول الناصح: لاشك ان مولانا ايده الله يعلم من أمر كذا ما لايعلمه غيره ـ أو ما لا نعلم ـ ولا يعزب عن رأيه وحكمته انه لو وقع كذا لكانت عاقبته ضارة أو نافعة الخ وهذا تعريض بالخديو فهمه الاذكياء كلهم

العبرة التاريخية في سيرة الخديو الاخيرة

من المعروف المشهوران سموه كان لوذعي الذكاء ، قوي الهمة، عاملا لا يمل ولا يكل ، وطنياً حريصاً على الاستقلال ، شديد البغض للاحتلال الانكليزى ورجاله ، وازيد على ذلك أنه كان حريصاً على الاتفاق مع الدولة العثمانيـة ، وكل ما فعله مما يسوء السلطان أو حكومته فهو لاقناعهم بأنه يستطيـع أن يضر وينفع ليعتمدوا عليه ويتفقوا معه . وإنما أحبط أعماله الوطنيه حرصه على جمع المال والاستكثار من العقار من أي طريق كان ، واشتغاله باتخاذ الجواسيس ومعاداته لكبار الرجال، وحبه للانتقام حتى بافشاء الاسرار ، وذلك هو الذي اضطره إلى مواتاة الاحتلال في كثير من الاعمال بطريق المساومة

وقد كانت السياسة هي الباعثة الاولى له على الاستكثار من المال والتصرف في الاوقاف لما تحتاج اليه أعمالها السرية (التي كان في غنى عنها) من النفقات ، ثم صارت همة المال ملكة راسخة فيه مستغرقة لجل اوقاته ، ولكن كانت العاقبة أن حرم أخيراً اكثر ما تأثله بالتبع لحرمانه مما هو أعظم منها وهو ملكه

سألته مرة في أوائل العهد بعطفه ولطفه : لماذا يشتري أفندينا الاراضي الواسعة في الضلمان من الاناضول وبلاد الدولة اكثرها خراب والامل في عمرانها ضعيف ، ولا يضع ثمنها في اطيان مصر الآمنة المطمئنة ؟ قال انني معاد لدولة قوية قاهرة معتـدية على بلادي ولا أدري هل تـكون عاقبة مناوأتي لها الظفر باخراجها ام تظفر هي باخراجي ، فأنا أحتاط لنفسي بأن يكون لي شيء أعيش منه في بلاد الدولة اذا دارت الدائرة علي . ولقد دهشت من جوابه هذا في ذلك الوقت ، وتذكرته بعد ما حل به ما لم يكن يخطر في بال أحد غيره

ومن الانصاف ان يقال انه على كل ما عرض له من الغواشي المنتقدة التي أحبطت اعماله الوطنية (ولم نجد احداً صرح بها مثلنا) قد بقي ذلك الشعور الوطني قوياً في نفسه حتى كان هو الحامل له على الاتحاد الى الدولة التركية وأحلافها في الحرب الكبرى على شدة عداوتها له ومحاولتها لاغتياله في عاصمتها ، فقد أطلق عليه الرصاص بقرب الباب العالي وأصابه ولم يقتله، ولا يشك احد من عارفي سياسة

الاتحاديين وتعدد اغتيالهم للمخالفين لهم انهم هم الذين أغروا من اطلق عليه الرصاص بقتله وقد بالغ سفير الانكليز بالاستانة في استمالته وحمله على العودة إلى عرشه في مصر قبيل دخول الدولة العثمانية في الحرب فلم يقبل، فبهذا اجمع الشعب المصري على حبه وان أقوى البراهين وأنهض الحجج على وطنيته ومقته الانكليز ومشاكسته لهم طول عمره كتاب لورد كرومر الذي سماه (عباس الثاني) وهو أعلم الناس بسياسته فهو قد أثبت فيه أنه لا يمكن أن يتفقوا معه لاجل مقاومة حزب في لندن كان يسعى لاستمالة الخديو والاتفاق معه وإعادته الى مصر

خدمته للدين ومساعدته لمدرسة الدعوة والارشاد

وأختم كلامي بما ثبت عندي في العهد الاخير من حرصه على خدمة الاسلام وإحياء دعوته وبث عقائده وفضائله، وانه هو الذي حمله على دعوته إياي لمقابلته في قصره بعد عودتي من الاستانة سنة ١٣٢٩ لاقناعي بانشاء جمعية الدعوة والارشاد ومدرستها في مصر وكفالته لها لكن بعد إنشائها كما تقدم في أول الكلام على علاقة أستاذنا بسموه (ص ٥٧٠) وإن اعتقد من كانوا يسيئون فيه الظن انه فعل ذلك لحرمان الدولة من هذا المشروع العظيم . فهو قد صرح لي بأن نجاح هذا العمل في مصر قد يقنع الدولة بنفعه لها (قال) وحينئذ ننشيء مدرسة أخرى في الاستانة ثم ننشيء نسخة من المنار باللغة التركية أيضا

وقد اتهمه الشيخ عبد العزيز شاويش تقربا للاتحاديين بأنه انما ساعدني على هذا العمل بالاتفاق مع الانكليز وانه كان يود مساعدتهم بهذا المشروع . وهذا أفظع بهتان رمي به وأبعده عن العقل، والله انه كان يخاف منهم عليه ، وهاك مايدل على ذلك

قال لي انه لا يمكن له الظهور أمام الانكليز بالمساعدة على إنشاء هذا العمل العظيم فانهم يعارضونه قطعاً . وأما إذا أمكنني جمع الاعانات من المسلمين وفتح المدرسة له فانه يقوم بمساعدتها بعد ذلك كما ساعد مدرسة الجامعة المصرية وغيرها من مال الاوقاف ، وهي أولى بالمساعدة منها لانها دينية محضة

ولما أنشأنا المدرسة كبر أمرها على دول الاستعمار الاوربي عامة والانكليز

خاصة وكلم بعضهم سموه في أمرها، مصرحين له بتشاؤمهم منها، بزعمهم انها ستلقي الشقاق بين المسلمين والنصارى !! فكان سموه يجيب من كلموه في ذلك بأنه مستعد لحمل كل مسئولية تنشأ عنها بشخصه، لثقته من مؤسسها ومن اخوانه . وأما العميد البريطاني وهو صديقه (!) السرغورست فقد كلمه في أمرها منذ أعلناه وقال له ان قناصل الدول الجنرالية كلموه في شأنها فلم يثنه ذلك عن عزمه، بل أقنعه بأنه يضمن بشخصه كل تبعة

وقد أمر مدير الاوقاف العامة في السنة الثانية لتأسيسها بان يضع لها مبلغاً في الميزانية ولكن الميزانية كانت قد تم وضعها وكان فيها مبلغ ٥٠٠ جنيه قد وضع لاجل قسم الوعظ والارشاد في الازهر وهو لم يتم تأسيسه فأعطيت المدرسة . وفي السنة الثالثة وضع في صلب الميزانية ٥٥٠ جنيها باسم المدرسة ودفعت الي مرة واحدة، ومثلها من الاوقاف الخديوية الخاصة . ثم حولت مصلحة الاوقاف بسعي لورد كتشنر الى وزارة وعين محمد محب باشا وزيراً لها في وزارة حسين رشدي باشا فاوصاه الخديو قبل سفره إلى الآستانة بان يضع في ميزانية الوزارة كل ماقرره مجلس إدارة المدرسة لنفقاتها في ميزانية سنتها المدرسية القابلة .وقد زار الوزير المدرسة واطلع على كل شيء فيها وقرأ قانونها، وجالسني عدة مرار للمذاكرة في أمرها، ورأى ان المبلغ المقدر في ميزانيتها لنفقة السنة المدرسية القابلة أربعة آلاف جنيه، فوعد بان يجتهد بتوفيره كله او اكثره، وانه سيقابل سمو الامير في الآستانة ويتلقى أمره الاخير بشأنها. ثم سافر الى الاستانة. وفي أثر ذلك اشتعلت نار الحرب العامة وكان من امرها ما كان . وفي أثنائها جعل الانكليز صنيعتهم ابراهيم فتحي باشا وزيراً للاوقاف وأوعزوا اليه بقطع المخصص للمدرسة في الميزانية ففعل، بعد ان كان عدلي باشا وزير المعارف بالفعل ووزير الاوقاف بالنيابة أمر بان تدفعه أقساطا وبدىء بذلك . وهذا هو البرهان الفعلي المؤيد للبراهين العقلية على بطلان اتهام الشيخ شاويش للخديو ولنا بالاتفاق مع الانكليز

ومن الشواهد على عناية سموه بخدمة الاسلام في غير مصر مساعدته للاستاذ

السيد محمد وجيه الكيلاني الذي كانت أرسلته مشيخة الاسلام في الآستانة الى (فيلبين) بطلب جمهورية الولايات المتحدة الاميركانية ليتولى ادارة امور المسلمين الدينية فيها ، ثم اهملت امره وقطعت راتبه، فعاد من هنالك ليقيم في بلاده من (سورية) فلما علم الخديو بوصوله إلى بور سعيد أمر من بلغه ان سموه يرغب أن يجيء مصر ويقابله في قصر عابدين ، فجاء الاستاذ و كان سمو الخديو قد أمرني بالمجيء إلى عابدين في الوقت الذى يجيء فيه السيد وجيه ، فاجتمعنا في حضرة سموه وبعد بحث طويل في حال مسلمي تلك الجزائر وما تحتاج اليه إقامة الدين فيهم وعد سموه بان يقوم بدفع تلك النفقات إلى أستاذهم بعد عودته ، وأنجز له بعض المساعدة

ومنها أن صديقنا القديم السيد محمد بن عقيل كان قد أسس في جاوة مطبعة ومجلة تصدر بلغة الملايو على مشرب المنار وتقتبس كثيراً من مقالاته ومباحثه، ثم اضطر إلى تعطيل المجلة والمطبعة لقلة الدراهم ، وقد جاء مصر في تلك الاثناء فأخبرت سمو الخديو خبره فأمرني باحضاره إلى قصر القبة في صبيحة اليوم التالي لاخباري إياه بأمره فجئنا فأكرمه سموه وسأله عن أحوال مسلمي تلك الجزائر الدينية والاقتصادية والسياسية ، وعن مشروع مطبعته ومجلته ، فاجابه عن كل ما سأل عن معرفة ـ فقال له لا تترك عملك واكتب لي تقريراً بما يحتاج اليه من النفقة كل سنة وعلي تسديد المال اللازم له بنظام مطرد

العبرة الختامية العامة

والعبرة العامة الكبرى من سيرة الخديو أنه لو ثبت على سيرته الاولى في الخدمة العامة والثقة بكبار العقلاء المصلحين لنهض بمصر نهضة أحيت العالم الاسلامي كله ـ كما قال الامير الهندي محسن الملك ـ وان العاقبة الفضلى في كل عمل من الاعمال هي لمن يتحرى الحق والخير والمصلحة العامة ، والاعتماد في كل عمل على خيار أهله ، وان شر مايفتتن به الملوك والامراء إيثار المنافقين المتملقين ، على الصادقين المخلصين ، وهذا نص قوله تعالى (والعاقبة للتقوى) وقوله (والعاقبة للمتقين)

استدراك على المقصد الثاني

﴿ والوعد بكتابة ذيل لهذا التاريخ ﴾

بقي لدينا من تاريخ عمل الاستاذ الامام في إصلاح الازهر مواد كثيرة يطول بنشرها كلها هذا الجزء ، على ما بقي من مواد عمله في القضاء الاهلي والافتاء والاوقاف والجمعية التشريعية والجمعية الخيرية وسائر المباحث ، فاخترنا ان نرجيء كثيراً من هذه المواد إلى الجزء الرابع من هذا التاريخ الذي سيكون ذيلا جامعاً لما له علاقة بالاجزاء الثلاثة

ومن مواد تاريخ إصلاح الازهر القوانين والتقارير التي وضعها مجلس الادارة لاصلاح التعليم ولجان اختيار الكتب ، وذكرنا مجملا لها في أعمال مجلس الادارة

(ومنها) مقالات كثيرة نشرناها في مجلدات المنار وفي غيرها من الصحف كنا نؤيد بها الاستاذ الامام في عمله بالتصريح تارة وبالتلويح اخرى . ولعل أولها ما نشرناه في شعبان سنة ١٣١٦ بعنوان (محاورة في اصلاح التعليم في الازهر) أشرت فيها إلى قول بعض أكابر شيوخ الازهر : ان من ترك قول فقهاء مذهبه للاخذ بحديث نبوي فهو زنديق . وأجابه بعضهم (وهو الشيخ محمد عبده) انما الزنديق هو من يعلم صحة حديث عن رسول الله ﷺ ويستحل أن يؤثر عليه قول شيوخ مذهبه اي من غير علم بأن لهم نصا من القرآن او من حديث الرسول معارضا له ومرجحا عليه

(ومنها) المواد المثبتة لتعلق الآمال الاصلاحية به وقيامه بأهم شؤونها بنفسه

(ومنها) التقارير والمكتوبات التي كان يرفعها اليه الازهريون فيما يشكون منه وما يرجونه لانفسهم وللازهر ، كطلب جماعة منهم تعيين معلم لاحدى اللغتين الاوربيتين الانكليزية او الفرنسية . وهؤلاء قد صاروا كلهم مدرسين في الازهر

(ومنها) اوراق أخرى كان يحفظها رحمه الله أغربها كشف بأسماء أشهر علماء المذاهب الاربعة في الازهر وفي جانب اكثر الاسماء إشارة بخطه إلى من يوثق بعلمه وعمله منهم وما يقابل ذلك . ومنها صورة عريضة رفعها زهاء ٣٠٠ طالب من الازهر الى سمو الامير بالشكوى من العلماء الذين سعوا لابطال الامتحان والطعن فيهم

وأما وصف دروس الاستاذ الامام وتأثيرها في الاصلاح الديني واللغوي وفوائدها ، وارجاف الحاسدين بها ، فسيأتي لها موضع في هذا الجزء إن شاء الله تعالى

المقصد الثالث

من الفصل السادس

عمله في منصب افتاء الديار المصرية

صدر الامر العالي من سمو الخديو بناء على قرار مجلس النظار بتعيين الاستاذ الامام مفتياً للديار المصرية، لست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ (الموافق ٣ يونيو سنة ١٨٩٩) و كان الامير هو الذي اختاره لذلك عقب حادثة قاضي مصر وفصل الشيخ حسونة من الافتاء ومشيخة الازهر — وقد توقع سموه منه أن يرفض الافتاء بدون المشيخة ، فكلف صديقيه مصطفى باشا فهمي رئيس النظار وحسن باشا عاصم رئيس التشريفات أن يحسنا له القبول وقال للثاني : اخبر صديقك بأنه إذا لم يقبل الافتاء الآن فانني أعد ذلك منه إيقاعا لي في صعوبة شخصية مع الاحتلال ، وأنا أعترف بأنه قليل عليه ولكن الامور مرهونة باوقاتها

أظن انني كنت أول من قابل الاستاذ بعد العلم بهذه المسألة . ذهبت إلى داره في عين شمس فألفيته واجماً كئيباً فلم أهنئه فظن انني لم اعلم فسألني ألم تعلم بما جرى في الاسكندرية ؟ قلت بلى ومالي أراك واجماً ؟ قال هذه وظيفة ليس فيها عمل . وذكر لي تفصيل ما حصل من أوله إلى آخره . وأن الخديو قال لمستشار الحقانية: الآن أوجدت لك مفتيا تستطيع أن تفهم منه ويفهم منك بلا واسطة ولا ترجمة

قلت: إذا لم يكن لغيرك في هذه الوظيفة غير إفتاء الحكومة فيما تستفتي فيه، وإفتاء محاكمها في مسائل الحكم بالقتل، فأنت لن تكون كذلك ، وخطر في بالي ما كتبته بعد ذلك في المنار وهو ان الرجل الذي أمكنه أن يجعل التحرير في جريدة الحكومة الرسمية وسيلة الى الاصلاح في جميع أعمال الحكومة ولا سيما وزارة المعارف، ووسيلة إلى الاصلاح الاجتماعي والديني في الامة ـ لا يعجزه أن يجعل أكبر منصب شرعي وسيلة إلى الاصلاح الاسلامي العام من نواح كثيرة . وكذلك كان فقد خدم بهذا المنصب القضاء الشرعي والاوقاف والمساجد وجمعية الشورى فأذكر عمله في هذه الثلاثة وأقفي عليها بالكلام على فتاويه وأبدأ الكلام بتأثير تقليده هذا المنصب في الامة

تأثير تقليده منصب الافتاء فى الامة

﴿ وتهانيها له ﴾

توقع العارفون بفضل الاستاذ الامام من الخير والاصلاح بتقليده لمنصب الافتاء العام فوق ما توقعه هو بتواضعه وهضمه لنفسه ، ودون ما أهله الله تعالى له بنعمته وفضله ، وأكتفي هنا من التهاني الشعرية التي نظمت له بثنتين منها ، وأرجىء سائر ما اختاره منها للنشر الى ذيل هذا التاريخ

التهنئة الاولى

﴿ لاديب العلماء صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن قراعة الشهير ﴾

(وهو من أوائل تلاميذ الاستاذ الامام ومن اخوانه ، وقد تولى منصب الافتاء من بعده)

بهديك في الفتوى إلى الحق نهتدي ... ومن فيض هذا الفضل نجدي ونجتدي

سمت بك للعليــاء نفس أبيـــة ... وعزمـة ماض كالحسـام المجرد

ورأي رشيد في الخطوب وحنكة ... وتجربة في مشـهد بعـد مشهـد

وعـلم كنور الشمس لم يك خافيـا ... على أحـد إلا على عـين أرمـد

فضـائلُ شتى في الافاضـل فرقت ... ولكنها حلت بسـاحة مفرد

ولو جاز تعدادي لهـا لعـددتها ... ولـكنها جازت مقـام التعـدد

ففيم أطيـل القول والشعر قاصر ؟ ... وماذا يفي قولي ويغـني تزيدي ؟

***

أمولاي يا مولاي دعوة مخلص ... تقول فيصغى أو تؤم فيقتـدي

لـكل زمان من بنيـه مجـدد ... لمـا أبلت الاهواء من دين أحمد

وقد عـلم الاقوام ان محمـداً ... مجدد هـذا الدين في اليوم والغد

يمينـا بمن بالفضـل خصص (عبده ... محمـداً) الداعي لهـدي محمد

وقلده عقد الفتـاوى فأصبحت ... تتيـه به الفتيـا بخير مقـلد

لنخترقن الحجب بالرشد لا الهوى وتبني منار الحق بالفكر واليد
فتوضح من إشكاله كل غامض وتفتح من أبوابه كل موصد
اليك أزف المدح شعراً مقصّداً على بُعد عهدي بالقريض المقصد
لأبلغ نفسي بامتداحك سؤلها وأقضيَ حقا لم يكن بمجدد
فجاء على قدري ولكن شافعي لدى قدرك السامي نبالة مقصدي
وهنأت نفسي ثم هنأت معشري وهنأت أوطاني بما نال سيدي
وقلت لمصر: هنئيه وأرخي (بهديك في الفتوى إلى الحق نهتدي)
سنة ١٣١٧ ٤١ ٥٢٧٩٠ ٤١ ١٣٩ ٥٦٩
لقد سبق التاريخ عشراً فلم اجد من الياء بداً بعد طول تردد
فزدت كما أبغي ومن يُلف مخلصا من النقص يطلب للكمال ويزدد
فلا زلت يا مولاي فينا محسدا وحاسدك المغبون غير محسد

﴿ التهنئة الثانية لشاعر النيل محمد حافظ بك ابراهيم ﴾

(وكانت هذه الابيات مبدأ اتصاله بالامام وشهرته بالشعر الاجتماعي الراقي كما توقعت ذلك في المنار)

بلغتك لم أنسب ولم أتغزل ولما أقف بين الهوى والتذلل
ولما اصف كأساً ولم ابك منزلا ولم أنتحل فخراً ولم أتنبل
فلم يبق في قلبي مديحك موضعاً تجول به ذكرى حبيب ومنزل
رأيتك والابصار حولك خشع فقلت أبوحفص ببرديك ام علي؟
وخفضت من حزني على مجد امة تداركتها والخطب للخطب يعتلي
طلعت لها باليمن من خير مطلع وكنت لها في الفوز قدح ابن مقبل
وجردت للفتيا حسام عزيمة بحديه آيات الكتاب المنزل
محوت به في الدين كل ضلالة وأثبت ما أثبت غير مضلل
لئن ظفر الافتاء منك بفاضل لقد ظفر الاسلام منك بأفضل
فما حل عقد المشكلات بحكمة سواك ولا ارقى على كل حوّل

عمله في تفتيش المحاكم الشرعية واصلاحها

كان اول عمل عهدت به اليه الحكومة بعد تقليده الافتاء تفتيش المحاكم الشرعية وبيان رأيه في اصلاحها، بعد أن ضجت البلاد كلها من كثرة الشكوى من خللها، وارتأى بعض الباحثين وجوب إلغائها، وتحويل اختصاصها إلى المحاكم الاهلية بحجة توحيد القضاء، وادعاء أهلية قضاتها للحكم في الاعمال الشخصية الدينية لانهم يتعلمون الفقه الاسلامي في مدرسة الحقوق الخديوية، ومن يتعلم القوانين في غيرها كفرنسة لابد له من أداء امتحان في الشريعة قبل جعله قاضيا أو قبوله محاميا، وقد كتبت في ذلك الوقت في جزء المنار الذي صدر في ١٦ صفر سنة ١٣١٧ (٢٤ يونيو سنة ١٨٩٩) ما نصه:

﴿ اعطاء القوس باريها ﴾

لا خلاف في ان المحاكم الشرعية في القطر المصري كله في اختلال عظيم تحتاج بسببه إلى اصلاح عظيم، ولكن اصلاحها أعيا أطباء النظام، والجالسين على أرائك الاحكام، فسماحة قاضي القضاة على فضله ونبله لم يداو لها عللا ، ولم يصلح خللا، ولقد مكث في منصبه هذا بضع سنين، بحيث يصح أن يقال له (اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) وحومت الحكومة حول الاصلاح غير مرة ولكن لم تقع عليه، ورمت اليه عدة سهام فأخطأت كلها الغرض، فاجمعت آراء أولي الامر، عقب ذلك الامر الامرّ . وبعد إجالة قداح الفكر، على إعطاء القوس باريها، عاما بأن صاحب الدار أدرى بما فيها، اتفق الجميع على تفويض العمل إلى علامة الشرع والاحكام، وحكيم الادارة والنظام، الذي لم يعرف له ثان متبحر في علوم الدنيا والدين، جامع بين الارادة الفعالة والغيرة على مصلحة المسلمين، الا وهو استاذنا الا كـ . الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

ناطت الحكومة بفضيلته تفتيش المحاكم الشرعية ووضع الاصول التي يراها كافية لاصلاحها، فتلقت جميع الجرائد هذه البشرى بالبشر والارتياح، واتفقت

على اختلاف منازعها ومشاربها على أن هـذا هو طريق النجاح ، وأعربت عن الامل باصلاح الخلل، وإزالة العلل ،فدل هذا على أن الاستاذ هو الرجل الفرد الذي نال الثقة الـكاملة من مجموع الامة حاكمها ومحكومها ، فليتأمل هذا بعض المخدوعين، الذين يأخذون ترجمته من أفواه الحاسدين وخرص المذاعين[1] اه

تقريره فى اصلاح المحاكم وموضوعاته

طاف الاستاذ اكثر محاكم الوجه البحري وصحب معه الاستاذ الشيخ احمد ادريس من أعضاء محكمة مصر الشرعية ، ففتشها تفتيشاً دقيقا ووضع تقريره فيما رأى من خلل ، وما ارتأى لمداواة العلل، فبدأ الكلام مرتبا هكذا (١) الحاجة الى هذه المحاكم ووظائفها (٢) أماكنها وتقصير الحكومة فيها مع اشادتها لاماكن المحاكم الاهلية (٣) الكتبة (٤) القضاة (٥) الحجاب (٦) الاعمال الكتابية (٧) مايكفل السرعة في العمل (٨) الدفاتر (٩) العقود التي ترد على المحاكم الشرعية من المحاكم المختلطة (١٠) الدفترخانات أي خزائن الدفاتر المحفوظة (١١) الاعمال الحسابية (١٢) تقييد القاضي كل مايرد عليه (١٣) تشكيل المحكمة (١٤) اختصاص المحاكم الشرعية مادة ومكانا – وفي هذا الفصل اقترح أن يزاد في اختصاصها في مقابلة من يريدون النقص منها ، دع من يسعون لالغائها (١٥) المرافعات (١٦) الاعلان أو الطلب والاعذار (١٧) التوكيل في المخاصمات (١٨) الجلسات (١٩) حضور الخصوم (٢٠) المرافعة (٢١) مانبطل به الدعوى بدون سؤال الخصم (٢٢) الشهادات والادلة (٢٣) الدفع وما يتبعه من المعارضة في الحكم على الغائب (٢٤) الاحكام (٢٥) ما لاتسمع فيه الدعوى (٢٦) التنفيذ وفيه الشكوى من مفاسد كثرة الزوجات للفقراء (٢٧) التفتيش (٢٨) المحامون (٢٩) ماذونو عقود الزواج (٣٠) اللائحة أو اللوائح التي وضعتها وزارة الحقانية لهذه المحاكم وما فيها من النقص

بين هذه المسائل في ٨٣ صفحة وقال في آخرها انها اجمالية يفصلها لوزير

---

(١) المذاع الكذاب ومن لا يثبت في قوله الخ

الحقانية بالمذاكرة الشفاهية. وانني أنشر في هذا التاريخ مقدمة هذا التقرير الذي اجمع الناس والجرائد على الاعجاب به مع الفصل الذي عقده لبيان الحاجة الى هذه المحاكم . ثم اقفي عليه بالمقدمة التي بينت فيها مقاصده الاصلاحية

﴿ قال بعد صيغة الخطاب الرسمي التي خاطب بها ناظر الحقانية ﴾

علمت عقب تعييني في وظيفة افتاء الديار المصرية ان سأكون عضواً في اللجنة التي عزمت الحكومة الخديوية ان تكل اليها النظر فيما يجب ادخاله على المحاكم الشرعية من الاصلاح الشرعي والنظامي ، فرأيت من الواجب علي أن أكون على بصيرة من الامر العظيم الذي سأدعى إلى البحث فيه ، وانه لايتم لي ذلك إلا بالاطلاع على ماهو جار في هذه المحاكم والبحث في العلل التي عم الكلام فيها، وما يجب أن يوضع لها من الدواء ، مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله ومراعاة مصالح العامة، والآخذين باحكام الشريعة المطهرة في عقائدهم ومعاملاتهم، وازالة ماعمت منه شكواهم، مما ينسب إلى عمال المحاكم او العوائد المتبعة في سير أعمالها، ورأت نظارة الحقانيـة ما رأيت فسألتني أن أمر على المحاكم مدة الصيف الماضي وأنظر في أعمالها وأقدم لها نتيجة مايتيسر لي من البحث في أحوالها ، فطفت على كثير من محاكم الوجه البحري واطلعت على ما أمكن الاطلاع عليه من سجلات ومضابط ومرافعات وسير في الاعمال ، وعرضت ذلك على ما تقرر من أحكام الشريعة الغراء ، وما وضع من اللوائح للمحاكم الشرعية، واستخلصت مجموع آراء أقدمها بين يدي سعادتكم وأرجو أن تكون موضوع نظر يأتي بالفائدة إن شاء الله ، وسألم في تقريري هذا باهم مايجب النظر فيه الآن ، وأدع مادون ذلك إلى المستقبل ، وأبدأ مما أقصد بمقدمة قصيرة في بيان موضع المحاكم الشرعية من بناء الحكومة المصرية ، ومنزلتها من مصالح الامة الاسلامية :

﴿ الحاجة الى المحاكم الشرعية ﴾

تدخل المحاكم الشرعية بين الرجل وزوجته ، والوالد وولده ، والاخ وأخيه، والوصي ومحجوره ، وما من حق من حقوق القرابة القريبة او البعيدة إلا ولها سلطان السيطرة عليه والقضاء فيه ، وانها تنظر من ذلك في أدق الشؤون واخفاها، ويسمع قاضيها مالا يسمح لاحد سواء أن يسمعه سوى مايكون من الزوج لزوجته او الزوجة لزوجها ، فكما انها هيا كل عدل، هي كذلك مستودع سر وأي سر، فمنزلتها من نظام الاسر (العائلات) تلي منزلة المحبة وروابط القرابة، فاذا تراخت تلك الروابط ومرضت المروآت تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعية . وللشريعة الاسلامية في ذلك دقائق لا يسهل الالتفات اليها إلا على من أحاط علما بكليات أحكامها، ووقف بالبحث الصحيح على مقاصدها، ووصل إلى أدق معانيها، وكان من العلم بلغتها في منزلة يعرفها له أربابها، وان يكون الرجل كذلك حتى يأخذ الشرع عن أهله، وتكون تربيته على السنة الدينية الصحيحة ، ثم لا يكون القاضي حافظاً لنظام الاسر والبيوت ـ بعد الاحاطة باحكام الشرع ـ حتى يكون للشرع وأحكامه سلطان أي سلطان على نفسه .

رأيت أغلب اهل الطبقة الدنيا، وعدداً غير قليل من أهل الطبقتين الوسطى والعليا، قد ودعوا عواطف الصهر والقرابة، ولجأوا في علائقهم البيتية إلى المحاكم الشرعية ، لحق النفقة والسكنى، وراحة الزوجة من منازعة اهل الزوج ومن في مؤنته، والقيام بشؤون الاولاد وتربيتهم إلى سن معلوم ، ومايلزم لذلك كله، مرجعه الآن إلى المحاكم الشرعية عند من ذكرنا ، ولا يخفى ان الشعب انما هو مؤلف من البيوت التي تسمى عائلات ، وأساس كل امة عائلاتها ، لضرورة ان الكل انما يقوم باجزائه ، ولما تعلقت مصالح البيوت في ادق روابطها بالمحاكم الشرعية كما هو الواقع اليوم ، تبين مقدار حاجة الامة في صلاحها إلى صلاح هذه المحاكم ، وظهر ان منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذي لو ضعف ظهر أثر ضعفه في البنية بتمامها

إذا ظهرت هذه المحاكم في مظهرها الديني الجليل، وسارت سيرتها الشرعية القويمة، أدخلت أصول النظام في اصغر البيوت فضلا عن أعلاها، وأعادت بالعدالة الابوية مافقده الناس من نظام الالفة ، وقد رأينا ان الرجل يدخل المحاكم الاهلية مخاصما ، فيخرج منها محامياً، فأحر بمن يقوم بين يدي قاض ينطق بالعدل الالهي أن ينقلب وفي نفسه أثر من خشية الله

للمحاكم الشرعية بعد ما تقدم نظر في حقوق الميراث وأصول الاوقاف والاستحقاق فيها، واليها وحدها الفصل في ذلك ، والمخاصمات في هذه الطائفة من الشؤون ليس عددها بقليل ، وكم رأينا من قضايا أوقف النظر فيها أمام المحاكم الاهلية حتى يقضي الحاكم الشرعي فيما بني عليه الحق المتنازع فيه . هذا إلى ماعهد إلى تلك المحاكم من تحرير العقود الرسمية في كل باب من أبواب المعاملات ولا تزال ثقة الناس بها أشد من ثقتهم بالمحاكم المختلطة، ويعدون التسجيل في أقلام كتاب المحاكم المختلطة ضربا من التساهل يأتيه من لا يريد بناء أمره على أساس متين

مهما همّ قوم بتضييق دائرة اختصاص هذه المحاكم وجدوا عقبات في طريقهم وصعب عليهم المنال، ولئن نجحوا فلن يستطيعوا أن يضعفوا من حاجة الناس اليها، فمن الحق أن يشتكي الناس من الاعتلال الذي عرض لها ،ومن الحق إن ارتفعت أصواتهم بطلب الاصلاح ، ومن العدل بل من الواجب الذي لاتبرأ الذمة إلا بأدائه، أن تسمع الحكومة شكوى الكافة وان تنهض لتخفيف آلام الشاكين ، وتدخل إلى الاصلاح من أبوابه، وجزى الله كل من اهتم بشأن هذه المحاكم خيراً

سبق لي سعي لدى الجناب العالي الخديوي في اصلاح المحاكم الشرعية في سنة ١٨٩٦ يوم لم يكن لي ناقة فيها ولا جمل(١) ولم أكن إلا واحداً من الناس أشعر بآلامهم وآلام الشريعة مما كان جاريا فيها إذ ذاك ،وتفضل جنابه الفخيم بقبول ماالتمست منه وناط بي وبجماعة من الفضلاء وضع مشروع لازالة مافيها من العلل وتقديم تقرير يبين مافيها من العيوب، فأتمت اللجنة عملها ووضع المشروع وقدم

(١) يعني انه لم يكن له يومئذ صفة رسمية يخاطب بها الخديو في ذلك . وقد بينا في أول المقصد الثاني انه سعي لدى سموه لاصلاح المحاكم الشرعية والازهر والاوقاف

التقرير ومضت مدة ، ثم نهض المستشار القضائي المستر سكوت لوضع اللائحة الجديدة فارشدته إلى ذلك المشروع لعله يأخذ منه مايراه حسنا ، وقدفعل وظهرت اللائحة الجديدة وفيها الدواء الكثير لبعض ماوصفته من العلل

لكن اللائحة وضعت على عجل واختلف فيها النظر ما بين النظارة وبعض المشايخ ، فاهملت قيود كان يجب اثباتها ، وأغمضت نصوص لمداراة بعض من يزعمون أن العدالة شيء والشريعة شيء آخر (برأ الله الشريعة مما قالوا) فاشتبه الامر على منفذيها ، وكثر الخطأ في تطبيقها على العمل ، وتنوعت ملاحظات القضاة على كثير من موادها ، وأصاب المتقاضين عظيم من الضرر ، وساعد على هذا كله إهمال المحاكم وعدم تعهدها بالمراقبة والتفتيش ، ودخول النظارة في كثير من الاعمال القضائية التي يرجع فيها القضاة والمتقاضون اليها ، وعذر النظارة أن القائمين باعمال هذه المحاكم متمسكون بعوائد يزعمونها شريعة ، وما هي منها في شيء ، ويحافظون على رسوم وألفاظ ان اقتضاها حال لم يقتضها آخر ، مع ان روح الشرع انما هو الحق والعدل ، والتزام الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، فلا يباح في ديننا لاحد أن يكذب كذبة واحدة لتقوية حجته ، والدين كافل لكل بالوصول إلى حقه من أقوم الطرق وأهداها ، على ان حال المحاكم بعد صدور اللائحة الجديدة خير منها قبل ذلك وأرفع بدرجات

وشكوى الناس تنحصر في صعوبة المعاملة مع الكتاب ، وطول الزمن على القضايا خصوصا إن كانت مهمة ، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين باحكام الشريعة ، فضلا عن سائر العامة ، وهوى القاضي أو ضعف يقظته ، وشكوى القضاة تنحصر في رداءة مقامهم ، والتقتير عليهم في المرتبات وسائر النفقات التي لابد منها ، والنظام يشكو من التساهل في المحافظة عليه . وسيأتي الكلام على جميع ذلك لكن على ترتيب آخر . فاني سأبدأ في عرض ماينبغي أن يكون بما بدا لي على ترتيب ما يلاقي الذاهب إلى المحكمة لشأن من شؤونه اهـ

[المؤلف] لقد كان كل كاتب وكل عالم في مصر يعجز عن كتابة مثل هذه المقدمة بل لم يكن أحد يحيط علما بما بينته بالاجمال فكيف لو كان كاتبها شرحها وفصلها

مقدمة الناشر للتقرير

نشرت التقرير في المنار وطبعته على حدته ووضعت لنشره المقدمة التالية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

ان من طبيعة الناس وعادهم الشكوى مما يتألمون منه لضياع مصالحهم ومنافعهم ووقوع الحيف والظلم عليهم إذا وجدوا لذلك سبيلا ، وقد كثر في هذه السنين الاخيرة الخوض في أمر المحاكم الشرعية في مصر ، وعمت الشكوى منها ــ الرعية تشكو من ضياع حقوقها ، والحكومة تشكو من القضاة ، والقضاة تشكو من الحكومة ــ وقد أرادت نظارة الحقانية أن تشرع في اصلاح هذه المحاكم في هذه السنة فابتدأت بوضع المشروع المشهور ، وهو انتداب قاضيين من قضاة محكمة الاستئناف الاهلية ليكونا عضوين في محكمة مصر العليا ، فقامت لهذا المشروع قيامة المسلمين في مصر ، ولم يرض به أحد من خاصتهم ولا عامتهم ، وكثر الطعن في الحكومة بسببه قولا وكتابة في الجرائد ، ثم انتهى الامر بتوقف الجناب العالي الخديوي أعزه الله عن تنفيذه ، وبقيت الشكوى عامة من سوء حال هذه المحاكم مجمعا عليها ، حتى من قضاتها والموظفين فيها

ثم عهدت الحكومة إلى رجل من أكابر علماء الشرع الاسلامي ، ومن واسعي الاطلاع في القوانين الوضعية ، والعارفين باحوال الزمان . ألا وهو الاستاذ العلامة الشهير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد بان ينظر في أدواء المحاكم الشرعية ومزاجها ، ويبين دواءها ويصف علاجها ، ويضع في ذلك تقريرا ، فبقي الناس في أمر مريج[1] حتى ظهر التقرير ، فاذا هو لم يغادر صغيرة ولا كبيرة

(١) اعنى أنهم كانوا مضطربين في خطة الاستاذ وما سيقرره بعد تفتيشه لها لاختلافهم في نيته وغرضه كما يعلم من الصفحة التالية

إلا أحصاها ، وبين مبتداها ومنتهاها ، ووصف علاجها ودواها . وأظهر للملأ أن خالل هذه المحاكم بعضه من تقصير الحكومة نفسها ، وبعضه من تقصير القضاة والكتبة . وقد أجمع المطلعون على التقرير من أهل العلم الشرعي وغيرهم على انه جمع فأوعى ، وارشد إلى الاصلاح الحقيقي وهدى ، وأثنت عليه الجرائد كلها على اختلاف مشاربها ومذاهبها ، وتشوفت نفوس سائر الناس الاطلاع عليه،وهذا ماحملنا على طبعه،قصد تعميم نفعه

يقول بعض الناس: ان الحكومة لو لم تكن تقصد الاصلاح الحقيقي للمحاكم الشرعية لما طلبت من هذا الاستاذ بيان الاصلاح ، وهي تعلم انه لايحابيها ، لانه لاتأخذه في الحق لومة لائم ،والسواد الاعظم لم يزل سيء الظن بالحكومة معتقدين انها مدفوعة من القوة المحتلة إلى إلغاء هذه المحاكم ،لانها أكبر شعار ملي للامة الاسلامية(١) ويقولون انها لم تكن تتوقع من هذا الاستاذ بيان تقصيرها وحملها على الاصلاح الحقيقي ، وقوي عندهم هذا الظن بتأجيلها النظر فيه ، ويتحدثون بانها لابد أن تغري بعض من يعنيهم الامر حتى من رجال الشرع بالانتقاد على بعض ماجاء فيه ،لتتخذ ذلك حجة أمام الامة على عدم تنفيذه ، وسيظهر لهم عن قريب فساد الظنة، وخطأ التهمة ، ويرون الحكومة إن شاء الله تعالى مجتهدة في تنفيذ مايسمح الوقت بتنفيذه منه ، كما يجب عليها لدينها وأمتها. وأرجو أيضا أن يروا من المحتلين مساعدة لا معاندة ، ولاسيما فيما يطلب للمحاكم من المال،فان التوسع في النفقة على محاكم هذا شأنها وهذه مكانتها من نفوس الامة أولى من الانفاق على اختبار الاسماك وتأليف كتاب فيها وهو ماسمحت له الحكومة بالف جنيه

ولا يمكن أن توجد فرصة يبرهن فيها المحتلون لمسلمي مصر بل وسائر المسلمين

---

(١) أصرح الآن بان الاستاذ الامام نفسه كان يعتقد ان مشروع تعيين قاضيين من مستشاري الاستئناف للمحكمة الشرعية العليا كان تمهيدا لإلغاء المحاكم الشرعية بتعويد الناس على رؤية المتزيين باللباس الافرنجي والطربوش يتولون الاحكام الشرعية وقد صرح لي بان الذي وضع ذلك المشروع هو بطرس باشا غالي لاجل سلب المسلمين آخر ما بقي لهم في الحكومة من أمورهم الملية

على احترام الدين الاسلامي وارادة الاصلاح الحقيقي في مصر مثل هذه الفرصة، وليس من الحكمة أن تضيع ولا يغتنمها القوم الذين قاعدة سياستهم هذه الكلمة « نحن لا نوجد الفرص ولا نضيعها »

ان الغيرة الدينية المتدفقة من روح واضع التقرير قد غمرت المحاكم الشرعية وفاض معينها على الأزهر الشريف ، وما يتبعه من معاهد العلم الشرعي، فكما أشار باصلاح أماكن المحاكم وأثاثها ، والتوسعة على القضاة والكتبة في الرواتب ، واستقلالهم في الرأي ، والعناية بتنفيذ أحكامها الخ الخ أشار أيضاً بحصر موظفي المحاكم في المتعلمين في الازهر وما يتبعه ، وباصلاح التعليم فيه بانشاء قسم للتعليم القضائي يتخرج منه القضاة (راجع صفحة ١٤ منه) وآخر يتخرج منه الكتاب (راجع صفحة ١١ منه) وبان يكون مأذونو العقود من طلاب العلم في هذه المعاهد أيضا (راجع صفحة ٨٠)

جرى صاحب التقرير في تفتيش المحاكم وابداء رأيه في اصلاحها على مبدأ حكيم ، وهو كون الاحكام والنظام على وفق المصالح والمنافع الوجودية، إذ لا تقدر الحكومة على تغيير شؤون الوجود بنظامها، كما ان الشريعة لم توضع لتحويل سنن الكون باحكامها (ولن تجد لسنة الله تحويلا) فقصارى ماطلبه من الحكومة أن تجعل عنايتها بالمحاكم الشرعية كعنايتها بالمحاكم الاهلية، وان توسع دائرة اختصاصها كما سنبينه . وقصارى ماطلبه من القضاة أن يفهموا أقوال الفقهاء ومقاصدهم في الاحكام التي استخرجوها من الشريعة لوقاية مصالح الخلق وحفظ حقوقهم ومنافعهم، لا ان يأخذوا بظواهر ألفاظهم ظانين انهم متعبدون بها ، فان القاعدة المتفق عليها في العقود والمعاملات هي « ان العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالالفاظ والمباني » والفقه هو الفهم فمن يأخذ بظواهر الالفاظ فهو ليس بفقيه ، ولا يجوز أن يكون غير الفقيه قاضيا يحكم بين الناس . وليس عندنا كتاب نتعبد بالفاظه إلا كتاب الله تعالى ، ومع ذلك نرى جميع العلماء من المتكلمين والفقهاء وغيرهم (رضي الله تعالى عنهم) قد أجروا فيه التفسير والتأويل ، ولم يأخذوا بظواهر ألفاظه كلها مع انها منزلة ومتواترة ومحفوظة من التحريف ، فكيف نأخذ بظواهر

ألفاظ الفقهاء من غير فهم ، وليس لها مزية من هذه المزايا .

يتبرم بهذا الطلب القضاة الذين لافقه لهم، وانما ألفوا الفاظاً تعلمها أكثرهم من كتاب المحاكم، ويتبرم به بعض من يعلم منهم انه الحق الذي لاتقوم للشرع قائمة إلا به ، ولكنه يغمطه حسداً وكبراً ، ويحاربه هؤلاء بسلاح التمسك بظواهر ألفاظ بعض الفقهاء على انها متعبد بها لايعقل معناها، فان لهم في هذا غرائب، بين التقرير كثيراً منها، كظنهم ان ذكر اسم الاب والجد في تعريف المدعي والمدعى عليه مطلوبا لذاته (راجع باب المرافعة وما بعده من التقرير) وسمعت ان بعض القضاة أنكر ان الشهادة مطلوبة للعلم بالمشهود به !!!

الشريعة الاسلامية شريعة عامة باقية إلى آخر الزمان ، ومن لوازم ذلك انها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران. وشريعة هذا شأنها لا تنحصر جزئيات أحكامها، لانها تتعلق باحوال البشر ماوجدوا، ولا يحيط بذلك علما إلا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذى جعل أساسها حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، إذ مصالح البشر في كل آن مبنية على حفظ هذه الاشياء التي فيها السعادة في المعاش والمعاد . وقد استخرج الأئمة والفقهاء رضي الله عنهم القواعد الكلية والاحكام الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الاصول الخمسة . ومن القواعد المتفق عليها بينهم ان العبرة بالمعاني لا بالالفاظ، كامر آنفا، وان الضرورات تبيح المحظورات ، وان المشقة تجلب التيسير ، وان الامر إذا ضاق اتسع ، وان الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام ، والضرر الاشد يزال بالاخف ، وان الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة او خاصة ، وان الاحكام تتغير بتغير الازمان ، وان التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ، ومن فهم كلام أئمة الفقه حق فهمه ألفاه لايتعدى هذه القواعد، فيجب على القضاة جعلها آلة لفهم كلامهم والحكم به لتحفظ الحقوق . على ان فضيلة صاحب التقرير على علم بعجز أكثر القضاة الحاليين عن ذلك ولذلك طلب ما تراه في الامر الثاني والثالث من التقرير

من أهم ماطلب في التقرير أمران يتعلقان بمحاكم مصر أشد التعلق ، وأمر يعتبر اصلاحا اسلاميا عاما :

(الامر الاول) توسيع دائرة اختصاص المحاكم الشرعية ، وفي هذا مخرج للحكومة من كثرة شكوى المحاكم الاهلية الجزئية من كثرة القضايا حتى ان الحكومة اضطرت إلى تخويل عمد البلاد الحكم في بعض القضايا المدنية ، ولما رأت ان سيرهم ومعارفهم لا تمكنهم من اقامة العدل فيها عدلت عن تعميم هذا المشروع إلى انتخاب بعض منهم للتجربة، والعارفون بحال البلاد يعلمون ان الحكومة لاتنجح في هذا، ولا سبيل لخروج الحكومة من هذه الحيرة إلا بتخويل المحاكم الشرعية الحكم في كثير من القضايا المدنية . ولا يوجد مانع للحكومة من ذلك الا تمسك بعض المتنطعين ممن ينتسبون إلى الشرع ويجهلون مقاصده بعوائد وألفاظ في المرافعات الشرعية ليست من الشرع في شيء وبها يجعلون الحكم بالشرع متعذراً وهذا أعظم جناية عليه

(الامر الثاني) عدم حصر منصب القضاء الشرعي في الحنفية لما بينه في صفحة ١٥ وليس هذا قولا بالحكم بغير مذهب الحنفية ، فقد صرح هناك بان فقه المذاهب الاربعة متقارب ، والاختلاف في الفروع مذكور في أغلب كتب الفريقين، فيمكن لمن برع في فقه الشافعية مثلا أن يفهم فقه الحنفية بسهولة. وقالت جريدة المؤيد الغراء : ان هذا وقع بالفعل فان فضيلة الاستاذ صاحب التقرير يعد في مقدمة القضاة الحنفية وهو مالكي المذهب [1] والاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان أحد قضاة المحكمة الشرعية العليا من أمهر القضاة وهو شافعي المذهب ، بل نقول ان العلماء كانوا يقولون ان من برع في علم من العلوم يمكن أن يهتدي به الى سائرها ولهم في هذا آثار مشهورة

وقد رأيت في فاتحة كتاب (أقضية الرسول) ﷺ للعلامة أبي عبدالله محمد بن فرح المالكي مانصه « واتفق مالك والشافعي وابو حنيفة رحمهم الله تعالى على انه لايجوز للحاكم أن يحكم بين الناس حتى يكون عالما بالحديث والفقه معاً مع عقل وورع . وكان مالك رحمه الله يقول في الخصال التي لايصلح القاضي الا بها :

---

(١) كان الاستاذ قد طلب فقه المالكية أولا وتربى عليه ولكنه تعلم فقه الحنفية في الازهر وامتحن فيه امتحان العالمية واخذ شهادتها به

لا أراها اليوم تجتمع في أحد ، فاذا اجتمعت في الرجل خصلتان رأيت أن يولى ـ العلم والورع . قال عبد الملك بن حبيب « فان لم يكن فعقل وورع ، فبالعقل يسأل وبه تصلح خصال الخير كلها ، وبالورع يعف ، وان طلب العلم وجده وان طلب العقل اذا لم يكن فيه لم يجده » اه وهو حجة للاستاذ صاحب التقرير في تحتيمه اختبار جميع موظفي المحاكم في سيرتهم وأخلاقهم ، لا في الفقه فقط بالنسبة الى القضاة ، وفي الكتابة فحسب بالنسبة الى الكتاب :

وقد صرح في كتاب الاحكام السلطانية بانه « يجوز لمن اعتقد مذهب الشافعي رحمه الله ان يقلد القضاء من اعتقد مذهب أبي حنيفة » الخ ، وقد طلب اهل السليمانية وكلهم شافعية من مولانا السلطان عبد الحميد خان أن يولي عليهم قاضياً من اهل مذهبهم ففعل

(الامر الثالث) أن تؤلف لجنة من العلماء لاستخراج كتاب في أحكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر ـ ولاسيما الاحكام التي هي من خصائص المحاكم الشرعية ـ يكون سهل العبارة لاخلاف فيه كما عملت الدولة العلية في مجلة الاحكام العدلية ، ولا يكون هذا الكتاب وافيا بالغرض وافيا للمصالح الا اذا أخذت الاحكام من جميع المذاهب الاسلامية المعتبرة ليكون اختلافهم رحمة للامة . ولا يلزم من هذا التلفيق الذي يقول الجمهور ببطلانه كما لا يخفى . وقد أشير في صفحتي ٣٨ و ٤٠ من التقرير الى عدم التقيد بالمذهب الحنفي ، وتوهم بعض الناس أن هذا يمس حقوق مولانا الخليفة وان الاحكام بغير مذهب الحنفية لا تصح ولا تنعقد لهذا ، ونجيب عنه بامور

(١) جاء في كتاب الاحكام السلطانية مانصه « فلو شرط المولّي وهو حنفي أو شافعي على من ولاه القضاء ان لا يحكم إلا بمذهب الشافعي او أبي حنيفة فهذا على ضربين (أحدهما) ان يشترط ذلك عموما في جميع الاحكام فهذا شرط باطل سواء كان موافقا لمذهب المولى أو مخالفا له ، وأما صحة الولاية فان لم يجعله شرطا فيها وأخرجه مخرج الامر أو مخرج النهي وقال قلدتك القضاء فاحكم بمذهب الشافعي رحمه الله على وجه الامر ، او لا تحكم بمذهب ابي حنيفة على وجه النهي ، كانت الولاية صحيحة والشرط فاسداً ، سواء تضمن امرا او نهيا ، ويجوز أن يحكم

بما أداه اليه اجتهاده سواء وافق شرطه أو خالفه، ويكون اشتراط المولّي لذلك قدحا فيه ان علم انه اشترط ما لا يجوز، ولا يكون قدحا ان جهل، لكن لا يصح مع الجهل أن يكون موليا لا واليا، فان أخرج ذلك مخرج الشرط في عقد الولاية فقال قد قلدتك القضاء على ان لا تحكم فيه الا بمذهب الشافعي او بقول ابي حنيفة كانت الولاية باطلة لانه عقدها على شرط فاسد. وقال اهل العراق: تصح الولاية ويبطل الشرط » اه المراد منه

(٢) لا يعدل عن مذهب الحنفية إلا في الاحكام التي لا تنطبق على مصلحة الناس في هذا العصر إذا حكم فيها بمذهبهم، وهذه حالة ضرورة أو حاجة تنزل منزلة الضرورة، وبهذا الاعتبار تكون من مذهبهم، لان الحكم الذي تمس اليه الحاجة أو يضطر اليه، يصير متفقا عليه (١)

(٣) ان مذهب الحنفية واسع متشعب جداً بمعنى أن فيه كثيراً من الاقوال في كل مسئلة، حتى قال كثير من فقهائه انه لا يوجد قول لمجتهد في مسئلة الا وهو موجود في مذهبنا لأحد أئمتنا او مشايخنا ولو ضعيفا، ومن المقرر عندهم أيضا ان القول الضعيف يقوى بأمر الامام بالعمل به. وقد ألفت لجنة من العلماء مجلة الاحكام العدلية وأخذوا فيها ببعض الاحكام التي لا تصح في مذهب الامام ابي حنيفة رحمه الله تعالى ولكنها صحت في مذهب غيره وقالوا انها وافقت أقوالاضعيفة لعلماء الحنفية تقوّت بأمر السلطان فوجب الحكم بها

واذا ألف علماء الازهر الكتاب الذي اقترحه فضيلة الامام مفتي الديار المصرية في هذا التقرير ولم يجدوا الوجهين اللذين قبل هذا كافيين لجواز الحكم بموجبه فيمكن طلب صدور الامر به من السلطان او نائبه اذا كان له هذا الحق، ولا يمكن ان مولانا السلطان عبد الحميد أو سمو عزيز مصر الحالي يتوقفان في امر رأى أكابر علماء الأزهر ان فيه صيانة مصالح المسلمين وحفظ حقوقهم

هذا ما اردت التنبيه عليه في هذه المقدمة، وأسأل الله تعالى أن يوفق رؤساءنا من الحكام والعلماء الى ما فيه خير الامة انه سميع مجيب محمد رشيد رضا

منشيء المنار

---

(١) وقد جرت الحكومة المصرية اخيرا على رأينا هذا

كلمة لاحد كبار قضاة الشرع في عمله هذا

قال العلامة الشيخ احمد ابو خطوة في تأبينه للاستاذ الامام في حفلة ذكرى الاربعين ما نصه :

« ولما أن ولي الاستاذ رحمه الله منصب افتاء الديار المصرية في أوائل سنة ١٣١٧ هجرية الموافق لشهر يونيو سنة ١٨٩٩ افرنجية لم يجعل هذا المنصب قاصراً على اعطاء الفتوى على مايرفع اليه من الاسئلة في الحوادث، بل نظر فيه إلى ماهو أرفع من ذلك ، وأول فكرة عرضت له هي التفتيش على المحاكم الشرعية ليتحقق بنفسه حال من فيها من القضاة والعمال ، وكيف يسيرون في الفصل بين عباد الله بمقتضى شرع الله، فعاونته عليها نظارة الحقانية وذهب إلى التفتيش في كل أرجاء القطر ، ولم يدع محكمة مديرية أو مركز إلا شاهدها بنفسه وبحث أعمالها بحثا دقيقا ، وتعرف حال قاضيها من قوة او ضعف ، وضبط العمل او الاهمال فيه، ثم عاد ووضع تقريره المعروف عن المحاكم الشرعية ، وطلب فيه ماطلبه من الاصلاح ، وحجته في ذلك انه شيخ الحنفية من جهة ، وانه من أعضاء المجلس الذي ينتخب القضاة من جهة أخرى، فلا بد أن يعرف حال الموجودين منهم في الوظائف وان يهيء لها في الازهر من يخلفهم عند انفصالهم منها ، وقد تضمن هذا التقرير كل وجه من أوجه الاصلاح ، سواء كانت متعلقة بجوهر القضاء أو بترقية حال القضاة واحترامهم في نفوس المتقاضين أمامهم

« ولما وصل تقريره هذا إلى الحكومة أحلته من الاهتمام بشأنه المحل اللائق به وشكلت في نظارة الحقانية لجنة للبحث فيه . وتقرير ما يمكن تقريره مما فيه من أوجه الاصلاح

« وبعد هذا صار عضواً في مجلس شورى القوانين فوجه فكرته إلى هذا الغرض المهم عنده، وهو إصلاح المحاكم الشرعية، وساعده على هذه الفكرة رجال من عقلاء الامة وأكابرها ورفعوا الصوت جهرة بطلب هذا الاصلاح وحصروه في أمور بينوها رسمياً للحكومة. فاهتمت الحكومة لذلك وكلفته رحمه الله بان يؤلف

لجنة تحت رياسته للبحث في كل طرق الاصلاح . وعرضها على الحكومة لتنفيذها واشتغلت هذه اللجنة بالفعل ببعض الشغل وقدمته إلى الحكومة للعمل بما فيه

«وقد كان رحمه الله شديد الحرص على أن تكون هذه المحاكم محترمة موقرة في أعين الامة بتمامها رفيعها ووضيعها ، وأن تكون محفوظة الحق لا يتعدى عليها غيرها من الجهات القضائية. وحادثة الحكم في قضية وقف المرحوم راتب باشا التي حكمت فيها محكمة الاستئناف الاهلية لدولة بهية هانم بانها ناظرة لذلك الوقف بعد حكم المحاكم الشرعية فيها-أصدق شاهد على ماقلناه . فانه رحمه الله جزم ان حكم محكمة الاستئناف الاهلية في هذه المادة جاء من غير جهة مختصة، فاشتغل بالامر حق الاشتغال حتى صدر الامر العالي بتشكيل هيئة تحت رياسة ناظر الحقانية كان هو من أعضائها للفصل في الخلف الذي وقع بين المحاكم الاهلية والمحاكم الشرعية في هذا الموضوع ، وقد جاء حكم هذه الهيئة موافقاً لرأيه . فقضى بان الذي ينفذ هو حكم المحكمة الشرعية دون حكم المحاكم الاهلية . وبهذا انتهى الخلاف . . وحفظت كرامة المحاكم الشرعية حفظا لا اخفاء فيه

«ولما استقال رحمه الله من ادارة الازهر لم تقعد به تلك الهمة العالية عن النظر فيما يصلح الازهر والازهريين خصوصاً ما يتعلق بانجاح المحاكم الشرعية وإيجاد العمال الذين يكونون امام الناس مثال التوقير والاحترام، فاشتغل مع الحكومة السنية في انجاز المشروع القاضي بفتح مدرسة يتخرج منها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون، فرضيت منه الحكومة بذلك . وشكلت لجنة تحت رياسته لتضع نظاما لهذه المدرسة يبين فيه مايصرف عليها كل سنة وما يعلم فيها من العلوم. والمدة التي يمكثها المتعلم فيها وكيفية إدارتها . ومراقبة سير التعليم فيها . فكمل ذلك في أقرب وقت على أحسن مايكون من الوضع ، وقدم المشروع إلى الحكومة قبل سفره إلى الاسكندرية بايام قلائل. وقد علمنا ان الحكومة تقبلته أحسن قبول ولم تلاحظ عليه شيئا لا في مبناه ولا في معناه، ولا نظنها إلا عاملة به إن شاء الله» اه

﴿المؤلف﴾ ان العمل بتقريره رحمه الله في اصلاح المحاكم لم يسلم من معارضة السياسة وعمل عبيدها على مقاومته وهاك ما كتبته في ذلك في ص ٢١٢ من مجلد المنار السابع.

علماء الازهر والمحاكم الشرعية

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

قعد أهل الازهر عن إجابة طلب اسماعيل باشا الخديو تأليف كتاب في الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الاوربية، وكان رفضهم هذا الطلب هو السبب في إنشاء المحاكم الاهلية، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا، وإلزام الحكام بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدها، وفي توجيه عزائم الكثيرين من نابتة الامة إلى درس تلك القوانين في مصر وأوربا، وبذل النفقات العظيمة من الحكومة ومنهم لاجل تحصيلها، ولولا جمود أهل النفوذ من علماء الازهر لكانت كل هذه المحاكم شرعية آهلة بالعمائم التي يتحاسد حملتها على الشيء اللقى، ويتنافسون فيما يرغب عنه غيرهم لقلة ذات يدهم، ولكانت تلك العمائم موضع الاحترام والاجلال كما يليق بها، لا كما هي اليوم في نظر أكثر الناس

ثم إنك تجد بعض أصحاب هذه العمائم يتشدقون بتلاوة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) يعرضون بأهل المحاكم الاهلية، ثم انهم يتحاكمون اليهم عند الحاجة ويتملقون لهم في المجامع

ليس إبطال هؤلاء العلماء للشريعة بعدم إجابة طلب اسماعيل باشا السابق بأعجب من اعتذارهم عنه وتعللهم فيه — انهم تعللوا بل احتجوا بأنهم يحافظون بذلك على الشرع وطريقة سلفهم الازهري في كيفية التأليف، وهو أن يكون الكتاب مؤلفا من متن وشرح وحاشية، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف اليه التقارير — فهذه هي سنة المشايخ المألوفة، وتأليف كتاب او كتب يقتصر فيها على القول الصحيح، ويجمل بعبارة سهلة مقسما إلى مسائل تسرد بالعدد على كيفية كتب القوانين، من البدع الهادمة لتلك السنة التي جرى عليها المؤلفون من عدة قرون!!

حدثني علي باشا رفاعة قال: ان اسماعيل باشا لما ضاق بالمشايخ ذرعا استحضر والده رفاعة بك وعهد اليه بأن يجتهد في إقناع شيخ الازهر وغيره من كبار

الشيوخ باجابة هذا الطلب وقال له: انك منهم ونشأت معهم، فأنت أقدر على إقناعهم، فأخبرهم ان أوربا تضطرني - اذا هم لم يجيبوا - إلى الحكم بشريعة نابليون فأجابه رفاعة: اني يا مولاي قد شخت ولم يطعن أحد في ديني فلا تعرضني لتكفير مشايخ الازهر إياي في آخر حياتي وأقلني من هذا الامر، فأقاله. وكان إنشاء هذه المحاكم التي يرى المشايخ انها مؤسسة على الكفر والظلم والفسق أثر المحافظة (منهم) على الدين، وصونه من عبث الحاكمين، وما هذا الدين الذي حافظوا عليه إلا بدعة سيئة، وهي كيفية التأليف التي ألفوها كما تقدم، ولم ينزل بها كتاب، ولا وردت بها سنة، ولا جاءت في أثر عن الصحابة والتابعين. والكيفية التي دعوا اليها -فحسبوها خرقا في الاسلام- هي أفضل وأنفع مما حافظوا عليه — فالنتيجة انهم أضاعوا الشريعة لاجل الجمود على هذه الكتب الحديثة الضارة المضيعة للعلم، فكانوا من الخاطئين. وأعني بما أقول جمهورهم لا كلهم كما لا يخفى

حدثت المحاكم الاهلية فكانت قسيمة للمحاكم الشرعية، ولكن ظهر للناس بالاختبار ان المحاكم التي يحكم فيها بقانون فرنسا أضمن للحقوق وأقرب للانصاف من المحاكم التي تسند شريعتها إلى الوحي السماوي، حتى كان شيوخ الازهر يتحاكمون إليها، فالشيخ العباسي رفع اليها بعض القضايا، وكان شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية. وكذلك شيخ الازهر السابق «الشيخ سليم البشري» حاكم البهافي قضية تتعلق باوقاف الازهر وكان له مندوحة عن ذلك. فكانت جنايتهم على الشريعة انهم كانوا السبب في إضاعة القسم الاكبر منها، وانهم سلكوا في القسم الثاني الذي بقي للمحاكم الشرعية- طريقة سوءى ذهبت بثقتهم وثقة سائر الناس منها - وكل ذلك بحجة حماية الدين وحفظ الشريعة الذي هو فخرهم ولو بالباطل، ينالون به الزلفى في نفوس عامة المسلمين المقلدين لهم الذين لا يعلمون بماذا يقلدون

تكاد حماية الدين والمحافظة على الشريعة عند هؤلاء تذهب برسومها كما ذهبت بروحها، فان السماء والارض تستغيثان من حال المحاكم الشرعية، وتلجآن إلى الحكومة طلباً لاصلاحها، ولكن الشيوخ عقبة في طريق كل إصلاح، وحجتهم الوهمية المحافظة على الدين الذي لا يعرفه سواهم، وقوتهم غرور العامة

بهم وتصديق دعاويهم، والحكومات تحترم دائما عقائد العامة وعاداتها وتقاليدها حقا كانت أو باطلة، لئلا تهيج عليهــا الرأي العام، ولذلك كان صلاح حال العامة بالتربية الصحيحة والتعليم النافع مفضياً إلى صلاح حال الحكومة بالطبع، لان رأي الامة يكون حينئذ صحيحا ،وقوة الامة لاتقاوم، لان يد الله مع الجماعة

هذه بعض آثار التقليد الاعمى للميتين والجمود على العادات الموروثة، وليس كل علماء الازهر على هذا الجمود بل السواد والدهماء منهم، وإنما العامة مع الاكثرين حتى يظهر الزمان خطأهم ، الذي لا يعلو حكمه حكم انسان، هذا أحدهم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية اليوم قد رأى منذ زمن طويل فساد هذه المحاكم ،وشعر بتألم العدل من سيرة القضاة الشرعيين، وسعى في صلاحها وصلاحهم، محاولا إقناع امير البلاد به ، وما زال يلح عليه حتى عهد إليه الامير بأن يضع بمساعدة بعض الفضلاء تقريراً في ذلك سنة ١٨٩٦، ولكن كان نصيب التقرير الاهمال، حتى قام المستر سكوت الانكليزي مستشار الحقانية يحاول وضع لائحة لاصلاح سير هذه المحاكم التي كثر تألم الناس منها وشكواهم للحكومة، فأرشده الشيخ لذلك التقرير، فطلبه من أحد حاشية الامير واستفاد منه واضعو اللائحة الحديثة كثيراً من الفوائد ولكنها لم تكن كافية

وفي سنة ١٨٩٩ م حاولت الحكومة المصرية عمل شيء في المحاكم الشرعية على انه من الاصلاح فقامت قيامة العلماء والجرائد وتهيجت العامة لاعتقاد الجميع ان ما كان يحاول غير جائز شرعاً (وفي الحقيقة انه لم يكن هو الاصلاح المطلوب للمحاكم) ولكنهم لم يطلبوا شيئا غيره يجوز عندهم شرعاً. وكنا قبل هذه الفتنة قد كتبنا في المنار الصادر في آخر سنة ١٣١٦ هـ مقالة في (التعليم القضائي) بينا فيها ان اصلاح المحاكم الشرعية لايكون الا بقضاة صالحين للقيام بأعباء القضاء. وأن هذا لايتم الا بتعليم خاص بينا طريقه، واقترحنا على شيخ الازهر ومجلس إدارته تنفيذه، ولكن أنى ينفذ وحماة الدين من مشايخ الازهر أصحاب النفوذ لايرضون بشيء جديد غير ما تبعوا عليه آباءهم؟ الا الشيخ محمد عبده وهو صاحب هذا الرأي، ولـكن لا موافق له منهم عليه في مجلس الادارة الا الشيخ عبد الكريم سلمان ، وأكثر الآراء كانت على ضد مايطلبان

انتهت فتنة المحاكم بسكوت الحكومة عن المشروع الذي أعدته ولكن المتقاضين لم يسكتوا على حقوقهم تضيع. وفي أثر هذه عهد بمنصب إفتاء الديار المصرية الرجل الذي كان أول ساع في الاصلاح والمشهود له بانه أعرف الناس بطرقه ، فكلفته الحكومة تفتيش هذه المحاكم ووصف خللها وبيان مايحتاجه من العلاج ففعل، ووضع في ذلك تقريره المشهور الذي أجمع الناس على استحسانه، حتى ان الذين يعادون الاصلاح باسم الدين لم يجهروا بنقده ولا بالاعتراض عليه . ثم ألفت الحكومة لجنة للنظر فيما يمكن العمل به من التقرير ،رئيسها ناظر الحقانية ، وكان في أعضاء اللجنة مع المفتي قاضي مصر السابق وشيخ الازهر واخترمت المنية القاضي [1] في تلك الاثناء فوقف سير اللجنة واستمر على وقوفه ، وعذر الحكومة في ذلك العامة ، وبلاء العامة العلماء . وهاك ماقاله اللورد كرومر عن هذه المحاكم في تقريره عن سنة ١٩٠٢ وهو :

﴿ المحاكم الشرعية ﴾

« يقول المفتشون من العلماء التابعين لنظارة الحقانية ان أحكام قضاة المحاكم الشرعية في الاحوال الشخصية وانجازهم للقضايا قد تحسنت بعض التحسن ، ولا ريب ان زيادة انفاق المال تفضي إلى إصلاح مهم في هذه المحاكم، ولكن لاينتظر أن يجري حتى يلحّ الاهالي في طلب الاصلاح من أنفسهم، وذلك يكون بتقدم العلم والمعرفة . والشكاوي الآن كثيرة ولكن المعارضة شديدة في كل تغيير مهما كان لازما وخالياً من الضرر . والغالب أن تلك المعارضة تنجح بدعوى أن الاصلاحات مخالفة للشريعة ولعادة القوم » اه

فانظر تجد ان هذا السياسي الواقف على حالة البلاد أتم الوقوف يصرح بان الاصلاح لايمكن إلا بعد أن تتحول العامة عن اعتقاد مايقوله المشايخ في مقاومة الاصلاح ، وأوضح منه ماقاله في تقريره عن سنة ١٩٠٣ الماضية . وانك لتجد شيوخنا يطلعون عليه ويعرفون مايقول الناس في جمودهم ولا يرجعون عنه رحمة بالشريعة – التي انتحلوا حملها – وبأنفسهم ، وهذا هو نصه :

(١) هو المرحوم جمال الدين افندي وكان عاقلا عالما بما يجب من حال الزمان

﴿ المحاكم الشرعية ﴾

«هذه ترجمة محضر مأخوذ عن الجريدة الرسمية وهو يتعلق بأعمال مجلس شورى القوانين في جلسة حديثة العهد . والحديث فيها بين احمد بك يحيى من أعيان المصريين وحضرة الشيخ حسونة النواوي وهو عالم جليل من علمائهم تولى منصب الافتاء فيما مضى

« حضرة احمد بك يحيى : ان الطريقة المتبعة حتى الآن في المحاكم الشرعية في أمر المرافعات وتأجيل القضايا أوجبت شكاوى كثيرة فلذا أقترح على مجلس شورى القوانين تأليف لجنة تدرس هذه الامور وتضع فيها تقريراً

« فضيلة الشيخ حسونة النواوي : اني لا أعلم ان المحاكم الشرعية تحتاج إلى الاصلاح في أمر من أمورها

« تقرر بالاغلبية التصديق على رأي الشيخ حسونة النواوي » انتهى

«فهذه الاعمال مشددة للعزائم لانها تدل على أن في مجلس شورى القوانين نفسه بعضا من الاعضاء الاذكياء الذين يشعرون بوجوب الاصلاح المحاكم الشرعية

«أما كون الاصلاح ضروريا تتشوق اليه النفوس فذلك أمر ثابت لاشك فيه إذ ليس للناس أقل ثقة بهذه المحاكم الشرعية وقد علا الضجيج من أعمالها ، وكثرت شكاوي المتقاضين بين يديها ، وحجتهم عليها ترجح يوما عن يوم . والاصلاح يطلب من وجه معروف لايختلف فيه وهو بسيط سهل المنال ، وذلك أن الشرع نفسه لايمكن ان يطرأ عليه تغيير مطلقاً فغاية مايطلب إذن هو أن يقضى به بين الناس بطريقة معقولة على يد قضاة جمعوا من العلم والاستقلال ما يمتنع معه تأثير كل مؤثر خارجي أيا كان مصدره

«وكانت الحكومة قد شرعت منذ خمس سنوات تقريبا في معالجة هذا الداء ولكنها عدلت عنه لان الغرض الذي كانت تقصده من الاصلاح انما هو صيانة المصريين أنفسهم ، فلم تجد منهم التأييد الكافي فأغفلته . أما الحكومة البريطانية فلا تبدأ بالسير في هذا السبيل ولكنها تنظر بعين الرضى إلى كل اصلاح يبدأ به ذوو

الشأن أنفسهم الذين يعنيهم أمر المحاكم الشرعية أكثر من سواهم ، وتؤيدهم، وتشدد عزائمهم . ورأيي الخصوصي هو ان مجلس شورى القوانين يحسن صنعا بالعودة إلى هذا الموضوع وإيفائه حقه من البحث، لاسيما ان التعجيل في اصلاح هذه المحاكم خير من التأجيل . ففي مصر جيل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة فيمكن أن تحدثه نفسه يوما بان يمد إلى تلك الاركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم، فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبقا لارشاد قوم لا شأن لهم في الامر، لأنهم لا يدينون بالدين الاسلامي، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم أن يشرعوا في الاصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله [1] وعسى أن المصلحين من أبناء القطر لا تضعف عزيمتهم لأول فشل حل بهم، فان الرأي العام لأبناء دينهم هو في جانبهم ، وهو ينمو ويزداد ، وإن كانوا لا يجاهرون به ، فعليهم الثبات إذن، لاسيما إذ لم يكن أحد ينتظر أن الناس تتغلب على أميالها وتوافقهم على مرادهم بعد أول حملة

«ويجدر بي أن أذكر في هذا المقام ان مجلس شورى القوانين اقترح على الحكومة في الملحوظات التي أبداها على ميزانية السنة الحاضرة أن تزيد مصروف المحاكم الشرعية، فرفضت الحكومة هذا الاقتراح . وعندي انها احسنت في رفضها لان كل زيادة في هذا الباب تعد تبذيراً لاموال الامة حتى يجيء الوقت الذي تباشر فيه مسألة الاصلاح بالجد والاهتمام » اهـ كلام اللورد

مناقشة مجلس الشورى في إصلاح المحاكم الشرعية

قبل أن يظهر تقرير اللورد هذا اجتمعت الجمعية العمومية المؤلفة من نظار الحكومة وأعضاء شورى القوانين ومندوبي البلاد المصرية واقترح غير واحد من أعضائها مطالبة الحكومة باصلاح المحاكم الشرعية فأحيل الطلب على مجلس شورى

(١) ينذر اللورد مسلمي مصر بهذا ماوقع مثله في الدولة التركية اذ غلب الملاحدة عليها فقضوا على المحاكم الشرعية وعلى الشرع والاسلام نفسه في حكومتها

القوانين، فأجمع الشيوخ أمرهم، وأرادوا أن يدافعوا عن الحاضر حسب عادتهم، فائتمر من يعنيهم الأمر مع أنصارهم في مجلس الشورى، وكبيرهم هو قاضي مصر الذي خلق في بلاد الروم مصريا، وتعلم في الاستانة ولكنه كأنه تخرج أزهريا[1] وكثر السعي قبل الجلسة واتفقوا على شيء يدافع به القاضي الاكبر

ولما طرحت المسألة في المجلس قال القاضي الاكبر كلمته المزورة وهي :

« قد سمعنا المقترحات المتعلقة بالمحاكم الشرعية، ونقول: ان أعمال تلك المحاكم ترجع (أولا) الى الشرع الشريف، وهذا لا يمكن مسلم أن يقول انه يحتاج الى اصلاح (وثانيا) الى قضاة يحكمون بذلك الشرع، وهؤلاء تنتخبهم لجنة من كبار العلماء الخبيرين تشكل بنظارة الحقانية بحضور ناظرها، وطبعاً انما تنتخبهم من العلماء الاكفاء (وثالثا) الى لوائح سنتها الحكومة بعد أخذ رأي مجلس شورى القوانين. فان كان هناك اعتراضات توجهت أو تتوجه في المستقبل فطبعاً انما هي متوجهة على تلك اللوائح ولو رجعت الحكومة في جميع أعمال المحاكم الشرعية الى قواعد الشرع ونفذت بالطرق الشرعية جميع ماصدر من تلك المحاكم من الاحكام لم يوجد أدنى اعتراض، فلذلك أطلب استلفات الحكومة الى ماذكر.

هذا نص ما كتب، وتناقل الناس عن قاضي مصر يومئذ زيادة منها أنه قال في الجلسة: ان القضاة يدرسون علومهم في الازهر ويمتحنون فيه بحضور جماعة من كبار العلماء وانه لم يعرف عن أحد من قضاة المحاكم مايشكى منه. وجاء في آخر كلامه: أما اذا أرادت الحكومة تكميل المرشحين للقضاء باضافة بعض دروس مثل أدب القاضي وشيء من التمرين فلا بأس. وذكرت جريدة المؤيد يومئذ أنه قال ماينبغي لمثله في مقامه أن يقوله، وكان له حزب مستعد لتأييد رأيه، ولكن مفتي الديار المصرية تعقبه بعد ماأمر الكاتب بكتابة جميع ماقاله وقرر المفتي ماملخصه :

أما كون الشرع نفسه لايحتاج الى اصلاح فسلم لكنه في كتبه التي في أيدي الناس بعيد عن افهام الخصوم، فهو في أشد الحاجة الى التقريب من الافهام، فيجب النظر في ذلك، ولا نطلب فيه إلا عملا سبقتنا الى مثله الدولة العثمانية في كتاب المجلة التي عليها العمل في محاكمها

(١) هو يحيي افندي الشديد الجمود الذي خلف جمال الدين افندي العاقل المرن

المسماة (بالعدلية) وفي المحاكم الشرعية في أبواب المرافعات جميعها ولم يقل أحد ان الدولة في عملها ذلك قد خرجت عن الدين (عند هذا قال الشيخ حسونة النواوي : كتاب الاحوال الشخصية الذي وضعه قدري باشا موجود وهو من أحسن ما يكون)

وأما مسألة امتحان القضاة في لجنة من علماء الازهر وانتخابهم بلجنة فيها كبار العلماء . فيجب بيان ما فيها لهيأة المجلس لانني من اللجنتين ـ لجنة الامتحان ولجنة الانتخاب أما الامتحان فيجري في موضوعات خاصة من عدة فنون يبتدأ فيها بالاصول فالمعاني فالبيان وهكذا، ولا يأتي الفقه إلا في آخر الدروس عند ما يكون الممتحن قد مل السؤال، والطالب قد مل الجواب، فيكتفي الاساتذة من الطالب ببعض كلمات، ثم ينقلونه الى فن آخر. على أن الامتحان في الفقه كان ولا يزال في أبواب العبادات مثل التيمم ونحوه ، وقد ألح في المدة الاخيرة على لجنة الامتحان لتعين مواضع الامتحان في المعاملات ، فحصل ذلك لكن كثيراً ما رجع عنه ، فهل مثل هذا الامتحان له علاقة بالقضاء الشرعي؟ وهل تعرف به درجة القاضي إن كان أهلا للقضاء أو غير أهل ؟

(قال) أنا عضو في اللجنتين كما قلت لكم وربما كنت أعرف الناس بمن ينتخبون للقضاء ولكني أقول لكم إننا نعمل في الانتخاب على قاعدة ارتكاب أخف الشرين، فنختار أخف القاصرين قصوراً، وكثيراً ما تكون الاغلبية على انتخاب المتقدم في الزمان، وإن كان متأخرا في العلم والاستعداد

(قال) وأما لوائح المحاكم التي يتوهم من لم يعرف تاريخها ان الحكومة وضعتها من عندها فهي بعيدة عن الشرع ومذاهبه، فأنا أذكر لكم حقيقة أمرها، كانت الحكومة في عهد أمراء مصر السابقين تاركة للمحاكم الشرعية تمام الاستقلال، وكان الناس يستغيثون من خللها وظلمها، وشيوع الرشوة فيها، فلما قلقوا الحكومة أمر سعيد باشا بوضع لائحة لسير هذه المحاكم، وقد كان ذلك باقرار لجنة من علماء الازهر مؤلفة من علماء المذاهب الاربعة، فاللائحة الاولى كان متفقا عليها من علماء الشرع ـ طال الزمان وظهر ان اللائحة لم تأت بالمطلوب، واستمرت الشكوى من أعمال المحاكم، فوضعت اللائحة الثانية بمعرفة الشيخ العباسي شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية لذلك العهد ، وأما اللائحة الاخيرة فقد عرضت كذلك على شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية

وأقراها كما أقرها قاضي مصر السابق . فاللوائح لاتعاب إذن بعد لفة الشرع، ولكنني أقول مع هذا انها قاصرة وفي حاجة الى الاصلاح، فتعين ان المحاكم الشرعية في حاجة الى الاصلاح من كل جهة، وهذا الاصلاح ينحصر عندي في خمسة أمور وهي :

(أولها) تقويم طريقة التعليم لعمال المحاكم الشرعية من قضاة وكتبة، واضافة مايحتاج اليه وظائف القضاء الشرعي وما يتعلق بها من المعلومات إلى مايتعلمون الآن، وذلك يكون بانشاء فرقة خاصة بهذا الغرض من طلبة الجامع الازهر بالجامع الازهر ثم تكميل قاعدة انتخابهم بما يكفل التحقق من كفاءتهم

(ثانيها) تعديل لوائح المحاكم الشرعية على وجه يكفل انتظام سيرها ، وسرعة الفصل في قضاياها ، وإزالة كل ما يشتكى منه بشرط المحافظة على الشرع

(ثالثها) الاتفاق مع جماعة من شيوخ الحنفية على إيجاد طريقة لتقريب فهم الاحكام الشرعية التي يتقاضى الناس على حسبها حتى يمكن للخصوم أن يعرفوا إلى أية قاعدة شرعية يرجع الحكم فيما يتخاصمون فيه، ويسهل على القضاة أنفسهم خصوصا في بدء أمرهم لرجوع إلى مايحكمون بمقتضاه، ويكون ذلك شاملا لجميع أبواب المعاملات من الفقه

(رابعها) وضع قاعدة لتنفيذ الاحكام الشرعيـة تكفل انتفاع المحكوم له بالحكم ضـد أي شخص كان بما لا يخالف الشرع

(خامسها) ترقية مرتبات عمال المحاكم الشرعية وإلحاقهم بباقي موظفي الحكومة :

اقترح المفتي هذا وأمر بكتابته فكتب وظهرت على المجلس أمارة الاعجاب والرضى به، فقال بعض المؤتمرين : ان هذا لاينافي قول القاضي والرأي مارآه القاضي. قال المفتي لك أن تقول ان رأيك موافق لرأي القاضي ، وليس لك أن تقول هذا عن غيرك ، وإن كان القاضي يقر هذا الرأي فهو ماينبغي، ولافرق بين أن ينسب إليّ أو اليه . فقال ذلك العضو لابأس بموافقة القاضي على هـذا ولكن تحذف المقدمات . قال المفتي وتحذف مقدمات القاضي أيضاً . قال بعض الاعضاء الاولى ابقاء المقدمتين والموافقة على الرأي الاخير (رأي المفتي) مع اتفاق القاضي. وبعد ذلك استقر الرأي على أن يمحى ماكتب عن القاضي والمفتي ويستبـدل به : إن المجلس يقترح على الحكومة الاصلاح بالاوجه الخمسة المذكورة وكذلك كان

هذا ملخص ما كان في الجلسة ولهج به الناس يومئذ كتبناه كما سمعناه من كثير من الاعضاء ومن يجتمع بهم ، ولكن الجرائد خلطت في المسألة، ومنها ما نسب الاقتراح للقاضي، وانما كان رداً عليه، ثم انه لم ير بداً من موافقة المجلس، والذي يهمنا اننا وصلنا بعد جهاد المجاهدين في سبيل الاصلاح الى أن مجلس الشورى طلب باتفاق الآراء ان تبادر الحكومة الى اصلاح هذه المحاكم فليس لها بعد هذا عذر بالارجاء وهو أقصى أو فوق ما كان يتمنى اللورد كرومر

أرأيتك هؤلاء القضاة الشرعيين هل اعتبروا باجماع اهل الرأي والحل والعقد وغيرهم على فساد امرهم وسوء سيرتهم؟ كلا انهم لم يزدادوا إلا غياً وتمادياً، حتى ان المحكمة العليا التي تشرف على جميع مجاري العمر، هي أوغل من محاكم الواحات في الغرور والخلل والزلل، ومن أعجب ماصدر عن قاضي مصر في هذه الايام ببركة مستشاره أو مشيره التصدي لمنع ديوان الاوقاف من تنفيذ لائحة المساجد التي وضعها مفتي الديار المصرية واقرها مجلس الاوقاف الأعلى بعد مباحثات طويلة . اه

(المؤلف) نقف هنا عند هذه المسالة من المقال الطويل الذي كتبناه في ذلك الوقت تحت ضغط الالم ونشرناه في الجزء السادس من المجلد السابع من المنار الذي صدر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (أول يونيو سنة ١٩٠٤) ونرجيء بقيته وهي الخاصة بمسالة لائحة المساجد الى المقصد الخامس من هذا الفصل لانه هو الخاص بعمل الامام في الاوقاف، وسيرى القاريء اننا ختمناها بما افتتحنا به المقال ، وهو قوله تعالى (يخربون بيوتهم بايديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الابصار) ولكن أين أولو الابصار؟ لقد مرت هذه الحوادث الكوارث على علماء الازهر الذين وجهنا اليهم التنبيه والتذكير في وقتها ، وأكثرهم لا يشعرون ببوطانها، وأكثر الذين قرأوا أخبارها لم يميزوا بين من يعبث بشريعتهم ومصالحهم ومن يدافع عنهما ويحاحش دونهما، وانما غرهم مظهر قاضي مصر التركي الجديد، وماضي الشيخ حسونة التليد، ووطنية صاحبي المؤيد واللواء اللذين لبساعليهم الحق بالباطل وهما يعلمان، ولكن مرضاة الخديو مقدمة عندهما على مرضاة الديان ، وكان الواقفون منهم — و أعني علماء الازهر — على الحقائق كالسيد البيلاوي والشيخ احمد أبي خطوة يحوقلون ويسترجعون، وهاؤم اقرؤا تتمة فصول هذه الرواية الخديوية العبدية أيها الحاضرون ، فان لم تعتبروا بها فسيتعبر بها الآتون .

المقصد الخامس

من الفصل السادس

عمله في الاوقاف العامة واصلاح المساجد

لما صار الاستاذ الامام عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى بالتبع لمنصب إفتاء الديار المصرية دخلت الاوقاف في طور جديد من الاصلاح المالي والاداري والشرعي، وقد فتح له بذلك باب العمل لاصلاح الاوقاف والمساجد الذي كان يفكر فيه ويوجه عناية الامير اليه كما تقدم بيانه — وكان أئمة المساجد وخطباؤها أحقر الموظفين في مصر في الاوقاف وغيرها، لان أكثرهم من العوام الخرافيين، وأفقرهم بقلة رواتبهم إلا من له مال موروث كإرث لامامة والخطابة، فما القول في سائر خدمة بيوت الله من مؤذنين وملاحظين ومرتلين ؟ ومن أغرب الشواهد على هذا انه لما تم بناء مسجد الرفاعي وفرشه النفيس، فكان أفخم المساجد الجامعة في العاصمة وأنزهها موقعا (وبجانبه مدافن أمراء الاسرة المالكة) قال الشيخ علي يوسف رحمه الله تعالى لسمو الخديو لو امرتم بجعل السيد رشيد رضا خطيباً لهذا الجامع وواعظا فيه فانه ينفع البلاد نفعا عظيما لانه خطيب مفوّه ... فقال له سموه : هذا قليل عليه ولا يليق به ، وسننظر فيما هو خير له منه ! ! !

فكر الاستاذ الامام في ان الاصلاح للمساجد وما نوّه به الذكر الحكيم من عمارتها الصورية والمعنوية لايتم إلا بوضع نظام يقرر رسمياً لها وأساسه أن يجعل لها في مصلحة الاوقاف العامة ادارة خاصة تسمى ادارة المساجد، وأن يكون خطباؤها وأئمتها من العلماء المرشدين ، وأن تقام بها الدروس والمواعظ للعامة فتكون وسيلة للارشاد العام في القطر كله ، ومدارس لهؤلاء العوام الذين هم السواد الاعظم من الامة ، وقد استحوذ عليهم الجهل وأفسدت الخرافات عليهم فطرتهم وأخلاقهم وصحتهم ولا يبالي بهم أحد ، وخطبة الجمعة التي شرعت لتكون درسا عاما في كل أسبوع لجميع المسلمين بما فرض عليهم من صلاة الجمعة وسماع خطبتيها ـ اذا لم تزدهم

جهلا وفساداً – فانها لاتصلح من فسادهم شيئا ، فإن أكثرها في فضائل الشهور والمواسم والاغراء بالكسل والتواكل والاعتماد على مكفرات الذنوب المجرئة على المعاصي ، وأكثر ما يذكر فيها من الاحاديث النبوية من الموضوعات أو الواهيات التي يحرم اسنادها إلى النبي ﷺ كحديث اعتاق الله ستمائة ألف عتيق من النار في كل ليلة من ليالي رمضان « حتى اذا كان آخر ليلة منه أعتق بقدر مامضى »

وقد ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في حديث لنا في هذا الموضوع ان عثمان باشا غالب العالم الطبيعي المشهور صاحب المصنفات عرض له في شبابه شك في الدين بشبهات من هذه العلوم (قال) فما زلت أدحضها له وأقيم له البراهين العقلية والعلمية على حقية الاسلام حتى اقتنع، وذهب معي إلى صلاة الجمعة في الجامع الازهر فلما سمع الخطبة ، وكان موضوعها وصف الوقاع في الجنة . . . قال لي : أهذا هو الدين الذي جئت بي لتكميل تهذيبي به ؟ أو ما هذا معناه — وانصرف مؤلياً أن لا يعود .

أقول : هذا شأن الخطبة في الازهر ، معهد العلم الاكبر ، فما القول في غيره !؟ صليت الجمعة مرة في مسجد من مساجد مصر فكان موضوع الخطبة أن من يطلق امرأته ثلاثا ثم يعود اليها يكون كافراً « بعشرة أوجه بالاتفاق » وذكر الخطيب وجوها جهلية كاذبة مكررة يصف كلا منها «بالاتفاق» فاضطررت بعد الصلاة إلى إلقاء درس في أحكام الطلاق على المصلين علموا به ان كل ماقاله خطيبهم كان افتراء على الله في دينه ، وسيأتي مزيد بيان لحالها .

مشروع اصلاح المساجد

وجملة القول ان الاستاذ الامام وضع مشروعا لاصلاح المساجد بما هو أوسع أبواب الاصلاح الديني في الامة ، وما جاء وقت عرضه على مجلس الاوقاف الأعلى إلا في الوقت الذي عرضت فيه على المجلس مسألة استبدال أراضي البناء التابعة للاوقاف في الجيزة بمزرعة سمو الخديو المعروفة باسم مشتهر ، وقد تقدم ذكرها، واشتهر أمرها، فتوجهت عناية سموه الى معارضة مشروع إصلاح المساجد

لان مقترحه والواضع له هو الشيخ محمد عبده، ويقال ان شياطين الانس وسوسوا الى سموه بأن الشيخ محمد عبده اذا نجح في هذا المشروع فان حزبه الديني يتجاوز بعض علماء الازهر وجمهور الاذكياء الناهين من طلابه الى أئمة المساجد وخطبائها في القطر المصري كله، فيكون له من السلطان الديني في البلاد مالم يتفق مثله إلا لبعض خلفاء الاسلام في القرون الماضية

لهذا اكتفى الاستاذ الامام من مشروعه بالتمهيد له في لائحة سماها (لائحة ترتيب المساجد) عرضها على المجلس في خريف سنة ١٩٠٣ فشرع المجلس ينظر فيها. وكان طالب موسيو زرفوداكي استبدال أراضي الجيزة بمزرعة سمو الخديو في أواخر نوفمبر من هذه السنة. وفي أوائل ديسمبر منها قرر مجلس الاوقاف الأعلى ماقرره فيها وقد تقدم ذكره، ومن ذلك الوقت كنا نقرأ في الجرائد في كل أسبوع يجتمع فيه المجلس انه نظر في قسم من اللائحة وفي أكثر الاسابيع انه أجلها، وفي أثناء ذلك ظهرت الحملة على الفتوى الترنسفالية وكثرت مقالات الجرائد فيها في ديسمبر سنة ١٩٠٣ ويناير سنة ١٩٠٤ وما بعده، وقد تقدم ذكر معارضة الخديو في هذه المسألة في اللائحة التي رفعها يوسف باشا طلعت الى المابين الهمايوني، وأشار الى افضاء معارضة سموه فيها الى أخذ رأي لورد كرومر فيها (!!) وذكرها كل من حسن باشا عاصم والاستاذ الشيخ أحمد أبو خطوه في تأبينه للاستاذ الامام

قال حسن باشا عاصم وهو زميله وعضده في مجلس الاوقاف الاعلى: وكان من مقتضى منصب الافتاء ان كان رحمه الله عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى فكان نبراسا يستضيء برأيه في تطبيق أعماله على أحكام الشرع الشريف وفي حل المشكلات. ومن اقتراحاته المفيدة ان تشكلت لجنة تحت رياسته وضعت نظاما للمساجد لو عمل به كما هو لعمرت بيوت الله وبيوت خدمتها ولكانت عونا على احياء علوم الدين اهـ

وقال الاستاذ الشيخ احمد ابوخطوة (رح) في سياق الكلام على عنايته باهل الازهر والسعي لنفعهم: ومن أجل مانفعهم به فكرة مشروع المساجد فانه رحمه الله سعى في وضع لائحة يجعلها ديوان الاوقاف نظاما للأئمة والخطباء والوعاظ

والمدرسين فوضعت على حال يجعل الامام والخطيب من المدرسين في الازهر ويكلف الامام بان يدرس في الجامع الذي يوظف فيه درساً لعامة الوافدين عليه والمصلين فيه ، ويكون مرتب الامام والمدرس من ثلاثة جنيهات إلى ثمانية في الشهر . ومع كل مالاقاه هذا المشروع من الصعوبات الكثيرة المعروفة أراد الله ببركة الاخلاص في العمل تنفيذه بمعناه ، ونفذ في كثير من المساجد ، والوجهة الآن متجهة إلى تنفيذ باقيه . وهو مع اشتماله على منفعة أهل الازهر اشتمل كذلك على نشر الدين بين طبقات الامة من طريقه الصحيح اه

(المؤلف) وجملة القول ان المجلس مازال يرجيء النظر فيها الى أن أقرها يأتي منها بنصه الرسمي في ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ وشرع في تنفيذه في العاصمة في أوائل مايو من هذه السنة الموافق لشهر صفر سنة ١٣٢٢ ولكن صدر الامر العالي الخديوي في ٣١ مايو بايقاف تنفيذه الى ان ينظر فيها من جانب سموه !! وكان تعرض للاعتراض على تنفيذها بايعازه قاضي مصر ، وتنوقش فيها بمجلس الشورى حتى انتهى ذلك بعرضها على عميد الاحتلال. وقد فصلت ذلك في المنار بما أثبته هنا وهو :

لائحة المساجد

(منقول من الجزء السادس من مجلد المنار السابع الصادر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (أول يونيو ١٩٠٤)وهو تتمة المقال الذي تقدم في ص ٦٢٠ — ٦٢٩)

ماهي لائحة المساجد، وما وجه الحاجة اليها ؟ هي لائحة تدور على جعل أئمة المساجد وخطبائها من أهل العلم بالدين ليؤدوا الفرائض على وجهها، وجعل مؤذنيها وخدمتها من أهل الكفاءة للقيام بعملهم على وجهه . ولا يجهل أحد أن أكثر الائمة في هذا العهد من الجهال حتى باحكام الطهارة والصلاة ، وأكثر الخطباء يغلطون على المنبر حتى بآيات القرآن ، ويأتون في وعظهم بما يتبرأ الدين منه من الغش والكذب على الله ورسوله ودينه بسرد الاحاديث الموضوعة ، والخرافات المصنوعة . أليس من العجائب أن يوجد في المسلمين من يحافظ على هذه المنكرات ويطلب بقاءها وعدم إزالتها باسم الدين، وهو يعد مع هذا من علماء المسلمين؟ بلى

وانهم ليحتجون بانهم يحافظون على شروط الواقفين ، وهل وجد واقف اشترط ان يكون الائمة والخطباء من الجاهلين ؟ رب أعوذ بك من همزات الشياطين

أوقاف المسلمين تزداد ريعا ونمواً ، ومساجد المسلمين في خراب حسي ومعنوي، إلا ما عمرت جدره وزخرفت سقفه لجنة الآثار العربية ليتمتع بالنظر اليها السائحون من الافرنج الذين يحبون الاطلاع على مباني الاولين ، وراتب الخطيب والامام اليوم كما كان منذ قرن أو قرون، اذ كان مالك الالف يعد غنيا كبيراً ، والالف لا تشبع في سنينا الحمار شعيراً ، لهذا يضطر ديوان الاوقاف أن يجعل الجاهلين الكسالى المعدمين أئمة وخطباء، إذ لا يرضى العالم الفاضل أن ينقطع لعمل لا يزيد راتبه في الشهر على مئة قرش وقد يكون خمسين قرشا . هذا وان مساعدة أهل العلم والدين على معايشهم من أفضل المبرات التي تنشأ لها الاوقاف الخيرية ـ لهذا كان من موضوع لائحة المساجد أن يجعل للامام والخطيب راتب يتراوح بين خمس مئة قرش وثمان مئة قرش ، وللمؤذن والخادم راتب يرتقي إلى ثلاث مئة قرش، وذلك بعد انتقائهم بحسب الشروط التي تؤهلهم للقيام بعملهم على أكمل وجه . وقد رفقت اللائحة بحال الحاضرين على ما بهم فلم تقض بعزل أحد منهم وانما جعلت مبدأ الاصلاح فيمن يتجدد

بهذه اللائحة تصرف أموال الاوقاف المكنوزة في أفضل مصارفها ، بهذه اللائحة تقام صلاة الجماعة على وجهها ، بهذه اللائحة تكون الخطابة مؤدية للحكمة التي شرعت لاجلها ، بهذه اللائحة تكون بيوت الله نظيفة طاهرة كما يليق بها، بهذه اللائحة ينمو علم الدين بما وجد لاهله من المعاش الطبيعي الذي يليق بكرامتهم، بعد أن أقفلت في وجوه المنقطعين له أبواب الرزق ، واحتقرهم الناس ولو بغير حق ، ومع هذا كله نجد في أصحاب العمائم من يسعى لالغاء هذه اللائحة بحجة انها مخالفة للدين ، وانها وضعت للافساد وهم من المصلحين ، يحاولون إلغاءها بسلطة المحكمة الشرعية التي ضجت السماء والارض من فساد حالها ، وشدة اختلالها ، فلماذا لا يصلحونها ويقيمون حكم الله فيها، إن كانوا صادقين .؟

كتب قاضي مصر إلى مدير الاوقاف يطلب اللائحة لينظر فيها ويأمر

بتنفيذ مايرى تنفيذه منها وإلغاء مايرى إلغاءه ، وذكرت الجرائد انه هدد المدير بعزله اذا لم يفعل؛ فعرض المدير كتابته على مجلس الاوقاف الاعلى فقرر المجلس اجابة القاضي بان هذا أمر لا يعنيه، وانه ليس في اللائحة أمر مخالف للشرع كما قرر مفتي الديار المصرية، وأن الامر العالي الصادر في سنة ١٢٩١ يجيز للمجلس سن أمثال هذه اللائحة، ولهذا يرفض المجلس طلب القاضي ويأمر بتنفيذها كما قررها. هكذا ورد في جريدة الاهرام وقد أنذرت القاضي بان لا يلعب بالنار ونعم مافعلت ، فان الامر خطير كما ذكرت

هذا نموذج من سيرة هذه المحكمة بعد ماعمت البلوى ، وعظمت الشكوى، يلعب أهلها بالنار ، ويسخطون الديار ، ويفقدون الانصار . ولا نسمع من علماء الازهر كلمة انكار ، بل يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الابصار .اه

(ثم نشرنا في الجزء السابع الصادر في غرة ربيع الآخر(١٥ يونيو) مانصه)

لائحة المساجد

جاء في (ع ٧٩٦٥) من جريدة الاهرام الصادر في ٢ يونيو تحت هذا العنوان مانصه :

« أبنا في أعدادنا السالفة فائدة لائحة المساجد التي يعمر بها الازهر وتعمر بها الجوامع ، ويقام عماد الدين والعلم والادب . وقلنا ان معاداة هذه اللائحة والقيام في وجهها هو عبارة عن معاداة صالح الازهريين وتقدمهم، والوقوف في وجههم. ولقد اتفق بعض رصفائنا أمس على ان انفاذ هذه اللائحة قد أجل إلى العام المقبل، أي حتى عودة رجال الحكومة من الاجازة ، فأخذنا نبحث عن سبب التأجيل فعرفنا ان فضيلة القاضي الاكبر رفع عريضة إلى سمو الجناب الخديوي يشكو فيها من بعض ماجاء في اللائحة، ويدعي انه مخالف لشروط بعض الواقفين ، كأن يكون بالمسجد مبخر وسقاء وكناس، فاللائحة جمعت وظائف كثيرة في شخص واحد،

فالمعية ترجمت شكوى فضيلة القاضي وأرسلت هذه الترجمة إلى الوكالة الانكليزية ، فأجابتها الوكالة ان الوقت قد انقضى وان جناب اللورد لا يقدر الآن على درس الشكوى واللائحة ، وانه يتمم نظره فيها بعد عودته من الاصطياف ، فاهذا أجل الانفاذ

ولقد دهش العقلاء لهذا العمل لان المحتلين أعلنوا مراراً وجهاراً انهم لا يتعرضون لأمر من أمور الدين ، فما الذي حمل المعية اذن على ارسال تلك اللائحة إلى الوكالة الانكليزية ؟ ألا توجد في البلاد سلطة دينية عاقلة عالية تقدر على درس اللائحة وتمحيصها ؟!

ولقد دار في جميع الاندية ان ذلك كله نتيجة التسابق لارضاء المحتلين فكما ان دولتلو رياض باشا جعل جناب اللورد كرومر صاحب المقام الارفع كذلك المعية أحالت على جنابه شكوى العلماء وشؤون المساجد والجوامع !! فما أكبر حظ دولة تجد مثل هذا من أمة تحكمها وبلاد تحتلها ! ! وما أعظم الفرق الذي يجده الانكليز بين كبار المصريين وكبار البوير ! ! فاذا كنا نحن قد لمنا رياض باشا على كلامه فانا نحن نلوم المعية على فعلها . ويقيننا ان الانكليز أنفسهم يوافقوننا على هذا اللوم » اهـ

[المنار] حسب الناس من العبرة الكبرى بهذا الخبر الصادع أن يعرفوه ، واننا لو أردنا أن نبدي رأينا فيها لما استطعنا أن نقف عند الحد الذي تجيزه الرسوم المتبعة . وثم عبرة أخرى وهي سكوت الجرائد اليومية التي تلقب بالاسلامية عن هذا ، وبيان الاهرام – التي يصح أن نلقبها بجريدة الامة – له(١) وسببه انه جاء من قبل الامير وحده وهو الذي يرضيها منه كل شيء ، ولو كان للنظار فيه رأي لقامت قيامة هذه الجرائد وأكثرت الطعن واللعن ، وحملت النظار وحدهم التبعة ، كما هي عادتها في كل أمر يقوي نفوذ المحتلين ، مع انه لم ينفذ شيء من ذلك إلا بأمر الامير

---

(١) كان يقال : المؤيد جريدة الخديو لانه يقدم ما يرضيه على كل ما سواه ، واللواء جريدة مصطفى كامل لان نفسه مقدمة عنده على كل شيء ، والمقطم جريدة الاحتلال والاهرام جريدة فرنسة ، وكل يخدم البلاد فيما لا يعارض سياستها الخاصة . فلما تجرأت الاهرام وحدها على التصريح بما ذكر صححت لها هذا اللقب

وهو وحده كان القادر على معارضة الاحتلال بالحق وأوربا عضده ، وأما النظار فلا عضد لهم إلا الامير ، وهو الذي يقدر على عزلهم اذا خالفوا ، ولا يقدرون على إلزامه اذا وافقوا ، فكل ماأخذه الانكليز فمنه وعليه ، وعلى الامة المسكينة التي أضاعها أمراؤها في كل زمان .... اه

(المؤلف) أزيد الآن في هذا التاريخ على ما نقلته وماعلقته أنه يجب على كل مصري مخلص لبلاده ولاسيما المسلم ان يتمثل موقف هذا الرجل (الشيخ محمد عبده) المجاهد في سبيل إصلاح البلاد بين أميرها وعلمائها وجرائدها ، يكافحهم ويكافحونه ، وينافحهم وينافحونه ، هو يطلب المصلحة العامة للامة في دينها ودنياها وحكومتها وعامتها ، ابتغاء مرضاة الله وحده لاشريك له ، وهم يطلبون مرضاة الامير وحده لاشريك له ، بالانتقام له ممن منعه من أموال أوقاف المسلمين ان يتصرف فيها كما يشاء هواه ، هذا والبلاد واقعة تحت سيطرة أقوى دولة على وجه الارض ، فكيف كان يكون عملهم لوكان الامير مطلق الحكم والتصرف ، لاراد لامره ولا معقب لحكمه ، وليتذكر كل مصري - يقرأ هذا - قول الاستاذ الامام ان مصيبة هذه الامة بفساد اخلاقها أكبر من جميع مصائبها ، وقوله انه لم يعمل عملا لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين ، لامن الافرنج ولامن القبط ولامن السوريين !!!

(فان قيل) وماذا فعل لورد كرومر بهذه اللائحة بعد عودته من اجازته؟ (قلنا) ان سمو الامير لم يعد يكتفي بعد عودة جنابه من نكاية الشيخ محمد عبده بايقاف تنفيذ لائحة المساجد، بل وجه عزيمته إلى إخراجه من منصب الافتاء نفسه ومن الازهر بعدان ثبت له أنه لا يمكن ان ينجح بمعارضته في أعماله فيهما ، ولا بد ان يكون بعض رجاله قد بين له ان تحويل لائحة المساجد الى اللورد قد ساء جميع المسلمين، وقد كان من سعيه لاخراجه من الافتاء والازهر ماشرحناه في موضعه ، وتلا ذلك مرض الاستاذ الامام ووفاته ، فلم يعد للبحث عن لائحة المساجد فائدة ، إذ زالت تلك الارادة القوية ، المصرة على تنفيذها بالرغم من إرادة الامير صاحب السلطة الرسمية، وماله من الاعوان والوسائط في معارضتها

وكان الاستاذ الامام قد أعطاني صورة ما اقره مجلس الاوقاف الاعلى من اللائحة . وصورة المذكرة التي حمل مدير الاوقاف العامة على تقديمها للمجلس في اقتراح تنفيذ بعضها بشكل آخر . فنشرتهما في جزء المنار الثامن من المجلد الثامن الذى صدر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٢٣ (١٩ يونيو سنة ١٩٠٥) وكان ذلك في أثناء اشتداد المرض على الامام وقد توفي بعده بشهرين فننشر ذلك مع مقدمة المنار له . وهو :

لائحة المساجد وما أنفذ منها

(منقولة من مجلد المنار الثامن ص ٣٠٧)

واضع هذه اللائحة ومقترح إصلاح المساجد معروف وهو الاستاذ الامام فانه بعد أن صار عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى. وأشرف على أحوال هذه المصلحة الاسلامية العظيمة رأى أن غلات الاوقاف تزيد عاما بعد عام وان مرتبات المستخدمين في هذه المصلحة عظيمة تضاهي نفقات مصالح الحكومة، ورأى من ناحية ثانية ان المساجد التي وقفت عليها الاوقاف العظيمة مهملة والمستخدمين فيها من الائمة والخطباء فمن دونهم لايرضخ لهم إلا بالقليل جزاء على خدمتهم ، فمنهم من راتبه خمسون قرشاً في الشهر ، ومنهم من يعطى أقل من ذلك ، والامام والخطيب الذي يرتقي راتبه إلى مئة قرش أو يزيد قليلا يعد من ذوي الطبقة العليا . ورأى هذا المصلح ـ أيده الله بروح منه ـ ان أكثر المستخدمين في المساجد لايقدرون على أداء وظائفهم على وجهها ، وان استبدال القادرين بالعاجزين متعذر مع قلة الرواتب، إذ ينبغي أن يكون الامام والخطيب من أهل العلم ، والخادم منقطعاً للخدمة قادراً عليها ، ولا يكون هذا مع قلة المرتبات

أجال هذا المصلح الغيور قداح الفكر في هذه المسألة فرأى ان السعي في اصلاح حال المساجد يستتبع إصلاحا آخر وهو خدمة العلم والاعانة عليه بايجاد مورد جديد لرزق أهل الازهر يرغب الناس في طلب العلم . ذلك ان أول مايهم الانسان في هذه الحياة الدنيا أمر رزقه ، ويرى الناظر في تقلب الزمان أن الاقوات تغلو في هذا البلد حتى ان ثمن أكثر الاشياء قد تضاعف في زمن قليل ، فاذا استمرت هذه الحال في مصر كان المقام فيها عسيراً على غير الموسرين ، وقلت الرغبة في طلب العلم بالازهر . هذا مابعث المصلح على البحث عن أحوال المساجد والمستخدمين فيها ووضع تلك اللائحة التي اشتهر أمرها . وانني أثبت ههنا نص لائحته التي وافق المجلس الاعلى على تنفيذها بعد البحث والتعديل ثم أوقفت بأمر الامير في العام الماضي وأتبعها بما أخذ منها وصدر الامر في هذا العام بتنفيذه وهو :

مشروع ترتيب المساجد (*)

الذي قرره مجلس الاوقاف الاعلى

عرض للمجلس مشروع ترتيب المساجد وبعد المداولة تقرر ما يأتي :

(المادة الاولى) ان هذا الترتيب لا يترتب عليه رفت أحدمن وظيفته الا بوفاته أو وقوع أمر يستوجب رفته حسب الجاري ، كما أنه لا يقتضي الاخلال بشيء من اختصاصاته الحالية

الباب الاول في ترتيب الخدمة

(المادة الثانية) توحد الامامة في جميع المساجد، ماعدا الجامع الازهر والمساجد التي فيها عدة أماكن يمكن اعتبار كل منها مسجداً مستقلا ، ويجب في هذه الحالة أن يؤدي الصلاة أحد الائمة بعد الآخر ، ولا يجتمع إمامان للصلاة في آن واحد إلا إذا اختلفت الاماكن بحيث لايشوش أحدهما على الآخر ، ومع ذلك فتعدد الامكنة لايستلزم تعدد الائمة ، بل لايكون ذلك إلا للضرورة

الامام هو رئيس المسجد في جميع شؤونه ماعدا المساجد التي فيها دروس منتظمة مثل الازهر ومايلحق به مما يكون له شيخ خاص يديره من حيث هو مدرسة

(المادة الثالثة) يقوم الامام بوظيفة الخطبة ،والمساجد التي تتعدد فيها الائمة – وهي المذكورة في المادة الثانية – يقوم بالخطبة أوفر الائمة راتباً ، فان تساووا في الراتب قدم أقدمهم في وظيفة الامامة

(المادة الرابعة) توحد وظيفة المؤذنين في كل مسجد إلا عند تعدد المآذن فيكون لكل مأذنة مؤذن واحد لجميع الاوقات

(المادة الخامسة) يعين ملاحظ في المساجد التي يرى لزوم وجود ملاحظ فيها وهذا الملاحظ يكون رئيس الخدمة ، وعليه القيام بمراقبتهم في جميع أعمالهم تحت رياسة إمام المسجد

(*) هذا العنوان هو الذي أخذته من الأستاذ الامام. ولما نشرته في المنار قبل وفاته بشهرين وضعت له عنوان اللائحة الاولى ، ووضعت للمذكرة التي تليه اسم اللائحة الثانية

(المادة السادسة) أعمال الميقاتية تضاف إلى المؤذنين

(المادة السابعة) يضاف عمل المبلغين إلى المؤذنين . وفي مساجد القسم الرابع التي لامنارة فيها تكون قراءة السورة على المؤذن

(المادة الثامنة) العمل الذي يؤديه المرقي الآن وفي المستقبل يعوض بما يعبر عنه شرعا بالاذان الثاني ويحول على المؤذنين

(المادة التاسعة) تالي القرآن في المسجد يعطى ما يرتب له على سبيل الصلة

(المادة العاشرة) ملاحظو المساجد هم عهدتها ، ويستثنى من ذلك بعض المساجد التي لها خزنة مخصوصون في جدول الترتيب ، ويدخل في وظائف الملاحظين ما كان للنقيب

(المادة الحادية عشرة) يدخل تحت لفظ الخدمة أرباب الوظائف الآتية ولا يقيدون بتسمية: الفراشون . والوقادون . والملاءون . والسقاءون . والبوابون والسعاة، وخدمة الاسبلة في المساجد، وما أشبه ذلك

(المادة الثانية عشرة) الوظائف الآتية لاعلاقة لها بترتيب الخدمة وليس النظر فيها من عمل المجلس الآن: خدمة الاسبلة المستقلة عن المساجد . والفقهاء والدلايلية والساعاتية، ومتعهدو السواقي، وخفراء القبور والتربية والخدمة المختصون بالاضرحة من جهة كونها أضرحة بأنواعهم وشيخ الليثية وقراء الربعة وكتبة النذور

(المادة الثالثة عشرة) وظيفة المبخر (البخورجي) تكون من أعمال أحد الخدمة والمبالغ المرتبة لها تكون من ضمن مرتبه

(المادة الرابعة عشرة) وظيفة الداعي (الدعجي) لاتكون مستقلة وإنما تضاف إلى عمل أحد موظفي المسجد ومرتبها يحسب في مرتبه

﴿ الباب الثاني في المرتبات ﴾

(المادة الخامسة عشرة) أئمة الجوامع بجميع أنحاء القطر يجعلون أربع درجات الاولى بثمانية جنيهات والثانية بخمسة والثالثة بأربعة والرابعة بثلاثة

الملاحظون يكونون بجنيهين . الخزنة يكونون كذلك بجنيهين

المؤذنون ينقسمون إلى أربع درجات: الاولى ١٥٠ قرشاً لمصر والاسكندرية

والثانية ١٢٥ قرشاً لعواصم المديريات ومحافظات بورسعيد ودمياط والسويس . والثالثة ١٠٠ قرش لعواصم المراكز والبلاد التي عدد سكانها عشرة آلاف نسمة فما فوق، وان لم تكن عواصم مراكز . والرابعة ٧٥ قرشاً لبقية القرى

سائر الخدمة يكونون كالمؤذنين ماعدا المستثنين مثل خدمة الجامع الازهر ونحوه

قراء القرآن في الجوامع يكونون أربع درجات الاولى ٥٠ قرشا والثانية ٤٠ قرشا والثالثة ٣٠ قرشا والرابعة ٢٠ قرشا على حسب درجات الجوامع

﴿ الباب الثالث في شروط التوظف ﴾

(المادة السادسة عشرة)

الامام يشترط أن يكون عالما حائزاً لشهادة العالمية فان لم يوجد مرشح حائز لشهادة العالمية يكتفي بشهادة الاهلية ، فان لم يوجد أيضاً مرشح حائز لشهادة الاهلية ينتخب اللائق بالامتحان ، على حسب القواعد المتبعة الآن

(المادة السابعة عشرة)

الملاحظون يشترط فيهم أن يكونوا أقوياء البنية، ويفضل أولا من يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن ثم من يقرأ ويكتب فقط

(المادة الثامنة عشرة)

الخازن يشترط فيه أن يعرف القراءة والكتابة ومبادىء الحساب

(المادة التاسعة عشرة)

المؤذنون يشترط فيهم مثل الملاحظين ولا يمنع فقد البصر من التوظف بوظيفة المؤذنين .

(المادة العشرون)

يشترط في الخدمه أن يكونوا سليمي البنية ، وأوجه التفضيل تسري عليهم ، وهي المذكورة في الملاحظين

(أحكام عمومية)

(المادة الحادية والعشرون) عدد الموظفين ومرتباتهم في كل مسجد يكون على حسب الجدول الذي قرره المجلس وأرفق بهذا

(المادة الثانية والعشرون) اذا وجد في شروط الواقفين زيادة في عدد الموظفين عما هو وارد في الجدول فيعطى للزائد ما هو مقرر له بشرط الواقف فقط ، كذلك اذا وجد في شروط الواقفين زيادة في مرتب أية وظيفة عما هو وارد في الجدول فتعطى الزيادة بحسب شروط الواقف .

(باب توزيع العلاوات)

(المادة الثالثة والعشرون) يلاحظ في اعطاء العلاوات على حسب الترتيب الجديد في كل مسجد أن لا يتجاوز مجموعها على ما هو جار صرفه الآن مجموع ما يخصه على حسب هذا الترتيب: يبدأ في التوزيع لكل وظيفة على الوجه الآتي :

(أولا) الائمة الحائزون لدرجة العالمية والشهادة الاهلية أو الذين يحصلون على احدى هاتين الشهادتين بعد الآن

(ثانيا) من يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن من الملاحظين والمؤذنين والخدمة ثم من يقرأ ويكتب فقط منهم

(ثالثا) الخازن الذي يعرف القراءة والكتابة ومبادىء الحساب

وحيث ان مبلغ الاحد عشر ألف جنيه لم يكن مقرراً فقط لمساجد القاهرة بل لمساجد عموم القطر فيشترط أن لا يزيد مجموع هذه العلاوات هذه السنة في مدينة القاهرة على سبعة آلاف جنيه، فان زاد يقطع من كل وظيفة بنسبة الناقص

اذا بقي شيء من مبلغ السبعة الآلاف الجنيه بعد التوزيع على الوجه المشروح فيما سبق فهذا الباقي يوزع على من يتلوهم ممن هم حائزون لشروط هذا الترتيب

ومع ذلك اذا خلت في مسجد وظيفة زائدة عن المقرر في هذا الترتيب يوزع مرتبها لتكملة مرتبات موظفي ذلك المسجد الذين تنطبق عليهم قواعد هذا الترتيب من جهة العدد والمرتب وشروط التوظف اه

(تنبيه) تركت نشر الجداول التابعة لهذه اللائحة لعدم العمل بها

مذكرة

مرفوعة الى مجلس الاوقاف الاعلى

يعلم حضرات أعضاء المجلس حالة خدمة المساجد وفقرهم وقلة المرتبات المقررة لهم مقابل خدمة هذه المحلات الطاهرة وقد ترتب على اهتمام الديوان بشدة المراقبة في نظافة المساجد وترتيب انارتها وأدواتها ان صار أولئك الخدمة مسئولين عن أعمال كثيرة ربما كانت سبباً للتضييق عليهم عن السعي في الكسب والارتزاق من الخارج ، وقد كثرت شكاويهم لجانب المعية السنية وللديوان وعلى لسان الجرائد المحلية من عدم كفاية مرتباتهم خصوصا مع غلاء الاسعار في الوقت الحاضر ، والتمسوا زيادتها لمساعدتهم في معايشهم ، وبالبحث في مرتبات هؤلاء الخدمة تبين ان عددهم في مساجد مصر وبولاق بلغ ١٦٢٧ منهم ١٣٦٠ رواتبهم تنحصر بين الخمسين والخمسة وسبعين قرشا فأقل وهذه ماهية لاتنفع فرداً واحداً في أمور معيشية؟ فكيف بهم وهم ذوو عائلات

وحيث ان ميزانية الديوان وارد فيها مبلغ احد عشر الف جنيه لزيادة ماهيات خدمة المساجد ومخصص منه مبلغ سبعة آلاف جنيه لتوزيعه على مساجد مصر على الطريقة المذكورة في قرار المجلس الصادر بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ عن ترتيب المساجد

وحيث ان هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بايقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من طرف جناب ولي النعم الافخم .وحيث ان ترك هؤلاء الخدمة بتلك المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون مما لايليق بمصلحه خيرية تجود بالكثير من أموالها في وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين وأجدر بها أن تفيض شيء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة تلك المحال الطاهرة

فبناء على كل ذلك رأينا أن نضع مشروعا لعلاوة تلك المرتبات حتى إذا وافق عليه المجلس انفذ وارتفع الضرر نوعا عن اولئك المساكين وها هو

الائمة والخطباء

حيث ان الأئمة والخطباء بالمساجد تختلف حالتهم بعضهم عن بعض فقد رؤي تقسيم مرتباتهم إلى ثلاث درجات :

(الاولى) الائمة والخطباء الحائزون لدرجة العالمية وماهية كل منهم أقل من جنيهين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر بشرط ان الموجود منهم ولم يكن مكلفا باعطاء دروس لتعليم العوام يكلف به مثل غيره لانتفاع العامة بالامور الدينية

(الثانية) الائمة والخطباء الحائزون لشهادة الاهلية وماهية كل منهم أقل من جنيه وخمسمائة مليم شهريا تكمل الى هذا القدر بالشرط المقدم ذكره

(الثالثة) الائمة والخطباء غير الحائزين لدرجة العالمية ولا لشهادة الاهلية وماهية كل منهم أقل من جنيه واحد شهريا تكمل إلى هذا القدر

المدرسون

المدرسون الموجودون في بعض المساجد من كان منهم ماهيته أقل من جنيهين اثنين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر

مشايخ الخدمة

هؤلاء من كان منهم مرتبه أقل من جنيه ونصف يكمل إلى هذا القدر

المؤذنون

من كان منهم ماهيته أقل من سبعمائة وخمسين مليما شهريا تكمل إلى هذا القدر ماعدا المؤذنين في المساجد الشهيرة وهي الجامع الازهر ومسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والسيدة سكينة والامام الشافعي والسلطان ابو العلا فتكون ماهية الواحد منهم جنيها شهريا

قراء السورة

هؤلاء من كان منهم ماهيته أقل من مائتين وخمسين مليما شهريا تكمل إلى هذا القدر

وظائف الخدمة

الخدمة مثل الوقاد والكناس والبواب والملاء وغيرهم من كان منهم ماهيته أقل من سبعمائة وخمسين مليما شهريا تكمل إلى هذا القدر

متعهدو اقامة الشعائر

المتعهدون المكلفون بالصرف على بعض المساجد من جميع اللوازم من كان مرتبه أقل من جنيهين اثنين يكمل إلى هذا القدر

وبناء على ذلك فالزيادة الممكن اضافتها على مرتبات هؤلاء الخدمة جميعهم بمساجد مصر وبولاق بحسب هذا الترتيب هي ما يأتي:

قيمة الزيادة المطلوبة		الجاري صرفه الآن	المقتضى ربطه بحسب المشروع		القيمة الشهرية			الذين لم يصبهم شيء من هذه الزيادة بحسب القاعدة
جملة	مفردات	جنيه	جنيه	عدد	مليم	جنيه		عدد
٨٩		١٠٩	١٩٨	١١	٥٠٠	١	مشايخ خدمة	١٠
							مدرسين	
	٢٨٩	٢٨١	٥٧٠	١٩	٥٠٠	٢	حائزين لشهادة العالمية	٥
٣١٦	٢٧	٩٣	١٢٠	٤	٥٠٠	٢	غير حائزين لشهادات	٠
							ائمة وخطباء	
	٨٩١	٤٨٩	١٣٨٠	٤٦	٥٠٠	٢	حائزين لشهادة العالمية	١
	٩٦٣	٧٢٩	١٦٩٢	٩٤	٥٠٠	١	حائزين لشهادة الاهلية	٨
٢٦٦٨	٨١٤	٩٦٢	١٧٧٦	١٤٨	٠٠٠	١	غير حائزين لشهادات	٢٠
							مؤذنين وميقاتية	
	١٥٥	٣٢٥	٤٨٠	٤٠	٠٠٠	١	بالمساجد الشهيرة	
١١٩٤	١٠٣٩	١٦٠٧	٢٦٤٦	٢٩٤	٧٥٠		بباقي المساجد	١٣
١٧٨		٣٠٨	٤٨٦	١٦٢	٢٥٠		قراء السورة والمرقيين	٢٥
١٧٧٥		٣٤٧٢	٥٢٤٧	٥٨٣	٧٥٠		خدمة	١١٤
٤٦٣		٢٣٣	٦٩٦	٢٩	٠٠٠	٢	متعهدي اقامة الشعائر	١
جنيه		جنيه	جنيه	عدد				عدد
٦٦٨٣		٨٦٠٨	١٥٢٩١	١٤٣٠				١٩٧

فمبلغ الستة آلاف وستماية وثلاثة وثمانين جنيها هو اللازم زيادته على ماهيات خدمة المساجد بمصر على الكيفية التي توضحت ونؤمل التصريح لنا بمبلغ ٣١٧ جنيها لتوزيعه بمعرفتنا على بعض الوظائف التي لم ينلها شيء من هذه القاعدة بحسب ما نراه من الضرورة والاهمية فيكون المقتضى التصريح به من المجلس مبلغ سبعة آلاف جنيه وهو المخصص لمساجد مصر في القرار السابق

بناء عليه قد تحررت هذه المذكرة للنظر وتقرير ما يتراءى . اه

فتاوى الاستاذ الامام

هذه الفتاوى قسمان : رسمية وغير رسمية ، فالرسمية مقيدة بمذهب الحنفية ، وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي ، فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى ، وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله ﷺ نصاً أو اقتضاء

والحكومة تستفتي مفتي الديار المصرية في الحكم بالاعدام الذي تصدره محاكم الجنايات لا يبيح لها القانون تنفيذه إلا بعد استفتائه ، لانها عند وضع قانون العقوبات أرادت تقييد هذا الحكم بموافقة الشرع الشريف

وكان المفتون السابقون قد تتابعوا على كتابة عبارة واحدة في جواب كل استفتاء يأتيهم من قبل محكمة الجنايات بحكم الاعدام حاصلها « اذا ثبت على هذا الرجل انه قتل الآخر عامداً متعمداً بشرطه حكم بقتله وإلا فلا » فلما جاء الاستاذ الامام عرض عليه كاتب الافتاء أول استفتاء في ذلك مع الجواب المحفوظ عنده عن المفتين السابقين ، ظانا انه لا يلبث أن يوقع عليه بامضائه ! ولكنه فاجأه بالانكار واستغراب كتابة جواب واحد منهم عن أسئلة مختلفة في أحكام قد يكون بعضها خطأ وبعضها صوابا ، وأملى عليه كتابا فحواه: انه لا يمكن أن يفتي في هذا الحكم إلا بعد الاطلاع على وقائع الدعوى وبيناتها والمستندات والحيثيات التي بني الحكم عليها ، وطلب ارسال صورة صحيحة من ذلك اليه . فأرسلتها اليه المحكمة فقرأها بدقته المعروفة لخواص الناس من القضاة وغيرهم ، ثم أفتى بما ظهر له من الحق فيها مبينا أدلته الشرعية والقانونية فكانت فتواه محل الاعتبار ، وأما فتاوى غيره فكانت صورية لا يعتد بها

وقد استفتته وزارة الحقانية فيما يكثر من شكوى الأزواج من أحكام المحاكم الشرعية في النفقات الزوجية في الاحوال المختلفة التي بين المهم منها في تقريره المعروف وما في مذهب الحنفية فيها من الشدة ـ فأفتاها في ذلك فتوى طويلة شرح فيها مثارات الضرر واختلال نظام البيوت (العائلات) بها ، وضمن فتواه عدة مواد في

هذا الموضوع مستنبطة من قواعد الشريعة العادلة ، وموافقة مذاهب بعض الائمة لأجل أن يكون العمل بها بعد أمر ولي الامر ، ولم يكن العمل بها متيسراً في ذلك الوقت ، ولكن الحكومة اعتمدت عليها في الاصلاح الجديد الذي قررته من عهد قريب ، ولعلنا ننشرها برمتها في ذيل هذا التاريخ .

وقد كنت عازما على الاقتصار فيه على الفتوى الترنسفالية التي اتخذها سمو الخديو ذريعة للطعن في المفتي كما تقدم شرحه ، ثم بدا لي الآن أن انشر فيه ثلاثا من الفتاوى العامة الفائدة غير المقيدة بمذهب الحنفية ، وقد كان كثيراً مايحيل عليَّ أمثال هذه الفتاوى دون موظفي دار الافتاء ، فأكتب الجواب فيقره ويمضيه برمته أو ببعض التعديل فيه ، ومنه ما أذن لي بنشره في المنار

الفتوى الاولى

قال الاستاذ الامام في مقدمة الاستفتاء الاول مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد فقد ألقى إليَّ أستاذ من أساتذة الجامع الازهر ، وهو موظف كبير في المحاكم الشرعية سؤالا وارداً من الهند الى بعض أنسبائه يطلب الجواب عليه . والسؤال موجه الى العلماء — لا الى عالم واحد — كما هو مذكور في نصه . فرأيت أن يكون الجواب عليه محتويا على مقال كثير من أفاضل العلماء . وقد انتدب حضرة حامل السؤال الى كتابة مايجده من الكتاب والسنة وأقوال علماء الحنفية في موضوعه . وأرسلت نسخة من السؤال الى حضرة الاستاذ شيخ الحنابلة في الجامع الازهر فورد منه مارأى أن يجيب به . وكلفت جماعة من أساتذة الشافعية والمالكية أن يكتبوا مايعتقدون انه الحق في جواب السؤال ، فكتبوا وأشبعوا جزاهم الله خيرا .

واني أبتديء بما أجاب به أفاضل الشافعية والمالكية بعد ذكر السؤال ، ثم أثني بجواب شيخ الحنابلة ، وأختم بمقال الاستاذ الحنفي ، ثم بما يعن لي أن أضمه الى اقوال جميعهم . والله الموفق الى الصواب وهو الهادي الى الصراط المستقيم

استعانة المسلمين بالكفار واهل البدع والاهواء

لنصرة الملة وحفظ حوزة الأمة

﴿ نص السؤال الوارد من الهند ﴾

مايقول السادة العلماء في جماعة من المسلمين يقرون انهم على عقيدة أهل السنة والجماعة ومن تابعي فقهاء الائمة الاربعة ، ويسعون في تحصيل الألفة والاتفاق بين أهل الاسلام، ويدعون أهل الثروة واليسار الى تربية أيتام المسلمين والى اشاعة الاسلام في مقابلة حملات الكتابيين وصولات الوثنيين، إلا أنهم مع ذلك يستعينون بالكفار وأهل البدع والاهواء لنصرة الملة الاسلامية، وحفظ حوزة الأمة المحمدية، وجمع شملهم واتحاد كلمتهم، فهل مثل هذه الاستعانة تجوز شرعا ؟ وهل لها نظير في القرون الثلاثة الفاضلة ، المشهود لها بالخير ؟ وهل يجوز لأحد من المسلمين أن يعارضهم في هذه الاعمال الجليلة والمقاصد الحسنة ، ويسعى في تثبيط الهمم عن معاونتهم، والتنفير من صحبتهم، نظراً الى أنهم يستعينون فيها بالكفار وأهل البدع والاهواء، ويدخلون مجالسهم ويخالطونهم لمثل هذه المصالح العامة ؟ وما حكم من يرميهم لمجرد هذه الاعمال — بالكفر والتضليل وسوء الاعتقاد والخروج عن أهل السنة والجماعة ؟

أفيدوا الجواب، ولكم الثواب.

﴿ هذا ما كتبه جماعة من أفاضل المالكية والشافعية والحنابلة ﴾

أما السعي في تحصيل الالفة والاتفاق بين أهل الاسلام فلا نزاع في أنه من أفضل الاعمال الدينية وأعظمها عند الله تعالى ، فان التآلف والتودد بين المسلمين هو مدار الايمان وأساس الاسلام ، والسبب الوحيد لنظام المدنية وقوام المجتمع الانساني ومدار سعادته في الأولى والآخرة . وقد حث النبي ﷺ على الأخذ به وبيان فوائده في كثير من الاحاديث . فمن ذلك قوله ﷺ «لاتدخلوا الجنة

حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » وقوله « لايؤمن عبد حتى يحب للناس مايحب لنفسه من الخير » وقوله « لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه » و « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « لايؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه » وقوله « نظر المؤمن الى أخيه المؤمن حباً له وشوقا اليه خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا » وقوله « أفضل الاعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً أو تقضي عنه دينا » وقوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك » وقوله « من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه » ومن تأمل في قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) وقوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) مع قوله ﷺ « لاتباغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا وكونوا عباد الله اخوانا » وقوله « دب فيكم داء الأمم ألا وهي البغضاء والحسد » و « البغضاء هي الحالقة ، ولا أقول حالقة الشعر وانما هي حالقة الدين » من نظر في ذلك كله عرف ما للسعي في تحصيل الألفة والمحبة بين الناس من المكانة في الدين، وأنه من أعظم الاعمال، وأفضل الخصال، وعرف وجه حث الشارع عليه والتنويه بشأنه وتعظيم قدره

***

وأما تربية أيتام المسلمين ودعوة المثرين اليها فمن الأمر المعروف في الدين ومن أفضل أعمال البر وأحبها عند الله تعالى ، والسنة مملوءة بطلب الرفق بالايتام والضعفاء والمساكين . ففي الحديث « ابغوني في ضعفائكم فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » وفيه « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويجل عالمنا » وفيه « من أحسن الى يتيم أو يتيمة كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » وفيه « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه ، وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم -

يساء اليه ، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا (وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى » وفيه « أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه واطعمه من طعامك » وفيه « أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عري كساه الله تعالى من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة وأيما مسلم سقى مسلما على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم » وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اذا ذكر النبي ﷺ بكى . قال كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالناس ، وكان لليتيم كالوالد وكان للمرأة كالزوج الكريم وكان أشجع الناس قلبا، وأوضحهم وجها، وأطيبهم ريحا، وأكرمهم حسبا، فلم يكن له مثل في الأولين والآخرين. الى غير ذلك من الاحاديث

أما القرآن فكثيرا ماقرن بين اليتامى وذوي القربى والمساكين وابن السبيل في مقام الأمر بالاحسان والعبادة ، قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقال (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) الى غير ذلك من الآيات

***

وأما اشاعة الاسلام في مقابلة حملات الاجانب والدعوة اليها فهي أول مسئلة من مسائل الدين وأساس وجوده وعليها حفظ كيانه وبقائه ، بل هي النوع الميسور الآن من انواع الجهاد في سبيل الله تعالى كالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون * ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

وقال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين) الى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث عن طارق قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فمر وعليه جبة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل يتبعه بالحجارة وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوه. وعن تميم الداري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الدين النصيحة» قيل لمن يا رسول الله؟ قال «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المؤمنين وعامتهم» وقال عليه الصلاة والسلام «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»

وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الاشجعي قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ «أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله تعالى عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه» فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، فقال «أبيتم؟ فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفى آمنتم، أو كذبتم» ثم انصرف ﷺ وأنا معه حتى كدنا أن نخرج، فاذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا والله ما نعلم فينا رجلا اعلم بكتاب الله تعالى ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك. قال: فاني أشهد بالله أن هذا النبي الذي تجدونه في التوراة والانجيل. فقالوا كذبت، ثم ردوا عليه وقالوا شراً، فقام رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام، فأنزل الله تعالى

(قل أرأيتم إن كان من عند الله و كفرتم به ، وشهد شاهد من بني اسرائيل على

مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدي القوم الظالمين) والآيات والاحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصر ، وليست هذه المسائل الثلاث من محل الخلاف بين العلماء ، بل هي مما اجمع الكل عليه .

***

وأما الاستعانة بالكفار وأهل البدع والاهواء على مصالح المسلمين فان كانت بأموالهم وكانت لمصلحة دينية أومنفعة دنيويةولم تشتمل على معنى الاذلال والولاية المنهي عنها فلا نزاع في جوازها ،خصوصا اذا نظرنا للكفار وأهل الذمة من جهة أنهم نقضوا العهود وتمردوا على الاحكام، فانه لابأس بتناول أموالهم والانتفاع بها متى أمنت الفتنة والرذيلة ، وقد قبل النبي ﷺ الهدية من المشركين. ففي صحيح البخاري قال ابو حميد أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء ، وكساه برداً ، وكتب له بجرهم . وعن قتادة عن انس ان أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ

وعن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل ألا نقتلها ؟ قال «لا» فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ

وعن عبد الرحمن بن ابي بكر قال: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة فقال النبي ﷺ « هل مع أحد منكم طعام » فاذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ « بيعا أم عطية ؟ » أو قال « أم هبة » قال بل بيع فاشترى منه شاة فصنعت ،وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يشوى ، وأيم الله مافي الثلاثين والمائة إلا وقد حز النبي ﷺ له حزة من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاها إياه ، وإن كان غائباً خبأ له . وطلب ﷺ من يهودي له دين على صحابي مات وترك أيتاما أن يبرئهم من الدين فما قبل ، وقصته في البخاري وفي الالوسي عند قوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين عضداً) مانصه :

وأما الاستعانة بهم في أمور الدنيا فالذي يظهر انه لابأس بها سواء كانت

في أمر ممتهن كنزح الكنائف ، أو في غيره كعمل المنابر والمحاريب والخياطة ونحوها انتهى . وكتب على قوله تعالى (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة) مانصه:

قال ابن عباس نزلت في طائفة من اليهود كانوا يباطنون نفراً من الانصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقيل لاولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لايفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن فعلهم ، وحكي في سبب نزول الآية غير ذلك ثم أفاد ان المنهي عنه من الموالاة مايقتضيه الاسلام من بغض وحب شرعيين يصح التكليف بهما، لما قالوا ان المحبة لقرابة أو صداقة قديمة أو جديدة خارجة عن الاختيار ، معفوة ساقطة عن درجة الاعتبار ، وحمل الموالاة على مايعم الاستعانة بهم في الغزو مما ذهب اليه البعض ومذهب الحنفية وعليه الجمهور انه يجوز ويرضخ له . وما روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : خرج رسول الله ﷺ ببدر فتبعه رجل مشرك كان ذاجرأة ونجدة ففرح أصحاب النبي ﷺ حين رأوه ، فقال له النبي ﷺ « ارجع فلن أستعين بمشرك » فمنسوخ لان النبي ﷺ استعان بيهود بني قينقاع ورضخ لهم ، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن

وذكر بعضهم جواز الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق ، أما بدونها فلا تجوز وعلى ذلك يحمل خبر عائشة . وكذا مارواه الضحاك عن ابن عباس في سبب نزول الآية وبه يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز ،على ان بعض المحققين ذكر ان الاستعانة المنهي عنها انما هي استعانة الذليل بالعزيز ، وأما اذا كانت من باب استعانة العزيز بالذليل فقد أذن لنا فيها ،ومن ذلك اتخاذ الكفار عبيداً وخدماء ونكاح الكتابيات منهم وهو كلام حسن كما لايخفى اه

ومما أشار اليه من أدلة المنع والجواز مارواه احمد ومسلم ان النبي ﷺ قال للرجل الذي تبعه « ارجع فلن أستعين بمشرك» ثم تبعه فقال له « تؤمن بالله ورسوله ؟» قال نعم ، فقال له « فانطلق » وعن الزهري ان النبي ﷺ استعان بناس من اليهود في خيبر وأسهم لهم

وان قزمان خرج مع أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد وهو مشرك فقتل ثلاثة من بني عبد الدار حملة لواء المشركين حتى قال ﷺ « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » كما ثبت ذلك عند أهل السير ، وخرجت خزاعة مع النبي ﷺ على قريش عام الفتح .

وقد تصدى أئمة الحديث والفقهاء إلى الجمع بين هذه الآثار بأوجه، منها ماتقدم(ومنها)ماذكره البيهقي عن نص الشافعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ تفرس الرغبة في الذين ردهم فردهم رجاء أن يسلموا (ومنها) أن الأمر في ذلك الى رأي الامام (ومنها . ان الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيها. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير: وهذا أقربها وعليه نص الشافعي . وحكى في البحر عن العترة ، وأبي حنيفة وأصحابه انه تجوز الاستعانة بالكفار والفساق حيث يستقيمون على أوامره ونواهيه واستدلوا باستعانته ﷺ بناس من اليهود ، وبصفوان بن أمية يوم حنين . قال في البحر : وتجوز الاستعانة بالمنافق إجماعا لاستعانته ﷺ بابن أبي واصحابه . انظر نيل الاوطار .

وفي الالوسي عند قوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) مامفاده وفي الآية دليل على مشروعية التقيــة ، وعرفوها بالمحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الاعداء سواء كانت عداوتهم مبنية على اختلاف الدين كالكفر والاسلام أو على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والملك والامارة — الى أن قال : وعد قوم من باب التقية مداراة الكفار والفسقة والظلمة ، وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم، والانبساط اليهم، واعطاءهم لكف أذاهم وقطع لسانهم وصيانة العرض ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها ، بل هي سنة وأمر مشروع . وقد روى الديلمي عن النبي ﷺ انه قال « ان الله تعالى أمرني بمداراة النــاس كما أمرني باقامة الفرائض » وفي رواية « بعثت بالمدارة » وفي الجامع « سيأتيكم ركب مبغضون فاذا جاءوكم فرحبوا بهم » وروى ابن أبي الدنيا : رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى مداراة الناس . وفي رواية البيهقي : رأس العقل المداراة ، وأخرج الطبراني « مداراة الناس صدقة » وأخرج ابن عدي وابن عساكر :

من عاش مداريا مات شهيداً ، قوا بأموالكم اعراضكم ، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ « بئس ابن العشيرة أو اخو العشيرة » ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج قلت: يارسول الله ، قلت ماقلت ثم ألنت له القول؟ فقال ياعائشة « ان من شر الناس من يتركه الناس او يدعه الناس اتقاء فحشه »

وفي البخاري عن أبي الدرداء « إنا لنكشر في وجوه اقوام وان قلوبنا لتلعنهم » وأخرج ابن أبي شيبة عن شعيب قال : كنت مع علي بن عبد الله فمر علينا يهودي او نصراني فسلم عليه، قال شعيب: فقلت إنه يهودي أو نصراني؟ فقرأ علي آخر سورة الزخرف (وقيله يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون*فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) .

وقيل لعمر بن عبدالعزيز: كيف تبتديء اهل الذمة بالسلام؟ فقال : ماأرى بأسا ان نبتدئهم . قلت لم ؟ قال لقوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) وروى البيهقي : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بد له من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجا

الى غير ذلك من الاحاديث غاية الأمر، لاتنبغي المداراة الى حيث يخدش الدين ، ويرتكب المنكر ، وتسيء الظنون .

اذا علمت ذلك ، فالاستعانة بالكفار واهل البدع والاهواء المشار اليها في السؤال متى خلت عما أومأنا اليه فلابأس بها، بل هي من الامر المشرع كما تقدم، وقد علمت نظيرها في القرون الفاضلة المشهود لها بالخير ،متى كانت الاستعانة من هؤلاء لنصرة الملك وحفظ حوزة الملة ، وحينئذ لايجوز لاحد من الناس أن يعارضهم في هذه الاعمال الجليلة، ويسعى في تثبيط الهمم عن معاونتهم ، بل الواجب على كل واحد من أفراد الامة أن يشاركهم في هذا العمل لانه من البر والخير، وقد قال تعالى (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)وقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان)«والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ـ والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه »

وأما حكم من يرميهم بالكفر والتضليل وسوء الاعتقاد ، فان كان يعتقد أنهم كفار حقيقة بمثل هذا العمل ، وانهم خرجوا عن دين الاسلام بمجرد ذلك فحديث « إذا قال الرجل لاخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » ظاهر في تكفير هؤلاء المضللين . وقد نص شراح الحديث وعلماء الامة على الاخذ بظاهر هذا الحديث بالقيد المذكور ، وان قصدوا ان هؤلاء بولايتهم للكفار واستعانتهم بهم يفعلون فعل الكفار وليسوا بكفار حقيقة ، فمع افترائهم وجهلهم بالدين قد أثموا وارتكبوا جريمة تقرب من الكفر بهذه الكلمة الشنيعة التي لاتصدر من مسلم فضلا عن عالم . وفي الحديث « أبغض عباد الله إلى الله طعان لعان ، وان من أخلاق المؤمن أن لايحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، ولا يضيع مااستودع ولا يحسد ولا يطعن ولا يلعن ، ويعترف بالحق وان لم يشهد عليه ، ولا يتنابذ بالالقاب ، في الصلاة متخشعاً ، إلى الزكاة مسرعا ، في الزلازل وقوراً ، في الرخاء شكوراً ، قانعاً بالذي له ، لايدعي ماليس له ، ولا يجمع في الغيظ ، ولا يغلبه الشح عن معروف يريده ، يخالط الناس كي يعلم ويناطق الناس كي يفهم ، وان ظلم وبغي عليه صبر ، حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له » هذه هي أخلاق المؤمنين حتى إذا خرجوا منها فسدت أخلاقهم ، وانطفأ نور إيمانهم ، ونقضوا عرى الاسلام عروة عروة ، حتى لايبقى منه شيء نسأله السلامة

وفي الفروق القرافية: اعلم أن النهي يعتمد المفاسد ، كما ان الاوامر تعتمد المصالح ، فأعلى رتب المفاسد الكفر وأدناها الصغائر ، والكبائر متوسطة بينهما وأكثر التباس الكفر انما هو بالكبائر ، فأعلى رتب الكبائر يليها أدنى رتب الكفر وأدنى رتب الكبائر يليها أعلى رتب الصغائر ، وأصل الكفر انما هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية ، اما بالجهل بوجود الصانع او صفاته العلى ، أو جحد ماعلم من الدين بالضرورة . قال ابن رشد: لايحكم على أحد بالكفر إلا من ثلاثة أوجه وجهان متفق عليهما ، والثالث مختلف فيه ، فاما المتفق عليهما (فاحدهما) أن يقر على نفسه بالكفر بالله تعالى (والثاني) أن يقول قولا قد ورد السماع وانعقد الاجماع ان ذلك لايقع إلا من كافر ، وان لم يكن ذلك في نفسه كفراً على الحقيقة

وذلك نحو استحلال شرب الخمر، وغصب الاموال، وترك فرائض الدين، والقتل، والزنا، وعبادة الاوثان، والاستخفاف بالرسل، وجحد سورة من القرآن، وأشباه ذلك مما يكون علامة على الكفر وان لم يكن كفراً على الحقيقة (والثالث) المختلف فيه أن يقول قولا يعلم أن قائله لا يمكنه مع اعتقاده والتمسك به معرفة الله تعالى والتصديق به، وان كان يزعم أنه يعرف الله تعالى ويصدق به . وبهذا الوجه حكم بالكفر على أهل البدع من كفَّرهم، وعليه يدل قول مالك في العتبية: ما آية أشد على أهل الاهواء من هذه الآية (يوم تبيضُّ وجوه وتسوَدُّ وجوه) انظر فتاوى أبي عبد الله

والحاصل ان هؤلاء المضلين المكفرين قد ارتكبوا بهذه الكلمة كبيرة من الكبائر التي تفضي إلى الكفر إن لم يكونوا معتقدين كفر هؤلاء الجماعة المتمسكين بعقائد أهل السنة وأعمال الاسلام والمسلمين . ولعلهم ان شاء الله تعالى يكونون كذلك غير معتقدين كفر هؤلاء، وانما نطقوا بهذه الكلمة تعصباً وعناداً ظاهريا، فان باب التكفير باب خطر ينبغي الاحتراز عنه ما وجد اليه سبيل، ولا يعدل بالسلامة شيء، وان كان قولهم بالكفر من الجهل العظيم، والاقدام على شريعة الله تعالى وأحكامه بالجهالة، وعلى عباده بالفساد والظلم والعدوان. وأما ان كانوا يكفرون أولئك الساعين في الخير وهم يعتقدون انهم كفار حقيقة فيكونون هم الكافرين كما سبق في أول الكلام للحديث، ومع ذلك نسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح حالهم وينقذهم من هذه الضلالة ويهديهم إلى الصراط المستقيم

* * *

وهذا ما كتبه شيخ الحنابلة :

الحمد لله وحده

الحكم عندنا معاشر الحنابلة ان الشرع الشريف ألزمنا أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة إلا اذا عرض نفسه للكفر وكفر بمخالفة ما شرعه لهذه الامة سيد البشر ﷺ وكان المخالف فيه مجمعاً عليه من علماء أهل السنة. والجماعة المتصفون

بهذه الصفات الممدوحة شرعا من تحصيل الاتفاق والائتلاف بين فرق أهل الاسلام من غير اختلاف وشقاق وغير ذلك من بقية الصفات التي حث عليها الشارع ليسوا كذلك ، وإن استعانوا بالكفار في تحصيل مصالح المسلمين العامة كالصنائع والجهاد وغيرهما . فان الصنائع مأمور بها شرعا وقد اتصف بها آدم ومن بعده من الانبياء والمرسلين كما نص عليه ابن عباس

وقد نقل المروذي عن الامام احمد انه قال في قوم لايعملون ويقولون نحن متوكلون: هؤلاء مبتدعة . واستعانة المسلمين بالكفار جائزة في الجهاد للضرورة كضعف المسلمين ، ولو كان العدو من بغاة المسلمين،لما روى الزهري أن رسول الله ﷺ استعان بناس من اليهود في حربه فأسهم لهم . رواه سعيد بن منصور. واذا جازت الاستعانة بالكفار في الجهاد فتجوز الاستعانة من المسلمين بهم في غيره مما فيه مصلحة لعموم المسلمين بجامع أن كلا من المصالح العامة. وتكفير علماء أهل السنة والجماعة بالاستعانة باهل البدع والاهواء ودخولهم في مجالسهم واختلاطهم معهم في هذه المصالح العامة لايجوز شرعا

وإن قال ابن مفلح في الفروع أن الاستعانة بهم مختلف فيها قيل بالجواز وقيل بالمنع ، بل مكفروا هؤلاء العلماء هم الكفار

قال في منتهى الارادات وشرحه للبهوتي وعن الامام احمد : ان الذين كفروا أهل الحق والصحابة كفار ، قال المنقح وهو أظهر من القول بانهم فسقة خوارج بغاة . وقال في الانصاف والقول بتكفيرهم هو الصواب وهو الذي ندين الله به اه . وقال ابن مفلح في الفروع : وعن الامام احمد أنهم كفار ، وقال في الترغيب والرعاية انه الاشهر ، وذكر ابن حامد انه لاخلاف فيه ، وفي الحديث الشريف الصحيح ان من كفر أحداً بلا تأويل فقد كفر

وقال الشيخ برهان الدين الحلبي : ومن كفر أخاه المسلم بغير تأويل فهو كافر يجب عليه تجديد الاسلام،والتوبة من ذلك وتجديد نكاحه إن لم يدخل بزوجته ، وكذا إن دخل بها عند ابي حنيفة . وأما عندنا فالعصمة باقية إن عاد إلى الاسلام بالتوبة قبل انقضاء العدة،فيجب على المسلم أن يصون من التكفير بغير

موجب قطعي كل فرد من أفراد أمة محمد ﷺ ومرتكب ذلك لغرض نفسه لاريب هو من الضالين الممقوتين والله ولي المتقين

وقد روى ابو داود باسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من أصل الايمان الكف عمن قال لاإله إلا الله لانكفره بذنب ولا نخرجه عن الاسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والايمان بالاقدار والله أعلم»

احمد البسيوني الحنبلي بالازهر

وهذا ما كتبه الاستاذ الفاضل الحنفي:(*)

الحمد لله وحده

قال الله تعالى في كتابه العزيز (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقال عز من قائل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال مخاطباً لصفوته من خلقه ﷺ (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال في محكم آياته (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) وهي آية محكمة لم تنسخ على ما عليه أكثر أهل التأويل. وقال ﷺ «المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» وقال عليه السلام «ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وهو في الصحيحين

إذا تمهد هذا فنقول: أما تكفير المؤمن فان مذهب أهل الحق عدم جوازه بارتكاب ذنب ليس من المكفرات صغيراً كان الذنب أو كبيراً، عالماً كان مرتكبه أو جاهلا، وسواء كان من أهل البدع والاهواء أو لا. نص عليه عبد السلام شارح الجوهرة عند قول المصنف * فلا نكفر مؤمنا بالوزر *

وقال في الدر المختار في باب المرتد: لا يفتى بالكفر بشيء من ألفاظه إلا فيما اتفق المشايخ عليه. وقال في جامع الفصولين: لا يُخرِج الرجل من الايمان

(*) هو الاستاذ الشيخ محمد الطوخي رحمه الله

الا جحود ما أدخله فيه ، وما يُشك في انه ردة لا يحكم به ،إذ الاسلام الثابت لا يزول بالشك مع ان الاسلام يعلو ،وينبغي للعالم إذا رفع اليه هذا أن لا يبادر بتكفير أهل الاسلام اه

وقال في الفتاوى الصغرى : الكفر شيء عظيم فلا أجعل المؤمن كافراً متى وجدت رواية انه لا يكفر .وقال في الخلاصة وغيرها:إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنعه ، فعلى المفتي أن يميل إلى الذي يمنع التكفير تحسيناً للظن بالمسلم . وقال في التتارخانية لا يكفر بالمحتمل،لان الكفر نهاية العقوبة فيستدعي نهاية الجناية ، ومع الاحتمال لا نهاية

وفي رد المحتار من باب البغاة مايفيد اجماع الفقهاء المجتهدين على عدم تكفير أهل البدع ، قال وان مايقع من تكفير أهل مذهب لمن خالفهم ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون بل من غيرهم ، ولا عبرة بغير الفقهاء .

وفي الدر وحواشيه من باب الامامة : من صلى الى قبلتنا لا يكفر بالبدعة حتى الخوارج الذين يستحلون دماءنا وأموالنا وسب أصحاب الرسول ﷺ غير الشيخين ، وينكرون صفاته تعالى وجواز رؤيته لكونه عن تأويل وشبهة . والمراد بالخوارج من خرج عن معتقد أهل الحق لا خصوص الفرقة التي خرجت على علي فيشمل المعتزلة والشيعة .

***

مطلب الاستعانة بالكفار وأهل البدع والاهواء

وأما الاستعانة بالكفار وبأهل البدع والاهواء على نصرة الملة الاسلامية فهذا مما لا شك في جوازه وعدم حظره ، يرشد الى ذلك الحديث الصحيح المار ذكره « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وقول ﷺ « انه ليؤيد الاسلام برجال ماهم من أهله » وقال في الدر المختار في كتاب الغنائم عند قول المصنف : أو دل الذمي على الطريق — ومفاده جواز الاستعانة بالكافر عند الحاجة ، وقد استعان عليه الصلاة والسلام باليهود على اليهود ورضخ لهم

وفي شرح العيني على البخاري أن النبي عليه السلام استعان بصفوان بن أمية في هوازن واستعار منه مائة درع وهو مشرك اه

وفي المحيط من كتاب الكسب: ذكر محمد في السير الكبير : لا بأس للمسلم أن يعطي كافراً حربياً أو ذمياً وأن يقبل الهدية منه لما روى ان النبي ﷺ بعث خمسمائة دينار الى مكة حين قحطوا، وأمر بدفعها الى أبي سفيان بن حرب وصفوان ابن أميـة ليفرقاها على فقراء أهل مكة، ولأن صلة الرحم محمودة في كل دين ، والاهداء الى الغير من مكارم الاخلاق

وفي شرح السير الكبير السرخسي : لا بأس أن يصل الرجل المسلم المشرك قريباً كان أو بعيداً محاربا كان أو ذميا . وفي الدر المختار من كتاب الوصايا : أوصى حربي أو مستأمن لا وارث له هنا بكل ماله ـ يعني لمسلم صح ، وكذا لو أوصى له مسلم أو ذمي جاز

ثم قال: وصاحب الهوى اذا كان لا يكفر فهو بمنزلة المسلم في الوصية . وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى (انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ـ الى قوله تعالى ـ أن تولوهم) قال أهل التأويل هذه الآية تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين وإن كانت الموالاة منقطعة اه

وفي البخاري مايدل على وصية عمر رضي الله عنه بالقتـال عن أهل الذمة وأن لا يكلفوا إلا طاقتهم اه

هذه هي نصوص الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل التفسير في وجهي السؤال وبها تندفع كل شبهة في عمل هؤلاء الموفقين لخير أهل الملة الحنيفية السمحاء العاملين على تحصيل الائتلاف والاتفاق بين فرق أهل الاسـلام الداخلين بتربية أيتام المسلمين في قوله ﷺ كما في صحيح البخاري « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» ـ وقال باصبعيه السبابة والوسطى ـ المجاهدين بعملهم هذا لاعلاء كلمة الله ونصرة الموحدين، ولا يمنع من صحة عملهم دخولهم في مجالس أهل البدع واختلاطهم معهم في هذه المصالح العامة متى كانت نيتهم تحصيل ذلك الخير العام. فان الاعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى ، والله تعالى أعلم .

﴿ ما حققه الاستاذ الامام نفسه في المسألة ﴾

هذا ماذكره هؤلاء الافاضل ثم نقول : المطلع على مانقله حضرات الاساتذة من علماء الجامع الازهر من نصوص الكتاب والسنة وأقوال الائمة والعلماء من أهل المذاهب الاربعة يعلم حق العلم أن ما يفعله أولئك الافاضل دعاة الخير هو الاسلام ، ومن أجل مظاهر الايمان ، وان الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود لله وخرجوا عن أحكام دينه القويم

أولئك الدعاة إلى الخير قاموا بأمر الله في قوله (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وأما خصومهم فقد خالفوا نهي الله سبحانه في قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وإن كانوا يعتقدون كفر اولئك المؤمنين حقيقة فالمفتى به عند الحنفية انهم يكفرون بذلك لاعتدادهم الايمان وأعماله كفراً وهو جحود لما جاء به محمد ﷺ . وإن كانوا يقولون ذلك نبزاً بألسنتهم فأخف حالهم ان يدخلوا في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وقد قال الله فيهم (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) لانهم يضللون من يؤمن بالله واليوم الآخر وبما جاء به محمد ﷺ ويرمونهم بالفسق في اعمالهم ، وهو اشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وما أعظم الوعيد عليه في قوله (لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) فهو من فظائع الكبائر .

بقي ان بعض الجهلة المتشدقين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم) الى آخر الآية . وقوله تعالى (ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولامنهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) وقوله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم) وقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن

تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) وما لم أتذكره مما قد يكون فاتني من الآيات التي تصرح أو تشير إلى النع من موادة المؤمنين لغير المؤمنين ، على انه لاشبهة لهؤلاء الجهلة في مثل هذه الآيات تسوغ لهم تفسيق اخوانهم او تكفيرهم بعد ماجاء في الآية المحكمة من قوله تعالى (لاينها كم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين * انما ينها كم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون) وبعد ماجاء من القصص الذي قصه الله علينا لتكون لنا فيه أسوة إذ قال (وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) وبعد ما أباح الله لنا في آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات ، ولا يكون نكاح في قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة ، ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة .

وحقيقة ماجاء في الآيات الدالة على النهي عن موالاة غير المؤمنين او موادة الفاسقين والمحادين الله تعالى انه نهى عن الموالاة في الدين ، ونصرة غير المؤمن على المؤمن فيما هو من دينه، وامداد الفاسق بالمعونة على فسقه ، وعن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين يكون من صفتها انها تبذل وسعها في خذلانهم وإيصال الضرر اليهم، فيكون ادلاء المؤمنين اليها باسرارهم واتخاذها عضداً لهم في أعمالهم ، اعانة لها على الايقاع بهم، اما إذا أمن الضرر وغلب الظن بالمنفعة ولم يكن في الموادة معونة على تعدي حدود الله ومخالفة شرعه فلاخطر في الاستعانة بمن لم يكن من المسلمين ، او لم يكن من الموفقين الصالحين ممن يسمونهم أهل الاهواء ، فان طالبا طالب الخير يباح له بل ينبغي له أن يتوسل اليه باية وسيلة توصل اليه ما لم يخالطها ضرر للدين وللدنيا

وقد بينت السنة وعمل النبي ﷺ ماصرح به الكتاب في قوله (لاينها كم الله) الخ . ولقد كانت لنا أسوة حسنة في استعانة رسول الله ﷺ بصفوان بن أمية في حرب هوازن وفي غيرها من الوقائع كما هو معروف في السنة ثم كان في

سيرة الخلفاء الراشدين من لدن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى علي كرم الله وجهه مافيه الكفاية لمسترشد إذا استرشد ، فقد أنشأ عمر رضي الله عنه الديوان ونصب العمال ، واحتاج المسلمون إلى من يقوم على العمل في حساب الخراج وما ينفق من بيت المال ، واحتاجوا إلى كتاب المراسلات والقوم أميون لا يستطيعون القيام بما كان يطلبه العمل من العمال ، فوضعوا ذلك كله في أيدي أهل الكتاب من الروم وفي أيدي الفرس ، ولم يزل العمل على ذلك في خلافة بني أمية بعد الراشدين إلى زمن عبدالملك بن مروان ، ولا شك في ان هذا استعانة بغير المسلمين على أعمال هي من أهم أعمالهم ، فكيف ينكر هؤلاء الجهال جواز تلك الاستعانة؟ بل قد استعان كثير من ملوك المسلمين بغير المسلمين في حروبهم ، وانا نذكر ما قال ابن خلدون في ذلك كله قال في باب ديوان الاعمال والجبايات:

« وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ، ولما جاء عبدالملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان أمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الاردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فاكمل لسنة من يوم ابتدائه ، ووقف عليه سرحون كاتب عبدالملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم

« وأما ديوان العراق فامر الحجاج كاتبه صالح بن عبدالرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله . ولما قتل زادان في حرب ابن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل ، ورغم لذلك كتاب الفرس اهـ

وقال في الكلام على الوزارة « وأما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده ، وكان

قليلا فيهم . واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم التي امتازوا بها ، وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم يكن عندهم رتبة خاصة للامية التي كانت فيهم ، والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ، ولم تخرج السياسة إلى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الكلية في شيء ، وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها لان الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ، ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته من عماله من يحسنه اهـ

وقال في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها :

(فصل) ولما ذكرناه من حرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم ، واختصوا بذلك لان قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر ، والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردءاً للمقاتلة أمامه ، فلا بد وان يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف وهم الافرنج ، ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها ، هذا على ما فيه من الاستعانة باهل الكفر ، وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الاجفال على مصاف السلطان ، والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم اهـ

وجاء في الاحكام السلطانية لقاضي القضاة ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي في الكلام على وزارة التنفيذ « وهذا الوزير وسط بين الامام وبين الرعايا والولاة يؤدي ما أمر ، وينفذ عنه ما ذكر ، ويمضي ما حكم ، ويخبر بتقليد الولاة ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ما ورد من مهم ، وتجدد من حدث ملم ، ليعمل فيه ما يؤمر به ، فهو معين في تنفيذ الامور وليس بوال عليها ، ولا متقلداً لها ، فان شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص ، ثم قال : ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة وإن لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم اهـ (١)

واستعانة الخلفاء من بني أمية وبني العباس بارباب العلوم والفنون من الملل المختلفة فيما هو من فنونهم مما لا يمكن لصبي يعرف شيئاً من تاريخ الامة انكاره ،

(١) وفي مسودة الامام هنا زيادة في دخول خزاعة في حلف النبي (ص) مسلمهم ومشركهم وهي منقولة من سيرة ابن هشام ولم يثبتها عند تبييض الفتوى

وقد كانوا يستعينون بهم على أعين الائمة والعلماء والفقهاء والمحدثين بدون نكير،
فقد قامت الادلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين، على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين، وأن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم، وما فيه خير لهم، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الاسوة الحسنة بالنبي ﷺ وأصحابه، وان من كفرهم أو فسقهم فهو بين أحد الامرين إما كافر أو فاسق، فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم، وان يمضوا على طريقتهم، ولا يحزنهم شتم الشاتمين، ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيل لهم بالنصر، اذا اعتصموا بالحق والصبر، والله أعلم

الفتوى الثانية

طوفان نوح، هل عم الارض كلها؟

جواب سؤال ورد على الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية من حضرة الاستاذ الشيخ عبد الله القدومي خادم العلم الشريف بمدينة نابلس، وفيه نص السؤال:

وصلنا مكتوبكم المؤرخ في ٤ شوال سنة ١٣١٧ الذي أنهيتم به انه ظهر قبلكم نشء جديد من الطلبة ديدنهم البحث في العلوم والرياضة والخوض في توهين الادلة القرآنية، وقد سمع من مقالتهم الآن أن الطوفان لم يكن عاما لانحاء الارض، بل هو خاص بالارض التي كان بها قوم نوح عليه السلام، وانه بقي ناس في أرض الصين لم يصبهم الغرق، وان دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاما بل هو خاص بكفار قومه، لانه لم يكن مرسلا إلا إلى قومه بدليل ماصح «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»

فاذا قيل لهم: ان الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) وكقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) وقوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) قالوا هي قابلة للتأويل ولا حجة فيها، واذا قيل لهم إن جهابذة المحدثين أجابوا بانه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحا عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الارض، وانه يتعين

ان يكون قومه أهل الأرض ، ويكون عموم بعثته أمراً اتفاقيا لعدم وجود أحد غير قومه ، ولو وجد غيره لم يكن مرسلا اليهم-سخروا من المحدثين ، واستندوا إلى حكايات منسوبة إلى أهل الصين . ورغبتم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم ، والافادة بما يقتضيه الحق ، وتطمئن اليه القلب .

والجواب عن ذلك والحمد لله : أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الاحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، اذا عد اعتقادها من عقائد الدين

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلا قطعيا على معتقد ديني

وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الاديان وأهل النظر في طبقات الارض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الامم ، أما أهل الكتاب وعلماء الامة الاسلامية فعلى ان الطوفان كان عاما لكل الارض ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الاصداف والاسماك المتحجرة في أعالي الجبال لان هذه الاشياء مما لا تتكون إلا في البحر ، فظهورها في رءوس الجبال دليل على ان الماء صعد اليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الارض ، ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين ان الطوفان لم يكن عاما ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير انه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية ان الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين أن لا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والاحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بان الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الارض وما تحتوي عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم

الفتوى الثالثة

﴿ هي الترانسفالية التي هاجتها السياسة الخديوية ، بأقلام كتابها المأجورين، وشيوخها المداهنين ، فانكسرت دولة المال والرتب والنياشين ،وفازت دولة العلم والدين ، وكان النصر لكتابها المخلصين ﴾

قد تقدم ذكر هذه المسئلة (فى ص٥٨٦) وما قاله لي الشيخ محمد توفيق البكري من إعداد سمو الخديو لحملة من فرسان الكتاب للهجوم على المفتي في تفنيد هذه الفتوى ، واحتقاري لهذا التهديد ، ولم يلبث أن ظهر صدق قوله وصحة رأيي في احتقاري لهؤلاء الكتاب، وكونهم لا يقام لهم وزن في هذا الموضوع، فقد كتبوا وكتبنا فكنا نحن الغالبين في العلم ، وكانوا هم الراجحين في الجهل ، حتى ان ابراهيم بك المويلحي لم يجد مايرد به على صاحب المنار إلا مثل ما كتبه في تهييج العامة عليه في حكايته لقول المفسرين في قوله تعالى (سأريكم دار الفاسقين) انها مصر في عهد فرعون موسى وأمثاله — إذ قلد السيد عبد الله نديم في قوله في أصحاب القطم انهم كانوا فقراء ، فلما استغنوا في مصر عادوا المصريين، ولكن تعبير المويلحي في الذم والتهكم آنق وأطرف كقوله في موضع: غني أو شبع «فلما لبس الحرير وتلفع بالكشمير» ومثل هذا يستطرفه بعض القراء في وقته، ويتفكهون بلفظه ، فاذا نقل في وقت آخر كان مما يسخر منه ، وكذلك اذا ترجم ، فان ما كتبوه وكتبناه في هذا الموضوع قد ترجمته جرائد المسلمين في الهند وغيرها وكانوا من أنصارنا كما سيأتي قريبا .

وأما الذي تولى كبر الارجاف، وأكثر الايضاع فيه والايجاف، وتكلف تفنيد الفتوى وتهييج العالم الاسلامي عليها فهو محمد بك أبو شادي المحامي في الجريدة التي أنشأها باسم (الظاهر) وكان يحرر معظمها له رجل اسمه الشيخ محمد الشربتلي كان طالب علم ثم دخل جماعة الدعاة الى عقيدة وحدة الوجود وأنشأ جريدة سماها (النهج القويم) كانت هي التي كتبت ان الشيخ محمد عبده صرح في درس التوحيد الذي كان يلقيه في

الازهر بنفي توحيد الله تعالى فحاكمته النيابة العامة على هذا وحبسته وسيأتي شرح هذه المسألة في محله وكان قبل حادثة الفتوى ببضع سنين ، فلما دعاه أبو شادي بك الى الكتابة في التشنيع على الفتوى في جريدة الظاهر وافق هوى في نفسه وهو لم يكن صاحب مبدإ ثابت بل كان يكتب بالاجرة لجريدتين أو أكثر من الجرائد الاسبوعية التي تعرف بالساقطة فيرد في بعضها على ما كتبه هو نفسه في الآخرى

وكانت جميع جرائد مصر اليومية والسياسية تنتصر للاستاذ الامام وتنشر لانصاره كل مايكتبون إلا المؤيد واللواء حتى أن أبا شادي بك رفع قضية على جريدة مصورة منها لانها حقرته فيما صورت به تهجمه على فضيلة المفتي ، ولكن الذي كان يغيظه من هذه الصحف مجلة المنار لقوة حجتها ، وسيأتي ماقاله في صاحبها ، وجريدتا الاهرام والمقطم لسعة انتشارهما ، مع قلة انتشار جريدته وكراهة الناس لها بعد تصديها للرد على الاستاذ الامام ، كما ذكر ذلك يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي في التقرير الذي رفعه الى المابين الهمايوني في شأن عداوة الخديو للمفتي وقد تقدم (ص ٥٦٤)

تقرير أبي شادي في الفتوى الترانسفالية

ولما وجد ان ماينشره في جريدته قلما يقرأه الناس كتب في المسألة تقريرا يحرض به العالم الاسلامي كله على المفتي جعل عنوانه (تقرير ملي) يتضمن كذا « مرفوع بكل تجلة واحترام لأئمة الدين الاعلام ، وعيالم علماء الاسلام ، في الاستانة العلية ومصر والهند وتونس والغرب الاقصى وايران وافغانستان وبلاد العرب . من واضعه خادم الملة والدين المتفاني في الاخلاص لكافة اخوانه المسلمين »!!

وطبع هذا التقرير في ٢٩ شوال سنة ١٣٢١ وهو يشبه التقارير التي يكتبها أمثاله من المحامين في القضايا المهمة التي يوكلون فيها وإن كانوا يعتقدون بطلان موكلهم فيها ، فهم يعتمدون فيها على تأثير العبارات الخطابية والشعرية التي يرجون أن تؤثر في نفس القضاة غير المدققين ، ففي هذا التقرير من مدح نفسه ووصفها بالغيرة على الاسلام وحبه للمسلمين وحرصه على شريعتهم التي وقعت في خطر عظيم من هذه الفتوى ووقعوا هم تحتها أيضا — ما يسخر منه العقلاء

وأما المسائل التي ينقلها فيها من كتب التفسير والفقه ففيها من الحجة عليه ماليس يفهمه أو مايفهم بعضه ويحاول اضلال قراء تقريره عن فهمه بمثل ما يحاول أمثاله إضلال القضاة في مرافعاتهم وتقاريرهم في الدعاوي التي يحامون عن أصحابها

وأهم ذلك كله انه جعل البقر الذي يضرب على رأسه ثم يذبح من الموقوذة وكان أكثر مانشره في جريدة الظاهر بقلمه أو قلم الشربتلي أو غيره تحت هذا العنوان الذي يوضع بقلم الثلث الكبير (الموقوذة) وانما الموقوذة ماضرب بغير محدد كالخشب والحجارة حتى انحلت قواه ومات، وموضوع الفتوى بقر يضرب على رأسه بالبلطة (ويسميها الشاقور) حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت. فالضرب بالبلطة وهي حديدة تشحذ وتمتهى كالسكين ليس من أسباب الوقذ، فلو مات الثور أو البقرة بالضرب بها لاتسمى وقيذاً في اللغة فكيف اذا ذبح كما ان مايضرب بغير المحدد كالعصي والحجارة اذا ذبح قبل أن يموت لا يسمى وقيذاً فهو حلال بنص القرآن فانه قال في الموقوذة واخواتها (إلا ماذكيتم) أي أتممتم قتله بالذبح مثلا قبل أن يموت. وهو ينقل هذه الاقوال عن المفسرين والفقهاء ولكنها يزيد على البلطة والشاقور فيعده منها بجهله أو توهمه ان القاريء يغتر بذلك ويقبله، وانما يقبله العامي الجاهل دون العلماء

ومن الغريب انه جعل التقرير في إنكار الفتوى الترانسفالية برمتها حتى صلاة الشافعي خلف الحنفي ولكنه أجمل الكلام في هذه المسألة مع إنكاره لجوازها وفي مسألة البرنيطة وفصله في مسألة الموقوذة · ووعد بتفصيل المسألتين الاخريين في فرصة أخرى بعد أن يرى تأثير كلامه في المسألة الاولى مسألة الموقوذة

ومسألة صلاة المنتسبين الى المذاهب بعضهم مع بعض قد جرى عليها العمل في بلاد الاسلام سلفا وخلفا في جميع الاقطار على صلاة بعضهم مع بعض ولا سيما مذاهب أهل السنة بل صرح أعلام أهل السنة بجواز الصلاة خلف إمام الصلاة المبتدع كالرافضي والخارجي وكذا الفاسق وان كان بعض المتنطعين في التقليد ذكروا وجهين في المسألة بناء على قاعدتين إحداهما ان العبرة في الصلاة برأي الامام والثانية ان العبرة برأي المأموم. ولكن العمل جرى على صلاة بعضهم مع

بعض وعدم التفريق بين المسلمين في أكبر مظاهر الاسلام الجامعة وهو الصلاة. أي على ان العبرة باعتقاد الامام فاذا كانت صلاته صحيحة في مذهبه جاز لمخالفه فيه أن يقتدي به

بضع جمل من تقرير ابي شادي

وانني أنقل بعض عبارات هذا التقرير لاجل العبرة به مع إعلام قارىء هذا التاريخ انه لم يبلغنا انه كان له أدنى قبول عند أحد من علماء المسلمين الذين أرسلت اليهم الالوف منه في جميع الاقطار. وان علماء مصر وغيرها من الاقطار قد أيدوا فتوى مفتي الديار المصرية كما سيأتي. وأبو شادي بك وعد بنشر كل مايرسله اليه العلماء وغيرهم من الانكار على الفتوى ولم ينشر شيئاً لانه لم يجئه شيء، ونحن قد نشرنا بعض ما أرسل الينا من غير طلب وعندنا مالم ننشره إلى الآن

(١) قال أبو شادي بك في أول مقدمة تقريره « اليكم ياحماة الملة وعلماء الدين وعواهل الامة المحمدية وحراس شريعتها يرفع هذا العاجز تقريراً مشتملا على واقعة حال ترونها أمام أنظاركم من اعظم الوقائع وأشدها على الافئدة المؤمنة، ترونها تظهر أمامكم ممثلة بعض ما يتوخاه المعبدون من فرط التهاون بفروع الملة وأحكامها ويدعون انهم نصراء الزمان والمكان وأعوان الحياة الراقية، وكأنها تستدعي في نظرهم هدما للملة بمعاول التطوف الشديد، وزلزلة في أرض الوجود الاسلامي شرقا وغربا. ترونها وهي تملى عليكم عبارات تسيل بها عبرات العيون، ويتوجع بها كل فؤاد حي محزون، هي الواقعة ذات الضجة الهائلة والصلصلة المستمرة، فصلناها لكم رجاء أن تعيروها آذانا صاغية، وأفئدة واعية، الخ

وتلا هذا ذكر عداوة الغرب للشرق وتربصه الشر به، وان أدنى بدعة في الاسلام تمكن الغرب من مقتل الشرق بهدمها لاركان الاسلام، كأن القول بجواز الاكل من ذبيحة نصارى الافرنج بدعة أو أول بدعة حدثت في المسلمين، وانها وإن كانت في مسالة فرعية لابد أن تفضي إلى هدم أركان العقائد وتمكين الغرب من ازالة الاسلام من الارض. والواقع ان البدع في بلاد المسلمين قديمة ومنها ماهو مخل بالعقائد وهي على كثرتها في هذه البلاد وغيرها لم يسمع احد من أبي شادي ولم يقرأ أحد من كلامه المكتوب كلمة واحدة في إنكار شيء منها، وانما القائمون

يهذا في هذه البلاد هم جماعة الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية

(٢) ثم قال « فيا حماة الملة ، ويا أنصار المروءة والشهامة ، ويا أساطين الدين» اليكم نسوق الحديث ونستحث هممكم إلى وقاية أحكام دين الله في هذا الوسط المفعم بالشرور، في هذا الوسط الذي اندلع فيه لسان الغرور. هذا الوسط الذي ظهرت فيه الرذيلة على الفضيلة. هذا الوسط الذي أصبح الدين فيه أعزل بلا سلاح . هذا الوسط الذي سطت فيه الشهوات على القلوب . فتمردت النفوس وآثرت إثارة الخطوب . هو هذا الوسط الذي حورب فيه الدين من حماته ، وحوربت فيه الملة من رجالها . حوربت الشريعة من أنصارها . حوربت فيه الفضيلة من مظاهرها، حوربت فيه الاحكام من أساطينها . حوربت فيه ملة الرسول، من كل ذي نشأة غلب على فؤاده الفضول . فذهب مذهب الشذوذ في المعقول والمنقول

«رفعنا اليكم أيها العواهل هذه السطور تناديكم بصوت الملة ولسان الدين، وتوجه أنظاركم إلى بدعة لو تركت لافضت إلى ضلال مبين . فالبدار البدار إلى مقاومة هذا الصغار . البدار البدار إلى حفظ الدين فهو خير شعار . البدار البدار إلى تقوية أركان الملة التي أخذ المدلهون بمدينة الغرب في تقويضها ونقض بنيانها القائم على أسس الحكمة »ومثل هذا الغلو الشعري كثير جدا فيه ومنه استصراخ خاص بملوك المسلمين وأمرائهم، ومناجاة لموتاهم

---

(٣) ذكر انه قد ورد عليه من علماء الازهر عبارة تقتضي ان الشيخ محمد عبده صار معزولا من الافتاء لان «وظيفة الافتاء مختصة لمن يكون مقلداً للامام أبي حنيفة... ولما كان الشيخ محمد عبده لم يستند في فتوى الترانسفال على شيء من نصوص مذهب الامام ابي حنيفة بل اخذ برأيه مثلا فقد أعلن انه مجتهد لا مقلد لمذهب وحيث قد خرج عن التقليد المنصوص عليه في أمر التولية فيرى العلماء انه صار معزولا شرعا من وظيفة الافتاء بمجرد هذا الخروج لان الحاكم انما ناط الوظيفة بالمقلد لامام مخصوص»

وهذه العبارة هي المقصودة بالذات من كل هذه الحملة الخديوية على الشيخ محمد

عبده كما تقدم بيانه في محله، ولكن لم يتجرأ احد من علماء الازهر على التصريح بها باسمه؛ ومعناها باطل كما بيناه في المنار قبل كتابة هذا التقرير وطبعه وسيأتي

(٤) ثم قال بهذا المعنى في ص ٥٨

« وقد رفع أولئك الائمة ادعلام عريضة إلى مقام الخديوية الجليل يلتمسون. إيقاف تيار هذه الفتاوى التي أرادها الهوى ، وحداها الرأي ، واستاقها الغرض. واستلت بمناجل الحصاد ماغرس الدين . واتخذت معاول الهوى لهدم معاقل الشريعة الغراء (حماها الله ذلك) اه

ثم هذا هو الغرض من كل هذا الغلو في الغيرة على الدين والشريعة بمجرد الدعوى التي لايصحبها أدنى اعتقاد ، فقاتل الله الرياء والنفاق

(٥) ثم قال «أما وقد صدر من مركز الفتوى أمر يخالف ديننا، ويباين ماذهب اليه الاجماع من أئمة ملتنا، وكان يشغله أعظم منه عالمية وأكثر فضلا، لانتساهل ان نحمل عليه بما في طاقتنا ونوسعه ذما وهجواً ، اللهم إلا ان ثاب إلى الرشد وأعلن خطأه ، وأبان انه نزع عن التصميم برأيه ، والاستبداد بفكره ، وفي اعتقادنا انه لا كبير إلا من كبره الدين ، ولو اننا ممن يريد غير نصرة الدين واحترام أهله مادعوناه مراراً إلى بيان حجته التي اعتمد عليها فيما ذهب إلى الافتاء به فبخل واستغنى ، ولم يرد إلا أن يكون جواب بني سام . من أفواه بني (شام)اه

هكذا ذكر كلمة شام بين هلالين وهو يعني بها صاحب المنار الذي بين صحة الفتوى بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الامة الصالح وأئمتهم ، وان المفتي أهل لما أفتى به والاصل في المفتي أن يكون مجتهداً كما سيأتي ،فلو كان ابو شادي بك يطلب الحجة لذاتها لاذم المفتي وهجوه ليكون حجة للخديو على اقناع الحكومة والمسيطرين عليها بموافقتهم على عزله — لما أعرض عن الحجة لمجيئها على لسان أبناء الشام ، وهل هم إلا مثله من أبناء سام ،ولكن الله فضلهم عليه بالعلم بدين الاسلام ، وبنصره والدفاع عنه ؟

(٦) ثم قال في خاتمة التقرير « إن أشياع المفتي انحصروا في اخواننا السوريين. والمسيحيين المتملقين ، ونفيف من ذوي السوابق المعروفة أطوارهم ، ولم نقف على

قول لعالم او شبه عالم او طالب علم غير صاحب المنار، ومكانته من الشيخ مكانة الشيخ من نفسه ، فلا يسمى شيعياً ولا غير شيعي ، ولا يحسب من القوم الماضين او أهل اليوم لانه مع الشيخ مطلقا »

أما قوله ان مكانة صاحب المنار من الشيخ (يعني الاستاذ الامام) مكانة الشيخ من نفسه فنحمد الله تعالى انه قول صحيح ومعروف عند الناس، وأما قوله « انه مع الشيخ مطلقا » فهذا قول باطل فانه انما كان معه لانه كان على الحق، وهو لم يكن يرضيه من اخوانه وتلاميذه إلا هذا ، وكانوا يصرحون له برأيهم فيما يخالف رأيه فيسر بذلك ويذكر لهم حجته على رأيه ، ويرجع إلى رأي من يراه مصيباً منهم كما سنبينه في الكلام على أخلاقه وآدابه

وقوله قبله ان أشياعه انحصروا فيمن ذكرهم باطل فان أنصاره من علماء الازهر وعلماء الآفاق الاسلامية كلها كثيرون، وكذلك أكثر أصحاب الجرائد كما سيأتي. واما أنصار سمو الخديو فلم يعرف منهم إلا ابو شادي بك ومحرر جريدته الشربتلي واللواء والجوائب ، وقد استغاث بعلماء الاقطار العربية وملوكها وأمرائها وكل ذي مكانة فيها ، فلم يره أحد منهم أهلا لان يستجاب له أو يرجع اليه قول.

وقد اجتمع بعد نشر هذا التقرير جماعة من علماء المذاهب الاربعة في الازهر وكتبوا تأييداً للفتوى بنصوص المذاهب الاربعة وكان منهم على ما أذكر الشيخ احمد ابو خطوه والشيخ سعيد الموجي وشيخ رواق الحنابلة ، ولا أذكر أسماء علماء المالكيـة فيهم ، وسموه (ارشاد الامة الاسلامية ، إلى أقوال الائمة في الفتوى الترنسفالية) وطبع هذا التقرير الاستاذ الشيخ (عبد الحميد حروش البحراوي الازهري) ونشره في الاقطار ولعلنا ننشره في ذيل هذا التاريخ. وجاءتنا تأييدات أخرى للفتوى من الشرق والغرب ولاسيما علماء المالكية في تونس والمغرب الاقصى وذلك ان فتوى طعام أهل الكتاب قد بنيت على قول القاضي أبي بكر بن العربي من أشهر علماء المالكية وزعم المعترض ان المالكية لا يعتمدون قول القاضي أبي بكر المذكور

واني أنشر هنا ما كتبته يومئذ ونشرته في الجزء العشرين من مجلد المنار السادس في تأييد الفتوى وهي فتوى في ثلاث مسائل وعبرنا عنها بالفتاوى الثلاث وما نشرته في (ج٢١) الذي بعده في الرد على الظاهر، ثم اقفي عليه ببعض ماجاءنا من سائر الاقطار ونشر في المنار.

الفتاوى الثلاث

(في لبس قلنسوة أهل الكتاب وأكل ذبائحهم واقتداء الشافعية بالحنفية)

نشرنا ما يأتي تحت هذا العنوان في الجزء ٢٠ من المجلد السادس الصادر في ١٦ شوال سنة ١٣٢١ (٤ يناير سنة ١٩٠٤) وقد جعلنا هذه الفتاوي هنا فتوى واحدة في ٣ مسائل وهذا نص ما نشر :

ذكرنا في الجزء الثامن عشر (أي من م٦) انه شاع ان بعض علماء مصر أفتى رجلا ترنسفاليا بجواز لبس القلنسوة التي يلبسها أهل أوربا وتسمى (البرنيطة) وان بعض الناس أكبر هذه الفتوى جهلا منهم بالدين، وذكرنا من هداية السنة السنية ما تبين به ان الاسلام لم يقيد أهله بزي مخصوص لان الزي من العادات التي تختلف باختلاف حاجات الشعوب وأذواقهم وطبائع بلادهم فهو مباح لهم، فلم يكن من حكمة هذا الدين العام لجميع البشر أن يقيد شعوب الارض كلها بعادة طائفة منهم كأهل الحجاز أو غيرهم ، ولهذا لبس النبي ﷺ من لبوس النصارى والمجوس والمشركين كما ثبت في الاحاديث الصحيحة التي أشرنا الى بعضها في ذلك الجزء ، ولذلك ترى للمسلمين في كل قطر زياً يشاركهم فيه غالباً من ليس من دينهم بل اكثر لبوسهم مأخوذ عن النصارى برمته، ومنه زي العثمانيين الرسمي كما تقدم

ثم بعد كتابة ما أشرنا اليه رأينا في بعض الجرائد ان الذي أفتى بما ذكره هو مفتي الديار المصرية وانه أفتى بفتويين أخريين كانتا أيضاً موضوع لغط الجاهلين الذين لا يعرفون من الدين إلا ما ينسب اليه من العادات والتقاليد الشائعة بين المسلمين في بلادهم خاصة . وقد ذكر في إحدى الجرائد نص الاسئلة التي رفعت إلى المفتي مع أجوبتها، ويقال ان بعض اصحاب الجرائد اشترى ورقة الفتوى من الترنسفالي بمال كثير لظنه أن فيها ما يثبت مخالفة المفتي في ذلك للمشهور من مذهب الحكومة الذي يفتي به الحكومة، والمعروف عند العامة فيؤاخذ !! وسعى بعد ذلك في نشرها في الجرائد وانبرت إحداها للرد عليها أو التنويه بخطأها ، بدعوى

المدافعة عن الدين ولو كان صاحبها يعتقد أن الفتاوى خطأ كلها أو بعضها لكان الواجب عليه أن لا يصرح بأن إماما كبيراً أفتى بها ، لان كثيراً من الناس في مشارق الارض ومغاربها يثقون بفتواه ويعملون بها ، ولا يصدهم عن ذلك ان صاحب جريدة سياسية لم يرض بها، فان كان يرى ان المستفتي معتقد بصحة الفتوى فكان عليه أن يقنعه بعدم صحتها إن قدر .

أما الاسئلة التي قدمها الترنسفالي للمفتي فهي بنصها:

(١) يوجد افراد في هذه البلاد تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد اليهم، فهل يجوز ذلك أم لا ؟

(٢) ان ذبحهم (أي نصارى الترنسفال) مخالف وذلك لانهم يضربون البقر بالبلط وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية، والغنم يذبحونها بغير تسمية أيضا ، هل يجوز ذلك أم لا ؟

(٣) ان الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية ويصلون خلفهم العيدين ومن المعلوم أن هناك خلافا بين الشافعية والحنفية في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين ، فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر أم لا ؟

هذا نص الاسئلة كما نشرتها الجرائد، فأما المسئلة الاولى فقد علمت ما فيها (١) وأما الثانية فظاهر السؤال انه عن جواز فعلهم وليس من شأن المسلم أن يبحث عن افعال غير المسلمين في نفسها فلا بد أن يكون المراد الاستفهام عن جواز أكل المسلم من تلك الذبائح، وقد أفتى المفتي بالجواز واستدل عليه بالآية وهو موافق في ذلك للجماهير من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، كما ستعلم ذلك بنصوصه .

وأما المسئلة الثالثة ففتواه فيها بالجواز موافق لعمل سلف الامة الصالح بلا استثناء وانما استنكرها الجاهلون لان بعض الفقهاء من الحنفية والشافعية حكى في ذلك خلافا مبنياً على استنباطاتهم المعروفة الناشئة عن التعصب للمذاهب الذي يفرق بين المسلمين ويجعلهم شيعاً كل شيعة تبطل عبادة الأخرى ، وكأنهم يرون أن يكون لكل أهل مذهب مساجد خاصة بهم كالنصارى

(١) أى في المقال الذى نشرناه في الجزء ١٨ م٦ ص ٧١٠

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

كان الامام احمد يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف فقيل له: فان كان الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه ؟ فقال كيف لا أصلي خلف الامام مالك وسعيد بن المسيب ؟ هكذا كان السلف الصالحون ، حتى جاء الخلف المتعصبون المفرقون ، ولكن سورة التعصب للمذاهب قد سكنت في هذا العصر لذلك لا يرى المفسدون وجهاً للغط في هذا الجواب

﴿ طعام أهل الكتاب ﴾

وأما مسألة ذبيحة أهل الكتاب فهي التي أكثرت اللغط فيها الجرائد السياسية ، والسؤال ناطق بأن اهل تلك البلاد (الترنسفال) يذبحون البقر بعد ضربها بالبلطة ولكن موضع المخالفة لبعض المسلمين انهم لا يذكرون اسم الله عليها. والمفتي أفتى بالاخذ بنص آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » فقد قال الله هذا بعد آية تحريم الميتة وأحل طعامهم وهو يعلم مايقولون عند الذبح ويعلم ما يعتقدون بعزير والمسيح .

واننا ننقل بعض كلام ائمة السلف من الصحابة والتابعين في ذلك ثم نأتي بفقه الدين في تحريم الميتة وما اهل به لغير الله فنقول :

جاء في تفسير الآية من كتاب (فتح البيان، في فهم مقاصد القرآن) مانصه « والحاصل ان حل الذبيحة تابع لحل المناكحة على التفصيل المقرر في الفروع . والطعام اسم لما يؤكل، ومنه الذبائح وذهب اكثر اهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح ورجحه الخازن . وفي هذه الآية دليل على ان جميع طعام اهل الكتاب من اللحم وغيره حلال عند المسلمين وان كانوا لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وظاهر هذا ان ذبائح اهل الكتاب حلال، وان ذكر اليهودي على ذبيحته اسم عزير وذكر النصراني على ذبيحته اسم المسيح، واليه ذهب ابو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس والزهري وربيعة والشعبي ومكحول. وقال علي وعائشة وابن عمر اذا سمعت الكتابي

يسمى غير الله فلا تأكل. وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ويدل عليه ايضا قوله (وما اهل به لغير الله) وقال مالك انه يكره ولا يحرم، وسئل الشعبي وعطاء عنه فقالا: يحل فان الله قد احل ذبائحهم وهو يعلم مايقولون: فهذا الخلاف اذا علمنا ان اهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله. وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبري وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها اليه اليهودية وهو في الصحيح وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبي ﷺ وهو في الصحيح أيضاً وغير ذلك

ثم ذكر أهل الكتاب منهم واستثناء علي (رض) بني تغلب منهم لانهم من العرب الذين لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر، وذكر الخلاف في المجوس ونقل بعد ذلك عن القرطبي انه قال: جمهور الامة ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو غيرهم وكذلك اليهود. وفي تفسير ابن جرير نحو ماتقدم ومنه روايات عن الصحابة بحل ماذبحه النصارى للكنائس عملا بعموم الآية. فعلم من هذه النقول ان ذبائح أهل الكتاب حلال عند جماهير المسلمين وإن لم يكن ذبحها على الطريقة الاسلامية، بل وان كانت على خلاف الطريقة الاسلامية عملا باطلاق الآية الكريمة التي هي آخر ماورد في الاكل نزولا، وبذلك استدل مفتي الديار المصرية وقال في نصارى الترنسفال «انهم من أشد النصارى تعصباً في دينهم وتمسكا بكتبهم - ثم قال «ومجيء الآية الكريمة (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) من بعد آية تحريم الميتة (وما أهل لغير الله به) بمنزلة دفع مايتوهم من تحريم طعام اهل الكتاب لانهم يعتقدون بألوهية عيسى وكانوا كذلك كافة في عهده عليه الصلاة والسلام إلا من أسلم منهم. ولفظ أهل الكتاب مطلق لايصح أن يحمل على هذا القليل النادر، فاذاً تكون الآية كالصريح في حل طعامهم مطلقا كما كانوا يعتقدونها حلا في دينهم دفعاً للحرج في معاشرتهم ومعاملتهم» اهـ وهو موافق للنقول التي قال بها جماهير الائمة كما تقدم

(الفقه في تحريم الميتة وكيفية التذكية)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ — فَإِنَّهُ رِجْسٌ — أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ »

وألحق في آية المائدة بالميتة ما في حكمها مما مات بغير قصد التذكية وهو المنخنقة بدخول رأسها بين عودين أو في حبل ونحو ذلك، والموقوذة وهي التي ضربت بعصا أو حجر غير محدد لا بقصد الذبح حتى انحلت قوتها وماتت، والمتردية من شاهق، والنطيحة أي التي تموت بالمناطحة، وما أكل السبع ، قال تعالى بعد ذكر هذه الانواع (إلا ما ذكيتم) أي ما أدركتم فيه حياة فذكيتموه بالقصد ثم قال (وما ذبح على النصب) وهي أحجار كانوا يذبحون عليها للاصنام

أما ما أهل لغير الله به فهو أشد المحرمات تحريما لان علة تحريمه تتعلق بحفظ جوهر الايمان لان ذكر اسم غير الله مما يعتقد على الذبيحة ضرب من الوثنية وعمل المشركين . وأما الميتة فقد قيل ان علة تحريمها ان احتباس الدم فيها يجعل أكلها ضاراً ، وهو تعليل ينافي اطلاقه علم الطب كما ينافيه الكتاب والسنة الصحيحة في الاذن بأكل الصيد تصيده الجوارح فيموت من غير تذكية ، وكذلك صيد اليد بشرطه قال تعالى (وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم) أي ما أحضره الكلب ونحوه لصاحبه ولم يأكل منه

روى احمد والبخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ انه قال « اذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فاني أخاف ان يكون انما أمسك على نفسه » وفي رواية لهم ان عديا قال قلت : وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن مالم يشركها كلب ليس معها » قلت فاني أرمي بالمعراض الصيد فاصيد ؟ قال « اذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرضه فلا تأكله » وقد اختلف في تفسير المعراض فقيل هو سهم لا نصل له ولا

ريش ، وقيل هو خشبة ثقيلة في آخرها عصا محدد رأسها . وقيل : هو عصا في طرفها حديدة وكأنه كان يطلق على هذه الاشياء وكانوا يرمون الصيد بها ، والمراد بالخزق الخدش فإذا جرحت هذه العصا الصيد فمات حل أكله . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة والحكم مجمع عليه إلا ان احمد واسحاق منعا الصيد بالكلب الاسود البهيم . وفي رواية من حديث عدي بن حاتم متفق عليها أيضاً انه قال عليه الصلاة والسلام « اذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فادركته حيا فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله فان أخذ الكلب ذكاة » ومذهب الشافعي انه اذا أكل منه بعد احضاره يحل

وروى احمد ومسلم وابو داود والنسائي من حديث ابي ثعلبة الخشني قال «إذا رميت سهمك فغاب ثلاثة أيام وأدركته فكله مالم ينتن» وروى البخاري والنسائي وابن ماجه من حديث عائشة ان قوما قالوا يارسول الله : ان قوما يأتوننا باللحم لاندري ذُكر اسم الله عليه ام لا ؟ فقال « سموا عليه أنتم وكلوا » وكانوا حديثي عهد بالكفر . وروى احمد وابو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عدي بن حاتم قال : قلت يارسول الله انا نصيد الصيد فلا نجد سكينا إلا الظرار وشقة العصا فقال ﷺ « أمِرْ الدم بما شئت » الظرار جمع ظر بالكسر وظرر ، وهو الحجر المدور المحدد . و(أمر) من أمار الشيء ومار اذا جرى أو من مرى الضرع اذا مسحه ليدر

فعلم من مجموع الاحاديث ان الصيد يحل وإن مات ولم يذبح وان التسمية مستحبة غير واجبة ولا شرط للذبح وعليه ابن عباس وابو هريرة والشافعي ، وان اراقة الدم باي شيء جائز ، وان أخذ الكلب للصيد ذكاة شرعية ، وهو يدل على ان ما قالوه في تعليل تحريم الميتة غير صحيح وعلى ان الذبح المعروف الآن وهو قطع الحلقوم والمريء ليس من الامور التي تعبدنا بها في الذبح بحيث لاتصح الذكاة بدونه مطلقا ، بل الذكاة الشرعية على أنواع (منها) الذبح المعروف وهو للغنم ونحوه من الحيوان الصغير (ومنها) النحر وهو للابل والخيل والبقر جاءت السنة بذلك في الجميع (ومنها) الصيد كما علمت (ومنها) ان الجنين يوجد في بطن أمه ميتاً فيؤكل تبعا لها اذا ذكيت بنوع من أنواع التذكية الصحيحة (ومنها) العقر والجرح

روى الامام احمد والبخاري ومسلم وابوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث رافع بن خديج قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فندّ بعير من ابل القوم ولم يكن معهم خيل فرماه رجل بسهم فحبسه فقال رسول الله ﷺ « ان لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحوش، فما فعل منها هذا فافعلوا به هكذا» والجمهور على ان الرمي تذكية له خلافا لمالك .

وروى من عدا الشيخين من هؤلاء عن ابي العشراء (بضم ففتح واسمه عطارد) عن أبيه قال قلت يارسول الله : أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ قال « لو طعنت في فخذها لأجزأك » وقد حمل ابو داود هذا على المتردية والنافرة والمتوحشة، وأخذ بهذا الشافعية وكثير من الفقهاء، ولكن السؤال يدل على الاطلاق وإن كان في سند الحديث الاخير مقال

فعلم من هذه الاحاديث الصحيحة أن التذكية الشرعية هي ما كانت بقصد من الانسان إلى اماتة الحيوان لأكله . فان باشر ذلك بنفسه فله أن يفعله بكل محدد جارح وان كان حجراً إلا انه جاء في حديث النهي عن التذكية بالسن والظفر فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث رافع بن خديج قال : قلت يارسول الله انا نلقى العدو غداً وليس معنا مدى (جمع مدية وهي السكين) فقال النبي ﷺ « كل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا مالم يكن سنا أو ظفراً : وسأحدثكم عن ذلك (أي عن سبب استثناء السن والظفر) أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة » وقد اختلف في هذه الجملة هل هي من جملة المرفوع أو مدرجة ، والراجح انها مدرجة لتعليل النهي. ولذلك لم يرض جميع العلماء هذا التعليل، بل قال بعضهم ان علة النهي هي ان في الذبح بالسن والظفر تعذيبا للحيوان، وقيل غير ذلك . وكما تصح التذكية بكل آلة جارحة تصح بأية كيفية ممكنة، كما رأيت في الإذن بأكل ماخزقه المعراض ، ومن الاذن بالطعن في الفخذ .

والبلطة التي جاء ذكرها في سؤال الترنسفالي لاتقل عن هذه المحددات إنهاراً للدم وعقراً للحيوان ، على انه قال انهم يعقرون البقر أو يضربونه بها ثم يذبحونه ، وظاهر ان الذبح قبل الموت فاذا فرضنا أن الضرب بالبلطة وقذ (وهو

ليس يوقذ لانها آلة محددة ولان الضرب بها يقصد به التذكية للاكل لا الاهلاك﴾ فهو داخل فيما استثنى الله تعالى بقوله (إلا ماذكيتم)فانهم يذبحونها كما قال السائل

فان مكان الغيرة على دين أهل البرتغال أن يأكلوا الموقوذة ممن لا يغار على دين نفسه فهو يفتي بغير علم ...

ثم ان هذه الاحكام كلها خاصة بالمسلمين ، وأما أهل الكتاب فغير مكلفين بها عملا ، لان الذين يقولون من العلماء : انهم مكلفون بفروع الشريعة كالشافعية يريدون بذلك انهم يعذبون على تركها في الآخرة عذابا زائداً على عذاب ترك الايمان، لا انهم يطالبون بها في الدنيا ، فالمسلمون متفقون إذاً على أنهم غير مطالبين بهذه الاحكام، وطعامهم مع هذا حلال بنص الكتاب كيفما كان، إلا ماحرم لذاته عندنا وعندهم كلحم الخنزير إذا أكلوه . وقد علمت ان جماهير أئمة السلف والخلف أباحوا ذبائحهم وان لم يذكروا اسم الله عليها ، بل وان ذكروا اسم غيره عملا بعموم الآية التي اعتبروها مخصصة للامر بالتسمية وملاحظة لقاعدة عدم مطالبتهم بفروع الشريعة . وعلمت أيضاً أن ما أهل به لغير الله هو أشد المحرمات لانه من أعمال الشرك ، وأنه مع ذلك قد أحل أكله أكثر المسلمين من طعام أهل الكتاب ، فلأن يحلوا ماذكاه أهل الكتاب على غير طريقة التذكية عند المسلمين أولى

فقد رأيت من الاحاديث الصحيحة التساهل في أمر التذكية وكثرة أنواعها حتى يكاد يتعذر أن توجد طريقة للتذكية لا تشملها هذه الاحاديث

ان سلف الامة الصالح من الصحابة والتابعين اعتبروا كل من ينسب إلى اليهودية والنصرانية من أهل الكتاب الذين تحل ذبائحهم سواء تمسكوا بدينهم أم لا، إلا مانقل عن علي كرم الله وجهه من استثناء بني تغلب من متنصرة العرب معللا ذلك بقوله: انهم لم يأخذوا عن النصارى إلا شرب الخمر ، واكتفى الجماهير بنسبتهم إلى النصارى. ومن هنا تورع بعض أئمة المالكية كالقاضي أبي بكر بن العربي واشترط في حل ذبائح النصارى أن يأكل منه قسيسهم وعامتهم، فلم يكتف بعمل من ينتسب اليهم دون علماء دينهم ورؤسائه ، وجرى على هذا التورع مفتي

الديار المصرية في فتواه للترانسفالي فقال مانصه كما نشر في الجرائد

« وأما الذبائح فالذي أراه أن يأخذ المسلمون في تلك الاطراف بنص كتاب الله تعالى في قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) وان يعولوا على ماقاله الامام الجليل ابوبكر بن العربي المالكي من ان المدار على أن يكون مايذبح مأكول أهل الكتاب قسيسهم وعامتهم ويعد طعاما لهم كافة »

ثم أوضح هذا بما نقلنا بعضه من قبل . وقد تقدم ان القرطبي قال : جمهور الامة على ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم . وممن صرح بحل ذبيحة بني تغلب سعيد بن المسيب والحسن البصري وهما أعلم أئمة التابعين وأورعهم، فلعل المفتي زاد في الورع عليهما تأثراً بقول المالكية الذين تلقى مذهبهم أول اشتغاله بالعلم ، وان كان لايعمل الآن إلا بقوة الدليل، أو أراد موافقة الاجماع في فتواه من حيث العمل بها، لامن حيث اشتراط ماقاله ابن العربي فان الجماهير لايشترطونه كما علمت

﴿ نص فتوى القاضي أبي بكر بن العربي ﴾

قال في تفسير آية (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) من كتابه (أحكام القرآن) مانصه

« هذا دليل قاطع على أن الصيد وطعام الذين أوتوا الكتاب من الطيبات التي أباحها الله وهو الحلال المطلق ، وانما كرره الله تعالى ليرفع الشكوك ويزيل الاعتراضات عن الخواطر الفاسدة التي توجب الاعتراضات وتحوج إلى تطويل القول . ولقد سئلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها ، هل تؤكل معه ؟ أو تؤخذ منه طعاما ؟ — وهي المسألة الثامنة — فقلت تؤكل لانها طعامه وطعام أحباره ورهبانه ، وان لم تكن هذه ذكاة عندنا ولكن الله أباح لنا طعامهم مطلقا ، وكل ما يرونه في دينهم فانه حلال لنا إلا ما كذبهم الله فيه . ولقد قال علماؤنا : انهم يعطوننا نساءهم أزواجا فيحل لنا وطؤهن فكيف لا نأكل ذبائحهم والاكل دون الوطء في الحل والحرمة » اهـ

وقد استنكر هذه الفتوى بعض الطلاب الذين لايعرفون من الاسلام إلا مايرون عليه قومهم من العادات الدينية فسأل عنها أبا عبدالله الحفار أحد علماء المالكية فأجاب بما نصه :

« لا إشكال فيه (أي قول ابن العربي) عند التأمل لان الله أباح لنا أكل طعامهم الذي يستحلونه في دينهم على الوجه الذي أبيح لهم من ذكاة فيما شرعت فيه الذكاة على الوجه الذي شرعت . ولا يشترط أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا في ذلك الحيوان المذكى ولا يستثنى من ذلك إلا ما حرم الله سبحانه علينا بالخصوص كالخنزير وكالميتة التي لم تقتل بقصد الاكل، وأما مالم يحرم علينا على الخصوص فهو مباح كسائر أطعمتهم ، وكل مايفتقر إلى الذكاة من الحيوانات فاذا كان على مقتضى دينهم حل لنا أكله ، ولا يشترط في ذلك أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا، وذلك رخصة من الله وتيسير علينا . وإذا كانت الذكاة تختلف في شريعتنا ـ فتكون ذبحا في بعض الحيوانات ، ونحراً في بعض، وعقراً في بعض ، وقطع عضو كرأس وشبهه كما هو ذكاة الجراد ، ووضعا في ماء حار كذلك كالحلزون ـ فاذا كان هذا الخلاف عندنا بالنسبة إلى الحيوانات فكذلك قد يكون شرع في غير ملتنا سل عنق الحيوان على وجه الذكاة ، فاذا أجاز الكتابي ذلك أكلنا طعامه كما أذن لنا ربنا سبحانه، ولا يلزمنا أن نبحث عن شريعتهم في ذلك ، بل إذا رأينا أهل دينهم يستحلون ذلك أكلنا كما قال القاضي أبو بكر لانها طعام أحبارهم ورهبانهم

« وانما وقع الاستشكال في هذه المسئلة لان سل عنق الحيوان عندنا لا يستباح به أكل الحيوان بل يصير ميتة، فصارت الطباع نافرة عن الحيوان المفعول به ذلك فحين أباح القاضي ذلك من طعام أهل الكتاب وقع استشكاله ولا اشكال فيه على ماقررته . وعلى المحمل الذي ذكرته حمله بعض أئمتنا المتأخرين المحققين » اه

ولم يذكر الحفار بقية أنواع التذكية الشرعية من أخذ الكلاب وغيرها من الجوارح المعلمة للصيد واتيانها به ميتا، ومن الرمي بالسهم والصيد بالمعراض. وماذكرناه كاف

﴿ كلام الشيخ محمد بيرم في مسألة الخنق ﴾

ذكر الفقيه الحنفي الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه (صفوة الاعتبار) مبحثاً طويلا في ذبائح أوربا ، ونقل عن أهل مذهبه أن ذبائح أهل الكتاب حلال مطلقا. وجاء بتفصيل في أنواع المأكول في أوربا ثم قال مانصه :

« وأما مسألة الخنق فان كان لمجرد شك فلا تأثير له كما تقدم ، وان كان لتحقق، فلم أر حكم المسألة مصرحا به عندنا وقياسها على تحقق تسمية غير الله انها محرمة عند الحنفية ، وأما عند من يرى الحل في مسألة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحلية حيث خصصوا بآية (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) آية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وآية (وما أهل لغير الله به) وكذلك تكون مخصصة لآية المنخنقة ويكون حكم الآيتين خاصا بفعل المسلمين ، والاباحة عامة في طعام أهل الكتاب، إذ لافرق بين ماأهل به لغير الله وما خنق، فاذا أبيح الاول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثاني . وقد كنت رأيت رسالة لأحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل وجلب النصوص من مذهبه بما ينثلج به الصدر، سيما اذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاة ، كما أخبر كثير من علمائهم، وان المقصود التوصل الى قتل الحيوان بأسهل قتلة للتوصل الى أكله بدون فرق بين طاهر ونجس ،مستندين في ذلك على قول لانجيل على زعمهم . فلا مرية في الحلية على هاته المذاهب

فان قلت: كيف يسوغ تقليد الحنفي لغير مذهبه ؟ قلت :أما ان كان المقلد من أهل النظر وقلد الحنفي عن ترجيح برهان فهذا ربما يقال انه لا يسوغ له ذلك (أي الا ان يظهر له ترجيح دليل الحل ثانياً) وأما اذا كان من أهل التقليد البحت ـ كما هو في أهل زماننا ـ فقد نصوا على أن جميع الائمة بالنسبة اليه سواء، والعامي لامذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه ، وقوله : أنا حنفي او مالكي : كقول الجاهل : أنا نحوي : لايحصل له منه سوى مجرد الاسم، فبأي العلماء اقتدى فهو ناج . على ان الكلام وراء ذلك. فقد نصوا على الجواز والوقوع بالفعل في تقليد المجتهد

لغيره . والكلام مبسوط في ذلك في كثير من كتب الفقه ، وقد حرر البحث ابو السعود في شرح الاربعين حديثا النووية وألف عبدالرحيم المكي في ذلك رسالة فليراجعهما من أراد الوقوف على التفصيل

« فان قيل : قد ذكرت ان الخنزير محرم وإن كان من طعامهم فلماذا لايجعل مخصصاً بالحلية بهذه الآية ـ أي آية طعامهم ؟ واذا جعلت آية تحريمه محكمة غير منسوخة فكذلك تكون المنخنقة ؟ ولماذا تقيسها على مسألة التسمية ولاتقيسها على مسألة الخنزير ؟ وأي مرجح لذلك ؟

« فالجواب ان المأكولات منها ماحرم لعينه ومنها ماحرم لغيره ، فالخنزير وما شاكله من الحيوانات محرمة لعينها ، ولهذا تبقى على تحريمها في جميع أطوارها وحالاتها ، وأما متروك التسمية أو ما أهل به لغير الله والمنخنقة فان التحريم أتى فيه لعارض وهو ذلك الفعل ، ثم أتى نص آخر عام في طعام أهل الكتاب وأنه حلال ، فأخرج منه محرم العين ضرورة وبالاجماع ايضا ، وبقي المحرم لغيره وهو مسألتان (احداهما) مسألة التسمية (والثانية) مسألة المنخنقة فبقيتا في محل الشك لتجاذب كل من نصي التحريم و الاباحة لهما ، فوجدنا إحداهما ـ هي مسالة التسمية ـ وقع الخلاف فيها بين المجتهدين من الصحابة وغيرهم وذهب جمع عظيم منهم الى الاباحة . وبقيت مسالة المنخنقة التي يتخذها أهل الكتاب طعاما لهم مسكوتا عنها فكان قياسها على مسألة التسمية هو المتعين لاتحاد العلة . وأما قياسها على مسألة الخنزير فهو قياس مع الفارق فلا يصح ، إذ شرط القياس المساواة ، وانما أطلنا الكلام في هذا المجال لانه مهم في هذا الزمان وكلام الناس فيه كثير . والله يؤيد الحق وهو يهدي السبيل » اهـ

﴿ توضيح القول في الموقوذة وادراك ذكاتها ﴾

قال القاضي البيضاوي في تفسير الموقوذة : هي المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت ، من وقذته اذا ضربته : وتبعه في ذلك أبو السعود الحنفي في تفسيره ، وكذلك السيد محمد صديق حسن في تفسيره فتح البيان . وزاد أن الوقذ هو شدة الضرب حتى يسترخي ويشرف على الموت (قال) وشاة موقوذة ضربت بالخشب ، وهذا هو للنصوص في القاموس وشرحه وغيرهما من المعاجم . وفي مجمع بحار الانوار «الوقيذ والموقوذ هو

الذي يقتل بغير محدد من عصا وحجر» وقد صرح الامام الرازي بأن الموقوذة في معنى الميتة والمنخنقة قال «فانها ماتت ولم يسل دمها» وهذا لا خلاف فيه فان الوقذ هو الضرب بغير المحدد، وقد ذكر في تفسير قوله تعالى (إلا ما ذكيتم) : انه استثناء من جميع ما تقدم (من المنخنقة ـ الى قوله ـ وما أكل السبع) وهو قول علي وابن عباس والحسن وقتادة (قال) فعلى هذا انك اذا أدركت ذكاته بان وجدت له عينا تطرف أو ذنبا يتحرك أو رجلا تركض فاذبح فانه حلال فانه لولا بقاء الحياة فيه لما حصلت هذه الاحوال» اه بحروفه

والتعبير بالذكية يؤيده فان أصلها ـ كما قال الرازي وغيره ـ اتمام الشيء، ومنه الذكاء في الفهم وهو تمامه، ومثله الذكاء في السن ويقال ذكيت النار أي اتممت اشعالها، كأنه يقول إلا ما أتممتم أنتم اماتته بذبح ونحوه .

وقال في فتح البيان في مقاصد القرآن في قوله تعالى (إلا ما ذكيتم) استثناء متصل عند الجمهور وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا وفيه حياة ثم ذكر خلاف غير الجمهور . وقال في ادراك الذكاة: وأما كيفية ادراكها فقال أهل العلم من المفسرين ان أدركت حياته بأن توجد له عين تطرف أو ذنب يتحرك فأكله جائز، وقيل اذا طرفت عينها أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبح فانه حلال. وقال الآلوسي في تفسيره : أي إلا ما أدركتموه وفيه بقية من حياة يضطرب اضطراب المذبوح وذكيتموه»

وعن السيدين الباقر والصادق رضي الله عنهما ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن يدركه وهو يحرك الاذن أو الذنب أو الجفن وبه قال الحسن وقتادة وابراهيم وطاوس والضحاك وابن زيد، وقال بعضهم يشترط الحياة المستقرة وهي التي لا تكون على شرف الزوال وعلامتها على ما قيل أن يضطرب بعد الذبح لا قبله: اه وأطال ابن جرير في رواياته عن الصحابة في تأييد الاول

فعلم بهذا ان ما يضرب بمحدد كالبلطة لا يسمى وقيذا ويدل على ذلك حديث صيد المعراض في الصحيحين وغيرهما «وان أصاب بعرضه فقتل فانه وقيذ فلا تأكله» وانه لو كان من الوقيذ فان ما يفعله أهل الترنسفال من ذبحه واسالة دمه بعد ضربه محلل له كما تقدم

وانما ذكرناهذه النقول لاننا بعد كتابة ماتقدم وتمثيله للطبع رأينا الجريدة السياسية تدعى ان مايفعله اهل الترنسفال من الوقذ وانه لايحل وإن ذبح وسال دمه. وقد زادت على كلام الترنسفالي قولها «ثم يذبحونها تتميما لقتلها فيسيل منها الدم مصفراً دالا على حصول الارتجاج المخي المفسد للدم» الخ والسائل لم يقل ذلك ولو قاله لما كان مانعاً لصحة التذكية وحل الذبيحة ،إذ لم يشترط احد من المسلمين أن يسيل الدم احمر او اسود ،وإنما اشترطوا علامة تدل على الحياة حتى حركة أصغر الاعضاء كالجفن . وسيلان الدم باي لون من اقوى علامات الحياة ، ولكن السياسة إذا تلاعبت بالدين لاتبالي بكتاب ولاسنة ،ولا قول إمام ولا مفسر ولا فقيه ولا لغوي، فقد خالفت جميع العلماء في الموقوذة

(الخلاف في التسمية)

خلص لنا مما تقدم أن كتاب الله تعالى أباح لنا طعام أهل الكتاب مطلقا . لم يشترط في ذلك ان ياخذوا باحكام الاسلام في التذكية ، وان اكثر المسلمين من السلف والخلف اخذ بهذا الاطلاق ، فأكل النبي وأصحابه من اللحوم التي طبخوها والجبن الذي عملوه ،إلا ان الحنفية اشترطوا أن لايعلم الآكل ان ماعرض له من اللحم قد أهل به لغير الله أو ترك ذكره عليه . وكل مانقلته الجريدة فهو عن مفسريهم وفقهائهم، وخالفهم في ذلك أكثر العلماء كما تقدم . ونص على ذلك مفتي الحنفية في بغداد الشهاب الالوسي في تفسيره

وقال الطبري في تفسير (ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية « واختلف اهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء ام لا ؟فقال بعضهم لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به . وعلى هذا قول عامة اهل العلم . وروي عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد قل حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصري قالا قال (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين * ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) فنسخ واستثنى من ذلك فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم)

«والصواب من القول في ذلك عندنا ان هذه الآية محكمة فيما انزلت لم ينسخ منها شيء وان طعام أهل الكتاب حلال وذبائحهم ذكية، وذلك مما حرم على المؤمنين أكله بقوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) بمعزل، لان الله انما حرم علينا بهذه الآية الميتة وما أهل به للطواغيت . وذبائح اهل الكتاب ذكية سموا عليها أو لم يسموا ، لانهم اهل توحيد وأصحاب كتب لله يدينون باحكامها، يذبحون بادیانهم كما يذبح المسلم بدينه ، سمى الله على ذبيحته أو لم يسمه إلا أن يكون ترك من ذكر تسميته على ذبيحته، على الدينونة بالتعظيم أو بعبادة شيء سوى الله فيحرم حينئذ اكل ذبيحته سمى الله أو لم يسم » اه

ويعني بالاخير من يترك التسمية لترك الدين السماوي بالمرة أو للدخول في الوثنية. ويؤيد تخصيصه الآية بالذبح للطواغيت ان الآية مكية، وآية حل طعام اهل الكتاب مدنية ، وهي من آخر القرآن نزولا . والشافعية يحلون ترك التسمية ولو عمداً ، وقالوا ان النهي مقيد بقوله تعالى (وانه لفسق) وفسر الفسق بقوله(أو فسقاً أهل لغير الله به)وهو ماكان يفعله المشركون لطواغيتهم وأهل الكتاب يحرمونه مثلنا . وقد أطال الامام الرازي في ترجيحه (راجع التفسير الكبير) أما إذا لم يعلم الآكل انهم أهلوا به لغير الله أو تركوا التسمية فأكله حلال باجماع السلف والخلف كاللحم الذي يباع عادة في بلاد اليهود والنصارى ولم يحضر المسلم ذبحه ومنه اللحم الذي يباع في بلاد الترنسفال . وأما ضرب البقر بالبلطة قبل ذبحه ليضعف فهو لا ينافي التذكية الشرعية عندنا لو فرضنا انهم مطالبون بها وقد علمت أنهم غير مطالبين

(تأييد الفتوى وحقيقتها وما به الافتاء)

فظهر أن الفتوى مؤيدة بالكتاب والسنة وعمل السلف والخلف وأقوالهم، وان خلاف الحنفية فيها لا يتحقق في واقعة الفتوى إذ لا يمكن العلم بأن كل لحم يراه المسلم هناك لم يذكر اسم الله عليه . ولو فرضنا انه تحقق فمذهب الجمهور أقوى من مذهبهم لقوة أدلته والمفتي يجب عليه أن يفتي بما يراه أقوى دليلا ، وأقوم قيلا، وأنفى للحرج باجماع المسلمين من السلف والخلف . وإذا كانت المحاكم الشرعية

تسأل المفتي في مصر عن الصحيح من مذهب أبي حنيفة فليس كل مسلم مكلفا بهذا المذهب، بل المسلمون مكلفون بكتاب الله وماصح عن رسوله، وعلى العلماء النظر في ذلك والترجيح به بين أقوال العلماء

وقد نقل عن أبي حنيفة وأصحابه انهم كانوا يقولون: لايصح لأحد أن يأخذ بقولنا مالم يعرف دليلنا . وكذلك كان يقول جميع أئمة المسلمين (راجع نصوصهم في مقالات المصلح والمقلد من مجلد المنار الرابع) فلم يبق بعد هذا إلا أن يرجع صاحب تلك الجريدة عن اعتراضه بغير علم، ويعلن ذلك في جريدته ليظهر انه غير سيء القصد، وغير متلاعب بنصوص الدين عمداً، ومتهجم على تحريم ما أحل الله قصداً، ويثبت ان مايقوله بعض الناس من ان هذه الجعجعة قد انفرد بها صاحب هذه الجريدة الذي ليس من أهل هذا الشأن دون العلماء والفقهاء وسائر الجرائد لغرض سياسي لغيره شخصي له ، فهو يتوقع قضاء لبانته منه كما قضاها من غيره

ونختم الكلام بتذكير المفتات على الشرع بقوله تعالى في سورة النحل بعد حصر المحرمات في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، إلا المضطر اليه . وهو :

« وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

﴿ القول في اجتهاد المفتي وتقليده ﴾

أما اللغط بان افتاء مفتي الديار المصرية بغير مذهب الحنفية يتضمن دعوى الاجتهاد فيمكن الجواب عنه من وجهين

(أحدهما) ان تقليد أهل النظر الذين يسمون علماء بالمذاهب هو عبارة عن اتباع مايعتقدون انه الاقوى دليلا من أقوال الائمة وقد أشرنا إلى ان مفتي الديار المصرية لهذا العهد تلقى مذهب الامام مالك في أول تحصيله للعلم فيجوز ان

يكون يعتقد ترجيحه إلى الآن، وإن كان قد تلقى مذهب الحنفية وبرع فيه وعرف صحيحه من غيره فان لم يكن يرجح جميع مسائله فيجوز أن يكون يعتقد رجحان بعضها. وقد قال العلماء كافة بان تقليد بعض الائمة في بعض المسائل وتقليد آخر في بعضها جائز ، وما من عالم شهير إلا وله فتاوى فيما يخالف المذهب الذي ينسب اليه . وفي مقالات المصلح والمقلد بيان ذلك

(والثاني) انه مجتهد وما كان لمن يفسر القرآن بمثل مايفسره به ويقيم الحجج منه على بطلان التقليد واستحقاق صاحبه لمقت الله وعذابه ان يكون مقلداً وحسبك من ذلك تفسير الآيات المنشورة في هذا الجزء(١) فراجعها واعتبر بها إن كنت من المؤمنين. وأما انكار المقلدين الجاهلين عليه الاجتهاد فلا قيمة له إذ ليس للمقلدين من حجة ولا هم من أهلها فبم ينكرون ؟ وقد نشرنا ولا نزال ننشر من الدلائل والبراهين على بطلان التقليد في غير التفسير مافيه مقنع لمن لم يختم الله على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة . وقد كتب مفتي الديار المصرية في التوحيد والتفسير مايقصر عنه كل ما كتب فيهما مما وصل الينا من كتب الاولين والآخرين وفضل الله ليس محصوراً في زمن معين ، ولا رحمته مقيدة بأفراد مخصوصين ، بل تسع كل شيء . ولا ينافي ذلك إفتاؤه الحكومة والحاكم بمذهب الحنفية فانهم يسألونه عنه لاعن اجتهاده ومن يسأله عن رأيه يفتيه به .

فان قيل ان من علماء هذا العصر من يطعن فيه. نقول ان هؤلاء الطاعنين من الحاسدين او المقلدين الذين أخذوا على أنفسهم تفنيد من يتبع الكتاب والسنة من غير نظر في أدلته ، وقد طعن في الائمة العظام من قبله من هم في طبقتهم علما واجتهاداً . ولهذا قال ابن عباس (رض) « استمعوا قول القراء ولا تصدقوا بعضهم على بعض فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زروبها »رواه ابن عبدالبر في كتاب العلم . والمراد بالقراء العلماء وبه عبر في الاحياء، وروي مثل ذلك عن مالك بن دينار بلفظ (العلماء) وقد ذكرت بعض ماطعن به على الائمة الاربعة وغيرهم كالبخاري واضرابه بعض أهل العلم في عصرهم في كتاب (الحكمة الشرعية)

(١) هي قوله تعالى (٢: ١٢١ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) ومابعدها

﴿ واقعة تناسب ما تقدم ﴾

جاء في ذكر حوادث المحرم سنة ست وثلاثين ومئتين وألف من الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي مانصه (ص٣١٦):

« وفيه من الحوادث ان الشيخ ابراهيم الشهير بباشا المالكي بالاسكندرية قرر في درس الفقه ان ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لايجوز أكلها ، وما ورد من اطلاق الآية فانه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم ، فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه ، ثم تكلموا مع الشيخ ابراهيم المذكور وعارضوه فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمي وعلمي ، وانما تلقيت ذلك عن الشيخ علي الميلي المغربي وهو رجل عالم متورع موثوق بعلمه : ثم انه أرسل الى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع فألف رسالة في خصوص ذلك وأطنب فيها فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب واعتمد قول الامام الطرشوشي في المنع وعدم الحل ، وحشا الرسالة بالحط على علماء الوقت وحكامه وهي نحو ثلاثة عشر كراسة (كذا) وأرسلها الى الشيخ ابراهيم فقرأها على أهل الثغر فكثر اللغط والانكار خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفون الملة. وانتهى الامر الى الباشا فكتب مرسوما الى كتخدا بيك بمصر وتقدم اليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة وأرسل اليه أيضا بالرسالة المصنفة . فأحضر كتخدا بيك المشايخ وعرض عليهم الامر فلطف الشيخ محمد العروسي العبارة وقال : الشيخ علي الميلي رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم لاينكر علمه وفضله وهو منعزل عن خلطة الناس ، إلا انه حاد المزاج وبعقله بعض خلل والاولى أن نجتمع به ونتذاكر في غير مجلسكم وننهي بعد ذلك الأمر اليكم

فاجتمعوا في ثاني يوم وأرسلوا الى الشيخ علي يدعونه المناظرة ، فأبى عن الحضور وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري المغاربة يقولان انه لايحضر مع الغوغاء بل يكون في مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ محمد بن الامير بحضرة الشيخ حسن القويسني والشيخ حسن العطار فقط . لان ابن الامير يناقشه ويشن عليه الغارة ، فلما قالا ذلك القول تغير ابن الامير وأرعد وأبرق وتشاتم بعض من بالمجلس مع الرسل

وعند ذلك أمروا بحبسهما في بيت الآغا وأمروا الآغا بالذهاب الى بيت الشيخ علي واحضاره بالمجلس ولو قهراً عنه ، فركب الاغا وذهب الى بيت المذكور فوجده قد تغيب فأخرج زوجته ومن معها من البيت وسمر البيت فذهبت الى بيت بعض الجيران

ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ علي على خلاف الحق وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم في تحقيق المسألة وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ولو كان على الحق مااختفى ولا هرب، والرأي لحضرة الباشا فيه اذاظهر، وكذلك في الشيخ ابراهيم باشا السكندري (كذا) وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة وأرسلوه الى الباشا ، وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الاغا ورفعوا الختم عن بيت الشيخ علي ورجع أهله اليه، وحضر الباشا الى مصر في أوائل الشهر ورسم بنفي الشيخ ابراهيم باشا الى بني غازي ولم يظهر الشيخ علي من اختفائه » اه

(المنار) هـذا ما كان من علماء الازهر في أوائل القرن الماضي وهم شيوخ علماء الازهر الحاضرين أو شيوخ شيوخهم، فيجدر بمشيخة الازهر اليوم أن تنتصر للحق الذي انتصرت له من قبل، واذا كان العروسي شيخ الازهر يقول يومئذ في تلطيف أمر من يحرم ذبائح أهل الكتاب من العلماء إن في عقله خللا فماذا ينبغي أن يقول شيخ الازهر اليوم في جاهل بالشرع يحرم ذبيحة أهل الكتاب رداً على فتوى مفتي الديار المصرية بالحل المحتج عليها بالقرآن الكريم ؟ واذا كان أمير مصر في القرن الماضي رأى وهو في كمال استقلاله ، وعدم دخول النصارى في أعماله ، ان العالم الذي قال بعدم حل ذبائحهم يستحق النفي من بلاده ، فماذا يرى أمير مصر اليوم في ذلك — وهو أعلم من جده بوجه الحاجة الى محاسنة الامم النصرانية والاخذ بالاقوال الشرعية التي تقنعها بان ديننا دين مدنية وعمران؟؟ لعل الرئيسان العظيمان يريان ويقولان ان سلفنا اهتموا بتأديب الشيخين اللذين حرما ذبائح النصارى لانهما من العلماء الذين ينخدع العوام بأقوالهم ، وأما المحرم لها اليوم فهو من رجال القوانين ، فلا يلتفت أحد الى قوله في الدين ، وهو رأي صائب ، وان كان النهي عن المنكر من الواجب .

استحسان الاستاذ الامام لما كتب المنار

وفكاهة في عبارته في الاستحسان

لما صدر المنار وقرأ الاستاذ الامام هذا البحث فيه قال لي هذا طيب جداً جداً ـ وكررها ـ ولم أسمعه قال هـذا في غيره ، بل كانت كلمته المعتادة فيما يعجبه من الكلام « موش بطال » وقد يقول في بعض المقالات « طيبة » وكان ابراهيم بك المويلحي يغيظه ان يقول في مقالاته المونقة « موش بطال » فضرب له مثلا ينبيء بغيظه منه قال :

لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون، وعن يمين عرشه الانبياء المرسلون ، ومن ورائهم جميع البشر ، ويليهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطير ...

ثم قيل للشيخ عبده ماتقول في هذا المنظر ؟ لما زاد على قوله «موش بطال»

والشيخ لم يكن يقول هذا تهضما لحق كاتب أو استعلاء على الناس ،وانما هي كلمته المعتادة فيما يعجبه، فاذا بلغ العجب منه أفق الاعجاب زاد عليها ، وكذا إذا سئل بيان رأيه فيما هو محل الاعجاب او تكلم بعض الناس في ذلك ، وسمعته يقول مرة في مقال من هذا القبيل « اسلوب رفيع » وقال مرة في نقد للمويلحي لذع به بعض الناس : لو قال هذا في لما نقصت حلاوته في مذاقي ، او ماهذا معناه

﴿ إشتغال الجرائد بمسألة الفتوى ﴾

هذا وانه قد حمي بعد نشرنا لهذه المقالة وطيس المقالات في هذه المسألة في الجرائد ومنها مقالة لما نشرها المقطم في عدد ٨ شوال سنة ١٣٢١ و٦ ينايرسنة ١٩٠٤ عنوانها (عبث السياسة بالدين ، وحل طعام أهل الكتاب للمسلمين) عزاها إلى بعض العلماء الفضلاء ، وتلتها مقالة فيه لاحد الفضلاء مبنية على المقالة الاولى

(ولا أدري من كتبها) وقد نوهت بتأثيرها مستدلة على ان المسألة سياسية بالجريدة المحدثة (الظاهر) وعززتها مقالة في ٢٧ شوال عنوانها (علام هذا الشغب؟) بامضاء خادم العلم بالازهر ، وجاء في عدد ١٩ يناير منه ان صاحب جريدة الظاهر رفع قضية على صاحبي جريدة النيل وعلى مطبعة التمدن لتصويرهما مسألة اعتراضه على فتوى المفتي بصورة هزلية . وفي عدد ٢٣ يناير منه مقالة عنوانها (حكم البرنيطة في دين الاسلام) لأحد طلبة العلم بالازهر . وفي اخباره ان جريدة الراوي « أنشأت مقالة غراء أول أمس عنوانها (حوالي الفتوى) راقت الجمهور ونبهت المتطفلين على ما ارتكبوا من الخطأ قال « فنحول اليها أنظار الادباء »

وفي عدد ٢٦ منه (٨ القعدة) مقالة طويلة للمقطم نفسه موضوعها تساؤل الناس : لماذا حاكمت النيابة صاحبي الورقة المصورة بتعرضها لفضيلة مفتي الديار المصرية ولم تطلب محاكمتها على تطاولها على مقام الحضرة الفخيمة الخديوية . وفيها نصيحة للمعية وتخطئة لها باتخاذ جرائد تدافع عنها .

هذا بعض ما نشر في المقطم في شهر يناير الذي تقرر فيه ونفذ قرار مجلس الاوقاف الاعلى في مسألة استبدال مزرعة الجناب الخديوي المعلومة باراضي الاوقاف في الجيزة

وقد نشر في سائر الجرائد المصرية مقالات كثيرة في تأييد الفتوى وتعظيم المفتي ، وكان المؤيد على الحياد في ذلك ، ولما ظهر عجز ابي شادي انبرى لمساعدته مصطفى كامل ، وظهر تقرير ابي شادي في ٢٩ شوال سنة ١٣٢١

واني لأحب أن أشرح في هذا التاريخ خطة مصطفى كامل عفا الله عنه في هذه المسألة التي كان بطبعه المدني يستحسنها لانه كان يسافر في كل سنة الى أوربة فيلبس فيها البرنيطة ويأكل من ذبائح الافرنج في كل يوم ، وكذلك مولاه الخديو فان له مزية صار بها من رجال التاريخ المصري ، وحسبي ما رددت به عليه كثيره في المنار في هذه المسألة وفي غيرها كمسألة الدفاع عن اليهود

ثم كتبت في تأييد الفتوى والرد على الجاهلين المعترضين ما يأتي :

(مسألة ذبائح أهل الكتاب)

(تأييد الفتوى بالاجماع)

﴿نشرنا تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار الذى صدر في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١ (١٩ يناير سنة ١٩٠٤) وهو رد على الجريدة المحدثة (الظاهر) وتاييد الحدث (مصطفى كامل لها ﴾

واقعة الفتوى ان النصارى في قطر من الاقطار (هو الترانسفال) يضربون البقر قبل ذبحه بآلة محددة تسمى البلطة ، ثم يذبحونه ذبحاً ، وانهم في زعم السائل لا يسمون الله على ذبائحهم

(تحرير الجواب)

وتحرير الجواب من حيث صحة الذبح ان ضرب الحيوان قبل ذبحه بمحدد أو غير محدد لا ينافي كون ذبحه بعد ذلك من التذكية التي يحل بها أكله فهو حلال باجماع المسلمين من السلف والخلف ، والمتبادر من تصريح السائل بذبح البقر هو أنهم يذبحونه وفيه حياة إذ الميت لا يذبح . والمتبادر ان هذه الحياة هي التي يسميها بعض الفقهاء من الخلف الحياة المستقرة التي من علامتها انفجار الدم والحركة العنيفة إذ لو ذكي الحيوان وليس فيه إلا الرمق لما اعتد العامي (كالمستفتي في الواقعة) بذبحه بل لما سماه ذبحاً فالحياة هي الاصل. ولم يرد في السؤال ما يدل على زوالها أو بقاء الرمق فيها فقط فيقال انها حلال على رأي الجمهور والاكثر كما قال المفسرون (ونقلنا ذلك عنهم في الجزء الماضي) لا بالاجماع كما تدعي

وما قلناه من إطلاق السؤال انهم يذبحون بعد الضرب يقتضي أن يكون المذبوح حلالا بالاجماع نعرضه على علماء الاسلام في مصر وفي سائر الاقطار ونقول انه لا يمكن لأحد منهم رده ، ومن زعم ان أئمة المسلمين اختلفوا في حل الحيوان يذبح بعد ضربه بأى شيء فليكتب الينا بالبيان لننشر قوله ونحن على يقين من أن كل عالم اسلامي يعلم انه لا خلاف في ذلك وإنما الخلاف فيما إذا ثبت ان الحيوان ذبح بعد عروض سبب يحل عليه الهلاك وليس فيه حياة مستقرة فقال بعض الفقهاء

لا يحل وقول اكثرهم انه يحل وتقدم في الجزء الماضي قول المفسرين في ذلك ، وعلامة الحياة المستقرة انفجار الدم والحركة المنيفة كما قاله فقهاء الشافعية وقد علمت مما نقلنا عن الصحابة وغيرهم في الجزء الماضي انه يكفي في الموقوذة ونحوها علامة تدل على الرمق من الحياة كحركة الجفن أو الذنب وانه المتبادر من قوله تعالى (إلا ما ذكيتم)

وأما مسألة التسمية في الواقعة فنقول: انه لاسبيل إلى الحكم على أهل قطر من الاقطار بأنهم لايذكرون الله على ذبائحهم إلا إذا كان دينهم يمنعهم من ذلك . والمسئول عنهم في واقعة الفتوى ليسوا كذلك لانهم نصارى ولو أحل الله ذبائحهم وهم كذلك لما كان للاختلاف في اشتراط تسميتهم وعدمها وجه من الوجوه . وقد نصوا على أن ذبيحة الكتابي - لم يعلم أذكر اسم الله عليها أم غيره أم لم يذكر شيئاً - هي حلال بالاجماع، وذلك هو الواقع في مسألتنا، إذ العلم بعدم ذكر اسم الله على كل ذبيحة في قطر الترنسفال أو في أي بلد من البلاد متعذر ، وانما يتيسر العلم بذلك في ذبيحة معينة وليس هو واقعة الفتوى . فالمسئول عنه هو في الواقع ونفس الامر من المجهول وهو حلال بالاجماع .

واننا نعرض هذا أيضاً على علماء الاسلام في مصر وفي سائر الاقطار الاسلامية ونقول انه لايمكن رده ولا نقضه . ومن زعم خلاف ذلك فعليه بالبيان . وممن صرح بالاجماع في المسألة الطبري وابن كثير كما تقدم في الجزء الماضي

وأما محل الخلاف في مسألة التسمية من الكتابي وعدمها فهو إذا علم المسلم في ذبيحة معينة ان الكتابي لم يذكر اسم الله عليها أو ذكر اسم غيره ، وقد رأيت النقل من الجزء الماضي عن المفسرين في أن ممن قال بالحل من الصحابة (رض) أبا الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس ، ومن التابعين الزهري وربيعة (شيخ الامام مالك) والشعبي ومكحول وعطاء ، وأن الشعبي وعطاء سئلا عن اليهودي يذكر اسم عزير والنصراني يذكر اسم المسيح فقالا : ان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم مايقولون . ورأيت ان علياً وابن عمر وعائشة القائلين بالمنع انما قالوا : إذا سمعت الكتابي يذكر اسم غير الله فلا تأكل ، وهذه العبارة على كونها تشترط

السماع ليست نصا في التحريم إذ يحتمل أن يكون النهي للتنزيه . وإذا سلمنا انه للتحريم فلنا أن نقول: ان المسلم في الترنسفال يسهل عليه أن يأكل من اللحم الذي يجده في السوق لانتفاء الشرط ، وله أن يتورع في الذبيحة التي يسمع النصراني يذكر عليها اسم غير الله فلا يأكل منها ليوافق الاجماع في الحالين ، ولا تنس أن السائل لم يقل انهم يذكرون اسم غير الله . فعلمنا من هذا ان الفتوى في واقعتها ليست مؤيدة برأي القاضي أبي بكر بن العربي فقط بل هي مؤيدة بالاجماع . ومن الجهل العام أن يستطيع رجل جاهل بالشرع ، معروف بسوء القصد ، تشكيك بعض الناس في حلها

فان قيل : لماذا استدل المفتي بقول القاضي أبي بكر بن العربي من أئمة المالكية ولم يستدل بالاجماع ، إذا كانت المسئلة اجماعية كما قلت ؟

والجواب أن المفتي لم يكن في جوابه في مقام المناظرة والاحتجاج ، وانما سئل عن حكم الله فاستدل بكتاب الله لا بقول ابن العربي ، وبعد الاستدلال بالنص قال « وأرى أن يعولوا على ما قاله فلان في تفسير الآية » والغرض من ذلك الارشاد إلى الاخذ بالاحتياط في شبه مسئلة اختلف فيها الصحابة (رض) وهي ذبيحة نصارى بني تغلب قال علي كرم الله وجهه: لا تحل لانهم لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر ، وقال غيره منهم : تحل لانهم انتموا إلى النصرانية ولا يجب علينا البحث عن أعمالهم . فأراد المفتي أن يأخذ أهل الترنسفال بالاحتياط فلا يأكلوا إلا من الذبيحة التي يأكل منها القسيسون مع العامة ، وإلى ان الدين يسر يبيح أكثر مما في واقعة السؤال ، ولم يكن قول ابن العربي هو العمدة له في الاستدلال . وماذكرناه في مقالة الجزء الماضي يتضمن كل مالخصناه هنا ، ولكن الكلام هناك متشعب والنتائج فيه ممزوجة بالمقدمات والدلائل والنقول ، فاختصرناه هنا ليعقله كل قارىء . والمراد بالاجماع بشرطه : إجماع أهل السنة المحلين لذبائح أهل الكتاب دون الشيعة

﴿ تهافت المرجف في الفتوى ﴾

ماقام أحد بدعوة إلا ووجد من لبى دعوته حتى الذين أدعوا الالوهية من دون الله. وشبيه الشكل منجذب اليه . وقد بدأ بالارجاف في الفتوى رجل من محرري الجرائد الساقطة[1] عرف بالطعن في المفتي من عدة سنين حتى زعم انه ينكر وجود الله أو توحيده ، وحوكم في ذلك وفي مثله وحكم عليه غير مرة وسجن. ولما دفع أو اندفع صاحب الجريدة المحدثة إلى الارجاف استخدمه، فصار يكتب له باسمه وينقل بعض مايكتبه له في جريدته التي صرح فيها بانه المحرر لها، فصارا اثنين في (الظاهر) ولكنهما واحد في الحقيقة . ثم علمنا الآن ان صاحب (الحمارة) الذي حوكم قبل الآن في طعنه بالمفتي وسجن، وحدث السياسة[2] المشهور بالطعن في المفتي أيضاً قد انضما اليه أو اليهما فحدث السياسة رابعهم . فهؤلاء حماة الاسلام اليوم الذين يتبجحون بنصره والمدافعة عنه بتحريم ذبائح أهل الترانسفال وهي حلال باجماع أهل السنة والجماعة كما تقدم ، بل الحقيقة ان المعترض هو لاول وحده والآخران يصدقانه فقط

أما منفذ الارجاف فقد كان في أول الامر تسميته ذبائحهم موقوذة وقد أكثر اللغو في ذلك . ولما نشرت الجرائد المنتشرة المقالات المبينة أن حقيقة الموقوذة هي ماضربت بغير محدد حتى ماتت قبل أن تذبح وفيها حياة ، خرق له منفذاً ثانياً وهو ان أحبار اليهود وقسوس النصارى لايعتدون بذبيحة أهل الترنسفال. وقد أخذ بخناقه هذا المنفذ فخلط فيه أشد مما خلط في الاول إذ كان ينقل من العبارة فيها بعضها على حد « لاتقربوا الصلاة » يقتصر عليها من يريد تحريم الصلاة . واذا صح أن قسوس النصارى لايعتدون بتلك الذبيحة ولا يجيزون أكلها فالفتوى صريحة في تحريمها إذ فيها اشتراط أن يأكل منها قسيسهم وعامتهم ويتفقون على انها حلال في دينهم . فانظر كيف يناقض المرجف نفسه فيؤيد الفتوى من حيث لايفهم ، ثم يفندها من حيث لايعلم

(١) هو الشيخ محمد الشربتلي صاحب جريدة النهج القويم الاسبوعية (٢) مصطفى كامل

ثم خرق له منفذاً ثالثا وهو الطعن بابن العربي لان المفتي ذكره في فتواه وأيد رأيه في الاخذ بالآية الشريفة مع اعتبار ذلك الشرط المذكور آنفا . أما طريق هذا الطعن فهو أن بعض الفقهاء بحث في فتوى لابن العربي بحل مايخنقه الكتابي، وقد تهافت قول المرجف وتناقض في هذا أيضا . ونقل عن المالكية مايصرح بان فتوى القاضي ابن العربي صحيحة على خلاف، فيها وأن وجه النقد عليها من جهة العبارة فقط، وهو انه أطلق القول ولم يقيده بان يكون فتل عنق الدجاجة المسؤل عنه بقصد التذكية أي الاماتة لاجل الأكل فقد جاء في نقله عن المالكية بعد نقل ماقاله ابن العربي مانصه :

« ظاهر كلام ابن العربي التعارض ولكن جمع بينهما ابن عرفة ونصه: وقول »
« ابن عبد السلام : أجاز ابن العربي أكل ماقتله الكتابي ولو رأيناه يقتل الشاة »
« لانه من طعامهم : يرد بان ظاهره نوى بذلك الذكاة أولا وليس كذلك ـ فنقل »
« جميع ماتقدم عنه مختصراً وقال مانصه : قلت فحاصله أن مايرونه مذكى عندهم »
« يحل لنا أكله وإن لم تكن ذكاته عندنا ذكاة : اهـ » اهـ من جريدتي المرجف

وما قاله ابن عرفة وهو من أكبر فقهائهم موافق لما قلناه في الجزء الماضي من أن مجموع الاحاديث يدل على أن الذكاة هي ماكان ازهاق الروح فيه بقصد الأكل لامطلق التعذيب والاعدام . وظاهره أن مسألة فتوى ابن العربي لم يكن ينقصها إلا النص على أن فتل عنق الدجاجة يعد ذكاة اذا أرادوا به ذلك؟ وكأنه لم يذكره لدلالة القرينة عليه

ثم ذكر قولا آخر عن (المعيار) في المسالة وأنه أيد فتوى ابن العربي أيضاً وقولا آخر عن الزياني وانه سلمه . فعلم ان المسألة مسلمة عند فقهاء هذا المذهب

وانما أورد المرجف هذه النقول وهي حجة عليه لانه وجد أن بعض المتأخرين قال إن في هذا الكلام نظراً من وجوه . وقد تصفحنا تلك الوجوه فرأيناها غير وجيهة . فانه في أولها يستشكل تصديق أحبار أهل الكتاب ورهبانهم في ان هذا حلال عندهم، ويستدل على ذلك بان القرآن شهد عليهم بالتحريف والتبديل وثبت أنهم كذبوا بحضرة النبي ﷺ وانه عليه الصلاة والسلام قال «لاتصدقوهم ولا

تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم » وهذا الوجه حجة على ذلك المتاخر فان الله تعالى قد أطلق القول بحل طعامهم وهو عالم بذلك منهم وأخبر به نبيه والمؤمنين . فدل ذلك على انه لا يطالبنا ، بل يحرم علينا أن نعتمد على ما في كتبهم المحرفة وعلى أقوالهم فيها ، وانما يحل لنا أكل طعامهم من غير بحث عن حكمه عندهم ، وإنما طعامهم ما يأكلون إلا ما حرم لذاته كلحم الخنزير . وقصارى هذا أن فقهاء المالكية كابن العربي أخطأوا في اشتراط كون طعامهم مما يأكل منه رجال الدين عندهم . وهذا صحيح ولذلك قلنا في الجزء الماضي ان ما قاله ابن العربي وعول عليه المفتي هو من باب الورع، والظاهر ما عليه أكثر الصحابة من حل طعامهم مطلقا وإن لم يتمسكوا بشيء من كتبهم وأحكام دينهم كبني تغلب من متنصرة العرب

(والوجه الثاني) البحث في التفرقة بين لحم الخنزير وما يقتلونه بالعقر كالضرب بالشاقور . ونقول ان الفرق قد تقدم في الجزء الماضي نقلا عن كتاب (صفوة الاعتبار) وباقي الوجوه مناقشات في العبارات . على أن مقتضى هذه الابحاث أن لا يحل من طعام أهل الكتاب شيء إلا ما علمنا أنهم جروا فيه على أحكام الشريعة الاسلامية وما هم بفاعلين، فيكون قصارى قول الباحث أن الآية لا معنى لها ولم تفد حكما جديداً، وهو ظاهر البطلان. واذا اعتبرنا كلام المتأخر فأكثر ما فيه أن تكون مسألة أكل ما يخنقه أو يعقره الكتابي مختلفا فيه عند المالكية ويجب أن يكون من أعظم المرجحات ما كان أبعد عن الحرج المنفي بنص القرآن وهو قول القائلين بالحل . ولا يخفى أن هذا الخلاف ليس في موضوع فتوى مفتي الديار المصرية لان موضوع الفتوى في حيوان يذبح بعد ضرب بمحدد وهو حلال باجماع أهل السنة والجماعة كما تقدم . وانما يورد المرجف ذلك في الرد على الفتوى لايهام العامة الذين لا يعقلون

الفقه في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله

قد علم مما بيناه في الجزء الماضي من أنواع التذكية الشرعية أن الضابط العام الذي يجمعها كلها هو أن يكون ازهاق روح الحيوان بقصد أكله. ويشترط في ذلك

شرط ديني واحد وهو أن لا يكون فسقا أهل لغير الله به من مسلم أو وثني مشرك بالله كالذي كانوا يذبحونه على النصب، وهي حجارة تنصب ويذبح عليها للاصنام. وقد نهى بعض الصحابة عن أكل ما أهل به الكتابي لغير الله، وتقدم البحث فيه في مسألة التسمية وان الجمهور على خلافه. وذكرنا في الجزء الماضي ما يؤيد رأي الجمهور من كون آيات تحريم الاهلال لغير الله مكية الخ وتقدم أيضا ان ما أهل به لغير الله هو أشد المحرم تحريماً لان علته دينية تتعلق بجوهر التوحيد

ومن عجائب جهل عامة المسلمين بالدين في هذا الزمن أن صار فيهم قوم يهلون لغير الله من الشيوخ الميتين المعتقدين، ولا تكاد تجد لذلك منكراً. بل يذكر عن العامة أن بعض علماء الوقت يأكل من البهيمة (السائبة) للسيد البدوي عندما تذبح على اسمه في مولده وإن ذكر اسمه عند الذبح. وكأن هؤلاء المشايخ يكتفون في التأويل بأن الذبيحة تحل لان مريق الدم منسوب الى الاسلام ويذكر اسم الله وإن كانت سيبت أولا وسيقت آخراً لاجل التقرب إلى السيد البدوي ويقصد بها إرضاؤه والتماس الخير منه لذاته بدون ملاحظة شيء آخر، كما عليه البعض، أو لانه واسطة عند الله يفعل الله لاجله ما يريد هو أو يريد المتقرب اليه عند قبره أو في بلده! ولكن من يتدبر القرآن، ويتفقه في الدين، يعلم أن تحريم ما أهل لغير الله به على المسلمين حكمته أن لا يقعوا في مثل ذلك الذي كان عليه المشركون الذين كانوا يعتذرون به' حكاه الله عنهم بقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وإذا لم نصدق أن بعض المنتسبين للعلم يأكلون مما يذبحه بعض الناس للسيد وغيره فاننا نعلم أن هذا المنكر فاش ولا ينكرونه على العامة، ولو أنكره علماء الازهر والجامع الاحمدي لما استمر الناس عليه، بل لو أن الجرائد اليومية ساعدت المنار ورددت قوله في إنكار مفاسد الموالد لزالت كلها أو بعضها، ولكن الاهواء السياسية والشخصية لم تهب على هذه «الذات أنواط» ولكنها هبت على الشجرة الطيبة التي يستظل بها الاستاذ الامام تريد أن تزعزعها أو تقلعها ولكنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فلا تقوى عليها هذه الاهواء

بقي من بحث الفقه في التذكية وتحريم الميتة مسألة لم نذكرها في الجزء الماضي

لان المقال فيه كان قد طال وهي : ماهو الفقه في تحريم مامات حتف انفه ـ وهو المتبادر من لفظ الميتة عند الاطلاق ـ وماهو في معناه كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع منها إذا لم تذك اى يجهز عليها بقصد الاكل ـ ؟ وما الفرق بين الصيد يأتي به الكلب المعلم ميتاً فيكون حلالا، وبين ما أكل السبع منه فمات ولم تدرك ذكاته؟ وماضرب الانسان بعصا أوحجر فمات كذلك ولم يذك بالقصد؟ وما الحكمة في جعل القصد محللا ؟

والجواب عن ذلك فيما يظهر لنا بعد اعتبار تعظيم شأن القصد في الامور كلها ليكون الانسان معتمداً على كسبه وسعيه وهو الحكمة الاولى في ذلك ـ هو أن الميت حتف أنفه يغلب أن يكون قد مات لمرض او أكل نبات سام وبذلك يكون لحمه ضاراً كلحم الخنزير فان هذا قد حرم لضرره «راجع الجزء الثامن» فهذه حكمة ثانية

وثم حكمة ثالثة غير اعتبار القصد وخوف الضرر وهي ان الطباع السليمة تستقذر الميت حتف أنفه ولا تعده من الطيبات، والدين يربي الانسان على شرف النفس ولذلك أحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث . وأما ماهو في معنى الميتة حتف أنفها من المنخنقة والموقوذة الخ فيظهر في علة تحريمه كل ماذكر إلا حكمة توقع الضرر في الجسم فيظهر فيه بدلها تنفير الناس عن تعريض البهيمة للموت باحدى هذه الميتات القبيحة في حال من الاحوال ، وان يعرفوا ان الشرع يأمر بالمحافظة على حياة الحيوان وينهى عن تعذيبه أو تعريضه للتعذيب ويعاقب من يتهاون في ذلك بتحريم أكل الحيوان عليه إذا تهاون في حفظ حياته ، فان الرعاة يغضبون أحيانا على بعض البهائم فيقتلونه بالضرب، ويحرشون بين البهائم فيغرون الكبشين بالتناطح حتى يهلكا أو يكادا ، ومن كان يرعى أنعام غيره بالاجرة يقع له مثل هذا أكثر . ولو كان أكل ماهلك بتلك الميتات حلالا لما بعد أن يتعمد الرعاة وأمثالهم من التحوت(١) تعريض البهائم لها ليأكلوها بعذر . ويدل على هذه الحكمة أحاديث صحيحة، منها قوله ﷺ بعد النهي عن الخذف وهو الرمي بالحصى والبندق (الطين المشوي لذلك) : « انها لا تصيد صيداً ولا تنكأ عدواً ولكنها

(١) يعني السفلة

تكسر السن وتفقأ العين » رواه احمد والبخاري ومسلم .

هذا ماظهر لنا ومن آتاه الله حكمة وراء ذلك فليتفضل علينا ببيانها

ذكرنا هذا البحث في فقه الشريعة وحكمتها لان أحكام المعاملات والعادات معقولة المعنى كلها مبنية على قاعدة دفع المضرات وجلب المنافع ، وأما قول بعض العلماء ان أحكام الدين على قسمين قسم تعبدي نؤديه امتثالا لامر الله تعالى وان لم نعقل وجه فائدته ومنفعته ، وقسم معقول المعنى نمتثل فيه الامر من حيث نطلب به المنفعة المقصودة منه، فلا شك ان التعبدي منهما لايظهر له وجه إلا في أحكام العبادات التي يتقرب بها إلى الله على حسب ماوضع وشرع

ومن عجيب أمر علماء الرسوم وأهل الرأي انهم حكموا قياسهم ورأيهم في مسائل العبادة المحضة حتى زادت على النصوص أضعافا كثيرة وجمدوا على بعض أحكام العادات ولم يبحثوا عن عللها وحكمها بل منعوا أو كادوا يمنعون القياس فيها فتدبر

﴿ تأييد علماء العصر والجرائد للفتوى (*) ﴾

لما قام المرجف يلغط في الجريدة المحدثة بالانتقاد على الفتوى نفر طائفة من أهل العلم الى الرد عليه في الجرائد، فنشروا مقالات كثيرة أيدوا بها الفتوى بالنصوص القاطعة، والادلة الساطعة، ومن هذه الجرائد الاهرام والمقطم والوطن اليومية. وأما الاسبوعية الاسلامية التي كتبت فلم نحصها ولكن أشهرها جريدة (التمدن) التي يحرر مباحثها الدينية بعض الازهريين، والنيل، والممتاز ، والرائد العثماني، وقد نشر كاتب أديب في المقطم مقالة (عتاب صديق) للعلماء ولبعض الجرائد اليومية الاسلامية لعدم الكتابة في الموضوع فأحسن كل ما كتب إلا تعظيم شأن الخلاف وتكبير المسألة وهي صغيرة، ولم يخالف فيها إلا المرجف ومستأجره ، وأيده الحدث وصاحب الحمارة، ولذلك أجابه أحد العلماء المدرسين المؤمنين بجواب وجيز نشر في (عدد ٤٤٩٩) من المقطم وقد جاء فيه مانصه : « ولعمر الحق انما دعاهم ـ أي العلماء ـ الى السكوت

(*) هذه المقالة رد على زعم جريدة الظاهر ان مؤيدي المفتي هم السوريون وهي تابعة لما قبلها مما ننقله من المنار المؤرخ في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١

عنها وضوح السؤال والجواب، وعدم الحاجة الى رد أقوال المعترض على افتاء ليس عليه بنظر الشريعة غبار . أصل المسألة ذبيحة ضربت على رأسها ببلطة ثم ذبحت أتحل أم لا ؟ أفبعد قول السائل ثم ذبحت يتوهم أنها ميتة أو موقوذة ؛ كلا » الخ

أما سكوت المؤيد فالظاهر أن سببه عدم العناية بالجريدة المحدثة و كراهة إشهارها مع إعتقاد انها ضارة ، ولهذا لم يذكر اسمها الذين ردوا عليها أيضا . واذا كان هناك سبب باطن ايضا فليس لنا ان نبحث عنه وانما كلامنا في الظاهر فقط ، واما (الراوي) فقد كتب اخيراً مايدل على الانتصار للفتوى

وبينا نحن نكتب فى هذا المقام وردت علينا جريدة جديدة تسمى (الواعظ) فرأينا فيها مقالة وعظية لعالم مغربي عرج على القاهرة في طريقه الى الحج ،فلما قرأ مانشرت الجرائد في موضوع الفتوى كتب هذه المقالة وأرسلها الى بعض الجرائد الصامتة الساكتة فلم تنشرها فرغب الى صاحب الواعظ أن ينشرها ففعل فكان فعله مما حقق ان اسم الجريدة وافق المسمى . وقد رأينا أن ننقلها تنويهاً بالواعظ وتنبيهاً للناس الى مكانة المرجف من نفوس العلماء الغرباء ،بل على مكانة المصريين عند من يتوهم انه يروج فيهم مثل هذا الارجاف ومكانة الاستاذ الامام من نفوس عقلاء المسلمين في بلاد المغرب وهذا نصها :

﴿ المقالة الوعظية للعالم المغربي ﴾

« أيها المسلم . هل أتاك خبر ماشاعت الانباء من قيل وقال في فتوى الشيخ الامام ، وهل علمت ماكتبه الدار مما نص عليه الفقهاء والعلماء والصحابة وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام ، وما حدث في أوائل القرن الماضي في الديار المصرية؟

« تأمل وانظر كيف انعكست الاحوال وانقلبت ظهراً لبطن، وأصبح الدين آلة في أيدي رجال العلم ،يحرمون اليوم ماحلله آباؤهم من قبل ، ومعارضين فتوى السيد الامام ، وجمهور الفقهاء والصحابة والتابعين وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام . وياليت شعري أهـذا دليل على وقوع الامة في شرك الجهالة وانها ستتدلى الى أسفل سافلين ، أم ذلك تنافس يمحى ويزول ؟

« من المسلمين رجال يؤيدون الدين ويقومون بالاصلاح ويحافظون عليه

كالسيد الامام المفتي برأي الجمهور وما اعتمده العلماء ، فهل يرد عليه بما رآه الآخرون ؟ وهل يعترض بمذهب على مذهب ؟

«على ان هذه الشريعة السمحة البيضاء تشعبت فيها الاقوال ، ليأخذ العلماء من كل زمان بما يناسب الامة من أحوال ، ولا تكون ضيقا على عباد الله، إذ هي الشريعة التي ينتظر المسلمون وعقلاء النصارى أن تعم الارض كلها كما قال تعالى (والله متم نوره) وكما قال (ليظهره على الدين كله) فهل يليق أن نسمها بالحرج والضيق ؟ وقد اعتاد العلماء أن يقووا قولا ضعيفا ليأخذوا به عند الحاجة اليه . وليست فتوى السيد الامام من هذا القبيل وانما الكلام في ان الشريعة أوسع مما يضيقون

«ومالنا ولهذا وذاك ! كنا نقرأ في كتب الفقه ان المفتي والقاضي لا يوليان إلا اذا حازا درجة الاجتهاد كالائمة الاربعة ، وإلا كان تقليدهما باطلا، فهل يسمح الدهر بهم ، واذا سئل العلماء عن المجتهدين يقولون انقطع الاجتهاد من القرن السادس وكل قاض ومفت بعد هذا الانقطاع فهو قاض للضرورة ، وكأنهم بهذا حكموا على الامة أن تتدلى وتنقرض ، وقد حكموا بتطبيقهم هذا على الشريعة الغراء أن تتقاص عن الاحكام وحل محلها القانون السياسي

«من لنا بقوم يشعرون بما نقول ؟ وأنا رجل مغربي طالما تمنيت أن يكون في المسلمين رجال عظام ، حتى اذا مارأيت هذا السيد في بلادي قرت به عيني . وها أنا (ذا) قد وفدت الآن على مبعث أنوار عرفانه فوجدت لغطا دلني على ان القوم هنا لا يبالون بشريعتهم ولا رجالها

«ويا ليت شعري هل درى اخواننا العلماء انهم بتحريمهم ذبيحة أهل الكتاب يفتاتون على القرآن ؟

«القرآن أحل ماجرحته كلاب الصيد وقتلته . وعلم الله تعالى ان الانسان أفضل من الحيوان فاستدرك ذلك وأحل ذبيحة أهل الكتاب ، وإلا كانوا في نظر الشرع أقل من الكلاب ، وجل الله أن ينزل الانسان الدين في شريعة متممة للشرائع على أخس حيوان وأقبحه في نظرها ، مع ان هذا الدين جاء ليعم الارض كلها . وهو الذي أحل مناكحة الكتابي ومعاشرته ومجاملته ومعاهدته وأوجب الدية في قتله ،

ولم يجز قط الأكل في اناء ولغ فيه الكلب حتى يغسل سبع مرات احداهن بالتراب

« أيجوز لنا أن نأخذ الذبيحة من أنياب الكلب ولا نأخذها من بين يدي الانسان ؟ . . حاشا لله حاشا

« أظن اننا أصبحنا الآن أضحوكة في عيون الافرنج ومضغة في أفواههم ، إذ يسموننا بالوحشية المطلقة وديننا بدين الوحوش

« ذكر الله الصيد في أول سورة المائدة فلم يشأ أن يسكت عن أهل الكتاب علماً منه انهم أولى بالحل وهل ينقص النصراني الترنسفالي في نظر ديننا عن حيوان الصيد ؟ أو انه من التعصب الاعمى وعدم التفطن والنظر ؟

« وهل عرف أولئك العلماء حكمة الذبح المعتاد وشيوعه بين المسلمين بقطع الحلقوم والمريء مع قيام غيره مقامه في الصيد والدابة الشاردة والسمك والجراد والجنين في بطن أمه وغير ذلك ؟ .

« فليعلموا ان كل قتل بحسب الاصل موصل المقصود ولكن الله لحكمته ورحمته بنا وبالحيوان جعل بيننا قسمة عادلة ومنة عامة . فحرم علينا ما قتله الحيوان وما مات في الخلاء بغير قصد منا ، ليبقى ذلك كله للحيوان يأكله لانها أمم أمثالنا . وكأنه تعالى لم يرض ان نأكل ما لم نقصده ولم نفكر فيه . فأما المذكي والصيد والسمك والجراد ونحوها فانها كلها غالباً لا تؤخذ إلا بالنصب والتعب .

« هذا . ولما علم الله ان الناس منهم الجاهل والعالم والقوي والضعيف وضع قانوناً عاماً يشترك فيه عامتهم وخاصتهم في الذبح وهو ذبح العنق . ولو أباح أي ذبح لتفنن الناس في تعذيب الحيوان . فلله الحكمة البالغة

« هذا هو القصد من شيوع قطع الحلقوم والمرئ مع قيام غيرها مقامها في أحوال أخرى كالسمك والجراد والصيد وذبيحة الكتابي

« يا أيها المسلمون هل أنتم منتهون عن هذا ؟

« انه ليحزن العقلاء أن نتكلم في صغائر الامور وقد تركنا كبارها ، وهل يجوز إكبار لبس البرنيطة مثلا واستصغار تعلم اللغات ؟ وانها القتالة للعواطف القومية ، المجتثة لأصول المعتقدات الدينية من مغارسها في النفوس . تركنا كبار الامور

واستمسكنا بصغاوها وانه لعار عظيم . هلا قمنا وقمنا هذا القيام وهذا القعود لفروض الكفايات كالصناعات والسياسات التي ينطق بها القرآن ؟

« لقد دخلت بلادكم الافرنج مداخلة شربت بها القلوب والاجسام وأصبحت المنازل والابواب والثياب وكل شيء جديد فيها من آثارهم ، وولائد صناعاتهم ، فكيف تحللون هذا كله وتحرمون البرنيطة على الترنسفالي الذي لا قوة له ولا استقلال ، يلبسها للضرورة ـ لعل العلم وقف على الظواهر ولم يعبأ بالبواطن بل بالقشر دون اللب .

« ان الشيخ الامام حين قرأ الدرس في بلادنا المغربية في هذا العام فهمنا ان مصر كعبة العلم ومنبع الفضل ، مؤيداً لما كنا نسمع من قبل ، ولكن لما زرتها تزلزل يقيني في ذلك ، وما هو عندي بمهم في قوله ، فلعلي عند رجوعي من الديار الحجازية أستنشق روح الوفاق على تأييد الحق ، وما هو ببعيد »

(المنار) يظهر أن الكاتب صدّق المرجف في زعمه ان العلماء خطأوا الفتوى وان سبق له القول بان شيخ الازهر وعلماءه لا يخالفون المفتي !! وفي هذه المقالة بيان حكمة رابعة لتحريم الميتة وما في معناها وهو جعلها من حظ الحيوانات التي تأكل اللحم رحمة بها

(تأييد واقعة الفتوى بمذهب الحنفية خاصة)

(تابع لما نقل عن المنار المذكور)

أشرنا في الجزء الماضي إلى أن الفتوى مؤيدة بالكتاب والسنة وعمل السلف وإلى ان خلاف الحنفية في مسألة التسمية ليس في شيء من واقعة الفتوى التي أفتى فيها مفتي الديار المصرية لان الحكم في واقعتها مجمع عليه . وقد رأينا أن ننقل بعض ما قاله الحنفية إتماما للموضوع ، حتى يعلم ان المفتي موافق لمذهب الحكومة المصرية ، وإن لم يكن ذلك واجباً عليه لا سيما في المسائل الدينية الشخصية ، خصوصاً إذا لم يكن السائل عنها من رعية هذه الحكومة . وقد كنا راجعنا ما في الفتاوى الحامدية ثم جاءتنا رسالة من بعض شيوخ الحنفية المتخرجين في الازهر يذكر فيها نص الفتوى بعد مقدمة في إنكار إرجاف المرجف ، ثم ذكر ما يؤيدها من كتب التفسير وأقوال السلف وختم الكلام بما نصه :

بقي علينا أن نوضح موافقة الفتوى لفروع الفقه الحنفي فنقول « في كتاب (العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية) للمرحوم المحقق العلامة السيد محمد بن عابدين رحمه الله: سئل في ذبيحة العربي الكتابي هل تحل مطلقاً أو لا ؟

(الجواب) تحل ذبيحة الكتابي لان من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم أودعوى كالكتابي، ولانه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى وتحل مناكحته فصار كالمسلم في ذلك ؛ ولا فرق في الكتابي بين أن يكون ذمياً يهوديا أو نصرانياً حربياً، أوعربياً أو تغلبياً، لاطلاق قوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) والمراد بطعامهم مذكاهم. قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قال ابن عباس رضي الله عنهما :طعامهم ذبائحهم ـ إلى أن قال ـ وهذا إذا لم يسمع من الكتابي أنه يسمي غير الله تعالى كالمسيح والعزير ، وأما لو سمع فلا تحل ذبيحته لقوله تعالى (وما أهل لغير الله به) وهو كالمسلم في ذلك. وقال بعد كلام :لكن في مبسوط شمس الائمة : وتحل ذبيحة النصراني مطلقا سواء قال ثالث ثلاثة أو لا ومقتضى الدلائل وإطلاق الآية الجواز كما ذكره التمرتاشي في فتواه

فمفاد ما ذكره صاحب المبسوط حل ذبيحته مطلقا سواء سمى عليها أو سكت عن التسمية أوقال ثالث ثلاثة لان قوله : أولا ، داخل تحته ما إذا سمى الله وما إذا لم يسم أصلا بدليل قوله بعد ذلك: ومقتضى الدلائل وإطلاق الآية الجواز ، فمن هنا يعلم ان هذا القول موافق للفتوى من غير نزاع في ذلك وهو قول صحيح في المذهب

يدل على ما ذكره ما قاله صاحب كتاب فتاوى الهندية حيث قال : ثم إنما تؤكل ذبيحة الكتابي إذا لم يشهد ذبحه ، ولم يسمع منه شيء ، أو شهد وسمع منه تسمية الله وحده، لانه إذا لم يسمع منه شيء يحمل على انه قد سمى الله تعالى تحسينا للظن به كما بالمسلم ـ ثم قال بعد ذلك : المتردية والمنخنقة والموقوذة ، والشاة المريضة والنطيحة ومشقوقة البطن إذا ذبحت ينظر : إن كان فيها حياة مستقرة حلت بالذبح بالاجماع ، وإن لم تكن الحياة فيها مستقرة يحل بالذبح سواء عاش أو لا يعيش عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وهو الصحيح وعليه الفتوى، كذا في محيط السرخسي، اهـ

فمن هذا كله يتبين للقراء ان ما أفتى به فضيلة مولانا الاستاذ مفتي الديار المصرية موافق لاصول مذهب أبي حنيفة رحمه الله ولا خلاف في ذلك، فالموقوذة التي لم تمت اذا ذكيت حل أكلها سواء كان المذكي لها مسلما او يهوديا او نصرانيا لانها قبل موتها لاتسمى موقوذة كما افاد ذلك العلامة الطبري فيما ذكرناه . وفي هذا القدر كفاية لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» اهـ (التوقيع محفوظ)

﴿ الاستدلال على سوء قصد المرجف ﴾

(منقول من الجزء ٢١ من المجلد السادس من المنار)

(كتبنا هذه المقالة في ذلك الوقت رداً على ما كتبه صاحب جريدة اللواء الملقب بحدث السياسة تأييداً لصاحب جريده الظاهر الملقب بالمرجف في عدد اللواء المؤرخ في ٢٦ شوال سنة ١٣٢١ أي قبل صدور تقرير المرجف بثلاثة أيام وشهد له في مقالته بحسن النيـة وصحة القصد في إظهار فساد الفتوى ومخالفتها للشرع الشريف، وأنكر على أنصار المفتي مايكتبونه من المقالات في الاهرام والمقطم في الطعن عليه واتهامه بسوء القصد ، وما جرت اليه المناقشة من مر الكلام، والسب والطعن والخصام ، وقال مصطفى كامل بك في هذه المقالة « ان العالم العامل من يسال الناس مناقشته ومجادلته لا الركوع أمامه والامتثال لاقواله خطا كانت أو صوابا ، ويطالبهم أن يكونوا عبيداً له أو أصناما ، بل رجالا ذوي افهام ومدارك »
وقال انه أمسك القلم عن الكتابة في الموضوع انتظاراً من فضيلة المفتي لتبرير فتواه وتفسير ما أغمض على الناس منهـا . وذكر أنه إن قال أنصاره انه لايليق بمقامه أن يقرأ كلام المعترض ويرد عليه فانه يجيبهم بانه ليس أكبر من عمر بن الخطاب الذي قال من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه. ورضاه عن جواب الاعرابي له...
وهذا عين ماقاله أبو شادي بك في تقريره ...)

انفرد باللغط في المسألة صاحب الجريدة الحدثة وهي من الجرائد التي تلقب في مصر بالساقطة ولقبناها في الجزء الماضي بالسياسية ايماء لما يتحدث به الناس من ان هذا لغط يقصد به عمل سياسي في الازهر ، واستدلوا على هذا بسكوت حدث السياسة عن مشاركته بهـذا اللغط مع انه كان ينتحل الشبه البعيدة للتعريض والتشهير بالمفتي، لان الحدث متهم بتلك السياسة ومعروف بالغرض. ثم شاع ان الجريدة الحدثة لما أساءت اللغط وخرجت عن الموضوع الى السباب والمهاترة

والتناقض قيل انها لم تصادف من الجانب الذي كان يظن انها تتقرب اليه إلا البعد والسخط، ولذلك تكلم الحدث بعد طول الأزم، فأيد الباطل وخذل الحق، وصور المسألة عن السائل بأن أهل الترنسفال « يضربون الانعام بالبلط فأفتاه المفتي بانها حلال » وقد علم القراء من نص السؤال في الجزء الماضي ان السائل قال انهم يذبحون البقر بعد الضرب بالبلط ويذبحون الغنم من غير ضرب. فانظر الى تحري هذا الحدث البعد عن الصدق، لايهام الناس خلاف الحق، ثم انه يسأل كصاحب الجريدة المحدثه أن يتنازل المفتي لقراءة لغوهم ومجاوبتهم عليه. ونحن نعلم علم اليقين أنه لم يقرأه ولن يقرأه عملا بقوله تعالى في صفات المؤمنين (والذين هم عن اللغو معرضون) وانه اذا سمعه يأخذ بقوله تعالى فيهم (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير)

ولو كان الحدث وصاحب الجريدة المحدثة يطلبان الحق في المسألة لما بادر أحدهما الى بذل ٣٠ جنيها من أصل (١٢٠) . . . في ورقة الفتوى ليشنع عليها إذ توهم ان وراءها مؤاخذة رسمية، لكان بادر عند العلم بها الى الامام المفتي وسأله ايضاح الاستدلال بالآية الكريمة التي استدل بها ودفع الشبهة عن الاستدلال ان كانت هناك شبهة . ولولا سوء القصد لما حرفا السؤال بعد مانشره المرجف . فانه نشره أولا بنصه ثم نشره ثانياً في تقريره على نحو ماأورده الحدث فانه زاد عليه قوله « حتى تشرف على الموت » ولم يقل السائل ذلك ولو قاله لما كان مانعاً من حل الذبح عند الجمهور ، ولولا سوء القصد لما غير المرجف في تقريره سؤال المستفتي عن لبس القلنسوة بعد نشره في جريدته صحيحاً فزعم أخيراً انه قال انهم يلبسونها تشبها بالقوم من غير سبب ! وهذا كذب صريح . والفتوى صريحة في اشتراط عدم قصد التشبه

ولو كان المرجف يطلب معرفة الحق في المسألة لما ترك النصوص التي أوردناها في المسألة ولما ترك استفتاء شيخ الازهر وعلماءه في مصر أولا كما كتب في بعض الجرائد وزعم انه سيستفتي شيخ الاسلام في الاستانة وحاخام اليهود وبطريق النصارى، ثم اقتصر على استفتاء حاخام اليهود القرائين في ذبيحة النصارى ثم اكتفى

بمقالة في جريدة يهودية تفصل ما أحل لليهود من حيوان البر والبحر وما حرم عليهم ، وتذكر شروط الذبح عندهم ، ومنها أن يكون الذابح بدرجة من العدالة قلما توجد في الناس اليوم ، وان يكون مستقبلا بيت المقدس . ويزعم المرجف ان الله لا يحل لنا ذبيحة النصراني إلا إذا كان مستوفياً لتلك الشروط ، فهو يلزم النصراني بأن يتبع شريعة التوراة ، وان كان القرآن مصرحا على لسان عيسى عليه السلام بقوله (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فكأنه يلزمهم بعصيان عيسى فيما نسخه من أحكام التوراة ليكونوا نصارى تؤكل ذبائحهم . على أن الله تعالى أخبر عن اليهود النصارى بأنهم لم يقيموا التوراة والانجيل وانهم يحرفون الكلم عن مواضعه ليوافق أهواءهم ثم انه في السورة التي يذكر فيها هذه الاحكام عنهم يحل لنا طعامهم فهو تعالى أعلم بعقائدهم وباعمالهم وباقوالهم ، وقد أحل لنا ذبائحهم ولم يكلفنا أن نقرأ قبل أكلها كتبهم ونطبق أحكامها على الذابح ، بل ورد في الحديث « لاتصدقوهم ولا تكذبوهم » أي فيما يخبروننا به عن شريعتهم ، ولكن صاحب الجريدة المحدثة يصدقهم ويحتج بكتبهم ويقيد بكلام جريدة من جرائدهم إطلاق القرآن حل طعامهم ، وذلك لان مفتي الديار المصرية قال بوجوب الاخذ بهذا الاطلاق ، ثم يرجع فيقول لايعمل باقوالهم ! ولكن المفتي يقدم نصوص القرآن على كل شيء كسائر أئمة المسلمين ، فهل نترك القرآن لان المفتي مستمسك بالقرآن والمرجف لا يرضيه منه ذلك ؟

﴿ اهانة المرجف للعلماء وتعريضه بالامير ﴾

(من جزء المنار ٢١م٦ المؤرخ في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١ (١٩ ينا يرسنة ١٩٠٤)

لما قال المرجف انه يريد استفتاء شيخ الاسلام في الاستانة كتب بعض المنتقدين في الجرائد يتعجب من اهماله استفتاء شيخ الاسلام وعلماءه في مصر وهم أعلم بالشريعة من علماء الترك ، وجعله شيخ الاسلام مقدسا كالبابا فاجاب عن ذلك بما نصه (ع ٦٤) :

« أجل لاننكر اننا نوينا رفع الفتوى إلى مقام مشيخة الاسلام في دار الخلافة ،

ووصفناها بما تستوجبه حياطتها الدينية من القداسة ، ولكننا لم نحط من كرامة مشيخة الازهر الجليلة إلا أننا نعلم أن المفتي وشيخ الازهر توأمان متلازمان فلا يقول أحدهما بما يباين قول الآخر !! ولا نجهل النفوذ الذي للمفتي على الازهر ومن فيه من المستضعفين الذين يخشون الشيخ ويتقون بطشه بهم، وقد رسخ هذا الوهم في نفوسهم وتولدت منه مخاوف هوت بأفكارهم وسقطت بمدارك بعضهم، حتى صغرت قيمتهم في نظر أنفسهم ، وعلى ذلك شواهد محسوسة لا تحتاج إلى إيضاح » اه بحروفه

فلينظر المسلمون إلى هذا المرجف كيف يطعن بفضيلة شيخ الازهر وسائر علمائه ، ويزعم ان المفتي قد استخفهم فأطاعوه، حتى في خلاف مايعتقدونه ديناً ، كأنه فرعون مصر المستبد فيها . ثم هو بعد ذلك لايستحي ان يقول في ورقته إن علماء الازهر قد جاءوا إليه وتبرؤا من الفتوى ومؤيديها، و في تقريره أن علماء الازهر كتبوا إليه بأن عدم استناد مفتي الديار المصرية في فتواه للترنسفالي إلى نصوص مذهب أبي حنيفة يقتضي انه مجتهد ، وأنه بذلك صار معزولا من وظيفة الافتاء !! (اه من ص ١٤)

فلينظر أصحاب البصر والبصيرة إلى تعارض قوله في العلماء تارة يجعل رئيسهم ومرءوسهم تابعاً للمفتي وإن أخطأ ! وتارة يجعلهم متهجمين على القول بعزله من وظيفته ! فهل يصدق عاقل نقل هذا المرجف على تعارضه ، وبعد مايرى من تحريفه السؤال والجواب ، وتهاونه في خلط مايزعم انه نقل عن الكتب او العلماء ومزجه بأقواله ؟؟

وقد ذكر في بعض ماكتب في المقام غيرة الامير على الدين وان عزل المفتي وأمثاله بيده . وان العلماء رفعوا الامر إلى سموه ، وللقاريء أن يستنبط من هذا أن الناقل كاذب في دعواه أو ان الامير أعزه الله قد علم ان الذين كتبوا اليه ليسوا من العلماء الذين يعتمد على قولهم في الدين ، ولولا ذلك لما أبقى المفتي في منصبه، ويقول : اذا صح أن بعض العلماء كتب للامير بان الفتوى غير صحيحة وأن أكل الذبائح المسئول عنها حرام في مذهب الحنفية الذي يتقلده، وانه صدقهم

ولم يصدق النصوص التي أوردناها في اثبات حلها بالاجماع أو برأي الجمهور ومنهم أبو حنيفة، فلا شك ان سموه يترك أكل اللحوم في أوروبا ولو على موائد الملوك والامراء. فان جميع ذبائح أوربا على الطريقة التي صدرت الفتوى باثبات حلها، بل هي أبعد منها عن النصرانية لان نصارى الترانسفال متمسكون بدينهم متعصبون له كما جاء في الفتيا . وأما أهل أوربا فقد تساهل أكثرهم بها ، بل مرق الكثيرون منها ، وانهم ليخنقون الطيور خنقا ولا يذكرون اسم الله على شيء من ذبائحهم على مايقال ، والامير أعزه الله أعلم بحقيقة الحال

ولعلنا نبين في الجزء الآتي شروط المفتي[1] ومايجب أن يعتمد عليه في الفتوى مؤيدة بنصوص العلماء . وربما ألممنا بشروط صحة الولايات التي يملك صاحبها نصب القضاة والمفتين وأهمها الاستقلال بذلك والقدرة عليه وعلى تنفيذ الاحكام الشرعية ... وليس الغرض من هذا الذي كتبناه كله وما سنكتبه الرد على المرجف فانه في تهافته بحيث لايعبأ به ، ولكن الفرص سنحت لبيان أحكام الدين في هذه المسائل وازالة الشبهات عنها فلم نغفلها اه

﴿ كتاب من الترنسفال . في البحث عن حقيقة الفتيا والسؤال ﴾

بعد كتابة ماتقدم جاءنا كتاب من امام المسلمين في الترنسفال وهو من مشتركي المنار يذكر فيه صورة الاستفتاء والجواب على نحو مانشر إلا ان في الكتابة غلطا أكثره من الاملاء ويقول المرسل انه عرض الفتوى على العلماء وان الشافعية قالوا قد حصل فيها غلط بقوله « إزهاق روح الحيوان بأي طريقة كانت » وقال انه توقف عن إرسالها حتى يصححها من جميع العلماء هناك « على أي حال كانت إن شاء الله تعالى » وقال في رأس الكتاب « ولا نعلم هل هي جوابات الاستاذ الامام حفظه الله أو غيره » اه بحروفه

(ج المنار) قد علم السائل من الجزء الماضي أن هذه الاسئلة عرضت على

---

(١) قد حققنا هذا الرجاء ولكننا لم نر نشر ذلك كله في التاريخ فمن شاء الوقوف عليه فلينظره في (ص ٨٩٠ من المجلد السادس)

الاستاذ الامام وانها غير مفهومة كما قال . ولذلك جاءت الاجوبة عن مفهومها لاعن نصها كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الماضي . وقد عهد في السنة ان النبي ﷺ كان يجيب السائلين بمثل ذلك. وأما توقف الشافعية فيما ذكرتم فهو لا يستلزم أن يتوقفوا في حل الذبائح عندكم لان ذبيحة الكتابي التي لاتعلم كيفية تذكيتها حلال باجماع أهل السنة . وما علمت كيفيته ففيه تفصيل. والجمهور من الصحابة والسلف على ان ذبائح أهل الكتاب حلال على الاطلاق ، ولغير الجمهور خلاف في بعض الصور . فالشافعية يحرمون ماذبح وليس فيه حياة مستقرة اذا تقدم ذبحه سبب يحال عليه الهلاك، فاذا علموا في ذبيحة معينة أنها كذلك فلهم أن يجتنبوا الأكل منها ، وإن أباحها جمهور السلف الصالح الذين لم يشترطوا الحياة المستقرة، وانما اشترطوا أن يكون فيها وقت الذبح رمق واكتفوا من الدليل على ذلك بحركة أي عضو من الاعضاء ، وذلك مايعبر عنه الشافعية بحركة المذبوح وقد رأيتم النقل عن المفسرين في ذلك

وأما لبس البرنيطة فلا دليل في الكتاب ولا في السنة على منعه . وحديث « من تشبه بقوم فهو منهم » عند أبي داود والطبراني وابن رسلان ـ اذا سلمنا انه حسن كما قيل ـ فلنا ان نقول ان معناه أن من يتشبه بقوم يعامل معاملتهم في العادة فينبغي للانسان أن يتشبه بالكرام دون اللئام لكي يكرم ولا يهان ، وقد قال الفقهاء ان التشبه لا يتحقق إلا بالقصد وانه مكروه في الامور العادية كالملابس تنزيها ، واما في الامور الدينية فان قصد به الكفر يكفر وإلا كان حراما . وهذا البحث مفصل في كتاب (الاعلام بقواطع الاسلام) لابن حجر المكي الشافعي فراجعوه ولذلك قال الاستاذ الامام في جواب سائلكم «أما لبس البرنيطة اذا لم يقصد فاعله الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً . واذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبه بالمرة » اه

على ان لبس البرنيطة ليس خاصا بأهل دين من الاديان فالمسلمون قد لبسوا نوعا منها قبل أن يعرفوا الافرنج سموه البرطلة في بلاد النبط ومن جاورهم من

العرب ، وكذلك أهل الافغان ألبسوا بعض العسكر نوعا منها قبل أن يعرفو الافرنج ، ومسلمو الفرس يلبسون ضربا منهـا أيضاً ، ومثلهم أهـل تركستان وخيوه وبخارى والتركمان والافغان والشركس وأهل داغستان، وكذلك فرسان الترك . ويقال انه لايزال طائفة من مسلمي المغرب الاقصى يلبسون ضربا منها يسمونه المظلة . وقد علمتم أن سلطان المسلمين الاكبر وأكثر أمرائهم قدأخذوا زيهم عن النصارى ، بل جعلت الدولة العلية زي العلماء الرسمي شبيها بزي القسيسين الديني لاالعادي، فشيخ الاسلام في الاستانة مخصوص بالحلة البيضاء كبطريق الروم، وسائر لبوس التشريف للعلماء عندها مرتب على ترتيب لبوس القسوس في الكنائس أيام الاعياد . وربما نعود إلى توضيح هذه المسائل، ونقول لكم الآن ان الفتوى التي وصلت اليكم صحيحة ولا يلتفت إلى قول من يخالفها فانه جاهل بالدين والله أعلم

﴿ تأييد علماء الآفاق للفتوى ﴾

استنجد محمد بك أبو شادي علماء الامصار الاسلامية في الشرق والغرب وطالبهم بالرد على فتوى مفتي الديار المصرية المعروفة بالترنسفالية فاحتقره العلماء ولم يرد عليه منهم أحد لانه طلب منهم أن يلبسوا الحق بالباطل، ويجعلوا الحلال حراما بالتبع له . وأما نحن فقد جاءتنا مقالات تؤيد الفتوى وما شرحناه في توجيهها وتفصيل الأدلة عليها. نشرنا بعضه في المنار ومنه رسالة من فاس للعلامة الفقيه الشيخ المهدي الوزاني،ورسالة من تونس لم أذكر اسم مرسلها هنالك وهو العلامة الفقية الشيخ طاهر بن عاشور باش مفتي المالكية في هذا العهد، وكنت قد وعدت بنشر شيء منها في هذا التاريخ ثم رأيت البحث قد طال وربما يمل قراؤه ما نشرناه كله في هذه المسألة فتركت الزيادة عليه، ولكنني أنشر مقدمة ما جاء في الجريدة الاسلامية الهندية التي تصدر في (عليكرة) منبع النهضة الاسلامية حيث مدرستها الكلية وهذا نصه (من ص ٢٣ من المجلد السابع)

هل ولد السيد احمد خان ثانية في مصر

وظهرت جريدته (تهذيب الاخلاق) بشكل المنار

ان الله قد وهب المرحوم السيد احمد خان طبعا سليما ودماغا عجيباً ، فبينما العلماء الاعلام، والفقهاء الكرام ، يشتغلون عامة بوسائل التقليد وطرقه وينهمكون في البحث بعبارات أمثالهم، كان السيد يبحث في أصول الدين ومقاصده بحث المجتهد المحقق ، وانبرى بهمة (أسدية) قوية لاظهار الاسلام بصورته الاصلية الاولى، ينزع لباس التقليد عنه ، وإزالة شوائبه منه ، إذ كان شيوخ الملة المقيدين بقيود التعصبات والاوهام، قد جعلوا أحكام الحنيفية السمحة البريئة من الحرج في غاية الضيق والشدة ، وحكموا فيها الرسوم والعادات فجعلوها مذهبا وشريعة . عني السيد بتحقيق العقائد والاحكام وبيان الحق ، ولم يخف في مخالفة الجمهور لومة لائم، ففصل بين العادة والعبادة، وبين الرسوم الموضوعة، والاحكام المشروعة، ليخرج المسلمين من تلك الاوهام ، ويعود بهم إلى أصل الاسلام ، ولما أنشأ يطبع تحقيقاته وينشرها علت الجلبة والضوضاء ، وصاح مع العامة العلماء والفقهاء : قد كفر قد كفر : وطلبوا من الحرمين الشريفين الفتوى بتكفير السيد، والغالب انه لم يكن في ذلك الوقت أحد من المسلمين في الهند إلا وهو ينظر إلى أفكار السيد وتصوراته بعين الحيرة والتعجب .

لعل أكثر الناس يتذكرون ذلك الزمان الذي أجاز السيد فيه لباس الانكليز وأباح الاكل معهم، وقال ان اللباس ليس من الامور الدينية بل من الرسوم والعادات ولم يحكم الشرع بالتزام زي يختص به المسلمون ، وأما الاكل فهو حل بنص الآية

القرآنية ، ويتذكرون كيف هب العلماء للرد عليه واستدلوا بحديث « من تشبه بقوم فهو منهم » وكفروا السيد . ولكن الاقوال التي قالها السيد منذ ثلاثين سنة، يقولها الآن أشهر العلماء في الممالك الاسلامية ، والافكار التي أظهرها السيد في الماضي يظهرها في هذا الوقت مفتي الديار المصرية بالحرية التامة و « النظافة » ونحن الآن نترجم الفتوى بحل طعام أهل الكتاب ولباسهم، ولكن لا ندري ماذا يقول الناس في هذا ـ اتفاق الحاضر مع الماضي ـ فان كان المسلمون قائلين بالتناسخ فليقولوا ضرورة بان السيد قد ولد (ثانية) في مصر وظهرت جريدته (تهذيب الاخلاق) في شكل (المنار) » اه المقدمة

(المنار) لتعتبر الجريدة المحدثة بأقوال علماء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها فان كانت كتبت ما كتبته من الطعن في الفتوى عن جهل وكانت تريد باستنجاد مسلمي الآفاق بيان الحق فهاهم أولاء قد أيدوا الفتوى فعليها أن تعترف بخطئها وتتوب إلى ربها . وياليت أصحاب الجمود ودعاة التأخير يعلمون ان الاستاذ الامام وحزبه هم الذين يخدمون الاسلام والمسلمين في هذه البلاد دون سواهم ، وأن عقلاء المسلمين في جميع الاقطار معهم ومؤيدون لدعوتهم، ومرتبطون معهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم . فلا يغتر حزب التأخير ، بمال فلان الغني وجاه فلان الامير ، فان الحق يعلو ولا يعلى وان حزب الله هم الغالبون . اه

اكتفي بهذا هنا . ومن شاء ان يطلع على نموذج من الفتاوى التي كان يحيلها الاستاذ الامام على مؤلف هذا الكتاب ويأذن له بنشرها في المنار فليراجع في ص ٥٧٤ من مجلد المنار السابع تلك الاسئلة التي وردت عليه من (الهند) وهي ستة اهمها حكم قبول الوظائف من حكومة الهند والحكم بقوانينها واجوبتنا عنها .

المقصد السادس

من الفصل السادس

عمله في مجلس شورى القوانين

صدر الأمر العالي بتعيين الاستاذ الامام عضواً في مجلس شورى القوانين في ١٨ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ وبعد ثلاثة أيام حضر جلسة المجلس فقدمه الرئيس الى الاعضاء فهنؤه بهذه العضوية مستبشرين، ولما لم يكن في المجلس شغل أجلت الجلسة الى أول أغسطس، وكان رئيس الجمعية عمر لطفي باشا، وهو أبغض الناس اليه بعد سلطان باشا لما علمه من خيانتهما لوطنهما كما تقدم فيما نقلناه من مذكراته (راجع ص ٢٣٣ و ٢٤٧ و ٢٤٩ و ٢٥٠) وقد قال لي يومئذ انه ليشق عليّ أن أحضر جلسات هذه الجمعية تحت رياسة هذا الخائن لوطنه الجاني عليه، وأنا لاأستطيع أن أراه ؟ فكيف أعمل في مجلس هو رئيس له ؟ وتوجه الى الله أن يجعل له مخرجا من هذه الحيرة أو المشكلة، فلم يلبث أن مات عمر باشا فجأة في ٩ ربيع الاول ١٧ يوليو، فما رأيته سرَّ بموت أحد سروره بموت هذا الرجل، لا لخيانته السابقة بل لانه كان يشق عليه أن يعمل في مجلس هو رئيس له ويضطر فيه الى مخاطبته، على ما كان عليه من الحلم وسعة الصدر والعفو والصفح ولكن عمن أساء اليه لا إلى وطنه، كما سنذكره في الكلام على أخلاقه، وفي هذه المسألة فائدتان إحداهما توجه الى العوام، والأخرى الى الخواص

(الاولى) لو كان الاستاذ من الدجالين الذين يدعون الولاية لعدهذه الحادثة أو لعدها له من يعنون بهذه الأمور من كراماته، أو لقالوا انه تصرف بعمر باشا لطفي فقتله بالتوجه أو بالهمة أو بالدعاء، كما يقولون مثله فيمن يسمونهم الاولياء المتصرفين في الكون، ولو رويت هي أو مثلها للدجال النبهاني الذي تصدى لجمع ألف كرامة لأولياء عصره - كما قيل لنا - وعزيت الى غير الاستاذ الامام من مشايخ

الطريق المعروفين، أو المجاذيب المجهولين، لكتبها وعدها من أكبر الكرامات ، ولكن الامام الحكيم المصلح المقاوم للخرافات ، لايمكن أن يكون عندهم من أهل الكرامات ، بل لايثقون بدينه وايمانه ، لان الدين في نظرهم عدو للعقل والحكمة ، وصديق للخرافات غير المعقولة ، وكيف لا وقد روى لهم بعض الوضاعين أن نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه دعا على غلام مر بين يديه وهو يصلي فابتلاه الله تعالى بالكساح أو الفالج ، وعاش عمراً طويلا وهو عبرة للناس ومعجزة بزعمهم للنبي (ص) ولم يستشكل الخرافيون من علمائهم من الرواية إلا انها عقاب لغلام غير مكلف شرعا ، وانتحلوا لذلك أجوبة تدل على فساد عقولهم لا على جهلهم فقط

لولا ان الدين عند هؤلاء حليف الخرافات لاستشكلوا هذا الحديث ببطلان متنه ، لو فرض ان المحدثين قالوا بصحة سنده ، لان الرسول الذي وصفه ربه وامتن به على قومه بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) وامتن عليه بقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ما كان ليدعو على غلام ولا على رجل كبير يمر بين يديه بأن ينتقم الله منه طول عمره ، وقد ثبت في شمائله الصحيحة انه ما كان ينتقم لنفسه ، وانه لم يأذن بعقاب اليهودية التي أطعمته وبعض اصحابه الشاة المسمومة ، وانه قال في المشركين الذين قاتلوه وشجوا رأسه وكسروا سنه « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون »

بعد هذا البيان أقول انه يصح أن يكون موت عمر باشا لطفي فجأة في ذلك الوقت كرامة للاستاذ الامام ، لا من باب التصرف المزعوم والانتقام بخوارق العادات ، بل من باب توفيق أقدار لأقدار ، بما فيه الفرج والمخرج أو الفائدة لبعض الاخيار ، فيا عون لهم على نفع الناس

(الفائدة الثانية) المقصودة بالذات الاعتبار بوطنية الاستاذ الامام وأخلاقه ، وبيانها ان أكبر عيوب كبراء أمتنا والخواص فيها ، أن عيوب الوجهاء عندهم مغفورة ، فمهما يفعل الامير أو الوزير أو المدير أو الغني من خيانة او فسق أو ظلم فانه لايجد في معاشريه ولا غيرهم من اهل عصره من يحتقره أو يهجره أو يتجهم له لأجل ذلك او ينكر عليه فعله بالكتابة ، بل لايجد أحدا يقصر في تعظيمه وتكريمه.

هذه جريدة المؤيد الوطنية الاسلامية التي هي أجدر جرائد مصر بمعرفة تاريخ وقتها ورجال وطنها قد قالت عقب ذكر موت هذا الرجل الخائن الذي كان من ممهدي احتلال الانكليز للاسكندرية بل طلبه بالفعل: انه كان «في كل وظيفة وعمل معروفا بالجد والاجتهاد والحزم والنشاط، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق»

فانظر الفرق العظيم بين الشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف في الشعور الوطني والاخلاق، قلما يوجد أحد في مصر يغمص الشيخ علياً في وطنيته، أو يصفه بجهل تاريخ مصر وسيرة رجالها في عصره، لكنه قد جرى على ما تعود الكتاب وغيرهم من مداهنة الوجهاء. في حياتهم او اولي قرباهم بعد مماتهم

فلو كان أهل العلم والوجاهة وحملة الاقلام في مصر على منهاج الشيخ محمد عبده في دينه أو وطنيته — ولا أقول مثله في ذلك او في درجته — لما استطاع عمر لطفي باشا ومحمد سلطان باشا أن يعيشا بعد الاحتلال الانكليزي عزيزين مكرمين

نعم انه قد حدث اخيراً في مصر ضرب من الانتقاد على الكبراء والوجهاء في الصحف ولكنه مفسد للوطنية والاخلاق، لاسياج لها، فان اكثر أصحاب الجرائد والكاتبين فيها يتبعون في ذلك الهوى، ويستبيحون هتك الاعراض واذاعة الفواحش، وهم لاختلاف أهوائهم لا يسلم من أقلامهم أحد، فالذي لا يعرف الناس باختباره لهم لا يمكنه ان يعرف من الجرائد حقيقة حالهم

وأما سيرة الاستاذ الامام في هذا المجلس فقد قلت فيها من ترجمته في المنار ما نصه:

عمله في مجلس الشورى

في سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م عين عضواً دائماً في مجلس الشورى فانتقل المجلس به من حال إلى حال. كانت الحكومة قلما تحفل برأي المجلس، وكان المجلس في نظر الامة وفي نظر أعضائه الوكلاء عنها غير مضطلع بما أوجد لأجله، حتى ان جلساته كانت قلما تلتئم على أصول نظامه بحضور جميع أعضائه أو معظمهم. فلما دخله نفخت فيه روح جديدة زال بها سوء التفاهم بينه وبين الحكومة، فصارت

تحفل برأيه وتحله من الاعتبار مالم تكن تحله ، فتأخذ برأيه فيما يمكن الاخذ به وتبين له سبب عدم أخذها بما لم تأخذ به ، وقوي رجاء أعضائه في خدمتهم وانتظم عقد اجتماعهم ، وعظمت ثقة الامة بهم ، وكان أكثر ماترسله الحكومة إلى المجلس لينظر فيه يؤلف له لجنة تحت رياسة الفقيد ، لتدقق النظر فيه وتعرض رأيها على المجلس . وكان له رحمه الله الرأي العالي والصوت المسموع ، في كل مسألة وكل مشروع ، فكنت تراه في المسائل المالية حاسبا اقتصاديا ، وفي المسائل الادارية اداريا ماهراً ، وفي اللوائح والقوانين قانونيا خبيراً ، وفي الامور الشرعية إماما فقيها ، وكان المجلس يعهد اليه مذاكرة الحكومة في الشؤون العظيمة ليكون الحد الاوسط في شكل القياس فتخرج به النتيجة صحيحة في خدمة البلاد

وقد كادت أعمال هذا المجلس تغتال معظم وقته فكنت أتألم من ذلك لاعتقادي ان وقته أثمن من أن ينفق في خدمة المجلس ، فلا أكاد أجد فرصة إلا وأرغب اليه فيها بالتخفيف والاقلال من الاشتغال بعمل المجلس ، حتى قلت له مرة ان الحكومة المصرية يشبه أن تكون أعمالها وقوانينها مؤقتة ، فهي عرضة للتغيير ، فرب عمل تنفق فيه أياما طويلة لتقره الحكومة على ما ترى انه أنفع للبلاد ، لا تلبث هي بعد ان تقره ان ترجع عنه بعد زمن قصير أو طويل ، ويوشك ان تنفق في تحقيق بعض الامور أياما كثيرة ثم لايتيسر اقناع الحكومة به . او تقتنع بانه نافع ويمنعها مانع من العمل به ، ولو صرفت مثل هذه الاوقات في الكتابة والتأليف لكان ماتكتب هداية لهذه الامة باقية مابقيت الامة . فقال: إن الغرض الاول من العمل في المجلس هو التعاون مع الاعضاء على الجد والاهتمام بالبحث في الامور العامة ومصالح البلاد ، وتربية الرأي العام في الامة ليكون ذلك إعداداً لنفوس طائفة منا للفصل في الاحكام بالشورى (اي الحكومة النيابية التي بث فكرتها استاذه الافغاني) فاذا ارتقت هذه الملكة في الهيأة الحاضرة للمجلس فانها تنتقل منها إلى الهيأة التي تخلفها ويكون ذلك جرثومة من جراثيم الاصلاح في البلاد. فعلمت من هذا الجواب انه لايترك مذهبه في الاصلاح من طريقة التربية العملية في عمل من أعماله ، وسيأتي ذكر مذهبه هذا في محله . اه

وهاك ما قاله صديقه وزميله في المجلس حسن باشا عبد الرازق في تأبينه في حفلة ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته مصدقا لهذا مع تلطف مع العبارة :

«اختارت الحكومة الاستاذ ـ رحمة الله عليه ـ عضواً في المجلس وتعين بأمر عال في ٢٥ يونيو سنه ١٨٩٩ وأول جلسة حضرها كانت يوم الخميس ٢٩ منه وكان إذ ذاك بين أهل الحل والعقد في الحكومة وبين رجال الشورى شيء أشبه بالخلاف في الرأي أدى إلى ان الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للامة في عدم العمل بها ، وصرفت النظر أيضاً عن كل أوجه التعديل في المشروعات التي كان يرى ان الصلاح والنفع للامة في تعديلها ، فلما جاء الاستاذ إلى المجلس ونظر في الامر نظرة الحكيم البصير وعرف ان ليس هناك مايدعو إلى هذا الانفراج ، وانما هو سوء التفاهم باعد مابين المشارب على تقاربها، سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف فكان ماأراد ، وعرفت الحكومة ان المجلس انما يطلب ما فيه السعادة للامة ويبتغي الخير لها ، وان ليس له غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها مادامت تتفق مع مقصده ، وعلم المجلس أيضاً ان الحكومة لاتقصد إلى شيء وراء مايقصده لمصلحة البلاد . وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف مايتعسر حله»

«كان الاستاذ رحمة الله عليه واسطة العقد في مجلس الشورى فالتفت حوله القلوب ، وعرف الكل مكانته من قوة الحجة وسداد الرأي وطهارة النية، وكان اخوانه من رجال الشورى يلجؤون اليه اذا اشتبه الامر وخفي الصواب، فينطق بالحكمة وفصل الخطاب، وكان مع هذا أسرع الناس قبولا إلى الحق، وأوسعهم له صدراً، فاذا سيقت اليه الحق هشت له نفسه، وقرت به عينه، ولم يصرفه عنه تمسك برأي ولا تعصب لمشرب

«وكثيراً ماكنا نباحثه في أمر اختلف النظر فيه بيننا وبينه فيرجع الينا ويوافق رأيه رأينا ، ولم نر مثله في احترام الآراء مادام مصدرها شريفاً لم يشبه الغرض

«ولقد كنا نختلف معه في رأي ويجاهر كل منا برأيه ويدعو اليه اعتقاداً منه انه الحق ، ولا نزال بعد ذلك أخلص الناس سراً ، وأصفاهم وداً

«كان رحمه الله يتألم كثيراً لما عليه المحاكم الشرعية الآن من عدم كفاءة العمال وخلل النظام في الاعمال. ونزارة رواتب القضاة والموظفين وقلة العناية بشؤونهما حتى في محال مراكزها التي لاتليق أن تكون مستقراً لاصدار أحكام الشرع الشريف. وكان منذ تقلد وظيفة افتاء الديار المصرية لايزال يلفت نظر الحكومة ويلح عليها بتلافي هذا النقص ، فعهدت اليه أن ينظر في الامر ويبين لها كل مافي نظام المحاكم الشرعية من الملل وما يلزم لاصلاحه، فقام بالامر خير قيام ، وطاف لذلك كل المحاكم في الوجهين القبلي والبحري، ودقق البحث في أحوالها وأعمالها وقد أودع ذلك في تقرير بين فيه بالتفصيل حقيقة الداء وما يجب له من الدواء وقدمه للحكومة . وهاهو لايزال في محفوظاتها كما أن صداه لايزال يقرع الاسماع إلى الآن

«وكان الشعور باحتياج المحاكم الشرعية إلى الاصلاح قد امتلأت به نفوس أعضاء الشورى أيضاً وانتشر بين أعضاء الجمعية العمومية حال انعقادها ، فجاهرت به وطلبته من الحكومة ، وأحيل هذا الطلب على مجلس الشورى لبحثه، وهو أحاله على اللجنة التي كان يرأسها الفقيد رحمه الله، وفوض لها مخابرة الحكومة فيما ترى لزومه ، وبعد أن بحثته وقررت مارأته فيه عرضته على المجلس وهو أقره أيضاً ، فانتهز الفقيد واخوانه أعضاء المجلس هذه الفرصة وأظهر للحكومة بأقوى حجة وأوضح دليل ان الضرورة قاضية باصلاح المحاكم الشرعية وجعلها في مصاف المصالح الاولى للحكومة، فقنعت بما تقدم من البراهين، وشكلت لجنتين تحت رياسته ، الاولى مركبة من نخبة أفاضل العلماء ، وكلفتها بجمع مايلزم لعمل القضاة من الاحكام الشرعية . والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل أيضاً ، وكلفتها بوضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعي وجعل نظامها كافيا كافلا لايجاد العمال الاكفاء، فكان رحمه الله مع مافيه من شدة ألم المرض يواصل العمل في ليله ونهاره حتى أتمه وقدمه إلى الحكومة قبيل قيامه إلى الاسكندرية ببضعة أيام(١) والله يعلم ماسيؤول اليه بعده أمر هذا المشروع الخطير

«١» يعني سفره عند اشتداد المرض اليها وقد توفي بالاسكندرية في مرضه

«ان تفصيل أعمال الاستاذ ومآثره في مجلس الشورى لاتتسع له هذه الفرصة ومجمل مايقال: انه لم يعمل في المجلس عمل مدة وجوده إلا كان له فيه الرأي الرشيد والقول السديد، فما انتخبت لجنة في مشروع إلا كان أول المنتخبين، ولم يتألف وفد لمفاوضة الحكومة في أمر إلا كانت له الصدارة وهو في كل ذلك عضو عامل وعليم متبصر

«كان رحمه الله واسع الاطلاع، نير البصيرة، في كل ضرب من ضروب الاصلاح، فاذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً، واذا قدمت اللوائح الادارية لم يكن أقل من أهلها علما بدقائقها وأسرارها، واحاطة بمنافعها ومضارها، واذا جاءت المسائل المالية رأيته ماهراً بأساليب الحساب، عارفا بفنون الاقتصاد، فكنا نجد منه في سائر الابواب علما جما، ومعرفة وفهما، ورأيا صائبا، وذهنا ثاقبا، ولم يزل هكذا يعمل وهكذا يجاهد حتى عجزت قواه عن العمل، وحال بينه وبين مراده الاجل.

«قضى هذا الفقيد الكريم مدته بيننا وهو كالقطر حيثما وقع نفع، وانا لنعلم ان البلاد ثكلت بموته رجلا لاتعوضه الرجال، وانثلم بفقده في بناء الاسلام ثلمة جانبها ليس بمسدود،

«نسأل الله تعالى ان يجزل حظه من الرحمة، وأن يبوأه دار الكرامة، وأن يعوض الامة والاسلام فيه خيراً اهـ

أكتفي بهذا الاجمال من عمله في مجلس الشورى ففيه ما أبغي من بيان خطته الاصلاحية، وخدمته الوطنية، وأنا لم أكن أعني بالوقوف على تفصيل أعماله في تلك اللجان التي كان يتولى رياستها، ويكون رأيه هو الفاصل فيها. ومن ذا الذي كان يظن ان هذا الامام الناسك الزاهد، والمصلح القانت العابد، يحيط بدقائق الاصلاح المالي والاداري في البلاد، وقد نسي الناس ان أول شيء نبه صاحب الدولة رياض باشا الى اقتداره فولاه لأجله ادارة المطبوعات ورياسة تحرير الجريدة الرسمية — ايام كان ملازما للازهر — هو كتابته مقالة في قانون تصفية ديون الحكومة ووجه الحاجة اليه كانت فصل الخطاب كما بيناه في محله(راجع ص ١٣٧)

المقصد السابع

من الفصل السادس

عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية

نبدأ هذا المقصد بما نشرناه بشأنه في ترجمته من المنار مع زيادة شيء من العبرة في تاريخها ، ونقفي عليه بعبارة صديقه وزميله في إدارة الجمعية وكيلها حسن باشا عاصم ، ثم نبين مقاصده الاصلاحية فيها بشيء من التفصيل بما ننقله عن المنار من الكلام على احتفالات مدارس الجمعية وما كان ينشره فيها من درر الحكم ، ونوابغ الكلم ، في تربية الامم ، فنقول:

جاء في ص ٤٨٩ من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان ما نصه:

يوجد في كل قطر من بلاد المسلمين أفراد تفرقت فيهم الفضائل الكثيرة التي هي مناط حياة الامم ولكن يعوزهم شيء للحياة الاجتماعية في هذا العصر هو أهم شيء وعليه يتوقف كل شيء وهو التعاون على الخدمة العامة والاعمال المشتركة وإنك لا تكاد ترى في قطر إسلامي جمعيات ولا شركات ناجحة يرجى خيرها للامة إلا ما بدأ به مسلمو الهند ومصر في ظل الحرية الانكليزية ، ولا يزال كثيره في مهد الطفولية ، ولم تنجح في مصر جمعية من الجمعيات الكثيرة التي ألفت فيها بأسماء مختلفة لمقاصد مختلفة مثل نجاح الجمعية الخيرية الاسلامية، ولم تصادف جمعية منها ما صادفته هذه الجمعية من الصدمات ، التي يعز فيها الصبر والثبات ، وكان الفضل الاول في ثباتها ونجاحها للاستاذ الامام أحسن الله جزاءه

أنشئت الجمعية للتعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين وإعانة العاجزين منهم عن الكسب على شقاء الحياة ، فاتهمها أعداء البشر بالسياسة، وسعوا بها إلى ذوي النفوذ والسلطة ، ولولا سعيه في الدفاع عنها وإقناع أهل الحل والعقد بأنها خيرية محضة ليس من موضوعها ولا مما تقصد اليه شيء سياسي او

سري امفت رسومها . ثم انه خدمها بنفسه وبالتعاون مع أصفيائه المؤسسين لها معه كوكيلها وأعضاء ادارتها لهذا العهد خدمة جليلة ،حتى ارتقت عن طور الطفولة وصار ثباتها مضمونا بحول الله وقوته . ومما انفرد به في خدمتها دعوة الامراء والوجهاء والاغنياء إلى الاشتراك فيها ومساعدتها وتحصيله منهم قيم الاشتراك إذا قضت الحال بذلك

أسست الجمعية سنة ١٣١٠ وفي سنة ١٣١٨ انتخب رئيساً لها فزاد اجتهاده في خدمتها وكان من ارتقائها في زمن رياسته ان صار إيرادها في السنة الماضية ١٠٣٩٥ جنيها وكان في سنة (١٣١٧) ٤٤٣٠ جنيها وصارت أطيانها ٥٣٣ فدانا وكانت قبيل ذلك ٢٨٠ فدانا وصارت مدارسها سبعا وكانت أربعا .على انه كان يرى أن الفائدة الاولى المقصودة بالذات من الجمعية هي تعويد المسلمين الاجتماع للخير والتعاون على البر والخدمة العامة وإثمار قلوب الاغنياء عاطفة الرحمة والاحسان بالفقراء كما كان يصرح بذلك في الاجتماع العام السنوي كل عام فهو فيها عامل بمذهبه في تربية الامة كما كان شأنه في غيرها جزاه الله عن هذه الامة أفضل الجزاء

هذا ما كتبته في ترجمة المنار المختصرة، وأزيد هنا لاجل العبرة التاريخية بحال هذه الجمعية مسألتين من ضعف المسلمين في هذا العصر هما سبب تأليفها ، وبعض ما لقيته من العقبات وهو ما اشرت اليه في ترجمة المنار

(الاولى) ان السبب الاول لانشاء هذه الجمعية أن مشعوذاً روسياً (هو مايسمى هنا بالحاوي) جاء مصر وربح منها بألعابه الغريبة ألوفا كثيرة من الجنيهات فخصص دخل آخر ليلة منها لاعانة فقراء البلد كما هي عادته في كل بلد ،وكان يعطي ذلك في بلاد روسية وأوربة وغيرهما من الاقطار للجمعيات الخيرية ، لهذا أعطى دخل ليلة في مصر لمحافظ العاصمة (ابراهيم رشدي باشا) ليوصله إلى جمعيتها الخيرية الاسلامية . فلم يشأ المحافظ أن يوزعه على الفقراء ، بل استشار فيه بعض كبار العقلاء، فذكرهم ذلك بأن من أكبر العار على مسلمي مصر أن ليس فيها جمعية خيرية لمواساة فقراء المسلمين وإعانتهم على معيشتهم وتربية أولادهم . مع العلم بأن لجميع طوائف

النصارى واليهود المقيمين في هذه البلاد جمعيات خيرية ، فوضعوا نظام تأليف (الجمعية الخيرية الاسلامية) وجعلوا ذلك المبلغ الذي وهبه المشعوذ الروسي رأس مالها وأظنه زيد على ألف جنيه ، وقرروا أيضا أن تقيم الجمعية احتفالا في حديقة الازبكية يوجد فيه أنواع اللهو المباح والشعوذة ويكون دخولها للتفرج برقاع تباع بالدراهم لاعانة الجمعية

وكان الاستاذ الامام وحسن باشا عاصم وسعد باشا زغلول وأحمد حشمت باشا ودرويش بك السيد احمد رحمهم الله أجمعين قد وضعوا في نظام الجمعية مادة كانت هي الكافلة لنجاحها المالي واستمرارها ، وهي ان نصف الدخل السنوي للجمعية يضاف إلى رأس المال لاجل الاستغلال ، والنصف الآخر يكون أكثره لتعليم أولاد الفقراء وتربيتهم وأقله لاعانة من تثبت عند الجمعية حاجتهم . وسبب هذا ضعف ثقتهم بأهل البلاد أن يمدوا الجمعية بالاشتراك السنوي على قلته وكان حسن باشا أضعفهم ثقة بالناس ، كما بينت ذلك في ترجمته ، وكان هو الواضع لمشروع نظام الجمعية ثم أقره المؤسسون بعد البحث فيه ، جريا على العادة في مثل هذا ، وكان من دلائل إصابتهم في إساءة الظن أن كثيراً من خيار المشتركين ومن أعضاء مجلس إدارة الجمعية أيضا كانوا يمطلون في دفع الاشتراك السنوي ، بل يمتنعون منه ، حتى ان الاستاذ الامام لرئيس أمر بأسماء بعض أصدقائه منهم فمحيت من دفتر المشتركين

وقد كنت مرة مع الامام الرئيس ولوكيل حسن باشا في إدارة الجمعية (بقبة الغوري) وجرى هذا البحث فقلت لهما : إنه لولا هذه المادة التي وضعتموها في النظام الاساسي للجمعية لماثبتت هذه الجمعية ونمت بما تبذلان من الجهود في العمل لها ، أو لكانت حياتها مرتبطة بحياتكما

وقد اقتسما العمل فيها شق الابلمة فالشيخ الرئيس كان هو الذي يسعى لاعانة الكبراء لها ويدافع عنها ما تهاجم به من الاشرار ، وهو الذي بث روح الدين والتربية الاسلامية في مدارسها ، وكان ينفخ من روحه الاصلاحي في أعضاء إدارتها وجمعيتها العامة كآراءه فيما يأتي والباشا الوكيل هو المدير للمدارس والقائم بالادارة وحفظ النظام كما بينته في ترجمته من مجلد المنار العاشر

(العبرة الثانية) ان أعداء أنفسهم وملتهم ودينهم ووطنهم قد كادوا لهذه الجمعية وسعوا لدى سلطة الاحتلال لاجل إبطالها فاتهموها بأنها تساعد مهدي السودان بالمال وقدموا في ذلك مستندات مختومة بختم للجمعية مزور فأفضى ذلك إلى تفتيش ادارة الجمعية وكان الاستاذ الامام غائبا عن مصر ولما حضر أقنع لورد كرومر نفسه بأن باطن الجمعية كظاهرها ، ليس فيها أدنى شائبة للسياسة وانه مستعد لحمل كل تبعة تثبت من خلاف ذلك ، وما كان أحد يتجرأ غيره على ذلك . وآل الامر إلى أن صار لورد كرومر يدفع إعانة للجمعية في كل سنة ، فهذا ما أشرت اليه في عبارة الترجمة

(كلمة وكيل الجمعية حسن باشا عاصم في تأبينه له في حفلة الاربعين)

(من ص ٢٤٣ من ج التاريخ الثالث)

«كان رحمه الله يعتقد انه لا يرجى خير لأمة الا اذا دبت في أفرادها روح الاعتماد على النفس بعد التوكل على مسبب الاسباب ، وعلى التعاون على خدمة العامة ـ الامر الذي لا يتأتى إلا بالتربية و لتعليم . ولما كان رحمه الله يرى نفسه مخلوقة لتربية الامة وتعليمها فقد كان من المؤسسين للجمعية الخيرية الاسلامية في سنة ١٣١٠ هجرية وله من العمل فيها ما يجعله في مقدمة أعضائها ، فانه كان يحض الامراء والعظماء والسراة على الاشتراك فيها ويحصل قيم الاشتراكات بنفسه اذا اقتضت الحال ذلك ، ويعمل كل ما في جهده لارتقائها واتساع نطاقها وكان يرى ان الفائدة الكبرى من هذه الجمعية هي تعويد المسلمين على الاجتماع لاجل التعاون وإشعار قلوب الاغنياء عاطفة الرحمة والاحسان على الفقراء كما كان يصرح بذلك في الاحتفال السنوي من كل عام . وله فوق ذلك كله خدمة جليلة في الجمعية ، ذلك أن ذوي الغايات وشوا بالجمعية عند أولي الحل والعقد لدرجة كادت تقضي عليها لولا انه دافع عنها حتى أزال سوء الظن فيها ، وحلت محله الثقة التامة بها ، وقد ترأس عليها من سنة ١٣١٨ لغاية وفاته رحمه الله

أما نجاح الجمعية في عهد رياسته لها فيظهر من المقابلة الآتية :

	سنة ١٣١٧		سنة ١٣٢٢
الايراد	٤٤٣٠	جنيها	١٠٣٩٥
عدد المدارس	٤	مدارس	٧
عدد التلاميذ	٣١١	تلميذاً	٧٦٦
عدد الاطيان التي تملكها الجمعية	٢٨٠	فدانا	٥٣٣

هذه هي حياة المرحوم الشيخ محمد عبده ، وقفها على خدمة دينه ووطنه وأمته ، فطيب اللهم ثراه ، واجزه عنا أفضل ما جازيت به ناصحاً في دينه ، أمينا على مصلحة قومه ، ووفقنا اللهم لاقتفاء أثره في هذه الحياة . انك سميع مجيب الدعوات يا رب العالمين . آمين

الاصلاح الديني والاجتماعي

(الذي كان يبثه في الجمعية ، وشواهده في احتفال مدارسها السنوية)

(الاحتفال الاول بامتحان مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية)

(منقول من ص ٢٩٤ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨)

احتفل في أصيل يوم الجمعة الماضي في قبة الغوري الاحتفال الاول بامتحان تلامذة مدرسة مصر القاهرة لهذه الجمعية النافعة تحت رياسة فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده افندي مفتي الديار المصرية ، وأحد أركان مؤسسي الجمعية وأعضائها العاملين . وقد حضر الاحتفال سعادة الفاضل الهمام ماهر باشا محافظ مصر ، وكثيرون من العلماء والوجهاء . وافتتح الاحتفال بقراءة آيات من الكتاب العزيز قرأها أحد التلامذة بصوت رخيم ، وتجويد وترتيل ، انشرحت له الصدور . ثم قام رئيس الاحتفال فشكر للحاضرين عنايتهم بالجمعية وتنشيطها بالسعي لحضور احتفالها ، ورؤية ثمرة أعمالها

ثم بين أن الغرض الاول من تأسيس الجمعيـة : تربية أولاد الفقراء من يتامى وغيرهم تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم وأخلاقه وأعماله ، ويستعينون بها على معايشهم ، وتحصيل أرزاقهم ، ومن عساه يوجد في مدارس الجمعية من أولاد الاغنياء.. فوجوده غير مقصود بالذات . قال : وان الامتحان الذي يعرض أمام حضرتكم اليوم هو مطابق لهذا الغرض ومبني على هذا الاصل، ولهذا لاتسمعون فيه ذكر لغة أجنبية ، ولقد كان من رأي بعض الاعضاء المؤسسين أن تعلم في مدارس الجمعية اللغات الاجنبية لاجل الترغيب في الاقبال عليها، وقد كان الجواب عن هذا الرأي انه ليس الغرض من مدارس الجمعية التجارة فنرغب الناس فيها بما ليس من موضوعها ، وإنما الغرض تربية أولاد الفقراء فلو أمكننا أن نلتقطهم من الشوارع ثم نرضي أولياءهم لفعلنا

لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا في مدارسها، كأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف، بل من أهم مقاصدها ان تنزع من النفوس اعتقاد ان التعليم لا فائدة فيه الا لاستخدام في الحكومة ، وهذا الفكر كان مستولياً على الامة ، ونحمد الله أن كثيراً من الناس قد انتبه لما في هذا الفكر من الخطأ والضرر . والجمعية توطن نفوس التلامذة في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ، ويعيش مع الناس بالامانة والاستقامة : فولد النجار يكون نجاراً، وولد الحداد يكون حداداً، وولد الفراش يكون فراشاً . والتربية والتعليم يساعدان كلا على إتقان عمله وصناعته، فيكون أكثر كسباً لانه أكثر إتقانا للعمل مع الامانة والاستقامة ، ولا شك ان الانسان إذا ظفر بفراش كاتب مهذب يزيد في أجره، ويطول عنده مكثه . ومن كان فيه استعداد لشيء أعلى مما كان عليه آباؤه وظهر عليه ذلك فانه ينبعث اليه من نفسه والجمعية تساعده عليه ، وقد حصل هذا لبعض التلامذة . والجمعية مهتمة بانشاء قسم صناعي في مدارسها لانه من مقاصدها الاصلية

هذا الاحتفال بامتحان تلامذة مدارس الجمعية لم يكن بمواطأة ، ولا كان تركه في الماضي إلى هذه السنة ـ وهي الخامسة من سني المدارس ـ عن قصد ، وانما هو شيء جاء من نفسه واقتضته طبيعة العمل ، فمثل الجمعية فيه كمثل الطفل

الذي تظهر فيه بعد خمس سنين ثمرة العلم . وقد ظهرت الرغبة فيه قبلا من أعضاء الجمعية على ثقتهم بحسن النتيجة لما فيه من ظهور ثمرة العمل التي يسر بها العامل، وتكون مدعاة لمساعدة إخوانه الآخرين له ، ومسرة من لم يستطع المساعدة، فان كل مسلم يسره أن يرى إخوانه المسلمين موفقين للاعمال النافعة للامة التي لا يستطيعها هو . وهذا هو السبب في دعوة حضرتكم إلى هذا الاحتفال ، وشكرنا لكم حسن الاجابة والقبول اه ملخصا

امتحان تلاميذ المدرسة

ثم وقف أحد الاطفال فسأله أحد المعلمين أولا : عن وجه حاجة البشر الى ارسال الرسل . فأجاب بأحسن جواب — أجاب بملخص ما هو مذكور في كتاب « رسالة التوحيد » التي لم يؤلف مثلها في بيان حقيقة الاسلام ، فصفق له النادي تصفيق استحسان ، وأعطاه فضيلة الاستاذ الرئيس جائزة مالية . ثم وقف آخر فقرأ نبذة من كتاب (الدروس الحكمية) واختار الاستاذ مما قرأه جملة أمره بكتابتها واعرابها وهي « وبلغ بهم هذا الحب المتبادل الى حد من ثقة بعضهم ببعض ان كان أحدهم - ثقة باخوانه - لا يأتي أمراً الا بمشورتهم » فأحسن اعرابها الا انه توقف بكلمات ثم فطن لها من السؤال ، فدل هذا على انه إعراب عن فهم لا عن حفظ ألفاظ واصطلاحات[1] وعلمت انه كان في نية المعلمين أن يلقوا عليه للاعراب قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم) الآية لما فيها من المناسبة للمقام

(١) ذكرني هذا مجاورا في الازهر يطلب العلم فيه من ٢٩ سنة وحضر جميع الكتب العالية وقد أمره فضيلة مفتي الديار المصرية من أيام أن يعرب جملة في غاية الوضوح فاخطا في البديهيات . العبارة فيما أذكر « ولما كان القضاء هو المقصود ...قدمه تقدمة للاصل » الخ فقال (لما) حينية . و (كان) فعل ماض و (القضاء) فاعل و (هو) ضمير فصل (والمقصود) فاعل الخ . واشتبه في كلمة (تقدمة) فقال مرة انها فعل ولكنه لم يعين نوعه فساله الاستاذ هل هو معرب ام مبني؟ فقال: كل فعل مبني... ثم أنكر انها فعل وقال انها اسم لكنه لم يعرف ما هو، ثم أنكر كونها اسما كما أنكر من قبل كونها فعلا أو حرفا الخ!! فما هذا التعليم ؟

ثم وقف آخر وألقيت عليه مسئلة حسابية فحلها قولاً وكتابة، ثم آخر فسئل عن مسئلة هندسية فاحسن الجواب ، وكان موضوع المسئلة بناء حوض صفته كيت وكيت ، ثم طلب منه أن يرسمه بحسب الوصف فرسمه رسماً حسناً . ثم وقف آخر وطلب منه أن يرسم قارة آسيا ففعل ، وسئل فيها بعض المسائل فاجاب، ثم وقف آخر صغير جداً يظهر انه في السنة الاولى ،وان عمره لايتجاوز خمس سنين ، وقرأ في كتاب التعليم قصة المرأتين اللتين اختصمتا إلى داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام في الولد المتنازع فيه فاحسن القراءة ، وسئل أن يحل المعنى بالكلام البلدي فحله حل الحاذق الفهم ، ثم اعتذر بصغره وقصره وانه لولا ذلك لاجاد الكلام وأتى بما يعجب به الحاضرون فكانت الوجوه تتدفق سروراً وتتلألأ بشراً لكلامه وبراعته، وأخذ الجائزة المالية من فضيلة الرئيس وصفق له النادي كما صفق لاخوانه من قبله. ثم قام آخر وتلا الخطاب الآتي، ألقاه إلقاء خطيب متمرن يعطي كل جملة حقها من الاشارات وهو:

« غير خاف ان الانسان محتاج بطبعه في هذه الحياة الدنيا إلى الاجتماع ببني جنسه على هيئة يكون بها التعاون والتعاضد ليحصل بهذا الاجتماع على ما تقوم به حياته من الغذاء واللباس والمسكن والدفاع ويتم ما أراده الله به من العمران

« ولهذا الاجتماع العمراني علوم وفنون جمة ولدتها الحاجات وحققتها التجارب حتى صارت حقائق ثابتة يتوقف على معرفتها تمتع أفراد المجتمع الانساني بالراحة التامة والرفاهية الكاملة ، وعلى قدر التمسك بهذه العلوم والفنون والعمل بمقتضاها تكون سعادة الامة وغناها، وبمقدار اهمالها والتقاعد عنها يكون شقاء الامة وعناؤها، ومن قارن بين الامم الغربية والشرقية في هذا العصر تحقق ما قلناه واعتبره مسباراً يسبر به غور الامم ، فمتى وجد أمة ينمو بين أفرادها حب التربية والتعليم حتى يمتزج ذلك بدمائهم، ويرسخ في نفوسهم، ويصير أسمى مطلب وأنفس مأرب عندهم، يتيقن انها سائرة إلى مجد شامخ، وشرف باذخ ، لابد وان تبلغه يوما ما ، ومتى وجد أمة على الضد من ذلك جزم بانها هاوية إلى البوار ، ومتقهقرة إلى الدمار .

«واننا نحمد الله حيث نرى ان أمتنا المصرية قد نهضت نهضة سريعة في

الميل إلى التربية والتعليم . واتجهت لذلك أنظارهم ، وتسابقت اليه هممهم . فبذلوا في هذا السبيل أنفس النفائس ، وأسسوا كثيراً من المدارس . حتى صار هذا التقدم في الحال ، مما يبشر بحسن الاستقبال .

«وكان الباعث الاول لهذه النهضة الوطنية . تأسيس هذه الجمعية الخيرية الاسلامية ، وغرسها أطيب المغارس ، بانشائها هاتيك المدارس . لتربية أبناء الفقراء ، واليتامى الذين ليس لهم أولياء ، مع مواساة من أخنى عليهم الزمان . من بيوت كانت من المجد بمكان ، فما ظهر هذا المشروع المحمود ، من العدم إلى حيز الوجود ، إلا وتلقته أيدي النفوس الزكية بالارتياح ، حيث كان افضل عمل يوصل إلى النجاح والفلاح

«كان تأسيس هذا العمل المبرور ، والفعل الحميد المشكور ، بهمة نخبة أصفياء من العلماء والوجهاء في سنة ١٣١٠ هلالية الموافق سنة ٩٢ شمسية . مؤيداً بالعناية الالهية . ومعززاً بالرعاية الخديوية العباسية . حيث أساسه البر والتقوى ، وغايته الترقي في معارج السعادة إلى الدرجة القصوى

«وفي مبدأ الامر لم يبلغ عدد الاعضاء المؤسسين له سوى اثنين وعشرين . وما زالت سراة الامة تحنو بالاشفاق عليه ، وتتجاذب نفوسهم اليه ، حتى بلغ عدد الاعضاء العاملين والمشتركين ، مايزيد عن السمائة والثمانين ، ولما كان روح النجاح في الاعمال ، هو ملازمة الثبات لبلوغ الآمال ، قد وفق الله الاعضاء العاملين للتمسك بحبل العزم المتين والاعتصام بروابط الاتحاد ، والدأب على مافيه الصالح بكل جد واجتهاد ، حتى تم في زمن غير مديد ، كثير من العمل المفيد ،

«فأول عمل ينبغي ان يذكر فيشكر ، ويشهر بين العالمين وينشر ، انشاء هذه المدارس الاربع ، الزاهرة في أسيوط وطنطا والاسكندرية والقاهرة رحمة بأبناء الفقراء وانتياشا لهم من وهدة الشقاء ، وتعهدهم بالتربية الحميدة ، وتثقيف عقولهم بالعلوم المفيدة ، حتى يشبوا على حب العمل ، والاعتماد على الله ثم على النفس في بلوغ الامل . فينتفعون وينتفع بهم ، ولا يكونون عالة على غيرهم ، وقد اثمر ولله الحمد هذا الغرس ، وطابت منه كل نفس : فبلغ متوسط عدد تلامذة هذه المدارس الاربع ٣٥٠

تلميذاً وعدد النابغين منهم منذ الانشاء إلى سنة ١٣١٦ هجرية ثمانين تلميذاً الآن التحق منهم بقسم الصنائع ٤٣ تلميذاً على نفقة الجمعية وانتظم الباقون في اعمال أخرى تحسنت بسببها حالتهم المعيشية وكلهم من أبناء الفقراء المعوزين.

«واني أيها السادة الكرام، والعلماء الاعلام ممن شملتهم هذه التعطفات الرحمانية وغمرتهم نعمة التعليم في مدرسة مصر من مدارس هذه الجمعية ، وأوصلني الحظ الجميل، إلى وقوفي هذا الموقف الجليل ، بين يدي الحاضرين من العلماء والفضلاء، والاعيان والوجهاء ، وهو موقف كان يصعب على مثلي أن يقفه، وان يتلفظ فيه ببنت شفة فلله الحمد والمنة ، على جليل هذه النعمة

« ومن أعمال الجمعية المشكورة ، وآثارها الجليلة المبرورة ، مد يد المساعدة بالبر والاحسان، لبيوت تقلبت بها صروف الحدثان فأصبحت بعد العسر في يسر، وصارت بعد الشقاء في هناء ، وهذا لعمر الحق احساس شريف، ومقصد سام منيف يقوي دعائم الفضيلة، ويشيد أركان الخلال الجميلة، ويرغب النفوس في حب السخاء، وتوثيق عرى الاخاء

«هذا — ولما رأى رجال الجمعية ان التربية قسمان علمية وعملية، بدأت بالاولى لتكون كاساس وطيد ، صالح لان يرفع عليه خير بناء مشيد ، وعزمت على ان تردفها بالثانية بقدر الاستطاعة ، فتنشيء قسما عمليا لما تمس الحاجة اليه من فنون الصناعة، لتتم الفائدة للنابغين من التلامذة، ويتيسر لهم بهذه التربية الكاملة ، التي نمت بها قواهم العاقلة والعاملة، ان يعيشوا عيشة راضية ، حائزين في هذه الشركة الاجتماعية حظوظا وافية . حقق الله أماني جميتنا الاسلامية، وأعانها على تتميم هذه المساعي الخيرية ، وجعلها نموذج كمال ينسج على منواله ، وتتسابق الهمم السامية إلى الحذو على مثاله، حتى نرى الوطن العزيز رافلا في حلل البهاء ، بآثار نبل هذه الايادي البيضاء ، وفق الله الامة للسداد ، ويسر لها أسباب السعادة والاسعاد. وأيدها بالتعاضد والالتئام ، حتى يبشر المبدأ بحسن الختام

آمين آمين لاأرضى بواحدة حتى أبلغها آلاف آمينا اه

وقد طلبنا هذا الخطاب ونشرناه لما فيه من الفائدة المتعلقة بتاريخ الجمعية وثمرتها

ثم صعد مرقى الاحتفال ثلة من التلامذة ولحنوا نشيداً جميلا يتضمن شكر الله تعالى وشكر مؤسسي الجمعية ومساعديها والدعاء للحضرة الخديوية العباسية التي جعلتها تحت رعايتها وأمدتها بالرفد والمساعدة، ثم ختم الاحتفال كما افتتح بتلاوة القرآن الكريم، وشكر رئيسه للحاضرين. فانفض الجمع منشرحة صدورهم بهذا النجاح الباهر لاسيما بما رأوا من الهدوء والسكينة والنظام التي هي من آثار كمال التربية والتهذيب

﴿ احتفال مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية (الثاني) بمصر ﴾

(منقول عن صفحة ٣٤٧ من المجلد الرابع من المنار الصادر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣١٩)

احتفل بامتحان تلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية في مصر في مساء يوم الجمعة الماضي احتفالا شائقاً، رأسه فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورئيس الجمعية وحضره كثيرون من العلماء والوجهاء. وافتتح الاحتفال بتلاوة أحد التلاميذ آيات من القرآن الكريم بالتجويد والترتيل، ثم أنشد طائفة من التلامذة انشودة نوهوا فيها بفضل رجال الجمعية ورحبوا بالحاضرين وختموها بالدعاء لمولانا السلطان وللجناب العالي الخديوي. ثم وقف تلميذ وتلا خطبة وجيزة بين فيها الغرض من التربية والتعليم في مدارس هذه الجمعية، وهو تكميل النفس والاستعداد للدخول في مضمار المعيشة وتفضيل الصناعة والحرف على غيرها، وتوجيه النفس لترقية كل تلميذ صناعة والده وحرفته بما يكتسبه من العلم الذي كان والده محروما منه — ومعلوم ان جميع هؤلاء التلاميذ من أولاد الفقراء المحترفين تعلمهم الجمعية وتربيهم على نفقتها.

ثم وقف تلميذ آخر فأعطي كتاب « الدروس الحكمية » ففتحه وقرأ منه نبذة جاءت أمامه بالعرض من الدرس الذي يبين حاجة البشر إلى الدين، فقرأ فاحسن القراءة وبين معانيها على وجه الصواب، فناقشه الاستاذ الرئيس في الفهم، وسأله عن معنى الآية التي افتتح بها الدرس فأحسن في الاجابة والتفسير، حتى انه

فسر مالم يذكر في الكتاب من تتمة الآية الكريمة .

ثم تكلم تلميذ آخر في حكم فريضة الزكاة وفوائدها للمزكي وللفقراء وللهيئة الاجتماعية، ومن ذلك انها العلاج الواقي من داء الفوضى والاشتراك، وختم كلامه بقوله « لافوضوية في الاسلام » فصفق له الحاضرون كما صفقوا لمن قبله ولمن بعده

ثم امتحن تلميذ آخر باعراب جملة فيها تقدير دقيق فاجاد في الاعراب ، وأنبأ عن فهم يخالف الصواب ، وامتحن آخرون في الحساب وفي الجغرافية والرسم حيث رسم أحدهم خارطة اوربا وبين ممالكها وعواصمها . وسأله الاستاذ الرئيس هل خطر لك أن تسافر إلى عاصمة من هذه العواصم ؟ فقال: نعم تمنيت ان أزور باريس، فسأله ان يبين خطة السفر من القاهرة إلى باريس فبينها أحسن بيان . وعرض بعض التلامذة على الحاضرين نموذجات من خطوطهم ورسومهم ، وهي في غاية الاتقان والجودة . وخطب آخرون من التلامذة في بيان فوائد التربية والتعليم وفوائد الجمعيات الخيرية . ثم ختم الامتحان كما بدىء بترتيل أحد التلامذة آيات من الكتاب العزيز

﴿ خطاب الاستاذ في مقاصد الجمعية الصحيحة في مدارسها ﴾

(وفساد تعليم مدارس الحكومة)

وبعد هذا وقف مولانا الاستاذ رئيس الجمعية وشكر للحاضرين عنايتهم بحضور الاحتفال بامتحان أولاد الفقراء ومشاهدة أثر تربيتهم، ثم تكلم في بيان غرض الجمعية من تربية هؤلاء الاطفال الفقراء وهو تهذيب نفوسهم ومساعدة كل واحد منهم على احياء صناعة والده وترقيتها، إلا ان يرى نفسه مستعداً لصناعة أعلى منها وأرقى، وذكر ان الجمعية تساعد بالمال من يتخرج من مدارسها ويشتغل بصناعة والده مدة سنة ، وانها تعلم التلامذة بانهم لوالديهم أولا ثم للأقربين ثم الامة ، وتعلمهم احترام آبائهم وأمهاتهم، وتنزع من نفوسهم الميل إلى وظائف الحكومة .

وههنا انتقل الاستاذ لبيان مفاسد التربية في سائر المدارس وحال الذين يتعلمون فيها وفي أوربا ، وكيف يكون الانسان بعد التعليم مشغولا بالاماني الباطلة التي

لا تدرك ، محتقراً لوالديه وأهله وللناس ، يقضي معظم أوقاته في الملاهي ومعاهد البطالة واللغو في الغالب .

ثم بين وجه حاجة الامة إلى تربية الطبقات الدنيا وانها لا ترتقي ولا تسعد إلا بذلك لانهم هم الذين يقومون بمعظم الشؤون وأكثر الحرف التي لا يستغني عنها الخواص ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدي التربية فاقدي الآداب . وقال: ان جراثيم الخير التي تلقيها مدارس الجمعية في نفوس التلامذة لابد ان تنمو وتغلب جراثيم الشر التي أصيبوا بها من البيئة (الوسط) التي يعيشون فيها لان الحق دائما يغلب الباطل ، والخير يصرع الشر، إلا اذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير وضاعوا في كثرة الاشرار ، قال : وربما ينازعني بعض السامعين في هذه القاعدة مستدلا باستحواذ الشرور على الناس. وأكتفي بان أجيب هؤلاء بكلمة واحدة وهي ائتوني بعشرة من دعاة الخير في القوم الذين يحكمون بفسادهم، وتغلب جراثيم الشر فيهم على جراثيم الخير

ثم ختم خطابه بتوزيع الجوائز على نجباء التلامذة مبينا ان لها مصدرين أحدهما ان اللجنة التي تألفت لايجاد أثر يخلد ذكر المرحوم علي باشا مبارك لخدمته المعارف، كانت ارتأت ان تقيم له تمثالا في نظارة المعارف، ثم رجعت عن هذا الرأي لان معظم الامة المصرية يعد التماثيل اهانة لا تكريما، ويسمون التمثال «الصورة المسخوطة» أي الممسوخة. وترجح اللجنة ان تعطي هذه الدراهم للجمعية الخيرية تستغلها وتجعل غلتها في كل سنة جوائز للنابغين من تلامذة مدارس الجمعية الخيرية ، بشرط ان يؤلف أحد أعضاء الجمعية كتابا في تاريخ علي باشا وماثره يوزع مع الجوائز أيضاً ويكون هذا أحسن ذكرى وأثر . قال : وقد تأخر تأليف هذا الكتاب في هذه السنة فرأينا من التعجيل بالبر أن توزع الجوائز ،وفي العام القابل يوزع الكتاب إن شاء الله تعالى، وهذا ما أصاب مدرسة القاهرة من هذه الجائزة يعطى لانبغ التلامذة في العربية . وأما المصدر الثاني فهو ان الاستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش تبرع بعشرة جنيهات للجمعية شكراً لله تعالى على شفائه من مرض ألمَّ به وجعلها دائمة في كل سنة . ثم انفض الجمع وخرج القوم مسرورين بما شاهدوه من النجابة والنجاح الذي كان فوق ما يؤملون

(الاحتفال السنوي الثالث بمدرسة الجمعية الخيرية وخطبة المفتي)

(منقول عن ص ٢٧٣ من المجلد الخامس من المنار الصادر في غرة ربيع الآخر سنة ١٣٢٠)

في أصيل يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول احتفل في قبة الغوري الاحتفال السنوي المعتاد بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلاميـة في القاهرة ، وقد أجاب دعوة رئيس الجمعية الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الجم الغفير من الفضلاء والوجهاء فحضروا الاحتفال

ابتدأ أحد التلاميـذ بترتيل آيات من سورة الفتح ، ثم ارتقى تلميذ آخر الدكة التي يختبرون عليها ، فأعطي كتابا ففتحه وقرأ فيـه جملة صالحة قراءة صحيحة ، فسأله الرئيس بيان معناها فبينه . ثم اختبر آخرون بالاعراب وبالحساب وبرسم خريطة أفريقية ، وبالتاريخ الطبيعي ككيفية الدورة الدموية ، وقرأ بعضهم مقالات محفوظة في فوائد الصوم وفوائد التربية وغير ذلك ، فأحسنوا جميعاً وصفق لهم النادي مرات متعددة . وأنكر الاستاذ الشنقيطي التصفيق على القوم انه بدعة فتركه بعضهم ، وأصر عليه الاكثرون لان بعضهم يراه من العادات المباحة التي اقترن بها تنشيط التلامذة وإدخال السرور على قلوبهم ، وبعضهم لم يصل اليه الانكار

و كان الرئيس كعادته يناقش كل تلميذ فيما يقول ، ويطلب منه التعبير عما قاله حفظا بعبارة عرفية . ثم وزع الجوائز وهي على ماذكرنا في السنة الماضية قسمان (أحدهما) ريع المال الذي جمع لاقامة تذكار لعلي باشا مبارك لخدمته المعارف في مصر (والثانية) تبرع الاستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، فهذا وزع على نفر من الناجحين في المدرسة . وأما الاول فاستقر الرأي على أن يشترى به كل عام كتب نافعـة تعطى للتلميذين اللذين يفوقان سائر التلامذة ممن أتموا المدة بشرط أن يشتغلا بعد المدرسة بتعلم صنعة من الصنائع ، وكذلك كان . وبعد ختم الاحتفال بترتيل أحد التلاميذ آيات من الكتاب العزيز وقف رئيس الجمعية فشكر للحاضرين سعيهم في الخير لمشاهدة أولاد الفقراء المتعلمين . ثم قال مامعناه ملخصاً :

خطاب الاستاذ الامام في التربية والتعليم

لا بد أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بعلم التربية ينتقد علينا شيئاً أنا أوافقهم على انتقاده قبل أن أذكره وأجيب عنه: وهو أن يحفظ التلاميذ مقالات في الدين والآداب كالذي سمع منهم الآن فيها من الحكم والمعاني العالية ما لا ترتقي عقولهم إلى الاحاطة به ، وما تعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة . أعيد القول بأن هذا الانتقاد صحيح، وأن حشو الاذهان بحفظ ما لا يفهم يفسدها ويذهب باستعداد العلم منها. ومدارس الجمعية تهتم بهذا الامر، فنحن نؤكد دائماً على المعلمين ان لا يعلموا التلاميذ كلاما لا يفهمونه والعمل على هذا ، والتفتيش من ورائه لتحقيقه .

وأما ما سمعتم فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المنتقدون بادي الرأي . ذلك ان التلميذ يخرج من مدارسنا إلى العمل غالباً ، ولا ثقة لنا بأنه يسمع في خطب المساجد ولا في دروسها شيئاً من حكم الدين وأسراره التي تبعث النفوس على العمل بأحكامه كالذي سمعتم من حكم الصوم . وكذلك لا نرجو أن يجد معهداً من معاهد العلم يسمع فيه شيئا من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية بالاولى ، فرأينا أن يحفظ كل تلميذ بعض مقالات في هذه المقاصد يجتهد في إفهامه معانيها بالجملة كما تقتضيه سنه ، ويوكل الفهم التفصيلي إلى حوادث الزمان وارتقاء الفكر فيها ، فهذه المحفوظات القليلة المفيدة ذخر للتلميذ في مستقبله وهي كبذرة وضعت في أرض صالحة يتعاهدها الزمان بالسقي والتغذية حتى تثمر الثمرة الصالحة ان شاء الله تعالى

إذا أجلتم النظر في أحوال المسلمين ترون أن ترك تعليم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحكمه وغرسها في النفوس (وهو الفقه الحقيقي في الدين) قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين، والاتيان به على غير وجهه من بعض آخر. ولنضرب المثل بفريضة الزكاة التي حفظ تلاميذنا مقالة في فوائدها في العام الماضي كما يذكر من حضر احتفاله، وفريضة الصوم التي سمعتم فوائدها وهي التي تلي الزكاة في الترتيب

الزكاة ركن من أركان الاسلام وبذل المال في إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل، ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة في القرآن في أكثر المواضع، وقد

جعل الله إنفاق المال في سبيله آية الايمان . وجعل تركه علامة النفاق والكفران، وقاتل الخليفة الاول بموافقة الصحابة كلهم رضي الله عنهم مانعي الزكاة ومع هذا كله نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه حتى كأنه ليس من الدين بالمرة.

وأطال الاستاذ الكلام في الزكاة وفي مضرة تركها. ثم انتقل الى الصوم وبين أن بعض المسلمين تركوه وان الذين يصومون لا يؤدون هذه الفريضة على الوجه الذي أراده تعالى بقوله (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وأوضح هذا بذكر ما عليه الناس — ثم انتقل إلى الكلام في تعليم مدارس الجمعية فقال:

ان مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بد منه لكل انسان وهو أن يحسن القراءة بلغة أمته ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه، ويتربى عليه عملا، والحساب والتاريخ وتقويم البلدان وطرفا من مبادىء التاريخ الطبيعي وحفظ الصحة وأدب المعاشرة . ولا بد عندنا من تعليم هذه الاشياء على وجه مفهوم في مدة أربع سنين وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وليس عندنا لغة أجنبية لاننا لا نعد التلامذة للوظائف والشهادات، وإنما نعدهم للعمل بالحرف والصنائع ، وما ذكرنا من التعليم لا يستغني عنه صانع ولا زارع

قال: كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاماً في البلاد، ومنبثاً في جميع الطبقات، ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم و الفنون واللغات في المدارس الثانوية والعالية ما هي مستعدة له . ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران : أحدهما أن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة لانها شرط للاستخدام في الحكومة . والسبب في رغبة الناس في خدمة الحكومة هو أن الناس لعدم ثقتهم بأنفسهم ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة، وضعف همتهم عن سلوكها، يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه، وان كان وشلا آسنا . فاذا استخدم بمائة وخمسين قرشاً ولو في أعلى الصعيد أو السودان ينام آمنا مطمئناً ، ويلقي هم الدنيا وراء ظهره ، إلا إذا تيسر له السعي في شفاعة تزيد في راتبه، أو ينتقل بها الى مكان غير مكانه ، ولو استعمل مواهبه التي منحه الله إياها وكدح في طلب الرزق

من طرقه الواسعة ، لا سيما التجارة ، لجاز أن يكون من أهل الثراء الواسع
- وشنع الخطيب ماشاء على أصحاب هذه النفوس الخاملة الصغيرة ، ثم انتقل الى بيان السبب الآخر في عدم التوجه إلى التعليم النافع فقال:

أما ثاني السببين فداؤه اقتل ، وعلاجه أعسر ، أتدرون ماهو؟ هو قلة المعلمين والمربين فاننا نحتاج في التعليم الابتدائي إلى من يبدىء التلميذ في السنة الاولى (بألف با) فلا تنتهي السنة إلا وهو يقرأ ويكتب ويعرف ماذكرناه آنفا وعرض عليكم نموذجه ، والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون ، وقد عزمنا على تجديد مدرسة للجمعية ولكننا عند المذاكرة فيها كنا نشكو من قلة المعلمين ، اننا نحتاج معلما لاحدى مدارسنا فنعلن ذلك في الجرائد فيجيئنا الراغبون بالعشرات فنمتحنهم ونختار من نراه الامثل وإن لم يكن على حسب الرغبة تماما ، ثم يتمرن على طريقتنا في المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش ، ومثل هؤلاء يجدر بنا أن نسميهم معلمي الضرورة

قال : ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل ، وذلك بانشاء مدرسة لتخريج المعلمين ، ولا بد في هذا من سعي العلماء ومساعدة الاغنياء ، ثم شكر للحاضرين سعيهم فانصرفوا شاكرين

(أقول) كتبت هذا بعد أيام من الاحتفال في إثر انحراف في الصحة فان نقصت من فوائد الخطاب ففي غير الفوائد الاصلية وإن زدت فربما كان كلمة في معنى الكلام تزيد في إيضاحه

مدرسة الجمعية الخيرية في المحلة الكبرى

(الاحتفال بافتتاحها والغرض من تعليمها)

(منقول عن ص٦٧٣ من المجلد السابع من المنار الصادر في غرة رمضان سنة ١٣٢٢)

ذكرنا في الجزء الخامس من هذه السنة خبر الاحتفال بتأسيس هذه المدرسة وقد تم ولله الحمد بناؤها وأهلت بالتلاميذ ، وانتظمت عقود الدروس فيها واحتفل بافتتاحها رسمياً أول أمس بحضور رئيس الجمعية الاستاذ الامام وابراهيم بك

الملباوي من أعضاء مجلس ادارتها ومنشيء هذه المجلة من أعضاء الجمعية وحضور وجهاء المحلة وعمال الحكومة فيها وبديء الاحتفال بتلاوة أحد التلاميذ لآيات من الكتاب العزيز ، ثم وقف الرئيس فبسمل وحمد الله تعالى وصلى وسلم على رسوله وشكر للحاضرين عنايتهم بحضور الاحتفال الدالة على رغبتهم في نشر العلم ومساعدة الجمعية الخيرية على عملها وذكر الغرض من هذا التعليم الابتدائي فقال ماخلاصته :

خطابه في الغرض من التعليم الابتدائي

المدرسة تعلم المبتدئين القراءة والخط والحساب ومبادي العربية، وتربيهم على الاعمال الدينية والادبية، تعدهم بذلك للعيشة الصالحة في أنفسهم ومع الناس الذين يعيشون معهم، وهذه المبادىء لايستغني عنها انسان فقيراً كان أو غنياً ، فالفلاح يحتاج إلى مكاتبة بعض الناس فاذا كتب بيده أو قرأ مايكتب اليه وحسب مايبيعه ويشتريه بنفسه فهو خير له من الاستعانة بغيره على ذلك، ولهذا التعليم فائدة أعلى من الاستعانة على المعيشة وهي ارتقاء العقل واستعداده لفهم المصلحة وتمييزها من المفسدة، فاننا نرى كثيراً من الناس يقع التنازع بينهم فيعتدي بعضهم على بعض حتى تفنى ثروة الفريقين في التنازع وإذا حاولت اقناعهم بان هذا ضار وأن الخير والصواب في خلافه ، لايسهل عليك ذلك لانهم لا يفهمون .

وأهم ماتقصده الجمعية من التربية في مدارسها تنشئة المتعلمين على الفضائل كالصدق والامانة اللذين عليهما مدار السعادة ، مانجحت أمة إلا بهما، ولاهلكت إلا بفقدهما، وقد حث الاسلام وجميع الاديان على هذين الخلقين، ونهى عن الكذب والخيانة أشد النهي وانا مع ذلك نرى الكذب والخيانة فاشيين في الناس إلى حد سلبت معه ثقة الناس بعضهم ببعض ،وفقد الثقة مؤذن بالخراب والدمار . هذا التعليم سلم يرتقي عليه الغني إلى التعليم العالي ويجعل الفقير على مقربة من الغني في الفكر والخلق ،فاما أن يجد فيلحقه، واما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته في أعماله بالصدق والامانة ، فهذا التعليم لا يستغني عنه أحد حتى الحمار والحمال

وتعلم المدرسة أيضاً مبادىء العلوم ولغة أجنبية لاعداد من يريد خدمة

الحكومة لها ٬وهذا مالا ترغب فيه الجمعية نفسها لكنه من حاجة الناس وانما رغبتهم في الاستعانة به على تعلم الصناعة لمن يريدها(١) ولها الرجاء بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها في تأسيس قسم صناعي في هذه المدرسة فان المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة وقد وعد صاحب السعادة احمد باشا المنشاوي بانه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعي فلم يبق إلا اهتمام الوجهاء الحاضرين بالاكتتاب في جميع المركز وجمع المال الذي يمكن من اتمام العمل .

وقال قد علمت بان أهل المحلة الكبرى ثلاثون ألفاً أو يزيدون وهي قاعدة مركز عدده كثير وليس فيها إلا مدرسة للقبط وأخرى للامريكان وانني قد رأيت في بعض سياحاتي في البلاد الاجنبية مدينة عدد سكانها ستة عشر الف نسمة ، وقد أنشأ الاهالي فيها مدرسة كلية تعلم فيها جميع العلوم العالية بمساعدة أهل المركز الذي هي قاعدته ، أنفقوا عليها كذا من ملايين الفرنكات (نسيت العدد) على أن فيها عدة مدارس ابتدائية وفي كل قرية من قرى ذلك المركز مدرسة ابتدائية فنرجو ان نبلغ من مجاراة أمثال هؤلاء الاحياء أن ترتقي مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعي ، وأن يكون لنا في القاهرة مدرسة كلية فان القطر المصري كله لم يبلغ من التقدم في العلم ان كانت فيه مدرسة كليه تعلم فيها العلوم العالية

﴿خطبة صاحب المنار في مدرسة المحلة الكبرى﴾

ثم دعي كاتب هذه السطور الى أن يخطب فيهم فلبى وقام فقال بعد الافتتاح بذكر الله : رغبتم الي في الكلام ، بعد ما سمعتم من حكم الاستاذ الامام ، وإن مثل الذي يعرض ماعنده من ذلك في حضرة الاستاذ اذا هو أحسن كمثل ذلك الوزير العجمي في الاستانة اذ كانت له منطقة مرصعة بالجواهر يتمنطق بها فوق ثيابه يتراءى أمام الناس ويفتخر ، فعلم السلطان بذلك فأمر بعض وزرائه ويقال

(١) انما سمح الاستاذ الامام بتعليم لغة اجنبية في مدرسة المحلة دون غيرها لأنها مدرسة انشأها اغنياؤها لاغناء اولادهم على السفر الى القاهرة او غيرها للتعلم فهي ليست منشأة لتعليم اولاد الفقراء وحدهم كسائر مدارس الجمعية

انه الامير مصطفى فاضل باشا المصري بان يدعوه الى داره ويريه مايصغر منطقته في عينه، فدعاه الى العشاء والسمر فرأى من الآنية والماعون والأثاث المرصعة بالجواهر ماخطف بصره حتى قيل انه رأى الشباشب (كلمة مصرية مفردها شبشب وهو الكوس او القفس في العربية) وسيور القبقاب في المرحاض مرصعة بالجواهر فصار بعد ذلك يخفي منطقته تحت كسائه — ولكننا نقول شيئاً تلبية للطلب

جرت العادة بأن يكون الكلام في مقام الاحتفال بافتتاح مدرسة محصوراً في مدح العلم والتعليم، على أن العلم غني عن المدح باتفاق الناس على فضله، فلا يوجد جاهل ينكر شرف العلم وشدة الحاجة اليه ولكن الناس في أمتنا كانوا يعتقدون أن العلم محصور في أمور مخصوصة يكفي أن يقوم بها بعض الناس فيسقط الطلب عن الآخرين، وكان يصعب إقناع الجمهور بوجوب تعميم العلم وبانه يحتاج اليه في كل شيء، ولكن قد تغيرت الآن الاحوال في هذه البلاد، وصرنا نرى جميع طبقات الناس حتى الطهاة (الطباخين) يقذفون أولادهم ذكرانا واناثا في المدارس لاحساسهم بان التعليم لابد منه، ولكن هذا الاحساس عند الاكثرين منهم لايعرفون حقيقته ولا سببه ولا فائدة التعليم الحقيقية. والسبب الحقيقي فيه التأثر بحال الاجانب الذين انتشروا في هذه البلاد، فهو سبب من الخارج لامن النفس، فهذه البلاد الآن في طور الانقلاب من حال إلى حال، إذ حدثت فيها مجار جديدة للحياة أو تيارات تجرف في طريقها الناس من حيث يشعرون ومن حيث لايشعرون، ومنها تيار تعميم التعليم، فالناس يرغبون في تعليم اولادهم وهم لايدرون ماذا يتعلمون ولا ما هي فائدة التعلم، ولذلك لا يميزون بين مدرسة وأخرى

وقد سألت بعض المتعلمين التعليم الثاني في المدرسة الخديوية عن رأي التلاميذ في فائدة التعليم مع العلم بأن أعمال الحكومة لاتفي بجميع المتعلمين؟ فقال انهم يرون ان المتعلم يقدر على أعمال شريفة يستغني بها لايقدر عليها غيره. فقلت له ان الذي يتعلم ليعيش بعلمه لا غرض له إلا نفسه فهو محترف كالصانع والزارع، وقد رأينا كثيراً من العوام حصلوا من الثروة بالزراعة والتجارة مالم يقاربهم فيه متعلم

كزعزوع بك وفلان وفلان . والذين ارتقوا بالتعلم في مصر قليلون كفلان وفلان من القضاة وغيرهم ، ولم نجد فيهم من حصل بعلمه ثروة كبيرة كأولئك العامة ، فالتعليم في مصر لم يرتق الى درجة يسهل معها تحصيل الثروة الواسعة به ، على ان نفقات المتعلمين تكون أكثر ، فاذا طلبوا الثروة ولم يجدوها كانوا أشقى من غيرهم في المعيشة . فقال هذا صحيح ،

ثم قلت له ألا يوجد في اخوانك المتعلمين من يفكر في التوسل بالعلم الى خدمة أمته وبلاده خدمة عامة فيكون أفضل من النجار والحداد والفلاح الذين لا يعملون إلا لاجل بطونهم ، وإن كان عملهم الجزئي نافعاً للناس ؟ فقال يوجد قليل منهم يفكر في انشاء جريدة لخدمة الوطن . قلت وماذا رأوا من خدمة الجرائد للناس ؟ أي شيء ضار كانت عليه الامة فتحولت عنه بارشاد الجرائد ، وأي شيء نافع كانت منصرفة عنه فتوجهت اليه بحثها وترغيبها ؟ وهل تعرف أنت للجريدة الفلانية والجريدة الفلانية مذهباً ورأياً نافعاً تمتاز بالدعوة اليه لترقية البلاد ؟ فقال لا ، وكان قصارى الحديث معه أنه ليس لاحد غاية مقصودة من التعلم وراء خدمة الحكومة (أقول ويلحق بها الطب والمحاماة عند نفر قليل)

لهذا التعليم الناقص في مصر سيئات ومضار فان الفتن والمعاصي الضارة التي ألمت بالبلاد بواسطة الاجانب لم تنتشر فيها إلا بسعي هؤلاء المتعلمين ، وقد قال الاستاذ الامام ان من مقاصد المدارس إفادة المتعلمين الصدق والامانة فسلوه وسلوا غيره من العقلاء المختبرين ألهم ثقة بصدق أكثر المتعلمين وأمانتهم ؟ يجيبوك لا لا . والسبب في عدم إفادة التعليم أمثال هذه الصفات هو أن القائمين بأمر التعليم لا يقصدون ذلك فان الحكومة انما تقصد بمدارسها ايجاد خدم لها يقدرون على أعمال مخصوصة ، وليس لها عناية بتربية الارواح وترقية الأمة ، هذا وان مدارس الحكومة خير المدارس وأرقاها تعليما ونظاما ، وأما المدارس الاهلية فالمقصود منها التجارة والكسب ، وأكثر أصحابها لا يعرفون طريق الجمع بين الافادة المطلوبة والاستفادة ، وقد دخلت مرة إحدى هذه المدارس وسألت أحد المدرسين عن الكتب التي يقرأها في الدين — والدين كما لا يخفى أساس التهذيب — فقال

اني كنت بدأت بقراءة شيء من السيرة النبوية وبمناسبة ذكر المعراج ذكرت لهم فرضية الصلاة وأردت أن أذكر شيئا من أحكامها فرأيت على وجوه التلامذة مايدل على عدم الارتياح فتركت درس الدين : يعني ان هؤلاء لايعلمون الا ما ترتاح اليه نفوس التلاميذ وتلذذ به ، أي يريدون أن يكون التلاميذ هم نظار المدارس (١)

ولا نعرف في البلاد مدارس غرضها تهذيب النفوس غير مدارس الجمعية الخيرية ، وذلك ان رئيس هذه الجمعية ومساعديه في ادارتها هم خيرة رجال هذه البلاد معرفة وغيرة، وأقدرهم على ايجاد التعليم النافع والتربية الصحيحة، ولا تنتج الامم الضعيفة أمثالهم إلا بعد مخض الزمان لها في قرون طويلة، فيجب أن تغتنم فرصة وجودهم بمساعدة الجمعية على نشر التعليم والتربية على الوجه الصحيح النافع فانه ماقصر بها إلا قلة المال . وقد أحسن وجهاء المحلة صنعا بتفويض أمر مدرستهم الى الجمعية ، واني أدعو كل واحد من السامعين الى مساعدة هذه الجمعية بنفسه وبدعوة غيره الى ذلك، فان الامور العامة لاتحيا وتبلغ كمالها إلا بالدعوة فينبغي لكل واحد أن يدعو نفسه وكل من يظن فيه الخير الى مساعدتها على قدر الاستطاعة من غير تفرقة بين غني وفقير فان الله تعالى يقول

« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ ٱللهُ لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا »

أي من كان رزقه واسعاً فلينفق كثيراً يليق بسعته ومن كان رزقه ضيقا فلينفق بقدر حاله، والقليل من الكثير كثير، فلو أن كل واحد من اهالي القطر بذل للجمعية قرشاً واحداً في السنة لكان لها من ذلك ملايين تمكنها من تعميم التعليم في القطر

وليعلم كل من يبذل شيئاً للجمعية ولو قليلا أنه شريك في الاجر وفي الشرف لمن بذل الكثير من حيث إن كل واحد بذل مافي وسعه ومن حيث إن العمل العام لم يقم ولا يقوم به واحد وانما يتم بالتعاون والمساعدة وباذل القليل ركن من أركان التعاون اهـ

(١) نشرنا في صفحة ٦٠٢ من مجلد المنار السادس مقالة عنوانها (المدارس المصرية لاتربي رجالا مستقلين ـ رد على المقتطف) فليراجعها من شاء استيفاء هذا الموضوع

خطاب ابراهيم بك الهلباوي

ثم دعي الي الخطابة ابراهيم بك الهلباوي فقام وذكر ملخص تاريخ هذه الجمعية وبين انها جمعية عمل لا جمعية قول، وانه أحس من نفسه بالعجز عن الخطابة في احتفال مدرسة للجمعية على تمرنه على الخطابة. قال انني دخلت في هذه الجمعيه في أول تأسيسها منذ اثنتي عشرة سنة ولم أخطب فيها قط، وقد عرضت مناسبات للخطابة فكنت استأذن مولانا الرئيس بالتلويح ووكيل الجمعية وبعض أعضاء الادارة بالتصريح، فكانوا يضعون اصابعهم على أفواههم اشارة الى وجوب السكوت، وقد قامت في هذه المدة جمعيات قولية كثيرة فذهب بها ودرس رسومها القول والخطابة، على انها لم تصادف من المقاومة مالقيت الجمعية الخيرية لاسلامية، وذكر اسماء هذه الجمعيات التي كانت محترمة في أوقات كان فيها ذكر الجمعية الخيرية مخيفا ومزدرى ، حتى كان الداعي الى مساعدتها لا يتوقع إلا الخيبة ، وحتى ان بعض الباشوات هدد محصلها مرة بالضرب بعد أن أهانه بالقول. وقد ثبت رجالها مع هذه الصعوبات على عملهم ليثبتوا للناس ان الساعي بالخير مع الصدق والاخلاص لابد أن يظفر بالنجاح اذا هو ثبت وصبر وكذلك كان

ونالت هذه الجمعية الثقة في نفوس الناس بعدما تولى رئاستها مولانا الرئيس الحاضر ، حتى أحس كثير من العقلاء بوجوب كفالتها للمدارس الاهلية التي ينشئها الاهالي لتربية أولادهم، وكان السابق لذلك وجهاء المنيا فقد أنشأوا مدرسة في بني مزار وعهدوا بادارتها الى الجمعية رجاء بقائها وثباتها والانتفاع بتعليمها وكذلك فعلتم ياوجهاء أهل المحلة فانكم طلبتم من الجمعية أن تدير لكم هذه المدرسة التي أنشأتموها بأموالكم لمثل ذلك الغرض بمحض الاحساس بالثقة بالجمعية اه

وبعد أن أتم خطابه المفيد ختم الاحتفال كما بديء بتلاوة القرآن الكريم ، ولا صحة لما ذكر في المؤيد أمس من ان بعض المدعوين تصدوا للخطابة فنعهم مأمور المركز الخ . فنثني على وجهاء المحلة أطيب الثناء، ونرجو لهم كمال الارتقاء. اه

خطته الاصلاحية في الجمعية ومدارسها

الذي يؤخذ من خطب الاستاذ الامام في هذه الاحتفالات المدرسية ومن خطبه في اجتماع جمعيتها العمومية السنوية وكان يكرر فيها أن الفائدة العامة الكبرى من هذا الاجتماع هو تجديد شعور الاعضاء بفائدة الاجتماع بقصد التعاون على خدمة الامة الخدمة النافعة فهذا الشعور هو الذي يبعث الهمم ويقوي العزائم على النهوض والعمل المشترك الملة والامة الخ والذي يستفاد من حديثه معنا أيضا — وهو الذي أشرنا به وكيل مدارس الجمعية حسن باشا عاصم — هو ان الامة لا تتكون وتكون أمة واحدة في شعورها بحياتها الملية ومصالحها العامة وبحاجتها إلى التعاون على منافعها والدفاع عن حقيقتها في جميع طبقاتها بحيث تكون الطبقات في جسم الامة كالأعضاء في جسد الشخص ، إلا اذا كانت التربية والتعليم للاحداث موجهين إلى اصلاح الانفس بالعقائد الصحيحة والاخلاق الكريمة والآداب الحسنة ، والقيام بحقوق الله وحقوق الوالدين والاقربين والجيران فسائر الامة بحيث يكون مجموع الامة كالسلسلة يهتز بتحريكها جميع حلقاتها — ومصداقا للمثل النبوى القائل « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام احمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) مرفوعا إلى النبي ﷺ ففي الجسد أعضاء ظاهرة وباطنة ذات وظائف مختلفة عمل كل منها لنفع الجميع وألمها يشعر به المجموع ، فالعينان لا تبصران لاجل منفعة خاصة بهما ، والمعدة لا تهضم الطعام لاجل حفظ صحتها وحدها ، وكذلك الدماغ والقلب واليد والرجل . كذلك يجب أن تكون طبقات الامة تعمل عملها بالاتقان لمنفعة جميع الطبقات . ويكون ارتقاء كل طبقة وكمالها في وظيفتها العملية ركنا من أركان ارتقاء الامة وكمالها الاجتماعي والسياسي ، فهي لا تكون أهلا للحكومة النيابية مضطلعة بها إلا اذا كانت طبقاتها كلها تشعر بحاجاتها الملية والسياسية شعوراً واحداً ، فتكون اهلا لاختيار نوابها والسيطرة عليهم . وانما وسيلة هذا التعليم الاستقلالي المؤهل للقيام بجميع مصالح

الامة والتربية الدينية المصلحة للانفس الموجهة لها الى الاصلاح الخاص والعام

هذا هو الواجب في التربية والتعليم في رأي الاستاذ الامام ورأي كل حكيم، ولكن القائمين بأمر التربية والتعليم في مصر لا يفكرون في هذا ولا يقصدونه سواء في ذلك التعليم الديني في الازهر وملحقاته ، والتعليم المدني في المدارس الاميرية والمدارس الاهلية المقلدة لها

فأما الازهر وملحقاته فليس فيها إلا تعليم تقليدي في شكله وموضوعه وغايته لما جرى عليه آخر السابقين فيهـا يشبه مايسميه علماء الطبيعة بحركة الاستمرار لجسم دفعه دافع فانتهت حركة الدفع القوية له وبقيت حركة الاستمرار تضعف آنا بعد آن ، وليس لرؤسائه قصد يوجهون التعليم اليه غير ما يقصده الافراد من نجاة مجاور من الخدمة العسكرية إلى تحصيل شهادة علمية يكون حاملها مدرساً في الازهر او قاضيا شرعيـاً يعيش كل منهما براتب الوظيفة ويجري فيها على ما جرى عليه من قبله ، لا يخطر لاحد منهم ببال أن ينقذ أمته وملته من ضعة ، أو يعود عليهـا بمنفعة . بحيث تغير بسعيه ما بانفسها من جهل ورذائل وفساد ليغير الله ما بها من ضعف وظلم واستبداد .

وأما مدارس الحكومة والاهلية فليس فيها إلا تعليم تقليدي صوري في شكله وموضوعه للمدارس الاوربية، وغايته تخريج موظفين للحكومة في جميع وزاراتها ومصالحها يكونون كالآلات الميكانيكية لادارة هذا العمل الكبير . وليس فيهـا شيء مما في المدارس الاوربية من تخريج رجال مستقلين في العلوم والفنون يرفعون قدر الامة بما يكتشفون من أسرار الكون ومنافعها ، وما يرقون من الصناعات فيها الخ كما انه ليس فيها أدنى فكرة في تهذيب الاخلاق ورفع شأن الفضيلة بالتربية الدينية وقد صار أمرها إلى الانكليز وكان المسيطر عليها أحد قسوس البروتستانت فكان جل همه محو كل أثر اسلامي منها . وللاستاذ الامام لائحة في اصلاح تعليم الازهر والمدارس بأنواعها في مصر نشرناه في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص ٥٣٣ـ ٥٥٢) ولائحة في اصلاح التعليم الديني في بلاد الدولة العثمانيـة نشرناه (ص ٥٠٥ ـ ٥٢٢) ودرس عام في التعليم الاسلامي ألقاه في تونس ونشرناه في

صفحة ٥٩٨و٧٧٥ من مجلد المنار السادس

وبجانب هذين النوعين من معاهد التعليم مدارس دعاة النصرانية وهي هي التي لها مقاصد عامة في التعليم والتربية ، وجهة إلى جذب التلاميذ إلى دينهم ومذاهبهم أو إلى الالحاد المحض ، وإلى نشر لغاتهم وغرس عظمة دولهم وثقافة شعوبهم في الانفس فجميع معاهد التعليم في مصر حرب للاسلام في عقائده وآدابه وسياسته وتشريعه بقصد وبغير قصد ونتيجة ذلك أنها حرب للامة مانعة من ترقيتها واستقلالها ووحدتها

فوجه الاستاذ الامام عزيمته إلى مقاومة هذا الفساد كله باصلاح التعليم الديني في الازهر وملحقاته وإلى جعل التعليم المدني في مدارس الجمعية الخيرية اسلامي الصبغة يقصد به اصلاح الطبقات الدنيا من الزراع والصناع وأصحاب المهن الحرة من واطئة وعالية ، وترقية الصناعات الوطنية ومنع تعليم اللغات الاجنبية منها لكيلا تكون سبباً لجعل غاية التعليم خدمة الحكومة والجري على منهاجها المادي الفاسد المفسد للانفس ، وسببا لعظمة الاجانب في القلوب والاندفاع لتقليدهم فيما يروج تجارتهم ومصنوعاتهم ويحول دون ايجاد ما يغني عنها من مصنوعات البلاد.

ولكن الجمعية قد تنكبت هذا الصراط المستقيم بعد وفاته ووفاة صنوه في الاصلاح حسن باشا عاصم (رحمهما الله) وصار التعليم فيها ماديا صوريا كتعليم المدارس الاميرية والاهلية ، حتى ان البنات يعلمن الرقص ولا يربين على الصلاة بالعمل فأي خير يرجى للأمة من بنات لا يقمن الصلاة ولكنهن يتقن أنواع الرقص ؟ الا ان هذا هو الذي يزيد البيوت (العائلات) فسادا . والامة ضعفا واعتلالا

ولم يكن الاستاذ الامام راضيا من التربية والتعليم في مدارس الجمعية الذي بينا وصفه في خبر الاحتفالات السنوي لها . بل صرح في بعض خطبه بأنه لايزال تعليم ضرورة ، وكان يرى انه لايبلغ كماله إلا بتخريج المعلمين الراقين في علومهم الدينية والدنيوية وفي أخلاقهم ، وان هذا لايتم إلا باصلاح الازهر أو بانشاء الجمعية لمدرسة خاصة لتخريج المعلمين

وكذلك الكتب لم تكن تعجبه وقد عرضت عليه فكرة سنحت لي وهي تأليف كتب للتعليم الديني في درجاته الثلاث من العقائد والعبادات بأن تكون

كتب العقائد على صراط القرآن في الاستدلال بآيات الله في الانفس والآفاق، على الوجه الذي ترتقي فيه علومها في هذا الزمان ، وأن تكون كتب العبادات منها مبتدأة في كل باب بجملة ما ورد منها في القرآن الحكيم ، ويتلوه جملة ماصح في السنة ، وتذكر في الحواشي مدارك الائمة ، بترتيب سهل العبارة ، فاعجبه هذا الرأي وقل لي أوجد هذه الكتب ونحن نقرر تدريسها في مدارس الجمعية الخيرية

وقد كتب إلي من الاسكندرية في صيف سنة ١٩٠٢ في هذه المسألة ما نصه :

« رأيت حسن باشا وتذاكرنا في كتابي الفقه والعقائد فرأى رأيا لا يخلو من حسن وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب حتى في النجاسات ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل ماهم من اختلاف المذاهب كلها ليكون ذلك هاديا إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة ، فاذا سهل عليك ذلك فافعل . وأحب أن أراك يوم الاثنين الآتي في عين شمس قبل الظهر اذا تيسر لك ذلك والسلام »

وأقول ان مسألة وضع الخلاف في الحواشي كنت ذكرتها له . وأما مسألة بيان الاجماع فكان من خطتي الاساسية كما بينته في مقالات المصلح والمقلد ولم أذكرها له ، واما مدارك الأئمة فهي عندي غير خلافاتهم الجزئية

ثم كتب إلي بعد عودته الى مصر أيام كتابا أرسله مع ساعي الازهر قال :

« حسن باشا أرسل يسألني اليوم هل شرعت في العمل لتحرير كتابي العقائد والفقه، وأحب ان أجيبه فهل شرعت ؟ وبودي أن يكون الجواب : نعم وأن يتم العمل في مدة قليلة »

وأقول أما العقائد فقد كنت شرعت في كتابة رسالتين أو كتابين في أحدهما للمبتدئين والثاني لمن فوقهم ولم أتمهما وأطلعته على الثاني فسر به ، ونشرت نبذة منه في معنى صفة الحياة لله تعالى من تفسير آية الكرسي . وأما كتاب الفقه فارجأته لاجل مراجعة كتب المذاهب في الخلاف ولم يتسن لي ذلك وتوفاه الله تعالى ولم يتحقق له وللامة هذا الامل . ولا تزال هذه أمنيتي وإن كثرت الصوارف عن إنجازها ، وقد كثرت الشواغل عنها والله قادر على تيسيرها والامر لله العلي الكبير

رسم شمسي لمذكرة أرسلها حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيرية الاسلامية

من الاسكندرية إلى الأستاذ الامام رئيس الجمعية بمصر بشأن تأليف

صاحب المنار كتابين فى العقـائد والعبادات ليدرسا فى

مدارس الجمعية . وما كتبه الأستاذ الامام على المذكرة

كتاب العقائد والعبادات

عزيزي

ارجو ان تذكر الشيخ رشيد بما وعد والسلام ح عاصم

٨ يوليه ٩٠٤

ليتك تشتغل بهذا الكتاب

او هذين الكتابين في القرب العاجل

حتى يمكن وضعهما بين ايدي التلامذة في اول

الدراسة الآتية

محمد عبده

المقصد الثامن

من الفصل السادس

عمله في جمعية احياء الكتب العربية

قد كتبت في ترجمة المنار له في هذه المسألة مانصه :

كان رضي الله عنه يرى أن حياة الامة بدون حياة لغتها من المحال ، وان حياة العلوم العربية بمثل هذه الكتب الازهرية محال ، وان لابد للاصلاح من إحياء كتب أئمتنا وكبار علمائنا التي ألفت أيام كان العلم حيا في الامة، فكان يسعى لذلك سعيه، وبهديه وإسعاده طبعنا ذينك الكتابين الجليلين اللذين هما روح علم البلاغة ـ أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ـ للشيخ عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة ولولا تصحيح الفقيد لهما واستحضاره لنسخهما من الاقطار النائية لما تيسر طبعهما.

وفي سنة ١٣١٨ أسست في مصر جمعية خاصة لهذه الخدمة تحت رئاسته سميت (جمعية إحياء العلوم العربية) كانت فاتحة أعمالها طبع كتاب (المخصص) لابن سيده في اللغة وهو كتاب لانظير له في بابه ولا غناء عنه في إحياء اللغة في هذا العصر. وقد شرعت بعد طبعه في حياء مدونة الامام مالك وعني الفقيد رحمه الله تعالى باستحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ، ولولاه لما تيسر جمعها كلها ، ولنا رجاء عظيم في بقائها وحسن خدمتها بهمة من كان وكيلها وليس لرئاستها بعد الفقيد سواه الا وهو حسن باشا عاصم اه

وقال حسن باشا عاصم في تأبينه يوم ذكرى الاربعين مانصه :

عقب تقلده منصب الافتاء عين عضواً في مجلس شورى القوانين فكان للمجلس على عهده من الخدمة النافعة والاحترام مالم يكن له من قبل ، فقد كان رحمه الله عامل التوفيق بين المجلس والحكومة وكان أهم غرض له من التعب الشديد في المجلس تعويد الامة على دقة البحث في أمورها وتربية الرأي العام

فيها ، ولا ننس من خدمته للعلوم الاسلامية رئاسته لجمعية احياء العلوم العربية فقد أسست هذه الجمعية في سنة ١٣١٨ لاحياء كتب سلف هذه الامة وأفاضل علمائها، وكانت فاتحة أعمالها طبع كتاب المخصص لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في موضوعه. وقد تولى رحمه الله تصحيحه مع علامة اللغة المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي وان الفضل في خدمة الشنقيطي لهذا الكتاب راجع الى فقيدنا فانه لولاه لما أقام في هذه البلاد . وقد شرعت الجمعية بعد طبع المخصص في احياء مدونة الامام مالك رضي الله عنه ، وللفقيد من الخدمة في استحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ما لولاه لم يكمل لنا استنساخ الكتاب كله اهـ

هذا ما قاله زميله ووكيله في رياسة هذه الجمعية وفي الجمعية الخيرية معا ، والذي قعد بهما عن المضي في احياء كتب الائمة قلة المشتركين في الجمعية بالدراهم ، وقد حضرت اجتماعا لهما في ادارة الجمعية الخيرية بقبة الغوري بعد عودة الاستاذ من ميت غمر عقب توزيعه ما جمع لمنكوبي الحريق فيها من الاعانات ، فقال حسن باشا له ممازحا انني كنت في ايام هذا الصيف أصرف جميع اوقات الفراغ من الديوان في المكاتب القديمة أبحث عن الكتب النفيسة ولا سيما تكميل نسخة المدونة القديمة ، التي عثرنا على بعضها وانت تتنقل متنزها في البلاد ، والجرائد تتسابق الى ذكر تنقلات فضيلة الاستاذ ، قال الشيخ هذه هي العادة عندنا : الرئيس يكون قليل الشغل ويلقى اكثر حمله على الوكيل !! قال الباشا لو اعطيتنا للجمعية هذه الالوف الجنيهات التي جمعتها للاعانة أما كنا نخدم بها الامة بما هو انفع لها الف مرة من تمتع اهل ميت غمر بها ؟ ان الذين ماتوا بالحريق ذهبوا الى رحمة الله ، والباقون من اهليهم ستظل معيشتهم على ما كانت لا تغيرها هذه الاعانات . قال الشيخ انني انما اقصد عند حدوث هذه المصائب الى تحريك شعور الرحمة في قلوب الناس وحملهم على مساعدة المنكوبين لتعويدهم البذل في المنافع العامة ، ومتى تعودوه سهل عليهم في جميع وجوه الخير والبر كجمعيتينا وغيرهما . فرحم الله هذين الرجلين المصلحين اللذين لم يوجد لهما مثل في عصرنا ، ولا خلف يخلفهما وفقنا الله للاهتداء بهذا الامام في خدمة الامة في كل عمل وكل حال ، ولنا في تاريخه هذا خير مثل وأفضل منوال

الفصل السابع

في شؤونه العامة وهو يدخل في بضع مقاصد

(١) تدريسه (٢) مؤلفاته (٣) دفاعه عن الأسلام (٤) اغاثته للمنكوبين في احداث الزمان (٥) أسفاره الى أوربة والاستانة وسورية وتونس والجزائر وصقلية والسودان (٦) آراؤه وآماله وأمانيه (٧) شمائله وأخلاقه (٨) مذهبه في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين والطعن عليهما

المقصد الاول

من الفصل السابع

تدريسه

كانت طريقة الاستاذ الامام في التدريس مباينة للطريقة الازهرية التي كان ينتقدها أشد الانتقاد بأنها مناقشة في عبارات الكتب فقد مرنوا على قراءة كتب معينة كل كتاب منها لثلاثة أو أربعة من المؤلفين ، وإن شئت قلت كل كتاب منها في الصورة هو ثلاثة كتب أو أربعة في الحقيقة : المتن ، والشرح ، والحاشية ، وقد يزاد عليها التقرير ، كل منهـا يفسر ما قبله ويذكر ما تحتمله عباراته من المعاني وما قد يرد عليها من الاعتراض ، وما يدفع الاعتراض من الاجوبة والاحتمالات التي تعد كثرتها آية النبوغ في التحقيق ، ولذلك كان يقول رحمه الله ان أهل الازهر يتعلمون كتباً لا علما .

وقد جاهدهم جهاداً كبيراً على ترك قراءة الحواشي ، وكان يكره قراءة الشروح أيضاً ويتربص الفرص لتقليلها أو ابطالها ، ولم يقرأهو في عهد الاصلاح

الاخير في الازهر غير المتون، واما ما وضعه من التعليقات على كتاب البصائر النصيرية في المنطق فلم يكن يلتزم قراءتها في درسه وانما وضعها لتسهيل مطالعة الكتاب على طلبة الازهر لدقة عبارته على كونه لم ير متناً متوسطا خيراً منه .

وقد عقدنا المقصدين الاول والثاني من الفصل الرابع في تدريسه في الازهر بعد أخذه لشهادة العالمية وقبلها (راجع ص ١٣٣ — ١٣٧) وتدريسه في المدارس كدار العلوم ومدرسة اللغات. وأخبرني الذي كانوا يحضرون دروسه الاولى كسعد باشا زغلول وحفني بك ناصف ومحمد صالح باشا ان بيانه للمسائل كان في غاية الوضوح بحيث ينتقد من كان يحضر دروسه قراءة سائر المشايخ ويرغب عنها، ولكن فاتني أن أسألهم عن طريقته وأسلوبه في القراءة في الازهر ثم في دار العلوم وأظن أنهما عين ماعهدناه منه في الازهر أخيراً

وهو انه كان يقرا عبارة متن رسالة التوحيد والبصائر وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ويبين معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلما يحتاج سامعها الى سؤال، فان استشكل مستشكل وسأل سائل أجيب بما يقنعه بالاختصار، في قول فاصل ليس فيه شك ولا احتمال ، ثم يضع الكتاب أو الكراس أمامه ويبسط الموضوع العلمي بسطا تاما وافياً بتحقيق المسألة والاحاطة بالغرض منها ، بعبارات مختلفة سيأتي وصفها في الكلام على ختام درس المنطق . وهذه الطريقة عكس ما كان يجري عليه السيد جمال الدين الافغاني فانه كان يبسط المسألة العلمية بما يجليها للسامع من جميع نواحيها ، ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها فيفهمها السامع من أول وهلة .

قال لي سعد باشا زغلول ان الذي كان يحضر دروس أستاذنا في الازهر لا يسعه الا أن يحتقر دروس سائر العلماء فيه. وقد علمنا ان الشيخ أحمد الرفاعي يقرأ درساً في المنطق فذهبت الى درسه لأعلم كيف يقرأ المنطق على طريقتهم — وكان من أكثر المشايخ استنباطا للاحتمالات في عبارات الكتب ، والمنطق لا تحتمل قواعده الاحتمالات — فاذا هو يقرأ في عكس القضايا فقرأ عبارة الكتاب وأورد في إعرابها احتمالا يقتضي بطلان المسألة وهو عكس السالبة الكلية موجبة جزئية . قلت له ياسيدي الشيخ ان هذا الاعراب يفسد المعنى ويبطل القاعدة المنطقية فيجب رده .

قال : نحن مالنا . العلماء قالوا اذا صح الاعراب صح المعنى !! فانصرفت متعجبا

وقال لي حفني بك ناصف: لما شرع الشيخ محمد عبده يقرأ في الازهر لبعض الطلبة وذاع صيته بين الاذكياء منهم، اشتهيت أن أسمعه وكان أشياخنا يخوفوننا من درسه بأن فيه فلسفة واعتزالا ، فقلت في نفسي لابد أن أسمع منه ولو مرة واحدة على سبيل الاختبار ، فلما سمعته دهشت من الاعجاب بفصاحته وبيانه للمعاني بما يتلقاه العقل بالقبول

أقول ولما شرع في عهدنا بقراءة أسرار البلاغة في الرواق العباسي بالازهر بين في الدرس الاول معنى علم البيان والبلاغة. قال الشيخ محمد المهدي : اننا قد اكتشفنا في هذه الليلة معنى علم البيان. فاعترف بأن ماحضره من هذا العلم في مدرسة دار العلوم لم يفده معرفة حقيقة هذا العلم والمراد منه، وقد كان هو يدرس البيان في المدرسة الخديوية ثم صار مدرساً في دار العلوم ثم في الجامعة المصرية درس فيها آداب اللغة العربية ، ثم في مدرسة القضاء الشرعي ، وقد انتقل بحضور درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز على الاستاذ الامام من طور الى طور في البيان والمعاني وآداب اللغة

وممن تخرج عليه في الكتابين فكان كاتباً مجيداً وشاعراً بليغا المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وله قصائد في مدحه سننشر بعضها في ذيل هذا التاريخ ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ علي عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ ، و كان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر وقد مدح الاستاذ الامام بشعره والظاهر أنه تركه بعد ذلك، بل كان تدريسه للكتابين في الازهر بدء عهد جديد في البلاغة سرى تأثيره من تلاميذه الى غيرهم وصار فيه عدد كثير من حسني الانشاء الذي يعجز شيوخهم وشيوخ شيوخهم عن مثل كتابتهم ومنهم الشيخ طه البشري وأخوه الشيخ عبد العزيز والثاني هو الذى اشتغل بعد الأزهر بالكتابة واشتهر بها ولكن كان أكثر الناس استفادة من دروسه في البلاغة من غير الازهريين أحمد باشا تيمور والمتخرجون في دار العلوم وسأذكر اشهرهم عند الكلام على درسه الخاص ، وقد كان يحضر جميع دروسه كثير من أساتذة المدارس العالية والقضاة ورؤساء الدواوين

وأما قراءته للبصائر النصيرية فقد أفادتنا في المنطق ما كان يبيح لنا أن نقول فيه ماقاله الشيخ محمد المهدي في علم البيان ، فأنا أول واحد قل إننا لم نكن قبل هذا الدرس نفهم معنى الوجود والعدم ، على انني كنت حضرت على أستاذنا الشيخ محمد الجسر شرح السلم وشرح الفناري على ايساغوجي وشرح القطب على الشمسية ،وكان لي من الفهم في هـذا العلم أن كنت أعنت أستاذنا الجسر في الاسئلة إعناتاً حتى قال لي مرة في أثناء درس الكتاب الأخير : لاتسألني عن شيء في هذا العلم فان الذي عندي أقوله كله من غير سؤال . ولافائدة في سؤالي عما ليس عندي. هذا وان هذا الاستاذ الجسر كان أشهر علماء بلادنا في هذا العلم وفي غيره من المعقولات، وهو قد تلقاها في الازهر ولـكن طريقته في تدريسها غير طريقة الازهريين

وانني أنشر هنا ما كتبته في المنار عند ختم هذا الدرس من صفته وفوائده ومن كلام الاستاذ فيه . فانه هو الذي يجلي لقاريء هذا التاريخ قيمته وقيمة تدريس الاستاذ له في الجملة

(ختام درس المنطق للاستاذ الاكبر في الجامع الازهر)

(منقول من ص ٢٨٠ من المجلد الثالث من المنار الصادر في غرة ربيع الاول سنة ١٣١٨)

لا خلاف في أن العلوم والمعارف بدأ ينزوي نورها ويغيض معينها في بلاد الشرق من عدة قرون ، ولم يكن الشرق إلا الاسلام والمسلمين ، حيث لا علم إلا علمهم ، ولا مدنيـة إلا مدنيتهم . وقد اقتضت حوادث الكون بأن ينتبه المسلمون من رقادهم كما انتبه غيرهم ، وكانوا أحق بالسبق والتقدم ، وكلما انتبه فرد انتباهاً حقيقيا عني بتنبيه غيره سنة الله في الخلق . وأشهر المنتبهين والمنبهين لاحياء العلوم في المسلمين لهذا العهد هو مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، أخذ حفظـه الله على نفسه إيقاظ أهل الازهر الشريف وإرشادهم لطريقة التعليم المثلى ، فلقي في ذلك من العناء ما كان يلقاه المصلحون من قبله في كل زمان ومكان ، وعلم أن الارشاد بالقول قليل الجدوى ، فصار يقرأ الدروس بنفسه مع كثرة أعماله الاخرى في خدمة بلاده . وفي ليلة الاربعاء الماضية

أتم كتاب (البصائر النصيرية) في علم المنطق ، وقد احتفل بختامه في الرواق العباسي كما هي عادة الازهريين احتفالا قرئت فيه الخطب والقصائد في الثناء على الاستاذ، وكان الأولى أن تتوجه أفكارهم إلى بيان طرق الاصلاح الذي امتاز بها درسه ، والاقطاب التي كان يدور عليها كلامه، وترمي اليها سهامه، ومرجعها الى أصلين

(أحدهما) اختيار الكتب ، فان الناس يختارون في كل طور وحال مايناسب درجتهم واستعدادهم ، ولضعف العلوم في القرون الاخيرة صار العلماء لا يقرءون الا كتب المتأخرين التي كتب عليها الشروح والحواشي اللآئى بالمنازعات والمحاورات في الاساليب العرفية التي تضعف العلم واللغة جميعا كما هو المشاهد. ولا يكاد يتجرأ عالم على قراءة كتاب من كتب الجهابذة المتقدمين التي لم تشرح ولم تعلق عليها الحواشي ويسمونها (غير مخدومة) فعلمنا الاستاذ باختيار (البصائر النصيرية) الذي هو أمثل كتاب رأيناه في المنطق كيف نختار الكتب النافعة، التي لم تتلقها بالمدارسة، وعلق عليه شرحا وجيزاً يبين غوامضه ، وأصلح ما عساه يوجد فيه من الخطأ مما لا يخلو عنه غير كلام المعصوم، فعلمنا بذلك كيف ينبغي أن تكون الشروح، وكيف ان التمكن من العلم لايهاب الكتب ولا يتقيد بالعبارات التي ألفها وتعلمها

(ثانيهما) الالقاء والتقرير — علمنا بذلك كيف تتجلى الحقائق بالصور المختلفة، وتتحلى المعاني بالصيغ المتعددة، ليعتقنا من رق العبارات ، ويفكنا من اسر الالفاظ التي استبدت بالحكم فينا زمنا طويلا

علمنا كيف ضلت الافهام ، وغلبت الاوهام ، وكيف أطفأ دخان التقاليد النظرية، مافي العقول من أنوار العلوم اليقينية، لنطلب العلم ببرهانه، ونأخذ الشيء ببرهانه

علمنا كيف تتضاءل الشبه افتضاحا، وتبختر الحجج اتضاحا، وكيف يفرغ البيان العويص من النظريات، في قوالب البديهيات ، لتقوى منا العزائم، ونقدم على العظائم

علمنا كيف نطالب العلم بالعمل بمسائله، والتحقق بدلائله. وملاحظة انطباقه على الواقع، وموافقته للوجود ، لتحصل ثمرة قوله ﷺ « من عمل بما علم، ورثه الله علم مالم يعلم»

علمنا كيف تتمحص الحقائق للوصول الى اليقين بالعلم، والجزم بالفهم، ليخرجنا من الحيرة في طريقة التعليم المألوفة لهذا العهد ، طريقة الاحتمال وسرد الاقوال

علمنا بحاله ومقاله كيف يرتقي العلم ، وكيف يأتي المتأخر بما لم تأت به الاوائل ، لينزع من نفوسنا التسليم بأن الانسان دائما في تدل وهوي ، لا في تقدم ورقي ، فان التقدم مع هذا الاعتقاد ، ضرب من المحال

علمنا كيف يكون العلم صفة من صفات العالم تنفعل به نفسه ، وتتكيف به روحه ، ليرشدنا الى أن الصور والخيالات التي تلوح في الاذهان ، وتتراءى في الافكار ، عند ماتنشر الصحف ، وتعرض على الانظار نقوش الكتب ، ليس من العلم في شيء

ولو شئت أن أستشهد على كل شيء مما قلته بشيء مما جاء في درس المنطق لفعلت ، وأظن أن نبهاء الطلاب الذين حضروه يكتفون بهذه الاشارات ، ولا ينسون كيف فند الاستاذ كلام أفلاطون ، وأصلح رأي أرسطو في الماهيات ، ولا يغيب عن أذهانهم ذلك التحقيق العجيب في معنى الوجود ، وانه جنس الاجناس وجوهر الجواهر ، ولا ينكرون انهم لم يفهموا معنى الوجود إلا في ذلك اليوم ، كما لا يغيب عن عقولهم ذلك التحقيق البديع في معنى العدم ، وانه لا حقيقة له ، ولا يمكن تصوره ، فحيا الله من علمنا كيف نفرق بين الوجود والعدم .

وأظن انهم يتذكرون ذلك السائل الذي سأله منهم عن مفهوم « شريك الباري » وقول المنطقيين انه من الكليات التي لم يوجد لها افراد ويتذكرون جواب فضيلته الذي يتدفق حكمة وايمانا ، وعلما وايقانا ، الذي أثبت فيه أن ذلك المفهوم من الصور الخيالية المخترعة التي لا حقيقة لها ولا يمكن تصورها ، وماجعلها من الكليات إلا نقص العلم ، وخطأ الفهم الخ مالا محل له هنا لايضاحه وتفصيله

تليت القصائد والخطب احتفالا بختام الدرس كما قلنا والرواق العباسي غاص بالناس ، يزاحم العلماء والمدرسون فيه الطلاب والمجاورين ، وعلم الاستاذ ان ماسيلقى كثير فختم المجلس بخطاب بليغ ابتدأه بهضم نفسه بازاء الاطراء في المدح مع شكر من يظن به خيرا . وقال أحسن الكلام ما كان صادقا مطابقا للواقع ، وانما يذهب مذاهب المبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، وان كان العلماء توسعوا في التسامح بالمبالغة والتشبيهات والاستعارات ولم يعدوها من الكذب . وسنذكر ماعلق بالذهن من خطابه في الجزء الآتي . اه

﴿ ملخص خطاب مولانا الاستاذ الحكيم ﴾

(في ختام درس المنطق)

﴿منقول من ص ٣٠٢ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨﴾

وعدنا بأن نأتي بما وعيناه من ذلك الخطاب البليغ وها نحن أولاء منجزو موعدنا : قال الاستاذ بعد ماتقدمت الاشارة اليه من ذم الاطراء مامثاله ملخصاً

سعادة الناس في دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل ، فان الله خلق الانسان وناط جميع مصالحه ومنافعه بعمله وكسبه، والذين حصلوا سعادتهم بدون كسب ولا سعي هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وحدهم لا يشاركهم في هذا أحد من البشر مطلقا ، والكسب مهما تعدد وجوهه فانها ترجع الى كسب العلم ، لان أعمال الانسان انما تصدر عن إرادته، وإرادته انما تنبعث عن آرائه، وآراؤه هي نتائج علمه . فالعلم مصدر الاعمال كلها دنيوية وأخروية ، فكما لايسعد الناس في الدنيا إلا بأعمالهم كذلك لايسعدون في الآخرة إلا باعمالهم . وحيث كان للعلم هذا الشأن فلا شك أن الخطأ فيه خطأ في طريق السير إلى السعادة عائق أو مانع من الوصول اليها ، فلا جرم ان الناس في أشد الحاجة إلى مايحفظ من هذا الخطأ ويسير بالعلم في طريقه القويم حتى يصل السائر إلى الغاية ، وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعيار، الذي يضبط الفكر ويعصم الذهن عن الخطأ فيه، ولهذا كانت العناية به من أهم مايتوجه اليه طلاب السعادة

اعتنى العلماء في كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطأ في الكلام، ووضعوا لذلك علوما كثيرة ، وما كان للسان هذا الشأن إلا لانه مجلى الفكر وترجمان له، وآلة لايصال معارفه من ذهن إلى آخر ، فأجدر بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم . كما ان اللفظ مجلى الفكر هو غطاؤه أيضاً ، فان الانسان لايقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب ، حتى قال بعضهم إن اللفظ لم يوجد إلا ليخفي الفكر

انما ينتفع بالميزان الذي هو علم الفكر من كان له فكر ، والفكر انما يكون فكرا له وجود صحيح اذا كان مطلقا مستقلا يجري في مجراه الذى وضعه الله تعالى عليه إلى أن يصل إلى غايته ، وأما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد، فهو المرذول الذى لا شأن له، وكأنه لاوجود له

وقد جاء الاسلام ليعتق الافكار من رقها ويحلها من عُقُلها ، ويخرجها من ذل الاسر والعبودية ، فترى القرآن ناعياً على المقلدين، ذاكراً لهم باسوأ مايذكر به المجرم، ولذلك بني على اليقين الذى علمتم معناه ،وضحاً في درس سابق [١]

لا ينبغي للانسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق ، والدليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم أن يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فان وجده صحيحاً أخذبه ، وإن وجده فاسداً تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب) وإلا فهو كالحيوان ، والكلام كالمجام له أو الزمام ، يمنع به من كل مايريد صاحب الكلام منعه منه ، ويقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم أن يقاد اليه من غير عقل ولا فهم

ماالذي يعتق الافكار من رقها ،وينزع عنها السلاسل والاغلال لتكون حرة مطلقة ؟ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لان تخليص الافكار من الرق والعبودية من اصعب الامور ،ويمكن أن نقول فيه كلة جامعة يرجع اليها كل مايقال وهي (الشجاعة)

الشجاع هو الذي لايخاف في الحق لومة لائم ،فتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته وإن خالف في ذلك الاولين والآخرين. ومن الناس من يلوح له نور

(١)قال الاستاذ هو اعتقاد أن الشيء كذا وانه لا يمكن أن يكون الا كذا، لأنه مطابق للواقع. وهو بمعنى قولهم الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. واما قولهم عن دليل فلا معنى له،لان اليقين اكثر ما يكون في البديهيات وهي لايدال عليها

الحق فيبقى متمسكا بما عليه الناس ويجتهد في إطفاء نور الفطرة ، ولكن ضميره لا يستريح فهو يوبخه اذا خلا بنفسه ولو في فراشه .

لايرجع عن الحق أو يكتم الحق لاجل الناس، إلا الذي لم ياخذ إلا بما قال الناس ، ولا يمكن أن يأتي هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة .

إن استعمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثبتاً لاتزعزعه المخاوف ،فان فكر الانسان لايستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له اذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال اذا هو بحث بنفسه، واذا كان لابصيرة له ولا فهم فما يدريه لعل الذي هو فيه عين الضلال . إذن « ان الخوف من الضلال هو عين الضلال » فعلى طالب الحق أن يتشجع حتى يكون شجاعا،والله تعالى قد هيأ الهداية لكل شجاع في هذه السبيل ولم نسمع بشجاع في فكره ، ضل ولم يظفر بمطلوبه

وههنا شيء يحسبه بعضهم شجاعة وما هو بشجاعة وانما هو وقاحة، وذلك كالاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بالحق، فترى صاحب هذه الخلة يخوض في الائمة، ويعرض بتنقيص أكابر العلماء غروراً وحماقة(١)والسبب في ذلك انه ليس عنده من الصبر والاحتمال وقوة الفكر ما يسبر به اغوار كلامهم ، ويمحص به حججهم وبراهينهم،ليقبل ما يقبل عن بينة ، ويترك ما يترك عن بينة . وهذا لاشك أجبن من المقلد،لان المقلد يحمل ثقل التقليد على ما فيه، وربما تنبع في عقله خواطر ترشده إلى البصيرة ، أوتلمع في ذهنه بوارق من الاستدلال لومشى في نورها لاهتدى وخرج من الحيرة ، وأما المستهزىء فهو أقل احتمالا من المقلد ، فان الهوس الذي يعرض لفكره انما يأتيه من عدم صبره وثباته على الامور وعدم التأمل فيها .

والحاصل ان الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة والشجاعة ههنا (وهي التي يسميها بعض الكتاب المصريين الشجاعة الادبية) قسمان : شجاعة في رفع القيد

(١) المؤلف هذا تفنيد صريح لما زعمه المفترون من ان الاستاذ الامام كان يجرىء الناس عطا ابهم بالاخذ بالدليل على تحقير الائمة وترك الاستفادة من العلماء، كأن تعظيم الائمة عندهم لاياتي الا من الجهل بأدلتهم وعدم فهم علمهم !!

الذي هو التقليد الاعمى، وشجاعة في وضع القيد الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد مايوزن به ويظهر رجحانه ،وبهذا يكون الانسان حراً خالصاً من رق الاغيار عبداً للحق وحده .

وهذه الطريقة طريقة معرفة الشيء بدليله وبرهانه ما جاءتنا من علم المنطق وانما هي طريقة القرآن الكريم الذي ما قرر شيئاً إلا واستدل عليه وأوشد متبعيه إلى الاستدلال، وانما المنطق آلة لضبط الاستدلال، كما ان النحو آلة لضبط الالفاظ في الاعراب والبناء كما قلنا . ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجعها إلا اذا عمل بها وراعى أحكامها حيث ينبغي أن تراعى ، فالذي يحفظ العلم حفظا حقيقياً هو العمل به ، والا فهو منسي لامحالة،

وانا نرى المجاور يقضي السنين الطويلة في الازهر يدارس العلوم العربية ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولا وكتابة وانما ذلك لعدم الاستعمال . فأنصح لكل من يسمع كلامي أن يستعمل مايحصله من العلم ، وأن يحصل لنفسه ملكة الشجاعة ،وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل، ويكون الاشتغال بالدروس في حقه من اللغو المنهيُّ عنه المذموم صاحبه شرعا . بل يقضي حياته كسائر الحيوانات العجم، وربما كان أتعس منها .

وأحب أن يكون كل منكم انسانا كاملا،والانسان يطلب الجميل النافع لانه حسن في نفسه ، لا لان غيره يطلبه ، فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين ، وهذا هو الاسلام الصحيح

ثم ختم الاستاذ الخطاب بالدعاء والثناء على الله تعالى وانفض الاجتماع اه

(أقول) لو عقل عشرة في المائة ممن سمعوا هذا الخطاب الذي لخصنا معانيه، ولم يكن في استطاعتنا ايداعها تأثير إلقائه ، وجرس صوته . وقوة روحه، لرأينا في الازهر اليوم مئات من أساطين العلم المستقلين ، ومدرسيه الشجعان المصلحين، على أنه ولله الحمد لم يذهب سدى ، ولم يكن عبثا ، فقد وعاه بعض من سمعه ، وسرى تأثيره الى من لم يسمعه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه .

درس التفسير

بينت في مقدمتي لتفسير القرآن الحكيم الذى ينشر في المنار ويجرد منه سبب قراءة الاستاذ الامام له في الازهر فانقله هنا بنصه وهو : (صفحة ١٢ من الجزء الاول)

اتصلت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله إلى القاهرة فكان اتصالي به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الاخص بملزومه، وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا روحها ونورها في مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة . فقال إن القرآن لايحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنه بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل ، فاقترحت عليه أن يقرأ درساً في التفسير وكان ذلك في شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح في رمضان وكان يعتذر بما أذكر أهمه هنا.

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لي عبارة من كتاب افرنسي في الطعن على الاسلام وطفق يرد عليها بعد أن قال : ان هؤلاء الافرنج يأخذون مطاعنهم في الاسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام . قال ان القرآن نظيف والاسلام نظيف ، وانما لوثه المسلمون باعراضهم عن كل مافي القرآن واشتغالهم بسفساف الامور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة في تفسير قوله تعالى (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وماذا كان ينبغي للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها

ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا انه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لاجل قهر الامم لا لاجل تربيتها ، وقال فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟؟ ثم طفق الاستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معاني التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبته له، وغير ذلك من شؤون الوالد التي ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال في ذلك .

وههنا دار بيني وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس وهو:

(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه ...

قال: إن الكتب لا تفيد القلوب العمي فان دكان السيد عمر الخشاب مملوءة بالكتب من جميع العلوم وهي لا تعلم شيئاً منها، لا تفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة اليها تسعى في نشرها. إذا وصل الى أيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير مايعلمون لا يعقلون المراد منه، وإذا عقلوا منه شيئاً يردونه ولا يقبلونه، وإذا قبلوه حرفوه إلى مايوافق علمهم ومشربهم كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة التي تريد بيان معناها الصحيح وما تفيده.

« إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام ـ كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه، وأيضاً يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبا فمن يسأل؟: ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم، والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب. ومع ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب. وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق، وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان، وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام وكل درس لا يقل عن ساعتين أو ساعة ونصف، بينت فيها وجه كون نوع الانسان في خسر إلا من استثنى الله تعالى، وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، مما لو جمع لكان رسالة حسنة في تفسير السورة، وما علمت أحدا كتب من ذلك شيئاً إلا أن يكون عبد العزيز(١)

(قلت) انه يوجد كثير من المنتبهين لحالة العصر والاسلام في البلاد المتفرقة

(١) قرأه بعد ذلك في الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه في المنار ووحده

وكثير منهم مانبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبه الذي أنا عليه إلا بها

(قال) ان بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأي موضوع أمام أي انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين: يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها، وأنا كنت أحسده على هذا لانني تؤثر في حالة المجالس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا . وهكذا الكتابة ، فانني ربما أتصور أن أكتب في موضوع وعند ماأوجه قواي لجمع مايحسن كتابته تتوارد على فكري معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتيني خاطر : لمن ألقي هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعاني التي اجتمعت عندي قد امتص بعضها بعضاً حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئاً .

« ان حالة المخاطب تؤثر بي جداً ، ولذلك لاأتكلم بشيء عن حالة الاسلام عند ماأجتمع بهؤلاء العلماء لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لايعملون شيئاً مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لانني لاأطالع عند ماأقرأه (١) لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الاعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فاذا حضرني جماعة من البلداء الخاملي الفكر أحل لهم المعنى بكلمات قليلة . واذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقي له بالا يفتح علي بكلام كثير

(قلت) ان الزمان لايخلو ممن يقدر كلام الاصلاح قدره وان كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوما فيوما ، فالكتابة تكون مرشداً لهم في سيرهم . وان الكلام الحق وان قل الآخذ به والعارف بشأنه، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباءة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أي سنة) الانتخاب الطبيعي، كما حفظت (العروة الوثقى) فان أوراقها الاصلية الضعيفة قد بليت لكن مافيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت في الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير في الازهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد

(١) لعله قال قبل أن أقرأ يعني انه لا يستعد لها بالمطالعة

سنة وثلاثة أشهر ونصف أي في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين اذ توفي لثمان خلون من جمادى الاولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الالفاظ والاعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرها أو ينتقد ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة

وكنت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله ، وأحفظ ما أكتب لاجل أن أبيضه وأمده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علي بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره في المنار ، فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك في المجلد الثالث من المنار ، وكنت أولا أطلع الاستاذ الامام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات . ولا أذكر انه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به ، على انه لم يكن كله نقلا عنه ومعزواً اليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها ، لذلك أعزو اليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فاذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزما في أول الامر بل يكثر في الجزء الاول ما لا عزو فيه ، ومنه ماهو مشترك بين مافهمته منه ومن كتب التفسير الاخرى أو من نص الآية على أنني عبرت عنه (في المنار) بأمالي مقتبسة ...

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه إما قبل طبعه وهو الغالب وإما

بعده وهو الاول، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدرس ،لان اقراره اياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الامانة أن لا أعزو اليه الا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا وصرت أكثر أن أقول :قال ما معناه .أو :ما مثاله. او:ما ملخصه .مثلا، على انني أعتقد انه لو بقي حيا واطلع عليه لأقره كله اه ما كتبته في مقدمة التفسير

صفة درس التفسير في الازهر

هذا وان درس التفسير في الازهر كان أحفل الدروس وأنفعها في الدين والاجتماع والسياسة ، والأدب والبلاغة ، وكان يحضره كثير من علماء الازهر وأساتذة المدارس الثانوية والعالية، وكبار رجال القضاء الاهلي، وفضلاء الوجهاء ورجال الحكومة ،ومنهم محافظ مصر المرحوم ماهر باشا حضر بعض الدروس — فكان الرواق العباسي يكتظ بحاضري الدرس حتى ان بابه يسد بالواقفين فيه الذين لا يجدون للجلوس مكانا ، ومنهم من كان يكتب لنفسه مايستطيع ضبطه، ومنهم علي باشا ذو الفقار الذي كان مستشارا في محكمة الاستئناف الاهلية (ثم محافظا لمصر)وكان يجلس بجانبي بالقرب من كرسي الدرس

ولم يكن الامام يثق بضبط أحد لقوله وفهم مراده منه ـ مع التعبير الصحيح عنه ـ الا صاحب المنار (مؤلف هذا التاريخ) بدليل أنه كان يقرأ ما أعزوه اليه مما فهمته وان لم أكتبه فيقره كما هو ، وقد صرح بهذا مرة في الدرس لسبب اقتضاه ذلك بأنه وقع مطر شديد في بعض الايام تصحبه ريح شديدة فدخل المطر الرواق العباسي من نوافذه الكبيرة فتعذرت القراءة فيه أول ليلة بعد المطر فقرأ الدرس في الطريق الذي بين الرواق ومجلس إدارة الازهر لقلة من حضر في تلك الليلة ، وكنت تأخرت عن أول الدرس فأردت أن أجلس وراء من سبقوني فسكت الاستاذ لما رآني وناداني تعال هنا ـ لأكون بجانب كرسيه كالعادة ـ وقال للحاضرين معللا ندائي : إنه يستفيد أكثر من كل أحد منكم ـ أو كلمة بهذا المعنى كان درس التفسير مؤثراً جداً وكأين من رجل كان يسيء الظن بالامام

بتأثير كلام الحاسدين والجامدين ، فحضروا الدرس مختبرين ، فانقلبوا معجبين مثنين ، وعلى دوام الاستفادة عازمين.

وكان للاستاذ أحسن الله اليه فكاهات في الدرس يقصد بها الاحماض وترويح النفس في إثر بعض الزواجر الصادعة ، والمواعظ البالغة ، أو التنادر والتثريب على بعض المجاورين الذين يلقون الاسئلة الشاذة ، كقوله لبعضهم مرة وقد قال له : إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل - يعني محشي الجلالين - قال الاستاذ : إنني أقرر ما يدل عليه النظم الكريم والاسلوب البليغ ولا يعنيني أوافق الجمل أو الحمار عليه أم خالفا ؟

ومن النوع الاول ما قاله اذ دخلت الرواق بنت لعل سنها لا تقل عن ثنتي عشرة فتخطت الرقاب حتى وصلت الى والدها فأسرت اليه كلمة وخرجت ، وقد كثر التفات الناس اليها استغرابا لجرأتها ، وسكت الاستاذ هنيهة ثم قال باللغة البلدية «إيا كم تكون دي المرأة الجديدة اللي بيقولو عنها » يعني لعل هذه المرأة الجديدة التي يتحدث الناس ويكتبون في الصحف وغيرها عن وجوب سفورها واختلاطها بالرجال بمناسبة الكتاب الذي ألفه قاسم بك أمين بهذا الاسم. فضحك جميع الحاضرين انبساطا بكلمته

وجملة القول أن درس التفسير كان هو الذي عرّف كل ذي فطرة سليمة من أهل الازهر وغيرهم فضل الاستاذ الامام على غيره بالعلم بالله وكتابه وحقيقة دينه وغيرته على تجديد الاسلام ، واهتمامه باصلاح المسلمين ، وطار صيته في الاقطار بنشر المنار لخلاصته في تفسيره وقد كثر المادحون له به نظما ونثرا في حياته وفي رثائه كما يرى القارئون في جزء التأبين والمراثي من هذا التاريخ وهو الجزء الثالث

وكان للمنار وصاحبه من الشركة في هذا الاصلاح ان كان هو سبب قراءته ، ثم نشر ما قرره في تلك الدروس تارة بالاجمال وتارة بالتفصيل والايضاح ، بما كان يغتبط به ويقول كما روى عنه الاستاذ الشيخ محمد شاكر كيف أترك صحبة فلان لاجل الخديوي وهو ترجمان أفكاري — كما تقدم — بل قال اكثر من هذا كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى في موضعه اللائق به

وانني أذكر هنا شهادتين مكتوبتين رفعتا اليه يصف اصحابهما تأثير درسه في انفسهم وقعتا في يدي بعد كتابة ما تقدم اذ كنت أقلب أوراق شيخنا المحفوظة عندي

شهادتان في تاثير درس الامام

(الاولى) شهادة أديب غريب ، بما وجد في نفسه من تأثير درس التفسير »

والظاهر أنه املاه املاء فوقع من كاتبه بعض التحريف ، قال مخاطبا الاستاذ الامام ما نصه :

مولاي :ان نصابك الرفيع الذي اقامك الله فيه لاصدار ما يرد عليك من شؤون دينه، وماعهد الى نظائرك(١)من سياسة الناس السياسة الشرعية ،وتقرير الحكم والوصايا لهم — كل ذلك جعلني لا أستبعد صدور امثال تلك الاحساسات الدينية الصادقة والعواطف القومية الحقة عن فؤاد رفيع حساس ،ونفس كبيرة دراكة ،شعرت باقدس واجب نحوها فانبرت تناضل من ورائه وتعمل على حياطته بالنفس والنفيس ، على حين فترة من الحق ومرض من اليقين

سيدي: اني استميحك الاذن لي بالاعراب عن اثر كبير خامر فؤادي بل حدى رنان تلابت (كذا) به اقطار قلبي ثم اسألك العذر في تكليفي اياك اضاعة جزء من وقتك النفيس بالنظر في سطوري هذه وما هي الا كلمات مثلت بها احساسي حيال ذلك المهيمن الفعال على النفوس

اتحفني الدهر ليلة أمس بتلقي درسك الكريم وكنت احسبني جالسا بين اخواني ، حتى اذا توقلت كرسيك الرهيب ، واستهللت لاول كلمة مسني اذ ذاك طائف من الهدوء والطمأنينة، وتجلت لعيني الحكمة على خامتها حاسرة لثامها، وتراءت لي السليقة العربية في جزالتها وعرامتها كاشرة انيابها ، فاحتملني ذانك الخيالان الى عالم تعمره ارواح كبيرة ، (٢) وبلغ بي مستوى قمت اناجي اليقين وهو يناجيني بلا حجاب ريب ، ولا صدفة مرية ، وما زلت بين اجتلاء حكمة بالغة ، وتلقي موعظة حسنة ، حتى قضيت تلك الفينات وودت لو لم تنقض ، ذلك ما كنت أحسه ابان استماعي لدرسك الكريم ، واتوسمه في نفوس الكثيرين ، ويعلم الله اني

(١) يعني نظائره في المنصب وانقام لا في العلم والاستعداد

« ٢ » في هذا الكلام اقتباس من مقدمة الاستاذ الامام لشرح نهج البلاغة

ما افتدت(؟) في تمثيلي هذا قانون الصدق ولا نزعت الا عن اشرف غرض، يمالئني عليه كل ذي شعور حي ومبدأ قويم حق ، لم تنفعل نفسه اثر التعاليم القديمة ،

سمعتك تفسر كتاب الله بنفسه وتنبو به عن تلك الاراجيف المدونة، وقل من تصون عنها من المفسرين، في حين انهم اهملوا تفسير القسم الاخلاقي من القرآن اهمالا كلياً ، وبخسوه حقه من النظر الخفي والدرس المدقق، وانت حفظك الله تمر بالآية فتوفيها حقها، خصوصاً الآيات الاخلاقية ، وحبذا لو اهتبل اخواننا الطلبة هذه الفرصة الثمينة ، وعدلوا عن تلك المجادلات اللفظية ، والاسئلة التي يوجهونها خلال الكلام ، واني أرى أن القلم قد شط بي عما كنت ابتغي من الايجاز ، وما حداني الى كتابة هذه السطور الا انني حين انصرافي من ذلك الدرس ألفيت له اثرا كبيرا في نفسي ، فحاولت التمثيل عنه بهذه الكلمات، ووددت لو ان لي من معين البيان مادة تفي بذلك

وفي الختام تقبل مني فائق التجلة والاكرام (سليمان نظمي الفاروقي)

﴿ الثانية — شهادة نابغي دار العلوم في رقعة رفعوها الى الامام ، وهي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم)

ليس العجب من شجاع يكتب الكتائب ، ويجند الجنود، ويجوب بهم كل شجراء مرداء، ويصبح الأعداء بغارة شعواء ، لا يصدعن نيرانها حتى يختلس النفوس وينتهب الأعمار، وانما الذي يستهوي الحازم طربا ، ويكاد يطير له قلب اللبيب شعاعا، أن ينتضي فرد واحد من عزيمته صارما ما أغفلته الصياقل ، ويسير من قواطع الحجج وسواطع البراهين والآيات البينات وسحر الاعجاز في خميس عرمرم، همته أن يهدم ماشيد الكفر، ويمحو ظلمة التمويه الحالكة التي كادت تسجل العار على ثلاثمائة مليون أو يزيدون ، فيهتك أستار التعمية على العقول ، ويفتح أغلاق القلوب، ويودع فيها من أنوار اليقين، ماشاء العليم الحكيم ،

إنا نعترف والله يشهد والملائكة يشهدون، إنا لو تقصينا العالم فرداً فرداً نتوسم قريع هذه الصفاة لكان هو سيدنا واستاذنا حجة الاسلام وأسوة المسلمين، وكيف وقد رأينا في قلمه سيف عمر، وفي مقاله فصل علي (رضي الله عنهما) على اننا نستعين في أداء شكره الجزيل بلسان العلم الذي أخذ يشب في مهد فضله، وقد كان فريسة أسود الجهالة، بل بلسان كتاب الله تعالى الذي كشف عن وجوه اعجازه، ودفع عنه السوء، وأفرغه في العقول نوراً، وفي القلوب يقينا، بل بلسان الاسلام الذي نسجت عليه التقاليد حجبا من الباطل كثيفة ولولا فضل الله تعالى علينا وعلى الناس بنور هداية سيدنا واستاذنا لما رقت تلك الغشاوات وعما قليل يمحوها بمعونة الله ويظهر الحق أبلج ناصعا، وإن يوما يتحلى فيه جيد الاسلام بأشبال له يحمون ذماره، ويذودون عن حوضه، ويرفعون علمه، ليوم ميمون الطالع، لا يلبس الاسلام فيه الجوزاء الا قاعداً

كما تبين ان غرسك قد دنا لجنى وزرعك قد أنى لحصاد

ولتعلم أن لهديك أنصارا يرتلون لك من الشكر بمقدار ما منحوا من قوة، وحسب المشكور عجز الشكور، فتقبل غير مأمور هذه الرقعة يدفعها الولاء، ويصدها الحياء، وتجاوز حد التقصير من فئة تراك نوراً لبصائرها

ولو أطاقوا انتقاصا من حياتهم لم يتحفوك بشيء غير أعمار

كاتبه	كاتبه	كاتبه
حسن منصور	محمد عز العرب	احمد ابراهيم
المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بمدرسة الناصرية
كاتبه	كاتبه	كاتبه
محمد حسنين	محمد المهدي	حامد حسين والي
المدرس بالمدرسة الخديوية	المدرس بالخديوية	المدرس بمدرسة الجيزة

كاتبه
عبد الوهاب النجار
بمدرسة عابدين

وقد كان يحضر درس التفسير غير هؤلاء من الداريين منهم الشيخ عبد العزيز شاويش بعد مجيئه من اوربة والشيخ مصطفى العناني وقد كلفاني ان (اقدمهما) اليه واذكر له رغبتهما في الانتظام في سلك مريديه ففعلت

الدرس العالي الخاص

اقترحت على الاستاذ الامام أكرم الله مثواه أن يعقد مجلسا في كل أسبوع أو أكثر لالقاء بعض الحقائق الحكمية العالية ، وتمحيص بعض المسائل الخفية أو المشكلة ، وبيان مابين الدين وعلم الاجتماع والفلسفة العقلية من الصلة، وما أشبه هذا مما يعد وراء مستوى دروس الازهر

قال ومن يحضر هذه المجالس ؟ قلت بعض إخواننا المفكرين من أذكياء متخرجي دار العلوم أساتذة المدارس الاميرية كفلان وفلان، ومن غيرهم كأحمد بك تيمور ومحمود بك سالم ورفيق بك العظم . فقال لي في واحد منهم انه من الجامدين جداً (١) قلت لعله كان كذلك واني اعاشره الآن فأراه مستقل الفكر،

ثم اتفقنا على ان يكون هذا الدرس في دار أحمد بك تيمور التي كانت في درب سعادة لانها في وسط القاهرة وصاحبها من أشد الناس رغبة في هذه المباحث وهو كان من المواظبين على جميع دروس الاستاذ الامام في الازهر . وهكذا كان في أول الامر ،ثم صرنا نذهب الى دار الاستاذ الامام في عين شمس، واشترى احمد تيمور دارا بجوار داره ،لاجل التمكن من اقتباس انواره ، فسكن فيها

انتظم عقد هذا الدرس من جماعة قليلة أذكر من احيائهم الآن الاساتذة

---

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدي : وقد ذكرت له قول الاستاذ فيه فقال لي في سببه إني كنت ذهبت مع الشيخ محمد زيد إلى دار سعد بك زغلول فوجدت عنده الاستاذ وفتحي بك زغلول وقاسم بك أمين وغيرهم وكان الاستاذ يتكلم في أسباب ضعف المسلمين وجهلهم وانتشار البدع والخرافات فيهم وسوء حال علمائهم، والجميع يوافقونه ويشاركونه في ذلك: فأردت أن أجادلهم في بعضه فأعياني الامر: فقلت له : لم لا تكتبون هذه المسائل وتنشرونها ليعرفها الناس ـ وغرضي الصحيح التوريط ليرد عليه العلماء ؟ فقال قد وجدت جريدة أنشئت لهذا الغرض فطالعها تجد شيئا من ذلك في كل عدد منها وهي جريدة المنار . قال الشيخ مهدي رحمه الله فكان هذا سبب اشتراكي في المنار من سنته الاولى فصحبتي لك

الشيخ أحمد ابراهيم استاذ الشريعة في كلية الحقوق اليوم والشيخ حسن منصور — وكانا استاذين في المدرسة السنية — ومحمود بك سالم الشهير والشيخ أحمد الحمصاني الاستاذ في بلده بيروت الان ، ثم كان يحضره غيرهم ممن علم بهمن كبار المفكرين من رجال الحكومة وغيرهم من الادباء ومنهم شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ ابراهيم

ولما زار مصر صديقنا الاستاذ محمد كرد علي مؤرخ الشام وكاتبها الاجتماعي أخبرته بهذا الدرس ودعوته اليه وكان من حاضريه يومئذ اسماعيل باشا صبري وأحمد فتحي بك زغلول ورفيق بك العظم وكذا قاسم بك أمين على ما أظن ، فدهش ضيف مصر من روعة ذلك المجلس وجلال استاذه ، وبلاغة إلقائه ، ومكانة تلاميذه في العلم والادب والقضاء والهيئة الاجتماعية ، فاسماعيل باشا صبري كان وكيل وزارة الحقانية ، وفتحي باشا زغلول كان رئيس محكمة مصر الاهلية ثم صار وكيلا لوزارة الحقانية إذ كان سلفه المذكور احيل على المعاش

الدرس الاول طبيعة الدين وكونه غريزة في الانسان

كان موضوع الدرس الاول طبيعة الدين ومكانته من الانسان : هل هو حاجة من الحاج التي عرضت له في حياته الاجتماعية كما يقول بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع ؟ أم هو غريزي فيه ؟ بين أولا ما عرف في التاريخ من نشأة التدين وأطوار الدين في قبائل البدو ثم في شعوب الحضارة ، وترقيه بارتقاء البشر في العلوم والفنون والاجتماع ، ومايستدل به أهل المذهب الاول من ذلك على مذهبهم ، واستدل هو به على المذهب الآخر الذي جزم به وعبر عنه بقوله « إن الانسان حيوان ناطق متدين بالطبع » كما يقول بعض الحكماء متمدن اومتمدين بالطبع

قال في هذا المقام من هذا الدرس وغيره ما مثاله : إن روح التدين الغريزي في الانسان هو شعوره الفطري بأن فوق العالم الذي يعرفه باعيانه وخواصها ومنافعها ومضارها وكل ما يشابهها مما لم يعرفه — موجودا غيبيا له السلطان والتصرف فيما ذكر كله ، فهو يحيل على ذلك السلطان الغيبي كل مايجهل سببه في هذا العالم المشهود

وإنما وقعت الجماعات البشرية في الوثنية بتأليه بعض أعيان عالم الشهادة من نبات وحيوان وغير ذلك من الاجرام العلوية بسبب الجهل بحقيقة ذلك الموجود

الغيبي وما يجب له من الصفات الوجودية والتنزيه ، والجهل بحقيقة ما يظهر لهم في هذه الاعيان المشهودة من خواص وأفعال : هل هي مخلوقة خاضعة مسخرة لسنن الاسباب والمسببات كأفعالهم هم؟ أم هي فوق عالم الاسباب فهي مظهر لذلك السلطان الذي هو فوق تصرف الانسان أو عينه ؟ ولما رجحوا الاحتمال الثاني بجهلهم وجهوا عباداتهم الى كل ما اعتقدوا أن تلك القوة الغيبية ظهرت فيه لانه يخشى ضره ويرجى نفعه ـ ولا معنى للعبادة الفطرية إلا التعظيم والخوف والرجاء لمن يملك الضر والنفع بسلطان هو فوق الاسباب التي يملكها البشر

مثال ذلك أن الانسان الساذج الجاهل كان يرى الثعبان الصغير يقتل الانسان وما هو أقوى منه كالثور والفيل، من غير أن يقطع عنقه أو يهشم رأسه أو يبقر بطنه مثلا ، وهو لا يعقل أن يكون لهذا سبب في هذا العالم لانه لا يعلم أن في هذا الوجود المشاهد مادة تسمى السم هي سبب هذا التأثير في دم الحيوان، فيرجع به الى ما في غريزته من الاحالة على القدرة الغيبية التي هي فوق الاسباب . وذكر الاستاذ أمثلة متعددة لما توهمه الناس في المخلوقات التي عبدوها في طور البداوة وأطوار الحضارة حتى عبادة الكواكب

وهذا الموضوع قد طرقه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد وبسطه في درسها ولكنه لم يصرح في الازهر بمثل ما صرح به في هذا الدرس من الشبهات وكشفها ، لعلمه بأن كثيراً من طلبة العلم في الازهر لا يفهمون هذه الموضوعات حق الفهم فيخشى أن يعلق بأذهانهم من الشبهات ما لا يفهمون الجواب الداحض لها. وألم به ايضا في رده المشهور على موسيو هانوتو . وأقول هنا في تأييد هذا: إن بعض المجاورين أطلعني على كراسة له فيها ما فهمه من بعض دروس التوحيد فاذا به قد جعل التوحيد شركا ، وقلب الحقائق قلباً فبينت له فساد فهمه فاعترف به

وتكلم في درس آخر عن حقيقة التصوف وتاريخه وأطواره، ومن أحسن ما قاله فيه: كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذي غايته أن يكون الدين وجدانا في أنفسهم تصدر عنه الاعمال الصالحة، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة،

وكان أكثر الدروس الاخرى في المسائل الاجتماعية وفلسفة الاخلاق وحكم التشريع ودحض ما يرد على الاسلام من اعتراض أو شبهة ، بما يقبله العقل ويطمئن به القلب ، فرحمه الله تعالى وجزاه خير الجزاء عنا وعن دينه وأمته ،

المقصد الثاني

من الفصل السابع

مؤلفاته

﴿ بحسب تاريخ تأليفها بالتقريب ﴾

(١ — الواردات) رسالة في الكلام أو التوحيد على طريقة الصوفية وأسلوبهم وهي أول تأليفه وكان أعطانا نسخة منها في حياته . وقد نشرتها في الطبعة الاولى للجزء الثاني في منشآته ثم طبعتها على حدة وذكرت أنه قد رجع عن بعض ما كان قرره فيها كما يعلم من رسالة التوحيد له

(٢ — رسالة في وحدة الوجود) لم أطلع عليها وهو الذي أخبرني بها وقال انها ليست بمعنى ما كتب عبد الكريم الجيلي وأمثاله مما هو أقرب الى مذاهب الحلول كالنصرانية منه الى توحيد الاسلام (بل هو أبعد عن الاسلام من النصرانية) ولكنها بأسلوب آخر يبين فيها مراتب الوجود وتعددها من وجه ونظامها العام ووحدتها من وجه آخر، ولعلنا نظفر بها ونطبعها

(٣ — تاريخ إسماعيل باشا) أخبرني بهذا الكتاب أحد تلاميذه الاولين وقال ان السيد عبد الله النديم كان أخذ من الفقيد نسخته في أثناء الثورة العرابية ونشر منه فصولا في جريدة الطائف بتصرف أو بغير تصرف ولم أسمع منه رحمه الله تعالى ذكرا لهذا الكتاب وكنت أظن أنه لم يصنف شيئا إلا وقد أخبرني به لانه قص علي تاريخه بالتفصيل وكتب إلي شيئا مجملا منه كما علم القراء

(٤ — فلسفة الاجتماع والتاريخ) هو الكتاب الذي ألفه أيام كان يدرس مقدمة ابن خلدون في مدرسة دار العلوم كما ذكرنا في هذا التاريخ ، وقد فقد هذا الكتاب عند ما عزله توفيق باشا من المدرسة ونفي السيد جمال وأخذت أوراقه . وكان طيب الله ثراه يقول أتمنى لو يحفظ هذا الكتاب من وقع في يده

ويدعيه لنفسه ولو بعد موتي لينتفع به الناس ، وقد سألت عنه محمد باشا صالح المستشار في محكمة الاستئناف اذ كان ممن حضره عليه ، فقال لي : إنني كنت أكتب ما يمليه الاستاذ من تلك الدروس ، فطلبتها منه فقال انها بين أوراقي القديمة في البلد وعسى أن أبحث عنها وأجدها عند زيارتي للبلد في الاجازة ، ولكنه توفي ولم يفعل رحمه الله وعفا عنه

(٥ — حاشية عقائد الجلال الدواني) وهي غاية الغايات في علم الكلام وتحقيق مسائله وتحرير الخلاف بين المتكلمين وبيان ما هو لفظي منه وما هو حقيقي ، وقد اهتدى في كثير من أبحاثها الى أن الحق في العقائد هو مذهب السلف ، ولكن كثيراً من نظريات المتكلمين وتأويلاتهم ظلت ناشبة في ذهنه زمناً طويلا ، ولا يزول مثل هذا إلا رويدا رويدا . والحاشية مطبوعة تباع في السوق

(٦ — شرح نهج البلاغة) وهو شهير جداً وقد طبع في بيروت وفي طرابلس وفي مصر مراراً ، وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس على مطالعته لاجل تحصيل ملكة البلاغة من كتاب مملوء بالتوحيد وعظمة الاسلام وذكر في مقدمته أنه لم يتعرض فيه لمسألة الخلافة لان الخلاف فيها بين الشيعة وأهل السنة معروف في كتبهما . وهو لم يكن يعتقد صحة اسناد كل ما في هذا الكتاب الى الامام عليه السلام ، ولا كان يعتقد أنه كله أو جله موضوع كما قال الحافظ الذهبي ، ولم يكن يخفى عليه ان فيه دسائس مدرجة فيه ومنها ما ليس من أسلوب الصحابة وعصرهم في خطبهم وكتبهم كاصطلاحات المتكلمين الحادثة بعدهم

(٧ — شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني) وهو مطبوع في بيروت ولم يعرف لغيره شرح لهذه المقامات وقد فرغ منه في ١٦ رمضان سنة ١٩٠٦

(٨ — شرح البصائر النصيرية) في المنطق وهو شرح وجيز أطلق عليه لفظ التعليقات والكتاب عالي الاسلوب وهو من أحسن ما كتب المسلمون في المنطق ولم يسبق لاحد قبله كتابة عليه فيما نعلم وقد قرأه درساً في الجامع الازهر وحضرناه عليه كما تقدم في المقصد الذى قبل هذا ولعله لا يتسامى أحد الى تدريسه بعده ، وإن كان من الكتب التي قرر مجلس إدارة الازهر تدريسها فيه رسمياً

الا أن يكون بعض من تلقاه عنه ، وقد ذكرنا آنفا مزايا درسه له .

(٩ — نظام التربية والتعليم بمصر) رسالة في الطريقة المثلى لتربية المصريين وتعليمهم وهي على إيجازها من أحسن ما كتب وأنفعه وقد نشرناها في باب لوائح التربية والتعليم من منشآته (صفحة ٥٣٣ ج ٢ طبعة ثانية)

(١٠ — رسالة التوحيد)

وما أدراك ما رسالة التوحيد ؟ هي التي يصدق عليها القول المشهور « لم ينسج ناسج على منوالها، ولم تسمح قريحة بمثالها » هي التي يصح أن تعد معجزة من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام ، ظهرت على يد الاستاذ الامام ، وآية من آيات الاسلام ، هي التي ينبغي أن تجعل مادة الدعوة الى هذا الدين ، ويعم تلقينها جميع المسلمين ، وقد قلت للاستاذ الامام رضي الله عنه إنه لولا اسم هذه الرسالة ومافي أولها من الاصطلاحات الكلامية الوجيزة لكان انتشارها أضعاف ما هو الآن ، ولعم الانتفاع بها كل مكان ، ولكن البعيد ، إذا سمع باسم رسالة التوحيد ، يتوهم أنها عقيدة كالسنوسية ، أو كالعقائد النسفية ، والقريب قد يأخذ نسخة منها ، فيصرفه ذكر الواجب والممكن والمستحيل في أولها عنها ، توهما أنها في علم الكلام، الذي لا يتناوله إلا انظار العلماء الاعلام، وأكثره لا حاجة اليه الآن. وقد كان رحمه الله تعالى عازما على بسط الكلام في هذه المقدمات ، وسائر مسائل الالهيات، وجعل الكلام فيها كالكلام في النبوة ومزايا الاسلام، موجها الى العقل والى الوجدان ، لا لمجرد تقرير وجيز للبرهان، وقد قرأها درسا في الازهر وتلقيناها عنه وأجازنا بقراءتها، وطبعناها مرارا مصححة على نسخته التي قرأها في الازهر ، وعلى جدول وضعه لتنقيحها في زهاء سبعين موضعا ، وعلقنا عليها بعض الحواشي الضرورية ومنها ماسمعناه منه في الدرس وترجمت باللغة الفرنسية وطبعت

ولقد كان لرسالة التوحيد وقع عظيم في انفس اهل العقل والفهم ، وعارفي قدر العلم ، لا من المسلمين وحدهم ، بل صرح بعض المستقلين من نصارى سورية بالثناء عليها، حتى قال بعضهم : « اذا كان الاسلام هو ما بينته هذه الرسالة فانا

أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف ديني يقول ينبغي ان يكون الاسلام كذا » فرد عليه أحد المسلمين بان مؤلفها من اكابر علماء الازهر وهو يقرؤها فيه ولم ينكر أحد من علمائه عليها ، ولا قال انها زادت في الاسلام ما ليس منه

وقال فاضل آخر منهم: اود لو تقرأ هذه الرسالة في جميع المدارس النصرانية بعد حذف الكلام في نبوة محمد (ص) منها . اي لاجل وقوف ناشئة النصارى على سر الدين المطلق «١» وقد نشرت هذا وذاك في المجلد الاول من المنار

وقد جاء مصر في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) نسيم بك خلاط احد كبار وجهاء النصارى وفضلائهم في طرابلس الشام واحب زيارة الاستاذ الامام فذهبت به اليه في دار الافتاء بالازهر فرحب به ، وكان مما قاله نسيم بك في حضرته. انه قرأ رسالة التوحيد واعجب بتحقيقها وبلاغة عبارتها ، وذكر من اعجاب السوريين بها وتعلقهم بالاستاذ ، وكان في المجلس جماعة من علماء الازهر فقال احدهم لنسيم بك :هل اشتهرت رسالة التوحيد عندكم حتى قرأها المسلمون وغيرهم ؟ فقال نعم ولها حظها من حسن الذكر والاعجاب، كما ان جميع الطوائف عندنا تجل سماحة الاستاذ، وتعشق مشربه في الاصلاح والتأليف بين الطوائف الذي نحن في اشد الحاجة اليه ولا نجاح لنا بسواه. قال العالم: لكنني اخبرك بخبر ربما تعجب له وهو ان بعض علماء الازهر لما يقرأ هذه الرسالة : فنال من البيك العجب وقال اني اتبرع بخمسين نسخة من الرسالة توزع على الاذكياء الفقراء، ثم انه أمضى ذلك التبرع بالفعل، فكان له من حسن التأثير عند المفتي وسائر العلماء ما يستحقه وقد ذكرت هذا في المجلد السابع من المنار بعد مقدمة وقفيت عليه بهذه العبارة:

لا جرم ان هذه الاريحية فيناهي التي تقرب بعضنا من بعض ، وبامثال هؤلاء الرجال يغلب فضلاء المصلحين، عَصَبَ المفسدين المفرقين، الذين لا تجمعهم لغة ولا جنسية ولا قانون ولا دين، بل اخترعوا لهم وطنية بالبهتان ، لا يشهدها

«١» أخبرني صموئيل افندي يني الاديب الطرابلسي شقيق الاستاذ جورجي يني صاحب مجلة المباحث أنه ثنى هذا على مطران طرابلس في ذلك العهد غريغوريوس حداد «الذي صار بطرك الروم الارثوذكس بعد ذلك» إذ كان ناظر المدرسة كفتين المشهورة

شرع ولا برهان ، وانما اساسها الاهواء ، وابتزاز الدراهم من الدهماء اهـ

وقد قرظ الرسالة الشيخ سعيد الشرتوني الكاثوليكي مؤلف معجم أقرب الموارد في كتاب خاص أرسله الى المؤلف تقريظ مؤمن بما فيها . وهذا نصه :

(تقريظ الشيخ سعيد الخوري الشرتوني)

أيها الشيخ الفاضل

بينا أنا في لوعة من طول البعاد ، واليأس من اللقاء ، أتلقى أخبار مولاي من سيادة الحاج محيي الدين حماده ، إذ وردتني هديتكم التي كشفتم بها عار العصر ، وجلبتم له بها الفخر ، وهي مؤلفكم الفريد ، في علم التوحيد ، الذي لا ريب عندي أن الله يثيبكم عليه بكرامة الدنيا وسعادة الأخرى ، بعد طول العمر . ولم أتعجب مما وقفت عليه فيه من البدائع ورأيته من الجواهر ، لصدوره ممن كشف الله عن بصيرته . وميزه بالاطلاع على أسرار المعقول والمنقول ، واختصه بفطرة شقيقة المروءة والكرم ، أخت كل مأثرة ومحمدة . وما اظن ذوب العسل المصفى أحلى عندي منه . أقرأه ولا أمل ، ثم اعيده ملتذاً به ولا التذاذ السامع عند مايسمع من المغني نغمة تطرب سمعه وتوائم ذوقه . فياشرف العصر الاسلامي بك ، ويافخر آدم بمثلك . فكأن الذي يطالع الكتاب المشار اليه يرى شخصاً يشخص كل مايخالج الفكر ويدور في الخاطر ، ولا يجد المتفكر طريقا لاخراجه بعبارة تحمل معناه – ماأنت في كل ماتشرع فيه إلا رجل جديد عندنا ، مع طول معاشرتنا وكثرة مخالطتنا ، فلا غرو أن يكون دماغك مادة لكل بديعة ، ومخزنا لكل دقيقة . والخلاصة ان مثلك آية من آيات الله تشهد بقدرته وجوده ، وتصدع بأن بين الناس فروقا بعيدة المدى

هـذا وأسأل الله أن يتولى مكافأتك على هـذه الخيرية ، ويديمك شرفا للانسانية ، وخير ركن للاسلام ، بمنه وكرمه

الداعي

سعيد الخوري الشرتوني

بيروت ٦ ربيع أول سنة ١٣١٦

أقوال علماء المسلمين في الرسالة

وأما أهل العلم من المسلمين فقد قرظ كثير منهم هذه الرسالة بقدر أفهامهم وهي تختلف باختلاف ماأوتوا من العلم وما قرأوا من الكتب الاسلامية وغيرها ، ولا يفهمها حق الفهم الا من كان عالما بمنتهى ما كتبه جهابذة المتكلمين في العقائد الاسلامية والرد على المخالفين لها ، وواقفا أتم الوقوف على شبهات فلاسفة الافرنج على الاديان كلها ، وشبهات اللاهوتيين من رجال الكنائس على الاسلام نفسه وما يتكلفونه من الطعن فيه ، ويقل في المسلمين من جمع بين الامرين

سألت أحد كبار الفريق الاول عنها وهو العلامة الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير وكان في الذروة العليا من علماء الازهر وأشهر فقهاء الحنفية: كيف رأيت رسالة التوحيد؟ فقال: عظيمة قوي ، الشيخ ذكي قوي وواسع الاطلاع ، جمع من هنا ومن هنا اه لفظه وهذا غاية المدح فان غاية العلم عندهم كثرة الاطلاع وأعظم التأليف جمع الاقوال الحسنة من المواضع المختلفة، ولا سيما النادرة التي يقل من اطلع عليها، ومن يقدر على تلخيصها وايداعها في مصنفه ، وكان حظ من دون الشيخ الرافعي في العلم والفهم من علماء الازهر الجامدين ان قال : إن هذه الرسالة إنشاء لا علم!!

وقال محمد فريد أفندي وجدي ـ وهو من الكتاب الواسعي الاطلاع على أقوال الافرنج وفلاسفتهم في الاديان عامة والاسلام خاصة ـ : ان هذه الرسالة لا يمكن شرحها الا في عدة مجلدات لانها تشير الى أكبر معارك الفلاسفة في الاديان مع تقرير ما يوافق الاسلام منها ورد ما يخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة اه بالمعنى

وأقول ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان متعمدا لهذا الابهام لانه لم يكن يرى من الحكمة بيان مطاعن الماديين والفلاسفة على الدين المطلق ، ولا مطاعن الملاحدة ودعاة النصرانية على الاسلام بالتصريح، والرد عليها بالتطويل، كما كان يفعل فخر الدين الرازي في تفسيره ، إذ كان كثيرا ما يبسط الشبهات ويقصر في الرد عليها فيكون كلامه مقويا لها ، وقد بينت في الكلام على دروس شيخنا الخاصة ببعض الخواص سبب ابهامه هذا في دروس التفسير والتوحيد بالازهر ،

وضربت له المثل بمسألة نشأة الاديان وتطورها والخلاف في الدين المطلق هل هو غريزي في البشر أو حاجة من الحاجات الاجتماعية التي عرضت لهم ، وبتبع هذه المقارنة بين الاديان ، وترقيها بمقتضى سنة الاجتماع ، حتى ختمت بالاسلام، وفي هذه المباحث شبهات لمنكري الوحي فندها في رسالة التوحيد وقرر الحق بعبارات بليغة لاتثير أدنى شبهة في قلوب ضعفاء الطلبة والاغبياء من قارئيها ، وقد قلت له مرة في عبارة منها : لو فهم الجامدون من شيوخ الازهر معناها أو المراد منها لاضطربوا فيه وكان سبب القال والقيل

ولاجل تعمده طيب الله ثراه لهذا الاسلوب قال في الدرس : إنني لا أسمح لاحد أن يشرح هذه الرسالة ولا أن يضع لها حاشية

وقد بينت في تقريظي لها في المنار أنها هي الكتاب الوحيد الذي يصلح في هذا العصر للاعتماد عليه في الدعوة الى الاسلام على الوجه الذي اشترطه المتكلمون في صحة الدعوة وهي أن تكون على وجه يحرك المدعو الى النظر فيه، وهذا الشرط وجيه فان في الارض أديانا كثيرة قيل إنها تبلغ الالف ، فلايعقل أن تتوجه نفس كل أحد بلغه خبر دين أو دعوة الى دين منها الى النظر فيه لاجل معرفة حقه من باطله ، وناهيك بمن يريد الدعوة في هذا العصر الى الاسلام في بلاد يصوره رجال الدين فيها بغير صورته ، ويصفون رسوله بضد صفاته ، ويفترون على كتابه وسنته وتاريخه أقبح الفرى

وقد نشرت في المنار عدة تقاريظ للرسالة منها قصيدة لامام اللغة والادب في هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطي رحمه الله تعالى ألقاها على كرسي الدرس في الرواق العباسي والمؤلف حاضر وقد أشار اليه بيده عند ذكر اسمه في قوله:

لقد مات دين الله وانحل عقده فأحياه بالذكرى (محمد عبده)

وسيأتي لهذا التقريظ ذكر في الكلام على انصاف الاستاذ الامام عند ذكر أخلاقه . وتنشر القصيدة في الذيل ان شاء الله تعالى

تقريظ الشيخ سالم بوحاجب للرسالة

وهو أكبر علماء تونس وأشهرهم وكان باش مفتي المالكية . كتب رحمه الله

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسلم

حيا الله تعالى جناب الجهبذ الهمام، والعلامة الذي لا يفارق بدر معارفه التمام، الامام الذي هو لحل كل عويصة مأموم، والفذ المختص بصرف الهمة لكل ماينفع العموم ، زينة المناصب الشرعية ، والمجتهد في حسم كل ما يخل بحقوقها المرعية، حضرة مفتي الديار المصرية، الشيخ سيدي محمد عبده قابل جميع مساعيه بأعزما يمنح المولى عبده

أما بعد التحية ، وبث الاشواق الروحية ، للمناجاة الشهية . فقد وصلني على طريق السيد عمر الخشاب ما أتحفتمونا به بل سائر الامة ، وهو تلك الرسالة الغراء المهمة ، التي هي الملاك الوحيد ، للحصول بسهولة على ما يلزم استحضاره من علم التوحيد ، فلقد أجدتم حفظكم الله في تحرير واجباته الاعتقادية، وافراغ براهينها في مسالك مألوفة ، وأساليب اعتيادية ، بحيث يسهل نفوذ اليقين الى القلوب ، ولا تحول الشبه دون وصول النفس الى المطلوب ، ولما أتيت على معظم الرسالة المذكورة، وعددتها من مساعيكم التي لا تزال عند الله وعباده مشكورة، رأيتني ملزما بواجبين عيني وكفائي، وان كان قيام الغير بالثاني مما يسوغ بالاول اكتفائي ، مع أن هاته البطاقة، ليس لها بكلا الواجبين طاقة ، فحسبنا الآن أن نعلن بشكر تخصيصكم للعبد بنسخة الرسالة المشار اليها ، ونعلم بأن حسن الرسالة وحسن نية المؤلف أظهرا من أهالينا مبادىء الاقبال عليها، فالله المسئول أن يشكر سعيكم، ويديم لنفع الامة بقاءكم ورعيكم حرره عبد ودكم وكمالكم

٧ شوال سنة ١٣١٧ سالم بوحاجب

(أقول) لو كتب هذا الشيخ الكبير هذا الكتاب بعد اتمام الرسالة قراءة وتأملا لعلم كنه قيمتها ، ولكان كتابه هذا ناطقا بان براهينها فوق المألوف ، كما ان اسلوبها فوق المعروف .

وقرظها أيضا أحد علماء الشيعة وأدبائهم في سورية تقريظا حسنا نشرناه

في أوائل المجلد السابع من المنار فقال في آخر تقريظ له للمنار مانصه : (ص ٦٨)

تقريظ عالم أديب شيعي للرسالة

«وحسبك في ذلك مايقتبس من رسالة التوحيد لاستاذ الكل ، ووحيد هذا العصر أو من نظيره قل ، عيلم العلوم الذي عم مده ، الشيخ محمد عبده ، كثر الله في الأمة أمثاله ، وزاد بين الورى اعظامه واجلاله ، فكم له فيها من حز أصاب المفصل ، ورمية لم يخطىء بها الغرض وإن خفي على المتأمل ، وتحقيق كشف به الحجاب ، لأولي البصائر والالباب ، ولم يدع بعده عذراً لمفكر ولا مرتاب ، وحاشا أن تخلو الارض من عامل من عامل يعمل فيها بخير وهدى ، وداع يدعو فيها الى طريق نجاة ورشاد للورى ، فكم دافع عن الايمان ، بلسان أمضى من السنان ، وعن الاسلام ، بأقلام أمض وقعاً في الكفر من مريشات السهام . وعن الحنيفية البيضاء بمسود مداد أقطع من البيض الحداد ، أوضح مع الايجاز أدلة التوحيد بعد اثبات الواجب مالا يطلب المتأمل بعده من مزيد ، وجال جولة في بيان مايمكن الوصول اليه من الصفات ، أغني بها المنصف عن اللجاج والتعرض للهلكات . وأوجز في صفتي الكلام والبصر ، مافيه البلاغ والمبر ، وتكلم في أفعاله تعالى بما يسبق الى القلوب اعتقاده ، وألف بين الفريقين[1] بما هو حري أن يتبع وقرب ما توهم استبعاده ، وسلك في الجبر والاختيار جادة الاعتدال ، ومال في مبحث حسن الافعال الى أحسن الاقوال . وبسط القول في النبوة والرسالة حتى أوضح الحق وقمع الجهالة ، وألف في مبحث الرؤية بين الفريقين[1] ورفع الوحشة وأزال النزاع من البين . وذلك الفضل من الله يؤتيه من عباده من يشاء ، ويمنحه من سبقت له العناية فيه منذ فطر الاشياء . فجدير بمصر أن تفتخر بمن فيها من أفاضل العصر ، وحقيق بحملة العلم في كل قطر ، أن ترفع أيدي الابتهال لعزة ذي الجلال بالدعاء لكم بدوام التأييد والمجد ، والتوفيق لنصرة الدين ، وايضاح الحق ودحض الباطل وارشاد الضال . وجمع الكلمة واحكام الألفة بين المسلمين ، انه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير . آمين آمين (ع ٠ ا)

(١) يعني بالفريقين أهل السنة والشيعة

تقريظ الامير شكيب للرسالة

ومنها تقريظ لنابغة مريديه في الديار السورية الامير شكيب أرسلان ذكره في كتاب خاص، ولو كتبه لاجل النشر في الصحف لزاد في البيان والابداع قال:

« قرأت رسالة التوحيد ولم أزدد بكم علما ، الا أنني سررت لكم بنشرها بعد أن حجبت المحاكم بين الانظار، وبين تلك الآثار، وبعد أن ظن أن القضاء[1] صرف نظاركم عن كل ما سواه ، ولعمري ان أحسن عمل يؤتى هو مثل هذا الاثر ، ولم أقرأ في مكتوب العصر شيئاً أبدع من هذه الرسالة ولا ما يدانيها ، الا ان كان بعض كلام المرحوم السيد جمال الدين ، وعليه فالدائرة واحدة

«لا حق لي في الكلام من جهة الفن وتعديل الآراء والمذاهب ، ومع هذا فحيث كان الامر من المعقول تأملت فوجدت أن طريقة هذه الرسالة هي أقصد الطرائق ، وانها غاية ما يرتاح اليه العقل ويرتاح فيه ، فما أشكل بعدها من مغلقات أسرار الوجود فهو مما حتم الله باشكاله وخبأ نوره عن عباده

«وأما البيان فقد طالما اعتقدت أن الانشاء مارق به المحسوس حتى كاد يسيل، أو تجرد منه مثال للتخييل، ولقد وجدتني من تلك الرسالة في عالم معنوي قادت" براعة أسراره ومجرداته بزمام التعبير ، الى أن تخيلت أني قابض على المعاني بيدي ، فضلا عن أني متمثلها في خلدي، فهذا غاية الخلق من البيان ، وهو ما أتت به الرسالة اه

(١١ — تقرير المحاكم الشرعية) هو على خصوصية موضوعه مفيد حتى لغير القضاة ومستخدمي هذه المحاكم من جميع أهل العلم والادب لا سيا طلاب علم الفقه فانه يعطيهم من البصيرة في طريقة التحصيل على الوجه الذي ينتفعون به وينفعون مالا يجدونه في سواه ، وفيه كثير من الفوائد الادارية ، والاجتماعية ، والادبية، وأحوج الناس اليه بعد القضاة وكتاب المحاكم المرشحون للقضاء وللكتابة في هذه المحاكم ،وقد طبعناه على حدته ، وتكلمنا عليه في مقصد عمله في اصلاح هذه المحاكم من هذا الجزء ونشرنا فيه مقدمته للمؤلف ومقدمتنا لطبعه ونشره وفيها من بيان مزاياه مايغني عن اعادته هنا

(١) كان الاستاذ في تلك الاوقات قاضيا في محكمة الاستئناف في القضاء ثورية

١٢ــ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية

وهو مقالات كتبها لمجلة المنار ثم جردناها منها وطبعناها على حدتها وسميناها بهذا الاسم باذنه ، فجاءت كتابا مستقلا أعيد طبعه مرارا . وسنذكر في مقصد عمله في الدفاع عن الاسلام سبب كتابته ، وغرضه الاهم منه . وهو ايقاظ المسلمين وارشادهم الى أسباب تأخرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم ، والى المخرج منه ، فهو لم يترك شيئا من هذه الاسباب الا وقد بينه أحسن بيان . مؤيدا بالبرهان ، فترجيح الاسلام على النصرانيـة في حرية العلم ونشأة المدنيـة كان هو الغرض الادنى المحرك للكتابة ، وإرشاد المسلمين المذكور هو الغرض الأعلى

ولكن هؤلاء المسلمين المساكين الغافلين عن أنفسهم لما يعرف اكثرهم قيمة هذا الكتاب ، ولو عرفوها لوجدته في كل بيت من بيوتهم ولقرأه مرارا كل متعلم ومتعلمة منهم ، بل قال أحد العقلاء الفضلاء انه يجب أن يقرأ في كل سنة مرارا . وأنا أقول قرأته حين طبعته في السنة الخامسة للمنار مرارا ، ثم قرأته عند تصحيح كل طبعة وأجدني أستفيد منه في كل مرة عبرا كثيرة لا عبرة ، وتنفجر لي منه ينابيع للحياة غزيرة .

(١٣ — تفسير سورة العصر) كان رحمه الله تعالى قد فسر هذه السورة في دروس متعددة كما تقدم بيانه في الكلام على سبب قراءته للتفسير العام في الازهر ، ثم فسرها في الجزائر تفسيرا مجملا مختصرا ، ثم كتبه لينشر في المنار إجابة لرغبتنا ورغبة بعض أهل العلم في مدينة الجزائر الذين حضروا هناك درسه في تفسيرها ، وقد كتب الاستاذ في حاشية تفسير جزء عم عند تفسير هذه السورة ما نصه :

« وقد كتبنا تفسيرا لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد ان طبع في مطبعة جريدة المنار وهو ما كنا ألقيناه درسا في مدينة الجزائر في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٢١ وفيه تفصيل طويل لما أجملناه في هذا التفسير المختصر فمن أراد بيانا أوسع ، وتفصيلا أبدع ، فليطلب ذلك التفسير ، فهو فيما اعلم غير مسبوق بنظير » اهـ

أقول اننا طبعناه بالقطع الصغير ليوضع في الجيب وطبعنا معه ملخص درس الاستاذ الامام في تونس وموضوعه العلوم الاسلامية وأقرب الطرق لتعلمها

(١٤ — تفسير جزء عم) قد كتب تفسير هذا الجزء ليقرأ في مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وجعل طبعه حقا للجمعية خاصا بها — وقد كتبه في بعض أسفاره الصيفية الى أوربة ، واتمه في مدينة جنيف من سويسرة في صيف سنة ١٣٢١ هـ الموافق ١٩٠٣ م وطبع الطبعة الاولى في اوائل سنة ١٣٢٢ وهو تفسير أشهر من نار على علم، وقد كان رواجه أكثر من رواج سائر كتبه على شدة الرغبة فيها كلها ، حتى انه قد وزع منه عدة ألوف في عدة شهور، وهذا شيء لم يعهد له نظير في المطبوعات العربية

افتتح خطبته ببضعة أسطر فيها اشارة الى كل مايحتاج اليه المسلمون من اصلاح في دينهم ودنياهم ، متضمن لكل ماهم عليه من سوء الحال وخطر الاستقبال ، وهو مايمكن أن يكون موضوعا لدروس كثيرة ، وخطب مفيدة .

ثم ذكر من الباعث على تأليفه لمدارس الجمعية مايرشد جميع المسلمين الى ماهم في أشد الحاجة اليه من الاهتداء بالقرآن او كيف يكون ذلك إذ قال «ليكون مرجعاً للاساتذة لمدارس الجمعية في تفهيم التلامذة معاني مايحفظون من الجزئين [أي هذا الجزء وجزء (تبارك) الذي كان عازما على تفسيره بعده] لينشؤا متعودين على فهم مايحفظون ، وتدبر مايقرأون ، وليكون مافي تلك السور من دلائل التوحيد والعظات والعبر مشرقا للعقائد السليمة في نفوسهم ، وعاملا للاصلاح في اعمالهم وأخلاقهم »

أليس هذا هو الواجب على كل مسلم من هداية القرآن ؟ ففي أي مدرسة وفي أي مكان من بلاد الاسلام يلقن أولاد المسلمين هذا ويربون عليه ؟ اللهم اننا لانعلم

هـذه هي مؤلفاته التامة ولا حاجة هنا لذكر ما بدأ به ولم يتمه ، وأنفعه كتاب أسباب الثورة العرابية ، وقد لخصنا بعضه في موضعه من هذا الكتاب

المقصد الثالث

من الفصل السابع

دفاعه عن الاسلام، وكشفه للشبهات والاوهام

كان قدس الله روحه مدافعا عن الاسلام طول عمره بلسانه وقلمه، وخير مثل له في أخلاقه وعلمه وعمله، حتى قالت امرأة سويسرية من المعلمات المصنفات في علمي التربية والاخلاق : ما كنت أظن قبل معرفة هذا الرجل أن القداسة توجد في غير المسيحية

وكان دفاعه عن الاسلام ثلاثة أنواع يعززها رابع يدخل في مقصد آخر من مقاصده وهو التقريب بين اهل الاديان، ولا سيما النصرانية والاسلام، بما يزيل أكبر شقاق بين الشرق والغرب أو بين البشر، والتأليف بين أهلها، بما يحول دون اتخاذها سبباً لضد ماشرعت له وهو الهداية والخير، وسنلمّ بهذا بعد بيان الانواع الثلاثة

(النوع الاول)

الدفاع اللساني أو الشفوي بكشف شبهات المرتابين، وأغلاط المخطئين، واعتراضات الجاهلين، وكبت الشانئين

المعروف عن أكثر علماء المسلمين الذين نصفهم بالجامدين، ويصفهم الكثيرون بالمتعصبين والمغرورين، ان من يسأل أحدهم عن شبهة عرضت له في دينه، أو مشكل أورده على بعض مسائله، يجيبه بما يعرفه في الكتب المتداولة في أصل المسألة التي تتعلق بها الشبهة وان لم يكن جوابا داحضا لها، فان قبله مذعنا فذاك، وان جادله فيه، وقال ان هذا عين المسألة التي لم أعقلها أو لم تظهر لي حقيتها، لا جواب عن شبهتي عليها، أعرض عنه ونأى بجانبه، ونبزه بلقب الكفر أو الابتداع، إلا أن يكون وجيها لا يتجرأ على مواجهته بما يكره من فعل أو كلام

وأما أستاذنا رحمه الله تعالى فكان أشد رفقا بمثل هذا السائل من غيره، وكان يجيبه بحسب ما يراه من حاله واستعداده في العلم والفهم، فان لم يعقل الجواب أو لم يطمئن

له قلبه ، أرجأ الحديث معه فيه الى وقت آخر ان كان ممن يجتمع به ، وربما أحاله على مطالعة الموضوع في كتاب معين لاجل الكلام معه فيه بعد مطالعته . وقد ذكر لنا في الدرس الخاص مثلين في هذا الباب وقعا بينه وبين بعض أصحابه

(أحدهما) أن صديقه محمد بك راسم كان قد رسخ في نفسه مسائل لا تتفق مع المعروف من قطعيات الدين، وعرضت له شبهات كان بها او فيها من المرتابين، فما زال يحاوره فيها حتى استلها من أعماق قلبه استلالا ، فكان من أقوى النابتة المدنية إيمانا وأحسنها أعمالا ، وصار من قراء إحياء علوم الدين المتدبرين لحكمته، وسيأتي ذكر كمال الصداقة بينهما في موضعه

(ثانيهما) أن صاحبه الشيخ سعيداً الشرتوني الذي مر ذكره قريبا في الكلام على رسالة التوحيد ، بعد ان مر فيما كتبه الينا الامير شكيب من سيرة الاستاذ في سورية (ص٤٠٠) قال له يوما إذ كان مقيما في بيروت : إسمح لي يا أستاذ أن أقول لك إن نهج البلاغة أبلغ من القرآن . فلم يرد عليه بانكار ولا إقرار ، حتى كأنه لم يسمع الكلمة لما دل عليه قوله من أنه لم يفهم بلاغة القرآن، ولم يقدر أساليبه قدرها ، على سعة اطلاعه في اللغة وآدابها، وظل الكلام جاريا بينهما مجراه الاول ، ثم كان يفترص المناسبات فيما كان يدور بينهما مدة وجود الامام في بيروت من الكلام في المسائل اللغوية الادبية والعلمية المختلفة، فيورد له في كل محاورة ما يناسبها من آيات القرآن ، وما فيها من دقائق نكت البلاغة وروعة البيان ، حتى أدرك أن نهج البلاغة لا يعد في جنب كتاب الله شيئا مذكوراً ، واعترف بذلك معجبا فخورا، بل امتلأ قلبه من عظمة الاسلام، والعلم بأن ما عداه من الاديان لا يبلغ أن يكون بجنبه كنهج البلاغة في جنب الفرقان

وذكر الاستاذ الامام في ذلك الدرس أنه كان معه مرة فسمعا جرس الكنيسة فوضع الشرتوني أصبعيه في أذنيه والتفت اليه قائلا انظر أيها الاستاذ الفرق بين الدعاء الى العبادة عندنا والدعاء اليها عندكم بالاذان الذي هو نفسه عبادة .

وأقول ثم كان تقريظه لرسالة التوحيد أعظم من هذا وأدل على مكانة الاسلام من نفسه ،وتأثيره في وجدانه وعقله

وهكذا كان أسلوب الاستاذ الامام ومنهاجه مع أهل الاديان وأهل المذاهب الاسلامية وطوائفها ، كان يظهر حقية الاسلام وعلوه بالصفة التي كان عليها الصدر الاول في المناسبات بعبارات فصيحة نزيهة بعيدة عن التعريض بأديان الحاضرين أو مذاهبهم المخالفة لدين الاستاذ ومذهبه فيه ، حتى كان يكون محل إعجاب الجميع واحترامهم ، واعترافهم بان الاسلام فوق ما كانوا يعلمون منه ، ومباين لكثير مما كان يروى لهم عنه ، كما بين ذلك الامير شكيب في المقال الذي وصف به سيرة الاستاذ الامام في بيروت (ص ٤٠٢)

احالته بعض المستفتين على مريده المؤلف

وكان كثيرا ما يرسل الي بعض السائلين عن الشبهات ، والمستفتين في المشكلات ، لكثرة أعماله ، وثقته بتلميذه ، كما كان يحيل علي بعض الاسئلة المكتوبة على ماسبق في الكلام على فتاويه. وأذكر من الاحياء المعروفين منهم الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الكاتب الخطيب المشهور كان كتب اليه وهو تلميذ في طنطا مكتوبات فيها أسئلة من هذا النوع ، وكان رحمه الله تعالى يرسلها الي لأجيبه عنها. وأذكر انني كتبت اليه مستحسنا إلمامه بمصر لمذاكرة الشفوية في مشكلاته وانه حضر ولقي الاستاذ وأراد البحث معه في تلك المسائل : فقال له اذهب إلى فلان صاحب المنار فهو يجيبك عما تسأل بمثل ما أجيبك به - اوما هذا معناه - وكتب لي رقعة أو بطاقة في التعريف به وبغرضه، فلما أعطاه إياها قال له أنا أذهب إلى صاحب المنار ولكنني أحفظ هذه أثرا من فضيلتكم عندي . قال لا بأس ، وأنا أكتب لك رقعة أخرى فجاءني ولا اذكر مادار بيننا بالتفصيل

بعد كتابة ما تقدم راجعت ما أحفظه من أمثال هذه المكتوبات فوجدت فيها كتابين للاستاذ لطفي جمعة رأيت أن أنشرهما لما فيهما من الدلالة على ذكائه وحريته، وبحثه في زمن التعليم في أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين، وحسن إنشائه الذي يقل مثله فيمن كان في سنه وتحصيله، ومعرفته بمكانة الاستاذ الامام وفضله ، وإلهامه الرجوع اليه فيما يهمه من أمره ، ووصفه لتعليم الدين في المدارس الاميرية وأمثالها وخلوها من التعليم الديني والتربية الملية التي يجب تنشئة التلاميذ عليها .

﴿ الكتاب الاول ﴾

طنطا في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤

اللوكندة الخديوية بشارع البورصة — محمد لطفي جمعة

سيدي الاستاذ

يكتب اليك شاب قصم الدهر ظهره ، وناءت عليه المصائب بكلكلها ، فجلس في مجتمع من الناس لا يعرف منهم إنسانا

فلا صديق اليه مشتكي حزني ولا أنيس اليه منتهى جذلي

جلست وأنا مفعم بالهموم والاحزان، وصدري يجول به الحزن والضيق، وفؤادي مروع ، وعقلي يكاد يطير شعاعا ، فقلت الى من أشكو ، ومن ذا الذي يسمع تألمي إلا الله . ولكن تلك القوة الهائلة تعلم ما أنا فيه ولا تفرج كربي ، لانه لم يأن الأوان ، فقلت إني كاتب لشيخ هذه الأمة ، عليّ أجد سلوى في كتابتي اليه

وأنا أشكو في حياتي هذه من أمرين : أمر يتعلق بنفسي، وأمر يتعلق بجسمي وأمر نفسي تحته مسائل شتى .

نشأت كما ينشأ كل مسلم مصري ، وأنا لا أعرف من ديني الا إسمه ، ولا أعرف من أديان الناس إلا انها كفر وبهتان . وحفظت قليلا من القرآن في المدرسة الابتدائية ، كنت أضحك منها عند تلاوتها ، وخرجت من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية ، وأنا لا أزال كما كنت لا أعرف الله الا باسمه ، ولا النبي إلا (بصلى الله عليه وسلم)

وكان لنا استاذ غرس في نفوسنا حب المطالعة والبحث وأرانا القرآن بشكل جديد، وفسر منه آيات كثيرة ، فلم نعد نقول ان تفسيره حرام على غير العلماء .

وقرأت كثيرا في الكتب الانكليزية والعربية وطالعت فلسفة باكون وفلسفة ابن رشد وندفا مختلفة من هذه العلوم، فزاد الامر علي إشكالا ، فبقيت كريشة في مهب الريح ، ثم نظرت في أصل الروح وما هي وكيف خلقت ، وما أصل الخالق ؟ وهل نحن اجزاء منه ؟ وهل هناك قوة هائلة هي الله ؟ وهل العالم

يسير بنظام ؟ وهل وجدت المادة قبل الخالق ؟ أو هو الذي خلقها ؟ وكيف خلق المادة؟ ثم كيف خلقت النفس البشرية؟ ذلك المخلوق الكبير الذي اذا سار في طريق الخير كان مثالا لله، وان سار على درب الشر كان صورة للشيطان، وما هو الانسان؟ ذلك (الحيوان الاله) العجيب، وأين النفس من جسمه؟ وما معنى انها ملازمة للجسم ؟ ثم جاءت مسألة القضاء والقدر وأعمال الانسان في هذه الحياة،وأقول بانها زادتني تعبا على تعبي ،فلا أنا قادر على أن أقول ان كل شيء من عند الله ، ولا قادر على ان أقول ان العالم متروك سدى،لأن في عقلي ما ينقض كلا هذين القولين

ثم نظرت في الموت ولماذا هو في وقت معين ؟ولماذا لا يطيل الانسان عمره؟

ثم نظرت في هل هناك حساب وبأي شكل ؟

وأنا لا أعتقد بالبعث بالصورة الموضحة أي أننا نبقى أجساما ونفوسا . ثم نظرت في الجنة فقلت ان ليس فيها «حورا وولدانا» (كذا) بل فيها كمالات نفسانية وإننا ننقل الى عالم أرقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب. وهكذا حتى نصل الى أقصى درجات الكمال.

وكذلك ليست النار نارا كما يقال ،بل هي عبارة عن عذاب الضمير لنفسه .

أنا مرتبك لا أدري ماذا أكتب ؟ ولكن هاهي صورة مني والسلام

وما طالعته في الكتب وما سمعته وكل هذا خلط في فكري خلطا كبيرا

وطالعت أخيراً سورتين من القرآن بامعان زائد فخرجت منهما على أن في القرآن اصلاحا كبيراً للهيئة الاجتماعية ودونت ذلك في كتاب عندي

هذا عذابي من جهة ديني

ومن جهة أمتي فأنا حزين لانها ساقطة ولا يرجى لها قيام . أمة منحطة لا تقدر الناس حق قدرها ، ولا تعرف يومها من أمسها، وأحسد أمة اليابان التي ارتقت في خمسين عاما مع أنهم يعبدون الاوثان ، فما أجدرنا بترك ديننا لليابان وأخذ دينهم . لاننا لا نصلح له لانني لا أزال احترم الدين الاسلامي وان كنت لا أعرفه ،ومن جهة عائلتي فآلامي شديدة ومن جهة نفسي فآلامي أشد وأنا لا أخاف أن أكتب لك بذلك ؟ محمد لطفي جمعة

﴿ الكتاب الثانى ﴾

سيدي الاستاذ العظيم ابقاه الله لنا ذخرا ليحفظ كيان الامة الاسلامية .

انا لا اعلم ان كان ما كتبته قد تشرف بنظركم اليه فنال القبول املا ؟ ولكنني لا ارى لي مندوحة من ان اكمل سؤالي حيث قد طرحت مبادئه على سيدي الاستاذ فاقول :

﴿ الله ﴾ اول ما يخطر ببالي عند ذكر هذه الكلمة قوة هائلة لا يمكن تصورها وهي محاطة بملائكة كثيرين . ولكن ما شكلها ؟ لا ادري . واحس عند ذكره بجلال وخشوع ولكن لماذا ؟ لا ادري .

﴿ المادة ﴾ وهذه المادة التي خلق منها كل هذا العالم . هل خلقت من نفسها او خلقتها تلك القوة الهائلة؟ واذا لم تكن هناك مادة فكيف خلقت ؟ اذن هل المادة جزء من القوة الهائلة ؟ او هل وجدت المادة قبل القوة الهائلة

هاتان هما المسئلتان اللتان تمنعان الكرى عن جفوني

﴿ الكون ﴾ وهذا الكون المتناهي في العظم والكبر والفخامة ما عمره ؟ اني أراه ايضا متناهيا في القدم . وعبثا ان يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب وهذه الاقمار وهذه الشموس عبثا ، فلا بد من ان يكون فيها مخلوقات لله . وكل هذه الاشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير .

ولكن هل يخطر ببال احد ان ﴿ المادة ﴾ هي اصل كل هذا الخلق العظيم وانها تحركت بنفسها وخلق منها هذا الكون الهائل وسار على قوانين منتظمة ؟ ؟

هذا خاطر كنت اميل اليه في بعض الاوقات اما الآن فقد تلاشى من فكري او كاد . ودليل ذكره انني كنت ارى ان الرجل اذا نالت جسمه السقام او اصيب قلبه بسهم فانه لا محالة يموت . اذن لم يمت حتى انحل تركيب جسمه او اصيب العضو الرئيسي فيه ، والجسم مخلوق من المادة ، فهل حياة الانسان موقوفة على المادة ؟؟؟

وسمعت هذا القول اوما يشبهه مرة من طبيب فشغلت نفسي به شهرا كاملا ولا يزال عقدة في سلسلة افكاري .

النفس البشرية وخلق آدم

وهنا تأتي أم المسائل التي اعشقها عشقا عظيما . يأتي ذكر النفس البشرية ما هي ؟ اين هي من الانسان؟ كيف خلقت ؟ وهل هبطت اليك من المحل الارفع؟

انا اجيب نفسي على هذه الاسئلة بهذه الاجوبة:

النفس البشرية قطعة من الله ولا اقول شعاع من نوره كما يقول الفقهاء والمتكلمون. او ان الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس .

وهي ليست موجودة في أي جزء من اجزاء الانسان، بل هي تظلله ولا علاقة مادية لها به ، مثلها كمثل الحديد الرفيع الذى يوصل التيار الكهربائي الى عربة الترامواي فان هذه الحديدة لا علاقة لها بالترامواى الذى هو جسم الانسان واذا حدث للترامواى (العربة) عطل فانها تمتنع عن السير اما الحديدة فلا يحصل لها ضرر .

وكيفية خلقها يعود بي الى السؤال الاعظم : كيف وجد الله ؟ بل كيف وجدت هذه القوة الهائلة ؟

لان الله والنفس شيء واحد :هذا رب في سمائه ، والنفس رب في ارضها :

وهي لم تهبط من المحل الارفع . لكن اين هذا المحل الارفع ؟ ؟

خلق آدم وحواء

كنت وانا صغير شديد الولوع بمطالعة قصة آدم وحواء وكيف طردا من الجنة، وكيف تقابلا وتناسلا : وانا الآن شغف بقول شاعركم :

لم تلدنا حواء الا لنشقي ليتها عاطل من الاولاد

ولكن انا الآن أفكر في امر ارقى من هذين الامرين السابقين وان كانت طريقه محفوفة بالاخطار وهاك سيدي رأيي في خلق اول انسان

صورة العالم في اول خلقه كما هي في فكري غريبة جدا : وهذه الصورة استنبطتها من العلوم التي قرأتها . كان العالم كله بحرا وذلك بعد ان بردت الارض وانفصلت من النظام الشمسي على حسب رأى لابلاس الذي جاء مصداقاً لما في القرآن (كانتا رتقا ففتقناهما) . ولما صارت الارض بحرا بقيت كما هي زمنا طويلا

طويلا جدا جدا . وبعد ذلك اخذت اليابسة تظهر شيئا فشيئاً . وذلك بدليل الرمال العظيمة الموجودة في كل القارات وهي مصحوبة باصداف لا توجد الا في قاع البحار . ثم من ارقى درجات الجماد خلقت أدنى طبقات النبات مثل الحشائش في الصحراء وغير ذلك ، واخذ ذلك زمنا طويلا طويلا جدا ،ثم ارتقي النبات كثيرا حتي خلق من ارقى طبقاته ادني طبقات الحيوان. واذكر قول النبي ﷺ -قاله استاذى في الدرس اذكر معناه - « راعوا عمتكم النخلة » (١) لانها ارقى درجات النبات . ومن ارقى درجاته خلقت الديدان والحشرات وطال الزمن طولا عظيما حتي وصل الحيوان الى ارقى درجاته وثم خلق اول انسان ، وفي هذا الاثناء كان العالم يرتقي من جهات أخرى. اني اميل لهذا الفكر لانه صحيح ادلته علمية استقرائية ولا اميل الآن الى قصة آدم وحواء . والسلام، والبقية تأتي ان شاء الاستاذ العظيم

طالب الحقيقة
محمد لطفي جمعة

[المؤلف] ليس هذا الموضع بمكان لهذه المباحث وانما اقول بالاجمال ان هذا العالم الذي نقيس مالم يعلمه البشر منه وهو أكثره ، على ماعلمه وهو أقله، هو منفعل لقوة فاعلة فيه لم يصل البشر إلى معرفة كنهها. واذا كان البشر قدعجزوا الى اليوم عن معرفة حقيقة مايسمونه المادة ومايسمونه القوة المودعة في المادة وهي حادثة ، وان اهتدوا أخيراً الى أن القوة تتحول الى المادة او الاحرى أن المادة تصدر عن القوة ،فأحرى بهم أن يعجزوا عن معرفة كنه الخالق للقوة والمادة معاً ،وعن صفة خلقه لهما،وقد قال تعالى في خلق العالم وخلقهم (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وكذلك الروح يكثر ايمان الماديين بها عاما بعد عام مع الاعتراف بأنهم عرفوها بأثرها لا بحقيقتها. وليراجع القارىء الى قصة آدم في الجزء الاول من تفسير المنار ومعنى خلق الناس من نفس واحدة في أول تفسير سورة النساء يجد مافيه الغناء في مسألتهما ويجد في مواضع أخرى منه ومن المنار أجوبة تلك الاسئلة كلها

(١) المؤلف : الحديث رواه ابو يعلى وابو نعيم عن ابن عباس بلفظ «اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم» وفي رواية «من فضلة طينة آدم » وفيه ضعف وانقطاع في السند

النوع الثانى

﴿ الدفاع القلمي عما يسأل عنه المسلمون من المشكلات ﴾

وبيانه لما فشا فيهم من البدع والمنكرات

كان بعض المسلمين يسألون الاستاذ الامام بالكتابة عن بعض المشكلات في القرآن ، أو في بعض مسائل العقائد أو الاحكام ، وبعضهم يسأله بالمشافهة ولكنه يرغب أن يكتب الجواب وينشر ليستفيد جميع الناس به ، وكان يأمر بنشر بعض مايكتبه من الاجوبة ويجعل بعضها خاصا بالسائلين

ومما نشر في المنار منها مسألة الغرانيق ، وهي من أعظم المشكلات في كتب التفسير ، لانها تتعلق بجوهر التوحيد. ومسألة زيد وزينب ، وفي كتب التفسير من الروايات فيها ما جعله دعاة النصرانية وغيرهم مطعنا في النبي ﷺ ومسألة شبه التعارض بين هاتين الآيتين من سورة النساء (٤ : ٨٧ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك .قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا (٨٩) ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) الآية . ولكثرة حاجة الناس الى التفسير الصحيح للآيات في هذه المسائل الثلاث جردناه من مجلة المنار ونشرناها مع تفسير سورة الفاتحة الذي طبع عدة مرات ، ومنها ماأدخله في عداد الفتوى الرسمية كمسألة طوفان نوح التي نشرناها في هذا التاريخ وكنا نشرناها من قبل في المنار

وكان رحمه الله تعالى يرسل الي بعض هذه الاسئلة المكتوبة لاجيب أصحابها وقد وقع في يدي قبل الشروع في كتابة هذا الفصل كتاب أرسل اليه يسأله صاحبه عن التحريف في التوراة والانجيل هل هو لفظي أو معنوي — وقد وقع عليه: الشيخ رشيد يجيب عن هذا بكتاب خاص ، وأرسل اليه بعض الناس رسالة مطبوعة «تتعلق بصلاة الظهر بعد الجمعة في الامصار» للشبراملسي الشافعي ويسأله مايقول فيها؟

فأرسلها الي وقد كتب على ظهرها مانصه: اذا وجدت وقتاً وطريقاً لتسفيه صاحب هذه الرسالة وناشرها في جريدة المنار فافعل » وأرسل اليه شيخ سوري اعتراضا على شيء قاله في التفسير فأرسل الي كتابه وقد كتب على طرفه « الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان » الخ وسبب ذلك ان المعترض كان يريد التحرش والجدل بعبارة ظاهرة في ذلك ، فهذا مثال من غضبه رحمه الله من سيئي النية وهو قليل جداً فيما يضاده من حلمه وسعة صدره ، ومن انصاف التاريخ أن نبين كلا منهما

ويدخل في هذا النوع مقالاته في القسم الادبي من جريدة الوقائع المصرية الرسمية في موضوع ابطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية ودوسة أهل الطريق و (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) ويراها القارئ في الفصل الثاني من جزء المنشآت من هذا التاريخ — وكذا ما نشره في الصحف السورية كمقاله في كتب المغازي وأحاديث الاقاصيص في (ص ٣٤٦) من المنشآت وغير ذلك

النوع الثالث

﴿ ماكتبه في الرد على الطاعنين في الاسلام من غير المسلمين ﴾

قد عقدت لهذا النوع الفصل الخامس من باب مقالات الاستاذ الامام في الجزء الثاني من هذا التاريخ (جزء المنشآت) وعبرت عنه بالمناظرات الدينية — وقد افتتحت الفصل بهذه الكلمة :

« أشهر ماكتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو ـ أحد وزراء فرنسة وكتابها — في الاسلام والعقائد السامية والآرية ، وما يتعلق منهما بالاسلام والنصرانية ، ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد ، والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وانا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى (أي مناظرة هانوتو) لأن الثانية قد نشرناها في المنار ، ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مرارا » وهو كتاب (الاسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية)

الرد على هانوتو

ثم بينت كيف كتب الرد على هانوتو ، وما كان له من الشهرة والتأثير في الشرق والغرب ، ونشرت ترجمة مقالة هانوتو الاولى ورد الاستاذ الامام عليها ثم ما كتبه هانوتو بعد وصول الرد إليه واطلاعه عليه ، ثم ما رد به الاستاذ الامام عليه ، وقد بلغ ذلك ست مقالات واستغرق نشر الاصل والرد ٦٨ صفحة من ٤٠١ — ٤٦٨ (من المنشآت وختمته بهذه الكلمة في العبرة به)

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو هانوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم الى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الاسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم ودهماءهم ، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم انها على ما كان من حسن تأثيرها ، ولهج الألسن بها ، وطبع الالوف الكثيرة من نسخها ، لم تحمل المسلمين على اصلاح خلل في تربية ولا تعليم ، ولا إدارة ولا سياسة ، وانما كان ذلك التأثير قاصراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة ، وظهور حجته في العلم والدين والسياسة ، على كاتب من أكبر رجال أوربة ، وذلك شأن الامة في طفوليتها : سرور كسرور الاطفال ، وغضب كغضب الاطفال ، لا يبعثان على عمل من الاعمال ، ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى (أي العثمانية) خيراً من نصيب رجال الامة الاسلامية من هذه الآيات والعبر ، فقد صرح الامام بأن سياستها غير دينية ، وان إدارتها غير اسلامية . وأشار الى دابة الالحاد التي تأكل من منسأتها ، فلم يعتبر أحد من رجالها ، فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم أن اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها ! ! اه

تأثير الرد على هانوتو في الناس

أشرت آنفاً إلى ما نشرته في المنار من تأثير رد الاستاذ الامام على هانوتو في الشرق والغرب ، وكنت أعد ذلك من مادة هذا التاريخ التي تنشر فيه ولكنه

طال فوق ماقدرته له فكان هذا مانعاً من نشر ماذكر لكثرته ولكنني أنوه ببعض مافيه العبرة في هذا الموضوع بالايجاز في مسائل:

(١) ان الرد كان بأسلوب رفيع من البلاغة ، وفيه من المفردات المصورة لادق المعاني ما هو طريف غير متداول ، وفيه من الدلالة على سعة اطلاع الكاتب على تواريخ الامم وعقائدها في الشرق والغرب -ولا سيما فرق النصرانية- ماليس للناس عهد بمثله في الجرائد ، وهو قد كتبه بسرعة لامجال فيها لمراجعة شيء من الكتب ، فانه قرأ المقالة الاولى في المؤيد ليلا فكتب رده عقب قراءته ليلا وأرسله إلى المؤيد في الصباح فنشر في العدد الذي صدر في ذلك اليوم ، وقد عزاه صاحب المؤيد إلى امام من أئمة المسلمين لان الكاتب لم يأذن له بالتصريح باسمه ، فكان مثار الدهشة والاعجاب ، في أنفس جميع القراء من جميع الملل والنحل والآراء ، ببلاغته وبأدبه في التعبير ، فهو على شرحه مابين النصرانية والوثنية الآرية من وشيجة النسب وصلة الرحم ، وتفضيل ملة التوحيد السامية عليها لم يكتب كلمة تسوء أحداً من النصارى لامن رجال العصبية الدينية ، ولا العصبية الدنيوية

(٢) ان أكثر أهل العلم والادب في القطر المصري قد جزموا بان الكاتب لذلك المقال هو الشيخ محمد عبده وانه لا يقدر عليه غيره ، وقد قيل له هذا في مكتب الافتاء ، وكان في مجلسه بعض العلماء والادباء ، فتوقعوا أن يتهلل وجهه مسروراً ، وان يظهر هذا على لسانه ولو بعبارات التواضع والفخر المعنوي ، ولكنه فاجأهم بقوله ممتعضا انه لايسوءه ويحزنه شيء كما يسوءه هذا القول المتضمن لمنتهى ذم قومه واهل بلده بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد الذي يجب أن يضطلع بمثله أكثر أهل التعليم الوسط ونَدَع التعليم العالي . قال : ومن المصائب على المرء أن لا يستطيع الاستخفاء في هذا البلد الكبير إذا أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون شخصه إذا رأى مصلحة في ذلك !! فليتامل أولو الالباب ، هذه الاريحية القومية والوطنية الجديرتين بالاعجاب !

ومما يحسن ذكره هنا أن بعض أصحابي كان ينكر علي شدة اعجابي بالاستاذ الامام وثنائي عليه (لانه لم يكن يعلم من أمره إلا مايسمعه من الحاسدين له او جاهلي

مزاياه) قال لي لما قرأ الرد على هانوتو : لو كان الشيخ محمد عبده هو الذي كتب هذا الرد لكنت أعذرك بدلا من عذلي لك على مبالغتك في مدحه ـ او ما هذا معناه ـ فقلت له كان لبعض العشاق صاحب يكثر لومه على الحب، فأبصر معشوقه يوما ولم يكن رآه قبل ذلك ، فدهش وراعه جماله، فقال له لو عشقت هذا لما ملكك ولما لامك أحد ، فأنشد العاشق :

ابصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا مالامك الناس في هواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه

ففهم مرادي وصار من حزبنا

هذا وانه قد تصدى كثيرون للرد على هانوتو في الجرائد والمجلات ، فمنهم من أساء حتى طعنوا في الديانة النصرانية طعنا لا محل له وهو ضار غير نافع ، ومنهم من لم يحسن ، وأنى يبلغ من أحسن غبار الاستاذ الامام فيما سبق اليه وهو لم يدع مقالا لقائل ،

(٣) افترص هذا الاضطراب بشارة باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام العربية والبيراميد الفرنسية فتصدى للرد على الامام نفسه والدفاع عن موسيو هانوتو ظنا منه أن هذا يحمل الناس على كثرة قراءة الاهرامين العربية والفرنسية ويكون سببا لرواجهما لما جرت عليه العادة في المناظرات المهمة ، ولكن أخطأ الظن وخاب الرجاء ، إذ نفر جماهير المسلمين من الاهرام واعتقدوا أن الحامل لها على الرد على الامام ، انما هو التعصب وعداوة الاسلام ، فقل قراؤها ، وكثر المعرضون عنها

وكان أكبر ما تمسكت به الاهرام في الدفاع عن هانوتو انه أنكر على (كيمون) ما نقله عنه من الطعن في الاسلام واقتراحه القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الاعظم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس ، وانما كان إنكاره أن وضع في آخرها علامة الاستفهام الانكاري ، وزعم ان ترجمة المؤيد لعبارته لم تؤد غرضه هذا

(٤) انني وقفت بالمنار في هذا التنازع والتخاصم بين الجرائد موقف الحياد على ماعلم من خطتي في تأييد الاستاذ الامام ، واقتصرت فيه على كتابة ما يرشد

المسلمين الى الاعتبار والاستفادة من هذه الحادثة ، ومن آداب امامهم وسياسته فيها ، فهو على شدة رده على هانوتو وبيانه لسوء معاملة فرنسة للمسلمين في الجزائر وتونس، قد أشار إلى إمكان التوفيق بين مصالحها ومصالح المسلمين كما يراه المطلع على مقالاته في الجزء الثاني من هذا التاريخ

واني أثبت هنا مانشرته في المجلد الثالث من المنار (ص ٢٥٠) في موضوع ذلك القيل والقال في الجرائد لانه جدير بأن لايخلو هذا التاريخ منه، وهذا نصه :

هانوتو والاسلام

(تلخيص ماجرى من المناقشات في مقاله والرد عليه)

سأل أحد أفاضل مسلمي بيروت صديقاً له من أدباء المسيحيين مقيما في مصر القاهرة (١) رأيه وما وصل اليه علمه في شأن المناقشات التي بنيت على مقالات هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً في الاسلام لاسيا صحة الترجمة فأجابه بكتاب نذكر منه في هذا المقام مايأتي :

« مقال هانوتو الذي سبب حركة الافكار واهتزاز الاقلام، قد طالعته مراراً باللغة الفرنسوية، وترجمة المؤيد غير مغلوطة، ولكن المسيو هانوتو عند مانقل كلام كيمون كان غير مرتاح اليه، وتهكم صريحاً على افكاره، وعلى الحل المتناهي في الغلو الذي زعم كيمون انه يريد ان يحل به المسألة الاسلامية، فترجم مقال هانوتو في المؤيد قد حافظ المحافظة التامة على الاصل ، فاكتفى بان يضع اشارة الاستفهام الانكاري والنقط التي تتبعها، غير ان قراء لغتنا العربية لم يتعودوا على ادراك سر هذه النقط التي اصطلح عليها الفرنجة ، ولهذا التبس المعنى ، وظن الكثيرون ان هانوتو يصادق على كلام كيمون، ومع ذلك فقد استأنف الكلام، وعاد ثانية إلى الاسلام، وتبرأ مما نسب اليه وصرح بميله واحترامه الاسلام والمسلمين، وترجم مقالة المؤيد وتبعه في ذلك الاهرام أيضاً

« ١ » أما السائل فهو سعادة عبد القادر بك القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون الشهيرة وأما المسؤل فهو جاد افندي عيد

ثم دخل اللواء في مضمار المباحثة وتكدر منه محرر الاهرام الفرنسوي (وهو شاب استقدمه تقلا باشا من باريز) وطاب مصطفى بك كامل إلى المبارزة ، وتبع ذلك أقاويل مختلفة ، وأقيمت الدعوى من تقلا باشا على صاحب اللواء ، وتشاتم الفريقان وانحاز إلى كل فريق انصار ومريدون

مولاي . لو اكتفى المؤيد واللواء بما كتبه ذاك الامام العظيم لخدما حقيقة الاسلام ، لان الحق يصرع اذا عمد إلى اظهاره بالسباب والشتائم ، ولم يكن لرد الامام الوقع العظيم في نفوس المسلمين فقط ، بل ان كثيرين من افاضل النصارى قد أجلوه كثيراً ، واحلوه محلا كريماً ، ولا أبالغ اذا قلت لسعادتكم انني قرأته أكثر من عشرين مرة

دين الاسلام كله شهامة ومروءة وحرية ومدنية طاهرة ، غير ان كيمون والذين على شاكلة كيمون ، قد تلقوا كل ماهو معاكس لروح الاسلام والمسلمين وبعيد عن عقائدهم وآدابهم وأخلاقهم . وكتاب الفرنجة لايراعون العواطف في اندفاعهم ، وقد كتب الكثيرون منهم في الطعن على السيد المسيح وعلى طهارة والدته وعلى كرامة تلامذته ، وتصدى منهم فريق عظيم للتوثب على الاحبار الاعاظم ، وقالوا فيهم الاقوال الشائنة التي ترتعد لها فرائص الآداب والفضيلة ، فالقوم الذين بلغ بهم التمادي والغرور إلى هذا الحد أيليق ان نترجم أقوالهم ونذيع ترهاتهم على رؤوس الاشهاد ، ونحرك ماكمن من الاحقاد

انني استحلفك بدينك القويم الذي أشرق بنوره الوضاح على البصائر المظلمة فأنارها ، وعلى العقول المقيدة فارشدها وحل عقالها ، وعلى القلوب المتسكعة فأيقظها وقوّم اعوجاجها ، أن تحرك قلمك وتغمزه إلى الغاية المحمودة ، وذلك في استنهاض همم فطاحل كتاب المسلمين للذود عن الاسلام بالطرق التي يريدها الاسلام — الطرق التي يريدها الاسلام لاتخفى على أفاضل المسلمين الذين أشربت قلوبهم محبة الائتلاف والموادعة والمسالمة ، وتحريض الامة على اكتساب الفضائل السامية في اكرام الجار ، وتعزيز حقوق الجوار ، ومعاملة عباد الله بطرق المساواة والعدل والولاء

يوجد كثيرون من الذين لم يتشرفوا بالدين الاسلامي على ضلال مبين في

أفكارهم وظنونهم نحو الاسلام والمسلمين، ولكن ضلالهم لا تمحو آثاره إلا البراهين القاطعة، والحجج الدامغة، التي تثبت لهم ان دين الاسلام دين الحرية المطلقة والحنان الصادق، والشهامة الحقيقية، والمحافظة على الاعراق، وكرم الاخلاق والعرض والاخلاص والوفاء .

أنظن يامولاي ان كيمون يقذف من فيه تلك الاقذار لو كان قرأ في زمانه فصلا واحداً من الفصول التي دبجتها أنامل الامام علي كرم الله وجهه ؟

أنظن انه يجرأ على التلفظ بذاك الحل الهائل الذي يريد ان يحل به المسألة الاسلامية لو كان سمع بحلم وحكمة العمرين، وكرم ابن زائدة، وعدل الرشيد، وسخاء البرامكة ؟

أتظن انه يحرك قلما لو علم بان أحقر رجل من المتدينين بدين الاسلام يهرق آخر نقطة من دمه في الذود عن عرض وكرامة الملتجيء اليه عند مايسأله الحماية؟

مهما كان كيمون والذين على شاكلته في غرور وضلال فانهم لا يستطيعون بعد معرفة الاسلام إلا الثناء على الاسلام، والافتخار بفضائل الاسلام

وكنت أود من صميم الفؤاد ان أضم صوتي إلى أصوات مقرري الحقيقة وأنصح أفاضل المسلمين أن يتخذوا الخطط الصائبة في مجادلاتهم، وكسر شرة المتوثبين عليهم، فالحق أيدك الله في جانبهم، غير ان بعض جهالهم يريدون ان يصرعوه في تطفلهم على صناعة التحرير والتحبير، ولا أكتم على سعادتكم شيئاً، فان الاقلام التي تحركت من بعد رد الامام المعتدل المحكم لم تأت بشيء من الفائدة، بل أضاعت او أوشكت ان تضيع الحق الذي بجانبكم، وتسبب حركة لا يرضاها عقلاء الامة الاسلامية

عن القاهرة في ٩ يونيو سنة ٩٠٠ ج.ع

[المنار] نحن تحامينا الخوض في المجادلات عندما حمي وطيسها، وكنا غير راضين عن الذين تهوروا منا فطعنوا في الديانة النصرانية نفسها بما لا يتعلق بالرد ورأينا من نعرف من أفاضل المسلمين معنا في هذا الرأي، وقد نشرنا كلام هذا الكاتب الاديب المسيحي لما فيه من روح المودة الذي نحن في أشد الحاجة اليها ولا شيء ينفخ روح الهدوء والائتلاف، مثل الاعتدال والانصاف اه

الرد على فرح افندي انطون صاحب مجلة الجامعة

تمهيد

كان فرح افندي أنطون من أمثل شبان النصارى في وطننا ذكاء وحباً للعلم والفلسفة، تعلم في مدرسة كفتين للروم الارثوذكس - وكانت مدرسة ابتدائية ثانوية - ثم صار معلما لاحدى مدارس طائفته الاولية في ميناء طرابلس الشام، وكنت ألقاه أحيانا عند الاستاذ جرجي افندي يني فيعجبني منه أدبه وامتناعه من ابداء رأيه فيما تدور المذاكرة بيننا فيه من المسائل السياسية والاجتماعية معتذراً بانه لم يدرسها درس تمحيص يعطيه الحق في الحكم فيها، ولكنه عصبي المزاج إذا تألم مما يمس شعوره يفقد رشده

وكان يحن مثلي إلى الهجرة إلى مصر ويستعد لانشاء مجلة أدبية فلسفية فيها، وقد أعد لذلك مقالات كثيرة ترجمها عن اللغة الفرنسية بما كان أكثرها من كتب (جول سيمون وجان جاك روسو) وغيرهما، واتفق ان سافرنا معا في باخرة واحدة، وبدأ هو بالبحث عن عمل له في تحرير بعض الجرائد او المجلات من حيث كنت أنا أجول في الوجهين البحري والقبلي لاجل معرفة البلاد في الجملة، ثم أنشأت جريدة المنار قبل انشائه هو مجلة الجامعة العثمانية، وكلفته مساعدتي في العمل بترجمة بعض المسائل التي تهمني من الجرائد الفرنسية باجرة معينة

ولما أنشأ هو مجلة الجامعة العثمانية وجهت اليها نظر الاستاذ الامام، وقلت له ان منشئها يكتب مايعتقد فائدته من المباحث العامة في الفلسفة والاخلاق والاجتماع، ورجوته أن ينظر فيها، ويثني عليها في مجالسه بما يراه للترغيب فيها، ففعل، وقابله فرح افندي انطون مراراً فلقي هذا من عطفه ما كان به راضيا مغتبطا

ولما كتب فرح افندي ما كتب في فلسفة ابن رشد مما لم يكن يفهمه حق الفهم، وحكم بان النصرانية أشد من الاسلام تسامحا مع الفلسفة والعلم ساء ذلك من اطلع عليه من المسلمين وطالبه بعضهم بالرد عليه، فلما رأى الامتعاض والاهتمام افترصه ليبين للمسلمين جهلهم بدينهم واعراضهم عنه، كما صرح بذلك في آخر الرد

كيف كتب الرد على الجامعة وأين كتبه

سافر الاستاذ إلى رمل الاسكندرية في أواخر يوليو (سنة ١٩٠٢) وكان مشتغلا بجمع الاعانات المالية لمنكوبي الحريق في ميت غمر . ووعدني قبل سفره بان يكتب فيه، وانه يتوقع أن يرى فيها فرح افندي أنطون ويتكلم معه في الغرض من هذه الكتابة ، وكانت المكاتبة بيني وبينه متصلة، وانني أنشر ما وجدت من مكتوباته في هذا الشأن لما فيها من الفائدة بل الفوائد ومن أهمها المه من سوء حال المسلمين الذي يعبر عنه في كل مناسبة

(الكتاب الاول من رمل الاسكندرية في ٥ أغسطس سنة ٩٠٢)

ولدنا العزيز

وصلني رقيمك وأرجو أن يصلني الآخر قبل غروب يوم الخميس إن شاء الله . إلى الآن لم أكتب شيئا، وقد أخذت القلم الآن لا كتب وإذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لافائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفر مني فرار الخير من أيدي المسلمين . ربما جئت إلى مصر يوم الخميس ان لم يطرأ مايحملني على الذهاب إلى رشيد والسلام (محمد عبده)

﴿ الكتاب الثاني من الرمل في ٦ أغسطس ﴾

كتبت اليوم وختمت المقال فيما يتعلق بمذهب المتكلمين ورأي الفلاسفة ـ والناس جلوس يتكلمون ، وأريد مراجعته صباح الغد إذ لا يمكنني مراجعته وهم جالسون وهم لايفارقونني إلى وقت النوم .

لم أر فرحا إلى الآن ، ولا أدري هل أراه غداً ..؟ كما لا أدري هل ينبغي أن تنشر المقال قبل أن يرسل اليه ؟ وعلى كل حال فلا بد من نقله بخط آخر ولا يكون إلا خطك . وأظن اني أكون بمصر مساء الغد إن شاء الله ، فلتكن عندي بعين شمس صباح الجمعة بعد أن تسأل بالتليفون والسلام محمد عبده

فعلم من هذين الكتابين انه كتب ذلك المبحث الدقيق في الفلسفة وعلم

الكلام في يوم واحد بمكان لا كتب فيه يراجعها، وهو في شغل شاغل من وفود الناس عنده . وهذا مصداق ماقاله لي سعد باشا زغلول بمناسبة استيائه من أناس قطعوا عليه طريق اتصال الفكر في موضوع كان يكتبه . قل فاضطررت عند الفراغ إلى اعادة الفكرة فيما كنت اكتب من أوله . (قال) وكان لشيخنا رحمه الله من قوة الفكر مايمكنه من الكتابة او الكلام في أي موضوع كان مع سماعه لكلام الناس ومشاركته لهم فيه ، ولا يصعب عليه العود إليه بعد قطعه عليه . وسيرى القاريء مصداق هذا فيما يأتي قريبا

ثم جاء القاهرة وكان قد أتم القسم الاول من الرد الخاص بمسألة ابن رشد ، فنسخته بخطي وأرسلت ما كتبته إلى فرح افندي وكتبت اليه بأن الاستاذ الامام استحسن أن ينشره كل منا في وقت واحد (ولكن فرحا امتنع من النشر كما سنذكره) ثم سافر الاستاذ إلى الدقهلية لاجل مسألة إعانة المنكوبين في ميت غمر وكان شرع في كتابة القسم الثاني من الرد واعطانيه وهو المقابلة بين الاسلام والنصرانية في العلم والمدنية ، والتسامح مع العلم والفلسفة ، لاجل أن يكتب في القطار وحيث يكون ضيفا من كل بلد ، وأذكر بعض مكتوباته الخاصة في ذلك

(الكتاب الثالث من السنبلاوين في أول سبتمبر سنة ١٩٠٢)

ولدنا الفاضل

السلام عليكم . رأيت ما كتب في المقطم وهو حسن . حافظ يروج المنار وينجح إن شاء الله (١) . تذكرت اني نسيت في قسم المسيحية أن أذكر عند الكلام في البروتستانت ورأيهم في الفلسفة وحكاية ما كان يقوله (ولتير) في (ارسطو)هذه العبارة « وكان علماء السنة يسمون أرسطو المعلم الاول » فان كنت لم تطبع الى الآن سب ولتير لارسطو فأضف هذه العبارة بعد ذلك السب . وان كان قد انتهى طبعه فاختر لذلك موضعاً في آخر الكلام على رأي المسلمين في الفلسفة قبل

(١) يعني محمد حافظ ابراهيم بك ، وكان مرافقاً له في ذلك السفر ، ويرغب الناس في قراءة المنار

تبسم الاسلام من الاديب الذي رماه بضيق الصدر على غير ذنب

الى الآن لم أكتب ولا كلمة في الموضوع لأني في شغل شاغل من هؤلاء الناس المرزوئين في عقولهم أولا ، وفي بيوتهم ثانياً . وربما فرغت بعد يومين والسلام

محمد عبده

(الكتاب الرابع من المنصورة في ٤ سبتمبر)

ولدنا العزيز

أنا اليوم في المنصورة وربما فارقتها إلى عين المنزلة من طريق النيل طلباً لراحة الفكر ، وهربا من جو البلدان في فساده . وقد يخطر ببالي أن أرجع إلى القاهرة لأهرب في عين شمس ، ولا أدري مايفعل الله بي من اليوم إلى الغد

أصبحت وقد عوقبت عقوبة من يكل أمره إلى غيره على ضعف ثقته بالناس كافة إلا من اختار لنفسه ، بحثت في محفظتي عن تتمة ماعندك من المقال المعروف وهي تلك البقية التي استبقيتها لأصل بها ما يتبعها فلم أجدها ، ولا أرتاب في أن الكاتب الذي كان يحمل الحفظة أخذها في أوراقه مع أوراق توزيع نقود المحروقين . فكدرني ذلك غاية الكدر لأني لا أعلم من أي موضع يبتدىء ما كان فيها ، وأرجو أن لا يكون الكاتب قد أضاعها ، أما نهايتها فاني أتذكرها ، ويمكنني أن أبتدىء مما بعدها ، ولكن كيف يملأ الفراغ بين ماسأكتب وبين ما عندك إن كانت الورقة قد ضاعت ؟

(ثم عهد إلي أن أذهب الى ديوان الاوقاف وأسأل عن ذلك الكاتب وأفتش الورق الذي معه وأرسل اليه الورقة إن وجدتها كما يعتقد . وفي هذا الكتاب مصداق لكلمة سعد باشا فيه فهو يتذكر ما انتهى اليه من الكتابة بعد أيام ، ويمكنه أن يصل به ما يكتبه بعد من الكلام)

(الكتاب الخامس منها في ٦ سبتمبر وهو مرجوع كتاب مني اليه)

ولدنا العزيز

وصل رقيمك ، كنت أحب أن يكون اللفظ «علماء أهل السنة» بدل علماء

المسلمين(١) لما تعلم من الفرق ورنة الاسم في آذان المخدوعين ، لم أبحث عن الورقة الضائعة ولا أظن أنها في المحفظة فان لم تكن عند أحد الكاتبين فقد نسيتها في البيت وعلى كل حال فالكتابة في هذا السفر ضرب من المحال ، نعوذ بالله من عطلة كالتي أنا فيها(٢) ولكن المدة قصيرة وأرى في الراحة شيئا من الفائدة ، ولا أراك تحتاج الى التتمة قبل رجوعي إلى حيث يمكن العمل ، فان المقال الباقي لا ينشر مرة واحدة فيما أظن (ثم تكلم عن عودته وتقدير مكثه وختم كتابه بقوله) أحب أن أعرف أثر المقال في أنفس من تعرف من المسيحيين او المسلمين والسلام عليكم

(الكتاب السادس منها في ١١ سبتمبر)

وهو مرجوع كتاب مني اليه ذكرت له فيه ان أدباء المسيحيين معجبون بأدب المقال ونزاهته ، وإن كانوا يألمون من موضوعه ، وان المؤيد شرع في نشره نقلا عن المنار ولكنه لم يعزه اليه ، وكنت كلفت مسعود افندي وحافظ افندي عوض نشره من قبل فلم يفعلا ، وذكرت له بمناسبة ما ذكره من ترويج حافظ (بك) ابراهيم للمنار بطء الاشتراك فيه . فبين رأيه في كل ذلك وهذا نص كتابه :

ولدنا العزيز

وصلني رقيمك أمس في المنصورة وانا اليوم فيها وربما وصلت إلى مصر مساء يوم الاحد وأصبح في عين شمس إن شاء الله تعالى صباح يوم الاثنين . والذي كنت أحب ان أعرفه هو مايجد المسيحيون في المقال من حسن التأدب، وكنت أخاف ان يكون بدر مني مايؤخذ عليّ فيه من هذه الناحية . أما تألمهم من الحق فذلك مما لايصح ان أشك فيه ، لان الباطل اذا لم يألم من منظر الحق فمم يألم؟ (٣) وجدت بعض اللحن في المقالة وقد أصلحته في النسخة التي وردت إلي وأتذكر الآن اني وضعتها في الشنطة . ولو وجدت حيث انا صمغا او نشاء لبعثت بها

(١) يعنى الذين لقبوا أرسطو بالمعلم الاول ، وقد غلطت أنا في استبدال الثاني بالاول الذي كتبه هو (٢) يعنى عطلته من الاشتغال بالعلم والكتابة مع عمل البر والاحسان الذي سافر لاجله وهو مساعدة منكوبى الحريق (٣) هذه العبارة مما لم يكن يأذن في نشره عنه في حياته

اليك ، ولكن أحب ان تنتظر بالملزمة الثانية حتى احضر يوم الاثنين إن شاء الله تعالى . واتذكر الآن من الخطأ (وهبهم الله إياها) والصواب منحهم، لان وهب لم يرد في القرآن إلا متعديا باللام ولا أحب ان اخالفه ولو إلى صحيح .

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لايستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لايضعف الامل ، في نجاح العمل. والسلام محمد عبده

وفيه الحاشية الآتية

لاتعجب مما يصنع عمال المؤيد فالذي أظنه ولا اخاله إلا صحيحا هو انهم انتظروا بالنشر ورود خبر من الشيخ علي ولذلك لم يحصل النشر إلا بعد ورود البوسطة من اوربا ولا أستبعد ان يكون الشيخ أوصاهم بنشر المقال بدون ذكر مغرسه الاول إرضاء لمحمد رشيد (١) وخوفا من احفاظه لو علم ان المؤيد ينقل عن المنار . وحجة الشيخ علي في ذلك ان عـدوه المخنث واقف له بالمرصاد فاذا رأى كلة طار بها إلى سيده واتخذها وسيلة إلى الطعن في الشيخ ، فان شئت عذرت العمال وعذرت الشيخ أيضاً ، ونحن لانريد إلا النشر وليست نسبة المنشور مما يهم اغفاله ، فدعهم وما يعملون والسلام محمد

﴿ نشر المقالات وتأثيرها ورد الجامعة وردنا عليها ﴾

لما عاد الاستاذ من الاسكندرية اتفقنا على انه يحسن ان أنسخ المقال بخطي وأرسل ماأنسخه إلى فرح افندى وان ننشره معاً في شهر واحد ففعلت ، ولكن فرح افندى امتنع من نشر المقال في مجلته ، وكتب في غلاف الجزء الذي صدر بعد إرسالها اليه ما معناه على ما أذكر انها لما وصلت اليه وضع رأسه بين يديه ، وغرق في بحر من الافكار والتصورات ، وعزم على الرد على الاستاذ الامام ، والدخول معه في مناظرة تصور انه يطير بها صيته وصيت مجلته في الانام، فكتب

(١) يعني سمو الخديو

أولا مقالة رد بها رداً إجمالياً ختمه بالطعن على صاحب المنار ورميه بالجهل وعدم فهم هذه الموضوعات الكلامية والفلسفية التي فاق هو أهلها فيها بزعمه ووهمه

شرعت في نشر المقالات في المنار، فكان لها تأثير عظيم في هذه البلاد وفي سائر الامصار، وتناقلتها الجرائد العربية في الاقطار، وفي مقدمتها جريدة المؤيد بمصر . وممن التزم نقلها برمتها من أدباء النصارى الاحرار (نعوم افندى لبكي) صاحب جريدة المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو - البرازيل)

واما فرح افندى فانه بعد أن كتب مقالة الجامعة انقطع عن كل عمل سوى الرد فألف فيه كتابا مستقلا سماه (فلسفة ابن رشد) ولكن خاب ظنه فيما كان يرجو من الفوائد العظيمة وسعة انتشار مجلته في مصر وسائر العالم العربي، كما خاب ظن بشارة باشا تقلا صاحب الاهرام، في تصديه للدفاع عن هانوتو والرد على الاستاذ الامام، ولكن هذا لم يتورط في الخوض في عقائد الاسلام وفلسفتها مثله

ولما كان رده هذا مشتملا على الكلام في العقائد الاسلامية بالباطل شرعت في الرد عليه في باب الدفاع عن الاسلام من المنار، والظاهر أن هذا الرد قد حمل كثيراً من المسلمين المشتركين في مجلته على ردها اليه وهذا مالم أكن أقصده ولم يخطر لي ببال، ولكن بعض الناس لايزالون يقولون ويكتبون ان الجامعة قتيلة المنار، وإنما قتلها تعرضها لما لايعنيها وما لاتفهمه من شؤون الاسلام، ولا يمكن أن تعيش صحيفة عربية في هذه البلاد إلا باقبال المسلمين عليها لانهم السواد الأعظم وهو مع هذا لم ير لكتابه تأثيراً وعجز عن استمرار اصدار الجامعة لينتقم بها على حين كان يزعم ان اقبال الناس عليها قد تضاعف وانه انشأ لها مطبعة كبيرة وانه سيزيد مايطبعه من الالوف من نسخها ألفا أخرى ليفي بما يتجدد كل يوم من طلب الاشتراك فيها (وكان هذا في جزء دسمبر سنة ١٩٠٢) ولم تصدر بعده

الوقيعة بين الولد وأبيه والمريد وأستاذه

لما شعر فرح افندي بجنايته على نفسه، ورأى عاقبة عمله، وخيبة أمله، أراد أن يستعيد احترام المسلمين لمجلته بعودة الامام، وينتقم لها من صاحب المنار، فكتب أولا كتابا خاصا إلى الاستاذ الامام ذكر فيه ميله إلى الجامعة ورضاه عنها

وان الشيخ رشيد رضا يحسده فيطعن له فيه ويبغضه اليه .. فلما قرأ هذا الكتاب سقط فرح افندي من عينه ، وزال كل ما كان له من القيمة في نفسه ، وعجب من البون الشاسع بيني وبينه ، أمدحه ويذمني ، وأوصي به ويصدعني ، ويرميني بضد ما أنا عليه بمحض سوء الظن ، وتصديق خواطر السوء ، وقد أعطاني الاستاذ ذلك الكتاب ، فخجلت من ظهور خطأ رأيي عنده وغروري بالرجل

(الكتاب المفتوح ، والادب المفضوح)

ثم لما رأى الرجل أن كتابه المختوم لم يغن عنه شيئاً ارسل إلى الاستاذ الامام رسالة طويلة مطبوعة في ١٦ صفحة عنوانها (كتاب مفتوح من ادارة مجلة الجامعة إلى فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده في مصر القاهرة) افتتح هذا الكتاب بقوله للاستاذ « في شخصكم شخصان » وبينهما بان الاول هو القابض على سلطة الافتاء وهذا الشخص يحترمه ـ وان الثاني « كرجل من علماء الشرق كتب ردوداً طويلة على مجلة الجامعة » وانه يوجه هذا الكتاب إلى شخصه الثاني لا إلى الاول ، وملخص هذا انه يحترم منصبه الرسمي لا شخصه العلمي الممتاز . وقد علم القراء قيمة هذا المنصب عند الاستاذ الامام مما تقدم في عمله في الافتاء ، بل علم جماهير العارفين ان شخصه كان فوق منصبه ، وان شرف المنصب ولم يشرف به .

ثم ذكر ما كان من ميل الاستاذ إلى الجامعة وتنشيطها ، وما كتبه في مقدمة الرد من الثناء عليها ، الدال على انه لم يقصد بالرد عليها الغض من كرامتها . وقفى على ذلك بقوله :

« ولكن من سوء الحظ ان صاحب مجلة المنار الشيخ رشيد رضا الطرابلسي تابعكم شاء وداد كم للجامعة فلم يدخر وسعاً في إلقاء الفتنة بينكم وبينها ، ولذلك كان يعهد لردودكم ويذيلها بأقوال وأكاذيب فيها عدوان على الجامعة واهانة لها ، لاسباب منها الحسد وضعف الاخلاق . فالجامعة لم تعبأ باهاناته وأكاذيبه وعدوانه لأنه أظهر انه من الذي يجب ان لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إلى كلامهم ، إلا متى وجب الالتفات إلى هذيان البله والحمق والبلداء الذي لا يروي غليلهم إلا شتم الناس والتطاول عليهم » اه بحروفه

ثم ذكر انه قد شغل عن هذا الالتفات الذي لا يليق بادبه وحكمته إلى تأليف كتاب (ابن رشــد وفلسفته) الضخم الذي بلغت صفحاته ٢٣٥ صفحة وذكر سبب تدخل الجامعة في هذه المواضيع وبالغ في دعوى إعجاب الناس بكتابه وفي احتقارهم لصاحب المنار، وما كتبه اليه بعض فضلاء المسلمين من الطعن في مجلة المنار وجنايتها على الاسلام والمسلمين بمتاجرتها بالدين، وبراءة عقلاء المسلمين منها، وكون صاحبها هو الذي انفرد وحده بالاستياء من هذا الكتاب !!! ثم قال :

[ولذلك ماكنا لنعبأ به ونكتب اليكم هذا الكتاب بشأنه لولا مايشيعه بلسانه وقلمه فانه يقول ان لكم يداً في الاقذار التي ملأ بها مجلته طعنا على الجامعة وشتما لمنشئها] وقال انه لايصدق ذلك ولو رأى خط الاستاذ في تصحيح مسوداتهـا لأنه أعطى قلبـه للجامعة وصاحبها فلا يرجع فيه . بل قال انه ينحي كلام المنار بطرف نعله ، ثم قال (في ص٧) مانصه :

[وهنا نستأذنكم بابداء ملاحظة مختصة بهذا الموضوع ، فان تابعكم الشيخ رشيد الطرابلسي صاحب المنار لايجني بتهوره وحمقه على نفسه وعلى قومه فقط . بل هو يجني أيضاً على منصبكم السامي منصب الافتاء الكريم . فانه كل ما (كذا) نشر ذما وطعنا في أحد أكابر الناس الذين لاتعجبه آراؤهم وأعمالهم يقول لبعض اخصائه « إن الاستاذ المفتي راض عن هذا » أو « هو الذي أوحى إلي هـذا الفكر » وهناك على ذلك أمثلة كثيرة نذكرها عسى ان يكون فيها فائدة وتنبيه لكم ولتابعكم فتدفعون هذا الضرر عنكم وعن عباد الله الذين نحن من جملتهم]

وأول ماذكره من هذه الامثلة ماتقدم لنا ذكره بالتفصيل في صفحة ٥٨٣ وهو مانشر في المنار في الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي باشا ملك مصر الجديد ، من مقالة المنار ومقالة الاستاذ الامام نفسه ، وقفى على ذكرها بقوله [فبعد انتشار هاتين المقالتين صار تابعكم الشيخ رشيد رضا الطرابلسي يشير إلى بعض تلك الاخصاء ان تلك الآراء منكم ، فانتشر هذا الخبر وصار الناس يتساءلون : مابين الجناب الخديو وفضيلة المفتي لينشر المنار في محمد علي باشا مثل تلك المقالات ؟]

كتب فرح افندي أنطون هذا لانه كان في معزل من معرفة ما كان يعرفه جميع خواص المصريين وكثير من عوامهم وجميع أرباب الصحف في هذا القطر من أمر الشقاق بين الخديو والمفتي. ثم ذكر ان المنار أنكر حضور الامراء الرقص الافرنجي تعريضاً بالخديو ، وأنكر تصفيق الناس لسموه في حفلة افتتاح بعض المساجد وقال إن التصفيق في المساجد من أعمال الجاهلية ، وأنكر على أمراء المسلمين وملوكهم عدم الحج ، تعريضاً بالخديو ! وفاته ما هو أعظم من ذلك وأصرح وأهم عند الخديو وهو ماتقدم ذكره في هذا التاريخ ، ولو عرفه لكان غنيا عن افتراء الوشايات

ثم أذكر ان المنار يروم ان يحارب يلدز وعابدين معاً ويقول صاحبه لاي كان انه لايعترف للسلطان بالخلافة ، وقلما خلا عدد من أعداد مجلته من الطعن على رجال الدولة [وأخصهم سماحة ابي الهدى افندى] ويلصق بالمفتي تهمة مقاومة شيخ الازهر كما يعرض به بقوله في مجلته [هذا هو الاستاذ الامام ولا أستاذ امام بمصر غيره] وذكر انه يتهكم بشيخ الازهر بلسانه قال [ولكنه من حسن الحظ ليس له جرأة على أن يكتب بقلمه في مجلته كل ما يقوله بلسانه لان ذلك يقتضي قلباً غير القلب الذي بين جنبيه] ! ! ولو كان يقرأ كل ما كتب في المنار ومنه الانتقاد الصريح على شيخ الازهر لما كتب هذا ولما احتاج إلى التقول على صاحبه

ثم قال (في صفحة ١٠) بعد أن بين ضرر خطة المنار بالمفتي مانصه :

[ونحن لانجهل انكم تقولون مالي والمنار فانه لاعلاقة لي بصاحبه إلا كعلاقتي برجل يتردد على منزلي ويقف في بابي ـ فنجيب أننا نعلم ان لفضيلتكم علاقة بتابعكم المذكور من عدة وجوه] وفسر هذه الوجوه بالمساعدة المالية والادبية قال [حتى صار معروفا في مصر من دعاكم إلى مأدبة فقد دعا تابعكم]

ثم ذكر رد المنار على الجامعة وذكر انه نفعها من حيث أراد أن يضرها حتى انه لو علم بمقدار هذا النفع « يعض أنامله ندما » ومنه انه كثرت مجاملة كرام المصريين لها ، وتدفق عليها سيل الدراهم والدنانير بكثرة طلب الاشتراك « مع الدفع مقدما عن سنة وعن سنتين » إلى آخر ما قاله وكان تأويله ان الجامعة ماتت ولم تصدر بعد ذلك ، ووالله لم نكن نقصد إلى هذا ولا نفكر فيه

ثم ذكر عبارة أدل على عقله وأدبه من كل ماذكر إذ خاطب الاستاذ الامام بقوله في ص ١٤ بما نصه :

[ولما رأى تابعكم صاحب المنار ان حيلته لم تنطل على أحد من قرائه في دعواه على الجامعة عدل إلى قول آخر فصار يقول ان صاحب الجامعة ليس بغني ، ونعم أيها الرصيف الحسن الذوق العاطر الاخلاق ان صاحب الجامعة مثلك ليس بغني ، وإن كان ينفق في كل شهر على كل جزء من الجامعة أربعين جنيها أي مايكفي لنفقات مجلة المنار طول السنة ، ولكن سامحك الله لماذا لم تتقدم معرفتك به سبع أو ثماني سنوات(١) فانك لو فعلت ذلك لصادفته يومئذ في حالة ترضيك ، ولما كنت يا سليم الذوق تعيره يومئذ بعدم الغنى لان كثيرين مثلك كانوا يترددون إلى منزل أبيه كما تتردد النسور إلى محل الفرائس] ! !

وقفى على هذا بأنه مستعد لارسال أوراق مالية بألفي جنيه أو ثلاثة آلاف مما مات لابيه إلى صاحب المنار ليحصلها «بسيف فضيلة المفتي»!!

وفي الخاتمة من ص ١٥ و ١٦ اقترح على الاستاذ ثلاثة اقتراحات (١) تحكيم رجلين فاضلين عادلين من رجال الازهر ليكونا حكما في هذه المسألة (٢) أن يكذب ما يشيعه صاحب المنار عنه من أن ماينشره عن الجامعة هو بايعاز منه(٣) أن يترك تابعه صاحب المنار التعرض للجامعة بعد الآن ، وأنذره بانه إذا لم يجبه إلى أحد هذه الاقتراحات [فالجامعة تتحقق عند ذلك صحة الاشاعة التي يشيعها تابعكم وحينئذ تضطر كلما صدر جزء من المنار وفيه تحككك بها أن ترفع إليكم كتابا مفتوحا كهذا الكتاب فتشكوه إليكم ، وتوقف جمهور العقلاء بالتفصيل على افترائه واعتدائه تحت حمايتكم ، وغني عن البيان أن هذه المسالة لاتقف يومئذ عند حدودها الحالية] يعني انها تكون خطرا على المفتي باظهاره للخديو ان المنار يكتب بايعازه !!!

وأرسل إلى الاستاذ مع هذا الكتاب المفتوح المطبوع كتابا خطياً ذكر فيه انه إذا لم يكف المنار عن الرد عليه فانه ينشر على الناس مائة الف نسخة من هذا الكتاب

ولم يكتف فرح افندي بهذا بل توسط خليل باشا حمادة الشهير بأن يكلم

(١) انني كنت اعرفه في هذه المدة ومن قبلها كما تقدم في التمهيد لهذا البحث

الاستاذ الامام فيما جناه صاحب المنار على الجامعة بردوده عليها، وانه يعلم انه لا يستطيع أحد أن يسكته غيره، وانه يتمنى هو أن يحافظ بعد ذلك على مودة الاستاذ وعطفه . وقد حضر خليل باشا من الاسكندرية وتكلمنا في المسألة وأجمعنا نحن الثلاثة على أن من يكتب مثل هذا الكتاب ويفتري هذا الافتراء الجنوني البذيء لا يجوز أن يرد عليه، ولا أن يخاطب أو يذكر بلسان ولا قلم . وهكذا فعلنا

ولكن فرح افندي عاد يتوسل إلى الاستاذ الامام أن يعود إلى الصلة به ويعاتبه على احتقاره له فكتب اليه الاستاذ ما نصه وهو فصل الخطاب، الذي ليس بعده قول ولا كتاب

إلى صاحب الجامعة

لو احتقرتك ما كتبت اليك كلمة، وانك تسيء الظن بنفسك أكثر مما يسيئه بك غيرك . وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم . ولكن : اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا، فذلك اللهم أنفس ما تعطي، وأفضل ما تهب . والسلام م؟

اعتذار للقراء

اني لخصت هذه المسألة لان بعض الادباء لا يزالون يظنون انني كنت مسيئا لهذا الرجل كما سمعوا منه او عنه، ولانها من أشد ما ابتلي به الاستاذ الامام من إساءة من أحسن اليهم من الناس، وطاحت بثقته منهم كلهم إلا من اصطفى لنفسه كما تقدم آنفا في أحد كتبه إلي من هذا السياق، ولم يكن يجهل أحد يعرفنا أنني كنت أوثق هؤلاء المصطفين عنده، الا صاحب الجامعة الذي خسر بأوهامه العصبية وطاعة قلمه لها من صداقتنا له مالا عوض عنه . وخسر في اثرها مجلته، واضطر إلى كسب رزقه بالاشتغال بالروايات التمثيلية، ولو لم يكن فيما ذكرنا من الفائدة إلا نشر هذا الجواب الحكيم لكفى، وقد كان عاتبه بعض أصدقائه على ما كان من انخداعه بهذا الرجل وعلى الثناء عليه حتى في مقام الرد عليه قبل أن يظهر هذا منه ـ ومنهم صديقه الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ـ فأجابه بقوله « لا خسارة في حسن الادب »

الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه

﴿ من طريق التاليف والتقريب بينه وبين أهل الكتاب، وهو خاتمة هذا المقصد ﴾

تمهيد في ذكر شيء عن ميرزا باقر

لما كان المجددان الكبيران — حكيم الشرق والاسلام السيد جمال الدين والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — في باريس يصدران جريدة العروة الوثقى أرسل اليهما بطاقة الاستئذان رجل اسمه ميرزا محمد باقر قال انه يعرف السيد معرفة شخصية ، قال السيد: أنا لا أعرف رجلا بهذا الاسم وأذن له، فدخل فاذا هو رجل قد عرفه في ثغر (بوشير) في الخليج الفارسي إذ جاءه السيد مع جماعة من الافغان في طريقهم الى الحجاز ، وكان اسمه ميرزا يوحنا ، وهو ايراني تنصر وصار داعية للنصرانية هنالك مع جمعية المبشرين ، وقد دعا السيد ورفاقه إلى النصرانية فطفق السيد يجادله فبدرت منه كلمة طعن في النبي ﷺ فأمر السيد من معه من الافغانيين بضربه فضربوه حتى خرج يزحف على استه كما حدث السيد عنه مراراً، ثم عرفوا بيته فأرادوا إحراقه عليه فحيل بينهم وبين ذلك ثم سافروا

فلما دخل على السيد في باريس عرفه وبادر هو إلى ذكر ما كان من أمر تنصره ثم عودته إلى الاسلام ورجوعه إلى لقبه الاول (باقر) وكان يعرف أيضاً باسم ابراهيم جان المعطر — وأخبر السيد بانه كفّر عن ذنبه الاول فصار داعية للاسلام ، وعرض عليه استعداده لخدمته في إدارة العروة الوثقى فكان يترجم لها ما يهمه من الجرائد الانكليزية . ولما ذهب الاستاذ الامام الى لوندرة للسعي لدى ساستها ومحادثتهم في مسألة مصر والسودان كان ميرزا باقر هو المترجم بينه وبين كبار رجال الانكليز الذين قابلهم وتكلم معهم ، وكان يفترص هذه الاحاديث لدعوتهم الى الاسلام فيقول له الاستاذ الامام دع هذا الآن إلى أن نفرغ مما نحن فيه

وقد مدح بعض كبراء الهند ملكة الانكليز بقصيدة بليغة باللغة الاوردية أو الفارسية فلما ترجمت لها معانيها أمرت بأن تترجم باللغة الانكليزية نظما فلم يوجد

في لندن من قدر على ذلك بلغة الشعر الانكليزي البليغة غير ميرزا باقر لانه كان متقنا للغتين كل الاتقان ، وقد امرت الملكة للمترجم بخمسمائة جنيه فردها وقال انه يطلب لها جائزة واحدة هي دخول الملكة في الاسلام !!

هكذا كان يدعو الى الاسلام ويلوح لي أن الاستاذ الامام أقنعه بان هذا الاسلوب في الدعوة منفر للانكليز ، وان الاسلوب الذي يرجى نجاحه هو ما ألفت له الجمعية التي هي موضوع كلامنا في خاتمة هذا المقصد

وأزيد القراء بيانا عن ميرزا باقر هذا فأقول انه كان آية من الآيات في الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الاستحضار والاستنباط – تلك المزايا التي قلما تجتمع لفرد من الافراد إلا في القرون كالسيد جمال الدين في المتاخرين وأشهر رجالها في التاريخ الاسلامي شيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية

كاد يكون حافظا لكتابي العهدين : العتيق والجديد ، فاذا تكلم في موضوع من أمور الديانة النصرانية أو اليهودية طفق يسرد الشواهد المتعددة من تلك الكتب بسرعة غريبة وان كانت كثيرة ويبين معانيها وما له من الاجتهاد والرأي فيها وترجيحه على غيره

وكان كذلك يستحضر آيات القرآن . وقد عني بجمعه على ترتيب النزول لا ليقرأ ويتعبد به بهذا الترتيب ، بل للاستعانة به على الفهم والاستنباط والعمل ، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث على أصول الاسلام التي يدعو اليها ويعمل بها ، وكان له شذوذ في ذلك غريب أخبرني الاستاذ الشيخ توفيق الايوبي أنه حاجه في بيروت في تفنيد ما ارتآه من جواز غسل اليدين إلى الرسغين في الوضوء محتجا بان النبي ﷺ انما علم العرب غسل اليدين الى المرفقين لانهم كانوا يكشفون سواعدهم فتكون عرضة لاتساخها أو لوقوع الغبار عليها . قال له الايوبي تعال نتحاكم الى الشيخ محمد عبده ، قال رضيت فأتيا الشيخ فقال لميرزا باقر : ألست تلتزم الاحتجاج بعبارة القرآن وتعتمد في معناها على تفسير معاجم اللغة ؟ قال نعم ، قال فان القرآن جعل غاية غسل اليدين في الوضوء المرفقين فان أتيتنا بنص من كتب اللغة يطلق لفظ المرفق على الرسغ عذرناك وإلا وجب عليك التزام حد القرآن في غسل اليدين ، فاقتنع ورجع

ومن مزاياه أنه كان من أقدر العلماء على اقناع الملاحدة بالدين الاسلامي ، وكان ممن أرجعهم اليه بعد الارتياب فيه احمد مدحت افندي العالم الكاتب التركي الشهير صاحب مجلة (ترجمان حقيقت) وكان قد اشتهر بالالحاد ، حتى ان السلطان عبدالحميد قد استغرب رجوعه إلى الاسلام ، ذلك ان السلطان أمر بتأليف لجنة من كبار أهل الرأي ليستشيرهم في مسألة اعفاء السادة الاشراف من الخدمة العسكرية وكان من أعضائها احمد مدحت افندي هذا فلما جاء دوره في الكلام قال ان النبي ﷺ وأهل بيته كانوا يكونون في طلائع المجاهدين في سبيل الله ، وان وجود هذه الذرية المباركة في الجيش الاسلامي قدوة وبركة يرجى به النصر له ! فالتفت اليه السلطان قائلا : أنت إذاً مسلم يا احمد ؟ فخجل خجلا شديداً لانه لم يكن يعلم ان السلطان قد بلغه خبر إلحاده ، وهل كان يخفى على عبدالحميد حال رجل من أشهر الكتاب في عاصمته ؟ وماذا يفعل إذاً جيوش جواسيسه ؟

حدث احمد مدحت افندي أستاذنا الشيخ حسينا الجسر بهذه الحكاية ، وقال له اني كنت قد ارتبت في ديني بشبهات كثيرة علمية وتاريخية ثم سافرت إلى بغداد فلقيت فيها عالما إيرانياً اسمه ميرزا باقر وقع بيني وبينه مناظرات كثيرة في هذه المسائل وغيرها أزالت من نفسي كل ما كان علق بها من الشبهات والشكوك ، واطمأننت بحقية الاسلام كل الاطمئنان .

جمعية التأليف والتقريب

عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الانكليز المستقلي الفكر المحبين لحرية البحث في الدين . ولما وجد هو والاستاذ الامام في بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتمعا فيها بالاستاذ بيرزاده وعارف أبي تراب تابع السيد الافغاني وبجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت الشهير وكان شابا ذكيا مغرما بالامور العامة من سياسية ودينية واجتماعية وألفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الاديان السماوية الثلاثة وازالة الشقاق من بين أهلها ، والتعاون على إزالة ضغط أوربة عن الشرقيين ولا سيما المسلمين منهم ، وتعريف

الافرنج بحقيقة الاسلام وحقيته من أقرب الطرق ، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في الآستانة وبعض الانكليز واليهود ، وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندره القس اسحق طيلر بل كان هو داعيتها هنالك ، ومن رجال الحكومة (جي دبليو لينتر) مفتش المدارس في الهند، وكان الاستاذ الامام صاحب الرأي الاول في موضوعها ونظامها ، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها،

وانني ألخص هنا بعض ما نشر من آثارها

(شهادة المفتش الانكليزي المشار اليه آنفا لمسلمي الهند ومكاتبهم ومدارسهم)

(وسعيه لانصاف دولته لهم والعناية بدينهم)

نشرت جريدة الدالي تلغراف من جرائد لندن الشهيرة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ مقالة لهذا المفتش عنوانها (الاسلام والمدارس المحمدية) ذكر في أولها انه أتيح له تعلم العربية والقرآن في مكتب اسلامي بالاستانة قبل حرب القريم وانه فتش مئات من المدارس المحمدية في الهند ووصلت اليه ألوف من الاخبار عن مدارس أخرى — فهو بهذه المؤهلات يشهد بأن ما أشيع عن المكاتب الاسلامية انها «مغارات الاثم» بهتان لا يصح أبدا ، فان الاجتماعات المنزلية (العائلية) والعلمية والرسائل الدينية والاخلاقية التي أوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سياج للآداب حافظ لها .

وذكر ان هنالك مكتباً يعلم فيه البنون والبنات التعليم الابتدائي لم يسمع انه وقع فيه أدنى حادثة تنافي الآداب . وان بعض الصبيان رموا مرة بعض أولاد النصارى بالحجارة فعاقب امام الجامع الجاني منهم فلم يعد أحد بعد ذلك الى مثل هذا التعدي . ومدح سلوك شبان الاشراف من المسلمين . والتعليم الديني في جميع مكاتبهم ، وذم مكاتب الدولة (الانكليزية) بعدم تعليم الدين الاسلامي فيها وخطأها في ابطال المدارس الوطنية . ثم قال :

أما السؤال الاوسع عن الفرق بين المسيحية والاسلام وكونهما آلة لنشر

التمدن فسامحوني أن ألاحظ ان من لا يعرف اللسان العربي لا يقدر أن يبحث أو يرى ان تعلق اصول الدين الاسلامي أشد وأربط بقلوب المعتقدين به في معيشتهم اليومية مما هو للنصرانية لسوء حظها ، واذ كان الامر كذلك فلا حجة عندنا في معاشرتنا للمسلمين بأن نترك الكلمة السواء بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الامتين .

المسلمون يعتقدون أن اليهود والنصارى هم أهل الكتاب أي عندهم كتاب مقدس . الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام ربه معاهداً إياه انه مؤمن بهذه الكتب . القرآن يأمر بصيانة المساجد والصلوات والبيع التي يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهاد المؤمن ، ويسمي عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة ، مقبولتان عند المسلمين ، بمعنى لا يخالف العقائد المعتمدة عند الاحزاب العيسوية .

ثم قال : القواعد الاسلامية المتعلقة بالزواج تهيء للنساء وتهب لهن حقوقا شرعية أفضل مما ورثته نساء الانكليز حتى منذ اجراء قانون أموال المتزوجات في سنة ١٨٨٢

« الجنس اللطيف ليس موضوع الكلام بين المحمديين كما هو بين شبان النصارى ، والحجاب صيانة أعطيت لما هو ثمين وضعيف . الارملة المسلمة العفيفة مشهورة انها حامية التربية ، واحسان المسلمين لمواليهم واشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضاً الى الرب ، وانفاقهم في سبل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا اليهم من أن نصيح على «النبي الكاذب» وما أحسن عمل مبشرينا لو جاهدوا في التوفيق بين الاسلام والمسيحية توفيق أختين من أم واحدة »

ثم قال « الحرية الدينية ينبغي أن يكون معناها عدم العصبية في الدين الذي تجعل الشرقيين أن يعطوا حصة من خراج أرضهم لافضل المصالح عندهم ، وهو الدين ، وان كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الانكليزية فيجب علينا أن نهب لهم الدين والدنيا ، ونؤمن كما آمن أكبر شاه الهندي ان الملك والدين توأمان ، فكما ان كل دولة تخمد الافكار الدينية بين رعاياها لا يمكن لها أن تدوم ، هكذا كل دولة

لا تعامل عقائد رعاياها بالعدل والكرم السواء لا تقدر على النجاح

«اما الذي أنا مصر على توكيده فهو الاتحاد بين الاسلام والمسيحية ليس من جهة الدين فقط بل من جهة السياسة أيضاً

«مر زمان كان المسلم ينظر إلى الانكليزي كأنه الناصر الطبيعي للعالم الاسلامي من أجل موادته القديمة للعثمانيين ، الذين يعد سلطانهم خليفة المحمديين السنيين ، وأكثر أبناء وطننا من جنسهم . هذه الموادة يجب توطيدها . ومن جملة المساعي التي أؤكد الشروع فيها ادخال الشبان المسلمين (وكذا أولاد الرجوات الراجبوطية النبيلة) في مدارسنا الحربية على قصد استخدامهم مع تسوية الرتب والارتقاء بالمأمورين الاورباويين في عساكر الهند المستقبلة التي يجب اكثارها جداً . الخ

خطب اسحاق طيلر ومقالاته في الاسلام والنصرانية

وأما القسيس الكبير اسحاق طيلر فقد كان يلقي خطبا في لندن ويكتب مقالات في جرائدها بهذا الموضوع ، وكانت الجمعية في بيروت تترجم ماينشر منها بالعربية بقلم ميرزا باقر ويصحح ترجمتها الاستاذ الامام ، وتنشر في جريدة ثمرات الفنون الاسلامية في سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٨ م وبلغني أن جريدة المؤيد كانت تنقلها عنها وقد نشرت واحدة منها في المجلد الرابع من المنار بعنوان (المسلمون في افريقية) منقولة عن جريدة (البال مال غازيت) الانكليزية ألخص بعضها هنا وهو :

خطبة للقس اسحاق طيلر

قرأ القس اسحاق طيلر في خطبة له صحيفة بدأها بقوله : ان الاسلام من حيث هو دين دعوة وتبليغ قد نجح في قطعة عظيمة من العالم نجاحا يفوق نجاح الديانة المسيحية (تحير من السامعين) وان المسيحية تخنس بالفعل بين يدي الاسلام ، والمساعي المبذولة لتنصير الامم المسلمة ترجع إلى الخيبة رجوعا ظاهراً ،

ثم ذكر مساحة الاقطار والامم التي انتشر فيها الاسلام من افريقية وآسية وثباته فيها وكون الوثنيين الذين يدخلون فيه لا يرجعون عنه ولا يقبلون النصرانية لانه معقول عندهم دون المسيحية التي لا يعقلونها « لما نعلم من دقتها » — وذكر

كيف يهذبهم الاسلام بلبس الثياب والنظافة ، ويمنعهم من السكر والقمار والمراقص المخزية ، واختلاط النساء بالرجال ، والقتل والزنا ، وسائر المفاسد التي تنشرها التجارة الاوربية، ويحملهم على الحضارة الصحيحة

ثم قال « تلك أحوال يسوءنا مرآها وجهلها حماقة ، فيجب علينا أن نعلم أن الدين الاسلامي لايناقض الديانة المسيحية بل يتفق معها، فانه صدى إيمان ابراهيم. والمسلمون يؤمنون بان أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول (ص) ولسيدنا عيسى مقام جليل في الاربعة »

ثم ذكر ان بعض رؤساء الكنيسة ابتدعوا في المسيحية موضوعات خيالية شركية كعبادة القديسين والملائكة والشهداء حتى جعلوا الوساخة من صفات القديسين، فجاء الاسلام فلسح هذه الاباطيل وأظهر الاحكام الاساسية للدين وهي توحيد الله وتعظيمه ،وبدل الانسانية بالرهبانية،وأرشد الناس إلى الاخوة الصحيحة، والحقائق الاساسية للطبيعة الانسانية ، وانه لا يحمل الانسان على التجرد من الروحانية المحضة ، كالتعاليم المسيحية ، وأطرى الاخوة الاسلامية وقوة رابطتها

وتكلم في تعدد الزوجات التي كانت فاشية في جميع الامم والملل بغير حد وتخفيف الاسلام لشرها وإقامته لكل امرأة قيما شرعياً فأنقذ البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية وهي أعظم شناعة من تعدد الزوجات في الاسلامية

(قال) « تعدد الزوجات على قواعده المنتظمة عند المسلمين أنجح تأثيراً في صيانة النساء عن الرذائل، وأخف ضرراً على الرجال من مخالطة امرأة واحدة لرجال كثيرين ، تلك لعنة البلاد المسيحية ولا وجود لها في بلاد الاسلام (أنظر وتأمل). الانكليز الذين يجوزون اختلاف رجال كثيرين إلى امرأة واحدة في المواخير (أي بيوت الفحش) لايليق بهم أن ينكروا على المسلمين الناكحين مثنى وثلاث ورباع ، فلنخرج الجذع الكبير من أعيننا قبل أن نهتم باخراج القذي من عيون اخواننا »

وختم كلامه بقوله « إن الاسلام قد نسخ السكر والقمار والبغاء ثلاث لعنات أهلكن البلاد المسيحية»

« الاسلام قريب جداً من المسيحية ، والمسلمون كأنهم مسيحيون ،فتعالوا

جنا نساعدهم على الكمال في دينهم ، لانسعى عبثاً لابطاله ، لعلنا نجد في الاسلام مسيحية ونجد محمداً ﷺ آخذاً بعضد المسيح في دينه (بشاشة من الحاضرين)»

***

أخبرني الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ان اسحاق طيلر هـذا لما أكثر في خطبه ومقالاته من مدح الاسلام والمسلمين لم يجد المبشرون وسيلة لاسكاته الا الاحتيال عليه لزيارة مصر فزارها فصاروا يطوفون به على الحانات والمواخير ويرونه حال المسلمين فيها حتى كف عن هذا الاطراء في المدح. ولكنه ظل يدافع عن الاسلام ويدعو الى التقريب والتأليف بين الديانتين وأهابهما بما هو دعوة الى الاسلام نفسه على طريقة الجمعية التي كانت تمده بالمعلومات

(المقالة الأولى للقس اسحق طيلر بعد زيارته لمصر)

نشرها في جريدة (سانت جيمس) من جرائد لندن في ١٨ ابريل سنة ١٨٨٨ بعنوان (الاسلام والمسلمون) وقد اقتصر فيها على أصل الموضوع وهو مدح الاسلام والرد على المطاعن التي يوردونها عليه والتقريب بينه وبين المسيحية والدفاع عن المسلمين أيضاً دون تصويرهم ممثلين للاسلام نفسه كما كان يقول من قبل

قال في أولها « اني ذهبت الى مصر أحد اقطار الاسلام ومقصدي الوحيد أن أطلع في ذلك المكان على الاحوال المجموعة في القرآن من الآداب والاخلاق والتقوى والمعرفة . وأعلم على قدر الامكان ماهي العقائد الحقيقية المتعلقة بالمسلمين ذوي التربية »

ثم ذكر أنه وجد المسلمين يتالمون مما يتهمهم به النصارى ويكفرونهم به مع تصريحهم لهم بايمانهم بالله وبما أنزل على جميع النبيين، وانه تعجب لما رآهم راضين بالبحث في عقائدهم والاعتراف بذنوبهم ، وأن احد علمائهم قال له تعالوا نبحث معكم عما نوافقكم وما نخالفكم فيه عسى أن لايكون اصلاح البين أمراً صعباً . واعترف له بأن المسلمين ابتدعوا في دينهم ما ليس في كتاب الله كما فعل النصارى. (وقال) فاذا نحن رجعنا إلى خالص تعليم نبينا ﷺ كما في كتاب الله ورجعتم إلى خالص

تعاليم عيسى عليه السلام وحواريه فلا نجد ما يفرق بيننا . ولكننا نعتقد أن تعاليم عيسى قد غشيتها الاباطيل منذ أيام قسطنطين الاول » وسيأتي زمان تترك فيه هذه البدع الفاسدة كلها ويبقى على الارض دين واحد يقدر كل انسان على قبوله »

ثم ذكر عبادة القبط في مصر لمريم وعكوفهم على التماثيل ورؤية المسلمين لذلك واستحالة تركهم لعقائدهم وعباداتهم لايثار هذه العبادة عليها أو قبول ما يدعوهم إليه المبشرون من العقائد المتناقضة وإن لهم الحق أن يأولوا كتب النصارى كما يشاءون، وأن يرفضوا العقائد النصرانية المخترعة كالاصول التسعة والثلاثين للكنيسة الانكليزية، واعتراف الكنيسة الوستمنسترية المثلثة الاسنان الخ

ثم ذكر خلاصة العقيدة والعبادة الاسلامية ومنها الفاتحة في الصلاة ودعاء القنوت وأدعية أخرى وقال انه يمكن أن يؤخذ كتاب صلاة من أدعية المسلمين يكون مقبولا في كل البلاد المسيحية . وقفى على ذلك ببيان أن كل عقيدة اسلامية قد وجد من الفرق المسيحية من أخذ بها ثم قال « ولا يمكن أن نرى أحداً من المسلمين قد تمسك بمفتريات وأباطيل كثيفة كالموجودة بين فلاحي جنوب ايطالية»

ثم تكلم في المقارنة بين الاسلام وفرق أهل الكتاب في النساء وفي الحروب المقدسة وفضل الاسلام فيها على ما قبله واستطرد إلى المقارنة بين المسلمين والقبط في مصر وقال ان تقدم القبط أقل . وان المسلمين يعترفون بانهم كسائر الشرقيين مقصرون فى اكتساب العلوم الجديدة على كونهم يفتخرون بالنهضة العلمية المضيئة التي كانت للعرب في دولهم . ثم ختم مقاله بقوله :

«ان شيخ مدرسة الازهر الذي مقامه كمقام الويس شنسلر في مدارسنا الكلية سأل وزير المعارف في مصر حديثا أن يهيء وسيلة لتربية الف ومائتين من تلامذة العلوم الالهية في الفنون الدنيوية . وسمعت من محمدي عالم كان مدرسا في إحدى مدارس الحكومة أنه ذات يوم أعلن في بعض الجرائد الوطنية ان له النية أن يعطي درساً لبعض تلامذة مدرسة الازهر وفي أسبوع واحد وصله أكثر من ستمائة طلب يستأذنونه مرسلوها بالدخول في الصف

قال « التعليم الانفع لهؤلاء التلامذه لعله معرفة التواريخ لكن الصعوبة في هذه هي عدم وجود كتب متينة صالحة تحكي عن الدينين بروح الانصاف والمحبة . سألت يوما تلميذاً من تلامذة الازهر هل قرأت كتب التواريخ ؟ قال نعم عندي كتاب لكني لا أحبه ، قلت له لماذا؟ أجاب لانه يتهضم نبيناً محمداً ﷺ بقوله الباطل انه كان مفتريا . ظهر أن الكتاب كان عمل بطرس بازلي وهب له من أحد المرسلين الامركانيين ، فلا عجب أنه لم يحبه . هل نحن نحب أن يهب المرسلون الاسلاميون كتباً لتلامذة مدارسنا الالهية مكتوب فيها أن مؤسس بنيان المسيحية كان مفتريا ؟

ثم قال « إني أترك لمقالتي الآتية بيان المذاكرة في موضوع دين المسيح وذكر رغبة كثير من المسلمين في إصلاح الحال حتى قال لي أحدهم لا يبعد أن يحصل بين المسيحيين والمسلمين مودة تامة وعاش بيدي الصداقة والاخوة وزوال أسباب الحرب إن شاء الله » (اسحاق طيلر)

﴿ المقالة التالية لها وموضوعها : القرآن والكتب المنزلة ﴾

نشرت في جريدة (سنت جمس) أيضاً في ١٣ مايو سنة ١٨٨٨

افتتحها بقوله « ان المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام وصدقوا ببعثته، وهو عندهم معدود في أولي العزم من رسل الله الى خلقه ، فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ، ونسأل الله يهديهم وايانا الى الحق والى طريق مستقيم »

ثم ذكر إيمانهم بالكتب السماوية كلها بشهادة القرآن لها وبان القرآن خاتمها ومهيمن عليها — وانهم يستدلون على صحة دينهم بحجج القرآن وتعاليمه الصالحة المصلحة للبشر وتأثيرها وسرعة انتشارها بين أرباب الاديان كلها، وبكون من جاءبها أميا يستحيل أن يأتي بمثله بهذه الحقائق بدون وحي من الله — وان عدم احتجاج القرآن بغيره على نبوة محمد ﷺ هو أوضح الادلة على صحة نبوته ، على أن في كتب الحديث كثيراً من المعجزات المشابهة لمعجزات الاناجيل ، على أن هذه الاعاجيب التي رويت عن المسيح عليه السلام » مما يعد عقبة في طريق الاعتقاد بدينه . . .

ثم ذكر استدلال المسلمين على نبوته ﷺ ببشارات الكتب السابقة به كما يستدل النصارى على المسيح ببشارات كتب العهد العتيق . وفصل ذلك تفصيلا بالشواهد . وذكر في تفصيله ماينكره النصارى عليهم من الجنة الجسمانية وما يستدلون به عنيه من كتب الانبياء وكذا تأويله مع اثباتهم للنعيم الروحاني وعدهم اياه أعظم من كل نعيم ، وهو ينقل هذه المعلومات عن بعض علماء المسلمين ، وهي مقالة مهمة ينبغي للمسلمين الاطلاع عليها كالتي قبلها أو أكثر

(خريستفورس جباره) على ذكر هذه الجمعية التي انحلت بتفرق مؤسسيها أذكر انني رأيت بعد هجرتي إلى مصر هذا الرجل فعلمت منه أنه قام في نفسه منذ سنين أن سعادة العالم الانساني لا تتم الا باتفاق أهل الاديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام . ثم صار هذا الخاطر وجدانا ملك عليه أمره وحمله على الدعوة اليه بالقول وبالكتابة . أنشأ أولا نشرة سماها شهادة الحق . وبث دعوته في أميركا في معرض شيكاغو وغيره ، وكان يكتب الرسائل الطويلة فيه إلى علماء الدين المشهورين في بلاد الشرق وهو في أميركا أقصى الغرب . ثم جاء إلى مصر وألف فيها كتبا ورسائل كثيرة يوفق فيها بين التوراة والانجيل والقرآن ، فحرمته الكنيسة الارثوذكسية وكان قد وصل من رتبها الكهنوتية إلى رتبة الارشمندريت وكذلك قابله المسلمون بالهزء والسخرية إلا الاستاذ الامام وصاحب المنار ، فاحتمل من الايذاء ماهو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف ماهم عليه

كان الفقيد موحداً يقيم الحجة على أنه ليس في الانجيل ولا في رسائل الرسل مايدل على التثليث ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقرآن وبرسالة سيدنا محمد ﷺ . ومما كان يخالف فيه المسلمين مسئلة صلب المسيح وكان يؤول قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . وكان استفتى مفتي الديار المصرية عن عقيدته بكلام مجمل يصرح بالايمان بنبوة سيدنا محمد وصدقه في كل ماجاء به ، فأجابه المفتي جوابا قيد فيه اعتبار إسلامه بعدم إنكار شيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ، فجاءني وقال لي إنني لم أفهم معنى هذه الكلمة فبينت له معناها

أصاب الفقيد مرض ونقه منه ثم انتكس وعند إحساسه بشدة وطأة المرض جاءني وقال لي إنني منذ سكنت مصر لم أعرف فيها رجلا رحيما يفعل الخير لغير علة إلا فضيلة المفتي وقد اشتدت حاجتي إلى مبلغ كذا لاجل دخول المستشفى أو السفر ونفسي علي عزيزة فأرجو أن تأخذ لي من فضيلة الاستاذ المبلغ المذكور فأجبته سمعاً وطاعة ، ثم واساه الاستاذ الامام بضعف ماطلب . ودخل أولا مستشفى القصر العيني بمساعدة أحد الوجهاء ثم المستشفى النمساوي بمساعدة وجيه آخر وتوفي فيه بمرض القلب. وكان أمر دفنه مشكلا فحل هذا الاشكال بعض أذكياء النصارى فشهد عند غبطة البطريق أنه اعترف قبل موته بالكنيسة الارثوذكسية ورجع اليها فدفن دفنا أرثوذكسيا وأخذوا كتبه وفيها رد عليهم متين. وقد كتبت ملخص ماتقدم في ترجمته من المجلد الرابع، وختمتها بقولي : وأما حقيقة امره وما يصير اليه في الآخرة فذلك مفوض إلى العليم الرحيم اهوأنا أعتقد انه مؤمن ناج عند الله إذا كان قد مات على ماعرفته منه وهو في مسألة الصلب متأول معذور

حظ اليهود من هذه الجمعية

لا أذكر أنني سمعت من الاستاذ الامام شيئاً من اشتراك اليهود في هذه الجمعية ولكنني لما نشرت في المنار مقالات (المسألة الشرقية) بمناسبة عدوان إيطالية على طرابلس الغرب وبرقة وما لليهود العثمانيين من عمل في ذلك أرسل إلي الدكتور شمعون مويال رسالة من يافا ذكر فيها عن هذه الجمعية وتأليفها وغرضها وكونه من أعضائها ماينبيء عن معرفة صحيحة لم يعرفها أصدقاء الاستاذ الامام في بيروت نفسها ، قال فيها بعد تحيته مانصه :

« أما بعد فان مابيني وبين السيد من صلة الادب والتفكير والخدمة العمومية والانتماء إلى الامام الاعظم أستاذنا الكبير (رض) يفسح لي مجال الطمع بجعل علائقنا الروحية علائق مراسلة وتبادل أفكار وآراء عسانا نصل معاً إلى الضالة التي ينشدها كل مؤمن »

ثم ذكر مسألة تأسيس الجمعية وانتظامه في عضويتها متوقعا أن يكون شيخنا

رحمه الله تعالى أخبرني خبره ، وقال ان كونه عضواً في هذه الجمعية يغنيه عن تصريحه لي بعقيدته الدينية . ولكنه بين عقيدته السياسية باجمال يتلوه تفصيل

قال « أما عقيدتي السياسية فهي ان الاسلامية رابطة سياسية كبيرة مبنية على جامعة إيمان ، وجامعة فلسفة ، وجامعة تاريخ ، وان اليهودية كذلك ..وان للعنصر العربي الاسلامي جامعة عنصرية كالجامعة العنصرية اليهودية »

ثم فصل ذلك بالشواهد من العهد العتيق ومن التاريخ ، واستنتج من ذلك ان بين العنصرين فوق قرابة النسب والرحم ، ووحدة أصول اللغتين واشتقاقها، جامعات الاخلاق والعادات والتقاليد التاريخية والشعر والاغاني ، والتنبيه لحقيقة قال انها راهنة وهي ان اليهود الذين تفرقوا في أنحاء الارض وانتصار رومية بعد ثوراتهم المتتابعة عليها قد كادوا ينقرضون من العالم ، وان أغلب اليهود الباقين هم من سلالة الذين خرجوا من جزيرة العرب

ثم عقد فصلا عنوانه (العثمانية واليهودية) بين فيه فضل الدولة العثمانية على اليهود واخلاصهم لها ، تلاه فصل آخر في رأي اليهود وخطتهم في مسألة عدوان إيطالية على طرابلس وبرقة وهو انهم استاؤا وأبدوا استياءهم بالقول والعمل ، وذكر مايدل على ذلك — وكانت النتيجة لما تقدم كله الانتقاد على المنار فيما ذكره في مقالة المسألة الشرقية من اتهام اليهود « بارشاد صهيونيهم الالمان » حكومة « أغيلة غاطه وسلانيك » بالتمهيد للطليان في فعلتهم . وانه لايعقل ، وان مانشر في الجرائد برهان على « ان الاثنى عشر مليونا من بني اسرائيل المنتشرين في كافة أنحاء المعمور هم ١٢ مليون صديق حميم بل أخ صادق الاخاء الدولة الاسلامية المتمدنة القوية التي بقيت للعناصر الشرقية ملجأ وملاذاً وعزاً وفخرا»

ثم ختم مقاله الطويل بذكر ظلم أوربة للجميع وأن مستقبل اليهود مرتبط بمستقبل الاسلام. ولم أنشر له هذا المقال في المنار ولا أجبته عنه لعدم امكان مناظرته كتابة فيما أخالفه فيه من أمر الصهيونيين الذين اجتهدت في السعي لتحويلهم عن الاتحاديين إلى العرب قبل الحرب فلم أفلح، ثم جددت السعي بعد الحرب فلم أنجح.

المقصد الرابع

(من الفصل السابع)

اغاثة للمنكوبين في احداث الزمان

كانت هذه الاغاثة نوعين: خفية وجلية، أما الخفية فقد اشتهر بها في حياته ونوهت بها الجرائد والمؤبنون والراثون له بعد وفاته، على ماكان من شدة كتمانه لها ، فقد كان هو يتصدق بكل مايتيسر له التصدق من ماله على قلته وكثرة نفقاته، وكان يجمع المال من أصدقائه الاغنياء للمنكوبين لمن رمتهم أحداث الزمان ، أو السفه والاسراف في المال ، بالعسر بعد اليسر ، والفقر بعد الغنى

وأما الجلية فهي التي كان يقوم بها بالتعاون مع اللجان المنظمة تحت رياسته وأشهرها في عهد وجودي بمصر لجنة الاعانة لجرحى الجيش المصري في حرب السودان وأرامل موتاهم وأيتامهم، ولجنة الاعانة لمنكوبي الحريق في (ميت غمر)

والعبرة في هذا العمل الشريف الذي يذكر في هذا التاريخ أمران (أحدهما) ان وجهاء الامة الذين يعنون بعمل الخير كانوا كلما احتاجوا إلى تأليف لجنة لجمع المال لاعانة المنكوبين يختارونه لرياستها (وثانيهما) انه كان في عمله هذا يقصد منه أمراً غيره هو أعلى منه وهو تربية الامة على التعاون والاهتمام بالشؤون العامة والبذل في هذه السبيل سبيل الله تعالى

﴿ لجنة الاعانة لجرحى وأرامل وأيتام الجيش المصري ﴾

أرسلت اللجنة إلى جميع الجرائد خطابا في بيان تأليفها والمنشور الذي كتبه رئيسها في الدعوة إلى الاعانة هذا نصهما :

في يوم الثلاثاء ٢٦ ابريل سنة ١٨٩٨ اجتمع بمنزل صاحب السعادة احمد سيوفي باشا بالعباسية حضرات أمين فكري باشا ناظر الدائرة السنية ومحمد

ماهر باشا محافظ مصر والاستاذ الشيخ محمد عبده القاضي بمحكمة الاستئناف ويوسف سليمان بك رئيس نيابة مصر ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش وسيدي الحاج محمد الحلو وكيل دولة المغرب الاقصى ، وأحمد بك ارناؤد ، وعبدالرحيم بك من أعيان العاصمة ، والخواجه شمعون آرييب واحمد فتحي زغلول بك رئيس محكمة مصر ، وشكلوا منهم لجنة للقيام بفتح اكتتاب عام لمساعدة جرحى الجيش وعائلات قتلاه وأيتامهم في الوقائع الاخيرة تحت رعاية الجناب العالي الخديوى وانتخبوا حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رئيساً وسعادة أحمد سيوفي باشا أميناً للصندوق وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة وقررت ارسال منشور لاهل الخير وأولي البر والاحسان

وفي يوم الخميس تشرف وفد من اللجنة بمقابلة سمو الامير المعظم وعرضوا ماقرروه على مسامعه الشريفة فلقوا من جنابه العالي كل رعاية وتلطف ، فكان أول المكتتبين ، وجرى على ذلك أيضاً صاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا رئيس مجلس النظار وحضرات النظار ، واجتمعت اللجنة بعد ذلك بمنزل سعادة أمين الصندوق بالعورية ، وبعد تحرير المنشور والاقرار عليه كلف كاتب السر بإرساله إلى الجرائد

فقياما بما تقرر أبعث لحضرتكم بصورة المنشور راجياً نشره في جريدتكم لتعميم العلم به واقبلوا مزيد تحيتي

كاتب سر اللجنة
احمد فتحي زغلول

١٦ الحجة سنة ١٣١٥

المنشور

قد عرف الكافة ماجاء به الجند المصرى الذى سيق على البلاد السودانية مما يخلد له ولبلاده المجد والفخار ، ولم يخف على أحد ماأصاب تلك الجنود في الايام الاخيرة من قتل بعض ضباطهم وأفراد عساكرهم ، وجرح عدد كبير منهم وإن كان ماأصابهم قليلا في جانب الظفر الذى نالوه بمعونة الله وثباتهم وشجاعتهم ومن المعلوم ان من قتل منهم ترك أيتاما وأهلا فيهم الضعفاء وذوو البأساء

ومن جرح قد يعجز عن الكسب ولو شفي ويحتاج إلى مايقيم أوده ولو الى أجل، ومكان هؤلاء الشجعان من أهالي البلاد هو مكان الاخ الكريم من أخيه ، أو العضو الشريف من البدن السليم ، ولا يسمح ذو مروءة أن يدع أخاه في مثل هذا المصاب يذهب فريسة الحاجة ، والبدن السليم لابد أن يألم لما يصيب اعضاءه، ولهذا كان لأنباء ذلك المصاب هزة في قلوب الكثيرين من اهل الاحساس الطاهر في جميع الطبقات، وأفاض كثير من الجرائد في استنهاض الهمم لمساعدة أولئك الرجال أو أهليهم ، وكان لكل واحد من سكان القطر المصري أن يبتدىء بدعوة باقيهم الى هذا العمل المجيد ، والبادىء في الخير الداعي اليه هو في الحقيقة خادم لمن يستنهضه ، فانه انما يفتح سبيلا لظهور كرم السجية ، وسطوع ضوء الحمية .

وقد قام بعض الاعيان من اهل العاصمة بتأليف لجنة للسعي في جمع إعانة لمساعدة أولئك الجرحى وأهالي القتلى وعرضوا ماأرادوا الشروع فيه على الجناب الخديو الفخيم ليكون العمل تحت رعايته ، فتفضل جنابه السامي بقبول ذلك على جاري سنته الشريفة في تقدير الاعمال الخيرية ، فاجتمعوا في يوم الثلاثاء ٥ ذى الحجة سنة ١٣١٥ الموافق ١٦ ابريل سنة ١٨٩٨ بمنزل صاحب السعادة أحمد سيوفي باشا وانتخبوا الداعي رئيساً ، وسعادة أحمد سيوفي باشا أمين صندوق للاعانة ، وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة ، ثم عرض الامر على الجناب السامي فسر به ، و كان أول من شرف العمل بالاكتتاب وتفضل به ، وكذلك اكتتب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار وبقية حضرات النظار ، ثم أخذت اللجنة تتابع عملها في دعوة أهل الخير للاشتراك في مساعدة اخوانهم

وحيث ان ... تكم من أهل الفضل وذوى الهمة والمروءة رأيت أن أبعث اليكم بهذا رجاء أن يرى لهمتكم الاثر الجليل، في هذا العمل الجميل ، مع العلم بان من يتفضل بدفع شيء من المعونة لاخوانه المصابين فانما يفعل ذلك لمحض الشفقة والرحمة ، وصدوراً عن الهمة والمروءة ، ومن المعلوم أنه لاينقص مال من صدقة، ولن تخذل أمة كان التعاون من سجاياها ، فارجو أن تساعدوا بما استطعتم ،

وأن تقبلوا المساعدة ممن يليكم ويقرب منكم ، وما يجتمع لديكم تتفضلون بارساله إلى سعادة أمين الصندوق أحمد سيوفي باشا بمصر ويرسل الى ... تكم الايصال حسب العادة ، والله لايضيع أجر المحسنين

تحريراً في ١٦ الحجة سنة ١٣١٥

رئيس اللجنة

محمد عبده

نشرت جميع الجرائد هذا المنشور وحبذت المشروع ورغبت الناس في هذه الاعانة بما لاشائبة فيه الا جريدة المؤيد فانها شابت الترغيب بشيء من أكدار السياسة قالت مانصه:

تعليق المؤيد

نكرر حض القراء الكرام على الاكتتاب في مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان لان أكثر مايجمع منها سيخصص لارامل وأيتام قتلى الحرب وهو من خير أعمال البر والاحسان ، والباقي يعطى إعانة للجرحى من الجيش الذي حارب في السودان وانتصر على قوم كانوا بالامس خارجين على سلطة الحكومة الخديوية كما هو معلوم

وقد علمنا أن اللجنة القائمة بجمع الاموال لهذه الاعانة أرسلت منشورات شتى لاعيان الاقاليم ولحكام المديريات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين على الاعانة ، وإن كانت الاعانة اختيارية على كل حال

وهنا يخطر على بالنا أن نسأل صاحب العطوفة ناظر الداخلية لماذا لم يصدر منشوراً كما فعل عند تشكيل لجنة الاعانة العسكرية الشاهانية يبين فيه للحكام والعامة أن الاعانة اختيارية محضة ، لكل انسان حرية الاشتراك فيها وعدمه ، إذ الاكتتاب اختياري ولا شك في الامرين ، ففي الاعانة الاولى بعث عطوفة ناظر الداخلية ثلاثة منشورات للاقاليم ، الاول يقول فيه: ان الاكتتاب حر لمن شاءه والثاني يقول فيه : قد بلغنا أن بعض العمد يتداخل في جمع الاعانة من الاهالي ويجبرهم على الدفع فنبهوا عليهم بعدم التداخل وأفهموهم أن التبرع حر لا إجبار فيه ولا إكراه ، والثالث قال فيه « اطلعنا في بعض الجرائد على أن بعض العمد يترأسون لجان الاعانة ، ويتجولون من بلد لبلد لجمع المال ، وهـذا تداخل منهي

عنه ، فأحضروهم وخذوا عليهم التعهد اللازم بعدم التداخل مطلقاً في جمع الاعانة لانهم موظفون ، وكل من يخالف هذا يحال على لجنة التأديب للمحاكمة..اهـ»

فهل للحكومة مكيالان في مشروعات الاكتتاب الاختياري ؟! أو ذاك مشروع مبغض عند الانكليز وهذا زلفى اليهم ؟؟

أما نحن فقد حثثنا الاهالي على مشروع الاعانة العسكرية الشاهانية، ونحثهم الآن على مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان ، لاعتقادنا أن ذلك مشروع ملي كان واجباً في وقته ، والملة عندنا أغلى وأعز الاوطان، ولاعتقادنا أن المشروع الحالي مكرمة وطنية وحب الاوطان من الايمان ، ولكن سؤالنا لمطوفة الوزير حق لايختلف فيه اثنان اهـ تعليق المؤيد

إنكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد

غضب الاستاذ رئيس اللجنة من تعليق المؤيد فكتب الانتقاد أو الانكار الآتي وأرسله اليه في صباح اليوم التالي طالبا منه نشره فى يومه فنشره ورد عليه ، وهذا نص الانتقاد و يتلوه الرد كما نشر في المؤيد

(لجنة مصابي الجيش بالسودان)

ورد الينا صباح اليوم كتاب من صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رئيس لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان فتقبلناه بيد الشكر والاحترام ، ونشرناه بحروفه كما أراد وهو :

حضرة الاستاذ الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء

اطلعت الآن في عدد جريدتكم الصادر بتاريخ أمس على جملة في الحوادث الداخلية تتعلق بلجنة إعانة المصابين بشجاعتهم من الجيش المصري المحارب في السودان ، فرأيت فيها ماحملني على تحرير هذه السطور رجاء نشرها في العدد الذي يصدر هذا اليوم :

أبدأ ببيان مقصد اللجنة من القيام بجمع الاعانة لاولئك المصابين : أظهر الضباط والجند المصري شجاعة وثباتا في قتال محاربيهم حمدهم عليهما الاجنبي ،

وحق أن يفتخر بهما الوطني ، وقد أجمع علماء الاخلاق على ان الشجاعة من الفضائل التي لاترسخ في نفوس الافراد من أمة ، ولا تعم الاغلب من آحادها ، إلا إذا عرفت الامة مقدارها وسندتها بالقول والعمل ، وهذا كان أول باعث لاول متكلم في هذا المشروع[1] مشروع الاعانة والله شهيد على مافي نفسه، وهذا الغرض من الاعانة ظاهر من نص المنشور الذي نشرته اللجنة

خلف المقتولون أيتاما ، وقد يعجز المجروحون عن الكسب ، وقد علمنا ان الحكومة لايمكنها أن تفي بحاجة أولئك وهؤلاء ، ولم يصابوا باليتم أو العجز في دنيئة ولا خطيئة ؛ فسواء كانت حرب السودان صوابا في نظر السياسة أو خطأ فهؤلاء على كل حال ليسوا بمجرمين، بل أتوا في إظهار ثباتهم أو جاء في ذلك أولياؤهم بما يعدون فيه من المحسنين ، فلا يليق بأمة فيها قطرة دم من الحياة أن تدعهم دون الايدي بالسؤال ثاني يوم أدوا فيه أو أدى عائلوهم حق تلك الفضيلة الجليلة فضيلة الشجاعة ، فهذا باعث من الرحمة ، وداع من الشفقة ، ليس أعضاء اللجنة أول من يشعر به من المصريين ، بل في ظنهم ان أصغر مصري يساويهم فيه ، وابتداؤهم بدعوة اخوانهم انما هو خدمة لهذا الشعور الذي لايسلبه انسان إلا بخذلان من الله

وعلى ذلك أرجو أن لا يتكرر بعد هذا ان الاعانة للجيش المحارب كأنها إعانة للحكومة نفسها على الحرب ، فانا نعلم ان الحكومة تحارب اذا قدرت على الحرب وتتركها اذا عجزت عنها ، وهي أعلم بما تلقاه في الحالين، وإنما سعي اللجنة في إعانة من أصيب في تلك الحروب، كما أرجو من حضرتكم اذا سمحتم بكتابة شيء يختص باعمال اللجنة أن تعنونوها بالاسم الذي وضعته لنفسها وقبلها به الجناب الخديوي الافخم تحت رعايته دون سواه

ثم ذكرتم أنكم علمتم ان أعضاء اللجنة أرسلوا بمنشورات الى حكام المديريات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين الخ فأبشركم ان هذا العلم غير صحيح فان المدير أرسل اليه منشور واحد كما يرسل إلى غيره من الاعيان لعله

(١) يعني الاستاذ نفسه فهو المقترح الاول للاعانة

يكتتب بصفة انه مصري ويدعو اصدقاءه إن أمكنه الى الاكتتاب فان وظيفته لاتحظر عليه أن يخاطب صديقا في ذلك

وأزيدكم ان بعض المديرين عند ماوصله ذلك المنشور الواحد تحير فيما يصنع به ، كانه ظن انه لايباح له أن يدعو ولو أصدقاءه للاحسان ، ولا زال في حيرته حتى أرشده مرشد الى ان من السهل عليه أن يحمل على الاكتتاب أحباءه من اهل القاهرة أو بلد آخر ففعل

أما توزيع المنشورات على الاعيان سواء كانوا حكاما أو غير حكام فهو عمل اللجنة ، والناس موكولون إلى اختيارهم فمن شاء قبل ومن شاء لم يقبل، وكثير من الاعيان طلب من اللجنة أن تعتبره مشتركا بدون دعوة ، ومعارف اعضاء اللجنة من اهل اليسار في القطر ليسوا والحمد لله بقليل ، وليس بقليل أيضا من يجد وجدان اعضاء اللجنة كما ذكرنا

وأما كلمة الزلفى التي جاءت في سؤالك لعطوفة رئيس النظار فلا اظنك قد قصدت معناها ، فانك تعلم فيما اظن أن اعضاء اللجنة الذين قد بلغتك اسماؤهم لايغمز عليهم بمثل هذه الكلمة

ثم لا اخالني مخطئا اذا قلت انك تعلم الفرق بين عمل هذه اللجنة وبين عمل لجنة الإعانة السابقة ، فهذه لاعانة المجروحين والايتام من اهالي البلاد ، وتلك اعانة دولة عظيمة كالدولة العثمانية على نفقات الحرب قبل وقوعها أو في اثنائها قبل أن يصاب فيها المجروحون بشيء ، ولذلك قد كان للجرحى والايتام معونة أخرى بعد ماوقعت الوقائع ، وربما اختلف شأن الحكومة في العملين ، فكان الاجدر بمثلك أن يلتمس هذا الفرق دون أن ينبه الحكومة أو يحرضها على أمر كان يلومها عليه في نفسه بقلمه

ولو سلمنا بتمام المشابهة بين العملين ، أفما كان من انصافك مايسع السكوت عن الحكومة أو حمدها على ترك عمل لم تسلم من اللائمة فيه في اعتقادك، ويمكنها أن تتوب عنه وتنيب إلى الله في عدم العودة اليه ؟

فاذا فرضنا ان هذا السؤال كان حقا لابد من أدائه كما قلت ، أفما كان

الاليق بدعوتك إلى الاحسان أن توجله الى ما بعد نهاية العمل الخيري الذي تكرر الدعاء اليه حتى لا يحدث عن مثله صد عن سبيل تحمل أنت على السلوك فيه والاستقامة عليه .

رجائي في انصافك أن تنشر هذه الكلمات في العدد الذي يصدر في هذا اليوم دفعاً لما أوهمته عبارتك أمس ، وأن تجري فيما تنشره عن اعمال اللجنة على حسب ما يقتضيه مقصدها السابق ذكره . وأن لا تجعل للظنون عليك سلطانا ، ولا للحق عليك مقالا ، والسلام

رئيس اللجنه

محمد عبده

رد المؤيد على رسالة الاستاذ الامام

كنا نود لو أن فضيلة الاستاذ الذي يعرف هو كما يعرف كل انسان مقدار ما نجله ونحترمه لم يشر علينا بنشر مقالته بامضائه ، لا لانها تضمنت رداً وملاحظة وانتقاداً علينا ، بل لانها تكاد تفهم القارىء اننا على اختلاف في المبادىء والمقاصد من جهة ، ولانها تضطرنا أن نلاحظ على ما جاء فيها مخالفا لوجهتنا ، وربما فهم بعض الناس أن صاحب المؤيد يناقش فضيلة الولى الاستاذ الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة أجل وأسمى عنده من أن يتطاول إلى مناقشته ، على أن للمؤيد حقاً لا يطالب منه تركه إذا كان ينصف الغير بنشر ما يعترض به عليه فيه

فاولا — ان المؤيد كان أول جريدة شكرت القائمين بجمع اعانة لمصابي الجيش المحارب في السودان ، وحضت الجمهور على مشاركتهم في هذا السبيل ، ولو دعي صاحب المؤيد أن يكون عضواً عاملا في اللجنة المؤسسة لهذا العمل لابي الدعوة في مقدمة الملبين ، وهو بلا دعوة لم يدخر وسعاً ولن يدخر سعياً في سبيل انجاح هذا المشروع الجليل ، وقد قال بالامس انه يعتقد أن اعانة مصابي الجيش المصري المحارب في السودان مكرمة وطنية وحب الوطن من الايمان

ثانياً — ان المؤيد لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر إعانة للحكومة نفسها على الحرب ولم يتعرض في معرض دعوة الناس لها إلى كون حرب السودان صوابا أوخطأ لعلمه أن الجيش مأمور ومن أول واجباته الطاعة العمياء لقواده ، فلم يكن

ثمت موجب لفضيلة مولانا الاستاذ أن يستلفت أنظار القراء إلى النقطة التي تتنازع نفوس الناس في الاكتتاب ، وقد تحاشى المؤيد في كل مرة دعاهم فيها اليه مثل هذا الاستلفات جهده

ثالثاً — ان المؤيد يسمي دائماً هذه اللجنة بلجنة اعانة أرامل وأيتام ومجروحي الجيش المحارب في السودان ، وفي عدد الامس أقرب مذكر ، وليس في هذه التسمية مخالفة كبيرة للعنوان الذي اختارته اللجنة لنفسها وهو (لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان) ولم يكن قصدنا من ذكر أرامل وأيتام التي نذكرها غالباً إلا تنبيه عواطف القراء بأكثر الالفاظ تأثيراً على النفوس ، إذ قد يفهم البعض أن لفظ مصابي الجيش قاصر على جرحاه وهو غير مراد اللجنة حتما كما يؤخذ من نص منشورها العمومي

رابعاً — ان تبشيرنا بان ماعلمناه من ارسال المنشورات إلى المديرين فمأموري المراكز لدعوة القادرين على الاكتتاب الخ غير صحيح، لاينطبق على وجهتنا ، فاننا قصدنا أن نفهم كافة القراء في الاقاليم أن لدى المديرين والمأمورين منشورات — نقول الآن وقسائم — ليعرفوا أن الاكتتاب ميسور لهم وقريب منهم في كل بقعة ، ولذلك أردفنا هذه العبارة بقولنا ان الاكتتاب اختياري محض حتى لاينفروا منه نفرتهم من كل شيء يحسبونه بالاكراه من قبل الحكومة ، ولم نقل مطلقاً ان المدير أو المأمور يحظر عليه أن يشتغل باي عمل خيري بصفته الشخصية، وان كانت الحكومة قد حظرت عليه ذلك بالفعل قبل الآن، وأبطلت مسعى المديرين في مشروعات إنشاء المدارس الاهلية بالاكتتاب ، كما يعلم ذلك حضرات الافاضل أعضاء اللجنة ، وعلى الخصوص أحدهم الذي كان مديراً في المنوفية ، وكما جعلت صف الموظفين من كل الطبقات في الدواوين العمومية والاقاليم لا يشتركون في اكتتاب الاعانة العسكرية الشاهانية

وإذا صحت حكاية المدير الذي وقع في الحيرة كيف يفعل بالمنشور الذي وصل اليه ، فليس ذلك لكون مافيه من الالغاز التي يعسر حلها حتى يرشده ذلك المرشد بما يزيل حيرته ، بل لانه احتار كيف يدخل إلى هذا المشروع من بابه وهو يعلم

ان المنشورات الرسمية وغير الرسمية التي والت الحكومة بها المديرين قد غلت أيديهم، وأغلقت كل باب خيري في وجوههم، وجعلتهم يفرون من كل عمل خيري فرار السليم من الاجرب

على أن فضيلة الاستاذ قد قال ان اللجنة أرسلت منشوراتها إلى المديرين وانها أرسلتها كذلك إلى أعيان البلاد حكاما وغير حكام، فدل هذا على انها أرسلت الى المديرين والمأمورين أيضاً، ويسرنا أن اللجنة قد عممت منشوراتها الى حد شمل كل طبقات الامة، فما المنشورات إلا إعلانات كلما عم توزيعها تحقق معناها أكثر، وكانت فائدتها أتم

خامساً — أما تأويل عبارة الزلفى بما يصرفها عن عطوفة ناظر الداخلية — لا رئيس النظار — إلى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلا حق فيه لمولانا الاستاذ بوجه من الوجوه، اذ لم يخطر ببالي ولا يمكن أن أفهم ان كل ساع في هذا الاكتتاب يقصد الزلفى للانجليز إذا كان المؤيد نفسه يدعو الناس الى الاكتتاب، ومولانا الاستاذ يعتقد حق الاعتقاد بأنه يدعو دعاء خاصاً لذلك، بدليل أنه تفضل فبعث الى صاحب المؤيد مع هذه الرسالة دفتر قسائم ليجمع بواسطتها المال ممن يدعوهم الى الاكتتاب، وان كان له حق العتاب على أن تصل القسائم الى أعيان البلاد ومأموري المراكز قبل ان تصل ادارة المؤيد في القاهرة

وأي حاجة للتأويل بهذا المغمز؟ ألكون المؤيد لم يعتد توجيه مثل هذا السؤال أو الانتقاد اذا كان حقا لعطوفة لوزير؟ أو لان عطوفة الوزير لم يصدر منشورات يعرقل بها مساعي الاكتتاب الاول ولم يحث على الاكتتاب الثاني؟ أو لانه لم يكن أول داع الى الاكتتاب الحاضر بكلامه مع سعادة الحافظ وسعادة سيوفي باشا؟

اللهم ان الفرق بين عمله في الاكتتابين بيّن ظاهر لا يجهله أحد، وهو قد كان من المحرضين حقيقة على عدم الدفع في الاكتتاب الاول وهو من المحرضين عليه في الاكتتاب الثاني، وكما لمناه على عمله في الاول نشكره على عمله في الثاني، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نسأله عن علة مصادرته الاكتتاب الاول اذا كان ممن ترجى منهم المساعدة والتعاون على البر كما هو رأيه الآن في الاكتتاب الثاني

على أن مولانا الاستاذ يغضب ويحق له أن يغضب اذا كان المؤيد يوجه لأحد أعضاء اللجنة غمزا مثل قوله (الزلفى للانكليز) وهو يجلهم عن ذلك كل الاجلال ولكن زلفى عطوفة الوزير للانكليز ربما كانت من الصنائع التي يحمد عليها بحسب مايراه لازما لمنصبه الرسمي ، ولذلك كان أشرف فضيلة مدحه عليها اللورد كرومر في خطبة (شبرد) الاخلاص في العمل معه

وهل يرى مولانا الاستاذ باعثا بغَّض لدى عطوفة الوزير مشروع الاكتتاب الاول وحبب اليه مشروع الاكتتاب الثاني أقوى من ميل الانكليز عن الاول وميلهم الى الثاني ؟

ألا ان مجرد رغبة الانكليز في مشروع الاكتتاب الحاضر لا يجعله نقيصة وسبة عند الوطني الحر ، بل ينبغي أن يتخذ ميلهم فرصة لزيادة نجاحه ، وليس في المزيد من المكرمات الا خير المكرمات وأعظمها

سادسا — اننا لا نرى التنبيه الى الفارق بين الاكتتابين في محله ، فالاكتتاب الاول كان واجبا مليًّا في حينه اذا قلنا ان دولتنا العلية كانت في عوز الى معونة رعيتها لها عند الشروع في محاربة عدوتها من الدول غير الاسلامية ، والاكتتاب الذي نحن بصدده الآن مكرمة وطنية في ابانها يحسن بكل ذي عاطفة شريفة وغيرة وطنية أن يشترك في القيام بها ، والفرق بين الاكتتابين بأكثر من ذلك ولا نخال ان وظيفة مولانا الاستاذ تسمح له بالافاضة فيه بعد حتى ندخل من بابه الآن

سابعاً — اننا لو كنا نعلم ان سؤالنا عطوفة وزير الداخلية عن علة الفارق عنده بين الاكتتابين ينتج حقيقة صداً عن سبيله او يتوهم منه أن ينتج مثل ذلك لأ بقيناه الى ما بعد الفراغ من مشروع الاكتتاب الحاضر ، ولكننا نعلم علم اليقين ان سؤالنا هذا لا يترتب عليه شيء ما من هذا القبيل ، ولذلك اعتبرنا كل وقت زمانه ، فلم يكن سؤالنا اياه الآن سابقا لأوانه

واذا صح ما تكتبه الجرائد المأجورة التي يفسح لها عطوفة الوزير صدراً وتزعم انها تنطق بلسانه في كل ما تقول من ان عطوفته من كثرة ما يكره المؤيد يتوخى العمل على عكس ما يريد في كل شيء حقا كان او باطلا ، فلا يبعد أن سؤالنا عطوفته مما

يحرض همته على الاخذ بناصر هذا المشروع الحاضر اضعاف ماعرف عنه فيزداد بهمته المالية نجاحا، ويكون المؤيد قد ساعد بذلك أكثر من كل عامل للنجاح سواه

وفي الختام ان المؤيد يأسف غاية الاسف أن يظهر على صفحاته مايكاد يوهم القراء أن يتطاول الى مناقشة مولانا الاستاذ المفضال، ولكن باعث الكتابة جاء من خلال السطور التي طلب المولى الاستاذ أن ننصفه بنشرها، ولو أنصفنا لجملها كما كنا ننتظر من الخصوصيات اه

الحكم العدل بين الاستاذ الامام وصاحب المؤيد

ما كتبه صاحب المؤيد من غمز الحكومة أو ناظر داخليتها ولمزه لم يكن له موضع مناسب ولا حسن في التعليق على خطاب اللجنة ومنشورها ممن يستحسن عملها ويدعو اليه معها، وانما اللائق في هذا التعليق هو تحبيذ دعوة اللجنة والحض على اجابتها، وإذ كان لمز الحكومة مقصداً من مقاصد المؤيد في سياسته الوطنية بسبب استسلامها لسلطة الاحتلال فلم يكن الاستاذ الامام ولا غيره ينكر على المؤيد أن يلمزها بما ذكره هنا في موضع آخر، وقد اشتهر عن الاستاذ الامام عند الوطنيين والاجانب أنه سمى مجلس النظار المصري « جمعية الصم البكم »

ذلك بان وضع اللمز في هذا التعليق ووصف مشروع الاعانة بانه زلفى للانكليز يشعر قراء المؤيد بما يصدهم عن الاعانة شعوراً يجدونه في أعماق قلوبهم ولا ينتزعه منها قوله إنه يحثهم عليها، وكذلك تسميته المشروع في السطر الاول من التعليق « مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان »

ذلك بان المصريين ولا سيما المسلمين منهم وكذا من غيرهم كانوا كارهين لحرب السودان التي أكره الانكليز الحكومة المصرية عليها، وموجسين خيفة من سوء عاقبتها، ولقد كنت أشعر بهذا على قرب عهدي بالهجرة إلى مصر، وكون صحيفة المنار لم تستكمل عند الدعوة الى هذه الاعانة الشهرين الاولين من سنتها الاولى، وقد كتبت في شأن السودان كتابة شديدة لولا الحرية المطلقة للصحف في هذا العهد لحوكمت عليها، بل صرحت في تلك السنة بان الانكليز

يقصدون انتزاع السودان من مصر والاستيلاء عليه ، وبان الاتفاق الذي عقد بين عميد الاحتلال ووزير خارجية مصر خيانة لاتغفر ، فكلمة المؤيد المعبر عن الشعور الوطني ولا سيا الاسلامي بان هذا المشروع زلفى الانكليز كان له تأثير شديد في النفوس لا أزال أذكره في نفسي ، ولم أكن منشرح الصدر لرياسة الاستاذ الامام لرياسة هذه اللجنة مع علمي اليقين بانها خير محض

ولم يكن الاستاذ الامام ممن يخفى عليه شيء من هذه الشؤون الروحية، دع السياسية، بل كان من أشد الناس شعوراً بما ذكرنا ، ولذلك اقتصر في مدح الجيش الوطني الذي حارب في السودان بالشجاعة الشخصية ، وقال « فسواء كانت حرب السودان صوابا في نظر السياسة أو خطأ فهؤلاء على كل حال ليسوا بمجرمين » الخ

ومن أراد أن يعرف رأيه في مسألة السودان وجهاده في سبيلها فليرجع إلى ماأثبتناه في هذا التاريخ من سعيه مع أستاذه السيد الافغاني فيها (ص ٣٧٠)

هذا ما آلمه من تعليق المؤيد فكتب في حال هذا الالم الشديد انتقاده الجارح وأوجب على صاحب المؤيد نشره ، فلم يجد هذا بداً من نشره ومن التعليق الطويل عليه بما يبرىء به نفسه ويحتج لها ، ولقد كان الاستاذ الشيخ علي يوسف يجل الاستاذ الامام في نفسه أرفع الاجلال ، وقد يخل بها في مؤيده لاجل السياسة بعض الاخلال ، وكان لابد له من الثبات على خطته السياسية في همز الحكومة ولمزها عند كل سانحة وبارحة ، ومن الاحتجاج لنفسه عند النزوات الجامحة ، وقد أصاب في رده على الاستاذ الامام في شيء واحد وهو تحتيمه عليه نشر كتابه الانتقادي بنصه ، فلو أنه وقد بين له خطأه فيما كتب طالبه بكتابة مايزيل التأثير السيء للتعليق بما يراه هو لكتب مايرضيه ويسره

أما قول الشيخ في الوجه الثاني « انه لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر إعانة للحكومة نفسها » فهو مغالطة إذ الاستاذ الامام لم يسند اليه هذا القول وانما أسند اليه قوله « انها إعانة للجيش المحارب » ووجه إنكاره بقوله : كأنها اعانة للحكومة نفسها إلى الحرب » والفرق بين المشبه والمشبه به ظاهر

وأما قوله في الوجه الخامس « أما تأويل عبارة الزلفى بما يصرفها عن عطوفة

ناظر الداخلية الى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلا حق لمولانا الاستاذ فيه بوجه من الوجوه » الخ فهو مخطيء فيه من جهة دلالة اللفظ ، ومصيب فيه من ناحية القصد ، ولم يكن الاستاذ الشيخ علي رحمه الله تعالى دقيقا في مدلولات اللغة ، فنص عبارته « أو ذلك مشروع مبغض عندالانكليز وهذا زلفى اليهم؟» أي وهذا المشروع زلفى اليهم . فهوقدوصف المشروع نفسه بانه زلفى للانكليز، والمشروع عمل اللجنة لاعمل ناظر الداخلية. وقد اعتذر بانه لايقصد هذا المعنى ولكن اللفظ لايدل على غيره ،وانما لامه الاستاذ على لفظه ،لاعلى قصده ،والناس يقرؤن لفظه لاقصده. فكيف يقول ان الاستاذ ليس له حق فيه بوجه من الوجوه،لولا أنه يجهل المدلول اللغوى أو يتجاهله؟وماعداهذين الوجهين مما أطال به فلاطائل تحته

اعانة منكوبي الحريق بميت غمر

ألف الاستاذ هذه اللجنة من الجمعية الخيرية الاسلامية وكان يذهب بنفسه الى منازل أمراء الاسرة الخديوية وغيرهم من الكبراء فيطلب منهم الاعانةلها، لان لزيارته لهم من التأثير المقتضى للبذل الكثير ماليس للمطالبة بالكتابة ، وأرسل منشوره البليغ اليهم ، وانني أكتفي هنا بما ذكرته في الجزء الثاني من هذا التاريخ في شأن هذه الاعانة . وهذا نصه :

﴿ الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر ﴾ (*)

(وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات)

عرض لي مامنعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بحادثة ميت غمر من بعض الافواه كانها من الحوادث المعتاد حدوثها، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي. فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين ـ سكان ميت غمر ـ ويصهر من فؤادي مايصهره من لحومهم . أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناي إلاقليلا. وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله ،

(*) نشرت في جريدة المؤيد في صفر سنة ١٣٢٠ — ١٢ مايو سنة ١٩٠٢

وله هذا العدد الجم من اخوة واخوات ، يتقلبون في الشدة والبأساء ، اردت أن ابادر بما استطيع من المعونة،وما استطيع قليل لا يغني من الحاجة ولا يكشف البلاء. ثم رأيت ان أدعو جمعاً من اعيان العاصمة ليشاركوني في افضل اعمال البر في اقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ،وتأخر آخرون،وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيراً من اعتذر ،وغفر لمن تأخر.

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كتبت من قبل الى سعادة السر تشريفاتي . فوجدت رقيما منه بعد الانصراف يفيد ان الجناب العالي قبل ذلك

سبق السابقون من ارباب الجرائد إلى الدعوة وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله افضل الجزاء ، ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر اذا تشتت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة في مركز الجمعية الخيرية الإسلامية ان يكتب إلى حضرات المكتتبين الاولين بالانضمام إلى إخوانهم، وأن يرسلوا مندوبين منهم إلى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤا .

شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم . وسيكتب إلى غيرهم من اعيان المديريات الأخر .

ليس الحادث بذي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين، منهم الاطفال الذين فقدوا عائليهم ، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس اموالهم ، ويتعذر عليهم ان يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم . وإلا اصبحوا متشردين متلصصين او سائلين. والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون مأوى يأوون إليه . ولا مال لهم يقيمون به مايؤويهم من مثل بيوتهم المتخربه . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الامر ان يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين

كتبت إلى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس، وستر عوراتهم ، ووقايتهم من الموت ؟ ثم طلبت احصاء وقتياً لأصناف المصابين

وطبقاتهم ، حتى يكون ذلك التوزيع على قاعدة صحيحة . ونرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكمل وجه ، واف بالمقصود متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة

سيودع مايجتمع في خزينة محافظة العاصمة حسب مارآه المجتمعون بالاتفاق ، وفي ذلك ضمانة من الضياع ، وبعد عن مرامي الظنون ، وما بقي من تفصيل محضر اللجنة فهو على ماتراه بعد .

هذا مارأيت أن اكتبه عن سبب الاجتماع وخبره ، وأختم ذلك بالمنشور الذي أوجه به إلى اهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة ، من بذل مال وبذل سعي

منشور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ماعليه اهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم ، فهم بلا قوت ، ولا ساتر ، ولا مأوى ، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتمنى ان يكون كل الناس في معونته ؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به مانزل بهم ، ولينفق من ماله وهمته مايدفع الله به عنه مكروه الدهر ، إن شاء الله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعد الله ، فكلكم يؤمن الله ، وكلكم يوقن انه اصدق القائلين ، واقدر القادرين . فأرجو من همتكم ان تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة إخوانكم وان تبذلوا مافي وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون إلى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية

محمد عبده

(فائدة) قال المرحوم حسن باشا عاصم للاستاذ بعد عودته من توزيع هذه الاعانات وكنت معها : لو اعطيتني هذا المال الذى جمعته لاجل مدارس الجمعية ... فأجابه بقوله : ماجمع لشيء وجب صرفه فيه ، وإننا نفترص الحوادث الموجعة لنعلم الناس البذل في سبيل البر ، ومتي اعتادوا البذل في بعضها ، هان عليهم البذل في سائرها

المقصد الخامس

(من الفصل السابع)

في أسفاره

للسفر والسياحة في الارض فوائد كثيرة في صحة الجسد ، وتهذيب النفس ومشاهدة شؤون الخلق ، ومعرفة سنن الله وحكمته في الارض ، والاعتبار بأحوال الامم في علومها وأعمالها وبداوتها، وحضارتها، وقوتها وضعفها، ومثل الاستاذ الامام في علمه الواسع وعقله المنير من يستفيد من السفر مالا يستفيد من دونه علما وحكمة ، ومعرفة وبصيرة ، وقد كتب في تأثير بعض الاسفار في نفسه مانشرناه في ترجمته من المنار وهذا نصه (ص٦٥ ٤م ٨)

« أما الاسفار إلى البلاد العثمانية ومعاشرة كثير من المسلمين غير مسلمي مصر فقد كان من نتائجها عنـدي أني عرفت حق المعرفة ان مرض المسلمين نشأ من أمرين : الاول الجهل بدينهم وإبداع مالم يكن منه وإلصاقه به ،واختلاط ماهو من الدين بما ليس منه، حتى صار ماهم عليه ديناً أجنبياً عن أصل الدين الاسلامي الطاهر الرفيع . والامر الثاني استبداد الحكام الظالمين من المسلمين في جميع أقطار الارض

« وقد سافرت بعـد ذلك مرات إلى أوربا وأفريقيا فكان أثر الاسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته لأول الامر ، وأثر الاسفار في أوربا قوة الامل في إصلاح أحوال المسلمين ، فما من مرة أذهب إلى أوربا إلا ويتجدد عندي الامل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها ،وذلك باصلاح ماأفسدوا من دينهم ، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون افراد ظلمتهم. وهذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عند ماأعود إلى دياري لكثرة ماألاقي من العنت، وشدة ماأصادف من المصاعب، وسوء ماأرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم ، وشدة عداوتهم لانفسهم، وقوة رغبتهم في تمكين ظالميهم

من رقابهم،وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، لكني متى عدت الى أوربا ومكثت فيها شهراً أو شهرين تعود إليَّ تلك الآمال، ويسهل علي تناول ما كنت أعده من المحال، ولا تسألني عن السبب في ذلك فاني لا أستطيع تفصيله ولكن هذا ما تحدثه الاسفار في نفسي » اه

أقول والمتبادر الى الذهن ان السبب في ذلك هو ما يسمى في العرف الآن بتأثير الوسط أي البيئة من المكان والمكين ؛ لان كل انسان يحل في مكان ويشاهد حال قوم لا بد أن يتأثر بشيء مما هم عليه بحسب استعداده وما وجهت اليه نفسه . وبلاد أوربا قد ارتقت ارتقاء عظيما في العلوم والصناعات والكسب والسياسة وغير ذلك ، فمن سافر اليها وكان من همه التجارة يزداد معرفة بطرقها ونشاطا في عملها ، ومن كان همه غير ذلك يتأثر بارتقاء القوم فيه فتنهض همته اليه، وناهيك بعلو كعب القوم في خدمة أمتهم ، وإعلاء شأن ملتهم، وما يبذلون في هذه السبيل من الاموال ، وما يركبون لها من الاهوال ، فمن ير ما هم عليه من العزة والسيادة ، وهو يعلم ما كانوا فيه من الضعة والمهانة ، فهو جدير بأن يكبر أمله في قومه ، ولا ييأس من غده في يومه ، وكان تغمده الله برحمته يقول لي عند ما يريد السفر إلى أوربا : إنني أذهب لأجدد نفسي : أي فقد اخلقتها معاشرة الكسالى واليائسين اه

وقد توجهت همته في هذه السنين الاخيرة لزيارة الشعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر وكان عازما على زيارة الهند وإيران وقزان والقوقاس في هذه السنة وما بعدها، فصرفه المرض عن عزمه في هذا العام ، ثم قطع آماله كلها الحمام اه. وقد نسيت هنالك ذكر الاستانة فأبدأ بذكرها الآن

(سفره الى الآستانة)

كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يود ان يسيح في البلاد الاسلامية ليختبر أحوال المسلمين فيها ، وقد عن له أن يبدأ بزيارة الآستانة فذكر ذلك للورد كرومر في حديث له معه فكان رأيه انه لا يظن انه يسر بهذه الزيارة ، وانه لا بأس مع

ذلك بان يعرف حال هذه العاصمة القديمة والدولة التاريخية ، والظاهر ان اللورد كان يعتقد انه لاشيء يقطع أمل الأستاذ من حياة الدولة العثمانية إلا زيارته للاستانة

وقد سافر هو والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وكان سمو الخديو قد سبقهما اليها ، وانني أنشر هنا ماكتبته عن هذه المسألة في موضعين من مجلد المنار الرابع (أحدها) ما نشر في الجزء المؤرخ في غرة جمادي الاولى سنة ١٩ الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٩٠١ في باب الأخبار التاريخية (ص٤٣٥) وهذا نصه :

﴿ فضيلة مفتي الديار المصرية في الاستانة العلية ﴾

سافر صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في هذا الصيف إلى دار السعادة العلية ، ولما ألقى مراسيه فيها بادر حالا إلى قصر يلدز العامر حيث مقام مولانا وسيدنا السلطان الاعظم أيده الله تعالى ، وحينما أوذن مولانا بحضوره أمر بتبليغه السلام، ثم انصرف الأستاذ من القصر بعد ان أقام مع عطوفة الباشكاتب السلطاني نحو ساعة . وبعد ذلك صدرت الارادة السنية بان يعد لفضيلته دار مخصوصة من أحسن دور الضيافه السلطانية على ماجاء في بعض الاجوبة من الاستانة ونشره المقطم الاغر . وورد في بعض الاخبار الخصوصية الموثوق بها ان صاحبة الدولة والعصمة والدة الجناب العالي أمرت بان يدعى أيضاً للنزول في قصر ببك، ثم أكد الخبرين معاً بعض الوجهاء الذين حضروا من عهد غير بعيد من هناك وقل ان الاستاذ أقام في قصر ببك يومين او ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى دار الضيافة السلطانية، ولكن المكاتيب التي وردت من الاستاذ نفسه لم تذكر أمر الضيافة بالمرة

ومما ينبغي ذكره من غرائب مافي مصر من فساد الاخلاق ، والجراءة على مقام السلطنة فما دونه من المقامات الرفيعة ، ان الذين لاعمل لهم إلا السعاية والتجسس والكذب على خليفتهم وسلطانهم أرسلوا إلى المابين الهمايوني وإلى بعض الكبراء في الاستانة تقارير خلقوا فيها ماشاؤا من الافك وقول الزور يريدون بذلك ان يتوسلوا ليتوصلوا إلى التباعد بين الاستانة العلية ومصر لانهم يعلمون

ان قول الاستاذ في مصر هو القول الفصل، الذي يؤثر ويعول عليه جميع أهل الفضل، من العلماء والوجهاء والموظفين بل الذي لايشك في صدقه أحد يعرفه

كتبوا ما كتبوا وليس لهم شيء يتوكؤن عليه وقد اتفق أن سافر في السفينة التي سافر فيها الاستاذ المفتي صاحب المؤيد الفاضل فكان رفيقا له ، وكان لهم (أي أولى السعاية) في هذه المرافقة الاتفاقية القال والقيل ، لعلمهم بأن جريدة المؤيد أعظم الجرائد تأثيراً في القطر المصري وهي عمدة جميع مسلمي مصر في السياسة والاخبار، وقد خدمت الدولة العلية والحضرة الحميدية خدمة لها في القطر اعظم تأثير

ومما لايعزب عن الذهن ان مفتي الديار المصرية وكبير العلماء فيها لابد أن يزور صاحب أكبر منصب علمي إسلامي وهو شيخ الاسلام وقد كان معه في زيارته له رفيقه وأرسل هذا الى جريدته مادار بينهما من الحديث، ولا يتحدث هذان الامامان الجليلان إلا في العلم والعلماء ووظائفهم ، وقد نشرنا جواهر الحديث في المقالة الافتتاحية ،ونقول ههنا ان الجواسيس اعداء الدولة قد كتبوا بمناسبة ماذكره المقطم من استياء العلماء من الحديث، تقارير برقية وبريدية مزورة على العلماء في ذلك ، ومن الناس من يقول ان بعض المتعممين المغرورين وافقهم على ذلك وانه هو الذي غش المقطم حتى كتب ماكتب . ولو ان العلماء استاءوا حقيقة لراجعوا في ذلك شيخهم الاكبر شيخ الازهر ،وهو كان يكتب الى الاستاذ المفتي بذلك . ويقال ان أجرة التقرير الذي ارسله (فلان بك) بلغت ثلاثة جنيهات وقد اختلف من سمع ذلك في موضوع التقارير، ويقال ان في بعضها طلب أن يكذب صاحب الدولة والسماحة شيخ الاسلام الحديث الذي نشر في المؤيد أو رجع عنه!!!

وعندنا ان بعض الجرائد هي التي هولت الامر وان شيخ الاسلام إذا علم ان بعض من ينتسب إلى العلم ينكر قوله وقول مفتي الديار المصرية او يستاء منه فانه لايرجع إلا عن كلمة واحدة منه، وهي تسميةهؤلاء المستائين « متفننين » ويستبدل بها لقب « ممتوهين » ومثل هؤلاء لاتلتفت الدولة الى كلامهم، ولا تنفذ لهم رأيا، ولا تجيب لهم طلبا، لانها بذلك تفتح على نفسها باب امتثال كلام من يجهل الزمان وما يستلزمه ويناسبه، وربما يجرئهم السماع لهم إلى طلب مافيه خراب

الدولة . وقد ذكرنا هذا ليتعجب العقلاء في سائر الاقطار من الخلل والخطل الموجود في مصر، أصلحها الله تعالى وأصلح أهلها آمين

وأما الموضوع الآخر فهو ماأشرنا اليه من حديث المفتي مع شيخ الاسلام في الاستانة وقد مهدنا له بمقدمة طويلة في حال العلم والعلماء، ونمهد له هنا بتلخيص مقدمة المؤيد له

زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام

أرسل الاستاذ صاحب المؤيد إلى جريدته مقالة عنوانها (العلماء هداة الامة ومن هم ؟) مؤرخة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠١ فنشرت بتاريخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ الموافق ٣٠ يوليو قال في أولها :

« في اليوم الثاني من وصولنا إلى دار السعادة رأى صاحب الفضيلة مولانا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ان يبدأ بعد اداء فرض اخلاص الولاء لجلالة الخليفة الاعظم بزيارة صاحب الدولة والسماحة مولانا جمال الدين افندي شيخ الاسلام المعظم وكنت لم أحظ بمجلسه في زوراتي الاولى لدار السعادة فرأيتها نعم الفرصة للتمتع بمشاهدته، والوقوف على آرائه وأفكاره... فلا فرصة لي أعظم من ان أحضر مجلسا جمع بين امام مصري علم القراء ماله من الفضل وسعة الاطلاع وعلو الفكر وبعد الغور في أحوال الزمان، وبين امام الامة الاعظم شيخ الملة والاسلام في هذا العصر الحميدي لأروي مايقولان »

ثم ذكر سيرهما إلى مايسمى (باب المشيخة) ومكانه ووصف البناء، والاستئذان على الشيخ باسم مفتي الديار المصرية ومبادرته إلى الاذن ودخولهما عليه وتلقيه للمفتي بالترحاب، ووصف مجلسه ومن فيه واشارته للحاضرين بالانصراف ليخلو المجلس للزائر . بعد هذا قال: ان شيخ الاسلام افتتح الحديث مع فضيلة المفتي بالسؤال عن وقت وصوله إلى دار السعادة بعبارة عربية فصيحة وانتقل الحديث إلى مسألة النطق بالعربية الفصحى وانهم على تعلم فنونها لم يتمرنوا عليها كثيراً، ومما قاله شيخ الاسلام في ذلك انه رأى في الطائف بعض اعراب

الحجاز ينطقون باللغة الفصحى التي لايحسنها أهل مكة وأمثالهم . وتكلم المفتي في تقصير المسلمين حتى في البلاد العربية في اتقان العربية ...

وذكر المؤيد ان الشيخ سأل المفتي عن قاضي مصر يحيى افندي فأثنى المفتي على علمه وأدبه وفصاحة نطقه ، ثم سأله عما في مصر من المحاكم غير الشرعية فذكر له المفتي أنواع المحاكم وان الذي ألجأ الحكومة إلى إيجاد محاكم غير شرعية هو تقصير العلماء وقد نقلت عن المؤيد بقية الحديث بنصه فيما يلي :

﴿ حديث شيخ الاسلام ومفتى الديار المصرية في العلم والعلماء ﴾

قال (المفتي) بمناسبة كلام مع الشيخ (وهو الكلام في المحاكم غير الشرعية) إن كان للمسلمين شكوى مما يرونه ماساً بشريعتهم فاجدر بهم ان يشتكوا من أنفسهم لاممن يعتدي عليهم

(الشيخ) لاريب في ذلك فان حياة كل امة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه ومن غالب الزمان غلبه الزمان . ولكننا نؤمل ان تتغير الحال ويتنبه المسلمون لما فاتهم فيحصلوه وذلك لايكون إلا بهمة علمائهم ، وحملة شريعتهم

(المفتي) نعم ذلك لايكون إلا بهمة علمائهم ولكن العلماء في انصراف تام عن شؤون العامة وقد تركوا أهم تلك الشؤون إلى الحكام ووكلوا بعضها إلى العامة أنفسهم ، وجعلوا نصح العامة والخاصة او الاشتغال بما يهيء لذلك من العمل مما لايعني ، ولم تبق لاحد منهم علاقات مع العامة ، اللهم إلا أولئك القصاص الذين يسمونهم وعاظا او مدرسي مساجد وما هم من علم الدين وشؤون العامة على شيء ، وهم يفسدون أكثر مما يصلحون

(الشيخ) لاشك ان أغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة باحوال الناس ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر ، ولو خبروا الزمان وأهله لامكنهم ان يحموا شرعهم ، ويعلوا شأن أهل ملتهم ، مع ان العالم لايكون عالما حتى يكون مع علمه عارفا ، والعارف هو الذي يمكنه ان يوفق بين الشرع وبين ماينفع الناس في كل زمان بحسبه ، ومن كان بارعا في العلوم الدينية ولكن لايعرف حال اهل

عصره ، ولا يراقب احكام زمانه ، فلا يسمى عالما ولكنه يسمى « متفننا » اعني انه يعرف فن النحو او فن الفقه او ماأشبه ذلك ، ولا يسمى عالما على الحقيقة حتى يظهر اثر علمه في قومه ولا يظهر ذلك الاثر إلا بعد علمه باحوالهم وإدراكه لحاجاتهم

(المفتي) ماتقوله سماحتكم هو المعروف عند الاولين من علمائنا . وقد جاء في كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بانه (العاكف على شانه ، البصير بأهل زمانه) وهو تعريف للعالم بالغاية من علمه والعكوف على الشأن ان لا يضيع العالم زمنه إلا فيما يفيده ويفيد العامة ، لان هذا هو شأن العالم الذي ينبغي ان يعكف عليه . ولذلك اتبعه بالوصف الآخر وهو البصر باهل الزمان لان البصر باهل الزمان انما يدخل في الغاية من العلم لأنه وسيلة للتمكن من العمل به في اهل ذلك الزمان . وكأن صاحب هذا التعريف يقول من فرط في شيء من زمنه ولم يستعمله فيما من شأنه ان يستعمله فيه ، او اساء استعماله بسبب جهله باحوال هذا الزمان ، فهو ينثر المقال نثراً لايبالي كيف يقع ، ولايعرف هل يصفع عليه او يخضع له ويخشع . ومن كان كذلك فهو خارج عن مفهوم العالم لاينطبق عليه تعريفه . وغاية مايمكن أن يصل اليه إن عرف شيئاً من العلم ان يسمى حافظا له

(الشيخ) نعم ان مما يؤسف عليه الاسف العظيم ان من كان من علماء المسلمين على شيء من العلم فانما يعد في الحقيقة متفننا ولا يصح ان يطلق عليه اسم العالم . وبذلك بقيت الشريعة مدفونة في الكتب وحرمت ارواح اهليها من التمتع بآدابها — ثم تبسم قائلا : ولعل الذي مال بحملة الشريعة إلى البعد عن شؤون العامة هو انهم أرادوا ان يخدموا أنفسهم خاصة دون الناس عامة

(المفتي) وهل تعد سماحتكم ذلك خدمة لانفسهم مع ماتراهم فيه من الضعة والخمول ، وحرمان اعاليهم من الحقوق التي يتمتع بها اسافل غيرهم ، وفرار الدنيا من وجوههم وهم أتعب الناس في طلبها ، وبغضها لهم وهم احرص الناس على حبها . واذا قنع احدهم بشيء منها فهي وقفة العاجز لاقناعة العزيز . انما كانوا اعز واكرم ، ومقامهم اسمى واعلى ، لو كانوا علماء على النحو الذي عرفه أسلافنا

(الشيخ) صدقت فان من أراد ان يخدم نفسه وجب عليه ان يخدم العامة

لاندراج المصلحة الخاصة في المصلحة العامة فاذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة أيضاً ، واذا حفظت الاولى حفظت الثانية

(المفتي) نعم يامولاي هذه هي القاعدة الحقيقية ولكن مدرسي كتب الفقه لايعتنون بتقريرها لطلبتهم . فهؤلاء الذين سمتهم سماحتكم متفننين لم يرووا هذه القضية فيما درسوا ، فلعل ذلك عذرهم فيما نسوا » اه بحروفه عن المؤيد

***

الفائده في هذا الحديث هي الارشاد الى العمل بالعلم ونفع الناس به ، فمن كان يصدق عليه من العلماء يسر به ، ومن كان حجة عليه يستاء في نفسه ولكنه لايظهر الاستياء لئلا يكون مسجلا على نفسه ذلك ، اللهم إلا أن يغلب على أمره باعتقاد ان الكلام ظاهر الانطباق عليه عند الناس لعلمهم بأنه لم يحصل من العلم إلا حفظ بعض الاصطلاحات التي لا أثر لها في عمله، ولا يمكن أن ينفع بها الناس، أو لحسد شديد لمن ظهر الحق على لسانه ، فهو يكابر الحق ويجادل فيه بعد ماتبين وعلم انه الحق وان مابعده هو الضلال .

نشر الحديث في المؤيد فذكر المقطم في العدد الذي صدر منه في اليوم التالي لنشره ان العلماء في مصر عموما وعلماء الازهر خصوصاً قد استاؤا منه ووقع عليهم كالصاعقة، فنشر المؤيد في اليوم الثالث مقالة لبعض العلماء يقيم الحجة فيها على المقطم بأنه ليس من المعقول أن يعلم باستياء العلماء كلهم في مصر في صبيحة يوم واحد فلم يجد المقطم جوابا إلا انه استنجد ببعض العلماء المتفننين الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فكتب له نبذة بعد يومين زعم انه بين فيها سبب استياء العلماء من حديث الشيخين كأنه حقيقة واقعة . وأما السبب الذي كتبه فهو مما يضحك الناس على حماقته ، وقد خدم المقطم الاسلام باظهار سخافته، كأنه يقول هذه أفكار الذين يعارضون كلام الائمة الراسخين، ولا ندري هل قصد المقطم هذا أم لا ؟

زعم ذلك المتفنن ان السبب في استياء العلماء المزعوم انه يوجد فئة ذات عُدة عظيمة يريدون ابطال مذهب اهل السنة ورأوا أن يسقطوا العلماء من نظر

العامة ليتمكنوا من ذلك ، لان العلماء هم حراس السنة فهم دائما يذمون العلماء ، وجاء كلام الشيخين في ذم العلماء مؤيداً لكلامهم !!!

لعمري لايقول هذا القول من بلغ أن يكون متفننا أو حافظا وانما هو غبي لم يفهم معنى الكلام ، وإن كان لم يعزب عن افهام العوام، الشيخان يحثان العلماء على العمل بعلمهم وأن لا يقتصروا على حفظ الاصطلاحات الفنية ، وهل يمكن ان يحرسوا السنة إلا بهذا ؟

هؤلاء البابية قد ألفوا كتابا يريدون به ابطال مذهب السنة بل والاسلام كله ، وقد نشروه حتى في الجامع الازهر، فهل قام من العلماء الذين سماهم انصار السنة ، من حامى عن السنة ، إلا الاستاذ مفتي الديار المصرية لذى اتفق مع الاستاذ شيخ الجامع على تأديب ناشره ، وغير هذا الفقير الذى رد على كتابهم في المنار ؟

وهؤلاء دعاة المسيحية ينشرون الكتب والجرائد في الرد على الاسلام ، وقد اشتغلت بشبههم الاذهان ، فهل تصدى هو أو غيره من اهل الازهر للرد عليهم ؟؟ وهذه البدع والمنكرات فاشية فهل انكرها منهم أحد؟

يتخذ صاحب المقالة المقطمية اسم العلماء ترساً يدافع به الحق الذى يكلفه العمل، ويعد هذا التكليف طعنا بالعلماء جميعاً، كأنه يحكم عليهم بانه لا يوجد فيهم عامل علمه خادم لدينه ، ويسمي الذى يعلق آمال المسلمين بهم طاعنا فيهم، ويزعم ان الاولى تعليق الآمال بالحكام والامراء وهو يعلم سلطة الاجانب عليهم ، فنعوذ بالله من الجهل ونعوذ بالله من الغش

جعل الله علماء الدين الذين أورثهم الكتاب ليكونوا نوابا عن الرسل في الهدى والارشاد على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه لايعمل به ، ومقتصد يشتغل في اصلاح نفسه والعمل بما وجب عليه ، وسابق بالخيرات يعمل ويعلم الناس ويرشدهم الى الاهتداء به (هذا التفسير هو الذى اختاره العلامة البيضاوى وغيره) وهذا القسم الثالث هو الذى تحيا به الملة ، وتحفظ السنة ، وقد ضعف الاسلام، والمسلمون بضعفه وكادوا يتلاشون بتلاشيه . وكلام الشيخ والمفتي ينفخ روح الغيرة في القسم الاول والثاني ليرتقوا الى القسم الثالث . وكلام صاحب المقالة

القطمية يسجل عليهم بانهم من القسم الاول أو الثاني ويسمى هذا نصراً للسنة وما هو إلا نصر للمقطم، وتصديق له بأن العلماء قد استاؤا من كلام الشيخين، ولعله هو الذى غشه أولا وصدقه ثانيا

عهدنا بهذا المغرور انه يحرم نشر الآيات القرآنية في الجرائد فلماذا ملأ مقالاته بالآيات التي حرفها عن مواضعها ووضعها حيث شاء الهوى (يحلونه عاماً ويحرمونه عاما) وعهدنا به يحرم الكتابة في الجرائد الاسلامية، ولو لخدمة الملة الحنيفية والدولة العلية ، فكيف استحل أن يكتب في جريدة يعتقد هو واكثر قومه إن لم نقل كلهم أنها ضد الدولة وغير خادمة للملة ؟ ألم يجد جريدة يدافع فيها عن السنة والاسلام وعلمائه الاعلام، إلا هذه الجريدة التي لم تنشأ لهذا القصد ولولا إرادة تأييد كلامها لما نشرت مقالاته . لانريد بهذا طعناً بالمقطم وانما نريد تفنيد هذا المغرور بما هو مسلم عنده ، وسنبين وظائف العلماء في الجزء الآتي، وإلى الله تصير الامور (١)

ما كتبه مصطفى بك كامل في المسالة

ان جريدة اللواء لم تكتب شيئا في موضوع حديث شيخ الاسلام والمفتي لان صاحبها مصطفى كامل بك كان في أوربة فلما وصلت اليه جرائد مصر أرسل إلى جريدته مقالة من باريس نشرت في ٧ جمادى الاولى (٢٢ أغسطس) عنوانها (كلمة في سبيل العلماء) ذكر في أولها « الحكم الشديد القاسي الذي نطق به شيخ الاسلام ومفتي مصر بشأن العلماء » واهتمام الرأي العام في مصر بهذا . ثم ذكر انه « لاينكر أحد في مشارق الارض ومغاربها أن الاسلام في حالة يرثى لها وان المسلمين فقدوا في هذا العصر كل قوة ونفوذ ... » واعترف بان لكل باحث الحق في ابداء رأيه بحرية في هذا الموضوع .

ثم ألحى باللائمة على شيخ الاسلام ومفتي مصر في حكمهما على علماء العصر ونسيانهما أو تناسيهما انهما من هؤلاء العلماء « ومسؤلان مثل الآخرين (بل قبلهم) عما نحن فيه من تأخر وجهالة وسوء حال »

(١) قد وفينا بهذا الوعد ولله الحمد

ثم احتج على شيخ الاسلام بانه لم يرفع صوته قبل الآن بالنصح للمسلمين الخ ثم انتقل إلى المفتي وقال انه لايناقشه « الحساب على مامضى من أعماله ولا يذكره بالحوادث المشئومة وشأنه فيها » وانه يتناسى ذلك ويطالبه بالعمل لاصلاح حال المسلمين بدلا من اعلان الحرب على العلماء ـ وذلك العمل الذي يطالبه به هو أن يستقيل من منصب الافتاء وينشيء مدرسة لتربية علماء اللازم للاسلام المعين للمسلمين » قال « يومئذ يحق له أن يحكم على القصرين ... يومئذ نحني له الرءوس تعظيما واجلالا ، ونشهد له أمام الناس والتاريخ بأنه أب الحركة الاسلامية الحديثة ، وروح الحياة الملية الجديدة » الخ

وقد رددت على هذه المقالة في جزء المنار الذي صدر من المجلد الرابع في غرة جمادى الاولى من تلك السنة فأذكر من الرد ماهو خاص بحديث الشيخين ـ لان مايتعلق بالرد على ماقاله في حوادث الثورة العرابية التي دعرعنها بالحوادث المشئومة قد تقدم في ص ١٤٧ من هذا التاريخ ـ وهذا نصه (ص ٥١٠ م ٤) :

« صدى حديث مفتي الديار المصرية مع شيخ الاسلام في الآستانه »

طار خبر هذا الحديث في المؤيد ثم في المنار إلى جميع البلاد الاسلامية فتلقاه العقلاء والفضلاء بالقبول ، ونشرته برمته الجرائد الاسلامية في الشرق والمغرب ليعم نفعه ، ويعرف عامة المسلمين كما يعرف خاصتهم بان أكابر علمائهم معترفون بان معظم بلاء المسلمين قد جاءهم من تقصير علمائهم في خدمة الامة والملة

« قول صاحب جريدة اللواء في الحديث »

عرف صاحب هذه الجريدة عند الخواص وأهل الرأي بالتجاوز والشذوذ والافن والخطل ، ومع هذا لم يشذ عن الجرائد الاسلامية المعتبرة في الاعتراف بصدق الحديث وإصابته المرمى وقرطسته في الهدف ولكنه لم يترك شذوذه وتجاوزه الحدود عند الكلام عليه فجعل الحديث برأيه الافين حجة على المتحدثين ، وسأل من لاينظر في جريدته من شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية عن خدمتهما للاسلام أما شيخ الاسلام فصاحب اللواء يعرف أن مولانا السلطان أيده الله بتوفيقه

لم يترك له ولا للوزراء استقلالا بعمل يتعلق بالامة بل وضع جميع اعباء الدولة والامة على كاهله، فإن كان هناك تقصير فليسأل عنه صاحب الارادة والنفوذ المطلق، وياليت شعري ماذا يقول صاحب اللواء إذا سأله شيخ الاسلام عن رأيه في الاصلاح الاسلامي الذي ينبغي أن يعمله؟ هل يشير عليه بمثل ما أشار على مفتي الديار المصرية: أن يترك وظيفته وينشيء مدرسة كمدرسة مصطفى كامل او مدرسة الوطن أو مدرسة باب الخلق!!!

وأما مفتي الديار المصرية فقد سمع الصم نداءه بالارشاد إلى الاصلاح وما العلماء إلا مرشدون، وأبصر العمي سعيه في خدمة الازهر الشريف والجمعية الخيرية الاسلامية التي لها عدة مدارس كل واحدة منها خير من جميع المدارس الاهلية، وجمعية إحياء العلوم العربية واعترف المكابرون مع المنصفين بمروءته وبذل جاهه وماله في خدمة المسلمين في الحكومة وغير الحكومة. ومن أعماله القريبة تقريره في إصلاح المحاكم الشرعية الذي أجمع على استحسانه العلماء والفضلاء وجزموا بانه لم يحاب الحكومة في إظهار خطأها وانه شخص الداء وبين الدواء ووصف طريق العلاج. ولكن صاحب اللواء في مصر لايسمع ولايبصر، ولا يحس بهذا كله ولايشعر اهـ

وأزيد على هذا ان المرحوم مصطفى كامل كان يعلم ويقول أحيانا ان علة العلل لمصائب الاسلام والمسلمين ملوكهم وامراؤهم، وان العلماء لايستطيعون عمل شيء بدون رضاهم، وان الاستاذ الامام أرسل عند ما كان ببيروت لائحة الى شيخ الاسلام في ذلك العهد ببيان مايجب من الاصلاح في الدولة كما سيأتي بيانه فلم يمكنه تنفيذ شيء منها، وكان مع هذا يقدس السلطان عبد الحميد، ولو ان شيخ الاسلام أراد أن يعمل شيئا بالاتفاق مع العلماء وانتقم منه السلطان لحمد للسلطان انتقامه، وحكم باستحقاق شيخ الاسلام له. وكان من أشد أنصار الخديو في مقاومة الشيخ محمد عبده في إصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والمساجد، وهكذا شأن السياسة في اتباع الهوى. وقد اتفق رجوعه من أوربة في الباخرة التي عاد فيها الاستاذ الامام وتعارفا مدة كما تقدم في ص ٥٩٣

﴿ كتاب الاستاذ الامام إليّ بعد خروجه من الاستانة الى أوربة ﴾

ولدنا العزيز

لم يصل إلي كتابك إلا هذا اليوم ٢٨ أغسطس وذلك ببركة الآستانة العلية - الشيخ اسماعيل(١) قابلني في آخر يوم كان لي بالاستانة وصحبني من البيت الى الكبري ثم أمرته بمفارقتي وسافرت بعد ساعتين، أعطيته ورقة زيارة لنجل أحمد عزت بك ولا أدري هل يساعده أو يواعده .

لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيراً في الاستانة - وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وببقية نفسه

تعلمت في الاستانة مالم يكن ليعلم إلا بالمشاهدة ، وستسمع منه مايمكن التعبير عنه عند اللقاء إن شاء الله تعالى .

بودي لو يشترك الشيخ اسماعيل في عمل المنار ، احدكما يكتب والآخر يسافر ويدعو الى الاشتراك ويجمع القيمة وهكذا، ولا ادري هل يوافقك ذلك؟

ماذكرت عن الحموي(٢) ليس ببعيد عن اخلاق مثله ممن ينسون انفسهم متى حملوا وزر لقب من الالقاب . اللقب يثقل عليهم فيزهق ارواحهم من أبدانهم، ولا يبقى متعلقا باجسامهم إلا خيال لا يعرف شيئاً من انفسهم .

كتبت للشيخ علي الآن ماقيل عنه وعن غيره . لم أر الى الآن شيئاً مما

(١) هو الاستاذ العالم الفقيه الشاعر الاديب الشيخ اسماعيل الحافظ الطرابلسي أصدق أصدقائي ومن تلاميذ الاستاذ الامام كان مجاوراً في الازهر من قبل هجرتي الى مصر ، ثم ذهب الى الاستانة لاجل الدخول في سلك القضاة الشرعيين وقد أوصى الاستاذ به نجل عزت باشا العابد ليوصي والده بمساعدته تطبيبا لقلبه وهو لا يرجو له نجاحا في الاستانة لدينه واستقامته، ولذلك استحسن أن يأتي و يشاركني في عمل المنار وقد كان هذا يوافقني الا أنه مثلي لا يصلح للسفر للدعوة الى الاشتراك وجمع القيمة فكلانا ليس بمالي ، ولهذا لم يكن من مصلحته هو مشاركتي في هذا العمل

(٢) هو سليم باشا الحموي كان صاحب جريدة تسمى الفلاح تعيش باعانة من الاستانة لانها تمدح السلطان ورجاله وتدافع عنهم. وقد قال الاستاذ الكواكبي هنا انه يطبع منها ١٠٠ أو ٢٠٠ نسخة يرسل نصفها الى الجرائد ونصفها الى الاستانة !؟

كتب في المقطم ، ولكن رأيت جملة في محليات المؤيد(١) رداً عليه لا بأس بها وعرفت انها من قلمك ، فان كانت التي تذكر فهذا رأيي فيها ، وإن كانت غيرها فاحفظها حتى اعود ، كما احب ان تحفظ ماقال المقطم ، وإن امكن ان ترسله إلي فاعطه لحموده .

وليتني أعرف ماذا كتب مصطفى كامل ، فقد بلغني انه كتب اني حبست في الاستانة الخ كما بلغني ان ذلك أشيع عندكم . ولا آسف على شيء اشد مما آسف على جهل قومي بأن السلطان لايستطيع حبسي لو اراده ، وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ، ولذلك اسباب لا احب ذكرها الآن

قال المويلحي لأحد اصحابي هنا إنك وصاحب الرائد تصبان على العلماء أدلاء التقريع والتعنيف ، وان ذلك قد يثير فتنة (في رأسه بالطبع) وانه يرى الصواب أن أكتب اليك لتكف عن ذلك ، وأنت تعلم انني لم أر شيئاً مما كتبت ولا مما كتب غيرك ، فان كانت شدة فخفف ، وإن كان قد كذب القائل فدعه يهرف .

اكتب مقدمة أسرار البلاغة وانك الذي سعيت بطبعه وانك كتبت عليه ماكتبت في الهامش ، واذكر انني قرأته وأصلحت مافي المطبوع من خطأ بقدر الامكان ، وانه لايوجد من خطأ غير مصلح إلا موضع أو موضعان ليسا من الاعتبار في شيء . وان شئت تركت هذا التنبيه الاخير . من رأيي أن لاينشر الكتاب ولا ينتهي طبع الخطأ والصواب إلا بعد الفراغ من دراسته ، أو على الاقل بعد الانتهاء من دراسة هذا العام في شعبان . اكتب المقدمة وابقها الى أن أحضر في آخر الشهر الآتي إن شاء الله(٢)

أنا أشتغل الآن ببعض ما كتب الافرنج على الاسلام وبما وقف عليه الافرنج من خط المسند ، وما ظهر لهم في لغة سبأ وحمير . البرد شديد ، والمطر لاينقطع ، وأحب أن ينتهي الرقيم ، والسلام محمد عبده

---

(١) كتب في المقطم يومئذ ان علماء مصرساءهم حديث المفتي مع شيخ الاسلام لانه طعن فيهم ، والذي نشر في المؤيد رداً عليه هو مقالة افتتاحية لي معزوة الى أحد العلماء وتنويه بها في الاخبار المحلية فذهل الاستاذ عن هذا عند الكتابة

(٢) لما حضر وقرأ مقدمتي لاسرار البلاغة أعجب بها ولم ينتقد كلمة منها .

(اقول) كان المراد من الدسائس وسعاية الجواسيس وشرهم (المويلحي) أن يحبس الاستاذ الامام أو يهان ، وهم لايجهلون ان السفارة البريطانية كانت بالمرصاد ، وانها لاتسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه ، والسلطان ورجاله لايجهلون هذا أيضاً ، وكان لأحمد شفيق بك (هو صديقنا شفيق باشا) سعي حميد في المابين لتلافي هذا الشر ، وبعد أن سافر الاستاذ الامام أرسل اليه أحمد شفيق الكتاب الآتي مع ما كان أرسل اليه بعنوان الاستانة من طريق صاحب المؤيد ومنها كتابي الذي اجابني عنه الاستاذ بهذا الرقيم .

ويعلم من كتاب احمد شفيق باشا ما كان من مراقبة سفير الانكليز لما يحدث — ومن حرص رجال السلطان عبد الحميد على حفظ كرامة الاستاذ الامام ولاسيما رئيس كتابه (باشكاتب المابين) الذي كان عازما على حمل السلطان على الانعام على الاستاذ برتبة علمية عالية وهو مايعبرون عنه بالتلطيف . وهذا نصه :

سيدي الفاضل

ها أنا أرسل اليكم جملة جوابات سلمها إليّ حضرة الشيخ علي يوسف لتوصيلها اليكم بلغت القول أغاسي(١) السلام من طرفكم فسألني عما اذا كنتم توجهتم الى لوندره حيث كان بلغه ذلك فأكدت له ان هذا الخبر مكذوب بالمرة

بعد توجهكم سألني الباشكاتب عنكم فقلت له انكم سافرتم الى أوربا ومنها ستتوجهون الى مصر، فأوراني سروره من عدم مساسكم بشيء ، وقال الحمد لله على أن تداركتم الأمر ، أما التلطيف فسيكون عند تشريف الجناب الخديوي

عند مقابلة سموه أرجوكم عدم اطالة الثناء فيما قمت به من الواجبات التي يفرضها علي حبي لسيدي لانه لاحظ علي في بعض الاعمال التي أجريتها في مسئلتكم

سفير انكلترا تأسف على عدم إمكانه مقابلتكم وكلفني أن أبلغكم ذلك ، ولما أفهمته المسئلة على وجه الاجمال تكدر ولكنه استصوب كل مافعلناه

واني اهديكم وافر التحية والاكرام والسلام افندم

٢٠ أغسطس سنة ١٩٠١ أحمد شفيق

---

(١) لعله محافظ بشكطاش الذى يعنيه ملاحظة الاستاذ وكل ماله علاقة بالسلطان

عودة الاستاذ الامام

(من الاستانة وأوربة)

لما عاد الاستاذ الامام من سفره هذا لقي من حسن استقبال علماء هذه البلاد ووجهائها مالم يسبق له نظير عند عودته من أسفاره السابقة ،وهني، بقصائد كثيرة وكان لذلك سببان (أحدهما) ان فضائله قد ذاعت في السنين الاخيرة بعد ترك منصب القضاء الذي كان شغلا شاغلا له عن كثير مما أتيح له بعد استبدال منصب الافتاء به، مما تقدم شرحه (وثانيهما) ارادة تكذيب من خاضوا في دعوى استياء العلماء وغيرهم من حديثه مع شيخ الاسلام في الآستانة ، وقد أثبت شيئاً من خبر هذه الحفاوة في المنار ، وبعض الشعر الذي هنيء به على كراهتي لنشر مدائح الاشعار ، وقد وصل إلى الاسكندرية في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ م) وهاك مانشره المنار في الجزء الذي صدر بهذا التاريخ من المجلد الرابع (ص ٥٤٩)

(قدوم مفتي أفندي الديار المصرية وحفاوة المصريين به)

جاء الاستاذ الاسكندرية في الموعد الذي ذكرناه في الجزء الماضي فاستقبله في الباخرة علماؤها ووجهاؤها، وجاء القاهرة في ناشئة ليلة الثلاثاء وكان في انتظاره على رصيف محطة السكة الحديدية الجماهير من العلماء وكبار الموظفين والقضاة والوجهاء وفي مقدمتهم أصحاب السعادة عبدالحليم باشا ناظر الاوقاف وبليغ باشا ناظر الدائرة السنية . وكانت كثرة عمائم الازهريين تستوقف الطرف ــ كما قال المقطم ــ وما أشرقت الشمس في اليوم التالي على عين شمس إلا وكانت مورد جماهير المهنئين من العلماء والوجهاء واستمر ورود الوفود بضعة أيام وكان من مسهلات الزيارة عليهم أن مصلحة السكة الحديدية زادت عدد القطارات التي بين القاهرة والمرج من يوم قدومه حتى لا تمر ساعة إلا ويسافر فيها قطاران أو ثلاثة . وجاء كثيرون من البلاد الاخرى إلى مصر لاجل زيارته . وا كتفى كثيرون بارسال الرسائل البرقية وقليلون بالرسائل البريدية، ولم يعهد مثل هذا الاحتفال والحفاوة

في مصر لعالم ولا لامير دون أمير البلاد الاعظم أيده الله تعالى وأيد به العلم وأهله

وقد تبرع السري الفاضل محمد بك أباظه بخمسة جنيهات لادارة المنار شكراً لله تعالى على قدوم الاستاذ وجعلها عادة مستمرة وهي قيمة الاشتراك بعشر نسخ توزعها الادارة على مستحقيها مجانا

وكتب العلامة إمام اللغة الشيخ محمد محمود الشنقيطي مهنئا له وأنشدها بحضرته:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

للجـــامع الازهر المعمور عاد على ... رغم الحسود فتى مصر ومفتيهـا
محمد الفحـل عبده بدر هالتــه ... خيراته دِيمة هطـلاء يؤتيهـا
ميسر لفعـــال الخير قاطبـــة ... تأنيـــه طلابها تترى فيؤتيها
سفائن العلم في ذا الشرق لان غدت[1] ... أعـلامهـا بيـــديه وهو نوتيها
لم يحسـدنّ على ما الله خولهم ... من فضله الناس من نعمى يؤتيها
لن ينكث العهد ان ينكثه ناكثه ... بل عقدة العهد يحكيها ويحتيهـا
وتعلمونَ جميعـاً ما علمت به ... من ذي المكارم ماضيها وآتيها
هلا نظمتم لكم عقدا مكارمه ... اجرتم خرس فرس حول يختيها

(وقال أيضا يخاطب الامام المفتي)

أيا من قد نأى عنا وغابا ... وبعد قضائه الحاجات آبا
تغنينا بشعر الصدق لمـا ... عزمت إلى أباطحك الايابا
«وكأس بالاباطح من صديق ... يراه لو أصبت هو المصابا
ومسرور بأوبتنـا اليه ... وآخر لا يحب لنا إيابا»

وقال أيضا هذا اليتيم:

إلى عين شمس عدت يا شمس عصرنا ... ويا رجل الدنيـا ومفتي مصرنا

وحلتي هذه سبيلها سبيل حلة عائشة بنت طلحة رضي الله تعالى عنهما غير أن هذا الشعر شعري وذلكم شعر قيس بن الحدادية

---

(١) لان لغة في الآن

وشرح ذلك ان أم عمران عائشة بنت طلحة أنشدت عينية قيس بن الحدادية الخزاعي الجاهلي فاستحسنتها وبحضرتها جماعة من الشعراء فقالت: من قدرمنكم أن يزيد فيها بيتا واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلتي هذه، فلم يقدر احد منهم على ذلك اه

وكتبه محمد محمود لخمس خلت من جمادى سنة ١٣١٩

وهنأه بالقدوم الكاتب الشاعر السيد مصطفى لطفي المنفلوطي بقصيدة قال

سار يباري النجم في جده ... وعاد كالسيف إلى غمده
رأى السرى والسهد مهر العلى ... فجد وارتاح إلى سهده
لايبصر الخطب جليلا ولا ... تلوي به الاهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى ... يحار صرف الدهر في رده
كالسيف يجلوه القراع ولا ... يأخذ ضرب الهام من حده
من لا يرى المجد سبيلا له ... لايأسف المجد على فقده
فضجعة الراقد في بيته ... كضجعة الميت في لحده
كان لمصر بعد توديعه ... صبابة الصادي إلى ورده
واليوم قد عاد لها كل ما ... ترجو من النعمة في عوده
وافتر عنه ثغرها مثلما ... يفتر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هيبة ... كأنما عثمان في برده
مافيه من عيب سوى انه ... يحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد في نعمة ... أسبغها الله على عبده

«ومن قصيدة للاستاذ الشيخ سيد علي المرصفي مدرس الادب في الازهر»

هذا هو المسلم لاعلم بمحفظة ... محدودة من جلود الشاء والنعم
جوفاء معتلّة في جوفها ورم ... تشكو لخالقها من علة الورم

« ومن قصيدة الفاضل الشيخ مصطفى حسين مشيط المنفلوطي الازهري »

ان الزمان إذا اعتدى بصروفه لم يبق حبلا في الهوى موصولا
كم ذا يروعني بكل ملمة لا تترك الصبر الجميل جميلا
لولا اعتصامي بالامام محمد كهف الورى لم أبلغ المأمولا

ومنها

شيدت أركان الشريعة بعد ما لعبت بها أيدي البلاء طويلا
وشهرت للدين الحنيفي سيفه بيد الثبات وكان قبل كليلا

ومن قصيدة للشاب اللوذعي مصطفى صادق افندي الرافعي الكاتب بمحكمة شبين الكوم

والصبح ميمون الطليعة قادم مثل (الامام) بطلعة زهراء
يجلو الظلام كما تجلى هديه فأضاء كل سريرة ظلماء
تزهو السماء بشمسها و (محمد) في الارض شمس الملة السمحاء

حديث عن الآستانة

وعدني الاستاذ في كتابه المنشور آنفا بان يحدثني عند اللقاء بما يمكن التعبير عنه من حال الآستانة وقد فعل، ولم يكن من الحكمة نشر حديثه ولا كتابه في ذلك الوقت . وأهم ماأذكره من حديثه أنه لم ير بيئة في العالم ولم يكن يعقل وجود بيئة كالآستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر والقلب، وان ذهنه كان هنالك ممسوحا كأنه لم ينقش فيه شيء من العلوم والآراء . وبهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها وتوطين أنفسهم على كل مايمكن أن يلقاه الانسان من ضروب البلاء والمحن

وسأذكر رأيه في الدولة والسلطان والخلافة والترك والعرب العثمانيين في المقصد الآتي إن شاء الله تعالى

أسفاره الى اوربة ومقاصده منها

قد بينا مقاصده من أسفاره إلى أوربة وبعض أعماله فيها (بعد عمله السياسي الكبير مع أستاذه السيد جمال الدين الافغاني) في مواضع أهمها ما نقلناه عنه مما كتبه في سياق تعلمه اللغة الفرنسية (ص ١٠٤) ثم مانقلناه عنه في مقدمة هذا المقصد، ومنها ما ذكرناه في المجلد الرابع في أثناء سفره إلى الاستانة وهو ما أخذناه من مكتوباته كالرقيم الذي أرسله الينا بعد خروجه من الاستانة الى سويسرة وزدنا عليه بحثه في خزائن الكتب العامة في الاستانة والخاصة كالمكتبتين الملكيتين في فينا وبرلين وقد عثر في الثانية على آثار عربية مهمة منها ما يرتقي تاريخه إلى عهد الصحابة، ومنها مانشرناه في صفحه ٤٨٦ من مجلد المنار السادس وذلك في أثناء سفره الاخير الى انكلترة وهذا نصه:

يسافر اكثر أمراء المصريين وكبار الموظفين منهم كل عام إلى أوربا مصطافين فيقضون أشهر الصيف هناك في لهو ولعب وتمتع باللذات، وخيرهم من يسافر لغرض صحيح كترويض جسمه بالاستحمام في الحمامات المعدنية وصعود الجبال، او لاختبار يفيده في صناعته التي بها قوام منافعه الشخصية، ولم نسمع عن أحد منهم انه سافر لاختبار حال التربية والتعليم في تلك البلاد — التي أجمع علماؤها وعقلاؤها على أنهم ماسادوا الامم إلا بالتربية والتعليم — والاستفادة من ذلك لتكميل نفسه والاستعانة على نفع قومه إلا الشيخ محمداً عبده مفتي الديار المصرية فانه قد سافر من قبل غير مرة لتعلم أفصح لغات القوم (الفرنسية) فتعلمها وأحسنها ووقف بها على أهم معارفهم التي تعينه على ترقية أمته [1] وقد ولى وجهه في هذه السنة شطر المدارس الكلية التي يتخرج فيها كبار الرجال ليختبر شؤونها، حتى اذا حقق الله تعالى له رجاءه بايجاد مدرسة جامعة في هذه البلاد يكون على بصيرة في كيفية تأسيسها ونظامها كما يرشد اليه قوله تعالى (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب

(١) وكان يحضر دروس آداب لغتها في مدرسة جنيف الكلية التي تعقدها في الصيف للسائحين كما تقدم في موضعه

يعقلون بها او آذان يسمعون بها) ـ الآية ـ وكما قال الشاعر :

قد سلك الطريق ثم عادا ليخبر القوم بما استفادا

وقد سبق له رؤية المدارس الفرنسية العالية وكان في بعض أسفاره قد أخذ إذنا من ناظر معارف فرنسة بان يزور أي معهد من معاهد العلم في أي وقت شاء (١)

ولما كانت التربية ونظام التعليم في البلاد الانكليزية مفضلين عند علماء هذا الشأن من الفرنسيين على مثلهما في سائر الممالك الاوربية سافر في هذه السنة لزيارة أعظم مدارس هذه الدولة العظيمة وأعظمها كلية اكسفورد وكلية كمبردج

وقد ذكرت جرائد لوندرة هذه الزيارة وما كان من احتفال رجال العلم في المدرستين واجلالها للاستاذ وأثنت الجرائد عليه بما هو أهله من العلم الواسع والعقل الكبير ، والهمة العالية . وذكرت غير ذلك من تقلبه في البلاد كزيارته للفيلسوف سبنسر أعظم فلاسفة أوربا الاجتماعيين ، ونزوله ضيفا كريماً على المستر ويلفرد بلنت في قصر (كرايت بارك) . وقالت ان المستر كوكرنل قد صحب فضيلته في زيارة مدرسة اكسفورد ، وان الاستاذ بويل المؤلف الشهير كان دليلا له لانه من معلمي التاريخ في تلك المدرسة ، وقالت انه لما زار مدرسة كمبردج خرج لاستقباله في المحطة طائفة من أساتذتها ، وان المستر ادوار براون قد دعاه فيها إلى طعام الغداء ودعا لاجله طائفة من الاساتذة وبعض المستشرقين (٢) وكبار المستخدمين ، وانه تناول طعام العشاء في قاعة المدرسة الكبرى. وذكرت تفصيل الزيارة بما لاحاجة إلى بيانه هنا وقد لخصته الجرائد اليومية المصرية وذكرت ثناء الجرائد الانكليزية على معارف الاستاذ الواسعة

وقد كتب الدكتور ادوارد براون أستاذ اللغتين العربية والفارسية في كلية

---

(١) وكان في اسفاره الاولى اليها يعنى بعلم الحقوق واصول القوانين الفرنسية التي تستمد منها القوانين المصرية حتى انه كان يختار لنفسه مدة وجوده في باريس حوذيا يحمل شهادة (الليسانسيه) في الحقوق فكان يذاكره في هذا العلم في حال تنزهه في ضواحي باريس «٢» وقد ساله هؤلاء العلماء عن بعض ما أشكل عليهم في بعض الكتب العربيه فكان يجيبهم بداهة بما يقنعهم ويزيل اشكالهم

كمبردج رسالة إلى جريدة المؤيد ذكر فيها خبر الزيارة بنحو التفصيل الذي جاء في الجرائد الانكليزية ومما جاء في رسالته قوله كما في العدد ٤٠٤٢ من المؤيد :

« ولقد كان كل من في المدرسة فرحا مسروراً بزيارة هذا الرجل العالم العظيم . وأعجب بعلمه وفضله وسمو آرائه جميع العلماء والعظماء ، وتمنوا لو أقام بينهم زمناً طويلا . وفي اعتقادي ان فضيلة المفتي قد شرف الشرق وعلماءه في هذه الديار » اه

فالحمد لله الذي جعل فينا من نفتخر به أمام كبار رجال العلم في أوربا الذين يرون الشرق وأهله في ظلمات من الجهل لا يبصرون

وقد ذكرت الجرائد الانكليزية ان المفتي سافر من انكلترا قاصداً فرنسا ليسافر منها إلى تونس والجزائر . وهذا ما كنا علمناه من هنا قبل سفره وقد كان عازما على ان ينتهي إلى بلاد اسبانيا (الاندلس) حيث كانت تلك الدولة العربية التي أفاضت العلوم على أوربا فانتقم منها التعصب فأفناها عن آخرها . ولا ندري هل بقي من زمن اجازته ما يكفي لذلك أو يعود من تونس إلى بلاده التي ظمئت لمعارفه ؟ كان الله له وأيده بروحه حيث كان ، ومدّ في أجله حتى يرتقي بهذه الامة إلى أعلى ما في عالم الامكان .

زيارته للفيلسوف غوستاف لوبون

وانني بمناسبة ما ذكرت في هذه النبذة من اجتماعه بكبار الحكماء والعلماء في أوربة أقول انه في سفره الاخير إلى فرنسة ذهب إلى دار الفيلسوف الاجتماعي الشهير (غوستاف لوبون) للتعرف به والشكر له على تأليف كتابه (حضارة العرب) فلم يجده لانه كان مصطافا في الارياف ، فترك له في داره بطاقة الزيارة . فلما عاد الفيلسوف ورأى البطاقة أسف لما فاته من لقاء أكبر علماء الاسلام وأرسل اليه كتابا يؤذنه بذلك ويشكر له تفضلة بزيارته

اجتماعه بالفيلسوف سبنسر

قلنا انه في سفره الاخير الى انكلترة سنة ١٩٠٣ زار هذا الفيلسوف ، وكان ذلك في ١٠ أغسطس وكان الفيلسوف مصطافا في (برايتون) من جنوب انكلترة وقد نهاه الاطباء عن كثرة مقابلة الناس وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته ، ولكنه سر من حديث الاستاذ الامام ودعاه الى الغداء معه وأطال الحديث معه في فلسفة الدين والاخلاق والافكار المادية وسياسة أوربة

وانني أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف (ف) المقتطفة من فيلسوف ، وإلى شيخنا بحرف (م) المقتطفة من كلمة امام

(ف) هل زرت انكلترة قبل هذه المرة؟ (م) نعم زرتها منذ عشرين سنة

(ف) كيف وجدت الفرق بين الانكليز اليوم والانكليز منذ عشرين سنة؟

(م) انني زرت هذه البلاد في المرة الاولى لغرض سياسي خاص وهو البحث مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني وأقمت أياما قليلة لم يتعد عملي فيها ما جئت لاجله ، وقد ألممت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس ... وانما يجب ان آخذ عنكم ذلك

(ف) ان الانكليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة

(م) فيم هذه القهقرى وما سببها ؟

(ف) يرجعون القهقرى في الاخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الافكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت الينا عدواها ، فهي تفسد أخلاق قومنا ، وهكذا سائر شعوب أوربة

(م) الرجاء فى حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الافكار المادية

(ف) انه لا أمل لي في ذلك لان هذا التيار المادي لابد أن يأخذ مده غاية حده في أوربة . ان الحق عند اهل أوربة الآن للقوة

(م) هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الاوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها

(ف) محي الحق من عقول أهل أوربة بالمرة وسترى الامم يختبط بعضها ببعض. (ولعله ذكر الحرب) ليتبين أيها الاقوى ليسود العالم - أو فيكون سلطان العالم

ثم انتقل الكلام إلى الفلسفة الالهية

(ف) مايقول علماء الاسلام في الخالق (عز وجل) هل هو داخل العالم أو خارجه؟

(م) ان علماء الاثر يقولون ان الله تعالى فوق كل شيء بائن من العالم، والمتكلمين يقولون: انه لا داخل العالم ولا خارجه. والصوفية القائلين بوحدة الوجود - يقولون ان كل شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده، وذكر له خلاصة مذهبهم

هذا ملخص ماذكره لنا الاستاذ الامام، ولسنا في حاجة إلى تفصيل ما أجاب به الفيلسوف عن عقائد فرق المسلمين في الخالق عز وجل لانه معروف في محله، ولكنني رأيت في مذكرة جيب له خلاصة حديثه مع سبنسر بأخصر مما ذكره لنا مشافهة وكتب عقبه مانصه كما نقلته عنها في المجلد الثامن عشر الذي طبع في زمن الحرب الكبرى فلم يكن من الممكن ذكر ماقاله فيلسوف الانكليز الحر في فساد أخلاقهم وفي زوال الحق من عقول أهل أوربة والخطر عليها من سلطان الافكار المادية، وهذا نص ما كتبه في المذكرة (ص ٧٥١ م١٨)

« ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف «الحق للقوة» الخ؟ جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكراً، لوجاءت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك الا اشمئزازاً وغثيانا «هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً ممايفيد في راحة الانسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته (أعجزهم) ان يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها على الانسان حتى يعرفها فيعود إليها، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم ان يجلوا ذلك الصدأ الذي غشي الفطرة الانسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني؟ حار الفيلسوف في حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء؟ الرجوع إلى الدين الخ الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى اربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها » اه

وقد تقدم فيما كتبه الي الأستاذ بعد خروجه من الاستانة إلى أوربة أنه يشتغل « ببعض ما كتبه الافرنج على الاسلام وبما وقفوا عليه من خط المسند وما ظهر لهم في لغة سبأ وحمير » فاما اشتغاله بما كتبوا على الاسلام مدحاً او ذما فكان ذلك دأبه في جميع اسفاره ، وأما خط المسند فقد بدأ بدرسه في تلك السنة في سويسرة على اهل الاخصاء فيه كالدكتور هيس وغيره وعندي كتاب فيه بخطه رسم فيه حروف المسند ومايقابلها من خطنا المعروف وتركيب الكلام وتفسيره ، وغرضه منه ان يقرأ بنفسه ماوقفوا عليه في بلاد اليمن وما يرجى ان يُعثر عليه من آثار مدنية سبأ وعاد في تلك البلاد مهد الحضارة العربية الاولى

سفره الى تونس والجزائر وصقلية

كان الاستاذ الامام رحمه الله قد أخبرنا عند إرادته السفر الى أوربة في صيف سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م انه ينوي السفر منها الى تونس والجزائر للوقوف على أحوال المسلمين في هذين القطرين وآثار الاسلام فيهما ، وأن يجعل ذلك مقدمة وتمهيداً لزيارة المغرب الاقصى لمثل هذا الغرض إن امكن

وأذكر بهذه المناسبة ان بعض وزراء مولاي عبد العزيز سلطان المغرب كتبوا إليّ قبل الحماية الفرنسية أن اختار لهم رجلا مصلحاً جامعاً بين العلوم الشرعية ومعرفة السياسة والادارة ليستعينوا به على اقناع السلطان باصلاح البلاد الذي يدعوهم اليه المنار المرة بعد المرة ، فأطلعت شيخنا على ذلك فجنحت نفسه للذهاب بنفسه ولكنه ايقن ان الاوربيين عامة والانكليز والفرنسيس خاصة يحسبون لذهابه واقامته هنالك كل حساب ، ويحولون دونه بما استطاعوا من الاسباب ، وجماعة السلطان يطلبون أن يكون ما اقترحوه عليّ سراً لا يشعر به احد ، وقد اختيرت يومئذ السيد عبد الحميد الزهراوي فلم يتيسر ارساله

كتمت عزم شيخنا على زيارة تونس والجزائر لئلا يبادر الاشرار إلى بث الدسائس لمنع فرنسة إياه من دخول البلاد أو للحيلولة دون ما يريدون منها بعد دخولها كما فعلوا في سفره الى الاستانة، حتى اذا ما ذكر الخبر في الجرائد الاوربية

نقلته عنها وذكرت اننا كنا نتوقعه كما تقدم آنفا . ولكن لم يكد يعرف ذلك حتى بادر أولئك الاشرار إلى ما كان ينتظر منهم كما بينته في (ص ٥٣٠ من مجلد المنار السادس الذي صدر في ١٥ رجب سنة ١٣٢١ه‍ ٢٢ ايلول سنة ١٩٠٣م وهذا نصه:

(سعاية خائبة)

لما علم بعض الاشرار بالطبع ان الاستاذ الامام يقصد في صيف هذا العام زيارة بلاد الجزائر وبلاد تونس افترصوا ذلك فكتبوا في السعاية به الى حكومة الجزائر رسالتين إحداهما أرسلت من مصر والاخرى من الاسكندرية باسم الحاكم الفرنسي العام وفيهما مافيهما من قول الزور والاغراء بالامام بزعم انه لايقصد بالسفر الى الجزائر إلا تحريض المسلمين على الثورة والخروج على الحكومة ونبذ طاعتها وانه قادر على ذلك ... كما كتبوا بمثل ذلك الى الاستانة عند ماتوجه الى زيارتها منذ عامين

كتبوا هذا لاعتقادهم ان الحكومة الفرنسية هناك حكومة خرقاء تأخذ بالشبهة، وتنتقم من البرىء لادنى وهم يوسوس به شيطان من شياطين الانس، أو يهجس به في الخاطر عفريت من الجن، ولظنهم ان الحكومة الفرنسية تجهل قدر الاستاذ الامام ومقامه الديني، ولكن الحكومه الفرنسية فوق أوهامهم واحلامهم، فقد بلغنا انها قد تلقت الرجل العظيم بالحفاوة والاجلال اللائقين بشخصه وبمقامه الديني والملي، كما تلقاه في انكلترة كبراء الانكليز وعلماؤهم. فسر بهذه المعاملة الحسنة لاشهر أئمة المسلمين في هذا العصر مسلمو الجزائر ورأوا ذلك دليلا على حسن قصد حكومتهم وحسن سياستها

فليعتبر فضلاء المصريين بهؤلاء الابالسة الذين يعز عليهم ان يوجد في الامة رجل جليل عالي القدر محترم المقام حتى إنهم يبذلون جهدهم في تنميق الكذب ليحملوا الاجانب على اهانة ساداتهم وأئمة الدين الذين ينتسبون إليه وإن كان يتبرأ منهم . ولو شاء الفضلاء الانتقام الادبي من هؤلاء الاشرار لفعلوا ولكنهم لا يتقون . اه

سافر الاستاذ إلى تونس والجزائر فكان له من الحفاوة والتكريم عند علماء

المسلمين وكبرائهم مايليق به ، ولم ير من الحكومة الفرنسية شيئاً يسوءه بل قابله رجالها في القطرين بالاجلال والاحترام ، على مابثوه حوله من الجواسيس السريين في كل مكان ، وهو لم يكن يجهل هذا ولا كان يخشى منه لانه كان يعرف مقام نفسه ومكانته التي تضطر الحكومة الفرنسية إلى إجلاله، ولم يكن له أدنى غرض سياسي من زيارته وراء ارشاد المسلمين إلى حقيقة دينهم والطريقة المثلى لاحيائه واحياء لغته مع البعد عن السياسة التي قال فيها «ما دخلت السياسة عملا إلا أفسدته» فسيرها مثلا

وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلماء والعقلاء الذين يقدرون الاصلاح قدره ومن خيارهم في الجزائر الشيخ محمد بن الخوجه صاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية .(وقد نشرنا في (ص ٩١٧ من مجلد المنار السادس تقريظ الاول منهما لتفسير سورة العصر ، وعشرين بيتا من قصيدة طويلة للثاني في مدح الاستاذ الامام ، وسننشرهما مع غيرهما في ذيل هذا التاريخ إن شاء الله تعالى) وقد رأى هذين الفاضلين وغيرهما مغتبطين بالمنار ولاسيما دروس العقائد التي ينشرها تحت عنوان (أمالي دينية) وقد عهد اليه هؤلاء الفضلاء أن يوصي صاحب المنار بان لا يذكر في مجلته دولة فرنسة بما يسوءها لئلا تمنع المنار من الجزائر ، وقالوا له : إننا نعده مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا . وقد وجد له في تونس والجزائر حزبا دينياً ينتمي اليه من حيث لم يكن يعلم وانما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار ، كما صرح بذلك كاتب في جريدة الطان (١)

وألقى في تونس ذلك الدرس الحافل العظيم الشأن في (العلم والتعليم)وقد نشرناه في المجلد السادس من المنار . كما ألقى في الجزائر تفسير سورة العصر -(وتقدم الكلام عليه في ذكر مؤلفاته) وقد طبعنا هذا وذاك في كتيب صغير يوضع في الجيب ولا يزال الناس يستفيدون منه و نزل في تونس ضيفا بدار خليل أبو حاجب زوج الاميرة نازلي وهو كبير الوزراء اليوم وكان أحرارها ولاسيما الشبان يودون لو نزل في أكبر الفنادق لتكون حريتهم بالاستفادة منه أوسع . وقد عرض عليها أخذ الاذن له بزيارة سمو الباي، فقال هل يمكنني أن أخلو به وأتكلم معه بالحرية؟

(١) نقلت هذا جريدة الاهرام وذكرنا موضوعه في ص ٧٤١ من مجلد المنار الحادي عشر

قيل لا ، بل لا بد من حضور أحد حاشيته من الفرنسيين . قال إذاً لا حاجة إلى زيارته

وقد نشرت في صفحة ٦٠٨ من مجلد المنار السادس سيرة الاستاذ في الجزائر وتونس ونصائحه الحكيمة للمسلمين فيها وهذا نصه :

نصيحة الاستاذ الامام لاهل الجزائر وتونس

من يعرف الاستاذ الامام يعرف أن كل حديثه في جميع أوقاته نصح وتعليم، فمجالسه ومسايره يستفيد علما وحكمة في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، ولذلك نعتقد أن الذين عرفوه واجتمعوا به في رحلته الاخيرة إلى الجزائر وتونس قد سمعوا منه نصائح لا تحصى ولكن النصيحة العامة الشاملة التي كان يشافه بها أهل العلم والدراية في القطرين هي :

(١) الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة التي أرشد اليها في الخطاب الذي ألقاه في تونس . (٢) الجد في الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة . (٣) مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة . وبهذا الاخير يتم لهم كل مايريدون من مساعدة الحكومة الفرنسية لهم على ماقبله ، فان الحكومات في جميع الارض يضيقون على البلاد التي يستعمرونها ماداموا يعتقدون ان أهلها ساخطون عليهم أو لهم ضلع مع حكومة أخرى . وهذا الاعراض عن السياسة لاينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونه ضاراً بهم من القوانين والمعاملات، فاذا لم تكشف ظلامتهم بعد الالتجاء اليها فى كشفها كانوا معذورين إذا سخطوا وتربصوا بها الدوائر

والمشهور عند العارفين بالسياسة العامة ان فرنسا تبحث دائما عن طريقة يطمئن بها أهل الجزائر لحكومتهم وتطمئن هي لرضاهم عنها ، ولا شك ان هذه الطريقة تنفع الحاكم والمحكومين وعدم السير فيها يضر بالمحكوم(١) أكثر مما يضر

(١) كلمة المحكوم والمحكومين بمعنى رعية الحاكم الذي تولى الحكم فيهم كلمة عرفية ، ويصح أن تكون مجازا من قول العرب : حكم الفرس بمعنى وضع لها حكمة (بالتحريك) اللجام التي يملك بها امرها ويمنع جماحها

بالحاكم . ونحن نعتقد أن الطريقة الوحيدة هي حسن المعاملة من فرنسا واعراض الجزائريين والتونسيين عن السياسة إلى العلم الذي ينير العقول ، والعمل الذي يشغل عن الفضول ، وقد ذكرنا في الجزء الماضي ان الاستاذ الامام انس من الحكومة الفرنسية هناك الميل إلى هذه المعاملة وأنس من أهالي الجزائر الرجاء الحسن بحاكمهم الجديد (موسيوجونار) وقد ذكرنا في جزء سابق ان الموسيو (روا) يميل في تونس إلى هذا المذهب. حقق الله الرجاء وأصلح الاحوال بمنه وكرمه اهـ وسأبين تحقيق القول في مسألة الاشتغال بالسياسة في الكلام على آرائه من المقصد الآتي

﴿ المامه بصقلية ، وما كتبه عن عاصمتها ـ بلرم ﴾

أتيح للاستاذ الامام أن يجعل عودته من تونس والجزائر عن طريق ايطالية فعرج في طريقه على جزيرة صقلية وشاهد ما في عاصمتها (بلرم) من آثار العرب ، وكتب في ذلك رحلة نشرتها في المنار ثم في الجزء الثاني من هذا التاريخ (منشآت الأستاذ الامام ـ من ص ٤٧٣ـ٥٠٤ من الطبعة الثانية) وصف فيها قصر الملك روجار وكنيسته في بلرم ، والكنيسة الكبرى والاديار وكنيسة مودبالي . وبين في هذا الوصف ما كان من تساهل العرب وتساءل أين هم الآن ؟

وعقد فصلا للمكتبة العمومية ودار المحفوظات وما فيها من آثار العرب. وبين حاجة السائح إلى معرفة اللغات الاجنبية وان الانكليزية أعم نفعاً في أوربة ووصف الصقليين ورثاثتهم ووساختهم ، وما بينهم وبين الطبقات الفقيرة من المصريين من الشبه

ووصف دور الآثار وبساتين النبات والمقبرة ، وبين بمناسبة ما فيها من الصور والتماثيل فائدتها وحكمها في الشرع . وختمها بالكلام على أمير وأميرة من خيار الاسرة العلوية بمصر نزلا في الباخرة التي عاد فيها من مسيني (أو مسينا) قاصدين الاسكندرية ، فاثنى على آدابهما الاسلامية

وقلم الاستاذ في هذه الرحلة أدبي فكاهي ، وتمنينا لو كتب مثل هذه الرحلة عن تونس والجزائر وغيرهما من البلاد ، يمزج فيها الفوائد العلمية ، والحكم الاجتماعية ، والعبر التاريخية ، بالفكاهات الادبية

الاستاذ الامام — عودته

من أوربة وتونس والجزائر

جاء في ص٥٦٧ من مجلد المنار السادس ١٦ رجب ١٣٢١ — ١٧ أكتوبر ١٩٠٣

عاد الاستاذ من سياحته في أوربة وتونس والجزائر فتلقاه في محطة القاهرة الجماهير من العلماء والوجهاء وهي حفاوة داعيتها المحبة والاجلال . ولم تعهد لغيره في هذه الديار ، وقد أثنى على حفاوة أهل الجزائر وتونس وحكومتيهما به ، وقال انه رأى روحا جديداً في العلماء ، وتوجها جديداً من فرنسة للمسلمين ، وانه يرجو بذلك للبلادين حياة علمية سعيدة ، ونهضة إسلامية قريبة ، فيأتلف الحاكم والمحكوم ، ويوجه العلم إلى المعلوم ، وسننشر فوائد رحلته فيما بعد

التهاني الشعرية بالعودة من هذه الرحلة

لما قدم الاستاذ الامام من سياحته في هذا العام هنأه بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والادباء في الازهر وغيره ونشر بعضها المؤيد واخترت منها للمنار يومئذ ماعللت اختياره بقولي في (ص ٦٠٧ م٦) « ونذكر هذه الابيات للشاب الذي زاحم في بدايته أهل النهاية ، تنشيطا له على العناية بالادب ، وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرازق : قال

اقبل عليك تحية وسلام ... يا ساهرا ، والمسلمون نيام
تطوي البلاد وحيث جئت لأمة ... نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر أنى سار يشرق نوره ... والحق أنى حل فهو إمام
إن يقدروا في الغرب علمك قدره ... فلمصرُ أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما ... يلهي الصغار وجدَّت الايام
لا زلت غيظا للضلال وأهله ... والله يرضى عنك والاسلام

سفره الى السودان

كانت حكومة السودان تعتمد على الاستاذ الامام في اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ولا سيما رئيسهم (قاضي القضاة) فيختار لها خير رجال الشرع علماً وأخلاقاً وادارة ومعرفة بحال الزمان كأصحاب الفضيلة الاستاذين الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي (ومن حسن المصادفة ان هؤلاء الثلاثة الذين تولوا منصب قاضي القضاة في السودان كانوا على أتم المودة والصداقة، ولبعضهم وشيجة رحم مع بعض) والشيخ اسماعيل خليل، وكذلك كان سائر القضاة الشرعيين وبعض أساتذة مدرسة غردون الكلية من مريديه كالشيخ محمد الخضري والشيخ عبدالوهاب النجار وغيرهم من خواص الاساتذة الشرعيين المصريين المتبعين لطريقته في الاصلاح .

ومن المعقول ان هذا الامام الذي كان ينوي ان يزور جميع الاقطار الاسلامية لا يغفل زيارة قطر السودان شقيق مصر الذي يعمل بآرائه الاصلاحية فيه بغير معارضة. وكان من قدر الله تعالى أن توجهت نفسه الى ذلك في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ فأخبر برغبته هذه حاكم السودان العام وهو سردار الجيش المصري في أوائل يناير سنة ١٩٠٥ فجاءه الجواب الآتي من وكيل حكومة السودان بمصر في ١١ يناير

فضيلتلو افندم مفتي الديار المصرية

نبدي لفضيلتكم ان سعادة افندم السردار أظهر ارتياحه التام من رغبتكم لزيارة السودان وعليه فمرسل طيه الاستمارة اللازمة للسفر بموجبها مجانا من الشلال إلى الخرطوم بوسطة يوم الاحد المقبل الموافق ١٥ الجاري كما قررتم ، وطيه أيضاً الاستمارة اللازمة للعودة من الخرطوم إلى الشلال مجانا ، واقبلوا وافر الاحترام

مدير المخابرات بمصر
(الامضاء بالانكليزية)

ولما علم كبار رجال حكومة السودان من الانكليز والمصريين بعزم فضيلته على السفر جاءته برقيات الترحيب ودعوة الضيافة من كثير منهم نذكر ما حفظناه منها بالترتيب وهو :

(الاول) من السكرتير القضائي وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ — ١ يناير سنة ١٩٠٥

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

سرني انكم قادمون للسودان فهل لكم بقبول دعوتي لتكونوا نزيلي مدة اقامتكم بالخرطوم سكرتير قضائي

(الثاني) من قاضي القضاة وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ — ١ يناير سنة ١٩٠٥ — فضيلتلو مفتي الديار المصرية

بغاية السرور تلقينا نبأ تشريفكم نحن ومنازلنا في خدمتكم محمد هارون

(الثالث) من الشيخ اسماعيل خليل والشيخ عبد الوهاب النجار

الخرطوم ١٠ — ١ — سنة ١٩٠٥ — فضيلة المفتي بمصر

عمنا السرور لتشريف مولانا فان تفضل فنحن ومنازلنا له

(الرابع) من جماعة الموظفين المصريين وكان رأيهم ان ينزل بدار خاصة به لاضيفاً على أحد وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ — ١ — سنة ١٩٠٥ — فضيلة المفتي بمصر

سنهيء منزلا خاصا بكم وبمعيتكم فهل تتفضلون بالقبول أولادكم

ولما كان جناب السكرتير القضائي قد سبق إلى الدعوة إلى منزله أرسل اليه الاستاذ الامام برقية بقبول دعوته فأرسل البرقية الآتية إلى سماحته عند وصول القطار المقل له إلى حلفا وهذا نصه :

من الخرطوم ١٠ — ١ — سنة ١٩٠٥

سماحة مفتي الديار المصرية ـ بالاكسبريس ـ حلفا

سرني قبولكم دعوتي. سأستقبلكم بالحلفاية يوم وصولكم صباحا. سكرتير قضائي

وبعد وصوله إلى الخرطوم جاءته برقيات ومكتوبات من الوجهاء والموظفين في أم درمان وشندي وغيرهما بالدعوة إلى زيارة بلادهم أذكر منها كتاب سعادة الزبير باشا العباسي الشهير لمكانة مرسله وطرافة عبارته وهذا نصه :

﴿ كتاب الزبير باشا الى الاستاذ الامام ﴾

من الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي ، إلى رئيس العلماء الكرام ، وزين الاكرمين الفخام ، عزيز الاصل، وشريف الحسب والنسل ، جناب حضرة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية والاقاليم السودانية . دام معززاً مكرما آمين .

بعد تقديم السلام ، المشتمل على الايادي والاقدام ، بغاية كل أدب وخضوع وزيادة احترام، مع سؤالي القلبي عن صحتكم وعما أنتم فيه وعليه من الامور الخيرية، التي نرجو دوامها عليكم بكرة وعشية ، انه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير .

ثم أحيط شريف علمكم وهو انه قد بلغ مسامعي حلول أقدامكم الشريفة ، بعاصمة بلادي السودانية بالخرطوم ، ولما بيني وبينكم من المحبة والمودة الخالصة والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن أنت ضيفا لي خاصة دون أشراف السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من المحروسة فرحا مسروراً بقدومكم وتشريف بلادي بها مستعداً لتشريفي بمقابلة ذاتكم مع أول كرام الناس المستعدين لمقابلتكم . ولكن يا أسفا ويا أسفا قدمنعني مامنع قبل ابرة (ابرهة) الحبشي عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفي بمقابلتكم، بسبب ماحدث لي من اللطف الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش ، أنتظر العفو من الله عز وجل ،

وأرجو من كرمكم المشهور قبول ماتضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصي مع أسفي وعدم مرادي ، كما وان الامور كلها تجرى بحسب مقادير الله تعالى ، وليست تجري على حسب خواطر العباد .

وأهنيكم ونم أهنيكم وأهني اشراف بلادي كلها من علمائها الكرام وأشراف قبائلها بقدوم اقدامكم السعيدة ووصولها بعاصمتها بالخرطوم ، وأهني نفسي غاية ونهاية ملحوقا بهم ، أعادكم الله تعالى إلى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين، فرحين مسرورين ، من علمائنا جميعاً ، وأهالينا آمين .

وفي الختام اقبلوا فائق الاحترام كاتبه

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥ الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي

﴿ وصف سيرة الاستاذ الامام في زيارته للسودان ﴾

إنني عند ما شرعت في جمع مواد هذا التاريخ كلفت صديقي الاستاذ الفاضل المؤرخ الشيخ عبد الوهاب النجار أن يكتب إليّ خلاصة سيرة الاستاذ رحمه الله تعالى منذ وصوله الى الخرطوم إلى عودته منها إلى القاهرة لانه شاهد ذلك عيانا فكتب إلي ما يأتي بنصه :

﴿ وصف اقامته في السودان ﴾

قام الامام رحمه الله من مصر متوجهاً إلى السودان في الساعة التاسعة من مساء اليوم الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩٠٥ ، وفي اليوم الثامن عشر كان في انتظاره بحلفا صاحب الفضيلة القاضي الشرعي ورجال الضبطية فيها وغيرهم، فاستقبلوه استقبالا فائق الوصف ، وزار المدرسة واختبر تلامذتها وتفقد نظامها، حتى أتى ميعاد قيام القطار فركبه فوافى الخرطوم البحرية في منتصف ليلة الجمعة الموافق ٢٠ يناير ، و كان النظام في تلك الايام يقضي بنوم الركاب في العربات ، فلم يزل بعربة الوابور إلى الصباح

ما أصبح صبح يوم الجمعة ٢٠ يناير حتى كان الناس ينسلون من كل حدب مسرعين إلى المعدية التي تجيز بين الخرطوم والخرطوم البحرية ، وبعضهم كان أعد الزوارق لقطع النهر الازرق قبل قيام المعدية وكانت الحكومة قد أعدت السفينة البخارية الخاصة بصاحب السعادة الحاكم العام لتذهب بسكرتير قضائي السودان المستر بونهام كارتر، وصاحب السعادة اللواء السير سلاتين باشا المفتش العام بالسودان، وصاحب السماحة قاضي القضاة الشيخ محمد هارون، وأصحاب الفضيلة الشيخ الطيب هاشم مفتي السودان، والشيخ محمد عمر البنا المفتش بالمحاكم الشرعية، والسيد علي المرغني عين اعيان السودان ، لاستقبال الاستاذ الامام من قبل الحكومة ، فوصلوا إلى محطة الخرطوم البحرية الساعة السابعة والنصف وكانت المحطة غاصة بمن سبقهم من الجماهير، فرحبوا بالاستاذ واستقبلوه استقبالا حسناً وحياهم أحسن تحية ، ثم طلبوا إليه أن يوافي الباخرة ليجوز الى الخرطوم ، فسار بدراً يحتف به الوقار وتتقدمه الهيبة ، إلى أن وصل الى الفلك ، فاستوى ومن

معه عليه ، وجميعهم منشرح الصدر ، بادي المسرة ، جرت بهم السفينة الى العدوة اليسرى للنيل الازرق ، وكان في انتظاره مأمور المدينة الصاغ محمد غالب افندي (بك الآن) وغيره من المصريين المقيمين بالخرطوم وغيرهم ، وحين نزل الاستاذ ومن معه الى البر وأخذ في السير الى المنزل المعد لنزوله ، قدم له صاحب المنزل سكرتير قضائي السودان جواداً مطهما بيده ليركبه الى المنزل فشكر له هذه الحفاوة ، وأظهر له الرغبة في السير على قدميه إلى المنزل

وحين وصل الاستاذ الى باب المنزل وقف للتسليم على الجموع المحيطة به وشكرهم ، وأراد قاضي القضاة الانصراف معهم فأخذ المستر (بونهام كارتر) السكرتير القضائي بيده وأدخله مع الاستاذ الى المنزل ، وقال له أنت تعلم مايلزم للاستاذ من المعدات والادوات والامكنة ، فأرجوك الاطلاع على مارتبته له ، وطلب ماتزيده عليه . فوجده قدهيأ له مكانا خاصاً به للنوم وآخر للوضوء والاغتسال ، وثالثا لتناول طعام الافطار . كل ذلك في الدور الأعلى ، وقاعة فسيحة في الدور الاسفل لاستقبال من يريد استقباله من الناس ، وكل ذلك تام الاثث والرياش

واحتراما لمقام الاستاذ ولعلمه بما هو عليه من التقوى كان يتركه يتناول طعام الافطار وحده ، وكان المضيف لا يحضر خمراً ولا آنيتها على مائدة يأكل عليها الاستاذ . وهذا كان دأبه ودأب جميع من دعوه من الانكليز وغيرهم لتناول الطعام . مثل صاحب السعادة الحاكم العام واللواء سلاطين باشا ، والمير الاي منسي بك السكرتير الملكي والمير الاي استانتون بك (باشا) مدير الخرطوم ، والقائمقام إمري مساعد المفتش العام .

وكان الحاكم العام مسافراً قبل مجيء الاستاذ . ولما علمت اللادي ونجت بقدوم الاستاذ الامام طلبت إليه أن يحضر في المساء إلى سراى الحاكم العام ليتناول معها الشاي . فأقام بمنزل قاضي القضاة عقب خروجه من صلاة الجمعة بالمسجد الجامع والناس ترد من كل أوب للسلام عليه والاستفادة من محادثته والاصغاء الى كلماته التي هي درر الحكم تتشظى عنها اصدافها امامهم ، الى أن حل ميعاد ذهابه الى سراي الحاكم العام .

كان صاحب السعادة اللواء سلاطين باشا عرض على الاستاذ الامام ساعة استقباله وهو على ظهر الباخرة انه يرافقه في اليوم التالي إلى أم درمان (١) يشاهد آثار المهدية كقبة المهدي وبيت الخليفة وبيوت اخوته وأسرته وبيت الامانة ومسجد الخليفة وغير ذلك ، فتقبل الاستاذ منه ذلك بالشكر والامتنان

وذهب طيب الله ثراه إلى أم درمان صبح يوم السبت ٢١ يناير سنة ١٩٠٥ يرافقه سعادة اللواء سلاطين باشا وقاضي القضاة ، وكان في انتظارهم صاحب الفضيلة مفتي السودان، والشيخ محمد البدوي من العلماء . وبعد ما شاهد تلك الامكنة زار محكمة أم درمان الشرعية فسر مما رأى ، وقصد مدرسة أم درمان واختبر التلاميذ ورأى من التقدم وحسن النظام والتعليم مالم يكن ليظنه في بلاد السودان . ثم عاد إلى الخرطوم

زيارته للمدرسة الكلية واختباره لطلبتها

وفي يوم الاحد زار مدرسة غردون الكلية ومعه صاحب السماحة قاضي القضاة وصاحب الفضيلة قاضي المديرية الشرعي و كان يختبر طلبة قسم المعلمين والقضاة اختبار مدقق في كل علم من العلوم التي يتلقونها ، فرأى من ذكائهم وكثرة ماحصلوه من العلوم على حداثة عهد المدرسة وقلة مايكون قد حذقه الطلبة من المعلومات حين دخولهم فيها ماأنعش أمله فيها، فان الطالب الذي يتم دراستها وإن لم يكن كالذي يتم الدراسة بقسم المعلمين الناصرية إلا أن الاول يدخل خالياً من المعلومات في حين أن الثاني يدخل حافظا للقرآن والالفية ويؤدي امتحانا في عدة علوم لا يمكن أن يضارعه السوداني في الحصول عليها ولو أفنى أكثر أيام عمره ، ولو دخل السوداني المدرسة حاصلا على درجة المصري في قسم المعلمين لسبق المصري عند انتهاء الطلب

وفي يوم الاثنين عاد إلى الكلية وأتم اختبار تلامذة القسم الابتدائي وشاهد الورشة التابعة للكلية التي يتعلم فيها أبناء الاهالي الصناعات المختلفة كالنجارة

(١) كانت صفة العرض هل يحب الاستاذ المفتي ان يأخذني مترجماً له بام درمان لأطلعه على آثار الخليفة والدراويش؟

والحدادة والبرادة ، وصب المعادن والنقش وغير ذلك ، وبعد التفتيش طلب أنموذج التعليم بقسم القضاة وصرح بأنه يريد أن يهذبه حتى يكون بحال تناسب الطلبة الذين كان يرجو ادخالهم في مدرسة القضاء الشرعي بمصر . وبالجملة فقد سر بمعارف السودان سرور الاب المشفق بابنه النجيب ، وأثنى على ناظر المدرسة ومدرسيها بما هم أهله أطيب اثناء

ومما يذكر بمناسبة زيارة مولانا الاستاذ رحمه الله أن المستر كرى مدير معارف السودان قال عقب زيارة الاستاذ الامام الكلية: إن كثيراً من موظفي المعارف في مصر وغيرهم ممن زاروا المدرسة قد أثنوا عليها ، وقد أثنى عليها فضيلة المفتي فأنا الآن مقتنع بأنها كما وصفها سائرة في طريق نجاح باهر

﴿ زيارته لدواوين الحكومة وتفتيشه لمحكمة عموم السودان ومحكمة الخرطوم الشرعيتين ﴾

وقد زار الاستاذ في الايام التالية لزيارة كلية غردون دواوين الحكومة وأفرد كلا من محكمة عموم السودان الشرعية ومحكمة مديرية الخرطوم الشرعية بيوم فتش فيه أعمالها وسير القضايا فيها ، وراجع كثيراً من الاحكام التي نظرت فيها محكمة العموم بصفة استئنافية أو بصفة تمييز ، وقد سر من جميع ما رآه في المحكمتين سرور الغارس بباكورة جنى غرسه

اقبال الجماهير لزيارته والاستفادة منه

وقد كان قاضي قضاة السودان وقاضي الخرطوم يخلوان بالاستاذ في عدة أوقات وكل منهما يطرح بين يديه ما يراه من المشاكل في الاحكام والاجراءات والامور التي تجلب على الناس المشاق اذا جرى فيها الحكم على مذهب الحنفية فيشير إلى كل منهما بحل ما أشكل عليه ، ويبين مأخذ ما أشار به من مذهب مالك أو غيره من الائمة جزاهم الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين أفضل جزاء

وقد كان الناس من مصريين وغيرهم يتقاطرون على الاستاذ رحمه الله من كل صوب أينما كان في الاوقات التي كان يفرغ فيها عادة من التفتيش أو من زيارة معاهد العلوم ، وكانت أوقات الاجتماع عامرة بمذكراته لهم في الدين وتهذيب

النفس وتكميلها بالأخلاق الكريمة ، وشحذ الهمم وحثها على فعل الخير بما عهد منه من الاساليب التي تأخذ بالالباب ، وتستهوي الافئدة ، وقد كان المسلمون والمسيحيون في ملازمته والاستفادة من حكمه سواء

وبمناسبة ذكر المسيحيين نذكر أن المسيحيين الذين بالخرطوم أوفدوا وفداً من خيرتهم ينوب عنهم بالسلام على الاستاذ الامام والترحيب به ، فأحسن وفادتهم وشكر ماأبدوه من الحفاوة به ، حتى خرجوا وألسنتهم لاهجة بالثناء عليه وهم إلى الآن يذكرون له حسن اللقاء ، ولين الجانب ولطف المعاشرة، ولم يكونوا بأقل من المسلمين حزنا عليه حين نعيه طيب الله ثراه

﴿ حادثة جرت أثناء وجوده بالخرطوم ﴾

(بشأن زيارته لنادي الموظفين المصريين)

وذلك أن المستخدمين المصريين (مسلمين ومسيحيين) افتتحوا ناديا سموه (نادى المستخدمين المصريين) ليكون مجتمعاً لهم يستغنون به عن قهاوى الاروام، ولما حضر الاستاذ الامام دعاه جماعة من أهل النادى أن يزور ناديهم ويشرب الشاى معهم ، فوعدهم، فأسر اليه أحد الصادقين في محبته ان هذا النادى يحتسي بعض أهله الخمر فيه، فحاول الامام أن يصرف أهل النادى عن التشديد في الكون معهم في ناديهم بالتي هي أحسن ، فزاد تمسكهم به ، ورأوا في انصراف الاستاذ عن طلبهم كسراً لخاطرهم ، وأحسوا بمن أطلع الاستاذ على ما كان سبباً في رغبته عن إجابة طلبهم، فمدوا اليه ألسنتهم بالسوء ، وأخذت رءوس الشقاق تبدو من مكامنها ، فذهب إلى الاستاذ واحد من المخلصين له [١] وأخبره أن أهل النادى قد اشتد غيظهم على من كان سبباً في تخلف الاستاذ عن ناديهم [٢] وأن عاقبة ذلك شقاق وعداوة لاتحمد مغبتها ، ورجاه في أن يتلافى الامر بلطيف حكمته ، فما كان جواب الاستاذ إلا أن أخذ يسأله عن شؤونه في عمله الذى يقوم به في السودان وعن مقدار النجاح فيه وأحواله مع الرؤساء، ولم يجبه عما هو بصدده بسلب ولا إيجاب

---

(١) عبدالوهاب النجار (٢) المرحوم الشيخ محمد هارون قاضي قضاه السودان

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الاربعاء ٢٥) يناير أشرقت طلعة الاستاذ في نادي المصريين وكان مزيناً بالاعلام وسعف النخل والازهار ، وجلس الاستاذ في قاعة أعدت له وللجماعة من المصريين وأخذ أهل النادى مجالسهم في قاعات أخرى وبعد تناول الشاى قام حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد الخضرى وقال خطبة وجيزة هي آية من آيات البلاغة شكر للاستاذ فيها تشريفه للنادى وجبره لخاطر أهله ، ثم تلاه حضرة الفاضل الشيخ عبد الرؤف سلام المدرس بالكلية وتلا قصيدة غراء في مدحه وتبعهما غيرهما

ثم قام الاستاذ الامام فأثنى على جميعهم لما لقيه من الحفاوة به وخطب فيهم خطبة بليغة حبذ فيها قيامهم بانشاء هذا النادي إذ كان لاجتماعهم فائدة من وجوه وأخذ يعدد فوائد الاجتماع في الاندية عند الامم الراقية ، ثم صرح بأنه وصل الى علمه ان بعض اهل النادي يشربون الخمر ، وطفق يشرح مضار الخمر وكيف ان العقلاء من أهل أوربا اخذوا يحرمونها على أنفسهم ، وان لم يحرمها عليهم كتابهم ، وان الضرر منها في السودان وهو قطر حار أشد منه في غيره — وانه لا وجه لمن يحتج لوجود الخمر في النادى بأنه يجمع المسلم والمسيحي وثانيهما يبيحها دينه ، فانه لا فائدة في الاجتماع اذا لم ينزل أحد من أهله عن بعض مشتهياته ابتغاء مرضاة أخيه ، ثم قال على انه بلغني ان المسيحيين من اهل النادى يتحاشون المجيء فيه لما يألمون له من سكر بعض اخوانهم المسلمين . ثم ختم كلامه بالدعاء لهم بالخير وطلب اليهم أن يحققوا أمله فيهم بأن لا توجد الخمر في ناديهم — فعاهدوا الله جميعاً على أن لا تدخل ناديهم خمر ، وانهم لا يدخلون النادى اذا استمر وجود الخمر فيه وانفض الجمع على ذلك .

ولكنهم لم يوفوا بالعهد إلا مدة اقامة الاستاذ بالسودان ثم عادوا لما نهوا عنه ، تولى الله بلطفه هداهم

(ضيافة الضباط له في ميسهم وحفاوتهم به في ناديهم)

وفي مساء يوم الخميس ٢٦ يناير كان الاستاذ رحمه الله مدعواً لتناول العشاء بميس(١) الاورطة السابعة هو وجماعة من خاصة تلاميذه وأحبابه ، فوافى ثكنة الاورطة بعد غروب الشمس وكانت مزدانة بالاعلام وموسيقي الاورطة تصدح بانغامها المطربة طول بقائه ، وكان في انتظاره صاحب العزة قومندانها مرسي بك فهمي والعدد الكثير من الضباط الكبار والضباط الصغار في الاورطة .

وبعد تناول العشاء قام هذا الجمع المحتشد في ثكنة الاورطة والشيخ في وسطهم ممتط جواداً مطهما (٢) وكا نوا كلهم ركبانا ماعدا الجنود الذين كانوا يسيرون امام هذا الموكب الحافل حاملين الاضواء حيث كان الوقت "سابعة والنصف مساء وتم جميعهم نادى الضباط المصريين (٣) وكانوا قدأعدوا حفلة عظيمة إكراما لمولانا الاستاذ احتشد فيها جميع الضباط الموجودين بقسم الخرطوم بين ضباط كرام، وضباط عظام ، وضباط صغار وهم بملابسهم العسكرية جميعاً ، وقد رجوا صاحب العطوفة حسين فخرى باشا ناظر المعارف والاشغال المصرية أن يشرف النادى في تلك الليلة لمصادفة وجوده بالخرطوم ، وبعد تشريف الامام النادى جاء صاحب العطوفة فخرى باشا وجلس مع الاستاذ يحادثه في أمور السودان وما رأياه من تقدم المدارس والعمران في هذه المدة اليسيرة

ثم دعي الاستاذ الامام وفخرى باشا وجماعة من خاصة الاستاذ والضباط الكرام والعظام لتناول الشاى في قاعة فسيحة على مائدة أعدت لذلك ، وبعد تناول

---

(١) الميس كلمة انجليزية يعبر بها عن اشتراك جماعة في المعيشة يأكلون ويشربون جميعا ولكل أورطة في الجيش المصري ميس ينتظم الضباط الذين لا يصطحبون أزواجهم

(٢) لم يركب رحمه الله من المطايا في السودان سوى الجياد الكريمة

(٣) هذا النادي بناء فخم من أبنية الحكومة على الضفة اليسرى لنيل الازرق قائم في وسط حديقة جميلة ، قد افتتح تحت رياسة الجناب العالى الخديو حين زار الخرطوم سنة ١٩٠٢ ومن الاصول المقررة أن يكون رئيسه أقدم ضابط بقسم الخرطوم

الشاي هم صاحب العطوفة فخري باشا بالانصراف وانطلق البكباشي محمود افندي (باشا) عزمي اركان حرب الحملة المائية يخطب خطبة وجيزة افتتحها بالترحيب بالاستاذ الامام وفخري باشا وشكرهما على تلبية دعوة الضباط المصريين وتشريفهما ناديهم وختمها بالدعوات لمولانا الخديوي المعظم والحاكم العام . فرد عليه صاحب العطوفة الناظر بخطبة هي غاية في الايجاز بعبارة سهلة بطريقة شكر فيها الضباط المصريين على الحفاوة به وتمنى أن يدوم ارتقاء السودان بحسن اجتهادهم ، والتفات الحاكم العام السير رجنالد ونجت باشا، فصفق له الحاضرون وانصرف من النادي يشيعه أحد الضباط العظام

وأراد الاستاذ الامام أن يتلو فخري بالانصراف فاستوقفه الجمع ورجوه أن يروي غلتهم بكلمات يسمعونها منه ، فأثنى على هؤلاء الضباط بما هم أهله من المعاني التي فاه بها في ذلك المقام ماأرويه لك بالمعنى وهو :

خطابه للضباط ونصحه لهم

كنا نسمع عنكم في وقت الحرب ماجعلنا نسميكم شياطين الحرب ، وقد شاهدت الآن من أعمالكم الجليلة وآثار العمران التي تمت بايديكم في السودان مايسوغ لي أن أسميكم ملائكة السلام ، لايشك مطلع على هذا الرقي الذي أراه في السودان في أن العامل منكم يقوم من العمل في السودان بما لايقوم به أربعة في مصر ، ولو قيل لي هذا الكلام وأنا في مصر ماصدقت ، لقد قمتم أيها الضباط بالاعمال التي عهدت اليكم في السودان أحسن قيام ، وإن ماشاهدته من آثار المدنية التي تمت بايديكم ليجعلني مع شدة ميلي إلى النظام والدستور أتمنى أن تكون الحكومة المصرية حكومة عسكرية لينالها من التقدم على أيديكم مانال السودان

ثم حثهم على الاجتماع والائتلاف ، وأنه يود أن يكون هذا النادي ناديا للضباط حقيقيا يجتمعون فيه لاسترشاد بعضهم ببعض في المشكلات واستفادة بعضهم من تجارب الآخرين، وأن لايكون نصيبه الهجران وقعودهم على قهاوي الاروام. وختم كلامه بالدعاء لهم وتوفيقهم للسداد ، وكانوا يصفقون له عند انتهاء الجمل تصفيقا طويلا متكررا

ثم انتقل هذا الجمع إلى البهو الكبير وجلس الاستاذ يحادثهم إلى منتصف الليل ، كل هذا والموسيقى تصدح بالانغام اللطيفة إلى أن خرج هذا الحفل ، وأما النادي وحديقته فكانا مزدانين بزينة أبهى وأسنى من زينة حديقة الازبكية في ليالي الحفلات

صلاة الجمعة في أم درمان

صلى الاستاذ صلاة الجمعة ٢٧ يناير سنة ١٩٠٥ في المسجد الجامع بام درمان ومعه قاضي القضاة وقاضي المديرية ومفتي السودان، وعدد من مدرسي الكلية وغيرهم ، وقد بادر كل من بالمسجد عقب الصلاة لتقبيل يد الاستاذ وأيدي من معه إكراما له وكان الزحام شديداً حتى لقد آذى الزحام على التقبيل أيدي بعض من يرافقه

وفي عصر ذلك اليوم ركب الاستاذ ومن كانوا يرافقونه باخرة من بواخر الحملة المائية كان استأجرها حضرة نسيب افندي فلبيدس باشكاتب مكتب سكرتير قضائي السودان وأبقاها تحت تصرف الاستاذ ذلك اليوم ، فسارت بهم الباخرة إلى قرب كرري موضع الوقعة الفاصلة بين الجيش المصري والدراويش ثم وصلت بهم الى أم درمان ليلا قبل العشاء

رأى الاستاذ في ذلك اليوم مسجد أم درمان بحالة حملته على أن يتبرع بمبلغ عشرة جنيهات لتكون أساساً لعمل اكتتاب لجمع مقدار من المال يبنى به ذلك المسجد أو يصلح به جزء من مسجد الخليفة ، وأعطى ذلك المبلغ لصاحب السماحة قاضي قضاة السودان ، نسأل الله أن يبعث الهمم لتميم الاكتتاب وتحقيق ما كان يقصده الامام

وعلى ذكر مسجد أم درمان جرنا تداعي المعاني الى انه رحمه الله قد وعد أن يسعى لدى ديوان الاوقاف بمصر ليقرر مبلغا لا يقل عن أربعمائة جنيه لاعادة بناء جامع الخرطوم القديم الذي خربه الدراويش وتركوا جدره مهدمة، فهل من مسلم يقوم عنه هذا المقام المحمود ، ويحوز الاجر من الله والثناء من الناس (انما يعمر

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

وزار الاستاذ الامام رحمه الله مدرسة البنات التي تديرها الراهبات ويشرف عليها قس يسمى انقسجون وهو الذي دعاه لزيارتها واحتفل بمقدمه أيما احتفال. وبعد خروجه من المدرسة سأل عن مدرسة للبنات المسلمات فقيل له انه لاملجأ لهن ولا مناص من التعلم في هذه المدرسة فعقد النية على أن يسعى بأي وسيلة يجدها * لانشاء مدرسة اسلامية لتعليم البنات المسلمات في الخرطوم ولكن عاجله المنون قبل أن يحقق تلك الآمال

اغتباط البلاد بايام اقامته فيها واستفادتها منه

كانت أيام إقامة الاستاذ بالخرطوم عند أهلها وأهل أم درمان أعياداً ومواسم وكانت البيوت التي يكون فيها كأنها الكعبة لاتخلو من طائف ، والعلماء والادباء يوافونه من كل فج وناحية ، هـذا سائل وذاك مسترشد ولآخر مستبصر في كتاب الله أو سنة نبيه أو عقيدة من العقائد أو علم من العلوم

وربما حمل اليه الرجل عدة أسفار يعرض عليه ماأشكل عليه فهمه منها فكان يميط اللثام عن كل معضلة ، ويذلل صعاب المشكلات بفكرته الوقادة ، وكان يحث الناس على فعل الخير مع أهله وغير أهله ، وجرت لذلك مناقشات طويلة في غير مجلس بينه وبين محبيه وأصدقائه من أفاضل الادباء وقد أربى في رأيه هذا على أبي العلاء في قوله :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الانام على أن لا يدينوكا

وكان يقول : يجب على الانسان أن يفعل الخير على انه خير على كل حال سواء صنع مع أهله أو غير أهله * لايذهب العرف بين الله والناس *

وبالجملة فقد كان في السودان مثال الخير وموضع عناية العامة والخاصة. وقد كان صاحب السعادة الحاكم العام يعني به عناية العارف بقدره الذي يقدر مساعدته للبلاد السودانية قدرها ، وكان يسأله عن ملاحظته على الكلية والمحاكم الشرعيـة

فاذا أخبره بشيء قيده في مذكرته ليجري الامر على مقتضاه في الوقت المناسب

من ذلك أن قانون الحكومة السودانية يقضي أن انتقال الموظف الذي راتبه أقل من خمسة وعشرين جنيها في الشهر يكون بالدرجة الثانية لا يستثنى غير قاضي القضاة والمفتي والمفتش ، فشكا ذلك إلى الاستاذ الامام قاضي مديرية الخرطوم، فعرض الاستاذ الامر على الحاكم العام وطلب إليه أن يكون نزول قضاة المديريات بالدرجة الاولى أسوة بقضاة مصر الشرعيين، فتقبل طلبه بقبول حسن، ووعد بأن يتم ذلك عند عودته من سفره الى كسلا فمصر وقد تم ذلك في أواخر شهر مايو سنة ١٩٠٥

ولما جاء يوم الثلاثاء ٣١ يناير سنة ١٩٠٥ وهو موعد عودته إلى مصر دعي لتناول الطعام ظهراً مع الحاكم العام ومعه قاضي القضاة ومفتي السودان ،وقد أعدت الباخرة لتجيزه ومن معه الى الخرطوم البحرية، وكان يرافقه قاضي القضاة والمفتي والمفتش وقاضي المديرية وكل من كانت عنده فرصة لوداعه من مدرسي الكلية كالشيخ محمد الخضري وكاتب هذه السطور (عبد الوهاب النجار) وكثير من علماء السودان واهل الوجاهة، وسافر القطار من الخرطوم البحرية وفيه الاستاذ مشيعاً بالدعوات تحف به القلوب ميمما مصر وهو ممتلىء فرحا وسروراً بما شاهد من نماء غرسه رحمه الله رحمة واسعة وجازاه أفضل ما جازى عاملا مخلصاً لدينه ووطنه .

﴿ استدراك على الكاتب ﴾

فات أخانا الاستاذ الكاتب أن يذكر دعوة أكبر اشراف السودان وأشهرهم للاستاذ الامام وهو السيد علي الرغني لنعلم صفتها وفائدتها، وهذا نص كتاب الدعوة:

الخرطوم في ٢٤ يناير

سماحة الاستاذ الامام

بعد ازكى السلام والاحترام، أسعد الباري أوقاتكم بالمسرات ،نرجو التشريف بمنزلنا يوم الخميس في الساعة ٧ ونصف لتناول العشاء

وتقبلوا مزيد الممنونية والاحترام علي ميرغني

المقصد السادس

من الفصل السابع

آراؤه وآماله وامانيه

آراء الناس قد تختلف باختلاف الاحوال والازمنة والامكنة والاشخاص الذين يلقى اليهم الرأي او يناط بهم العمل، فرب رأي ينفع امرءاً ويضر آخر لاختلاف الفهم او الميل او الاستعداد للعمل، ومن كلام علي كرم الله وجهه: عند البخاري حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله. ومن كلام ابن مسعود (رض) في مقدمة صحيح مسلم : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

وقد نقلت فيما سبق عن الاستاذ الامام انه كان من طبعه في حديثه ودروسه العلمية والدينية أن يتكلم بقدر مايشعر به من استعداد السامع ، بخلاف السيد جمال الدين ، فانه كان يلقي الحكمة والآراء السياسية لكل أحد ويؤثر في نفسه، ولذلك اختلف الناقلون لبعض آرائه بين النفي والاثبات ، وكان المسيح عليه السلام يكثر من ضرب الامثال، وقال انه لايستطيع أن يقول لقومه كل شيء، وانه سيأتي بعده الذي يبين لهم كل شيء ، وهو البارقليط روح الحق (عليه الصلاة والسلام)

وقد سمعت في أثناء صحبتي الطويلة القصيرة لاستاذنا قدس الله روحه آراء كثيرة في جميع ما كان يدور بيننا من الموضوعات ، وعلمت منه انه لا يفضي بكل مافي نفسه بدون احتراس الا لبعض الافراد ، ولكن كان يقول لي في بعض آرائه هذا لايكتب او لا يقال لكل أحد . (وأول مرة ذكر لي هذا عند بيان رأيه في الشيعة وكان ذلك سنة ١٣١٥ قبل صدور المنار)

كتمت بعض آرائه وكتبت بعضا، وحدثت ببعض ما كتمت من علمت انهم ينتفعون به ومن آرائه مانقل عنه في حياته او بعد وفاته صحيحا ، وما نقل محرفا محريفا ، ومنها ما اختلف الناقلون له في فهمه او تأويله بالتبع لاختلاف مشاربهم او نياتهم، واني أنبه قارىء هذا التاريخ لمسألة مهمة وهي أن بعض آرائه الدينية والسياسية

والاجتماعية مبنية على مذهبه في الاصلاح ، فلا يفهم مراده منها حق الفهم إلا من عرف مذهبه هذا حق المعرفة ، وقد ذكرنا مذهبه هذا فيما نقلناه من كلامه في أول ترجمته لنفسه (ص١١و١٢) وسنبينه بالتفصيل في المقصد الثامن من هذا الفصل ، ورأيه المشهور في السياسة مبني عليه . وقد تقدم نقله عنه في مواضع آخرها نصيحته لمسلمي تونس والجزائر من هذا الفصل ، وهو مجمل يحتاج إلى البيان فأبدأ ببيان اجماله وكونه فرعا من فروع مذهبه في الاصلاح

رأيه في السياسة

من حكمه المأثورة التي سيرها مثلا قوله «ما دخلت السياسة في شيء إلا أفسدته» ومن أقواله المشهورة فيها « فان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم او الدين ، فانا معك من الشاهدين، أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم أو يجن او يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس» اهمن (كتاب الاسلام والنصرانية ص ١١١ من الطبعة الرابعة)

وغرضه من ذم السياسة ومن نهي العاملين من المسلمين لاحياء العلم والدين عنها ، وارشادهم أن يكونوا في عملهم بمعزل عن تأييدها او مقاومتها ، هو ان السياسة في جميع بلاد المسلمين استبدادية جائرة، سواء أكان حكامها وساستها من أهلها ، ام من الاجانب المتغلبين عليها ، فتأييد سياستهم بالعلم والدين افسادلهما، ومقاومتها بهما عرضة لمنع اقامتهما ، والتنكيل باهلهما ، فالطريقة المثلى اجتنابها، ومداراة أهلها ، واقناعهم بكل وسائل الاقناع الممكنة بان الاصلاح العلمي او الديني المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ، ونافع لهم او غير ضار بهم ، وحسب العامل المصلح تمكنه من العمل ، فان استطاع بهذه المسالمة والمحاسنة أن يجد مساعدة من الحكام بشرط ترك الحوبة له في العمل فذلك أفضل وأكمل ، كما فعل السيد احمد خان ثم الشيخ شبلي النعماني في الهند ، والاستاذ الامام بمداراة الانكليز في مصر ، ومن وسائله التي اتخذها لذلك عقب رجوعه من منفاه، لائحة

نظام التربية بمصر التي قدمها إلى السر افلن بارنج (لورد كرومر) وهي مانشرناه في الجزء الثاني (المنشآت ـ ص٥٣٣ طبعة ثانية) فكان تأثيرها عنده سلبيا لا ايجابيا

وكان مراد الاستاذ منها التوسل ليكون معلما في مدرسة دار العلوم لاعتقاده أن تلاميذها أرجى لقبول الاصلاح من مجاوري الازهر، وقد طلب ذلك فعارض الخديو توفيق باشا فيه، ولم يساعده الانكليز عليه. وكان طلب من الدولة العثمانية أن تقوم بهذا الاصلاح في بلادها وبسط الحاجة اليه في لائحة وقعها هو وبعض وجهاء بيروت إذ كان مقيما فيها وأرسلها إلى شيخ الاسلام في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ (راجع ٥٠٥ ـ ٥٢٢ من المنشآت ج ٢. ومن ذا الذي يقرأ اللوائح او يفهم مايقرأ، او يبالي أن يعمل بما يفهم؟

يقول محبو السياسة او المشتغلون بها ان هذه المسالمة للسياسة والمداراة لرجالها اقرار ضمني للاستبداد ومساعدة سلبية عليه، ويقال لهم ان هذا لايمنع غير هؤلاء المشغولين عن السياسة بعمل آخر نافع للامة أن يعملوا هم لها من طريق السياسة، فتقسيم الاعمال الكبيرة وتوزيعها شرط من شروط اتقانها والنجاح فيها. واما الاستاذ الامام فانه كان يرى ان استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة الامة وجمع كلمتها، وان الطريق المستقيم الموصل إلى هذه الغاية هو تربيتها وتعليمها على الوجه الذي يراه هو وسنشرحه في بيان مذهبه في الاصلاح قريبا، ولولا هذه المداراة لما أمكن له أن يعيش في مصر، فاذا لم يخرجه الانكليز منها لسعة حرية لورد كرومر فلا شك في ان الخديو كان يخرجه ويخرجني منها كما أخرج أبوه السيد جمال الدين، وقد تقدم مايثبت هذا ـ وحسبك انه قاومه في كل إصلاح حاوله، ولم يقاومه الاجانب في شيء، وهم لايجهلون ان نجاحه فيما يحاول من الاصلاح وبال على نفوذهم في مصر بل في العالم الاسلامي كله

واني أذكر هنا ما كتبه محمد حافظ بك ابراهيم في كتابه الادبي (سطيح) من رأي الاستاذ وتلاميذه ومريديه في السياسة، واقفي عليه باول ما سمعته منه في ذلك، و نقل الاول عن (ص٨٤٥ من مجلد المنار العاشر) والثاني من مذكراتي التي لم ينشر منها إلا القليل. وهذا نص الاول :

﴿ كلمة شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ ابراهيم في سياسته ﴾

(بين سطيح وأحد تلاميذ الاستاذ الامام)

سطيح ـ أين أنت من القوم ؟

التلميذ ـ من أولئك الذين نقموا الرضى على العهدين ، ولم يحمدوا مغبة الحكمين ، عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة البريطانية ، ففي أولهما فضت المظالم وغاضت الاموال ، وفي ثانيهما أخصبت الارض ،وأجدبت الرجال ـ

سطيح ـ وهل أنت في خفض من العيش ؟ ـ التلميذ ـ لا أشكو بحمد الله عسراً ، ولا أرجو يسرا ، وانما أتفيأ ظل هذا البيت العربي، لذلك الشاعر الأبي،

مذبذب الرزق لا فقر ولا جدة حظ لعمرك لم يحمق ولم يكس

قال ـ وأين مكانك من العلم ، وأين منك منزلة الحلم ؟ قال حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام ، الاستاذ الامام ، طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه

قال ـ اني لأرى رأيا حصيفا ، وأسمع قولا شريفا ، فمن أي تلاميذه تكون وقد سمعنا انهم فريقان ـ فريق قد اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد ؟ قال ـ لا علم لي بما تقول . وقد كنت ألصق الناس بالامام، أغشى داره، وأرد أنهاره، وأنتقط ثماره ،فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبحها الله، ولكن كان يملأ علينا المجالس سحراً من آياته، ويتنقل بنا بين مناطق الافهام ، ومنازل الاحلام ، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق، وحكم الخالق، وكان ربما ساق الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة ، فان كانوا يسمون تلاميذه احزابا ، ويقسمون تعاليمه أبوابا ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران

ولكنه كان يحتك بالسياسة مادعت الى ذلك الحال فيرصد حركاتها،ويصد غاراتها ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، وأن تقف عثرة في طريق الفضيلة؛فلكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها، حتى اذا ظفر بطلبته ، وفاز

برغبته ، واستمد منها ماشاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد ، ورد عليه ماسلبت يد الاستبداد ، ولولا أنه كان يمادهم حبل الوداد ، ويجاذبهم فضل النصح والارشاد ، لأصابه ماأصاب حكيم الافغان ، وقضي على أمة النيل بالحرمان

قضى النبي عليه الصلاة والسلام فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق ، فما غضت الردة من شرف النبوة ، ولا نالت من عصمة الرسالة ، ولبث الاسلام إسلاما — ومات الاستاذ الامام فصبأ بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ، ولا مس من سيرة ذلك الامام . حافظ ابراهيم

أول ماسمعته منه فى السياسة

أول كلام سمعته منه في هذه المسألة كان في زيارتي الاولى له في ضحى يوم الاحد ٢٤ رجب سنة ١٣١٥ وقد وصلت إلى القاهرة في مساء اليوم الذي قبله ، وقد تكلم معي في عشر مسائل : ستة منها خاصة باصلاح الازهر ، وقد ذكرتها في أول المقصد الثاني من الفصل السادس (٤٤٥)

وكانت السابعة والثامنة منها قوله (٧) انني أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة ، وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء ، وعليه يبنى كل شيء (٨) ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة وندهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ... فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك اوطانهم والسير في الارض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار . فقال إنما أنت مثبط اه ملخصاً

ثم عدنا إلى هذا الحديث في يوم الجمعة (٢٠ رمضان سنة ١٣١٥) إذ ذهبت معه الى مأتم الامير عثمان باشا فاضل شقيق الاميرة نازلي هانم وكنا بداره في الناصرية وقد ذكر لي قبل الخروج منها شيئا عن حال هذه الاميرة وانها تعرفه وتجله وقد عنيت عقب عودته من سورية بعد انتهاء مدة النفي بالسعي لدى الخديو

توفيق باشا للعفو عنه وكلمت في ذلك لورد كرومر وهو كلم رياض باشا (وكان رئيس النظار) فوعده بذلك ولكن سبق صاحب الدولة أحمد مختار باشا فكلم سموه بذلك فأجابه وأصدر العفو عنه (فالفضل في هذا العفو كان لمختار باشا لا للورد كرومر الذي تبجح به بعد وفاة الاستاذ في كتابه مصر الحديثة)

الاميرة نازلي هانم والسياسة

قلت أسمع عن هذه الاميرة انها ذكية فاضلة سياسية . قال نعم : هي كذلك

قلت : لو استعملت هذا الادراك في عمل مفيد لتهذيب النساء بتعليم البنات لأمكنها

قال : نعم ولكنها مولعة بالسياسة (كما قلت) فمن سوء حظ المسلمين ان كل من كان فيه استعداد لشيء يشتغل بغيره . فاشتغال هذه الاميرة بالسياسة كاشتغال السيد جمال الدين بها . هو رجل عالم وأعرف الناس بالاسلام وحالة المسلمين، وكان قادراً على النفع العظيم بالافادة والتعليم ، ولكنه وجه كل عنايته إلى السياسة فضاع استعداده هذا ...

وهذه الاميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد في تهذيب البنات . فان من حولها من الاميرات ينفقن نفقات كبيرة إسرافا وتبذيرا ، ولو انها حملتهن وأمثالهن من النساء الغنيات على انشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن واستحضرت لهن معلمات من الاستانة أو سورية لكان خير عمل تعمله وما كن ليخالفنها. فاذا لم يأت بالفائدة المطلوبة كان غرسا أو بذراً تجنى ثمرته ولو بعد حين

قال: وطالما ذاكرتها بهذا المعنى وخطأتها في الاشتغال بالسياسة وكان يسوءها هذا مني لان النساء (ولا سيما الاميرات) يحببن الطاعة وعدم المعارضة لهن في آرائهن. وأنا لا أجاريها في احاديثها السياسية فتغضب . واذا حضر مجلسها غيري وتكلمت معه لاترضى أن أكون ساكتا فتحملني على المشاركة وأنا لا أحب أن اجاريها في شيء اعتقد خطأها به . وقد قلت لها يوما : إن سكت لاأرضيك وإن تكلمت لاارضيك (أي لاني أعارض) فكيف العمل ؟

(اقول : ثم حضرت معه ومع سعد باشا وغيرهما بمجلسها بدارها ، وكانت برزة تضع على رأسها قناعا وتتكلم بطلاقة وتحتج)

ثم عدت معه الى مشرب السيد جمال الدين

قلت : ان السيد جمال الدين رأى ان طريق التعليم والتربية بعيد وان الاصلاح الاقرب يكون باصلاح الحاكم أو الحكومة

قال : لو انه تقرب من السلطان بمقدار يمكنه من حمله على اصلاح التربية والتعليم من غير تعرض لفساد حاشيته ولا تدخل في شؤونهم - بل مع مساعدتهم على أغراضهم الخسيسة - لكان حسنا ولقدر أن ينفذ ما ربه - مثلا - يحسن للسلطان ان يصدر إرادته باصلاح الوعظ في الجوامع والتعليم الديني في المدارس ، ويقرن هذا السعي باعطاء أبي الهدى خمسمائة جنيه واعطاء نيشان لابنه أو لاخيه ، فاذا رآه أبو الهدى يخدمه فيما هو مهم عنده فاما أن يواتيه ، وإما ان لا يناويه ، وهلم جرا

لكنه تدخل في شؤون هؤلاء الفاسدي الطباع والاخلاق ، وإصلاحهم من المستحيلات ، فأخفق مسعاه ، اهالحديث وقد نقلته كما كتبته في ذلك اليوم

كتاب الاستاذ الامام إلى السيد

أقول والشيء بالشيء يذكر ان الاستاذ الامام كان كتب الى السيد كتابا عقب استقراره في الاستانة يدلي فيه بمثل هذا الرأي الذي ذكره لي من استحسان مداراة أعدائه الكثيرين في الاصلاح ، واختار فيه اسلوب الكناية والتعريض ، والرمي إلى الغرض من مكان بعيد ، لعدم ثقته بأمانة البريد ، ولاسيما المكتوبات التي ترسل إلى السيد جمال الدين ، ولم يضع امضاءه في آخره ، لان السيد يعرف خطه دون مراقبي البريد في الاستانة ، فغضب السيد غضباً شديداً ، وعاتب الاستاذ عتابا قاسياً ، بل تعريباً عاتياً ، لتوهمه ان الذي حمل الاستاذ على ذلك الخوف على نفسه ، وفاته ان المرء في مصر لايخاف على نفسه إلا أن يكون من نفسه ، وانما حمله على الابهام ، التعمية على مراقبي البريد اللئام ، والاستاذ لا ينقص عنه في الشجاعة ، ولكنه لايغلو فيها إلى طرف التهور

جواب السيد الهمام للاستاذ الامام

كتب اليه كتابا يقول فيه بعد الدعاء له بتثبيت الجأش، ويرميه فيه بالجزع والجبن : تكتب ولا تمضي وتعقد الالغاز ؟ من أعداني ؟ وما الكلاب كثرت أو قلت ؟ انك في آفق مكفهرة . لايميز فيها الخبيث من الطيب، ولاالشريف من الزنيم ، ولا الافين من الكيس ، وامامك الموت ، ولا ينفعك الحذر من الاول ولو كنت حريصاً على مقامك ، ولا ينجيك الخوف من الثاني ، فلاتضيق على نفسك ، فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبياً هلوعا

الرسالة ماوصلت ، ولا بينت لنا موضوعها وجلا منك قوى الله قلبك . وأما تمثال الكمال والجلال حضرة "برنسيس التي لها من قلبي المنزل الابهى ، والمقام الاسنى ، فلا أعلم من أمرها شيئاً لالها ولا عليها ولا سمعت »

(يعني بالبرنسيس الاميرة نازلي هانم وقد سأله الاستاذ عنها إذ كانت في الاستانة وكان السيد جمال الدين يريد أن يطلب لها من السلطان وسام الشفقة المرصع واستشار في ذلك بعض زائريه من المصريين فلم يعارض فيه إلامحمود بك سالم قال له : ياموﻻي السيد ان هذا يسوء افندينا الخديو لانه يراه من حقه)

وفي آخر الكتاب تعريض «بالنقيب ومحبه، وكلبهما وجروه» وانه لايأسف إن كانوا من فلتات الطبيعة في خروجهم عليه ، وعلل ذلك بقوله « لان لي إذن في مصر من يصدع بالحق ، ويزيغ الباطل ، ويدوس بجرموقه عرنين كل أفاك أثيم » اه الكلام، وما بعده إلا السلام، وهل كان له بمصر إلا الاستاذ الامام ؟

هذه الحدة ومرة الغضب التي هي عيب السيد الكبير الا كبر، هي التي كانت سبب فشله في أعماله الكبرى كما قال وارث علومه وهمته وأفكاره وأكبر أنصاره الاستاذ الامام في ترجمته له في حال حياته لما وصفه بها « وكثيراً ما هدمت الحدة مابنته الفطنة »

وقد قلت فيهما من المقصورة الرشيدية :

واقتسما الاصلاح شقين

فذاك للسياسة التي قضى بها واما وطراً فما قضى

وليتها ودعت الشيخ كما ودعها إذ عاذ منها وقلا

رأيه في مشروع مستر بلنت

(في استقلال مصر بمساعدة الاحتلال)

نشرت جريدة اللواء في أواخر سنة ١٣٢٥هـ و١٩٠٧م ترجمة كتابين أرسلهما الامام إلى صديقه مستر ولفرد بلنت جوابا عن أسئلة سأله عنها في الموضوع الذي نشرحه فيما يلي . وذكرت جريدة اللواء أنها نقلت هذين الكتابين عن (كتاب التاريخ السري للاحتلال) الذي ألفه بالانكليزية مستر بلنت هذا ، ونقلهما المؤيد عن اللواء . ولكن هذا الكتاب ترجم أخيراً باللغة العربية ولم نجد فيه ذكراً لهذين الكتابين ولا لموضوعهما . وقد كثر اللغط فيهما عند نشر الجريدتين لهما ، ورجع الناس إلي يسألونني فيما اختلف فيه الكاتبون والمتكلمون في ذلك ، فنشرتهما وبينت رأيي فيهما في الجزء الحادي عشر من المجلد العاشر من المنار (ص ٨٣٤) وهذا نصه:

كتابان سياسيان

﴿ للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

(أو مطالب مصر «الادارية» من انكلترا)

المستر بلنت الانكليزي المستشرق الشهير كتاب سماه (التاريخ السري للاحتلال) جاء في الطبعة الثانية منه ترجمة كتابين أرسلهما اليه صديقه الاستاذ الامام جوابا عن أسئلة سأله عنها ، وقد ترجمتهما جريدة اللواء عن الانكليزية إلى العربية ، وتقلهما عنها المؤيد . وهذا نص مانشرته الجريدتان :

سأل المستر (ولفرد سكاون بلنت) المرحوم المفتي رأيه في الحال السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن إبرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه ، فأجابه فضيلته على ذلك السؤال في كتاب بعثه له في يوم ٦ مايو سنة ١٩٠٤ ، هذا نصه مع تصحيح لغوي قليل :

(الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر مع الاحتلال)

« ان رأيي في الادارة المصرية إذا بقيت الخديوية في عائلة محمد علي هو كما يأتي:

١ ـ أول وأهم قاعدة أساسية في تلك الادارة هو انه يجب أن لا يكون للجناب الخديوي أي سلطة تخوله التداخل في أعمال الهيئات التنفيذية للنظارات ولا إدارة الاوقاف والازهر ، ولا المحاكم الشرعية ، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجعل (لتداخله الشخصي) أثر ما في الادارة المصرية مطلقا

٢ ـ يجب أن يشكل مجلس على نسق مجلس الشورى الحالي بوجه التقريب ولكن على نظام أقوم، وترتيب أمثل منه، وينبغي أن يكون الوزراء وكبار الموظفين أعضاء فيه . وليس هناك ما يمنع من انتظام بعض كبار الموظفين من الانكليز في الحكومة المصرية في سلك أعضائه ، ويكون من اختصاص هذا المجلس سن القوانين الجديدة

٣ ـ ينبغي أن توضع حدود لتداخل السلطات التنفيذية الذي يدعيه الموظفون الانكليز كالمستشارين وغيرهم لانفسهم ، حتى لا يكون الموظفون المصريون مجرد آلات صماء لا إرادة لهم ولا رأي يبدونه من تلقاء أنفسهم

٤ ـ أن يشكل مجلس إدارة في كل نظارة من النظارات كالحقانية والداخلية مثلا، ينتخب أعضاؤه بواسطة المجلس العام المتقدم الذكر، وتكون وظيفة كل مجلس من هذه المجالس الادارية البحث في تفصيلات المسائل المهمة ، ووضع المشروعات والقوانين والنظامات لكل مصلحة من مصالح الحكومة

٥ ـ أن يوضع قانون لنظارة المعارف يكون اجباريا بالنسبة للشؤون المتعلقة بالمعارف العمومية والتعليم ، وينبغي أن يخصص قسم من الدخل العمومي للقيام بنفقات التعليم يكون كافياً لفتح مدارس للتعليم العام ، وأخرى للتعليم الفني تكفي لسد حاجات البلاد

هذا هو رأيي بوجه عام قد أبديته لكم »

فكتب له المستر (بلنت) بعد ذلك بشهرين يسأله ان يتوسع في آرائه هذه

ويضع نموذجاً للدستور المروم إدخاله في مصر ، فأجابه إلى طلبه بعد طول روية ومشاورة أصدقائه في ذلك وأخذ آرائهم في هذا السؤال وسؤال آخر عرضه عليه المستر بلنت أيضا يتعلق بما ينبغي أن يتخذ من الاحتياطات ضد مايتوقع حدوثه من عدم ثقة الجناب الخديوي بالدستور كما وقع على عهد المغفور له والده مما قضى على الآمال الوطنية ،واستفسر منه أيضا عما إذا كان من الممكن أن يقبل المصريون تعيين أمير اوربي بصفة وال تحت سيادة جلالة السلطان إذا صعب الحصول على أمير من العائلة الخديوية متشبع تشبعاً تاما من الافكار الدستورية ، فأجاب المرحوم المفتي على جميع ذلك بالكتاب الآتي

(الكتاب الثاني في نموذج الدستور والاحتياط لضمانه)

صديقي العزيز المحترم

أهديك عظيم تحيتي وأعتذر لك عن إبطائي في الرد على كتابك المؤرخ في ٨ يونيه فاني كنت مشغولا جداً بالامتحان في مدرسة المعلمين والازهر وغيرهما ، ولم أجد وقتا خاليا لأجيبكم فيه على كتابكم هذا ، لاسيما وان موضوعه دقيق الغاية ويعوزه مزيد ترو ،ودقيق نظر

وقد فكرت طويلا وتذاكرت مع بعض أفاضل المصريين فوجدتهم مجمعين على ان من أول الضروريات لحسن الادارة المصرية هو قيام الحكومة الانكليزية بضمان النظام في البلاد وكفالته ،ومعنى ذلك انها تراقب استتبابه والمحافظة على استمراره وعلى الدستور الذي يمنح لمصر ، وأن لاتدع ذلك الدستور عرضة لتدخل الخديويين

ومتى تمت هذه الضمانة ومنح الدستور لاتبقى حاجة إلى نزع سلطة الحكم من عائلة محمد علي ولا إلى تعيين امير اوربي فان تعيين أمير اوربي لا يصادف قبولا من الاهالي ولا يساعدهم على تحسين حالتهم

واما الدستور فينبغي ان يراعي فيه ما سأذكره الآن من المسائل الآتية بصفة خاصة :

(١) أن تناط جميع شؤون الحكومة بسلطة من السلطتين الآتيتين :

أولا ـ تناط بسلطة تشريعية تسن القوانين الادارية والقضائية

ثانيا ـ تناط بسلطة تنفيذية تكلف بتنفيذ تلك القوانين وان تحصر السلطة التشريعية في مجلس نواب أو وكلاء يزيد عدد أعضائه عن اعضاء مجلس الشورى الحالي، وتكون دائرة اختصاصاته الحالية بحيث تحترم قراراته وتكون واجبة التنفيذ وأن لا يسمح للوزراء بعدم احترامها ومراعاتها مهما كانت ظروف الاحوال

وهذا المجلس هو الذي يسن القوانين كافة وتنتخب الوزارة من بين اعضائه

وأن تحصر السلطة التنفيذية في الوزارة التي تخول حق تقديم مشروعات القوانين بحيث لا تستأثر بسنها وحدها، لان حق سنها هو من اختصاص مجلس النواب

(٢) أن تناط جميع مسائل الحكومة التي ليس لها ارتباط بسن القوانين بالوزارة حتى منح الرتب والنياشين ، وان لا يترك من اشغال الحكومة شيء مطلقا للجناب الخديوي ، وأن يناط بها ايضا امر المصالح المختصة بالتعليم الديني وغيره . والمحاكم الشرعية والاهلية وتوزيع الرتب والنياشين دون أن يسمح لسموه بأي تدخل فيها مطلقا

(٣) اذا فرض ان كان بعض الوزراء من الانكليز و كان لهم مرءوسون من المصريين فانه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرءوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطه تسمح لهم بان يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الاصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد العوبة في أيديهم كما هو الحال الآن

وينبغي أن تلغى وظائف جميع المستشارين اكتفاء بهؤلاء الوزراء وفي هذه الحالة تقضي الضرورة بان يكون رئيس الوزراء مسلما بحيث يكون مركزه الرسمي محدوداً بوظيفة الرئاسة دون أن يشغل رئاسة نظارة من نظارات الحكومة

(٤) ان يكون جميع الموظفين الآخرين في الحكومة من المصريين أعني ان المديرين ووكلاء المديريات وقضاة المحاكم الاهلية ابتدائية كانت أو استئنافية وأعضاء النيابة وغيرهم يكونون مصريين ويجوز تعيين انكليز كمفتشين وتعيينهم أيضاً في بعض وظائف في المصالح الهندسية والمعارف وفي الوظائف الصناعية

التي يحتاج الامر فيها إلى معارف خاصة اذا لم يوجد مصري تتوفر فيه الاحاطة بتلك المعارف الفنية

على انه يجب على كل حال أن يحصر عمل أولئك الموظفين الاجانب فيما هو داخل ضمن دائرة اختصاصهم فقط وأن يكونوا خاضعين لمراقبة الوزراء بحيث لايخولون أقل سلطة ادارية او قضائية تفضي إلى اضعاف نفوذ الموظفين المصريين

(٥) ان يخول أعضاء مجلس النواب الحق في ان يسألوا النظار عن تنفيذ القوانين وينتقدوهم على ما يفرط منهم من الخطأ أو يقع من الخلل في الاعمال ، ويتحتم على النظار أن يبينوا أسباب مايقومون به من الاعمال ، واذا وقع خلاف بين النواب والنظار يوكل أمر حل ذلك الخلاف إلى لجنة تشكل من خمسة أعضاء من مجلس النواب ينتخبون بالاقتراع السري ، وخمسة آخرين من أعضاء محكمة الاستئناف ينتخبون مثلهم بالاقتراع السري ، ورئيس المجلس ورئيس النظار ورئيس محكمة الاستئناف ويكون حكم هذه اللجنة بالاغلبية المطلقة

ويجوز زيادة أعضاء هـذه اللجنة باضافة أعضاء آخرين عليهـا من مجلس النواب ومحكمة الاستئناف

واني أعتقد انه لو وضع نظام دستوري على هـذا النمط وضمنته الحكومة الانكليزية لقام بحاجة البلاد ولنالت حكومتها استقلالا لم تعرف له مثيلا

وينبغي ان لاننسى اعادة تنظيم شؤون المعارف والتعليم فان هاتين المسألتين هما من أمس الامور التي يبدأ مجلس النواب بمباشرة الاشتغال بها الامضاء

محمد عبده

وبعد فراغه من هذا الكتاب وضع في ذيله الحاشية الآتية

«قد نسيت ان أتكلم على الحربية فأقول : ان السردار الانكليزي وبعض ضباط الانكليز يبقون في الجيش المصري ولكن يجب أن يشغل المصريون مابقي من وظائف الجيش واذا فرض وقامت بعض صعوبات بشأن ذلك ورأت الحكومة الانكليزية وجوب وجود قواد انكليز فيه أعني « باشاوات » فلاضرر في ذلك »

قول المنار في الكتابين

قد كثر حديث الناس في هذين الكتابين لما نشرا في جريدة اللواء ثم المؤيد وغيره ثم اتسع مجال الآراء فيهما بعد أن استنبط اللواء منهما ما استنبط ولخصهما المؤيد بما لخصهما به ، وزعم ان مالخصه هو رأي الكاتب وناهيك بتقليد الجرائد في دهماء هذه البلاد

قال المنتقدون ان الكتابين يدلان على بغض كاتبهما للاسرة الخديوية كافة وللأمير الحاضر خاصة . وقالوا ان فيهما تحسيناً للظن بالانكليز ،وقالوا بل فيهما مشايعة لهم . وقالوا هذا رأي الكاتب في الدستور المصرى وأطلقوا: أي انه لو كان الامر كله بيده لرضي لبلاده بما كتبه فيها . وقالوا ان كاتبهما على غير بينة بالقوانين الاساسية للأمم . وأغرب ماقالوا وما كتبوا هو ماأنبأ عن استنكارهم سلب السلطة الشخصية من الخديويين بحصر السلطة في مجلس النواب ومجلس الوزراء !! ومن هم المستنكرون لذلك؟ هم الذين يزعمون انهم طلاب المجلس النيابي والحكومة الدستورية لمصر !!! يالله العجب

وقد استحسن كثير من العقلاء المستملين المطالب التي في الكتابين واستدلوا بهما على غيرة كاتبهما على بلاده وأهلها وسعيه في اصلاح حالها سراً وجهراً من كل طريق وكل منفذ ، وأنكر آخرون صحة نسبة الكتابين إلى الاستاذ الامام وقالوا انه ليس فيهما شيء من روحه ولا من أسلوبه

واننا نبين حقيقة معناهما الذى حرفته الاهواء عن موضعه الذى وضعته فيه الظروف والاحوال بعد تمهيد نمهده لذلك فنقول :

(١) ليعلم القارىء قبل كل شيء أن مانشر في الجرائد ليس هو الذي كتبه الاستاذ الامام بل هو ترجمة لاحد محرري جريدة اللواء عن الانكليزية . ومافي الاصل الانكليزي مترجم عن العربية . فاذا ظهر الاصل العربي الذي يقول حافظ افندي عوض انه رآه عند مؤلف الكتاب يكون مراد الكتاب أظهر وأصح والحكم عليه أعدل

(٢) ان المراد منهما لايفهم تمام الفهم إلا بترجمة ما كتبه المستر بلنت إلى الاستاذ الامام بالحرف لان الفتوى تكون على حسب السؤال كما هو مشهور ومعروف

(٣) قد علم مما كتب اللواء والمؤيد أن موضوع سؤال مستر بلنت يتعلق « بالحالة السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن ابرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه » فما رآه كان خاصا بتلك الحالة التي أمنت فيها انكلترا معارضة أوربا لها في مصر . فاذا تذكرنا أن كل مافعلناه من مقاومة الاحتلال ايام كان ضلع اوربا كلها معنا ولا سيما فرنسا لم يزده إلا قوة ورسوخا فاننا يمكن أن نعقل ان تلك المطالب التي طلبها الاستاذ الامام بعد اتفاق اوربا مع الاحتلال علينا كانت كبيرة جداً وان الانتقاد على هذه المطالب ينبغي أن يكون محصوراً في كثرتها او عظمتها حتى جعلت نجاح انكلترا بوفاق ابريل ١٩٠٤ نجاحا لمصر وحرمانا لانكلترا من معظم ما كان لها من النفوذ والسلطة

(٤) ذكر اللواء فالمؤيد من موضوع سؤال بلنت كلمة « الدستور المزوم إدخاله في مصر » فعلم أن هنالك مشروعاً للدستور يعد في انكلترا فما هو وما موضوعه ؟ أو ليس هذا نصاً في الموضوع صريحاً في أن ما كتبه الاستاذ الامام في جواب مستر بلنت ليس مشروعا وضعه لما يجب أن يكون عليه بلاده مطلقا بل هو مطالب وتعديلات لدستور معين يبحث فيه الانكليز أنفسهم؟ ونحن إلى الآن لم نقف على مشروع دستوري لهم إلا مشروع لورد كرومر بانشاء مجلس تشريعي لمصر مؤلف من جميع الاجانب . وهل يمكن حينئذ أن يطلب لمصر من انكلترا أكثر مما طلب الاستاذ الامام ؟ وقد تقدم أن ماطلبه كثير

(٥) ذكر اللواء فالمؤيد أن مستر بلنت سأل الاستاذ الامام بالتصريح عما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات لمنع مايتوقع حدوثه من عدم ثقة الخديوي بالدستور كما وقع في عهد والده أي بأن يكون الدستور مأمونا عليه من حل الخديوي له، بله تصرفه فيه باستمالة أعضائه إلى مايريد بالرتب والنياشين او بغير ذلك . وهذا السؤال لايعقل له وجه إلا إذا كان واضعو مشروع ذلك الدستور لا يرضون أن يكون للخديويين سلطة عليه، بل لايعقل وجود دستور حقيقي يكون عرضة لعبث السلطة

الشخصية به . وهل يمكن أن يجاب عن هذا إلا بتعهد انكلترا بحماية الدستور والحال ان انكلترا تكون هي الواهبة له لتأمن بحسن الادارة المصرية تحت مراقبتها على طريق الهند وتنال هي شرف إصلاح مصر وتنظيمها ؟ (ان صح ذلك ولم يصح)

(٦) ونقل اللواء فالمؤيد ان مستر بلنت سأل أيضا هل يقبل المصريون تعيين وال أوربي عليهم تحت سيادة السلطان ؟ وهذا السؤال مبني على عدم ثقة اولئك المشتغلين بمسألة الدستور المصري بحكم الامراء الشرقيين الذين يعتقدون أنهم أشربوا في قلوبهم الاستبداد حتى لايكاد يوجد فيهم من يميل إلى الحكم الدستوري ويرغب فيه . فهل تنتقد إجابة الاستاذ الامام عن هذا السؤال بانه لاحاجة إلى حاكم أوربي مع وجود الدستور المضمون ومنع الخديويين من السلطة الشخصية ؟ وهل من الانصاف والحق أن يعد طلبه إبقاء الامارة في بيت محمد علي دليلا على بغضهم ؟ وهل يستنكر عاقل الاحتجاج على من يريدون تولية أمير أوربي علينا بكوننا لانقبل ذلك وكونه هو لايمكن أن يساعدنا على تحسين حالنا ؟ ماأغرب الرأي الذي يمليه الهوى وتروجه الاغراض الخسيسة

﴿ تلخيص المطالب التي طلبها الاستاذ الامام لمصر ﴾

من الانكليز فيما كتب الى مستر بلنت

(١) أن يكون للمصريين مجلس نيابي تنحصر فيه السلطة التشريعية أي وضع القوانين كلها ويكون له حق سؤال الحكومة عن تنفيذها ومحاسبتها على خطأها

(٢) أن يكون للمصريين سلطة تنفيذية وهي الوزارة المسئولة وتناط بها جميع أمور الحكومة لايترك منها للخديويين شيء خاص باشخاصهم كما هو شأن الحكومة النيابية في أوربا لاسيما انكلترا

(٣) أن يكون رئيس الوزراء مسلما لا كما كان من قبل تارة وتارة

(٤) أن يكون جميع موظفي الحكومة - من المديرين ووكلاء المديريات والقضاة ورجال النيابة وغيرهم - من المصريين بحيث لايبقى من موظفي الانكليز إلا بعض المفتشين ومن لايوجد مصري يقوم مقامه في عمله

(٥) تنظيم شؤون المعارف والتعليم وجعلها أهم الامور التي يبدأ مجلس النواب بها

(٦) قيام المصريين بجميع وظائف الجيش بحيث لايبقى فيه من الانكليز إلا السردار وبعض الضباط

(٧) إلغاء وظائف المستشارين المسيطرين على الحكومة الآن

(٨) على انكلترا أن تكفل هذا الدستور وتضمن تنفيذه بايدي المصريين وفسر ذلك بأن تراقب استتبابه والمحافظة عليه مراقبة فقط حتى لا يبطله الخديويون

هـذه هي المطالب الايجابية الاصلية وأنى لمصر بالوصول اليها وإلى الآن لم تطمع الاحزاب بمثلها فلم يطالب حزب ولا جريدة شيئا يتعلق بالعسكرية ولا يعقل أحد كيف يكون الاستقلال الحقيقي بدون جند وطني يقوم بشؤونه الوطنيون

وهنـاك مطلوب مهم مبني على فرض وقوع شيء لا يؤمن وقوعه مادام للانكليز شأن في سلطة البلاد ، بل قد وقع مثله في عهد اسماعيل باشا وهو جعل بعض الوزراء من الانكليز ، طلب الاستاذ على فرض وقوع ذلك أن يكون للمرءوسين للوزير الانكليزي من المصريين سلطة يفصلون بها في المسائل المتعلقة بالدين وما أشبه ذلك ولا يكونوا آلة في ايدي رؤسائهم من الانكليز . وهذا مطلب لسنا يدركه اليوم فانه لا يمكن لرئيس ولا مرءوس في الحقانية أن يجري في المحاكم الشرعية أمراً لايرضاه المستشار القضائي .

وأغرب ماسمعت من بعض الاغرار « البسطاء » ان الكتابين تضمنا طلب جعل بعض الوزراء من الانكليز فلما قيل له انه ليس فيهما شيء من ذلك وانما فيهما مطلب مهم مبني على فرض وقوع ذلك بالرغم منا، قال انهما كان ينبغي ذكر هذا الفرض والتقدير لانه يذكرهم بهذا الامر !! فتعجب أيها القارىء من هذه السذاجة والغرارة والغفلة عن الواقع والاهتمام بالالفاظ دون الحقائق:

ومما تقدم من البيان يعلم القارىء انه ليس في الكتابين شيء ينتقد . وقد سمعت أشهر اعضاء الحزب الوطني حماسة وإخلاصاً يقول: إنه ليس فيهما شيء ينتقد إلا جعل انكلترا كافلة للدستور، لان هـذا بمعنى الحماية ولكننا لانشك

لاجله في إخلاص المرحوم الشيخ : فقلت له كان يصح ان يقال هذا لو كانت هذه الكفالة من مواد الدستور وكان الدستور مصدقا عليه من الدولة العلية، فيكون حينئذ حقا رسميا لها . وليس فيما كتب شيء من ذلك وإنما الموضوع أن تسمح لنا انكلترا بهذا الدستور وتكتفي هي بدلا من القبض على أزمة السلطة فينا بمراقبة سيرنا على الدستور والنظام المطلوب ولا تسمح للخديويين أن يغيروه إذا حاولوا ذلك . ومعلوم أنها لاتسمح لهم الآن بتغيير مّا في التشريع ، ولا مداخلة مّا في التنفيذ ،مع قبضها على كل شيء ،وعدم تحملها لتبعة شيء، فأي الامرين أفضل ؟؟

وعلى ذكر رأي عضو الحزب الوطني ان تلك العبارة التي انتقدها من الكتابين لاتدعو إلى الشك في إخلاص الكاتب : ننبه إلى سيئة فاشية فينا هي من أقبح السيئات وأشدها ضرراً في الامة، ألا وهي اتهام كل من نراه اخطأ في مسألة من المسائل العامة بسوء النية وعداوة البلاد وبغض الامة وحب الانكليز ومساعدتهم على مايقصدون بنا من السوء !! وتفرع عن هـذه السيئة سيئة أكبر منها وهي اختراع بعض الناس الخطأ او تكلفهم استنباطه من كلام من يكرهونه لاجل إلصاق تلك التهمة به .

فهذه السيئة مع أختها أعظم أسباب تفرق الامة وضعفها وانقسامها على نفسها « كما يقولون » لاسيما بعد توجيه الجرائد هذه التهمة إلى الجماعات والاحزاب. وليت شعري أي قيمة لهذه الامة اذا صح ماترجف به بعض الجرائد من اتهام حزب الامة برمته بعدم الاخلاص للامة وبمشايعة المحتلين عليها بعد الارجاف بان ذلك النابغة العظيم « الاستاذ الامام » الذي اعترف بنبوغه الشرق والغرب كان غير مخلص للامة أو لاميرها ؟ بل أي تعريض بالامير أشد من اثبات ان نابغي المستقلين من امته يقاومونه ،وان جمهوراً كبيراً من سراة الامة يؤلف حزبا وينشيء جريدة لمقاومة نفوذه ؟؟

قد يقول سائل ان المنار قد أبرز هـذه المطالب باسلوب يظهر منـه مالم يظهر من ترجمة الكتابين على كونه لم يأت بشيء جديد فهلا كتب المرحوم المفتي كتابيه بهذا الاسلوب الذي يتجلى فيه الاخلاص لمصر والتفاني في خدمتها دون

ذلك الاسلوب الذي يلوح منه إرضاء الانكليز أو استرضاؤهم إن لم نقل محاباتهم

وجوابه من وجهين « احدهما » اننا لم نطلع على ما كتبه المرحوم بنصه فنحكم على أسلوبه « وثانيهما » انه لم يكتب ليمتن على قومه بحبه لهم ومقاومته لمحتلي بلادهم ، ولا ليظهر للانكليز انه مبارز لهم ، وانما كتب لصديق له يسعى في خير مصر . على انه لو كتب للحكومة الانكليزية نفسها لوجب عليه في شرع البلاغة ان يجعل تلك الكتابة باسلوب يرجى قبوله وعدم اتهام صاحبه بالعداء والمقاومة لها. ولكل مقام مقال

رأى أحد الملوك في النوم ان أسنانه سقطت فعبرله الرؤيا معبر بقوله: ان جميع أهلك وأقاربك يموتون في حال حياتك، فاستاء الملك وعاقبه عقابا شديداً . ثم جيء بمعبر آخر فقص عليه الرؤيا فقال له تأويل هذه الرؤيا ان الملك يكون أطول أهله عمراً. فسر الملك وأجازه اجازة سنية. فالبليغ يخاطب كل مخاطب بما يرجو أن يبلغ به مراده من نفسه

فمن أصحاب الجرائد من يطلب من الانكليز مطالب بصفة الآمر صاحب السلطان ، وما مراده إلا إرضاء من يقرأ هذه المطالب فيحمد كاتبها ويجله لانه استعلى على بريطانيا العظمى، فأنال الامة من الاستعلاء عليها بالقول، ماتلهو به عن الفخر بالاستعلاء أو المساواة بالفعل . ولكنه لا يخطر في باله الاسلوب الذي يمكن ان يكون مقنعاً او مقبولا عند الانكليز لانه لا يريد منهم شيئا

لو كان الاخلاص والغيرة على قدر كبر المطالب وإن كانت من المحال، والتعزز على القوي يتحقق بزخرف القول وإن كان غروراً، لأمكن كل كاتب أن يكتب كل يوم في اثبات اخلاصه وغيرته وتعززه نحو هذه العبارة : إني آمرك أيتها الدولة الانكليزية الظالمة المعتدية بان تردي مصر إلى المصريين ، وقبرص إلى الدولة العلية . بل ان تردي الهند إلى النوابين والرجاوات من أهلها ، وأن تأرزي إلى جزائرك كما تأرز الحية إلى حجرها. فان لم تحفظي شرفك وتمتثلي هذا الامر فاننا نتفق مع أعضاء بعض برلمانك فنؤلف منه لجنة تشاغب المجلس أحيانا في هذه المطالب فتهزه هزاً ، وتؤزه أزاً ، او تهز الشعور الوطني في هذه البلاد هزة تميد لها جزائر بريطانيا ميدانا ، وتزلزلها زلزالا ، ربما كان من ورائه البلاء النازل ، والخسف العاجل ؟؟

﴿ رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها ﴾

قد فصل الاستاذ الامام رأيه في الدولة ومايجب عليها من الاصلاح في لائحة كتبها في بيروت سنة ١٣٠٤ ورفعها إلى شيخ الاسلام وقد أشرنا اليها آنفا بعد أن ذكرناها في المقصد الثاني من الفصل الخامس، (ص ٣٩٢) وقد بين في هذه اللائحة الخطر الذي ينذر الدولة إذا لم تبادر إلى اصلاح التعليم باستحواذ الجهل على أكثر المسلمين، ودخول العلم عليهم من طريق الاجانب أصحاب المطامع في البلاد، وقد قال في مقدمتها (ص ٥٠٦ من الجزء الثاني والطبعة الثانية) ما نصه:

« ان من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة لبقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها، وانا والحمد لله على هذه العقيدة، عليها نحيا وعليها نموت

« ان للخلافة الاسلامية حصونا وأسواراً، وان أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة بها، والحمية للدفاع عنها، ولا معقد للثقة، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين، إلا ما أتاهم من قبل الدين، ومن ظن أن اسم الوطن، ومصلحة البلاد، وما شاكل ذلك من الالفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في انهاض الهمم، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها، فقد ضل سواء السبيل

« المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم، وأنحت الايام على معاقد إيمانهم، ووهت عرى يقينهم، بما غشيهم من الجهل باصول دينهم، وقد تبع الضعف فساد في الاخلاق، وانتكاس في الطبائع، وانحطاط في الانفس، حتى أصبح الجمهور الاعظم أشبه بالحيوانات الرتع، غاية هممهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون، ويتنافسون في اللذات البهيمية، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم؟» ثم ذكر تدخل الاجانب ومدارسهم وسوء تأثيرها وخطرها على الدولة - أو يتداركها أمير المؤمنين وتدركها قوته، وانتقل من ذلك إلى وصف التعليم الاسلامي فقال (ص ٥٠٨)

«أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت اما خالية من التعليم الديني جملة، واما مشتملة على شيء قليل منه ، لايتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر ، وطريق صوري لايعدو حفظ العبارات، مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها(١) خلوا من الدين، وجهالا بعقائده، منكبين على الشهوات، وسفاسف اللذات ، لايخشون الله في سر ولا جهر ، ولا يراعون له حكما في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكلب في الكسب ، والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لايلاحظون فيه حلالا اوحراما ، ولا طيباً أو خبيثاً ، فاذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة ، ومالوا إلى الخيانة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

«وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله، وهم قليلون . ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . ونرى غيرهم من الامم يتسابقون الى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين يبخلون باموالهم إذا دعت الاحوال إلى مساعدة الدولة ، والانفاق على مصالح الامة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس مانرى في سائر الامم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل ، ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ، ولا يهتدون إلى جامعة يلجؤن اليها ، وتقطع مابينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون) ولا حول ولا قوة إلا بالله

«هذه أحوال نذكر منها القليل، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير، نذكرها مقرونة بانفاس الاسف وصعداء الحزن ، لما نعلم أن الاجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم ، وأغلبهم شاذة ، ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة ، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها ، وإن عواقب ذلك لتخشى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »اه المراد منه

(١) ليتامل القراء هذا الذي كتب منذ نصف قرن وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بايدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم

ثم بين ما يجب من التعليم الديني الذي يبدأ الخطر بدرجاته الثلاث والعلوم والكتب التي تتخذ له ، وعقد فصلا خاصاً للدعاة والمرشدين فيراجع هذا كله في جزء منشآته

﴿ رأيه الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترك ﴾

لم يجد الامام لنصحه سامعاً، ولا لندائه مجيبا، وظلت الدولة تتدهور كل عام في هوة ، وتقع في مأزق من نفوذ الدول الاجنبية ، وكثر المتفرنجون في الترك وغيرهم من شعوبها، فلم يبق لاسم الخلافة ولا للاسلام نفسه مكانة من أنفسهم، وتجرؤا على الطعن في السلطان والكيد له في العاصمة وفي البلاد الاوربية ، واشتد السلطان في مطاردتهم ، والانتقام ممن يعجز عن استمالتهم ، فانقطع رجاء الاستاذ الامام من هذه الدولة ، ومن إمكان الاستفادة من منصب الخلافة . وانني أذكر هنا أول ما سمعته منه في ذلك

زرته في الساعة العاشرة قبل الظهر من يوم الجمعة (٢٩ رجب سنة ١٣١٥) عن موعدة في زيارة قبلها ، وكان هذا هو اليوم الخامس من وصولي إلى القاهرة فاستقبلني في حجرة النوم وكان يكتب فترك الكتابة لاجل الحديث ، وجاءه بريد الصباح وبمناسبة مافيه من الجرائد تكلمنا في فوائد الجرائد ومذاهبها وذكرت طعن جريدة المقطم في الدولة العثمانية وتأثيره في كثير من الناس في سورية على قلة المطلعين عليها فيها لانها ممنوعة منها، وإنما تنسل من البرد الاجنبية إلى بعض الاجانب وتنقل إلى غيرهم ، وذكرت انه يساعد هذا التأثير كلام الجرائد الاخرى التي تشير إلى ضعف الدولة بلطف كالاهرام وهي غير ممنوعة حتى صار كثير من الناس يعتقد أن الدولة على شفا جرف هار لامال ولا رجال ولا سلاح ، وانتهت بهم أفكارهم هذه إلى انها لا تقدر على محاربة اليونان . فلهذا أقول ان حرب اليونان ما أفادت الدولة شيئا إلا نزع هذا الاعتقاد من النفوس – وكذلك كان اعتقاد المسلمين في الممالك الاخرى بما تنشره الجرائد الاوربية عن حالتها بينهم –

ثم ان من الناس من اعتقد بعد هذه الحرب أن الدولة العثمانية من أقوى الدول أو أقواهن وأنها تقدر على تدويخ أي دولة أوربية . وأنا لا أحب أن أظهر للدهماء -

منهم أن الحقيقة غير مايتوهمون(١) فما رأي مولانا في الدولة؟

قال الاستاذ « هذا جهلان يتناطحان (يعني سقوط الدولة بالمرة وكمال قوتها) واني رأيت كثيراً من المصريين يعتقدون وصول الدولة إلى هذه الدركة من الضعف ، وانها لم تكن تقدر على مقاومة اليونان ، وعند إعلان الحرب صرح أمامي بعضهم بأن اليونان تنتصر على الدولة ، فخطأته . قال إن الدولة لا مال عندها ولا ضباط . قلت له وما أدراك ان اليونان عندها المال والضباط ؟ أنا أعرف اليونان انهم أجبن الشعوب وأفقرهم ، ولو أن الدولة قالت لأتراك الروملي أو الاناضول ، أو للارنؤط قد أذنت لكم أن تأكلوا اليونان ـ لما كان اليونان إلا أكلة واحدة لهم ، ولقتلوهم بالعصي ولم تحتج الدولة إلى عسكر ولا سلاح

« ان الحرب أعلنت يوم الاربعاء فيما أظن وكان في عزمي السفر إلى الشام لتغيير الهواء لأني كنت موعوكا فجئت الاسكندرية اعتقاداً مني انه لا يأتي يوم الثلاثاء (موعد سفر الباخرة الخديوية إلى سوريه) إلا وتكون الحرب قد انتهت (وتبسم)

« ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها (وإن كان أكثرهم يحبها) وأنا أيضاً أكره أعمال السلطان فان جبنه الخالع وهؤلاء المشايخ الذين قربهم وسلطهم ولا سيما الشيخ أبي الهدى فان شأنه وشأنهم كذا وكذا ـ وذكر مانعلم من إفسادهم واستعانتهم عليه بجبن السلطان ووسواسه

قال « لكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً فانها سياج في الجملة ، وإذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فان اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء

ثم انتقل الكلام إلى رجال الدولة فقال ماحاصله : ان الدولة لديها رجال نبهاء درسوا وعرفوا كل شيء ، ولكنهم أصيبوا بداء اليأس ، فهم يائسون من كل خير وإصلاح . وهذا الداء قتال وصاحبه يهدم ولا يبني ، لا ينظر إلا إلى مصلحة شخصه وذكر انه تكلم مع كثيرين منهم هنا وفي أوربة فألفاهم يائسين ـ وذكر أحد

(١) قال لي أحد المصريين في ملوي إن ملك المسكوب كتب لملكنا السلطان عبد الحميد إنني مستعد للحرب بعد ٤٨ ساعة فكتب إليه ملكنا إنني مستعد للحرب بعد ٢٤ ساعة

الباشوات من أمثالهم وقل إنه يائس على سعة عرفانه (قال) وكيف نيأس وإن حالة أوربة كانت شراً من حالتنا في الجهل ومقاومة العلم (وأطال في ذلك . وقد بسط هذا أخيراً في مقالات الاسلام والنصرانية)

قال « وأما أنا فانني في يأس تام من طبقة الامراء والحكام، لا يرجى منهم خير » ثم تكلم فيما يقال من طمع الشيخ أبي الهدى في الخلافة وأنه لا يرجى نجاحه لان مقصده شخصي ووسائله شرور ولا تنجح الاعمال إلا إذا كانت مبنية على مقاصد الخير والمصلحة العامة وإن نجح ما ليس كذلك فلا يكون نجاحه إلا موقتا قصير الاجل وأطال في ذلك

الخلافة أو منصب الخلافة

كان يرى ان ما حاوله السلطان عبد الحميد من الانتفاع بلقب الخلافة ومنصبها لا يرجى منه أدنى فائدة للمسلمين لجهله وجهل رجاله بمعنى الخلافة وبالوسائل التي يمكن بها إحياء منصبها والانتفاع به (وهو ما أرشد الدولة اليه بما كتبه إلى شيخ الاسلام) وانما أعمال دعاته وأعوانه لاحياء هذا المنصب او اللقب وهمية، ومنفعته المرجوة منه شخصية ، وهي تخويف دول أوربا من سخط رعاياهم المسلمين عليهم اذا هم عادوا الخليفة ، ولكنه كان يرى السكوت عنهم وعنه ، وأن مشايعتهم غش للمسلمين وجناية على الاسلام ، ومقاومتهم فتنة وتفريق بين المسلمين

ولما أطلعته على فاتحة العدد الاول من المنار في منتصف شوال من تلك السنة (١٣١٥) أعجبه كل ما ذكرته فيه من المقاصد والاغراض إلا كلمة واحدة هي تعريف الامة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الامة . قال ما معناه ان المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وان الكلام في الامامة مثار فتنة يخشى ضره ولا يرجى نفعه الآن . واقترح على حذف الكلمة من المقاصد فحذفتها

﴿ رأيه في استقلال العرب ﴾

علمت من حديثي معه أنه يعتقد ان العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، وبوجود الروح الاعظم للاصلاح الاكمل بلغتهم وهو القرآن ، وما يبينه من

سيرة الرسول الاعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الترك سلبوهم كل شيء فتفرقوا وتمادوا واستحوذ عليهم الجهل . فيجب أن يبدؤا بالعلم الصحيح وجمع الكلمة وكسب الثروة، ويستعدوا لسنوح الفرصة ، ولا يجوز لهم بحال من الاحوال أن يخرجوا على الدولة العثمانية ، لما لذلك من سوء العاقبة ، وذكر لي واقعة حال في هذا الموضوع أدلى فيها بحجته على هذا الامر

قال : وجد رجل مستشرق بريطاني أحب العرب وساح في بلادهم واختبر حالهم فظهر له ان أخلاقهم في بلاد نجد شريفة لم تفسد ، واستعدادهم عظيم فتوجهت رغبته إلى السعي لمساعدتهم على تأليف دولة عزيزة تجدد الحضارة العربية، وأراد جمع المال الذي يمهد السبيل ويهيء الوسائل لذلك

واستشارني في هذا الامر فقلت له إن العرب أهل لذلك ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم، فاذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى اذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة الواقفة لها بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين او على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته . قال فقنع الرجل وترك ما كان عزم عليه من السعي

لم يذكر لي اسم هذا الرجل ولما رأيت بعد ذلك صديقه مستر بلنت وحادثته وحادثت زوجه علمت انه هو الذي كان فكر في ذلك وعزم عليه .

ثم لما التقيت بالمرحوم محمود شوكت باشا في الاستانة بعد الدستور وتكلمت معه في المسألة العربية رأيت رأيه قريباً من رأي الاستاذ الامام من ناحية مسألة الدولة (رحمهما الله تعالى) قال نحن العرب أقوى من الترك استعداداً لتحصيل العلوم والفنون ، ولكسب المال بالزراعة والتجارة والصناعة ، ونحن أكثر عدداً من الترك في الدولة اذا سمحنا باحصاء النفوس في جميع بلادنا ، ولكن الترك متفقون ونحن مختلفون ، وقوة الدولة العسكرية والمالية في أيديهم، فمعاداتنا لهم خطر علينا ، فيجب أن نقوي أنفسنا بالدولة في ظل الدستور، فنكثر من ادخال أولادنا في المدارس وفي الخدمة العسكرية ، وتكون عاقبة ذلك ان تكون أغلبية

المبعوثان (النواب) منا ، وأن يكون زمام الدولة في أيدينا .

أقول ولكن الاتحاديين جعلوا الدستور صوريا وتوسلوا بقبضهم على زمام السلطة إلى تقوية العصبية التركية الطورانية، والقضاء على سائر الشعوب العثمانية، وقتلوا محمود شوكت باشا منقذهم من الاستبداد الحميدي ، وعزموا على قتل كل زعيم عربي، فقضى الله عليهم وعلى هذه الدولة بسوء سياستهم ولم يبق للترك إلا الاناضول وبعض الروملي منها

وأما رأي الاستاذ الامام وهو الذي جرينا على الدعوة اليه فهو أن يعنى العرب بترقية أنفسهم بأنفسهم من غير معاداة ولا مباراة للدولة ، وانتظار الفرص للاستقلال مع اتقاء خطر الاجانب واضعاف الاسلام ، ثم جاءت الحرب الكبرى قبل تمكننا من ذلك فكان من عاقبتها ما كان .

رأيه في الشعب المصري

قال لي في سياق حديث في حالة البلاد : إن أطفال المصريين أذكى من أطفال سائر الشعوب ، وان شبانهم من أنشط الشبان وأمضاهم عزما وهمة واقداما، ولكن المصري يدب فيه الهرم المعنوي منذ استكمال الخامسة والعشرين فيخلد إلى الراحة والتمتع باللذات ، وتقعد به همته عن الجهاد والكدح في سبيل المصلحة العامة

وقال لي مرة وهو في أشد الغضب والامتعاض من حادثة المحاكم الشرعية عند ما اقترحت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين في المحكمة الشرعية العليا : والله لو ان في مصر مائة رجل لما استطاع الانكليز أن يقيموا فيها، أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا اذا أقاموا . ان في مصر مئات أو آلاف من الرجال يفهمون كل شيء ، ولا ينقصهم العلم بما يجب للبلاد ، ولكنهم فاقدون للارادة وقوة العزيمة ، فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بهما ، وهما الصفتان التي لاينفع بدونهما علم ولا يقوم عمل

أرأيت هذا الرجل ـ مصطفى باشا فهمي ـ الذي يصفه الوطنيون بالخيانة للبلاد ؟ انه ذكي نبيه ويحب خير البلاد ومصلحتها ، ولكنه ضعيف الارادة بل

فاقدها ، ولولا ذلك لأمكنه بما نال من ثقة سلطة الاحتلال به أن ينفع البلاد نفعاً عظيما ، ويدفع عنها أذى كثيراً ، ولكنه لايدري هذا

وقال لي في حديث آخر : ان الشعب المصري لايفني ولايندغم في غيره من الشعوب التي تغلبه على حكومته ، وقد يندغم الشعب المتغلب عليه فيه. ذلك بان ذل الغلب وفقد الاستقلال لايضعف حيويته ويقال نسله كما وقع لشعوب أخرى ، بل يعيش في كل حال ، يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويتزوج وينسل ، ويحفظ مشخصاته القومية . والحكومات أعراض تزول ، وهو لايزول . ولكنني صرت في ريب من بقاء هذه المزية فيه بما علمت من سريان جريمة السكر من الامصار إلى الارياف ، وابتلاء الفلاحين بهذه الاشربة الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم ، وكل منهما يعطل الجهاز التناسلي اويضعفه ، فاذا لم يتدارك هذا الخطر بالتربية الدينية والتعليم المشتمل على القواعد الصحية ، وتغذية ذلك بإصلاح خطابة المساجد وبث الوعاظ والمرشدين فيها ، فان الشعب المصري نفسه على خطر الانحلال والزوال

(أقول) انه قد فشا في الشعب بعده ماهو شر من السكر وهو استعمال المخدرات السامة من الكوكايين والمورفين و ...

ثم أذكر بمناسبة الكلمة الاولى في اطفال المسلمين وشبانهم أن أحمد فتحي باشا زغلول كان يتحدث معي مرة في ضعف رجال الحكومة المصرية وفتور هممهم حتى في أعمالهم الرسمية فذكر أفراداً من رؤسائهم قال انهم تعلموا أحسن التعليم ، وحصلوا أكمل التحصيل ، وكان لهم مايحمد من الهمة والشجاعة الأدبية في شبابهم ، ونجدهم الآن كالتماثيل في دواوينهم ، لولا انهم يحركون أيديهم لختم بعض الاوراق أو لطرد الذباب .

قلت : أو ما سمعت ما كان يقول أستاذنا في ذلك ـ وذكرت له كلمته ـ فاذا هو قد سمعها منه إذ قال : أو كلما كان يقول الاستاذ شيئا كنا نفهم كل مراده منه ؟ كلا اننا كنا نفهم مدلول ألفاظه اللغوية وأما فحواها وتأويلها في الخارج فربما لا نفهمه إلا بعد التجارب عدة سنين

﴿ رأيه في التربية والتعليم بمصر ﴾

يغنينا عن بيان رأيه في هـذه المسألة مانقلناه من خطبه التي كان يلقيها في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية (ص ٧٣٠ ـ ٧٥٢) وما نشرناه من منشآته في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص٥٢٣) وهو لائحة نظام التربية والتعليم في مصر فقد بين فيها صفة تعليم الازهر ومدارس الحكومة ، وما فيهما من الخلل والفساد. وزد عليه جهاده في إصلاح التعليم في الازهر ، وعندنا كلام آخر منه في ذلك سمعناه في أثناء المذاكرة معه

وخلاصة رأيه في التعليم والتربية أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الامة الذي بطل وانحل منذ قرون كثيرة ، بحيث تكون الامة عزيزة متحدة متعاونة متكافلة يصدق عليها تمثيل النبي ﷺ للمؤمنين بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وبالجسد الواحد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر

هذه هي التربية وهذا هو التعليم اللذين كان يجاهد في سبيلهما ، ويدعو إلى مسالمة الحكام المستبدين والمتغلبين لاجل التمكن منهما ، ويعلم ان استقلال الامة الصحيح لايكون أولا يتم ويثبت إلا بهما ، وكان يقول : ياويح الرجل الذي ليس له أمة . وكان يفضل القبط على المسلمين في الوحدة والتعاون والعمل لمصلحة طائفتهم ، ومعرفة قيمة رجالهم ، وقال لي يلجؤن في جميع خطوبهم ومشكلاتهم إلى بطرس باشا غالي من الاسكندرية إلى حلفا والسودان

﴿ رأيه في الوطنية والدين ﴾

كان يرى ان الوطنية التي هي عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلفي الاديان على كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته لايعارض الدين الاسلامي في شيء ، كما يثبته شرعه في العدل والمساواة ويشهد له تاريخه كما بينه في كتاب الاسلام والنصرانية وقد كان السيد جمال الدين يرشد تلاميذه ومريديه وحزبه السياسي إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقي الى التعاون على الاعمال الوطنية السياسية والعمرانية وكان حزبه مؤلفا من أذكياء الملل المختلفة ، وكان مع هـذا يدعو

المسلمين إلى الاصلاح الاسلامي الخاص بهم في فهم العلم والدين وشد اواخي الاخوة الاسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ولم نر أحداً من الناس الذين تكلموا في شؤونه والذين كتبوا عنه في مدة حياته ولا بعد مماته اتهمه بالتفريق بين أهل الوطن الواحد ، ولا بين أهل المذاهب الاسلامية ، بل كان داعية اجتماع واتحاد وطني في كل وطن ـ وشرقي عام في دعوة الشرق كله وارشاده إلى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب ـ واتحاد اسلامي في الاصلاح الديني ونبذ الشقاق فيه

وكذلك كان الاستاذ الامام كما علمنا من سيرته في مصر وفي سورية ، قد كان من التآلف بين جميع الطوائف في بيروت على عهده مالم يعهد له نظير كما تقدم ، وكان يرى القبط على أتم الاتحاد والتآلف والتعاون بينهم على ترقية جميع أمورهم الدينية والدنيوية من دون المسلمين ، ولم يصدر عنه قول ولا فعل في مقاومتهم او دعوة المسلمين إلى ذلك ، وانما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه في ترقية مصالحهم الملية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية . وقد كان يعلم ان بطرس باشا غالي هو الذي وضع في وزارة الحقانية مشروع المحاكم الشرعية تمهيداً لالغائها وادغام عملها في عمل المحاكم الاهلية ، وأخبرني بذلك بصفة خاصة كما كان يخبرني بجميع الاسرار ، ولكن معاملته الشخصية مع بطرس باشا لم تتغير

وقد كان بعض كتاب المسلمين طعنوا في بطرس باشا واتهموه بمحاباة القبط في الوظائف وغيرها إذ كان وكيل وزارة الحقانية، وذكروا ان تعصبه الذي كان سبب الخلاف بينه وبين الوطني المسلم النابغة شفيق بك منصور وهو الذي اضطر هذا إلى الاستقالة

وكان الاستاذ الامام في ذلك الوقت (سنة ١٣٠٥) في بيروت فلما رأى هذا الشقاق الوطني في الجرائد المصرية كتب في تلافيه مقالة في جريدة ثمرات الفنون عنوانها (مصر والمحاكم الاهلية) وكتب إلى بعض مريديه بمصر (سعد زغلول) أن يسعى بنشرها في بعض الجرائد الاسلامية فننقل منها هنا مايثبت مذهبه الوطني شرحناه من جزء المنشآت (ص٣٦٥ طبعة ثانية) وهو

أتت جريدة على ذكر مايشاع من الخلل في المحاكم الاهلية بمصر، وتذرعت بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية ، وناطت جميع الخلل باثرته وتطرفه في الميل

الى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من لا أهلية فيه لاجادة العمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد نظروا إلى هذا التصرف بعين الناقم . فعارضتها جريدة أخرى ودفعت ما ادعته من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ، ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد وحرب الحبش والمواقع السودانية ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويوازرونهم ، فكانوا حربا لمن حاربهم ، وسلما لمن سالمهم ، وأن الخلاف المذهبي لم يحدث في البلاد شقاقا وطنيا في زمن من الازمان . ولهذا لا نرى للقبط في مصر مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل. وأيدت هذه الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية ، وما وصلوا اليه في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلا فيمن عهدت اليهم وظائف في المحاكم الاهلية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمهم ، فكان أعضاء المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقلام النيابة منهم ثلاثة من عدد كثير من النواب ومتعلقيهم ، والكل في قولها من أهل الاستحقاق لا يغمز على أحد منهم في العلم بما وليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ما عهد اليه عمله

ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً وتصريحا بالخلل الواقع في المحاكم ، وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن السبب في نزول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتلو شفيق بك منصور انما هو الخلاف الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك وبين الاصلاح

هذا إجمال ما رأيناه فرويناه وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة او أمة او ملة ، فان ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ، او كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فانه

يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن، ومخالفته الى عكس مايريده ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى احدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، او ينسبوها الى شائن من العمل ، تعللا بأن رجلا او رجالا منها قد استهدفوا لذلك، فانه مما يرسل العداوات الى عمائق القلوب ، ويدلي بالضغائن الى بواطن الافئدة، فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الاخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبعدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد تأديباً له او استصرافا لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدتين الحاميتين خصوصا عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت محسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي ﷺ فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهراً لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما مالا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من اعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصا بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لايتعدى الى أوصاف خاصة لاتفيد في البحث . نعم ان كانت الطائفة او الامة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، او حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكليز بمصر، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بإثم الواحد منهم، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده، واستخلاص الحق منهم لأربابه اهالمراد من المقالة وبقيتها دفاع عن بطرس باشا

﴿ رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي ﴾

والفرق فيه بين الانكليز والفرنسيس

يعلم جميع الواقفين على التاريخ الحديث وسيرة الاوربيين في الاستعمار انهم يسمون فتحهم الممالك واستيلاءهم عليها بالطرق السياسية بأسماء خادعة تغر الشعوب وتخدر أعصابهم بتوهمهم ان البلاد بلادهم وان وجود الاجنبي فيها موقت والمصلحة فيه مشتركة بينه وبينهم — كالحماية والاجارة والاحتلال الموقت وغير الموقت ، وزادوا عليها بعد الحرب اسم الانتداب والوصاية — ولهذه التسمية عندهم فوائد احتياطية لان احداث الزمان قد تضطرهم إلى تغيير سياستهم فيها حتى يتركوها لاهلها ، كما ان لهذا المظهر فائدة لاهل البلاد بما يعطيهم من حق المطالبة بحقوقهم في الاستقلال بها ، وإزالة صور الحماية او الوصاية او الاحتلال إذا عرفوا كيف يسعون لذلك ويستعدون له

ويعلم أكثر هؤلاء الواقفين العارفين ان الانكليز يراعون من عقائد من يستولون عليهم ومن استعدادهم العلمي والاجتماعي مالا يراعي الفرنسيون ، وأنه يمكن من اقناعهم والاستفادة منهم مالا يمكن مثله مع الفرنسيين، لان أخلاقهم أعلى ، وهم إلى مواتاة الطبيعة والعقل أدنى ، وخلقهم التجاري ، يؤثر في سيرهم السياسي ، فهذا مما لايحتاج إلى رأي من مثل الاستاذ الامام في كبر عقله وتجاربه

بيد انني أنقل عنه مايحتاج اليه غير العارف بما ذكر ويزداد العارف به بصيرة، ومنه أن الذي يبتلى بسلطتهم على بلاده لايمكنه أن يقنعهم بما يراه من مصلحتها أو كف الاذى من ناحيتهم عنها إلا باتيانهم من ناحية أخلاقهم والراسخ في طباعهم، كما تقدم في مسألة قاضي مصر التركي ورجوعهم عن إيجاب عزله على الخديو ونصب قاض مصري في مكانه (راجع ص٥٧٦) — او باتيانها من ناحية غريزتهم التجارية في تصوير المنفعة لهم فيما فيه منفعة البلاد ، ومن هذين الناحيتين كان الاستاذ الامام يقنع لورد كرومر بكثير من المصالح الوطنية ، وكان في أول العهد بعودته الى مصر يزيد عليهما ان الشعب قريب العهد بثورة فقتال مع الانكليز فيجب اجتناب مايثير في نفسه ذكرى ذلك

مثال قناعهم من طريق منفعتهم انه بلغ الاستاذ ان اللورد عزم على إلغاء النيابة العامة من المحاكم الاهلية واحالة عمل النائب العمومي ورؤساء النيابة ووكلائها على القضاة وانه أمر الحكومة بذلك ولم يبق إلا تنفيذه بقرار من مجلس النظار فزاره في صباح اليوم الذي تقرر اجتماع مجلس النظار فيه لتقريره ، فأخبره اللورد به وسأله عن رأيه فيه ، فأجابه ان هذا خطأ لا يحتمل الصواب ، وضرر عظيم على الحكومة والبلاد ، وشرح له ذلك من الجهة القضائية وأهمها عجز القضاة عن النهوض بعمل النيابة ، وزاد على ذلك ماهو أهم في نظر اللورد وهو ان رجال النيابة الذين يلغى عملهم هم من أرقى رجال البلاد علما وعقلا ولسانا وقلما ، وستتوجه همة كل من تلغى وظيفته ولا يجد غيرها في درجتها إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسؤلين عن النظام تعبا كبيراً ، او ما هذا نحواه

قال اللورد حينئذ ان هذا كلام وجيه ونحن قد استشرنا كثيراً من العارفين بالقضاء والادارة فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات بل وافقونا ، وان مجلس النظار سيجتمع الآن في سراي عابدين برياسة الجناب الخديوي لتقرير هذه المسألة ولا بد لايقاف ذلك من ذهابي بنفسي الى عابدين بعد إيذانهم بذلك بالتلفون ، وقام فودع الاستاذ وأخبر السراي بمجيئه راجياً تأخير جلسة المجلس الى ما بعد حضوره ، فذهب وابطل هذا العمل

هذا نموذج من أفعاله في خدمة البلاد من طريقهم . ومن أقواله فيهم ماقاله لي وقد كنت راكبا معه فرأينا فلاحا يمتص عوداً من قصب السكر مبالغاً في امتصاصه ، فلا يلقي ما في فيه منه إلا بعد جفافه ، قال الاستاذ أنظر إلى هذا الرجل كيف يمتص هذا القصب ، هكذا يفعل الانكليز في امتصاص ثروة البلاد واستخدام الرجال المقتدرين على العمل فيها ، هم يحافظون على الشيء او الشخص ماوجدوا فيه فائدة لهم ، حتى اذا ماراوا انه لم يبق فيه أدنى فائدة لهم ألقوه كما يلقي هذا الفلاح مايمتصه من ألياف القصب اذا جف ولم يبق فيه شيء من الحلاوة .

وكان ينكر على الخديو اتباعه هذه القاعدة التجارية معهم ببيع مصالح البلاد بمنافعه المالية او أهوائه الشخصية ، كمساعدتهم إياه على عمه في مسألة نظارة الاوقاف

الخصوصية، وذكر مسائل أخرى ، وكان هذا الحديث قبل حدوث مسألة محاولة عزله وعزل حسن باشا عاصم من الحكومة وقد تقدم شرحه وهو أوضح المثل وأظهر الشواهد في ذلك

محاورة في الاحتلال وأعماله المنكرة

زاره محمد بك بيرم وأنا عنده في رمضان سنة ٣١٥ وهو من حزب الانكليز وقد رقوه فجعلوه محافظ مصر وكان يأتيه دائماً باخبار الحكومة والانكليز على حقيقتها فذكر مسألة بيع البواخر لشركة انكليزية وصراخ المؤيد ومن على رأيه في الانكار على الحكومة والانكليز، وقال هل ينتظرون من الانكليز أن يفضلوا على الشركة الانكليزية شركة من غير أبناء جنسهم؟ نعم لو وجدت شركة مصرية وقدموا عليها الشركة الانكليزية لكان لهم الحق في الانكار ، ولكن أين الوطنيون الذين يقدمون على مثل هذا؟ اجتمع عند الخديو جماعة من وجهاء الاغنياء وتكلموا في المسألة فوعدهم بانهم اذا هيئوا المال يتمم لهم المسألة ويكون شريكهم فيها، وضرب لهم موعداً فانقضى الوعد ولم يكن منهم شيء

قال الاستاذ ان المعترضين في المؤيد وغيره يتكلمون في المسألة من جهة شرف الحكومة والبلاد بابقاء الراية المصرية في البحر

قال البيك : إن الراية المصرية وكل ماهو بمعناها قد طار مع دخان المدافع يوم ضربت الاسكندرية . وإن الخديو يوم جاء مصر استقبله الانكليز استقبال ضيف (وذكر كلاما في ذلك لا يعرف عن غيره بل المعروف خلافه) قال : ولكن المصريين لايفهمون هذا ... يرون ميتاً لم يدفن فيظنونه حياً

(أقول وقد حضرت مثل هذا المجلس في مكتب الشيخ علي يوسف بادارة المؤيد وكان عنده ابراهيم بك المويلحي وكان يقول هذا الكلام في المسألة المصرية وان مايسمى الاحتلال هو عين الفتح والامتلاك ، قال بعض الحاضرين وقد انتهى أمره بمعركة التل الكبير ، فقال المويلحي بل بضرب الاسكندرية واحتلالها أو قبل ذلك . ولم يعترض الشيخ علي ولا غيره على ذلك بل وافقهم عليه)

ثم ذكر محمد بك بيرم مسألة بيع أراضي الوقف المسماة (تفتيش الوادي)

التي وقفها اسماعيل باشا على المكاتب والمدارس الاسلامية

قال الاستاذ : ان هذه المسألة في غاية الخشونة وما كان يليق بالانكليز مثل هذا العمل المفضوح وإن كانت أزمة البلاد في أيديهم

قال البيك : إن استبدال أرض الوقف جائز ولو بالمال ليشترى به غيره

قال الاستاذ انما يصح هذا في الاراضي التي لاريع لها وهذه الاراضي كان ريعها السنوي خمسة عشر ألف جنيه فما زالت تنقص حتى صارت ٧٥٠٠ جنيه أي نزلت إلى النصف فينبغي الفحص عن السبب . واذا كان لابد من بيعها على ان دخلها كذا فلا بد في هذا من حكم القاضي الشرعي . وقال في الرد على قول بعض رجال الحكومة انها من أملاك الميري: ان اسماعيل باشا ورث هذه الارض من أبيه ابراهيم باشا ووقفها بصفته الشخصية « اسماعيل بن ابراهيم من أصحاب الاملاك» لا بصفة انه خديو مصر، فوقفها صحيح لا شك فيه

قال البيك لو ان المصريين يعلمون ان الانجليز قد امتلكوا مصر ووجهوا نظرهم لمعرفة كيف ينبغي أن تكون حياتهم مع هذا الحاكم الجديد لكانوا انتفعوا وقدروا أن يحافظوا على بعض ماتجب المحافظة عليه

قال الاستاذ متلطفا في تخطئته بما ارتآه من وجوب توطين المصريين أنفسهم على ذهاب بلادهم من أيديهم — : إن العمل لاخراج الانكليز من مصر عمل كبير جداً ولا بد في الوصول إلى الغاية منه من السير في الجهاد على منهاج الحكمة والدأب على العمل الطويل ولو عدة قرون ، لا انه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس والكتابة في الجرائد ، (هكذا أو مامعناه) وقالوا إن كثيراً من المصالح الاميرية معرضة للبيع فهل يقدم المصريون على شراء شيء منها ؟

فرنسة والاسلام

ثم قال البيك بمناسبة بيع تفتيش الوادي وحكم الاستاذ بأنه وقف صحيح وان بيعه اعتداء من الانكليز على الدين : ان الفرنسيس قد باعوا مساجد مدينة الجزائر لاجل المصالح العامة ولم يبقوا في تلك المدينة إلا أربعة جوامع فقط — وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى ذكر فرنسة فقال الاستاذ الامام : انه لا توجد أمة تبغض المسلم لانه مسلم لا لأمر آخر إلا فرنسة . وأطال في بيان ذلك : ومما قاله

إنني لما كنت أجتمع مع احد الفرنساويين للمذاكرة في أحوال الشرق أمتعض وينتفض - أو يرتعش - جسمي كله

وقال ان الفرنساوي إذا مدح الاسلام وذكر شيئاً من مزاياه فلابد أن يكون غرضه من ذلك منفعة فرنسة ، وذكر عدة رجال منهم ألفوا كتباً بهذا المعنى ثم صرحوا ولو في آخر ما كتبوا بحالتهم مع المسلمين في الجزائر وماينبغي عمله لبقاء سلطتهم فيها ، وذكر أسماء بعض تلك الكتب

كنت قد استغربت هذا القول من الاستاذ ثم رأيت كثيراً من الشواهد والدلائل التي تؤيده وأقواها ما كتبه فيلسوف فرنسة الاجتماعي ومؤرخها الحر الدكتور غوستاف لوبون إلى عبد الغني سني افندي التركي المشهور وهو نص صريح في هذا المعنى مع بيان سببه وهو الدين الكاثوليكي

ذلك بأن عبد الغني افندي هذا قرأ بعد الحرب الكبرى كتابا لهذا الفيلسوف في أسباب الحرب وفلسفتها ألحى فيه بالتخطئة على الدولة العثمانية لدخولها في الحرب مع ألمانية ، فكتب اليه مبيناً عذر دولته في ذلك وهو اتفاق فرنسة مع الروسية من قبل الحرب على تقسيم بلادها وإعطاء الآستانة لروسية . فلم يلبث أن جاءه مرجوع الكتاب من الفيلسوف يعترف له فيه بالحق أي بعذر الدولة ويصرح فيه ببغض دولته فرنسة وقومه المسلمين - وهل يقول الحق في السياسة افرنسي إلا أن يكون فيلسوفا لا يقول إلا مايعتقد ؟ وقد نشر هذا الجواب في مجلة الهلال بلغته الافرنسيه مع ترجمته وهذه ترجمته (من ص ٦١٦ من العدد السادس من السنة الثالثة والثلاثين)

سيدي

« أراكم فيما كتبتم على تمام الاصابة سأسعى في نشره في إحدى الجرائد الفرنسوية . لكنني لست واثقا من ان أوفق . لان العقيدة الكاثوليكية المتوارثة فينا تجعلنا من ألد الاعداء للمسلمين . وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخما باسم « حضارة العرب » وذلك لأثبت ان العرب هم الذين مدنوا أوروبا

هذا واقبلوا .... الدكتور غوستاف لبون

« ٢٨ - شارع فينيون - باريس » ٣ - ٤ - ١٩٢١

ثم قال الاستاذ : إني لاعجب لهؤلاء الافرنج كيف يجرحون قلوب الذين يستولون عليهم بالتعدي على أحكام دينهم وامتهان شعائره وتقاليده (كيم الانكليز لوقف تفتيش الوادي) ويعيشون معهم خائفين من ثورتهم وانتقاضهم عليهم ، وفي إمكانهم أن يحببوا أنفسهم إليهم ويعيشوا معهم بالراحة وانما ذلك بعدم التعرض لدينهم

قلت : ان اضعاف الدين الاسلامي غرض مطلوب لذاته عندهم فهم يؤثرون التعب بفعل مايحبون ، على الراحة مع ما يكرهون

قال : ليس هذا برأي فان توالي المؤلمات يبعث على الخروج يوما ما . ثم تكلمنا عن ثورة الهند التي تفاقم خطبها في تلك الايام ، وفي حالة روسية وألمانية وشبابهما ونشاطهما . ولا حاجة الى ذكر شيء من ذلك هنا

(رأيه في اللغة العربية واللغات الاوربية والكتب في كل منها)

قد نوهنا بما عني به الاستاذ الامام منذ انتقل من دور التعلم الى دور العمل من السعي لاصلاح اللغة العربية عند توليه إدارة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية وفي التدريس بدار العلوم ثم في إصلاح الازهر ، وفي بعض تقاريره الاخيرة عن دار العلوم عند توليه رياسة امتحانها السنوي تصريح مرضي بتقدم اللغة العربية فيها وقربها من الدرجة المطلوبة وسننشر بعضها في الذيل إن شاء الله تعالى

ولكنه كان يرى ان اللغة العربية في حاجة الى اصلاح آخر فوق اصلاح التعليم لفنونها وآدابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو ما فعله الفرنسيس وغيرهم من شعوب العلم في أوربة من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال لي ان هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيس فيه إلا باشتغال جدي مدة خمسين سنة .

وأما كتبنا العربية فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين ، ويقول مع ذلك إن فن

التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم، واننا في أشد الحاجة الى حذوهم فيه

قلت له في أول حديث لنا في اصلاح الازهر وقد تقدم ذكره وتاريخه إننا في أشد الحاجة الى تأليف كتب تناسب حالة العصر وحاجته في الترتيب والسهولة ومراعاة عقول المتعلمين ، وفي تنقيح العلوم وتمهيد طرقها ومسالكها ، ولا سيما تواريخ العلوم وغيرها .

قال نعم : اننا اذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلا فلا يوجد في تواريخنا مادة تفي بالغرض ، يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم في العقائد على مذهب المعتزلة واعتزل مجلس الحسن البصري ، لكن ما سبب ذلك؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذي حدا بالشيخ أبي الحسن الأشعري للقول بأن الوجود عين الموجود ؟ و .... ومتى دخلت الفلسفة في كتب العقائد ؟ وماذا كان غرض العلماء في إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد في وقت واحد ؟ كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا - ويمكننا أن نعرف كثيرا من شؤون الاسلام وتاريخه من الكتب الافرنجية فان فيها ما لا نجده في كتبنا .

وقال في وقت آخر ان العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الاسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا اذا كان متقنا للغة من لغات العلم الاوربية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الاسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم

﴿ رأيه في الصوفية والفقهاء ﴾

أول حديث دار بيني وبين الاستاذ في هذه المسائل كان في يوم الخميس (٦ شعبان سنة ١٣١٥) كنت على موعد لزيارته فجئته في منتصف الساعة التاسعة صباحا فكاشفته بعزمي على انشاء جريدة وتكلمنا في هذا الموضوع بما سأذكره في موضعه ، وإذ كان المراد من جريدتي هذه الاصلاح الديني تذاكرنا وفيه وفي وجه الحاجة اليه حتى انتهى الكلام الى ذكر الصوفية

قلت : إن الصوفية فلاسفة أخلاق ، وان كلامهم نفع كثيرا وأضر كثيرا

قال : (١) انه لم يوجد في أمة من الامم من يضاهي الصوفية في علم الاخلاق وتربية النفوس — و (٢) أنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين — و (٣) ان سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الامراء بقول الفقهاء فيهم، فأولئك يكفرون ، وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، حتى انه قتل في هذه البلد (القاهرة) في يوم واحد خمسمائة صوفي ـ و (٤) ان هذا سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم ان ظهروا ، ولجوئهم إلى الاختفاء ، وكلامهم في الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والاشارة ـ (٥) ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين الى الظهور به وهو ليس من التصوف ، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلا . وهكذا كان البعد عن التصوف رويداً رويداً حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضا تاما إلا ما لا نعلم

قال : وان الفقهاء لبعدهم عن التصوف (الذي هو الدين) جهلوا سياسة وقتهم وحاله ، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الاحكام الشرعية . . اذا عرفوا ان الحكم كذا ؟ لا يعرفون كيف يحملون الامراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه ، ولهذا ضاع الدين والسياسة .

احتقرهم الامراء والسلاطين في أنفسهم، واستخدموهم لاغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم ، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم ـ ولا يوافق الشرع ـ فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون ، وأفتوهم بما يشاؤون . وقررت فتاويهم في كتب الفقه على انها أحكام شرعية « أي ان هذا هو حكم الله في هذه المسألة»

قلت : ان للصوفية كلاما غير معقول وما هو مخالف لظاهر الشرع (أو ظاهره الشرع) وهو الكلام فيما وراء التربية وتهذيب الاخلاق الذي انفتح به الباب لتأويلات الباطنية، الذين يشبه كلامهم في كثير من آيات القرآن كلام الصوفية ولكون اهل السنة صاروا يسلمون للصوفية أقوالهم صارت الصوفية وصلة بيننا وبين الباطنية

قال : نعم صدر عنهم كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا ان يكتب « ومنه ما يوهم الحلول » ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به . وأنا لا أنكر ان لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا « بل ربما حصل لي شيء من ذلك وقتاً ما »

لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علما . (قال) ان هذا الذوق يحصل للانسان في حالة غير طبيعية وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغي (أولا يجوز) أن يخاطب به التقيد بالنواميس الطبيعية. اهـ وقال في حديث آخر ولا يستحيون ان يقولوا ان كل ذلك حكم الله يدين به عباده .
وقال أيضا : كل ما أنا فيه من نعمة في ديني أحمد الله تعالى فسببها التصوف. وتقدم بيان ما وفق له من التصوف الصحيح الخالي من البدع والخرافات المرغب في العلوم وتحرير القول في التصوف في أوائل الكتاب .

ثم فصل الاستاذ هذه المسألة ـ التنازع بين الفقهاء والصوفية وما انتهى اليه أمر هؤلاء في تفسير (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) وحقق ما كان عليه الصوفية الاولون من الاصلاح وحسن النية فيما أخطأوا ، وافتتان الناس بهم بعد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أندادا لله يطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله تعالى فيراجع هذا التفصيل في الجزء الثاني من التفسير

وفصله ايضاً في مجلس من مجالسه التي عقدت لايراد الشبهات وحل المشكلات وتفنيد الخرافات في قرية (بهاده) وكنا ممن حضرها مع الاستاذ الاكبر السيد علي البيلاوي شيخ الجامع الازهر وغيره من كبار علماء الازهر كالشيخ أبي الفضل الجيزاوي الذي صار شيخا للازهر بعده والشيخ سليمان العبد شيخ الشافعية وغيرهم رحمهم الله تعالى ، وكان هنالك شيخ يسمى الشيخ محمد الدلاصي يفتن العوام بالاولياء وكراماتهم ومددهم ، وكان الشيخ عبد المؤمن موسى عمدة تلك البلد من قراء المنار يخالف هذا الشيخ في تعاليمه الخرافية ولم يجد وسيلة لاظهار ضلاله لاهل البلد الذين يجتمعون عليه الا دعوة الاستاذ الامام الى البلد هو وهؤلاء العلماء الاعلام (سنة ١٣٢٢)

وهنالك ألقيت على الاستاذ الامام الاسئلة المتعلقة بالموضوع فأجاب عنها بما هو الصواب وفصل الخطاب ، ومما لم نكن نعلمه الا منه في ذلك المجلس مسألة (ديوان الاولياء والتصرف الباطن) اللذين ينسبان الى الصوفية فبينها الاستاذ الامام أحسن بيان وافقه عليه من حضر من العلماء ، وملخصه أنه لما أمعن

الامراء في الفتك بالصوفية باغراء الفقهاء كان الصوفية يعقدون اجتماعات سرية للبحث في كف الاذى عنهم ويقررون فيها ما يتفقون عليه ثم يسمون لتنفيذه بالوسائل الكسبية وقد يكون منه قتل بعض خصومهم - فهذا أصل ما يسمى الديوان والتصرف في الاكوان، وليس تصرفا بالكرامات ولا بخوارق العادات فليراجع تفصيل هذا من أراده في (ص ٤٣٢ - ٤٤٠) من مجلد المنار السابع

رأيه في البهائية العباسية والشيعة

كنت قد عنيت بالبحث عن حقيقة البابية البهائية وغير البهائية في أثناء طلب العلم بطرابلس الشام، ولما هاجرت إلى مصر في منتصف سنة ١٣١٥ اجتمعت بميرزا ابي الفضل الجوزقاني داعية البهائية وناظرته مراراً، وكان عندي رسالة منه كتبها في التمهيد للدعوة الصريحة إلى دينهم وكانوا ممنوعين من هذه الدعوة في بلاد الدولة العثمانية - ومصر منها - بما اشترطته عليهم الدولة عند الاذن لهم في الاقامة بعكاء وحرية التجوال والاقامة في سائر بلادها

وقد دهشت أشد الدهشة إذ رأيت الاستاذ الامام غير واقف على حقيقة دينهم ومصدقا ما كان سمعه من زعيمهم الداهية عباس افندي نجل البهاء ومنظم دعوته وناشرها حتى أوقفته على ذلك، كان يجتمع بعباس افندي أيام إقامته في بيروت إذ كان عباس افندى يتردد اليها ويصلي الصلوات الخمس والجمعة ويحضر بعض دروس الاستاذ الامام ومجالسه واستمر على مكاتبته بعد عودته إلى مصر ولدي عدة كتب منه اليه

وكان أول حديث جرى بيني وبينه فيهم تتمة المحاورة في الفقهاء والصوفية فانني لما ذكرت الشبه بين الصوفية والباطنية في التأويل سألته عن رأيه في البابية

قال ان هذه الطائفة هي الطائفة الوحيدة التي تجتهد في تحصيل العلوم والفنون بين المسلمين وفيها العلماء والعقلاء، ولا أعلم حقيقة مذهبهم، ولا أدري هل مايقال عنهم من الحلول ونحوه صحيح ام لا ؟ بل أستغرب به جداً

سألته عن ميرزا فضل الله الايراني ؟ قال سمعت به منذ عهد قريب وانه مؤرخ وفاضل ولم أره

قلت نعم انه بارع في التاريخ وقد ساح كثيراً وهو مهذب الاخلاق وذكرت كل ماعرفت من صفاته وقلت انه يظهر لنا انه من دعاتهم

ثم سألته عن عباس افندي وقلت أسمع انه بارع في العلم والسياسة ، وانه عاقل يرضى كل مجلس ...

قال نعم ان عباس افندي فوق هذا ، انه رجل كبير ، هو الرجل الذي يصح اطلاق هذا اللقب (كبير) عليه

قلت له : انني اجتمعت بميرزا فضل الله مراراً وناظرته فألفيته يستدل على صحة تعاليمهم بثباتها هذه المدة وانتشارها ونموها ، ويحتج بآيات من القرآن على انه لايدوم ولا يثبت إلا الحق كقوله (إن الباطل كان زهوقا) وقوله (له دعوة الحق) الخ

قال : وانا أقول انه لايثبت ويدوم إلا الحق والخير ، وان الشر والباطل لايدومان وإن انتشرا ونميا ، ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الامد بحيث يصح الاحتجاج لها بهذا (ثم قال وقد رآني مرتابا في قوله) لاأقول ان كل ثابت حق وخير وانما كلامي في الشيء الذي له حياة ونمو (معنويان) فان من الاشياء المعنوية ماهو ثابت كثبات الحجر الذي تلقيه في مكان ولا يحركه أحد أو كالجبل ونحوه مما يكون ثبوته بالاستمرار لعدم المحرك لا بقوة حيوية تمسكه أن يزول

وأما ماله حياة كالدعوة إلى دين او مذهب فلا يثبت ويدوم إلا اذا كانت الدعوة حقا في نفسها ، وإن احتف بها في بعض أطوارها شيء من الباطل فهو عرض لايمنع دوامها وبقاءها بخلاف الدعوة الباطلة من أساسها ، ولهذا لم تثبت دعوى أحد من الذين ادعوا النبوة بعد نبينا ﷺ لانه خاتم النبيين

(قال) وكونه خاتم النبيين لو لم يرد في القرآن لكانت طبيعة الوجود دالة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه ، وضرب لذلك مثلا فقال

ان مثل النوع الانساني كله كمثل شخص منه يخاطبه ابوه ومربيه في كل

طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله النوع الانساني . فخاطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية في زمانهم ، وكلما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى حتى ختمه ببعثة خاتم النبيين ﷺ الذي هو دين سن الرشد لنوع الانسان

ثم شرح المسألة بما نستغنى عنه هنا لانه كتبه في رسالة التوحيد في بحث ترقي الاديان وختمها بالاسلام الذي هو خطاب الله للبشر في سن بلوغ الرشد ولم تكن الرسالة قد طبعت عند إلقائه إليّ بهذا الكلام ولاتم تأليفها (راجع ص ١٨٤ من طبعة الرسالة الخامسة)

قلت : ان اتباع الباب والبهاء قد فتنوا بهما لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة (وكان الصواب أن أقول الاحوال النفسية والاقوال الغريبة المخالفة للعادة) ولذلك اتبعوهما ، مع ان هذا أمر طبيعي فانه قد عهد في الطبيعة ان أفراداً من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة (كقيصر روسية السابق) وكذلك في بعض الازمان يوجد أفراد تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة ، وهؤلاء إذا قام أحدهم بدعوة إلى شيء كدين أو مذهب او طريقة يتبعه خلق كثير افتتانا به وإعجابا بافكاره وادراكاته وأقواله المؤثرة ، وإن كان مايدعو اليه غير معقول في ذاته ولا يمكنه اقامة البرهان عليه

الاستاذ : انا أعتقد أن صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شيء خيري ونجح فيه فلا بد أن يكون مؤيداً بروح من الله تعالى وان هذه القوة العقلية لايوجدها الله تعالى عبثا

قلت : هل تعتقد هذا عن وجدان فقط ام عليه دليل عقلي

قال : بل هو معقول والتاريخ من أوله إلى آخره شاهد له ودال عليه فان الانبياء ودعاة المذاهب الصحيحة كانوا كلهم من هذا القبيل

قلت : ان كلامكم السابق واللاحق عين مايحتج به البابية ولم تخالفوهم إلا في شيء واحد (هو كل شيء في المعنى) وهو انكم حققتم انه لا يمكن تغيير شيء من أصول الاسلام وشريعته لانها هي التي خاطب الله بها النوع الانساني عند

بلوغه من الرشد وطور الكمال العقلي الذي ليس وراءه طور آخر يحتاج فيه إلى تشريع آخر منه تعالى لتربيته وتكميله ، بل وكله في كل ماوراءه الى اجتهاده واستقلاله

والذي يفهم من كلام هؤلاء كميرزا فضل الله داعيتهم في تفسير ماتشير اليه رسالته التي كتبها لبعض اخواننا تفسيراً لمقالته التي نشرها في المقتطف (١) هو ان بهاء الله إما أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية واما أن يكون آتيا بشريعة جديدة ، وان لكل وجها يحتجون له بالقرآن والاحاديث . والذي علمته من مناظرة فضل الله هذا انهم يعتقدون انه شارع لدين جديد ، وان قولهم باحتمال أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية هو الدرجة الاولى في دعوة المسلمين الى دينهم فاذا قبلها المدعو نقلوه الى الثانية ، وطريقتهم في الدعاية وتأويل الآيات والاحاديث بأهوائهم كطريقة سلفهم من الباطنية كالاسماعيلية وغيرهم

ويقولون ان غرضهم من ديانتهم او من أصولها ومقاصدها توحيد الاديان وينظرون في كتب اليهود والنصارى ويتأولونها كما يتأولون القرآن وبزعم ميرزا فضل كما سمعت منه أن كتاب كل أمة فيه بيان لكل مايطرأ على تلك الامة وان الانجيل فيه بيان لحالة أوربة الآن وان الاوربيين سيمحقون محقاً واستدل بما في الاصحاح الثاني من رسالة بطرس الثانية من ظهور معلمين كذبة يبثون بدع هلاك ويجلبون على أنفسهم هلاكا سريعا واعدين اياهم بالحرية وهم عبيد الفساد الخ

قال الاستاذ : لو كان بطرس يعلم ماسيطرأ على المسيحية وأخبر به لأخبر عما هو أهم من ظهور البروتستنتية ومن كل شيء طرأ عليها وهو انقلابها وتحولها إلى وثنية ، فان النصرانية انقلبت إلى الوثنية من عهد قسطنطين بعد المسيح بثلاثة

(١) كان ميرزا فضل الله كتب مقالة في المقتطف موضوعها (الباب والبابية) وقال إنها مقالة تاريخية، فقرأتها أنا وبعض طلبة العلم في طرابلس ورأينا فيها مايخالف الشريعة الاسلامية فكتبت إلى أخينا الشيخ إسماعيل الحافظ وكان مجاورا في الازهر أن يبلغ مرزا فضل الله إنكارنا ماأنكرناه فبلغه فكتب رسالة وضح فيها مراده عما علمنا منه ان البهائية دين جديد وانهم يدعون اليه سرا كدعاية الباطنية من قبلهم

قرون، فقسطنطين كان ملكا وثنياً وادعى التدين بالنصرانية سياسة لاجل لاستعانة بمنتحليها على خصمه .. ونجح في ذلك

وقال ان لفظ الحرية في رسالة بطرس ليس بالمعنى المعروف الآن ... الخ

وبعد إطالة الكلام في تاريخ النصرانية أعطيته رسالة ميرزا فضل الخطية وانصرفت . ولم أعد إلى لقائه إلا بعد سياحة في الوجه القبلي عدت منها في أواخر شعبان، وقد زرته في الليلة الثانية من رمضان ولم نفرغ للمذاكرة العلمية لكثرة الزائرين ثم زرته بعد ظهر الجمعة سادس الشهر فقابلني في حجرة النوم والمطالعة وكان أول ماسألته عنه رسالة فضل الله فرأيته مستحسنا لها

قلت نعم ان كلامها أو أسلوبها حسن ولاسيما بيان حاجة المسلمين إلى الاصلاح ولكنه ذكر للدعوة إلى الاصلاح درجتين (الاولى) الاصلاح في الدين الاسلامي به وهذا معقول مقبول، وهو الذي نقول به ونسعى اليه وأريد أن أنشيء لاجله صحيفة دورية (والثانية) الحاجة إلى شريعة جديدة ، وقد سلك في التعبير عنها طريق الابهام كقوله ان فهمها يتوقف على فهم معنى « القيامة وطي سموات الاديان » فقارئه لايفهم مراده منه وقد باحثناه فيه فعلمنا انهم يعتقدون ان القيامة قد قامت وان كل ما ذكر من صفاتها في القرآن قد وقع ومنه طي السماء وقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) فالسموات عندهم هي الاديان ، والسبع منها هي : البرهمية والبوذية، والكونفشيوسية والزردشتية، واليهودية والنصرانية والاسلام . وذكرت غير ذلك من عقائدهم وتأويلاتهم للقرآن بما هو أبعد من تأويلات سلفهم الاسماعيلية والعبيديين بمصر

قال الاستاذ : أي حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب وإلى هذا الكلام الذي لايعقل . أنا لم أفهم من عباس افندي شيئا من هذا وإنما صرح لي ان قيامهم لاصلاح مذهب الشيعة وتقريبه إلى مذهب أهل السنة . وفي الحقيقة ان مذهب الشيعة ...... (وذكر ما لم يأذن لي بنقله عنه في حياته ، وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته، وإنما أقول ان حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الاسلام ابن تيمية)

وقال هم أحوج الفرق إلى الاصلاح ولكن من الاسف العظيم أن لايقوم فينا

مصلحون إلا ويخرجون عن الأعتدال إلى مبالغة وغلو لا تنجح معه الدعوة — الوهابية قاموا للاصلاح ومذهبهم حسن لولا الغلو والافراط . أي حاجة إلى قولهم بهدم قبة النبي ﷺ والقول بكفر جميع المسلمين والعمل على إخضاعهم بالسيف أو إبادتهم(١) نعم لا بأس بالمبالغة في القول والخطابة لاجل التأثير بالترغيب أو الترهيب والتنفير ، لكن ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل . انني كثيراً ما أتكلم بكلام في مجلس المذاكرة والخطابة لا أحب أن يكتب وينقل عني وإنما فائدته التأثير في نفس المخاطب ...

(وهنا انقطع الحديث بزيارة محمد بك بيرم التي تقدم ذكرها ثم عدنا اليه بعد ذهابه)

سألني الاستاذ عما أنكرناه من رسالة ميرزا فضل فذكرت له أولا مسألة تعدد الزوجات والتسري وان شريعة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط ، فطفق الاستاذ يشرح مفاسد التعدد والتسري وخروج المسلمين بهما عن هداية الشرع الى « الاسراف في استفراغ الشهوة بدون ملاحظة الغرض الديني ، وهذه المادة — أي إكثار السراري — نشأت في زمن العباسيين وامتدت إلى هذا العصر حتى انك تجد عند سلطان الاتراك وغيره المئات من هؤلاء السراري ، وقد ترتب على ذلك مفاسد كان لها الاثر الكبير في ضعف الامة وسقوطها إلى الدركة التي هي فيها . دع ما فيها من بيع المسلمات من الجركس والسودان بدون أدنى شبهة شرعية »

وتوسع في هذا فذكر ما في التعدد من فساد البيوت (العائلات) بانتقال التعادي من الزوجتين أو الزوجات إلى أولادهن فيتعذر معها تهذيبهم ، وقال في حق السلاطين والامراء إذا كان في قصر أحدهم هذا العدد الكثير من النساء فمتى يصفو فكره للاصلاح والنظر في شؤون الامة ؟

وإنما أطال الاستاذ في هذا الاستطراد لانه ظن انني من الذين يستحسنون

---

(١) هذا ما كان مشهوراً عنهم في مصر وجميع البلاد العثمانية ثم علمنا من كتبهم ان الناس غلوا في الكذب عليهم لارضاء الدولة العثمانية أكثر من غلوهم فهم لم يهدموا القبة المذكورة ولا قال علماؤهم بكفر جميع المسلمين

تعدد الزوجات وكنا في أول المعاشرة . ثم رجعنا إلى موضوع دين البهائية

قلت : انهم يقولون بصحة جميع الاديان والكتب الدينية ويدعون جميع أهل الملل الى دينهم دعوة واحدة لاجل الجمع وتوحيد كلمة البشر به ، ويستدلون عند دعوة أهل كل دين بشيء مما في كتبهم ولاسيما التوراة والانجيل والقرآن

وقد ظهر لي ان طريقتهم أحكم من طريقة الماسون فان هؤلاء الماسون رأوا من الحكمة أن لايفرقوا بين الاديان في الدخول في جمعيتهم بدعوى انها لا تمس الاديان ، وان كانت غايتها هدم جميع الاديان . وأما البهائية فيقولون بصحة كل دين في نفسه ويستدلون به على دينهم الناسخ لما قبله

قال الاستاذ : ان التقريب بين الاديان مما جاء به الدين الاسلامي وتلا قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)الخ واستغرب استدلال القوم على قيام الباب والبهاء بالكتب السماوية اه

ولما كتبت ملخص هذا الحديث في وقته ختمته بقولي : والحاصل ان الاستاذ يقول بضرورة الاصلاح وبغلو المصلحين ، ولولا هذا الغلو من البابية لكان يحب أن يساعدهم . أقول : ولم يكن قبل حديثي معه يعلم عنهم شيئاً صحيحاً والظاهر انه لم يقرأ ما نقلته دائرة المعارف العربية عن أستاذه السيد جمال الدين فيهم، على ان ذلك كان قبل ظهور البهائية ، بل كان غشه داهيتهم عباس افندي بقوله ان قيامهم لم يكن إلا لمقاومة غلو الشيعة وتقريبهم من أهل السنة . هكذا قال عباس افندي لشيخنا الشيخ حسين الجسر إذ لقيه في عكا ،وأنا أيضاً لم أكن أعرف حقيقة أمرهم كما ينبغي

ثم كان من مناظرتي لميرزا فضل الله ما ألجأه إلى بيان أصل عقيدتهم وانهم يعتقدون ألوهية البهاء حتى قال لي مرة فيه (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس) الخ الصفات في الآيات فختمها له بقوله تعالى (سبحان الله عما يشركون) وأخبرت الاستاذ الامام بذلك فعلم انهم نسخة من الباطنية القدماء وشر منهم

ثم رددت عليهم في مواضع من المنار وجاءني بعد الرد عليهم رسائل البابية

من طهران من عربية وفارسية وما يسميه (البيان) الذي تأول به قوله تعالى (ثم ان علينا بيانه) ثم ساعدت الدكتور مهدي خان على تأليفه (مفتاح باب الابواب) في الرد عليهم وكان عنده نسخة (الكتاب الاقدس) للبهاء التي يكتمونها عن جميع الناس، فاطلعت عليها وعرفت حقيقة دينهم بالتفصيل

وكان قد بقي في نفسي شبهة من قول الاستاذ الامام في أوائل حديثي فيه ان ثبات الشيء ونماءه وبقاءه مما يكون في الاديان والمذاهب لا يكون إلا لما معه من الحق فراجعته في ذلك واحتججت عليه بالاديان الباطلة الثابتة منذ القرون الطويلة وكذلك المذاهب والجمعيات الضالة المضلة . فقال إن أصول تلك الاديان والمذاهب حق ثم طرأ عليها الباطل، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، والنظام حق وهو ثابت باق بذاته وما في الجمعية او المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة اهل الحق لما فيه من الباطل

ثم اني حررت الحقيقة في أصل هذا الموضوع بما رددت به على كتاب ميرزا ابي الفضل (الدرر البهائية) الذي كان أول كتاب طبعوه هنا في الدعوة إلى دينهم فاغتر بخلابته الباطنية صاحب جريدة اللواء فبادر إلى تقريظه والثناء عليه إذ لم يفهم مافيه الكفر ، فخفت ان أرد عليه يومئذ فيصر على ضلاله وانتصاره للبهائية فذهبت إلى الشيخ علي يوسف في مكتبه بدار المؤيد فوجدت الكتاب في يده ينظر فيه تمهيداً لتقريظه وهو معجب بما كان قرأه منه فأخبرته بكنه دينهم وبما فيه من الخلابة والتلبيس على المسلمين ، وكلفته ان يخاطب مصطفى كامل بتعجله بتقريظه وبما يجب عليه من تلافي هذا الخطأ حتى لا يغتر قراء اللواء به ويقبلوا على الكتاب فيقع المستعد منهم في أحبولة كيده الباطني ففعل

ثم رددت على الكتاب بمقالتين في المجلد الثالث من المنار عنوان إحداهما (الدعوة حياة الاديان) وعنوان الثانية (الدعوة وطريقها وآدابها) بينت فيهما بطلان شبهته في الاستدلال على حقية دينهم بما يزعمه من انتشاره وثباته ونموه بما ثبت في تاريخ البشر

من انهم مادعوا إلى شيء الا واستجاب له بعضهم حتى عبادة الشيطان والاوثان والحيوان وغيرها، وان نجاح الدعوة إلى شيء تكون بقدر اتقان القيام بها ومراعاة شروطها الخ

وقد أعجب الاستاذ الامام بهاتين المقالتين وكذا غيره من الفضلاء حتى قال لي المرحوم ابراهيم بك اللقاني من أين جئت بهذه الشروط المدودة لنجاح الدعوة إلى الاديان فهي معقولة كأنها مسائل علمية مدونة ؟ وقد التزم طبع هذا الكتاب مجاور كردي في الازهر وكان يوزعه فيه فاخبرت الاستاذ الامام بذلك فكلم شيخ الازهر بوجوب عقابه فسأله الشيخ فتنصل واعتذر بانه اسمه ذكر فيه بغير اذنه وهو لا يعلم مافيه فعاقبه بقطع جرايته وراتبه إلى مدة أربعة أشهر فقط، ثم طرد من الازهر

ومما رددت به على البابية والبهائية بالصراحة بعد الاطلاع على رسائلهم وكتبهم التي جاءتني من طهران مقال حافل عنوانه (استغناء البشر عن دين جديد ، ومعنى كون دين الفطرة آخر الاديان ، وافتحار البابية) نشرته في المجلد السابع من المنار (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٨) وفيها بعض الشواهد من رسائلهم ، وأدلة الباب السبعة السخيفة على دينه . وبينت فيها فرقهم الاربع (١) البابية الخلص (٢) البابية الازلية . أي أتباع صبح ازل الذي كان في قبرص (٣) البابية البهائية (٤) البابية البهائية العباسية . وقد أعجب الاستاذ الامام بهذه المقالة . وإنما ذكرت هذا في ترجمته لئلا يكون في بقية الناس الذين رأوا صحبة عباس افندي له في بيروت أو سمعوا ثناءه عليه من يظن انه ظل يصدقهم في اظهارهم للاسلام ، ودعواهم أنهم لا يبغون فيه إلا الاصلاح

﴿ رأيه في اعراض المسلمين عن الاسلام وعقابهم عليه ﴾

لا أرى حاجة إلى ذكر رأيه في المسلمين وإعراضهم عن الاسلام وبعدهم عنه وإعراضهم عن هدايته، وما ابتلاهم الله به من سلب الملك، وألبسهم من سرابيل الذل، جزاء لهم لعلهم يرجعون ، فان ما كتبه في ذلك في رسالة التوحيد مختصراً وفي كتاب الاسلام والنصرانية مبسوطا بعض البسط، وما نقلناه عنه في مواضع من التفسير يكفي ويشفي — على أن له في مجالسه الخاصة معنا من التصريحات في ذلك ما لا نظير له فيما كتبه وما كان يقوله في درس التفسير

صرح مراراً بان انتقام الله تعالى من المسلمين لإعراضهم عن كتابه وعن هدْي رسوله اتباعا لأهوائهم وشهواتهم ، وما فتنهم به ساداتهم وأمراؤهم ، لما يبلغ حده ،بدليل ان هذه النقم لاتزال تتجدد وتمدد ، وكان يقول ان المسلمين مصابون بالعقم لايموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والاعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على خلاف ما نرى عليه الامم الحية ، وكان يذكر لي رجالا كثيرين من أصحاب هذه المزايا الكبيرة في مصر وسورية كالشيخ المهدي العباسي والشيخ علي الببلاوي في مصر ، والامير عبد القادر الجزائري والسيد محمود حمزة مفتي الشام وغيرهم لايوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم . وقد ظن بعض خواصه انه يقول هذا في المصريين لانه ضرب لهم الامثال منهم، ولكنه ذكر لنا الامثال من غيرهم أيضا

على انه قال أخيراً ما يدل على رجائه في حياة المسلمين ، وقد عبر عنه أولا بمثل يفيد الشك إذ قال : انني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضر فلا أدري أهي من بقايا الحياة الاولى أم هي بدء حياة جديدة ؟ قلت له الدليل على الثاني ان هذه الورقات تزيد ولاتنقص . وأما رجاؤه في مستقبل الاسلام في الجملة دون شعوبه الحاضرة ، فكان رجاء كاملا لانه متصل برجائه في الاسلام نفسه ، وهذا الرجاء لم ينقص قط وانما كان شكه في أول شعب يحيي الاسلام هل هو من المنتمين اليه، أم من الذين سيهتدون به ؟

(رأيه في الاسلام نفسه)

كان يجزم بان الاسلام — إسلام القرآن والرسول الاعظم ﷺ في سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رض) — هو دين الفطرة ودين المستقبل ،وان أمم الحضارة في الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية مايضطرهم الى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا في الاسلام — اسلام القرآن والسنة لا اسلام المتكلمين والفقهاء . وقد صرح بهذا في مواضع كثيرة نقلنا عنه كثيراً منها في التفسير وغيره

﴿ رأيه في المذاهب وأئمتها ﴾

كان رأيه في المذاهب وأئمتها عين مايدل عليه هذان اللفظان ، فالمذاهب هي طرق الاستدلال التي سار عليه أولئك العلماء المستقلون في فهم الكتاب والسنة وقواعدهما واستنباط الاحكام من النصوص بمقتضى معاني اللغة العربية الفصحى في مفرداتها وجملها وأساليبها وتلك القواعد ، وكان يجلُّ جميع الأئمة المجتهدين ويرشد طلاب العلم إلى تباعهم في اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقاداً وتخلقا وأدبا وعملا واستدلالا ، كما صرح به في خطبته عند ختام درس المنطق (ص٧٦٣) ويقول انه لا معنى لاتباع المذهب إلا هذا . وأما جعل كلام الامام المجتهد ديناً يتعبد به ، فهو ينافي دين الاسلام نفسه ، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من فعل أهل الكتاب باتباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم ويحلون لهم ويحرمون عليهم في قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)

وكان يرى ان أمور الدين قسمان : أحكام قطعية يجب على كل مسلم معرفتها والتدين بها وهي كلها منصوصة في كتاب الله تعالى ومبينة بالتفصيل فى سنة رسوله وتناقلها المسلمون بالعمل ، فهي قطعية مجمع عليها لا مجال فيها لاجتهاد المجتهدين، فيأتي فيها تقليد المقلدين .

والثاني أحكام غير ثابتة بنص قطعي ولا إجماع فهي محل الاجتهاد ، والتحقيق أنها لاتكون في فرض أحكام عامة في العبادات ولا في المحرمات الدينية بل فيما يشتبه على المكلف من جزئياتها أو طرق العمل بها وفي أحكام المعاملات . وهذه يجب على المشتغلين بالعلم من تدريس وتأليف و افتاء وبالقضاء بين الناس أن يبحثوا عن أدلتها، مهتدين بسيرة الائمة ومذاهبهم فيها ،ويعملوا بما ظهر لهم رجحانه منها . وأما العوام فيرجعون فيما يعرض لهم ويشتبه عليهم منها إلى من يثقون بعلمه وتقواه فيسألونه عن حكم الله فيها إن كان فيها نص عنهما ، أو عن اجتهاده وما يطمئن اليه قلبه منها . وهذا معنى قول علماء السلف وأئمتهم: العامي لا مذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه . والدار في أساس هذا الموضوع على أصل

الامام مالك في ان مدار العبادات على النصوص ووجوب الاخذ بظواهرها ، ومدار أحكام المعاملات في غير المنصوص القطعي على القواعد واعتبار المصالح العامة

وتقدم رأيه في وجوب الانتفاع بفقه جميع الائمة في أحكام المعاملات في الكلام على تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية ، وفي معناه كلامه مع قاضي القضاة في السودان واخوانه ، وكان الاستاذ مالكي المذهب في نشأته الاولى ، تفقه بمذهب مالك ثم قرأ فقه الحنفية في الازهر وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية ، وأصل مذهب الحنفية ان فرائض الدين والمحرمات الدينية لاتثبت إلا بنصوص الكتاب والسنة القطعية ، بل نقل الشافعي في الام عن أبي يوسف ان مشايخه وسائر علماء السلف لايقولون في شيء انه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله تعالى بلا تفسير . ونقل شيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف انهم لم يكونوا يوجبون ولا يحرمون شيئا إلا بنص قطعي ، وان الاحكام العامة للامة لاتثبت إلا بنقل الامة المتواتر بالعمل

رأيه في الفقه والفقهاء وسوء حالة المسلمين

قال في المحاورة الطويلة التي دارت بيننا في نهار رمضان سنة ١٣١٥ بعد الكلام في البابية ماخلاصته كما كتبته في ذلك اليوم :

ان المسلمين ضيعوا دينهم واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل و... لم يبق عندهم شيء . هذه الصلاة التي يصلونها لاينظر الله اليها ولا يقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القرود ، وألفاظ لايعقلون لها معنى ، لايخطر ببال أحد منهم انه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح بحمده ، ويعترف بربوبيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره

ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الاربعة (وربما غيرهم أيضاً) قالوا إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها أداء الفرض ويسقط الطلب. ماهذا الكلام ؟ انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة في القرآن تبطله . قالوا النية في الصلاة أن يقصد الانسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالغ بعضهم فقال: لابد من تصور جميع

أعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله ﷺ «إنما الاعمال بالنيات » بهذا . إنما قصد الفعل عند مباشرته طبيعي، فانني اذا قمت أمشي لا أقصد بمشي القعود (ضحك) وحاش لله ان تفرض الشريعة الحكيمة هذا وتجعل عليه مدار الاعمال والعبادات، ولكن هؤلاء الفقها حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة، إن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا . المراد بالنية في الحديث قصد المرء وغرضه من فعله وهو إما وجه الله وابتغاء مرضاته (وهو النية الصحيحة) واما غرض آخر كالرياء (قلت) وعلى هذا يدل الترديد في مسألة الهجرة في الحديث نفسه) لا أن المراد قصد هذه الحركات التي لامعنى لها، وما كان الله تعالى ليفرض حركات وأعمالا يجعلها عبادة وقربة، والمرء يفعل مثلها كثيراً في تردده بأشغاله الدنيوية من مشي وانحناء وقيام وقعود

ان صلاة المستر براون الانكليزي عندي خير من صلاتهم . سألته عنه فقال: هو رجل انكليزي رأى ترجمة القرآن فأسلم [١] وهو يحملها ويقرأ فيها دائما عند الفراغ ، ويصلي بحسب مايفهم من القرآن ، ويستقبل القبلة كما جرره بحسب معرفته بعلم الفلك ، ويركع ويسجد ، فهذا وجد عنده روح الصلاة وكان لا يعلم الاوقات وعدد الركعات . قال لي : انني أصلي عند الفراغ بحرارة وخشوع

وسألني عن صلاته فقلت له أنا أصلي فصل معي، وعلمته كيفية الصلاة في زمن قصير بالعمل ، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها، وقال لي مرة انه يعجب لكون المسلمين المؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الأمم ويكونون خير الناس، وقد سألني من أكثر الناس جناية على القرآن ؟ فقلت ذووه وأصحابه ، فسر بجوابي هذا كثيرا . أوتي كل هذا الاعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتداء به مع أن الترجمة الانكليزية له بعيدة عن الصواب في مواضع كثيرة الخ

ثم قال: وقد جعلوا (أي الفقهاء) كتبهم هذه على علاتها أساس الدين ، ولم يخجلوا

---

(١) قد علمت بعد ذلك انه كان ضابطا بحريا وانه لما رأى الكلام عن البحر وظلماته وأمواجه واهوالها في ترجمة القرآن سأل بعض الهنود من المسلمين : هل ركب محمد البحر وسافر فيه؟ قال لا ، قال ان ما في القرآن عن البحر لا يمكن أن يكون عن خبر مخبر من الناس، فكان هذا سبب عنايته في قراءة الترجمة كلها واهتدائه للاسلام

من قولهم: ان العمل يجب بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة. فانصرفت الاذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على مافيها من الخلاف في الآراء والركاكة

(قلت له : سمعت بعض الحنفية يقول ان الفقه الحنفي يحتاج في تحصيله إلى عشرين سنة ، فقلت للقائل ان هذه المدة هي مدة البعثة التي شرعت فيها العقائد وأحكام الفقه وغيرها من الاحكام التهذيبية والسياسية ، والنظم الحربية والمدنية، مع الاشتغال بالحرب والفتوحات) فضحك الاستاذ وقال: ان قول هذا القائل صحيح

قلت له : رغب إلي الصديقان (الشيخ محمد الرافعي وعبد القادر افندي المغربي) أن أسأل فضيلتكم عن الطريقة التي ترونها مفيدة في تهذيب فقه الحنفية والتأليف فيه على كيفية مفيدة . قال وهل يوجد عندهم اشتغال صحيح ؟ قلت نعم قال (١) ينبغي لمن يؤلف أن يحيط اولا بمسائل الباب الذي يكتب فيه (٢)وأن يعتمد على كتب القرون المتوسطة كالزيلعي ، لاهذه الكتب المختلة العبارة كالكنز والتنوير (٣) وان يرجع أحكام الباب ومسائله الى قواعد كلية (٤) ثم يسرد الاحكام بعدها في غاية الوضوح (٥) وأن يراعي الترتيب الطبيعي بين المسائل فيقدم ماينبغي تقديمه ويؤخر ماينبغي تأخيره (٦) وان لايخلط مسائل باب بآخر وان كان بعض المسائل يشترك فيه بابان كالبيع والاجارة فلا بأس بذكره في كل باب، ولا بأس بالاشارة الى انه تقدم (٧) وان يذكر القول الراجح بدليله ويذكر بعده القول المرجوح مع الاشارة الى دليله (٨) وأن يختصر في مسائل العبادات

ثم قال «إذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزيلعي نكون قد خطونا خطوة لاصلاح الكتب والفقه ، ومادمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم إلا منها فلا نزداد إلا جهلا . هذا الشوكاني لما كسر قيود التقليد الاعمى حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها ، وقال ان حالة الفقهاء هذه هي التي ضيعت الدين ، وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الامة) وحالة الحكام أمام الفقه قال :

«ان العامي الذي يحتاج الى الكسب والعمل لاسعة عنده لصرف سنين طويلة

في تعلم أحكام الطهارة وسائر العبادات في الازهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة، وأي حاجة إلى هذه الابحاث الطويلة، والتدقيقات في مسائل المياه والطهارة والصلاة قال ﷺ « صلوا كما رأيتموني أصلي » وشرح صلاته ووضوءه يمكن بيانه في ورقات قليلة . وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به

«من أين جاءهم ان ماء الزهر والورد لايصح الوضوء به؟ وهل فيه زيادة عن الماء إلا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا أحسن شيء للوضوء فانه يمنع آثار المرض أيضا وكان الشيخ الانبابي يقول بنجاسته لان فيه سبيرتو ، وهل يوجد شيء مطهر كالسبيرتو ؟ والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف [1] فانه لا يمكن شربه لانه محرق للجوف ـ كذلك محلول السليماني من أحسن المنقيات والمطهرات (الطبية) وشربه قاتل

«ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب فهل نوقف سير العالم لاجل كتبهم ؟ هذا لايستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الاحكام الشرعية ولجؤا إلى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص (كذا في مذكرتي) فاضطر الناس إلى الاستدانة من الاجانب بارباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب ، والفقهاء هم المسؤلون عند الله تعالى عن هذا وعن كل ماعليه الناس من مخالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (أي كأحكام الضرورات) لانهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لاجلها كل شيء ،

«يقرءون الاصول ولايخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله، أو يبحث عن دليله، بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لايلزمنا النظر

---

(١) ظاهر هذا ان الاستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات ولكنني لما افتيت في المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك واقره

في الكتاب والسنة ، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الامة ، ويكتفون بقول (وكلهم من رسول الله ملتمس)

قلت له ان الابوصيري جدير بالشكر منهم حيث وضع لهم هذه القاعدة التي يرجعون اليها، كما ان ابن مقلة جدير بشكر الدروز بل بجعله إماما في دينهم لاني رأيت لهم كتابا يذكرون فيه أسرار الحروف من حيث رسمها الحالي، وأول من اخترعه ابن مقلة فرسمه أصل يستنبط منه كثير من الاحكام الدينية على مذهبهم ، فضحك ثم قال :

« كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، واذا كان بعض المسائل رجح لاسباب خاصة بمكان او زمان ينبغي لهم التنبيه على ذلك ، وان هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ،لانهم يجعلون كل ماقيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان» اه الحديث

(أقول) قد فطنت في أثناء طلبي للعلم في طرابلس الشام لانكار قول العلماء إن جميع ماقرره الفقهاء في كتبهم من الاحكام دين أوجب الله علينا اتباعه ونحن نرى بمدارسته أن أكثره آراء للمؤلفين يستنبطها بعضهم من كلام بعض لامن كلام الله ورسوله (ص) والذين يستدلون منهم وهم أقلهم يذكرون فى أدلتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة ولا سيما الحنفية فكنت أجادل الطلاب ثم العلماء في ذلك ولا سيما الصديقين اللذين ذكرتهما للاستاذ الامام في حديثي هذا فهما اللذان عودتهما حرية البحث بغير احتراس ولا تقية ، حتى كنت أقول في بعض الاحكام أهذا حكم الله تعالى أم حكم التتارخانية والشرنبلالية والولوالجية وأمثالها من كتب الاعاجم والمقلدين ؟ (وكان هذا أول أسباب اشتغالي بعلم الحديث)
وقد ذكرت هذا للاستاذ الامام فاعجبه حتى ذكر أسماء هذه الفتاوي مرة فى درسه في الازهر . ومن أغرب أمر علماء الفقه أو كتبه أنهم صاروا يخضعون للمتصوفة بعد أن ضعف أمر الفريقين في العلم حتى انهم يسلمون لهم خرافاتهم بالتاويل ، بعد ما كان التناكر بين سلفهما كما تقدم

حسبي هذا القدر من آرائه المفيدة في الاصلاح، وله آراء علميه ودينيه بيناها في التفسير، ولاحاجة إلى تدوين آرائه العلمية الخاصة التى لا تدخل في أبواب الاصلاح: ككون الجماد له حياة خاصة به، وكون الانسان له عدة أنفس، وان في الكون أرواحا منبثة فيه تؤثر في أرواح البشر كالنسم الخفية المسماة بالميكروبات التي تؤثر في أجسادهم،

آماله وامانيه

بينا فيما سبق أن أكبر آماله وأمانيه من الحياة إصلاح حال المسلمين في دينهم ودنياهم بما يعود به مجد الاسلام ، ويعم نوره الانام ، وفقا لما يفهمه من وعد الله تعالى في القرآن ، باظهاره على الدين كله ، في العالم كله ، وانه كان يرى ان أقرب الوسائل وأرجاها لذلك إصلاح التربية والتعليم في الجامع الازهر ، لانه مدرسة العالم الاسلامي كله ، وانه كان من مقاصده الاصلاحية فيه تخريج طوائف من الاخصائيين في كل علم من العلوم يكونون مرجعاً فيه وقائمين بفروض الكفايات العلمية والدينية كلها على أكمل حال يصل اليها كسب البشر ، ولا سيما طائفة القضاة وطائفة الدعاة الى الاسلام والمدافعين عنه، وطائفة الوعاظ والمرشدين والخطباء لارشاد العامة، وطائفة المؤلفين لجميع مايحتاج اليه رقي الاسلام من الكتب المختلفة المواضيع

مدرسة كلية

لما خاب أمله في الازهر فكر في السعي لانشاء مدرسة كلية تغني عنه في تخريج الرجال الذين يقومون بخدمة الاسلام . فاستمال أحمد باشا المنشاوي المثري المشهور ليقوم ببذل المال لذلك لما يعلمه من حبه لمعالي الامور . وكان المنشاوي قد حوكم في تلك الاثناء بتهمة الاعتداء وتعذيب بعض الناس وحكم عليه بالحبس فحبس ثم خرج مبعداً عن الخديو ومكروها من الانكليز والحكومة حتى أعرض عنه جميع الوجهاء . فاغتنم الاستاذ الامام هذه الفرصة وأظهر له العطف والتكريم . وصار يدعوه الى طعامه ومجلسه ويزوره في ذهبيته . وقد كان حمل من تونس عدة من برانس الصوف والحرير وغيرهما من نسيجها البديع . فعرضه كله على أحمد باشا المنشاوي ليختار لنفسه برنساً أو اثنين منها، فأخذها كلها، ظناً منه انه اليه أهداها، وحرم الاستاذ وأهله وأصدقاؤه كلهم من هذه الهدايا النفيسة التي كان يريد توزيعها عليهم

وصار المنشاوي كلما أراد أن يجيء القاهرة يرسل برقية إلى الاستاذ الامام بانه سيتغدى عنده يوم كذا ، وكان الاستاذ يدعوني لاحضر الغداء معهما ، ودعا حضرة احمد فتحي (باشا) زغلول فاجتمعنا في عين شمس وتكلمنا مع الباشا في مسألة

إنشاء المدرسة التي توجهت رغبة الامام اليها فقال أنا مستعد لتنفيذ ماتقررونه، ولكن بشرط أن تكون المدرسة خارج مدينة القاهرة «بلد الافيون والنزول» واختار أن يبنيها في أطيانه في بسوس ويشتري للمعلمين مركباً بخاريا (رفاصاً) ينقلهم إلى القاهرة كل يوم. وقد عرفته في تلك الاثناء فصرت أكثر الكلام معه في الترغيب في هذا العمل، ووصل خبره إلى الجرائد فطفقوا يذكرون المدرسة الكلية أو الجامعة بما يزيد في تشويقه اليه، وقد ألححت عليه مرة حتى اقسم بالله ليقومن من فوره لشراء قصر في شبرا لأحد الامراء، لينشيء المدرسة فيه موقتا الى ان يتم البناء، وقد فعل، ولكن لم يتفقا على الثمن

وفي يوم السبت عاشر شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر ١٩٠٥) كتب الى مجلس النظار كتابا يطلب فيه أن تبيعه الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجعلها وقفاً على مدرسة كلية يريد إنشاءها في ضواحي القاهرة، على أن يوقع عقد الوقفية في الوقت الذي توقع فيه المالية عقد البيع. وقد كلم الاستاذ الامام وكيل نظارة المعارف بأن يكتب إلى نظارة المالية توصية بان تجعل الثمن رخيصا جداً كعادتها فيما تبيعه للمدارس والاعمال الخيرية ففعل. وكلم الاستاذ نفسه مستشار المالية بذلك فوعده، حتى إذا ما انتهت الوسائل قضى الرجل نحبه في الاسبوع الذي عين فيه موعد العقد كما بينت ذلك في ترجمته من مجلد المنار السابع

الحج والزيارة ورؤية مواضع غزواته (ص)

كان من أكبر آماله أن يحج بيت الله الحرام، ويزور المسجد النبوي وقبره عليه الصلاة والسلام، ثم يزور جميع أماكن غزواته ﷺ ويضع خريطة للحجاز يبين بها مواضع تلك الغزوات، وكان المانع له من المبادرة إلى ذلك ما كان يعلمه من اساءة السلطان عبد الحميد الظن به بتأثير سعاية الجواسيس ولا سيما بعدما كان من أمرهم عند زيارته للآستانة فقد كان يرجو زوال ذلك ليكون آمناً على نفسه في أثناء أداء الحج وما يتبعه مما ذكرنا وكان يقدر لذلك أربعة أشهر

ولكن سوء ظن السلطان به كان يزداد عاما بعد عام، وصار الخطر منه بعدما كان من تغير الخديو على الاستاذ أكبر، إذ كثرت تقارير سعاة الشر المفسدين في الطعن فيه وتخويف السلطان به، حتى ان الاستاذ عند ما كان في مرض الموت، كانت حكومة

سورية تبحث عنه في سواحلها إذ بلغها من طريق الآستانة عن مصر انه عند ما انتقل من القاهرة إلى الاسكندرية كان يريد الذهاب منها إلى سورية لاجل عمل سياسي فيها

تأليف تاريخ للاسلام

لما فرغ من قراءة دلائل الاعجاز في الازهر كثرت عليه اقتراحات الطلاب والعلماء فيما يقرأ بعده ، واقترحت أنا عليه أن يشرع في تأليف كتاب في تاريخ الاسلام ويقرأه ، وكان الاستاذ الاكبر السيد علي البيلاوي شيخ الازهر اقترح عليه ان يقرأ تاريخ الاسلام إذ لا يقدر على ذلك غيره، فعززت رأيه بهذا الشرط وهو ان يؤلف هو التاريخ وكلما كتب شيئاً منه نطبعه ويشرع هو في قراءته، فالقراءة تتبع الطبع ، والطبع يردف التأليف ، فانشرح صدره لذلك وعزم عليه، ولكن حال دونه ما كان من الشغب السياسي الذي أثاره الامير وانتهى باستقالة صديقه شيخ الازهر المذكور واستقالته هو من الازهر وماولي ذلك من مرضه فوفاته، ولولم يخسر المسلمون بذلك إلا حرمانهم من هذا التاريخ لكانت خسارة لا يعرف كنهها إلا من يعلم ان المسلمين أحوج إلى هذا من كل كتب الكلام والعقائد، إذ ليس لدينهم تاريخ مدون على الاصول العلمية الحديثة ، التي ارتقى اليها الافرنج في هذا العصر، حتى انهم ألفوا في تاريخ لاسلام مالم يوجد له نظير في مؤلفات المسلمين كتاريخ سيديو الفرنساوي المسمى بخلاصة تاريخ العرب وقد بدأه بمقدمة فيما كانوا عليه قبل الاسلام ثم ذكر ظهور الاسلام وما كان من تأثير دعوته وفتوحاته فيهم وفي سائر العالم ، وما ترتب على ذلك من احياء جميع علوم العمران القديمة وترقية العرب لها ، على اختلاف أنواعها من رياضية وطبيعية وفلسفة وطب وصيدلة وآداب وفنون ، وما كان وراء ذلك من الحضارة وارتقاء العمران بالصناعة والزراعة ، واشراع طرق التجارة وغير ذلك . وكذا تاريخ حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون الشهير وقد تقدم ذكره وكان الاستاذ عهد الى أحمد فتحي (باشا) زغلول بترجمته فعزم على ذلك ثم توفى الاستاذ ولم يفعل (١)

(١) ترجمه بعد ذلك الاستاذ الكاتب المؤرخ محمد افندي مسعود الشهير ولما يطبعه

ومن المعلوم بالبداهة ان هؤلاء الافرنج لايفهمون الاسلام وتأثيره كما يفهمه أعلام المسلمين ، وأين في اعلام المسلمين مثل الاستاذ الامام ، فهو أوسع منهم اطلاعا على مادة تاريخ الاسلام والسيرة النبوية ، وأدق منهم فهما، فهو بعلمه هذا وعلمه بما كتب المسلمون وبما كتبوا هم بطريقتهم العلمية ، وبقوة ايمانه وسعة معارفه، أجدر من عرفنا بأن يكتب للاسلام تاريخا يبين حقيقته وتأثيره الروحي والمدني في اصلاح البشر ،ويثبت فيه بالتفصيل مانقلناه من رأيه في مستقبل الاسلام، ويكون خير معين على الدعاية الاسلامية ، فانه يكون أعظم تأثيرا وأعم نفعا من كتب العقائد كلها لاشتماله على ما فيها وزيادة ، و لقراءة كل الناس له وفهمهم إياه

﴿ جريدة يومية ﴾

كتبت في ترجمته التي نشرتها في المنار عقب وفاته في هذه المسالة ماياتي :

وكان في عزمه السعي لتأليف شركة تنشيء جريدة يومية في القاهرة تختار لها طائفة من الكتاب الاخصائيين يتقاسمون موضوعاتها فينفرد بعضهم في بيان ماعليه المصريون في المدن والقرى والمزارع من العادات والتقاليد والاعتقادات وما يطرأ عليهم من التغيير في ذلك ،وبعضهم في المسائل الاقتصادية والزراعية ، وبعضهم في الموضوعات العلمية والادبية ، ويوضع لهم قانون لايتعدونه ومن أحكامه الاقتصار في المسائل السياسية والاخبار الصادقة على ما فيه العبرة والفائدة لاهل البلاد ، وعدم المدح والذم الشعري ، وقبول الانتقاد على ما ينشر فيها من كل كاتب أديب ، ومنها أن يرجع في بيان جميع المصالح ذات البال إلى ما يقرره مجلس إدارة الجريدة بالمشاورة فلا يكون ماينشر فيها عبارة عن رأي رجل واحد ومثالا يتذبذب مع ميله وهواه ، ومنها أن لا تكون الجريدة خصما لجريدة أخرى.

كنت ممن يلح عليه بهذا السعي منذ سنتين واخترت لهذا العمل من الكتاب المجيدين المعتدلين من رضي بهم ، وكاشفنا كثيرين من الكبراء والفضلاء في ذلك، واخترنا منهم أعضاء لمجلس الادارة ، ووضعت تقريراً تمهيديا لانشاء المطبعة ونفقات العمل . ولو بقي الامام حياً لرجونا أن يبرز هذا العمل في هذا الشتاء ،وان خسارتنا بفقده لاعظم من كل خسارة

المقصد السابع

من الفصل السابع

أخلاقه وشمائله ومعارفه

أذكر هنا ما كتبته في ترجمته من المنار مع تفصيل وتنقيح إيضاح فأقول :

الاعمال ثمرات الاخلاق فما ذكرناه من أعمال الرجل يمثل بعض أخلاقه لانها بعض آثارها، وان وراء ذلك من أحاسن الخلال، وآيات الكمال، ماتقصر عن تمثيله جلائل تلك الاعمال، ولقد كملت للاستاذ الامام اصول الفضائل الاربع ، (العفة والشجاعة والعدالة والحكمة) وما نشأ عنها وتفرع ، وإننا نشرح بعض أخلاقه لتكون قدوة للمقتدين

عزة نفسه وعلو همته وتواضعه

طبع الله هذا الرجل على عزة النفس وعلو الهمة هبة ووراثة وتربية، وقد أدركه السيد جمال الدين الذي درج في حجر السيادة ، وترعرع في بيت الامارة، وهو مجاور في الازهر، ومنقطع الى التصوف ، يلبس قميصاً يبدو من أعلا جيبه صدره الاشعر ، وقد ارسل جمة كجمة الدراويش . فراعه من صاحب هذا القشف ماعنده من العزة والاباء ، وحفظ الكرامة ورقة شعور الشرف، وأكبر أن يكون هذا أثر التربية والتخلق في بلاد ساسها الظلم ، وتحكم فيها الجور المذلل للارادات المذل للنفوس . وكأنه سبق الى نفسه أن هذا أثر وراثة لأحد آبائه الاولين ، وانهم لابد أن يكونوا من الملوك والحاكمين، فقال له مرة أو مراراً « قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ » وهذا الخلق هو ركن الفضائل الركين ، وناهيك بقول الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وهو الباعث على جلائل الاعمال ، والحامل على الاستهانة بما بين يديها من الاهوال .

وقد يشتبه على كثير من الناس هذا الخلق الكريم ، بخلق الكبر الذميم ، ولذلك كان بعض الحاسدين والجاهلين ينبز الاستاذ الامام بهذا اللقب ولا سيما

عند ما كانوا يرونه مترفعاً عن الدهان والتملق للكبراء ، معرضاً عمن يعارضه في مقاصده وان كان من العظماء . ولو اختبروه ناظرين بعين الانصاف لرأوا حقيقة التواضع مع الرفعة كيف تكون ، ولرأوا كيف كان يخدم الفقير والمسكين ، ويتجافى جنبه عن مضجعه لاجل العفاة والمستفيدين ؛ ولكن الخديو كان يقول إنه يدخل عليّ كأنه فرعون !

مهابته ولطفه في المعاشرة

كان مهيب الطلعة ، وقور المجلس ، وهذه الصفات تشتبه بصفات المتكبرين ، ولكن من عاشره يرى من لطفه وتواضعه عن رفعة ، وأدبه وظرفه في ألطف حشمة ، وفكاهته بما دون الدعابة ، ما يعلم به انه كان له أوفر حظ من الوراثة المحمدية التي عبر عنها هند بن أبي هالة (رض) في حديثه المشهور في شمائل المصطفى (ص) بقوله « من نظر اليه بديهة هابه ، ومن عاشره معرفة أحبه » وما زلت أقول إن نسينا جميع فضائله فلن ننسى حلاوة عشرته ، وأنس محاضرته ، ولذة محاورته .

ومن دقائق ملاحظته في التواضع والادب انه كان يتحامى صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومحبيه ، وتلاميذه ومريديه ، فيستبدل بالامر الاستفهام والتخيير ، ويوسع للمخاطب العذر قبل ان يحتاج إلى الاعتذار ، ثم إذا أخلف معه يتناسى إخلافه فلا يقابله بلوم ولا عتب . أذكر من لطائفه في هذا الباب قوله لي مرة : انني أكون غداً في مكان كذا بعد الظهر فان ذكرت ذلك ووجدت فراغا وأحببت أن تراني فعلت . ذكر كل هذه القيود وأنا اعلم انه يريد أن أوافيه حتما ، ولولا ذلك لما تذكر لي انه يكون في ذلك المكان ولم يزد كعادته معي إذ كان يخبرني في يومه بمواقيته في غده .

سلامة صدره ، وصفاء قلبه

قد عرف رحمه الله تعالى بسلامة الصدر وصفاء القلب ، والحلم والصفح ، فما انتقم من مسيء ، ولا سعى في ضرر أحد قط ، بل كان يحسن إلى من أساء اليه : إذا استنجده أنجده ، وإذا استرفده أرفده ، وإن عاد إلى الاساءة سبعين مرة

كان بعض كبار علماء الازهر الوجهاء ، من أولي المناصب في القضاء ، قد انحرف عنه ، وكان من قبل زميلا له في طلب العلم ، فخاض فيه ، حتى عرف بأنه من شانئيه ، فاتفق لهذا الرجل أن صدر عنه ما أغضب الرؤساء الثلاثة عليه : الخديو

ورئيس النظار ولورد كرومر . فضاقت عليه الدنيا وضاقت عليه نفسه ، ولم يجد له وسيلة يلتحد اليها لارضائهم أو استمالة بعضهم اليه إلا زميله القديم ، فجاءه بعد إعراضه الطويل العريض، وقص عليه خبره،فطيب قلبه وطمأنه ، ولم يلبث أن طاف على الثلاثة وكلهم بما أرضاهم عنه في يوم واحد

تغليبه لحسن الظن وتغابيه عن الشر

كان على ذكائه وصدق فراسته يغلب عليه حسن الظن وبذلك رفع أناساً الى مراتب لم يكونوا أهلا لها ،والناس يعدون ذلك عليه ،ويغفلون عن عذره فيه، وهو ان من رفعهم ورقاهم كان لابد للاعمال التي رقاهم اليها من عاملين،فحسن الظن ببعض من يمكن أن يعهد اليهم العمل وناطه بهم ، فمنهم من ظهر بالاختبار ان ظن الخير فيه صادق فكان صالحا للخدمة شاكراً للصنيعة . ومنهم من ظهر بعد التجربة لؤمه، وتبين فساده وشؤمه ، فلم يصلح عملا ،ولم يشكر محسنا . ومن هذا الفريق من اساء إلى من أحسن اليه، وكفر حقوق المنعم عليه. ومنهم من أظهر الوفاء في وقت الرخاء ، وأظهر حقده وضغنه،عند الضراء والمحنة . وليت شعري ما حيلة الرجل الذي جبلت طينته على الاحسان،وتوجهت همته الى الخدمة العامة ، وقد نشأ في قوم فشا فيهم فساد الاخلاق،وقل فيهم الوفاء والاخلاص . أيمكن أن يقال له لا تُسدِ الى أحد معروفا، ولا تسعَ لاجل أحد بخير، الا بعد ان تجربه عدة سنين،فتعلم انه من المصلحين والشاكرين؟ كيف وانما يجرب الرجل بما يعهد اليه من الاعمال،وما يعامل به من البر والاحسان؟

وكان أهل الخبث والمكر من حاسديه يظنون أنهم يخدعونه بدهائهم ودهائهم، ولكن فراسته كانت تخترق صدورهم ، وتنفذ إلى سواد قلوبهم، ويقرأ في صحائف وجوههم الاولى ، مارسم على صحائف وجوههم الاخرى ، وإنما يقبل منهم ماأظهروا، ويتغابى عما أضمروا ،عملا بقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن) الآية وبما ورد في الخبر « اصنع المعروف إلى من هو أهله والى غير أهله ،فان أصبت أهله اصبت أهله ، وان لم تصب أهله كنت أنت من اهله » رواه الخطيب في رواة مالك عن ابن عمر (رض) وابن النجار عن علي (رض) وهذا ماأوصى به الاستاذ الناس في السودان كما تقدم، (ص ٨٨٨)وكان يعجبه قول أفلاطون: استصلاح العدو أحزم من استهلاكه

على أني لا أنكر أنه كان لسلامة قلبه يغيض أمام بعض من يعتقد إخلاصهم بما لا تسعه عقولهم، ويفضي إلى بعضهم بما تضيق عنه صدورهم، وأنه كان لمبالغته في الحلم يعفو عمن لا تعفو المصلحة العامة عنه، ويصفح عمن يقضي الإصلاح بالانتقام منه، وقد كان يكون هذا العفو والصفح مما يخفى على من عفا وصفح عنهم، كما كان يخفى عليهم الانتقام لو أنه انتقم منهم. ولعله لولا هذا الخلق لكان نجاحه أسرع وأتم، وإصلاحه أشمل وأعم. وقد تقدم في الكلام على عمله في إصلاح الأزهر أنه كان قادراً على الانتقام من أشد الناس مقاومة له فلم يفعل، (ص٤٩٤و٤٩٥و٥٥٦)

وقد وشى به مرة بعض من كان لهم صلة بلورد كرومر فذكروا له أنه يحابي في قضائه المسلمين على القبط، وذكروا أن ذلك وقع له مراراً في تلك السنة، فسأله اللورد عن ذلك فأثبت له أنه لم يتقاض عنده أحد من القبط في تلك المدة كلها، وإنما كانت جميع أحكامه على المسلمين، وأحضر له كشفا رسمياً بتلك القضايا كلها، فكبر على اللورد أن يكذب عليه هؤلاء الوشاة بما كان سبب خجله مع هذا القاضي العادل، وصرح له بإرادة الانتقام منهم، فبالغ الأستاذ رحمه الله في استعطافه وإرجاعه عن رأيه، بحجة أنه يكره أن ينتقم من أحد لأجله، فرجع عن ذلك. ويقال إن الوشاة عرفوا ذلك للأستاذ الإمام وحفظوها له منقبة من مناقبه ومنة له عليهم.

إيثاره للمصلحة العامة على الخاصة

كان يرجح في المصالح العامة أصحاب الكفاية والاستعداد على المحبين له والمتصلين به ممن دونهم. وقد سمعت صديقه منذ الطلب، وصاحبه بالجنب، (الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان) يعاتبه في هذا، ويصفه بأنه لا يعرف أعداءه... وذكر له رجلا منهم قدمه على غيره في منصب القضاء الشرعي، فأجابه: إنما قدمته لأنني أعلم أنه أحق بالترقية ممن قدمته عليهم، وأقدر على العمل منهم، ولو جعلته سكرتيراً لي وهو لا يحبني، لكنت جديراً بلومك لي، ولكنني لا أخون المصلحة العامة لهوى نفسي

ومن استقرأ أعمال الوزراء ورؤساء المصالح في هذه البلاد وأمثالها يرى أن كلا منهم يعنى بإيثار أهله وأصحابه ورجال حزبه على غيرهم، وإن كانوا خيراً منهم، وهذه الآفة شر الآفات التي تفسد الحكومات وتضعف الأمم.

وفاؤه لاخوانه وأصدقائه

كان من أشهر صفاته الوفاء لأصدقائه ، يهتم بشأنهم في السر والجهر ، والبعد والقرب ، والغيب والشهود ، بمثل مايهتم آباؤهم وأبناؤهم او أشد ، وكثيراً مايسعى في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير اليهم ، بأشد مما كانوا يسعون لأنفسهم . لهذا كان من أعجب الشعر اليه هـذا البيت الذي كان يضعه أمامه على مكتبه مكتوبا بخط جميل ، لانه يصور حاله مع أصدقائه أدق التصوير

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقد حضر في شبابه مجلساً من أترابه فتمنى كل منهم ماتسمو اليه نفسه من سعادة الدنيا ، فكانت أمنيته هو أن يكون له صديق وفي مخلص ينعم بمعاشرته

وما من صديق ولا محب له الا وكان آمنا من انحرافه عنه ، بل من توانيه في الانتصار له ، تأثراً بقول واش محّال ، او رهبة من كيد قوي ذي مِحال ، أو طمعا في جاه او مال ، وقد كان في وفائه هذا خير قدوة لمعاشريه والمتصلين به ، يربي نفوسهم بأخلاقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، فمريدوه ومحبوه الصادقون أشد الناس وفاء لمن يحبون ، وأعظمهم اخلاصا لمن يصطفون ،

وكان من وفائه لاصدقائه أن يحافظ على مودة ابنائهم وأحفادهم من بعدهم ، ويبذل جهده في مساعدتهم ، فقد كان أولاد صديقه المرحوم سليمان باشا أباظه عنده بمنزلة أولاده أو أخيه حموده بك الذي رباه منذ صغره ، وكذلك أولاد احمد بك محمود وجيه الرحمانية وآل الوكيل . وقد بينت أصل هـذه الصداقة بين هاتين الاسرتين وبينه في الكلام على عمله ورأيه في الثورة العرابية (ص ١٤٨)

قضى أحمد بك محمود شتاء بعض السنين في فندق (عدن بلاس) بالقاهرة في اثر عملية جراحية عملت له فكان الاستاذ الامام يزوره فيها بعد الخروج من الازهر في كل ليلة من ليالي الدرس ، فيمكث عنده مدة طويلة وكنت أذهب معه في الغالب كما كنت أصحبه في أكثر الليالي قبل ذلك وبعده . وقد حدثني في

أول ليلة صحبته فيها لزيارته بما كان من دفاعه عنه عند ما ائتمر به العرابيون لقتله كما ذكرته في موضعه ، وذكرت درجة صداقة سليمان باشا أباظه له في (ص٤١٧)

وفاء أصدقائه له وتفقدهم به

وكان أصدقاؤه الذين عرفوا وفاءه وسائر فضائله مغتبطين بصداقته ويعدونها من أفضل حظوظهم من هذه الحياة الدنيا بقدر إدراكهم لنعيم الحياة العقلية الروحية الادبية فيها ، ويودون لو يبذلون في سبيل مرضاته كل مايستطيعون من مال وعمل ، وكان ممن لم أدرك منهم هنا سليمان باشا أباظه وعبد الله باشا فكري وأمين باشا فكري (وكان هذا مريضا عند هجرتي إلى مصر وتوفي قبل أن أعرفه) وعلي باشا مبارك والشيخ علي الليثي وكان يذكر هؤلاء ذكراً حسنا . وكان من أصدقائه جميع اخوانه من تلاميذ السيد جمال الدين المخلصين ، وقد أدركت طائفة منهم ولما أنشأت المنار عهد إلي أن أرسله الى الاستاذ الصوفي الشهير الشيخ ابو شرقاوي في نجع حمادي من الصعيد الطيب والى الشيخ داغر القاضي الشرعي في الشرقية على أن لا يؤخذ منهما شيء من قيمة الاشتراك قال هذان صديقان لي وحسابهما علي ، أما الاول فهو من بقايا شيوخ الطريقة الصالحين المخلصين ، وأثنى على علمه ومعرفته بالتصوف[1] وأما الشيخ داغر فهو من خيار اخواننا تلاميذ السيد جمال الدين ، وهو فقير (وقد رأيته عنده بعد ذلك فاذا هو من خيار الصالحين) وأما أصدقاؤه ومريدوه الذين عرفناهم وعاشرناهم من العلماء والامراء والوجهاء في مصر وسورية فكثيرون قد مر ذكر بعضهم وسيأتي ذكر آخرين منهم ، وقد وعدت عند ذكر محمد بك راسم في الكلام على درسه الخاص أن أذكر عنايته به في مرضه الاخير فأقول :

لما نقل الى الاسكندرية لتمريضه فيها أنزله صديقه محمد بك راسم بدارهم في الرمل وكان أخوه الذي يسكنها مسافراً ، وهي من أجمل قصور الرمل بناءا

---

(١) وقد جاء مصر وزار أستاذنا فيها ولم يتح لي لقاؤه ولكنني حظيت بصداقة نجله وخليفته الاستاذ ابي الوفاء فكان من أفضل من عرفت وصادقت

وأثاثا ورياشا ، فجعل الدور العلوي له ولأهل بيته، والدور الاول للوافدين لعيادته والسؤال عنه، وللاصدقاء الذين يقيمون الليالي ذوات العدد عنده للقرب منه وتسليته، وما يرجون من الاطمئنان برؤية حاله ، وللخدم

وكان في كل طبقة من الدار حجرات للجلوس وللنوم وحجرة المائدة وحمام، وكان طاهي الدار يصنع في كل يوم عدة ألوان من الطعام التي لا يعهد مثلها إلا عند أرقى طبقات الاغنياء ، تزيد على حاجة كل من في الدار .

ثقل أمر هذه النفقة على أهل بيته فرجوا منه أن يرغب إلى محمد بك راسم في الاذن لحموده بك أخيه بتولي إحضار مادة الطعام، فقال لهم أنا أستحي أن أكله في هذا لانه يشق عليه أن يسمعه مني ، وهو يعلم بما عندي من دقة الشعور بشعوره واخلاصه واحتقاره لهذه النفقة ، ويكبرني أن أكله فيها ، ولكنني أعهد إلى السيد رشيد أن يتلطف في استئذانه بذلك معتذراً بمراعاة شعور كن النسوي ، وذكر لي ذلك وعهد إلي أن أبرئه هو من خطور هذا بباله ، قائلا : انني أعلم من نفسي انه لا يعد هذا شيئاً يصح أن يذكر بين الاخوان ، فانني لو علمت انك تحتاج إلى داري بما فيها لكان تركى إياها لك مما يلذ لي وترتاح اليه نفسي ، ولا أعده شيئا يذكر

فكلمت محمد بك راسم أحسن الله تعالى اليه وأكثر في الامة من أمثاله وقلت ان زوج الاستاذ الامام عصبية المزاج وكذلك أخوه حموده بك وقد ثقل عليهما وعلى بناته نفقة الطعام، وكلوه في ذلك، فقال لهم انه ليس لي لسان يستطيع ان يقول لمحمد راسم كلمة في هذا، فلما ألحوا عليه أحالهم عليّ ، وقال كيت وكيت ، فعظم على محمد راسم بك هذا الكلام وقال واجماً متألما: أي شيء هذا حتى يذكر؟ إن بذل الانفس والنفائس قليل في سبيل هذا الرجل العظيم، انني لا أعطي الطاهي إلا شيئا حقيراً وهو ثمن اللحم والسمك والخضر والفاكهة والربى ، وما عدا ذلك من السمن والعسل والحبوب فانها تأتي من كفر الجاموس (يعني مزرعة لهم بهذا الاسم)

قلت يقول حموده بك إن الطاهي والخدم يزيدون في ثمن الاشياء ، فاذا تولى هو الصرف يتلافى هذه الخيانة . قال وماذا عسى أن يزيدوا ؟ أيزيدون عشرة أو عشرين في المائة ؟ هذا ليس بشيء يذكر ، وهم في حل منه ، فأرجوك أن تقنع

حوده بك ليقنع الحريم بان الاستاذ والدنا ، وانه لا يليق أن يجري هذا الحديث بيننا

وأما وصف ثقة أصدقاء الامام به فمن أحسن ما سمعته فيه قول محمد حافظ (بك) ابراهيم : قال لي يافلان اننا لم نقع في حاجة إلى رفد الشيخ لنافي الرزق وضرورات المعيشة ، ولا في الدفاع عن حياتنا او شرفنا ، ولكننا نشعر في أعماق أنفسنا باننا بوجوده في أمنة من الحاجة ومن الظلم ، وان كل ماعسى أن نحتاج اليه نجده عنده ، فنحن لا نحسب مع وجوده حسابا لعدوان ولا حاجة ، او ماهذا معناه

ولكن حافظا خشي يوما أن يؤثر في نفس الامام ما كان يدبره بعض الناس من الدسائس والمكايد للتفرقة بيننا وبينه في أثناء سفره الاخير الى اوربة فتونس والجزائر ، إذ كان منهم من يكيد لي ومنهم من يكيد له ، وكان هو يتسقط أخبارهم ويكاشفني بها ، وقد قال مرة : أترى ياشيخ رشيد تروج هذه الدسائس لدى الاستاذ الامام ؟ قلت له انه لأجلّ نفسا وأسمى أخلاقا من ذلك ، ونحن إنما نجله لعلو نفسه ، وسمو عقله وأخلاقه ، فان فرضنا ان هذه السعاية الدنيئة أثرت في نفسه تأثيراً حمله على ترك مودتنا ونحن أخلص الناس في وده والتنويه بفضله والدفاع عنه ، فنحن نتركه غير آسفين ، إذ يظهر لنا بذلك اننا كنا في إجلاله مخطئين ، وقد أشار حافظ الى تلك الدسائس في القصيدة التي هنأه بها بعودته من ذلك السفر ، وقد نشرناها في المنار وسننشرها في ذيل هذا التاريخ ان شاء الله

وجملة القول انه كان أوفى الاوفياء لاصدقائه ، وكان له من الاصدقاء الصادقين مالم يتح بعضه لغيره ، قال له محمد حافظ ابراهيم ، ياسيدي ان لك أعداء كثيرين ، فأجابه ولم تذكر أعدائي وتنسى أصدقائي يا حافظ ! فهل تعلم ان أحداً له مالي من الاصدقاء ؟ قال اللهم لا ، وتأمل هنا حسن موقع قوله ياحافظ !

ثقته بالله دون الخلق

كان على ما علمنا من صفحه عن الاعداء ، وكمال الوفاء للاحباء ، والثقة بصدق بعض الاصفياء ، والاحسان بأولئك وهؤلاء ، لايخاف في طريقه إلى الاصلاح عدوا مبينا ، ولا يتكل فيه على الصديق وان كان ناصحاً أمينا ، وانما كان مستقلا برأيه مع الاستشارة ، مستقلا بإرادته مع الاستعانة ، واثقا بان الله

يؤيده ويسخر له الناس ، لاخلاصه لله وللناس، يستخدم في سعيه كل من استطاع استخدامه من موافق ومخالف، ووطني وأجنبي، ولكنه لا يعتمد في قلبه على أحد من الناس ولا يغتر باحد منهم .

كان في الناس من يظن أن السبب في شجاعته وقوة عزيمته في عمله ونفوذه عند الحكومة وادلاله عليها ، هو اعتماده على حزبه الكبير الذي يضم جماهير العقلاء والفضلاء والكتاب والادباء ، وفيهم من يظن أن سبب جراءته ومضائه واقدامه ثقته بتأييد الحكومة له وبالقوة المحتلة من وراء الحكومة . أما هو فكان يعتقد أنه لاحول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم بما وهبه من العزيمة والاخلاص .وقد كلمته مرة فيما يقال من ثقته بالحكومة ... فأقسم بالله انه يشعر بانه في هذا الوجود كالعريان الذي ليس له فيه شيء ، وانه لا يعتمد على شيء إلا على الله وحده وهو المسخر لمن يشاء. وقد تقدم بيان رأيه في الانكليز المستعمرين كمحتلي مصر (ص ٩٢٢) وأما رأيه في الحكومة المصرية في عهد الاحتلال فله فيه مقالة أملاها في أثناء مرضه ونشرت باللغة الفرنسية في بعض المجلات وفيها يلقب جماعة النظار (الوزراء) بجمعية الصم البكم ، ولعلي أعثر عليها فأنشرها في ذيل هذا التاريخ

صدقه وشجاعته

كان رضي الله عنه معتصما بحبل الصدق ، متحريا مايعتقد انه حق ، واذا تذكرت ان علة العلل لفشو الكذب في الناس هي شدة ظلم الحكام ، واستبداد أولي السلطان ، وان أكذب الناس أكثرهم قربا من الظالمين ، ومعاملة للحكام المستبدين ، علمت ان ملكة صدق اللسان ، لاتتربى إلا في حجر شجاعة القلب وجرأة الجنان ، ولولا شجاعته لما نادى بمقاومة الاستبداد ـ والاستبداد (كما قال) في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ولما حافظ على رأيه واعتقاده وان خالف العلماء والحكام ، وخالف الجماهير المعبر عن رأيهم بالرأي العام ،

هذان الخلقان ـ الصدق والشجاعة ـ هما شرطان للقدرة على الاصلاح، فالكذوب والجبان عدوان لله لايصلحان لشيء من الخير ولا يصلح بهما شيء . وان التزام الصدق في أمة فشا فيها الكذب ، واعتادت الدهان والملق ، من أشق الامور

على النفوس ، وأبعدها عن طاعة التهذيب ، لما له من الأثر في احفاظ القلوب ، والتأثير في إثارة البغضاء ، وتكثير سواد الاعداء ، وتنفير المحبين والاصدقاء ، فكيف يتكلفه المتكلف مع هذه المنفرات عنه ، والرغبات في ضده ، ثم كيف يكون ملكة نفسية ، لاتكلف فيه ولا روية ؟ لاتحسبن الامر سهلا فان الظهور بمخالفة اهواء العامة مما يجبن امامه الملوك القاهرون ، وينكمش دونه العلماء العاملون ، ولهذا يدهن الرؤساء للمرءوسين ، ويدهن المرؤسون للامراء والسلاطين ، فالصدق فيما لايرضي العامة ، أشد من الصدق فيما لايرضي الخاصة ، فما بالك بالصادق فيما قد يغضب الفريقين ، والصابر على الطعن من الجانبين ، أليس هو في مرتبة الصديقين ، التي تلي مرتبة النبيين والمرسلين ، ؟

وقد ذكرت في الكلام على دروس الاستاذ الامام خلاصة خطابه الذي ألقاه في الجامع الازهر في حفلة ختام درس المنطق وفيه ان الشجاعة الادبية هي التي تعتق الافكار من رق التقليد، فتكون حرة مطلقة العنان في ميدان العلم، جديرة بالسبق إلى معرفة الحق وبيانه، وان من فقد هذا الخلق لاينتفع بعلم المنطق ولايكون أهلا للاستدلال، فلايكون عالما مستقلا في علمه حق الاستقلال (راجع ٧٦١)

رأيت الاستاذ الامام في النوم بعد موته بايام فقال لي : إن الله تعالى أعطاني مقعد الصدق او قال: انني في مقعد الصدق. فتذكرت كلام الشيخ محيي الدين بن عربي في مقام الصدق وحال الصدق ، ومنه ان صاحب حال الصدق يكون كثير الظهور بالولاية والكرامة كثير الدعوى بحق ، ـ كعبد القادر الجيلي ـ وصاحب مقام الصدق أعلى وأكمل ، ويكون في الولاية مجهولا لايعرف، ونكرة لاتتعرف، ـ كأبي السعود بن الشبل تلميذ عبد القادر ـ وتذكرت جهل الناس بمقام الاستاذ الامام ، في الولاية والعرفان ، احتجابا بمظهره الدنيوي ومعارفه الكونية ، عن مرتبته الروحية ومعارفه اللدنية ، واستيقظت وعلى لساني قوله تعالى (ان المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر)

وبعد بضعة أشهر من وفاته كتب إلي الاستاذ الشيخ احمد محمد الالفي من طوخ القراموص كتابا جاء فيه مانصه :

ولمناسبة ذكر الاستاذ الامام أخبركم برؤية منامية حصلت لي معه وهي ـ رأيت كأني في قرافة مصر في يوم عيد ومعي بعض الاخوان فعرضت عليه زيارة قبر الاستاذ الامام فامتنع فتوجهت بنفسي اليه فرأيت حوشا جديداً مبنيا عليه باب ذو ضرفتين فاستأذنت من عنده بالدخول فأذن لي فدخلت على مكان القبر وسلمت على من فيه فاهتز القبر لذلك وانفلق عن الاستاذ الامام فاذا هو شيخ موقر ابهى من هيئته التي كان عليها في الدنيا ، وبعد أن رد علي السلام اومأ إلي كأن أقبله فقبلته ، ثم قلت له مافعل الله بك ؟ فأجابني بجواب لا أفهمه اولا وثانيا فقلت له سأكرر السؤال حتى أفهم الجواب فقال — أعطاني مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ فقلت له في اي مقام أنت؟ فأجاب ـ في مقام الصديقية . (وهذه الاجابة كانت لها مناسبة نهاراً إذ جاء ذكر فضيلته بين بعض الاخوان وبيني فقال (هل هو ابو بكر الصديق؟) فقلت نعم انه صديق زمانه)

ثم قلت للاستاذ الامام ماذا ترى حالي ؟ فقال حسن (ولكن لا يضر الناس ـ يعني المسلمين منهم ـ إلا أخذ الربا وأكله) انتهى

هذا ـ وإن ما ذكرناه من الشجاعة في التزام الصدق ، والمجاهرة بنصرة الحق ، هو ما يعبر عنه كتاب العصر بالشجاعة الادبية ، وانت لا تجهل ان من لا يهاب في الحق صولة الحكام ، ولا يخاف طعن الخواص والعوام ، فهو جدير بان لا يخيفه الحسام ، ولا ترهبه السهام

كاشفني رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده مرسله فيه بالقتل اذا هو ظل مسترسلا في عمل نسب اليه[1] ورأيته غير مبال به ولا مكترث له ، فقلت له إن لك أعداء لا يخافون الله ، وانك تجيء دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة عن العمران ، فلو نظرت في ذلك . فقال أو أنت تقول مثل هذا ؟ انني لم أهنيء نفسي الى الآن بأنه وجد في وطني من تجرأ علي بكلمة « أخطأت » ، أفأخاف ان يتجرأ احد منهم على محاولة قتلي؟

وسألته مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لص في الليل أتطلق عليه الرصاص

(١) هو ما اتهم به باطلا من مشايعة الحكومة في مسألة المحاكم الشرعية وتقدم شرحها

من هذا المسدس - وأشرت الى مسدس معلق بسرير نومه - فقال لا يجوز إطلاق الرصاص في البيت فانه يزعج النساء والعيال، وليس عندي للص الا القبض عليه والاخذ بقوف رقبته :

وكان في سن الشباب يسير مع والده ليلا في خلاء من الريف فهجم عليهما صائل من قطاع الطريق بيده نبوت مستدير الرأس فيه مسامير كبيرة من الحديد رفعه ليضرب به أحدهما فسبقه الولد بضربة خر بها صريعا ويظن انه مات وأغذا هما في السير

وخرج هو وبعض أصدقائه في بيروت في بعض أيام الآحاد للتنزه في حدائق (انطلياس) من ضواحيها في لبنان وهو المكان الذي يصفى فيه ماء النهر ويدفع إلى مدينة بيروت ، وفي أيام الآحاد يكثر هنالك المتنزهون ، فبينا هو يدخن بشيشته (النارجيلة) مع أصحابه أقبل شاب من دعار النصارى الذين يدلون بالفتوة والشجاعة ووضع لفافة من التبغ على رأس شيشته فأشعلها بنارها ، وهذا يعد احتقاراً في عرفهم ، فأخذ الاستاذ الشيشة وضربه بها في صدره ، فتداعى كثير من شبان النصارى والمسلمين للتناصر والنجدة، وكادت تكون فتنة ، ولكن وقى الله شرها

فشجاعة الاستاذ الامام بنوعيها كانت تحتدم في بعض أوقات الغضب فتخون حلمه وأناته ، فيخاطب أمير البلاد على مسمع كبار العلماء بمثل ماروينا عنه في (ص ٥٧٣) ويقرب منه قوله لوزير الحقانية وهو رئيسه في إحدى ليالي رمضان بقصر عابدين وهو يحاوره في مسألة قضائية على مسمع من كبار رجال القضاء وغيرهم : يظهر ان سعادة الباشا لا يستوفى حاجته من النوم في هذه الايام فيظل فكره متعباً - يعني انه لهذا لم يفهم المسألة ! بل صرح بما يفيد هذا المعنى . فما كان ينتقده على السيد جمال الدين من الحدة لم يكن بمنجاة منه ، ولكنه كان دونه فيه وقد تذاكرنا مرة في هذا الموضوع فقال لي إن السيد كان يقول لي إن في جيبك قرداً يخرج في بعض الاحيان . وقد تقدم فيما كتبه الامير شكيب من سيرته في بيروت انهم لم ينتقدوا من أخلاقه إلا شيئا من حدة المزاج (ص ٤٠٤)

انصافه فى الرأى والعلم والحكم

كان من خلائقه الانصاف في الرأي والعلم، كالانصاف في الحكم، والبعد عن المكابرة، في المذاكرة والمناظرة، فلم يكن يزدهيه الغرور والاعجاب، بسعة العلم وكثرة الصواب، ولا كان يصده الاعتراف له بالامامة في العلم والدين، عن الرجوع إلى رأي أحد التلاميذ والمريدين، فضلا عن العلماء والعارفين، بل كان رجاعا للحق إذا ظهر له، يحترم فهم غيره ورأيه، وهذا الخلق عزيز في العلماء، لاسيا ذوي الشهرة والجاه، ومن طلب آية على هذا فليرجع الى ما كتبه الامام الغزالي عنهم في بيان آفات المناظرة من كتاب العلم في الاحياء، فاذا علم بما كان يجري بينهم والعلم حي والأمة عزيزة — ومن لوازم ذلك الانصاف — فما ظنه بهذا الخلق في خلف لم يبق لهم من عزة سلفهم إلا الفخر بها، ولا من علمهم إلا الحكاية عن قلدهم فيه.

من آيات انصاف أستاذنا ورجوعه الى الحق ما هو مدون في مواضع من المنار. من ذلك ما نشرناه له في تفسير (وأما السائل فلا تنهر) إذ اختار قول بعض المفسرين — وهو الحق — أن المراد بالسائل من يسأل عما يجهل ويطلب التفقه في الدين، وذكر فيما كتبه في تفسير جزء (عم) ان لفظ السائل لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين، فظن بعض من قرأ ذلك ان قوله يفيد ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى طالب المال. فذكره رجل مستنير من عمد البلاد[1] بقوله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) فحسب بادي الرأي انه أخطأ فيما كتب، فأرسل إلي ورقة صغيرة يصرح فيها بتخطئة نفسه، وكلفني طبع عشرة آلاف نسخة منها بعدد ما طبع من كتاب تفسير «جزء عم» لتلصق بنسخ التفسير، وأمر الجمعية الخيرية بأن تمسك عن بيع الكتاب حتى تطبع الاوراق وتلصق بنسخه، وكتب بيانا لذلك وأرسله إلي لأنشره في الجرائد، فرجعت إلى الجزء فرأيت عبارته صحيحة إلا انها مبهمة ليست كالمعهود في بيانه، فراجعته في ذلك ولم أطبع البيان، فعاد الى التأمل في العبارة ورجع الى مسودات

(١) هو صديقنا المرحوم الشيخ عبد المؤمن موسى الذي تقدم ذكره في (ص ٩٢٩)

تفسير الجزء فتذكر انه ما كتب تلك العبارة في السائل إلا وهو ذاكر لما توهموا انه ينافيها من قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) وقوله تعالى (والسائلين وفي الرقاب) ثم كتب ما كتب في إيضاح العبارة واعترف بما فيها من الابهام ، واستغفر الله من العود الى مثله ، وقد نشرنا ذلك في ص٨١٥ من المجلد السابع من المنار فليرجع اليه من شاء

هذا مانشرته في ترجمته من المنار بشأن انصافه في العلم وأزيد على ذلك هنا انه كتب إلي يومئذ و كان موعوكا في فراشه مايأتي :

ولدنا حضرة الشيخ رشيد رضا

وقع سهو في تفسير سورة (والضحى والليل) حيث ذكرت ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى الفقير مع انه ورد في سورة الذاريات و (سأل سائل) فأحب أن يعرف ذلك ويكتب في بعض الجرائد حتى لايتعرض متعرض آخر للهذيان في موضوع مثل هذا ٢٨ دسمبر سنة ١٩٠٤ محمد عبده

وأرسل مع هذا ورقة فيها تصحيح مفصل لهذا السهو فوجدت فيه الوقفة التي أشرت اليها ووقفة أخرى لانه كتب في حال مرض وكدر شديد لاشتداد المرض على صديقه الاستاذ الشنقيطي الكبير وما جاءني الكتاب الا وكان الشنقيطي قد قضى نحبه ، وواريناه لحده ، فكتبت اليه مايأتي :

مولاي

جهز فقيدنا الشيخ محمد محمود (الشنقيطي) رحمه الله تعالى وشيع ودفن على السنة التي تحبها له ولغيره كما كان هو يحبها ، فأحسن الله عزاءك ، وعزاء العلم والفضل ومحبيهما بك ، وقد بشرني أخي محروس افندي بان صحة مولاي على أحسن ما كانت أمس ، ولولا ذلك لماصبرت عن المجيء إلى عين شمس

ثم اني أردت أن أبيض ما كتبتم في مسألة (السائل) ففطنت لامر لم يخطر ببالي أمس ، اذ كنت تصفحت المكتوب على عجل ، وهذا الذي خطر لي الآن هو ان عدم جري سنة الكتاب باعتبار لفظ السائل عنوانا للفقير والمسكين لا يظهر جعله علة او سببا لامتناع كون ذلك اللفظ في الآية لطالب الصدقة –

فكون السائل هو المستفهم عما لا يعلم لا طالب الصدقة ظاهر في نفسه، وكون لفظ السائل لم يرد عنوانا للفقير والمسكين ظاهر أيضا . ولكن هذا العطف الذي يفيد السببية والتعليل غير ظاهر لي (١)

فهل أكتب النبذة وأنشرها في الجرائد على وفقتي في العبارة وأنتظر اللقاء لتظهروا لي بالقول مالم يظهر لي من الكتاب؟ أم أرجيء النشر انتظاراً لبيان آخر منكم؟

أنتظر الجواب غداً بواسطة حموده بك او محروس افندي . والامر لمولاي حفظه الله ٢٥ شوال سنة ١٣٢٢ ولدكم

محمد رشيد رضا

فكتب إلي على الجانب الآخر من كتابي مراده من عبارة التفسير وكتب بعده مانصه : « فاذا شئت أن تضيف شيئا من هذا على ما كُتب فافعل واختر موضعه . وعبارة التفسير فيها اجمال جر الى تأليف حاشية كهذه ، فأستغفر الله مما صنعت فيها ، وأرجو أن لا أعود الى مثلها »

وأعني بنشر هذا انه رحمه الله تعالى فوض إلي أن أزيد فيما كان كتبه أولا شيئا من معنى ما كتبه أخيراً على جانب كتابي ، وأن أضعه في الموضع الذي أراه لائقا به مما كتبه أولا وأنشره بامضائه ، وهذا من تواضعه وانصافه من نفسه، وإذنه لتلميذه الموثوق به عنده أن يتصرف في كلامه . وحينئذ كتبت الموضوع وزدت فيه ما رأيته وبيضته وعرضته عليه فأمضاه فنشرته في المنار (ص ٨١٥ من المجلد السابع) وفي بعض الجرائد

ولما طبعت الجمعية تفسير جزء عم ثانية في مطبعة المنار بعد وفاته رحمه الله تعالى وضعت فيه هذه الحاشية عند تفسير الآية ، مع تصحيح ألفاظ أخرى

(١) أصل عبارته في تفسير الآية (وأما السائل فلا تنهر) :والسائل هو المستفهم عما لا يعلم وليس هو طالب الصدقة فان هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين » الخ فالاشكال في العبارة محصور في قوله « فان هذا اللفظ الخ أي في عطفه على ماقبله بالفاء المفيدة للسببية . وعدم وروده كذلك لا يظهر كونه سببا لوجوب جعل السائل بمعنى المستفهم عما لا يعلم . وقد قلت له أنت كثيراً ما تكون سائلا تطلب المال من الاغنياء للفقراء والمنكوبين وللجمعية الخيرية

قليلة وقعت خطأ في الطبعة الاولى وأمر هو بتصحيحها. ثم طبعته الجمعية مرة ثالثة فحذفت منه الحاشية اذ اعتمدت على الطبعة الاولى، وهذا من غرائب الاهمال المبني فيما يظهر على المبالغة في حسن الظن بتصحيح المطبعة الاميرية، فلعل الجمعية تنشر الحاشية وتعتمد في التصحيح على طبعة مطبعة المنار، عند اعادة طبعه إذ هو يطبع مراراً كثيرة

وأبلغ من هذا في إنصاف الاستاذ الامام وعنايته بتصحيح العلم الذي ينسب اليه انه عند إلقاء ذلك الدرس العام او المحاضرة في العلم والتعليم في حاضرة تونس كتبه بعض من حضره وعرض عليه فصححه ونشر في جريدة الحاضرة المشهورة هنالك، ولما أردت طبعه في المنار قلت له ان ما نشر في تونس غير معتنى بصحته فأذن لي بتصحيحه وتنقيحه عند نشره في المنار، وقد صرحت يومئذ بهذا الاذن، وهذه فضيلة له قلما يشاركه فيها أحد من العلماء المشهورين في هذا العصر وان لم ترتق شهرتهم إلى أدنى درجات شهرته العالية، وقد نقل عن الامام الغزالي انه أمر تلاميذه بتصحيح ما قد يقع في كلامه من غلط في اللغة العربية لانه لم يبلغ الغاية منها

وأبلغ من هذا وذلك ما كان من انتقاد الاستاذ الشيخ محمد محمود الشنقيطي على رسالة التوحيد واعلان الاستاذ لهذا الانتقاد في مجلس الدرس في الجامع الازهر مع الثناء على المنتقد، وقد نشرنا ذلك بوقته في المجلد الاول من المنار (٤٦٥ طبعة ثانية) في أثناء مقال عنوانه (انصاف العلماء) وهذا نص المراد منه:

« هل أتاك حديث علماء الآخرة وأنصار الحق وما كان من شأنهم تلقاء « رسالة التوحيد » قرأ الرسالة العلامة المحدث الذي انتهت اليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار لاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب والمخضرمين، ألا وهو الاستاذ الفاضل الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، فتوقف في بعض الحروف وبعض المسائل منها، فولى وجهه شطر بيت الاستاذ المؤلف حتى اذا ما جاءه طلب منه أن يقرأ الرسالة معه فقرأها في يومين، وتذاكرا فيما توقف فيه، فأزال له الاستاذ المؤلف بعض ما أشكل عليه واعترف له بالاصابة في بعض ما انتقده، وانتهى الأمر بشكر كل منهما الآخر. ومن حسن أخلاق الاستاذ المؤلف واعترافه بالحق وشكره عليه أنه قص هذه القصة على تلاميذه في

الجامع الازهر، وأثنى لهم على أخلاق الاستاذ الشنقيطي وعلمه ودينه ، وقال هذه هي مزايا العلماء . وأما الانتقاد الذي اعترف المؤلف فيه المنتقد بالاصابة فهو نحو قوله « دعيت لتدريس » وكان ينبغي أن يقول « دعيت الى تدريس » فسبق القلم، هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فسألة البحث في خلق القرآن . انتقدها الشنقيطي بأن فيها مخالفة لما التزمه المؤلف من سلوكه في العقائد مسلك السلف، قال والسلف لم يبحثوا في هذه المسألة. فاعترف له المؤلف بذلك وقال إنني خالفت في هذه المسألة بخصوصها الشرط لاهميتها واشتباه كثير من الناس فيها».

وذكرت بعد هذا تقريظ الشنقيطي للرسالة بقصيدة علمية وانشاده اياها في مجلس الدرس من الازهر ، ونشرت القصيدة برمتها وسأنشرها في ذيل هذا التاريخ كما وعدت إذ ذكرت هذا التقريظ في سياق الكلام على مؤلفاته . وقد كتب الاستاذ في حاشية نسخة الرسالة التي قرأها في الازهر بوجوب حذف تلك الجملة منها في الطبعة الثانية . وكذلك فعلنا فلم نذكرها في شيء من طبعاتنا

جوده وسخاؤه

لاحاجة الى إطالة الكلام في جوده وسخائه فانه صار فيه على اكتنامه الصدقة وإخفائه البذل أشهر من علم ، وعرف الناس كثيراً من البائسين والعجزة الذين كان يعولهم ويوصيهم بالكتمان . ولم يكن في أيام السراء ، أبسط يداً منه في أيام الضراء ، لقيه صاحب له من المصريين المنفيين في بيروت فقال له إن والدي قد توفي وليس لدي ما أنفقه في تشييعه، فأعطاه كل ما كان يملكه من النقد وهو راتبه الشهري من المدرسة السلطانية كان قبضه ولم ينفق منه شيئاً، ولكن الله أخلف عليه بما لم يكن يحتسب فقد كان له دين عند رجل في مصر يلويه ويمطله به أيام كان يتقاضاه وهو يراه، فيستحي منه ويخشاه، فما مر يوم أو يومان على بذل جميع ما في يده، وايثار صديقه على عياله، حتى آذنه مصرف (بنك) في بيروت بأن حوالة برقية جاءت باسمه من مصر ، وإذا هي دينه على ذلك الرجل (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وكان إذا وفر شيئاً من النفقة

صرفه في سبل البر ، كان يدخن باللفائف المعروفة (بالزنوبية) بعد بالنارجيلة (الشيشة)، ثم ترك التدخين بها وجعل ما كان ينفقه فيه صدقة . وكان لبعض أولي الحاجة من اهل المروءة والستر رواتب شهرية فرضها على نفسه وكان منهم الاستاذ الشنقيطي ، والشاعر الاديب الشيخ عبد المحسن الكاظمي. ولما رتبنا أوراقه وحاجه عند السفر الى الاسكندرية وجدت في صندوق الجلد الصغير الذي توضع فيه الاوراق المالية والامانات صرراً من النقود مكتوبا على كل منها اسم من يراد إعطاؤه إياها. وقد سألني عن الكاظمي مرة في الاسكندرية فذكرت له ان عليه ديناً فقال لو اخبرتني بذلك قبل أن يتصرف ح‍ودة بالنفقة التي كنا نعدها للسفر (هي مائة جنيه) لأرسلتها اليه.

غيرته على الملة والامة

لعلي لا أحتاج الى التنويه بغيرته على ملته وأمته، فان بذل حياته كلها في السعي لتربية الامة على هدي الدين وآداب الملة ، لم يكن إلا أثراً من آثار هذه الغيرة، فالدليل وجودي على عرفه القريب والبعيد ، واعترف به العدو والصديق، ولكنني أذكر في هذا الباب شيئاً لايعرف نظيره إلا بعض أصفيائه ، الذين لم يغب عنهم شيء من أحواله .

جئته مرة في رمضان (سنة ١٣١٥) بعد الظهر على موعد فقيل انه نائم ولم يكن ينام في مثل هـذا الوقت بل كان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحور إلى أن يصلي الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس، فمكثت ريثما استيقظ فسألته ماأنامه ؟ قال مامعناه أرقني الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء ببعدهم عن دينهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وقوي سلطان الفكر فهاج المجموع العصبي ونبهه تنبيهاً شديداً، حتى حدثتني نفسي بأن أنزل إلى حيث يكثر اجتماع الناس كالموسكي والازبكية فأقف في الطريق أو تجاه أحد مجامع اللهو (كالمقاهي) وأنادي أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه ؟ وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلا منه حتى تقلدتموه ؟ ثم أخطبهم في حقيقة ماهم فيه ، وأنذرهم عاقبة ماهم عليه ،وأبين لهم طريق النجاة منه . وقد عالجت النوم،

-فلم أملك منـه شيئاء فلجأت الى الكتابة وما كنت لأكتب في الليل فجرى القلم بفصل جملته في أواخر فصول رسالة التوحيد . فثابت إلي بعد ذلك نفسي، وران النوم على عيني ، ولكن الليل كان قد آذن بالرحيل،وجاء وقت السحور، فلم أنل منه نيلا ،فكانت هذه النومة في النهار عوضاً عما فاتني في الليل (١)

أقول قد عرف من سبق له قراءة رسالة التوحيد ان الفصل الذي كتبه في تلك الحالة هو الفصل الذي عنوانه (انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ) وما يليه من التفرقة بين الاسلام والمسلمين ، ولعمري إن ذلك الفصل لقول فصل . وما هو بالهزل ، أملاه على كاتبه الالهام ، حتى كاد يكون معجزة من معجزات الاسلام . وقد قال في أوائله :

« ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان، ولقي من أعداء أنفسهم أشد مايلقى حق من باطل ، أوذي الداعي ﷺ بضروب الايذاء ، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمنظرها المستيقنين ،ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب، وهي ذوب مافسد من طباعهم،فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون)

«تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له إلا انه الحق بين الاباطيل،والرشد في ظلمات الاضاليل، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بانواع المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا » الخ

(١) تقدم ذكر هذه الحادثة في (٣٠٥) بمناسبة أخرى وما هنا أصح

وجئته مرة في داره بعين شمس (سنة ١٣٢١) و كان قد وعك غداة يومه فرأيته ينظر في ثلاثة كتب عربية يقرأ المسألة في كل منها فسألته مابك وما هذا الذي تنظر فيه ؟ فقال هو التهيج العصبي الذي يلمّ بي أحيانا من الفكر في الامور العامة ، وهذه كتب في أصول الفقه ألهو بمباحثها عن القرآن، فانني اذا فكرت فيه رأيت بُعد المسلمين عنه فيقوى هذا التهيج العصبي ،ولم أجد شيئا يشغل الفكر مثلها

مروءته ونجدته

قد اشتهر بكمال المروءة والنجدة ، بأعلى مما اشتهر بالسخاء والصدقة ، فان السخاء ببذل المال انما يكون بقدر ثروة الانسان ولم يكن الاستاذ الامام من أرباب الدثور . لم يكن يملك إلا راتب وظيفته وهو لايفي بنفقاته العادية إلا بالتدبير والاقتصاد ، وكان له قليل من الارض في بلده ترك استغلالها لاخوته ، وانما أكثر صدقاته ، من آثار مروءته ونجدته ، يقصده المحتاج فيكتب له وصية الى بعض الاغنياء الذين لايردون وصيته كالأمير حسين كامل، أو يذهب هو بنفسه فيطلب منهم. وكان يصمد اليه كثير من طلاب الوظائف في الحكومة وغيرها من المصالح والدوائر الغنية أو طلاب الترقي فيها ـ ومن طلاب المساعدة على كشف المظالم ، اضعاف من يلجأ اليه لطلب المال ، فما كان يخيب رجاء أحد فيه ،إلا أن يكون مبطلا ينتصر على ذي حق ، أو ظالما يلبس ثوب مظلوم . وقد كانت شهرته بالنجدة والمروءة مما يشغله عن أعمال أنفع منها ، ولكن طبعه يأبى عليه أن يرد شيئاً منها وهو قادر عليه . ومن الشواهد عليها ماتقدم من انتدابه لارضاء الخديو واللورد كرومر ورئيس النظار في يوم واحد على من التجأ اليه في ذلك .

لايزال في الناس كثير من أهل المعروف والمروءة ولكننا لانعرف أحداً لايشك من يعرفه في نجدته إياه إذا عراه خطب بكل مايقدر عليه في نفسه او في تأثيره عند غيره كما كان يفعل هذا الرجل لمن يلتجئ اليه ولصديقه من تلقاء نفسه

ثباته على الحق واستقامته

كان هذا الأوّاب الرجاع الى الحق، جبلا راسخا في الثبات والاستقامة على الحق، لا يتزلزل في أخلاقه وآدابه، ولا يتحول عن مقاصده وأعماله، إلا اذا ثبت له انه أخطأ في شيء. وكان لا يقدم على العمل إلا بعد الروّية والتدبر، والبصيرة والتثبت، وقد كان السيد جمال الدين يقول فيه هو كالفلك لا يتغير، قال هذا بعد ما غاب غيبته في بلاد المشرق ثم عاد إلى أوربا ورأى فيها جماعة ممن كان يعرف من المصريين قد تغيروا عما كان يعهد من مبادئهم كأزيائهم، الا الشيخ محمد عبده فانه لقيه كما تركه خلقا وزيا، وخلقا وأدبا، وعقلا ورأيا، وعلما وعملا، ووفاء وثباتا، إلا ما آتاه الله من المزيد في العلم، والحصافة في الرأي

كان أخلص اخوانه ومريديه يرثون لما يكابده في سبيل اصلاح الازهر من العناء ويأسفون على اضاعة وقته الثمين فيما يعتقدون انه عبث لا يفيد، فيجمعون على لومه وتثبيطه واقامة الحجج على استحالة اصلاح هذا المعهد حتى يقتنع، ويحسبون انه ترك، فاذاهم يرونه في اليوم التالي قد عاد إلى عمله انشط ما كان وأشده هما واهتماما، فقال بعضهم لبعض في غيبته اننا لنعجب أشد العجب من الاستاذ في علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بان عمله هذا تعب غير مجد ثم يعود اليه؟ فقال لهم اعلمهم بحاله وهو سعد زغلول ان الامر ليس باختياره وانما هو شعور وجداني بأنه مسخر لهذا العمل او ملهم به من الله تعالى، فهو لا يستطيع تركه

أخبرني الاستاذ نفسه هذا الخبر، ثم ذكره لي سعد باشا نفسه إذ طالبته يوما باصلاح الازهر في عهد رياسته للحكومة مع زعامته للامة. قال لي إذا كان الشيخ قد عجز عن اصلاح الازهر على ما آتاه الله مما لا ندرك شأوه فيه علما وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل؟ قلت انه كان معارضا من الامير ومن الشيوخ، وانت لا يعارضك أحد، قال إن العلة في نفس المكان هو غير قابل للاصلاح، فذكرت له ما رواه لي الاستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه، قال هذا صحيح ان عمله كان وجدانا دينيا لا اختيار له فيه.

عادته وزيه

وأما عاداته فقد كان يخالف فيها علماء هذه الديار ـ يخالفهم فيما يكره شرعاً أو عقلا كتطويل الاردان وتوسيعها وجر الاذيال ، فكان زيه أقرب إلى زي علماء سورية منه إلى زي علماء مصر الا العمامة : جبة وقباء من ذوات الزيق للرقبة كما يراها الناظر إلى رسمه الشمسي ومن ذوات الالوان غير البهجة فلم يكن يلبس الاحمر بأنواعه ولا الاخضر ولا الاصفر ولا الحرير ذا اللمعان المعروف بالقطني وكل ذلك مما يلبس العلماء الموسرون في مصر. وكان يكره كسوة التشريفة (الرسمية) ويستحي منها في نفسه ، ولما كان صهره محمد بك يوسف مقيما بدار وراء قصر عابدين كان يضعها عنده فيلبسها أيام الاعياد عنده ويدخل بها القصر ويحضر الحفلة الرسمية ثم يخرج فيخلعها عنده ، وفي أيام الشتاء يضع فوقها العباءة والشال الكشمير حتى لا ترى ، ولو لا الضرورة لما لبسها ، ولما حضر الحفلات الرسمية

وكان يكره أن تقبل يده بل يصافح الناس مصافحة ، وقد منع الازهريين عن تقبيلها بعد الدرس كعادتهم . وما مدها لي لتقبيلها إلا مرة واحدة : وكان قد جاء من سفر فتأخرت عن عادتي في المجيء للسلام عليه مع الفوج الاول من المسلمين أو قبلهم فتلقاني بباب الدار قائلا « قلت ان السيد قد أبطأ » فأقبلت على يده بلهفة وشوق شعرت بمثلهما منه ، فمدها لي خلافا لعادته ، فشعرت منه بحنان أبوي خفق له قلبي ، ولا أنسى لذته الروحية ماحييت

وكان يحتذي النعال المدنية التي تسمى (الجزمة) دون سائر العلماء فينكرون عليه ذلك فيما بينهم ، ثم كثر المقتدون به من شبابهم فكهولهم ، وكان يركب الخيل حتى انه كان يذهب إلى المحكمة وإلى الازهر راكباً فرساً ، ثم ترك ذلك بعد الانتقال من القاهرة الى عين شمس . وقد قيل له انه لا يليق بكبار العلماء امتطاء الخيول ، فقال بل يليق بهم أن يكونوا كالغانيات يجرون الذيول ، ويتوكئون على السواعد عند الركوب والنزول ، ونطق بالكلمة المصرية « ستي هانم »

وكان يحب المشي على قدميه حتى انه اذا تأخر في درس الازهر بحيث علم

انه فاته موعد القطار الذي يصل الى عين شمس في آخر الساعة التاسعة ليلا وهو موعد عشاء الاسرة يقول لي قد فاتنا القطار فهل لديك مانع من المشي ؟ فاذا قلت له لا ، قال هلم . فنمشي من الازهر الى المحطة أحيانا وإلى مادوتها أحيانا..

ومن عادة علماء الازهر ان من يصير منهم شيخاً للازهر أو مفتياً للديار المصرية يبادر حالا إلى شراء عربة يركبها ويرى انه لا يليق به ركوب عربات الاجرة ، وقد قلت له مازحا: مابالك تركب عربات الأجرة وتمشي أحيانا مخالفا سنة الشيوخ ؟ فقال ان هؤلاء وأمثالهم من أصحاب مناصب الحكومة الكبيرة يرون انهم يكبرون في أعين الناس بهذا ، وأما أنا فانني لو صرت خليفة للمسلمين لما استكبرت عن عربات الأجرة ، ولا عن المشي عند الحاجة

ومشينا مرة من الازهر قاصدين محطة سكة الحديد ، فلما جاوزنا شارع الموسكي مال الى دكان فاشترى منها قليلا من البسكويت وطفق يأ كل منه بلطف بعد خروجنا من السوق . فقلت له مازحا : أمفتي الديار المصرية يأكل في الطريق؟ قال : أما قرأت انه قيل لديوجين الفيلسوف: لماذا تأكل في الطريق؟ فقال لانني أجوع في الطريق . ونحن قد فاتنا عشاء الدار الآن فنكتفي بهذا

أما طعامه في الدار فكان من أنفس الطعام وأنظفه، وأما أواني المائدة فكانت من الوسط في جنسها . ولم يكن نهما ولا مغرما بلذة الطعام بل كان يقول ان من ضعف الانسان ونقصه حاجته الى الطعام كل يوم، ولوددت لو أمكنني الاستغناء عنه

وقلت له مرة انني عودت نفسي التقشف بترك أطايب الطعام اختياراً، وبالنوم على الارض أحيانا ، وأردت أن أعودها احتمال الوساخة تربية لها على قشف الصوفية فلم أستطع الصبر . فانني اذا عرقت ولم أغير ثيابي يبقى صدري ضيقا حرجا . قال وأنا كذلك .

وكذلك كان فرش داره ، وسرر النوم فيها من الحديد الوسط ، ولكن حشاياها ومخداتها وملاءتها كانت من النسيج الابيض في أعلى درجات النظافة كان هو يعني بالنظافة من صغره وقد ذكرت هذا من قبل. ثم كانت زوجه الشامية من آل حماده من أكبر بيوت بيروت متنطعة في النظافة الى درجة الوسوسة .

خلقه ومزاجه وأمراضه

كان ربع القامة، أسمر اللون مع وضاءة، عظيم الهامة في اعتدال، عالي الجبهة، كبير الدماغ، أسود العينين براقهما، كأنهما مصباحان أو شرارتان بارز الوجنتين، أقنى العرنين واسع الفم، منظم الاسنان، جهوري الصوت، أشعر الذراعين والمنكبين والصدر، عصبي المزاج عضليه، ممتلىء الجسم في غير ضخامة، قوي البنية. فاجاءه مرة حصان جامح فدفعه بيديه في صدره فرده إلى الوراء حتى أقعى أو كاد وحاول بعض رفاقه من مجاوري الازهر أن يشغله عن المطالعة في الليل ليلعب معهم بالورق فرماه بالارض ووضعه بين ساقيه وضغطه بهما، فلم يستطع التفصي حتى كان هو الذي أطلقه باختياره — ولكن عرض اله ما أضعف هذه القوة الخارقة للعادة منذ سن الشباب، فكان سبباً لما كان ينتابه من الامراض

ذلك بأنه ظهر له خراج تحت إبطه في سن الصبا فلم يبال به حتى كبر وتحول الدم فيه إلى صديد، وكان كعادته يركب الخيل ويطيل الجري عليها في الشمس حتى أقعدته الحمى بل ألقته في الفراش، فامتص دمه ذلك الصديد السام فغاب عن الادراك أربعين يوما. وقد تمثل له عند بدء سريان السم في بدنه رجلان واقفان في باب الحجرة التي نام فيها في يد أحدهما غرارة (زكيبة) وأمام الآخر شيء كالحشيش فأخذ قبضة منه ووضعها في الغرارة فشعر هو بأن شيئاً قد دخل في ساقيه، ثم وضع فيها قبضة أخرى فشعر بأن شيئا قد دخل في فخذيه، وهكذا كان كلما وضع قبضة شعر هو بدخول شيء في جسمه حتى إذا ما بلغ صدره كانت الغرارة قد امتلأت وغاب شعوره فلم يدرك بعدها شيئا قط حتى إذا تم له أربعون يوما عرق عرقا شديداً فاض منه على فراشه فكاد يغرقه، ففتح عينيه وعاد اليه شعوره وقد ذكر هذا التسمم الصديدي بعد ذلك لكثير من الاطباء فقالوا له ان النجاة منه والحياة بعده تعد من النوادر التي تقرب من خوارق العادات. وكان يعاوده تأثير ذلك السم في موعده من كل عام فيمرض مرضا ثقيلا أو خفيفا، ثم حسنت صحته بالسكنى الخلوية في عين شمس — إلا الرثية (الروماتزم) فقد كانت تصيبه في يده حتى يضطر في بعض الليالي إلى رفعها طول الليل، ولم ينفعه علاج إلا صبغة اليود، واظب على أخذ نقط معدودة منها في نصف كوب من الماء بعد كل طعام — وهو لمن واظب عليه خير دواء

المقصد الثامن

(من الفصل السابع)

مذهبه في الاصلاح والتجديد ، ومذهب السيد جمال الدين

كان السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من أكبر مظاهر قول النبي ﷺ « إن الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » [١]

وقد قال المحققون من العلماء في معنى الحديث ان التجديد لا يكون لعلم واحد ولا في عمل واحد ، وان قوله ﷺ « من يجدد » عام يصدق بالقليل والكثير فقد يكون في القرن الواحد مجددون كثيرون منهم المجدد في علم التفسير والمجدد في الحديث وإحياء السنة ، والمجدد في تنقيح علوم الفقه واللغة ، ومنهم المجدد في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الاسلام وتقوية ملكه

وقد شرع هذان المجددان الحكيمان في مصر بنوعي التجديد السياسي والعلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد الذي اشتدت اليها حاجة الامة، ثم اقتصرا على التجديد السياسي في أوربة بمساعدة جمعية العروة الوثقى التي أسساها لهذا الغرض وأنشآ باسمها تلك الجريدة العربية التي هزت العالم الاسلامي كله هزاً ، وكادت تدعّ الشرق إلى الثورة دعًا ، فزلزلت الدولة البريطانية زلزالا شديداً ،وقد تقدم وصف ذلك مؤيداً بالبراهين والشواهد

ثم تفارقا فاشتغل كل منهما بما خلق ميسراً له، فكان رأيه تبعاً لميله واستعداده، وكل منهما ضروري لابد منه ، الاصلاح والتجديد من طريق السياسة، والاصلاح والتجديد من طريق التعليم والتربية ، وإن شئت قلت تجديد الامة باصلاح الدولة، وتجديد الدولة باصلاح الامة، لابد من كل منهما ، وكل منهما يفضي إلى الآخر، ولكن الاول أدنى وأسرع، والثاني أثبت وأدوم وقد تقدم شرح عملهما المشترك

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة

وعمل كل منهما في محله (راجع ما كتبه الاستاذ عن دعوته لكل من الاصلاحين في ص ١١ و ١٢)

كان بين الرجلين من التشابه الفطري ، والتعارف الروحي ، والاستعداد العقلي ، ومن التربية الصوفية ، واستقلال الفكر في طلب العلم ، ومن علو الاخلاق ، ما كان سبباً لاتصال كل منهما بالآخر منذ تلاقيا في خان الخليلي اول ليلة ، ذلك الاتصال الذي عرف به كل منهما قدر الآخر معرفة لم تتفق له مع غيره من كل من عرفا من المعجبين بهما والمستفيدين منهما . وهذا شيء قد عرفه كل من عرفهما

وكان بينهما اختلاف في ثلاثة اشياء هن سبب اختلافهما في مسألة السياسة التي ذكرناها في مواضع من هذا الكتاب : الاسرة والامة والحكومة . يضاف اليها ماتقتضيه من كبر الامل وعلو الهمة

نشأ السيد جمال الدين في أسرة من أشهر بيوت شرف النسب وشرف الحسب ، في عاصمة أمة عزيزة النفس ، شديدة البأس ، لم تذل لحاكم ولا لأجنبي ، وهي تعظم آل البيت النبوي تعظيم العبادة ، في حكومة كان ذا مقام كبير في بيت إمارتها ، وركناً من اركان الزعامة لاحد الوارثين للحكم فيها ، وهو الامير محمد أعظم خان ، كما تقدم بيانه في ترجمته

ونشأ الشيخ محمد عبده في بيت من بيوت فلاحي مصر في قرية صغيرة ، في ظل حكومة مستبدة ، تحتقر الفلاحين وتظلمهم ، وقد أصاب اسرته شيء غير قليل من الظلم حتى هاجر والده عبده خير الله من قرية محلة نصر من مديرية البحيرة الى مديرية الغربية فاحتمى بآل المنشاوي واعتزوا هم بشجاعته ، حتى ان الحكومة طلبته من محمد بك [أو مصطفى بك] المنشاوي فأنكر وجوده عنده زمنا ، حتى إذا ما اتهمته الحكومة بالعبث في مسالة القرعة العسكرية وحبسته امكنها أن تقبض على عبده خير الله وتحبسه بتهمة اخرى

فلئن كان بيته اوجه بيت في قريته فهو لم يكن من بيوتات الوجاهة في الامة ولا عند الحكومة ، وأمته نفسها لم تكن لها عزة ولا مكانة لدى حكومتها أيضاً ، وما اوتيه من عزة النفس الفطرية كان دون ما اوتيه السيد جمال الدين ، كما كانت

الوراثة والتربية المغذيتان لغريزة السيد في الافغان ، الناهضتان به الى الآمال الكبار ، الحافزتان له إلى مقاومة ظلم الامراء والملوك وإصلاح الدول أو إسقاطها — على الضد من الوراثة والتربية المغذيتين لغريزة الشيخ محمد عبده في مصر — فبهذه الاسباب الثلاثة كان استعداد السيد الحسيني الافغاني للعمل السياسي اقوى من استعداد الشيخ الفلاح المصري

فلما جاء السيد مصر ونفخ من روحه في هذه الغريزة الشريفة، سار صاحبها معه في كل خطوها خطاه لقلب نظام الحكم الاستبدادي في مصر ، وإقامة نظام نيابي في مكانه ، حتى إذا ما نفي السيد من مصر قال كلمته المشهورة انني تركت لهم الشيخ محمد عبده فهو يتم ما بدأت به

ولكن الشيخ نفي بعده إلى قريته (محلة نصر) لكيلا يشتغل في حزبهما الوطني لاتمام العمل السياسي (الذي كان توفيق باشا أقسم للسيد أغلظ الايمان - إذ كان ولي العهد - على تنفيذه لبرنامجه في إنشاء الحكومة النيابية وتعميم المعارف اثم التنفيذ) نفي فأطاع الامر ، واذ لم تمكنه الحياة في الارياف عاد إلى مصر فكان يمكث عامة نهاره في دار المرحوم رفاعة بيك يتمتع بكتبه ، ويدخل القاهرة في الليل متنكراً ولم يعمل عملا سياسياً

ثم اشتغل في وزارة رياض باشا بالاصلاح الداخلي وتوسل بنفوذه في المطبوعات إلى اصلاح التعليم في وزارة المعارف ، ولما ظهرت بوادر الثورة العرابية كان مقاوما لها وفاقا لميله الغريزي لاخوفا ولا جبناً ، حتى إذا ما استعان الخديو توفيق باشا بالاجانب على وطنه طفق يساعد الثورة على علمه بضعف استعدادها وعدم امله بنجاحها ، كما تقدم شرحه ونصوص مذا كرته فيه

ثم لما دعاه السيد بعد نفيه من مصر إلى العمل معه في جمعية العروة الوثقى لتهييج العالم الاسلامي والشرق على الدولة البريطانية والسعي لاجلاء الجيوش البريطانية من مصر او ترك السودان ، أجابه ، وكانت بلاغته في ابراز افكار السيد الثورية هي التي أثارت تلك البراكين التي وصفنا تأثيرها في موضعه ، ولما لم يفد كل هذا يئس الشيخ من العمل السياسي الذي كان استعداده له مستمداً

من روح السيد، ورجع إلى ميله الغريزي وهو الاصلاح من طريق التربية والتعليم، لتحرير العقل وإعادة هداية الدين ، فكان ما كان من عمله في بيروت ثم في مصر

كل هذا كان امراً حسناً في نفسه ، ولكننا لم نوافق استاذنا على تخطئته لاستاذه بالاشتغال بالسياسة ، وعارضناه في اول مرة فاه فيها بتخطئته ، قائلين إن طريقة السيد اسرع من طريقتكم وكلاهما ضروري

كان استاذنا يائساً من ملوك المسلمين وامرائهم، ورؤسائهم من الباشوات وامثالهم، وزاده يأساً منهم فشل أستاذه في الاصلاح السياسي من قبلهم، مع اعترافه له بانه اعلى منه همة وأشد تأثيراً ، وان روح كلامه يؤثر في كل من سمعه في كل موضوع كلمه به . لهذا تمنى لو وجه هذه القوة الروحية العليا إلى بعض اولي الفطرة السليمة والقلوب النظيفة من الامة ، واودع فيها ما أوتيه من الحكمة الدينية والاجتماعية والادبية، بذلك اللسان الجذاب الخلاب، الذي أوتي فصل الخطاب

وجوابنا عن هذا ان استاذنا كان فصح من استاذه لسانا وقلما ، ولا يقل عنه في العلم ، وانما هو دونه في قوة التأثير ، وقد سلك طريق التربية والتعليم التي يفضلها، ولكنه اقي من مقاومة اولي السلطان مثل مالقي استاذه منهم في طريقته السياسية ، ولم يكن تأثيره في إيقاظ الامة واصلاحها اقوى من تأثير استاذه ،

فثبت بهذا ان عمل كل منهما كان ضروريا لابد منه

لقد كانت الشعوب الاسلامية كلها مسبوتة لا تحس ولا تشعر بما يمزقها ويفرقها ويعرقها ، بل كان الشرق الادنى والاوسط على اختلاف ملله ونحله في ظلمات حالكة لا يبصر مايحل به . فكان السيد هو الذي نفخ فيه روح الحياة مبتدئا بالافغان فالهند فمصر فالترك فايران ، ولولا جهل ملوك الشرق وتصرف الاجانب في ملوكهم وأمرائهم تصرف المالك بالمملوك والراعي بسائمة الانعام، لاحيا هذه الممالك كلها حياة طيبة مباركة، صارت بها من الدول القوية والامم العزيزة

وقد وصفت في مقصورتي الرشيدية (١) حال الشعوب الاسلامية ومصابها بملوكها

(١) هي مقصورة عارضت بها مقصورة ابن دريد الشهيرة، وتقدم ذكر أبيات منها

وعلمائها ومرشديها، ووصولها بجهلهم وسوء تصرفهم إلى اليأس من الحياة وكيف نفخ فيها روح الرجاء . وما كان لوارث حكمته في عهده ، وخليفته من بعده ، من تعاهد أحد نوعي الاصلاح ، بما أثبت بهما أنهما كانا المجددين للامة في هذا الزمان ، وان مافعلا بها كان منتهى مافي الامكان ، فاذكر منها أبياتا متفرقة في معنى دعوته الاصلاحية ثم ماقلته فيه وفي الاستاذ الامام

قلت بعد ذكر الملوك المستبدين ، والعلماء المنافقين ، والمرشدين الخرافيين :

أولئكم سادتنا الذين قد ضلوا السبيل وأضلوا من قفا (١)
والامة التي استذلوا يئست من نفسها فهي تردى في الردى
لولا صياح منذر أهاب : أن هبي وعر عينيك فامسحي الكرى
قد طلع الصبح فقومي وانظري مافعل المستيقظون في الورى (٢)
لا تيأسي لشدة الضغط فقد يحدث الانفجار تجميع القوى
وانما تلك قواك جهلت فعطلت حينا فكانت كالهبا
وصاح بالملوك والسادة أن حسبكم من الشقاق مامضى
قد كاد ان يحاط يا قوم بكم ويسرع الزوال فيكم والفنا
فبادروا للاتحاد بينكم ورأب صدع الشعب من غير ونى
لا يرتقي الشعب بلا علم ولا حياة للعلوم إلا باللغى (٣)
والشعب إما يتحد فانه يخلع من يظلمه خلع الحذا
أليس باجتماع ذرات الهبا كونت الارض وكانت السما
فقوة الشعب له ذاتية وقوة الظالم منه تقتنى
فجنده منهم ومنهم ماله فهو بايديهم وايدهم بغى

***

ذاك جمال الدين فيلسوفنا وتلكم دعوته التي دعا

---

(١) أي قفا أثرهم واتبعهم (٢) مضمون هذين البيتين جملته في فاتحة العدد الاول من المنار . وعزوي إياه الى السيد الحكيم كغيره عزو مضمون لاعزو عبارة (٣) اللغى جمع لغة وأصلها لغوة ـ فهو كغرف جمع غرفة

(والنجم) يهتدى به (اذا هوى) (ما ضل) في دعوته (وما غوى)
فان يكن ذلك للاستبداد في فارس طوداً كان شامخ الذرى
فان ركن الظلم في الترك أبى حكمته وسعيه الذي سعى
ومن أبى الكتاب والميزان لا يقدعه الا الحديد يمتهى (١)
او تجعل النار له قذائفا تقوّض الصروح من أعلى الذرى
أنفذ أهل عصره بصيرة وغير أهل عصره ممن مضى
إلا من اختار العليم واصطفى فيما له اختار الحكيم واصطفى
يخترق الحجب شعاع رأيه فيشهد المحجوب كلما رنا
كأنما الغيب لديه حاضر إذا ارتأى كان كانه رأى
ألم ينبيء باهم ما جرى في فارس ومصر قبل ان جرى(٢)
أصدق من زمانه عزيمة وعزمه أمضى نصالا وشبا
ان فُل صارم الزمان او خبا ما فل عضب عزمه ولا نبا
وان خبا زند له (٣) في قدحه أورى زناد رأيه وما خبا
وان خوت نجومه في نوئها جاءك نوءه بريّ وحيا
عنه سلوا مصر وذلك الرجا تنبئكم الآثار ثم والصدى(٤)

(١) يمتهي يحدد ولك ان تقول إلا الحسام ينتضي أي يسل والاول هو الموافق للاقتباس من الآية (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ومعنى البيت أن من لم يكن له وازع نفسي من هداية كتاب الله ولا رادع قضائي من ميزان العدل في شرع الله فلا يمنعه من ظلمه إلا قوة الحديد يعاقب بها على ظلمه

(٢) إشارة الى قوله في أمته الافغانية فيما نشره من تاريخها بمصر « تلك الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة الباس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الخضجر ، المبتلى بجوع البقر والاستسقا ، الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من النفوس ، ولم ترو مياه الكنج والتيمس بل فغر فاه ليلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون » يعني الانكليز، وكان عدد أهل الهند وقتئذ مائتي مليون (٣) اي للزمان

(٤) إنما أشرنا الى مصر اشارة البعد لاننا نظمنا المقصورة في سورية في ايام طلبنا للعلم . ثم زدنا فيها بمصر بعض ماهنا وماتقدم من عمل الاستاذ الامام في الازهر

بل ثم من ينبئكم بما رأى … بعينه وما رواه فوعى
إذ جاءها الحكيم وهي دنف … أعضل داؤها وأعوز الدوا
تمد خير من تولى أمرها … من اصلح التربة والماء الروى
وأفسد الانفس فهي عنده … بهم تساس بل تساق بالعصا
أرهقها من أمرها العسر بما … أفسد من روح الإباء والتقى
قد أبسل الظلم والاستبداد من … ساكنها كل مضيم مزدرى
لا عالم الشرق بدينه ولا … مقتبس العلم من الغرب هدى
فذا أجير للامير علمه … له ومنه واليه يبتغى
وذاك غافل ومغرور بما … يحذقه من المراء واللخى(١)
فليس فيهم كاتب مؤثر … يدني يراعه اليك ما نأى
ولا خطيب فيهم مفوه … يختلب القلب ويبعث الأسى
ولا سياسي يروض الصعب من … مشاكل السأو ويأسو إن سأى(٢)
ولا حكيم يحمل الفرقان في … غياهب الخطب إذا الخطب غسا(٣)
فتلكم مصر وذاك داؤها … إذ جاءها الآسي فطب وأسا
وأشرع الطريق للاصلاح من … علم وحكم ولسان وحجا
بما أفاض من دراري حكمة … قد زانها فصل الخطاب ونثا(٤)
في خطب يحيي القلوب صدعها … ويكشف الخطب ويبعث الرجا
وفي دروس كتب أحيا بها … من دارس العلوم ما كان عفا
وفي أمالي بها أنشأ من … معالم الانشاء ما كان امحى
يقبسهن في ثُباً (٥) من داره … مريده والشمس ردأ الضحى
ثبا له ينحوه أهل الرشد ما … بين ثبات وفرادى وثنى
وفي كؤوس سمر يديرها … في سامر (البورصة) ما الليل سجا(٦)

(١) اللخى كثرة الكلام في باطل (٢) السأو الشعب، ويأسو يداوي، وساء الشيء مقلوب ساءه بمعناه (٣) غسا اظلم (٤) نثا الحديث أشاعه والشيء أشاعه (٥) الثبي بالضم المجلس الذي يضم الاكابر (٦) سامر البورصة مقهى في حي الازبكية

لا لغو في شرابها يخشى ولا ... غول فيغتال الجسوم والنهى
تنازعوها حيث لا تنازع ... صرفا بأفواه العقول تحتسى
تحلقوا لها على مائدة ... لا يشتكى لها صدى ولا طوى
يغذوهم سياسة وحكمة ... وغيرة سأى بهن فشأى(١)
أجفل إذ دعا اليها الجفلى ... ازهرهم فأصبحت كالنقرى(٢)
فما مشى شيخ اليها الخيزلى ... إلا عدا فتى اليها الهيدبى(٣)
لكنما حتا إليها من ذأى الشـيوخ منهم ففاز واغتيا(٤)
سل العلا والمجد عن تاريخه ... يقصه المجد عليك والعلا
فكم سما من المعالي منبرا ... ليس يسامى فتعالى من برا
مالي وما لعاذلي في حبه ... فقد أضل قومه وما هدى
أذكر من كماله فينثني ... يشكر من يحسن منه المشتكى
ذلك شاني مع شانيه إذا ... أريته البدر يريني السها
هيهات ما تساويا وان حكت ... صرح القوارير فقاقيع الحجا(٥)

***

ثمت بالاصلاح قام بعده ... مريده الوارث كل ما حوى
من حكمة تكشف أحلاك الدجى ... وغيرة تأكلت فيها الجذى
وهمة ان جردت لحادث ... تريك أسرار تصاريف القضا

(١) سأى في سيره عدا وركض وسأى الشيء نواه وقصده. وأما شأى القوم بالمعجمة فسبقهم (٢) الجفلى الدعوة العامة الى الطعام. والنقرى الدعوة الخاصة لبعض الناس (٣) الخيزلى والخوزلى مشية فيها تثاقل وتراجع ، والهيدبى ضرب من سير الخيل (٤) حتا حتواً عدا عدواً شديداً ، وذأى الرئيس مرءوسه طرده واضطهده . واغتيا بلغ الغاية. ومعنى الابيات الثلاثة ان السيد دعا إلى مائدة علمه دعوة عامة فاجفل الازهر من دعوته فانقلبت خاصة ، مشى اليها بعض الشيوخ متثاقلا وهرول اليها جماعة من الشبان عدواً . وقد سبق الجميع اليها من اضطهده الشيوخ ففاز و بلغ الغاية القصوى في العلم والحكمة ، وهي اشارة الى الاستاذ الامام الذي اضطهده الشيخ عليش وغيره (٥) الحجا بالفتح جمع حجاة بمعنى الفقاقيع وهي نفاخات الماء الصغيرة المستديرة كامثال القوارير . والابيات تعريض بالشيخ ابي الهدى

إذا تحدت الحسام المنتضى   أعيا مضاؤها الحسام المنتضى
وصدق اخلاص غدا يفيض من   جوانب القلب فيملأ الحشا
من كان منه المقول الذي حكى   والقلم الذي بعضه جرى
تآزرا لينقذا الامة من   فرعونها الذي استبد وعلا
تآخيا لينقذا الاسلام من   دجاله الذي يدعه غلا
قد ورثا موسى وهارون بما   تآخيا والمصطفى والمرتضى
واعتصما (بالعروة الوثقى) فذا   حرر ما أملاه ذاك وارتأى
وهل يتيح الله مثل (عبده)   (محمد) لها إماما مقتدى
واقتسما الاصلاح شطرين فذا   آثر إصلاح العلوم والحجا
وذاك للسياسة التي قضى   بها وأما وطراً فما قضى
كادت وما كاد لها السيد بل   أعرض عن مكر الجهول ونأى
لانستجيب الحية الرقطاء لا   حكمة لكن لا تخاديع الرقى
وليتها ودعت الشيخ كما   ودعها اذ عاذ منها وقلا(١)

نتيجة الاصلاحين والتجددين

نتيجة ماتقدم ان السيد الافغاني والشيخ المصري ، هما اللذان جددا الاسلام بعملهما في السياسة والتربية والتعليم الاسلامي ، وأيقظا الشرق كله فهب للحياة والاستقلال القومي، وكان حظ مصر منها أكبر من حظ غيرها، لطول اجتماعهما وعملهما المزدوج فيها

وقد ظهرت فيها ثمرة العمل السياسي، أكبر وأوسع انتشاراً من ثمرة العمل العلمي التهذيبي على انقطاع الثاني له في سنيه الاخيرة، فان بذرهما لنواة الحكومة النيابية وانشاءهما الحزب الوطني له، وتخريجهما الكتاب والخطباء الذين يتعاهدونه، مازالت تقوى حتى اذا تم شرط ظهوره بعد اربعين سنة بانتشار الشعور العام في

(١) اشارة الى قوله « أعوذ بالله من السياسة » الخ

نابتة جديدة من الشعب نهض الشعب فلم يجد قطبا تدور عليه رحاه إلا أحد تلاميذهما (سعد باشا زغلول) فسلمه قياده ، وظهر مصداق قول الاستاذ الامام: اذا تم تكوين أعضاء الجنين ظهر فيه الرأس ، ولم يعد يصدق على المصريين قوله: يا ويح الرجل الذي ليس له أمة

ولكن هذه النهضة السياسية لاتزال ناقصة مايكفل نماءها وزكاءها وبقاءها. وهو نهضة الثقافة التهذيبية التي انحصر جهاد الامام الاخير فيها ، وانما الخطر الاكبر على مصر من ضعفها باجماع العقلاء فيها ، وهي لا تتم إلا بالتربية الدينية التي هي قوام الفضائل وحفظ البيوت من الانحلال بالفسق والاباحة، وانما سبب ضعفها كثرة الأعداء المهاجمين لها من الاجانب الطامعين ، وملاحدة الوطنيين، وكثرة عباد الشهوة الاباحيين ، وفساد وزارة المعارف تبعاً لفساد الحكومة بتأثير التربية المادية الاجنبية ، وفوضى الازهر وجموده. وقد تمت أركان هذا الاصلاح العلمية ، وإنما ينقصها زعيم قوي ينهض بها بثورة دينية سلمية كالثورة السياسية ، أو بتأييد الحكومة لها

ولو بقي الاستاذ الامام حياً إلى هذا العصر الذي جعل جلالة ملك مصر فيه ميزانية الازهر والمعاهد الدينية ثلث مليون جنيه ، وأمكنه اقناع هذا الملك في كهولته ونضوجه بمثل ماأقنع سلفه الخديو في شبابه من الاصلاح ، لامكنه إحداث أعظم انقلاب روحي تهذيبي في مصر يتبعه فيه الشرق الاسلامي كله، وتضطر أوربة وسائر شعوب الحضارة إلى اقتباسه لتعتصم به من خطر الفوضى المادية التي تتقاذفها أمواجها ، وترى حضارتها عرضة للغرق فيها

على ان الاستاذ الامام لايزال موجوداً بوجود علمه مدونا، ورأيه في التجديد مبينا، ووجود تلاميذه في الازهر وغيره أضعاف ما كان له في عهد حياته الجسدية . فوسائل إتمام النهضة الثقافية المطلوبة موجودة ، ولم يبق إلا النقطة الاخيرة التي يكمل بها الضغط فيحدث الانفجار ، وعسى أن يكون قريبا

الطعن على الحكيمين المجددين

من سنن الاجتماع التي أثبتها التاريخ ان الناس إذا ألفوا شيئا وجروا عليه بالتقليد زمنا طويلا فان التعصب له يصير من الوجدانات الطبيعية لايقبل الجمهور في انتقاده أو الدعوة الى تركه أو مخالفته حجة ولابرهانا لا من العقل ولا من الدين ولا من المصلحة ، وإنما يقبل ذلك الافراد بعد الافراد ، بحسب تفاوت الاستعداد ، فاذا صار هؤلاء الافراد جماعة قوية من الامة سهل عليهم نشر ما يدعون اليه، وضعف الاعراض والصد عنه بقدر ما يبذلون من القوة والحكمة في الدعوة اليه ، ولا سيما إذا كان حقا

وهذا ماوقع للحكيمين مع علماء الازهر وأمثالهم ، جاء السيد جمال مصر في سنة ١٢٨٨هـ(١٨٧١م) فألقى في عقول الناس وجوب البحث في الاسباب التي أضاعت ملكهم واستذلتهم للاجانب على قاعدة قوله تعالى (ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وأثبت لمن أصغى إليه ان مافي أنفس جماهير المسلمين اليوم من الدين والعلم والاخلاق غير ما كان عليه سلفهم ، وانه يجب لتلافي ذلك تغيير نظام العلم والتربية في الازهر وغيره — فكان ذلك طعناً في علمهم وتعليمهم لايمكنهم الاعتراف به ، فلم يبق إلا الطعن على مقرره

أول مايخطر ببال الذي تخطئه او تلومه في دينه او مذهبه او رأيه او عادته انك تحتقره ،فيبادر بغريزة حب الذات الى الدفاع عن نفسه، وإذا كان الموجه اليه اللوم والانتقاد او الدعوة إلى غير ماهو عليه جماعة اوشعباً بادر افرادهم الى التعاون على الدفاع عن انفسهم ومجاهدة المخالف لهم بما يستطيعون من حول وقوة ،في حق أو باطل ،وصدق او كذب، وان شدة زعمائهم في ذلك تكون على قدر مالهم من المنافع المالية والجاه فيما فيه الاختلاف، وشدة عامتهم ودهمائهم فيه تابعة لشدة الرؤساء والزعماء فيمايصورون لهم من جناية المخالف لهم وعدوانه على دينهم في الدرجة الاولى وعلى دنياهم في الدرجة الثانية

وروايات التاريخ عن تعصب اهل الاديان والمذاهب في الدين الواحد بعضهم

على بعض مشهورة يتخذها الملاحدة حجة على ذم الاديان وزعمهم انها ضارة للبشر مغرية للمداوة والفتن والحروب بينهم ، والدين الحق لا يأذن بالحرب الا لمنع الفتن ورفع الظلم . والملوك والرؤساء انما هم الذين اتخذوه وسيلة لذلك وقتا ما، كما اتخذوا الجنسية والوطنية له في وقت آخر ـ وكذا اختلاف المذهب في الدين الواحد ، وما كان ينبغي أن يقع هذا في أهل ملة التوحيد ، لو لا انهم وصموه بالتشيع والتفريق

ثم ان لطعن العلماء بعضهم على بعض سببا آخر وهو الحسد فهم أشد الناس تحاسداً. وقد روى الحافظ ابن عبد البر وغيره عن ابن عباس (رض) وعن بعض كبار السلف كمالك بن دينار ـ النهي عن سماع كلام العلماء بعضهم ببعض وتعليله بأنهم اشد تغايراً من التيوس في زرائبها ، حتى قال بعض الفقهاء بعدم قبول شهادة بعضهم على بعض

ماوجد رجل نبغ في العلم والعرفان، وبذ في شهرته الاقران ، إلا وغلا بعض العلماء في إطرائه ، وبعضهم في ذمه وهجائه ، سواء كان من المحدثين او المتكلمين او الصوفية او الفقهاء ، وقد اشتد ذلك في العصور الوسطى عند المسيحيين والمسلمين أعني بعد القرون الثلاثة الاولى من نشأة الدينين

وقد كنت عازما على بسط هذا المبحث في هذا التاريخ لأبين لقارئيه أن ماقيل في حكيمينا المجددين من الطعن المبهم الذي لا يعرف له قائل له قيمة لا يعد شيئا في جنب ما قاله العلماء المتقدمون المعروفون في الامام أبي الحسن الاشعري ناصر السنة على الاعتزال ، والامام ابن حزم المجتهد المطلق ، وحجة الاسلام الغزالي من أئمة المعقولات والتصوف والفقه ، وشيخ الاسلام ابن تيمية من أئمة المحدثين الجامعين بين المعقول والمنقول ، والشيخ ابي الحسن الشاذلي من أئمة الصوفية المعتدلين ، دع غلاة القائلين بوحدة الوجود منهم . وقد جمع الشعراني كثيراً من هذه المطاعن في المشهورين في كتابه اليواقيت والجواهر وغيره

ولكنني رأيت الطعن في حكيمينا قد ضعف بعد وفاتهما وما زال يتضاءل حتى خفي أو زال ، وأما الثناء عليهما والاعتراف لهما بالاصلاح العام عن علم وإيمان، وبصيرة وإخلاص ، فما زال ينمي زرعه ، ويخرج شطأه ، حتى استغلظ واستوى على سوقه ، وآتى اكله ضعفين وسيكون أضعافا مضاعفة ، فأجمعت كلمة اهل العلم

والرأي الذين يخدمون الاسلام وشعوبه والشرق وحضارته على أن لهما الفضل الاول في النهضة العلمية والدينية والمدنية والسياسية

بعد هذه المقدمة الوجيزة أقول قد اشتهر عن علماء مصر انهم كانوا يطعنون على السيد جمال الدين ثم على الشيخ محمد عبده بعد اتصاله به وأخذه عنه . وأشهر من روي عنه ذلك الشيخ عليش المغربي الاصل كما تقدم في (ص ١٢٣) ومن المعروف ان المغاربة أشد تعصباً وحدة في عصبيتهم من المشارقة . وان المصريين من أشهر المشارقة في التسامح وسعة الصدر . ولذلك كان جل ما قيل في الحكيمين مما يوسوس به في الآذان . ولم نجد لاحد من أهل العلم المشهورين كتابا ولا رسالة تتهمهما بشيء مبين معروف عن أحدهما أو كليهما مخالفاً لاصول الدين . وأما ماكتب في الجرائد من الطعن في الاستاذ الامام فقد بينا في بحث عداوة أمير البلاد له وإغرائه به انه لم يصدر عن العلماء بل عن سفهاء الجرائد ، وانه لم يكن لشيء منه قيمة . وقد كان كله من أسباب ارتفاع قدره ، وعظم أمره ، كما ذكرته في هذا التاريخ مجملا ، وفي المنار مفصلا

وقد أشرت فيما سبق منه هنالك إلى ان أول من طعن فيه من أصحاب الجرائد رجل اسمه الشيخ محمد الشربتلي ووعدت ببيان ذلك هنا فأبدأ فيه بما نشرته في ذلك الوقت مجملا وأقفي عليه بتفصيله ، فأقول :

جاء في ص ٢٣٩ من الطبعة الثانية لمجلد المنار الاول مانصه :

حال الجرائد المصرية . والغميزة بالشيخ محمد عبده

في مصر والاسكندرية جرائد كثيرة لانعرف عددها ، منها بضع جرائد معتبرة تجري لمستقر لها معقول ، وتستقي كل واحدة منها من مشرب مورود او معلول ، والبواقي يعشن بما يأكلن من العوارض ، فان لم يتح لهن منها شيء وهن مما لاينال العبيط ، أنشأن ينهشن الاعراض الطيبة ، ويملأن مواضغهن بلحوم الميتة ، إلا أن يفتدي صاحب العرض عرضه بشيء من المال : يعرضن اولا ببعض الوجهاء فان جاء التعريض بالغرض فذاك ، والا صرحن بالقول ، وان كان تذقحا وتجرما .

من هذا النوع جريدة في القاهرة تسمى النهج القويم عرضت بغميزة حضرة

الاستاذ الكامل والعلامة الفاضل الشيخ محمد افندي عبد الشهير ، فلم يُبَل ، فصرحت بغميزته في مقالة نشرتها عن حال الازهر الشريف قلبت فيها الحقيقة ماشاءت. فاقامت النيابة العمومية الدعوى على صاحب الجريدة الشيخ محمد الشربتلي ، ولدى الاستنطاق زعم ان الاستاذ الشيخ سليمان العبد أحد شيوخ الازهر المشهورين هو الذي جاءه بالخبر الذي نشره عن الازهر ، وأغراه بنشره ، ووعده بترويج الجريدة بازاء ذلك ، فاستحضر الاستاذ الشيخ سليمان العبد للمحكمة وسئل من قبل النيابة عن علاقته بالاستاذ الشيخ محمد عبده وعن صحة مايدعيه صاحب جريدة النهج ، فاجاب بعد اليمين بان علاقته بالاستاذ علاقة صداقة وداد ، وصفاء ووفاء ، وان صاحب النهج كاذب في دعواه. وأيدت قوله شهادة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله وآخرين ضد شهادة صهر صاحب تلك الجريدة وعمال مطبعتها ، وبعد هذا طفق محرر النهج يستعطف الاستاذ الشيخ محمد عبده ويطعن بالاستاذ الشيخ سليمان العبد زعما انه أغراه ، ثم فنده وأنكر مدعاه . بسبب هذا كثر الارجاف بان الصداقة بين الشيخين منفصمة العرى ، فلاحظ هذا الشيخ سليمان فكتب رقيما إلى أشهر الجرائد المصرية يقول فيه:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رسله سيدنا محمد . اني أعلن في جريدتكم الغراء فوق ما قلته امام النيابة العمومية كذب من ادعى أنني حرضت على تنقيص أخي وصديقي الاستاذ الشيخ محمد عبده ، واني أعتقد فيه حسن الخلال ، وصفات الكمال ، وليس بيني وبينه إلا كمال الصفاء والوفاق أدامهما الله بين رجال العلم وأمناء الامة في ظل تعطفات مولانا الخديو المعظم وتحت عناية مولانا صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر آمين كتبه بقلمه

سليمان العبد بالازهر

ويقال انه كان بين الشيخين بعض فتور وانهما قد تصالحا على يد فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع وستبريء النيابة الاستاذ الشيخ سليمان وتقيم الدعوى على صاحب النهج ، وعسى أن يتربى في هذه الكرة ويتيب اهـ

هكذا أبهمت الحادثة بالاتفاق مع الاستاذ واني مبين الآن ظاهرها وباطنها فاقول

تحدي الاستاذ الامام الازهر بتجهيله بالتوحيد

(المحرك لرميه بانكار التوحيد)

أراد الاستاذ الامام أن يصخ الازهر بقارعة شديدة توقظ النائم ، وتقعد القائم ، وتزلزل غرور المغرورين بالعلم ، واحتقار المحتقرين لمن عداهم في الفهم ، وتثبت لهم بالفعل ان تحليلهم لألفاظ كتب التدريس عندهم وإيراد الاحتمالات والشكوك فيها ، ليس هو العلم المطلوب ، وانما العلم تحليل الحقائق، والجزم بما تثبته الدلائل ،وأن العلم بالتوحيد ، لايثبت بالتقليد ، وكان يقرأ رسالة التوحيد وبلغه عن بعض المشهورين منهم أنه قال ان هذه الرسالة إنشاء لاعلم ، فلما بلغ مبحث إقامة الدليل على وحدانية الله عز وجل قال لحاضري الدرس وفيهم كثير من العلماء المدرسين في الازهر ما معناه :

انكم تعلمون ان الايمان بوحدانية الله تعالى هو الاساس الاعظم لدين الاسلام، ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه، حتى اذا ماقالها المشرك في ميدان القتال وجب الكف عنه الخ وسيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة ، واني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس مائة جنيه وأعدكم بان من أقام أمامي البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه مني وأمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جوابا صحيحا فانني أدفع اليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب

فكانت هذه الصيحة بهذا التحدي العلني الصريح صاخة شديدة دوى صوتها في الازهر، ووصل إلى مسامع شيوخه في كل مكان، فاصم آذانهم ، وزلزلة قوية رجفت لها قلوبهم ، ولعل كل واحد منهم كان يتوقع أن يوجد فيهم من يبرز لهذا الرجل في اليوم الموعود غيره ويقيم له البرهان ، ويجيبه عن كل مايورد على مقدماته وشروط انتاجه من اعتراض ، ثم يأبى أن يأخذ المائة الجنيهات، قائلا له انما برزت لك لتعلم أن في السويداء رجالا ، وفي ميادين الازهر أبطالا . لا لاجل جنيهاتك التي أغنانا الله بالقناعة عنها . ولكن جاء اليوم الموعود، والشاهد والمشهود، ونادى الاستاذ الحاضرين ، بلسان عربي مبين : هاهي ذي الجنيهات المائة ، فمن

كان مستعداً لاقامة البرهان قبل أن يسمعه مني فليتقدم ، فنكست الرءوس ، وصمتت الالسنة. قال فاصيخوا إلي اذاً. وشرع يقرر البرهان الذي كتبه في رسالته

أنا لا أعتقد انه لم يكن يوجد في الازهر من يقدر على إقامة البرهان على التوحيد الذي قال فيه الشاعر :

فياعجباً كيف يعصى الآله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

بيد أنه ثبت بهذا التحدي، وعدم التصدي، انه لم يكن أحد منهم يجرؤ أن يقف مع الاستاذ الامام موقف المناظر، في ذلك المجمع الحافل ، ولكنهم يعذرون - بالطبع لا بالشرع - اذا غضبوا منه وحنقوا عليه ، وحاولوا أن يسددوا سهمه اليه، بأن يوعزوا الى جريدة من الجرائد الساقطة أن تذيع في الناس أن الشيخ محمدا عبده أنكر وحدانية الله تعالى، وقال انها لا يقوم عليها دليل؛ وكذلك فعلوا او كان نشر هذه التهمة بين العوام، أسهل من نشر ذلك التحدي الذي لم ينشر ه لهم أحد ، ولو نشر لما وجد فيهم من يفهمه إلا الأقل . وكذلك كان ، وأعقبه خوض الناس في الاستاذ الامام .

نشر الشربتلي التهمة في جريدته فطلبته النيابة للتحقيق وزجته في الحبس ، فقال انه تلقى هذا الخبر من رجل من كبار علماء الازهر يثق به وهو الشيخ سليمان العبد ، فطلبت المحكمة الشيخ للتحقيق ، فشعر بالاهانة وخاف أن يقرن بالشربتلي في الحبس . فطفق يطوف على الوجهاء من رجال الحكومة وغيرهم ليدفعوا عنه طلب المحكمة، حتى انه ذهب الى الاسكندرية وكلم فيها محافظها اسماعيل باشا صبري لانه صديقه وكان صديق الاستاذ الامام ايضاً ، فلم يجد عند أحد نجدة ولا غناء ، فكلم الاستاذ الاكبر الشيخ حسونه شيخ الازهر واستنجده ، فقال له ان وقعتك مع الشيخ محمد عبده ، ولا يوجد في مصر أحد ينقذك منه غيره ، فتعال معي إليه واعتذر له وأنا أرجوه أن يقبل عذرك

ذهبا إلى الاستاذ الامام فكان مما قاله الاستاذ انني لا يهمني في الدنيا شيء إلا ديني، ولولا غيرتي على ديني لما دخلت أزهركم فانه لا ينالني منه إلا التعب والعناء . اما تخاف ياشيخ سليمان أن أتقرب إلى الله تعالى باخراجك من وظيفة التدريس

في دار العلوم بسوء نتيجة دروسك التي تظهر لي في الامتحان ؟ (وكان الاستاذ يتولى رياسة الامتحان في دار العلوم ويضع له تقريراً سنويا) ولكن يغرك مني اني أعلم أن عندك أولاداً كثيرين يغلب على قلبي الشفقة عليهم . فاعتذر الاستاذ الشيخ سليمان له وقال اننا نعاهد الله على الصفاء والوفاء. وتكلم الشيخ حسونه بما قبله الشيخ محمد عبده مع تصريحه بانه لا يثق بالمعاهدات. وانتهى الامر بما نشرناه يومئذ في المنار من انكار الشيخ سليمان ما عزي اليه في المحكمة وفي الجرائد اليومية، واعلانه بامضائه انه يعتقد الكمال في الشيخ محمد عبده ولكن تأثير تلك الصاخة لم ينته بذلك بل كثر تهامس كثير من العلماء في مجالسهم بالطعن والذم، حتى كان كثير من أهل الفهم يحضرون درس الاستاذ الامام للاختبار، متوقعين أن يسمعوا فيه شيئا من الكفر أو الابتداع ، فيرون ضد ما كانوا يظنون، ويصيرون من أنصاره، فهذه النازلة هي السبب لما ذاع من تكفير الازهريين له، وكنا نراه بين كبرائهم موضع الاجلال والاكبار ، وأما صغارهم فكانوا يذلون له ذلا أستحي أن أهينهم بحكايته عنهم ، فان كانوا يعتقدون مع هذا كفره أو ابتداعه فهم منافقون والحق انهم ما كانوا ينقمون منه إلا الجزم بفساد التعليم في الازهر والسعي لما يتعذر لاصلاحه بالتعليم الاستقلالي الاستدلالي ، وبعضهم كان يحسده على ما آتاه الله من الجاه

وجملة القول أن جميع خصوم الامامين الحكيمين المصلحين كانوا من الفقهاء الجامدين، والشيوخ الخرافيين، وكان أنصارهما وما زالوا عقلاء العلماء، والكتاب البلغاء، وطلاب الاصلاح الفضلاء ، ومن المعلوم بالبداهة ان العوام الجاهلين يقبلون كلام الاولين لانهم أركان خرافاتهم وبدعهم وجهلهم، ولكن العاقبة للمتقين، والحجة البالغة للعقلاء المنصفين، فكان هؤلاء يدافعون عن الحكيمين وينشرون مناقبهما في جميع الاقطار ، وتقدم نموذج من ذلك في الكلام على اصلاح الازهر وانتصار علماء الشرق والغرب للاستاذ الامام. وفي مجلدات المنار مقالات كثيرة في هذا الباب، فما علمنا بشيء انتقد عليه إلا وقد فندناه كزعم بعضهم في رسالة طبعها انه أنكر وجود الجن، وبعضهم انه انكر وجود الملائكة، وسننشر المهم من ذلك في ذيل هذا التاريخ. ونذكر منها هنا مقالة لعالم تركي نشرناها في المجلد الثالث عشر وهذا نصها :

الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده (*

كنت كتبت رسالة بينت فيها فساد زعم الذين يتهمون الشيخ جمال الدين الافغاني بالمروق وأوضحت بطلان هذا البهتان باجلى بيان، وطبعت تلك الرسالة ونشرتها فتداولتها الايدي واشتهرت بين الناس، وبعدذلك سمعنا ببهتان جديد وهو أن الاستاذ لم يكن مارقا ولـكنه كان وهابيا

عجبا هل يعرف هؤلاء الذين يعرفون بمالايعرفون معنى رميهم الناس بالمروق تارة وبالوهابية تارة أخرى ؟ أم هل درى اولئك الخراصون الافاكون ناشرو الافك والبهتان أنهم بعملهم هذا يدخلون تحت انذار قوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) الخ ؟

واما الوهابية فهي بالحقيقة اسم الذين اعتنقوا هذا المذهب وهم معظم سكان بلاد العرب ومذهبهم ليس بينه وبين مذهب الحنبلية فرق كبير

عجبا أصار من الدين عندنا أن نثق بكل كلام يراد به إيذاء أي شخص والطعن عليه ؟ وكيف يجوز أن نعمد إلى رجل صحيح العقيدة صالح الاعمال ونقول إنه رجل صالح لـكنه مارق من الدين، ثم يتلقى الناس هذا القول وينتشر من دون ترو ولا نظر في أعمال وأحوال من نسب ذلك اليه، فلا يمضي قليل زمن حتى يشيع بين الناس بان فلانا مارق وان فلانا زنديق

ثم كيف يجوز لنا الحكم بمجرد نقل قوم لايعرفون من أحوال من يحكمون عليه بهذه الافتراآت ولا من كلامه شيئا يصحح حكمهم ؟

اننا نعلم ان اكبر جرم في الاسلام هو أن يحكم الانسان على عقيدة انسان آخر ويتحكم فيها وينسبه إلى الزندقة تارة وإلى الوهابية تارة أخرى بمجرد اختلاف في المشرب، أو لاقل سبب، مع أن الواجب الاسلامي يأمرنا باحترام عقيدة مطلق انسان

---

*) كتب محمد عاكف افندي الـكاتب التركي المعروف هذه المقالة ونشرها بجريدة شورى التي تصدر في اورينبورغ فى الروسية تحت هذا العنوان فنقلناها عنها

مادام يوجد دليل واحد على اسلامه ضد تسعة وتسعين دليلا على الكفر ، وانه لايجوز الحكم بالكفر مع وجود ذلك الدليل

ان اتهام كبار المصلحين بالوهابية في بلادالعرب وبالفرماسونية في بلادالترك وبالبابية في بلاد العجم وبالدهرية والمروق في بلادالروسيا صار أمراً معروفا ومشهوراً جداً . وان تعجب فعجب نعت خيرة رجال الاسلام بتلك النعوت مثل جمال الدين الافغاني مع أنهم هم وحدهم المعروفون بالمدافعة عن الدين الاسلامي وهم أنفسهم المجتهدون في ترقية بنيه بتربيتهم تربية صحيحة، وهم الذين أفنوا عمرهم الثمين بانشاء المدارس ليجعلوا لابناء أمتهم حظا من العلوم التي تنهض بهم من حضيض الذل إلى اوج العز وتؤهلهم للجهاد في معترك هذه الحياة ليخرجوا من أسر الغلب (المغلوبية)

إذا اعترض علينا معترض من أهل الملل الاخرى قائلا: انكم تتهمون أفضل رجالكم وأعلمهم واعقلهم وأعلاهم قدراً وأشدهم غيرة على ملتكم بالمروق والدهرية والفرماسونية والوهابية مع انهم لايريدون لكم إلا الخير والرقي والسعادة فلماذا ؟ ألأن دينكم لايجتمع مع العقل والعلم والفضل والادب والحمية وحسن الخلق؟ فماذا يكون جوابنا ياترى ؟

إذا بحثنا في تاريخ الرجال الغيورين في القطر المصري الذين يدأبون على منفعة الاسلام ويخدمون المسلمين خدمة صادقة نجد انهم تلامذة جمال الدين الافغاني وأنهم انما نبغوا بفضل تربيته القوية

لو كان الرجل مارقا من الدين كما يقولون لما قدر أن يوجد رجالا ممتلئين غيرة على الدين وأهله يخدمونه أجل الخدم (لان فاقد الشيء لايعطيه) ولاهمّ لهم سوى ترقي الانسانية بكل همة ونشاط

ان جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى ضاقت عليه الارض بما رحبت سواء كان في الافغان أو العجم أو تركيا أو اوربة ولم يسمح له أن يقيم في إحدى هذه البلاد ناعم البال منشرح الصدر ، ولو كان من محبي المال والجاه والمناصب العالية لترك ما اضطهد لاجله وهو خدمة الاسلام الجليلة، وإلقاء الدروس النافعة للعالم الاسلامي

ولما حاول إيقاظ المسلمين من نومهم العميق المؤدي إلى النوم الابدي إن لم يسعفه بالمنبهات من مثل إرشاد جمال الدين ، ثم لو أن جمال الدين ترك خدمة الاسلام واشتغل ببث أفكاره في العالم ولم يعمد إلى إيقاظهم لانهالت عليه سحب الدنانير ولكان موضع الاحترام ، وصاحب المقام الذي لا يرام في جميع البلاد

ولكن تلك الروح العالية ، والارادة القوية ، والنفس السامية ، لم تنزل به في هذا الحضيض ـ حضيض المجد الزائل ـ فما زال مشمراً عن ساعد الجد مجتهداً بترويج مقاصده الخيرية ، يصارع الايام ويكافح النوائب غير هياب ولا وجل ، وثبت في موقف يتعذر على غيره الوقوف فيه حتى صح أن يقال عنه انه كان شهيداً في حياته وصدقت عليه عبارة كمل بك التركي « أحسن شيء وأفضله في هذه الدنيا أن يكون الانسان شهيداً في حياته »

هذا — وان الذين يفترون على جمال الدين الافغاني بالمروق والوهابية تراهم لا يألون جهداً برمي الشيخ محمد عبده بأكثر مما رموه به (كأن الكفر والمروق على نسبة النفع للامة) نعم ان لهؤلاء الافاكين مصنع كفر لا يفتأ يصوغ من حلي الكفر أجودها لهؤلاء الرجال العظام ، فأنا ارجو منهم بعد النظر في مؤلفات الشيخ محمد عبده أن يثبتوا لي علامات الوهابية التي ينكرونها عليه ولو بأي صفة كانت ويظهروها للملأ(١)

ان بعض الناس يقول « انه لا موازنة بين زهد الشيخ محمد عبده وبين علمه »(٢) وربما كان كذلك . وهل إذا أمضى الشيخ محمد عبده عمره معتكفا بالمساجد ، مواظباً على صلاة النافلة ، أكان يفيد الاسلام أكثر مما أفاده ؟ اننا لا نظن ذلك بل ان رده على عالم افرنجي مثل هانوتو ومدافعته عن حقوق الملايين من المسلمين هي في نظرنا أحسن عملا وأكثر ثوابا من الاعتكاف وصلاة النافلة

انظروا إلى قول عمر رضي الله عنه لأبي قلابة التابعي « انا اكتسابك الرزق

(١) لعل سبب مناقشته لهم في الوهابية مع قوله انه ليس بينها وبين الحنبلية فرق كبير هو انها كانت تخيف السلطان عبد الحميد لان آل الرشيد وبعض الخرافيين كانوا يلقون اليه انهم اعداؤه واعداء الدولة (٢) الواقع ان الشيخ محمد عبده كان ازهد في الدنيا ممن يصفهم المسلمون بالزهد لعجزهم وتواكلهم فقد كان يتصدق بكل مازاد على نفقة بيته، ولو اراد الدنيا لكان من كبار اغنيائها

لعيالك أحسن عندنا من إقامتك في المسجد» وهل يعجز أبو قلابة عن تربية عياله وأولاده في زمن يعيش فيه الناس بقليل من النفقة عيشة الرفاهية من غير تجشم مشاق الكسب ؟ ومع ذلك فقد أمره عمر رضي الله عنه بالكسب ونهاه عن الاقامة في المسجد

أما محمد عبده فانه لم يكن مثل أبي قلابة ولا هو في زمن مثل زمنه بل هو في زمن يحتاج فيه أن يشمر عن ساعد الجد لاجل تربية عائلة تبلغ الملايين من الاشخاص

ها نحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا مثل جمال الدين ومحمد عبده وقد مضيا إلى خالقهما وتركانا كالماشية بلا راع ، بل اننا أصبحنا واقفين موقف الحيرة لا ندري ماذا نعمل ولا نهتدي طريق النجاة.

فالواجب علينا ان نذكر مثل هذين الاستاذين بالخير لانهما خدما الدين وكانا من حماته، وأن نسأل لهما من الله الرحمة والغفران لكي ينالا جزاء عملهما الصالح

نعم ويجب أن نعترف بفضلهما وإرشادهما لئلا تجهلهما الاجيال المقبلة وتعيبنا بأننا لا نعرف لاهل الفضل فضلهم ، ولاجل أن يعرف القوم الآخرون اننا اناس نعرف فضل المصلحين واننا لسنا ممن يكفرون النعم . ويحسن أن أوردهنا حكاية صغيرة وأجعلها ختاما لهذا الموضوع وهي انه قابلني قبل خمس سنوات رجل افرنجي وقال لي «انكم قوم محرومون من معرفة الصناعة وأنتم معذورون في هذا ، واما في عدم تفكركم في معرفة قدر الرجال فلستم بمعذورين فيه ، بل ان هذا ذنب لكم لا يغتفر وهو من أشنع الذنوب » فاعتبروا يا أولي الابصار . (انتهت مقالة العالم التركي)

أكتفي بهذا من خبر الطعن في دين الامامين الحكيمين من جهلة المسلمين الذين لا يوجد في خيارهم من يدنو منهما في العلم ولا في الدين وأقول ان للافرنج مطاعن اخرى في سياستهما التي كانت كلها جهاداً لهم من أهمها طعن لورد كرومر على الاستاذ الامام في كتابه (مصر الحديثة) وقد فندته بمقالات في المنار سننشرها في الذيل الموعود به إن شاء الله تعالى. وقد وقفنا على مناقب أخرى للسيد جمال الدين من أهمها ما سمعناه من الشيخ عبد الرشيد ابراهيم السائح التتري الروسي الذي كان ملازما له في الآستانة الى يوم وفاته ، ورأيناه يعتقد انه من كبار أولياء الله تعالى العارفين به ، رحمه الله تعالى ونفع المسلمين بسيرته.

خاتمة الفصل السابع

صحبة المؤلف للاستاذ الامام

لم يكن أحد يجهل في عهد الاستاذ الامام انني كنت معه في سني جهاده الاخير، كما كان هو مع السيد جمال الدين في مصر وباريس ، كنت معه كما قال هو للاستاذ الشيخ محمد شاكر «ترجمان افكاره» وكنت مستودع أسراره، والداعية له والمدافع عنه في كل معركة من معارك جهاده ، أكتب بشأنها في المنار ما يليق بعلاقتي به، وفي الجرائد اليومية ما يكتبه من لا يعنيه الا إظهار الحق والمصلحة، وفوق ذلك اننا كنا على اتفاق في العقيدة والرأي في جميع ما ينشره المنار إلا مسائل الدولة العثمانية وسلطانها ، فانها من السياسة التي كان يبغضها . وقد مرت الشواهد على ذلك في عدة مواضع من أهمها سعي سمو الخديو للتفريق بيننا ، ومن قول الاستاذ ابي شادي بك انا رجل واحد . فوجب أن أبسط في هذا التاريخ بدء هذه العلاقة وما انتهت اليه ، ووضعتها ههنا لان عملي في الاصلاح والتجديد متمم لعمله ، كما كان عمله متمما لعمل السيد جمال الدين من الوجهة الدينية والمدنية، وكان عمل سعد باشا زغلول في جمع كلمة الشعب المصري متمما لعملهما من بعض نواحيها السياسية

ولقد قال له صديقه القديم محمود سامي باشا البارودي في أول تلاقيهما بعد عودة الباشا من منفاه في جزيرة سيلان الهندية : ان السيد جمال الدين قد تركك لنا فقمت بالاصلاح بعده خير قيام، واني لخائف أن تنقطع السلسلة بعدك فبشرني هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الاصلاح؟ قال نعم، عندي شاب سوري يقوم بذلك وسأرسله إليك لتتعارفا . أخبرني الاستاذ الامام نفسه بهذا وأرسلني الى الباشا لنتعارف، فتعارفنا وتآلفنا وكان رحمه الله أشد الناس عشقا للمنار ،حتى كان يطلب ماطبع من كل جزء منه قبل أن يتم طبعه .

ذكرت في ترجمة السيد جمال الدين من هذا الكتاب (ص٨٤) خبر عشقي هو كتابي اليه بالرغبة في صحبته لتلقي الحكمة منه ، وأن سبب عشقه وعشق الاستاذ

الامام هو قراءة جريدتها (العروة الوثقى) وان ذلك كان سنة ١٣١٠ إذ كنت أطلب العلم في طرابلس الشام ثم بينت ما كان من تأثير العروة في نفسي في فصل عقدته للكلام على تاثيرها في العالم الاسلامي (ص ٣٠٣) ثم ذكرت لقائي للاستاذ أول مرة في طرابلس الشام بعد عودته من أوربة وما كان من إكباري له، وإعجابي بكلامه (ص ٣٩٠) وما كان ذلك إلا ساعة أو سويعة من الزمان

وقد لقيته مرة ثانية في طرابلس إذ كان جاء سورية مصطافا وكان يصحبه أحمد فتحي بك زغلول من خواص مريديه (وكان رئيس نيابة الاسكندرية) فدعاه كبير عشائر لواء طرابلس محمد باشا المحمد المرعبي الشهير إلى ضيافته في مزارعه الواسعة في عكار فأجاب، ورأى من حفاوة هذا الامير مالم يره في مكان، من ذلك أن الاستاذ الامام كان في بعلبك على ماأذكر، ولم يعين الطريق التي يسلكها إلى بلد الباشا التي ينتظره فيها من عكار، فأرسل الباشا الى كل طريق من الطرق الموصلة إلى بلده (برقايل) كوكبة من الفرسان ممتطية جيادها العربية، مشرعة رماحها الخطية، فصادفته إحداها فجاءت في خدمته. ثم كانت الاخريات تعود تترى كلما وصلت واحدة منها قالت: يا سعادة الباشا ما وجدنا للضيف أثراً. وكان الاستاذ الامام في مدة وجوده في عكار متنقلا بين مزارع الباشا وقراه يركب معه ومع آله وعشيرته فرسا من هذه الجياد العربية، تتوقل به الجبال، وتهبط الاودية، وتسبح في السهول، وقد دعا الباشا لاجله أشهر علماء طرابلس ليأنس بهم

وكنت في طرابلس أتنسم أخبار عودته كل يوم فوصل اليها ليلا ونزل في دار صديقه الاستاذ عبدالعزيز افندي سلطان الذي كان مدرسا للقانون في المدرسة السلطانية ببيروت أيام كان الاستاذ مدرسا فيها. ذهبت في الصباح لزيارته فقيل لي انه ذهب الى حمام عز الدين فجئت الحمام وانتظرت في محل الجلوس الخارجي ريثما يخرج، وكان في انتظاره بعض العلماء، فخرج قبله أحمد فتحي بك زغلول فعرفه بي الاستاذ الشيخ خير الدين الميقاتي وذكر له حبي للاستاذ وللسيد جمال الدين وتشيعي لهما، وكان مما قاله انه أبلغ كاتب عندنا ولا يعدله استاذاً في الانشاء

«الا الشيخ محمد عبده» وهو لم يلقه . فقال له فتحي بك : كذلك عندنا الكتاب المجيدون في مصر كلهم يعترفون بانه لا أستاذ لهم في الانشاء إلا الاستاذ او السيد جمال الدين . ثم خرج الاستاذ فسلمت عليه وقد تذكر تلاقينا تلك السويعة منذ بضع سنين وكنت ألازمه مدة وجوده في طرابلس من اول النهار إلى وقت النوم ، وكان في مجالس التنزه في حديقة التل وفي السمر ليلا لا اتلقاه إلا مسؤلا، فكان سبعة أعشار الحديث له او اكثر

ولكن محمد باشا المحمد اضطره إلى سؤاله والسماع لحديثه في أيام ضيافته له اذ ذكرت انساب العرب فكان الباشا يذكر اتصال قبائل هذا العصر بالقبائل المدونة في الكتب كتاريخ ابن خلدون وغيره وكان للباشا باع طويل في ذلك فكان الاستاذ يسأله التفصيل فيه ويعجب باجوبته

وقد أطرى في بعض مجالسه الشيخ احمد فارس الشدياق في اللغة والانشاء، فقلت له أين هو من اسلوب العروة الوثقى الرفيع ووضعكم لفرائد اللغة الطريفة في مواضعها منها ؟ قال تلك ألفاظ نديرها اما الشيخ احمد فارس فهو امام في اللغة .واما اسلوبه في الكتابة فغريب قلما فطن له الادباء ،ذلك انه خدم الدولة الانكليزية في الآستانة عشرين سنة بما كان يعتقد جميع قراء جريدته الجوائب انه خدمة للدولة فقط إذ أقنع مسلمي الهند بل العالم الاسلامي كله ان هذه الدولة صديقة للسلطان ودولته ونصيرة لها . وقد عجبنا من تفضيله لاحمد فارس على نفسه في الانشاء وهو أبلغ منه

وكان مما سألته عنه اسلام مسلمي ليفربول من بلاد الانكليز : أهو إسلام صحيح أم سياسي ؟ قال السياسة لا تأتي من العامة وهؤلاء من العامة. وقد تعارفنا في هذه المرة وكان كلما كتب الى عبد العزيز سلطان يسلم علي

وكان مما أعجبني من كلامه وكله حكم كالدرر انه لما اراد السفر من طرابلس إلى مصر طفق العلماء والوجهاء يلحون عليه راجين أن يطيل إقامته عندهم أسبوعا على الاقل، فقال إذاً نصل بعد انتهاء الاجازة بأيام ، قلت له وهل في هذا تبعة أو مسؤلية؟ قال نعم نحتاج الى الاعتذار الى ناظر الحقانية، فتذكرت حديث «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء المقدسي في أحاديثه المختارة عن أنس مرفوعا إلى النبي ﷺ

ولما قضى السيد جمال الدين نحبه بالاستانة في شوال سنة ١٣١٤ (مارس ١٨٩٦) أجمعت الرأي على الهجرة إلى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته الاستاذ الامام لتلقي الحكمة منه ، والوقوف على رأيه ونتائج اختباره في الاصلاح الاسلامي . وكنت قد نلت من شيوخي شهادة التدريس (العالمية) فطفقت أمهد السبيل لارضاء والدي بهذا السفر حتى رضي . وأما الوالدة فكانت توافقني على كل ما اقول لها ان فيه فائدة لي (رضي الله عنهما)

رضي الوالدان بالسفر وبقي أن ترضى الحكومة الحميدية في طرابلس وبيروت وهذا ما لاسبيل اليه ، لانني قد اشتهرت بانني كاتب ومفكر ومحاث في السياسة وإن لم ينشر لي شيء في الجرائد إلا مقال طويل في الاخلاق وصدور الاعمال عنها وعن الوجدان — فالجأت الى الحيلة

أعطيت صندوق ثيابي ومتاعي للشيخ أبي النهى القاوقجي ليسافر بها بعد أيام في الباخرة النمساوية وذهبت الى بيروت منفرداً في غرة رجب سنة ١٣١٥ فا قمت فيها أياما، وأخذت جواز السفر من (ناظر النفوس) فيها وهو صديقي الاستاذ الشيخ صالح الرافعي فلما جاءت الباخرة النمساوية بيروت نزلت اليها في زورق صغير مع الاستاذ الرافعي فلم يرتب رجال البوليس في امري لانه ليس معي شيء يدل على السفر وقال بعضهم لبعض: هذا ضيف عند ناظر النفوس من بلده (طرابلس) يريدان اتنزه في البحر

رست باخرتنا في الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب [٣ يناير سنة ١٨٩٨] فأقمت فيها أياما وانتقلت منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط فأقمت في كل منها اياما ثم عدت الى طنطا ماراً بهن وكنت في طنطا ضيفا على السيد حسين القصبي لما كان بين والده ووالدي من المودة إذ أقام والده بدارنا في القلمون أياما كانت أطيب أيام إقامته في سورية صحة وهناء معيشة

وسافرت من طنطا يوم السبت ٢٣ رجب الى القاهرة قبل الظهر . وفي ضحوة يوم الاحد ذهبت إلى زيارة الاستاذ الامام بداره في الناصرية ومعي صديقي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ ورفيقي الشيخ أبو النهى القاوقجي ، فلما بلغناها ارسلت اليه بطاقة الزيارة فما لبث أن نزل وهي بيده وطفق بعد السلام يسألني عن اصحابه


السيد محمد رشيد رضا في سنة ١٣١٨ هجرية



﴿ المؤلف بعد هجرته إلى مصر في سنة ١٣٢٧ ﴾

في طرابلس : الاستاذ الشيخ حسين الجسر ودروسه وجريدة طرابلس التي ينشر فيها مقالاته، والشيخ عبد الله البركة والشيخ عبد الله المسقاوي، وعبد العزيز افندي سلطان، ومحمد باشا المحمد

ثم قلت له ان غرضي الاول من الهجرة الى مصر تلقي الحكمة عنه وانني أعتقد انه بقية رجاء المسلمين، وانه موجه عنايته لاصلاح الازهر، فتكلم في مسألة الازهر ومسالة إلزام الخديو توفيق باشا اياه أن يكون قاضياً في المحاكم الاهلية بما نشرته في أول الكلام على عمله في اصلاح الازهر، ثم تكلم في مسالة السياسة بما نقلته عنه في موضوع رأيه في السياسة، ثم قال ان المسلمين في يأس من كل خير ونجاح الا إياي فان لي املا كاملا، ويوجد رجل آخر في مصر له نصف أمل. وقد علمت بعد ذلك ان هذا الرجل هو صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان، ولكن ما كان عنده من نصف الامل زال بعد ذلك عندما رأى ما رأى من مقاومة الاصلاح في الازهر، وصرت أجادله في هذا اليأس فيقول سنرى ماتفعل أنت وأستاذك ! وبينت أيضاً ان أمله الكامل انما هو في الاسلام لا في شعوبه الحاضرة

كلمته في أن الموالد وثنية

وتكلم في مسائل أخرى ذكرتها في مواضعها إلا مسألة واحدة وهي ماسرى في عقائد المسلمين من الوثنية وكون أظهرها هذه الاحتفالات الدينية المسماة بالموالد وقد فاتني أن أذكر هذا في رأيه في إعراض المسلمين عن دينهم فأذكره هنا استطراداً لفائدته وفكاهته، وان كنت نقلت عنه في التفسير مراراً ماهو في معناه

قلت له انني مررت بطنطا فرأيت في مسجد السيد البدوي مالم أر مثله من الطواف بقفص القبر وطلب الحوائج منه ... فذكر لي ان أحد وجهاء المصريين كان عنده في أثناء مولد السيدة زينب من هذا الشهر (رجب) مع جماعة آخرين فقام الوجيه وقال انه ذاهب لزيارة السيدة (قال) فقلت له لم خصصت الزيارة بهذا اليوم؟ قال لانه يوم المولد — وان هذه الليلة هي الليلة الكبيرة

« قلت : ماهذا المولد ؟ انا لا افهم معنى لهذا اللفظ ، هل يوم المولد او الليلة

الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين ؟ قال ونهيته عن الذهاب فلم ينته وهم بالخروج ، فقلت له انني لست مازحا وإنما أتكلم بالجد وأقول ان هذا العمل من اعمال الوثنيين وان الاسلام يأباه . كل آيات القرآن في التوحيد تنهى عن هذا وتذمه . ان الفاتحة التي تقرؤنها كل يوم في صلاتكم مراراً تنهاكم عن هذا العمل — تخاطبون الله تعالى فيها بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) كذبا فانكم تستعينون غيره [وتعبدون غيره] ثم ان عملكم هذا متناقض حيث تهدون الفاتحة الى من تزورونه ، إذ معناه انه محتاج اليكم وينتفع بفاتحتكم ، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم » الخ

ثم كنت أختلف الى داره باذنه فيقابلني في حجرة النوم والمطالعة والكتابة كما يقابل بعض خواص أصحابه احيانا ، وأما سائر الناس فكان يقابلهم في حجرة الاستقبال من الدور الاسفل . وقد نشرت بعض مادار بيني وبينه في بيان آرائه آنفا . وكان عند الانصراف بعد كل لقاء يذكر لي مواعيده في اليوم التالي والوقت الذي يمكن ان يلقاني فيه بالدار وهو كل وقت يكون فيها

كثر اجتماعي به قبل إصدار المنار وكنت أكتب خلاصة مايدور بيننا من المذاكرة وكله في المسائل الاصلاحية التي هاجرت لاجل الاشتغال بها والوقوف على منتهى علمه ورأيه فيها ، ولم نكن نختلف الا في مسائل قليلة ينتهي البحث فيها بالاتفاق كمسألة البابية والبهائية التي شرحتها في الكلام على آرائه وسيأتي غيرها

استشارتي اياه في انشاء جريدة

لئن كان الغرض الاول الباعث لي على الهجرة الى مصر هو صحبة الاستاذ الامام كما تقدم فقد اقترن به عند اجالة قداح الفكر فيه باعث آخر وهو إنشاء صحيفة اصلاحية أستمد من حكمته واختباره فيما أكتبه فيها اذ آن لي ان اكون مفيداً كما اكون مستفيداً ، وقد جربت نفسي في الكتابة بتأليف كتاب (الحكمة الشرعية) فكان كل من سمع شيئا منه في تحقيق المسائل الاصلاحية الدينية والاجتماعية والمدنية من اهل العلم والفهم يبالغ في الثناء على إنشائه ،

والاستقلال في تحرير مباحثه ، وفي مقدمتهم أستاذي الشيخ حسين الجسر الذي خالفت بعض آرائه التصوفية وغيرها فيه . وكان من تلك المباحث المتفق على حسنها مبحث الازياء من نواحيه الدينية والاجتماعية والادبية والسياسية ، ومسألة اصلاح الخطابة والاستعداد للارتجال فيها ، ومسألة ضرر الاتكال في ارجاع مجد الاسلام على المهدي . ومسألة طمع الاجانب في بلادنا وفي سلب ثروتنا بمصنوعاتهم ، وكان للمقال الذي نشرته لي جريدة طرابلس في فلسفة الاخلاق والاعمال تاثير حسن عند الادباء في موضوعها وانشائها ، وكنت اشعر بانني مستعد للخطابة الارتجالية في كل موضوع درسته وكل شيء علمته ، لان النطق بالعربية الصحيحة سهل علي ، وقد جربت الالقاء الخطابي ذلك في مسجدنا بالقلمون فسلس لي قياده . وذللت لي صعابه ، وكنت أعتقد ان استعدادي كله يبقى ضائعاً اذا بقيت في سورية ، وانه لا يمكن ان يظهر هذا الاستعداد بالعمل الا في مصر لما فيها من الحرية المفقودة من البلاد العثمانية

ثم انني كنت مخالفا لجمهور أهل بلادي ولا سيما المسلمين منهم في استقلال الفكر وحرية البحث في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، حتى كان أدباء النصارى يستغربون هذا مني ويقولون أنى لك هذا ومن أين جئت به في هذه البلاد؟ وقد ألقيت مرة خطابا حراً في اجتماع حضره كبار رجال الحكومة والعلماء والوجهاء ذكرت فيه طبقات الناس من الحكام وغيرهم ، وان تفاضلهم انما يكون بالعمل النافع للامة ، خاف بعض من سمعه في المجلس ومنهم استاذي الشيخ حسين الجسر ان يكون سببا لايذاء الحكومة لي ، ولكن متصرف طرابلس كان من الاتراك العاشقين للحرية (وهو حسن باشا سامي الذي كان والده شيخ الوزراء في الآستانة) فقام وأثنى علي وقال انه يفتخر بان يعد نفسه طرابلسيا لهذا الكلام الذي سمعه وما فيه من الحكمة الخ ثم كان يجلني ويحب أن يسمع رأيي في كل شيء يهمه حتى اذا ما زرته في دار الحكومة أمر حاجبه بأن لا يأذن لأحد في دخوله علينا لاعمال الحكومة الرسمية ، وجعلني عضواً في شعبة المعارف

ورأيت في طرابلس رجلا من أحرار المصريين ذا كرني في مسائل دينية

فلما رآني كلته فيها بأدب وتلطف في الاستدلال قال لي انك لاتستطيع أن تقيم في هذه البلاد انك لابد أن ترحل إلى مصر وقال ان كل من سأله عنها من اهل العلم حكموا بكفره وأهانوه

وجملة القول انني كنت قد عزمت على انشاء الجريدة قبل السفر وعقدت مع رجل آخر اتفاقا عليه، ورأيت أن أختبر حال البلاد وأعرف رأي الاستاذ الامام فيه ،ولم أكاشفه بذلك إلا بعد سياحة قصيرة في الوجه البحري قبل دخول القاهرة وسياحة اقصر منها في الوجه القبلي بعده ، وكان قد ذم جرائد مصر امامي وقال أنها قليلة الفائدة لعدم وجود أحزاب تنطق بلسانها ، وتكون هي داعية لها

زرته في سادس شعبان (سنة ١٣١٥) تلك الزيارة الطويلة التي كان من حديثنا فيها مسألة الصوفية والبهائية التي شرحناها في الكلام على آرائه فكان اول حديثه معي ان زائراً بيروتيا من بيت الانسي اخبره ان جماعة جاؤا من طرابلس الشام لانشاء جريدة في مصر ،فقال له وهل رأوا الجرائد هنا قليلة؟

حينئذ قلت له انه يعنيني وقد جاءني أنا من طرابلس ان والي بيروت بلغه انني جئت مصر لانشيء جريدة للطعن في رجال الدولة ، وأصل الخبر صحيح ولكن المقصد اعلى من الكلام في الشخصيات والحكومات ، وإن رجال الدولة قد ذُموا كثيراً ومدحوا كثيراً فما نفع المدح ولا الذم

رأيه في جرائد مصر وقرائها

قال الاستاذ ان المصريين في حالة جعلت افكارهم موجهة إلى شيء واحد من الجرائد وهو اخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الانكليز ولا يلتفتون إلى ماوراء هذا وقد قامت به ثلاث جرائد : المؤيد والمقطم والاهرام، وشرح خطة كل جريدة منها ، وذكر انه لا يمكن لي مباراة واحدة منهن في خطتها

قال : واذا كتبت في الموضوعات الادبية كالتربية أو التعليم أو آداب اللغة لا يلتفت إلى كلامك الناس ، فانني لا أعرف أحداً في الازهر ولا في المدارس مشتغلا باللغة وآدابها إلا أن يكون في الزوايا من لم نعرف ، وهؤلاء إن وجدوا

لاغناء فيهم ، وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لايأتي منه مايفي بنفقاته ، ولا ينبغي التعب وانفاق المال هكذا

قلت ان صاحب مجلة الهلال أخبرني ان له ٣٥٠٠ مشترك، فاستغرب وقال إن كانوا يحسبون ان كل من يكتبون اسمه في دفترهم مشتركا فقد يكون عنده هذا العدد ، وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد انهم يبلغون الالوف

قلت : إن من غرضي الاشتغال والتمرن على الكتابة في المسائل الاصلاحية المفيدة

قال يمكنك أن تكتب هذه المباحث في كتاب فهو أرجى لقراءة الناس له

موافقتي على انشاء صحيفة اصلاحية وشروطه فيها

ثم انتقلنا إلى الكلام في موضوع مرض الامة وضعفها وان أنفع الوسائل في معالجتها التربية والتعليم ونشر الافكار الصحيحة لمقاومة الجهل والافكار الفاسدة التي فشت فيها كالجبر والخرافات . فقلت إن هذا هو الباعث لي على إنشاء هذه الجريدة وانني أسمح ان أنفق عليها سنة أو سنتين من غير ان أكسب شيئاً

قال إن كان هكذا فهو حسن . وهذا أشرف الاعمال وأفضلها . وأنا اذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فاني أساعدها بكل جهدي

قلت إني أعاهدكم على أن أكون معكم كالمريد مع أستاذه على نحو مما يقول الصوفية . ولكني أحفظ لنفسي شيئاً واحداً أخالفهم فيه وهو أن أسأل عن حكمة مالا أعقله ، ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أفعل إلا ماأعتقد فائدته

قال : هذا ضروري لابد منه . ومن هنا انتقلنا إلى الكلام في الصوفية

ثم زرته في يوم الاربعاء (١٢ شعبان) وكان معي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ فكلمته في مسألة الجريدة فأشار بثلاثة امور (١) أن لانتحيز لحزب من الاحزاب (وذكر في حديثه صاحب المؤيد ومصطفى كامل الشاب المتحمس او المتهور) (٢) ان لانرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بذم اوانتقاد (٣) ان لانخدم افكار احد من الكبراء « هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة الذين يدعون بها كبراء ، اننا قد نستخدمهم ولكن لانخدمهم»

ثم اشار الى ان الطبع ينبغي ان يكون في المطبعة الاميرية للبعد عن الدسائس

وعن اطلاع جماعة المطابع على شؤون الجريدة الداخلية (وذكر لي مايعلمه من اخلاق اصحاب الجرائد من السوريين والمسلمين)

ثم تكلم عن حرية الجرائد وقال أنتم تسمعون ان في مصر حرية ... هذه الحرية ليست للمسلمين ، المسلمون في اشد المراقبة عليهم ،وأبعدالناس على الحرية، لاحرية لهم فيما ينفعهم اصلا ، ولكن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم (وقد قال في حديث آخر ان الحرية التي كانت بمصر كافية للنهوض باصلاحها وانما كان العائق فساد الاخلاق)قال : لكن أجر الطبع في المطبعة الاميرية غال ، وإنما غلاؤه لاجل التصحيح فاذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح باجرة مناسبة فلا معدل عنها ، وأنا أسأل عن هذا الامر .

وقد سرني من حديثه هذا انه تكلم عن هذا العمل بضمير المتكلم ومعه غيره وأنه يشعر بانه يعده منسوبا اليه . ثم سأل بعد رمضان عن ذلك وعلمنا ان الطبع في المطبعة الاميرية غير ميسور ولا من المصلحة،فطفقت أسأل عن المطابع ورجحت أولا مطبعة الاخبار وأخيراً مطبعة التوفيق القبطية، وبقي من مقدمات المشروع الوقوف على عناوين القراء الذين ترسل اليهم الجريدة لاجل الاشتراك فيها وكنت عرفت أفراداً منهم في القاهرة وغيرها . فشاورت الاستاذ في ذلك فكتب إلى نقولا افندي شحاده صاحب جريدة الرائد المصري (وكان من الذين يجلونه ويدافعون عنه) كتابا هذا نصه :

عزيزي الفاضل

بعد إهداء التحية أقدم لك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسي من أفاضل أهل العلم في طرابلس وهو الذي سبق الكلام معكم فيه، وانه يريد إصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر انه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة الاخبار .والرجاء أن تساعدوا حضرته باعطائه أسماء المشهورين من مشتركي جريدتكم من مأموري حكومة ومديرين وغيرهم ومن أعيان ومعتبرين في القطر المصري، وعندي يقين انه سينال منكم مايحب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين. ١٤ ماس سنة ١٨٩٨

محمد عبده

ذهبت بالكتاب إلى الرجل في إدارة جريدته (الرائد المصري) فرحب بي ووضع بين يدي دفتر المشتركين في جريدته وقال اكتب منه ما تشاء، واتصلت المودة بيني وبينه طول حياته وكان صادقا وفياً: فهذا كل ماساعدني به الاستاذ من رأي وعمل تمهيدي لاصدار المنار

ثم شاورته في اسم الجريدة فذكرت له اسم المنار مع أسماء أخرى ليختار منها او غيرها فاختار اسم المنار وكان احبها إلي لفظا ومعنى، ثم شرعت في تحريره في الاسبوع الذي صدر فيه فكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية وذهبت بها الى داره فعرضتها عليه فأعجبته جدا لاعجاب كما تقدم (ص ٩١٣) ولما صدر العدد الاول قال: كان ينبغي أن تكتب فيه مقالة أخرى في موضوع من الموضوعات الاصلاحية التي ذكرتها في المقدمة، فقلت موعدنا العدد الثاني، فلما صدر الثاني مفتتحاً بمقال طويل عنوانه (القول الفصل — محاورة في سعادة الامة) جئت به دار الاستاذ وكان عنده الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان فقرأه هذا كله والاستاذ الامام يسمع، وبعد الفراغ من قراءته أثنيا عليه ثناء جميلا وقال الشيخ عبد الكريم: انك لم تترك في هذا المقال شيئاً يقال في الموضوع، قلت هذا كله مقتبس من مولانا الاستاذ، قال الاستاذ كلا اني والله لم أتكلم معك في شيء من هذا، قلت وأنا لست بالمتملق انما أعني اني استفدت هذا المذهب ورويت من هذا المشرب، من قراءة جريدة العروة الوثقى

وماذكرت هذه المسألة هنا لاجل الثناء على نفسي بل لأبين كيف تأسست الصلة بيني وبين الاستاذ الامام في اتحاد المذهب والمشرب

ترويجه المنار بالثناء عليه

كنت كلما صدر عدد من المنار آتيه ببضعة أعداد منه ليراها أصدقاؤه وزواره من العلماء والفضلاء، ويهب منها لمن يشاء، وكان هو يثني عليها لمن رآها ولمن لم يرها عند المناسبة كما تقدم في حكاية الشيخ محمد المهدي (ص ٧٧٤) بل ذكرها

لسمو الخديو بما فهم منه انها له أو تعنيه (٥٨٠) وهذا جل ما كان يروج به المنار، إذ كان خلقه وأدبه يأبى عليه أن يطلب من أحد شيئاً لأجله ، وقد صار المنار كأنه له ، حتى كان بعض الناس يظنون انه هو الذي يكتب مقالاته المهمة وكنت أسر بهذا، حتى اضطررت الى التصريح في المجلد الرابع بأن كل ماينشر فيه غير معزو إلى أحد فهو لمنشئه

وقد كان من تأثير هذا النوع من الترويج أن المنار قوبل بالقبول والاحترام من أعلى الطبقات الاجتماعية في القطر المصري ، ومن ذلك ان أحمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الاهلية استشهد بكلام المنار في مقدمة الكتاب الذي ترجمه وطبعه في ذلك العهد (الاسلام خواطر وسوانح) فانه كتب مقدمته بعد صدور العدد الاول من المنار وهي في بيان حال المسلمين الذي نقل مؤلف الكتاب (الكونت دي كاستري) مانقل من طعن الصليبيين عليهم وعلى دينهم وبين خطأهم فيه بما علمه بالاختبار ، فقد بين فتحي بك في مقدمته له ما كان عليه الاسلام وأهله من المناقب والفضائل وماصاروا اليه من المخازي التي صاروا بها حجة على دينهم ومنها قوله

« وانحل عقد نظام المسلمين فأصبحوا أشتاتا يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط، ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوه، وبالغوا في التمسك به، حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيداً ، وترك الاسباب إيماناً، وترك الاعمال المفيدة توكلا ، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً ، وإيذاء المخالف في المذهب دينا ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا ، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا، والمهانة تواضعاً، والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليما ، والتقليد الاعمى لكل متقدم علما وايقانا)

قال لي أحد كبار المحامين الذين اشتركوا في المنار منذ السنة الاولى وظل مشتركا وفيا طول عمره (رحمه الله) انه لما ظهر كتاب احمد فتحي بك رئيس المحكمة الاهلية العلامة الكبير النفس ورأينا في مقدمته نقلا عن صاحب (المنار) تساءلنا عن المنار وصاحبه ، وأكبرنا استشهاد هذا الرئيس الكبير بكلامه من أول ظهوره، وكان هذا سبب اشتراكي فيه. ولقد كانت طبقة المحامين والقضاة الاهليين

الذين اشتركوا في السنة الاولى من المنار أكثر من سائر الطبقات المتعلمة، والظاهر ان السبب الاول لذلك رؤية المنار مكرما محموداً عند أعلى رجال القضاء مقاما: الاستاذ الامام وسعد زغلول بك واحمد فتحي زغلول، وحسن عاصم باشا، وقاسم بك امين وغيرهم من مستشاري الاستئناف ورؤساء المحاكم

وأخص طنطا بالذكر في هذا المقام فقد كان أكثر المحامين الراقين فيها من مشتركي المنار وأنصاره، وكان الداعي لهم إلى ذلك أحدهم مصطفى بك الباجوري من أصدق مريدي الاستاذ واخوانه وكان هو الوكيل على أطيان سعد بك زغلول وكان يكتب في حساب نفقاتها اشتراكه في المنار وفي الجمعية الخيرية الاسلامية (بأمر الاستاذ الامام) إذ هو الذي يدفعهما عنه

ومهما يكن من كثرة اشتراك رجال القضاء والمحاماة بالاضافة الى سائر المتعلمين المدنيين فلن تنهض بصحيفة أسست للاصلاح الديني قبل كل شيء، فان أكثرهم لا يحفل بهذا العمل لذاته، ولم يكن تأثير الاستاذ الامام وحزبه فيهم إلا تأثيراً معنويا كتأثير الوزير الكبير رياض باشا فقد كان يمدح المنار في مجالسه على مسامع زواره (رحمه الله تعالى) إذ لم يكونوا يدعون إلى نشره أو الاشتراك فيه بالصراحة، ولم يوجد أحد اهتم بتعميم نشر المنار من كبار رجال مصر إلا ابراهيم باشا فؤاد وزير الحقانية فانه كلم فتحي بك زغلول بل كلفه وضع مشروع لتوزيع ألوف من نسخه بثمن قليل ولم يتح لهما تنفيذ ذلك، وقد خبرني الخبر فتحي ولم أحفل به ولا شكرته له ولا حاولت العمل معه لتنفيذه، وهذا مما لا أنكر من سيئاتي وزهدي

مساعدة المنار المادية، وحياتي المالية

لم احتج إلى مساعدة مالية من أحد إلا مرة واحدة: سرق جميع ما في الادارة وأنا غائب في طنطا بسبب سياسي دبره بعض جواسيس الاستانة فاضطررت إلى رفع دعوى على السارق ولكنه فر وفتشت داره وحكم عليه، ولم يكن معي من الدراهم ما يكفي لتجديد العمل ثم لشراء المسروق عند العلم بوجوده لدى رجل أجنبي إلا باقتراض خمسين جنيها فقط أخذها لي الاستاذ الامام من محمد بك الوكيل

أحد أودائه (المحاسيب) وأخذ مني سندا بها ، وكان ذلك في أوائل السنة الثالثة للمنار ولم أتمكن من وفاء هذا الدين إلا في السنة الخامسة ، ففي هذه السنة كثر المشتركون في المنار من جميع الطبقات وكان من أكبر أسبابه مقالات الاستاذ الامام في موضوع (الاسلام والنصرانية) وكذا نشر سجل جمعية أم القرى

بيد أن هذا الانتشار قد تلاه عهد سخط سمو الخديو على الاستاذ وعلي ومقاومته لنا واغرائه العلماء والحزب الوطني وموظفي الخاصة بالصد عن المنار ، فكان الضرر المالي علي بهذا أكبر من ذلك الربح بنفوذ الاستاذ الامام ، وقد وقف على ذلك الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وشرحه لي شرح خبير بصير ، ونصح لي بان أقتصد في الثناء على الاستاذ والتنويه به لاسلم من أذى خصومه الاقوياء فيتسنى تعميم نشره ، وقد صرح بانه يخدم الاسلام خدمة لم تعهد من غيره ، وبان المسلمين في أشد الحاجة إلى هذه الخدمة وبأنه يجب أن يوجد المنار في كل بيت ، فأقنعت الشيخ علياً بان التنويه بالاستاذ الامام مقصود لذاته وهو اقناع العالم الاسلامي بزعامته ، إذ الاصلاح لايتم وينتظم إلا بزعيم موثوق به يكون مناط الوحدة له ، فاقتنع بذلك ، وقد شرحت هذه المسألة في ترجمة الشيخ علي يوسف في المنار عقب موته وذكرتها في الكلام على سعي الخديو للتفريق بيني وبين الاستاذ الامام من هذا التاريخ (ص٥٨٧)

والغرض من ذكر هذا وما قبله هنا دحض ما ظنه بعض الناس (الذين لايعقلون أن يكون بين الناس علاقة قوية ولا رابطة متينة إلا بالمنافع المادية) وقاله بعض الخصوم من أن صاحب المنار كان متشيعا للشيخ محمد عبده لاجل المنفعة المادية الشخصية ، وهذا ظلم لتاريخ كل منا ولتاريخ الاصلاح

لم يكن أحد منا ماديا ولا ممن يعنى بالمال ، ولو كنت أعمل للمال ، لكنت من أبعد الناس عن هذا الرجل الذي يعيش مثلي عيشة الكفاف ، ولقد كان خديو مصر أكثر منه مالا ، وأقدر على مساعدة من يخدمه بالمال من غير جيبه وقد فعل ، فكيف آثرت عداوته على مودته لأجله ؟

تلك المرة الاولى التي احتجت فيها إلى مساعدة مالية في مصر ، ولم أذكر

حاجتي له وقد كنت عنده كولده الصلبي وأخيه النسبي أو أعز وأكرم ، بل هو الذي سألني : هل لديك من الفلوس ما يمكنك من استمرار اصدار المنار بعد أن سرق كل ما في ادارته حتى الاجزاء السابقة؟ قلت لعلي أرجيء اصداره ريثما أكتب إلى صديق لي من طرابلس أعرض عليه مشاركتي فيه ، قال لايجوز تأخير اصداره فكم يكفيك لاستمرار العمل ؟ قلت خمسون جنيهاً . قال يمكنك أن تقترضها ، ثم استكتبني سنداً بخمسين جنيها من محمد بك الوكيل فأخذه ثم جاءني بها

وأظن انه كان يعتقد انه يكبر عليّ أن أقبل هـذا المبلغ منه لو بذله باسم المساعدة ، ويعتقد مع ذاك أنه يعز عليّ أن أرده عليه أيضاً ، وإن كانت علاقتي به كعلاقة الولد بوالده ، وإن أدري أكان يدري أيضا أنني لم أطلب من والدي لنفسي مساعدة مالية قط أملاً ، فانني كنت في الصغر أهابه فأطلب من والدتي ، وفي الكبر أحرى أن لا احتاج اليه ، و كان لي كسب أدبي يفي بحاجتي الشخصية حتى ثمن الكتب العلمية وهو كتابة الحجج الشرعية والعقود ، ومنه جمعت نفقة السفر إلى مصر ، ولم أطلب من والدي شيئا ، وكان لي قطعة أرض أملكها أيضاً ولم أحتج الى بيعها ، وعرض علي بشارة باشا تقلا بعد نقل الاهرام الى مصر أن أكتب لها مقالات في مقابلة نصف ليرة لكل مقالة وان كثرت وقصرت فلم أقبل

لله در الاستاذ الامام ، انه علم من أخلاقي وشعوري ما لم يعلمه أحد الى الآن ، بل علم من شؤوني في خويصة نفسي مالم أكن أظن انه يعلمه ، حتى حدثني به الامير حسين كامل (الذي صار سلطانا بعده) بمناسبة حديثي معه في مشروع مدرسة الدعوة والارشاد ، ولما رآني دهشاً من حديثه قال انني عرفت هذا من أستاذك وأستاذي الذي تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلما الخ

ومما يناسب هذا الحديث ان السلطان حسين كامل لما علم انني أريد الحج في سنة ١٣٣٤ طلبني الى قصر عابدين فقابلني رئيس الديوان محمود باشا شكري وقال لي ان عظمة السلطان طلبك ليقابلك ويسألك الدعاء له ، ولكن جاءه في هذا الوقت الامير داود وطلب مقابلته لعرض مسألة مهمة عنده فتأسف لهذا التعارض مع ميعادك ، وأمرني أن أبلغك ذلك مع سلامه وأقدم لك هذه الصرة من

الجنيهات للمساعدة على سفرك هذا . قلت له: أشكر مولانا السلطان وأعتذر عن قبول المساعدة . قال لماذا ؟ قلت لاني أريد أن أنفق على حجي من كسبي ، وانني منذ سنين مهيء مائة جنيه لا حج بها مع والدتي ، قال زيادة الخير خير . قلت نعم ولكن لا حاجة لي به ، قال يمكنك أن تتصدق بها ، قلت بل أتصدق من مالي بقدر سعتي ومجال الصدقة عند عظمة السلطان أوسع . قال احسب هذه ثمن دعاء لمولانا . قلت الدعاء عبادة لا يجوز أخذ الثمن عليه . وأنا أدعو للسلطان تعبداً أيضاً لان صلاح ولاة الامور مفيد للامة كلها . قال عطايا الملوك لا ترد ، قلت ان كثيراً من علماء السلف كانوا يردونها . قال وماذا أقول لمولانا السلطان عنك؟ قلت قل له ان هذا مقتضى خلقه الذي تعرفونه بالنقل عن أستاذه كما أخبرتموه بذلك ، والاخلاق لا تتغير . وانصرفت ،

ثم قلت لمحمود شكري باشا بعد عودتي من الحج : انني عازم على ذكر عطف مولانا السلطان علي فيما أكتب عن رحلتي الحجازية في المنار ، مع تلطيف ما ذكرته لسعادتكم من الاعذار . قال هذا لا يجوز وهو يسوء مولانا السلطان ، قلت اني أذكره باسلوب الثناء . قال : الترك يقولون في الشيء الممنوع « أولماز » فاذا كان المنع شديداً قالوا «هيج اولماز» وهذا من النوع الثاني

ولو كان أستاذنا حياً لسر مني بهذا الرد ، وقد كان هو يستطيع يوم حاجتي أن يأتيني بمائة جنيه أو أكثر من صديقه الامير حسين ولم أخذ منه مساعدات للناس ، ولكنه كان يعلم انني لا أسف الى هذه الدناءة ولا كان هو يحبها لي

على انه لامني مرتين على ماعده مبالغة في الزهد إحداهما رد مساعدة الخديو عند إرادة الحملة عليه في الفتوى الترانسفالية كما تقدم (ص ٥٨٦) والثانية مساعدة كان عرضها علي الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر المعروفة على الخليج الفارسي والشيخ محمد عبد الوهاب شيخ دارين في سواحل نجد الجنوبية ، وهما من أسخى أجواد العرب ، وكانا أرسلا إلي من طريق الهند رسالة تتضمن برقيات ورسائل رفعت إلى السلطان عبد الحميد في الدفاع عن ابن السعود وتفنيد ما زعمه خصومه من عداوته للدولة لاجل ان أبيضها وأصححها وأنشرها في جرائد مصر اليومية مع تأييدها ،

وسألاني عما أطلبه لنفسي وللجرائد التي أنشرها فيها . فبيضت منها عدة نسخ وأخذتها بنفسي إلى الجرائد اليومية المعروفة فنشرتها ، ثم كتبت الى مرسليها انني لا أطلب لنفسي شيئاً لان هذا العمل خدمة للامة و للدولة وانني لم أعط الجرائد شيئاً لانها لا تأخذ مني مالا للنشر ، فلما علم الاستاذ ذلك لامني وقال ان أحق ما يأخذ مثلك عليه المال خدمة الامة والدولة ، ومصالح هؤلاء الامراء والزعماء الاغنياء وتكاليفهم

علاقتي بالاستاذ روحية اصلاحية محضى

وجملة القول في هذه العلاقة انني كنت في عهد التحصيل أطلب العلم بباعث ديني محض مرشدي فيه كتاب احياء علوم الدين للغزالي وقد كان أكبر مؤثر في قلبي، ولي ان أقول كما قال الاستاذ الامام ان كل ما أحمد الله عليه من خير في ديني فسببه تصوف الاحياء ، إلا انه مشوب بضرر التزهيد الشديد في الدنيا بما لا يأمر به دين الفطرة الوسط ، ولو ان أسرة روتشيلد وأمثالهم من اليهود أرباب الدثور، ربوا أولادهم على تصوف الاحياء لفقدوا ثروتهم في الجيل الثاني. وأنا لم أشعر بضرر تزهيد الاحياء لي إلا بعد أن صار لي أسرة، ولكن علمت قبل ذلك ان مبالغة الاحياء في الزهد مخالفة لهدي الاسلام وانتقدته في المنار

ثم نفخت في العروة الوثقى روحا ثانية كما تقدم شرحه فعشقت صاحبها السيد في الدرجة الاولى والشيخ في الدرجة الثانية ، فصرت كما قلت في كتابي الى السيد « لا أتبوأ مجلسا ولا أفيض في كلام إلا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه ، أو متخللا أجزاءه وأقسامه ، إن لم يكن هو موضوع الكلام » ولم يكن أحد من علماء طرابلس وأدبائها يستطيع أن يقول في هذين الحكيمين كلمة سوء في مجلس أنا فيه ، إذ لا يكون لي بد من الرد عليه ، وكلهم من أصدقاء والدي أو أهل مودتي، ويجلون أسرتي فلا يحبون مغاضبتي ،

وقد جاء طرابلس بدري باشا من آل بدرخان متصرفا بعد حسن سامي الحرّ ، وبدري باشا هذا من أصهار الشيخ أبي الهدى عدو السيد جمال الدين، فلم يعد أحد يجرأ على مدح السيد في طرابلس غيري ، واذ كنا نسمر في مجلس المتصرف بداره

ليلة قرأ قارىء في جريدة (بيروت) خبر ثورة في بعض قبائل الافغان، فاطنبت أطري شجاعة الافغان، فقال مصطفى باشا الانجا ان السيد رشيد افندي يحب الافغان حباً شديداً يحمله على اطرائهم وما هم إلا وحوش ، فقلت انني أنا أحب واحداً من الافغان هو السيد جمال الدين ، وانما أتكلم عن الافغان بما أعلم من التاريخ (وكان السيد يومئذ حيا) فتعجب الحاضرون من هذه الجرأة ، وغير بعضهم الحديث خوفا من الفتنة (وقد آذى بنو الانجا وبدري باشا أهلي بعد سفري إيذاء شديداً لاجل أبي الهدى)

طار بي هذا العشق الروحي العقلي بعد وفاة السيد جمال الدين إلى الاستاذ الامام، وكان قد علم بحبي له وظن انه كحب الالوف من الناس للعلماء والفصحاء والكتاب والخطباء ، وبعد محاورات ومسامرات كثيرة تتابعت من أواخر رجب إلى العشر الاخير من شوال علم ان هذا الحب نوع آخر لم يعرف له ضريباً إلا حبه هو للسيد جمال الدين ،

ثم صدر المنار في ٢٢ شوال فعلم منه ومن استمرار المعاشرة ان صاحبه شبعان ريان، مفعم العقل والفكر والخيال والوجدان ، بحب الاصلاح الذي تلقاه هو عن الافغاني، قوي الاستعداد للجهاد في سبيله بكل ماأوتيه من حول وقوة ، وانه وقف حياته على هذا الجهاد ، ويرى من الواجب عليه دينا أن لايصده عنه شيء من المخاوف ولا المضار ، ولا من المال والجاه ، ولا يؤثر عليه آخر من فروض الكفايات الاخرى التي يقوم بها كثيرون اذا هي عارضته .

ولم يلبث أن ثبت هذا عنده بما علمه من سعي الحكومة الحميدية لاستمالة هذا الفتى وعرضها عليه ماشاء من الوظائف الكبيرة فيها ، ومن الرتب والنياشين ومن ذلك مكتوبات أبي الهدى افندى التي ذكرت في بيان علاقتي بالخديو (في ص٥٨١) ثم سرقة إدارة المنار ، ثم إيذاء حكومة طرابلس لوالد صاحب المنار واخوته بعد اليأس من استمالته ، ثم من ايذاء الخديو وحزبه وشيوخه وجرائده

وقصارى القول انه رأى منه فتى قد ربى نفسه بل رباه الله تعالى ذلك النوع من التربية التي اقترحها هو على السيد جمال في باريس وهو أن يذهبا لى مجهل من

معامي الارض وأغفالها لاترمقهما فيها الحكومات الفاسدة المفسدة لاجل أن يربيا عشرة من أذكياء أبناء المسلمين ويملآنهم مايمدانهم به لاستمرار العمل الذي شرعا فيه لتجديد الامة واحياء الاسلام . ولم يرقبله أحداً من تلاميذهما ولا من غيرهم قد رسخ في نفسه هذا المذهب، وروي من هذا المنهل، ووقف حياته على خدمته بالعلم والعمل

ثم رأى ان هذا الفتى هو الذي حمله بالالحاح على قراءة تفسير المنار في الجامع الازهر ، وانه هو جاءه بكتاب أسرار البلاغة من طرابلس وحمله على تصحيحه وتدريسه في الازهر لاحياء البلاغة العربية ، وعني بطبعه بمساعدته ، وانه ينشر في مناره مايقتبسه من دروسه ومجالسه بعبارة صحيحة فصيحة لا يأبى أن تعزى اليه ، ثم رأى تأثير ذلك في المجالس والمحافل المصرية ، (في المكتوبات والرسائل والقصائد التي تأتيه من هذه البلاد وغيرها)

ثم سافر الى تونس والجزائر فرأى ان له في كل من القطرين حزبا دينيا ومريدين من أرقى طبقات المسلمين لايعرفون عنه شيئاً إلا من المنار ومن مطبوعات المنار

كيف كانت منزلة هذا الفتى عند هذا الرجل المصلح الذي قال انه لم يرض الانتظام في وظائف الحكومة إلا ليجعلها وسيلة للاصلاح الديني في الازهر ، وهو لايرى لأحد قولا ولا عملا يساعده عليه إلا مواتاة الشيخ عبد الكريم سلمان له في أعمال الازهر الادارية المحض؟ لايمكن لأحد أن يعبر عن منزلته عنده غيره ، وسيأتي ماقاله فيه

علاقتنا في المعاشرة العادية

وأما المعاشرة فقد كان يذكر لي في كل لقاء أوقاته التي يفرغ فيها للتلاقي اذا جئته فيها كما تقدم ، فكنا نكثر الاجتماع في الدار والازهر وفي بيوت خواصه كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وأحمد فتحي بك زغلول وحسن باشا عبد الرازق وغيرهم . ولكثرة مايراني الناس معه كنا كاللازم والملزوم اللذين لاينفك أحدهما عن الآخر ، ولما كثرت أعمالي منذ السنة الثالثة بالاشتغال بادارة المنار وحساباتها فوق الاشتغال بتحريرها وتصحيحها ، قلّ هذا التلاقي ، ففطن

لذلك بعض اصحابه فقال له مالي لا أري فلانا معك كالعادة ؟ أظنه قد استغنى عن مساعدتك فتركك ؟

فأجابه الاستاذ : كلا ان فلانا كان قليل الاعمال فكان يقضي جل أوقات فراغه معي لانني أعز اصدقائه، وقد كثر الآن عمله فقل فراغه الذي لا يزال يصرف أكثره معي، ولم يكن للحاجة الى المساعدة أدنى تأثير في اجتماعنا أولا ولا آخراً كما تظن

وكان اذا صادف فراغا في وقت لامواعدة بيننا فيه يزورني في ادارة المنار وقد جاءني مرة بعد الظهر فقال هل عندك شيء يؤكل فان عندي عملا منعني من الذهاب للغداء في الدار ؟ قلت يوجد نصف رغيف من الخبز الجيد الافرنجي ، وقطعة من الزبد باقية من فطوري، فان شئت ضممنا اليها ابريقا من الشاي الابيض الصيني، وإن شئت أحضر الخادم لك من المطاعم ما شئت (وكنت في تلك الايام أتغدى وأتعشى في المطاعم لانني وحدي) قال هذا يكفي وهو من خير ما يؤكل أو قال خير ما يؤكل

ولما جاءت والدتي لزيارتي مع بعض الاخوة صار كل طعامي في الدار وكان الاستاذ الامام يقترح عليّ أن تصنع الوالدة نفسها لنا بعض الاطعمة الطرابلسية الممتازة ، وأمر أهل بيته أن يسألوها عن بعض هذه الاطعمة كيف تعالج في طرابلس

وذكرت له ان والدتي انما جاءت مصر لتقنعني بان تزوجني فما رأيك؟ قال إن كان عندك فراغ من العمل تبذل فيه ثلاث ساعات او أكثر كل يوم في الكلام الفارغ مع النساء فتزوج، وذكر لي طباع النساء وإشغالهن للرجل بكثرة الكلام الفارغ . وان مواتاتهن خسارة والاعراض عنهن مصيبة — وضرب لي المثل بنفسه و ببعض أصدقائه،فعلمت انه لا يحب أن يشغلني عن عملي بالزواج. وذكرت لي الوالدة ان زوج الاستاذ قالت له: لماذا لا تعطي السيد رشيد ابنتك فلانة وأنت لا تحب مفارقته ؟ فقال لها إذا كان هو لا يريد أن يتزوج أفأقول له أنا تعال أزوجك؟ وقد صرفت والدتي يومئذ عن هذه الفكرة وما إمكنها إقناعي بالزواج إلا بعد وفاته

وكنت اذا عاقني شيء عن الدرس من شكاة أو غيرها خرج من الدرس إلى رؤيتي في إدارة المنار ولم يصبر إلى الصباح. واشتكى مرة فأرسل إلي رقعة من رقاع

الزيارة يخبرني بشكاته ويدعوني إلى رؤيته، حتى قال أنتظر مجيئك وإن أوغلت في الليل ما شئت ولكن في غير تخويف . ولم آس على شيء ضل عني من آثاره الخطية مثل هذه الرقعة

ولما جاء والدي لزيارتي في السنة الثانيـة من هجرتي وكانت الحكومة في طرابلس أرسلته لاجل استمالتي والتأليف بيني وبين الشيخ أبي الهدى وصل مساء فشغلت به عن الدرس فسأل الاستاذ عني بعض اخواني . فقيل له جاء والده، فخرج من الازهر إلى إدارة المنار للسلام على الوالد ولم يؤخر ذلك إلى الصباح

وقد كتبت للشيخ أبي الهدى كتاب مودة بأمر الوالد وكلفت الاستاذ أن يكتب له مثله ويرسل اليه نسخة من رسالة التوحيد ويكتب اسمه عليها - ففعل على ما كان من كراهته له ، وقد سر بذلك الشيخ أبو الهدى وأرسل اليه كتابه وتقريظا شعريا للرسالة قال فيه :

أخذت رسالة التوحيد منكم فصح الاتحاد بلا اتحاد
وأعجبني انتساق الدر منها وجدد عهـد ود في الفؤاد
نعم فيهـا اختيارات ونسج دقيق فيـه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها منزهة بحكم الاعتقاد
فدم نساج در هدى ثمين مفيـد للعباد وللبـلاد

هكذا كانت الصحبة بيننا، كنا كأولي القربى الابرار في البيت الواحد، ليس فيها أدنى تكلف، وما كنت أذهب اليه في أيام الاعياد حيث يكثر الزائرون إلا عن مواعدة ،قال لي مرة انني عازم على عدم الخروج غداً للقاء المهنئين بالعيد ، فاذا جئت فتجاوز حجرة الاستقبال (المندرة)واستأذن علي في داخل الدار، ففعلت فوجدت احمد فتحي زغلول قد سبقني اليه فظللنا نبحث في المسائل الشرعيـة والاجتماعية إلى مابعد الظهر والناس يجيئون أفواجا في كل قطار فيجلسون في المندرة ويعودون في قطار آخر

وكان مما دار البحث فيه يومئذ مسألة الاجماع عند الاصوليين أنكر الاستاذ حجيته ووافقه البيك فقلت ان الادلة التي يذكرونها على حجيته لا تنطبق إلا على

بإجماع الامة التي يمثلها أهل الحل والعقد . قال الاستاذ لو أرادوا هذا لما انكره عاقل وهو ضروري في كل زمن

حياتنا العملية المعنوية في الاصلاح

وأما حياتنا المعنوية فكنا كروح واحدة في جسدين ، كان يكاشفني بجميع افكاره وأسراره في علاقته بالحكومة والخديو واللورد كرومر ورئيس النظار ، وفي أعماله في الازهر ومجلس الشورى ومجلس الاوقاف الاعلى، ويعهد إليّ بكتابة بعض المقالات في الجرائد لتأييد رأيه وتفنيد آراء مخالفيه في بعض المسائل أو الاعمال ونشر كل منها في الجريدة التي تليق بها بامضاء تناسب الموضوع ، كازهري ، أو حقوقي ، أو مسلم .... وكنت أنشر بعضها في المؤيد وبعضها في المقطم وبعضها في الاهرام وكذا الرائد المصري ، وأحيانا كان يرسل إلي إحدى الجرائد وعليها إشارة منه الى شيء لاجل الرد عليه ، وقد يكتب بجانبه أو على ورقة أخرى موضوع الرد والايماء الى الروح الذي يبرز فيه من شدة أو لطف أو تهكم أو تجهيل ، ولا يزال لدي شيء من هذه الاوراق

وكان يعهد إلي في بعض الاوقات بكتابة المكتوبات الشخصية لاصدقائه سواء أكانت مبتدأة كتهنئة أو تعزية أم رجع كتاب منهم، أو جوابا عن سؤال من غيرهم ، وقد ذكرت نموذجا من هذين النوعين فيما تقدم ، وتارة كان يطلب مني أن أكتب له بعض النصوص أو الاحاديث في بعض المسائل ، وسأله بعض الناس لاأدري في أي البلاد أن يرسل اليهم برنامج لمدرسة اسلامية أنشئت أو يراد انشاؤها وطريقة التدريس فيها فعهد إلي بذلك ففعلت ولا يزال لديّ بعض أوراق المسودة التي كتبتها لذلك. وقد مر من الشواهد والمثل على هذا في الفصول السابقة ما يغني عن الاطالة فيه هنا

السعاية والدسائس للتفريق بيننا

بعد هذا كله وبعد ما تقدم في معناه طمع بعض الحاسدين في التفريق بيني وبينه بما تقدم بعضه ، وأذكر هنا ماهو أغرب منه

ذكرت في الكلام على وفائه لاصدقائه ووفائهم له أن محمد حافظ (بك) إبراهيم عثر في أثناء سفر الاستاذ الامام الاخير على ائتمار بعض الناس لابعادي وابعاده عنه بعد عودته من هذا السفر ، فأنا أبسط ما يخصني من ذلك هنا بقدر مافيه العبرة ، وأغرب مافيها أن المرحوم الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ألصق أتراب الامام وأصدقائه به كان رئيس هؤلاء المؤتمرين ومستشارهم وعميدهم فيما يرجون من نجاح سعايتهم ، وكانوا يجتمعون في دار المرحوم الشيخ عبد الرحيم الدمرداش (باشا) ، وممن حضر مجلسهم وأخبرني بعد خيبتهم انه كلف ـ أو انتدب ـ للشهادة أمام الاستاذ ببعض ما دبروه الدكتور عبد الرزاق افندي المنزلجي الذي كان طبيباً في المحافظة

فلما عاد رحمه الله تعالى من سفره ذاك مغتبطاً أشد الاغتباط بما رأى في تونس والجزائر من تأثير المنار في نشر أفكاره الاصلاحية ووجود حزب كبير له فيها ، طفق يسمع تلك الاقوال المروزة المزورة [1] من أناس لا علاقة بينهم تشعر بالتواطؤ أو ارادة السعاية ، منها ماسمعه في دار الدمرداش ومنها ماسمعه في عقر داره بين أهله وولده ، فكانت أثقل على سمعه من الكتاب المفتوح الذي أملته وساوس فرح افندي أنطون العصبية

وقد أضاع الشيخ عبد الكريم حلمه الواسع فأظهر ماكان يكتمه منذ سنين من الامتعاض مني إذ ظن أن مادبروه كاف لفوزهم فيه ، حتى ان حموده بك أطلعه

(١) روز الكلام أو الرأي في نفسه ترويزا أي دبره وتروى في ترتيبه وتقديره ليكون مقبولا. والتزوير معروف

على ساعة نفيسة حملها الاستاذ من أوربة ليهديها إليّ فأخذها ووضعها في جيبه وأقسم بالله لن يعيدها، فسكت حموده ولم يخبر الاستاذ بذلك

ولما آن لهم أن يتثلوا كنانتهم ، ويؤدوا أمانتهم ، قال أجرؤهم والاستاذ الامام حاضر في دار الدمرداش : ان صاحب المنار يطعن في علم الاستاذ ويقول انه هو الذي يحضر له دروس التفسير ، ويقول، ويقول ، وصدقه غيره وزاد عليه، وقفا إثرهم الاستاذ الشيخ عبد الكريم (عفا الله عنه وعنهم) فقال: لاغرابة فالشيخ رشيد رضا صار مستغنياً عن الشيخ محمد فهو يقول ماشاء ولا يبالي، وانما الغرابة في اصرار الشيخ على مودته ورفع شأنه كعادته مع أمثاله، وهو في غنى عنه ، فان كانت مزيته انه ينقل عنه التفسير وينشره فانه يوجد كثيرون يقومون مقامه في ذلك

حينئذ غضب الاستاذ وقال ـ كما حدثني بلسانه ـ ليس فيكم كلكم أحد مثله أو يقوم مقامه ، ائتوني بواحد مثله وانا أترك صحبته ، انه لم يقل ولن يقول شيئاً مما ذكرتم ، ولو قاله لما صح ان يكون له من الاثر ماتريدون ، وقد آن أن أقول لكم ان الله بعث إلي بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري، إن في نفسي أموراً كثيرة أريد ان أقولها او أكتبها للامة وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، واذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه فانه يكتبه كما أحب، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، واذا قلت له شيئاً مجملا بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل، فهو يتم مابدأت ، ويفصل ما اجملت. وقد رأيت في سفري هذا من آثار عمله وتأثير مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لي أحزابا ، وأوجد لي تلاميذ وأصحابا، ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة إليّ ، واستغنائه الآن عني ، ماذا كانت تلك الحاجة ؟ وماذا عملت له ؟ أنا والله في خجل من نفسي انني لم أعمل له شيئا ، وهو قد عمل لي كل شيء ، عمل لي ما لم يعمله أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم الخ ، فسكت الجماعة واجمين مدحورين ، وأحال الشيخ عبد الرحيم الجد هزلا ، والذم لصاحب المنار مدحا

ولكن الاستاذ الامام أعلى الله مقامه ، وأجزل ثوابه في دار الكرامة ، أرسل عقب ذلك إلى زميله القديم ، وصديقه الحميم ، الاستاذ الشيخ عبد الكريم « إما أن تكف عن السيد رشيد واما أن أستغني أنا عن صحبة أربعين سنة »

أخبرني الاستاذ الامام هذا الخبر وقال لي انني أشعر منذ زمن طويل بان الشيخ عبد الكريم غير راض عنك ، وقد فكرت طويلا في مخالفته لي في هذا فلم أهتد إلى سببه ، وأقرب ماخطر في بالي إلى العقل أنه يشعر من حديثك معه انك لاتعده من العلماء ، وما كنت أظن ان مافي نفسه منك يصل معي إلى هذه الغاية ويضطرني إلى هذا الانذار

قلت واني أشعر بما شعرت به بل أنا أولى بذلك ، لان دعابته في التعريض بي تخزني وخزاً ، وقد تكزني وكزاً ، ولا اشك في انبجاسها من عين آنية ، ونية غير صافية ، ولكنني أتغابى لأجلك ، ولم أتعمد التعريض بقلة علمه ، ولا الايماء إلى توهين فهمه ، إلا أن يكون شيء من فلتات اللسان ، ولا يبعد حينئذ أن يكون عن كامن الوجدان .

وأقول الآن لقد كان الشيخ عبد الكريم أجدر من غيره بادراك الرابطة الاصلاحية التي جمعتنا ، والعروة الوثقى التي اعتصمنا بها ، وانه لأحق مني بقصد المنفعة الدنيوية من صحبة الاستاذ ، فانه هو الذي نظمه في خدمة الحكومة أولا في المطبوعات معه ، وأخيراً في جملة قاضياً في المحكمة الشرعية العليا وهو شافعي المذهب . وقد تقدم انه لما نكب الاستاذ في عاقبة الحوادث العرابية رأى من مصلحته المالية أن يتكلم فيه ، وان سعد أفندي زغلول قد اعتذر للامام عنه (ص ٢٧٨)

فان كان حب المنفعة ينافي الاخلاص في المودة فانا المخلص دونه . ولعل الاستاذ كان يريد أن يجعل لي وظيفة علمية في الحكومة اذ رغبني في طلب الجنسية المصرية وتقييد اسمي في دفاتر الانتخاب فلم أفعل (وانما فعل هذا لي

أخي بعد وفاته بسنين) وقد علم أني أكره خدمة الحكومة ورتبها ونياشينها طبعا ودينا ، كما أبيتها من الدولة العثمانية فعلا

والسبب الصحيح فيما كان من امتعاض الشيخ عبد الكريم مني وتبرمه بي في السنين الاخيرة هو انه رآني قد حللت محله في صحبة الاستاذ بل اربيت عليه وفقته في الاتصال به ، حتى ان أكثر الذين كانوا يلوذون به لتقريبهم اليه قد انصرفوا عنه الي ، وان كانت مودتهما لم تتغير ، وثم سبب آخر يعزز هذا السبب ويقويه ، وهو كراهته للسوريين ، لا استثني منهم إلا الامير شكيب ارسلان ، فانه حل من نفسه محلا كريما عند مازار مصر ، لفكاهاته الادبية ، ونوادره اللطيفة ، على مكانته من حب الاستاذ الامام له وتكريمه إياه ، وللدعابة موقع من نفسه معروف يعلو بها عنده صاحب المفاكهة ، وحاضر النادرة ، ولعله لو أقام بمصر لكان نصيبه منه مثل نصيبي أو على مقربة منه

ولم تصف مودته لي إلا بعد وفاة الاستاذ الامام ، لان سبب الكراهة قد زال ، ورأى أنني كنت بعد موته أشد محبيه أسى وحزنا ، ومدحا وثناء ، وعناية باحياء ذكره ، ثم أساء الظن بي لتأخير إصدار هذا الجزء من التاريخ إذ ظن ان سبب ذلك عودة الخديو إلى الاقبال علي ، ومساعدته إياي على مشروع الدعوة والارشاد ، ولما علمت ذلك أعطيته ما كنت طبعته منه وهو ينتهي إلى ص ٢٣٢ وأخبرته بما بعده من المواد وسألته : هل يوجد في البلد حرية تبيح لي نشر هذا ؟ قال لا . قلت فما تقول فيما بعده وهو أشد منه على الانكليز وعلى الخديو معا . وذكرت له ما كان معارضة فتحي باشا زغلول لي في حرية الكتابة ، فاعترف بعذري عن اذعان ، وعاملني معاملة أخلص الاخوان

وهذه المسألة قد اشتهرت في ذلك الوقت وأشار اليها محمد حافظ ابراهيم معرضاً بالشيخ عبد الكريم في قصيدته التي هنأ بها الاستاذ الامام في عودته بقوله :

شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا ... وولائي في عنفوان الشباب

وانني أذكر بمناسبة قول الاستاذ الامام لي ان الشيخ عبد الكريم ربما كان يتهمني بانني لا أعده عالما اننا كنا مرة في احتفال وليمة عرس لبعض اصحابنا مع بعض الادباء فطفقوا يتناشدون بعض فرائد الشعر ، وما يعن لهم فيها من النقد ،

فأنكرت بعض ماوقع لبعضهم من الخطأ اللغوي او البياني ومنه ماقاله او وافق قائله الشيخ، ثم خطأني هو في قول قلته فأتيت بالحجة على صحته وأنشدت قول السموأل

ونكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فكان هذا اشد ما واجهت به الشيخ عبد الكريم فيما أذكر

ولما توفي الاستاذ ونشرت الجرائد يوم دفنه الابيات التي قالها قبيل وفاته ساء الشيخ عبد الكريم نشرها لان قوله فيها

فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيد يضيء النهج والليل قاتم

صريح فيما فهمه كل الناس من انه يعنيني به، وقد تحدثوا بذلك في حفلة المأتم، فهم الشيخ عبد الكريم بان يكتب الى الجرائد بأن تكذب عزو الابيات إلى الاستاذ ، ولكن اخبره مصطفى بك الباجوري وحموده بك وكذا الشيخ احمد المحمصاني انهم سمعوا الابيات منه وكتبوها عنه في الاسكندرية فأمسك عن تكذيبها واجماعا خطأ

وجملة القول اننا عدنا الى الصفاء والوفاء ، اللذين يليقان باقرب الناس الى قطب الوفاء والاخلاص، حتى صار الشيخ عبد الكريم يزورني في داري ويأكل طعامي، ويسأل عن اولادي ويكرمهم كعادته الحميدة مع اولاد اصدقائه . عفا الله عنا وعنه

هذا ما كان من كيد اللاجنة في آرائها المروزة ،وأقوالها المزورة، وعاقبة رازها الاكبر الذي تولى كبرها ، وتفصي مهازلها الامهر الذي تلافى امرها

وكان وراءها دسيسة نسائية ظنت انها ابعد عن الظنة، وأدنى إلى إثارة نقع الفتنة ، وهي مانفثوه في صدور بعض السيدات من أولي القربى من تهم صدقنها، علماً منهم بانهن لا يصبرن عن إذاعة سرها : فبينا الاستاذ الامام في داره بين اهله وجماعة اسرته ، الذين اجتمعوا للحفاوة بعودته ، إذا هو يسمع من بعض النساء وسوسة غير وسوسة الحلي ، وإذا بصوت يرتفع بذكر الشيخ رشيد رضا ، وإذا بكريمته الكبرى (رحمها الله تعالى) تقول قد تسرب من محافل الرجال، إلى خدور ربات الحجال : ان دخيلة هذا الرجل قد تكشفت ، وسريرته قد افتضحت ، وانه يصحب أستاذه للتجسس عليه ،لا لتلقي العلم منه

قال الاستاذ : ماهذا؟ من يقول هذا؟ قالت يقولون او يقلن انه جاسوس عليك

قال لمن؟ ان التجسس في هذا البلد لا يكون الا لاحد رجلين: الخديو وهو قد عاداه لاجلي. واللورد كرومر وهو لم يعرفه ولا يحب ان يعرفه، والا لكنت انا الذي اعرفه به

ثم خاف ان يسمع اكثر مما سمع فيغضب فيقول ما يجرح شعور السيدات، فتلافى ذلك بأن التفت إلى اخيه حموده بك فقال له: انظر ياحموده! انك إذا كنت لا تستطيع ان تكون والسيد رشيد كالاخوين المخاصين فلا يمكنك ان تعيش معي في هذه الدار، فأخذ بهذه الكلمة النار، وهو الذي قص علي الخبر

ما كان ينتقده الاستاذ على المنار

كان أحسن الله اليه ينتقد علي في المنار أموراً يذكرها لي عند وجود ما يذكره بها

(أحدها) الصراحة التامة والشدة في إظهار الحق وكان يعبر عن ذلك بقوله ما معناه: انك كثيراً ما تبرز الحق عريانا ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للناظرين، ويهون قبوله على المبطلين، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل، وقلما يكون للداعي اليه صديق، وانه لابد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد اعراضهم عنه. وكان يعجبه من مقالاته ما جعلته باسلوب المناظرة كمحاورات المصلح والمقلد فموضوعها أشد ما كتب وطأة على الجامدين المقلدين ولم يسمع من أحد منهم شكوى منها ولا قدحاً في كاتبها

(ثانيها) كان يقول لي مراراً ان المنار في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئين حتى العوام، وقد تحريت موافقته في هذا حتى إن قارئي المنار ليجدون من غريب اللغة في السنة الاولى ما لا يجدون فيما بعدها ولكن بقي اكثر مباحثه للخواص بالرغم من ذلك التحري

(ثالثها) الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الاحيان، وهذا مما كنت أكرهه أنا أيضا فيعرض لي من الضرورة ما يحملني عليه وجل عملي المهم منها كان سريا وقد أشرت الى ذلك في فاتحة المجلد ١٢ من المنار سنة ١٣٢٧ بقولي «سالمنا السياسة فساورت وواثبت، واسلسنا لها فجمحت وتقحمت، وكنا نهم بها في بعض الاحيان، فيصدف بنا عنها الاستاذ الامام، ولم ننل منها ما نهواه، الا بعد ان اصطفاه الله »

بعض أقواله في خطة الاصلاح والتجديد

(والقائم بها على أثره واثر السيد جمال الدين)

كان الاستاذ الامام قدس الله روحه يصرح في المناسبات المختلفة بهذا المعنى للافراد أو الجماعات، حتى صار معروفاً عند من يعنى بهذا الامر، من مسلمي الشرق والغرب، ولا سيما بعد وفاته، واشتهار أبياته، وصار الناس يكتبون هذا ويقولونه لنا: فأصدقاؤنا ومحبو الاصلاح يقولونه ثناء ودعاء، وخصومنا يقولونه تهكماً واستهزاء.

ومن ذلك ان مولانا الاستاذ احمداً آزاد المكنى بأبي الكلام، أحد زعماء الهند وعلمائها الاعلام، لما أنشأ مجلته (الهلال) الاوردية الاصلاحية ذكر في صدرها صور الثلاثة مع الكلام عنهم: السيد جمال الدين الافغاني. الشيخ محمد عبده. السيد محمد رشيد رضا. فيبيح لي هذا التاريخ الحر أو يوجب علي أن أثبت فيه ما سمعته منه أو رويته عنه وهو قليل من كثير لا يزيد على عشر كلمات — أعيد قبله ذكر كلمته الخطية في المنار التي سبق نشرها في ضمن كتاب له (ص ٨١٠) وهي

(كلمته الخطية في خطة المنار التجديدية)

وهب لم يرد في القرآن الا متعديا باللام ولا أحب ان أخالفه ولو الى صحيح. الناس في عماية عن النافع
وفي انكباب على الضار فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار فان الرغبة في المنار تقوى بقوة
الميل الى تغيير الحاضر بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء
قليلا والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ولكن ذلك لا يضعف الامل في نجاح العمل

محمد عبده

« وهب لم يرد في القرآن الا متعديا باللام ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح. الناس في عماية عن النافع، وفي انكباب على الضار، فلا تعجب إذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر، بما هو أصلح للآجل، وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا. والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا. ولكن ذلك لا يضعف الامل في نجاح العمل »

الكلمات العشر

(الكلمة الاولى) قوله لصديقه محمود سامي باشا البارودي انه يرجو ان أكون خلفه في القيام بالاصلاح الذي خلف به السيد جمال الدين ، وقد ذكرته في أول هذه الخاتمة (ص ٩٩٥)

(الكلمة الثانية) قوله لحسين دانش بك الذي كان سكرتير محمود باشا الداماد صهر السلطان العثماني عند ما كان في مصر مع الداماد ونجليه البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله في سنة ١٣١٧ . ثم صار سكرتيراً لمصلحة الديون العثمانية في الاستانة وكان شابا بحاثا في الشؤون الدينية ميالا إلى الاصلاح الاسلامي فاغتنم فرصة وجوده بمصر للقاء الاستاذ الامام فصاحب المنار ، وقد أخبرني ان الاستاذ قال له في أثناء حديث معه : انني مارأيت أنهض من هذا الشاب (صاحب المنار) بالتوفيق بين الدين والعقل . و بين الشريعة ومصالح البشر المدنية الموافقة لهذا العصر »

(الكلمة الثالثة) لسماحه السيد محمد توفيق البكري وهو بمعنى كلمته للبارودي . قال لي الاستاذ البكري : كنت راكبا مع شيخنا (الاستاذ الامام) في ليلة من ليالي رمضان بشارع درب الجماميز فذكرت ما من الله عليه من العلم والحكمة وخدمة الاسلام وقلت له : إلى من نرجع فيما خصك الله به من ذلك اذا لم تكن موجوداً ؟ (وقد عنى بذلك وفاته) فقال له : إلى الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار

(الكلمة الرابعة) ماصرح به في درس التفسير بالجامع الازهر : تأخرت عن أول الدرس ليلة فأردت الجلوس حيث وجدت محلا وهو بعيد عنه فناداني تعال إلى هنا ، وخاطب الحاضرين بقوله : انه يفهم اويستفيد أكثر من كل واحد منكم (ص ٧٦٩) وقد ذكرني بهذه الكلمة الاستاذ الشيخ حسن منصور من عهد غير بعيد

(الكلمة الخامسة) للاستاذ الشيخ احمد إدريس رفيقه في تفتيش المحاكم الشرعية وهو من أبرع قضاة هذه المحاكم وقد ارتقى إلى المحكمة العليا . ذكر لي انه لما كان معه في الاسكندرية كلمه بعض أصحابه مستنكرين لشيء نشر في المنار عن الدولة العثمانية فقال له بعضهم نرجو أن تمنع صاحب المنار من نشر مثل هذا «

فقال لي اسمع مايقولون ، انني والله لاأعرف أحداً في الناس مستقل الفكر مثل هذا الرجل ، وانما أنا أكامه في كل موضوع بالدليل

والمراد من ذكر هذه الكلمة هنا انني كنت معه على طريقته وطريقتي في الدين والعلم وهي حرية العقل واستقلال الفكر واتباع الدليل ، وقد اشترطتها في الأخذ عنه من أول يوم (ص١٠٠٣) فقد استفدت منه حكمة وعلماً ، وأدباً جماً ، ولم أقلده في شيء منها تقليدا ، بل كنت أوافقه بالاقتناع كثيراً ، وأخالفه وأناقشه بالدليل قليلا ، لاننا متفقان في المبادىء والمقاصد والغاية والنية ولله الحمد

(الكلمة السادسة) للاستاذ الشيخ محمد شاكر إذ بلغه عن الخديو انه انما يرضى عنه اذا أبعد صاحب المنار عنه فقال : كيف أرضى بابعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان أفكاري (ص ٥٨٦)

(الكلمة السابعة) لبطرس باشا غالي وزير الخارجية إذ بلغه عن الخديو مثل مابلغه الشيخ شاكر وان سموه أرسله اليه بذلك وانه اذا ترك صحبة صاحب المنار يفوض له العمل في الازهر . قال انني أفضل أن أعيش مع صاحب المنار في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس إدارة الازهر لان هذا الرجل متحد معي في العقيدة والرأي والخلق والعمل الخ (ص ٥٨٦)

(الكلمة الثامنة) ماقاله للشيخ عبد الكريم سلمان وقد ذكرته آنفا من عده إياي مدداً لحياته ، في اتمام ما بدأ ، وتفصيل ما أجمل (ص ١٠١٨) وأهمه عنده التفسير كما صرح به في أبياته الآتية

(الكلمة التاسعة) ما قاله لي في سياق الكلام في الاصلاح وما كان عرض له من كتابة وصيته للمسلمين . قال : مرضت مرضاً شديداً اشرفت به على الموت فطلبت دواة وقلما وورقا لأكتب وصية فيما يجب على المسلمين من الاصلاح بعدي ، فلما أحضرت علم أهل البيت انني شعرت بقرب الاجل ، فطفقن يبكين حتى علا نشيجهن فلم أستطع الكتابة حينئذ

قلت لعلك كتبت بعد ذلك . قال بل شعرت بالصحة ورجوت العمل

قلت : هذه الوصية ضرورية للامة وإذا كتبتها في حال الصحة والقوة تكون

ثم قال «انه لم يبق من حاجة اليها . فالمراد منها صار معروفا» وأومأ اليه إيماء لطيفا . . .

﴿ الكلمة العاشرة ـ أبياته قبل الوفاة ﴾

لما مرض الاستاذ الامام مرضه الاخير كنت أعوده بداره في عين شمس كل يوم وأقرأ عليه ما كتبه الشيخ عبد الكريم من رسالة (أعمال مجلس ادارة الازهر) فيصحح فيها ويزيد او ينقص منها ، وقد أملى علي تقريره عن امتحان مدرسة دار العلوم وهو في سريره فكتبته . ولما سافر إلى الاسكندرية سافرت معه وكنت أقيم عنده أياما وأعود إلى القاهرة فأنظر في أعمال ادارة المنار ثم أعود إلى الاسكندرية دواليك ، ولما اشتد عليه المرض أذيع وأنا في مصر انه توفي ، فكدت أقضي من الغم وبت تلك الليلة بعد تكذيب الخبر ولما استيقظت وجدت على مخدتي دما قد خرج من في وأنا نائم . وفي الصباح عدت إلى الاسكندرية فلما قابلته قال لي :

قد جاش في نفسي الشعر في غيبتك كأني لا أقول الشعر إلا في الحبس او المرض ـ يشير إلى القصيدة التي نظمها في السجن في عاقبة الحوادث العرابية وقد تقدمت (ص ١٥٠) وأنشدني هذه الابيات فكتبتها عنه واحداً بعد واحد وهي :

ولست أبالي ان يقال محمد أبلّ أم اكتظت عليه المآتم (١)
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائم (٢)

(١) أبل المريض شفي من مرضه واكتظت المآتم امتلأت وازدحمت بالناس والمآتم جمع مأتم وهو مجتمع الناس في الحزن وهو في أصل اللغة عام في الحزن والفرح ثم غلب على جماعتهن في المصائب ثم نسيت هذه الغلبة

(٢) قضاء العمائم يعني أهلها على الدين قد يكون بتركهم اقامة كتاب الله وسنة رسوله في هدايته والدعوة اليه على بصيرة وهي الحجة ، وباتباعهم للبدع والعادات المضيعة له ، وقد يكون بمعاداتهم للعلوم والفنون التي هي قوام الدول والامم باسم الدين فيكون المشتغلون بها بعداء عن الدين معتقدين انه آفة العمران بل يمرقون منه ويعادونه وأصحاب العمائم عاجزون عن الجمع لهم بين مصالح الدنيا والدين فلا يبقى على تقاليد الدين الا أفراد لا تقوم لهم قائمة

وللناس آمال يرجّون نيلها — اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيارب إن قدرت رُجعى قريبة — الى عالم الارواح وانفض خاتم (١)
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا — رشيداً يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقاً وعلماً وحكمة — ويشبه مني السيف والسيف صارم

ونشرت الجرائد في خبر وفاته الخمسة الاولى وضبطت الثاني هكذا :

ولكن ديناً قد أردت صلاحه — أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وقال لي بعد كتابتها انه خطر في باله أبيات أخرى فكتبتها عنه . ورأيته قد ترك فيها ألف التأسيس في كلمة القافية كأنه أذهله عنه الألم ولم أنشر منها في المنار إلا هذا البيت الذي نشرته إحدى الجرائد الاسبوعية أيضاً وهو قوله في صفة المرشد الرشيد :

ويخرج وحي الله للناس عاريا — عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم

ولما أنشدني الابيات طفق الشيخ عبد الرحيم الدمرداش يمازحه كعادته لاجل التسلية فقال له : أنا أشتغل ليلا ونهارا بخدمتك وتكبيس رجليك (وزاد على ذلك كلمة دعابية) ثم توصي للشيخ رشيد وتجعله خليفة لك، ياضيعة الخدمة!!

وهذا البيت الاخير آخر نص صريح من الاستاذ الامام في اتباع مذهب السلف في تفسير القرآن وهو ينبوع الاعتقاد وأصل الدين ،ومراده بالرأي الذي ينهى عنه اتباع الهوى لتاييد المذاهب المقلدة ، أوطلب المنافع الباطلة ،وبالتأويل الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ وما يخالف المحكم الذي هو ام الكتاب ، أوما أجمع عليه اهل الصدر الاول .

فأسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته ورضوانه، ويوفقنا لتحقيقاً ما له ،ويلهمني الحق الذي يرضيه تعالى في تفسير كتابه ويقدرني على اتمامه، انه على كل شيء قدير

---

(١) انفضاض الخاتم عبارة عن مفارقة الروح للبدن وهي من اشارات الصوفية

الفصل الثامن

في شؤونه الخاصة المعنوية ونهاية حياته الجسدية

وفيه ٤ مقاصد وخاتمة أما المقاصد فهي (١) قوة عقله وسعة علمه (٢) إيمانه بالله تعالى وحبه لله ولرسوله وعباداته (٣) مرضه الاخير ووفاته (٤) تأبينه

المقصد الاول

قوة عقله وسعة علمه

يصف الناس كل نابغ بالذكاء الفطري، ويعنون به سرعة الفهم وسهولة الحفظ ولذلك كنت تجد الناس مجمعين على وصف الاستاذ الامام بالذكاء النادر، لا يختلف في هذا منصف ولا مكابر، أما هو فكان يقول عن نفسه انه متوسط في الذكاء وانه يوجد في كل مئة رجل ٧٥ رجلا مثله في ذهنه . وعلى هذا كان يجب ان يكون ثلاثة أرباع الناس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله، ولكن الناس لم يروا في الملايين الكثيرة في العصور المختلفة مثله. وانك لتسمع كثيراً من أهل العلم بالتواريخ وسير الرجال الفضل يقولون ان الدنيا انما تلد مثل هذا الرجل في كل عدة قرون مرة ، فهو المصداق في عصرنا لقول الشاعر في مدح رجل اسمه كثير * فمثل كثير في الانام قليل * وقال الذين يمتحنون أذهان طلاب العلم وعقولهم من علماء الافرنج : ان في كل مائة منهم ٢٥ أذكياء ومثلهم بلداء، والخمسون الآخرون يتفاوتون في الوسط بين هذين . ولعمري لقد كان هو في الثلاثة الاولى من الربع الاول إن لم يكن هو الاول بل لا اعقل ان يكون في كل مائة مثله في الذكاء .، ولكن السيد جمال الدين كان الاول في كل الف أو الف الف، بل هو الذي لا يكاد يسبقه اولا يلحقه أحد

وقد قال كثير من أهل الرأي والفضل فيه بعد موته ان الفراغ الذي حدث بفقده لا يملأه أحد في هذا العصر . وقال أحمد مختار باشا الغازي أكبر قواد الترك وعلمائهم الرياضيين : اني أحسب ان دماغ الشيخ محمد عبده اكبر من كل ما عرف من أدمغة كبار الرجال، ولو وزنه الذين يعنون بهذا في اوربة لثبت لهم انه أكبر من دماغ بسمارك أدهى ساسة اوربة في عصره ، ومن ادمغة اكبر فلاسفتهم

وقد راجعناه في قوله ان ثلاثة أرباع الناس يساوونه في ذكاء ذهنه، وقلنا له كيف يحصل في الزمن القصير من العلم ما لا يحصلونه في الزمن الطويل؟ فقال إن الفرق بين الناس في هذا لا يأتي من الاختلاف في الذهن فقط ،وانما يأتي معظمه من الاختلاف في توجيه الارادة إلى الشيء ومعرفة طريقه وغايته قبل طلبه. وهذه حقيقة لا مرية فيها ولكنها لم تذهب بامترائنا في ان قوله ذلك من المبالغة بمكان، وإن كان قاله اعتقاداً لا تواضعاً وهضما لنفسه. على اننا نعرف من أصحاب الذكاء المدهش من كان ذكاؤهم وبالا عليهم خاصة أو عليهم وعلى كثير من الناس الذين يعرفونهم . فالعبرة بما قال وهو ان ادراك المقاصد انما يكون بصحة توجيه الارادة اليها وطلبها من طرقها الطبيعية

بلغ هذا الرجل من قوة العقل ان عجزت الامراض الشديدة عن منعه المطالعة فكان يقرأ في أيام مرضه أكثر مما يقرأ في صحته التي تشغله فيها الاعمال . أتظن انه كان يقرأ كتب القصص والفكاهات ؟ كلا انما كان يقرأ العلوم العقلية والفلسفة الاجتماعية وكتب التربية والتاريخ العلمي . وقد رابه من مرضه الاخير ملله فيه من المطالعة وقال إنه لم يعهد ذلك في مرض قط ، فقلت له هكذا شأن أمراض المعدة ، على ان كثرة الاعمال العقلية هي السبب الفعال في مرضك هذا كما يقول الاطباء - ولم يكن المرض يومئذ قد اشتدت وطأته ولا علم انه سرطان الكبد

وقد أصيب بحمى التيفوس مرة في بيروت فبلغت نهاية شدتها، وأعلى حرارتها، حتى خشي على حياته منها ، ولم يغب عقله ولم يهذ لسانه، حتى قال الطبيب الذي كان يعالجه انني لم أر مثل دماغ هذا الرجل ، ولو حدثت عن مثل ما رأيت منه لما صدقت . وكذلك قال بعض الاطباء الذين زاروه قبل موته بايام قليلة (كالدكتور وزلل المشهور) اذ وصف له سير مرضه من أوله الى يومه ذاك ، ووصف له أعراضه

لم يفته منهاشيء، وكان قد ذب السم في جميع جسمه ، وبقي عقله حاضرا وذاكرته تملي على لسانه الاجوبة السديدة في وصف مرضه لمن يسأل عنه وفي غير ذلك

اتفقنا نحن الذين كنا نلازمه على أن لا نحدثه في الجد ولا مسائل العلم والاجتماع. وأن نمنع عائديه من الحديث في ذلك لا سيما بعد اشتداد المرض عليه على قلة من يؤذن لهم برؤيته، ولكنه كان ينتقل بنا من الفكاهة إلى الجد ، فاذا ساقت شجون الحديث مسألة عويصة أو عبارة احتجب معناها ، أسرع ذهنه إلى كشف الحجاب عن الخفايا فجلاها ، ونفث في عقدة العويص منها فحل عراها

أذن لنا بذكر الشعر والادب في يوم تواترت فيه نوبات الالم عليه فكان مما أنشده محمد حافظ ابراهيم من مختار محفوظه قول بشار المشهور:

اذا ماغضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وقال انني أنشد هذا البيت منذ سنين وأنا لم أفهمه، وسألت عنه غير واحد من الادباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح اليه النفس، فلم يلبث الامام أن قال، والالم ينال من كبده ماينال ، ان معناه ظاهر، فانه يريد أنهم اذا غضبوا سلوا سيوفهم وأشرعوا رماحهم ، فكان بريقها ولمعانها كالهتك لحجاب الشمس الذي يظهر به نورها ويتألق شعاعها، إلى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم، فتخرج وهي تقطر دما ، وتسيل مهجا ، هنالك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له ورينه عليه . فالضمير في قوله قطرت دما عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة، أي على حد قوله تعالى (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) على التفسير المشهور المأثور من ان ضمير (توارت) يرجع الى الشمس . والصحيح أنه يرجع الى الخيل

ناهيك بمن كان يقتل عامة نهاره وزلفا من ليله بحل المشكلات وامضاء الاعمال في معاهد كثيرة، ولا يشكو تعباً ولا يخف مللا، كان يصبح فيغدو إلى مجلس الشورى مثلا فيجلي المسائل الموضوعة للبحث، سواء كانت قضائية أو إدارية أو مالية ، ويؤلف بينها وبين مصلحة البلاد ، ويؤيدها بالحجج القانونية والعقلية التي تقنع الحكومة بعد اقتناع الاعضاء، ثم يخرج من هذا المجلس فيأكل

طعام الغداء ويذهب الى الازهر، فان كان اليوم يوم جلسة الادارة جلسها، وعمل عمله فيها، ثم ينتقل الى مكتب الافتاء حيث كان ينتظره اصحاب الحاجات المختلفة في جميع مصالح الحكومة وغيرها ، والمستفتون والزائرون وكتاب الجمعية الخيرية والازهريون من علماء ومجاورين، فينظر في هذه الامور إلى مابعد العصر، ثم يخرج الى ديوان الاوقاف إن كان اليوم يوم جلسة المجلس الاعلى، أو إلى مجلس إدارة الجمعية الخيرية إن كان يوم جلسته، ثم يعود عند الغروب الى الازهر فيقرأ الدرس، ويخرج بعد العشاء قاصداً داره فيجد العفاة واصحاب الحاجات ينتظرونه في المحطة وفي البيت يعرضون عليه حاجاتهم ، ويقرأ في القطار جرائد المساء، وبعد هذا كله قلما كانت داره تخلو ليلة من السامرين يتكلمون في العلم والادب والمصالح العامة والخاصة . ولا تنس ان الايام التي لم تكن موعد جلسة في تلك المجالس الرسمية كان يقرأ فيها أوراق تلك المجالس . ولكنه كان على ذلك العقل الكبير، والعرفان الغزير، كثير النسيان للامور الجزئية كالارقام ، وأسماء الاعلام

علوم ومعارف

أتقن جميع العلوم الاسلامية، من لغوية وشرعية وعقلية، وكذا الفلسفة القديمة والتاريخ ، وعلوم الحقوق والقوانين ، وضرب بسهم في العلوم والفنون العصرية قبل تعلم اللغة الفرنسية، ثم أتقن هذه اللغة في سن الكهولة وتوسع بها في العلوم على طريقة الافرنج . وكان يعنى بالعلم على قدر الحاجة اليه في العمل والاصلاح . فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها أن كان أدق الناس فهما للقرآن والحديث ولغيرهما من فصيح الكلام ، وأبلغ الكتاب ، وأخطب الخطباء

قال الشيخ ابراهيم اليازجي اللغوي الاديب النقادة : كان حديثه الذي يلقيه في المجالس كأفصح مايكتب الادباء المترسلون ، وقد تقدم فيما كتبه الامير شكيب عن سيرته في سورية ما كان من دقة فهمه وذوقه للشعر البليغ وطربه بمطربه وشجوه بمشجيه (ص٤٠٩)

أما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها أن كان فيلسوفا حكيما ، اعترف له بذلك

من يعتد بمعرفتهم. واذكر هنا تفسيره لكلمة فيلسوف . حدثنا في طرابلس الشام قال كنا في مجلس بعض الكبراء بمصر (هو علي باشا مبارك) وكان في المجلس بعض اهل العلم وحملة الاقلام من السوريين (هو الدكتور يعقوب افندي صروف محرر المقتطف) فقال ما معناه ان الناس قد ابتذلوا لقب فيلسوف فصاروا يطلقونه على غير أهله ، و كان أطلق هذا اللقب في جريدة على بعض الحاضرين !! فجرى ههنا كلام في معنى كلة فيلسوف . قال يعقوب أفندي : الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم. قال الاستاذ إذاً لم يوجد فيلسوف في الارض . قال هو الذي أتقن بعض الفنون وله إلمام بسائرها . قال ان جميع الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وكذا الثانوية على إلمام بجميع العلوم العصرية ثم يتقنون بعضها ، فما أكثر الفلاسفة في المهندسين والاطباء وفي التلاميذ أيضاً . ثم سئل هو عن تفسيره فقال : الفيلسوف هو الذي له رأي ومذهب في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وأما علوم التصوف فكان فيها من الراسخين وقد قال لي انني اقرأ الفتوحات المكية كما اقرأ تاريخ ابن الاثير لان لغوامضها مفتاحا من علمه لا يخفى عليه شيء منها وقد تقدم شرح هذا في الكلام على تربية الاولى بالتفصيل

وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماما مجتهداً وإن كبرت هذه الكلمة على الذين سجلوا على انفسهم الحرمان من فضل الله أن يؤتي المتأخرين . من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين ، وناهيك بفهمه في القرآن ووقوفه على اصول الشريعة وحكمها واسرارها ، وقوة حجته في اثبات عقائدها ، ودفع الشبهات عنها ، وتطبيق احكامها على مصالح البشر . ولست اعني بكونه إماما مجتهداً في الشريعة انه صاحب مذهب دونه ، أو كان يريد أن يدونه ، وانما اعني ماذكرت آنفا من فهمه الدين اصوله وفروعه بالدلائل والبراهين ، والفقه فيه والوقوف على حكمه ، والقدرة على بيانه بدون تقليد عالم معين من العلماء السابقين والائمة المهديين ، الذين اتبع آثارهم واهتدى بهديهم . وكان يرى ان من يضع للناس مذهبا جديدا فانما يزيدهم عمى وجهلا وتفرقا واختلافا ،

هذا ما كتبته في ترجمته من المنار مع تنقيح ما . وازيد عليه هنا ما يأتي فأقول انه على نصره للسنة لم يكن واسع العلم برواية الحديث ولا حفظه، ولا كثير العناية بمعرفة الجرح والتعديل فيه — وانما قرأ علم مصطلح الحديث وبعض متون الصحاح والسنن التي تقرأ في الازهر وهي قليلة وتقرأ للتبرك لا للتفقه فالتقصير من الازهر لا منه ، وكان هو يقرأ الحديث للتفقه والتادب بالسنة ويشدد النكير على الازهريين وامثالهم بقراءته للتبرك ويعدها من جنايتهم على الاسلام، وكان يستقصي أخبار السيرة النبوية والشمائل المحمدية، ويعدهما من أركان التشريع والتاريخ الاسلامي. وكان يرى ان المحدثين قد غلطوا في تصحيح كثير من أحاديث الفتن والفرق لان اصحاب الاهواء عنوا بترويجها، وكذا الاحاديث المخالفة للقرآن كحديث السحر، وقد جادلته في بعض هذه المسائل وقلت له : ان علماء الجرح والتعديل يقولون بوضع الحديث المخالف لنص القرآن ولغيره من القطعيات ، قال نعم وانها لنعمت القاعدة ولكن لا ترى فيهم من طبقها على جزئياتها؟ ورأيته في الاستدلال بها يوافق مذهب السلف ولعلي ابسط هذه المسألة في ذيل هذا التاريخ فقد طال هذا الجزء جداً

وأما العلوم العصرية فكان يعرف منها الرياضيات ، ويلم بالطبيعيات ، ويتقن الفلسفة العقلية وعلوم التربية والنفس والاخلاق والاجتماع وتواريخ الملل والامم ومذاهبها، وكان يطالع دائماً ما تجدد عند الافرنج من المصنفات في هذه العلوم وفي شأن الاسلام، وكان عزم على تعلم اللغة الالمانية وشرع فيه لان الالمان سبقوا غيرهم إلى الاخصاء في جميع العلوم فما زالت اثني عزمه عن ذلك حتى قبل ، وقد درس علم الخط المسند وكتب فيه كتاباً لاجل تحقيق التاريخ العربي القديم . وسبق هذا في الكلام على اسفاره

يظن بعض الشبان المتفرنجين المغرورين ببضاعتهم المزجاة من مبادي العلوم العصرية أن الاستاذ اذا قيس بعلماء أوربة أو حضر مجالسهم كان يكون كالأبكم بين الناطقين ، وما يدرون انه كان في كل مكان من كل بلد ذلك الامام الذي تشخص اليه الابصار ، وتصغى اذا تكلم الاسماع ، لما أوتي من الحكمة وفصل الخطاب ، وقد ذكره بعض ملاحدة مصر في مجلة له فزعم ان بعض الناس ترجم له

بعض ما كتبه في مقالات (كتاب الاسلام والنصرانية) واستبعد لجهله بحاله وترجمته أن يكون قرأها باللغة الفرنسية ، ولم يدر انه حذق هـذه اللغة وكان من أفصح الناس نطقا بها ، وفهما لها ، بل صرح بعض العارفين به وبها ممن ترجموه انه كان كأفصح أهلها . وقد كان يقرأ لي في كتاب فرنسي في فلسفة الارادة كأنه يقرأ في كتاب مؤلف بالعربيـة . وترجم عنها في أثناء تعلمهـا كتاب التربية للفيلسوف هربرت سبنسر لاجل التمرن على الترجمة ثم عرض ترجمته على صديقه قاسم بك أمين الذي شهد له بالامامة بأوسع مافي هذا اللفظ من المعاني ، وكان في الذروة من المصريين الذين حذقوا اللغة الفرنسية فهما ونطقا وإنشاءاً ، فأصلح بعض الكلم فيهـا . ثم راجع بعض المتقنين للفرنسية والعربية هذه الترجمة وما أصلحه قاسم بك أمين منها فوجد أن قاسما مخطيء فيما أصلحه منها ، وان ما كتبه الاستاذ الامام في بدايته من ترجمتها هو الصواب ، وقد أملى في أثناء مرضه الاخير مقالة بهذه اللغة نشرت في بعض المجلات الفرنسية

ومن قرأ رده على موسيو هانوتو ولاحظ أن مافيه من الـكلام على الفرق بين الآريين والساميين في عقائدهم وتأثيرها في حضارة كل منهما ، وما فيها من عقائد فرق النصرانية المختلفة وغير ذلك مما لا يوجد تفصيله الا في الـكتب الافرنجية — من قرأ ذلك ولاحظ ماذكر عرف سعة اطلاعه على كتب الافرنج واستحضاره لما قرأه عند الحاجة اليه

وناهيك برجل كان الاستاذ ادوارد براون من كبار العلماء المستشرقين المدرسين في جامعة (كمبردج) يكتب له « أستاذي الاكبر ، وأستاذنا الاكبر الافضل الاعلم ، الاعز الاكرم » ويكتب امضاءه في بعضها (أحقر تلامذتك ادوارد براون) ويقول في كتاب التعزية لاخيه : مارأيت مثل الفقيد المرحوم في الشرق ولا في الغرب فوالله كان وحيداً في العلم ، وحيداً في التقوى والورع ، وحيداً في البصيرة والاطلاع على ظواهر الامور وبواطنها ، وحيدا في جميل الصبر وخلوص النية ، وحيدا في البلاغة والفصاحة ، عالما عاملا محسنا ورعا مجاهدا ، محبا للعـلم ، ملجأ للفقراء والمساكين » الخ (راجع ص ٢٩٨ ج ٣) من هذا التاريخ

المقصد الثاني

من الفصل الثامن

إيمانه بالله تعالى وحبه لله ولرسوله ﷺ وعبادته

تقدم ان الرجل قد ربي تربية صوفية شرعية خالية من البدع ، وتقدم قوله ان الغرض من تربية الصوفية أن يكون الدين وجداناً لصاحبه كوجدان الحب والبغض ، واللذة والألم ، لا يزلزله شك ولا تؤثر فيه شبهة ، وهو قد طلب العلوم بارشاد مربيه الصوفي (الشيخ درويش) القائل له ان كل علم من العلوم يفيد النفس كما لا يقربها إلى الله تعالى فكان ينوي بطلبه العلوم حتى الرياضية والفلسفة الكمال الذي يقربه إلى الله عز وجل ويدنيه من مرضاته فكان طلبها عبادة لم تزده إلا إيمانا

كان يقرر أن الدين فوق العقل ومعارفه الكسبية، ولكنه صديق له لا عدو ، فهو يرشده الى الكمال في معرفته ، كما يرشد القلب او الوجدان الى الكمال في فضيلته ، ولولا أن ارشاده للبشر من فوقهم لما اذعنوا له ولما كان دينا .

وكان يرى ان اليقين المطلوب في الايمان هو اليقين المنطقي المؤلف من علمين (أحدهما) ان الحق في المسألة كذا (وثانيهما) انه لا يمكن أن يكون إلا كذا . وقد بينت في التفسير وغيره ان هذا هو الكمال في العلم والايمان وهو لا يشترط في صحة الاسلام بل يكفي فيه اليقين اللغوي وهو الجزم الذي لا شك معه ولا ريب فيه بالفعل

وكان هو على يقين منطقي في عقيدته ، ووجدان روحي في إيمانه ، ويعتقد أن الايمان الصحيح ما ظهر اثره في الاخلاق والاعمال ، حتى انه لم يكن يتصور أن يجتمع توحيد الله تعالى مع الذل والصغار وإقرار الباطل والخوف من الاعتصام بالحق في نفس واحدة ، فكنا نرى ثمرات الايمان الكامل يانعة في شجرة نفسه المباركة ، من الخوف من الله ، والرجاء في الله ، والتوكل على الله ، والحفظ لحدود الله ، والخشوع في الصلاة لله ، وعند قراءة كتاب الله ، ولو استطاع أن يتعدى حدود الله متأولا بالمصلحة لوافق الخديو على مايريد من الاوقاف العامة ليمكنه من إصلاح الازهر (راجع ص٥٧٣)

وكان يعتقد ان الخشوع وحضور القلب في الصلاة واجب فهو ركن من أركان الصلاة أو شرط لصحتها أو قبولها ، وقد ذكرنا أول ماسمعناه منه في هذه المسألة في بيان رأيه في المسلمين والفقهاء وإنكاره عليهم جعلهم الخشوع والتدبر من المندوبات كانكاره على المفسرين جعل أكثر ما في القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الايمان خاصا بالايمان الكامل، وقوله كأنهم افتوا المسلمين بانهم في اوسع الرخصة من ترك محاسبة أنفسهم على لوازم الايمان التي لا تفارقه وثمراته التي لا تتخلف عنه من الفضائل والاعمال . وقد عاشرنا كثيراً من العلماء الذين يوصفون بكمال العلم والتقوى ، فما كنا نسمع منهم في مجالسهم كلمة مثل كلماته في البر والتقوى وهداية القرآن ، وأخلاق الايمان ، وفوائد عباداته في سعادة الآخرة ، وسيادة الدنيا ، ككون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنافي الجزع والهلع

تعظيمه للنبي ﷺ وبيانه لعلو قدره

وأما تعظيمه وتكريمه وتوقيره وتعزيره للنبي المجتبى صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وعرفانه لقدره ، واجلاله لمنصبه ، فهو مالم نسمع من أحد وما لم نقرأ ولم نرو عن أحد مثله من علماء عصرنا ولا متصوفتهم، بل منه مافاق به المتقدمين ، من العلماء المحدثين ، والحكماء العقليين، ومن الصوفية العارفين : استقصى المحدثون ماروي من مناقبه ومعجزاته ﷺ فكان منها الصحيح والضعيف والموضوع ، ومنها ماهو منفر عن الاسلام، وشبهة على الايمان، وجاء الصوفية من اطرائه ﷺ بما يعقل وما لا يعقل ، ومايقبل في الشرع وما لا يقبل، وأما الفقهاء والمتكلمون فمنهم المنتقدون لذلك ومنهم المقلدون المتأولون

أقم ميزان القسط بين ذلك كله وما بين أستاذنا الامام من فضائله وهدايته، وأسرار رسالته ، تلك الحقائق التي كان بها ﷺ خاتم النبيين ، والرحمة العامة للعالمين ، والمصلح للفساد الذي فشا في الخلق أجمعين، من فلاسفة ومليين، وبدو وحضريين، وانظر أيهما اهدى الى الايمان ، وأقوم بما يدل عليه القرآن، وما تفسره السنة النبوية والسيرة المحمدية ، ويؤيده التاريخ العام لجميع الامم والملل ، وتجد هذا مفصلا في رسالة التوحيد تفصيلا

كان تأثير سيرته (ص) في قلبه يلي تأثير القرآن العظيم ، دخلت عليه مرة

بدون استئذان ، وكان وحده في حجرة مقابلة الناس ، فاذا بيده كتاب ينظر فيه ، وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه ، تشرق بها وجنته ، وتنطف بها لحيته ، فلما رآني وضع الكتاب ومسح وجهه بيديه . قلت ما هذا الكتاب؟ قال : سيرة النبي ﷺ وقد عقد في مجالسه الخاصة درسا طويلا في عظمة النبي (ص) في نفسه القدسية الكاملة بين فيه استحالة تاثير السحر فيها لعلنا نلخصه في ذيل هذا التاريخ

وكان يعتقد ان الله تعالى خلق روح محمد ﷺ وأودع فيها كليات شريعته الكاملة كما أودع في نواة النخلة كل المواد والخواص التي تنبت نخلة مثلها ، اذا زرعت في الارض الصالحة لها . ثم كان الوحي الالهي له كالماء الذي يمد النخلة ويغذيها بعد أن تنبت إلى أن تكمل وتؤتي أكلها يانعاً طيبا ، يعني ان الوحي كان تعليما شارحا لعقائد وآداب وأحكام أعدالله لها نفسه الزكية فكانت فطرته تطلبها باستعدادها ، ودليل ذلك نفورها قبله من كل عقائد الوثنية وأعمالها .

وهذا المعنى بعيد أشد البعد عما رواه بعض الوضاعين المجازفين من ان جبريل عليه السلام كان يتلقى الوحي في السماء من وراء حجاب ثم ظهر له بعد ذلك ان الذي كان يلقيه اليه من وراء الحجاب هو محمد ﷺ فان هذه المجازفة مخالفة لنصوص القرآن القطعية في هذا الموضوع ، وتجد الجاهلين باصول هذا الدين وكتابه المنزل وسيرة النبي ﷺ وسنته الصحيحة يقبلون هذا وما اشبهه لان ركن الدين عندهم الغلو في الاطراء ، وهذا شان كل الملل في اطوار زوال العلم والمعرفة وترك العمل والاعتماد على الاقوال ، التي لا تعب فيها ولا اجتهاد ، لا يبقى لهم حظ من الدين الا الاطراء بالكلام ، والاتكال على اشخاص الانبياء والاولياء مع ترك الاتباع .

ذكر في رسالة التوحيد خلاصة ماصح من خبر ولادته ﷺ ونشأته في قومه وما كان من استسلام جده عبد المطلب وهو سيد قريش وسيد العرب كلها لأبرهة الحبشي في مسألة مطالبته في رد ماساق جيشه من إبله ، دون مطالبته بالرجوع عما كان بصدده من هدم بيت الله تعالى وقال « هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام ـ وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش » ثم قال في إثبات رسالته ﷺ وموضوعها وعظمته في تبليغها وتنفيذها ما نصه وفيه أبلغ اثبات لما قلناه:

وصفه للنبي ﷺ وما جاء به لاصلاح البشر

«فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع ملكا، أو يطلب سلطانا؟ لا مال لا جاه، لا جند لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، او يرقى به الى مقام ما بين الخاصة،

«ماهذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرءوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم، حتى انتدب لارشاد الامم، وكفالتهم كشف الغمم، بل واحياء الرمم؟ ماكان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ماكان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره في عمله، وتمده في الانتهاء إلى أمله، قبل بلوغ أجله، ماهو إلا الوحي الالهي يسعى نوره بين يديه، يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ماهو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي. أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلي المجيد، والكل ما بين وثنية مفرقة، ودهرية وزندقة

«نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم — وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس وبين الجسمانيات، بالتطهر من تشبيههم — وفي الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه

«أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به

«صاح بذوي الزعامة، ليهبطوا إلى مصاف العامة، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السماوات والارض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم

«تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى، فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحي، ان نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين

بهم[1] وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذي نفس انسانية في الاستمانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة .

«وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا اغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الامل

«مال على قراء الكتب السماوية ،والقائمين على ماأودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لالفاظها إلى غير ماقصد من وحيها اتباعا لشهواتهم. ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها، حتى يكونوا على نور من ربهم

«ولفت كل انسان الى ماأودع فيه من المواهب الالهية. ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع مابين ايديهم من الاكوان ، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وافكارهم، بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه . وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة الى أولئك المصطفين انما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده — وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه إلا مارسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ماسخرت له بمقتضى الفطرة .

«دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين، وإن كانا ممتزجين . وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وايفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الالهية من الحق .

(١) اي نسبة العبد الى الرب والمخلوق العاجز الى الخالق القادر

«دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى، وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة ، والاخلاص للعباد ، في العدل والنصيحة والارشاد .

« قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة . كل هذا كان منه والناس احباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ماجهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة . كل هذا والقوم حواليه اعداء انفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لايفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته . عقدت أهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لايرون فيه مايرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

« لكنه في فقره وضعفه ، كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه . أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته

« ماهذه القوة في ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان في مظنة العجز ؟ ماهذا العلم في تلك الامية ؟ ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء ، الذي وسع كل شيء رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ الى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

« أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم مايكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ماكانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع

أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها، ولن يخلص تاركها

«ماهذا الخطاب المفحم ؟ ماذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ماهذا بشراً إن هذا الا ملك كريم ؟ لا لا أقول ذلك . ولكن اقول كما أمره الله ان يصف نفسه ، ان هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صدق الانبياء ، ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة، وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اه

[المؤلف] أتحدى علماء الاسلام كلهم باتيانناعن غيره بمثل هذا البيان لرسالة خاتم النبيين، والرحمة العامة للعالمين، في حقائق جمعت كل مايحتاج اليه البشر لصلاحهم، على اختلاف درجاتهم في العلم والفلسفة والحضارة والشرائع، لا يستطيع ان يردها عاقل، ولا يماري منها مجادل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

عبادته وتهجده

قد علم مما سبق من سيرته الشريفة، أن اكثر أعماله عبادة، فان ساعات نهاره كانت مقسومة على الاعمال المتعدية النفع التي هي افضل من نوافل العبادات، الا في شهر رمضان فقد كان يقول ان هذا شهر لا يتسع لغير العبادة المحضة، كالذكر والصلاة والتلاوة ، وحدثنا الشيخ عبد الرشيد عن السيد جمال الدين انه ماكان يصلي النوافل إلا في ليالي رمضان . ولكن استاذنا كان مواظبا على التهجد في كل ليلة لا يتركه في سفر ولا حضر

انا لم يتح لي ان ابيت بقربه الا مرة واحدة كنا ضيوفا على المرحوم ابراهيم باشا خليل في بلدة فقوس فكنا مهما يطل سهرنا في الليل أجد الاستاذ يقوم من آخر الليل يصلي ويتفقدني عند طلوع الفجر لاجل صلاة الجماعة وكنا نبيت في حجرتين متلاصقتين ، وكان من عادته ان يقدمني للامامة في كل مكان نصلي فيه جماعة وقد اراد ان يفعل ذلك مع محمد حافظ ابراهيم اذ صحبه في سفره الى الدقهلية

في اثناء حادثة حريق ميت غمر . حدثنا حافظ قال كان عندي شكوك او شبهات في كثير من امور الدين فاتسعت لي الفرص في صحبتي للاستاذ الامام فكنت اسأله عنها فيكشفها بما يقنعني وينشرح له صدري ، وكان يبيت بالقرب من مبيتي حيث نكون ضيوفا فينغص علي نومي بصلاته في آخر الليل . ثم يطرق باب حجرتي عند الصباح لاجل صلاة الفجر ويناديني بقول الشاعر * يا راقد الليل الى كم تنام * قال حافظ فقلت له يا مولاي انني لا أستطيع ان احمل الاسلام كله في سفرة واحدة ، حملت هذه المرة عقائده ، وسأحمل في الثانية ماشئت من صلاة وصيام . وقد اشار حافظ في مرثية التأبين الى تهجده بقوله :

وكم لك في اغفاءة الفجر يقظة　　نفضت عليها لذة الهجمات
ووليت شطر البيت وجهك خاليا　　تناجي إله البيت في الخلوات

وحدثني الاستاذ مصطفى بك الدمياطي عن بسيوني بك الخطيب وكيل وقف المنشاوي باشا ، قال له كان الاستاذ الشيخ محمد عبده يكون ضيفا عندنا في سراي المنشاوي بالقرشية ومن عادتي أن أنزل في أواخر الليل للتفتيش ، فكنت أسمعه في حجرة نومه يصلي

وحدثني الاستاذ السيد محمد البيلاوي نقيب السادة الاشراف لهذا العهد قال كنت مرة في دار صديقنا احمد باشا تيمور بداره المجاورة لنا بالحلمية فذكرنا الاستاذ الامام وكان في المجلس رجل يكرهه فطعن فيه وهو لا يعرفه ، فقلنا ما تنقم منه ؟ قال انه لا يصلي ، قال السيد فقلت له نحن نشهد انه يصلي وقد صليت انا معه ، وبينا نحن نتكلم معه دخل علينا فلان ـ وذكر خادما كان يتردد أحيانا على أحمد (باشا) تيمور يخدم عنده مدة ويغيب مدة ـ فسأله اين كنت ؟ قال كنت عند علي باشا رفاعه قال ولم تركته ؟ قال فررت من ضيف ثقيل اسمه الشيخ محمد عبده ، قال وماذا رأيت من ثقله ؟ قال انا خادم السلاملك فكانوا يسهرون سهرا طويلا ثم ينامون فلا يمضي على نومهم الا مدة قليلة حتى يقوم هذا الشيخ ويطلب الوضوء ثم يصلي الى ان يطلع الفجر فيصليها ، فيؤرقني فلا يدع لي من الليل مدة استريح فيها . فلما سمع الرجل الطاعن حديثه قال من اين جئتم بهذا الرجل ؟ فقال له صاحب الدار اننا منذ شهور كثيرة لم نره حتى فاجأنا الآن ، فاستغفر الرجل ربه وأناب ،



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده يصلي في لندن

وكان مثله كثير من الناس يسمعون من بعض الحاسدين او الدجالين المتجرين بالدين، أقوال الطعن بمبطلي دجلهم من الحكماء الراسخين، والائمة المصلحين، كالشربتلي بمصر، والنبهاني في سورية، فيأخذونها قضية مسلمة، ويذيعونها بغيرتهم الجهلية الخاطئة، فمن كان منهم حسن النية، سخر الله له من يظهر له الحقيقة، فيتوب الى الله تعالى ويكون حسن الخاتمة. وقد كتب اليه العلامة الشيخ سليم البخاري لما اطلع على رسالة التوحيد مامضمونه: إنك كنت أبغض الناس لسوء ظن في دينك فأصبحت أحبهم إلي لما علمته من دينك و .... فأجابه إنني أشكر لك بغضك وحبك كليهما لانهما عن حسن نية.

بل بلونا الكذب على أمثال هؤلاء الغيورين، وقد اتهم بعضهم الاستاذ بترك الصلاة في أيام طلب العلم اذ كان ناسكا يتوب الى الله تعالى اذا حدث انسانا بشيء من أمر الدنيا، أتهمه بذلك لدى الشيخ المهدي العباسي شيخ الازهر ليحرمه من شهادة العالمية، فسأل عنه رفاقه في طلب العلم فشهدوا له بأنه أشدهم محافظة على الصلوات وقال له الشيخ محمد بخيت منهم اننا دائما نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه، سمعت هذا من لسان الاستاذ الشيخ محمد بخيت الشهير منذ بضع سنين

وقد عثرنا على صورة شمسية للاستاذ الامام أخذت عنه وهو يصلي على ضفاف نهر التيمس في لندره من حيث لايدري وقد أهدى الي نسخة منها بعض أصدقائنا في بيروت ثم أرسل الي صديقنا الامير شكيب نسخة أخرى. وهاهي ذي مثبتة هنا

وأصرح مع هذا بانه كان كثيراً مايجمع بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى في الحضر اذا لم يتيسر له صلاة الاولى بالخشوع والحضور الذي يعتقد وجوبه. وحديث ابن عباس في صحيح مسلم وسنن الشافعي وغيرها صريح في فعل النبي ﷺ لذلك وكونه رخصة كما علله ابن عباس (رض) بقوله: لئلا يحرج أمته، فهذا كان بعده شبهة من لم يعرف ذلك ولاسيما اذا كان سيء الظن أو القصد

وجملة القول ان كل من عرفه معاشرة من أهل دينه وغيرهم من وطني وأجنبي شهدوا له بكمال التقوى والورع والعفة والاستقامة حتى وصفه بعض الافرنج بالقداسة أيضا.

المقصد الثالث

من الفصل الثامن

مرضه ووفاته

كتبت في اثناء اشتداد المرض عليه في الجزء التاسع من مجلد المنار الثامن الذي صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ (ص ٣٥٥) ما نصه :

مرض الاستاذ الامام

لقد مرض أستاذنا منذ أشهر مرضا كنا نظن انه من الامراض الهينة التي كانت تعتاده ، ولكن طال الزمان ورأينا كل من عرض عليه من الاطباء ينهاه عن الاعمال العقلية واجهاد الفكر ويأمره بالحمية والراحة التامة وهو لا يزداد إلا اجهاداً لنفسه وجهاداً لامته ، و كان موضع المرض المعدة والامعاء فانتقل إلى الكبد فاختلف الاطباء حينئذ بين قائل ان المعدة هي الاصل والكبد تأثرت منهـا ، وقائل ان الكبد بتمددها تضغط على المعدة فتمنعها من وظيفتها ، وأجمعوا على اختلافهم في أي العضوين هو الاصل على وجوب ترك العمل بتاتا والتعجيل بالسفر إلى أوربا ، وكل منهم أشار بترجيح بلاد واختيار أطبائها ، فرضي الاستاذ بالسفر ولكن لم يرض القدر إذ كانت السفن الدورية التي تنقل الناس إلى أوربا لا تقبل زيادة على من سبق إلى أخذ جوازاتها من السائحين والمصطافين إلى ١٤ من الشهر الافرنجي الماضي (يونيو) فأخذ جوازاً وصبر عن السفر ولكنه لم يصبر عن العمل كدأبه وعادته ، فكان يبيت على فراش الآلام ويغدو إلى محل عمله فينظر في الفتاوى وفي أعمال مجلس الشورى ومجلس الاوقاف الاعلى وأعمال الجمعية الخيرية الاسلامية وأوقاف الحنفية ويشتغل مع اللجنة التي يرأسها لوضع نظام لمدرسة القضاء الشرعي ويحضر امتحان مدرسة دار العـلوم وينظر في حاجات العفاة وطلاب المساعدة والشفاعة عند الحكام فيقضي حاجاتهم ، حتى ثقلت عليـه وطأة المرض وعجز عن

الخروج ، واشتدت عليه الآلام حتى كان ـ والذي خلقه حجة على هذه الامة التي زرثت بالكسل والخمول ـ يشتغل على فراشه عند سكون نوبة الالم؛ ولم يكن شيء من ذلك الشغل لنفسه ولا لاهله وولده ولكنه للناس ، وهل كان الناس يشفقون عليه ادخاراً له أو تأدبا معه، أو عملا بالذوق الذي يفخر به أهل هذا البلد ؟ كلا انهم كانوا يكلفونه النهوض بأثقالهم وقوفا على سريره وهو مضطجع أو مستلق عليه، وكان يعمل ماقدر ، ويعتذر عما يعجز طالبا الانظار والامهال إلى أن تحسن الحال

جرى على هذه الحال يعمل للناس والمرض يعمل فيه عمله ، وينهك قواه وينحل جسده ، حتى اذا مادنا موعد سفره رآه بعض الاطباء فقال ان المرض ينذر بالخطر ،ولا يجيز له الاقدام على السفر ، فجيء بطبيب آخر فقال قولة الاول، فكتم هذا القول من عرفه من الاصدقاء وذي القربى وساروا به في اليوم التالي إلى الاسكندرية (١٠ ربيع الآخر) ورآه من ليلته بعض أطبائها فقالوا مثل ماقال الاولان،وهو لم يعلم بهذا القول ، بل قيل له ان الاطباء قالوا إن جسمك لا يقوى على مشقة سفر البحر فيجب أن تمريض في الاسكندرية لعلك بتغيير الهواء تجد قوة تمكنك من السفر وعند ذلك هيأ له الصديق الوفي محمد بك راسم دار أخيه في رمل الاسكندرية ونقله اليها

كانت الجرائد اليومية أذاعت خبر سفر الاستاذ إلى أوربة ثم ذكرت انه أرجأ السفر بأمر الاطباء، فعلم القاصي والداني من أهل هذا القطر بمرضه،وظهر من آيات مكانته في نفوس الناس مالم يكن يعلم كله،فكان شغلا شاغلا للعقلاء والفضلاء،من جميع الاصناف والطبقات ، كان أمراء البيت الخديوي ومن حضر من نظار الحكومة لاسيا رئيسهم « القائم مقام الخديوي » وغيرهم من كبراء الامة يترددون على الدار التي يقيم فيها المرة بعد المرة ، وكان بعض الامراء يرسلون اليه أطباءهم،وكانت الرسائل ترد كل يوم في البرق والبريد من جميع أنحاء القطرين — مصر والسودان — تسأل عن صحته وكلما وجد يوما راحة تبشر الجرائد به

الامة فيصبح الناس مطمئنين ،فاذا سكتت الجرائد يوما عن البشارة لجوا في السؤال مستخبرين

أما نحن — معشر أهليه وأقرب أصدقائه ومريديه — فاننا نتراوح بين اليأس والرجاء ،اذا رأيناه في راحة من الالم رجح أملنا حتى اذا ماتألم عظم خوفنا ووجلنا، فمثلنا في ذلك مثل مقياس الحرارة كل يوم في صعود وهبوط بحسب مانرى من حاله .ولا غرو فهو كالهواء لحياتنا المعنوية وكالشمس لامتنا المسكينة،ونسال الله تعالى دفع البلاء واللطف في القضاء ، وتعجيل الشفاء ، انه سميع الدعاء. اه

وبعد اسبوع من صدور هذا الجزء من المنار توفاه الله تعالى اليه في الساعة الخامسة بعد الزوال من ثامن هذا الشهر (جمادى الاولى) الموافق ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥ فياله من رزء وجلت له القلوب ،وذرفت العيون، وفاضت الشؤون،واعتصم المؤمنون باية (انا لله وان اليه راجعون)

وقد أبنته في جزء المنار العاشر(م ٨)الذي صدر في ١٦ جمادى الاولى بما نصه:

مصاب الاسلام،بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس،وطهارة الارواح،وعلو الهمم،مما يحول دون الموت لما مات أبداً، ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم(إنا لله وإنا اليه راجعون)

مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع ، والحكمة البالغة،والحجة الناطقة ، والمعارف الكونية والالهية، والعلوم الكسبية واللدنية ،مع البيان الساحر ، والادب الباهر،والبلاغة التي تمتلك العقول والقلوب،والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاخلاق القدسية ، والشمائل المحمدية ، والصدق في القول والفعل،والاخلاص في السر والجهر، والوفاء في القرب والبعد، والسخاء في العسر واليسر،والعفة في الشباب والكهولة ،والحلم عند الغيظ والمغاضبة، والعفو مع القدرة على المؤاخذة ، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين ، والشهامة، والترفع على المنافقين والمستكبرين، واللين للحق وأهله،والشدة على الباطل وجنده،

والشجاعة التي تهابها الامراء والعظماء، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاعمال النافعة ، والمشروعات الرافعة ، والمساعي الجديدة، والوسائل المفيدة ، والاجتهاد في ترقية الامة ، والدفاع عن الملة ، والدعوة إلى التوحيد والتأليف ، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب ، والتربية الصحيحة للمريدين والجمع بين علوم الدنيا والدين ، ومواساة البائسين والمعوزين ، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الآمال البعيدة، والمقاصد الحميدة، التي كانت مطوية في ذلك الجرم الصغير ، الذي انطوى فيه العالم الكبير ، تلك الآمال التي تتضاءل دونها همم الملوك والامراء، وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والاغنياء، الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون ، وعن الثقة بربهم محجوبون ، وعن سنته في خلقه غافلون

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس، من جميع الطوائف والاجناس، فعلم علماء الدين، انهم فقدوا ركنهم الركين، الذي يحمل عنهم رد الشبهات وغير ذلك من فروض الكفايات ، وعلماء الدنيا انهم خسروا ركنهم الاقوى الذي يدفع عنهم مطاعن المتعصبين، وتكفير الجامدين ، ويثبت أن الاسلام جمع بين المصلحتين ، ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين . وشعر طلاب الاصلاح بأنهم فقدوا إمامهم العظيم ، الذي كملت فيه صفات الزعيم . وأحس الفقراء والمساكين بأنهم رزئوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين . ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة، شدة وقع هذه الطامة ، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب والعمل النافع ، مربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية ، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف الاسلامية ، المضطلع باصلاح الازهر والمحاكم الشرعية ، الناهض بأعباء الجمعية الخيرية ، الموفق بين الحكومة والرعية . واعترف اهل الملل بان مصابه مصاب الانسانية ، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء ، ويبحث عن مساكن القواعد من النساء، ليواسيهم بالبر، من وراء الستر، وقال لي

إن فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه واني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه، ولكنه غاب عن الوجود قبل أن يقضي لبانته من البر والجود،

مرض هذا المصلح العظيم فاضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرض فيها كعبة العائدين، من العلماء والامراء والوزراء، والادباء والفضلاء، والفقراء والاغنياء . وكان البرق يناجيها كل يوم مع البريد، بالنيابة عن العاجز والبعيد، سائلين عن صحته او مهنئين بما يقال عن راحته، فكان يحمد الله ان جعل الدهماء من امته يعرفون لخادمها خدمته، ويشكرون للعامل لها عمله، ويقول لئن شفيت لأجهدن النفس في خدمتهم اجمعين، حتى اكون حرضا أو اكون من الهالكين

مرض الاستاذ الامام فلم يعقه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام، واحتضر الاستاذ الامام، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام ،ومات الاستاذ الامام وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام

نقول مات الاستاذ الامام فنبدي القول ونعيده ، ننصر الحس، ونكابر النفس، فقد كادت تحسب ان موته رؤيا منام وأضغاث احلام، وما هو الا الحق اليقين، ومصير الاولين والآخرين (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون)مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء، فلا تفتنا بعده ولا تحرمنا اجره، واغفر اللهم لنا وله

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه ، ومآثره وعوارفه ، فلقد ربى أرواحا ، وأصلح إصلاحا ، وألف كتبا ، وترك علماء وأدباء، وأمات سننا سيئة له أجر إماتتها ، وأحيا سننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها . وعلمنا كيف نفهم القرآن ، ونقيم شرائع الاسلام ،مع توخي نفع الناس أجمعين . والاخلاص لله رب العالمين .

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر، وعلمنا كيف نتعزى عنه حتى في مرض موته . فقد كان هجيراه في تلك الكربات والسكرات، كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات : (الله أكبر) فلئن كان بفضل الله

كبيرا فينافالله اكبر . ولئن كان مرضه وموته كبيرا علينا فالله اكبر .ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

لبى دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى ،فنعاه البرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنعيه القلوب،وذرفت العيون،واسترجعت الألسنة وحوقلت، وطفق الناس يعزي بعضهم بعضا متفقين على ان المصاب به عام، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من البعيد والقريب ، والبغيض والحبيب ، والوطني والاجنبي ،والرشيد والغوي،والعالم والجاهل ،والمفضول والفاضل ،الا كلمة « خسارة لاتعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيرا » أوقول الشاعر

وما كان قيس رزؤه رزء واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

اوقول الآخر: ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسميا بتشييع جنازته في الاسكندرية، ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت،وشاركتها الامة ونزلاؤها والمحتلون بهذا التشييع الذي لم يسبق مثله لغيره ،حتى كان يخيل للمشيع انه لم يبق احد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير ،وقد صلي عليه في الجامع الازهر ودفن في قرافة المجاورين تغمده الله برحمته ورضوانه . وأسكنه فسيح جنانه اه

هذا ماأبنته به في المنار عقب الوفاة وجعلته مقدمة لترجمته،وتركت وصف تأثير مرضه ووفاته في القطر المصري والاحتفال بجنازته بالتفصيل للجرائد المصرية ، وكذا وصف هذا التأثير في العالم الاسلامي وسائر الشرق وبعض تأثيره في الغرب لجرائد الاقطار الاخرى ،وما نظمه الشعراء من الرثاء ، وما كتب من التعازي الرسمية وتعازي العظماء . وقد جمعت اهم ماوصل الي من ذلك في سفر مستقل جعلته الجزء الثالث من هذا التاريخ بلغت صفحاته ٤٢٨ فمن أراد أن يعرف إكبار الفضلاء من الامم المختلفة الاجناس والملل له بما اهله لم يتفق لغيره فلينظره

المقصد الرابع

من الفصل الثامن

في تأبينه ورثائه

نطلق لفظ التأبين على تعداد محاسن الميت وتأثير موته والحزن عليه بالنثر ، والرثاء على هذه المعاني بنظم الشعر ، ويدخل في الاول مامزج فيه النثر بأبيات من الشعر ، وقد أبن الاستاذ الامام كثير من العلماء والادباء من الازهريين وغيرهم بما ألقوه في الجمعيات التي عقدت لذلك وبما نشروه في الصحف ، وقد جمعنا كثيراً منه مع تأبين الصحف المصرية وغيرها ، وما وصل الينا من المراثي والتعازي في الجزء الثالث كما تقدم

حفلة يوم الاربعين

وكان المستعدون لتأبينه ورثائه على قبره عند دفنه كثيرين ولا سيما الازهريين فرأى صديقه حسن باشا عاصم كثرة ازدحام الناس وماهم فيه من الحزن والكرب مع شدة الحر والتعب من طول المسافة التي مشوها من محطة مصر الى القرافة — وهي عدة اميال — فقام في الناس فقال: ان اصدقاء الفقيد ومريديه استحسنوا ان يؤخر التأبين الى اليوم الاربعين لوفاته، فانصرفوا ايها الناس مأجورين

وقبل مجيء ذلك اليوم فكر اخوانه في الامر فقرروا ان يعين المؤبنون والراثون باسمائهم وينشر ذلك في الجرائد لعلمهم ان عدد الذين يتصدون لذلك من العلماء والشعراء سيكون كثيراً ، ولا يمكن تقديم بعضهم ومنع بعض في اثناء الاجتماع والوقت لا يتسع للجميع ،واتفقوا على ان يكونوا ستة وأعلنوا اسماءهم وموضوع تأبين كل منهم وهم :

(١) حسن باشا عاصم يذكر ملخص تاريخ حياته ولاسيما عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية التي كان شريكه في خدمتها ، وكذا جمعية احياء الكتب العربية

(٢) الاستاذ الشيخ احمد ابوخطوة من كبار المدرسين في الازهر والعضو في المحكمة الشرعية الكبرى . يتوسع في مسألتي اصلاحه للازهر وللمحاكم

(٣) حسن باشا عبد الرازق احد اعضاء مجلس شورى القوانين يكون من اخص ما يذكره خدمته للامة وللحكومة في المجلس

(٤) قاسم بك امين المستشار في محكمة الاستئناف ، والعالم البارع في علوم الاخلاق والاجتماع ، يكون اخص ما يبينه سمو أخلاقه وفضائله وإصلاحه في الامة

(٥) حفني بك ناصف القاضي في محكمة مصر الاهلية وأحد كبار الادباء من تلاميذه الذين تخرجوا به في الازهر ثم في دار العلوم يرثيه بقصيدة

(٦) محمد حافظ افندي ابراهيم شاعر مصر الاجتماعي ومن مريدي الامام في الادب يرثيه بقصيدة ايضا ـ وكذلك كان ، ونشرت كل ماقيل في الحفلة في الجزء الثالث من هذا التاريخ (ص٢٣٦ ـ ٢٧٤)

وقد سبق لي اقتباس من تأبين الثلاثة المؤبنين له في مقاصد عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية وعمله في اصلاح المحاكم الشرعية والاوقاف وعمله في مجلس شورى القوانين ، وكنت عازما على اقتباس جمل أخرى مما قاله غيرهم فحال طول الكتاب دون ذلك فانا أحيل القراء على قراءة ذلك كله في الجزء الثالث الخاص بالتأبين والرثاء

حفلة الجامعة المصرية

ومنذ بضع سنين أقيمت له حفلة تأبين اخرى في مدرسة (الجامعة المصرية) قام بالدعوة اليها وتنظيمها لجنة مؤلفة من ١٥ رجلا من طبقات الامة العلمية الراقية ثلثهم من نابغي علماء الازهر ، وقد وضعت اللاجنة رسالة في عملها وما ألقي فيها وما ورد عليها من الخطب والقصائد ، وما كتبته في شأنها الجرائد، وطبعناه على نفقتها ووزعناه مجانا ، وقد بينت في مقدمة الطبع الباعث على هذا التأبين وهو « شعور الامة بالحاجة الى إحياء ذكره ، وتجديد البحث في تعليمه وهديه » حتى

كان السابق الى اقتراح ذلك في الصحف اليومية ، طالب من طلبة المدارس الثانوية ، لم يدرك عهد الامام ، ولكنه أدرك قيمة ما تركه لها من الصوى والاعلام »[١]

واني أذكر هنا ما نشرته اللجنة في الجرائد عن عملها وهذا نصه :

احياء ذكرى الاستاذ الامام

فكر جماعة من تلاميذ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الاحتفال باحياء ذكراه ، وتألفت لجنة منهم برئاسة زميله حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد بخيت ، وقررت أن تكون الحفلة بدار الجامعة المصرية الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ (وهو يوم وفاته بالحساب الشمسي)

ووضعت اللجنة نظام الحفلة وعينت خطباءها مراعية ما يتسع له الوقت وما يناسب الغرض من الاحتفال بامام مصلح

وستطبع اللجنة مايلقى في الحفلة في كراسة خاصة مع مايرد اليها من الخطب والقصائد المختارة . وهذه أسماء حضرات اعضاء اللجنة :

الشيخ محمد بخيت ـ رئيس . السيد عبد الحميد البكري . السيد محمد رشيد رضا . الشيخ محمد مصطفى المراغي . الشيخ محمد هلالي الابياري . الشيخ عبد المجيد سليم . الشيخ مصطفى عبد الرازق . الشيخ علي سرور الزنكلوني . احمد زكي باشا . حسن عبد الرازق باشا . السيد عبد الرحيم باشا الدمرداش . احمد بك لطفي السيد . حنا بك باخوم . الدكتور طه حسين . الدكتور منصور فهمي (السكرتير)

ولما جاء اليوم الموعود كانت اللجنة قد أتمت الاستعداد للاحتفال في رحبة دار الجامعة المصرية بعد إذن مجلس إدارة الجامعة لها بذلك ، ففرشت أرضها بالرمل الاصفر ، ونصبت في صدر المكان منبر الخطابة وفرشت ارضه بالطنافس العجمية النفيسة ووضعت عليها الارائك والمقاعد الوثيرة ، وصفت من ورائه كراسي الخيزران بعدد ماوزعت من رقاع الدعوة على العلماء وخواص الامة من جميع الطبقات

---

(١) هو محمود افندي كامل نجل الاستاذ محمد علي كامل المحامي المشهور

وما جاءت الساعة المعينة للبدء في الاحتفال إلا وكانت المقاعد كلها قد شغلت بالمدعوين وفي مقدمتهم حضرة صاحب المعالي محمد شكري باشا وزير الزراعة جاء من الاسكندرية لاجل حضور الحفلة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن هيئة الوزارة

وزاد أناس تجددوا فأذن لهم فاضطر كثير منهم إلى الوقوف وراء الصفوف فكان المجموع زهاء الف وثلاثمائة نسمة. وقد بدىء الاحتفال بقراءة بعض الحفظة آيات من القرآن الحكيم. وبعد فراغه ابتدر المنبر الاستاذ الشيخ محمد بخيت رئيس لجنة الاحتفال وتلا خطبته الافتتاحية، وتلاه سائر الخطباء على الترتيب المتقدم اهـ

(المؤلف) المراد بالمتقدم ما ذكر في فاتحة الرسالة المطبوعة وخلاصته أن يليه الاستاذ أحمد لطفي بك السيد بكلمة يقولها باسم الجامعة فالشيخ مصطفى عبد الرازق بخطبة في خلاصة ترجمة الاستاذ الامام فالدكتور منصور فهمي بكلمة يعبر بها عن رأي النابتة العصرية في الامام، وماله في قلوب أحرار الفكر من المقام، وأن ينشد بعده محمد حافظ بك ابراهيم قصيدته، ثم يختم الحفلة صاحب المنار، بما يتسع له الوقت من الكلام. وقد ابقى بقية من الوقت للاستاذ الشيخ علي الزنكلوني

قد كان ما ألقي في هذه اللجنة على غرار ما ألقي في اللجنة الاولى في التنويه بامامة الرجل وعبقريته وإصلاحه، قرر ذلك فضيلة رئيسها بالاجمال وشرحه الآخرون بالتفصيل ولا حاجة إلى نشر خلاصته فانه مطبوع ينال له كل من أراده برمته

ولكنني سآخذ كلمة من خطاب الاستاذ احمد لطفي بك السيد في الشهادات الآتية:

ذلك اني ذكرت في الجزء الثالث من هذا التاريخ الذي نشرت فيه ماقيل في التأبين الاول وفي الرسالة الخاصة بالثاني أقوالا لبعض رجال العصر المشهورين من الامم والملل المختلفة والبلاد المتفرقة في علو قدر الاستاذ الامام بالعلم والعمل والاصلاح، والشهادة له بالامامة وتجديد العصر بما لم يشهد بمثله لاحد من الناس فانا أختم هذا المقصد باعادتها مع زيادة عليها من الجزء الثالث وأبدأ بالاجانب وأختم بالمصريين أيهم أقرب إلى الامام وداً، وأوفى له عهدا

شهادات رجال العصر له

﴿ ما قاله بعض كبراء الانكليز ﴾

(١) شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي

شهد لورد كرومر في تقريره عن مصر والسودان سنة ١٩٠٥ بان الحزب الاسلامي الذي كان زعيمه الشيخ محمد عبده هو الحزب الوسط بين الحزب المحافظ على التقاليد العتيقة الذي يحارب المدنية وينبذها وبين حزب المتفرنجين المارقين من الدين وانه هو الحزب الذى يرجى ان تنهض به البلاد لانه جامع بين الترقي المدني والمحافظة على الدين .

ونقل عنه أنه قال ان هذا الرجل لاذنب له إلا انه أنور أهل بلاده

وقد سئل اللورد عن الشيخ هل كان متساهلا في الاسلام ؟ فقال : بل هو متعصب له أو فيه ولكن بالعقل

وقال له أحد وجهاء المصريين ان كل أعمال جنابكم محصورة في اصلاح الحكومة فنرغب اليكم أن تعملوا اعملا لترقية المسلمين فانهم لن يتعودوا الاعمال الاجتماعية فقال اللورد اعملوا أنتم وعلي أن أساعدكم فمن لايرقي نفسه لايرقيه غيره . قال المصري انه ليس عندنا رجال يهمهم أمر الامة ويقدرون على العمل النافع لها . فقال اللورد بل عندكم رجلان غيوران مقتدران وهما الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدوهما بالمال وهما يعملان للبلاد ماتحتاج اليه من الترقي

(٢) كلمة السرماكولم مكاريث مستشار الحقانية بمصر

نوه جناب المستشار في تقريره القضائي عن تلك السنة بما كان من خدمته الثمينة لوزارة الحقانية ، في كل ما يتعلق بالشريعة الاسلامية ومحاكمها ثم قال :

. وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر ، كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها ، وفوق ذلك فقد

قام لنا بخدم جزيلة لاتقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية ، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ، ويناضل عنها ، ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك، وانه ليصعب تعويض ماخسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه، وميله لكل ضروب الاصلاح، والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوربا ومعاهد العلم ، وكانت النظارة تريد أن تكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع إنشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فانه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته، فلكل هذه الاسباب أخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمنا طويلا تشعر بخسارتها بفقده .اه كلام المستشار

(٣) شهادة الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي

كتب الدكتور ادوارد براون العلامة الانكليزى المدرس في جامعة كمبردج كتاب تعزية لحوده بك قال فيه «مارأيت في الشرق ولا في الغرب مثله» وراجع تتمة كلامه في (ص١٠٣٤)

وكتب إليّ جوابا عن سؤالي إياه أن يرسل لي ما نشر في الصحف الانكليزية عن وفاة الامام قال فيه : فوالله مارأيت في جرائدنا في هذه الواقعة العظمى والمصيبة الكبرى إلا ما أستحي عن نقله الى حضرتك بسبب عدم كفايته وقلة اطلاعه على بطون الامور ، كأنهم زعموا ان هذا الاستاذ الاكبر الذي كان في زماننا مثل الاكسير عديم النظير كأحد السياسيين القشريين الخ

﴿ ما قاله بعض كبراء الترك والفرس ﴾

(٤) شهادة احمد مختار باشا الغازي

قال المشير احمد مختار باشا الغازي علامة الترك الشهير ورب السيف والقلم في إكبار علمه وعقله : إنني أعتقد ان دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف ، وانه

لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغة الرجال العظام الذين عرف الافرنج وزن أدمغتهم . ولما قرأت في الجرائد نبأ وفاته (وكان الغازي يومئذ في أوربة) ضاق علي المكان الذي كنت فيه لان الخسارة به لاعوض لها

(٥) شهادة الدكتور عبدالله جودت الكاتب التركي

أبنه الدكتور عبد الله جودت أحد كتاب الترك المشهورين وأحد مؤسسي جمعية الاجتهاد والترقي في مجلته (اجتهاد) التي كانت تصدر في مصر باللغتين التركية والفرنسية مرتين في العددين التاسع والحادى عشر من السنة الاولى فجعل عنوان الترجمة (الاموات الذين لايموتون) فقال في الاول منهما ماترجمته الحرفية :

كان الشيخ محمد عبده بلا خلاف أحد النابغين الذين لايدخلون في طبقات الرجال ، وانما اللانهاية هي الحد الوحيد الذى ينتهي اليه علمهم

ثم قال كان الشيخ محمد عبده مسلما حقيقيا على قدم النبي ﷺ وقال في العدد الآخر : كان الشيخ محمد عبده مسيحا ثانيا منح للعالم الاسلامي الذي كان دوي سقوطه فيه يصخ مسامع ذوى الوجدان ، ويمزق أحشاء أصحاب الايمان

(٦) شهادة الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني

قال في اول تأبينه من جريدته (تربيت) التي تصدر في طهران ماترجمته :

كل من يسمع نعي المعلم الاول والاستاذ الاجل ، والفقيه الأعلم ، والحكيم والفيلسوف الاسلامي الاعظم ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية المعظم — رضوان الله عليه — ولم يبلغ منه الاسف أقصى درجاته فهو يجهل قدر هذا الرجل الجليل المبرور ومقامه العالي في الشريعة الاسلامية — أو هو ...

﴿ ماقاله بعض علماء تونس وبلاد العرب ﴾

(٧) شهادة الاستاذ العلامة الشهير طاهر بن عاشور

باش مفتي المالكية في تونس لهذا العهد(١)

قال في كتاب التعزية للمؤلف : أقاسمك الأسى والغم على مصيبتنا ومصيبة الاسلام والعلم والحكمة بمفارقة أستاذنا الذي كان علمه نزهة أبصارنا ، وذكره أنس نفوسنا . . . عرفت الاستاذ معرفة شهود بتونس في سنة ١٣٢١ فعرفت من ملاقاته الاولى رجل العزم والارادة والفكر وبلاغة القول وشدة الفراسة وتكافؤ القوى العملية والفكرية .... (ثم قال بعد ذكر المعتاد من ضعف الاسى والاسف بطول العهد على المصائب : « فأما أسفنا على الاستاذ الامام فلا شك انه يجدُّ كما حارت الافهام في المشكلات ، وخارت القوى في مقاومة البدع وجراثيم التأخر

يقابلني تمثال الاستاذ الامام في منزلي مرات وأذكر كلماته وتفاسيره مهما قرأت سورة في صلاتي فكان ذلك يهزني فخراً، ويجدد فيَّ روح النشاط والعزيمة فصرت الآن يزيدني أسفا على أسفي وغماً على غمي ، حتى سئمت الحياة وصغرت في عيني الدنيا بأسرها

(٨) شهادة الاستاذ محمد بن الخوجه التونسي

قال في مقالة نشرها في جريدة الحاضرة التونسية « فكان أبلغ البلغاء إذا كتب، وأفصح الفصحاء إذا خطب،وكان أقوى العلماء والادباء بيانا ، وأجودهم بالحكمة لسانا، وأوسعهم في معاريض الكلام باعاً،وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا، وأبعدهم مرمى، وأسدهم سهما . وكان عظيم الهمة كبير النفس يغالب كرات الزمان بثبات عز عن النظير. ويستصغر الكبائر، ويستسهل المصاعب،ويستهين بكل شيء اعترضه في مسيره. ومما يؤثر عنه في هذا المعنى قوله : انني لاأخشى شيئاسوى الموت لانه يقطع علي السير. وبالجملة فان الشيخ محمد عبده كان رجلا « والرجال قليل »

(١)وقد كتب ترجمة للامام نشرها في بعض الجرائد

(٩) شهادة الاستاذ محمد الجعايبي التونسي

قال في جريدته الصواب « ولولا أن الناس اعتادوا المبالغات في تأبين الاموات لكان تأبيننا للاستاذ الامام، لايشبهه تأبين أحد ممن رمام سهم الحمام، بعد الانبياء عليهم السلام » اه وقد بلغ تأبينه له ست صفحات

(١٠) شهادة العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)

قال في كتاب التعزية لي بعد ذكر بعض اعماله: ولا غرو فقد جرت سنة العناية الالهية، أن تختص من شاءت بالاختصاصات العلمية ، ولقد أتى هذا الفقيد المقدس من الاقوال والاعمال الجليلة ، بما أجمع به القوم انه رجل الدنيا وشمس الفضيلة ، لسان بالحكمة ناطق ، وعزم في احياء الدين صادق ، وثبات في تأييد الحق ، وكمال في صبر على اذاية الخلق ، فهو القائم بوظائف الوراثة النبوية ، والحريص على دينه وأمته حتى في آخر أدواره الحياتية الخ

(١١) شهادة العالم الجليل السيد محمد بن عقيل اشهر السادة العلويين

قال في أول كتاب له في تعزيتي من سنغافورة:

بلغنا نعي مجدد القرن الثالث عشر(١) الاستاذ الحكيم ... ولقد عم الاسف أفئدة جميع المسلمين ومن عرف الفقيد من عقلاء الطوائف الاخرى وإلى الله المشتكى ولقد صدق شيخنا ابن شهاب في قوله

رزئت مصر لا بل الاسلام   وأرتنا اقتدارها الايام

وكتب في رقيم آخر « ثم اني رأيت في بعض الجرائد اقتراحا لبعض محبي مجدد العصر في عمل صورة للاستاذ الامام .... الخ فلم يعجبني ذلك» واقترح كغيره طبع آثاره

(١) كذا كتب والصواب الرابع عشر

﴿ ما قاله بعض علماء سورية ولبنان وأدبائهما ﴾

(١٢) شهادة الاستاذ الحكيم السيد عبدالرحمن الكواكبي

سأل سمو الخديو عباس حلمي العالم الحكيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي : كيف رأيت الشيخ محمد عبده ؟ قال ان افريقية أخرجت كثيراً من العلماء في العلوم والفنون المختلفة دون الفلسفة ، ولكنها أخرجت فيلسوفا واحداً بذّ جميع الفلاسفة وهو ابن خلدون . وكذلك مصر أخرجت من لا يحصى من العلماء ، دون الفلاسفة الحكماء، ثم أخرجت أخيراً حكيما فاق جميع الحكماء . وهو الشيخ محمد عبده. سمعت هذا من فم الكواكبي ونسيت ان أذكره في الجزء الثالث

وكان الكواكبي يعتقد انه أعلم من أستاذه الافغاني وانه هو الذي كبر صيته بالعلم ، وهذا غلط منه

(١٣) شهادة الدكتور يعقوب صروف السلامة المصري

قال الدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف لما أكثر المؤبنون في حفلة الاربعين من وصف الاستاذ بكلمة فقيد الاسلام وفقيد مصر : اننا لا نرضى بأن يكون فقيدكم وحدكم ، بل نقول انه أكبر من ذلك — انه فقيد الشرق كله .وقد بين هذا مفصلا بترجمته في مجلة المقتطف فيراجع في الجزء الثالث من هذا التاريخ

ومنها قوله في أنواع أعماله « وتارة مفسراً قواعد الدين تفسيراً يقبله العقل المستنير ، وتصلح به شؤون الامم ، وينطبق على مصالح الزمان »

ثم قال « وتارة مبيناً بالحجج القاطعة ان الدين لا يمنع الارتقاء والاخذ باسباب العمران ، بل يحث عليها . ومظهراً الشوائب والبدع التي دخلت عليه فأضرت أهله ، وهي ليست منه في شيء بل يتبرأ منها وينهى عنها »

(١٤) شهادة الشيخ ابراهيم اليازجي الاديب اللغوي الشهير

قال في مجلة الضياء « وكان متوقد الفؤاد ثاقب البصيرة قوي الحجة ذرب

اللسان، بليغ العبارة، إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلكأ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ماينشيء المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسوية وهو فوق الاربعين فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها، ولم يرو مثل ذلك إلا عن استاذه السيد جمال الدين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء الخ

(١٥) شهادة الاستاذ جورجي زيدان المؤرخ السوري الشهير

قال في مجلته الهلال بعد نشر مجمل من ترجمته ومناقبه وأعماله: على أن عظمته الحقيقية لاتتوقف على ماتقدم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائية وإنما هي تقوم بمشروعه الاصلاحي الذي لا يتصدى لمثله إلا أفراد لا يقوم منهم في الامة الواحدة مهما طال عمرها إلا بضعة قليلة وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص من هذه العجالة » ثم بسطه وذكر خطته وخطة أستاذه السيد وضرب له المثل بمصلح النصرانية (لوثير) فقال انه أول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته . وأما مصلح الاسلام فكانت السياسة ضده، وإنما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع في الافتاء »

وقال في محاولته إصلاح الازهر انه لم ينجح فيه إلا قليلا «ولكنه وضع الاساس ولا بد من رجوع الامة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون له الفضل في تأسيسها»

(١٦) شهادة نعوم افندي لبكي الكاتب اللبناني الحر

قال في جريدته المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو) عاصمة (البرازيل) ان فجيعة النصارى بالامام « ليس لانه كاتب وليس لانه خطيب وليس لانه لغوي » ثم بين العلة الصحيحة للفجيعة وهي قوله « هو الذي استخدم كل ما وضعت فيه الطبيعة من القدرة في سبيل إصلاح الاسلام ،فهو مصلح الاسلام، ومن أصلح الاسلام فقد أصلح الشرق، فمحمد عبده هو مصلح الشرق . وهذا ما يجعلنا نخشع لموته ونكبر المصاب، لاننا شرقيون وفينا روح وطني »

﴿ بعض ما قاله المصريون ﴾

(١٧) شهادة صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الاكبر

قال رياض باشا وزير مصر الاكبر للشيخ عبد الرحيم الدمرداش وكان ملازما لفراش الفقيد في مرض موته : اننا كلنا شاكرون لك فانك لا تخدم رجلا وانما أنت تخدم الامة في هذا الرجل ـ وقال في موته : خسارة لا تعوض

(١٨) شهادة صاحب السماحة الاستاذ محمد توفيق البكري

لما سمع السيد محمد توفيق البكري نبأ وفاة الاستاذ الامام وهو في أوربة لم يصدق الخبر فلما عاد إلى مصر أخبرنا بانه لم يصدق الخبر إلا بعد عودته إلى مصر وعلل ذلك بانه كان يخال ان الموت لا يتجرأ على الشيخ محمد عبده(١)وقال: لقد ترك الشيخ فراغا لا يسده أحد ، فانه كان كما قال المتنبي * ملء السهل والجبل * ولو ترك مناصب الحكومة وعمل مستقلا لاحدث انقلابا عظيما . وكان هذا رأى كثير من الناس

(١٩) شهادة ابراهيم باشا نجيب

قال ابراهيم باشا نجيب المصرى وكيل نظارة الداخلية: إن الناس لا يعرفون قيمة الشيخ محمد عبده إلا بعد ثمانين سنة — أى بعد انتهاء جيلين في التربية الاجتماعية

(٢٠) شهادة محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

قال في أول مقالة نشرها في جريدة (اجبت) باللغة الفرنسية ما ترجمته لقد خسرت مصر والعالم الاسلامي خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده

---

(١) وقع هذا المعنى لكثيرين في الاقطار المختلفة ومنه ما كتبه الي أحد المعزين من مدينة الجزائر من انه كاد يقع للناس ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب (رض) في موت سيد الانام اذ قال : من قال ان محمداً قد مات ضربت عنقه . قال وان بعض العلماء لا يزال ينكر موته الي وقت ارسال هذا الكتاب

مفتي الديار المصرية ، وسيبكي خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم فانه كان من أكبر رجال الاسلام الذين كانوا يتمنون ارجاعه إلى مجده السابق

(٢١) شهادة الدكتور عبدالعزيز بك نظمي

قال في أول تأبينه له من مجلة الحكمة مانصه :

رزيء العالم الاسلامي في السابع من جمادى الاولى رزءاً لم يذق مرارته مذ طوت الايام حماة الاسلام الاول : رزيء في امام عظيم وعليم حكيم جمع إلى جهاد الخلفاء الاربعة في إقامة الدين والدنيا اجتهاد الأئمة الاربعة في تقويمهما .... رزيء في خير من سعى بعد رسول الله وخلفائه الراشدين في إعلاء كلمة الله وتجديد ماأخلقت الايام من فضائل الاسلام ودفع مفتريات أعدائه عنه ونفي البدع منه ... رزيء فيمن كان للهـدى علماً ، وللعلم مناراً ، وللتشريع حجة ، ولمصالح الامة حافظاً ، ولأيتامها أباً وأي أب ... رزيء في فضيـلة الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه

(٢٢) شهادة حافظ افندى واصف الاديب القبطي المصرى

قال في أول تأبينه من مجلته المحيط « أجمع العقلاء من كل أمة في هـذه الديار ان انتقال هذا الفقيد الـكريم كان أعظم خسارة خسرتها الامة الاسلامية خصوصاً والمصرية عموما في التاريخ الحديث » ثم بين ذلك

(٢٣) شهادة قاسم بك أمين في تأبينه

إذا أصيبت أمة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الادب أو السياسة كانت تعتمد عليه في إصلاح شأن من شؤونها قال قومه: ليس في الوجود انسان لايعوض ووجدوا في الحال بين أهل طائفته او صناعته من يسد الفراغ الذي تركه ويأخذ مكانه أما الحال عندنا فليس كذلك ـ مهما قلبنا النظر ، ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في أمتنا من يعوض علينا ماخسرناه بفقد أستاذنا الشيخ محمد عبده ، لاأقول

ذلك محاباة لصديق كانت محبته من اسباب الشرف والسعادة لشخصي ، ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ، ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء

وإنما هذا هو الحق الذي يجب إعلانه اعترافا لمصري وصل إلى أسمى مقام لا يمكن أن يناله انسان في هذه الحياة ـ مقام لم يستمد وجوده من منصب عال في الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طائلة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس . مقام اهتدى اليه بشعوره ، واكتسبه بجده وعمله ، وحافظ عليه بقوة إرادته وحسن سياسته ، وخدم فيه بعلمه وعمله . مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو الخطة التي رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذي هيأه لها ـ مقام الامامة بأوسع معناها ـ تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على أن يدعي فيه استحقاقا بعده . الخ

(٢٤) شهادة احمد لطفي بك السيد العالم المصري

قال في حفلة تأبينه في الجامعة المصرية سنة ١٣٤٠ في الكلام على مركز مصر العلمي في مسابقة الامم الحية

على هذا الاعتبار يجب علينا أن نتخذ نهضتنا العلمية الحاضرة بشير الرجوع الى مضمار المسابقة العلمية العامة ، وأن نوطد أنفسنا على العمل بجد للاستعداد الى هذه المسابقة . ومن صنوف العدة أن نتبين حقيقة مركزنا العلمي ، وليس مركزنا العلمي شيئا آخر إلا تقدير ما أنتجت بلادنا من النوابغ الذين هم أركان نهضتنا الحاضرة ـ أولئك هم مصابيح الماضي ، تنبعث منها أنوار الهداية الساطعة ، فتكشف للحال طريقه الى الامام في ظلمات الاستقبال ، وأكبر هؤلاء النبغاء هو أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده

(٢٥) شهادة سعد باشا زغلول الزعيم المصري الاكبر

قال لي اذا كان شيخنا قد عجز عن إصلاح الازهر وقد أوتي من العلم وقوة الارادة والعزم مالم نؤت فماذا يمكنني انا ان أفعل في إصلاحه

وكنت نشرت في الجزء الثاني من هـذا التاريخ مقالة عنوانها (الشورى والاستبداد) على انها من مقالات الاستاذ الامام في جريدة الوقائع المصرية فقال لي سعد باشا انها له ليست للامام وان سبب ترك امضائه لهـا ان الامام كان أمر محرري الوقائع وهو منهم بترك امضاءاتهم في ذيل مقالاتهم . وقال « انك اذا تأملت هذه المقالة تجدها دون مقالات الامام التي نشرتها معها في موضوع الشورى عبارة ومعنى وتحقيقا » فحذفتها من الطبعة الثانية لهذا الجزء

ولو أراد سعد ان يكتب كلمة فيما يعلمه من مناقب أستاذه لتدون في التاريخ الكتب ماهو أبلغ من كل مارويناه عن غيره لانه أعلم من غيره بسيرته من أول نشأته الفاضلة ، إلى نهايتها الكاملة ، ومن أقدرهم على بيان مايعلم

(٢٦) شهادة أحمد فتحي زغلول النابغة المصري

كان أحمد فتحي باشا من أعلم الناس بعـد أخيه ومربيه سعد باشا بمناقب الاستاذ ولو كتب في بيان امامته لجاء بما يلي ما كان يكتبه شقيقه سعد، ولا أحفظ عنه كلمة مختصرة أدونها هنا إلا قوله: إنا كنا نسمع كلمة الحكمة من الامام فنظن اننا فهمنا مايريده منها ــ وبعد اختبار السنين نعلم اننا انما كنا فهمنا مدلول اللفظ اللغوي دون مارمى اليه من المقاصد الاجتماعية التي كشفها لنا الزمان اه

أشهد ان أحمد فتحي زغلول كان رجلا كبيراً بمعارفه المصرية وذكائه ولوذعيته وعلو همته، وقدرته الادارية والقضائية — وأشهد ان سعد زغلول كان كبيراً في ذلك أيضا وانه يفضل أخاه في الاخلاق والشمائل والارادة والثبات ــ وأشهد بالله ان محمداً عبده اكبر من كل منهما ، وانهما كانا على معرفتهما بقيمة أنفسهما كانا يعلمان بأنه فوقهما في كل شيء ، ويعترفان به بكل فخر ، وانهما كانا يرجعان اليه في خطوبهما ، ويتحاكمان اليه في تنازعهما ، ويكونان معه كالولد أمام والده ، والتلميذ بين يدي أستاذه وحسبي هذا بديلا من كلمة بليغة من لفظهما أدونهما لهما

خاتمة الكتاب

فيما يجب على الامة لهذا الامام

أنبتت تربة مصر ألوفا كثيرة من العلماء والصلحاء والادباء والقضاة والحكام ، ولكننا لا نعرف في تاريخها ذكراً لرجل جمع من فضائل العلم والعمل والصلاح والاصلاح مثل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مواهبه الفطرية والكسبية وكمالاته الشخصية ، وفي صرف حياته العملية كلها الى اصلاح بلاده ووطنه ، وترقية امته ، وإعلاء شأن ملته ، بدون عمل ما لنفسه وأسرته ، فهو قد خرج من معاهد العلم الى ميدان الجهاد في هذه السبيل — سبيل الله تعالى — الى ان قضى في المعارك نحبه ، ولقي ربه ، شهد له بذلك العلماء الافذاذ على اختلاف علومهم الدينية والدنيوية والمصرية ، واختلاف أوطانهم ومللهم . وترى سيرته الشارحة لهذا مفصلة في هذا الجزء من تاريخه ، وترى الشواهد عليها من كلامه ماثلة في الجزء الثاني له ، والشهادات له فيها متواترة في الجزء الثالث منه —

مثل هذا الرجل العظيم يجب أن يكون مثلا كاملا يقتدى به في علو الهمة ، وقوة الارادة ، وفي العلم الصحيح ، والعمل الصالح المصلح ، وفي الجهاد لإعلاء شأن الامة في دينها ودنياها ، ومدنيتها وحكومتها ، فالامم لا ترقى إلا بامثال هؤلاء الرجال

مثل هذا الرجل الكبير يجب أن تحيي الامة ذكره ، وتنشر حكمته ، وتتخذه حجة لها في رقيها واستحقاقها للوقوف مع الامم الراقية ، التي تُدل وتفاخر بعلمائها النابغين وزعمائها المجاهدين وأئمتها المصلحين . كما قال غير واحد من كبار المفكرين

هذا الامام المجدد المصلح يجب على هذه الامة التي نبت من طينتها ، ونبغ في بيئتها ، فأعلى ذكرها ، ورفع قدرها ، أن تعلي ذكره ، وترفع قدره ، وتربي نابتتها على أصول حكمته في التجديد الديني والمدني ، والاصلاح الملي والوطني ، ويجب على جميع شعوب الملة التي جاهد في سبيل إصلاحها ، أن تساعد شعبه على ما يعمل لاحياء ذكره ، ودوام الاستفادة من علمه ورأيه

ما كان هذا الشعب الكريم بالذي يرضى لنفسه ان يوصف بالكنود للنعم ، ولا بالجحود لفضل المنعم ، ولا كان تلاميذ الاستاذ الامام ومريدوه بالابناء العاقين ، ولا أصدقاؤه ومحبوه بالغافلين او الخاملين : فاما الشعب فلا يجاهد بدون قائد ، وأما اصفياء الامام فقد فكروا في القيام بهذا الواجب عقب المصاب ، وعقدوا له الاجتماع تلو الاجتماع ، وأقروا شيئاً حالت دون تنفيذه الاقدار ، وكان خصمهم أمير البلاد ، ورقيبهم عميد الاحتلال ، ولا زعامة يؤيدها الرأي العام

توفي الامام وكان أكبر كبراء مريديه القادرين على تنظيم هذا العمل غائبين عن مصر ـ أعني سعد باشا زغلول وأحمد فتحي باشا زغلول ـ فلما عادا من سفرهما عقدا في دار الاول اجتماعا حضره من اصدقائه الشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، وحسن باشا عاصم ، ومحمد بك راسم ، وقاسم بك امين ، ومحمد رشيد رضا (الكاتب لهذا) فقرروا أولا أن يشتركوا معي في الرأي ويساعدوني على ما أعلنته من عزمي على تأليف تاريخ له وعلى نشره كما يراه القارىء في مقدمة هذا الكتاب . ثم اجتمعوا وتشاوروا فيما يجب ان يعمل لاحياء ذكره ، فأجمعوا الرأي على إنشاء مدرسة كلية تنسب اليه وتكون التربية والتعليم فيها على رأيه ، وهو ما كان يسعى له بعد تركه للازهر ، ويكون المنفذ لخطته فيها صاحب المنار

وإذ كانوا يعلمون أن سلطة الاحتلال تحسب لهذا العمل منهم كل حساب ، عهدوا إلى أحمد فتحي أن يقابل لورد كرومر ويذكر له هذا القرار ، ويسأله عن رأيه فيه ، لكيلا يكون على ريبة منه ، ويجيئهم بما يسمعه منه في جلسة أخرى عينوا موعدها ، فلما وافوها لميقاتها قال لهم : ان اللورد أظهر الاستحسان لهذا الرأي ، ولكنه قال ان من الحكمة أن يبدأ بهذا العمل صغيراً ثم يصعد فيه على سلم التدريج ، وأن يجرى فيه على خطة مدرسة (عليكده) في الهند التي أسسها المرحوم السيد احمد خان الشهير ، وساعدته عليه الحكومة الانكليزية ، حتى صارت المدرسة كلية ، قال ووعد اللورد بأن يطلب لنا من حكومة الهند نظام هذه المدرسة ومنهاج دروسها ، لنأخذ منه ما نراه موافقا للمدرسة التي نريدها

فهمت اللجنة من فحوى رد اللورد انه لا يرغب فيما ترغب هي فيه من إنشاء

مدرسة كلية راقية على مذهب الاستاذ الامام، الذي اعترف هو بفضله ونبله، ووطنيته الصادقة ، وخدمتــه للمصلحة العامة ، التي قال فيها : (ان الاوربيين ما فضلوا المصريين إلا بكثرة رجالها) ـ وباعتدال حزبه بين الاحزاب الاسلاميـة ، وجمعه بين أسباب الحضارة والمحافظة على أصول الدين الاسلامي . وفهمت منه أيضا انه يبغي أن تكون المدرسة العبدية ، كما يحب هو وترضى دولته اي كالمدرسة الهندية

استاءت اللجنة من هذا الرد ولم يثنها الاستياء عن عزمها ، بل فكرت في جمع المال لانشاء المدرسة بصفة مصغرة كما قال اللورد لانه هو الممكن ، وانتظار مواتاة الزمان لتكبيرها ، ورأت من الشيخ عبدالرحيم الدمرداش الثري أريحية للبذل في التبرع للمشروع ، فقويت العزيمة ، حتى ان اللجنة عهدت إليّ بالبحث عن دار صحية لتستأجرها للمدرسة ، ففعلت

ولكن حدث في اثناء ذلك ان تبرع مصطفى كامل بك الغمراوي بخمسمائة جنيه لمشروع مدرسة جامعة مصرية، وعهد الى سعد بك زغلول بان يتولى الدعوة الى التبرع له والسعي لتنفيذه هو ومن يختار من اصدقائه وغيرهم ، فقبل وألف لجنة لذلك سُمي هو وكيلها، وتركت الرياسة ليختار لها احد الامراء

وتلا هذا ان ولي سعد باشا وزارة المعارف العامة ، فاضطر الى ترك لجنة الجامعة المصرية ، واختير صديقه قاسم بك امين وكيلا للجنة إدارتها مكانه. وكان ذلك بعد سنة من التصدي لانشاء المدرسة باسم الاستاذ الامام ، فلم يبق لهذا المشروع من يشتغل به ، وكاد هذا الرجل العظيم يُنسى هو وأستاذه السيد جمال الدين ، لولا تنويه المنار به في كل جزء من اجزائه، وتنويهه بالسيد أيضا في بعض الاجزاء ونشر بعض آثاره المطوية ، وطبع الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ، وقضى الله تعالى أن أرجيء إتمام الجزء الاول منه المفصل لترجمته، بما يرى القارىء اسبابه في مقدمته،

ولولا انني من أضعف خلق الله تعالى في السعي لجمع المال وان كان المراد به شريفا ونافعاً ، لما تركت السعي لانشاء المدرسة ، وقد كان اقرب الوسائل له في السنين الاخيرة توجه قلب محبه الشيخ عبد الرحيم باشا الدمرداش رحمه الله تعالى إلى البذل للمنافع العامة ، فلو وجد في هذه الحالة احد من كبراء حزب الاستاذ

الامام المدني يزين له إنشاء المدرسة التي كان من اعضاء اللجنة التي قررتها ، ويرغبه في حبس عقار أو أطيان تني بنفقتها ، لفعل

سكت أصحاب النفوذ والجاه من اصدقاء الاستاذ الامام عن القيام بالواجب له عليهم، ولكن الرجل حي لا يموت، ولا ينسى فضله، في امة يعلو فيها قدر العلم والحرية، ويزداد السعي للحياة القومية والوطنية

فهذه مدرسة الجامعة المصرية، التي عارض وجودها وجود المدرسة العبدية الامامية، قد اعادت منذ بضع سنين الاحتفال بذكراه ، فقام بهفيها لجنة مؤلفة من نابغي علماء الازهر وبعض الوجهاء ومدرسي الجامعة ، فحرك عملهم الجرائد لاعادة التنويه بذكره ، وتعطير الآفاق بذكي نشره . وتبرع الشيخ عبدالرحيم باشا الدمرداش في اثناء ذلك بما يؤتي الجامعة غلة سنوية كافية لنفقة إنشاء كرسي لعلم الاخلاق تخليداً لذكرى الاستاذ الامام فيها . وتلا ذلك اقتراح كثير من فضلاء الامة لاحياء ذكره ، فأشار بعضهم بترميم داره في عين شمس وجعلها من معاهد العلم او الاعمال الخيرية العامة ، وبعضهم غير ذلك

ولما اسندت مشيخة الازهر ورياسة المعاهد الدينية إلى صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو من خواص تلاميذ الاستاذ ومريديه في العلم والعقل والاخلاق ، ألف في دار الادارة العامة للمعاهد لجنة خاصة لاجل البحث في امثل الطرق لاحياء ذكره في الازهر وغيره، وجعل أعضاءها من تلاميذه الازهريين وسواهم، ومنهم مؤلف هذا الكتاب، فاجتمعت اللجنة مراراً . وكان من سوء الحظ كما يقال أن استقال هذا الاستاذ من المشيخة ورياسة المعاهد الدينية قبل أن تفرغ من المساعي التمهيدية ، وتقرر مايجب تنفيذه وينظم في سلك الاعمال الرسمية

وأخيراً قرر مجلس مديرية دمنهور إرسال بعثة علمية إلى ألمانية باسم الاستاذ الامام لاجل الاخصاء في علوم فلسفة الاخلاق والتربية والاجتماع ، وجددت ادارة المعاهد الدينية تقرير قراءة رسالة التوحيد درسا في الازهر وملحقاته، وانما كان هذا لكثرة فوائدها ، لا لاحياء ذكر مؤلفها

لكن هذا شيء قليل على الامة المصرية، وقد صارت أمة ذات رأي ووحدة ، وبذل

في سبيل المصلحة العامة، وكان قطب رحى وحدتها، والعامل الاكبر في جمع كلمتها، والزعيم الاكبر لمافيها، هو تلميذه وربيبه الاول سعد باشا زغلول: فمنه تلقى هذه الافكار، ومن زنده استورى هذه النار. إذ ترى في حجره بالدرس والتفكير والقول والعمل. وكان اوفى مريديه وأصدقائه له في زمن محنته، وأشدهم حنينا اليه في مدة غيبته، وأشوقهم إلى اتباعه واللحاق به، وقد نشرنا بعض مكتوباته اليه في منفاه ببيروت وفيها التصريح بهذه المعاني، واننا نثبت هنا صورة شمسية من خطه للكتاب الذي تقدم نشره في صفحة ٢٧٥ فمن لم يستطع قراءته هنا لتصغير كلمه فليقرأه هنالك، وننشر صوراً لمكتوبات أخرى له بخطها الاصلي في أول الكتاب

﴿ كلمات من مكتوبات سعد باشا لاستاذه الامام ﴾

كان الامام كلف سعداً بعض الاعمال ومنها ارسال اثاث من بيته بمصر إلى بيروت، فقام بذلك خير قيام فأثنى عليه بكتاب فقال سعد في جوابه:

« اني وما أعمل من خير مما صنعت أيدي مكارمكم فلا أستحق شكراً ولا حمداً، بل إن كان هناك مايدعو إلى المديح فالحمد راجع اليكم، والشكر عائد عليكم، واني أعد الفخار كل الفخار في خدمة جنابكم العالي، وأجد تنبيهي إلى القيام باي خدمة نعمة سامية من حضرتكم لا أقدر على الوفاء بواجب شكرها، وعلى هذا

فمولاي يرى في اسناد التفضل والتكرم والاحسان إلي زيادة تنازل منه لا أرى نفسي جديرة بها ، وعهدي بالمولى الجليل أن يتحرى بكراماته موقع الاستحقاق

« وأظن أن حضرته يذكر أني في يوم من الايام التي نزلت بها في بيته ذاكرته في هذا المعنى ، ورجوت من مكارمه أن يجعل طلبه أي أمر مني بصيغة الامر لا بلفظ الرجاء ، فاني أرى في الامر الاول فوائد ترتاح نفسي اليها لا أراها في الثاني »

وكتب اليه الامام كتابا يذكر فيه استبشاره بما رآه في جريدة البرهان ، دالا على فوزه ببعض الاعمال ، فاجابه سعد عن هذا بقوله :

« ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم ، فهو التربي في نعمتكم ، المغترف من بحار حكمتكم ، المحفوف بعنايتكم ، المشمول بعين رعايتكم ، البالغ مابلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم ، وكريم تعطفاتكم ، أدامكم الله لكل خير مبدأ »

فاذا كان الزعيم السياسي الاكبر يعد نفسه أثراً من آثاره ، وشعلة من ناره ، وقبسة من أنواره ، وكان يعتقد ان مابلغه وما يبلغه في المستقبل من المراتب فهو أثر تربيته ، وثمر نعمته ، ويمضي كتبه اليه بكلمة ولدكم او صنيعكم ، وإذا كانت الحكومة المصرية قد قررت زهاء مائة الف جنيه لبناء قبره ، ووضع تمثالين للتذكير بشخصه ، أفيكثر منها او يكبر عليها ، او على الوفد الممثل لسياسته ، والعامل باسم زعامته ، ان يقوم بانشاء مدرسة تنسب إلى اسم استاذه ومربيه ، وباعادة تعليمه وتربيته ، ونشر رسائله وكتبه ؟

كلا . انه قد آن للامة وقد صار لها زعماء تنقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصاقع يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الامام التي فصلناها في هذا التاريخ وتقرر مايجب عليها من إحياء ذكره ، والاهتداء بارشاده ، وبناء أساس التربية والتعليم الديني والمدني على أسس قواعده ، وتتعاون أحزابها وحكومتها على تنفيذ ماقررته ، في الوقت القريب المناسب له ، فانها لهي القواعد الحكيمة التي تحفظ لها عقائدها وأخلاقها ، وتكوين بيوتها (عائلاتها) ونماء ثروتها ، وترسخ دعائم استقلالها ، وتجعلها قدوة للبلاد العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي اعترف

عقلاؤها لهذا الاستاذ العليم، وأستاذه الفيلسوف الحكيم، بالزعامة الدنية والسياسية، والامامة الدينية ، والتوفيق بين الجامعتين الملية والوطنية

فلو لم يكن لهذه الامة الفخر على غيرها بظهور هذا الامام المجدد منها، لكانت جديرة بان تتبع تعاليمه الحكيمة لعظم فوائدها ،ولما تعطيها من الزعامة التي لاتنحصر منافعها منها ، وأعيد التذكير بما هي مستهدفة له من خطر الانحلال ، المهدد لما نالته من مبادىء الاستقلال، بانتشار المفاسد المادية، والفوضى الادبية، والانغماس في الشهوات، والاسراف في اللذات، المفني لثروة البلاد ، المضني لصحة الاجساد ، المزهد في الزواج ، المضعف للانتاج

بل أذكرهم بما لا يعزب عن علمهم من اضطراب العالم كله بهذه الفوضى التي ثلت أكثر عروش الممالك ، وأشعلت نار الفتن الداخلية في كثير من الامم، وغاضت ينابيع ثروة غالب الدول ، وأنذرت الروابط الاجتماعية بالانحلال ،وعرى الشعوب الموثقة بالانفصام، وثروة الاقوام الغنية بالزوال، ثم أذكرهم بانه لايثبت في مهب هذه العواصف إلا الراسخون في الايمان ، ولا يصبر على هذه القواصف إلا المتصمون بمتانة الاخلاق، وهو مامهد مسالكه الاستاذ الامام ، وجعل تناوله على طرف الثمام

بل حدث في هذه الاعوام ، بوادر انقلاب عام ، يرقبه الحكماء ، ويشعر به البصراء، وقد فطن له بعض أذكيائنا في سياحته في أوربة، وهو الشعور بشدة الحاجة إلى هداية الدين، وكونه هو العلاج الوحيد لهذه الأدواء الاجتماعية الوبائية من إباحة الاعراض، وفوضى الآداب، وعبادة المادة والشهوات، والتنازع السياسي ، والنظام البلشفي ، التي تنذر الشعوب زوال الحكم الديمقراطي، وانهيار النظام المالي او الرأسمالي. بل تهددها بحرب شر مما قبلها ، كالريح العقيم تدمر كل شيء بأمر ربها. وقد وصف هذا الذكي مارأى وروى عن أوربة من درء هذا الخطر بالدين، وتمنى لو يظهر الدين الواقي للحضارة الحاضرة من مصر، لكن فضلاء العقلاء في مصر يرون ان بلادهم اشد حاجة الى هذا العلاج من أوربة ، فان هذا الوباء يفتك بها وهي أقل مناعة وحصانة ممن سرت اليها العدوى منهم، وانما تفضلهم بأن العلاج موجود فيها وهي في غفلة عنه، بل لا تشعر بالحاجة اليه ، وهو القرآن ، وما بينه من سنة محمد عليه الصلاة والسلام

تنبأ حكيمنا هو وأستاذه منذ نصف قرن بأن شعوب أوربة ستشعر بالحاجة الى الدين المصلح المعقول ، فتطلبه فلا تجده إلا في القرآن فتأخذه بقوة كمادتها ، حتى لا يبعد أن يضطر المنسوبون اليه منا أن يعودوا إلى طلبه منها (راجع ص٩٣٩) فان كانت مصر تريد أن تكون أهلا لانقاذ أوربة من فوضى الاباحة والمادية التي تتردى هي فيها من ورائها ، فانها تجد الوسيلة اليها في تعاليم إمامها ، فلتسبق اليها وتجربها في إنقاذ نفسها

وها هو ذا أكبر رجال الدين فيها عقلا، واسدهم رأيا، وهو الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي ظهر نبوغه في أرقى المناصب الدينية فكان قاضي قضاة السودان فرئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر فشيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية ، فقام بها خير قيام ــ ها هو ذا يفتيها بترسم خطوات الاستاذ الامام وهذا نص ما كتبه في ذلك:

«أعتقد اننا اذا جاوزنا عصر السلف الصالح لأنجد رجلا رزق فهما في هداية القرآن، ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانيــة مثل الامام محمد عبده . ولقد وهبه الله شروط الامامة الدينيه جيمها ، كما منحه البصر في أمور الدنيا ، ومن الحق على المسلمين ان يترسموا خطواته بالاصلاح الديني والدنيوي، اذا أرادوا إعزاز دينهم ، ورفعة أتباعه في دنياهم . »

وانني أختم هذا الـكتاب الذي قضيت به ديناً أدبياً كبيراً كان على مصر بتدوين تاريخ الامامين المجددين اللذين يرجع اليهما فضل نهضتها المعنوية ، كما يرجع إلى محمد علي الكبير فضل نهضتها المادية، باقتراحي عليها قضاء الدين الآخر الذي لاقبل لي به ، وهو العمل بما أرشد اليه الحكيمان بالتربية والتعليم ، وإحياء ذكرهما بتعميم تاريخهما وآثارهما ، وانشاء مدرسة لذلك باسم الاستاذ الامام ، وترميم داره وجعلها من المنافع العامة ، فهذا دين يجب على مصر أداؤه على اختلاف أحزابها ومذاهبها ومشاربها ، لان الامام كان الجميع باتفاق الجميع

احمد الله عز وجل أن أديت الامانة وبلغت الوصية ، ووفيت حق أستاذي وصديقي، ونصحت لامتي ووطني ، وهو كل ما أملك مما فرضه علي ربي للتي (إن أريد إلا الاصلاح مااستطعت وماتوفيقي إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب) وسلام على المرسلين ، وعلى من اصطفى من عباده المصلحين ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ تم الـكتاب في آخر جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ﴾

علاوة

﴿فيها رسوم شمسية لكتب خطية من زعيم مصر الاكبر﴾

سعد باشا زغلول

إلى شيخه ومربيه الاستاذ الامام أيام كان

في بيروت

— ١ —

﴿ رسم شمسي لكتاب من سعد باشا زغلول بمصر إلى شيخه ومربيه الاستاذ الامام في بيروت في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الأفضل ووالدي الأكمل أحسن الله مآبه

[illegible]

انما عتابي الى فرط البيان في هذا الموضوع لتنبيه كيف يكون تدارس المودة بين الافاضل وتبادل النفع بين الكرام الاماثل فما رايتنا من قبل قد بنا الوفاق
كرما بين يدي الخلف ثم بين من لا يعرفونه للحق مشداءً ولا يعتقدونه بكرامة احتفاءً ولقد زادني ميلاً في السر وشغفاً في الجهر ما جاء في وصفها ولكنه الواجد
ذوي النفوس الزكية والهامة العلية وما تسدده من بيانه حقيقة علوان الرحم ساقطي الهمم ساقطي القيم جاهلي مقادير الشيم غير اني عدلت عن داعية
هذا الميل اشفاقاً ان يلام ودي النفس حسرات لديها وتلطف وابعاد الشراف لديها والاهتمام واحمد الله جل جلاله على صنيعه آ وابن التيمم
في اتراجح نحن من متى الله مقصودها عندا للعقل ونوراً للفكر فتعلقها متقلب شاكر وتتبدل بغيرها حامد وقد طال في الوجد اجابة الى التوقيد
الى الاخذ بما يلي والرغبة الى اتباع ما قبلي آخذ من مكارم مع ذلك دوام توالي صنفت بل محلت مما ينبغي المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل
تالفينا صدقه ستجاوزه من مستقراته العالية ولولا التعجيل من بستة بان الاستاذ الكريم ومن وثوقه بي فيما اورد بكتابه الاسف عفا عنا ادرك كما تعلمونه
كثير الاحتياج لهذا النحو ومكتب منه ما يتصدى من مقاصد الكريم ولم تيكم امامي يوم ارتفع حيث الاعتراف بما يليه المعروف الا بما معناه الاسف والاشغال
من عاقبة هذا الاعتراف فلعل ما يبلغ المسامع الشريفة من هذا الحبيب والاخوان لسرقة همتهم وعزمهم من قوة الاسف من مبلغ الصغار فاطلق دم عند حيازة مقام
المتولد فتوجه ذهنهم الى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على ما قرروه ولكم العذر انهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم والمراد

غير حقيقة معناه ولم يألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ولم يعرفوا عادة ذلك؟ يتبع في كيفية تأدية مراده والعبارة في حد ذاتها [illegible] وكيف [illegible] في له ارادة الظاهر
تأويلها الى غير المتبادر لا يدركون فضلا عن الصعوبة على عقولهم [illegible] ازهريا [illegible] امام الشيخ سماع افظع منه مفهوما واشنع تركيبا [illegible] بل [illegible] لا
[illegible] ذلك لا [illegible] طبعه وخراب ذمة وسماحة عقل امى ما اوتيه من كرائم النعم وجميل الاسم الذي لا يزال [illegible] وانت اعظم [illegible] في
وانه المؤرخ [illegible] الشعور عليه يوم وجدت اسمه مكتوبا في [illegible] الشام حتى [illegible] عن [illegible] مقامه في بيت [illegible] ومنزل
[illegible] من التهمة بواسطة المحامين ما بين كل هذا وما قدم [illegible] عليه حتى [illegible] ويتكبر [illegible] اما [illegible] حفاظا [illegible]
[illegible] من [illegible] بواسطة [illegible] لا يمكنه ان يكون المراد [illegible] الى ذلك الا تمام رغبته في المحافظ
[illegible] فهذه العبارة [illegible] على دوام [illegible] اذ لم يدعه الى ذلك الا تمام [illegible]
[illegible] على كونه ذلك الشيخ الفاضل صادقا في [illegible] اما [illegible] الشيخ محمد [illegible] فقد علمت [illegible]
[illegible] الدولة الصادقة على كونه [illegible] على الدوام [illegible] اصدق [illegible] هذه الصورة زادت [illegible] الادلة
على النفوذ التي [illegible] وانهم [illegible] على الدوام [illegible] وقد طالعت هذه الصورة [illegible] باثبات
[illegible] وكان التلطف في [illegible] على [illegible] على شدة اخلاصه
[illegible] حاله صادقا في الاعتراف [illegible] عن [illegible] على شدة [illegible] وعن [illegible]
على شدة ميل صاحب [illegible] الى [illegible] عن [illegible] تمام اخلاص [illegible] وعن [illegible]
العبارة التي [illegible] في الدائرة [illegible] الصادقة [illegible] الكريم وعلى كل حال فنحن [illegible]
[illegible] على ذلك [illegible] وعلى [illegible] الصادقة [illegible]
[illegible]

ان ظنكم فيما ابديتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب وعليه لحظتم السرور بما نال ولدكم من هو التي جمع فيكم المعترف منه بما يحكمتم المعروف
جنابكم المشمول بعين رعايتكم البالغ فيما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم وكريم عطفاتكم . ادامكم الله للكل خيراً مبداً
رفعت تحيتكم الى حضرات من ذكرتم اسمائهم واشرتم اليهم فتقبلوها بالاحترام وهم جميعاً يقبلون يديكم ويسلمون عليكم واخص منهم
بالذكر حضرة منبع الصفا ومصدر الوفا الذاكر لفضائلكم في كل حين والدي حسين افندي وحضرة ولدكم الصادق في محبتكم اخينا اسمعيل
اسماعيل الذي امتن غاية الامتنان مما خصصتموه به في كتابكم الشريف وحضرة اخينا سليمان العبد والسيد امين افندي وكلهم جميعاً في واجب
التحيات واذكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا بمعرفة اسمائهم منها الذين دامت سماتكم فضول الكرامات وقدم لهم واجبات الاحترام ادامهم
الله مثالاً للفضل وعنواناً للكمال . ونسلم على حضرات اخينا الفاضل ابراهيم افندي اللقاني وابراهيم افندي جاد ونخلتم اهلكم الكريم وجميع
من بجنبتكم حفظكم الله اهدانا اللامعية انه اعلم بلطفنا عند حاجة الى سماطه نرجو تفصيل احوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف
اذا حسن لديكم ذلك كنت سابقاً لم اشهر الى الان في المراد وسترسلت من اقتبا ذاكرة ٥ وحضرة صاحب الكتاب توجه من دور
كتابكم الى البلد ولكن لم يحضر الى الان وعند العلم بحضوره اتوجه اليه وارفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت معاليكم افندم
لم يبعد
صنيعكم يشكرون
٨ جبا

(رسم كتاب آخر من سعد باشا زغلول إلى شيخه الاستاذ الامام رحمهما الله تعالى في ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠)

حضرة الاستاذ الافضل والوالد الاكمل احسن الله معاده

وبعد تقديم واجبات الاحترام وتقبيل الايدي الكريمة أبدي انه ورد علي كتابكم الشريف المؤرخ في ١٧ منه فقرأته وحمدت الله على صحة الحضرة التي ارجو دوام اعتدالها وشكرت حسن توجهات الاستاذ الى ما يطهر القلب ويحفظ النفس من آثار ما ينزل من هذه الدنيا في عبيدهم عند الشدائد ويجاريهم على الزهد مادة القضاء ومرجيات الثناء لا زلتم مبدأ لهم والداعين الى تربية الافكار الى وما احلى من خير ما صنعت ايدي مكارمكم من الحمد شكرا ولا حمدا بل ان كان هنالك ما يعلو الى الدرجة فالحمد راجع اليكم والشكر عائد عليكم وان اهمل التي يكل النفس في هذه حضرتكم العالي واحسب تنتهي الى القيام بأداء خدمة تغنيه سابقة من حضرتكم لا اقدر على الوفاء بواجب شكرها وعلى هذا لم ادري من ان في انشاء التعظيم والشكر وارجو ان الى زيارة سنا زلت منه لا ارى نفسي جديرة بل ولا ... بالمولى الكريم ان يجزيه بكرامات مواضع الاستحقاق . واظن حضرته يذكر اني في يوم من الايام التي نزلت بلادي ببعضه ذاكرته في هذا المعنى ووجدت من مكارمه ان يكمل طلبه اي ارض سعيد الامر لا ملتقط الرجا . فاني ارى في الدول فوائد تتابع مثل البلاد وقد اراها في الشأن

وصل كتاب حضرتكم المؤرخ ٧ الى حضرة الوالد الشيخ احمد البتي فبعد يوم وصل الكتاب الذي مع حضرتكم اما الفرنسي الكتب والرسل الى فاستلمته وبعثت بخطاب الشيخ محمد خليل الى مسلمه واجبت عنه وارسلت الجواب من مدة ولم يصلني بعده وصول لحضرتكم ... الاسكندرية بمعرفة حضرة الوالد الكامل حسن افندي وكتب الى حضرته معه هنالك مع رسالة الى بيروت وارجو ان لا يتعذر الاسرع بالارسال

حضرات [illegible] اليوم من ربيع الاول اما مصطفى [illegible] شاه السفرانا وحضرة الشيخ احمد الليثي [illegible] مرة [illegible] اعطيناه ختام
[illegible] منه [illegible] ما [illegible] الاعتناء [illegible] الى [illegible] الله [illegible] واكتب [illegible] عدة
فضيلتلو ابراهيم افندي [illegible] هذا [illegible] فكتبنا كتب ولقد [illegible] مكاتيبه [illegible] ما [illegible]
ثم [illegible] وما [illegible] وما اخرنا [illegible] مصطفى
الى [illegible] محمد افندي الصدر [illegible] كما اخبرني [illegible] ومن هدى
احمد المعارف [illegible] فاذا [illegible] اخبرنا [illegible] ولعل ذلك [illegible]
قريبا حضرة الوالد [illegible] وحضرة [illegible] افندي [illegible] الاحترام [illegible] حضرة اجباب الفاضل الشيخ
عامر واحمد [illegible] ومن [illegible] الرسائل السابقة [illegible] السلام [illegible] حضرة الاخ الفاضل الاديب
ابراهيم افندي [illegible] حضرة [illegible] بمكتب [illegible]
[illegible] الى المتناهي في [illegible] الرد [illegible] الوحدة [illegible] وكذلك [illegible] السلام [illegible] حضرة
المهندس الكامل عارف افندي [illegible] والى حضرة ابراهيم افندي [illegible] حضرة الوالد محمد افندي الصدر
وجميع [illegible] ولكم سعيد
[illegible]

[illegible] حضرة [illegible] افندي [illegible] ابراهيم
[illegible] افندي [illegible]
[illegible]

(رسم كتاب ثالث من سعد باشا إلى الاستاذ الامام رحمهما الله تعالى في ٢٧ ج سنة ١٣٠٠)

١٠٨٠

حضرة الاستاذ الفاضل والمولى الكامل

وبعد تقبيل اليد الكريمة فقد ورد علينا كتابكم المؤرخ ١١ ج والمؤرخ ١٨ ج وسررت غاية السرور بما اشتمل عليه من ما اهداه الصورة التي حفظناها في الصيوف وعلينا بروازها من القوة الحافظة لتكون على الدوام نصب الخاطر ولا بدع فهي مثال الكمال ومرآة الجمال ورامزة الوقار وعنوان الاعتبار . ذكرت انكم تعرضتم لمناهج الاعداء فدعونا الله تعالى ان يحبكم بالفوز العظيم والنصر المبين وما كنا منعنا في تلزيم اعمالكم ورعاية تراقب آمالكم . اطلعت على مقالة السيد في جريدة البصير معنى انك لم تقصد الاعتراض وقد كان لها الوقع الحسن في نفوس العربية على اختلاف طبقاتهم وقد رأينا له مقالة اخرى هذه المرة في تلك الجريدة عنوانها (معيار السعادة ومنافع الوفاق) نسجها على منوال المعهود وبين فيها اسباب سقوط الامم وموجبات ارتفاعها ومن الغريب انه آتى فيها بحثين بعيدين عن منازل الاستحسان عندنا وليته وعد في آخرها بنشر رسالة تتضمن الصلاح ما يوجب رفع الامة بعد سقوطها هذا دخلوا العذر مرة ايام على الفائتين إذا الانكليز الاقدمين ونصومونهم في محل حضوره مع كونهم رأساً صدقة اليهم ولكنهم لا يقبلونه وفي الاحوال ما يزيل اعتقادهم والعيون جيوبهم عبرة ترهقهم قترة واولى عقولهم سباتاً فيه حيرة وصيرهم يولونه من كانوا عنهم يولونه وعرضاً فيهم من الاحوال ما يزيل اعتقادهم فقلل كثرة حالة الناس في هذه العقيدة وسقطت درجة اعتبارها عند من كانوا يعظمون شأنها ويتباهون في الاوقات التي قدم فيها من كان غائبا فقبل كثرت حالة ولو كانت هذه العقيدة ذات عقول احاسيس لما رضيت بالاقامة في مركزها من يكون منهم في صفا مجتلى من المخلصين بوجاهة الكبير منهم بنبوتهم وتربيتهم

— ٨ —

مطلوب عزيز الذهب لا يقدر على من هو قدرها وكان تفوت به لبضع ايام وتلاقفت الناس ابواب كتب وقد وصل الى ادراك الا القليل
وربما لم الوصول اليه واكثر من بيده النظر الى التحفة الى البيت باعتقادها من لا يجب له الناظر حسابا وزادها
مرتبة ومنزلة عند الدولة اطلاعهم على كتاب من الكتب المؤلفة حديثا في عقائد اهل السنة والجماعة باسم النظام كان ظاهره
عبارات وانتباه والطلاق وتعييا اذ كشفت للعقول ان هذه العقيدة نفوذا مبسوطا في مملكة المغرب وان كان لها من الكتب الكثيرة رفيعا والله
حرصكم اطلعت ان نطلع على هذا الكتاب ولاتنا خرون عن تعليقه شرح عليه يكشف نقاب معانيه ويحل رموز مبانيه فلحظتم شغف شديد
بشرح كتب التوحيد وتوضيح مبهماتها وعدوا انه يكون على اسلوب الحاشية التي علقتموها على العقائد العضدية في واعاذ اقرب الطرق
الى حل الرموز وتوضيح المقصود [illegible] وصل لحضرتكم فقد [illegible] افادة رسالة من هذا اسبوع طلبتم ان نوضح لحضرتكم كل ما نتعرف على
ما تطلبونه من المعارف ليكون لكم الرتبة التامة في الطلب واني مع حرج خاطري من هذا التعليل اعتقد ان الكتب لم [illegible] عليها الا [illegible] وترتيب

ـ ١ ـ

وتشا والفرش لداموف ماذا اضف عليه فانه الشيخ احمد الليثي غائب وهو الذي تولى ارساله من عطف مشر الى سكندرية والذي ارسله هو الى بيروت
هو قريبه حضرة الوجيه افندي والي هذه النفقات بالله ارجو من مكارم حضرتكم ان تقفوا فوزنا من هذا البيان وكلما تحتاجونه ارساله مرونا به
ونحن نقوم بارساله ونفقاته نقيدها في دفتر مخصوص وفي اي وقت نحاسبكم على مقتضاه والحمد لله عندنا فلوس كثير ولا نحتاج الى ان ترسلوا لنا
شيء مثل الآن فقد سرنا ان تشتركوا في نعمة الصفا بالولد نجل حضرتكم وذلك بمعونة الله وشاركنا منبع الصفا ومعي الله نجاح المأمول
من علم حضرة الوالد منبع الصفا من قريبه في شأن ارسال مصطفى بالطريقة التي اشرتم اليها فقد صار نقله بعد توجهه الى اسكندرية سيتكلم مع الخواجه
سعد الله حلاوه في ذلك ونعيده حضرة حسن افندي وقد توجه من بوعيه ونسطر حضرتكم هذا ادعيه [illegible] وهنا لكم [illegible] ننظر ما يكون [illegible] حضرة
مكتوب من حضرة الشيخ محمد المرابي يسلم على حضرتكم جميع من تعرفونه [illegible] و حضرة محمد افندي الذلقي والشيخ [illegible] شاه البدري
الزعازيعه و حضرة منبع الصفا والشيخ حسن اخيه والسيدانيه وثابت افندي / ونحن نسلم على حضرة عارف افندي وقد سررنا لما الرد بزيادة
من علمه [illegible] زاده الله صحة فوق صحة وبارك في عافيته وعلى حضرة ابراهيم افندي وما في رأيه الا ما اختارتم لنا وعلى حضرة ابراهيم افندي جاد
وعلى حضرة (استاذنا) محمد افندي الصدر وحضرة حسن افندي يسلم على جميعكم امنوا الله عيونه البلاد
نعبد دمتم حسبا اليه والسلام كاتبه ولدكم [illegible]

٢٧ ج

فهارس

الجزء الأول

من تاريخ

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

﴿الفهرس الاول لمواد الفصول ومافيها من المقدمات والمقاصد والخواتيم﴾

﴿ تصدير الكتاب ﴾

عود إلى تاريخ الاستاذ الامام

الفصل الثالث

(المقصد الاول من الفصل الرابع)

(المقصد الثاني منه)

﴿ المقصد الثالث منه ﴾

﴿ المقصد الرابع منه ﴾

﴿ المقصد الخامس منه ﴾

١٥٧ كتاب الثورة العرابية له

عمله في المطبوعات

خاتمة هذا المقصد

المقصد الثانى

خاتمة هذا المقصد

الفصل السادس

الخديو والازهر

﴿ توجه عزم سموه الى قلب نظام الازهر واخراج الاستاذ الامام منه ﴾

﴿ الازهر الشريف ﴾

علاقة الامام بالامير

استدراك

على هذا التاريخ بوجود مواد لم تنشر فيه ، والوعد بتأليف ذيل له يستوفي ذلك

المقصد الثالث من الفصل السادس

المقصد الخامس من الفصل السادس

فتاوى الاستاذ الامام

المقصد السادس من الفصل السادس

﴿ المقصد السابع من الفصل السادس ﴾

﴿ المقصد الثامن من الفصل السادس ﴾

الفصل السابع

في شؤونه العامة وفيه ثمانية مقاصد

المقصد الثالث من الفصل السابع

٧٩٩ الرد على هانوتو

الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه بالتقريب بين المسلمين وأهل الكتاب

المقصد الرابع منه

المقصد السادس منه

﴿ آراؤه وآماله وأمانيه ﴾

آماله وأمانيه

المقصد السابع من الفصل السابع

(أخلاقه وشمائله)

المقصد الثامن منه

شهادات رجال العصر له

تم الفهرس الاول ويليه الفهرس الثاني

فهرس ثالث للصور والرسوم

الشمسية في الكتاب

(القسم الاول فهرس الصور)

(قسم رسوم المخطوطات)

فهرس ثالث لاسماء الاعلام في الكتاب

﴿ تنبيه ﴾ الصفر عن يسار الرقم للدلالة على تكرر الاسم في الصفحة التالية

ع

فهرس رابع لاسماء البلدان والاماكن

حرف الالف

ب



تنبيهات

(الاول) انا وضعنا الفهرس الاول المفصل لمواد الكتاب بهيئة خاصة من اختلاف أنواع الحروف ووضعها للفصول والمقاصد والمسائل ترشد الناظر اليها بسهولة وسرعة أغنتنا عن وضع فهرس آخر لها مرتب على حروف المعجم

ووضعنا فهرساً ثانياً للصور والرسوم الشمسية على قلتها لتسهل مراجعتها على مريدها وفهرساً ثالثاً لاسماء الاعلام الشخصية لان كثيراً منها قد يحتاج الناظر في التاريخ الى مراجعته فيما هو خاص بأصحابها . ولم نلتزم ذكر ألقابهم في الفهرس ولا في كل مكان في التاريخ ولا مراعاة التاريخ في اللقب فسعد باشا كان يلقب بالشيخ فالافندي فالبك فالباشا فذكرنا اللقب الاخير في كل مكان لقبناه به . وتركنا ألقاب التعظيم الرسمية وغير الرسمية اتباعا لكتب سلفنا إلا قليلا

وفهرساً رابعاً لاسماء البلاد والمواضع لان منها مايحتاج إلى مراجعته ولم نعن بالاستقصاء فيه بل تركنا أكثرها تكراراً فيه وفيما قبله كما بيناه في محله

(الثاني) يجد القارىء في السطر السابع من فهرس الصور والرسوم (في صفحة ١١١٣) ذكر صورة المؤلف سنة ١٣٥٠ ولكنه يجد بجانبها الصورة نفسها قد كتب تحتها سنة ١٣٤٥ وسبب هذا اننا لما طبعنا الصورة الاولى وهي صورة هذه السنة وجدت غير صالحة فوضعنا مكانها الصورة الاخرى وكان ذلك بعد طبع الفهرس

(الثالث) ذكر في السطر ١٣ من صفحة ج من تصدير الكتاب ان الامام أبو محمد ابن حزم كان في القرن السادس والصواب الخامس فانه توفي سنة ٤٥٦ وكان يجب تقديم ذكره على ذكر الغزالي في التجديد وما تذكرت هذا إلا بعد طبع الكراسة فليصحح بالقلم

الاستدراك على الكتاب

كتبت في آخر الكلام على عمل الاستاذ الامام في اصلاح الازهر (صفحة ٦٠١) استدراكا قلت انه بقي لدي من مواد هذا المقصد وغيره (ومن سيرة السيد جمال الدين) شيء كثير أرجأته إلى الجزء الرابع الذي سيكون ذيلا لهذا الكتاب ثم ذكرت بعض هذه المواد المرجأة في مواضع أخرى. وأقول هنا ان منها تقريرا اضافيا بخطه في إصلاح المحاكم الاهلية وضعه بطلب المستشار القضائي، ومنها بعض تقاريره عن مدرسة دار العلوم في إثر توليه لرياسة الامتحان السنوي فيها، ومنها مقاله الذي أملاه باللغة الفرنسية عن مصر وحكومتها في عهده، ومنها مقالات مهمة في المنار وفي جرائد أخرى تتعلق بالازهر وغيره من الموضوعات المهمة كالرد على ما انتقده لورد كرومر على شيخنا في كتابه مصر الحديثة. ومنها مكتوبات بعض العلماء والادباء والكبراء له وقصائد بلغاء الشعراء فيه وفيها كتاب من الشيخ يوسف النبهاني وهو الذي هجاه مع أستاذه وتلميذه نفاقا للخديو ولعلنا نأخذ رسمه بالتصوير الشمسي ومنها موضوع فتوى من أهم المسائل الاجتماعية المالية في هذا العصر وهي حكم شراء سندات الدين الدولي. والذي وجدته عندي في أوراقه منه نص السؤال في هذه المسألة المهمة وهو طويل يتضمن المستندات التي يعتمد عليها في الجواب على الطريقة التي كان يضع عليها علماء دار الفتوى (فتوى خانه) في الاستانة أسئلة الاستفتاء التي يوقع عليها شيخ الاسلام بالفتوى إما بكلمة «أولور» التركية اذا أفتى بالايجاب من صحة وجواز، وإما بكلمة «أولماز» اذا أفتى بالسلب أي عدم الصحة أو الجواز ولكنني لم أجد نص الافتاء في أوراقه على هذا السؤال، وبحثت عن هذه الفتوى في سجلات فتاويه الرسمية فلم أجدها

هذا وان مما تركته عمدا من مواد إصلاح الازهر المنشورة في مجلدات المنار رداً لي على كتاب رسمي للعلامة الشيخ سليم البشرى وآخر على كتاب للعلامة الشربيني (رحمهما الله تعالى) فأما الاول فقد شكاني الى الاستاذ الامام نفسه فرغب إلي في زيارته ومصالحته ففعلت، ثم صحت المودة بيني وبينه بعد الاستاذ الامام فكان محبذاً لعملي في مدرسة الدعوة والارشاد. وقد قال لاحمد شفيق باشا إن السيد محمد رشيد هو لسان الاسلام في هذا العصر. وزار المدرسة مشجعا لها

وسأذكر فيه ان شاء الله أشهر أصدقاء الاستاذ الامام ومريديه وتلاميذه الصادقين ومن كان يثق بهم من علماء الازهر وغيرهم (وان من أقدم أصدقائه الاستاذ الشيخ سليمان العبد) وأختمه بالنتيجة الفلسفية التحليلية للتاريخ كله والله الموفق